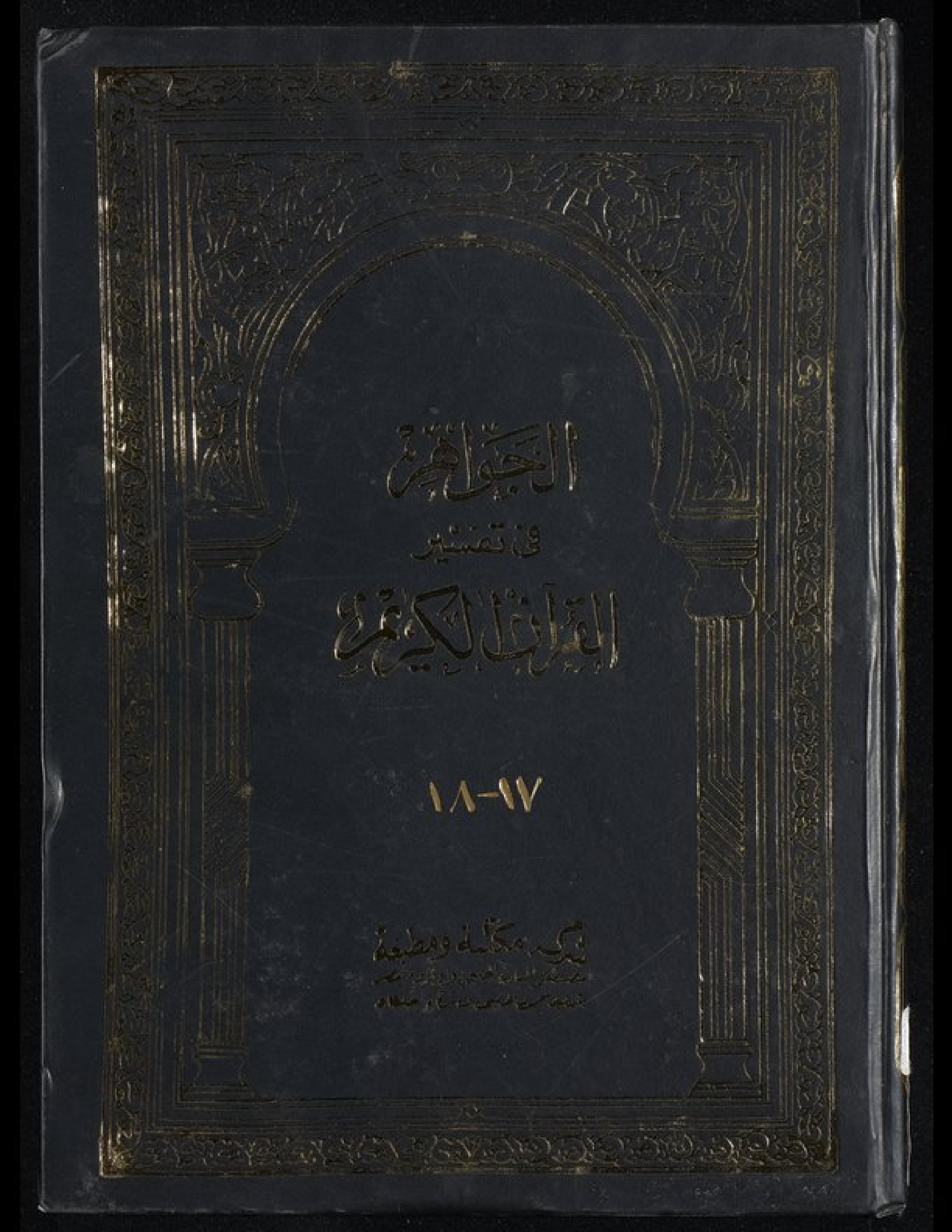

الجواهر
في تفسير
القرآن الكريم
١٧-١٨
مكتبة ومطبعة

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء السابع عشر

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

مباشر محمد أمين عمران

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »
قرآن كريم

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة فاطر

(هى مكية)

(آياتها ٤٥ – نزلت بعد الفرقان)

مقدمة فى مبادىء السور

لقد اتصلت هذه السورة بالسورة التى قبلها فإنه جاء فى آخرها « وحيل بينهم وبين مايشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب » فهؤلاء شاكون فى أمر البعث وقلوبهم محجوبة ونفوسهم محبوسة ، وذلك لأن النفوس الضعيفة التى تنزل إلى هذا العالم ولم تستعد بعد إلى فهم العالم اللطيف والملائكة والأرواح والبعث والحشر ، تكون كل آمالها موجهة إلى عالم المادة فلا تبغى به بديلا .

فجاء ابتداء هذه السورة مبشرا للطيعين بالملائكة الذين هم يبشرونهم عند الموت ويوم القيامة ويحبونهم ويلهمونهم مدة الحياة بالخيرات لأجل استعدادهم .

ابتدأ الله سورة الفاتحة بأن الحمد لله لتربيته لجميع العوالم وفى الأنعام بتفصيل العالم المادى الى ظلام وضياء ولطيف وكثيف وفى الكهف بالتصرف فى العالم العقلى بالديانات وإنزال القرآن لتجعل للقلوب وجهة شريفة كما ازدانت المادة بالأنوار فى سورة الأنعام وفى سورة سبا بأن العالم المادى يتصرف فيه من حيث النتائج الحاصلة فيه إدخالا وإخراجا فى الأرض وتبيانا للتنوع والتفنن فى المادة بالأثمار والأزهار والنعم التى لانهاية لمداها ولا حد لأقصاها وتسخير الأولين لنفع الآخرين كنزا فى الأرض ودفنا فى الثرى وبنيانا فى العصور القديمة ثم ظهورا فى الأجيال المتأخرة . وهكذا عالم السماء فيه التصرف المناسب له . ثم أبانه أيما تبيان فى هذه السورة . فكما كان الإدخال فى الأرض والإخراج منها بعضه من فعل الإنسان الأول للانسان الآخر فى سبأ هكذا فى سورة فاطر يكون صعود الملائكة إلى عالم السماء ونزولهم إلى عالم الأرض نفعا للعباد وتسخيرا لمنفعتهم بالتدبير فى النظام وتبليغ الوحى والإلهام . وكما يختلف السكانون من نوع الإنسان والمؤلفون والمعلمون الأول فى آرائهم وعقولهم وآثارهم يختلف الملائكة فى درجاتهم ومقدار قواتهم ولا يعرف الناس ذلك إلا بمقياس وهو الطائر ذو الجناحين وذو الأربعة وفوق ذلك .

فتبين من ذلك أن الحمد فى الفاتحة على مجمل وفى الأنعام لتفصيل الكثيف واللطيف وفى الكهف لتزيين العقول بالعلوم كما زينت المادة بالعجائب البهجة وفى سبأ بأنواع الجمال الأرضى من نبات وثمر وبما خزن الأولون للآخرين من مال وكمال ، وفى سورة الملائكة بنهاية النهايات ، وزينة الأرض والسموات وهو عالم الملائكة الذى إليه تتجه الأنظار بل هو مرمى أهل الجنة ليتخلصوا من المادة ويصلوا إلى مقام الكمال فكأن العالم المجمل فى الفاتحة فصل بعدها فى الأمور المادية وفى العقلية . وانتهى بأرقى العقلاء وهم الملائكة وليس بعد ذلك من نهاية لنوع الإنسان . ولذلك يقول تعالى فى سورة سبأ « وله الحمد فى الآخرة » ومعلوم أن الحمد لا يكون إلا على النعم ولا تعرف النعم إلا بالعلم وقد ذكر العالم المادى والمعنوى فى المحامد المختلفة كأن الإنسان لا يصل إلى العالم الأعلى عند سدرة المنتهى ويشاهد عالم الملائكة إلا بعد المرور على درجات هذه العوالم دراسة وتفكيرا ثم ينتهى إلى عالم الجمال . انظر هذا الترتيب . انظر كيف أخر هذا المعنى إلى سورة الملائكة . انظر كيف لم يذكره فى سورة الفاتحة ولا فى سورة الأنعام ولا فى الكهف ولا فى سبأ بل ألمع فى سبأ إلى أن الحمد لله فى الآخرة وحده وأظهر المقصود فى سورة فاطر ، وإذا شئت منهجا آخر فى هذا أخصر أقول لك : الحمد فى فواتح السور جاء لمقدمتين وخاتمة المقدمة الأولى : حمد على نعم ظاهرية فى العالم المشاهد فى الفاتحة والأنعام . المقدمة الثانية حمد على نعمة العلم والحكمة فى الكهف وعلى حسن الترتيب فى انتقاله من الأولين إلى الآخرين ومن العلماء للجهلاء فإن بعض ما يلج فى هذه الأرض الإلهامات للعقلاء والوحى للأنبياء وبهما يخرج أنواع الأعمال الصالحات والمنافع العامة التى بها زينة الدنيا فأما النتيجة فهى العوالم المفطورون على الحكمة والعلم إذ هم الذين بهم ينزل العلم والوحى فى الأرض ويخرج الفوائد العامة وهم ينزلون من السماء بالعلوم فيلهمونها الناس ويعرجون بأعمال الناس فالولوج فى الأرض والخروج منها نتائج النزول من السماء والصعود فيها من حيث التأثير ومقدمات من حيث الدرس والتفكير . فالعوالم السفلية نتائج العوالم العلوية من حيث النظام ولكنها لا يتوصل إليها إلا بعد المرور على العوالم السفلية طبقة طبقة فندرس العالم المشاهد كما فى الفاتحة والأنعام ثم العالم المعقول بالتفكير ونترك آثارا لمن بعدنا وحينئذ نستحق الرقى إلى عالم السموات مع الملائكة .

هذا ما حضر لى فى نظام هذه الآيات بالنسبة لما قبلها من المحامد فى أوائل السور . فانظر مناسبتها لما بعدها فى هذه السورة . فانظر كيف يقول سبحانه « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » ثم انظر كيف خص خشية الله بالعلماء الناظرين فى السموات والأرض والألوان والجبال ثم أوضح درجات العاملين ، فمنهم المقتصد والمتوسط والسابق . ولا ريب أن السابقين هم المقربون فى جنات النعيم والقرب إنما يكون بالعلم والعمل جعل الله الذين ورثوا الكتاب (ثلاثة أقسام) وجعل الملائكة ذى أجنحة مثنى وثلاث ورباع . فذكر ثلاث درجات أيضا وأعقب ذلك بأنه يزيد فى الخلق ما يشاء وأنه إذا فتح للناس رحمة فليس يمسكها أحد فالملائكة درجات والذين ورثوا الكتاب درجات والدرجات ليست واقفة عند حد فإن باب الزيادة مفتوح لمن هو أهل من نوع الإنسان : إن ذكر الملائكة فى أول السورة مقدمة لصعود الكلم الطيب ورفع العمل وارتقاء درجات المؤمنين كما تباعث درجات الملائكة . إن عالمنا الذى نعيش فيه عالم دراسة فليدرس الناس فى الدنيا وعلى قدر دراستهم يكون مقامهم بعد الموت ، ألم ينظر الناس كيف كانت الأمم تعلم التلاميذ فى المدارس وإذا أتموا دروسهم وضعوهم فى أعمال تناسب ما كانوا يدرسونه ؟ وما مثل الناظرين فى العوالم المادية والمعنوية المذكورة فى أوائل السور المبدوءة بالحمد وفى الآيات الآتية فى هذه السورة الحثية النظر فى اختلاف الألوان فى الجبال والحيوان والإنسان إلا كمثل التلاميذ الذين يدرسون فى المدارس السياسة ليعرفوا نظام الممالك وسياستها ثم يكونون من رجال السياسة ، هكذا هؤلاء الحكماء والمفكرون إذا ماتوا كانت نفوسهم عاكفة على

ذلك الجمال وعجائب العالم كأنهم ملحقون بالملائكة ينظرون فى التدبير العام الإلهى مفكرين فى فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا الخ . انتهت المقدمة .

﴿ تقسيم السورة ﴾

فلأجعل الكلام على هذه السورة فى (ثلاث مقامات : المقام الأول) فى تفسير البسملة (المقام الثانى) فى تفسير الألفاظ (المقام الثالث) فى تفسير السورة مراعى فيه تقسيمها .

المقام الأول

(فى تفسير البسملة وقوله تعالى « إن ربنا لغفور شكور » وقوله « والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير »)

لقد يبدو للناظر أول وهلة أن هنا تباعدا فيما بين هذه الثلاثة ، وهى البسملة والآيتان بعدها وأنها ليست فى مقام واحد وأنا أشرح المقام شرحا تاما فأبين أولا كيف يكون الله رحيما وغفورا وشكورا وخبيرا وبصيرا مع أن العبد يكون كذلك فهو رحيم رحمن ، وخبير وبصير ، وغفور وشكور ، ثم كيف كان اشتراك الخالق والمخلوق فى الاسم اشتراكا لفظيا اشتبه على الجهال من المبتدعة فى الأمم الإسلامية ، فضلوا باعتقادهم الألوهية فى بعض أناس من الأئمة كما تقدم فى هذا التفسير ، ثم كيف كان الإسلام هو المحصي للحقيقة وحده ومظهرا وحدانية الإله موافقا فى ذلك حقائق الديانات القديمة مخالفا لظواهرها ، وكيف كان هذا الموضوع مما يجب إيضاحه لأنه ألبس على كثير من جهلاء المسلمين وبعض خاصتهم .

لقد تقدم فى أوائل سورة الروم ولقمان والسجدة عند تفسير البسملة تفسير موجز لبعض أسماء الله الحسنى وأن اشتراك الأسماء بين الخالق والمخلوق لم يكن إلا بالاسم . فإن صفات العبد لامناسبة بينها وبين صفات الله والأسماء دالات على صفات فالاشتراك لفظى لاغير وهذا واضح هناك وضوحا تاما ، ولكنى أريد أن أبين هنا أمرا لامناص لى من تبيانه لأن الأمم الإسلامية اليوم يتناقل فيها الناس أقاويل عن الصوفية ملتبسات مهوشات على العقول مثيرات للشكوك وكثير من الصالحين الجهلاء يوجهون وجوههم تلقاء أناس مشهورين يعتقد فيهم كأنهم غياث لهم وملجأ وكأن الربوبية حلت فيهم وانتهت إليهم كما هو مشهور ومذكور فأقول :

روى فى الآثار المنقولة «تخلقوا بأخلاق الله . إن لله كذا وكذا خلقا من تخلق بواحد منها دخل الجنة» ويقول الشيخ أبو على الفارمدى إن شيخه أبا القاسم الكركانى قال : إن الأسماء التسعة والتسعين اسما تصير أوصافا للعبد وهو بعد فى السلوك غير واصل . وقال بعضهم : أنا الحق . وقال أبو يزيد البسطامى إن صح ماروى عنه : سبحانى ماأعظم شأنى . ويشاع على ألسنة الناس أن الأستاذ الأكبر (محي الدين) يقول :

الرب عبد والعبد رب فليت شعرى من المذب

وأمثال هذا كثير ينقل عنه . ولقد اعتقد كثير من الفرق الإسلامية فى بعض الأئمة من آل البيت الألوهية وتقدم فى هذا التفسير أن الصوفية : فى آخر أمرهم مالوا إلى التشيع وتدخلوا مع الإمامية وهناك اعتقدوا اعتقادهم كما قدمته فى هذا التفسير . فهذه مجامع للمصائب التى حلت بهذه الأمم الاسلامية وهى التى أضاعت العقائد وأوجبت التفريق . فأنا الآن أبين الحقائق تبيانا واضحا وأشرحها شرحا وافيا بمعونة الله عز وجل فهو الذى وفقنى وهو الذى شرح صدرى وهو الذى هدانى لهذا وما كنت لأهتدى لولا أن هدانى الله فأقول :

إن كل علم لايبحث عن تاريخه فهو قليل الفائدة يحفظه الناس ولا يدركون سره ولا يسبرون غوره ، ومسألة الله وخلقه والرب والعبد قديمة العهد منذ الخليقة . فهل لك أيها الذكى أن أحدثك عنها حديثا جميلا يشرح صدرك لتعلم أن مادخل على عقول المسلمين حديثا لم يكن رمية من غير رام ، بل إن المسلمين لما خالطوا

الأمم قرءوا علومهم فنقلوا فلسفتهم وعقائدهم وهناك تدخلت بينهم وهم لايشعرون . ألم أقدم لك فى هذا التفسير أن علوم الصابئين دخلت فى أمم الإسلام حتى إن البونى أدخل دعوات الكواكب السبعة فى دين الإسلام ووزع آيات القرآن على تلك الكواكب ، ألم أبين لك سابقا أن بعض فرق الشيعة مثل ابن الصباح القائم فى أواخر القرن الخامس عكفوا على حساب الجمل وحسبوا آيات القرآن به وأدخلوا حساب الأسماء فى التعالم والدعوات ولكن ابن الصباح اتخذ له سبيلا آخر تقدم إيضاحه ومنع الناس من قراءة العلوم وشوقهم إلى الأخذ عن الإمام من آل البيت إلى آخر ماتقدم ، ألم أذكر لك أن الأوفاق من مثلث ومربع ومخمس إلى المتسع كانت تكتب عند قدماء المصريين وبقية الصابئين للتقرب بها للكواكب فنقلها المسلمون إلى دين الإسلام وطبقوها على الآيات ، وهاهى ذه الكتب تباع وتقرأ فى أقطار الاسلام وثلاثة أرباع المسلمين فى ديار الإسلام عاكفون عليها مغرورون بها وهم لايعلمون أن هذه أديان منسوخة جاهلة ودين الاسلام هو الذى نزل لإبطالها .

إذا عرفت هذا سهل عليك أن تفهم ماسأورده لك من علوم قديمة تناقلتها الأمم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ، والأمم الاسلامية أدخلتها فى الدين وأكثر الناس لايعلمون ، فهذا كان هو السبب فى الانتكاس على الرأس وسقوط كثير من الأمم الاسلامية فى هذه الجهالة العمياء ، ومتى عرفت الحقائق فى أمثال هذا التفسير فهناك يكون الارتقاء والسعادة العظمى لأمم الإسلام .

اعلم أنه لم يبق مجال للريب أن لكل دين قديم (وجهين : أحدهما) سرى والآخر ظاهرى كدين البرهمية فى الهند والهرمسية فى مصر والوثنية فى اليونان ، فظواهر كل هذه الديانات إشراك وتثليث وطقوس ورموز صعبة الحل وأصنام وهياكل فهذه الظواهر كلها قد جعلوها للعامة معتقدين أنهم لن يعقلوا إلا المحسوسات فأما الرؤساء فإنهم جميعا كما دل عليه الكشف الحديث الذى كشفه علماء الفرنسيس والانكليز مجمعون فى جميع هذه الديانات على أن الله واحد سرمدى ، يقول (مانو) الفيلسوف الهندى : (الله هو الكائن بنفسه الذى لايمكن أن تصيبه الحواس المادية بل الروح فقط ، وهو المنزه عن أجزاء منظورة أولى سر مدى روح الكائنات الذى لايمكن العقل أن يدركه على ماهو عليه) .

وقال (كولوكا) الهندى وهو من أشهر مفسرى أسفار (الفيدا) والأكثر اعتبارا عند الشعب الهندى « إن الأقدمين مع تألههم لقوى الطبيعة المتعددة لم يكونوا يعتقدون إلا إلها واحدا فقط هو مبدع وعلة الكائنات وهو أزلى غير هيولى حاضر فى كل مكان سعيد (هذه الكلمة لاتجوز فى ديننا) منزه عن كل كدر ووهم وهو الحق بالذات ومنبع كل عدل وحكمة المدبر الكل والمرتب نظام العالم . لا شكل له ولا صورة ولا حد ولا نسبة » .

وكان من عادة (البراهما) عند قبوله التلميذ فى الدرجة الثانية أن يقول له هكذا وتذكر يابنى أنه لايوجد إلا إله واحد فقط رب الكون وعلة الكائنات والواجب على كل برهمى أن يعبده فى الباطن . واعلم أن هذا السر يجب كتمه عن العامة والجهلاء وإن كاشفت به أحدا يحل بك البلاء » .

ويقولون « إن الله وحده هو الموجود الحقيق الثابت الحياة وهو الذى خلق المادة وبث فيها الحياة » . ويسمون هذه الثلاثة الجوهر (الله) والمادة والحياة ومن هذا نشأ التثليث . فليس التثليث عند تلك الأمم أن الله ثلاثة بل معناه أن الموجودات كلها ثلاثة ، واحد هو الله واثنان هما المادة وحياتها ، فالمادة ظاهرة وحياتها لاتكون إلا بنفوس وعقول وهى التى تعبر عنها الشرائع بالملائكة .

هذه هى علوم الأمم السابقة ، فجهالهم كانوا يعتقدون التثليث وقد جاء علم الأرواح الحديث الذى امتلأت

به أوروبا فأفاد أن توهم الجهلاء التثليث هو رأى مادى بشرى لا إلهى ، فالعلوم الروحانية اليوم منطبقة على التعاليم السرية عند الأمم القديمة ومنطبقة تمام الانطباق على دين الإسلام .

وبالجملة فالأمم الهندية والأمم المصرية كان جهالهم يكتفون بقشور الألفاظ والأصنام والهياكل وحكماؤهم يعتقدون أن الله واحد ويحبونه حبا جما ويبحثون فى أسرار الطبيعة ونظامها العجيب غراما بربهم الواحد الأحد ومنفعة لعباده باستخراج كنوز الطبيعة التى يعرف بعضها اليوم نساك الهند فى الغابات .

هذا ملخص ماعرف فى الكشف عن هاتين الأمتين ، فاذا سمعت أن الديانة البرهمية عندهم مؤسسة على التثليث وأن (برهم) عندهم هو الأزلى الواحد الأحد المنزه عن المادة وأن (براهما) و (فيشنو) و (سيفا) صفاته فهو الخالق الحافظ لخلقه المقلب لهم من حال إلى حال وأن هذه الثلاثة إله واحد، فاعلم أن الكشف الحديث أظهر أن هذا التثليث وإن رجع إلى الصفات فليس له وجود البتة فى (سفر الرجفيد) القديم ، فهو اختراع اخترعه البراهمة ثم جعلوا لكل واحد من هؤلاء الثلاثة هيكلا خاصا وعبدوها ثم أكثروا من الأصنام فى بلاد الهند وما جاورها من الصين واليابان لأن عقول الناس إذا أدركت الحقائق لاتنقاد إلى الرؤساء كما أن البهيمة ان لم نضع الغطاء على عينها لانتفع بها فى إدارة الطاحون ولا الساقية .

وإذا سمعت فى كلام طيماوس الحكيم اليونانى كما تقدم فى (سورة الشعراء) تحت عنوان (بهجة العلم والطب) إنه يقول مانصه (إن هذا العالم هو إله محسوس على مثال الإله المعقول) وقدقلنا هناك إن هذه العبارة فى ديننا كفر وهو قصد بها أن العالم آثاره وهو يدل على حكمته وقدرته . انتهى بالمعنى .

فاعلم أن ذلك القول يقرب من أقوال البراهمة ، وقدقلت لك هنا إن الأمم الإسلامية سرت لهم ظواهر العلوم والاعتقادات فطنوا بها تارة واعتقدها الجهلاء تارة أخرى . فمن قال منهم (أنا الحق) ومن قال (سبحانى الخ) فليس معناه أن الله هو نفسه عين عبده فان هذه غير معقولة وليس عند أولياء المسلمين من الأسرار ماينافى العقل فليس من أسرار الولاية أن يقال باجتماع النقيضين ولا بالمحالات العقلية ، فهل يقول الولى إن النفى والاثبات يجتمعان . أو يقول العدم والوجود يكونان معا . كلا . ثم كلا وإذا قال أبو يزيد البسطامى : انسلخت من نفسى كما تنسلخ الحية من جلدها فنظرت فاذا أنا هو . فليس معناه أنه هو نفس الله بل معناه أنه انسلخ من شهوات نفسه وهواها وهمها فلم يبق فيه متسع لغير الله ولم يكن لديهم سوى معرفة الله تعالى . قال : فاذا لم يحل فى القلب إلا جلال الله وجماله حتى صار مستغرقا به يصير كانه هو لا أنه هو تحقيقا . قال الامام الغزالى فى كتاب (المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) مانصه :

وفرق بين قولنا كأنه هو وبين قولنا هو هو . لكن قد يعبر بقولنا هو هو عن قولنا كانه هو كما أن الشاعر تارة يقول كأنى من أهوى وتارة يقول أنا من أهوى وهذه مزلة قدم فان من ليس له قدم راسخة فى المعقولات ربما لم يتميز أحدهما عن الآخر فينظر إلى كمال ذاته وقد تزين بما تلألأ فيه من جلية الحق فيظن أنه هو فيقول أنا الحق وهو غالط غلط النصارى حيث رأوا ذلك فى ذات عيسى فقالوا هو الإله بل غلط من ينظر إلى مرآة قد انطبع صورة ملونة فيها فيظن أن تلك الصورة هى صورة المرآة وأن ذلك اللون لون المرآة وهيهات بل المرآة فى نفسها لالون لها وشأنها قبول صور الألوان على وجه يتخايل إلى الناظرين إلى ظاهر الأمور أن ذلك هى صورة المرآة حتى أن الصبى إذا رأى إنسانا فى المرآة ظن أن الانسان فى المرآة فكذلك القلب خال عن الصور فى نفسه وعن الهيئات وإنما هيئته قبول معانى الهيئات والصور والحقائق فما يحله يكون كالمتحد به لا أنه متحد به تحقيقا ، ومن لايعرف الزجاج والخمر إذا رأى زجاجة فيها خمر لم يدرك تباينهما فتارة يقول لا خمر وتارة يقول لازجاجة كما عبر عنه الشاعر حيث قال :

رق الزجاج ورافت الخمر　　فتشابها فتشا كل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح　　وكأنما قدح ولا خمر

وقال ما ملخصه فى خاتمة ذلك الكتاب : (وتحقيق الأمر فى قول القائل إن معانى أسماء الله تعالى صارت أوصافا للمخلوق لا يخلو من أحد أمرين إما أن تكون نفس أوصاف الله من العلم والقدرة والرحمة والشكر صارت أوصافا للعبد وإما أن تكون أمثالها هى التى صارت أوصافا للعبد لا أعينها ، فإذا قلنا بالأول أى أن صفات الله نفسها صارت للعبد ، فهذا لا يكون إلا بالانتقال أى إنتقال نفس صفات الله من الله للعبد فيكون هذا العبد خالقا للسموات والأرضين وهو أزلى أبدى عليم بكل شىء مرسل الأنبياء الخ وإما أن يكون بغير الانتقال وهذا يكون بأحد أمرين إما بالاتحاد أى اتحاد ذات الله للعبد حتى يكون هو هو فتكون صفاته صفاته وإما بطريق الحلول . فهذه الأقسام الثلاثة تفصيل القسم الأول وهو أن تكون نفس أوصاف الله هى نفس أوصاف العبد . فأما القسم الثانى وهى أن تكون أوصاف العبد مماثلة لأوصاف الرب ، فتلك المماثلة إما مماثلة مطلقة من كل وجه بحيث يكون هذا العبد قادرا على كل شىء مثل الله تعالى ، وإما أن تكون المماثلة عبارة عن الاشتراك من حيث الاسم فى عموم الصفات دون خواص المعانى ، فهذان قسمان آخران فتكون الوجوه خمسة والصحيح منها واحد فقط والباقية باطلة وهو أن يثبت للعبد من هذه الصفات أمور تناسبها على الجملة وتشاركها فى الاسم ولكن لا تماثلها مماثلة تامة فبقيت الأربعة الباطلة .

(١) فإذا قلنا إن صفة العبد تماثل صفة الرب مماثلة تامة بأن يكون محيطا بجميع المعلومات خالقا لجميع المخلوقات لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم كما أن الله عزيز حكيم فإذن يكون العبد خالق نفسه لأنه من جملة ما فى السموات والأرض ، ثم إذا ثبتت هذه الصفات لعبدين فإن كلا منهما يكون قد خلق صاحبه فكل منهما خالق من خلقه وكل ذلك خرافات وجهالات وترهات .

(٢) وإذا قلنا إن الصفات العالية انتقلت من الله للعبد فذلك محال عقلا لأن انتقال الصفات على وجه العموم مستحيل وهل تفارق الصفة موصوفها كأن ينتقل بياض زيد إلى عمرو وعلم خالد إلى إبراهيم ؟ وهل تقوم الصفة إلا بموصوفها ولو أن صفات الربوبية انتقلت من الرب إلى العبد لصار الرب إذ ذاك ليس ربا لأن صفات الربوبية قد فارقته ، فإذا هو رب وليس برب فى آن واحد وهو محال .

(٣) وإذا قلنا إن العبد اتحد مع الرب فمعناه أن العبد هو نفس الرب بل إن قولك إن زيدا صار هو نفس عمرو محال واتحاد شىء بشىء محال لأنهما إما موجودان أو معدومان أو أحدهما موجود والآخر معدوم أو بالعكس ولا خامس لهذه الأقسام فإذا كانا موجودين فمستحيل أن يكون أحدهما عين الآخر بل كل منهما موجود وقد يتحد مكان الموجودين وهل اتحاد مكان إثنين يوجب اتحاد الذاتين . كلا . بل كل منهما موجود فإن العلم والإرادة والقدرة قد تجتمع فى ذات واحدة ولا يتباين محالها ولا تكون القدرة هى العلم ولا الإرادة ولا يكون قد اتحد أحدهما بالآخر وتكون التفاحة ناعمة ذات رائحة جميلة وهى حمراء .

فهذه صفات ثلاث اختلفت وإن اتحد محلها ، فاتحاد المحل لا يوجب اتحاد ما يحل فيه فإذن الأمور الموجودة يستحيل أن يكون أحد هو هو عين الآخر وإن كان أحدهما موجودا والآخر معدوما فلا اتحاد لموجود بمعدوم والاتحاد بين شيئين مطلقا محال فهل يصير هذا البياض أو السواد ذلك البياض أو السواد مثلا كما يستحيل أن يقال ذلك السواد هو ذلك البياض فالشيئان من نوع واحد لا يتحدان كما لا يتحد الشيئان من نوعين مختلفين

(٤) وأما الحلول وهو الرابع من الأقسام الأربعة الباطلة فهو أن يقال الرب حل فى العبد أو العبد حل فى الرب تعالى الله عما يقول الجاهلون علوا كبيرا ، ولو صح هذا لم يوجب الاتحاد ولا أن يتصف العبد بصفات

الرب فإن صفات الحال لا تصير صفات المحل بل تبقى صفة الحال كما كان .

واعلم أنه لامعنى للحلول إلا بأحد أمرين : إما النسبة بين الأجسام وأمكنتها كالنسبة بين زيد ومكانه الجالس هو فيه وذلك لايكون إلا بين جسمين ومن لاجسم له لايكون له حلول بهذا المعنى ، وأما بالنسبة بين العرض والجوهر فالعرض لاقوام له إلا بالجوهر كالبياض والسواد بالنسبة للموصوف فيعبر عنه بأنه حال فيه ولاجرم أن الله لاقوام له إلا بنفسه ، ولاجرم أن كل ماقوامه بنفسه لايمكن أن يحل فيما قوامه بنفسه حلول العرض فى الجوهر ، فإذا كان العبدان لايحل أحدهما فى الآخر فكيف يعقل الحلول بين العبد والرب تعالى ، إذن بطل الحلول . وانتقال الصفات والاتحاد والاتصاف بأمثال صفات الله على التحقيق ولم يبق إلا المشاركة فى الاسم فقط فالله رحيم وشكور الخ على الحقيقة والعبد كذلك ولكن على معنى الاشتراك فى الاسم ثم إن معنى قولهم (إن العبد مع الإتصاف بجميع ذلك سالك لا واصل) فبيانه أن السلوك تهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف والوصول هو أن ينكشف له جلية الحق ويكون مستغرقا به وينسلخ من نفسه بالكلية ويتجرد له فيكون كأنه هو ، والولاية يستحيل أن تخالف طور العقل . وإذا كوشف الولى بأن فلانا يموت غدا فهذا من الممكنات . ولكن إذا كوشف بأن الله يخلق المستحيل فذلك غير ممكن . ومن المستحيل أن يكاشف بأنه هو صار نفس الله وصفاته كصفاته من كل وجه إنتهى ماأردته من الكتاب المذكور للامام الغزالى رحمه الله تعالى مع حذف وإيضاح تارة واختصار أخرى .

واعلم أيدك الله أنى أطلت الكلام فى هذا المقام لأنى أعلم أن الأمة الإسلامية قد دخلت فيها آراء غريبة فلكم سمعت من أناس يقولون إن شيوخنا هم نفس الإله واذكر منهم رجلا كان معى ببلدة الجيزة يسمى عبد الشافى وله أستاذ كان موظفا بمحافظة مصر . فهذا كان يقول إن الله هو نفس أستاذى فأما نفس الله فلا يعقل أن يكون موجودا إلا على هذه الشريطة . وهكذا نسمع من وقت لآخر أن صوفيا يقول : (إن شيخى يتصرف فى أحوال الناس بل هو الله) ونسمع أمم النصارى يقولون : (إن عيسى هو الله أو ابن الله والأمم المصريون والبوذيون الذين ذكرتهم آنفا كانوا هم أول ناشرين لهذه الآراء عند عامتهم وهى مضطربة فانحطت مداركهم ثم تحولت محورة إلى بلاد الإسلام فاستبدل الجهال من المسلمين جهلاء الشيوخ بالأصنام واستغنوا بالصالحين من بنى آدم عن الكواكب وأصنامها وعن الملائكة وكل هذه لاتنزع من الصدور إلا بالعلم والحكمة وأمثال ماسطرناه فى هذا المقام .

هذا واعلم أيها الذكى أيدك الله أن الله عز وجل رتب العالم العقلى كما رتب العالم الحسى وجعل الحسى كأنه نموذج للعقلى (باسبحان الله وياسعداه . اللهم إنى أحمدك على العلم وعلى الحكمة وعلى التوفيق وأعلن للملأ موقنا أن من اتجه إليك وهو مخلص فإنك تعلمه والعلم هو غاية السعادة فى الدارين (هانحن أولاء نرى الإنسان وأنواع الحيوان درجات بعضها فوق بعض أفليس الطير والذين يركبون الطيارات قد تمتعوا بالهواء الجميل عند طيرانهم ؟ أفليس فى الأرض حشرات دنيئات لاتعيش إلا فى التراب ؟ وهكذا أمثال الحيات والعقارب والفيران فهذه مسجونات حقيرات ولكنها من صنعك كل هؤلاء وهؤلاء يمدهم الله بالعطاء والنعمة ولكن فرق مابين درجة الإنسان والطير فى الجو وبين درجة الفيران والصراصير فى خفيات الأرض . هذا من جهة الأحوال الجسمية . أما من جهة الأحوال العقلية فإننا إذاوازنا بين الإنسان والبهائم نجد فرقا شاسعا فله عقل ولها شىء سموه غريزة . فكما رأينا البون شاسعا بين مراتب الحيوان فهكذا كان البون شاسعا بين معتقدات طوائف الناس . فمنهم من يرى إلهه حجرا ومدرا ، ومنهم من يرتقى فيراه شمسا وكوكبا . ومنهم من يراه فوق المادة ومنهم من لايرى إلها وإنما يرى نفسه فقط وهو الملحد (والعياذ بالله) فكما تباين الحيوان

فى أحواله الجسمية والفكرية اختلف الإنسان وتبين فى معتقداته والبون هناك كالبون هنا شاسع فى الحالين .

نوع الله الحيوان ونوع المعتقدات وهكذا نراه نوع أنواع النبات ولكل فائدة كالدواء ، وكالغذاء ، وكالفاكهة وكالسم ، إن أرضنا والله معرض للصور أوهى صور متحركة (السينماتوغرفيا) عالم يشرح صدر الحكيم إذ يراه أمامه صور متحركة والجاهل جامد القريحة ، وبينما الحكيم المفكر يفرح بسعة الحكمة فى نظام المادة إذ يرى من جهة أخرى أنه عالم متأخر فكأن أرضنا جعلت محل تربية لأرواح ضعيفة تباينت أقدارها الناقصة وأحوالها الطبيعية واستعداداتها خشرت فى هذه الأرض وربيت على مقتضى درجاتها وستبعث على هذه الدرجات وأمرهم والله عجب . قوم تراهم يسجدون للصنم فعقولهم لم تعرف صفات الله ولكنهم فى الوقت نفسه عرفوا نظام الدنيا وآخرون أتيح لهم تنزيه الإله ولكنهم لايزالون ضيق الإدراك فى صنعه وإبداعه فهذه الأمم جمعاء أبناء التقاليد صرعى الأوهام والأوهام التى هى سبب ضعفهم قدماء أوان لخذلانها بنشر العلوم العقلية فى الأمم كلها فى العالم العقلى . فكما أتيح للأطباء فى العالم كله اليوم أن يقتلوا المخلوقات الذرية القاتلات للإنسان والحيوان والأرض قد كثر فيها التطهير بالمواد لقتل الكروبات فعاش وتكاثر الحيوان والإنسان فهكذا نرى الآراء العقلية تنشر والخرافات تضمحل بنسب مطردات فى عوالمنا الأرضية . وكما أن الحشرات والمكروبات لم يبدها نوع الإنسان وإن سطا عليها بالعقاقير وقللها هكذا أضاليل الإنسان وإن سطا عليها العلم فقللها لاتزال باقية فى الأرض ، فإذا رأينا بعض علماء الأمريكان والإنجليز وغيرهم يرون الإسلام دينا صحيحا وأكثر المستشرقين كذلك ويدخلون فيه ويعلنون وينشرون مبادئهم وأكثر أبناء الإنجليز يودون لو يسلمون ولكن يخافون من ذويهم كما أخبرنا بذلك (اللورد هيدلى) فإن أكثر القوم غافلون وهكذا إذا رأينا أمم الإسلام أولئك الذين صفت عقائدهم ونسوا الأصنام والمعبودات الباطلة فإنه لاتزال كثير منهم لايعلم أن النظر فى مصنوعات الله من الفلك والطبيعة والحيوان والنبات مقربات لله موجبة لحبه والغرام بجماله والهيام بلقائه وإن عرف كثير منهم ذلك . فهذا النوع الإنسانى هذه شنشنته ، ملكه التقليد ولكنه كالدنيا التى عاش فيها فهم كالثوب الخلق كلارقع يوما فانخرق . حظ الحكيم من هذه المناظر أن يفرح بجمال الحكمة ونظام الدنيا ويرى أن الله حكيم فى صنعه إذ جمع فى أرضنا بين أرقى عالم وهى النفوس المشرقات الفرحات بنظام ربها المتعطشة للقائه الباحثات عن رحماته وبين النفوس الناقمة اللاتى كأنها حجرية لاتعى مايراد بها ؟ فالحكيم فى الأرض فى جنة وهو الشاهد وأهل الأرض مشهودون وهو السعيد بما يشاهد وهو من أصحاب الأعراف الذين يعرفون كلا بسيماهم فإذا رأى عقلا قاصرا ألحقه بحيوان دنىء . وإذا وجد عقلا كبيرا ألحقه بالملك وهناك يدرك أن هذه الدنيا هى جنته وأنها ماهى إلا معرض ومجتلى أو سوق الصور العقلية والحسية يلبس كل مخلوق صورته التى عشقها أوهى معمل تصنع فيه أدوات مختلفات تقوم بالطرق تارة والصقل أخرى وهذا يرمز له سورة الضحى ، فاليتم والضلال والفقر رمز للرزايا والنكبات فى هذا العالم الأرضى وهذه الرزايا جعلت مقومات لامعذبات لأن الرحيم الحكيم يضع الأمور مواضعها فيجعل المصائب مقومات كما تقوم الآلات بطرقها فإذا قومت فقد حان صقلها وهذا هو المرموز له بالإيواء والهداية والغنى وشرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر ، فالمصائب ثلاثة والنعم ضعفها وهذه النعم للإنسان العام مقابلات للصقل فى الآلات .

إن الدنيا دار كبيرة فيها وليمة عظيمة قد أعدها ملك لرعيته ورتبهم درجات فى إعداد الطعام ورتبهم ونظمهم فهم يأكلون وكل بأصحابه مقرون و « كل حزب بما لديهم فرحون » وبعد انقضاء هذه الوليمة يرجع كل منهم إلى داره التى خرج منها . وهذا هو تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » فرحمته شاملة تعطى كلا مايليق له . انتهى الكلام على (المقام الأول) فى تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأحد (١٦) فبراير سنة ١٩٣٠ م .

المقام الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير * ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم * يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون * وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور * يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور * إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير * الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير * أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون * والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور * من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور * والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير * وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم

تشكرون * يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر
كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه
ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا
لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير * يا أيها الناس
أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد *
وما ذلك على الله بعزيز * ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل
منه شىء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة
ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير * وما يستوى الأعمى والبصير *
ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوى الأحياء ولا الأموات
إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور * إن أنت إلا نذير * إنا
أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا * وإن من أمة إلا خلا فيها نذير * وإن يكذبوك
فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير *
ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير * ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء
فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب
سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء
إن الله عزيز غفور * إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا
وعلانية يرجون تجارة لن تبور * ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور
شكور * والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله
بعباده لخبير بصير * ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه
ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير * جنات عدن
يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير * وقالوا
الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذى أحلنا دار المقامة

مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ
لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ
يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ
مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * إِنَّ اللَّهَ
عَالِمُ غَيْبِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ
فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا
وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا * قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا
فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ
السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا
غَفُورًا * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى
الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا
يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ
تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمٰوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا * وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ
ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِعِبَادِهِ بَصِيرًا .

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله فاطر السموات والأرض) خالقهما ومبتدعهما على غير مثال سبق (جاعل الملائكة رسلا) إلى الأنبياء (أولى أجنحة) ذوى أجنحة . وليس معنى الأجنحة فى العالم المادى إلا مايقدر به على الطيران . فأما فى عالم الأرواح فهو ماتمتاز به الملائكة من القوى والقدر الروحانية التى لانسبة بينها وبين القوى المادية (مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق مايشاء) يزيد فى خلق الأجنحة مايشاء كما يزيد فى أرجل الحيوان مايشاء

حتى بلغت فوق العشرين . هكذا فى عقول الآدميين ورقيهم النفسى . ويروى «أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح» (إن الله على كل شىء قدير) فيزيد كل ما هو أهل للزيادة مادية أو معنوية كعقول الآدميين (ما يفتح الله للناس) ما يطلق لهم (من رحمة) مطر ورزق وعافية (فلا ممسك لها وما يمسك) وما يمنع (فلا مرسل له من بعده) من بعد إمساكه (وهو العزيز الحكيم) فيما أرسل (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم) احفظوها واعرفوا حقها (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) فمن أى وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك ! (وإن يكذبوك) فتأس واصبر (فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور) فيجازيك وإياهم (يا أيها الناس إن وعد الله) بالحشر والجزاء (حق) لا خلف فيه (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) فيذهلكم نعيمها (ولا يغرنكم بالله الغرور) الشيطان (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) فى عقائدكم وأفعالكم وقوله (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا أى أفمن زين له سوء عمله بأن غلب هواه على عقله حتى انتكس رأيه فرأى الباطل حقا والقبيح حسنا) كمن لم يزين له بل وفق حتى عرف الحقائق فاستحسانه واستقباحه على مقتضى الحق وذلك قدر مقدور (فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) على مقتضى الاستعداد (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) أى فلا تهلك نفسك عليهم للحسرات على غيهم . وقوله (فتثير سحابا) على حكاية استحضار لتلك الصورة العجيبة الدالة على كمال الحكمة (فسقناه إلى بلد ميت) أى نسوقه (كذلك النشور) أى مثل إحياء الموات نشور الأموات (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) أى من كان يريد العزة فليتعزز بطاعته بخلاف الكفار عباد الأصنام (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) أى أن الله يقبل الكلم الطيب وهو التوحيد والذكر والدعاء وقراءة القرآن . ومن الذكر « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » وكذلك يرفع الله العمل الصالح ، فإذا صعد الكلم الطيب بنفسه إلى الله فالعمل الصالح يرفعه الله والمراد بصلاحه الإخلاص فيه فما لا إخلاص فيه لا يقبل وذلك كأداء الفرائض . واعلم أن هذا المعنى به يعرف المسلمون أن العلوم والمعارف والتحقق من نظام هذه العوالم لا يخرج عن كونها من الكلم الطيب . إن هذه المعارف من حيث نظمها وترقيتها الفكر الإنسانى من جملة الكلم الطيب بل قولنا «لا إله إلا الله » وما عطف عليه لا سبيل إلى صعودها إلى الله إلا إذا صعدت النفس فى المعارف. فالتسبيح والتحميد والتوحيد درجات للسالكين فى العلم ، فالتسبيح درجة والتوحيد أعلى والتحميد أعلى وذلك العلو ليس يكون إلا بالعلوم . فإذا رأيت فى بعض الأحاديث أن سبحان الله ثوابها عشر درجات ولا إله إلا الله عشرون درجة والحمد لله ثلاثون درجة فليس ذلك لمجرد نطق اللسان بل العلم والمعرفة فإذا أيقن بذات مبرأة من المادة فهو أول الإيمان . ثم إذا عرف أن العالم كجسم واحد يدبره مدبر واحد كان ذلك أرقى . ثم إذا عرف أن جميع من فى هذا الوجود منه وإليه وأصبح ذلك ملكة راسخة فى النفس بتكرر البرهان والنظر . فهنالك تكون الدنيا والآخرة عند الإنسان نظاما جميلا ويعرف مالا يعرفه كثير من العلماء والعامة وإذ ذاك يتمتع بالسعادة العقلية ، ومتى خلص من الدنيا كان ذلك أوفر سعادة له هذا هو المقصود من التسبيح والذكر . وهذا معنى صعود الكلم الطيب لله فالصعود هنا لن يكون إلا بصعود النفوس من الجهالة إلى العلم ومن العمى إلى الهدى .

بهذا فلنفهم كلام الله سبحانه وتعالى ، فأما الذكر المجرد من العلم فذلك درجة العباد والصالحين وهؤلاء أواخر المراتب فى دين الإسلام . ألم تر إلى قوله تعالى «أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » فهؤلاء الذين ذكرتهم لك الآن هم الصديقون ، فأما الصالحون فهؤلاء يكون كل مقصودهم وهمهم العمل بهذا تفهم السر فى قوله تعالى أن الكلم الطيب يصعد بنفسه والعمل يرفعه الله

إشارة إلى أن الكلم الطيب أفضل من العمل الصالح . وبعبارة أخرى العلم والحكمة أفضل من الأعمال والحمد لله على التوفيق .

ثم قال تعالى (والذين يمكرون السيئات) أى المكرات السيئات كقريش فى دار الندوة إذ تشاوروا فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم من حيث الحبس والقتل والإجلاء (لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور) يفسد ولا ينفذ لأن الله مقدر الأمور والله سبحانه يحفظ الصلحين من الأنبياء وتابعيهم (والله خلقكم من تراب) إذ خلق آدم منه ، وأيضا الأغذية التى تتحول إلى الأجسام كلها من التراب والأغذية تصير دما ومن الدم النطفة ولذلك قال (ثم من نطفة) نطفة الآباء (ثم جعلكم أزواجا) ذكرانا وإناثا بقدر معلوم بحيث يكاد الفريقان يستويان عددا فلو لم يكن كذلك لفنى نوع الإنسان وهكذا كل حيوان ، فحفظ النوع لا يتم إلا بتلك المساواة ولا تكون المساواة إلا بتدبير وعلم وهذا معنى قوله (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) أى إلا معلومة له ولو لم يكن كذلك وكانت المصادفة العمياء هى القائمة فى هذه العوالم لم يتزن العدد فى الزوجين ولم يحفظ التوازن فى الإنسان والحيوان وهؤلاء الذكور والإناث يعيشون على الأرض أياما محدودة ، ولو أن الأعمار طالت مئات السنين وتناسلت الذرية وكثرت لكان على القدم ألف قدم ولكانت الحياة الدنيا نارا وجحيما إذ يكثر الناس وتقل الخيرات فلذلك تفاوتت الأعمار فى جميع الأعصار وكانت بمقدار بحيث لا تطول فوق ما تقتضيه الحكمة فاعتدل النظام بالمرض والموت والوباء والحرب . هذا هو نظام الأرض العجيب وهو قوله تعالى (وما يعمر من معمر) أى وما يمد فى عمر من مصيره إلى الكبر (ولا ينقص من عمره) من عمر المعمر أى لا يجعل ناقصا (إلا فى كتاب) وهو اللوح المحفوظ . ذلك لحفظ الموازين فى الأرض حتى ينتظم العمران فلو لم يكن ذلك بمقادير لاختلط الحابل بالنابل وساء مصير العمران إذ يكثر الناس وتزدحم الأرض ويشتد الكرب وليس ذلك عسيرا على الله (إن ذلك على الله يسير) هين بغير كتابة (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) الفرات الذى يكسر العطش والسائغ الذى يسهل انحداره والأجاج الذى يحرق بملوحته ، وفى قراءة « سيغ » بالتشديد والتخفيف ، ذلك ضرب مثل للمؤمن والكافر (ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها) هذا استطراد لصفة البحرين ، يقول الله تعالى هما وإن خرج من كل منهما السمك واستخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح فليسا متساويين فيما هو المقصود الأصلى فأحدهما قد دخل فيه ما أفسده وهو الملح فغيره عن المقصود منه وهو سقى الأنعام والنبات فإذن الكافر كالملح والمؤمن كالعذب بل البحر الملح أفضل من الكافر إذ يستخرج منه الدر والمرجان والكافر لا فضل له.

واعلم أن هذا القول منطبق على ما نشاهد فى الناس ، فهم شركاء فى المعروف الظاهر ولكن العقول متفاوتة تفاوتا كثيرا حتى إن التلميذين من مدرسة واحدة وأب وأم يختلفان أخلاقا اختلافا كثيرا وقد يكون أحدهما أغزر علما والآخر بليد الطبع وهذا مؤمن وهذا كافر (وترى الفلك فيه مواخر) أى تشق الماء بجريها لتبتغوا من فضله أى من فضل الله بالنقلة فيها والتجارة والمجرور متعلق بمواخر (ولعلكم تشكرون) الله على ما آتاكم من فضله . ولما كان بين الفلك فى البحر والشمس والقمر فى مدارهما مناسبة باعتبار أن كلا منهما ومن جميع الكواكب سابحات فى تلك المدارات ، سابحات فى تلك العوالم الشاسعات ، أردفه بذكر الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر إذ قال (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى يدخل الليل فى النهار فيكون النهار أطول من الليل ساعة فأكثر إلى عشر إلى غير ذلك ، ويدخل النهار فى الليل فيكون الليل أطول من النهار كما تقدم انظر هنا فى (سورة البقرة) وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) لمنتهى دوره أو منتهاه أو يوم القيامة (ذلكم الله ربكم له الملك) أى الفاعل لذلك الله الخ (والذين

تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) وهى لفافة النواة وهى القشرة الرقيقة التى تكون على النواة (إن تدعوهم) أى الأصنام (لا يسمعوا دعاءكم) لأنهم جماد (ولو سمعوا) فرضا (ما استجابوا لكم) أى ما أجابوكم أو ما نفعوكم (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) بإشراككم (ولا ينبئك مثل خبير) ولا يخبرك بالأمر مخبر مثل خبير به أخبرك وهو الله تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) وإنما عبر بالفقراء ليبين كثرة حاجات الناس فإنه كلما كان المخلوق أعلى مرتبة وأدق تركيبا وأحسن صنعا كان أكثر حاجة فالحاجة على مقدار الرفعة فى هذا العالم ، ولذلك ترى الحيوان أقل حاجة من الإنسان والنبات أقل منهما فالفقر فى الإنسان أبين : لأن الإنسان مدنى بالطبع ، وإذا كان الإنسان أكثر المخلوقات حاجة فهو فى أشق حياة ويقابله الله عز وجل الذى هو الغنى على الإطلاق (وهو الغنى الحميد) فهو المستغنى على الإطلاق المنعم على سائر الموجودات فله عليهم استحقاق الحمد (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) بقوم آخرين أطوع منكم أو بعالم آخر غيره ما تعرفونه ، ذلك أن الله حميد والحمد على النعم ولا معنى للحمد إلا على معرفتها وعلمها والأمم التى لا علم عندها لا تعرف نعم الله فلا حمد لها والناس خلقوا ليتلقوا النعمة من مبدعها فإذا جهلوا النعمة أذهبهم وأتى بخلق جديد . إما لاحتلال البلاد واستعمارها كما نراه فى أمريكا واستراليا إذا استؤصل السكان الذين هم أهل البلاد إلا قليلا حتى إن رجال الحكومة الإنجليزية فى الحرب العامة أرادوا أن يجندوا ممن بقى من أهل البلاد فى استراليا فقيل فى مجلس الأعيان . كلا لا تجندوا منهم بل يجب أن يبقى هذا العنصر للأجيال المقبلة فى التاريخ هكذا لما بطر المسلمون فى القرن السادس وجهلوا نعم الله ولم يعطوا النعمة حقها أزال ملكهم وسلط عليهم التتار والمغول فقتلوهم وأزالوا ملكهم . اقرأه فى (سورة الكهف) عند ذكر يأجوج ومأجوج وهكذا الدول قديما وحديثا وهكذا أرضنا هذه متى جاء أجلها مزقت كل ممزق وخلق غيرها فى أجيال لا ندريها فأما سكانها فهم فى جنة أو فى نار (وما ذلك على الله بعزيز) بمتعذر أو متعسر (ولا تزر وازرة وزر أخرى) لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ما لم تكن أضلتها فإنها تحمل وزرها ووزرا مثل وزر من ضلوا بها ولكن هذا وزرها هى بالإضلال فأما وزر النفس الضالة فلا تحمل عنها (وإن تدع) نفس (مثقلة) أثقلتها الأوزار نفسا أخرى (إلى حملها) ثقلها أى ذنوبها التى أثقلتها لتحمل عنها بعض ذلك كما قد يفعل فى الدنيا (لا يحمل منه شىء) لأن كل امرىء مشغول بأمر نفسه (ولو كان) المدعو (ذا قربى) ذا قرابة قريبة كأب أو ولد أو أخ (إنما تنذر) أى ينفع إنذارك يا محمد (الذين يخشون ربهم بالغيب) أى حال كونهم غائبين عن عذابه أو عن الناس فى خلواتهم (وأقاموا الصلاة) لأنهم هم المنتفعون بذلك الإنذار (ومن تزكى) ومن تطهر من دنس المعاصى (فإنما يتزكى لنفسه) إذ نفعه لها (وإلى الله المصير) فيجازيهم (وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات) أى وما يستوى الصنم والله ولا الباطل والحق ولا الثواب والعقاب ولا المؤمن والكافر أو العلماء والجهلاء وهو أعم . والحرور الحر وقد غلب على السموم وزيادة لا فى نفى الاستواء لمزيد التأكيد فى المواضع الثلاثة (إن الله يسمع من يشاء) هدايته فيوفقه للهداية (وما أنت بمسمع من فى القبور) ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات (إن أنت إلا نذير) فما عليك إلا الإنذار ، أما الإسماع بالهداية فلا حيلة لك فيه عند من طبع على قلوبهم (إنا أرسلناك بالحق) أى إرسالا مصحوبا بالحق (بشيرا) بالوعد الحق (ونذيرا) بالوعيد الحق (وإن من أمة) أهل عصر (إلا خلا فيها نذير) من نبى أو عالم ينذر عنه أى إلا خلا فيها نذير وبشير فلكل جيل أناس يبشرون ويخوفون لتنتظم شئون الناس (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات الشاهدة على نبوتهم (وبالزبر) أى الصحف كصحف إبراهيم عليه السلام (وبالكتاب المنير) كالتوراة والإنجيل (ثم أخذت الذين كفروا

فكيف كان نكير) أى إنكارى عليهم بالعقوبة أى انظر يامحمد كيف كان تغييرى عليهم بالعذاب حيث لم يؤمنوا (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) أى المطر (فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) أجناسها من الرمان والتفاح وما أشبهها ، ومعلوم أن أصنافها كثيرة أو ألوانها كالحمرة والصفرة والخضرة الخ (ومن الجبال جدد بيض وحمر) أى طرق مختلفة اللون جمع جدة كمدة ومدد (مختلف ألوانها) بالشدة والضعف (وغرابيب سود) أى شديد السواد كما يقال (أسود غربيب) تشبيها بلون الغراب وكأنه قيل : ومن الجبال ذو طرق مختلفة اللون ومنها غرابيب متحدة اللون وغرابيب تأكيد لسود ومن حقه أن يتبع المؤكد ولكن أضمر المؤكد بالفتح قبله والذى بعده تفسير للمضمر كأنه قيل : وسود غرابيب سود، وذلك لزيادة التأكيد بالإضمار تارة والإظهار أخرى (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) كاختلاف الثمار والجبال، يشير ذلك إلى دراسة الجبال والثمار والناس والدواب والأنعام من حيث ألوانها وهيئاتها وأشكالها واختلافها صغرا وكبرا وطعوما وروائح وخواص وتراكيب ونظما وشكلا من مدور وأسطوانى وهرمى ومخروطى وطبا وغذاء ودواء وفاكهة حلوة وزيتية وعطرية ومرة ومالية وحمضية وغير ذلك مما قرأته فى هذا التفسير ومما لاحصر له فى العلوم التى دونها الأولون والآخرون ، ولو أنك نظرت إلى لون واحد من الألوان كالخضرة وتصفحت أنواع النبات نباتا نباتا لم تجد نباتين يتفقان فى لون الخضرة ، قف بالحقول وفتش على مافيها من زرع وشجر زرعه الإنسان أو أنبته الله رغما منه وانظر هل تجد خضرة مماثلة لخضرة ؟ كلا . وإذا أحصى العلماء أنواع النبات بنحو (٣٢٠) ألفا فلست تجد اثنين اتفقا خضرة وقس على ذلك الأشكال والروائح والطعوم ، قف بالحقول واقرأ كتاب الله الذى سطره فى أرضه . هناك تقرأ آيات الثناء والحمد مجسمة ظاهرة لعينك ولعلك على ذلك يحضك القرآن ؛ انظر كيف يقول «ألم تر أن الله أنزل من السماء» كأنه ينكر علينا ألا نرى ذلك إن ذلك يفتح باب الفكر ومتى فتح هذا الباب دخلت منه العلوم فمن هذا الباب تكون العلوم ويتفرع فرعان : فرع لرقى الأمم ، وفرع لرقى العقول وهما متحاذيان ، فالعمارة يتسع نطاقها والأرواح تزيد أجنحتها إلى المقام الأعلى وتلحق بعالم الملائكة ، وإلا فلماذا خلقنا الله فى الأرض ، ولماذا نوع هذه الأنواع وشكل هذه الأشكال .

ياعجبا إنك يا ألله خلقت النبات وأرحته من العناء وأنزلت عليه الماء وفتحت له الأنابيب الشعرية يتمتع كما يشاء من خصب الأرض وعناصرها فيصطفى مايشاء ويختار : وخلقت الحيوان وأغدقت عليه النعم وكسوته بالريش والجلد الغليظ والوبر والشعر والصوف ومددت له موائد الرزق وبسطت له بساط الأمن ورغد العيش وفيأته فى ظلال أشجارك وأسكنته فى كهوف جبالك وهيأت له فى أشجارك مساكن وعلمته بلا معلمين وربيته بلا مربين فلا يحتاج لنبى يرسل له ولا مدارس تفتح إليه ولا كليات لتخرج المعلمين ولا وزارة لسير التعليم . فهو فى رغد من العيش فى جناتك الفسيحات فى أرضك . هذا يا ألله فعلك مع هذه المخلوقات . أما الإنسان فإنه حرم من تلك النعمة نعمة الاكتفاء بما نظمت من الطبيعة فأرسلت له المرسلين ، وكونت له المعلمين وخلقت له المدرسين وأنزلت المرض والهموم بساحاته وفتحت له باب البحث ليخرج من ظلماته ويستعد لسعادته ونوعت له الأنواع وحسنت له الأشكال ووازنت بين حاجته النفسية والمخلوقات الأرضية بحيث جعلت لكل داء دواء ، ولكل حاسة مطلوبا، ولكل شهوة مايناسبها وأنصبته وأتعبته . هل كل هذا لهوانه عليك ؟ كلا . ثم كلا إنك يا ألله فعلت ذلك به لأنه أكرم عليك من أخويه الحيوان والنبات تريد أن يعرف نظمك الأرضية ليطير بأجنحة معارفها إلى ساحاتك العلوية ويقتنص من مخابىء علومها وخزائن حكمها وجواهر بحورها ماينفعه فى سفرته المترامية الأكناف البعيدة المطاف .

لهذا وحده أنزلت الديانات ؟ ولهذا وحده خلق الناس ، ولهذا وحده جاء القرآن ، ولهذا كانت فلسفة الأولين وحكمة الآخرين ولهذا سيعلو من بعدنا من المسلمين إذا قرءوا هذا وأمثاله من تصنيف علماء المسلمين ذلك هو باب المحبة والعشق إذ لا محبة إلا بعلم صفات المحبوب ، ولا علم عند الناس إلا ما وصل إليهم من مصنفاته البهية وحكمه العلية وبدائعه البهجة ، وكلما ازداد المرء نظرا زاد قلبه ولها وحبا والمحب يخشى المحبوب ويهابه ، والخشية على مقدار الكمال ، فالحب والخشية متلازمان . وكيف يحب الإنسان ماهان فى نظره وارتقاء المحبة يتبعها ارتقاء الخشية ألا ترى أنك كلما ازددت من علم عالم أحسست بروحانية تجذبك إليه وخشية تغشاك منه وهذا قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ، قال علماؤنا رحمهم الله إن شرط الخشية معرفة المخشى والعلم بصفاته وأفعاله ، فمن كان أعلم به كان أخشى منه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له» .

المسلمون بغفلتهم عن هذه العلوم أضاعوا أعظم قسط من الدين ، ألم يسلب الله عنهم الملك ويعطيه لغيرهم ؟ ذلك لأنهم لم يدرسوا نظامه الموجب للخشية كما يوجب الحب ، إن الآية دالة على أنه لا يخشى الله إلا العلماء فهم وحدهم المختصون بالخشية . فهل لك أيها الذكى القارىء لهذا التفسير أن تحث المسلمين وتحض الموحدين على التفكير والنظر . قل للعلماء اقرءوا سائر علوم الطبيعة والفلك . وقل للجهلاء فكروا فى كل جبل وشجر وزرع ، وتأملوا واذكروا الله على مقدار طاقتكم ، وقل لعلماء الدين فليغرسوا فى عقول التلاميذ فى إبان صغرهم تلك المحاسن والبدائع وليبينوا لهم بعض العجائب الغريبة التى تحدث فى نفوس الجهلة وصغار الطلبة تعجبا فإن ذلك يفتح لهم باب الفكر . إن ذلك هو علم التوحيد . إن ذلك هو علم الدين . إن ذلك هو حب الله . إن ذلك هو للوصل لله . إن ذلك هو المرقى للأمم ، لحب الله وخشيته وارتقاء الأمم فى الدنيا وعلو درجاتهم فى الجنة ووصولهم إلى رؤية الله تعالى وتمتعهم بالنظر لوجه الله الكريم ، كل ذلك بهذه العلوم فليقلب التعليم فى الإسلام شرقا وغربا وليغير منهج الدراسة وليعلم المسلمون أنهم لا سعادة لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا بما ذكرناه فقد أنذرت وحذرت فليستمع المفكرون ولينصح الناصحون وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ولما كان فى الناس من لا يأبه بهذه العوالم ولا يفكر فيها فقلت خشيته لله ودام على ذلك ومنهم من أناب ورجع ففكر بعد الغفلة أعقبه بقوله (إن الله عزيز) فى ملكه وسلطانه يقهر من لا يخشى الله لغفلته عن صنعه (غفور) لمن تاب وخشى الله بعد الغفلة وذلك فتح لباب الرجاء ، فنحن معاشر المسلمين إذا كنا فرطنا فى معرفة هذه العوالم فيما مضى فالله وعدنا بالغفران وهو يقبل التائبين . ولما كان المقصود من نزول القرآن وإظهار هذه العجائب إنما هو الأمة الإسلامية أردفه سبحانه بالكلام على درجة العاملين فيها فقال (إن الذين يتلون كتاب الله) يداومون على قراءته مع التفكر المقصود منه ويدرسون هذه العوالم المذكورة قبل هذه الآية دراسة تشمل العالم كله من سموات وأرضين وجبال وزروع (وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا) فى المسنونة (وعلانية) فى المفروضة (يرجون تجارة) رأس مالها وأثمانها النفوس والأموال فالنفوس للعلوم والتفكر والصلاة والأموال للانفاق والثمن المبيع هو الثواب والجنة والسفر بها إلى الله تعالى فهى تجارة (لن تبور) لن تكسد ولن تهلك بالخسران وهى تنفق وتروج عند الله (ليوفيهم أجورهم) أى أجور أعمالهم (ويزيدهم من فضله) على مايقابل أعمالهم (إنه غفور) لفرطاتهم (شكور) لطاعاتهم أى مجازيهم عليها وللآية وجه آخر كما سيأتى وهو الأظهر . ذلك أن يكون التالون لكتاب الله المصلون المنفقون هم الصالحون ودرجتهم أقل من العلماء المذكورين قبلهم (والذى أوحينا إليك من الكتاب) أى القرآن (هو الحق مصدقا) حال مؤكدة (لما بين يديه) من الكتب السماوية (إن الله بعباده لخبير بصير) عالم بالبواطن والظواهر

فلوكانت أحوالك الروحية يا محمد لا تتفق مع هذا الكتاب لم ينزل عليك (ثم أورثنا الكتاب) بقول الله أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه أى حكمنا بتوريثه (الذين اصطفينا من عبادنا) يعنى علماء هذه الأمة من الصحابة ومن بعدهم أو الأمة بأسرها فهم خير الأمم (فمنهم ظالم لنفسه) بالتقصير فى العمل به أو بالكفر ، أو من رجحت سيئاته على حسناته ، أو التالى للقرآن الذى لم يعمل به ، أو أصحاب الكبائر أو الجهال (ومنهم مقتصد) يعمل فى أغلب الأوقات أو يكون مرائيا بالعمل ، أو من استوت حسناته وسيئاته ، أو التالى للقرآن العالم به أو أصحاب الصغائر (ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) يضم التعليم والإرشاد إلى العمل ، أو المؤمن المخلص ، أو من رجحت حسناته على سيئاته ، أو من باطنه خير من ظاهره ، أو التالى للقرآن العالم به العامل بما فيه ، أو الذى لم يرتكب صغيرة ولا كبيرة ، أو العالم . واعلم أن هذه المعانى لا تنافى بينها ، فكل خصلة من الخصال فيها سابقون ومقتصدون ومقصرون . فالسابقون يدخلون الجنة بغير حساب والمقتصدون يحاسبون حسابا يسيرا . وأما الذين ظلموا فهم يحبسون فى المحشر ثم يرحمون . ثم أشار إلى إرثهم الكتاب واصطفائهم فقال (ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن) مبتدأ (يدخلونها) خبر والضمير للذين (يحلون فيها) خبر ثان (من أساور) جمع أسورة جمع أسوار أى بعض أساور مصنوعة (من ذهب) وقوله (ولؤلؤا) عطف على محل من أساور أى يحلون أساور ولؤلؤا (ولباسهم فيها حرير . وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) من خوف العاقبة ومن أجل المعاش والآفات والوساوس الشيطانية (إن ربنا لغفور) للمذنبين (شكور) للمطيعين (الذى أحلنا دار المقامة) دار الإقامة (من فضله) من إنعامه وتفضله (لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) كلال إذ لا تكليف فيها وقد نفى ما يتبع النصب من الكلال بعد نفيه للمبالغة (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم) لا يحكم عليهم بموت ثان (فيموتوا) فيستريحوا (ولا يخفف عنهم من عذابها) لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء (نجزى كل كفور) مبالغ فى الكفر أو كفران النعم (وهم يصطرخون فيها) يستغيثون قائلين (ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) فهم متحسرون على ما أضاعوا أيام حياتهم فأجابهم الله قائلا (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) يوبخهم الله سبحانه على أعمار تنقضى بلا تفكر ولا اعتبار كأنه يقول : أأهملناكم ولم نعمركم تعميرا يتذكر فيه من تذكر وهو يتناول كل عمر وإن قصر إلا أن التوبيخ فى المتطاول أعظم . فاذا قيل هو ثمانى عشرة سنة أو أربعون سنة أو ستون سنة فذلك ليس حصرا (وجاءكم النذير) الرسول عليه الصلاة والسلام أو الشيب ، يقول الله عمرناكم وجاءكم النذير (فذوقوا) العذاب (فما للظالمين من نصير) يدفع العذاب عنهم (إن الله عالم غيب السموات والأرض) لا يخفى عليه خافية فيهما ، ثم علله بقوله (إنه عليم بذات الصدور) وإذا علم دقائقها فعلمه بغيرها أولى (هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) يلقى إليكم مقاليد التصرف فيها (فمن كفر فعليه كفره) أى جزاء كفره (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا) المقت أشد البغض والخسار يكون فى الآخرة (قل أرأيتم شركاءكم) أى آلهتكم التى أشركتموهم فى العبادة (الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض) أى أخبرونى عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الشركة أرونى أى جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه (أم لهم شرك فى السموات) أم لهم مع الله شركة فى خلق السموات (أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه) أى أمعهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب . ولما نفى أنواع الحجج فى ذلك أضرب عنه بذكر الأسباب الداعية إلى ذلك وهو تغرير الأسلاف والرؤساء للأخلاف والتابعين فقال (بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا) بأن يقولوا لهم إن هؤلاء شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقرب إليه (إن الله يمسك

السموات والأرض) كراهة (أن تزولا) لأن الإمساك منع لهما عن الزوال من الوجود ومن مداراتهما . لجميع العوالم من الأرض ومن الشموس والأقمار والسيارات تجرى فى مدارات خاصة ولولا الميزان الذى وضعه الله فى السموات والأرض الذى يعبر عنه علماء العصر الحاضر بالجاذبية لاختل النظام ولتحطمت هذه الكرات الشاهدة وزالت نظمها وساءت حالها فبالميزان اتزنت وبالنظام ثبتت فى أماكنها واستقرت فى مداراتها (ولئن زالتا) على سبيل الفرض (إن أمسكهما من أحد من بعده) أى ما أمسكهما أحد من بعد الله أو من بعد الزوال (إنه كان حليما غفورا) لايعجل بالعقوبة حيث أبقى من يستحقون العذاب إلى أجل مسمى ولم يهد الأرض والسموات عليهم هدا . هذا ، ولقد كانت قريش قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم تقول : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) أى جاهدين فى أيمانهم (لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) أى من واحدة من أمم اليهود والنصارى (فلما جاءهم نذير) وهو محمد صلى الله عليه وسلم (مازادهم) النذير (إلا نفورا) تباعدا عن الحق ، وقوله (استكبارا فى الأرض ومكر السيء) مفعول لأجله (ولا يحيق) ولا يحيط (المكر السيء إلا بأهله) وهو الماكر كما حصل لقريش فى الغزوات (فهل ينظرون) ينتظرون (إلا سنة الأولين) سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) فلا تغير سنة الله فى انتقامه من المكذبين فلا يجعل غير التعذيب بدله ولا ينقلها من المكذبين إلى غيرهم وهكذا سائر السنن (أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) إستشهد عليهم بما كانوا يشهدونه فى مسيرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الماضين (وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء) أى ليسبقه ويفوته (فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما) بكل شيء (قديرا) على كل ممكن (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) من المعاصى (ما ترك على ظهرها) ظهر الأرض (من دابة) من نسمة تدب عليها (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) وهو يوم القيامة (فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا) فيجازيهم على أعمالهم . انتهى التفسير اللفظى .

لطيفة فى هذه الآية

يقول الله : لو أنى آخذت الناس بظلمهم وكنت طالبا منهم مافوق طاقتهم بحيث يكونون أبرارا فضلاء فى جميع أعمالهم لم أخلق ما على الأرض من حيوان وبالتالى لم أخلق نباتا ولا معدنا لأن النبات مقدم على الحيوان والحيوان مقدم على الإنسان والمقصود الأعظم هو الإنسان ولذلك كان عدده قليلا على سطح الأرض فهو كالسمع والبصر والحواس فى جسم الإنسان ، فلو أنى آؤاخذه بظلمه لمنعت وجود الدواب وماتقدم عليها وهكذا الإنسان ، ولكن هذا الإنسان فى عالم ليس مرتقيا كثيرا فكان أهله غير كاملين ، ومتى نقلوا من الأرض نظرت فى أمرهم ووضعتهم فى أماكنهم المعينة لهم قبل صعودهم من الأرض وإذا كنتم أعددتم للأجنة فى الأرحام قوابل ومراضع وأعددت أنا لهم اللبن فى الأمهات وحنت الأمهات عليهم فهكذا فى العالم الذى سترحلون إليه جعلت الملائكة يستقبلون الراحلين من عالمكم ويعاملونهم معاملة الآباء للأبناء أو معاملة السجانين للمسجونين على حسب المراتب والدرجات ، فهذا العالم ليس آخر مراتب الإنسانية بل هناك درجات ودرجات . فلذلك تركنا على الأرض دوابها وإنسانها ونباتها ومعادنها لأنها مرحلة من مراحل الوجود فليس يطلب منها غاية الكمال «إن الله كان بعباده بصيرا» انتهى المقام الثانى .

المقام الثالث

(فى تفسير السورة مراعى فيه تقسيمها)

أذكر فى هذا المقام ما كنت كتبته منذ سنين فى تفسيرها العام ، إذ جعلت ملخص السورة ماثلا أمام الفطن اللبيب فأقول وبالله التوفيق :

اعلم أن هذه السورة تشتمل على (سبع مقاصد) وفيما يلى بيانها :

(١) وصف قدرة الله بإبداع العالم الحسى والعقلى ، وبأنه منعم متفضل ، وهو توطئة لما بعده .

(٢) تذكير الناس بالنعم كى يشكروها وإفهامهم لها عسى أن لا يكفروها .

(٣) تثبيت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم بقصص المكذبين الأولين للنبيين والمرسلين .

(٤) نداء عام للناس أن يتخلوا عن الرذائل فلا يقربوها ويتحلوا بالفضائل فيلبسوها ، فلا يعتطون غوارب الهواجس ، ولا يتبعون آثار الشياطين ، ولينظروا فيما أبدع الله من الآيات ، وما أحكم فى الأرض والسموات .

(٥) ضرب الأمثال لما سلف من القسمين وإيضاح الطائفتين الكافرة والمؤمنة .

(٦) تقسيم المؤمنين من حيث النظر إلى (قسمين) علماء محققون ، وصالحون متقون . ثم تقسيمهم من حيث العمل إلى ثلاثة أقسام .

(٧) وصف الكأس التى يتجرعها الكافرون والتى يشربها المؤمنون والثمرة التى جنياها من جنة عالية أو نار حامية .

﴿ المقصد الأول ﴾

قال تعالى «الحمد لله فاطر السموات والأرض» إلى قوله «وهو العزيز الحكيم» . فطر الله السموات والأرض وأبدعهما بلا مثال احتذاه ولا مرشد هداه ، وفصل العالم (نوعين) حسيا يراه المبصرون . وعقليا لايدركه إلا المستبصرون من ملائكة ذوى أجنحة تقويها على أن تصعد إلى الملا وتنزل إلى الثرى لتنظيم العوالم ووحى الأنبياء وإلهام العلماء وإنذار الأبناء وتذكير الصلحاء وتبشير الأتقياء ، وكم له من نعمة يزيدها ورحمة يرسلها حتى رأينا المحسوسات من الماديات يمتاز بعضها بجمال وآخر بقوة وسلطان وآخر بعبالة الجثمان كما ترى من الفرق بين الكوكب والدر والحصى والصخر والفيل والذر والبر والبحر والنخلة والقطمير والثمرة والنقير . ذلك لأنه يزيد فى الخلق مايشاء ، وإذا منح من لدنه رحمة جرت الى مداها وإن أمسك فمن ذا ينالها أو يراها ؟

﴿ المقصد الثانى ﴾

قال تعالى «ياأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم» إلى قوله «فأنى تؤفكون» ما أظهر مراد هذه الآية وما أسهل فهمها على المبتدئين !.

﴿ المقصد الثالث ﴾

قال تعالى « وإن يكذبوك » إلى قوله « وإلى الله ترجع الأمور » يقول لئن كذبك الجاهلون فكم من نبى كذب ورسول أوذى فصبر فرجع الأمر لله فكانت عاقبته النجاة وعاقبتهم الهلاك والعذاب .

﴿ المقصد الرابع ﴾

قال تعالى «يا أيها الناس إن وعد الله حق» إلى قوله «إن ذلك على الله يسير» أبان فى مبدإ القول نظام العالم إجمالا وأن منه محسوسا ومعقولا وغائبا ومشهودا . وطلب شكر النعمة والحمد لله على إفضاله وطيب قلب الداعى عن بصيرة ليشرح فؤاده ويوضح مراده . أخذ يذكر الناس بآيات الأنفس والآفاق ويقول لا يغرنكم القريب العاجل . ولا يعجبنكم بهرج زينة الحياة عما وعدناكم بعد الممات . وإياكم أن تغركم العاجلة فتذروا الآخرة . وإياكم أن تقربوا الشهوات فما أشد سعيرها وما أكثر ضرها . وهل يستوى من استحسن قبح الذنوب ومن أدرك ما فيها من العيوب . كلا . ألا إن القدر عم كليهما والقضاء سجل كتابيهما فلا تهلك نفسك من الحسرة ولا تكن جزعا بالمرة . فإذا خلصت السرائر وتزكت القلوب ونارت الضمائر فما أحراها أن تنظر السحب وعجائبها وكيف تسيرها الرياح وتزجرها وتسق الأرض فتنبت أشجارها وينمو زرعها . ذلك عجب نقش على طرسه ونطق لسان حاله بوصف الله بالحكمة البالغة والقدرة الشاملة وأن لا تعجزه الرمم البالية أن يردها حية صالحة وكيف لا يقدر على إحياء الأموات من أحيا الأرض الموات ، إن فى ذلك لآيات ، فمن اشرأب إلى العز فكيف يطلبه من سواه . أورام الشرف فمن ذا يهبه إلا الله . وهل لغيره عزة فيعطيها أو يمالك من نفسه فيهب منها ويسديها ؟ فاطلب العزة بالعلوم وفهمها والأعمال وإتقانها ، والعلم بلا أعمال أشجار بلا أثمار . الإيمان صاعد لله والعمل الصالح يقوى دعائمه ويثبت فضائله إلا أن العمل الصالح يرفع الإيمان وبهما يسعد الإنسان . وإذا كان الطين والتراب ترقيا بالأسباب وصعدا بالاصطناع إلى أن صارا ذكرانا وإناثا وبنين وبنات ونساء والدات وعقولا فاضلات ، فهكذا ترقى النفوس إلى الملك القدوس وتصعد الأرواح إلى معارج الفلاح .

﴿ المقصد الخامس ﴾

قال تعالى « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون» إلى قوله «فكيف كان نكير» . لما أبان سبحانه المؤمن والكافر وحكم ببطلان مكر أحدهما وفساده ورفع أعمال الأول ورشاده أتبعه بضرب الأمثال كما هى سنة القرآن فضرب المثل تابعا لبيان الحقيقة ولإنارة الحجة فشبههما بالبحرين هذا عذب فرات يكسر العطش بعذوبته وهذا ملح أجاج يحرق بملوحته ومن كليهما نصيد السمك وفيهما تسير السفن ونغوص على الدر وهكذا . هما يشبهان فى ذاتهما الأعمى فى الضلالة عن طريق الرشاد والبصير فى الهداية وصفاتهما أشبه شىء بالظلمات والنور وداراهما فى المآل كالظل الظليل وحر السموم . ثم ارتقى إلى نهاية التمثيل وغاية التحقير والتبجيل فجعلهما أحياء وأمواتا ورتب عليه أن قال « وما أنت بمسمع من فى القبور» . ومن عجب أن يتخلل هذه الأمثال أمور ذات بال كالاستطراد بذكر الحلية ولبسها ولحوم السمك وأكلها وسير السفن وحملها والتجارة وعلمها وشكر الله على نيلها ثم الانتقال من المسبب إلى السبب ومن السفلى للعلوى ، فكم للسفن المواخر فى البحار من علاقة بالكوكب السيار والفلك الدوار . وهل تهب الرياح فى البطاح إلا بإرسال الحرارة الشمسية فتمددها وهى تسوق السفائن وقد انتفخت القلوع وجرى السفين فى البحر الملح أو النهر العذب وهما يجريان فى مطارح شعاع الشمس والنجوم ولولا الحرارة لكان النهر ثلجيا والرياح راكدات والسفن راسيات غير مسافرات .

فلذلك ذكر الإبداع بإيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل باقتراب الشمس وابتعادها ، فلقد يكون

النهار ستة أشهر والليل مثله ، وقد يتبادلان الزيادة والنقصان من ساعة إلى يوم إلى أيام إلى شهور . ومن عجب أن لايزيد أحدهما إلا مانقص من الآخر ولا يتساويان إلا فى يومى الاعتدال كما أنهما متساويان على مدى الزمان فى خط الاستواء ، فالليل والنهار مستويان إذا حسبناهما على مدار السنة ومختلفان فى فصول الصيف والشتاء والخريف والربيع ، وهل لأحد غير الله فيهما من قطمير ؟ ماأشد فقر الإنسان بل هو أفقر الحيوان وسائر المخلوقات .

إن الفقر للانسان مقصور عليه ، فهذه البحار وحليتها والأنهار وسمكها والسفن وحملها والرياح وقوتها والعواصف وثورتها والكواكب ودورتها والشمس وحرارتها . كل ذلك يحتاجه الإنسان وعلى المسلمين أن يعلموا ويعملوا مايصلحون به حياتهم ويجلبون قوتهم ويرفعون رءوسهم بين العالمين ، وهل بعد قول الله تعالى « وتستخرجون حلية تلبسونها » بتاء الخطاب بيان ؟ لقد جهل المسلمون فى هذه الأيام معادن الشرف وأما كن الغنى والنعمة فناموا على وساد الراحة ولم يفكروا فى المرجان النابت فى قيعان البحار وغفلوا عن الدر المخزون فى أصدافه . وقليل من المسلمين اليوم من استيقظ لهذه الأفعال . فهذه المعانى هى التى تخللت خمسة الأمثال للفريقين المؤمنين والكافرين وهذه من أعاجيب القرآن ومن هنا فلتفهموا عجائبه ولتدركوا غرائبه فلم يبق إلا تصور حال المؤمنين لشدة العناية بهم .

﴿ المقصد السادس ﴾

قال تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » إلى قوله « ذلك هو الفضل الكبير » . هنا قسم المؤمنين إلى طائفتين وأرجعهم إلى قسمين : فمنهم المفكرون والحكماء والمحققون الذين تغلغلوا فى هذه العوالم فعرفوها وذاقوا لذة العلم واستحلوها وتبينوا اختلاف الأشكال والألوان وتفاوت الثمار وتخطيط الصخور فى الجبال وتباين أشكال الحيوان وعجائب النبات ودرسوا العلم وعقلوه فعرفوا الله ونصروه . فهل يخشى الله سواهم أو يعرف مقداره إلا هم ؟ ومنهم الذين تلوا الكتاب وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فأولئك هم الصالحون . والأولون هم العلماء الوارثون فأولئك أقرب إلى الله فى عليين وهؤلاء فى رياض الجنة فرحين . ثم إن المؤمنين أجمعين إما سابقون عالمون متقون معلمون ، وإما مقتصدون عاملون فى أكثر الأوقات . وإما ظالمون مقصرون فى الأعمال . فهذا تمام الوصف الذى وصف به المؤمنون فلم يبق إلا ذكر الجزاء للفريقين من مؤمنين وكافرين وهو :

﴿ المقصد السابع ﴾

قال تعالى « جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير » إلى قوله « إنه عليم بذات الصدور » . وصف الجنة وحليها من أساور من ذهب مرصعة باللؤلؤ وحلل الحرير ومايحلون من المسرة ويظهرون من الفرح واللذة ووصف أهل النار بالاستغاثة والاصطراخ وتيئيسهم من الرجوع للحياة الدنيا وتبكيتهم بتقصيرهم أيام الإمكان . ثم ختم السورة بجوهرتين زهراوين وياقوتتين حمراوين من إتقان النظام واصطلاحه العام ومن تدمير الناس وإفسادهم فى الأرض فهو مصلح وهم مفسدون . ولقد كانوا خلفاء فى الأرض وما أجدرهم أن يتخلقوا بأخلاقه ويسيروا على الصراط المستقيم فانه عز وجل نظم جواهر النجوم الزاهرات والكواكب السيارات وربطها بأسباب وأرسل لهامن لدنه رحمة فأمسكها ومحبة حفظتها فدارت فى مداراتها وجرت فى أماكنها واجتذبها جذبا لطيفا بمواسك من التعاشق سماه علماء المحسوسات [جاذبية] وتلك المواسك تمسكها لئلا تزول عن مداراتها وتختل فى نظامها ولولا ذلك لتفرقت أيدى سبا ، وطاحت شذر مذر ، فباد الوجود وهلك الموجود وذلك قوله تعالى « إن الله يمسك السموات »

إلى قوله «حليما غفورا» وإيضاح الجوهرة الثانية إن الناس أفسدوا وما أصلحوا وعجزوا أن يعقلوا عجائب النظام وبدائع الإتقان فاتخذوا فدأندادا وعبدوا أوثانا فباءوا بالغضب صاغرين ورجعوا بالمقت محرومين وإذا عاهدوا عهدا نبذوه وإن حلفوا أن يتبعوا رسولا إن جاءهم لم يتبعوه وطباعهم الكبرياء وشأنهم الإباء، فهلا ساروا فى الأرض فدرسوا أحوال الأمم الظالمة والأجيال البائدة وهم كانوا أكثر منهم عددا وأعز منهم نفرا طحنهم الثرى بكلاكله ومزقهم بطوله «فتلك بيوتهم خاوية» وجماعاتهم للأقدار جاثية، ألا إن عاقبة البغى لهم ودائرة السوء تدور عليهم ، ولولا رحمة الله الواسعة أحاطت بهم لأبدنا كل نسمة، ولكننا نؤخرهم إلى أجل معدود لأن رحمتنا أوسع وفضلنا أعم ، فليتمتعوا أياما فى ساحات رحمتنا ، ولنوردهم موارد الهلاك بعدلنا جريا على ناموسنا العام وعدلا فى النظام وذلك قوله تعالى «وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض» إلى قوله «إلا غرورا» وقوله «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم» إلى آخر السورة .

﴿ آيات العلوم أربع عشرة ﴾

وهى قوله «الحمد لله فاطر السموات» إلى قوله «فأنى تؤفكون» وقوله «الله الذى أرسل الرياح» إلى قوله «من قطمير» وقوله «ألم تر أن الله أنزل من السماء» إلى قوله «إن الله عزيز غفور» وقوله «إن الله يمسك السموات» إلى قوله «حليما غفورا» وقوله «أو لم يسيروا فى الأرض» إلى قوله «فان الله كان بعباده بصيرا» .

(العلوم) — علم الحساب والجو والرياح والزراعة وعلم الحياة وعلوم البحار والسفن وهى لاتسير إلا بعلم الفلك والهيئة والتقويم والتلغراف البرى والبحرى والهوائى ومعرفة الجاذبية العامة وجغرافية البلاد وتاريخ الأمم للاعتبار . فهذه العلوم مما يجب وجوبا كفائيا أشارت لها هذه السورة ، ولقد تركها المسلمون وتم غيرهم بها ، فالعذاب عليهم جميعا واقع فى الدنيا والآخرة ماله من دافع مالم يسمعوا قول الناصحين وكل ملوم حتى يتم النظام العام فى ديار الإسلام .

﴿ آيات الأخلاق سبع ﴾

وهى قوله «ياأيها الناس إن وعد الله حق» إلى قوله «أصحاب السعير» وقوله «ياأيها الناس أنتم الفقراء» إلى قوله «وإلى الله المصير» وقوله «إن الذين يتلون كتاب الله» إلى قوله «غفور شكور» .

الأخلاق تزكية النفس من الرجس وتخليصها من الإثم واعتبار أن الحياة الدنيا طريق والآخرة مقر وأن على كل أمرىء إثمه ، وأن يقوى للمرء إرادته ولا يتكل على أحد إلا الله بالعمل الصالح، فليذر المرء الكسل وليدأب فى العمل وليخش الله وليقم الصلاة اهـ .

﴿ مقال عام : فى قوله تعالى «مايفتح الله للناس» الخ ﴾

وفيه (مقامان : المقام الأول) فيما يفتح الله به على الناس ، وهو إما فتوح باستخراج مافى العناصر الأرضية من منافع وعجائب ، وإما بكشف خيرات كانت خافية على الناس فى الطبيعة فظهرت لهم . (المقام الثانى) مايمسكه الله فلا يفتحه للناس رحمة بهم وهو أعلم بما ينفعهم . ففى المقام الأول (فصلان : الفصل الأول) فيما فتح الله به على الناس باستخراج مافى العناصر الأرضية وذلك .

﴿ جوهرة : فى قوله تعالى «مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها» ﴾

(العناصر)

اللهم إنك أبدعت نفوسا من النور وكونتها من الجمال فأشرقت وابتهجت وبها أضاءت حواسنا واستنارت معدتنا وأشرقت الأرض بنور ربها كما أشرقت أرواحنا فالأرض مشرقة وأرواحنا مشرقة ولكن إشراق العوالم

التي تحيط بنا على (قسمين) : إشراق ظاهر تدركه الحواس وإشراق باطن لاتدركه إلا العقول، فأما الإشراق الظاهر الذي تدركه الحواس فقد اشترك فيه الحيوان والإنسان . فأما الإشراق الباطن الذي اختص بالإنسان فهو ماخزنته في عناصر المادة من النور المتراكم المتلألىء المستور عن أعيننا المخبوء الذي منعته عن الإبصار ولم تعطه الناس إلا بعد طلبه والجد في تحصيله وشوقت نفوسا وتقوسا إلى استخراجه والإستضاءة به . ماذا نقول يالله في عوالمك التي أحاطت بنا ، ماذا نقول في جمال رائع وحسن باهر ماذا نقول وقد أودعت في هذه الدنيا عجائب عجائب تحار بها حواسنا ولانفقهها عقولنا إلا بعد النصب والتعب ونسمعك تقول « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها» ونسمعك تقول أيضا «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولو الألباب » .

أنت وعدتنا أن نعرف وقرنت الوعد بأن أمرتنا بالحمد والحمد يستوجب معرفة النعمة ومعرفة النعمة لاتتم إلا بمعرفة سابقة ، فالمعرفة شرط للحمد فلابد من المعرفة حتى يتم الحمد . نحن نحمد على مانعرف وهذه المعرفة تستدعي معرفة أخرى وهذه الأخرى يتبعها الحمد وهكذا معرفة معها حمد يتبعها أخرى . إذن شرط المعرفة اللاحقة أن تتقدمها معرفة سابقة تحث عليها ، فإذا لم تكن معرفة سابقة عدمنا اللاحقة وهذه حال المسلمين في القرون المتأخرة ، نظروا الهواء والماء والملح فلم يظنوا فيها خيرا إلا ماتعرفه العامة ولم يبحثوا عن سر هذه المخلوقات مع أنك ذكرت في قصة سليمان المذكور في مقام آخر أنك سخرت له الريح . فالريح سخرت لسليمان ثم قلت «وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب» إذن الذي سخرت له الريح أعطاه الله زلفى وأعطاه حسن مآب . فلننظر في الهواء الذي به يكون الريح . نظرنا فوجدنا أن هذا الهواء مركب من نيتروجين وأوكسوجين ومعهما بخار الماء وكربون (فحم) فلفظ نيتروجين كلمة إنجليزية يرادفها بالفرنسية آزوت فهذان العنصران منهما يتركب الهواء والنيتروجين نحو أربعة أخماس الهواء فكل أربعة أجزاء من النيتروجين معها جزء واحد من الأكسوجين . ومعلوم أن الأكسوجين أحد جزئي الماء أيضا .

هذا النيتروجين الذي هو أهم أجزاء الهواء . ذلك الهواء الذي يحمل السحاب وبه تسير السفن في البحار ويهب على بيوتنا فيطرد المواد والحيوانات الذرية الضارة بنا وهكذا ينشر ضوء الشمس على الأرض ولولاه لكان ضوؤها خاصا بما يحاذى قرص الشمس وبه يكون لون الجو أزرق فلولاه لكان سوادا حالكا .

أقول : هذا النيتروجين الذي في هذا الهواء الذي هذه صفاته هو أهم جزء في حياة النبات وفي حياة الحيوان هو المكون لفضلات الحيوان ولأهم أجزاء النبات . فالهواء الذي أهمه هذا العنصر محيط بالناس من يوم أن خلقوا على الأرض ولم نعرف عنه شيئا إلا ماذكره الله في القرآن من أن الريح وهو الهواء المتحرك سخر لسليمان وقد مدحه الله ولم يذمه حتى إذا ارتقى الإنسان وكثر عدده وازدهرت الأرض رأينا السماد الذي به يسمد الزرع أهم أجزائه هذا النيتروجين . وقد وفق العلماء في الدنيا لقتل الذرات المهلكة للانسان في الطاعون والأمراض والله رحيم فليس من المعقول أن يوفق الناس لتقليل الطاعون ثم هو لايعطيهم غذاء . كلا . فإن هذه الأرض كلها مشرقة بنوره . فعقولنا من نوره والأرض مشرقة بنوره ، هنالك بحث العلماء في الدنيا عن الأسمدة غير المعروفة لنا وهي فضلات الحيوان المشتملات على مقدار كبير من النيتروجين ، فماذا عملوا ؟ وجدوا مناجم في (جزيرة شيلي) وفيها مادة تسمى (نترات الصوديوم) فهي مركبة من النتروجين والصوديوم وقد استخرجوا منها (٧٠) مليون طن ولكن علموا أن هذا المورد قليل لابد من فنائه ، فمن أين يأتون بالسماد الذي يكفي الأرض ؟ لأن نوع الإنسان كثر والدواب كانت فضلاتها تكفيه قديما أما الآن فلا .

فاذا نفدت مقادير النيتروجين المركب مع غيره من جزيرة شيلى هنالك يكون قحط عظيم فى العالم لايقله الماء والمطر بل يقله السماد . هنالك وفق الله عالما ألمانيا اسمه (فرتزهابر) فقال فى نفسه : [نحن محتاج إلى النيتروجين ولولاه لهلك كثير من الناس فى المستقبل فهل من طريق بها نثبت هذا العنصر ونستخرجه من الهواء، حتى تنمى مزروعاتنا به] فكما ترى أن جزيرة شيلى فيها النترات أى مركبات النيتروجين وزبل البقر مثلا فيه ذلك . هكذا تراه فى نفس الهواء، وهذا مخزن لاينفد . هنالك رجع إلى الكهرباء، وقال فى نفسه : [لابد من استخدام الكهرباء] تلك الكهرباء التى لم تكن إلى عهد قريب إلا مجرد لعبة وتسلية وهى التى لما خطب فيها (فارادای) خطبة قالت له سيدة : هب أن أبحاثك هذه وتجاربك صحيحة كما تقول فما الفائدة المرجوة منها عملا ؟ فقال : إن قيمة هذه الاكتشافات هى كقيمة طفل ولد حديثا لاحول له ولا طول ولكنه سيصير يوما من الأيام رجلا ذا بأس شديد ، ولما زاره (غلادستون) الشهير ومعه كبار رجال الدولة واطلع على أبحاثه سأله : ما الفائدة العملية من هذه التجاريب فأجابه قائلا : [لايمضى زمن طويل حتى تجنى منه الدولة التى تترأسونها المبالغ الكثيرة من الضرائب] ولقد تحقق قوله ، فمن استخدمها فى ارتقاء الصناعة والزراعة (فارتزهابر) الذى نحن بصدد الكلام عليه بعد ذلك بنحو قرن وهو فى زماننا حى يرزق فماذا فعل ؟ رجع إلى الكهرباء التى جعلوا لها فرنا اسمه (الفرن الكهربائى) وهذا الفرن الكهربائى آلة غريبة بديعة مدهشة كأنها السحر الحلال ، فهو مبرد ومسخن ، أما التبريد فإنه يبرد الغازات تبريدا تصير به تحت الصفر إلى درجة (٤٥٩) ومعنى التبريد إلى هذه الدرجة أن (فهرنهيت) الألمانى لما وضع آلة مقياس الحرارة (الترمومتر) فى مخلوط الملح والجليد هبط زئبقه (٣٢) درجة عن درجة الجليد فتوهم أنه بلغ أدنى درجات الحرارة فدعا تلك الدرجة درجة الصفر . ولكنه بعد ذلك ثبت أن الصفر المطلق هو تحت صفر (فهرنهيت) بنحو (٤٥٩) درجة هذا معنى ما قلته لك إن الفرن الكهربائى يبرد إلى هذه الدرجة التى هى غاية البرودة وبهذه الطريقة أمكن العلماء تحويل الغازات أجساما صلبة ، وفى أمريكا يبردون الغازات التى تشبه الهواء فتجمد كما يجمد الماء بالتبريد ويبيعونها بمصر مثلا .

هذا هو التبريد ، أما التسخين فإن الحرارة بلغت (١٤٠٠٠) فوق الصفر وهذه أعلى من حرارة الشمس (٣٠٠٠) درجة إذن الحرارة التى يتحكم فيها الصانع بالفرن الكهربائى نحو (١٤٤٥٠) درجة . فبهذه الدرجات يتحكم الصانع فى الأجسام لأن الحرارة تمنع تماسك الأجسام وتباعد دقائقها فتتحول إلى بخار ثم ترجع الذرات إلى عناصرها الأولية ثم تطير من تلك العناصر بعض كهارب لأن الأجسام كلها ترجع إلى الكهرباء والجزء من تلك الكهارب المحللة يعادل جزءا من (١٨٠٠) من ذرة الهيدروجين ، وهذه أصغر وحدة فى هذه الدنيا ، فبهذا الفرن الذى هو أشبه بالسحر حولوا الكربون إلى الماس وحولوا الفحم إلى الجرانيت المستعمل فى أقلام الرصاص ، وهذا الفرن نفسه هو الذى استعمله (فرتز هابر) فى استخراج النيتروجين من الهواء، واستعماله بدل السماد الطبيعى من الدواب ومن جزيرة شيلى وبه أصبح العالم الإنسانى الآن لايخشى من نفاد السماد من الأرض .

ومن أعجب العجب أن ألمانيا فى أيام الحرب انفصلت عن العالم فمنع عنها (نيترات شيلى) أى المركبات النيتروجية الآتية من شيلى التى كانت تعتمد عليها فى تسميد أرضها ، فلولا استعانة هذا العالم بعلم الكيمياء بطريق الفرن الكهربائى وجعل هذا الغاز الهوائى جسما جامدا تسمد به الأرض مابقيت ألمانيا تدافع عن نفسها خمس سنين وهذا النيتروجين المركب كما ينفع سمادا ينفع فى مركبات الكيمائية كالنشادر ومادة تسمى (النتريك) وما اشتق منهما فى صنع المفرقعات فى الحرب ، فهذا النتروجين نفع ألمانيا زمن الحرب فى تسميد زرعها وفى قتال عدوها . وبهذا العالم أمكنها أن تعيش خمس سنين وحدها منعزلة كما تقدم هذا هو

الهواء وفوائده التي تنفع في غذائنا وفي قتال عدونا فالأمر رجع إلى التبريد والتسخين ، فهذا غاز وبهذا الفرن يرجع جامدا بعمليات لا يصح ذكرها لصعوبتها ومثالها سهل : إننا نرى البخار أخف من الماء نحو (١٧٢٨) مرة والهواء أخف من الماء (٨٠٠) مرة ومع ذلك نرى البخار صار ماء والماء صار ثلجا والثلج نخلطه بالملح فتنزل درجته فيكون أبرد، إذن البخار الذي هو ألطف وأخف من الهواء صار صلبا هكذا هنا النيتروجين الذي هو جزء من الهواء الذي هو أغلظ وأثخن من البخار صار جسما صلبا . فهذا أمر أمكن فهمه لنا في هذا التفسير بدون أن ننظر الفرن الكهربائي . ومع صعوبته أذكر الطريقة إجمالا فوق ما ضربته من المثل ليقرب على الأذكياء فيفرحون بنعمة العلم فأقول :

طريقة ذلك أنهم يطلقون الشرارة الكهربائية في مزيج الأكسوجين والنيتروجين (وبعبارة أخرى) في نفس الهواء لأن الهواء أهم أجزائه هذان العنصران ، فبهذه الشرارة يتحدان أي تكون بينهما ألفة تامة كالألفة بين الأكسوجين والأودروجين إذ يتكون منهما الماء ويقال لهذا المتحد هنا (فوق أكسيد النيتروجين) كما قيل فيما تركب من الأكسوجين والأودروجين ماء ا فإذا عولج (فهو إكسيد النيتروجين) بالماء صار (حامض النيتريك) إذن النيتروجين عومل مرتين مرة مع الأكسوجين ، ومرة مع الماء حتى صار حامض النيتريك . هنالك تستخدم الأفران الكهربائية ويمر في أنابيب يحيط بها الماء البارد ويعامل بالجير ويباع الناتج في الأسواق باسم (ملح النرويج) أو ملح الهواء وباللسان الكيماوي (نترات الكلسيوم) وهذه الطريقة تستعمل في البلاد ذات المنابع الكهربائية الرخيصة كبلاد (نروج) التي تكثر فيها مساقط الماء التي تستخدم في توليد الكهرباء من غير نفقات طائلة ، والشركات في بلاد نروج تستخدم في توليد الكهرباء قوة نصف مليون حصان من القوة بالاستمرار في تثبيت (النيتروجين) الجوي وأن الحكومة المصرية الآن تدرس المشروع توليد الكهرباء من خزان أسوان فإذا نجحت أمكن تثبيت نيتروجين الهواء بهذه الطريقة وتوفير مبالغ طائلة تستخدم بها الأيدي العاطلة .

اللهم إنك أنت متقن الصنع مبدع ، أحسنت كل شيء من ذا كان يظن أن الهواء فيه أسمدة ومفرقعات وآلات قاتلات ، من ذا الذي كان يظن أن القوة الكهربائية في السلك الكهربائي الذي يحدث في الناس رعدة قد كانت مخبوءة في أكثر المخلوقات وباستخراجها أمكن تسخير الهواء لتسميد الأرض فيغذي بها الزرع كما تغذى دماءنا ؟ من ذا الذي كان يظن أن الماء المنصب من أعلى كما الجنادل والشلالات في أعلى النيل يؤثر في حياة الشعب فيرفعها ؟ من ذا الذي كان يتفطن إلى أن أجزاء الهواء يؤثر فيها الكهرباء فتتحد وبمعاملتها الماء وجريها في الأنابيب ومعاملتها أيضا بالجير تصبح ملحا يباع في الأسواق يسمونه (ملح الهواء) إذن في الهواء ملح ، الهواء الذي يضرب به المثل في أنه خال من كل شيء يستخرج الناس منه مادة يبيعونها جامدة نافعة . هذا هو الجمال الإلهي والحكمة العالية اهـ .

هنالك لما اطلع صاحبي العالم الذي اعتاد أن يخاطبني في هذا التفسير قال : إن هذا الموضوع قد وضح وضوحا تاما وقد كنت أقرأ مثل هذا فلا أفهمه وكنت أسمع أن الألمانيين عندهم سبع معامل في بلادهم بها حولوا النيتروجين إلى آلات مهلكات وأن تلك المعامل قد حولوها بعد الحرب إلى مصانع للسماد فكنت أعجب من هذا وأقول كيف يحول النيتروجين إلى آلات مهلكة وإلى سماد تسمد به أرضنا حتى عرفت الآن فلله الحمد .

هذا ولكن الآن أريد مسألة أخرى ، أنت ذكرت الملح أيضا مع الهواء فأي شيء في الملح فوق ما قرأنا في هذا التفسير سابقا ؟ فقلت له : فيه عجائب كثيرة بطريق الكهرباء ، فقال : وما هذه العجائب

فإنى والله لفى شوق شديد لما تقول ؟ وإنما كان ذلك الشوق لأنى أدهش إذ أرى الهواء الذى يملأ هذا المكان يخاطبنى الآن ويقول لى : أيها الإنسان . أنا كما أحمل لك الروائح الذكية لسرورك والخبيثة لتحترس منها ، وكما أحمل طلع الأزهار من ذكورها إلى إناثها ، وأحمل إليك كلام من يكلمك فتعقله وتفهمه هكذا أنا أدخل جسمك وجسم الحيوان أغذيكم جميعا وأغذى نباتكم .

هذا هو الهواء يحدثنى عن نفسه ويقول : أنا أحمل العلم فى الكلمات اللاتى هن حركات تسمونها أنتم أصواتا فىّ . فهذه الكلمات أنا أحملها وأوصلها من العالم إلى المتعلم . فأنا نعمة من حيث لقاح الأشجار وجرى السحاب وسماع العلوم والأخبار . وفوق ذلك أنا أدخل فى تركيب أجسام الأحياء فأكون لهم عضلات . قال صديق : فلما سمعت هذا من الهواء زاد تعجبى ودهشى . فرجع الهواء يقول لى أيضا : فاذا لم تعقلوا هذه النعمة فوالله ليحولن الله النيتروجين الذى فىّ ويجعله آلات مهلكة لأجسامكم مخربة لمساكنكم كما خربت مساكن عاد وثمود .

هذا خطاب الهواء لى الآن سمعته ، فهل تحدثنى حديثا آخر عن الملح عسى أن أسمع عنه خبرا يسرنى فأسمع خطابه لأن لذة الحياة أن نسمع خطاب هذه المخلوقات حولنا ومن لم يسمع مات أصم جاهلا وأكثر الناس صم بكم عمى فهم لا يعقلون . فقلت .

(الملح وفوائده)

إن الملح تقدم عليه الكلام فى آخر (سورة آل عمران) وإنه مركب من الكلور والصوديوم والكلور جسم رائحته منطسة ممية مهلكة والصوديوم تقدم وصفه قريبا فى هذه السورة وهو جسم يحترق متى لامس الهواء فيتركونه فى الماء ومنهما تكون هذا الملح ، فهذا الملح يكثر فى ماء البحر وفى بعض طبقات الأرض ومتى مر التيار الكهربائى فى محلوله المائى كما مر فى النيتروجين مع الأكسوجين كما تقدم يخرج منه ثلاث مواد مهمة (أولا) الكلور (ثانيا) الهيدروجين (ثالثا) الصودا الكاوية .

فهذه المواد الثلاث يستخرج الناس منها اليوم قناطير مقنطرة كلها من نفس ملح الطعام المحلول فى الماء وظهر ذلك عند شلالات (نياغرا) بأمريكا فقد كانت كلمة كلور كلمة غير معروفة عند قراء التفسير . قلت له : ولكن فوائدها عظيمة فمنها :

(١) إنها تضاف إلى ماء الشرب فتطهره من الجراثيم القاتلة لاسيما جراثيم الحمى التيفوذية ، فقد كان هو السبب فى منع انتشار ذلك الداء الفتاك وقطرة منه واحدة تكفى لقتل الجراثيم فى ثمانين لترا من الماء .

(٢) ومنها أنه أى الكلور يضاف إلى الجير فيكون منه مادة تزيل مافى المادة التى يصنع منها الورق من الألوان فتفسخها ويصير أبيض .

(٣) ومنها أنه يضاف إلى مواد أخرى فينفع فى الطب وهو (الكلوروفورم) فيحدث التخدير ، فهو إذن قاتل الحشرات مبيض الورق مخدر الإنسان فى حال الأعمال الجراحية .

(٤) ومنها أنه هو نفسه غاز سام استعمل فى الحرب .

(٥) ومنها أنه يوضع مع مواد أخرى تكون منها غازات وأبخرة سامة .

(٦) ومنها أنه يدخل فى المفرقعات .

(٧) ومنها أنه يدخل فى تركيب المواد المهلكة للحشرات فى فن الزراعة .

سبحانك اللهم . تباركت يا ألله . ملح الطعام الذى أمامنا نأكله ونراه كل يوم يصبح مطهرا لشرابنا قاتلا للحيوانات التى تقتل آلاف الآلاف منا ، الملح إذن قاتل للحيوانات القاتلات لنا ، مبيض لورقنا منظف

له مزيل الآلام عن جرحانا . مهلك للأعداء فى الحرب، إذ يكون غازا ساما أو بخارا متحدا مع مواد أخرى مخرب للمبانى . فهو يقتل الأعداء من نوع الإنسان ومن الحيوان محافظة على سلامة الأبدان ، فقال صاحبي زدنا من هذا .

فياسعد حدثنا بأخبار من مضى   فأنت خبير بالأحاديث ياسعد

نحن عرفنا فوائد الكلور الذى هو أحد جزءى الملح . فما فوائد الهيدروجين . ومافوائد الصودا الكاوية التى حللناها من الملح مع ماذاب فيه من الماء . فقلت :

﴿ الهيدروجين ﴾

أما الهيدروجين فإنا إذا أحرقناه فى الهواء فانه يتحد بالأكسوجين ويتكون منهما الماء، ويبقى الأوزوت أى النيتروجين ويتحد هذا الغاز الأخير بالهيدروجين فى أحوال خاصة فيتولد من اتحادهما غاز (النشادر) المستعمل فى صنع الجليد .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : مامعنى هذا ؟ قلت معناه أننا لما أمررنا التيار الكهربائى بالملح المذاب فى الماء وانفصل الكلور والهيدروجين والصودا الكاوية أخذنا ندرس الكلور فعرفنا صفاته وفهمناها . قال نعم قلت : فأما الأدروجين فهو أحد العنصرين اللذين يتكون منهما الماء. فلما أحرقناه فى الهواء، والهواء فيه الأكسوجين أيضا وجد فى الهواء حبيبه . فقال مامعنى هذا ؟ قلت إنه وجد فى الهواء حبيبه وهو أكسوجين الهواء كما قال الشاعر :

جمع الهواء مع الهوى فى مهجتى   فتكاملت فى أضلعى ناران

فقصرت بالممدود عن نيل المنى   ومددت بالمقصور فى أكفانى

فقال مامعنى هذا ؟ قلت : سافر الشاعر إلى محبوبه فى سفينة فقاومه الهواء الجوى ولم يسعفه فمات بسبب الهوى المقصور بعد ماعاقه عن الوصول الهواء الممدود لأنه لم يصل لمحبوبه . ثم قلت : فهكذا هنا الهيدوجين قبل أن نحرقه فى الهواء . نظر فوجد محبوبه الذى يتحد به عادة وهو الأكسوجين مقيدا فى الهواء مع النتروجين فظن أنه سيعيش فى حسرة ولوعة وقد عاقه الهواء عن حبيبه ، فلما أحرق فى الهواء وجد الفرصة سانحة فاتحد مع حبيبه وكونا الماء مرة أخرى . فالهيدروجين قبل الاتحاد أصبح كأنه مد بالكفن بسبب الحب وأن غاية العاشق أن تتحد روحه بالمحبوب ، فأما الشاعر فانه مات بسبب الفراق . فاتحاد الروحين مطلوب الحب كما قيل :

أعانقها والنفس بعد مشوقة   إليها وهل بعد العناق تدانى

وألثم فاها كى تزول حرارتى   فيزداد ما ألقى من الهيمان

كأن فؤادى ليس يشفى غليله   سوى أن يرى الروحان يتحدان

فالهيدروجين هنا كان كأنه فى كفن قبل الاتحاد الذى هو المطلوب للمحبة وهذا المعنى آخر ماقرره العلامة الشيرازى فى الأسفار .

فقال هذه المعانى أدبية فلنرجع إلى مانحن فيه . فقلت نعم: لما اتحد الهيدروجين بحبيبه وهو الأكسوجين اعتزلهما العذول وهو النيتروجين . والنيتروجين نفسه يتحد بالهيدروجين بشروط خاصة فيكون منهما النشادر المستعمل فى صنع الجليد .

فقال صاحبي : الله أكبر . إذن الهيدروجين الذى هو أحد عنصرى الماء إن اتحد مع الأكسوجين صار

ماء

ماء وإن اتحد مع النيتروجين صار نشادرا . قلت له نعم . وأهم فوائد النشادر أن يستعمل فى تحضير السماد للزرع . فمن مركباته كبريتات النشادر ومنها فسفات النشادر . وهذه المركبات ترسل إلى البلاد الزراعية كمصر تغذى شجر القطن . قال : حسن إذن الملح الذى حللناه بالكهرباء أفادنا السبع الفوائد المتقدمة ثم أفادنا النوشادر الذى فيه النيتروجين سمادا للزراعة وهذا ثامن الفوائد . وهاك تاسعها وهو :

إن القطن إذا أصيب بأمراض يطهر بمواد كيماوية مثل مادة زرنيخ مركب مع الكالسيوم وهذه المادة لاتحضر إلا بواسطة الكلور المتقدم . وعاشرها أن القطن بعد غزله يحتاج إلى مايقصره أى يبيضه . ولا سبيل لذلك إلا بغاز الكلور أو بمسحوق آخر يدخله الكلور . وحادى عشرها أن الناس فى حاجة إلى جعل خيوط القطن لامعة كالحرير . ولا سبيل إلى ذلك إلا أن تعالج بمحلول الصودا وهو المادة الثالثة التى حصلنا عليها لما سلطنا الكهرباء على الملح كما تقدم فيصير القطن بهذه الطريقة أبيض ناصعا براقا . وثانى عشرها إذا أردنا صبغ القطن بالسواد أو بغيره من الألوان استعملنا أصباغ القطران وهذه الأصباغ لاتحضر إلا إذا كان من عوامل ذلك العمل (غاز الكلور) . فهذه اثنتا عشرة فائدة انتفع بها الناس وكلها ناجمة من الملح وحده ، ذلك الملح الذى يأكله الناس وأكثرهم لايعقلون إلا ماتحس به حاسة الذوق للطعام لاغير .

تباركت يا الله ، جمال بديع وحسن وبهجة فى هذا الوجود ، ملح منبوذ ، قليل القيمة ، كثير الوجود لايأبه له الناس نستخرج منه هذه الفوائد ، فهو يقتل الحيوانات الذرية القاتلة لنا ، ومنه غاز لإهلاك العدو ومفرقعات ، وهو منظف مبيض للقطن الخ . وهكذا الصودا التى جعلت القطن أشبه بالحرير « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

فقال صاحبى هذا جميل وجميل ، فهل من معدن آخر تصفه لنا ؟ فقلت : لم يبق فى ذا كرتى إلا .

﴿ الألومنيوم ﴾

هذا المعدن كان يستخرج قديما من (ركازه) بواسطة فحم كوك فكان يعسر تخليصه من مركباته فكان الرطل منه يباع بنحو (٢٨) جنيها ولكنه لما ظهر شاب أمريكى فقير يسمى (هول) ولم يصل سنه إلى (٢٣) سنة من العمر حتى كشف طريقة لاستخلاصه من ركازه بأن سلط عليه التيار الكهربائى فانحلت الكتل إلى أكسوجين وألومنيوم كما ينحل الماء إلى أكسوجين وأدروجين . وهذا الشاب الفقير قبل كشف هذه الطريقة لما مات سنة ١٩٢٤ ترك ثروة تقدر بآلاف الآلاف من الجنيهات . وسبب ذلك أن الألومنيوم له هذه الصفات :

(١) هو معدن متين .

(٢) لذلك تصنع منه أوانى الطبخ والمائدة .

(٣) ويقوم مقام النحاس فى أعمال الكهرباء .

(٤) يجعل فى الطيارات والسيارات .

(٥) تجعل منه صفائح للتفضيض لأنها تحفظ بريقها ولا تسود كما تسود الفضة فى الهواء .

(٦) مسحوقه يستعمل فى بعض الزيوت كدهان للحديد لمنع صدئه .

(٧) يركب مع النحاس فيكون معدنا ذهبيا إذ يكون سبيكة من النحاس والألومنيوم لها مظهر الذهب ولا تصدأ بالهواء .

(٨) والألومنيوم إذا خلط مع القصدير استعمل بدل النحاس وهو أفضل منه لأنه أخف وزنا وأقل تلفا

(٩) الألومنيوم يستعمل فى لحم المعادن ، وكان ثمن الرطل الواحد (٢٨) جنيها قبل الكشف التقدم كما قدمنا فأصبح اليوم (٥) قروش .

فلما سمع صاحبى ذلك قال هذا جميل ، إنه جميل جدا أن يصبح الهواء، ويصبح الملح عجائب سحرية تدهش العقل وهكذا الألومنيوم ، فماذا تقول الآن فى أمة الإسلام التى قلت فيها العلوم ؟ قلت أما أمة الإسلام التى قلت فيها هذه العلوم فإن أمرها لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قال إذن أنت تريد أن تقول إن الأمة آثمة بترك هذه العلوم بعد ظهورها لهم . قلت أو تشك فى ذلك ؟ ألست تتذكر أن هذه فروض كفاية ، ولقد ذكرتها فى مواضع كثيرة من هـذا الكتاب . ألم تقرأ مانقلته عن [جمع الجوامع] وعن الإحياء للغزالى وهذا إجماع علماء الإسلام . فهذه علوم واجبة وتركها حرام يورث عذاب الخزى والذل فى الحياة الدنيا «ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون» .

قال هذا أعرفه ، ولكن أريد ضرب مثل توضح به هذا التحريم ، فقلت : ماذا تقول فى عناية الله عز وجل بحياة الناس وأموالهم ؟ ألم يأمر بقتل القاتل ، وتغريب الزانى وجلده أو رجمه ، وقطع يد السارق أليس ذلك كله محافظة على الأنفس والنسل والمال ؟ قال بلى ، قلت : فإذا قطع اليد على ربع دينار أفليس هذا معناه أنه يريد المحافظة على أموالنا كما حافظ على أنسابنا ونفوسنا ؟ قال بلى ،قلت : فلو أن لك أبناء عدة وسلمت إليهم أرضك ليزرعوها ، ثم قلت لهم من أخذ من أرض أخيه زرعا يساوى (٢٥) قرشا آذيته أذى كثيرا فحافظ أبناؤك كلهم على ما أعطيتهم من الأرض وغرسوا فيها الحدائق والجنات والزرع ، وبقى لك ابن واحد فترك أرضه بلا زرع ولا عمل حتى صارت وحوشا يبابا ، فماذا تفعل بابنك ؟ ألست تسأله وتقول له لم أهملت أرضك ؟ أفلست إذا قال لك يا أبت إنى امتثلت أمرك فلم أسرق زرع إخوتى فكيف تغضب على ؟ ألست إذن تقول له : يا بنى أنت ولد شؤم ، أنا قلت لكم فليعاقب من أخذ درهمات من مال أخيه حرصا على أموالكم جميعا . فهم لما رأونى حريصا على ثروتهم زادوها لأنهم علموا أنى محب لثروتهم وغناهم (بسببين: السبب الأول) أنى حرمت عليهم أن يأخذ أحدهم مال الآخر (السبب الثانى) أنهم رأونى سلمت لهم الأرض فتسليمى الأرض لهم معناه الرغبة والمحبة لهم أن تنمو مزروعاتهم . فأما أنت يا بنى فلم تفهم واقتصرت على عدم الأذى ولم تراع نعمق ولم تستثمر أموالى ومثلك جدير بالطرد والحرمان فلآمرن إخوتك أن يملكوا أرضك ويستعملوك فيها فتكون عاملا تأكل بعرق جبينك وهم للأرض مالكون .

أفلست تفعل ذلك مع ابنك الذى ترك نصيبه من الأرض التى وهبتها له فعطل الأرض وعطل مواهب جسمه . فلا هبتك من الأرض قام بحقها ولا ما وهبه الله من الحواس والأعضاء قام باستعمالها فهو مطرود مبعد منك ومن الله . أليس كذلك ؟ قال بلى ، قلت : فهذه حال بعض المسلمين اليوم مع الله . فالله أعطاهم أرضه فتركوها وناموا فتركوا نعمها فلم يستعملوها فألهم أمما أن يستخدموهم فى أرضهم التى ملكوها .

الحق والحق أقول: إن الأمم الإسلامية اليوم إن لم تقم بما قلته فى هذا التفسير ليكونن هذا القرن آخر قرونهم ويهلكون ولا يترك الله أرضه فى أيديهم بل يحرمهم من الهواء ومن الملح ومن الماء تلك التى استخرج الناس منها هذه العجائب التى يقول الله فيها « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » .

يا الله : إنا نحمدك . عرفنا نعمك وفهمنا قولك وشاهدنا صنعك وها أنا ذا يا ألله أكتب هذا للمسلمين وها أنا ذا تارك الأرض وذاهب إليك .

فقال صاحبى أنت ذكرت مواهب الأرض . فما الهواء والماء والملح مثلا كيف يحرمهم منها ؟ قلت : الأرض ضربتها مثلا ولكن الهواء والملح والماء وأمثالها جهلها بعض المسلمين كما جهلوا نعم الأرض . فإذا كان الله أمر

أن

أن من قتل يقتل . أفليس هذا محافظة على أرواحنا كما قدمت ؟ قال بلى . قلت : وأنت إذا رأيت ابنك جالسا وأمامه نار تحرق بيوت وقصور أبنائك ثم هو أمامه صنبور يمكنه أن يفتحه وعنده مضخمة عظيمة وهى الآلة الماصة الكابسة التى يمكنه أن يطفئ بها النار فلم يفعل ذلك حتى احترقت تلك القصور والدور فلم يفعل ابنك شيئا من ذلك أفلست تكرهه ؟ قال بلى ، قلت حسن . هكذا فعل الله مع المسلمين ، هذا الكلور وهو فى ملح الطعام أشبه بالآلة التى تطفئ النار فهو قاتل الميكروبات فى حمى التيفوذ كما تقدم والمسلم قد سمع هذا أقربه فى هذا التفسير . أفليس إذا ترك هذه العلوم يغضب الله عليه بل الغضب هنا أشد لأن غضبك لأجل نفوس أبنائك وهم يعدون على الأصابع . أما هنا فهى لمنافع أمم وأمم جيلا بعد جيل وأنا موقن كل الإيقان أن هذا التفسير متى انتشر هو وأمثاله يهب المسلمون مرة واحدة لحوز هذه العلوم ، وإذن تصبح الكرة الأرضية لها شأن غير شأنها بالأمس ، فقال : وماذا يصنع المسلمون اليوم وكثير منهم عندهم محتلون لبلادهم ، فقلت : إن أكثر بلاد الإسلام اليوم مستقلة اليمن والحجاز مع نجد وبلاد الفرس والأفغان وأمثالها فهؤلاء من قرأ من هذه الأمم هذا الكتاب وفهمه هو وأمثاله وجب عليه أن يعلن الفكرة فى بلاده بأى وسيلة كانت بل يجعل حياته وقفا عليها ويحمل حكومته على الإسراع بإرسال تلاميذ حالا لدرس جميع العلوم كما فعلت اليابان ويرسلهم للأمم المختلفة لا لأمة واحدة . وهكذا يجب على الأغنياء أن يرسلوا أبناءهم على حسابهم ويدرسوا تلك العلوم ثم يفتحون المدارس فى بلادهم كما فعلت اليابان كما قدمنا . فأما الأمم التى احتلها الأجانب فإن كانوا مستعبدين جدا فكلامى هذا لا يصل إليهم وإن وصل إليهم فهم لا وقت عندهم لفهمه ، فأما الأمم التى احتلها الأجانب ولأبنائها ذكاء فليكونوا جمعيات وليرسلوا أبناءهم فى بلاد مختلفة لتعلم العلوم والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

فلما سمع صاحبى ذلك عرفنا جمال العلم والحكمة الناتجين من الهواء ومن الملح إذا سلطنا الكهرباء عليها وعرفنا المسلمين متى قرءوا هذا أسرعوا إليه وإن قصروا أذنبوا ، ولكن هذا المقام مقام غزير الفائدة جليل العائدة ، فهل لك أن تأتى لى بمثال غير ما تقدم لأنى أحس فى نفسى بنور وإشراق وبهجة حين أسمع هذا القول منك وأنا موقن أن الناس إذا قرءوا هذا بهذا الأسلوب الذى يفهمونه زاد تعجبهم وفهمهم وارتقت بلادهم . فقلت إن المقال قد طال . فقال كلا إن هذه الآية تجمع العلوم كلها فليس يبدع أن تريناه منه زهرات تشم رائحتها وتبتهج بمرآها وتنشرح بها صدورنا ، فإن العلم على هذا الأسلوب نعمة ورحمة وبشرى وابتهاج لنا وروح وريحان وجنة نعيم ، إنى أحس بنعيم فى نفسى حينما أسمع هذا الشرح والبيان نعم أنت لست من الأخصائيين فى هذه العلوم ولكن هذا التعبير أحس فيه بنور وانشراح صدور فزدنا منه زهرة أخرى واجن لنا من بساتين العلم ثمرة أخرى لتكون لنا نورا وسرورا وبهجة وجمالا . فقلت ألم تسمع بنبأ أدهش العقول وهو :

زجاج بلاس

فقال زجاج بلاس ؟ وماهو ذا زجاج بلاس ؟ فقلت زجاج بلاس زجاج له صفات غريبة وسيملأ الأرض قريبا ! فقال صفه لى فقلت :

(١) هو زجاج قريب فى منظره من زجاجنا .

(٢) زجاجنا سريع العطب ، أما هذا الزجاج الحديث فإنك إذا ألقيته على الأرض وأردت كسره فإنه

لا ينكسر ، ولو أتيت بفأس أو قادوم ثم أخذت تضربه فإنه لاينكسر مهما أوتيت من قوة . وإنما ينشق ويتحطم أما الكسر فلا ، فقال هذا عجب .

(٣) وهو تدخل منه الأشعة التي هي فوق البنفسجية من الشمس . ومعلوم أن تلك الأشعة لها مزية كبرى في الطب وزجاجنا العادي لايسمح بدخولها ، ولقد علم الناس أن عند بعض الناس نوعا من الزجاج يدخل الأشعة فوق البنفسجية وهو غال جدا ، ومعلوم أن الزجاج المعتاد مصنوع من المواد الرملية مع نحو البوتاسا والرصاص ، فأما الزجاج (بلاس) الجديد فانه من مواد أخرى ولكنها قليلة الثمن .

(٤) يصنع من هذا الزجاج ألواح على صورة قشر السلحفاة وعلى شكل الرخام . ويصنعون منه أقداح الشاي وأقداح الماء فلا تحطم ولا تكسر ، وقد صنعوا منه (القلم الأمريكي) وجهاز اللاسلكي والاسطوانات ، ولا جرم أن القلم الواحد منها يكفي الإنسان طول حياته .

(٥) وسيصنعون منه تطريزا للثياب فان هذا الزجاج يسهل تلوينه ، فاذا غمست إبرة في هذا المحلول ونقشت بها الثياب صار لها منظر جميل بهيج بلا مشقة في العمل . وهناك شركات تقوم بتجارب في الملابس وتطريزها بهذه المادة الزجاجية الجديدة . وهنا شركة لها مصنع كبير في ضواحي مدينة (نوتنجهام) ولها مصنع آخر تام المعدات في (مدينة فينا) بالنمسا، وهذا المصنع عجز عن الطلبات المقدمات له لأجل ألواح النوافذ نحوها والأدوات الداخلة في أعمال الكهرباء .

(٦) إن المخترع لهذا الزجاج (المستر بالي) أستاذ الكيمياء بجامعة ليفر بول هو ونجله .

هذا هو الذي أردت أن أخاطبك فيه الآن ، أفلا ترى بعد هذا أن نوع الإنسان لايزال طفلا ، فإذا كان هذا العالم وابنه سيقلب عالم الصناعة بعمل جميل أجمل من الزجاج الذي نعرفه أفليس معنى هذا أن هذه الإنسانية طفلة الآن ولن تكون كاملة إلا إذا استخرجت القوى من جميع العقول والقوى من جميع المواد حولنا أيها الناس : أنتم جميعا في حاجة إلى علماء يحولون عقولكم عما أنتم عليه من استعباد بعضكم بعضا إلى استخدام جميع العقول الأرضية في استخراج جميع المنافع المادية والمعنوية .

هذه الأرض مملوءة بالجمال ولكن أهلها لايزالون أطفالا فإذا داموا على قولهم شرقي وغربي وقوى وضعيف فهم جميعا على خطر يجب على جميع الناس في الشرق والغرب أن يتعاونوا على استخراج عقول كعقل (المستربالي) ، وليس (المستربالي) لانظير له بل في بلاد إفريقيا وآسيا وجميع الأمم عقول فيجب استخراجها لتستخرج ثمرات الأرض إن أهل الأرض جميعا مقصرون ولا سعادة لهم إلا إذا اوتقت جميع العقول والمواهب فاستخرجت جميع المنافع في الأرض لأن ربنا واسع وعليم وخلق لنا عقولا وقال اعملوا «والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

مسامرة

ثم قلت هل لك أن أحدثك حديثا غراميا هو أليق بهذا التفسير ليكون ترويحا للنفس وتنويعا للفكر وانشراحا للصدر . فقال : إن ماتقدم لاتسأم منه النفس إنه بهجة ونور وانشراح صدر لاتسأم منه النفوس ولا تأنف من الإطالة فيه الطباع فقلت ولكن إذا تفننا في الحديث (والحديث شجون) كان ذلك أعون على الدرس وأسرع للفهم وأصفى للذهن وأقرب لانشراح الصدر فقال : أحب ذلك فقلت إن هذه المحادثات الصناعية العلمية التي ذكرتها بمناسبة قوله تعالى « مايفتح الله للناس » الخ قد كنت أحدثك بها وأنا أشبه بأهل الحب الجسمي والغرام لأن الحب يتبع الجمال والجمال جسمي وروحي . فالجمال الجسمي في الأنف والفم والخد والعين وحسن اتساقها وجمال تركيبها . قال نعم ، قلت وهذا الجمال

الإنساني

الإنسانى فى الوجه إذا ساعده حسن الصوت وجمال الرائحة ونور العلم وبهجة الجمال الإخلاص والذكاء والحلم كان هذا المحبوب مما لا يطاق فراقه . قال نعم . قلت : ومعلوم أن كل جميل فى الأرض لم ينل كل هذه الصفات والجمال الظاهر « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءا حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » قال نعم . قلت ولذلك نجد الشاب بعد الوصال بزمن معلوم يرى أن بهجة الجمال تغيرت وأخذت الزوجة ترضع ولدها وهو مجد فى طلب الرزق وينقلب الحب اللفظى الظاهرى إلى حب قلبى هو حب المنفعة والاتحاد فى أمر الحياة . قال نعم قلت ومعلوم أن العالم محبوب ، والشجاع محبوب والمحسن محبوب وحب العلماء لا يزول لكن حب العشوق لظواهر الجمال يتغير سريعا على مقتضى تغير الجمال . قال نعم . قلت : إذن فى الأرض عقول تعشق العلم وتعشق العلماء ومنهم من يعشقون خالق العلم والعلماء ، لأنهم إذا رأوا جمالا فى الوجه أوفى العقل أوفى الخلق . قالوا إن مبدع هذا الجمال أجمل من هذا جمالا لم نره .

فالليث وإن لم آلفه فقد تصورت خلقه   والبحر وإن لم أره فقد سمعت خبره

« والأذن تعشق قبل العين أحيانا » قال نعم . قلت : بعد هذا أقص عليك قصصا جرى فى أيامنا وهو خبر (فون شونبرج) ومحبوبته (ستو ستود) . قال فما خبرهما ؟ قلت يحكى فى أيامنا هذه أن (شونبرج) منذ ثلاث سنين من تأليف هذه المقالة أثناء طبع هذه السورة ذهب إلى (نيويورك) بالممالك المتحدة فبينما هو سائر فى المدينة إذ رأى صورة فتاة من الصور التى توضع على الحائط عادة فى جميع العالم . وكانت هذه الصورة فى معرض الصور فلما وقعت عينه على هذه الصورة المعينة حتى ذهل لمرآها وتعجب من جمالها ، وهو رجل عنده لقب (كونت) ومثل هذا لا شىء يشغله عن الناظر لكثرة المال عنده ولم يجد دليلا يدل على اسمها ولا صنتها ولا أحوالها فأخذ يضرب فى الأرض شرقا وغربا وهذه الصورة لا تفارقه فى جميع أحواله ، وبينما هو مرة فى (برلين) بألمانيا إذ رأى نفس الصورة التى كان رآها فى (مدينة نيويورك) فالتهبت المحبة فى قلبه وزاد الغرام والهيام وأنشد قول ابن الفارض :

ما بين معترك الأحداق والمهج   أنا القتيل بلا إثم ولا حرج
ودعت قبل الهوى روحى لما شهدت   عيناى من حسن ذاك المنظر البهج

وقد زاد به الغرام واشتد به الهيام حتى صار يغدو ويروح كل صباح على هذا المعرض ببرلين ويقف أمام الصورة كالعابد أمام محرابه فيقف جامد الحركة لا يسمع له صوت ولا ينبس ببنت شفة مبهوتا مسحورا متغيرا اللون مشغول اللب ، مكلوم الفؤاد . فبينما هو على تلك الحال إذ سمع رجلا يقول : « ما أشبه هذه الصورة بصاحبتها » فتقدم إلى المتكلم وسأله عن اسمها فقال اسمها (ستوستود) من مدينة نيويورك فأسرع إلى نيويورك وخطبها من أبيها فرده أهلها بلطف ، أما هى فلما رأت إلحاحه رحلت من البلاد وفرت إلى أوروبا فسافر هو معها ولم يفارق كل قطار يستقل بها أو بلدة تدخلها أو فندق تأوى إليه أو سفينة تقلع بها وكانت بلادنا المصرية خاتمة المطاف فقد جمعهما فى النيل زورق وهما قد ذهب معا من أسوان إلى الشلال ، فأما هى فهذا رأيها ، وأما هو فإنما هو تابع لها . هنالك أذن الله للعاشق أن ينال ما طلب فاتفقا معا على الزواج ونال العاشق مراده اهـ .

فقال : هذه نادرة عجيبة وماذا تريد من هذه القصة ؟ قلت . إن هذا منطبق على هذا النوع الإنسانى مع هذا العالم الجميل وصانعه الحكيم . إن الله فعل مع الناس ما فعله المصورون مع الناس . ألم تر أن الله قد ملأ أرضنا وسمواتنا بالصور الجميلات فى الشموس والأقمار والكواكب وكل معدن ونبات وحيوان . ألم تكن الأرض أشبه بما ورد فى الآثار من أن هنالك يوم القيامة سوقا تباع فيه الصور . قال نعم . قلت : فهاهى ذه

أرضنا سوق تباع فيه الصور. ومن أراد صورة نالها . إن (فون شونبرج)لمارأى الصورة أغرم بها . لماذا؟ لأنها موافقة لمزاجه وقد رأى آلاف من الناس هذه الصورة كل يوم فلم يغرموا بها ولم يبحثوا عنها لأنها لاتناسبهم إذ ليس كل جميل يناسبنى ولولا أن هذه الصورة جميلة لم تعلق فى ذلك المكان إذن كل صورة هناك جميلة ولكن الطلب راجع إلى الذوق والمناسبة بين العاشق ومعشوقه . هكذا الله سبحانه أبرز صور هذه الدنيا الجميلة فجعلها منشورة أمامنا لم يحجبها ولم يمنعها وقال «هاؤم اقرءوا كتابيه» وانظروا فقرأنا . فكل من أدركت نفسه جمالا فى عالم من عوالم المادة بحث فيها واستخرج للناس فوائدها فهذا العالم الذى صنع (زجاج بلاس) وهو الزجاج الحديث القوى المتين . رأى مواده وهو فى مصنعه فخطر بباله أن يستخرجه، لأن هذا الجمال ملائم لعقله ولكن الصور الجميلة الإلهية متمنعة أكثر من تمنع الفتاة الأمريكية فإذا رأينا هذه الفتاة الأمريكية فرت من وجه عاشقها شرقا وغربا لما أحس قلبها بأنه مخلص وبأن المخلص يستحق تسليم مطلوبه . هكذا الصور التى زوّق الله بها المادة والصفات الجميلة المخبوءة فيها، التى تشبه صفات العلم والحلم والإحسان فى النفوس الإنسانية فهذه الصور متى طلبها الإنسان بجد وشوق وإخلاص فإن صاحب المعرض وهو الله يعطى هذا الطالب العاشق مطلوبه كما فعلت الفتاة الأمريكية إذ سلمت نفسها لمن أخلص فى حبها لأن هذه الفتاة من صنع الله والله هو الذى وهبها الجمال ثم علمها مقابلة الحب بمثله.هكذا أقول وأنا واثق بما أقول. إن هؤلاء العلماء الذين نبغوا فى الأرض وأحدثوا فيها انقلابا عظيما كانوا فى طلبهم أشبه بهذا الكونت وفعل الله معهم مافعلته الفتاة الأمريكية مع الكونت العاشق لها « ولله المثل الأعلى » « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » وعليه أقول إن أحبابى قراء هذا التفسير ستحدث لكثير منهم شئون وشئون وسيصبح كثير منهم مغرمين عاشقين لهذا الوجود ولهذه العلوم ولرب العلوم وسيعاملهم الله هذه المعاملة عينها وهو لا يعطى إلا العاشق أما المتكلف الذى لم ينقلب تكلفه عشقا فهو من الصالحين لامن الحكماء المحققين . وأقول أيضا : وإذا كانت الفتاة الأمريكية وإذا كانت العلوم والمعارف المخبوءة فى هذا العالم يحجبها الله عن الناس ولايحظى بها إلا العاشقون لها الباذلون فيها مهجهم الفرحون بها المولعون. فما بالك بمنزل العلوم وخالق الصور الجميلة. فهو الكبير المتعال، وإذا كان مخلوق الكبير المتعال هذا شأنه فما بالك به . وهو الذى إليه يرجع جميع العالمين .

الاتحاد المادى والمعنوى

(وهذا الأخير قسمان . صناعى وطبيعى . ومعنى السلام على الصالحين فى الصلاة)

فلما سمع صاحبى ذلك قال : أود أن تزيدنى فى معانى الحب لأن الحب حياة العلوم وكلما زدنا به علما زدنا سعادة فقلت : إن علوم الكيمياء اليوم قد أوضحت أبواب الحب وشرحته وفسرت لنا معنى قول المصلى « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » . فقال وأى مناسبة بين الصلاة وبين علم الكيمياء فقلت : رعاك الله، ألم تسمع كلام الهيدروجين المتقدم ذكره وإلام يشير ؟ ألم تسمعه وهو يتحد تارة بالأكسجين الذى فى الهواء وتارة بالنتروجين الذى منه ؟ فى الأول كان منهما الماء وفى الثانى كان منهما النشادر ، وبالماء حياة كل حى ، وبالنشادر مع مواد أخرى سماد مزارعنا . فقال ماسمعت من الهيدروجين شيئا . فقلت : إن الأدروجين لما أحرق فى الهواء ورأى حبيبه وهو الأكسوجين انطلق إليه حالا وعانقه وقال :

نقل فؤادك ماستطعت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال

وقال: أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنا أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

فهو عاشق للاكسجين وليس عاشقا تام العشق للنيتروجين فاحتاج فى الاتحاد مع الثانى إلى أحوال خاصة أما مع الأول فكان مسرعا إليه . ثم إنى فهمت من هذا الاتحاد وأمثاله أن الاتحاد على (ضربين) اتحاد جسمى واتحاد روحى . والاتحاد الروحى أو المعنوى على ضربين أيضا : اتحاد طبيعى واتحاد صناعى . أما الاتحاد الجسمى فهو مانراه فى المادة من اتحاد الهيدروجين والأكسوجين ثم اتحاده بالنيتروجين أى الأزوت وكاتحاد ذرات الغذاء والماء الداخلات فى أجسام النبات والحيوان فإنها بالاتحاد كان منها هذه العوالم كلها . ومن عجب أن يكون هذا العالم يسعى لهذا الاتحاد . أما الاتحاد المعنوى أو الروحى الطبيعى فهو اتحاد الصور العلمية بالأنفس الإنسانية فإن هذه النفوس لما نزلت إلى الأرض لم يكن عندها علم ولا حكمة بل كانت عقلا ساذجة فأتى إليها العلم من الحواس ومن العقل ، وما العلم إلا صور معنوية . فهذه الصور اتحدت بهذه النفس كما اتحد الأكسوجين بالأيدروجين فتكون الماء . هكذا هذه الصور المرئية والمسموعة والمشمومة والمذوقة كلها قد اتحدت بهذه الأرواح ففعلت بها مافعلته الأغذية بالأجسام العضوية ، فالجسم لم يكن حسنا إلا باتحاد العناصر الداخل فيها اتحاد الأكسوجين مع النيتروجين . هكذا الروح لم تتم ولم تكمل إلا باتحادها مع الصور التى وردت لها من الحواس فبها نمت وبها عقلت . فكما رأينا أن الطفل فى أول أمره وهو جنين فى الرحم (انظره فى سورة طه عند قوله تعالى « قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » لم يكن إلا بيضة لاتراها العين فى الرحم ثم تغذى بماء الحيض وأخذ ينمو شيئا فشيئا ومر على أدوار مختلفة ، هكذا كان إدراكه أشبه بهذه البيضة الصغيرة ثم أخذ ينمو بما يرد إليه من الصور الواردة من الحواس فإذا كنا نرى أن البيضة الأولى فى الرحم أصبحت لاتنفصل عن المواد التى وردت لها واتحدت بها هكذا هذه الروح الإنسانية أصبحت لاتنفصل عن معارفها . فقال لى هذا القول لادليل عليه فإننا ننسى ما عرفنا وإذا كبرنا أصبحنا نعرف بما لانعرف . فقلت له : الاتحاد باق كما هو فى حال النسيان وفى حال الهرم ، وغاية الأمر إنه أصبح مريضا فى عقله كما أنه مريض فى جسمه فإذا كان اتحاد الجسم لم يبطل بمرضه هكذا اتحاد النفس بالصور لم يبطل بمرضها ، وأيضا : يقال إن كل ماعرفناه مخزون فى نفوسنا مهما طال عليه الأمد فهو أثبت من الأحوال المادية ألا ترى أننا إذا رأينا ذاتا جميلة ثم مرت عليها سنون فمرضت أو ماتت فإنها فى عقولنا محفوظة لم تتغير فالفلاسفة استدلوا بهذا على أن نفوسنا أصون للصور وأوعى لها من المادة وأحفظ لبقائها ومعلوم أن الناس فى أحوال المرض يتذكرون أمورا قد نسوها فى حال الصحة فهذا دليل على أن النسيان ليس معناه أن الصورة قد زالت . كلا . بل معناه أنها منغطاة عن الذاكرة لعارض عرض لها ، إذن عندنا اتحاد جسمى مادى وهو المشاهد واتحاد روحى أو معنوى وهو مانحس به فى نفوسنا وهذا هو الاتحاد الطبيعى .

أما الاتحاد الروحى أو المعنوى الصناعى فهو اتحاد رجال الحكومات والشركات ووضع النظم فى الأرض واتحاد الجمهوريات والمجالس النيابية ، فهذه كلها اتحاد صناعى ، فهم يعملون للدولة وللحكومة ولكن الشهوات غالبة على كل واحد منهم فليس اتحادهم كاتحاد الأكسوجين بالأيدروجين ولا كاتحاد الصور بالأنفس الإنسانية .

والعالم الذى نحن فيه لاتنال فيه نعمة إلا بالاتحاد؛ فلولا اتحاد عناصر أجسامنا بعضها ولولا اتحاد الصور بأرواحنا ماكانت أجسام ولا كانت مدنية وحياة، إذن الاتحاد بجميع أنواعه هو الذى عليه نظام هذا الوجود ، والذى عرفنا قيمته جهرة هو علم الكيمياء وهو العلم الشريف البهيج الجميل .

فقال صاحبي هذا موضوع يرجع إلى الفلسفة والحقائق ومانتيجته عملا ؟ قلت الآن وصلنا إلى مانقصد إن نتيجة هذا الموضوع أن هذه العقول الإنسانية إلى الآن لم تتحد اتحادا طبيعيا ولا صناعيا فهم أشبه بعناصر متفرقة قليلة الفائدة والعائدة إن أهل الأرض اليوم لايزالون فى حال الطفولة أوالمراهقة ولم يزالوا فى مبدأ أمر الحياة . إن الله حكم على هذا النوع الإنسانى أن لايرتقى مرتبة إلا إذا ارتقى إليها بنفسه ولم يأذن لهم أن يخرجوا من جوابهم إلا بأعمالهم الخاصة . والدليل على ذلك أن أهل الأرض لم يعطوا الكهرباء إلا بعد ماجدوا لها ، ولا أعطوا الحديد ولا النحاس إلا بعد مابحثوا عنهما . ألم تر إلى قوله تعالى « وأن ليس للانسان إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى » فمن ظن أن سعى الإنسان خاص بالأعمال الصالحة الفردية فقد ضل وغوى .

أيها الذكى . إن كتابى هذا ليس خاصا بالمسلمين . إن كتاب الله عز وجل لم ينزل للمسلمين وحدهم . إن كتاب الله للعالم قاطبة لأن قوله عام لم يختص بأمة دون أمة . فالمفسر يجب عليه أن يوجه اهتمامه للعالم كله وهاأنا ذا أجدنى مسوقا لهذا المعنى . أجد قلمى ولسانى وقلبى يتسابقون إلى فهم النظام العام ومخاطبة الأمم كلها . إن كتاب الله لسائر الأمم فلأجعل كلامى للمصالح العامة الإنسانية . وإذا كنت منذ (١٨) سنة ألفت كتاب [أين الإنسان] وخاطبت الأمم كلها وأنا عبد من عباد الله فمابالك بما أكتبه فى تفسير كلام الله ، ففى هذا التفسير أخاطب الأمم كلها من باب أولى والله هو الملهم والله هو المتولى أمور الناس عامة وخاصة وهو الذى يعلم نتيجة هذا وليس على إلا أن أسطر ماامتلأت به نفسى وبرز على قلمى وعلى لسانى فلذلك أخاطب الأمم الإنسانية فى هذا التفسير فأقول :

أيها الأمم الإنسانية : أنتم قدخلت من قبلكم أمم فسرتم فى الأرض فنظرتم كيف كان عاقبتهم : كان الأولون من نوع الإنسان لايعرفون من العلم إلا أن يستعملوا الحجارة فى أدواتهم ، فالله لم يكلفهم بأكثر من هذا ثم جاء العصر البرنزى والحديدى ثم البخارى والكهرباء ولم يرد أن يعطيهم شيئا من ذلك إلا بجدهم واجتهادهم ، إذن ثبت بالفعل هنا (أمران : الأول) أن الخزائن مقفلة أمام الإنسان (الثانى) إن هذه الخزائن لاتفتح إلا بجدنا . ثم يظهر لى أن للأرض مستقبلا يكون الناس فيه سعداء . ذلك هو اليوم الذى ورد فى القرآن « حتى تضع الحرب أوزارها » فهنالك يوم يصبح الناس فيه إخوانا فى الحياة متحدين اتحادا كاتحاد الأوكسجين والادروجين وكاتحاد الصور الممتزجة بأرواحنا ذلك يوم تكون فيه الإنسانية فى الدنيا كأنها فى جنة ، فالجنة للصالحين بعد الموت ويوم القيامة لامتزاج أرواحهم واتحادهم فى أخلاق وعادات . والأرض تكون فيها سعادة نسبية لأهل الأرض.

أيها الأمم : إن هذه الأرض لم تحظ قبل اليوم بانكشاف الحقائق واطلاع الغربى على ماعند الشرق وبالعكس حاصل ولم تكن هناك مواصلات ولا محادثات على بعد مثل ماهو اليوم .

أيها الأمم إن النبى صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء وهو ينادى جهرة بالسلام العام . نعم هو استعمل الحرب مؤقتا فى الزمان الذى كان الإنسان مضطرا إليها فيه . ولكن الإسلام يسعى من جهة أخرى إلى السلام العام ويود الإسلام أن الأمم كلها تكون على وتيرة واحدة فى الارتقاء والأعمال العامة كما قال علماؤنا (لايبقى فى الأرض إلامسلم أومسالم).

إن أهل هذه الأرض قد آن لهم أن يعملوا بما كتبته فى كتابى [أين الإنسان] بحيث يتعلم كل امرىء ماقدر عليه ولاتذرون فردا ولاأمة بلاتعليم ولاتذرون أرضا ولاهواء ولاماء ولا ضوء بلابحث لاستخراج منافعه ولن تنالوا هذه النعم إلا بتعليم جميع الأمم وجميع الأفراد تعليما على مقدار الاستعداد. إن الاستعداد فى الأرض موضوع فيها بقدر وعلى مقتضى سعادة أهلها فلنقص عنه نقص فى السعادة .

أيها الأمم إنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني . أنتم أمامكم العلم والعمل وأمامكم أرض الله الواسعة . لننظر فى الإنسانية الحاضرة . إن الأمم القديمة لم يفتح لها ما فتح لنا . إن العلوم قدفتحت أبوابها والمادة أخذت تناديكم أن هلموا إلى والسعادة أصبحت على الأبواب ، تقولون نحن كشفنا . نعم كشفتم ولكن كشفتم جزءا من آلاف الآلاف . إنكم اتبعتم خطوات الحيوان فى كشفكم كما تقدم (فى سورة طه عند قوله تعالى «قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ») ولكن لم تلحقوا شأوه .

ألم تدرسوا المرجان وجزائره ألم تنظروا بأعينكم (انظرها مصورة فى سورة الفرقان عند آية « وهو الذى مرج البحرين ») هل اتحدتم كما اتحد المرجان . لا . لا أنتم قلدتم النحل فى خربه والعنكبوت فى صيده والفأرة فى جر الأنهار للمنازل ولم تتجاوزوا أعمال النحل فى استخدام الأسرى وفاتكم حيوان المرجان . ذلكم الحيوان الذى أخذ المادة الكلسية التى فى ماء البحار وحولها إلى هيئة أشجار ثم هيئة جزائر وتلك الجزائر تعد بالآلاف تنبت فيها النباتات وتعيش فيها الحيوانات آمنة مطمئنة أما أنكم عن عمله مقصرين تحسد الأمة منكم إلى أمة أخرى فتهجم عليها فتأكل خيراتها وقد علمكم التاريخ أن من اتكل على غيره فى إصلاح نفسه أوجلب طعامه كان ذلك سببا فى ضعف نفسه جسما وعقلا ثم يكون الانقراض .

اتحد حيوان المرجان فتفنن فى صنعه حتى كون جزائر وتلك الجزائر كانت سببا فى الحياة لأمم وأمم من الحيوان تعيش فى أمن وسلام .

أنالست أقول إن هذه الأجيال تستطيع ذلك . إن علومها ومعارفها وقلة عددها لن تسمح لها بإحداث قارات جديدة فى البحر . ولكن لتنظر أمم الأرض الآن فى الأرض التى تسكنها الآن . اللهم إنى أقول ما ألهمتنيه وأنت شهيد وأنت المهيمن على الأمم وعلى الأفراد .

إنى أضرب لكم مثلا مما فى هذه الأرض . إن مساحة الجزائر الهندية الشرقية التى تحكمها (هولانده) وحدها بقطع النظر عن الباقى مليون وتسعمائة ألف كيلو متر مربع أو (٧٣٣) ألف ميل مربع وهو يعادل مساحة بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا وسويسرى والدانيمارك والسويد . وبعبارة أخرى : يساوى نصف مساحة أوروبا تقريبا من غير روسيا .

فلننظر إلى السكان فإننا نجد جزيرة جاوة وجزيرة مدورا وهما من تلك الجزائر نحو (٣٦) مليون نفس و ٤٠٠ ألف نفس تقريبا ومساحتهما معا نحو (١٣١) ألف كيلو مترا أى (٥٠) ألف ميل تقريبا ، وتعادل مساحة انكلترا بدون اسكتلندا وويلز وارلندا . وسكان سومطرة (٦) مليون وربع مليون تقريبا مع أن مساحتها (٤٢٠) ألف كيلو مترا أى (١٦٢) ألف ميل مربع فهى أكبر من مساحة بريطانيا العظمى .

فأنا لا أطيل فى سرد الأمثلة ، فإذا كانت (سومطرة) بمقدار جاوة فى المساحة نحو ثلاث مرات ولكن سكانها أقل منها ست مرات فمعناه أنها تسع نحو مائة مليون نفس . وإذا كانت جزائر الهند الشرقية التابعة لهولندة وحدها مساحتها بمقدار مساحة نصف أوروبا تقريبا وسكانها ماهم إلا (٥١) مليونا من النفوس والأرض خصبة والمناخ أرقى من مناخ أوروبا لأنه عند خط الاستواء ، وخط الاستواء مهد الجنس البشرى كما قيل (وهو مهبط البركات ومعدن النعم الإلهية التى يلقيها الله بأشعة شمسه على الأرض) فهذا معناه أن هذا النوع الإنسانى الآن لم يزل طفلا قد عطل أرضه وتقاتل فى أرض ضيقة متبعا خطوات الجهالة كما قال تعالى « قتل الإنسان ما أكفره ـ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » فالإنسان لم يؤتمن على الأمانة التى سلمت له وهى هذه النعم . إن جزائر الهند الشرقية التى اتخذتها مثلا تمتد من آسيا إلى استراليا بين درجة (٩٥) ودرجة (١٤١)

من خط الطول شرقا وبين الدرجة (٦) شمالا من خط الاستواء و (١١) جنوبا منه (وأطول خط من الغرب إلى الشرق خمسة آلاف كيلو مترا) فتمخر فيها السفينة البخارية فى (١٤) يوما فى وقتنا هذا ، وهذه المسافة (الخمسة آلاف كيلو مترا) تعادل تقريبا المسافة بين الشاطىء الغربى لأرلندا فى الإطلانطيق «ويين الشاطىء» البحر الأسود فى آسيا . وأبعد مسافة من الشمال إلى الجنوب (٢٠٠٠) كيلو مترا، وتعادل المسافة بين البحر الأبيض الشمالى وروسيا . ومجموع طول شواطىء هذه الجزائر يعادل طول دائرة الأرض . فجزائر الهند الشرقية ضربتها مثلا لما فى الأرض من متسع عظيم . وكم فى أمريكا الشمالية والجنوبية من أرض خالية من سكانها وكم فى العقول الإنسانية من مواهب لم يستخدمها ولم يستخرجها الإنسان .

إن المسلم يقول فى صلاته « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم » ويقول المسلم فى صلاته « السلام عليك أيها النبى السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » . المسلم يسلم على الناس وعلى أهل منزله ويسلم على نفسه وعلى الصالحين إذا دخل المسجد . إن الصراط المستقيم بأل هو صراط الله وصراط الله هو الصراط الذى قامت به السموات والأرض والصراط الذى قامت به السموات والأرض هو صراط يوجب الاتحاد لأنا لم نجد نباتا ولا حيوانا ولا إنسانا قام على الأرض إلا بعناصر متحدة فقام ذلك المخلوق وهو الاتحاد المادى الجسمى كما تقدم اتحاد الهيدروجين بالأكسوجين تارة فكان الماء وبالنيتروجين تارة أخرى فكان النشادر . إذن صراط الله يرجع إلى النظام والنظام أوجب الاتحاد وهكذا اتحدت الصور العلمية فى نفس هذا الإنسان فكان العلم وكان العمل وهو الاتحاد المعنوى الذى قدمناه .

يقول المسلم « اهدنا الصراط المستقيم » والصراط المستقيم صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض . فملكه فى السموات والأرض لم يتم إلا بالنظام والنظام أوجب الاتحاد والاتحاد قامت به الحياة . فاتحاد ذرات الأجسام واتحاد الصور العلمية فى العقول قام بهما هذا الوجود ، فالمسلم يقول اهدنا نفس هذا الصراط ونفس هذا الصراط هو صراط المنعم عليهم الذين هم غير المغضوب عليهم وبهذا الصراط يكون السلام العام الذى يقوله المسلم فى التشهد ويقوله لمن يقابله ويزوره ، والمسلمون قد فرقهم الله فى الأرض وانتشروا فيها فى كل صقع وبلدة وهم يقولون هذا القول فى صلواتهم ويريد الله بهذا أن يرقى الإنسانية كلها لأن الأرض مملوءة بالخيرات ، وقد كان الإنسان قديما تحصده المجاعات والحروب والأمراض والطاعون وهاهوذا الآن يسعى ليقلل الحرب والمرض كما سعى وخفف وطأة الطاعون . فهاهم أولاء يكثرون وينتشرون فى الأرض والطرق سهلت التقارب .

فليعمر الناس كل أرض لاساكن بها . ولقد كتبت فى كتاب (أين الانسان) أن كل أمة عندها أرض واسعة وقل رجالها عليها أن تقبل فى أرضها أقواما من أمم أخرى كما تفعل الممالك المتحدة ، هذا واجب حتم ، فلتعمر الأرض الموجودة الآن ، ثم لتوجه الهمم من الآن إلى تعليم جميع الأمم جملة وأفرادا حتى إذا امتلأت هذه الأرض بنوع الإنسان وكانوا أضعاف أضعاف الإنسان الحالى كانت عقولهم قد أخذت كلها حظها من العلوم والصناعات مع رياضات الأبدان وقوتها ، فهنالك هذه الأمم تتضافر وتصنع قارة جديدة فى المحيط الهادى مثلا أو تحدث جزائر للسكنى فيها ، فاذا كنتم أيها الناس اليوم قلدتم النحل فى حربه وأسراه وقلدتم العنكبوت فى نسجها وصيدها وقلدتم الآساد فى افتراسها فأنتم والله أعجز مخلوق على الأرض إذا أنتم تركتم مواهبكم واحتجتم إلى أرض جديدة بعد دهور ودهور ثم عجزتم أن تصنعوا ماصنع حيوان المرجان من إحداث أرض جديدة .

أنتم الآن لستم فى حاجة إلى أرض جديدة . أنتم فى حاجة إلى عقول كبيرة مرشدة ترشدكم إلى طرق

نظام أرضكم هذه والاتحاد فى تعميرها ، فإذا ظهر فيكم هؤلاء الرجال عرفتم جميعا أن الإنسان محتاج إلى الإنسان وأنهم جميعا يكونون أشبه بأعضاء جسم واحد فيما تقدم أو بصور علمية فى نفس واحدة .

فإذا قال المسلم « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم » فليعلم المسلم وغير المسلم أن من كانوا متعاونين مخلصين من أهل الأرض وهم خلاصتها فإن هؤلاء يكونون فى العالم الأخروى أو فى عالم الأرواح أشبه بنفس واحدة فكر الواحد فكر الجميع ولهم هناك نتائج لا نعلمها وهكذا أهل هذه الدنيا فى مستقبل الزمان حين يكثرون وتعمر أرضهم ويكونون كأنهم رجل واحد أو نفس واحدة ، فهؤلاء حتما منعم عليهم كأهل الآخرة الصالحين ولذلك يقول الله فى أهل الجنة « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » .

فالأرواح العالية آراؤها كلها رأى واحد فما يراه أحدها يراه الآخر فإذا ارتقى أهل الأرض وكانوا هكذا فيما بعد أجيال وأجيال ، فهم أيضا غير مغضوب عليهم لأن هذا مطلوب الإسلام لأنهم على صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

ألا هل أذكرك بحياة الخلية الواحدة فى العالم الحى فقال : ما معنى هذا . فقلت : قد كشف الناس بسبب اختراع المنظار المكبر أن أنسجة الجسم مركبة من خلايا . قال نعم هذا معروف . قلت . وكاشف هذا أمثال (شون) و (شليدن) و (فيرشو) وذلك أن كل حى يبدأ حياته بهيئة خلية وهذه الخلية تنقسم ويستمر الانقسام وهذه الخلايا تقسم أنفسها أقساما كبيرة وتجعل لكل قسم عمله الخاص به فمن هنا كانت الأعضاء والأجهزة المختلفة فانتظم المجموع مع أن لكل خلية حياتها المستقلة وهذا هو تفسير نظرية الحب . فكل من الحبيبين يود الاتحاد بالآخر ليحس بالسعادة بذلك الاتصال . فهاهنا ظهر الأمر . كل خلية فى كبد أو أمعاء أو معدة مستقلة فى حياتها منضمة إلى غيرها فرحة بذلك وكل عضو كالكبد وكالقلب عنده هذا المبدأ مستقل فى عمله فرح بالاشتراك مع غيره لتكمل حياة المجموع ، وهذا بعينه هو سياسة الأمم فى المستقبل ، يسعد كل فرد باستقلاله وحياته وهو فرح باندماجه فى جماعة والجماعة فرحة لانضمامها للأمم الأخرى . هذه هى الإنسانية المستقبلة أما الإنسان الحالى فهو طفل لم يعرف شيئا من ذلك وسيصل لهذه المرتبة فى مستقبل الزمان والأرواح التى تخرج من الدنيا الآن وهى غير مستعدة لهذا الاتحاد مع غيرها تكون أقرب إلى جهنم والعكس بالعكس .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : وهل قول المسلم « صراط الذين أنعمت عليهم » معناه ذلك ؟ قلت . ألست تعلم أن المنعم عليهم هم الصديقون والشهداء والصالحون الخ ؟ قال بلى . قلت : أليس هؤلاء يسعون لسعادة الأمم ؟ قال بلى . قلت : أوليس العالم أو الملك تكون منزلته على مقدار ما أسدى من المعروف للانسانية ؟ قال للمسلمين قلت . كلا . إن الأمم الإسلامية واجب عليها أن تحافظ على من تحكم من الأمم وعلى من سالم أو تعاهد وهكذا . إذن نحن جئنا لمنفعة الإنسانية كلها . قال نعم . قلت ثم الإنسانية كلما كانت أكثر تضامنا كان أفرادها أوفر سعادة فاذا سلمنا فرضا أن منفعة المسلم والصالح إنما تكون للمسلم أو لمن يدخل فى سلطانه فإن هؤلاء تكون سعادتهم أوفر إذا اتحد نوع الإنسان كله ، وعليه يكون قول المسلم « صراط الذين أنعمت عليهم » له حال أرقى أحواله وهو وفرة المنافع بكثرة العقول المتحدة للنفع العام وذلك بأهل هذه الكرة ، كيف لا وقد رأينا أن مخترعى الآلات البخارية بجميع أنواعها والكهربائية وصانع الآلة الحاكية (الفونوغراف) والتلغراف الذى له سلك والذى لا سلك له والطيارات والبالونات لم يقتصر نفعهم على أممهم بل عموا بنفعهم الأمم كلها ونحن منهم . فإذا كان العمل من قوم لم يقولوا « الحمد لله رب العالمين » ولم يقولوا :

«اهدنا الصراط المستقيم الخ» أى إنهم لم يوجهوا وجوههم قبل العالم كله فى دينهم وقد نفعونا ونحن نقول : إن الله محمود لأنه ربى العالمين لا المسلمين وحدهم ونطلب من الله أن يهدينا صراطه المستقيم الذى به نظم السموات والأرض المعبر عنه بالعالمين ، فلا معنى لهدايتنا لذلك إلا بأن نوجه قلوبنا للمنافع العامة لأن هذه صفته هو التى نحمده عليها والتى طلبنا الوصول إليها . وكلما كان النفع للناس فى الدنيا أشمل كان الارتقاء فى الآخرة أكثر فإذا طلبنا فى صلاتنا أن نكون مثل الأنبياء والصالحين فى عمل الخير لنرقى به فى الآخرة فـكماله أن يعم نفعنا الأمم كلها، وإذا مرن جميع الناس على فعل الخير فى الدنيا كان هذا المران عدة لهم يوم الدين. إذن أفضل أحوال المسلم أن يكون فى الأرض مع إنسانية سعيدة فى الأرض كلها حتى يكون ذلك أسعد له فى الآخرة وهذا أفضل من السعادة القاصرة على أمة أو على أمم. فلا كمال فى الآخرة إلا بعد الكمال فى الدنيا ولا ثمرة هناك إلا مما غرس هنا «والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم» .

فيا أيها المسلمون: إذا نحن طلبنا من الأمم كلها أن يتحدوا للمنافع العامة وأنتم «خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» فقولوا وخبرونى أيها المسلمون هذه أمم الأرض الآن لا تأمر بالمعروف ولا تنهى عن المنكر وأضرب لكم مثلا :

هذه الأيام أيام انقلاب وقد كانت أمم الشرق كلها غافلة نائمة وكان الفرنجة سفراء فى بلاد الإسلام وهؤلاء السفراء كانوا يتبارون فى التقرب من ملوك الشرق ومعهم نساؤهم وملوك الشرق يكرمون الضيوف فأعطوهم امتيازا فى بلادهم كما هو شأنهم فى إكرام الضيوف . فماذا جرى ؟ أخذ الشرق يضعف وأخذ الغرب يقوى . أصبح الامتياز مهلكة للبلاد وإذلالا لهم. فنهض الشرق اليوم نهضة الآساد ومنعوا تلك الامتيازات كأهل إيران والترك والصين واليابان . إنما الأمر المحزن المؤلم أن هذه الأمم لم تتنازل عن الامتيازات إلا بحد السيف وليس هناك للانسانية نصيب وقد بقيت مصر وفيها امتيازات للأجانب وقد كانت تابعة لدولة الترك ولكن الترك منعوا ذلك الامتياز ولم يبق بلد فيها امتياز مثل مصر، ومصر جيشها ضعيف لأن الإنجليز منعوها أن تنظم جيشها ، فبقيت الامتيازات ظلما فى البلاد فلم نجد هذه الدول نهى بعضها بعضا عن هذا الظلم . إذن المدنية الحاضرة داخلة فى قوله تعالى «كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» .

ولقد جاء فى كلام (اللورد أفبرى) الإنجليزى نقلا عن عالم يابانى ما ملخصه : «إن أوروبا لما كنا نابغين فى العلوم سمونا نصف متمدينين ، ولكن لما قتلنا منهم مئات الألوف وأرسلناهم إلى عالم الآخرة اعتبرونا متمدينين» إذن المدنية الحاضرة ناقصة وأهلها ليسوا شهداء على الناس . إن الأمم المستعمرة جميعها قد حتمت أن تنشر الجهل بين من تحكمهم من المسلمين ، فالجهل هو الذى أهلك المسلمين وأذلهم . إن هذه الأمم وهم بهذه الحال لايصلحون لإسعاد أهل الأرض ، وكيف يصلحون لذلك وهم لايعرفون المصلحة العامة ولن يصلح هذا النوع الإنسانى مطلقا لرقى النوع الإنسانى إلا إذا كانوا جميعا مثل الشهم المنصف الإنجليزى وهو (المستر بلانت) فانه ألقى خطابا فى بلاده نهى فيه قومه عن احتلال بلادنا المصرية واعتبر هذا عسفا وظلما ، وخاطب رئيس الحزب الوطنى المصرى بما معناه :

إنكم يا أهل مصر تريدون أن نعطيكم استقلالا ، فاعلموا أن الأمم الأوروبية لاتعطى إلا مكرهة ، ولا يمنعها عن ظلم الأمم إلا السلاح ، أما إعطاء الاستقلال بلا سلاح فهذا مستحيل ، إن من يخبركم بأنكم ستنالون استقلالا بغير هذه الطريقة فلا تصدقوه .

هذا فحوى خطابه والمسيو (بلانت) هذا رجل حر مخلص للانسانية وهذه شجاعة منه ونزعة شريفة ولعمرى لن يكون نوع الإنسان سعيدا إلا إذا كان كله على أخلاق كأخلاق هذا الإنجليزى .

فعلى المسلمين أن يتعلموا علوم الأمم كلها وأن يساووهم ثم ليكونوا عونا لأمم الأرض كلها . إنهم وسط بين الأمم وهم كالملح فى الطعام ، فليمنعوا الأقوياء عن الضعفاء ، هنالك فقط يكونون خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وبهذا يسعد نوع الإنسان .

أيتها الأمم الإسلامية وغير الإسلامية . أتسبقكم (الأرضة) التى شرحتها فى سورة النحل وسورة سبأ ، تلك الممالك العظيمة من هذه الحشرة العمياء التى تبنى مدنا عظيمة تمتد أميالا وأميالا وترتفع (٨) أمتار فوق الأرض وهذه الحشرة العمياء تقوم بنظام عملها بغاية الدقة والأوامر مطاعة من ملكتها، لوعدت هذه الحشرات فى المملكة الواحدة منها لزادت عن نوع الإنسان ، فهل يحجم نوع الإنسان عن تكوين مملكة كمملكتها ؟ وهذا حيوان المرجان الذى قدمت ذكره هنا وقلت إنه أوجد فى البحر جزائر ، فهل عجز الناس أن يتحدوا ويأتوا بالعجائب . وكيف يتحد المرجان فى البحر والأرضة فى البر مع أن عدد الإنسان على الأرض ضئيل بالنسبة لعدد الحشرات فى هذه الممالك .

إن الإنسان فى المستقبل سيصل لغاية يجهلها الإنسان الحاضر . إن الشمس لا تهدأ فى جريها وكذلك القمر والنجوم نشاط مستمر والبحر لا يهدأ ولا يسكن وفى الطبيعة نشاط مستمر عجيب . فسبحانك اللهم نراك حولت الماء فى القطبين أراضى واسعة ثلجية وخلقت من الماء جبالا ثلجية عظيمة تعوم على وجه البحر وعلمت الناس طريقة بها حولوا النتروجين الذى هو أحد عنصرى الهواء فحولوه مع الأدروجين إلى النشادر وهو قد دخل فى سماد الأرض وفى المفرقعات فتارة يكون مهلكا الأرض وتارة يكون منميا للمزارع فى أنحاء الكرة الأرضية .

الهواء صار أجساما جامدة والماء حوله المرجان أى حول مافيه من المواد إلى آلاف من الجزائر العامرة فهل عجز الانسان عن الأمرين؟ : الاتحاد العام كاتحاد المرجان والأرضة وإيجاد جزائر فى البحر عند الاضطرار نعم الانسان اليوم طفل والطفل انما يفرح بالمفرقعات فهم قد ألهموا اليوم صنع المفرقعات لأنهم أطفال. فأما غدا فسيكثر نوع الانسان ويكونون أعلم من هذه الأجيال وحينئذ يفهمون روح هذا الوجود ويعقلون قيمة الشمس والقمر والكواكب وكيف ركبت فيهم عقول قادرة على الإبداع وإسعاد أهل الأرض « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » ومتى جاء ذلك اليوم أى يوم الاتحاد العام يظهر معنى حديث البخارى الذى يفيدنا أن الرجل يأخذ الصدقة فلا يجد من يأخذها . إذن ذلك يوم يستخرج فيه من الأرض منافعها ومن العقول مواهبها . ذلك هو اليوم الذى يكون المسلمون فيه شهداء على الناس لأن أهل الأرض اليوم عن هذه المرتبة قاصرون . انتهى ليلة الأحد بعد نصف الليل فى ١٣ يناير سنة ١٩٢٩ م .

ضوء الجوهرة

وعدنا الله أن يرينا الآيات « ولن يخلف الله وعده ـ إن الله لا يخلف الميعاد » . أنت وعدتنا يا الله أن ترينا آياتك ، وآياتك هى التى ذكرتها فقلت : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وقلت « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » وقلت « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون » وأنت ترينا الآيات فى خلقك من شمس وقمر وكوكب وأرض وما عليها من نبات وحيوان ومعدن ، أنت ترينا والأنبياء يرونا « فأراه الآية الكبرى » والطيور ترينا فقد جاء فى الغراب « ليريه كيف يوارى سوأة أخيه » .

اللهم إن كل شيء في مخلوقاتك يرينا ، هذا وبينما أنا أكتب هذا إذ حضر صديق العالم وقال : ماذا تريد أن تكتب بعد ما جاء في هذا التفسير من هذه المعاني ؟ إن هذا المعنى قد تكرر في كل مناسبة فقلت لا مكرر في هذا . ألا ترى رعاك الله أن هذه ألوان الكلام وفنون العلم وأصناف المعرفة ، ومن عادة النفس أن تحب التفنن في الأساليب كما تحب شهوة الطعام التفنن في المآكل وتحب العين أفانين الصور والأذن أنواع النغمات . إن النفس أشوق إلى هذه الأفانين ولكل وقت فن وفيض خاص وإبداع ومناسبة . فقال فماذا الآن ؟ قلت : إن الله يقول «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» ويقول أيضا «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها» .

اعلم أيها الذكي أن أصل كل تلك المعارف إنما يقصد بها نفوسنا ، فلنبحث في أمر هذه النفوس وقواها فهي عندي أصل الحكمة ، وأصل الفلسفة ، وأصل الإبداع في الدنيا : انظر قواها . إن لها أفانين من الغرائز وأنواعا من العواطف . وعادة الناس أن يعجبوا من الطير ومن الأنعام ومن الكواكب . أما أنا في هذه الساعة فكأني منفصل عن نفسي وكأنها أمامي أشرحها شرحا جميلا . أرى نفسي يحوزها الطعام والشراب والكساء والزوج والعلم . لم هذا ؟ إنما حدث هذا لأن الله يرينا أنه لا معنى لشهوة الطعام والشراب ولا شهوة النساء ولا لمدافعة العدو إلا العلم . فكل ما في وجودنا لا يراد منه إلا العلم حتى العبادة هي مران النفس لتستقر على حال وتحصل لها ملكة تثبت عليها من الأخلاق أو العلم . قال أوضح هذا المقام إذا شئت فقلت : إن الله أحوجنا للطعام والشراب ودفع نفوسنا إلى طلبهما وركب فينا شهوة لتقبل الطعام وهذا مبدأ أول من مبادىء العلم لأن الحواس أخذت تهتم وتميز الحلو من الملح والحامض . فهذه مبادىء العلم وهكذا يميز الماء العذب من الملح . كل ذلك مبادىء للعلم فإن إحساس الحواس مبدأ العلوم . فقال لا شك في ذلك فقلت وقد علمت فيما تقدم في هذا التفسير كيف كانت جميع مآكلنا ومآكل حيواناتنا عبارة عن مواد محرقة فانظر لطعام جيء به لغدائنا لنبحث كيف آل الأمر فيه إلى أن تنبهت فينا قوة العقل فأصبحت ــ بعد أن كانت خامدة ــ نارا متأججة تنقب وتبحث .

سبحانك اللهم أتكون شهوة الطعام والشراب ولذة الوقاع وحب الانتقام من الأعداء هذه كلها للعلم في الحقيقة . أليس من العجب أن دراسة طعامنا تنتهي بأن نرى ــ كما تقدم ــ أن الملح ما هو إلا الصوديوم والكلور وكلاهما مادة مهلكة . فالصوديوم يحترق إذا تعرض للهواء والكلور يدخل في الغازات الخانقة والمواد المهلكة كما أنه قاتل للحيوانات الذرية المهلكة لنوع الإنسان .

هذا الملح وحده مثال من بقية الأغذية في أنه أرى العقول الإنسانية أنه من مواد مهلكة تزجى سحابا من الغاز على الجيوش فتهلكهم . إن النفس الإنسانية تدهش وتعجب من هذه العجائب في نفوسنا إذ ذاك ترى عظمة لا حد لها وتعشق الحكمة والعلم ويزول عنها الخمول ، فتكون دراسة هذه العجائب موقظات النفوس وكأن هذه الدراسة تيار كهربائي سلط على النفس فميز قواها ، كما أن (الكهرباء) تحلل بطريق خاص ؟ العناصر : وكما أن الملح بانفصال كل من الكلور والصوديوم وحده تظهر قواهما وعند الاجتماع تكون لهم قوة غير قوتيهما الأصلية هكذا هذا الانسان ما دام لم يعرف العلم تبقى نفسه جامدة خاملة لاشتراكها مع القوة الغضبية والقوة الشهوية فإذا اطلعت على العجائب أخذت تتعالى وتترفع عن القوتين الأخريين وتشمخ بأنفها وترتقي وترجع إلى عالمها العالي وهو عالم الفكر كما يرجع الصوديوم إلى حاله النارية إذا وضع في الهواء فنار الصوديوم كانت مخبوءة في الملح فأثارها انفصال الصوديوم من الكلور . هكذا غريزة حب الاستطلاع وتأجج نيران النفس تظهر أتم ظهور متى اغترفت النفس من ينابيع الحكمة لأنها ذاقت ومن

ذاق عرف، وقبل أن تذوق كانت خامدة لجميع العامة من سائر الأمم بأكلون الملح وأمثاله ولا تحترق أفئدتهم بحكمته وعلمه. فأما الذين أدركوا نظام الملح وأمثاله فأولئك تتأجج في قلوبهم نار الغرام بالحكمة والعلم ويقولون إذن : نحن نأكل نارا منطفئة . فالقمح والشعير والذرة وأمثالها فيها (الجير والمغنيسيا وحمض الكبريتيك وحمض الفوسفور والكلور والصوديوم والبوتاسا) . وهذه كلها مواد نارية . إذن الجبار القهار قهر هذه العناصر وأخمد نارها حتى خضعت لنا وأطاعت وأنت صاغرة . هنالك يفهم معنى اسم الله القهار الجبار والمتكبر والقابض والمذل والحكم والعدل واللطيف والمقيت والواسع والحكيم والقوى المتين والقاهر المقتدر والمقسط والضار والنافع ، هنالك يفهمون معنى هذه الأسماء ، فهو جبار على الكبريت والصوديوم والبوتاسيوم وقوى عليها ومقتدر ومذل فأذلها وأخضعها وأنزلها من حرارتها وجعلها منقادة حتى أكلها الإنسان وجعل الضار بالإحراق كالصوديوم نافعا في الأغذية بحسن اللطف في صنعه وهو مقسط عدل يجمع العنصرين بأوزان لا نقص فيها ولا زيادة ، ولولا ذلك لم تأتلف وهذه ظاهرة في علم الكيمياء أتم ظهور في جميع مركباتها .

كل هذه المعاني مخبوءة في أغذيتنا فهذه الأغذية ظاهرة لإقامة حياتنا مع أن الحياة كان يمكنها أن تقوم بغير هذه المواد ولكنها توقفت عليها لندرسها فلما درسناها أيقظت قوانا العاقلة ، وهكذا كل ما نحس به من ذل أو عز أو قوة . كل ذلك يستدعى عملا في مادة والعمل فيها يستدعى دراستها ودراستها تفتح للعقل باب النبوغ والحكمة . وهاك إيضاحا لبعض أسماء الله الحسنى في عناصر الطبيعة أوسع مما تقدم .

قد تقدم في سورة البقرة وغيرها أن النبات مركب من العناصر ومايقرب منها . انظر إلى العناصر الداخلة في القمح وفي القطن وفي البرسيم مما شرحناه في سورة البقرة وفي غيرها فإنك تجد مقادير محدودة لا نعيد شرحها وهذه المقادير قد حكم عليها أن لا تزيد ولا تنقص. فهنا يلبس المسلم القطن ويأكل القمح وهو لا يعلم أن الذى ازدرده من الطعام إنما هي كلمات الله مجسمة أو معانى الأسماء مشاهدة . وأنا أقول هذا الآن حقا لا مبالغة لم خلق القطن ؟ خلق من مواد منها الصوديوم والبوتاسيوم والجير والمغنيسيا الخ .

يلبس الرجل القطن وهو يجهل مايلبس إنه يلبس مواد محرقة ولكن عناية الله قد حلت بهذه المواد فاتحدت فصارت ملبسا . الصوديوم محرق وكذلك البوتاسا والجير فتجلى عليها اسم (١) السلام (٢) والمؤمن (٣) والجبار (٤) والمتكبر . فسلم المرء من نارها . فأمن من عودتها لخضعت القوة المحرقة . ولا يبرز هذه المعاني لمن ليس أهلا لها (٥) الخالق لأنه قدرها (٦) البارى، لأنه أوجدها (٧) المصور لأنه صور ماخلقه (٨) الغفار لأنه ستر هذه العجائب عن الناس وغفر لهم جهلهم كما نغفر نحن للأطفال (٩) القهار قهر حمض الكبريتيك وحمض الفوسفوريك فانطفأت الحرارة وتكاملت القوى (١٠) الوهاب : لأنه لما أخضع هذه المواد واكتملت وهبها لنا (١١) الرزاق فانتفعنا بها (١٢) الفتاح : يفتح أبواب العلم فعرفها وأبواب الرزق لنعيش به (١٣) القابض : قبض نارها فلم يسلطها (١٤) الباسط : بسط لنا الرزق بهذا التدبير (١٥) الجامع : لهذه العناصر بهيئة نظامية بعدل ، لأنه (١٦) المقسط و (١٧) العدل . وبهذه المخلوقات تكثر خزائنه الناجمة من قدرته ، فهو (١٨) غنى و (١٩) مغنى لنا بها ، وهو (٢٠) مانع ضررها، و (٢١) ضار، و (٢٢) نافع . فالضر بوضعها في غير موضعها كملح الطعام إذا كثر والنفع إذا اعتدل المتعاطى لها (٢٣) الهادى هدى الناس لعلمها واستعمالها (٢٤) النور : وهذا الاسم هو سر هذه الدنيا لأن القوم علموا أن لكل عنصر من العناصر التي تبلغ نحو (٩٠) نورا خاصا عند احتراقه وقد قابلوا أضواءها كضوء الحديد والنحاس والذهب والفضة والصوديوم والبوتاسيوم فوجدوها تختلف اختلافا بينا في أضوائها ثم نظروا في أضواء الكواكب وبحثوا فيها فوجدوا مشابهة بين الأنوار الواصلة من السماء وبين الأضواء الناجمة من هذه العناصر كضوء

الحديد والنحاس الخ لاسيما الخطوط المظلمة التي تتخلل تلك الأضواء . فهذه الأحوال تختلف في العناصر عندنا وتختلف في أضواء الكواكب الواصلة إلينا وقد وجدوا أن الأنوار الكوكبية تحتوي على أنواع من الأضواء مشابهات لأضواء العناصر عندنا فحكموا بتركيب تلك الكواكب من عناصر مثل عناصر أرضنا وعليه يكون اسم الله تعالى (النور) هو سر الكون ولذلك سميت سورة باسم النور وقال الله سبحانه « الله نور السموات والأرض » بل ثبت فيما تقدم في تفسير الآية أن أصل العالم نور إذن اسم الله النور هو سر هذه الدنيا لأن عالمنا نفسه نور وثوب القطن الذي كلامنا فيه نور محمد تجلى عليه الله بأسماء أخرى آتية من صفاته فتراكم النور فلبسناه . فالثوب القشيب والثوب الخلق سيان في أنهما نور عند العالم ولكن الجاهل لايرى إلا الظواهر فقد تجلى عليه باسمه (المميت) وعلى العالم باسمه (المحيي) وهو قادر ومقتدر عا صنع في الثوب من صناعات مختلفة إذ خلق نساجا وخياطا وهكذا وعلمهم صنائع حتى لبسنا ثوب القطن وهو وال يلي أمر الملك ومنه هذا الثوب فقد تولاه بهذه الأعمال مع أنه متعال فليست ولايته بالمشاركة بل هو متعال . هذا وبقية الأسماء ظاهرة منطبقة على هذه الدنيا بأسرها فلا شجر ولا حجر ولاجبل ولاطير إلا وقد دخلتها صناعات وأعاجيب حولهامن حال إلى حال وقد تجلى الله عليها بتجليات ظهرت لنا من مبدئها إلى منتهاها.

فلابس الثوب وآكل الخبز قد اشتمل عملهما على آثار أسماء الله الحسنى التي دخلت في معاني صفاته . إذن صفات الله تعالى كأن لها أمثلة محسوسة بالبصر . فهذه أمثال مضروبة للناس فتى أشرقت القلوب تجلت لها الأسماء فيما تشاهده في أنفسها وفي الآفاق . وخير معوان لها العلوم الحديثة لاسيما الكيمياء وإلا فما هذا الجمال وماهذا الإبداع . كيف يكون النور هومبدأ كل شيء ؟ كيف يكون ثوبي وخبزي نورا أو نارا قد جمدا وخمدا . كيف يأكل الناس في الدنيا نارا قد أخمدت .

بمثل هذا يفهم الناس قوله تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وقوله تعالى هنا « مايفتح الله للناس من رحمة » الخ وبهذا يقرب لنا فهم قوله تعالى « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » .

اختلاف نتائج الطعام في أحوال الناس

أثبت الأستاذ (مكام) بتجاربه على الفيران التي ظهر للعلماء أنها تأكل اللحم والخضر كالإنسان فلها شبه به من حيث التغذية فجعلها العلماء محل تجاريب الطعام . فهذا الأستاذ وهو مدرس لعلم الصحة بجامعة (جونز هبكنز) قد جعل أربع فيران في ناحية وأربعة في ناحية أخرى فغذى الفريق الأول بالماء والحنطة وغذى الفريق الثاني بنفس الطعام مضافا إليه أوراق لفت أو بنجر فكبر الفريقان وزادت أفراد الفريق الثاني في أحجامها ضعف أقسام الفريق الأول ولم يحصل بينهما فرق إلا في ذلك وهكذا صنع علماء اليابان فقد أخذوا يغذون فريقا من التلاميذ بغذاء أهل اليابان وفريقا آخر بغذاء الأمم البيضاء فزاد الفريق الثاني في الطول ضع بوصات وهكذا في الوزن وهكذا علماء أمريكا جربوا هذه التجارب في التلاميذ بمدينة (بلطيمور) الأمريكية فوصلوا إلى ماوصل إليه علماء اليابان من النتائج . فكانت النتيجة أن الصينيين واليابانيين والكوريين وأهالي جاوه وغيرهم من الشعوب إنما قصرت قاماتهم للأغذية التي يتعاطونها بخلاف الشعوب الطويلة القامة فان الأغذية أثرت في أجسامها فطالت وضخمت .

وصلت هذه التجارب نفسها بواسطة (الكولونل ماكريسن) من أطباء مصلحة الصحة الهندية إذ

وجد

وجد (قبائل السيخ) و (الباتان) أكبر من (قبائل المدراسى) ونحوهم من الهند ، فوجد الأولين يتناولون الألبان والخضر ونحوهما واللحم ، والآخرون ليسوا كذلك ، فجرب هذه الحال فى الفيران كالأستاذ (مكام) فكانت النتيجة كما تقدم تماما : وهكذا فعل هـذا الفعل فى الجرذان فأطعم طائفة منها طعام فقراء العمال الانكليز وطائفة أخرى طعام اليابانيين . فكانت الفيران التى تناولت طعام الانكليز الفقراء خشنة الجلد ميالة إلى النزاع والحرب ، والفيران التى تناولت طعام اليابانيين وسكان فيلبين وجاوة صغيرة الأحجام والقامات وظهرت فيها بعض صفات هذه الشعوب .

هكذا رأى العلماء أن مرض (البرى برى) يصيب ملايين من سكان الهند والشرق الأقصى على الأخص فيموت منهم نحو مائة ألف كل سنة ، وذلك بسبب أكل الأرز الأبيض المقشور لأن مادة الفيتامين لاتكون إلا فى الأرز الأحمر ، فالمادة المغذية إنما تكون فى قشرجية الأرز ومرض (البلاغرا) يصيب سكان الولايات الجنوبية بالولايات المتحدة الأمريكية وهو يفشو بين القبائل التى يقل الغذاء فيها ، وغالب طعامهم الذرة وهى لاتعطى جميع المواد المغذية فهى قاصرة ، والعين قد تصاب بغشاوة بسبب فقد الفيتامين من الطعام وهكذا يحدث مرض الجلد بسبب حذف بعض عناصر الغذاء من الطعام ، وبعض أطباء اليابانيين أحدث قرحا فى المعدة على هذه الطريقة ثم شفاها ، ومرض الكساح سببه قلة التغذية ويشفيه تناول زيت كبد الحوت وهو المعروف بزيت السمك . انتهى ملخصا من المقتطف .

كل هذه العلوم عرفها الإنسان بسبب أن شهوة الطعام أوجبت على الإنسان تعاطى الغذاء ، وتعاطى الغذاء دعاه للبحث ولما بحث وجد أن اختلاف الغذاء يوجب اختلاف القامة والخلق وهكذا . إذن هذه الأغذية من أعظم المؤثرات فى هذا الإنسان .

الثواب والعقاب

إذن ثواب الناس وعقابهم سيكون كنتائج الأغذية فكما أن العقول البشرية لاتعترض على قصر قامة اليابانى لاقتصاره على طعام الأرز ونحوه ولا ترى أن هنالك ظلما فى قصور قامة اليابانى عن نظيره من أهل الشرق الأدنى والأوروبيين طوال القامات . فالنتائج لها مقدمات ولا غبار على تلك النتائج بعد المقدمات . إذن شهوة الطعام وغيره إنما خلقت فى الإنسان لتفتح عين بصيرته . فالجاهل يرى فى الطعام لذة فى حاسة الذوق ولكن العالم يرتقى للذة العقل فيقول للجهال أنتم تأكلون كما تأكل الأنعام لا تعلمون إلا ماتحس به حواسكم . أما أنا فإن عقلى يستلذ بإدراك المعانى المخبوءة فى الأغذية والفواكه وينسى الشهوة الصغرى التى اشترك فيها الحيوان والإنسان .

هنالك فتحت للانسان بصيرته فماذا فعل ؟ تمادى فى الكشف والعلم فحفر الأرض واستخرج كنوزا وسافر فى البر والبحر وفى الطيارات وبحث عن العوالم المخلوقة فى القطبين .

فقال صاحبى : هذه شهوة البطن لاغير . فقلت كلا . هى شهوة علمية ، والدليل على ذلك أن الذين توجهوا للقطبين مات كثير منهم ، فهذه شهوة معرفة الحقائق أو الذكر والصيت ونحوها .

نشط الإنسان فى زماننا هذا نشاطا لم يعهده ، واختلط الغرب بالشرق وظهرت الكنوز والعلوم المدفونة فالنقود والحلى والخزائن الذهبية والجواهر المخزونة ظهرت فى أقطار كثيرة وابدعر الناس وانتشروا فى الأرض وطاروا فى الأقطار بطياراتهم شرقا وغربا وجنوبا وشمالا وسار الانسان سيرا حثيثا سريعا لاسيما لما ارتقى

الطيران فامتطى الانسان غارب الهواء بالطيارات والبالونات كما امتطى غارب الماء بالمراكب وامتطى صهوات الجياد فى الفلوات فسافر الناس إلى القطبين فى هذه الأيام . كل ذلك سر «ما يفتح الله للناس» الخ .

﴿ وصف مناطق القطبين من حيث علم الفلك ﴾

تلك البلاد التى جعلها الله من أعجب العالم ، سنتها يوم واحد ، فالقطب الشمالى يبتدىء يومه من أول فصل الربيع وينتهى بآخر فصل الصيف وهناك يبتدىء ليله وهكذا القطب الجنوبى يبتدىء يومه فى أول فصل الخريف وينتهى فى آخر فصل الشتاء ثم يبتدىء نهاره وهكذا . وصفة الشمس هناك أنها تجرى جريا رحويا أى كما تدور الرحا فهى تدور حول سكان تلك الأقطار مدة ستة الأشهر كما يدور الثور فى الساقية والبقرة فى الطاحون ولكنها فى أثناء الدوران ترتفع شيئا فشيئا إلى نحو (٢٣) درجة من السماء ثم تهبط راجعة ثم تغيب .

سعى الناس فى أيامنا لكشف تلك الأقطار كأنهم قرءوا هذه الآية «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم» وكأنهم قرءوا قوله تعالى «هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا» فقوله جميعا يراد به أن لا نذر شيئا إلا بحثناه وعرفناه ، فماذا عرف الناس هناك ؟ عرفوا البترول والفحم والحديد والنحاس وغيرها .

إن احتياج الناس للطعام وماجبلوا عليه أداهم إلى كشف الأقطار البعيدة بشغف علمى وقد فهموا من صنع ربهم أنه خلقهم للعلم والعمل وقال لهم ماقاله طارق بن زياد : (العدو من ورائكم والبحر أمامكم) قالها للجيش الاسلامى وهو يغزو بلاد الأندلس ، هكذا الله يقول للناس : ذل الحياة من ورائكم والموت أمامكم فلا بد من العمل ، فشمروا عن ساعد الجد وكشفوا القطب وكثرت الطيارات وارتقى نوع الانسان ارتقاء نسبيا لكنهم إلى الآن لم يصلوا إلى عشر معشار مايقدرون عليه لأن أكثر الانسان معطل فى هذه الأرض أكثر الناس معطلون ، فكم من عقول ضاعت لعدم استعمالها فيما خلقت له وهذه الأرض قد ملئت خيرات وأهلها لايزالون أطفالا ، فهذا غزال (الرنة) التى رأيت رسم صورتها فى (سورة النور) مع غيرها يعيش فى القطب البارد ، وهكذا تلك النباتات التى تعد بالمئات قد حرم من الانتفاع بها الإنسان وكذا الحديد والنحاس وغيرهما هناك ولم يعرفها الناس إلا فى زماننا . إذن ابتدأ الانسان الآن يتعلم .

هذه بعض الآيات التى أراها الله للناس فى هذا الزمان وهى الآيات التى عرفها الناس بسبب احتياجهم للغذاء ونحوه وهى مما فتح الله للناس من الرحمات .

﴿ الآيات التى عرفها الناس فى زماننا بسبب قوتهم الغضبية ﴾

اعلم أن الانسان كما عرف عجائب النبات وتركيبه وخواصه ومهلكاته وامتلاء الأقطار النائية به كالقطبين هكذا تراه عرف بسبب قوته الغضبية علوما أخرى عظيمة . ذلك أنك قرأت فيما تقدم تاريخ المسلمين بالأندلس وبالشرق ، وهكذا تقدم أيضا تاريخ قدماء المصريين فكانت النتيجة أن الترف والنعيم يهلك الأمم ومعنى هذا أن دولة العباسيين سقطت وذهبت ريحها ومزقت كل ممزق بسبب نظامهم السياسى المبنى على أن الملوك هم المتصرفون فاتبعوا الشهوات وأضعفوا الأمم الاسلامية وهكذا تبعهم فى ذلك سكان الأندلس إذ تفرقوا عشرين دولة وهم بين فكى الأسد فى أوروبا فقضموهم قضما والتهموهم التهاما وأكلوهم أكلا لما . ولقد تقدم واضحا وعرفنا سر تشتت الأمم العربية شرقا وغربا ورجع ورجع الأمر إلى الشر والجهل والترف والبطر واتخاذ النساء من أمم أخرى حتى فسدت الدولة وساء المصير .

نعم نحن رأينا هذا وعرفناه ، إذن فلنتب من هذا ولنستغفر الله ولنسر بسيرة غير سيرة آبائنا الأولين قد أيقنا الآن (أمرين : الأمر الأول) أن نتائج الأغذية لا تعطى قوة وطولا وضعفا وقصرا هكذا نتائج

الإمارة المستعبدة التابعة لأهواء الأمراء فإنها مضمحلة ذاهبة إذن قد صدق الله وعده فإنه نظم التاريخ وخلق المؤرخين فألقوا العلم إلينا وأصبح العلم أمامنا والتاريخ يحدثنا حديثا صحيحا عن آبائنا أنهم وقعوا فيما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال في الحديث الصحيح « إن أخوف ما أخاف عليكم مايفتح عليكم من زهرة الدنيا الخ » فهذا الحديث قد تم وظهر أن النبوة قد أخبرت بالمستقبل وأخبر صلى الله عليه وسلم بما وقعنا فيه الآن من الذلة بسبب فتوح البلدان لآبائنا فاتكلوا على ماباًيديهم ولم يتعلم الشعب كيف تستفيد الأمم من أرضها وأعمالها وذلك بعض القرون الأولى وهذا قوله تعالى « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ، وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » .

إن هـذا القول منطبق علينا الآن وإن هذا التفسير قد جمع زبدة هذه المباحث وسيكون والحمد لله لها آثار قريبة المنال هو وأمثاله إن شاء الله تعالى .

فنحن معاشر المسلمين جميعا سكنا في مساكن أمم خلت وأكثرها ظلمت أنفسها وعرفنا بالتاريخ (كالذى نرأته فيما تقدم عن ابن خلدون وغيره) إنهم كانوا مترفين ظالمين كما علمت وبعضهم من آبائنا العرب إذن هذا قول الله تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » فالآيات قسمان : آيات في الأنفس ومنها تاريخ العرب الإسلاميين ومنها عاشوا معهم من المسلمين ، وآيات في الآفاق وهى التى عرفناها في تحليل الغذاء إلى عناصره وفى عجائب القطبين ونحوهما وفهمنا فهما لاشك فيه أنه لافرق بين كون طعام أهل اليابان يوجب القصر وغيره يوجب الطول ، وبين كون الترف والتنعم في الأمم يورث زوالها والفضائل والعدل فيها يورث بقاءها ، إذن العلوم والتاريخ الآن مضبوطات ونتائجها لاشك فيها ، إذن الله أرانا فعلا آياته فعرفناها وأن حياة الأفراد بالأغذية نتائج تابعة لها كما أن حياة الأمم تبع لأخلاقها الفاضلة وموتها تبع لخستها وترفها والله حكيم عليم . لقد علمت بالله أمم ممن حولنا تاريخ الأمم فعملت به فاحترست فطالت أيامها أكثر من طول أيام دول أخرى قديمة . وهذه المباحث مما فتح الله للناس من الرحمات تفسيرا للآية .

(نتائج تعليم الله لنوع الإنسان في هذا الزمان)

اعلم أن نتائج التعليم في العصر الحاضر أن النوع الإنساني قد اعترته حال جديدة زحزحته عن أكثر مالديه من أحوال التعليم ، ثارت ثائرة هذا الإنسان أخذ يسير في الأرض وقد زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها ففتحت خزائنها وظهرت كنوزها وأخرجت موتاها من القبور بأجسامها لا بأرواحها وعرفوا المعادن وأنواع السوائل المخزونة في الأرض فاستخرجوها وسارعوا إلى القطبين فرأوا مالم يره السابقون وأخذوا يستنطقون الأحجار فنطقت وأخبرتهم بما حل بالقرون السابقة والأمم الخالية وأخذ الناس يسأل بعضهم بعضا ماذا يحل بآلنا بعد الآن وأخذ الناس يركبون الطيارات ، ولايمضى إلا زمن قليل حتى يركب الناس الطيارات ويكونون في غدوهم ورواحهم كالطيور الصافات . هنالك فقط يتنعمون بنعم هذه الأرض كما انتفعت الطيور برحلة الشتاء والصيف المذكورة في (سورة النور) عند قوله تعالى «والطير صافات كل قدعلم صلاته وتسبيحه» .

ستكثر الطيارات وتستعمل للافراد ويشارك الناس الطير في جو السماء فيصير هذا الجسم الثقيل الإنسانى كالطيور ويجوب الأقطار ويقتحم الأسفار وهنالك تحصل للناس حال جديدة إذ تصير جميع الناس في عمل ويقل الكسل والجهل ويعم التعليم . ولايعيش في هذه المدنية المقبلة إلا المتعلمون تعلما حقيقيا . ولا يكون في الناس من يكون عالة على غيره إلا المرضى والأطفال . والتعليم يكون عاما بواسطة نفس الأمة . هنالك ترقى الإنسانية ويكون ذلك حالا نسميها التوكل لأن التوكل حق التوكل هو أن يعمل الإنسان كل مافى طاقته

ويترك الامر فى نتيجة عمله لله عز وجل . هنالك يظهر لنا (معجزتان : الأولى) الحديث الوارد فى الصحاح أن الرجل يأتى بصدقة فلا يجد من يأخذها ، وقد ذكر فى هذا التفسير سابقا (الثانية) هو قوله صلى الله عليه وسلم «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » فهذا تلويح إلى زماننا هذا إذ يطير الناس كما تطير الطيور فى الجو ويجوبون الأقطار . فلا يحضرون فى الأمصار كالطيور ، والطيور تجوب وتقطع مهامه لا يعرفها الإنسان ، أذكرك بما تقدم فى هذا التفسير من أن القوم يبحثون بالطيارات عن قارة مجهولة جهة الأقطار الشمالية لأنهم رأوا الطيور ترحل إليها ، فتوكل الطيور هو أجل توكل لأن الطير لا يتكل بعضه على بعض ، ولكن هذا الإنسان لنقص نظامه تستبد طائفة منه بالثروة وتترك الباقين فيقل العلم والصناعة فلذلك ترى هذا الإنسان ناقصا نقصا فاحشا محزنا مؤلما . فاجتهاد جميع الأفراد كاجتهاد الطيور يرفع الإنسانية رفعة لا حد لها هنالك تزول الزكاة كما ورد فى الحديث إذ لا محتاج فإن الرزق موجود فى كل مكان بل ربما كانت هناك منابع للرزق غير ما نعرفه تحقق معنى الحديث . إن هذا الزمان زمان انتقال وهو بعض ما يفتح الله للناس من رحمانه .

(١) لقد زاد الطيران بسرعة فصار (٣٠٠) ميل فى الساعة للطيارة فى الجو .

(٢) وهذا سيجعل القفر عامرا فسكان استراليا انتقلوا فجأة بالطيارة من أوائل القرن التاسع عشر إلى العشرين أى من السير على المركبات والجياد إلى ركوب الطيارات إذ تمكنوا بالطيارات من قطع مسافة (٥٠٠) ميل فوق القارات التى بين مدينتى برن ودربى فى استراليا و ٤٨٠ ميلا من ادبليد إلى ملبورن . و٥٠٠ ميل من ملبورن إلى سدنى و ٥٠٠ ميل من سدنى إلى بريسين .

(٣) بعض المستأجرين الأراضى هناك وهو شيخ بلغ السبعين قطع مسافة (١٢٠٠) ميل فى يوم واحد وكان يقطعها قبلا فى ستة أسابيع على جواده .

﴿ مصادر القوة ﴾

يقول الأستاذ (صدى) البحاثة فى أشعة (الراديوم) وغيره من مصادر القوة والضوء : إن مصادر القوة التى يعتمد عليها أبناء هذا العصر قريبة الزوال .

(١) لقد استخدم أهل (النرويج) الضباب الصناعى لوقاية الحاصلات من الصقيع . وذلك بتغطيتها بالبخار الساخن .

(٢) الأستاذ (لوسيان دانيال) ولد نباتا ينتج طماطم فوق سطح الأرض وبطاطس تحت سطحها فى (مدينة رين) بفرنسا .

وقد تنبأ بعض علماء الفسيولوجيا والكيمياء بأنه يأتى يوم يتخذ الإنسان غذاءه من نفس القوة الحيوية المخبوءة فى الجوهر الفرد لأن قوته مستمدة من قوة الشمس وذلك بأن يوصل بدنه بآلة كهربائية خاصة تتصل بتلك الجواهر الفردة بمجال خاصة فيمتلىء جسمه بما يحييه ويغنيه وهذا رأى (المستر ولز) والعلماء اليوم كلهم يقولون : (إن كل قوة فى الأرض إنما هى من الشمس) فكل القوى فى أرضنا مستمدة منها لذلك يحولون وجوههم وهممهم نحوها .

هذه أمانى العلماء فى المستقبل وهذه منتهى أبحاثهم . كل ذلك تفسير الحديث : « ترزقون كما يرزق الطير الخ » وحديث الصدقات إذ لا تجد من يأخذها . وهذا يدل على أن أرضنا ستكون فيها أيام سعادة لأجيال قادمة . هذا هو المقصود من أنه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين وأنه آخر الأنبياء والمرسلين .

وإياك أن يصدك عن هذا أن المسلمين جهال . فهؤلاء الجهال سيثبون وثبة واحدة تهتز لها الأرض

وهذه

وهذه الوثبة ليست للحرب وإنما هي للحكمة والعلم وسيعرفون آراء الأمم ويقرءون لأن هذا مما فتح الله من الرحمات .

(١) ــ (رأى المسيو البرت أودن فى كتابه أصل الرجال العظام)

إذ ذكر الذين اشتهروا بالأدب الفرنسى شعرا ونثرا فى خمسة القرون الماضية فأثبت أن تسعة أدباء من كل مائة أديب اشتهروا من أولئك الفقراء ، والفقراء فى فرنسا (٩٧) فى المائة ، فالطبقة الغنية القليلة هى التى أنجبت النابغين فيها فى خمسة القرون الماضية ، وطبقة الأشراف فى فرنسا وهى جزء من مائة منها أنجبت (٢٥) فى المائة من النابغين فى الأدب الفرنسى فى القرون الخمسة المذكورة ، والوضيعة لم تنجب سوى (٣) فى المائة ، وروايات الأشراف هى التى أحدثت الانقلاب فى فرنسا .

(٢) ويعرف المسلمون رأى (السرفرنسس غلتن) العالم الانجليزى الذى بحث فى مدة (٢٥) سنة فوجد فى كل (٤٠٠٠) شخص من العامة ينبغ واحد فى القضاء ، أما القضاة الذين هم أبناء قضاة فيكون واحد من ثمانية يشتهر الشهرة عينها .

(٣) ويعرفون أيضا رأى الأستاذ (أميرتوسافيونى) الذى بحث فى تلاميذه بميلان فرتبهم هكذا :

(١) أبناء أصحاب المهن الحرة	٥١ر٩
(٢) أبناء الطبقة التجارية العليا	٥٠ر٨
(٣) الطبقة التجارية العادية	٤٧ر٢
(٤) الخدم	٤٤ر٤
(٥) الصناع	٤١ر٧

فقد امتحن قوة ذكائهم فوجد هذه النتيجة .

(٤) ويعرفون رأى عالمين من علماء السيكولوجيا فى تلاميذ مدرسة فى بروكسل بلاد البلجيك ولا يؤمها إلا أبناء الأغنياء ، فوجدا ذكاءهم يفوق المتوسط لمن فى سنهم ، وقد ظهر لهما فى امتحان أولاد الأغنياء الذين لا تزيد سنهم على (٩) سنوات فى إحدى المدارس فوجدا أنهم مثل أولاد الفقراء فى العاشرة ذكاء .

(٥) ويعرفون رأى (العالم السيكولوجى سيريل) إذ وضع أسئلة فوجد الأولاد الذين يعيشون فى أزقة (لفر بول) القذرة يستغرقون (١٢٣) ثانية فى الاجابة وأبناء التجار يستغرقون (٩١) ثانية وأبناء الأساتذة والمطارنة (٧٤) ثانية .

(٦) ويعرفون رأى الأستاذ (لوس ترمن) الأمريكى ، إذ يقول : (إن التفوق فى الذكاء يزيد (٥) أضعاف فى أبناء الطبقة العالية والاجتماعية عن أبناء الطبقة الواطئة) .

(٧) ويعرفون رأى الدكتور هفلك ألس الفيلسوف الانكليزى إذ بحث (١٠٣٠) نابغة من الانجليز رجالا ونساء سنة ١٩٠٤ فكانوا على هذه الصفة :

الطبقة العالية	١٨ر٥	الجيش والأسطول	٦ر١
رجال الكنيسة	١٦ر٧	صغار الموظفين	٣ر٢
رجال القانون	٧ر١	التجار	١٨ر٨
رجال الطب	٣ر٦	الصناع	٩ر٢
المهن المختلفة	٧ر٦	الفلاحون	٠ر٦

(٨) ويعرفون رأى الدكتور (كاتل) رئيس (مجمع تقدم العلوم الأمريكى) إذ جمع سير (٩٥٠٠)

رجل من رجال أمريكا المتفوقين فى العلم فوجد أن أصحاب المهن يبلغون (٣٨) فى المائة من المجموع وقد أنجبوا (٤٣ر١) فى المائة من النابغين و (٤١ر١) فى المائة من المجموع يشتغلون بالزراعة أنجبوا (٢١ر٢) من النابغين و (٣٤ر١) من المائة من المجموع هم أهل الصناعة والتجارة أنجبوا (٣٥ر٧) فى المائة من النابغين إذن ثلاثة فى المائة من سكان أمريكا وهم أصحاب المهن الحرة أنجبوا نصف علمائها .

(٩) ويعرفون رأى الدكتور (أدون لفت كلارك) إذ بحث فى أصل ٦٦٦ رجلا من رجال الكتابة والتأليف فوجد أن أصحاب المهن الحرة أنجبوا (٤٩ر٢) فى المائة من الرجال الذين تناولهم البحث والمشتغلون بالتجارة أنجبوا ٢٢ر٧ والمشتغلون بالزراعة أنجبوا ٢٠ر٩ وغيرهم ٨ر٢ .

(١٠) وسيعرفون رأى الدكتور (كلارك) إذ يقول : (الفقر لا يخلق النبوغ ولا الغنى ولكن الغنى يساعد وهو أكبر معوان على إظهاره) والمستقبل يقول : (إن النبوغ لا يكون لغير المتعلم) والله أعلم .

هذه آراء عشرة من رجال العلم فى الأمم المختلفة المحيطة بنا ، أثبتوا أن القضية المشهورة عندنا معاشر المسلمين أن الفقر يدفع إلى النبوغ قضية خاطئة ، نعم إن ذلك دافع للعمل ولكن يحتاج لمساعدة المال .
وبعد هذا سيعلم المسلمون علما ليس بالظن أن ماهم عليه من سوء الحال ناجم من جهلهم بنظام ربهم إذ حرم على هذا الإنسان أن يرقى إلا متحدا ، والمسلمون منع عنهم الرقى أن كل امرئ منهم لا يريد إلا نفسه أو أقاربه وهذا جهل محض ، فانه يقول «اهدنا الصراط» ويقول «إياك نعبد وإياك نستعين» فلست أستعين بالله وحدى ولا أعبد وحدى ، والمسلم يقول فى الصلاة أيضا « السلام عليك أيها النبي . السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » فهو يسلم على الأمة مرتين فى ضمن الصلاة على نبينا صلى الله عليه وسلم لأنه رمز لها كلها ، فالمسلم عليه مسلم على الأمة ضمنا لاتحاده معها ، والمصلى عليه مصل عليها معه ، فهو يطلب من الله رحمته وهى ظل له فكأنه طلب لها الرحمة معه . إذن الصلاة فى معناها رمز للوحدة العامة الإسلامية . فعلى قادة الأمم الإسلامية أن يجعلوا التعليم عاما ، وأن يبذلوا للصبيان كل مايحتاجون إليه بحيث يكون أبناء الفقراء فى ذلك كأبناء الأغنياء تقريبا وهناك يظهر النبوغ وترتقى بلاد الاسلام :

فلما سمع صاحبي ذلك قال : إن هذا الموضوع جميل ولكن أراك أدخلت معنى قوله تعالى « إذا زلزلت الأرض زلزالها » فى ضمن هذا المقال ، هل تريد بهذا القول أن قوله تعالى « إذا زلزلت الأرض زلزالها » يرجع إلى هذه الحركة العامة ، هل هذه زلزلة ؟ وهل إخراج الأرض أثقالها هو مانراه من علوم الآثار الخ وهل قراءة أخبار الأمم على أحجارها مثلا مثل القوانين التى كتبها حمورابى .

كل ذلك تفسير للآية ، وهل أعمال الناس فى الكشف الحديث والجد فى العمل يرجع لقوله «أشتاتا» وهل قوله « ليروا أعمالهم » معناه أن كل امرئ يعمل ويعطى الرزق غالبا من عمله ولا يتكل إلا على ربه وأن عمله له سواء أكان قليلا أو كثيرا . قلت : هل أخذت هذا من كلامى ؟ قال نعم . قلت : اعلم أن السورة واردة فى القيامة ولكنها منطبقة انطباقا تاما على أحوال عصرنا فلنا أن نقول هذا كناية ؟ ولا جرم أن الكناية تشمل المعنيين معا : المعنى الأخروى ، والمعنى الدنيوى ، وما الآخرة إلا صدى الدنيا والأمر سهل فى هذا . وإذا كان العذاب فى الآخرة فهو فى الدنيا ، وقد قررنا هذا فى مواضع كثيرة من هذا التفسير .

يقول الله فى أول (سورة فاطر) « يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها » ثم ظهر أن هذا العصر هو عصر الخروج . فاستبان للناس أن الفرنجة قد استخرجوا من بلاد اليمن أخبارا كثيرة من أحجارها التى رسموها وهكذا أتى بنفس هذه الجملة فى أول (سورة الحديد) للاشارة إلى أن معدن الحديد مما يخرج من الأرض . فاذا قال إن الأرض زلزلت وكان المعنى أن ذلك يوم القيامة فليس هناك مانع أن يكون رمزا لحال

العالم

العالم الآن من الحركة العلمية والحربية التي زلزلت لها الأرض زلزلة بالحرب والأعمال العظيمة . وها هي ذه الكنوز العلمية والعملية قد أخرجت . وهاهم أولاء الناس شرقا وغربا يتساءلون قائلين : إلى أين نحن سائرون ولا مجيب ؟ ولكن الجواب ظاهر في الآية . ذلك أن كل امرئ سيقوم بعمله الخاص ويكون الناس كالطير تغدو خماصا وتروح بطانا . فهاهي ذه الطيارات أخذت ترتقي ، وفي هذا اليوم وهو ٢٤ يناير سنة ١٩٢٩م بقيت الطيارات الأمريكية ستة أيام في الجو ولم تنزل من خلالها على الأرض ؛ ومعنى هذا أن الطيران سيرتقي ويعم قريبا ويكون للناس شأن آخر فتعمر الأرض التي لا زرع فيها وتقوم حكومات توزع الأرض التي لا مالك لها على العاطلين من الأمم ، وهناك يتكل الناس على ربهم فلا تحارب بينهم ، وأيضا لا يأ كل القوى مال الضعيف ولا يدخر الناس مالا بل تكون الأرض كلها أشبه بدار واحدة لأسرة واحدة . وهذه الطيارات مقدمة لذلك العمل وبها يصبح الناس كالطير وذلك من عجائب النبوة ومدهشاتها . وهذا المقام واضح في كتابي [أين الانسان] والحمد لله رب العالمين . انتهى ليلة ٢٣ يناير سنة ١٩٢٩ .

آيتان في الكشف الحديث

(الآية الأولى : كشف الحيوانات الذرية)

من آيات الله التي ظهرت بعد ذلك كشف الحيوانات الذرية (المكروبات) . وقد تقدم في سورة إبراهيم ذكر كشف علوم كثيرة في تفسير قوله تعالى « وذكرهم بأيام الله » ذكرتها في بيان تذكيري للمسلمين بأيام الله .

أنا أكتب هذا اليوم أعني يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٢٨ فأقول : (إن الناس قبل ٢٥٠ سنة لم يكونوا يعلمون شيئا عن الحيوان فاتفق أن رجلا اسمه (ليونهوك) من دلفت بهولنده لا يعرف علما من العلوم ولا لغة من اللغات الأجنبية ، قد جعل أوقات فراغه في صنع العدسات إذ سمع أن الإنسان إذا صنع عدسة كبيرة من الزجاج يقدر أن يرى بها الأشياء . فأخذ يطحن الزجاج ويصبه ليخرج العدسة المطلوبة وبقي في هذه التسلية عشرين سنة فصنع مئات ومئات منها لتحسينها حتى استطاع أن يصنع عدسة نقية مضبوطة ولكنها لدقتها أمكنه أن يرى منها الأشياء الصغيرة في أحجام كبيرة على غاية الوضوح فأخذ ينظر كل شيء بها مثل الشعر والنسيج وقطع من الجلد وزبان النحل ورءوس الذباب ، فكان ذلك تفكهة له وسرورا لما في ذلك من الغرابة والسرور والبهجة . واستمر يفعل ذلك إلى أن اتفق له ذات يوم أن يكون أول كاشف لأعجب وأعظم العلوم الطبيعية وهو ذلك العالم الكبير الذي لا يحصى عدده ولا يعرف أمده .

(الآية الثانية)

حيوانات شتى في الماء الصافي

ذلك أنه وضع نقطة من الماء النقي تحت العدسة ، فلما نظرها أخذته الدهشة فسمته ابنته وهو يناديها (تعالى أسرعي ، تعالى انظري الحيوانات الصغيرة في الماء الذي نشربه ، إنها تعوم ، هاهي ذه تجري وتلعب وتجري بعضها وراء بعض ، ما أعجبها . إنها أصغر بآلاف المرات من أي حيوان نراه بالعين المجردة انظري انظري هذه الحيوانات التي أكتشفها) .

فبهذا الكشف انتقل من حال إلى حال وعرفه الناس وعظم قدره وظل مجاهد طول حياته . وأحدث بهذه المعلومات ضجة كبيرة ، ولقد قيض الله بعد وفاته لهذا العلم قسيسا إيطاليا اسمه (سبالانزانى) فزاد هذا العلم درجته وتقدم به خطوة ، إذ برهن أن هذه المخلوقات ليست توجد هكذا بغتة بل هى تتناسل كما يتناسل الحيوان المعروف . انتهى الكلام على الفصل الأول فيما فتح الله به على الناس باستخراج ما فى العناصر الأرضية والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثانى

(فيما فتح الله به على الناس بكشف خيرات كانت خافية عليهم فظهرت لهم)

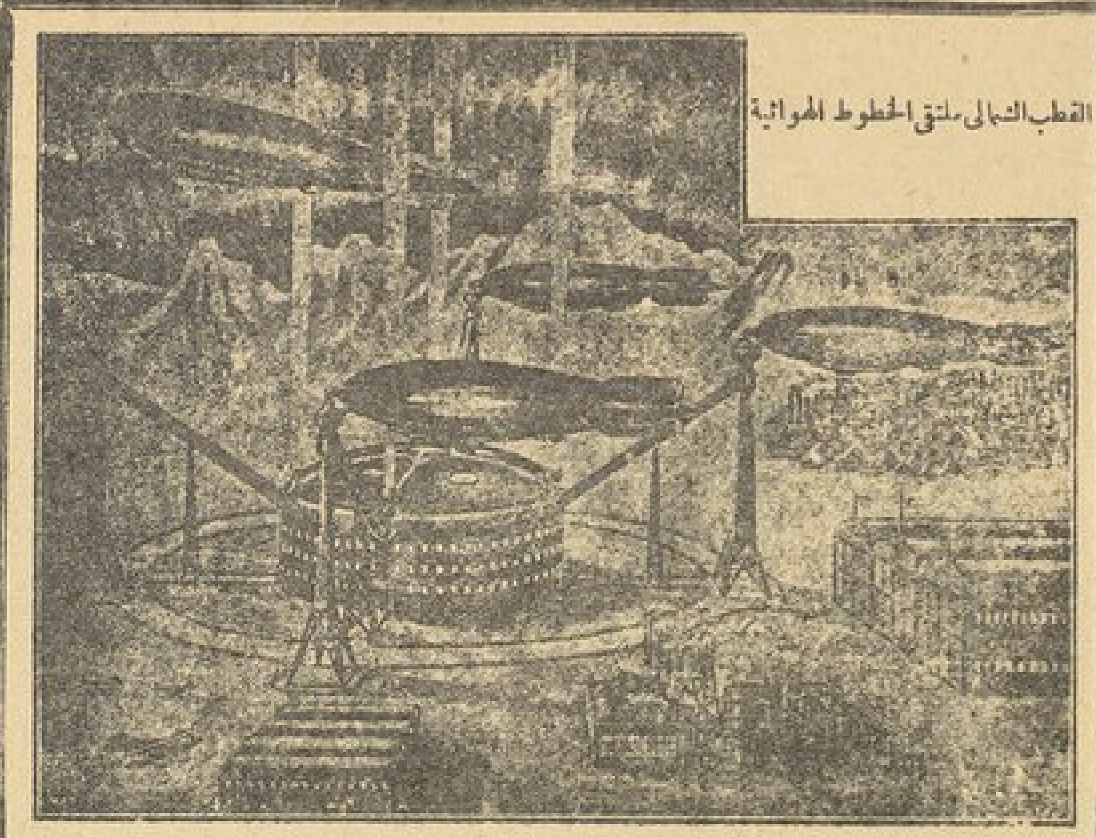
نذكر فى هذا الفصل أحد عشر موضوعا وفيما يلى بيانها :

(أولا) ثروة القطب الشمالى .
(ثانيا) أرض كشفت فى دائرة القطب الجنوبى .
(ثالثا) ماذا كله من نور الشمس ونتداوى به ؟ والكلام على المنسوجات الكيميائية .
(رابعا) أعجوبة مدهشة فى البناء .
(خامسا) مانستخرجه من الألماس .
(سادسا) من أحدث الاختراعات وعجائب العلم الجليد السخن وصنع الورق من حطب الذرة .
(سابعا) الغاز الطبيعى .
(ثامنا) ساعة تبين الزمن وأوضاع القمر والشمس . وساعة تشتغل بنفسها أمدا طويلا .
(تاسعا) عجائب العلم الحديث التسع .
(عاشرا) أغرب غرائب أمريكا .
(حادى عشر) الأطفال ذوو العقول الجبارة .

أولا : (ثروة القطب الشمالى)

جاء فى جريدة كوكب الشرق بتاريخ ١٤ يناير سنة ١٩٢٩ م مانصه :

يقول المكتشف ستفانسون (إن فى القطب الشمالى مناجم من الفحم والبترول والحديد والنحاس ، وإذا كانت هذه المناجم لم تكتشف وتستغل للآن فان علاماتها كلها واضحة ، أما النباتات فكثيرة وخصوصا الغابات المؤلفة من الأشجار المخروطة . وفى القطب الشمالى من النباتات المزهرة ٧٦٢ نباتا وأقدر أنواع الحيوان التى تستطيع المعيشة فى برودة القطب هو الرنة الغزال المعروف ، وتقدر مصلحة الزراعة فى الولايات المتحدة أن فى الاسكا وحدها من الأعشاب مايكفى أربعة ملايين رنة . ويعيش فى القطب غزال المسك ويمكن تدجينه بسهولة ، وستجعل الطيارات القطب الشمالى مركزا عظيما تحط فيه وتقلع منه فى أسفارها بين أوروبا وأميركا وآسيا) انتهى . وسترى فى الرسم التالى مايحقق ذلك (انظر شكل ١) فى الصفحة التالية .



(شكل ١ ـ رسم محطة الطيارات والبالونات فى القطب الشمالى كما تخيلها أحد المهندسين)

ثانيا : (الأرض فى دائرة القطب الجنوبى)

جاء فى جريدة المقطم بتاريخ ٢٤ فبراير سنة ١٩٢٩ م .

مات أشهر رواد القطب الجنوبى فقضى أمندسن النروجى وسكوت الإنجليزى وغيرهما من أولئك الأبطال الذين ازدروا المخاطر وتجشموا أعظم المشاق الحجاب الذى كان يحجب دائرة القطب الجنوبى عن عيون البشر فكان لهم ما أرادوا . ولو عاشوا إلى اليوم لأبصروا دول العالم تتسابق لامتلاك تلك القارة التى كانوا يعتقدون بوجودها ولوأنها لم تكن الغرض الأكبر والأول من رحلاتهم فقد وصفت التلغرافات الخصوصية والتلغرافات العمومية أمس ماهو واقع من المنافسة بين الأمريكيين والبريطانيين والاستراليين على رفع الرايات على بلدان هذه القارة القطبية الذى تقول بعثة بيرد الأمريكية إنها اكتشفت منها بالطيارات ما مساحته أربعون ألف ميل مربع وقد سبق أن عينت حكومة استراليا بعثات برياسة المستر موسون . هذا الذى ورد ذكره فى التلغرافات أمس للإيغال فى دائرة القطب الجنوبى ودرس طبيعة أرضها وبحارها وجوها لما لذلك كله من العلاقة الجوية بالبلدان التى تتلوها شمالا ولما يرجى أن يجنى منها من الفوائد المادية كصيد الحيتان واستخراج بعض المواد . فهل تصير تلك الجهات مسكنا للبشر متى غصت الأرض بسكانها ولم يعد فى القارات المجهولة مجال لخلق جديد . هذا ما يحتمل أن يكون إلا إذا مكن العلم البشر قبل ذلك من التماس مقام لهم فى العوالم الأخرى المجاورة لعالمهم كالمريخ من السيارات اهـ .

ثالثا : كيف نأكل نور الشمس وتداوى به ؟

والكلام على المنسوجات الكيمائية

ظهر فى حوانيت البدالين الأمريكيين منذ بضعة أسابيع غذاء جديد للفطور من القطانى [١] (مشبع بضوء الشمس الصناعى الذى ينبعث من مصابيح كهربائية قوية) فكان هذا الغذاء أول مادة صحية مشمسة تشميسا صناعيا عرضت فى الأسواق . وسوف تعقبها أنواع شق على مر الزمن . ويعتبر الغذاء المتقدم ذكره باكورة ثمار الاستنباط الطبى الذى استنبطه الأستاذ هارى ستينبوك من أساتذة مدرسة ويسكونزين الجامعة بأمريكا (متوخيا به وقاية الإنسان من فتك الأمراض . وقد كان فى وسع المخترع استئثاره بطريقته العلمية هذه فتدر عليه الملايين من الجنيهات بيد أنه استصوب ألا يضن بها على الخلق ، فنزل عنها مدفوعا بعوامل الشفقة على الإنسانية المعذبة بالأوصاب . وماعتم ذلك العالم أن أماط اللثام عن استنباطه هذا المدهش . وفحواه أن الغذاء المشبع بضياء الشمس خير واق من الكساح «داء العظام الرهيب» وإنه يرجو نجحه أيضا فى منع «التدرن وفقر الدم » حتى خشى عاقبة وقوف التجار ولاسيما من لاخلاق لهم على كنه اختراعه فيتخذونه ذريعة لابتزاز المال من خلق الله) فهرع إلى معمله الخاص بالتحليل الكيماوى لحطم ماكان يحويه من المصابيح الشمسية القوية وأعاد القرآن البيضاء التى أتاحت له اختراعه الجليل إلى أقاصيها . ثم عمد إلى ديوان تسجيل المخترعات طالبا إعطاءه رخصة باختراعه ليحتكره . ولما أن ظفر بأربه ذاك ، نزل عن اختراعه العظيم المشار إليه ورخصته أيضا وكل مايتعلق به لجامعة ويسكونزين . وعلم كبار صناع الأغذية بالاختراع المتقدم ذكره فقصدوا إلى العلامة ستينبوك مستوضحين . فلم يسعه الإيجاز إليهم بالتوجه إلى أمناء الجامعة السابقة الذكر ليتلقوا منهم الإجابة عما يبغون . وهناك علم وفد التجار بأنه لايحظر عليهم الانتفاع باختراع التشميس الصناعى السالف الذكر . بشرط ألايزيدوا أثمان المأكولات عما هى عليه من أجله (فقبلت هذه الشروط طائفة من الشركات المشهورة ومنها شركة كبيرة تدفع الآن سنويا عشرة آلاف جنيه لأمين صندوق الجامعة فى مقابلة الإباحة لها بالمتاجرة بالمواد الغذائية المشمسة بالطرق الصناعية . وكل مااستغلته الجامعة حتى الآن من الإختراع الذى نحن بصدده هى «القطانى المشمسة» التى يعرضها التجار المشار إليهم للبيع وسيعقبها باقى الغلات فى القريب العاجل . هذا ، ولابد من إدراك العلماء ذات يوم كنه تأثير ضياء الشمس ولاسيما الأشعة التى فوق البنفسجى التى يولدها الدكتور ستينبوك وغيره من العلماء بالطرق الصناعية أى بالمصابيح الشمسية ، فى حياة الجنس البشرى .

وكان أهالى بلاد بيرو القدماء، وطوائف الزوروأسترين القديمة وخلفاؤهم عبدة النار فى الهند وغيرها من القبائل القديمة والشيع الدينية تعتقد اعتقادا راسخا (بأن الشمس مصدر الحياة) فأيدت المباحث الحديثة تلك الاعتقادات الدينية العتيقة . وطالما أطلقنا اسم (اللفح الصحى) على تلوح البشرة من التعرض للشمس وماعلمنا إلا من عهد حديث أن ذلك نتيجة تأثير الأشعة الخلفية التى فوق البنفسجى . فى الجلد ثم تحققنا

---

(١) القطانى (بفتح القاف وتشديد الياء) الحبوب التى تطبخ ، وذلك مثل العدس والفول واللوبيا والحمص والأرز والسمسم .

كون هذه الأشعة تمد الجسم بخاصيات منعشة) أطلق عليها إسم (فيتامين) وإننا إذا لم ندخل هذا الفيتامين في أجسامنا مع طعامنا ونحصل عليه في أبداننا من طريق الجلد ما استطعنا التمتع بسلامة الصحة ولاهناءة للعيشة زمنا طويلا . والنساء أسبق من الرجال إلى تطبيق هذا الرأى العلمي على حياتهن (كما أثبت ذلك الدكتور (افرايم ملفورد) رئيس الجامعة الطبية في نيوجرسي أمام مجمع الأطباء من عهد حديث . ولايخفى أنهن أطول أعمارا من الرجال وأشد مقاومة للأمراض وألين عطفة تجاه الاجهاد . ويعزو الدكتور ملفورد السبب إلى الأزياء الحديثة (المودة) التي تحتم على النساء لبس ملابس أقصر من اللازم وأقل من الواجب (وهن بذلك يعرضن أنفسهن للاشعة التي فوق البنفسجي بينما الرجال مازالوا مصرين على تغطية أبدانهم من قمة الرأس إلى أخمص القدم بالثياب الصفيقة القاتمة (يقول المؤلف هذا رأى وللدين موقف آخر)

إذن يخلص مما تقدم (أنه كلما اشتد بياض اللباس وتضاعفت مسام نسيجه ، سهل اختراق الأشعة التي فوق البنفسجي إياه كما أثبتت ذلك مباحث مصلحة المقاييس في الولايات المتحدة بأمريكا . أما المنسوجات المصبوغة والتي اصفرلونها قليلا لقدمها فإنها تكاد تمنع اختراق الأشعة الجلد منعا باتا . ومما جاء في هذا الموضوع في تقرير قدمه الدكتور (سيل هاريس) من أطباء مدينة برمنجهام في ولاية مدينة ألاباما بأمريكا إلى المجمع الطبي الأمريكي قوله : إننا نحفر قبورنا بأسناننا بنبذنا الأطعمة المحتوية على الفيتامين ، وبإقبالنا على الأغذية المكونة من السكر والنشاء . إذ كل مايعترى الإنسان من ضعف مقاومة الأمراض المعدية التي تصيب الأنف والزور والمعدة والأمعاء إنما ينجم عن التغذى بخبز مصنوع من الدقيق الناصع البياض ، والبطاطس البيضاء والأرز المبيض واللحوم الجزيلة والقهوة المشبعة بالسكر والنقل المحلى بالسكر ، والمشروبات الحلوة ، والمربات ونحوها . وقد عزا زيادة أمراض المعدة إلى كثرة استهلاك السكر والأطعمة الحلوة فقال : كان الفرد في الولايات المتحدة مثلا منذ خمسين سنة يستهلك في السنة ٣٦ رطلا من السكر فأصبح معدل مقطوعيته الآن مائة رطل وستة أرطال في السنة . وما الإصابة بالنوازل والتهاب الرئة والتدرن والتهاب الزائدة الدودية وقرح المعدة وداء الصفراء إلا نتيجة انعدام الفيتامين في غذاء الأشخاص الملازمين للحياة الجلوسية في أمريكا وغيرها ، فلما استطاع المرء أكل طعامه نيئا هان عليه الحصول على مايعوزه من الفيتامين (لأن الآلة البشرية يتسنى لها أداء وظائفها على خير مايرام إذا اقتصر الشخص على أكل مايصيده أو يحصل عليه بعرق الجبين) لأن ذلك يقتضى إجهاد العضلات وتعرضها لضياء الشمس كي تحصل على الغذاء المشبع بالفيتامين لتعرضه هو أيضا لضوء الشمس .

وإذا كان أسلوب الحياة هذا لايتفق ومدنيتنا الصناعية الحاضرة ، يجدر بنا الإكثار من أكل المواد الدهنية والجوز والأثمار والخضراوات ولبس أخف مانطيقه من الثياب والمشي في ضياء الشمس بقدر ماتسمح به حالنا ثم الوثوق بحسن المصير .

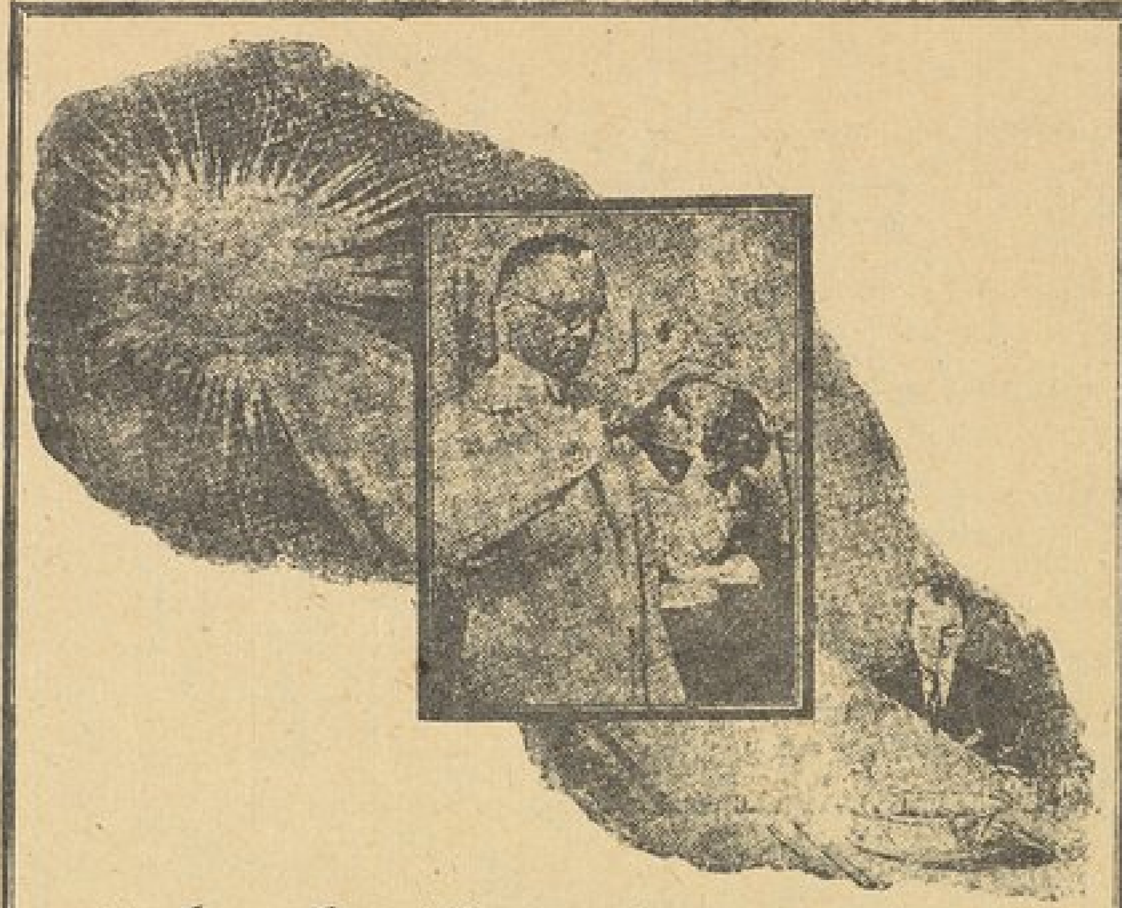
وبينما كان الأستاذ « ستينبوك » يغذى الفئران البيضاء بالحبوب في معمله الكيماوي للظلم كان زملاؤه من العلماء في أمريكا وأوروبا يجربون حصر ضوء الشمس في قناني لانتفاع الملأ به ، فقد جاءت الأنباء من معامل التحليل الكيماوى في انجلترا وألمانيا بأنه قد استنبطت مادة إذا عرضت لضوء الشمس أو للضوء الذي فوق البنفسجي أضحت دواء ناجعا يفوق زيت كبد الحوت « الباكلاه » المعروف باسم زيت السمك (ألوفا من المرات) ويقال إن كل ست أواق منها تعادل طنا من زيت السمك من جهة الفائدة العلاجية . وقد سماها العلماء « أرجوستيرول » وهي تتركب من الخميرة وتشبع بضوء الشمس . وتوجد منها مقادير ضئيلة في بدن كل جسم صحيح . فإذا انعدمت من أى جسم أمكن تجديدها بحقنة دقيقة من الأرجو ستيرول لايمكن قياسها لصغرها » . وبلغ من شدة مفعول هاتيك المادة أن الحقنة الواحدة منها إذا زادت على المتوسط بضع

حيات أعقبت الموت الزؤام أشد من الزرنيخ . أما طريقة الاهتداء إلى المادة السحرية المتقدم وصفها ، فأمر طريف بدأ بتجارب باشرها العلماء قصد تحسين طعم زيت السمك لكيلا يعقيه (١) من يوصف له ليستطب به . وقد أسفرت التجارب الأولى التي تحرى بها العلماء تحسين طعم ذلك الزيت بتنقيته مما يشوبه من الشوائب من ضياع فائدته الطبية . فكانت هذه النتيجة أول دليل على أن رواسب زيت السمك هي العنصر الشافي الفعال فيه . وقد واصل الأستاذ « جورج بارجر » المدرس بجامعة (إدنبره) البحث في هذا الموضوع فاستدل على أن الفائدة الطبية الزيت السمك كلها محصورة في مادة الأرجوستيرول . وهذه توجد كثفل في المواد الدهنية .

ثم حذا حذوه الدكتور « أدولف وندوس » الخبير الألماني بجامعة جوتينجن فأثبت أنه بتعريض مادة الأرجستيرول لضياء الشمس أو النور الذي ينبعث من مصابيح الأشعة التي فوق البنفسجي، يمكن استغلال مادة ذات قوة شافية مثل قوة زيت كبد السمك (القد) سهلة الهضم جدا حتى على أضعف معدة . وقد نال الدكتور أدولف من أجل هذا الاستنباط جائزة نوبل في الكيمياء لسنة ١٩٢٨ وقيمتها أكثر من ٨٠٠٠ جنيه .

ويستفاد مما تقدم أن فائدة زيت السمك في العلاج متوقفة على رواسبه المشار إليها ومصدر قوتها (الرواسب) ضوء الشمس الذي يرشح من الماء إلى السمك العائم في البحار ، فإذا ماس ضوء الشمس مادة الأرجوستيرول حولها إلى فيتامين من الطبقة الرابعة وهو الفيتامين الدالي (نسبة إلى حرف الدال في الأبجدية) ونعني بها عنصرا من العناصر الخفية الضرورية في الغذاء التي يعتقد العلماء الآن أن فوائدها الصحية إنما هي امتصاصها ضوء الشمس وادخارها إياه ، والفيتامين الدالي هذا هو النوع الشافي للكساح ويتولد الجسم البشري بطريقة عجيبة لم يوفق العلماء للوقوف على حقيقتها إلا من زمن قريب . وتبيان ذلك : أن مادة الارجستيرول المدخرة في الجسم البشري تتطرق منه إلى البشرة حيث تتشمس بضوء الشمس ويمتصها الجسم ثانية مشفوعة بالفيتامين المنعش . وبما أنها تساعد في هذه العملية . يشير الأطباء بالاحتراس عند التشمس بضوء الشمس الصناعي المتولد من المصابيح . هذا ما جاء في مجلة مصر الحديثة والله أعلم . (انظر شكل ٢) و (شكل ٣) في الصحيفة التالية .

(١) عقى الأمر : كرهه .



(شكل ٢ ـ الأستاذ هارى ستينبوك من أساتذة جامعة ويسكونزين الذى كشف حقيقة كون الغذاء الشمس بضياء الشمس يساعد على منع الأدواء ، والذى أسدى إلى الجنس البشرى حبوبا غذائيه صحيحة)



(شكل ٣ ـ صبى كسيح فى حمام الشمس بمستشفى من مستشفيات مدينة شيكاغو بالولايات المتحدة بأمريكا حيث يعالج من داء تدرن العظام بنور صناعى كضوء الشمس ينبعث من مصابيح الأشعة التى فوق البنفسجى)

(الكلام على المنسوجات الكيمائية)

من الغايات التي يسعى إليها العلم اليوم أن يستعيض عن المزروعات بالمواد الكيماوية : والعلماء مجدون في استنباط وسيلة يغذى بها الجسم دون أن يحتاج إلى الطعام كما نعرفه اليوم إذ يريدون أن يحقنوا المرء إذا جاع بحقن تحتوى على خلاصة تغنى عن الأكل، ولهم من ذلك (غرضان: أما الأول) فأن يواجهوا بالعلم زيادة السكان المطردة مع عدم كفاية الأراضى للزرعة ، وأما الثانى فالسعى إلى زيادة التوقى من الأمراض وجعل الهيئة الاجتماعية صحيحة الجسم لأن الحقن للتغذية الكيمائية تكون معقمة خالية من الجراثيم على حين أن الطعام الذى يقدم الينا اليوم مجرد عن هذه الحيطة الصحية ، والآن وقد حل عام جديد يمكن أن نتنبأ ونحن على ثقة من تحقيق هذه النبوءة أن هذا العام لا ينصرم إلا وقد توصل الكيماوى إلى عرض الثياب على اختلاف أنواعها مصنوعة من مواد كيماوية فلا يعود تفشى الموت بين دود القز أو إصابة نبات القطن بالآفات سببا يدعو إلى ارتفاع أثمان الثياب . فإذا كانت هذه الآفات اليوم تروعنا وتثير مخاوفنا فإن هذا لن يدوم طويلا وسوف لاتعود هذه الأنباء تلقى منا أى اهتمام ، مات دود القز ، فليكن ، مات نبات القطن فليكن ولكن الكيماوى مازال على قيد الحياة أيها السادة ، فهو يستطيع أن يخرج لنا منسوجات خير من نسيج القطن أو الحرير ، ومثل هذه الثياب الكيمائية تكون أفضل من الثياب الطبيعية لأنها أرخص ثمنا إذ لاتتأثر المواد الكيمائية بالآفات أو الكوارث كما هو شأن المزروعات . كذلك يصبح من السهل صبغها بأى لون مطلوب بحيث يلائم بشرة لابس الثوب . ومعنى ذلك أن إناقة النساء سوف تزداد إلى درجة ملموسة.

رابعا : (أعجوبة مدهشة فى فن البناء)

(كنيسة تنقل بذاتها من مكان إلى آخر)

جاء فى (مجلة الجديد) مانصه : (كثيرا مايقال إن أمريكا بلاد العجائب وأنها فى هذه الحادثة بالذات تعمل أعجب ماعرفناه عنها ، فقد نقلت الأخبار الأخيرة أن بعض كبار المهندسين فى الولايات المتحدة نجحوا نجاحا مدهشا فى نقل كنيسة السيدة العذراء بشيكاغو من مكانها إلى مكان آخر وهى التى ترى فى هذه الصورة (شكل ٤) فى الصحيفة التالية فقد نقلت بذاتها من أحد جانبى الطريق إلى الجانب الآخر ، وهذه هى أول مرة يستطيع الأمريكان فيها أن ينقلوا بناء كبيرا بهذه الضخامة لأن ماحصل قبل ذلك لم يكن إلا فى أبنية صغيرة ، وقد استخدم فى نقلها أربع ونشات كبيرة ومائتارجل وخمسمائة ألف قدم من أسلاك الصلب السميكة وثلاثة آلاف عجلة وأربعة آلاف آلة رافعة وخمسمائة ألف قدم من الخشب ، وبديهى أن هذه الأعجوبة الهندسية العظيمة قوبلت بمزيد الدهش فى جميع أنحاء العالم) انظر صورتها شكل (٤).



(شكل ٤ ـ رسم كنيسة تنقل بذاتها من مكانها إلى مكان آخر)

خامسا : (الكلام على استخراج الألماس)

جاء في مجلة (اللطائف المصورة) مانصه :

اشتهرت مدينة (امستردام) في هولندا بتخصص أهلها في فن تنظيف الألماس وتنقيته فان معظم مايستخرج من هذا المعدن الثمين في ولايات أفريقيا الجنوبية يرسل بالحالة التي استخرج فيها إلى مدينة ابستردام هذه حيث يقوم الإخصائيون هناك بعملية تنظيفه وتنقيته واختيار الصالح منه ووزنه ثم يعيدونه إلى أصحابه نظيفا نقيا ، وفي امستردام معامل عديدة يشتغل فيها ألوف من الكيماويين والصياغ وتعد منبع ثروة البلاد .

والألماس عند وصوله إلى المعامل ينظف من التراب والمعادن الأخرى التي تكون قد لصقت به وذلك بواسطة آلات أعدت لهذا الغرض . ثم يشتغل أناس من الإخصائيين بفرز ماتنظفه الآلات فتوضع القطع النقية إلى جهة والتي فيها عطب أوتشوب نقاوتها شائبة إلى جهة أخرى وبعدذلك يعمد فوج آخر من الإخصائيين إلى وزن هذه القطع جميعها بدقة فائقة نظرا إلى قيمة الألماس وعلو ثمنه . والأشكال الثلاثة الآتية (شكل ٥) و (شكل٦) و(شكل٧) تمثل الأدوار الثلاثة المهمة التي يمر بها الألماس قبل وصوله إلى التجار والمشترين وهذه صورتهن في الصفحات التالية .



تنظيف الألماس

(شكل ٥ ـ منظر عام للآلات التي يجلس إليها العمال المنوط بهم تنظيف الألماس من الأتربة والمعادن الغريبة . والآلات لا تقوم بالعمل كله بل إن العامل يستعمل يديه وحدة نظره . ويرى في الصورة أحد المفتشين الذين يسهرون على العمل ويراقبون العمال)



(فرز الألماس)

(شكل ٦ ـ عملية قطع الألماس واختيار الصالح منها من الطالح . ويقوم بهذه العملية رجل لايستخدم إلايديه وملقطا صغيرا يتناول به القطع الواحدة بعد الأخرى)



(شكل ٧ ـ منظر الاختصاصي الذي عهد إليه بوزن قطع الألماس بعد تنظيفها وفرزها . وعمله هذا أدق من الأعمال الأخرى إذ على نتيجته يتوقف تحديد ثمن الألماس وعرضه للبيع)

سادساً : (من أحدث الاختراعات والفوائد العلمية)

(وعجائب العلم : الجليد الساخن وصنع الورق من ورق الذرة)

استنبط الأستاذ (برسى) و (بردجمان) أحد معلمى مدرسة هارفرد الجامعة بأمريكا جهازا يستطيع به إحداث ضغط صناعى يقدر بـ ٦٠٠٠٠٠ رطل على ما مساحته بوصة مربعة واحدة ، وتسهيلا لإدراكنه هذا الضغط الذى يعتبر أشد ضغط أدركه المخترعون حتى الآن نقول إنه يعادل فى الوقت نفسه ضغط الماء فى قعر المحيط على عمق ٢٥٠ ميلا ، ثم إن ضغط صرح من الصروح الفولاذية فى (نيويورك) التى أطلق عليها اسم (ناطحات السحاب) لعظم ارتفاعها وثقلها لايعادل بعض ثقل الضغط الذى يتولد من الجهاز المشار إليه وبه يتحول الفولاذ إلى مادة لينة يمكن تمديدها ويتحول شمع البرافين إلى مادة أصلب من فولاذ الآلات ويصبح الصمغ المرن قاسيا جدا بحيث تصنع منه مقاطع الفولاذ ، وبهذا الجهاز يجمد الزئبق تحت ضغط مقداره ٢٠٠٠٠٠ رطل مع أنه يتجمد عادة عند درجة ٤٠ تحت الصفر أوأسفل منها ومع كل هذا يقول العارفون إن الجهاز فى حد ذاته غير معقد التركيب إذا قيس بغيره من الأجهزة العلمية فهوبمثابة طلمبة هواء عادية تولد الضغط المطلوب . وذلك يؤتى بالمواد المراد ضغطها وتوضع فى تجويف صغير مجوف فى قطعة صلبة من الفولاذ ثخنها خمس بوصات ثم يغطى التجويف بسداد صغير من الفولاذ أيضا تمدد بتأثير الضغط فيقى محتويات التجويف والهواء من الإفلات . وقد حدث فى أثناء التجربة أن انفجر التجويف فانغرزت شظاياه فى لوح خشب صنوبرى صلب عمق ست بوصات فى ظهر الجهاز وفى تجربة أخرى استخرج البيض من ماء جليد ساخن بتعريضه لضغط مائة ألف رطل فظهر أنه مساوق سلقا جامدا .

(حطب الذرة وصنع ورق الصحف)

من أحدث الوسائل التى استنبطها العلماء للانتفاع بالمواد الزراعية المهملة والفضلات الحقلية العاطلة تحويل حطب الذرة بالطرق الكيماوية إلى عجينة لصنع الورق اللازم لطبع الكتب والمجلات والجرائد . وقدجرب ذلك أول مرة رؤساء تحرير الصحف فى مدينة دنفيل بولاية إيلينو إحدى الولايات المتحدة بأمريكا كى يستوثقوا من صلاحيته للطباعة . فاستبانوا أن هذا الورق سيفاخر الأصناف التى تصنع من عجينة الخشب ، ويمارس الباحثون الآن تجارب أخرى يبتغون بها الوقوف على مبلغ ماتتكلفه عمليات إنتاج المقادير الكبيرة منه وهل ستفضى إلى قصد بعض نفقات الطبع أولا .

هذا، وقد اتضح أن ورق الطباعة المصنوع من عجينة حطب الذرة أشبه بورق عجينة الخشب بل إن ذلك أمتن قواما من هذا وأنصع لونا وأسهل تشربا للمداد . وكان أول كتاب تم طبعه من هذا النوع الجديد مؤلفا موضوعه مطابق للبحث نفسه وهو المجلد الأول فى المنافع الصناعية للحاصلات الزراعية المهملة لمؤلفه الأستاذ (جورج م . رومنيل) الذى انتدبته حديثا وزارة الزراعة فى الولايات المتحدة لبحث مسألة الانتفاع بالمواد الزراعية التى لايعبأ بها الزراع أولا يجنون منها أرباحا تذكر اهـ .

سابعا : (الغاز الطبيعى)

الفحم الذى نشعله فى بيوتنا ونطبخ عليه طعامنا يصنعه الإنسان بحرق الأخشاب مطمورة بالتراب فتحترق احتراقا بطيئا يزيل منها الأبخرة والغازات ويبقى فيها المادة الخشبية على ماهو معهود ولكن الفحم الحجرى الذى نوقده فى المعامل والبواخر صنعته الطبيعة فى العصور الجيولوجية وخزنته فى جوف الأرض فوجدناه غنيمة باردة وكان يمكن أن يكون من المنافع العمومية التى لا ثمن لها كالهواء ونور الشمس لولا ماينفق على استخراجه ونقله من مكان إلى آخر .

والغاز الذى تنار به هذه المدينة (مصر) وغيرها من المدن الكبيرة يستخرج من الفحم الحجرى باستقطاره منه استقطارا . ثم ينقى مما يخالطه من الشوائب ويوزع على الشوارع والبيوت بالأنابيب المعدنية كما توزع المياه ، واستقطاره وتنقيته وتوزيعه يقتضى نفقة كبيرة تضاف إلى ثمن الفحم الحجرى وربا رأس المال وتفرض على المستصبحين به ؛ ولكن الفحم الذى يستقطر الغاز منه لا يضيع سدى بل يبقى نافعا للوقود وهو المعروف بالكوك . والشوائب التى تستخرج عند تنقية الغاز يستخرج منها أكثر أنواع الصباغ المعروفة الآن من ذلك ثلاثون لونا من الألوان الحمراء وستة عشر من الألوان الزرقاء وستة عشر من الصفراء واثنا عشر من البرتقالية وتسعة من البنفسجية وسبعة من الخضراء عدا ألوانا أخرى من السمراء والسوداء . وقد يزيد ثمن الشوائب على نفقات استخراج الغاز وتنقيته فيستخرج لأجل استخراجها منه فقط ولو لم ينتفع به للانارة . وفى جوف الأرض غاز طبيعى كما فيها فحم طبيعى ، وهذا الغاز الطبيعى كان معروفا فى بلاد الصين منذ سنين كثيرة . وكان الصينيون يثقبون الأرض ثقوبا ضيقة ويستخرجون الغاز منها ويوقدونه لتبخير المياه المالحة واستخراج الملح منها . وعندهم آبار له عمقها ألف متر . وقد عرف فى أمريكا منذ أكثر من مئة عام ولكن لم يسع أهلها فى استخراجه واستخدامه للوقود والاستصباح إلا منذ خمسين سنة فى أواخر القرن الماضى فى ربيع سنة ١٨٨٤ ألف بعضهم شركة تجارية فى مدينة فندلى بولاية أوهايو من ولايات أمريكا لتثقب الأرض وتستخرج الغاز الطبيعى منها وكان عدد أهالى تلك المدينة حينئذ (٤٥٠٠) نفس ، ولم تشرع الشركة فى عملها حتى شهر أكتوبر من تلك السنة فثقبت بئرا عمقها (١٠٩٣) قدما ووضعت فيها أنبوبا وأشعلت الغاز المنبعث من الأنبوب فامتد لهبه فى الهواء ثلاثين قدما ، وكان هذا اللهب يرى على مسافة ثلاثين ميلا من كل ناحية ، وقدروا الغاز المنبعث من هذه البئر يوميا بمائتين وخمسين ألف قدم مكعبة فتقاطر الناس لرؤيتها من كل فج . وسنة ١٨٨٥ ثقبت بئرا عمقها ١١٤٤ قدما فانبعث الغاز منها انبعاثا لم يعهد له مثيل فيسمع صوت خروجه منها على ثلاثة أميال ويرى لهبه على مسافة أربعين ميلا من كل ناحية ، ويقدرون مقدار الغاز المنبعث يوميا من هذه البئر باثنى عشر مليونا من الأقدام المكعبة . ومن ثم أخذ سكان المدينة يزدادون بكثرة النازحين إليها فبلغوا ستة آلاف نفس فى غرة سنة ١٨٨٦ وعشرة آلاف نفس فى ربيع سنة ١٨٨٧ ونحو ١٨ ألف فى أواخر تلك السنة واتسعت مساحة المدينة وغلا ثمن أراضيها وأنشئت فيها معامل للزجاج والحديد والآجر والكاس ونحو ذلك مما يقتضى وقودا كثيرا لأن أصحاب الغاز الطبيعى أجروه فى أنابيب إلى المعامل وأوقدوه فيها بدل الفحم وأجروه أيضا إلى بيوت السكان فاستعملوه للطبخ والاستدفاء واقتدت مدن كثيرة بمدينة فندلى فى كل ولاية أوهايو وانديانا ويقدرون الآن أنه ينبعث من مدينة فندلى كل يوم ستون مليونا من الأقدام المكعبة من الغاز ومن غيرها من المدن المجاورة أربعون مليونا . وأكثر

هذا الغاز يستخدم فى الأعمال النافعة بدل الوقود على ماتقدم . وكانوا فى أول الأمر يحرقونه عند أفواه الآبار فيذهب ضياعا . أما الآن فقد اقتصدوا فيه مخافة أن ينفد . وحالما شاع أمر الغاز الطبيعى أخذ الناس يتفلسفون فى أصله وما يئول إليه استخراجه من الأرض فقال بعضهم: (إن الأرض مجوفة وجوفها مملوء بهذا الغاز وهو علة تعلقها فى الجو ، فاستخراجه منها شديد الخطر لأنها إذا فرغت منه تصدعت وتحطمت ووقعت من مكانها فى السماء) . وهو من أسخف الأقوال التى طرقت المسامع وقال غيره : (إن الغاز ليس مالئا جوف الأرض كلها بل بعض الأجزاء وإنه يخشى أن تمتد النار الخارجية إلى مصدره الذى تحت ولاية أوهايو وانديانا فيشتعل دفعة واحدة وينسف الأرض نسفا فتصير كل تلك البلاد واديا عميقا فتجرى اليه مياه [بحيرة اري] فيصير بحيرة كبيرة . وطلب من الحكومة الأميركية أن تنظر فى هذا الأمر وتمنع استخراج الغاز من الأرض وهو أيضا من السخافة بمكان .

وقال آخر: إنه تفحص أحوال الغاز الطبيعى بالتليفون والترمومتر فوجد أن درجة حرارة الأرض ٣٥٠٠ على عمق ميل تحت مدينة فندلى وأن تحت المدينة مباشرة تجويفا كبيرا مملوءا بالغاز الطبيعى وتحت الغاز طبقة من الصخور سمكها نحو ميل وتحت هذه نار متقدة تذيب الصخور بشدة حرارتها ولابد من أن تذوب تلك الطبقة الصخرية فتصل النار إلى الغاز فيلتهب دفعة واحدة فينسف الأرض التى فوقه بما عليها .

وكل هذه الآراء من الخرافات التى لا يؤيدها العلم لأن الغاز لا يشتعل مالم يتحد جانب منه بجانب من أكسوجين الهواء فان لم يمتزج بالهواء فلا خوف من اشتعاله اه .

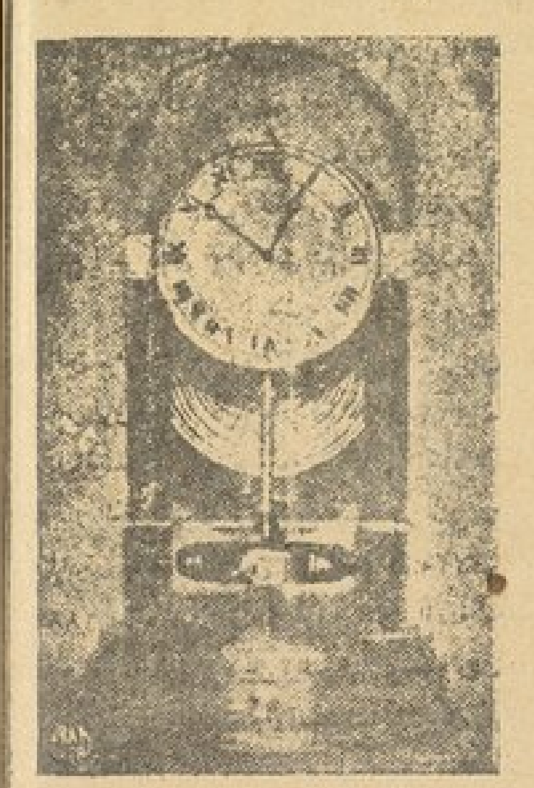
ثامنا : (ساعة تبين الزمن وأوضاع القمر والشمس)

وساعة تشتغل من نفسها أمدا طويلا

جاء فى إحدى المجلات العلمية مانصه :

اخترع (المستر جورج فوتشر) من (لوس انجليس) بالولايات المتحدة ساعة تبين الزمن وأوضاع القمر والشمس والأرض فى أى وقت فى مدة ست سنوات ، وهى تسير حسب النتيجة العبرية القديمة أى باعتبار السنة القمرية وإضافة ماتنقصه عن السنة الشمسية وهو سبعة أيام وكسر فى نهاية كل أربع سنوات لتكون سنة كبيسة ذات ثلاثة عشر شهرا اه .

« واخترع أحد المهندسين فى (بيرن) بسويسرا ساعة عجيبة تشتغل بنفسها أى بدون أن تملأ زنبركها كالساعات العادية وتمكث كذلك ١٠,٠٠٠ سنة وهى مبنية على استثمار تغيرات درجة الحرارة والضغط الجوى » (انظر شكل ٨) .



(شكل ٨ - رسم ساعة تشتغل من نفسها ١٠,٠٠٠ سنة)

ويلحق بهذا عجيبتان : العجيبة الأولى ، (اكتشاف الطيارات فى الجو)

تمكن المستر (بيرد) المشتغل فى أبحاث الرؤية من بعد من إيجاد أشعة يمكنها أن تعين مكان أى طيارة على أية مسافة ، وسيعرض هذا الاختراع قريبا فيحضر جهازه ويضعه فوق عمارة ويرسل منه أشعة مرئية ويصوبها نحو الطيارات المحلقة فوقه فإنها مهما بعدت فالأشعة تكون متصلة بها ولو لم تكن مرئية للناس وتصورها على الشريط مع بيان مقدار بعدها . ثم بعد ذلك يخرج من نفس الجهاز أشعة غير مرئية ويقوم بما فعله فى الأول فتنطبع على الشريط صور مماثلة للأولى بالضبط وعلى ذلك يمكن الجزم بأنه أصبح فى الإمكان اكتشاف الطيارات مهما اختلفت وبعدت فى الجو فلا يمكن استخدامها على غرة فى غارة حربية كما كانت تفعل الطيارات الألمانية فى الحرب الكبرى .

(العجيبة الثانية)

قد اخترعت فونغرافات لتعليم اللغات بالألفاظ والصور فليس على من يريد تعلم أى لغة إلا اشتراء أحد هذه الفونغرافات والأسطوانات الخاصة بهذه اللغة ، فإذا دارت الأسطوانة دار معها أيضا شريط مصور فكل كلمة تنطق بها الأسطوانة بينها الدليل على الشريط ، وبذلك يستطيع أن يتعلم أى لغة بدون حاجة إلى مدرس ويمكنه أن يعيد الأسطوانة كما يشاء حسب استعداده . وهذه ميزة لا يمكن أن توجد فى تدريس الأساتذة اهـ .

(تاسعا ـ عجائب العالم الحديث)

أول ما يلفت النظر فى عجائب العالم الحديث أنها من نوع آخر يختلف كل الاختلاف عن العجائب القديمة وإن تكن أعلى منها قدرا وأعظم نفعا لجميع الجنس البشرى فهى انتصارات العلوم لم توجد بالرق والاستعباد وسلمت الإنسان زمام القوى الطبيعية يسخرها لنفعه كيفما أراد . وقد يكون ذيوعها وانتشارها فى جميع الأنحاء العملية فى أصقاع الأرض وجعلها طوع كل يد مما سبب عدم حدوث الروعة والدهشة من أجلها فى النفوس ولكن لاريب فى أنها غيرت حياة الإنسان على هذا الكوكب فى وقتنا الحاضر تغييرا كليا لم تشهده الأمم الماضية حتى عهد قريب . وقد استشارت مجلة العلوم الأمريكية أكبر العلماء عن آرائهم فى أعظم عجائب العالم الحديث وقد وصلت عدة مئات من الرسائل من مشاهير العلماء فى كل أمة . فأسفر تلخيصها وحصر ما فيها عن نحو خمسين عجيبة تعد من أقصر انتصارات العلوم فى جميع مناحى الحياة العملية والهيئة الاجتماعية . وقد استوجب هذا أن يستشير رئيس تحرير مجلة العلوم الأمريكية الدكتور « ستراتون » رئيس معهد الفنون فى « ماساشوسيت » بالولايات المتحدة كى يختار له من بينها سبع عجائب فقط مجاراة للصيغة اللفظية التى يعبر بها عن عجائب العالم القديم . فلما قابله فى مكتبه حيث يشرف على مئات من الشبان العاكفين على الأبحاث والتجارب العلمية كى ينقلوا إلى يد الإنسان مدهشات القوى الطبيعية أحاطه بمهمته فلم يك من الدكتور « ستراتون » إلا أن قابله بالدهشة وأجابه متعجبا « سبع لا غير » كيف يكون ذلك ؟ أخيل إليك أنه يمكن أن نجمل عجائب الوقت الحاضر سبعا فقط هذا مستحيل بل المعقول أن نقول إنه يوجد فى الوقت الحاضر ٧٧٧ عجيبة . وأخذ يسرد له قوائم مطولة على ترتيب حروف الأبجدية عن عجائب هذا العصر فذكر الآلات الزراعية والطيارات والسيارات والكبارى . الخ . ولما كانت أعمال الدكتور (ستراتون) لا تسمح له إلا بالقليل من الوقت . أمهله رئيس التحرير حتى يفكر فى خلوته فى انتقاء أعجب العجائب . وقصارى القول أنه عاد إليه فى الموعد المحدد فوجد الإجابة مطبوعة بالآلة الكاتبة على قرطاس من الورق كما يلى :

(١) استكشاف البكتريا واستثمارها فيما ينفع الناس .

(٢) تقدم العلوم فى معرفة تركيب المادة ومعرفة التشمع .
(٣) تقدم علم الكهرباء واستثماره القوة الكهربائية فى إيجاد الضوء والحركة .
(٤) الاحتراق الداخلى فى الآلات .
(٥) طريقة البناء الحديث المعروف بالأسمنت المسلح .
(٦) التعدين الحديث .
(٧) طرق حفظ المواد الغذائية بدون تعفن أو فساد .
(٨) الطيارات والرحلات الجوية .
(٩) تقدم صناعة الآلات الميكانيكية

وإنه من المفيد أن نبين بشكل إيجاز ما أجمله فى هذه الفقرات التسع فإن الأعجوبة الأولى وهى استكشاف البكتريا لاريب فى أنها من أكبر انتصارات علم الكيميا فى العصر الحاضر فقد لبث الناس طوال الأجيال الخالية . لايدركون شيئا عن فعل الكائنات الذرية التى منها ما يقدم للانسان أكبر الخدمات ومنها ما يلحق به أشد الأمراض ويهدد حياته- بالأخطار المريعة كما كان يحصل فى الطواعين وغيرها من الأمراض الوبيلة الفاتكة . حتى إذا جاء العالم العظيم « باستير » باستكشافه فى هذه العوالم الذرية التى لا تحصى والتى بالرغم من تدخلها كل التدخل فى حياتنا نفعا وضرا فليست تراها العين المجردة ولكنها الآن أصبحت معروفة فى كل مكان . فالمعروف من أنواع « البكتريا » المفيدة يزيد على ٢٠٠٠ نوع وتوجد فى العالم مئات من المعامل الكبيرة لدراسة حياتها وميزاتها وقد درست كذلك أنواع كثيرة من الميكروبات أو الجراثيم التى تسبب الأمراض وعرفت طرق مقاومتها والقضاء عليها . ولذلك لم تصبح إنسانية كما كانت فى القرن السابق عرضة لأن تحصد أبناءها الأوبئة والطواعين بل صار لكل مرض ينشأ عن هذه الجراثيم الدواء الفعال الذى يقفه عند حد إن لم يستأصله بالكلية ، ونشأ من ذلك استعمال المطهرات فى كل شىء وعلى الأخص المياه فى المدن المزدحمة بالسكان ولذلك يلاحظ ازدياد السكان فى كل الأقطار الآخذة بأصول الحضارة .

وقد ذكر الدكتور ستراتون فى الأعجوبة الثانية : تقدم العلوم فى معرفة تركيب المادة ومعرفة التشمع فإن دراسة التركيب الذرى للمادة قد أدى إلى انتصارات كماوية وطبيعية ترتكز عليها كل الأعمال الصناعية وغيرها فى الوقت الحاضر . وإن أكبر هذه الانتصارات من غيرشك هو اكتشاف الراديوم فى سنة ١٨٩٨ بواسطة الطبيب الفرنسى (بيير كورى) و(مدام كورى) زوجته ، وليس من أحد يجهل مايقوم به الراديوم الآن من المعجزات التى لم يكن يتصور العقل حدوثها . على أن الراديوم لم يزل حديث العهد وينتظر له من الانتصارات العظيمة فى المستقبل ما لا يمكن أن يذكر فى جانبها ماعرف الآن من مزاياه ومبلغ قوته .

وأما الأعجوبة الثالثة وهى تقدم علوم الكهرباء بحيث أصبحت من القوى النافعة الآن فى المصانع والدور والبيئات الاجتماعية فظاهرة لكل ذى عينين . فإنه يرى الكهرباء فى الطرقات فى شكل أضواء زاهية لامعة حسبما يراد من القوة ، ويراها فى المصانع قوة محركة تقوم بما لايمكن أن يقوم به الآلاف من الناس ، ويراها كذلك مستخدمة فى وسائل المواصلات والنقل مثل التلغراف والتليفون والسكك الحديدية والتلغراف اللاسلكى والتليفون اللاسلكى والرؤية من بعد الخ . وأن كل واحد من هذه الاختراعات العظيمة يعد أعجوبة لاتقدر ، ولا ريب أن اختراع طريقة الاحتراق الداخلى فى الآلات أحدث فوق أديم الأرض كثيرا من التغيير فى أحوال المجتمع الإنسانى حيث سهلت المواصلات بعد أن كانت فى العصور الماضية عقدة العقد . فهذه هى السيارات وإن تكن حديثة العهد ولكنها أصبحت الآن فى كل مكان ، ويعرف كل إنسان ماتقوم

من الخدمات النافعة، ويوجد منها فى الولايات المتحدة وحدها ٢٣٫٠٠٠٫٠٠٠ سيارة أى بنسبة سيارة واحدة لكل ستة أشخاص، ويمكن أيضا تقدير مايستفيده الإنسان فى هذه الأعجوبة إذا فكر فى الآلات المختلفة التى تسير بالاحتراق الداخلى لرى الأراضى أو الإضاءة أو لإدارة المصانع المختلفة فهذا مشاهد فى كل مكان.

وأما الأعجوبة الخامسة فهى: الطرق الحديثة فى البناء المعروفة بالأسمنت المسلح حيث يستخدم فيها المعدن والأسمنت فى وقت واحد. وقد لايعد البعض (الأسمنت المسلح) بين العجائب ولكنه إذا رأى كيف تبنى ناطحات السحاب فى أمريكا وغيرها من البلاد لايسعه إلا أن يقر بفضل هذه الأعجوبة التى يمكن أن يتم بواسطتها من البناء فى بضعة أشهر ماكان يستغرق فيه بناة الأهرام عدة سنوات وأن حدائق بابل المعلقة التى لاترتفع أكثر من ٤٠٠ قدم لايمكن أن تعد أعجوبة إذا قورنت بأى برج من الأبراج الحديثة المبنية بالأسمنت والحديد ولاسيما إذا عرفنا أن القدماء كانوا يبنون بالطين وأكثر مااستعمله قدماء المصريين الجبس، والرومان المواد البركانية مع الجير. وكان اختراع الأسمنت فى سنة ١٨٢٥ ومن ذلك العهد تطور فن البناء وظهرت العمائر الضخمة ذات العشرات من الطبقات (٦) وقد كانت انتصارات التعدين من أول الأمور المحققة لكثير من مناحى التقدم العمرانى والصناعى حيث يجد كل صاحب صنعة أو عمل نوع المعدن الأكمل الذى يمكن أن يكون أعظم من سواه فى العمل الذى يتعهده. أو الآلة التى يصنعها (٧) وأن طرق حفظ الأغذية من التعفن والفساد لها قيمتها الكبرى لأن الأغذية من أول العوامل الحيوية اللازمة لوجود الإنسان. وقد كانت تحصل المجاعات فى الأزمنة القديمة ويهلك بسببها ما لايحصى من الأمم. بينما توجد بلاد تزيد حاصلاتها على ماتستهلكه فتطرح للتعفن والفساد بدون أن تستثمر فى إنقاذ الهالكين فى المجاعات. وصارت الحركة التجارية الآن فى جميع أنحاء العالم تستثمر كل حاصلات كل قطر من الأقطار ولولا طرق حفظ الأغذية لما أمكن أن يتم ذلك (٨) وبديهى أن من يعد عجائب العالم لابد أن يذكر الطيارات وتقدمها العظيم كما هو مشاهد للعيان، فقد أصبحت تتم بها الرحلات بين جميع أقطار الكرة الأرضية وهى تستخدم الآن فى نقل البريد والمسافرين، ولها فى إبان الحرب أروع الأعمال التى تكسب الجيوش الفوز والنصر. وذلك لأنها أول طرق المواصلات المحررة من القيود المكانية فهى تسبح فى الهواء أين تشاء (وأما الأعجوبة التاسعة) وهى تقدم الآلات فانه يدخل تحتها مالا يعد من الآلات التى تقوم بأعظم الخدمات للمجتمع الإنسانى فى أقل مدة من الزمن مع أنها كانت تتم فى العهود الماضية بمواصلة الجهود الشاقة فى مئات الأمثال لهذه المدة، ومنها الآلات الزراعية المستخدمة فى الحرث والحصاد ودرس القمح، ومنها آلات الحياطة والكتابة والحساب والطباعة، ويكاد لايقوم الانسان الآن بأى عمل من الأعمال بدون أن يستثمر فيه الآلات، وقد تكون قوته باستخدام آلة واحدة تعادل قوة عشرات المئات من أمثاله، فهل بعد كل مااستعرضناه من المدهشات يمكن أن يقال إن عجائب العالم الحديث لها عدد أو نهاية. انتهى.

أليس هذا وغيره سرا من أسرار الفتح الربانى الذى فتحه الله للناس من رحمته وكلما فتح فتحا جديدا للإنسانية على يد كاشف كشفه قامت فى وجهه العقبات من حسد الحاسدين ومكر الماكرين. ولكن الله يقول: كلا. لاممسك لرحمتى. فليكشف المسلم غوامض مخلوقاتى وإذا قام فى وجهه الحاسدون فليعلم أنه لاممسك لرحمتى التى أظهرها لعبادى على يد واحد منهم، فأنا أنصر كل مجد لنفع الناس طرآ، فليعلم شبان المسلمين قراء هذا التفسير وليشمروا عن ساعد الجد وليدلوا دلوهم فى الدلاء مع العاملين لنفع الإنسانية كلها وأنا أساعده وأنجحه. فاذا سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين فهذه كلمتنا لعبادنا الذين ألهمتهم أن يكشفوا عجائب رحمتى فى العناصر والمادة.

ولا ريب أن من مقدمات النهضة الإسلامية فى الأرض هذا التفسير والله هو الذى فتح هـذه الرحمة للمسلمين فلا ممسك لها . ويلحق بهذا أربع فوائد :

أولها : (قياس سرعة البرق الصاعق)

توصل العلم إلى قياس سرعة البرق بعد جهاد كثير من العلماء ولاسيما الأستاذ (بوز) الطبيب الإنكليزى الشهير الذى مكث ستا وعشرين سنة يقوم بتجارب واختبارات عديدة فى هذا الشأن حتى توصل إلى اختراع جهاز دقيق يحقق هذه الغاية بكل سهولة. وهذا الجهاز عبارة عن آلة فوتوغرافية شديدة التأثر ذات عدستين تتحركان بسرعة كبيرة . وقد وجد أن البرق الصاعق يتم تكوينه فى ٠٠٧ر٠ من الثانية وأن أى جزء منه لايمكث أكثر من جزء من (٣٥٠٠) جزء من الثانية .

ثانيها : (أيحصل البرق الصاعق من الأرض أم من السماء ؟)

كان العلماء يذهبون إلى رأيين متناقضين فى ذلك؛ فمنهم من يقول بأن البرق الصاعق يسقط من السحب إلى الأرض ، ومنهم من يقول بوثوبه من الأرض . وقد أثبت الأستاذ (بوز) أن البرق الصاعق ينشأ من الطرفين أى من الأرض والسحاب فى وقت واحد تقريبا ، ويتم مابين طرفيه فى الجو فى نحو جزء من (٧٠٠٠) جزء من الثانية . وذلك لأن الفوتوغرافية التى صنعها كانت ترسم بعدستيها طرفى هـذا البرق فى صورتين ، وبقياس الوقت اللازم لرسمهما بواسطة أجهزة دقيقة تمكن من أن يعرف الوقت اللازم لتكوين البرق الصاعق وسرعته .

ثالثها : (من أين تأتى القوة ؟)

تأتى كل القوة التى فى العالم إلا جزء قليل منها من الشمس فان الرياح والأمواج والشلالات والأنهار، والزيت والبترول والفحم توجد فيها قوة الشمس أو هى قائمة عليها ، وأن قوة الجزر والمد التى تنسب للقمر هى فى الحقيقة مستمدة بواسطته من الشمس .

رابعها : (مصدر قوة الإنسان)

ويستمد قلب الإنسان وأعضاؤه وعضلاته القوة من الشمس فى الحقيقة لأنها ليست ناشئة إلا من هضم السكر والنشا وهما مستخرجان من النباتات، ومن الثابت أن النباتات لاتبنى أنسجتها إلا بتأثير أشعة الشمس. انتهى ما أردته من المجلة المذكورة، والله أعلم .

عاشرا : (أغرب غرائب أمريكا)

جاء فى مجلة كل شىء مانصه :

ألستر ولجـون رجل أمريكى يعيش بنقل الصور الملونة للأسماك وسائر أنواع الحيوان ، وكان أبوه قبطانا قد اخترع زورقا يغوص تحت الماء وله أنبوبة تتصل إلى أعلى لتجديد الهواء ، وكان غرضه من هذا الزورق استنقاذ السفن الراسية . ولهذا الزورق عين كبيرة من البلور الصافى يبلغ قطرها ثلاثة أقدام فيمكن الإنسان أن يرى الأشياء والحيوان تحت الماء بها . وقد مات القبطان ولم يستعمل الزورق للغرض الذى بنى من أجله وإنما استعمله ابنه ألستر ولجـون فى تصوير الحيوان ، وقد مضى عليه (١٦) سنة وهو فى هذا العمل .

ولما تزوج أخذ زوجته إلى الزورق وقضى معها شهر العسل عند جزر باهاما حيث اشتغل بنقل الصور وباهاما من جزر الهند الغربية ، والماء عند عمق (٢٥) قدما يشبه النهار عندما تغيم السماء ، ولـكن لمين

الزورق مصابيح كهربائية تشع ضوءا باهرا فى الماء فيمكن نقل الصور كما تنقل على سطح اليابسة فى النور العادى وهذا إذا كان الماء هادئا ، أما إذا حدثت زوبعة وهاجت الأمواج بلغ الهياج قعر البحر فعندئذ يرتفع الطين الراسب ويكدر صفاء الماء كما يرتفع الغبار عندما تهيج الريح على اليابسة .

ويعيش الآن المستر وليمسون مع زوجته فى هذا الزورق فيغوصان به فى النهار ويصعدان إلى السطح فى المساء ، وقد يظن القارئ أن هذه المعيشة تسئم الإنسان وخصوصا الزوجة ولكن المسز وليمسون تصف هذه المعيشة بأنها ليست خالية من الملاهى بل تقول إنها أحيانا كثيرة تجذبها المناظر فتبقى ساعات لاتدرى بانقضاء الوقت لفرط ماترى من غرائب الطبيعة وجمالها تحت الماء . أما هذه المناظر فهى أعشاب البحر المختلفة التى تشبه المروج والمراعى وهى فى الواقع كذلك، فإن السمك وسائر الحيوان يسير بينها ويتخللها يأكل منها أو يختفى فى ثناياها كما يفعل الحيوان فوق اليابسة . ومن المناظر الجميلة حقول المرجان بألوانها الزاهية المختلفة، وفى ملاحظة حركات الأسماك وأخلاقها مايجعل الانسان يقضى الساعات وهو لايسأم. والأسماك تختلف فى المزاج والقوة والأخلاق . فقد ترى السمكة الصغيرة الخفيفة تعمد إلى سمكة كبيرة فتهاجمها وتضربها ثم تفر منها . وأحيانا تأتى سمكة فترى عين الزورق البلورية فتأخذ فى التحكك بها ومسحها بأطراف فمها . وأحيانا تجرح البلور فيحتاج المستر وليمسون إلى صقله بضع ساعات لكى يعيد إليه صفاءه . ويقول المستر وليمسون إن اختباراته تدل على سوء الظن بالقرش خير من حسن الظن به فهذه السمكة شريرة وقد رأى قروشا تتشاجر فيمزق أحدها الآخر تمزيقا مروعا . والقرش فى البحر كالنمر على اليابسة يحب الافتراس والقتل ولا ينفك عن ذلك وهو يأكل الرمة ولكنه يحب الأحياء من الناس ويأكلهم والمستر وليمسون يزود السينماتوغراف بأفلام عن الحياة تحت البحر كما يزود المدارس والمتاحف بصور فريدة للتاريخ الطبيعى اهـ .

حادى عشر : (الكلام على عالم الطفولة)

(مدهشات عالم الطفولة)

أولا : الأطفال ذوو العقول الجبارة

يوجد الآن فى (سلوفاكيا) طفل فى الخامسة من عمره حير العقول فى مقدرته فى الحساب حيث يجيب على العمليات التى تستوجب من الحاسب أن يجريها بالقلم على القرطاس فى بضع ثوان . ولقد أحضر فى محفل كبير وسأله الأطباء لفحص قواه المدهشة . كم يوما مضى منذ ميلاد المسيح ؟ فأجاب هذا الطفل الجواب الصحيح بغير توقف . وما كان يعطى تاريخ ميلاد أى شخص من الحاضرين حتى يجيب بدون تردد عن مقدار مامر عليه من الأيام والدقائق منذ ولادته غير ناس لحساب السنوات الكبيسة التى تتخلل عمره ورأس هذا الطفل كبيرة للغاية حتى أنه لايمكنه أن يلبس أكبر قبعة عادية . وظهرت أخيرا فى الولايات المتحدة طفلة فى الثامنة من عمرها تجيد التكلم بثمانى لغات وألفت ثلاثة كتب وعدة مقالات وقصائد ، ولما كان سنها ثلاث سنوات كانت تكتب على الآلة الكاتبة وتتكلم بالاسبرانتو والفرنسية وإن تكن اللغة الانجليزية لغتها الأصلية .

ولما بلغت الخامسة من عمرها أخذت تقول الشعر .

(الأعجوبة الحقة)

ظهر فى صحيفة من صحف لندن منذ قرن من الزمان مايأتى :

جوتنجن فى ٢٠ مايو : انتظم فى سلك الدراسة فى جامعتنا منذ ثمانية شهور طالب فى منتصف السنة العاشرة وهو من عجائب المخلوقات ، واسم هذا العالم الصغير (شارلس ويت) ويعرف عنه أنه لما بلغ الثامنة

من عمره كان يجيد إلى جانب لغته الأصلية وهى الألمانية اللغات الآتية: اليونانية القديمة واللاتينية والفرنسية والانكليزية والإيطالية، وهو قوى فيها إلى درجة الكمال كتابة وحديثا، ويستطيع أن يترجم بكل سهولة من (فيرجيل) و (هومر) .

(طفل دائرة معارف)

وأغرب من هذا الغلام طفل اسمه (هنرى كرستيان هينكن لوبك) فإنه لما بلغ الشهر العاشر من عمره كان يستطيع أن ينطق كل كلمة فى قاموس اللغة الألمانية مع ماهو معروف عن صعوبتها فى النطق عن أية لغة من اللغات الحية ، وما أتم سنة حتى كان ملما بأشهر الحوادث فى تاريخ العالم . ولما بلغ من العمر سنتين كان على علم تام بكل تواريخ التوراة وقصصها وأنبيائها ورجالها . ولما كان فى الثالثة كان يجيب بمنتهى الدقة على كل سؤال فى جغرافية الكرة الأرضية جميعها وتاريخ العالم القديم، وعند مابلغ الرابعة كان يشتبك فى مجادلات حادة مع شيوخ الأساتذة فى أربع لغات ولكن العمر لم يمهله حتى يتم السادسة .

ثانيا : (أغرب طفل فى العالم)

وهو الطفل البلجيكى النابغة الذى تتحدث عنه الصحف الأوروبية والأمريكية وتعده أعظم أعجوبة فى عالم الطفولة ، فهو لم يتجاوز السنة الثانية من عمره ولكنه على الرغم من ذلك يعد من أكبر الرياضيين وأصحاب المواهب الخارقة للعادة فى علم الحساب، وهو يستطيع أن يضرب عددا مكونا من خمسة أرقام فى عدد آخر من خمسة أرقام فى ذهنه أى بدون كتابة وينطق بحاصل الضرب بسرعة وبدون تردد ولم يحصل أنه أخطأ فى ذلك مرة اهـ .

ثالثا : (صبى فى الثانية عشرة ينال بطولة مصارعة الثيران)

لك أن تسميه شجاعا أو أن تصفه بما شئت غير ذلك من صفات البطولة، وإنما المهم هو أن فى جمهورية (بيرو) صبيا لايتجاوز عمره الثانية عشر قد اشتهر على الرغم من نحول جسمه بمصارعة الثيران والتغلب عليها وكان الكثيرون يظنون فى هذه الشهرة شيئا من المبالغة ولكن حفلة كبرى لمصارعة الثيران أقيمت فى (ليما بيرو) وحضرها ألوف من الجماهير وكثير من مندوبى الصحف فبرهنت على أن شجاعة المصارع الصبى واسمه (رافائيتو ميجاس) ليست كاذبة ولا مبالغ فيها فإن هذا البطل الصغير لم يصارع ثورا واحدا بل صارع ثورين فنجا من ضرباتهما وكان له عليهما الفوز والغلبة .

رابعا : وهو ماجاء فى جريدة الأهرام فى يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٩ م وهذا نصه :

(عبقرية الأمى الفتى «ترك»)

أشرنا منذ أسابيع فى الأهرام إلى عبقرية الفتى الأمى المسمى (ترك) وإلى مقدرته الحسابية ومواهبه الخارقة للعادة . وعلى أثر صدى هذه السمعة استدعاه حضرة صاحب العزة مدير مصلحة المساحة وامتحن مقدرته وكتب إلى وزارة المالية يطلب إليها تعليم الفتى (ترك) على حساب خزينة الدولة حتى إذا أتم الدراسة عمل فى خدمة الحكومة على مقتضى ماتؤهله إليه كفايته وظروفه إذ ذاك . وقد وافقت وزارة المالية على هذا الطلب طبقا لما أشرنا إليه من قبل .

ومما هو جدير بالذكر أن نشير إلى بعض المسائل التى امتحن فيها الفتى المذكور ، فقد طلب إليه أن يذكر حاصل الضرب بين الرقمين ٦٤٥٣٢١٥٤ و ٣٤٧٨ فأجاب الإجابة الصحيحة بعد أربع دقائق . وطلب إليه معرفة خارج القسمة للعددين ٥١٦١٧٦ ر ٢٨٨٦٣ على ٥٨٦٤ فأجاب إجابة صحيحة بعد عشر دقائق . وذكر لهذا الفتى أيضا أن المملكة المصرية تشتمل على ٣٢٧ ٩٩٦ كيلو مترا وأن الكيلو متر

الواحد يساوى ٢٣٨ فدانا وأن المطلوب معرفة للساحة بالأسهم. فأجاب بعد خمس دقائق بأن الرقم المطلوب البحث عنه هو ١٣٦،٤٨٥،٤٧٥،٧٧٦ وشرح له الجذر التربيعى والجذر التكعيبى ففهمه الحال واستخرج الجذور التربيعية والتكعيبية .

وهذا الفتى المذكور من « شبشت الأنعام » بمديرية البحيرة . وبهذه المناسبة أشارت مصلحة المساحة إلى من حفظ التاريخ أسماءهم من أمثال الفتى المصرى حيث ذكر اسم (جورج بيرور) وكان من عظماء المهندسين فى العالم والمرجع الهام فى أعمال السكة الحديدية . وقد ولد فى انجلترا سنة ١٨٠٦ وكان ذكاؤه باديا فى جميع أدوار حياته . وقد حذق فى فن الهندسة وعين رئيسا لمعهد المهندسين للدنيين ، وهناك أشخاص آخرون مثل (جوهان واز) الألمانى فنرجو أن يكون للفتى المصرى حظ هؤلاء العظماء. انتهى المقام الأول .

(المقام الثانى)

(مايمسك من الرحمات فلا يفتحه للناس رحمة بهم مثل ماورد فى الأخبار)

(أولا) يوم ١٢ فبراير سنة ١٩٢٩ م (وثانيا) يوم ٢٢ منه أيضا من البرد فى أوروبا (وثالثا) مثل ماجاء فى يوم ١٨ فبراير سنة ١٩٢٩ م من ثورة الطبيعة فى سوريا (ورابعا) مثل ماجاء فى مجلة الجديد بعنوان (٢٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ دولار خسائر الجليد فى العالم فى كل شتاء) وفيما يلى بيانها :

أولا : (البرد فى أوروبا)

لندن فى ١٣ فبراير ، بلغ البرد اليوم فى بريطانيا العظمى كلها درجة تذكر ببرد القطب الشمالى ومن المنتظر أن يشتد . وقد عرقلت المواصلات بالسكك الحديدية وعلى جميع الطرق فى بريطانيا العظمى والبيبى الأوروبى إلى حد عظيم وردت الأنباء بوفاة كثيرين على أثر البرد ـ روتر .

باريس فى ١٢ فبراير ـ يشتد البرد فى جميع أنحاء أوروبا ولاسيما فى فرنسا وقد صار السفر بطيئا فى سكك الحديد وفى الطرق الأخرى وأصبح العمل فى المناجم صعبا ولاسيما فى تشكوسلوفاكيا وألفت الذئاب الجائعة الرعب فى بعض جهات البلقان وتجمد نهر الدانوب فى القسم الذى يجتاز تشكوسلوفاكيا . وهبطت الحرارة إلى ١٤ درجة تحت الصفر فى باريس وإلى ٢٣ درجة فى رنس و ٢٠ درجة فى ستراسبورغ ـ هافاس .

لندن فى ١٢ فبراير ـ إن البرد القارس الذى اشتد فى أوروبا أفضى إلى فواجع كثيرة فقد جاء فى تلغراف من وارسو خبر وفيات كثيرة بالبرد وإن حراس الغابات عثروا على زمرة من (الغجر) تتألف من ٣٤ شخصا رجالا ونساء وأولادا نزلوا فى غاب على مقربة من لوبلن وماتوا بردا .

وجاء فى تلغرافات برلين أن ثلاثين سفينة محصورة بالجمد فى جهة بحر البلطيك الغربية وليس فى بعض هذه السفن طعام وقد أصيب بعضها بعطب شديد بحيث لاتستطيع السفر وأن الطرادات الألمانية المهتمة بالإنقاذ يعوقها الجمد وتمد طيارات الحكومة السفن المحصورة بالجمد بالطعام ـ روتر .

صوفيا فى ١٢ فبراير ـ من أنباء فارما وبورغاس البرقية إن الموانى البلغارية على البحر الأسود محصورة بالجمد ومقفلة فى وجه السفن ويمتد الجمد على مسافة بعيدة من الشاطئ وهو سميك جدا بحيث يسهل التزحلق عليه على طول الشاطئ ولم يسبق لهذا البرد من نظير من سنة ١٨٤٩ وقد ازدادت صعوبة النقل بسكك الحديد ويخشون من وقوع أزمة طعام فى بلغاريا ـ روتر .

ثانيا : ماجاء بتاريخ ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٩ بالعنوان المتقدم

أثينا فى ٢٢ فبراير - لاتزال وطأة الجو الشديدة مستمرة وقد اكتسحت عاصفة ثلج إقليم أثينا - هافاس

لندن فى ٢٢ فبراير - بينما الثلج يذوب فى بريطانيا العظمى يشتد البرد فى غيرها من البلدان الأوروبية فقد جاء فى برقية من أثينا أن عاصفة ثلج شديدة اكتسحت بلاد اليونان وأن أنحاء كثيرة فى الأرياف تهددها المجاعة من جراء انقطاع المواصلات وقد اكتتب حتى الآن بمبلغ ٣٥٠٠٠٠٠ دراخمة إعانة لمنكوبى الفيضان فى جنوب بلاد اليونان ومن جملتها مليون من بنك اليونان الوطنى ونصف مليون من المسيو فنزيلوس. ويؤخذ من برقيات صوفيا أن البرد عاد وأن حرارة الجو هبطت إلى ٢٥ درجة تحت الصفر فى بعض الأماكن وسقط ثلج أسود فى روستجق ويظن أنه ممزوج بغبار البراكين .

رومية فى ٢٢ فبراير - يعوق البرد المشتد فى إيطاليا حركة سكك الحديد، فقد وصل اكسبرس الشرق إلى ميلانو متأخرا ٤١ ساعة من ميعاده - هافاس .

بودابست فى ٢٢ فبراير - عاد البرد القارس بشدة عظيمة وبلغ الدرجة الخامسة والأربعين تحت الصفر هنا اليوم والجمد سميك جدا فى نهر الدانوب بحيث تمر فرقة مركبات يجرها الثيران . وقد تلف القسم الأكبر من أزهار الثمار وخمسون فى المئة من قفران النحل - روتر .

ثالثا : ثورة الطبيعة بسوريا ولبنان

من عادة سكان الجبال العالية فى لبنان أن يدخروا لأيام الشتاء الأكل والملبس حتى يستغنوا عن المدن والسواحل مدة شهرين على الأكثر ولكن الطرقات تظل مفتوحة ويظل الأهالى قادرين على المجىء إلى الساحل وشراء حاجاتهم على أنه حدث فى هذه الأيام أن الثلوج تراكمت حتى قطعت الطرق وعزلت كثيرا من القرى فى أعالى الجبال فنفدت حاجات السكان وعز خروجهم من قراهم وصعب الوصول فأخذ الكثيرون من سكان السواحل يستصرخون الحكومة لتمد يد المساعدة إلى القرى المعزولة وتوصل إليها حاجاتها من الأكل والغذاء إلى أن يمن الله بالفرج وتذوب الثلوج وتفتح الطرق .

قالت البلاغ البيروتية :

طمرها الثلج ولم يبق من بناياتها شىء ظاهر ويرجحون أن منازلها سقطت على ساكنيها إذ قيل إن ارتفاع الثلج فوقها بلغ ٢٥ ذراعا ويقول الشيوخ إنه لم يسبق لذلك مثيل منذ نصف قرن . قال : وقد أصيبت قرية بان أيضا بأضرار جسيمة سنوافيكم بتفصيلها وتفصيل غيرها من النوائب الجوية فى صرود البترون وبلاد جبيل ؟

وسقطت صاعقة فى البترون فقطعت أسلاك التلغراف ولم يصب أحد بأذى والحمد لله .

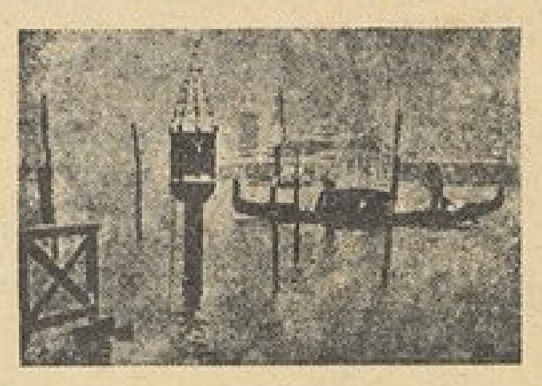
رابعا : ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار خسائر الجليد فى العالم فى كل شتاء

هذا هو المبلغ الذى يذهب سدى من جراء سقوط الجليد. وهو كما يرى فى الصورة قطع من الثلج متفاوتة الحجم فمنها ما هو كالحصة ومنها ما هو فى حجم البيضة . وترسله السماء بانهمار شديد بين زئير الصواعق والرعد وقد كان شتاء هذا العام شديد البرد لكثرة ما نزل من الجليد فى بعض الأقطار، فقد كان ملاحظا فى الأستانة كما هو فى جنوب أفريقيا. وجنوب أوروبا وبعض أقطار أمريكا وكانت تغشى طبقات منه أبنية وشوارع الريفييرا ومونت كارلو وغيرها من البلاد، وكان البرد على أشده عدة أيام جنوب إيطاليا فكانت درجات الحرارة ١١ درجة تحت الصفر فى البندقية وسينا و١٣ فى بيروجيا و٢٠ فى أودين وبالرمو ولكن أروع حالة كانت

فى القسطنطينية

فى القسطنطينية فى أوائل فبراير الحالى وكانت الرياح الشمالية تسير بسرعة ٦٠ ميلا فى الساعة وكانت تكتسح الجليد أمامها فكان من الصعب أن يرى الإنسان ما أمامه فى شوارع الأستانة وقد وصل سمك الجليد فى بعض النقط ١٥ قدما وتعذر مرور السفن فى البسفور لما كان فوق سطح الماء من طبقات الجليد (انظر شكل ٩)

انتهى المقال العام فى آية «ما يفتح الله للناس» الخ



(شكل ٩ – إحدى كنائس مدينة البندقية فى إيطاليا تحت الجليد)

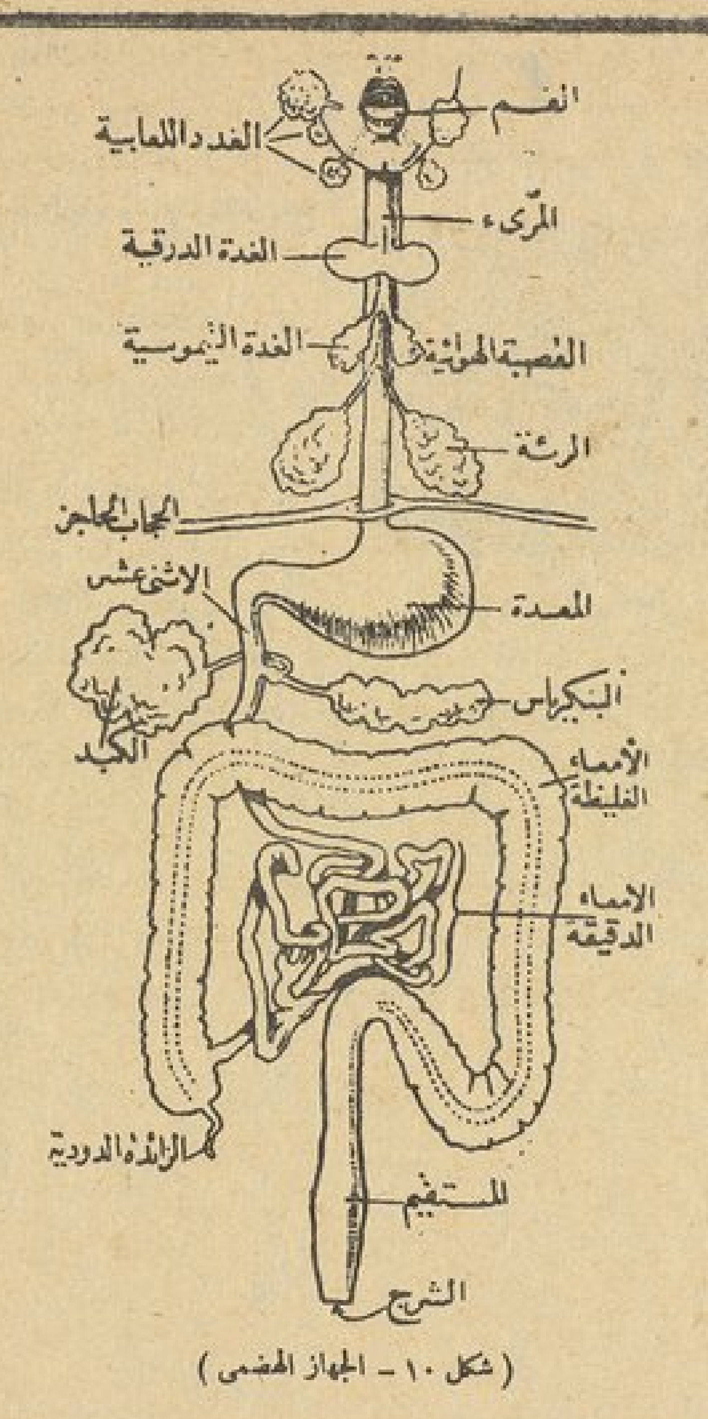
﴿ لطيفة: فى قوله تعالى «والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا» ﴾

(كتب قبل الفجر ليلة ٣٠ رمضان سنة ١٣٤٨ ه)

اللهم إنا نحمدك على نعمة العلم وبهجة الحكمة والهداية للفهم والإنعام، اللهم إن أعظم نعمك علينا هو العلم، العالم الذى نعيش فيه مادة والمادة لاثبات لها بل هى شبكة نسجتها لنا يد الحواس الخمس لنصيد بها جواهر العلوم فى ظلمات بحر الحياة اللجى، فويل ثم ويل لمن مرت عليه السنون تتلوها السنون وهو فى غفلة وهو من المعرضين، لو لم يكن هذا العالم فى غاية الإبداع والجمال لكانت هموم هذه الحياة وأسقامها عبثا.

إذا لم تكن الآلام والأسقام موقظات للعقلاء أن يفكروا فيما خلقوا فيه من الجمال لظل جميع الخلق محجوبين مبعدين عن بهجة ذلك الجمال البارع والحسن والنور والعرفان.

أكتب هذا الآن وبين يدى كتاب (الطبيعة وعجائبها البديعة) فها هو ذا الجهاز الهضمى (شكل ١٠) فى الصفحة التالية.



(شكل ١٠ – الجهاز الهضمى)

انظر إليه وفكر فيه . أليس هذا هو المخلوق من النطفة المخلوقة من تراب ، هاهو ذا التراب فانظر كيف خلق منه نبات فحيوان فإنسان فأكل هذا نباتا وحيوانا فاجتمعت العناصر فكان منها أمثال هذه القناة الهضمية .

هذه يراها العالم والجاهل فتظهر تارة بهيئة حقيرة لقذارتها أو هيئة مشتهاة إذا طبخت وكان الناظر جائعا وهى فى نظر الجزار سلعة تقصد لثمنها ، أما الحكيم المفكر فإنها فى نظره لوح يقرؤه وكتاب يفهمه وتبصرة وذكرى ، فأول مايصادفه بعد الفم وما فيه من الاثنين والثلاثين سنا (الغدد اللعابية) فينظر فيرى هناك ثلاثة أزواج من الغدد كلها تفرز اللعاب الجارى فى قنوات ، وذلك اللعاب سائل شفاف غير حمضى

بل هو قلوى وهذه الثلاث موزعات فى الفم . فالزوج الأول منها يسمى (النكفى) وهو أعلى . والثانى تحت الفك الأسفل والثالث تحت اللسان ، وهذا اللعاب فيه مواد مخاطية وخميرة اسمها (تيالين) لها تأثير على أمثال القمح والبطاطس والأرز وكل مادة نشوية فتحولها إلى مادة سكرية ذائبة ، وهذا اللعاب مرطب للأطعمة مسهل لابتلاعها مانع من تأثير المواد الحمضية على الأسنان لأنه قلوى .

ثم ينظر فيرى البلعوم وهو القسم الأعلى من القناة الهضمية الذى يلى الفم . ثم يرى المرىء وهو أنبوبة عضلية ضيقة تلى البلعوم طولها (٢٥) سنتيمترا أو (١٢) قيراطا وهذا يمتد فى العنق والصدر ويخترق الحاجز ويتصل بالمعدة وله غشاء يفرز سائلا مخاطيا يسهل مرور الأطعمة . ثم المعدة الموضوعة على هيئة (قربة الموسيقى) طولها أيضا (٢٥) سنتيمترا كطول الاثنى عشرى الآتى ذكره لأنه اثنى عشر قيراطا ، ولها غشاء مخاطى أيضا مجعد يفرز العصير المعدى وفيه خمسة أنواع من المواد الهاضمة وهى : المنفحة والمواد المخاطية والأملاح المختلفة وحمض الكلوريدريك والببسين والطرف الأعلى فى اليسار يسمى الطرف الفؤادى والطرف الأيمن وهو الأسفل يسمى (البوابى) والأول متصل بالمرىء والثانى متصل بالأمعاء الدقاق . وبعد ذلك يرى الاثنى عشرى ثم تكون الكبد على اليمين وغدة البنكرياس على اليسار والاثنى عشرى هو أول الأمعاء الدقاق وبعده الصائم واللفائفى من تلك الأمعاء وهما اللذان تراهما فى هذا الرسم (شكل ١١) فى داخل الأمعاء الغلاظ والطعام يمر فى هذه كلها بالترتيب حتى يصل إلى الأمعاء الغلاظ فيبتدىء بالأعور جهة اليمين فالقولون الصاعد فالقولون المستعرض فالقولون النازل فالمستقيم فالإست (انظر شكل ١١) .



(شكل ١١ – منظر عام للقناة الهضمية حسب وضعها الطبيعى)

وهنا يتفكر العاقل فى هذه الغدد وما معها ، فيرى أن الطحال والبنكرياس يفرزان مواد هاضمة لتلك المواد كما تفرز غيرها الغدد التى فى الفم وفى المعدة والأمعاء . إن التى فى الفم ذوات المجارى أليست تفرز مواد قلوية تؤثر فى المواد النشوية كما تقدم فتجعلها سكرية ، وعلى الآكل أن يمضغ الطعام ببطء ليمكن الخميرة المسماة بالتيالين التى فى لعاب الفم أن تؤثر فيه فتذيب تلك المواد ، فإذا وصل الطعام إلى المعدة تلقاه العصير المعدى فأذاب بعض المواد التى لم تذهب بخميرة وبعضها الآخر بخميرة أخرى فترى المواد الزلالية فى اللبن تصير كالجبن

بواسطة خميرة اسمها (النفحين) ولا جرم أن وسط المعدة حمضى بخلاف وسط الفم فهو قلوى ولكل منهما خمائر تناسبه ولاعمل لخميرة إلا فى مكانها الخاص .

ثم إنه لابد فى فهم حقائق بقية هذا الموضوع من معرفة ماهى الأغذية اللازمة للانسان إنها :

(١) مواد عضوية غير آزوتية أى ليس فيها عنصر الآزوت الذى هو جزء من الهواء الجوى وهذه إما مواد كربوايدراتية مثل النشا والسكر . وإما مواد دهنية كأنواع الزيت والسمن والشحم .

(٢) ومواد عضوية آزوتية وهذه تستهلك فى أنسجة الجسم . وهذه مثل (البروتين) كزلال البيض والجلاتين المستخرج من العظام المغلية والمادة الجبنية فى اللبن ومادة (الميوسين) التى فى اللحم وهكذا يكون (البروتين) فى المواد النباتية لاسيما فى بذور البقول مثل الفول والبسلة والعدس . وفى الحبوب كالقمح والذرة .

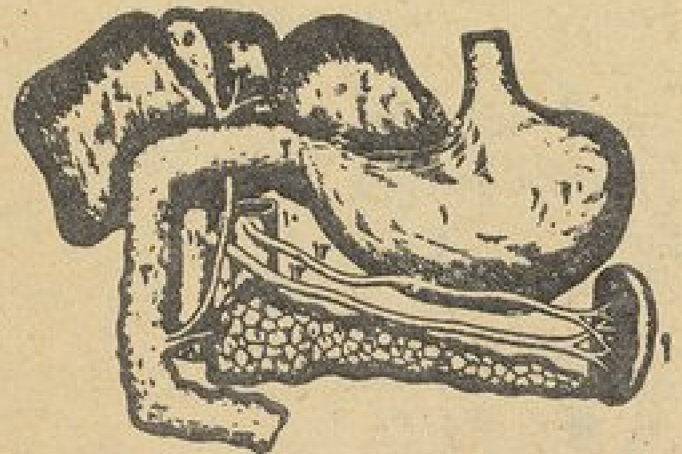
(٣) ومواد غير عضوية وهى الماء والمواد المعدنية والماء ثلثا الجسم والمواد المعدنية منها :

(ا) كربونات الجير وهى فى العظام والأسنان .

(ب) وفوسفات الجير وهى فى العظام أيضا وتكون نصف وزنها تقريبا وإن فوسفات الجير وكربوناته داخلات بمقادير كافية فى الأغذية النباتية والحيوانية .

(ج) . وملح الطعام .

(د) وأملاح أخرى بمقادير قليلة تدخل فى الجسم من الغذاء . إذا عرفت هذا فإن الحكيم المفكر الذى تكلمنا عنه ينظر فى سير الطعام أثناء سيره (انظر شكل ١٢) .



(١) المعدة (٢) البواب
(٣) الاثنا عشرى .
(٤) السطح السفلى للكبد
(٥) الحوصلة الصفراوية
(٦) غدة البنكرياس
(٧) القناة الصفراوية
(٨) القناة البنكرياسية
(٩) الطحال (١٠) الأورطة
(١١) الوريد البابى
(١٢) الشريان الطحالى
(١٣) الوريد الطحالى

(شكل ١٢ – المعدة والاثنا عشرى والكبد والطحال والبنكرياس)

فيرى أن هناك القناة الصفراوية (نمرة ٧) فى هذا الشكل توصل الصفراء المطبوخة فى الكبد إلى الاثناعشرى ، ومثلها القناة البنكرياسية الآتية من البنكرياس (نمرة ٨) فى الشكل ، فإذن يرى هاتين العصارتين تصبان فى مكان واحد وتمتزجان بمادة الكيموس الآتى من المعدة ذى القوام الغليظ . وهذا الكيموس يمر بالأمعاء فتقابله عصارة أخرى تفرزها الأمعاء نفسها . فهذه العصارات الثلاث تذيب من المواد مالم يذب من قبل وينقلب بسببها الكيموس إلى كيلوس ذى قوام سائل لبنى ، وهنا استعد الطعام لأن يرتقى درجة أخرى فتمتصه الخلات التى فى الأمعاء الدقيقة ويمر الباقى إلى الأمعاء الغليظة ولا يزال الامتصاص مستمرا هناك أيضا وما فضل مما لم يمتص أو لم يصلح للامتصاص يخرج بالتبرز . وهنا يرى هذا الحكيم أن القناة الهضمية فيها

مصانع

مصانع لتجهيز أنواع المواضم . فأما في الفم فاللعاب وفيه خمائر تذيب المواد النشوية كالسكر والنشاء وما بقى فني المعدة وفي الأمعاء بالعصارة البنكرياسية والمعوية والصفراوية .

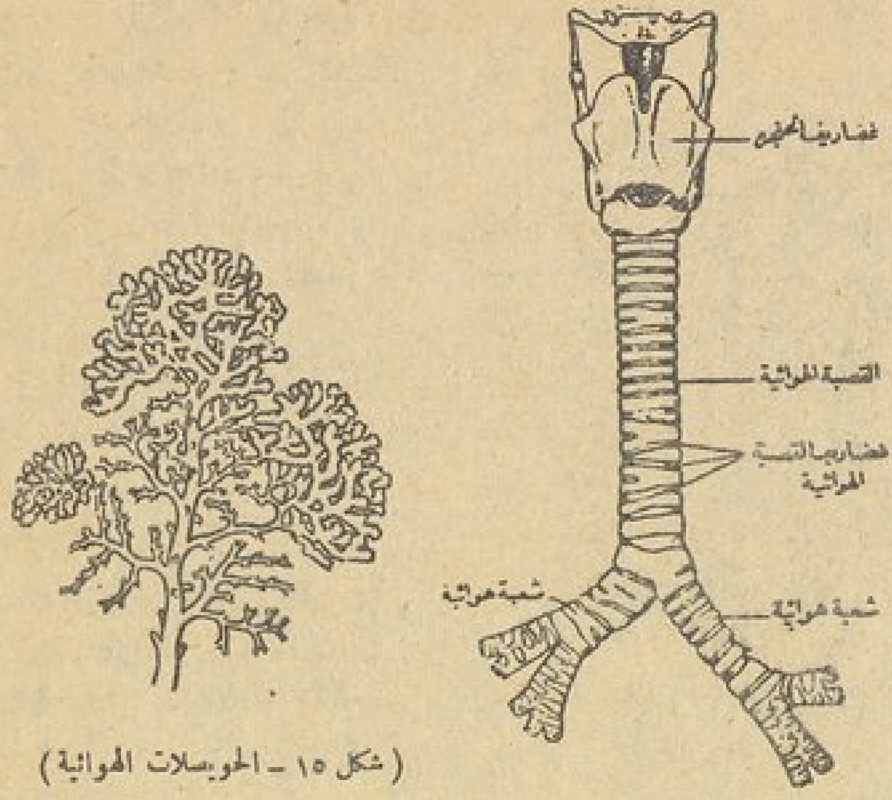
هنالك يرى ذلك الحكيم درجة جديدة للطعام ، فانه أولا كان نباتا وحيوانا وماء ومعادن ، ثم أصبح في الفم خلائط باللعاب أو كيموسا في المعدة بأنواع من المواضم ثم انتقل إلى الأمعاء فسلطت عليه العصارات الثلاث المتقدمة من البنكرياس والصفراء والأمعاء فصار كيلوسا ثم ارتقى فتقبلته شبكة دقيقة من الأوعية الدموية تحت الغشاء المخاطي بعد أن تمر بذلك الغشاء المبطن للأمعاء . وهذه الشبكة تسلمها إلى الدورة الدموية والدورة التنفسية .



(شكل ١٣ - الوريد البابى والفروع الرئيسية التى يتكون منها)

ها هنا ينظر فى الدورة الدموية فماذا يرى؟ يرى هذا الرسم (انظر شكل ١٣) وهذه الدورة تقدم شرحها مرارا وتكرارا فى هذا التفسير ولكن هذه الصورة البديعة لم يتقدم لها نظير من حيث وضوحها (شكل ١٣) .

وهنالك يرى الدم الشريانى فى يسار الصورة والوريدى فى يمينها والأول يتدفق فى الأورطى الخارج من البطين الأيسر وقد تفرع إلى فرعين : أعلى وأسفل لتغذية الجسم كله أعلاه وأسفله فهو أشبه بنوع الانسان حينما يكون جاهلا . فاذا تعلم صار كالمواد المهضومة ثم يرقى فيصير نافعا لمجموع الأمة كما صار الدم غذاء للجسم. فأما بقية المواد التى لم تهضم أو هضمت ولم تمتص فقد خرجت بالبرز فهى أشبه بأولئك الذين رسبوا فى المدارس لأنهم لم يجيبوا فى الامتحان أو كأهل النار الذين لم يصلحوا لسكنى الجنة لأنهم فى الدنيا لم تتوافر فيهم صفات الكمال حتى يصلحوا لمعاشرة أهل الجنة الذين هم علماء وحكماء . ويرى الدورة اللمفاوية العليا والسفلى . والوريد البابى . والوريد الكبدى الأعلى المتصلين بالكبد ، وهما مملوآن بالدم الوريدى ثم يبحث فيرى الدم الشريانى متى اتصل بأجزاء الجسم تحول إلى دم وريدى ، فيعرف أنه قد اسود بسبب المواد الفحمية التى خالطته بسبب التفاعل الكيمائى، ثم يرى ذلك الدم الوريدى أخذ يرجع ثانيا فأخذ يصب فى الأذين الأيمن ثم ينزل منه إلى البطين الأيمن ومن البطين الأيمن يخرج هذا الدم فى طريقه جاريا فى فروع الشريان الرئوى متصلا بفروع الشعب الهوائية. وهناك يبحث عن هذه العجائب كيف تكونت فيرى القصبة الهوائية (انظر شكل ١٤) .

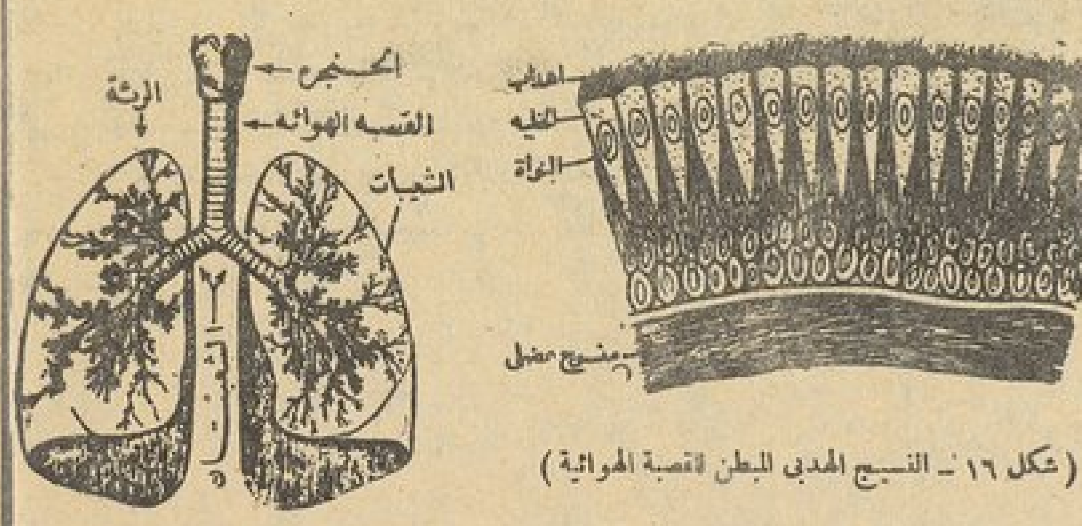


(شكل ١٥ ـ الحويصلات الهوائية)

(شكل ١٤ ـ القصبة الهوائية وفروعها)

وهذه القصبة الهوائية تتكون منها شعبتان هوائيتان وهاتان الشعبتان يخرج منهما مايشابه الأشجار ويسمونه بالحويصلات الهوائية (انظر شكل ١٥) .

وعند تأمله في القصبة الهوائية يجد فيها عجبا ! يرى نسيجا هدبيا مبطنا للقصبة (انظر شكل ١٦) .



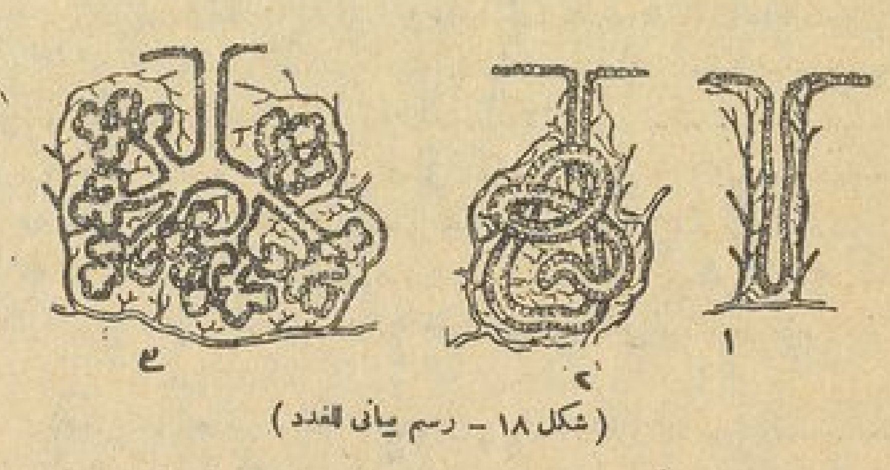
(شكل ١٦ ـ النسيج الهدبي المبطن لقصبة الهوائية)

(شكل ١٧ الرئتان وتفرع القصبة الهوائية فيهما)

فيقول

فيقول : « ماعمل هذا النسيج ؟ إن فيه لأهدابا وخلايا ومنسوجا عضليا » ثم يهتدي أخيرا إلى أن هذه الأهداب أشبه بالكناسين والزبالين لأنها دائما ليلا ونهارا تتحرك من الداخل إلى الخارج ، لماذا هذا ؟ لتطرد الغبار الداخل مع النفس فى القصبة الرئوية ، فهذه الأهداب حوافظ وخفراء تطرد الأجانب لئلا تفسد المملكة الرئوية الخادمة للمملكة الدموية ، فالقلب يرسل جنوده الدموية المنهكة القوى المتعبة فتأتى إلى الرئة فيقابلها الخدام والحفظة فينظفونهم ويحملون ما خالطهم من الأردان ويرمون به فى الخارج فضلا عن إمداد هؤلاء الجنود بالغذاء وهنالك يسافرون إلى الجسم كرة أخرى ويفعلون مافعلوه سابقا وفى أثناء سيرهم يتقابلون مع جنود أخرى يأتون إليهم من الغذاء المهضوم النقى الذى تمتصه الشبكة الدموية فى الأمعاء ليكون عوضا عن الدم الذى تمثل بالجسم فيقول ذلك الحكيم إذ ذاك كيف يفهم المسلمون آية « وكل شىء فصلناه تفصيلا » إلا بهذا وأمثاله ، أوآية « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » أوآية « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا » الخ (أنظر شكل ١٧) .

ثم يقول : (هاتان شعبتان هوائيتان قد تشعبتا فى الرئة وهناك قابلا الأوردة والشرايين) هنالك يهوله الأمر ويزيد عجبه ، إذ يرى مايشبه الأشجار التى فى الحدائق قد نبتت من القصبة الهوائية وأخرى امتدت من القلب وتقابل الأعلى والأدنى من فروع وفريعات يماثل أدناها أعلاها حتى يمكن الاقتباس والائتناس والأعمال الكيمائية ، وهنالك ينظر ذلك الحكيم نظرة أعلى فيقول : (ماهذه الغدد التى أراها على أنواع مختلفة فمنها البسيطة والأنبوبية والعنقودية) (شكل ١٨) .



(شكل ١٨ ـ رسم بيانى للغدد)

(١) غدة بسيطة . (٢) غدة أنبوبية . (٣) غدة عنقودية .

فماذا يرى بعد البحث ؟ يرى أن هذا الدم الذى لم ينله الجسم إلا بعد مشاق ومشاق وتعب ونصب ومصانع تحضر موادق الفم وفى المعدة والأمعاء والكبد والبنكرياس لايزال هو بحاجة إلى إصلاح . إن هذا الدم عبيط لاحيلة له ولاقدرة على إصلاح هذا الجسم بمفرده ، وكما أن الأغذية لم تصر دما إلا بعد مواد صنعت فى مصانع خاصة ، هكذا هذا الدم لايصلح لعمارة هذا الجسم إلا بعد أن يقوى ويؤيد بمواد نافعة تؤهله لهذه الأعمال العظيمة وإيجاد هذا الخلق الجديد. إن الدم منه تصنع جميع العظام والأعضاء والحواس

(١) فيرى أولا أن أعضاء التناسل ونمو الشعر والعظام لابد لها كلها من عمل آخر حتى يتم لأن الدم بمفرده لايصنع ذلك . هنالك يجد أولا الغدد الصنوبرية وهى قدر حجم الحمصة موضوعة بين المخيخ والنصفين

السكروين للمخ وهذه الغدة إذا صارت ضخمة فإن الإنسان يبلغ السن المعتادة وينمو شعره قبل أوانه وعظامه الطويلة تنمو بطريقة غير منتظمة، إذن هذه الغدة أشبه بالمهندسين من نوع الإنسان أو الصناع الماهرين فإذا اختلت صارت أشبه بالصانع الجاهل الذى يعمل بلا نظام .

(٢) ويرى ثانيا الغدة النخامية وهى جسم بمقدار حجم الترمسة وهو متصل بأسفل المخ وله فصان أمامى كبير وخلفى صغير فى تجويف بالفص الأمامى . فالفص الأمامى الكبير من الغدة النخامية يفرز مادة نافعة فى تكوين العظام كالغدد السابقة ، فإذا زاد نشاط هذا الفص زمن الشباب فإن الجسم يزيد طوله طولا فاحشا حتى يصل بصاحبه إلى طول العمالقة ، إذن هذا أيضا مهندس آخر كالسابق أوصانع ماهر، فإذا أسرع فى عمله قبل أوانه فهو صانع غير ماهر وتعليمه قليل ، فأما إذا زاد نشاط هذه الغدة بعد تقدم السن فإنه ينشأ مرض يسمى (أكروميجال) وهو كبر الأطراف إذ تصير بعض عظام الجسم أكثر ضخامة لاسيما الفك السفلى والأيدى والأقدام .

هذه أعمال الفص الأمامى : أما الفص الخلفى فإن له تأثيرا على أعضاء التناسل وله صلة بضغط الدم ودقات القلب وبعض العضلات التى ليست إرادية وبافراز اللبن، إذن الغدة الترمسية والغدة النخامية بغصبها أعمالهما يتمم بعضها بعضا تقريبا .

(٣) ثم يجد الحكيم ثالثا أن فى العين مادة ملحية سائلة فيعجب ويقول . « من أين أتى هذا الماء وملحه ؟ » فيبحث فيرى هناك غدة فى حجم اللوزة موضوعة فى جهة العين الخارجة فهى تفرز سائلا ملحيا يحفظ سطح العين نظيفا ، ثم يقول : إن هذا عجب ، ها أنا ذا اطلعت فى سورة الفرقان عند آية «وخلق كل شىء فقدره تقديرا» وفى سورة العنكبوت على صورة الجهاز الذى فيه السم الذى تقذفه النحلة والعنكبوت على ماشاءت والجهاز الذى فيه غزل العنكبوت ، فهذان الجهازان جعلا منا سبين للحاجة فأحدهما فيه السم للدفاع والثانى فيه الغزل للاقتناص وغيره ، وهاهنا هذه الغدة قد جعلت لمصلحة العين لجعل فيها سائل ملحى

(٤) ثم ينظر أيضا فيرى الغدة الدرقية (شكل ١٠) فى الشكل المتقدم وهذه الغدة واضحة فى الرسم أمامك وهى جسم لين فى الجهة الأمامية من العنق تحت الحنجرة فائدتها تكوين العظام وعمل الاحتراق فى الجسم ولها علاقة بالغدد التناسلية ، وإذا زاد إفرازها جف الجلد ونحل الجسم وبطؤ الكلام وضاق النفس واضطربت التغذية ، وإذا انعدمت الغدة فى سن الطفولة ظهر نقص عظيم فى النمو فى الجسم والعقل أووقوف تام لهما .

(٥) ثم ينظر خامسا فيرى غدة مجاورة لهذه تسمى (الغدة جارة الدرقية) وهذه إذا عطلت حصل التشنج عند الأطفال والشلل مع الرعشة وأن تصير العظام هشة سهلة الكسر ، وإذا أزيلت هذه الغدة كثرت فى الجسم التشنجات العضلية وقلت تغذية الشعور والأظافر وقد يصير فى العين ماء أزرق .

(٦) ثم ينظر سادسا فيرى غدة التيموس الموضحة فيما تقدم فى (شكل ١٠) بعد الغدة الدرقية فيقول: فياليت شعرى ما عمل هذه أيضا ، هاهى ذه واضحة بأعلى المنطقة الصدرية تحت القص وبعد البحث يراها لاتبلغ أشدها إلا فى السنة الثانية من عمر الطفل ويبتدىء خمودها واضمحلالها عقب سن البلوغ ثم تختفى تقريبا ، فهذه تؤثر فى نمو الأطفال وتكوين أعضائهم التناسلية ، وإذا اختفت قبل أوان اختفائها يحصل اضطراب فى الجسم لاسيما فى تكوين الأعضاء التناسلية .

(٧) ثم ينظر سابعا فيرى غدة البنكرياس المرسومة فى (شكل ١٠) أيضا المقابلة للكبد فماذا يرى ؟ يرى أن فيها غددا أخرى غير الغدد المتقدم ذكرها لأنها فيما مضى أفرزت مادة ذهبت إلى الأمعاء ولكن الغدد

الأخرى هنا فى البنكرياس تذهب إلى الدم مباشرة فماذا تصنع ياترى ؟ إنها تعرف بالأنسولين . إن (الأنسولين) يساعد الكبد فى تحويل المادة النشاة (جلوكوز) إلى مادة ألطف يسمونها (جليكوجين) فالمادة الأولى سكر ، وهذا السكر لاتقدر خلايا الجسم على احتماله وإدخاله فى تكوينها ، فإذا لم يساعد الأنسولين الكبد على ذاك التحويل بقيت تلك المادة السكرية عالية على الجسم فلا محيص للجسم من التخلص منها بواسطة الكليتين فى البول بدون أن ينتفع الجسم بها فيحصل ضعف تدريجى وأعراض أخرى ، وهذا هو مرض البول السكرى . إذن هذه الغدة جعلت فى الجسم لمنع البول السكرى المعروف والكبد هو مقابل للبنكرياس فى الجسم أكبر غدة فيه هو فى أعلى الفراغ البطنى وهو إلى الجهة اليمنى أقرب وهو نحو ثلاث أرطال وربع فى الإنسان البالغ تقريبا وسطحه العلوى محدب والسفلى مقعر وهو يفرز الصفراء المتقدم ذكرها وتخزن فى الحوصلة الصفراوية وهذه الصفراء :

(١) تساعد عصارة البنكرياس فى تجزئة الكرات الدهنية ويكون هناك مستحلب .

(ب) وتلين الأمعاء فتساعدها على الحركة الدورية فى القولون والمستقيم وتمنع التعفن فى الأغذية التى تزيد فى الأمعاء .

(٨) ثم ينظر ثامنا فيرى غدتين فوق الكليتين (شكل ١٩) وهاتان الغدتان إذا اعتدلتا فى إفرازهما اعتدل النشاط الطبيعى فى الشرايين والعضلات الإرادية وغير الإرادية وإذا قل نشاطهما حصل مرض فى الجسم يسمى مرض (أديسون) ذلك أن الجلد يلون بلون آخر هو اللون (البرنزى) ويكون هناك ضعف وقىء وإنهاك عصبى ينتهى هذا كله بالموت ، وإذا نزعت هاتان الغدتان يحدث الموت فى مدة قصيرة وهذه صورتهما .

الغدة فوق الكليه

الكلية

(شكل ١٩ الغدتان فوق الكلى)

(٩) ثم ينظر تاسعا فيرى الغدد التناسلية وهما الخصيتان فى الذكر والمبيضان فى الأنثى ، فالحيوانات المنوية تخلق فى الخصيتين والبويضات فى المبيضين وهذا ماهو إلا إفراز كالإفراز الخارجي فى الغدد الأخرى ولهذه الغدد إفرازات أخرى بها يمتاز الذكر من الأنثى فى مظهرهما ، فإذا رأينا شعر الشارب واللحية والشعر المنتشر على الجسم وخشونة الصوت وظهور بروزات عظام الجسم واضحة فى الرجل ورأينا ذلك كله فى الأنثى على خلاف ذلك . وهى تزيد بنمو الغدتين الثدييتين واستطالة شعر الرأس وازدياد المواد الدهنية المدخرة تحت الجلد فتختفى زوايا العظام البارزة أقول إذا رأينا ذلك كله عرفنا أنه وجد بسبب ما تفرزه الخصيتان والمبيضان من المواد لتكوين ذلك كله فضلا عن تكوين الحيوانات المنوية والبويضات لظهور النسل وللخصيتين والمبيضين آثار فوق ماتقدم إذ هما بما يفرز منهما يوقظان الوظائف الحيوية فى الجسم لاسيما ما كان له علاقة بالتناسل .

(١٠) ثم ينظر فيرى فى الجلد غددا عرقية منتشرة تحت الطبقة الجلدية وهى أنابيب طويلة تفرز السائل العرق .

(١١) ثم ينظر فيرى غددا دهنية وهى فى العادة بجانب الشعر وهى تفرز مواد دهنية لها ثلاث وظائف حفظ الشعر لينا وتغطية الجلد بطبقة دهنية تحميه من المؤثرات الخارجية ومنع تشع الحرارة من الجلد بكثرة

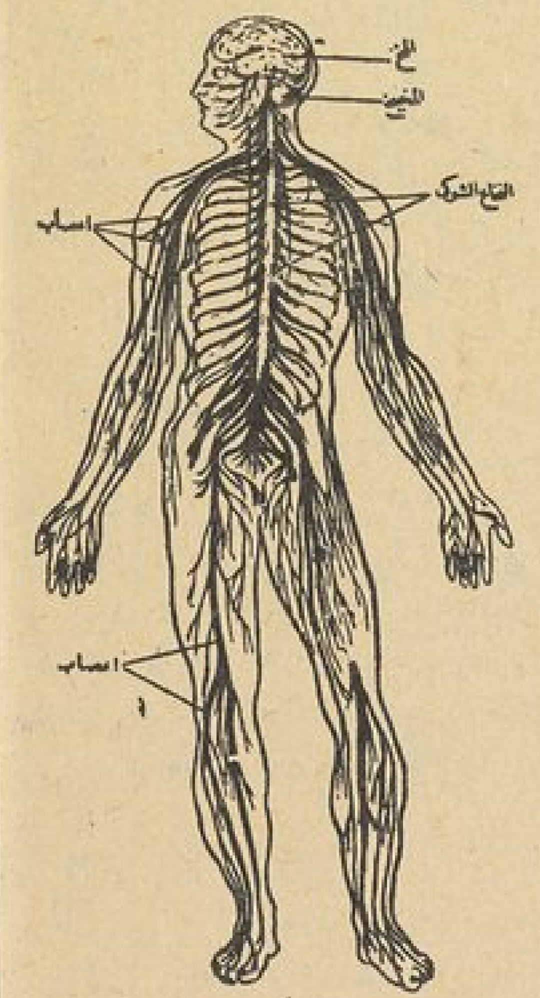
(١٢) ثم يرى غدتين فى الإنسان بأعلى الجزء الأمامى من الصدر وظيفتهما فى المرأة إفراز اللبن لإرضاع الأطفال اهـ.

إن الحكيم حينما يطلع على هذا يقول هذا من العجب ، غذاء مختلف الأشكال حل فى الأجسام هضمه الحيوان وصبت عليه مواد مختلفات فى الفم والمعدة والأمعاء ، وخف ولطف وارتق فصار دما فدار الدم فى الجسم وأخذت تهذبه عصارات وعصارات وتقابله فى سيره ، وهناك مصانع تصنع فيها تلك العصارات . فمنها ما يمنع التشنج ، ومنها ما يحفظ اللون المعتاد ومنها ما يحفظ أعضاء النسل ، ومنها ما يحفظ الهيكل العظمى منتظما جميلا معتدلا وهكذا وأخيرا منها ما فعل لمنفعة الجيل المقبل . إذن الحيوان والإنسان مخلوقان عجيبان دراستهما عند الحكيم روح وريحان ، وهما عند الجاهل مخلوقان للعذاب « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا » « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » .

فهذا الحكيم حين يرى هذه العجائب يشتاق لصانعها ويحن إلى لقائه وتكاد روحه تفارق جسمه من شدة الولوع بذلك الصانع لولا لطفه به إذ يلتق عليه الغفلة والشهوات فتلهيه عن هذا الجمال فيعيش محبوسا فى هذا الهيكل إلى أن يرجع إلى موجد هذا النظام البديع .

﴿ نظرة عامة : فى أعصاب الحس وأعصاب الحركة لذلك الحكيم ﴾

ثم ينظر ذلك الحكيم نظرة أخرى ويتتبع سير الدم فيقول إن الدم الآن قد تحول إلى هذه العظام وهذه العضلات وهذه العروق وهذه الأعصاب وهذا الشعر فلأنظر .



(شكل ٢٠ الهيكل العصبى للانسان مصغرا اثنتى عشرة مرة)

إن الناس يشتاقون إلى صعود الجو بالطيارات وإلى قراءة علم الشموس والأقمار بل يودون الصعود إلى تلك العوالم ، ولكن لماذا حبسنى الله الذى وضعنى فى هذا الجسم وألقانى فيه إلى أمد معلوم ؟ فيظهر لى أنى حبست فيه لأدرسه ، وإذا عجزت عن دراسة جسمى فأنا عن دراسة العوالم العلوية التى أشتاق إليها أعجز وعن فهم ما فوق ذلك أشد عجزا ، إذن انظر فى هذا الهيكل الذى كان أصله هذا الدم الذى كان غذاء والغذاء كان نباتا وحيوانا ومعادن . ولقد درست هذه العوالم من قبل لأنها مقدمات لحياتى فلم يبق إلا أن أدرس نفس جسمى لأنه نتيجة ذلك كله ، ولقد وجدت الأمم تبدأ بما حولها أولا ثم تنظر فى أجسامها ثانيا لأن ما حولنا أسهل فهما من أجسامنا فضلا عن أنه مقدمة لها والله يقول « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » فقدم ما فى الأرض لأنه أسهل وأيضا أنا محتاج إليه فى حياتى وحياتى أمس ، إذن ينظر فيرى عوالم أخرى وهى عوالم الحس والحركة (انظر شكل ٢٠) .

وهذه الصورة لاتكرار فيها مع صور الإنسان المتقدمة فى (سورة المؤمنون) وغيرها لأن هذه للأعصاب وتلك للأعضاء والعضلات ونحوها ، وههنا ينظر الحكيم فيعجب من عالم جديد ، ماهو هذا العالم ؟ هو عالم لاهو نبات ولاحيوان ولامعدن ولا هو كيموس أو كيلوس ذوقوام لبنى ولاهو دم ولاهو لحم وعظم بل هو عالم يقرب من العالم الروحى وعالم الأثير وعالم الملائكة لأن هذه الأعصاب خارجات من المخ والنخاع الشوكى أما المخ ففيه أولا نصفان كرويان أكبرهما تسعة أعشاره تقريبا وهما قسمان : أيمن وأيسر . وهذان النصفان هما مركز الحس و الشعور والذكاء والفكر والذاكرة والإرادة . ثانيا فيه المخيخ وهو الجزء الصغير الحجم الظاهر فى الرسم وهو منظم للحركات العضلية وربطها وحفظ توازن الجسم لأنه متى اختل هو اختل نظام توازن حركات الجسم فليس له إلا التنظيم . ولكن مصدر الحركات هما النصفان المتقدمان . وثالثا النخاع المستطيل وهو ٢ سنتيمترا ونصف ويوصل قنطرة فارول بالحبل الشوكى . وهذا النخاع المستطيل يحكم وينظم حركات التنفس والقلب والبلع وينظم إفراز العرق وحجم الأوعية الدموية وهكذا وفيه تمر جميع التيارات العصبية الصادرة من المخ إلى الحبل الشوكى الآتى ذكره والتيارات الواردة من الحبل الشوكى إلى المخ . وإذا أصيب النخاع المستطيل بضرر ما ظهرت أعراض خطرة ورابعا (قنطرة فارول) التى هى ألياف متصلة من أعلى بالمخ والمخيخ ومن أسفل بالنخاع المستطيل وهى موصلة التيارات العصبية المتبادلة بين الحبل الشوكى والمخ والمخيخ هذه الأربعة هى المخ (انظر شكل ٢١).

(شكل ٢١ – المخ)

أما الحبل الشوكى فهو يمتد من النخاع المستطيل إلى أسفل . يمتد داخل القناة الشوكية فى العمود الفقرى ويبلغ طوله (٤٥) سنتيمترا تقريبا وقطره ثمانية مليمترات . وهو ينقل الإشارات بين المخ وأطراف الجسم وبالعكس وهو مركز منظم للحركات القلبية الآتية .

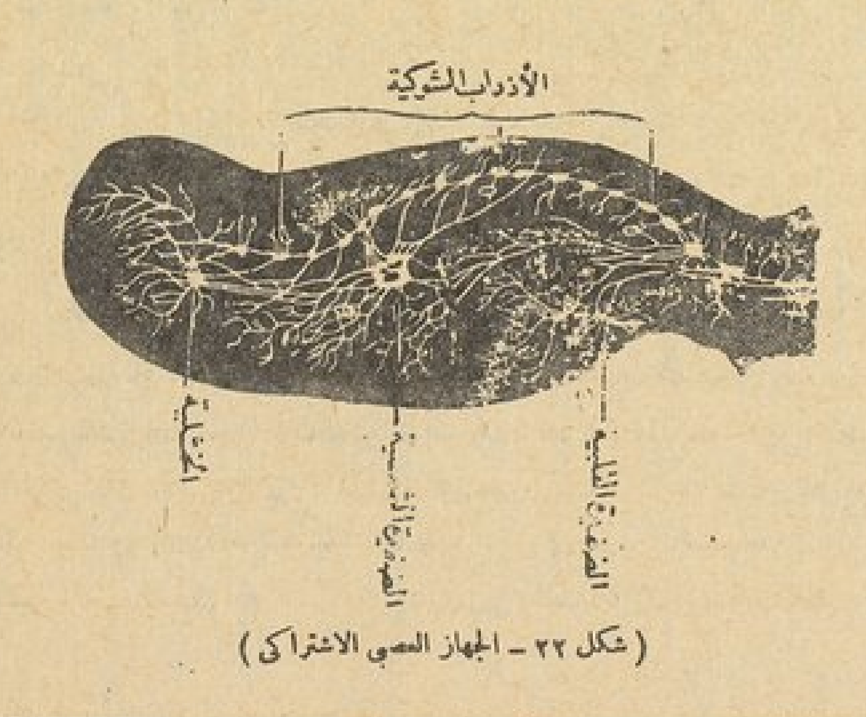
هاهنا يعرف ذلك الحكيم أن المخ والنخاع الشوكى هما الجهاز العصبى المركزى . ثم ينظر فى المخ نظرة أخرى فماذا يرى ؟ يرى هناك اثنى عشر زوجا من الأعصاب تخرج منه موزعات فى المنطقة الرأسية وماحولها ، لأن المخ أشبه بقصر الملك والملك معه الآلة التليفونية والتلغرافية فيصدر أوامره بتلك الأزواج العصبية إلى أعضاء الحس كالعين والأذن والفم واللسان . فيقول للعين ياعين أبصرى وللوصل عصبها وللأذن اسمعى وللوصل عصبها وعنده هو جهاز الآلة التليفونية أو التلغرافية (البرقية) وبعض الأعصاب أيضا تحرك فهو يأمر العين مثلا بالنظر فتخبره فيصدر أمرا أسرع من البرق إلى أعضاء الحركة بواسطة أعصاب الحركة وهكذا .

ثم بعد ذلك ينظر نظرة أخرى فى الحبل الشوكى فيجد أمرا عجيبا مدهشا . يجد هناك ثقوبا موضوعة بين الفقرات يمر بها أعصاب متقابلة من الجانب الأيمن والأيسر وتمر من تلك الثقوب ، وعدد تلك الأعصاب ٣١ زوجا موزعات فى جانبى الجسم بالتساوى وكل عصب من تلك الأعصاب الشوكية عند خروجه من الحبل الشوكى له (جذران : أحدهما) أمامى مركب من ألياف محركة والآخر خلفى مركب من ألياف حساسة وبه انتفاخ صغير هو عقدة عصبية ويتحد الجذران بعد مسافة قليلة ويكونان عصبا واحدا يتفرع إلى فروع منتشرة فى الجلد والعضلات الإرادية .

ثم ينظر ذلك الحكيم فيرى أن الاثنى عشر زوجا الخارجة من المخ والإحدى والثلاثين زوجا الخارجة من الحبل الشوكى لاسلطان لها إلا على الأعضاء الإرادية كاليدين والرجلين .

أما الغدد اللعابية مثلا فى الفم وهكذا القلب والأوعية الدموية وأجزاء القناة الهضمية المشروحة سابقا والمثانة وأعضاء التناسل والغدد العرقية وهكذا ، فهذه كلها لاسلطان للجهاز العصبى المركزى عليها الذى يتفرع منه الأعصاب المتقدمة البالغة (٤٣) زوجا يسمونها الجهاز العصبى الطرفى ، فما الذى يؤثر إذن فى الأعضاء التى ليست تحت إرادتنا ، وبعد البحث يجد هناك جهازا آخر غير الجهاز العصبى المركزى وما هو؟ هو عقد على جانبى السلسلة الفقرية ممتدة من أول العنق إلى الحوض يسمونها الأذناب ، ومن هذه العقد تخرج أعصاب تتوزع فى الغدد اللعابية والرئتين وهكذا إلى آخر ماتقوم أى فى الأعضاء التى لاسلطان لنا عليها . وهنا يدهش الحكيم ويقول : « ياسبحان الله . نظام محكم وآداب جمة . إن الذى لنا سلطان عليه كانت له عناية خاصة فكان نفس المخ ونفس الحبل الشوكى قائمين بتدبيره وتدبير الحبل الشوكى متجه إلى الأطراف وتدبير المخ متجه إلى الحواس التى بالقرب منه . فالأعلى يدبر الأعلى والأسفل يدبر الأسفل .

أما هذه العقد الشوكية فلها تدبير منزلى وتسمى هذه العقد وماتفرع منها (بالجهاز العصبى الاشتراكى السمباتوى وهذه صورته (انظر شكل ٢٢).



(شكل ٢٢ ـ الجهاز العصبى الاشتراكى)

فهاهنا يقول ذلك الحكيم : ماهذه العجائب ؟ جهاز للحس بالأمور التي تحت إرادتنا وجهاز للحس بالأمور التي ليست تحت إرادتنا . ثم إن الزوج الواحد من الثلاثة والأربعين زوجا عصبيا الخارجات من المخ والحبل الشوكي فيه عصب للحس وعصب للحركة ، فمتى أحس الإنسان بشيء من الخارج مثلا انتقل الخبر حالا في عصب الحس فوصل الخبر إما إلى المخ إن كان من أعصاب المخ أو إلى الحبل الشوكي إن كان من أعصاب الحبل الشوكي ومنه ينتقل إلى المخ ، وهناك يأمر المخ حالا عصب الحركة فيوصلها حالا الى ظاهر الجسم فيبعد العضو عن الخطر أسرع من البرق .

ثم يقول حينئذ ذلك الحكيم : إن الجهاز العصبي عبارة عن عالم مباشر لعوالم حية . فهذا العالم أرقى من عالم الغذاء ومن عالم التنفس ، هو عالم يشبه عالم الملائكة . فنقول إذا : هذا هو درس الوجود بأكمله لأن هذا الجسم هو الوحي الذي أقرؤه ولقد قرأته في هذا التفسير بصور مختلفة وكلها أمور عظيمة مدهشة .

ثم يقول : بهذا عرفت « من عرف نفسه عرف ربه » . هنا ينظر نظرة أخرى فيقول إن الإنسان قد يكون نائما فيؤذيه برغوث فلا يحس به ولكن العضو نفسه يتحرك فما الذي حركه ؟ القوة الحاكمة في الدماغ نائمة وبعد البحث والدرس الطويل يفهم أن هناك حركة تسمى الحركة العكسية إذ يجد أن النخاع الشوكي إذا قطع من موضع معين فإن جميع الحركات الإرادية والحسية في الأعضاء التي تتفرع فيها الأعصاب الخارجة من النخاع الشوكي أسفل هذا تقف : أي أنه يحصل هناك تخدر وشلل . إذن النخاع الشوكي هو الواسطة في نقل التيارات العصبية الحركية والحسية كما تقدم . ولكن إذا قرصنا هذا العضو الفاقد الإحساس أو المشلول الذي لاصلة بينه وبين المخ أوهيجناه فإنا نجد عضلاته تنقبض فجأة وليس للارادة عليه أدنى تأثير فهذه هي المسماة بالحركة المنعكسة ، فالتيار الإحساسي ينقلب في النخاع الشوكي إلى تيار حركي يرجع في بعض الأعصاب الحركة وهي تنبه العضلات المتفرعة فتدعوها إلى الانقباض .

وإذن ينظر ذلك الحكيم نظرة أخرى فيقول : (هنا أدب جم في دراسة هذا الجسم ، فهاهنا ملك سكن في قصره وهو المخ فدبر أشرف مافيه وهي الحواس ، كالسمع والبصر باثني عشر زوجا وأرسل من قبله حكاما آخرين قد ظهروا في الحبل الشوكي ، وهؤلاء الحكام نواب عنه يتلقون الأخبار بواسطة الأحد والثلاثين زوجا من الأعصاب ويوصلونها إلى المخ ، وهو الآمر الناهي ومن دون ذلك طائفة لها نظام آخر وهي طائفة الجهاز (السمباثوى) وهي العقد العصبية المصفوفة على جانبي العمود الفقري كما تقدم فهذه أشبه بعمال الزراعة والتجارة والصناعة أي أعمال الدولة الداخلة ، فأما الملك وأعوانه فلهم نظام أعلى وأعمال أهم وأعظم .

ثم يقول الحكيم : إن هذا الملك الذي استوى على عرشه له أعوان ثلاثة هي :

(١) الحس المشترك الذي يجمع كل ما أدركته الحواس ومعه القوة المخيلة التي تخال وتركب وتصور صورا لانهاية لها مما اقتبسته من الحواس .

(٢) القوة المفكرة التي لها السلطان على المعاني المعقولة والأفكار السامية والقضايا المنطقية ومعرفة الأسرار

(٣) والقوة الذاكرة التي تتذكر ماعرفناه عندنا من الصور والقضايا العقلية .

فالمخيلة بها جميع العلوم الجميلة من الرسم والتصوير والشعر الخ والمفكرة تعرف نظام الطبيعة ونظام الجسم وتبحث عن وجود الله والعوالم العلوية ؛ والذاكرة بها نعلم المواليد الثلاثة والفلك والرياضيات وتاريخ الناس فهذه كلها تحضرها الذاكرة إذ تتذكر مامضى بحسب درجاته .

فهؤلاء الثلاثة أعوان النفس . ولها أيضا ترجمان يترجم جميع ماذكر وهو اللسان . ولها وزير هي اليد فهي تفعل كل ماتطلبه النفس وتبرزه للخارج كما أبرزه اللسان بصورة كلمات وهي صور في الهواء يسمعها السامعون فيفهمون .

ثم ينظر ذلك الحكيم نظرة أخرى فيقول : (إن الحركة العكسية التى لاتصل إلى المخ أشبه بتدبير الشخص نفسه فى عالم الإنسان . فكما أن العضو المشلول أوالعضو السليم فى حال نومنا يفعل أفعالا عكسية لا علاقة لها بالمخ هكذا الفرد فى الأمة مسئول عن تدبير نفسه هو وهذا هو علم تهذيب النفس الذى ألف له ابن مسكويه كتابه . ويرى أن الجهاز السمبائوى الذى يحكم فى الأعضاء التى ليست تحت إرادتنا أشبه بنظام سياسة المنزل والجهاز المركزى وفرعه أشبه بنظام المدينة . انتهى والحمد لله رب العالمين .

هذا هو مافتح الله به فى تفسير قوله تعالى « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » ولولا علمه مانظمت هذه الأعضاء ولا الأعصاب ولا المخ ولا العقل ولا العلوم ولا نظامها « وأن إلى ربك المنتهى » كتب بعد ظهر يوم الاثنين اليوم الثانى من شهر شوال سنة ١٣٤٨ هـ

تذييل للمقام المتقدم

بعد ما كتبت ماتقدم قمت للصلاة ثم الرياضة فخطر لى مايأتى :

ذلك أن الحكيم الذى يتفكر فى هذا الموضوع ويرى هذه المناظر والمعانى يتعجب فوق ماتقدم ويقول: ياسبحان الله ، علم التشريح الآن وعلوم المواليد الثلاثة اليوم أصبحت بسبب التصوير الشمسى واضحة ظاهرة ، فنحن الآن فى هذا التفسير لم نحتج إلى إنسان لنشرحه ولاحيوان بل كفانا أن ننظر الصور . فياسبحان الله ، إن الله ذم أقواما فقال « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولاخلق أنفسهم » وألزم الناس الحجة غيبهم ومقلدهم وعالمهم فقال « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » فهؤلاء الشهداء ليسوا سواسية ، فمنهم من شهد بالحق وهوالذى قيل فيه « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » ومنهم من شهد وهو غافل لأنه غيرمستعد وإن كان أعلم الناس بعلم التشريح فهذا يكون علم التشريح عنده أشبه بمزرعة الزارع يحتال لتنظيف الأرض من الحشائش وبسق الزرع ولكنه لايدرى من أسرار النبات شيئا ، كذلك هذا يحتال فى حفظ الأعضاء ومداواتها وتغذيتها ولكنه غافل عن أسرارها وعجائبها التى يعرفها الأذكياء من قراء هذا التفسير وإن كانوا هم أقل منه علما بالتشريح كما يعرف عالم النبات تركيبه وعجائبه وإن كان لايعرف طرق الرى ولاأحوال الزراعة ، ومنهم من هو مستعد الفهم ولكنه مقلد ، وإلى هاتين الطائفتين قال تعالى بعد ماتقدم « أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » وهذا لمن فى استعدادهم نقص « أوتقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم » وهؤلاء المقلدون . والفريق الأول هم الذين شهدوا بالحق إذ أشهدهم الله ، فهؤلاء قالوا بلى وهم يشاهدون نظام أنفسهم والآخرون لايشهدون بالحق لأنهم مقلدون أوغافلون ، والفريق الأول هو المذكور فى قوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » فالله يشهد أنه منفرد بالألوهية قائم بالنظام والعدل والملائكة استمدوا الشهادة منه وعلماء الأرض استمدوا من الملائكة فهم يشهدون بالحق ، ومن الشهداء بالحق قراء هذا التفسير بشرط أن يكونوا أذكياء فهؤلاء هم الموقنون بما شهدوا لأنهم يشاهدون عجائب المخلوقات بأنفسهم ويفهمونها ، وهذه الطائفة الشاهدة هى المقصودة من هذه الدنيا ، فهم بمشاهدة هذه العجائب يرشحون إلى الدخول فى عوالم اللطف ويكونون « عند مليك مقتدر » لأنهم أولا فى هذه الدنيا يؤدون الخدمة الواجبة لهذا النوع الإنسانى وهم فى نفوسهم قد درسوا عجائبها فكملت لهم القوتان العلمية والعملية ، وما الحياة إلا علم وعمل كما أن الأعصاب للحس وللحركة فالحس راجع للعلم . والحركة راجعة للعمل ، فزوج العصب الواحد نظامه كنظام الوجود كله .

ثم ينظر هذا الحكيم نظرة أخرى فيقول ياعجبا؛ إننا نقرأ النحو والصرف والبلاغة وتلاحظها في الإنشاء فاذا أخذنا نكتب المقالات ونؤلف الكتب نجد أننا غير مفكرين في تلك العلوم اللفظية الثلاثة بل هي أصبحت عندنا غريزة وهذه الغريزة جعلناها شبكة نصطاد بها معاني أخرى هكذا نرى هذا الجسم الإنساني قد اشتمل على الدائرة الغذائية والدائرة التنفسية والدورة الدموية، وهذه الدوائر الثلاث عندنا أصبحت كدوائر النحو والصرف وعلوم البلاغة نستعملها ولا نفكر فيها ونطلب بها غيرها ، فهذه الدوائر في أجسامنا تحت إشراف أرواحنا وفي إدارتها ولكننا غير مفكرين فيها ولذلك رأينا لها نظاما خاصا وهو النظام (السمبانوى) وهذه طلبنا بها غيرها وهي المعاني العقلية التي نقتنصها بالحواس المستعملة للأعصاب التي تقدم شرحها.

ثم ينظر ذلك الحكيم فيقول : إن قوله تعالى « والله خلقكم من تراب » يتضمن العناصر والعناصر تبلغ فوق الثمانين وهي مادة راجعة في جوهرها إلى الحركات والأضواء المتقدم شرحها في (سورة النور) عند آية « الله نور السموات والأرض» في بحث قطرة الماء هناك ، فإن المواد ترجع كلها إلى أضواء والأضواء متحركات فترسم دوائر وهمية والدوائر الوهمية باختلاف وتنوع حركاتها تظهر أنها مواد فيكون الحيوان والنبات وهكذا لما وصلت هذه المواد إلى جسم الحيوان أخذت ترتقي مرة ثانية من غذاء إلى دم إلى حركة وحس في الأعصاب والمخ والعقل ، فأولها حركة مع إحساس بعقل عام منظم لها في الكون وانتهت هنا إلى حركات وعقل خاص في جسم الإنسان الواحد ، وهذا أشبه بمثال صغير لآية « كما بدأنا أول خلق نعيده » ولقوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه » .

فها هي ذه المادة أصلها الحركات والأنوار فرجعت في النهاية إلى الحس والحركة في المخ والحبل الشوكي والعقل والقوى في الدماغ « وأن إلى ربك المنتهى » .

ثم ينظر ذلك الحكيم أيضا فيقول : نظام هذا الجسم بديع كإبداع السموات فإنا نجد وضع كل عضو في موضعه ، وهذه طبقات الجسم منظمات أعلاها المخ تحكم فيه القوة العاقلة والقلب في الصدر والمعدة والأمعاء أسفل من الجميع فهذه مراتب متقنة ، وهكذا نرى نظام الشمس مع سياراتها وأقمارها كل منها في مركزه الخاص ، وهكذا حركاتها السنوية والشهرية والخسوف والكسوف لها أوقات محددات ، كل هذا تقدم في هذا التفسير » .

ثم ينظر ذلك الحكيم فيقول « ياعجبا . مالي أرى هذا الإنسان جاهلا . كيف يغفل عن نظام جسمه ؟ هذا الجسم متقن لم يترك فيه غدة إلا لها عمل . فهذه الغدد الدهنية والغدد العرقية والغدد اللعابية والدرقية والتيموسية والنخامية والبنكرياسية والكبد والصفراء وأمثالها والأنثيان للرجل والمبيض للمرأة فهذه كلها لها أعمال فلا معطل في الجسم . أما هذا الإنسان الجهول فانه متى أعطى ملكا مال إلى الراحة وأكل أموال الناس بالباطل فيحصل البطر والبطالة فيموت الشعب . وهذا هو الذي حصل في دولة الرومان ودولة العرب ودولة الترك وأخيرا دولة انجلترا . هذه الدولة التي عاشت بفضل مستعمراتها في الهند واستراليا وكندا وارلندا وغيرها فألف الشعب الاتكال على الأمم وكثر العاطلون وعددهم في هذا الشهر وهو فبراير سنة ١٩٣٠ فوق ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان . فهذه ليست نظام طبيعة الجسم لأن طبيعته أن لايترك عضوا بلا عمل والله يقول «وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون» ويقول «وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو» إذن الناس ماداموا مخالفين لسنة الله فإنهم معذبون هو لايلعب ولايخلق شيئا باطلا وهم يلعبون بتعطيل القوى والمنافع . والدول الأوروبية اليوم تعطل قوى الأمم التي تحتل بلادها فيقتص منها الله بحلول الخلل في نظامها وكثرة الثورات وظهور الاشتراكيين والفوضويين وليس من اللعب واللهو الأعمال الرياضية بل هي لتقوية الجسم . إذن هي من أعمال الجد فليست باطلة إنما الباطل

هو تضييع المنفعة من قوى الأمم الغالبة بالاتكال على أعمال الأمم المغلوبة وتعطيل قوى هؤلاء المغلوبين التى بها يرتقون عن طبقة العمال ولهذا قال تعالى « ولكن أكثرهم لايعلمون » فعدم علم الناس وجهلهم غشى على عقولهم فلم يفهموا هذا الوجود فظنوا أن الراحة هى نهاية السعادة فخاب فألهم وضل سعيهم فى الحياة الدنيا وجهلوا نظام النحل وأنه يقتل الذكور إذا حملت الملكة من ذكور أخرى من خلية غيرها فإن لاداعى لبقاء هؤلاء الذكور فى الخلية بلا عمل فيقتل النحل هؤلاء الذكور . وهذه هى سنة هذا الكون إذن لايسعد الناس فوق هذه الأرض إلا إذا اختص كل امرئ وكل جماعة وكل دولة بعام أهل له كأعضاء الجسم وأعصابه وعضلاته وحواسه . هذا ماخطر لى بعد الرياضة البدنية وكتب ليلة الثلاثاء الثالث من شهر شوال سنة ١٣٤٨ هـ والحمد لله رب العالمين .

مسامرة فى نظام الإنسان وجماله

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد وآله « أما بعد » فإنى أكتب هذا قبيل الفجر يوم الأربعاء (٩) إبريل سنة ١٩٣٠ وهى مسامرة بينى وبين بعض العلماء ذلك أن بعضهم لما اطلع على هذه الصور الجميلة التى أودعها الله فى الإنسان . قال : هذا نظام حسن بديع ولكن حدثنى رعاك الله كيف أكثرت من ذكر هذه المسائل . وكيف لهجت فى أكثر كتبك بأن هذا هو الجمال وإنه يثير فى القلوب ثائرة الحب والعشق للمبدع . فلقد تكرر هذا فى هذا التفسير . نحن لانريد أن نكون مقلدين فى أمثال هذا بل نود أن يكون القول مطابقا لما فى النفوس فإن أكثر الصوفية وبعض العلماء نسمعهم يذكرون هذا وهى شنشنة أعرفها من أخزم . وهذا ضرب مثل معناه أن هذه عادة هؤلاء . فقلت : أنا لم أكثر من هذه العجائب اعتباطا بل أنا أكتبها وأعلم أن تكرارها وترادفها يحدث فى بلاد الإسلام ارتقاء وإسعادا للروح والجسم معا بإشراق القلوب بالحكمة وبالإسراع فى ارتقاء هذه الأمم الإنسانية لاسيما الإسلامية فأما إنه باعث على العشق والحب فأنا أبدىء الآن فأقول :

إن الله خلق فى عالمنا صورا جميلة وجعل نظام هذا الإنسان وقبله الحيوان على الزوجين الذكر والأنثى وأبدع فى خلقهما مايشاء أن يبدع وفتح باب النقش والتصوير والإبداع فى الوجوه البهجة وجعل الأعلى منها قليلا أى جعل الجمال الأكمل فى وجوه الناس قليلا ليكون قبلة الأنظار ويرتسم فى القلوب لأن القليل يحفظ والكثير لايوجب اتجاه النظر ويصبح معتادا عند الناس فلايهيج لهم بالا ، فهذه الوجوه الجميلة الممتازة نموذج لأعلى الجمال الإنسانى وهذا يدعو العاقل للتفكر فى هذا الأسلوب فيقول : لم خلق التناسب والجمال ، وهذا السؤال جوابه ظاهر وهو التواد والتحاب والائتناس لاسيما بين الذكور والإناث ، ثم ينظر فيرى أن هذا الجمال بعد قليل ينسى ويحل محله جمال النفوس بالتربية ، والمحافظة على الأطفال فى المنازل ، ويرى هذا الجمال يأخذ فى الضعف . والرحمة والرأفة بالأطفال يأخذان فى الزيادة ، فيرى وجهى الأبوين يأخذان فى التشوه والتجعد والتقطيب ورحل ذلك الجمال الظاهر وحل محله الجمال الباطن فيرى أن هذين الهرمين أخذا يعانقان أبناءهما وبناتهما بدل معانقة أحدهما الآخر ، ويرى هذه الذرية تهوى إلى هذين الشيخين حبا فى عطفهما لا غرام بجمالهما الظاهرى . هنالك نعرف أن هنا جمالا مخبوءا فى هذه الدنيا فلنبحث فيه عسى أن ندركه فماذا نرى ؟ نرى مدارس وعلماء وحكماء ، وكلما كان الحكيم أغزر علما كانت القلوب إليه أميل ولحبه

أسرع ، فبعد أن كان الصبى مغرما بهذين الحرمين فى صباه نجد غرامه تحول إلى الأستاذين والمعلمين لأنه رأى كمالا وجمالا أرقى ونفوسا أسعد وأشرف ، فرحمة هذين الحرمين تعطيه الطعام والشراب والكساء لجسمه ولكن روحه بفطرتها تعلم أن مغذيات الروح أشرف من مغذيات الأجسام ، فهو يسمع من أفواه المعلمين ما يسعد روحه وقد تعلم من الأبوين دروس الحب لهما ووازنت نفسه بين الحرمين ، فهنا أخذ يسمع العلوم الانسانية والطبيعية والرياضية فكما كان يحب أمه لتغذية جسمه هكذا أخذ يحب معلمه لتغذية روحه وبعد أن كان يلهج بذكر الأم والأب أخذ يلهج بذكر المعلم وأخذ الحب يرتقى قليلا قليلا . ويكون الحب للمعلم على مقدار ماتعلم منه فإن رآه فى النحو عالما أحبه بمقدار ذلك العلم وإن رآه فى علم الفلك بارعا ازداد حبه له وهكذا كلما شارك أستاذه فى علم ازدادت نفسه حبا لأستاذه وهنالك يترقى فى المعرفة ويتبعها الارتقاء فى الحب والحب هو السعادة فى هذا العالم ولايزال يترقى حتى يفكر فى عالم هو معلم العلماء وهو الله تعالى قال: فاضرب لى مثلا لهذا الحب على شريطة أن يكون ذلك فى موضوعنا . فقلت نعم . تصور أناسا جلسوا وأخذوا يتحدثون فى الألغاز والمحاجاة فقال قائل منهم : أنا أطلب معرفة رقمين عددين إذا ضما إلى عدد آخر مركب من هذين الرقمين أنفسهما معكوسا ترتيبهما يكون مجموع العددين المذكورين (٥٥) وإذا طرح أحد الرقمين من الآخر كان الفرق بينهما (٣) فما هما العددان ؟ فهاهنا شغل أفهام السامعين فى هذا اللغز إذهم ملزمون أن يكون العددان مجموعهما (٥٥) مع أنه يشترط شرطان : أن يعكس ترتيب وضعهما . وأن يكون فرق مابينهما عدد (٣) ولا جرم أن هذا يدعوا الجالسين أن يجربوا عدة مرات وهيهات أن يتم لهم ذلك بالحدس والتخمين فمتى جاء رجل وكان يحسن علم الجبر فإنه يفعل هكذا فى حال ما إذا كان العددان (١١٠) والفرق بينهما (٦)

س زائد ١٠ ص زائد ص زائد ١٠ س = ١١٠

أو س زائد ص = ١٠

س — ص = ٦

٢ س = ١٦

س = ٨

إذن ص = ٢

فيكون أحد الرقمين ٨ والآخر ٢ أى ٢٨ و ٨٢ ومجموعهما ١١٠ والفرق بين الرقمين ٦ وإذا جعل مجموع العددين (٥٥) والفرق بين الرقمين (٣) مثلا كما تقدم حدث عندنا ٢ س = $\frac{٥٥}{١١}$ زائد ٣ = ٨ أوس = ٤ إذن ص = ١ فيكون العددان ١٤ و ٤١ والفرق بين الرقمين ٣ ومجموعهما ٥٥

فمتى قال هذه ذلك العالم للمتناظرين وحل هذه المسألة فرح به الجالسون وأحلوه المحل اللائق به وأحبوه وأقبلوا عليه فإذا سمعوا منه حل المسائل فى الهندسة والفقه والنحو والصرف والبلاغة والسياسة أخذ بمجامع قلوبهم على مقدار علمه وهكذا ينمى للمتسامرين حب سواه وإذا سأل سائل فقال : رجل له فرس حضره ثلاثة أشخاص لشرائها منه فسألوه عن ثمنها فذكره لهم فقال أكبرهم لأوسطهم : إن أعطيتنى ثلاثة أخماس مامعك من الدنانير صار معى ثمن الفرس وقال الأوسط للأصغر : إن أعطيتنى أربعة أسباع مامعك من الدنانير صار معى ثمن الفرس وقال الأصغر للأكبر : إن أعطيتنى خمسة أثمان مامعك من الدنانير صار معى ثمن الفرس فكم كان ثمن الفرس دينارا ، وكم كان مع كل واحد من الثلاثة من الدنانير .

فكم يكون سرورك حينما تحل المسألة حلا عجيبا فتقول (س) رمز للأكبر و (ص) رمز للأوسط و(ع) رمز للأصغر . ثم تقول س يساوى ص زائد $\frac{٣}{٥}$ ص وص يساوى $\frac{٤}{٧}$ ع زائد ع وع يساوى

$\frac{٥}{٨}$ س زائد س والثمن كله يساوى ٣ فى ٤ فى ٥ زائد ٥ فى ٧ فى ٨ يساوى ٣٤٠ .

وس يساوى (٢ فى ٧) زائد (٣ فى ٤) وكلاهما يساوى ٢٦ و٢٦ فى ٨ يساوى (٢٠٨) هو مامع الأكبر فلنطرح ٢٠٨ من ٣٤٠ يصير $\frac{٢}{٣}$ مامع الأوسط وهو ١٣٢ و ١٣٢ زائد $\frac{٢}{٣}$ فى ١٣٢ يساوى ٨٨ و ٨٨ زائد ١٣٢ يساوى ٢٢٠ وهو مامع الأوسط وذلك أن ٨٨ هى خمسان أضفناها إلى ١٣٢ وهى ثلاثة أخماس أما مامع الأصغر فإننا نعرفه بطرح ٢٢٠ من ٣٤٠ فيكون الباقى ١٢٠ وهذا هو $\frac{٤}{٧}$ مامع الأصغر فإذا زدنا عليه $\frac{٣}{٤}$ منه يكون هو ما معه $\frac{٣}{٤}$ فى ١٢٠ يساوى ٩٠ و ٩٠ زائد ١٢٠ يساوى ٢١٠ فالذى مع الأصغر ٢١٠ إذن الذى مع الأكبر ٢٠٨ ومع الأوسط ٢٢٠ ومع الأصغر ٢١٠ .

أقول : إنك إذا أجبت السائل بهذا الجواب بعد هذا الجهد فى هذه المسألة الجبرية فانك تجد فى نفسك سرورا وبهجة وهى مسألة مادية جزئية ثمن فرس فما بالك إذا رأيت نفسك قد أشرفت على هذه العوالم كلها وأخذت تحل مشكلاتها وتعرف مخبآتها . إنك إذن تكون أوفر سعادة وأكثر لذة .

وهاك حديثى مع المرحوم الشيخ محمد عسكر وهو كان مدرسا بالخديوية قبل ولادتى ثم اجتمعت به وهو هرم ولم أره من قبل فجلست معه يومين بلياليهما وحوله شبان ذوو جمال وثروة وعلم . فقلت له . أيها الأستاذ لماذا أرى قلبى يميل لك مع أن حولنا الجمال البديع . فقال : لأنك لاترى الجمال الحقيقى إلا فى أنا . وهذا الجواب حقيق منطبق على كل عالم أخذ الناس عنه علوما . إذن فلنرجع إلى إبداع أجسامنا ولننظر هذا الجسم الإنسانى ولنقصر الكلام عليه .

فقال صاحبى : ولكنك مثلت بمثال من علم الجبر . وهل كل قراء التفسير يعرفون الجبر ؟ كلا . فقلت هذه الحروف والإشارات الجبرية لابد منها لحل المسألة ووضعها لايضر . ذلك لتحدث عند من لم يقرأ هذا العلم شوقا إليه وهو قد عرف النتيجة . وإذا أدرك أن هذه المسألة تشرح صدر المتسامرين وتجعل فى قلوبهم حبا لمن حلها واعظاما فهنالك يقيس النظام العام على النظام الخاص ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت : العقلاء يدركون الفرح والحب والإعظام لمن حل هذه المسألة . فقال : حقا ذلك : فقلت ، فإذا عرفوا أن أجسامنا وتغذيتها ماهى إلا لغز يحتاج إلى أضعاف أضعاف هذا الحل ثم أدركوا حل لغزه دهشوا وأغرموا بمن حل ذلك اللغز. إن هذا النوع الإنسانى أمره عجب هو نفسه لغز ولايدرك ذلك. ومتى درس علوما كثيرة رجع فوجد نفس هذا الجسم كله علوما فيقرؤه فيعجب من ملاء بالعلم المرموز فيه . ألم تر أن الإنسان يدهش إذا قرأ فى (سورة يونس) نظام الهرم بمصر وأن أبعاده ومقاييسه لها نسبة إلى مدار الأرض حول الشمس من حيث مقياس أربع جهاته. ونسبة أخرى من حيث ارتفاعه إلى بعد الشمس عن الأرض ونسب أخرى كثيرة إلى مكاييل المصريين وموازينهم .

إن قلب الإنسان يدهش ويحس بإعظام لذلك الحكيم المصرى الذى فكر فى أن يجعل نسبا بين مقاييس الهرم وبين الكيلة والإردب والرطل والدرهم والأوقية والفدان والقيراط والسهم والذراع البلدى والمعمارى وهكذا مدار الشمس وبعدها عن الأرض ، فهو إذن يكون أكثر دهشا إذا عرف نسبة هذا الجسم الإنسانى إلى المخلوقات حوله ، ولكن لغز الإنسان فى كل يوم يحتاج إلى حل جديد لأن حله إلى الآن لم يتم . قال أوضح ماتقول . فقلت أذكر لك بعض أمثلة يقولها العلماء فى الطب حديثا : (إن أكل الهندبا (اسمه فى مصر جعضيض) وأكل البصل ينفع الكبد . وأكل البقدونس وكشك الماز والفجل ينفع لمرض الكلا ولمرض يسمى (الزجريج) ينفع الطماطم والليمون . والجلد الجزر والشجاعة البرتقال والليمون) وهكذا بحث العلماء فى الأغذية وقالوا إنها إذا نظمت لايحتاج الانسان إلى دواء . وقد وجدوا الجسم يحتاج الى المواد الزلالية كاللحم والبيض والى المواد الدهنية والشحمية والمواد النشوية وهكذا الماء والملح .

فانظر

فانظر إلى مواد حيوانية وأخرى نباتية وأخرى معدنية لابد منها فى نظام أجسامنا الإنسانية كأجسام الحيوان وإذا نقص منها واحد حصل لنا مرض بقدره كما يضعف النبات بنقص عنصر من مغذياته . ولكن هذه المواد من المواليد الثلاثة ومن الماء أكثرها غليظ . فكيف السبيل إلى انتظام هذه الاجزاء وتصويرها عينا ورجلا ويدا وأذنا فلنحل هذه المسألة . هنالك قال الله لنا : أنا أخلق سنا للقطع ونابا للتمزيق وضرسا للطحن ومجموعها (٣٢) سنا مقسمة على تلك المواد . وبعد ذلك يحتاج الطعام إلى الإذابة فكيف السبيل لذلك ؟ فترى ثلاثة أزواج أنهر فى الفم : تحت الخدين وتحت اللسان وتحت الشفة السفلى .

وهذه الأنهر الست يختص عملها بالمواد النشوية ومابقى منها يحوله عصير آخر فى الأمعاء إلى مادة سكرية والمواد الشحمية تحولها الصفراء والبنكرياس فى القناة الهضمية إلى مادة كالصابون لتمكن امتصاصها والمواد الزلالية تحول فى المعدة بعصيرها . أما الماء والملح فلا يتحولان إلى شىء فهاهنا (٣٢) و (٦) منابع فى الفم والصفراء والبنكرياس والعصارات المعدية والمعوية وهكذا فهى تبلغ نحو (٤٣) كل هؤلاء صناع يصنعون فى الطعام داخل أجسامنا ليتهيأ للامتصاص ودخول الدم . وهذا كله يضاف إليه فعل نفس المعدة انقباضا وانبساطا . فهنالك يتحول الطعام إلى سائل سنجابى اللون يقبل الامتصاص ، ألا يعجب الناس أن يكون الفم للنشوى والمعدة للزلالى كالبيض واللحم بعد البنكرياس والأمعاء لما بقى من المادة النشوية المهضومة فى الفم ولإتمام تحويل المواد الدسمة بعد البنكرياس والصفراء .

ولوأننا تركنا أكل المواد الزيتية ونحوها لاعترانا مرض كما اتفق لى مرارا . فإنى منذ عشر سنين اقتصرت على الخضر وظننت أن ذلك كاف ونسيت الدهن فأصبح الدم كثير الماء لأنه فقد المادة اللماوية التى يحدثها الدهن فابتليت بالرعاف . ولكن الأطباء ليس لهم عمل إلا المداواة . وقابلنى طبيب حاذق وقد نظر فى جسمى من الداخل فوجد بقعا ملونة ، فقال لاتخف هذا مرض لايعدى ولكنه يدل على نقص فى التغذية . إذن نقص التغذية بالمواد الدهنية التى لم أحفل بها (لأنى قرأت فى الكتب أن الاكتفاء بالخضر نافع) كان سببا لمرضين خروج الدم من الأنف بكثرة وتلوين الجلد ببقع غير حسنة . وبقيت كذلك لا علم لى بهذا النظام حتى قرأت حديثا كتبا فى التغذية فصرت آكل الزيت والفاكهة والخبز مع السمن والزبدة فزال المرض إذ زالت البقع من جلدى ولم يرجع إلى الرعاف مرة أخرى منذ أكثر من سنتين بل أنا لم أتعاط دواء بعد ذلك .

الله أكبر . إذن أنت يا الله جعلت أجسامنا لغزا وأمرتنا بحله وقلت لنا : (ياعبادى اسمعوا . أنتم تحلون مسائل الجبر والحساب والفلك . ولكن أجسامكم نظامها معقد وإذا أخطأتم فى حل مشكلاتها كان الهلاك كما يحصل الخطأ فى حل المسائل الحسابية إذا حصل خطأ فى الحساب .

انظروا إلى ماحولكم ، إن جسمكم مشتق منه ، فهو من الماء ومن الملح ومن النبات ومن الحيوان ومن الهواء ولا مرض يحل بكم إلا بسبب نقص أو جهل فى مقادير الطعام أو الشراب . هنالك يجد الحكماء فى نفوسهم سرورا لاحد له وحبا عظيما للمبدع الذى خلق المرض فينا ليحدث عندنا فكرة فى نظام طعامنا ويفتح باب العلم ، فهنا يكون (أمران) صحة أجسامنا بنظام الطعام وأهم منه إسعاد النفس بإدراك ذلك الحكيم الذى أتقن ذلك النظام .

إن قراء هذا التفسير المدركين للعجائب المذكورة فيه يرون فى نفوسهم حبا وعشقا مفرطين لصانع العالم وهنالك تكون سعادة تزداد بازدياد العلم . وهذه مبدأ سعادات أخرى فى هذه الدنيا ثم فى الآخرة وتكون هناك أشرف من سعادة الجنة الحسية بما لاحد له .

إن قراء هذا التفسير يكون الأذكياء منهم سعداء فى الدنيا وفى الآخرة ، اللهم إنك بما صنعت فى

أجسامنا من الإحكام والإبداع وتقسيم المصانع التي أبدعتها في القناة الهضمية على الطعام الذي وزعته على مناطق الأرض تدهشنا . لماذا تدهشنا ؟ تدهشنا لأننا نرى أرزا ودقيقا ناعما مثلا يتجاذبهما لعاب المعدة والأمعاء، ونرى زيتا وشحما وهكذا خوارج من النبات والحيوان قد تجاذبها الأمعاء والصفراء والبنكرياس ونرى بيضا ولحما وأمثالها يتجاذبها البنكرياس والمعدة . ههنا مناطق أرضية ربيت فيها النبات والحيوان ومناطق في القناة الهضمية وزعت عليها ماربيته في تلك المناطق الأرضية . فياعجبا مناطق في أجسامنا مقسمات على نواتج المناطق الأرضية كما قسمت المناطق السماوية والأرضية على مناطق المخ . فللحساب مناطق في الدماغ وبقية العلوم الرياضية والطبيعية . وهكذا فمعارف العوالم كلها موزعات على مناطق الدماغ التقسيمات تقسيما منتظما على مقتضى العلوم . فيارب باره قسمت قناة الهضم وقسمت الدماغ وأعدتهما لاقتسام مناطق المخلوقات صورا ذهنية وصورا جسمية وقلت « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

فياويل من مات وهو جاهل بهذا النظام عاجز عن إدراك هذا الجمال . جوع نحس به يدعونا إلى تعاطي الطعام فنزرع ونحصد ونصطاد ونأكل فتتلقاه مناطق الهضم بآلاته ومناطق العقل بتصوراته . حكم أبدعت وآيات نظمت . إذن نحن خلقنا العلم وإلا لما هذا الأحكام والجمال ، جسم صغير ثمانية أشبار بشبري يمثل ماحولنا (تمثيلين) تمثيلا جسميا ، وتمثيلا عقليا . ثم تمثيلا متوسطا بواسطة اللسان إذ هو معبر عن كل ماتقدم فههنا عقل وههنا جسم وههنا لسان كل منها يمثل العالم بالتمثيل الجسمي والصور الهوائية بالحروف والصور الذهنية المعقولة والعالم كله متصل بهذا الجسم وشئونه .

(مشاهدات لطيفة في بلدة المرج)

قد قلت سابقا في هذا التفسير إني أقوم كثيرا إلى جهة المرج لملاحظة أرض هناك زراعية ففي يوم الأربعاء (٩) ابريل سنة ١٩٣٠ قبيل طبع هذه السورة توجهت إليها فرأيت جنديا راكبا جوادا يقود فلاحا ويرمح بحصانه فيسلمه إلى جندي آخر وهكذا رجلا وراء رجل والناس يهربون من الجند . وهذا منظر غريب يقل نظيره فسألت فقيل إنهم يجمعونهم لمطاردة الجراد لأنه الآن في الجبل الأصفر وهو قريب من قرية المرج وقد قرأت في هذه الأيام في الجرائد في نفس الشهر أن الجراد هجم على مصر من الشرق والجنوب وأنه خطر هائل وأنهم جمعوا من مركز بلبيس (٦٠) زكيبة من الجراد وهم يستعملون المواد الملتهبة في إبادته وجمعوا الجند والفلاحين للتعاون على ذلك وأهل فلسطين قد طاردوه قبل أهل مصر . وهكذا تقول جريدة الأهرام يوم الخميس ١٠ ابريل سنة ١٩٣٠ مانصه : (من الطرق المتبعة في بلاد الجزائر لمقاتلة الجراد أن تلقح جرادة أو بعض جرادات بمكروب (كوليرا الجراد) وتطلق مع الأسراب فتلقحها بهذا المكروب الذي ينتشر في الجراد انتشارا سريعا ويقضي عليه ، وقد أنبئنا أن الجراد في (سيناء) أصيب بهذا الداء) اه .

إذن الجراد له مرض قتال ووباء عام كوباء الإنسان العام . ومعنى هذا أننا نحن يجب علينا أن نتعلم نظام الجراد وحياة الجراد وقاتل الجراد حتى نحترس منه ، وعلينا أيضا أن نوحد صفوف المصريين لمحاربته وصفوف الأمم التي حولنا لمحاربته ، أي على الأمم كلها أن تتحد في درء خطر الجراد (وبعبارة أخرى) أن هذا الإنسان لا كمال له إلا باتحاد جميع الأمم المعروفة على درء المفاسد، إذن الإنسان اليوم ناقص نقصا فاحشا لأن أهل السياسة وعظماء الأمم لايزالون أطفالا ، أو كالأطفال لأن مصر لو كانت في حرب مع فلسطين لأكل الجراد قوت البلدين ، فههنا (أمران) اتحاد الأمم للأعمال العظيمة ، ودراسة كل حشرة وكل نبات وكل حيوان .

أما بعد فهذا كله تفسير للآية التي نحن بصددها ، فهذا كله راجع لما نحن فيه من خلق الإنسان من نطفة ، وهذه النطفة أمشاج وأنه ابتلى وجعل سميعا وبصيرا (وبعبارة أخرى) إن الجوع مبدأ لهذا كله ؛
الجوع طلب الطعام ، والطعام موزع على سطح الأرض، وفي الأرض آفات كالجراد . ولا يتم طعامنا إلا بإزالة المهلكات لزرعنا . إذن نحن لم نخرج عن موضوع الآية وكأن هذه الدنيا كلها تطبيق على دروس جسمنا كما أن آيات القرآن حقا وصدقا تستتبع جميع العلوم فكأن أجسامنا علم الفلسفة الذي يجمع العلوم أو كالقرآن الذي يأمر بها ويحويها بعض جملة كآية « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » وأي علم يخرج عنهما . وقبل أن أختم هذه اللطيفة لا محيص لي من الإعجاب بخالق الجراد وخلق آفته . إن الذي خلقنا وخالق الجراد وخالق الشمس قال : لابد للجراد من آفة تناسبه وهي حيوانات ذرية تهلكه وعلى الإنسان أن يدرس الصغائر والكبائر من هذه الدنيا ويتحد على المنافع وتكون النتيجة السعادة العلية في الدنيا ، وما هذه العوالم كلها إلا كدار الصور المتحركة (السينما) وهي التي حدثت في زماننا إذ يرسمون الصور على الشريط بالتعاقب صورة وراء صورة ثم يحفظونه وبعد ذلك يضعونه في مكان مظلم ويضيئون الأنوار الكهربائية فتلق على ذلك الشريط أشعتها فتبرز الصور على ما أمامها واضحة جلية كأنها أجسام حقيقية بحر وبر وسماء وأرض وسفن وحرب وضرب وسرقة وإهلاك وتدمير وإصلاح ، فهذا يفرح الناس بما هو خير وما هو شر لأنها كلها ترجع إلى الحذق والمهارة والدقة والإبداع . وكل ذلك تحبه النفوس ؛ فأنا لما كنت في المرج وشاهدت الجندي يقود الفلاح وسمعت بمطاردة الجراد لم أر هذا في نظري إلا أنه تمثيل لرواية وتشخيص لحكمة عالية نزلت لنا بهذه الصور ولكن هذه المناظر أحكم وأبدع ولن يعقل أنها كذلك إلا قليل فأما الكثير فإنهم لا يفرحون إلا بالصور المنقولة عن هذه الصور الحقيقية أو ما تركب منها ، فدور الصور ظل لهذه المظاهر الحقيقية والحقيقة أوضح من ظلها .

فيا أيها المسلمون : هل يعجبكم هكذا أن تعيشوا عالة على الأمم وأنتم خير أمة أخرجت للناس ، أتضيعون قواكم العقلية بالكسل وتذرون منافع أرضكم بالجهل . لالا ، لا أيها المسلمون، أنا ناصح لكم أمين فلا تناموا بعد الآن . شمروا وجدوا واقرءوا كل علم ، فوالله لا سعادة في الدنيا إلا بما ذكرته لكم ولا سعادة في الآخرة إلا به . ومن ادعى من صغار العلماء أو صغار العقول أن ديننا لا يطلب هذا كله وأن الجراد ووباء الجراد والنحل ودراسة كل شيء لا موجب له وأن الإنسان تكفيه ظواهر العبادة فقولوا له : اسمع ما قاله الغزالي في الإحياء بالحرف الواحد تحت عنوان : (بيان السبب في زيادة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا) وهذا نصه :

وكما أنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرآسة على المطعوم والمنكوح وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرآسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعا . فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفنا من إيثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب وسائر الخلق مشغولون به إلى آخره .

وقد نقلت هذه العبارة بتمامها في أول (سورة البقرة) عند ذكر الجنة وملخص ما بقي منها أن الناس يموتون على ما عاشوا عليه وعلمهم يصحبهم وينقلب إلى مشاهدة ونعيم الجنة على قدر الحب في الدنيا والحب بقدر المعرفة والمعرفة هي أصل السعادات كلها. ولا جرم أن ما ذكرناه من الجراد ووباء الجراد والقناة المضمية وتوزيع الطعام عليها كلها موجبات للحب ولسعادة الدنيا معا . فقراء هذا التفسير أي أذكيائهم يعطون

(جنتين) جنة فى الدنيا بحب العلم والبحث ويترتب عليه إسعاد الأمم . وجنة فى الآخرة بسعادة مشاهدة ذلك الحكيم الذى أبدع هذه النفوس وصورها . وإياك أن تظن أن بعض ماذكرت فى هذا المقام يخرج عن معنى آيتنا التى نحن بصدد تفسيرها « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » فهو بعلمه دبر الجوع ليحملنا على طلب العلم ونزرع ونأكل وندرس الدنيا كلها ومنها الجراد مثلا ونخرج من الدنيا وقد شهدنا مناظر جميلة تحببنا فى لقائه . إذن أنت أيها الذكى من الآن سعيد فى الدنيا سعيد فى الآخرة . انتهى صباح يوم الجمعة ١١ ابريل سنة ١٩٣٠ .

(لطيفة فى قوله تعالى «وما يستوى البحران» إلى قوله «لعلكم تشكرون»)

(وفيها فصلان)

(الفصل الأول) فى بعض عجائب البحر .

(الفصل الثانى) فى الفلك المواخر فى البحر .

(الفصل الأول فى بعض عجائب البحر)

إن هذا المقام تقدم منه كثير فى أجزاء هذا التفسير. ولكن لا أخلى هذا المقام من شذرات تسر القارئين وتشرح صدور المفكرين ، تباركت يا الله فى جمال أعمالك وبديع إتقانك وإظهارك لنا من المحاسن والبدائع ما يأخذ بألبابنا ويهيء عقولنا للارتقاء الى عوالم أعلى وأعلى .

ما أبهر بحارك ، وما أعجبها ، تحار عقولنا فى جمالها وعظمتها ولا تقف فى تلك الحيرة عند حد .

(١) أنقف عند دوامها واتساعها وأمواجها وبطشها وعظمتها المذكرة بعظمة مبدعها ، أم نقف عند ما نرى من حياة تتخلل سائر تلك الطبقات تحت الامواج كأنها جعلت طلاسم تستعصى علينا دراستها مالم نجد فى تحصيلها ؟ لندرك سرها فنعرف أن من الحيتان أنواعا مثلا مثل (الكاشالوت) ذلك الذى يطوف فى البحار طولا وعرضا وهو يجول كما تجول الآساد فى البر وله أنياب محددات يسطو بها على ضعاف الحيوانات البحرية واذا أصيب بأى جرح من الإنسان فى السفينة فما أشد أندفاعه ومناصرة عشيرته له واجتماعهم على تلك السفينة فلا تزال تلك الجموع تحيط بها وتصارعها حتى تصرعها انتقاما لما أصيب به أحدها من جراح بل ان حوتا منها واحدا هاجم مركبا أمريكيا ولم يزل يهجم عليها حتى حطمها وأنزلها فى درجات المياه وبئس القرار

(٢) إن عقولنا لاتقف عند هذا الحد فإن (الروكان) أقوى منه وأضخم ، أليس طوله يبلغ ١٢٠ قدما على ماقيل وإن كان فيه مبالغة .

(٣) وإذا أردنا التفكر فى أعماق المحيط ألفينا السمك فى عمق (٢٧٥٠) قامة فى تلك الأماكن التى لانور فيها، وكيف يصل لها النور وهل لنور الشمس سريان أبعد من ٢٠٠ قامة ؟ مئتا قامة فقط وبعدها ظلام حالك ، ففى تلك الأرجاء السحيقه البالغة ٢٥٥٠ قامة بعد انتهاء نور الشمس تعيش أحياء بغير ضوء شمس . وكيف تعيش بلا شمس ؟ أتكون حياة بلا شمس ؟ هذا عجب . ولكنا إذا فكرنا فى أمرها بعد ما كشف منها رأينا ماهو أبدع وأعجب، رأينا أن النور والظلمة خاضعتان لأمر السمكة فلها عضو يشع منه النور متى أرادت. فان احتاجت إلى فريسة أوقوت أضاءت للمكان بشمسها الصغيرة، وإذا أحست بمفاجيء لها من أعدائها أطفأت شمسها وغابت فى لجج البحر . وقد يجعل ذلك النور إرهابا للعدو وإضعافا لبصره فيكون سلاحا ضوئيا يهزم به العدو الذى به يغشى بصره . وبعض تلك الأسماك فى قاع البحر لماع براق (فسفورى) وبعضها غنى اللون، وهناك لطافة وجمال وحسن وبهاء، وأعمق البحار كأعلى الجبال انخفاضا وارتفاعا

(٤) وهناك الجزائر المرجانية ومنها جزيرة سيلان بالقرب من الهند والجزر البركانية والجزر المرجانية وقد شرحنا كثيرا منها فيما مضى فى هذا التفسير. انما الأمر العجب هنا أن نقول : أليس من العجب أن نجد (الأرضة) المذكورة فى (سورة سبأ) وتقدم شرح أعمالها وأنها وهى عمياء قد بنت فى الأراضى القفراء مدنا آهلة بسكان منها لاحصر لعددها، تديرها ملكة عظيمة القدر حجمها بمقدار راحة اليد ومعها زوجها المرسوم معها فى (سورة سبأ) فهذه الحيوانات الضئيلة قد رفعت بنيانها فى اليابسة فبلغ فى العلو (٦) أمتار بل ثمانية واتسعت مدنها فكانت أميالا واعتاصت فى هدمها على الانسان فلم يهدمها الا بالديناميت فهكذا هنا نجد جزائر فى البحر وما بناها الا هذه المخلوقات الضعيفة المسميات بالمرجان تباركت يا الله جزائر فى البحر عظيمة فى المحيط الهندى والمحيط الهادى (الباسفيكى) يبنيها حيوان صغير وتكون فيما بعد مزارع ومروجا واسعات تكسوها أشجار (الشوكلانه) المرسومة فيما تقدم فى هذا التفسير ، أليس من العجب أن تكون بعض الحشرات البرية وبعض الحيوانات البحرية قد اتحدت على إحداث ماعجز عن فعله الناس فى الأرض؟ وهل للناس من قدرة على أن يحدثوا فى البحار جزائر ؟ كلا . إنهم لوقدروا على ذلك ماحارب بعضهم بعضا على أرض من اليابسة ، فلو أنهم قدروا على ذلك لصرفوا تلك القوى التى أضاعوها فى إعداد آلات الحرب الجهنمية على إيجاد جزائر كجزائر المرجان المعروفة بما يسمونه (بلكاديف وملاديف) أى بحيرة الجزائر أى (١٠٠٠٠) جزيرة و (١٠٠٠) جزيرة فلو قدر الإنسان على الجزائر كما يحدثه المرجان لفعل أكثر منه ولأحدث أراضى فى المحيط وقارات فسعدوأسعد ولكنه جهول يظن عقله آخرماوصل إليه الإبداع ولم يفطن إلى أن هذه الغريزة المرجانية والغريزة التى فى الحشرة الأرضية المشروحة فى (سورة سبأ) كما قدمنا قد أبدعت إبداعا لم يصل له هذا الإنسان المسكين الذى يفرح بماعنده من العلم وهو لايزال فى أول حروف هجائية « إن الإنسان لظلوم كفار « إنه كان ظلوما جهولا » .

أما ظلمه فإنه إلى الآن لايزال يفخر بأنه يعيش على نهب المال من أخيه الإنسان ، وأما جهله فهاهوذا ظاهر فى أنه لم يصل إلى علم حشرة أرضية فى نظام المدن والبناية ولا إلى علم حيوان المرجان البانى فى المحيط جزائر وجزائر ، أليس هذا هو الإبداع والاتقان والجمال (أنظر سورة المرجان فى أول سورة النحل فى المجلد الثامن وفى آخر سورة الفرقان فى المجلد الثانى عشر) انتهى الفصل الأول .

الفصل الثانى فى الفلك المواخر فى البحر

يقول الله « وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » فأولا ترى الفلك مواخرا وثانيا نبتغى من فضل الله . وثالثا نشكر الله على ذلك الفضل . فهاهنا ثلاث جواهر .

(الجوهرة الأولى فيما نراه من الفلك المواخر فى البحر)

أما الجاهل فلا يدرك من هذا القول فى القرآن إلا لفظه وإعرابه وصرفه وبلاغته ، فهذا حد الجاهل وكثير من العلماء المتأخرين فى الأمم الإسلامية، أما الحكيم المفكر فإنه ينظر بعقل أحكم ونظر أتم فيقول: « نحن رأينا الفلك فى البحر مواخر فأى فرق بينها وبين سير الإنسان فى الأرض وركوب الدواب وركوب القطارات الحديديه ، نسمع الله يقول لنا بعد ذلك « لتبتغوا من فضله » لم أتى بهذه الجملة بعد رؤيتنا الفلك مواخر مع أنه يقول : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » ولم يقل « لتبتغوا من فضله » وإن كان الجميع من نعم الله وتسهيل أمور الحياة علينا. هاهنا يرجع الحكيم إلى العلوم التى أبرزها الله فى الأرض فماذا يرى ؟ يرى أن قوة الحصان الواحد تجرى على الطريق العادى نحو (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف رطل بسرعة

ثلاثة أقدام فى الثانية وتجر على شريط السكة الحديدية نحو (٣٠٫٠٠٠) ألف رطل للمسافة نفسها والوقت نفسه ، أى إن شريط السكة الحديدية يكسبنا فى النقل عشرة أمثال مانكسبه من السير فى الأرض المتادة

فإذا جعلت نفس هذه القوة فوق سطح الماء فإنها تجر فى الزمن نفسه والمسافة عينها (٢٠٠٫٠٠٠) رطل إذن الماء أكسبنا تسهيلا فوق سهولة السكة الحديدية نحو (٧) مرات تقريبا وفوق ما نناله فى سيرنا المعتاد على اليابسة نحو (٧٠) مرة ، عجب : إن الماء يسهل لنا النقل بنسبة عظيمة جدا لم تصل اليها دوابنا ولا طرقنا الحديدية. إذن البحر نعمة فى النقل تعلو على نعمة الطرقات فى السكة الحديد وعلى الطرق للعبدة (بتشديد الباء) فى الأرض . هذا معنى قوله « وترى الفلك مواخر فيه » .

فأما العامة وصغار العلماء فلايرون بأبصارهم من السفن إلا كما يسمعون بآذانهم من القرآن مناظر سطحية وألفاظا مقروءة . فالفريقان فى ذلك أشبه بمن يرى أمواج البحر ويظن أن البحر ماء خامل لاحياة فيه بل الحياة الدنيا كلها عند أكثر هذا الإنسان حياة كالأمواج لاجمال فيها ولا بهاء . فلا جمال فى الحياة الدنيا إلا بدراستها ولا بهجة فى ماء البحر إلا بتعلم علومه التى عرفها الناس . ولا فائدة يعقلها الإنسان من منظر السفن الماخرات فى البحر إلا بدراسة القوى وموازنتها كالذى ذكرناه هنا وهنالك فقط يفهم لم ذكر الله « لتبتغوا من فضله » بعد ذكر السفن الماخرات فى البحر .

ان الماء قوة تدفع الأجسام العائمة عليها إلى أعلى فيخف ثقلها ويحس الانسان بذلك وهو فى البحر فإنك إذا استحممت فى البحر كشواطىء الاسكندرية وهنالك زجاج مكسور تحت الماء وأنواع من الأدوات الحادة فإنك لا تألم بما يصيبك من هذه الأدوات الحادة لأن الماء سيرفعك رفعا يحفظك من الضغط على أمثال الزجاج فلا يصيبك الجراح . ذلك سر رفع الماء لأجسامنا فتخف وهذه النظرية معروفة فى جميع الدوائر العلمية ولها تدابير لا محل لذكرها وهى المعروفة بنظرية (ارشيميديس) فهذه النظرية سر من أسرار الله الذى وضعها فى الماء وبه جرت سفننا فكانت أسرع نفعا من دوابنا ومن قطراتنا لذلك عقبه بقوله .

(الجوهرة الثانية « لتبتغوا من فضله »)

هنا نبتغى من فضل الله لأننا وجدنا طرقا سهلة معبدات عبدها (بتشديد الباء) الله لنا قبل أن يخلق أبانا آدم. لذلك نبتغى من فضله. والمسلمون هم المخاطبون بالقرآن أكثر من غيرهم . فيارب هل الابتغاء من فضلك بالسفن الماخرات قاصر أكثره على غير المسلمين أم المسلمون من عبادك وهم أيضا يبتغون من فضلك بالطرق البحرية للذللات ولا يقتصرون على الطرق الأرضية التى تقل عن البحار (٧٠) مرة من سهولة النقل. أيها المسلمون: البحار بحار ربكم، وهو الذى سهلها لكم ولغيركم لم لا تبتغون من فضل ربكم فى بحاره ؟ ولو أنكم جاريتم الأمم فى السير فى البحر لنشرتم فضائل الدين فى الأمم بالعلم والاقناع، فترك الناس أصنامهم وأوثانهم ولخففتم عن الإنسانية جهالتها المتراكمة وإياكم أن تظنوا أن سير السفن فى البحر أمر سهل أو أن الابتغاء من فضل الله بالتجارة بمعاونة السفن أمر يسير . إن هنا عالما آخر وهو عالم الأثير . ذلك العالم البديع الذى هو ألطف من الهواء . عالم يتدخل فى الماء وفى الهواء وفى الأرض وفى الأجسام الحيوانية وفى السماء وفى الكواكب وفى الأرض هو عالم لطيف ينفذ فى كل شىء . هذا العالم أيضاً يسعد الإنسان بإسراع للواصلات فيه يكون البريد البرق (التلغراف) بقسميه أى الذى له سلك والذى لا سلك له ، وهذا لابد منه لسير السفن فى البحار الله أكبر أصبح الإنسان بهذا وبذلك كله كأنه جسم واحد اللهم إنك أنت جعلت العوالم كلها كأنها جسم واحد فأرضك مع شمسك وقمرك وسياراتك ومجراتك كلها كأنها جسم واحد هكذا هذا الإنسان المجهول المسكين يظهر لنا أنك تكاد تجعله جسما واحدا فهل يتنحى المسلمون عن هذه الموهبة بالجهالة . هل يتنحى

المسلمون

المسلمون عن استخدام القوة الكهربائية التي يبعثها الناس في الفضاء فتتلقفها السفن في عرض البحار فتنجو من المخاطر وذلك بنعمة الأثير التي جعلها الله محيطة بنا . فهي أعم وأرق من الماء والهواء . وإذا شئت شرحا لهذا الموضوع فاقرأ مانقلته من كتاب الجغرافيا التجارية الاقتصادية والجغرافيا البشرية تأليف (محمد بك حمدي) ناظر مدرسة المحاسبة والتجارة وهذا نصه .

البرق السلكي البري والبحري والبرق غير السلكي

انتشرت الأسلاك البرية في الفضاء ، ومدت البحرية في مياه البحار والمحيطات فاتصلت أطراف المعمورة برا وبحرا وأصبح العالم كله وكأنه قطر واحد فهانت المناجاة في قليل من السويعات وانتظمت عقود التجارة الدولية وشاعت أخبارها في الآفاق بالسرعة بسبب سهولة إنجاز البيع والشراء والأخذ والعطاء فيما ينفع الناس واشتبكت المصالح الدولية بشباك أوتادها في كل المدن العظمى وفي الموانئ الكبرى وفي جميع جزر البحار الحسنة الموقع الجغرافي مما يسهل على الطالب تعيينه من الخريطة .

(البرق غير السلكي)

نطيل الكلام في هذا وحده لأن له الآن المكان الأول في جميع أرجاء العالم الراقي في قضاء الشؤون التجارية وفضله على البرق السلكي برا كان أو بحريا واضح جلي لأن الثاني معدود الخطوط محدود الجهات بواسطة الأسلاك . أما الأول فتعم إشارته الأرض قاصيها ودانيها على حسب قوة الدفعة الكهربائية التي تبعث بها من أعلى الفضاء هذا فضلا عن إغاثة السفن في عرض البحار إذا ما حلت بها الأخطار فتداركها السفن الأخرى المجاورة لها وتنتشلها - من ورطتها وفي ذلك من تأمين الأنفس والتجارة ما يرجع بالفائدة العظمى إلى هذا النوع من البرق ولهذا نراه قد شاع ذكره واستعماله حتى لم تخل منه طريق تجارية ولا بلد رئيسية ولا السفن البخارية وبعض الشراعية فقد أصبح لها أثاثا وعدة من ألزم العدد وإذ قد عم استعماله الآفاق رأينا عدم الحاجة إلى سرد أشهر الموانئ والمدن التي تستخدمه فقد لايخلو منه الآن موقع ذو شأن في التجارة الدولية والسياسة الخارجية وإذا كان ينقص جهة فهي عاملة حتما على إنشائه فيها في القريب العاجل .

ويحصر عدد البروق غير السلكية أشهرها في الاسكندرية وأبي زعبل وهي قرية من أعمال القليوبية وأنشأت وزارة المواصلات حديثا محط « البرق غير السلكي في الاسكندرية » تسهيلا للمخابرات التجارية بين هذا البلد والخارج لا سيما بين السفن المسافرة في البحر والثغر الاسكندري فأقامت ساريتي البرق المذكور على شاطئ البحر في رأس التين وجعلت ارتفاع السارية ١٣٠ قدما فأصبح للمحط من القوة الأثيرية مايحمل الأنباء منه وإليه مسافة ستمائة ميل بحيث يستطيع أن يلتقط الأنباء من البواخر السابحة في البحر الأبيض المتوسط كله ومن ثغور هذا البحر وما حواليها من الأماكن ولا شك في أن الدوائر التجارية في الاسكندرية وبقية مدن القطر الكبرى لتغتبط بهذا العمل النافع .

وجهاز « البرق في أبي زعبل » تابع للحكومة الانجليزية رأسا وهو من أكبر عدد العالم التي من نوعه وهو عبارة عن : (١) آلة ميكانيكية ضخمة تولد الكهرباء تسمى المولد « الدينامو » تتولد فيها الحرارة الشديدة بواسطة (٢) آلة بخارية في بناء آخر كبير مجاور للأول وعلى مسافة بعيدة منهما (٣) أعمدة عدة يبلغ عددها نحو خمسين عامودا مقامة على أرض مرتفعة جدا وقد يبلغ طول الواحد منها نحو عشرين ومائة متر ويربط في أعلى كل عامود بطريقة فنية أسلاك تمد على جوانبه حتى تصل إلى نهايته ثم تسير تحت الأرض حتى تتصل بالمولد وهناك حجرة للبرق المنطوط به العمل ولديه آلة ذات مفتاح متصل بالمولد فإذا ضرب على

المفتاح انفتح فم المولد وقذف موجة كهربائية ذات صوت شديد قاصف فتسيل هذه وما يتلوها من الموجات الأخرى مارة بالأسلاك القائمة على الأعمدة قاصدة أعاليها حتى تخرج من أطرافها إلى الفضاء الواسع فتنتشر فى جو السماء بسرعة عظيمة تحاكى البرق الطبيعى وأمثال هذه الأسلاك موضوعة فى فرنسا على برج إيفل وفى البواخر على رءوس السوارى . والموجات الكهربائية التى يقذفها المولد من شاهق تنتشر فى الجو كما سبق وصفه وتدور حول الأرض مارة فوق الجبال والبحار من غير أن يعترضها شىء وقد يبلغ ماتقطعه الموجة الواحدة فى الجو ثلثمائة ألف كيلو متر فى الثانية أو أكثر من ذلك .

والمصطلح عليه فى إشارات البرق أن حرف الألف مثلا يساوى نقطة وشرطة والباء شرطة وثلاث نقط والتاء شرطة واحدة وهكذا . والفرق بين الشرطة والنقطة أن الأولى يرسلها المبرق على المفتاح بقوة تساوى ضعف القوة التى يرسل بها الثانية وعلى هذا القياس يرسل موجاته متتابعة فى الجو فتتقبلها كافة الأسلاك المهيأة على المرتفعات الشاهقة فى الممالك الأخرى سواء فى ذلك البر والبحر ثم يتلقاها المبرقون بواسطة «سماعة» أشبه شىء بسماعة المسرة «التليفون» فيدونون الكلام بواسطة سماعهم الموجات تطن طويلا أو قصيرا (شرطة أو نقطة) كما هو مألوف فى البرق العادى .

والموجات الكهربائية تشبه فى انتشارها الموجات الصوتية فعلى قدر قوة الباعث تكون قوة الموجة وترددها فى الهواء وإذن تختلف قوى البرق غير السلكى باختلاف حجم المولد وعدد الأعمدة فعدة الإسكندرية مثلا لها مولد أصغر من مولد أبى زعبل وليس بها إلا عمودان اثنان على حين إن للأخرى خمسين عمودا ومن ذلك يكون نطاق المراسلات بواسطة الأول ضيقا بينما يتراسل الثانى مع جميع أطراف الأرض وتتكلف الأعمدة نفقات عظيمة فقد بلغ ما أنفق على الواحد منها مليون جنيه .

ويستطيع المبرق عند وضع السماعة على أذنه أن يأخذ أى الاشارات التى تتبادلها الممالك الأخرى بعضها مع بعض ولديه طريقة فنية لتمييز الموجات ومعرفة ما يخصه منها ومالا يخصه فالبرق غير السلكى والحالة هذه لا يؤتمن على سر إلا ما كان مرسلا بالأرقام السرية .

ولقد تصل أحيانا مع الموجات الكهربائية أصوات الزوابع والرياح من كندا أو روسيا أو جبال فرنسا أو أى جهة كانت فيشعر بها المبرق ويسمعها كما هى وقد تضعف هذه الرياح أصوات الموجات على أن اختلاطها بها لا يمنع فهم إشاراتها على الاطلاق ولكل محطة برقية علامة خاصة لمناداتها بها فعند ماتتصل الموجات الكهربائية بين بلدين يمكن للمبرقين مبادلة الكلام بواسطة تلك العلامات .

وفى ساعات معينة من الليل يستعد عمال جميع البروق غير السلكية لتلقى إشارات « روتر وهافاس » دون الاشارات الأخرى ولا يستطيع العامل بأبى زعبل مثلا أن يراجع لندن فى كلمة فاتته ولهذا السبب يوجد دائما فى مثل هذه الأحوال عاملان لتلقى الاشارة الواحدة حتى إذا ترك أحدهما كلمة تداركها الثانى .

هذا ولا يزال البرق غير السلكى آخذا فى التقدم من الدقة والإتقان بما سيضاعف نفعه وفوائده انتهى ما أردنة من كتاب الجغرافية التجارية الاقتصادية .

***

أيها المسلمون : ها نحن أولاء خلقنا فى الأرض يحيط بنا الهواء فاستعملناه فى الحروف الهجائية وذلك بالفطرة ولكن العلم الآن أرانا الأثير فاستعملناه بحروف واصطلاحات وكلم الشرق الغرب وأصبح الصينى يكلم المصرى والألمانى به . أليس بهذا وأمثاله نبتغى من فضل الله وهذا هو سر التعبير بالفضل فى هذا المقام ولما كانت هذه النعم قبولها واستعمالها شكر وتركها كفر بالنعمة أعقبه بذكر .

﴿ الجوهرة الثالثة ﴾

وهى ـ لعلكم تشكرون ـ فياليت شعرى كيف يكون شكر هذه النعم ، نعم الماء المسهل للنقل ونعم الهواء المسير للسفن ، ونعم البخار كذلك ونعم الكهرباء ونعم الأثير الذى يربط الناس بعضهم ببعض ويكون التواصل والتخاطب ، لا شكر لهذه النعم إلا بتعلمها أولا ثم العمل بها ثانيا .

فلا شكر للنعمة إلا بعد العلم بها ومن علم عمل وهناك يحس فى نفسه بحب وغرام بمبدع تلك النعم فيفرح بها وينطلق اللسان بالحمد والأركان للعمل فينتفع الناس كما يفرح بنعم ربه ، فهناك (نتيجتان اثنتان) حب الله بفهم هذه النعم ونفع عباده باظهارها . وهل الشكر غير هذا ؟ إن قراء هذا التفسير هم الشاكرون والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس أول مايو سنة ١٩٣٠ .

تذكرة من عجائب البحر

إن من أجمل ما سطرته الدهور . وأبدع ما أظهرته العلوم . مسألة الحياة فى أعماق البحار التى ذكرناها هنا .

لقد كان العلماء فى النصف الأول من القرن التاسع عشر يحكمون حكما لاريب فيه ولا جدال . أنه لاأثر للأحياء تحت عمق أربعمائة متر فى البحار الملحة مستدلين بأن الضوء لا يصل إلى هذا العمق . وإلى أن الضغط على أجسام المخلوقات هناك يكون عشرات أضعاف الضغط الجوى . وأن الحياة هناك مستحيلة قطعا تحت ذلك الضغط . فصار من البديهى ألا وجود لأحياء فى ذلك العمق . وهذا البرهان ظاهر واضح حق من كل الوجوه . ولكن ظهر خطأ هذا البرهان لما ظهرت الأبحاث البحرية بعد ذلك وتكاثرت وصادوا حيوانات على أبعاد مختلفات بآلات صيد خاصة تدل على العمق الذى أخذ منه ذلك الصيد من سمك وقشريات ونجميات من عمق سبعة آلاف متر أو أكثر كما تقدم هنا : ووجد العلماء الضغط الواقع على أجسام تلك الحيوانات (٧٠٠) سبعمائة ضغط جوى . لأن ذلك الضغط يساوى نحو عشرة أمتار من الماء فوق الأرض كما هو معروف فى العلوم الطبيعية . وفوق ذلك وجدوا هذه الحيوانات محمية بدرع صلبة تجعل أعضاءها الداخلية فى مأمن من العطب : بل إن أغلب هذه الحيوانات طرية الملمس . شأنها شأن نظائرها فى المياه السطحية . وعقول العلماء حائرة أمام هذه الحقائق الظاهرة . وما هذا الذى اختفى فى هذه الحيوانات حتى تحملت ذلك الضغط العظيم .

هذا ، وإذا حولنا النظر عن الحيوان فى البحث إلى نفس الماء . هو مسكن الحيوان رأينا أمرا عجبا . رأينا فى السنتيمتر المكعب من الماء يحتوى على (٣٠) ألف مليون مليون مليون جزء وأن متوسط سرعة الجزء الواحد نحو ٣٠ كيلو مترا فى الدقيقة الواحدة أو نصف كيلو متر فى الثانية الواحدة . وأن وزن ذلك الجزىء لا يتعدى ثلاثة أجزاء من مائة ألف مليون مليون مليون جزء من الجرام ولكن هذا الجزىء الواحد مركب من ذرتين من ذرات الأدروجين وذرة من ذرات الأكسوجين والحركة المستمرة المشار إليها اللازمة للذرات هنا أشبه بحركات جماعات النحل تصطدم الواحدة بالأخرى اصطداما دائما : وعلى مقدار ذلك الاضطراب تكون درجة الحرارة زيادة ونقصا وبسبب هذه الحركات المستمرة والاصطدام يكون الضغط من الماء على الإناء الذى هو فيه أو المكان من البحر الذى هو فيه . والفضل فى معرفة ذلك يرجع إلى (كلارك مكسول) العالم الإسكتلندى من علماء القرن الماضى . ولكن كيف تركب الأكسوجين المذكور

مع الأودرجين مثلا فى الماء وكيف تكونت العناصر الأخرى مع بعضها فى جزئيات الأجسام الأخرى . هذا أمر عجز عنه العلماء فى كل عصر من العصور .

ثم إن هذه الجزئيات المائية أى التى يتركب منها الماء ونظائرها مما يتركب منه كل موجود فى العالم المادى ليست هى أصغر ماعرفه الناس اليوم بل كل جزىء منها مركب من شىء أصغرمنه جدا بمقدار (١٨٥٠) مرة وهذا الشىء يسمونه (ألكترونا) وما هذا الألكترون الإشعاع الضوئى وهذا الشاع النورى الدقيق تتركب منه كل ذرة والذرات تتركب منها المخلوقات .

إذن ماء البحر وحيوانه وكل مادة تراها مركبات كلها من موادنورية. اختلفت مظاهرها باختلاف حركاتها وهل هذا إلا قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » أى منورهما . إذن لا ظلام فالعالم كله نور وماء البحر نور . الارض نور . الجماد نور . الجبال نور ولكن اختلفت المظاهر باختلاف الحركات وتنوعها وإن شئت المزيد . فارجع إلى آية «الله نور السموات والأرض» وادرس قطرة الماء هناك وافرح بنعمة العلم لتعلم أن العالم كله نور لا غير ولكن خفى علينا أمره فى هذه الحياة لنتعلم ولا سبيل لتعليمنا بغير ذلك . ومن علم قدم صدق فى هذا الموضوع (مدام كورى) وزوجها (المسيو كورى) المكتشفان عنصر الراديو الذى هو أنشط العناصر كلها شعاعا وقد وجد له ثلاثة أنواع من الشعاع . فمنها أشعة إيجابية ومنها أشعة سلبية . ومنها أشعة قصيرات الموجات جدا والأشعة السلبية هى التى قدر وزنها بما تقدم وهى داخلة فى تركيب جميع الذرات الله أكبر عجبا أصبحنا نعجب من حيوان تحت ضغط ماء يفوق سبعمائة ضعف الهواء الجو الضاغط علينا ونعجب أكثر وأكثر من ضوء صغير جدا دقيق تتركب منه ذرات وباتحاده تكون هذه المواد . إن حياتنا عبارة عن مسرح نشاهد فيها الأعاجيب فمن ضوء يتنوع حوتا وذئبا وحجرا وشجرا وماء ومن حيوان صغير طرى اللحم يتحمل ضغطا قويا لانقدر نحن على تحمله ولا الفيل ولا الجمل تبارك الله رب العالمين . هذه بعض عجائب البحار وربك يخلق مايشاء ويختار . فهل يعجبكم هذا أيها المسلمون أن تناموا وتقوم امرأة وزوجها (كالمدام كورى والمسيو كورى) فيبحثان عن الأشعة وعن الذرات وعن الأضواء ونحن وأبناؤنا ونساؤنا عالة عليهم اللهم ربنا إنك أنت ربنا وربهم فأنعم علينا بنور العلم واشرح صدورنا وألهم الأمم الإسلامية عشق العلم إنك أنت السميع العليم اه صباح يوم الخميس ٨ مايو سنة ١٩٣٠ .

وإذا فرغنا من الكلام على آية « وما يستوى البحران » الخ فلنفض القول فى آية « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء » الخ فنقول :

(لطيفة : فى قوله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء » الخ)

لقد جاء فى (سورة الكهف) عند قوله تعالى « إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » الخ ماجاء فى كتاب علوم للجميع باللغة الانجليزية مترجما أن هناك علما حديثا يسمى (علم الألوان) وهذا العلم يقول المؤلف إن علماء أهل الأرض الآن أطفال فيه ولكن الذى عرفوه منه فلا يستبين منه الناس أن الألوان موضوعة فى هذه الأرض لمقاصد صادقة وليس اتفاقا ولا مصادفة وذكرت لك هناك ما أوردوه فى هذا المقام من الألوان المختلفة البديعة مرسومة مشروحة مبينة أسبابها وأن ضوء الشمس هو الذى رسمها وخططها وكلما كان الحيوان أكثر تعرضا للشمس كان أقرب إلى السواد وكلما ابتعدت أجزاؤه عن ضوئها واختبأت كانت ملونة بلون من الألوان الأخرى كالحمرة والصفرة . وترى هناك أيضا أن هذه الأحوال العارضة التى ظهرت فى أمثال (أبى دقيق الطاووسى) وفى (حمار الحبشة) المرسومين هناك قد حيرت العلماء إذا وجدوا أن البياض فى ظهر حمار الحبشة الصاب للسواد فى ظهره وفى جوانبه يحتاج إلى علة غير علة إلحاح الشمس على ظهر الحمار لأنها توجب السواد التام ، أما البياض فهو أمر آخر لايتفق مع إلحاح

الشمس عليه وهكذا تلك الألوان البهجة الزاهية فى أبى دقيق الطاووسى المزينة ازانا تاما ، الهندسية الشكل البديعة النظام فإنها جاءت بسبب مواد ألصقت بأجنحة تلك الحشرة ووضعت بنظام مدهش وهذه على (قسمين) قسم جاء اللون فيه حادثا من انحباس الهواء فى أوعية خاصة منتظمة فعكس ضوء الشمس عن ذلك الهواء المنحبس وقسم آخر جاء اللون فيه عن انعكاس الأشعة الضوئية عن ذرات منتظمات رتبت ووضعت فى صفوف منظمات فظهر بها اللون بهجا جميلا . انظره هناك .

ثم ارجع معى هنا وقل معى : سبحانك اللهم وبحمدك . أريتنا الجمال ذلك لأنك جميل . وضعت لنا قاعدة يا ربنا وقلت لنا فيها كلما كانت الشمس أكثر إلحاحا على الجسم كان أقرب إلى السواد وكلما كانت أقل الحاحا عليه كان أبعد عن السواد وتحلى بلون من الألوان السبعة ثم اننا رأيناك لونت الثلج بالبياض لبرودته ولونت عروق الشجر الضاربة فى الأرض بلون البياض : لماذا ، لأنها لم تلاق حرارة الشمس ولم تر الألوان إلا فيما برز للشمس من أجزاء النبات . فها نحن أولاء رأيناك يا الله أخذت تتفنن وتبدع الإبداع كله وتضع ذات على أجنحة الحشرات وتلصقها وتهندسها وتظهرها للشمس فيبهرنا لونها ونجد أفانين وأفانين من الجمال . ولو انك أبقيت حال هذه الحشرة مثلا بلا ابتداع مثل هذا لم نر هذه الأفانين والصور الجميلة . والحق يقال ان العالم الذى خلقتنا فيه كله جمال ، ورأيناك لم تقتصر على ذرات تلصقها بالأجنحة بل أبدعت فى الأجنحة إبداعا آخر وحبست الهواء فيها وعرضتها للشمس فأخذت أمواج الهواء تلق أشعتها على أعيننا داخلة فى قرنيتها متخللة بلورتها (بتشديد اللام) أى عدستها مرسومة على شبكيتها جارية فى أعصابنا إلى مخنا . فهناك يظهر لنا الجمال والكمال والبهاء .

سبحانك اللهم : أبدعت ورقشت وزينت ، ولما كان ابداعك فى الصور واتقانك لهندستها يراهما الجاهل فلا يأبه لهما (وذلك لأن الإنسان لا يأبه ولا يهتم ولا يعجب ولا يطرب ولا يفرح لما ألفه وعرفه من إبان صغره وعيان شبابه إذ يطلع على هذه الأشياء وهو طفل ثم يشيب ويكون فتى وكهلا فشيخا فهرما وهو فى ذلك كله لا يرى فى هذا الجمال إلا أنه أمر عادى لا يستحق التفكير) .

ألهمت طوائف من كل أمة من الأمم قديما وحديثا أن يصبغوا ويزينوا وينقشوا ويأتوا بأفانين الصور وأحاسن الأشكال وبدائع الجمال وروائع الزينة ومباهج الأصباغ . وأقدم هذه الطوائف التى عثرنا عليها قدماء المصريين الذين زينوا مبانيهم بنقوش غريبة وصور بديعة حار فيها الناظرون وتحير فى أمرها النقاشون والمهندسون ، وانما ألهمت الأولين والآخرين ذلك لتفتح العقول لهذا الجمال والابداع الذى نسوه بإلافهم وجهلوه بتكرار مشاهدته وسقوط اعتباره من القلوب ، فهنالك هنالك الحكمة . استبان للناس الجمال والبهاء والحكمة . والحكمة لا تعطى إلا للمفكرين . والمفكرون لا يعرفون الجمال والحكمة إلا بالتحليل ومعرفة المقادير والأجزاء الداخلة فى تركيب الأجسام والأصباغ .

مالناس سوى قوم عرفوا وسواهم همج الهمج

فلأبين الآن لأذكياء الأمم كيف كانت الأصباغ عند قدماء المصريين فأقول :

أصباغ النقوش المصرية

قال الشاعر المصرى شوقى بك :

غاب من حولها الزمان وشابت	وشباب الفنون مازال غضا
رب نقش كأنما نفض الصا	نع منه اليدين بالأمس نفضا
ودهان كلا مع الزيت مرت	أعصر بالسراج والزيت وضا

يقول علماء عصرنا ان قدماء المصريين تفننوا تفننا أدهشهم ؛ فها هى ذه هيا كلهم العجيبة ومبانيهم الفاخرة وأصباغهم التى مرت عليها العصور والدهور وهى هى كأنما نفض الصانع عندها يده الآن .

فلننظر نظرة فيما كشفه القوم الآن لما حللوا تلك الأصباغ ومتى عرفنا بعض ذلك معرفة تامة رجعنا إلى صنع الله تعالى فعرفنا تلك العظمة وسعدنا بالجمال الذى ندركه ونفرح به فى هذا الوجود ، هنالك يشوقنا جمال هذا العالم ونحس بالمسرة والبهاء .

لقد كان قدماء المصريين يمزجون الصبغ الأحمر بالأصفر فيكون منهما صبغ برتقال اللون وهذا اللون عثروا عليه فى مدفن (نفرمت) الذى كان من رجال بلاط الملك (سنفرو) أحد ملوك الدولة الرابعة التى كانت تحكم مصر منذ ستة آلاف سنة وذلك قبل (خوفو) الذى بنى الهرم الأكبر من أهرام الجيزة .

وهذه النقوش عميقة على هذا القبر وقد ملئت بهذا الطلاء ، وكان عندهم طلاء آخر أشد صفرة وأبهى وأجمل لونا ، وطلاء آخر أخضر خضرة طبيعية وهو من الحجر الملكى الأخضر ، وطلاء أزرق من الحجر الملكى الأزرق وكلاهما من مركبات النحاس ، وههنا آن أن أذكر لك طلاءهم الازرق الذى كان كثير الشيوع عندهم فهو كان صناعيا لاطبيعيا ، وكانوا يصنعونه قبل المسيح بالفين وخمسمائة سنة ، وماهو ذا ؟ هو نوع من الزجاج . وكيف صنعوه من الرمل والجير والكلس والقلى ومعدن النحاس . حرقت هذه معا فكان منها زجاج أزرق . وقد حللوا قطعة منها تحليلا كباويا فوجد فيها جزآن فى المائة من (أكسيد النحاس) وثمانية وثمانون جزءا من السليكا وجزء من الصودا وثمانية أجزاء من الجير وقليل من أكسيد الحديد ، وإذا كان حجر النحاس من جزئين إلى خمسة فى المائة كان الطلاء أزرق صافيا ، وإذا كان حجر النحاس من (٢٥) جزأ إلى (٣٠) كان لون الطلاء أزرق قاتما أو بنفسجيا ، وإذا كان أكثر صار لونه أسود وإذا قل القلى كثيرا فالحاصل مادة رمليه لاقوام لها ، وإذا كثر كثيرا فالحاصل جسم صلب لايمكن منه الطلاء المطلوب .

ولقد جاء فى (المقتطف) فى يولية سنة ١٩٢١ م مانصه : « ولذلك كان عليهم أن يزنوا العناصر كلها ويحلوا مقاديرها تماما ومن ثم استعمل الميزان فى الأعمال الكيماوية » وأنا الآن أكتفى بهذا المثال فإن المدار على فهم مانكتب لاعلى كثرة المعلومات .

هاهم أولاء قدماء المصريين منذ خمسة آلاف سنة نظروا فى الأحجار فاستعملوها ولونوا بها مصنوعاتهم ثم إنهم ألهموا أن يقلدوا ماوجدوه فى الطبيعة وهذا التقليد لايكون سهلا بل مرت عليهم قرون ودهور وهم يجربون فاهتدوا إلى البرتقالى بمزج الأحمر بالأصفر ووزنوا النحاس والسلكا وهو الرمل والصودا والجير وأكسيد الحديد فكان منها زجاج أزرق ، فياعجبا بالله نحاس وحديد ورمل وجير وصودا بامتزاجها يكون اللون الأزرق ولكن بمقادير محددة ولكن النحاس هو المقياس فإن قل كانت الزرقة وإن كثر كانت البنفسجية أشد منها ثم يصير أسود .

هذا المثال يرينا (أمرين ، الأول) إن هذه الأصباغ التى نراها فى النبات والحيوان مخلوقة فى الطبيعة أمامنا مرجعها مزيج موزون بموازين لواختلت لاختلت الألوان ولذهب الجمال « والسماء رفعها ووضع الميزان »

ياعجبا هذا هو الميزان . هذا هو ميزان علماء الكيمياء الذى وزنوا به الحديد والنحاس والرمل والجير والصودا الخ حتى حصلوا على زجاج أزرق . ياسبحان الله . إذن الله وزن هذه المواد وأمثالها حتى أبدع لنا أزهار الورد والقطن وأزهار أشجار الفواكه والرياحين ، حيث هذه البساتين والرياض الناضرات التى نراها ذات بهجة تسر الناظرين قد وزنت المقادير الداخلة فى تركيب هيآتها حتى ازينت للناظرين . إذن الزينة

بالوزن

بالوزن ، إذن الله وضع الميزان فى كل مكان ، وضعه فى كل شجر وحجر وجبل ، وفى كل شمس وقمر ، إذن ميزان الله ملأ السموات والأرض . إذن فهمنا قوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » وقوله « قائما بالقسط » حال من الله فهو واحد قائم بالعدل . فهذا هو العدل وهو الوزن الحق والوزن الحق هو الذى به ظهرت هذه الألوان وبهرت وسرت الناظرين : لوأن اللون البنفسجى فى البنفسج الطبيعى زادت مادته النحاسية عن (٣٠) فى المائة لم يكن بنفسجيا بل كان أسود ولوكان أقل كثيرا لكان أزرق صافيا .

هذا هو الوزن فى عمل الله ولم نعرف جماله إلا بدراسة الألوان . فبالدرس أدركنا معنى «ووضع الميزان» ومعنى القياس بالقسط ومعنى القول المشهور « أسست السموات والأرض على العدل » ولواختل الوزن فى عناصر هذه المواد لم تكن تلك الألوان واختل النظام وذهب الجمال الذى أبدع الله عيوننا لترسمه على شبكتها وتوصله إلى عقولنا لننظر إلى ذلك الجميل الذى زين الأرض والسماء للناظرين وقال « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » ثم هو ألهم عباده أن يقلدوه وهاهم أولاء قدماء المصريين قلدوه فى الصنعة وقلدوه جميع أهل الأرض فى زماننا ماعدا أكثر المسلمين ولما قلدوه وزنوا وزنه فهو قد وزن فى مصنوعاته وهم وزنوا فى مصنوعاتهم تبيانا لقوله تعالى « ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان » . يقول تعالى : وضعت الميزان ووزنت كل ملون وكل مكون وكل متحرك وكل ساكن لأجل أن لاتزيدوا فى ميزانكم ولاتنقصوا بل تعدلون وتزنون بالقسط فى مصنوعاتكم لئلا تختل وتقيموا العدل فى أعمالكم بميزان لئلا يختل نظام مدينتكم فالعدل فى وزن المصنوعات يجعلها جميلة والعدل فى القضايا ووزنها بالقسط وزنا علميا قانونيا يحفظ دولكم ومدنكم ويجعلكم فى الأرض سعداء ، ولاجرم أن الصناعات واجبة وجوبا كفائيا كما قدمناه فى أكثر مواضع هذا التفسير وأن التقصير فيها يورث الذلة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة فياحسرتا على أمم الإسلام . تلك الأمم التى أورثها الله أرض الأمم البائدة وقد دفن تحت أرجلهم صناعات قدماء المصريين والآشوريين والبابليين وأمم خلت من قبلهم فلما زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وظهرت كنوزها وتحدثت الأحجار دهش نوع الإنسان وقال . ماذا فى الأرض ؟ ولقد صدر الناس أشتاتا كل يسعى لعمل يجد فيه ، وقد جنت كل أمة وكل فرد ثمرات ماعملوا فى هذه الحياة الدنيا والآخرة على مقتضى الأعمال فى الحياة من خير ومن شر .

كل هذا والمسلمون لم يحركوا ساكنا وأكثرهم نائمون وعلماء أصول الفقه ينادونهم أن شكر النعم واجب ولا حمد إلا بعد معرفة النعمة ونعم الله ملأت السهل والوعر فمالكم تجهلونها ولاتعرفونها ، وتكفرونها ولا تشكرونها ولا شكر ولاحمد إلا بمزاولة النعم وتقبلها وفهمها فان نظرتم فوقكم رأيتم الطيارات محلقات من فوق رؤسكم وإن نظرتم تحتكم ألفيتم صناعات الأمم الذين من قبلكم ولم تبلغوا معشار عزهم وإن نظرتم فى الأمم التى معكم فى أرضكم هذه ألفيتموهم سبقوكم فى الصناعات أجيالا وأجيالا .

أما آن للمسلمين أن يتعلموا صناعات الأمم ويدرسوها «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » انتهى صباح يوم الأحد ٢٠ يناير سنة ١٩٢٩

﴿ جوهرتان : فى آية «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء » الخ ﴾

(الجوهرة الأولى) فى صور الأصباغ والزينة والجمال فى المصنوعات الإلهية تفسير للآية .

(الجوهرة الثانية) فيما جاء فى علم الألوان حديثا ونحوه .

﴿ الجوهرة الأولى: فى صور الأصباغ والزينة والجمال فى المصنوعات ﴾

وذلك إما فى النبات . وإما فى الحيوان . أما الذى فى النبات فاقرأه فى سور كثيرة أقربها ماجاء فى سورة السجده من صور النباتات العجيبة: وأزيد الآن ماجاء فى المجلات المشهورة (كالمصور) و (الجديد) و (كل شىء) وهكذا وهاك نص ماجاء فيها :

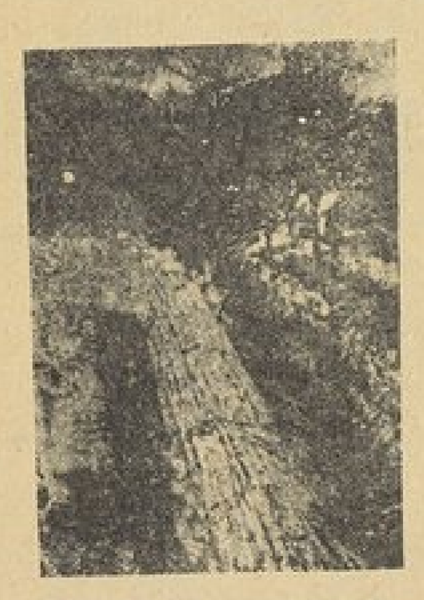
أشجار غريبة

يرى القارىء فى الأشكال الاربعة الآتية (شكل ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٦) مجموعة من الصور عن أشجار العجيبة وهى وإن كانت أقل بكثير مما تصوره رواة القصص الخيالية فهى على كل حال غير مألوفة لدى القارىء المتواضع الذى لايجمح به الخيال إلى مثل ذلك (انظر شكل ٢٣) .



(شكل ٢٣ ـ رسم شجرة ذات جدائل)

شجرة جديدة من نوع (بوشوا) اليابانى فى جنوب كاليفورنيا فروعها عديدة ملتفة كأنها الجدائل المضفرة) .



(شكل ٢٤ ـ شجرة عجيبة فى (حديقة سونوما) بشمال كاليفورنيا وهى من أضخم الأشجار فى العالم وأكبرها حجما . يبلغ طولها عشرين مترا ، وقد أحيطت بسياج يحتشد خلفه السائحون لمشاهدة هذه الشجرة الهائلة)

(شكل ٢٥)



(شكل ٢٥ ـ ناطحة السحاب رسم شجرة هائلة من ناطحات السحاب (إذا جاز لنا أن نستعير هذا الوصف للأشجار) فى بريمن بألمانيا ويزيد ارتفاعها عن ٢٥ مترا وعمرها تسعون سنة)



(شكل ٢٦ ـ شجرة الفيل)
(رسم شجرة عجيبة فى الحديقة الوطنية فى دنفر بالولايات المتحدة وكأنها رأس فيل رفع خرطومه)

الجوهرة الثانية فيما جاء فى علم الحيوان حديثا

وأما الذى فى علم الحيوان فقد ملىء به هذا التفسير ، وأزيد الآن عليه (أولا) صورا بهجة فى حيوانات تطير من ذوات الأربع . وثانيا صورا لأنواع ريش الطيور غريبة بديعة . وثالثا صورا لأنواع عجيبة من حيوان البحار . ورابعا عجائب العلاقة الزوجية بين الطيور .

أولا : (الحيوانات التى تطير من ذوات الأربع)

يوجد الآن فى الكرة الأرضية أكثر من نصف مليون نوع من الحيوانات المختلفة ولكل حيوان منها طريقته الخاصة فى إيجاد ما يأكله والفرار من عدوه حتى لا يفترسه ويوجد مصدر للغذاء فى العالم لم تطرقه الحيوانات . ولا وسيلة للحصول عليه لم تجربها . وكذلك لم تدع الحيوانات أية طريقة من طرق الخداع للافتراس أو النجاة بالحياة وكلها فى نضال مستمر وعداء لا نهاية له . يأكل كبيرها الصغير وقويها الضعيف ومحتالها الساذج . فهى من أجل القوت فى حرب عوان وخدع دائمة . فالحيوان الواحد فى وقت واحد طالب ومطلوب . فاذا كان يجيد الهجوم على فريسته فلابد له من أن يجيد طرق الفرار من أعدائه الكثيرة .

ومن وسائل النجاة التى منحها الله لبعض أنوع الحيوان الطيران فى الهواء فيستطيع الحيوان الذى يطير أن يتخلص من عدوه الذى لا يستطيع الطيران . وتنقسم الحيوانات التى تطير على وجه العموم إلى (قسمين : أولهما) الحيوانات التى تطير بخفقان الأجنحة إلى أعلى وأسفل بقوة عضلية ميكانيكية مثل الحشرات والطيور والوطاويط (وثانيهما) الحيوانات التى يكون طيرانها مثل قفزات كبيرة تختلف فى الطول حسب القوة الدافعة وحسب حجم أجنحتها الغشائية أو الجلدية مثل أنواع السمك الطيار والسحالى الطائرة والسنجاب الطائر .

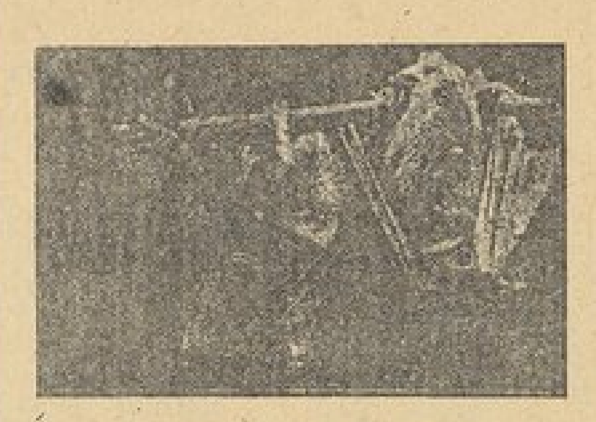
يريد علماء التاريخ الطبيعي إذا قالوا الحيوانات الفقرية ذوات الأربع الحيوانات التي لها سلسلة فقرية سوى الأسماك وتسير على أربعة أعضاء بمثابة اليدين والرجلين في الإنسان ويكون كل اثنين منها متشابهين تماما في التركيب والشكل . وتعرف هذه الحيوانات بأنها أرضية أي إنها تنتقل على وجه الأرض بتحرك هذه الأعضاء الأربع وقد صار بعض هذه الحيوانات بحريا مثل الحيوانات البحرية الزاحفة والحيتان وانقرضت أعضاؤها وصارت زعانف طويلة تستعمل للتجديف في الماء . واستطاع جانب من الحيوانات ذوات الأربع أن ينال قوة الطيران في الهواء مثل الطيور والوطاويط فتغيرت فيها الأعضاء الأمامية وصارت أجنحة تخفق بها في الهواء . وإنه لمن المفيد أن نقارن بين عظام جناح الطائر وجناح الوطواط وزعنفة الحوت وذراع الإنسان لنرى تقارب الشبه في تركيبها وكيف تحولت عن أشكالها الأصلية لتقوم بالوظائف التي تؤديها في الحياة حسب عاداتها المختلفة . ففي المنطقة الحارة في آسيا نحو عشرين نوعا من السحالي الطائرة . ونرى في السحلية منها على جانبي الجسم غشاء رقيق يتصل بالأضلاع يطوى ويفتح مثل الشمسية . وإن من يتأمل حياة هذه السحالي يجد أن هذا التركيب الغريب نشأ عندها من النظام المعتاد في حياتها . فإن هذه الحيوانات تعيش في الأشجار وتسير بكل سرعة فوق الفروع باحثة عما تقتات به من الحشرات وتكون أجنحتها في أثناء ذلك مطوية . فاذا أرادت السحلية الانتقال من فرع إلى فرع أو من شجرة إلى شجرة نشرت جناحيها الطويلين ووثبت في الهواء دون أن تخشى السقوط . وأما الحيوانات الثديية التي تطير أو تقفز في الهواء فللواحد منها قطعتان كبيرتان من الجلد على جانبي الجسم تعرفان بالجناحين الغشائين أو بأسفل الصدر كما في بعض أنواع الفالنجر وهو حيوان من نوع (الكانجارو) وأصغر نوع منه الفأر . ويمكن الفالنجر أن يعيش على الدوام فوق الأشجار بدون أن يضطر إلى النزول إلى الأرض فيثبت في الهواء ناشرا غشاءه لينتقل من غصن إلى غصن ومن شجرة إلى أخرى ، وهناك أنواع كبيرة من الفالنجر تشبه السنجاب ويستطيع الواحد منها أن يعرق بغشائه في الهواء مجتازا فوق نهر عرضه ٤٠ ياردة .

وأما السنجاب الطائر فليس من أنواع الفالنجر ولكنه من فصيلة الحيوانات القارضة وهو يعيش كذلك فوق الأشجار ويعرق في الهواء بغشائه الجلدي نحو خمسين ياردة ، وفي الهند نوع من السنجاب الطائر يعرق في الهواء ثمانين ياردة . وفي بلاد الملايو حيوان اسمه (الكوبجو) وهو لا يتصل بأي نوع من أنواع الحيوانات : ويرى بعض العلماء أنه يقرب من فصيلة الوطاويط ، ويقرب حجمه من حجم القط ولكن أرجله صغيرة دقيقة وينتهي بمخالب معقوفة ، وغشاؤه الجلدي يعرق به في الهواء يغطي جميع جسمه ويتدلى من جميع نواحيه وهو يعيش كالأنواع السابقة في الأشجار ويمكنه أن يعرق في الهواء مسافة قدرها سبعون ياردة ، وفي جزائر الفيلبين نوع صغير من هذا الحيوان ويعرف القراء كيف تطير الوطاويط بأجنحتها الجلدية الخالية من الريش ، وان من يتأمل جناح الوطواط يجده مكونا من غشاء رقيق يتصل بالساق وتتخلله عظام هي أصابع العضو الأمامي . ويوجد أنواع كبيرة من الوطاويط تعرف بوطاويط الفواكه . ويبلغ طول أجنحة بعضها خمسة أقدام وتسمى وطاويط الفواكه في الهند والملايو واستراليا بالثعالب الطائرة لأن لها آذانا صغيرة ووجوها كوجوه الثعالب . وهي تنام انتهى (انظر شكل ٢٧ و ٢٨ و ٢٩) . في الصحيفة التالية

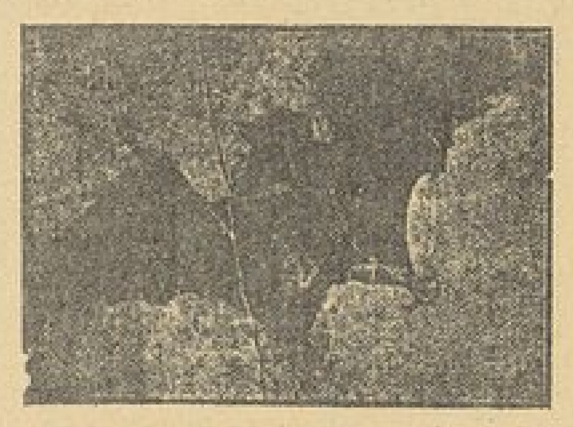
(شكل



(شكل ٢٧)



(شكل ٢٨ ـ الوطاويط أثناء نومها وهى تحمل صغارها)



(شكل ٢٩ ـ وطواط طول جناحيه خمسة أقدام ويسمى بالثعلب الطائر)

ثانيا : (ريش الطيور البديع)

جاء فى مجلة كل شىء مانصه :

بعض الطيور زاهى اللون متناسق الريش تتماوج الالوان وتترقرق الأصباغ المختلفة عليه حتى لقد فتن الانسان بجمالها وصار يصيد الطير لكى يحصل على ريشه ويتزين به . والأوروبيات مولعات بريش الطيور يضعنه فى قبعاتهن حتى صار جلب الريش تجارة واسعة النطاق يشتغل فيها الصيادون من مختلف البلدان ، وكان أكبر ضحايا هذا الصيد أنواع (أبى قردان) المختلفة فقد كاد الصيادون لإلحاحهم على صيدها يبيدونها لولا أن تدخلت الحكومات ووضعت الشرع المختلفة لحمايتها بعض الشىء .

وذكور الطير هى التى تتزين بالريش الباهر الزاهى ، أما الإناث فتبقى عادة فى سذاجتها وهذا ظاهر فى الدجاج فإن الديك يتزين دون الأنثى وهو وقت مغازلة الأنثى يزيف ويتطوس كانه يشعر بجمال ريشه أو كانه يدرك أو يتوهم أن الأنثى تعجب به وهذا هو الشأن فى معظم الطيور وخاصة تلك التى تقتات بالأثمار . أما جوارح الطير كالعقاب والصقر فلا يزهو لونها لأن زهوته تنم عليها فتدل فريستها فتحذرها . وقل مثل ذلك فى أناث الطيور جميعها فإنها ساذجة لازينة لها . لأنها لاحتياجها إلى الحضانة تخشى أن ترى وهى تحضن بيضها فيهجم

عليها خصمها ويقاتلها أو يأكل بيضها فمن مصلحتها ودواعى بقائها أن تختبىء لا أن تظهر . ولكن الذكر ليس فى حاجة إلى ذلك (انظر شكل ٣٠) .

(شكل ٣٠ – رسم ريش الطيور البديع)

الريش عند مختلف الطيور :

(١) العقاب (٢) الكاسوار

(٣) نوع آخر من الكاسوار

(٤) النعامة (٥) اللقلق الهندى

(٦) أبو قردان (٧) الطاووس

(٨) الطاووس أيضا (٩) و (١٠) و (١١) من ريش الديكة (١٢) الارغوس

(١٣) عصفور الجنة (١٤) طائر القيثارة

(١٥) الوموت (١٦) العصفور الطنان

(١٧) نوع من أبى قردان

(١٨) و (١٩) و (٢٠) و (٢١) ريش آخر من أبى قردان أيضا فى بلدان مختلفة

(٢٢) الابتريدفور (٢٣) اللانوكود

(٢٤) السكيفالوبتير .



(شكل ٣١)

ففى (١) قنديل يشبه المظلة ، وفى (٢) سمكة تسمى البالون لأنها وقت الغضب تنفخ نفسها فيكبر حجمها وفى (٣) سمكة تعد من أشرس الأسماك وأقدرها على القتال ، وفى (٤) و (٦) سمكتان تعيشان فى أعمق مكان فى البحر وفى كل منهما أعضاء منيرة . وفى (٥) سمكة تسمى الحروف ، وفى (٧) سمكة القنفد وفى (٨) و (٩) و (١٠) نباتات بحرية ، وفى (١٢) بيض سمكة تدعى الوليجة . وفى (١١) حيوان من الشائكة . وفى (١٣) سرطان . وفى (١٤) مرجان . وفى (١٥) نجمة البحر . وفى (١٦) و (١٧) و (١٨) حيوانات أخرى من الأنواع الدنيا .

ثالثا : (حيوانات قاع البحار)

فى قعر البحر أو المحيط حيث يبلغ ارتفاع الماء الذى فوقه نحو ميل أو أكثر تعيش أنواع من الحيوان عجيبة فان أجسامها مؤلفة بحيث تتحمل ضغط الماء الشديد لأنها تعيش وكأنها تحمل مدى حياتها عمودا من الماء ارتفاعه ميل : ولحمها لذلك لا نستطيع أكله لأنه جاس لا يمضغ ، ثم هى لأنها تعيش فى ظلام دامس كثيرا ما تستغنى عن عيونها ولها بدلا منها حساسات تشبه حساسات القط تلمس بها الأشياء فتعرف الفريسة وتميز العدو ، وأحيانا يكون لها ضوء يشع ، فاذا كان لها عينان رأته واهتدت به ، ويرى القارىء فى شكل ٣١ طائفة من هذه الحيوانات (انظر شكل ٣١) .

رابعا : (العلاقة الزوجية بين الطيور)

جاء فى مجلة مصر الحديثة ما يأتى :

ذكر الدكتور (ولفردود-جود) ناظر علم أنواع الحيوان (زوولوجى) أن الطائر الكبير الجميل المعروف باسم (النساف أبى القرن) يحفظ العلاقة الزوجية حفظا يمتاز به على أمثاله من الأطيار . وهذه العادة الجميلة معروضة للفرجة فى متحف التاريخ الطبيعى بواسطة الأوكار التى يعبأ هذا الطير بينائها ، يعيش هذا الطائر فى (جزر سومطره) و (بورنيو) وفى شبه جزيرة ملقا فى المحيط الهندى : ومتى اختار أنثاه ذهب بها إلى شجرة مجوفة واتخذها مقرا لأنثاه حيث تبيض وتنقف فراخها وتربيها هناك وللحال تشرع الأنثى فى بناء جدران المدخل فى جوف الشجرة بالطين وبمواد أخرى . يساعدها الذكر فى ذلك وهو يظل خارجا ويتردد إلى أنثاه من وقت إلى آخر . يحمل اليها ما تحتاج اليه من الغذاء . فتظل الأنثى سجينة الشجرة مدة البيض والحضانة وتربية الفراخ إلى أن تطير ولكن الذكر يحفظ عهد الأمانة لها فلا يتركها ولا يهملها بل يخدم حاجاتها . وهذه العادة الراسخة التى يتصف بها النساف تؤدى إلى سلامة الفراخ ووقايتها من السنجاب الذى هو أعظم خطر يتهددها ، ومن القرود التى تكثر فى غابات المناطق الحارة . وهكذا نرى فى الحيوان من الوفاء والحرص على ذويه مالا نراه فى كثير من بنى الانسان (انظر شكل ٣٢)



(شكل ٣٢ ــ ذكر النساف خارج باب العش ومنقار أنثاه ممتد من الداخل يتناول منه الطعام)

جمال العلم وبهجة الحكمة

رب إن الهدى هداك وآياتك نور تهدى بها من تشاء . ها هى ذه الآيات اللاتى أوجبت النظر فى الأبيض والأحمر والأسود واختلاف الأوصاف والأحوال . ولما اطلع على هذا ذلك العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير قال : هنا أمران جديران بالذكر . أمر نباتى وأمر حيوانى . أما الأمر النباتى فهو الذرة التى أمكن أن يستخرج القوم من عيدانه وورقه ورقا للكتابة . وأما الأمر الثانى فهو الجراد الذى عم البلاد المصرية فى هذه الأيام والسورية والحجازية والنجدية والسودانية وكلاهما داخل فى الآية لأن الآية تشمل الحيوان والنبات . فقلت له أما كون ورق الكتابة يستخرج من حطب الذرة فقد تقدم فى هذه السورة فى قوله تعالى « مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » فهذا من الرحمات التى أطلقها الله للناس فلم يمسكها أحد . فماذا تريد بعد ذلك ؟ قال : أنا أريد أن تميط اللثام عن ثمرات هذا الخبر للأمم الإسلامية بأن تجعله موضوعا اقتصاديا كما هو شأنك فى هذا التفسير إذ نراك تنتهز الفرص فى صغيرات الأمور وكبيراتها فتتخذ منها سلاحا لقتل الجهل وإحياء العلم . ولكنك لما كتبتها فيما تقدم رأيناك لم تعلق عليها شيئا ولم تحث المسلمين على اقتفاء آثار العاملين النافعين لأممهم . فقلت لقد أضرمت فى قلبى بهذا السؤال نار الحسرة وأثرت فى نفسى ثائرة الحزن والأسى على أمم مزقت كل ممزق كانت سراجا للعالم مضيئا وشمسا مشرقة فأقبل ليلها وأدبر نهارها وأصبحت فى حلك الظلام . ذكرتنى بما قاله العلامة (سديو) المؤرخ الفرنسى فى (صحيفة ٢٦٨) فى النسخة المترجمة وهذا نصه (وقد استعمل العرب بيت الإبرة من ابتداء القرن الحادى عشر فى سفر البحر والبر ومحاريب الصلاة وصنع الورق من الحرير سنة ٦٥٠ ميلادية فى سمرقند وبخارى ثم استبدل يوسف بن عمرو سنة ٧٠٦ ميلادية القطن بالحرير فصار القطن يستخرج منه الورق المسمى (الورق الدمشقى) الذى ذكره المؤرخون ، وأنشىء فى أسبانيا معامل من الأقمشة البالية وسابق أهل ولنطية وقسطالونية فى هذه الصناعة أهل كزطيوة واستعمل ورق العرب فى القرن الثالث عشر بقسطيلة التى شاع منها استعماله فى فرنسا وإيطاليا وانكلترا وألمانيا ، ولكن ورق الكتب العربية المكتوبة بخط اليد يفوق ورق الفرنج لطافة ولمعانا كما فاقه بما كان العرب تختاره من تزويقها بأبهج الألوان والأحبار والأزهار . وما أسلفناه هو كيفية ظهور تحكم العرب فى جميع فروع تمدين أوروبا الحديث ومنه يعلم أنه من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر كان عند العرب أوسع ماسمح به الدهر من الأدبيات وأن نتائج أفكارهم الغزيرة واختراعاتهم النفيسة تشهد أنهم أساتذة أهل أوروبا فى جميع الأشياء كالمواد المختصة بتاريخ القرون المتوسطة وأخبار السياحات والأسفار وقواميس سير الرجال المشهورين والصناعات العديمة المثال والأبنية الدالة على عظمة أفكارهم واستكشافاتهم المهمة ولهذا كله وجب الاعتراف برفعة شأن هذه الأمة المحمدية» الخ .

وقد قال قبل ذلك بأسطر : [إن اختراع العرب الورق وبيت الإبرة وبارود المدافع قد غير الحالة الأدبية والسياسية والعسكرية فى جميع الدنيا] وقال : [ولاعبرة بما زعمه بعض الفرنج من أنه سلب من العرب شرف ذلك الاختراع ونسبه للصين مدعيا أنهم عرفوا ذلك منذ زمان قديم وأبطل ذلك بأن الطباعة لو كانت معروفة عند أهل الصين لنقلها عنهم العرب فأما بيت الإبرة فليس من المعقول أنهم عرفوه وهم لم يزالوا إلى سنة ١٨٥٠ ميلادية يعتقدون أن القطب الجنوبى من الكرة الأرضية سعير تلتظى] ومعلوم أن

الإبرة تتجه للقطبين] وهل عرفوا استعمال البارود استعمالا مختلف الأفانين الذي بقي أثره عند العرب للشهود لهم باستعماله أصنافا من القلل في حصارهم مكة سنة ٦٩٠ ميلادية وباستعمالهم في مصر في القرن الثالث عشر البارود المتخذ من ملح السبخات ليرمى به نحو قلل ذات صوت كالرعد ، وذكر استعماله أيضا في معرض وصف البحرية التي عقدها ملك تونس مع أمير أشبيلية في القرن الحادي عشر كما استعمل في حصار جبل طارق سنة ١٣٠٨ ميلادية وحصار إسماعيل ملك غرناطة لمدينة (باظة) سنة ١٣٢٤ وحصار طريفة (سنة ١٣٤٠) وحصار مدينة الجزيرة سنة ١٣٤٢ وحكى المؤرخ (فراراس) أن الرصاص رمى بالبارود في تلك الحصارات فابتدأ نصارى أسبانيا من ذلك الوقت باستعماله] اهـ .

هذه بعض ذكريات الماضي أيها الذكي التي أثرت أنت ثائرتها في قلبي . ماذا أقول وقد عم الجهل وطم ولم يستيقظ كثير من المسلمين للجهالة الفاشية ولم تطلع الأجيال المتأخرة على أمثال هذه الأقوال التي يذكرها الفرنجة ، نعم قد حكم الترك أبناء العرب وتسمى ملوكهم بأسماء خلفاء الإسلام فمنعوا العلم منعا باتا فأظلم ليل المسلمين لاسيما العرب قرونا وهذا زمان العز والعلم .

هاأنا ذا ذكرت لك الورق وأنهم أخذوه عن الصين ولم يكن له أصل إلا الحرير فاخترع المسلمون في زمن الصحابة والتابعين أي في العصر الأول أن يكون من القطن وارتقت الصناعة حتى صار من الخرق البالية في أسبانيا ، ثم صارت أوروبا كلها تتعلم منهم ولم يصلوا بشهادة المؤرخ الفرنسي لحسن الورق العربي الجميل وها هوذا يقول : [إن أوروبا عالة على الأمم الإسلامية العربية في صنع البارود وبيت الإبرة والورق وبهذه الصناعات قلبت سياسة الأمم وآدابها وعسكريتها] .

إن الذي أذل الأمم الإسلامية عموما والعربية خصوصا أمران أولهما سبب لثانيهما ؟ (الأمر الأول) الجهل (الثاني) التفرق : جهلاء متفرقون ، جمعهم الدين والعلم وقد نسوهما فنسيهم الله فتفرقوا ولكن الله عز وجل يريد اليوم جمعهم بعد التفرق وهذا التفسير من مقدمات النهضة الإسلامية ومتى وصل علم هذا الكتاب ومافيه إلى آذان أمراء العرب وملوكهم وبقية أمراء الإسلام وملوكهم دهشوا ويقولون في أنفسهم لم يكن ليخطر ببال علماء الدين أن القرن الأول النبوي يحتوي على عجائب مثل اختراع صنع الورق من القطن بدل الحرير . أكثر المسلمين يظنون أن العصور الثلاثة الأولى ليس فيها إلا الحديث والفقه فقد ظهر كذب هذا الرأي وأن الورق والبارود قد استعملا في أوائل تلك القرون الثلاثة وهذا مع بيت الإبرة سبب للرقي الحاضر في فروع الحياة ، وسيقول ساسة المسلمين حين يقفون على هذا [إذن نحن لسنا على نهج الصحابة رضوان الله عليهم لأننا حصرنا عقولنا في صغائر الأمور ونسينا ماتسكنه عقولنا من الآراء السديدة والحزم الشديد والحكمة والاختراع] فلماذا لانفكر فيما لدينا من الزرع والشجر وكيف يكون القوم قد اتخذوا من حطب الذرة ورقا أواه لقد فعلوا مافعل أجدادنا أيام النبوة . أجدادنا استغنوا عن الحرير الذي عرفوا من الصين أنه منه يصنع الورق بالقطن . وهؤلاء الفرنجة قالوا بل نحن نستخرج الورق من الخشب بدل القطن الذي عرفناه من المسلمين بل نستخرجه أيضا من حطب الذرة . حطب الذرة الذي لا قيمة له أصبحت له قيمة شريفة إذا صار ورقا . إذن في حقولنا من الثروة مالا حصر له . حطب متروك منبوذ جعل ورقا وعيدان مبتذلة صارت ورقا . وكم في الأرض وكم في الزرع من منافع جهلناها فلنتقدم على العلم ثم العمل والتفكر لاهذه هي التي يقولها أشراف المسلمين حين يقرءون هذا القول ويوقنون أنهم مقصرون وأن تقصيرهم إنما جاءهم من الجهل والجهل هو آفة الإنسانية الآن . انتهى الكلام على الأمر الأول .

(الأمر الثانى وهو الجراد)

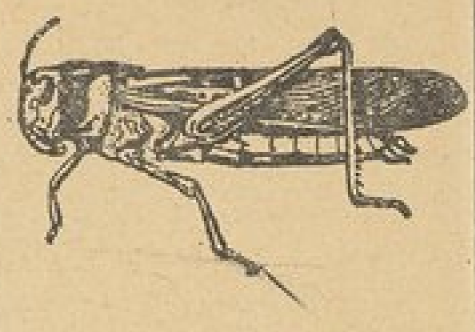
فقال صاحبي فأفض القول فى الأمر الثانى وهو الجراد فقلت له : أما الجراد فإنى لم أطلع على أحواله كما اطلعت على الكلام فى حطب الذرة . فإذا سمعت منك فيه قولا أمكننى إذن أن أوجه الخطاب لأمم الإسلام ذاكرا مايناسب المقام . فقال :

(غارة الجراد الكبرى على مصر فى شهر إبريل سنة ١٩٣٠)

جاء فى مجلة « الدنيا المصورة » فى ١٣ إبريل سنة ١٩٣٠ مايأتى :

(غزوات الجراد فى مراكش . انظر شكل ٣٣)

انقضت جيوش الجراد فدهمت المزروعات والحقول فى ممالك جمة . فهى فى مصر والأفغان وبلوخستان والعراق وسورية والحجاز واليمن والسودان والحبش وشمال إفريقية . وقد خرج الفلاحون من مراكش يلتقطون الجراد ويجمعونه فى أكياس . وقد خرجوا أيضا مرة أخرى فى وقت الفجر تحت إرشاد شيوخ القرية لمكافحة الجراد . ثم جاء ماملخصه أن الجراد أنواع ونوع منه يسمى الجراد الراحل هو الذى يهجم على مصر وهو يؤكل فى الهند مقلوا بالزيت ويأكله العرب فى بلادهم وفى السودان يجففونه ويحمصونه ويحفظونه فيكون طعاما ويعتقدون أنه يشفى بعض الأمراض . ويقال إنه ينشأ فى السودان والحبشة وبلاد العرب ونجد فيتناسل ويفقس ثم يرحل وفى رحلاته يسير (٦٠) كيلو مترا فى الساعة وله مواعيد محددة . فجراد السودان الذى يغير على مصر يأتى لها فى مارس ويرحل بعد أن يكون طاف ببلاد العرب وله بين كل عشر سنوات وخمس عشرة سنة غارة كبيرة رهيبة وآخر غاراته سنة ١٨٩٠ وسنة ١٩٠٥ وسنة ١٩١٥ ثم هذه السنة ١٩٣٠ م وقد جمع أهل مصر سنة ١٩١٥ م نحو (١٣) مليونا كيلو جراما من الجراد ونصف مليون ومن بيضه (٤٢٤) كيلو جراما من البيض وهو ٢٧ ألف مليون بيضة ونصف مليون والأنثى تضع بيضها بأن تمدد بطنها وتحنى طرفه كأنها زاوية قائمة مع الأجنحه وتحفر حفرة تغرز فيها بطنها (انظر شكل ٣٤) وتضع البيض كتلا كل كتلة أشبه بعنقود كل عنقود يكون مابين (٨٠) و (١٢٠) بيضة . وقد تكون كتلها (٥) أو (٦) ثم تسد الحفرة وتفرز عليها مادة بيضاء كزلال البيض فتجمد وتسد الثقب وبذلك تحفظ الفقس من الحشرات وغيرها وطول البيضة (٨ ر ٨) مليمترا وعرضها (٨ ر ١) مليمترا وطول الكتلة (٤) سنتيمترا . والذكر ينهش الأنثى بعد وضعها فيكسر رأسها فيعض عليها . وبعد مدة من (٣) إلى (٦) أسابيع يفقس ويخرج الجراد الصغير المائل للخضرة ثم يسود بعد ساعات قليلة ويغير جلده خمس مرات كالأفاعى وفى كل مرة تخرج بحجم أكبر ثم تظهر الأجنحة وتكمل فى مدة بين (٤٠) و (١٠٠) يوم فيكون أحمر اللون شديد الخطر ومتى بلغ قل خطره ويهتم إذن بالتناسل . فخطره وهو أحمر اللون شديد فاذا كبر كان خطره فى النسل . وقد هجم الجراد على مصر هذه السنة (١٩٣٠ م) من جهة السودان أولا ثم من جهة (طورسينا) ثانيا . وقد أرسلت بلادنا المصرية بعثة لتعرف مصدر الجراد فرأت تلك البعثة أنه ينشأ فى جبل علبة (بتشديد الياء) وفى وديانه فى السودان . وقد عرفت أن هذا الجبل وودیانه هى أمنع حصون الجراد وهو أعظم منطقة للجراد وتناسله (شكل ٣٣) و (شكل ٣٤ فى الصحيفة التالية) .



(شكل ٣٣ ـ الجرادة)



(شكل ٣٤ ـ الجرادة تضع البيض)

فلما فرغ من كلامه قلت له : لماذا أقول لك ؟ إن هذه مما احتوته هذه الآية فان فيها الأحمر والأخضر والأصفر . فقال أريد أوضح من ذلك . فقلت هى تدخل فى قوله تعالى «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » فقال : العموم هنا لا يكفى . فقلت : أليست من آيات الله تعالى فقال : أنا أريد ماهو أوضح . فقلت : هى آيات مفصلات . فقال : مفصلات ! الآيات المفصلات هى آيات القرآن فقلت وآيات الأكوان . ألم يقل الله تعالى «وكل شىء فصلناه تفصيلا» . فقال ولكن جعلك الجراد وحده آية مفصلة يعوزه دليل خاص . فأولا اذكر الدليل الخاص على أنه آية مفصلة . وثانيا كيف كان آية مفصلة وما برهانه وما نتائجه التى ستظهر فى بلاد الاسلام بسبب هذا التفسير . فقلت : أما كون الجراد آية مفصلة فهو ماقاله الله تعالى «فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات» فالجهال يسمعون هذه الآيات وتمر عليهم وهم لا يعقلون . وأما حكماء هذه الأمة الذين سيأتون بعدنا فانهم يعلمون أن التفصيل سيظهره العلم الذى يلهمه الله لقلوب واعية إسلامية فى مستقبل الزمان . فان حكماء هذه الأمة إذا تدبروا أحوال الجراد الذى يصيب البلاد العربية خصوصا والإسلامية عموما يفهمون أن هذه آيات العلوم .

(١) أولا للأحوال الاقتصادية .

(٢) وثانيا للأحوال السياسية .

(٣) وثالثا للاصلاحات الدينية .

(٤) ورابعا لعروج النفوس الإنسانية إلى عالم القدس والجمال والفرح بالحكمة والبهاء والصفاء .

فقال لقد شرحت صدرى بهذا التفسير قبل أن تفصل تلك الآيات فان هذه العنوانات العظيمة لتدل على علم وحكمة تؤخذ من هجوم الجراد على مصر فى الأزمان القديمة والحديثة ، فاشرح لى الأمر الأول وهو الأحوال الاقتصادية . فقلت لقد خلق الله هذا الإنسان فى الأرض ورباه وعلمه السياسة والاقتصاد ولكنه إلى الآن لا يزال طفلا صغيرا وهذا الطفل تصيبه الكوارث والنوازل والموقظات فهو يرتقى قليلا قليلا ولكنه بطىء النمو ؛ هذا الجراد أرسله الله على أهل مصر بلادى فى قصة موسى وفرعون ليكون زجرا لفرعون إذ أذاق بنى إسرائيل عذاب الهون ، ولكن ليس القرآن لأجل بنى إسرائيل وحدهم ولا لموسى وإنما هو لنا فالله يقول لنا :]هذا الجراد أرسلته عقابا للناس على سوء فعلهم[فلنبحث عن سوء أعمالنا فإننا نجده فى أمر واحد وهو الجهل ، وعلينا نحن المسلمين اليوم أن نستيقظ ونفهم أن الله عز وجل هو الذى خلق النبات

وخلق الحيوان . ومن الحيوان الجراد ، وأعظم حصن للجراد جبل علية (بتشديد الياء) فى السودان والوديان التى بجانبه . فنى هذا الجبل يخلق الله الجراد ومنه يصدر إلى البلاد الاسلامية كما تقدم . فلنبحث إذن فى هذه . أهى نقمة أم نعمة ؟ إن الله يقول: «فأرسلنا عليهم الطوفان» فهو بدأ بالطوفان وثنى بالجراد فأى طوفان فى مصر ؟ هوطوفان النيل . فكلما طغى النيل على مزارعنا فى مصر اتخذنا له جسورا وقناطر فحفظناه فانتفعنا به . إذن الطوفان الذى هو آية مفصلة أرسلها الله على أهل مصر قد عرفنا حقيقة أمره والانتفاع به فأصبحت بلادنا اليوم عامرة يسكنها (١٤) مليونا بعد أن كانت نحو مليونين منذ قرن . ذلك بأننا فهمنا هذه الآية وهى طوفان النيل فحفظناه وانتفعنا بمائه فصار نعمة بعد أن كان نقمة . هذا هو تفصيل آية الطوفان فلنتبع الكلام على الطوفان بالكلام على الجراد وهو الآية الثانية المفصلة فنقول:

كما أن النيل يهلك الحرث والنسل إذا ترك وشأنه وينفع الناس إذا حوفظ عليه. هكذا يكون أمر الجراد. الجراد أمه يخرج من (جبال علية) فى السودان كما يخرج النيل . والنيل قد انتفعنا به . أفلا نفعل هكذا فى الجراد ، إن الله يقول هو آية مفصلة ، أما تفصيلها لفرعون وآله فأمره ظاهر . وأما تفصيله لنا فانه يحتاج إلى حكمة وعلم فأقول:

كما أن الماء بحفظه يخرج الزرع ويدر الضرع هكذا الجراد فيه منافع عظيمة إذا عرفنا قيمته فها هو ذا إحصاؤه سنة ١٩١٥ ميلادية ببلاد مصر . فهو كان نحو (١٣) مليونا كيلوجراما من نفس الجراد و (٤٢٤) كيلو جراما من البيض . ولما شاع أمر الجراد فى مصر سنة ١٩٣٠ فى أثناء طبع هذا التفسير كتبت الحكومة المصرية فى جريدة الأهرام قائلا : أيتها الحكومة ، لقد قرأت قريبا أن الجراد فى بعض الممالك قد أخذته شركة أوروباوية وعصرته واتخذت منه زيتا وهذا الزيت كان خيرا من كل زيت فى الطيارات أقول وكأن الله عز وجل لم يطلع من قبلنا على ذلك الزيت لأنهم لم يستأهلوا لتلك النعمة ، أما نحن اليوم فأهل لها ثم قلت وما بقى من جسم الجراد بعد العصر جعلوه علفا للبهائم .

هذا ما كتبته للحكومة المصرية . ثم لم تمض أيام على هذه الكتابة حتى جاء من بلاد البلجيك نبأ رسمى فى خطاب للحكومة المصرية يقال فيه (إلى أين تصدرين الجراد ، وإلى أين تصدرين بيض الجراد ؟) وهذا الخطاب يراد منه أن تلك الشركة تريد أن تقوم بشراء ذلك الجراد وذلك البيض لتصنع ماصنع بالجراد الذى قرأت عنه فى بلاد جنوب أفريقيا . وقد أدرجته فى هذا التفسير سابقا وكاتبت به الحكومة المصرية كما قلت آنفا

كل هذا حصل فى هذه الأيام وحكومتنا المصرية لم تحرك ساكنا . والسبب فى ذلك أن البرلمان والحكومة مشغولان بمعاهدة الإنجليز وبالاستقلال وبالأمور السياسية ، ولو أنهم كانوا فى حال أحسن من هذه لقال قائلهم إن أجسام الجراد البالغة (١٣) مليونا من الكيلوجرامات لو أننا عصرناها زيتا للطيارات واستخرجنا منها (٦) مليونات من الكيلو جرامات زيتا، فماذا يكون ثمن ذلك كله؟ فلو أن الكيلو الواحد بقرش واحد لكان عندنا (٦) ملايين قرش وهى (٦٠٫٠٠٠) جنيه ، وليس من المعقول أن يكون هذا الثمن حقيقيا بعد المصاريف بل يكون أضعافا مضاعفة . فإذا أضفنا اليه ما بقى من جثمان الجراد وهو (٧) ملايين فإنه لاينقص عن نصف قيمة الزيت المذكور لأنه يكون علفا للبهائم يغنى عن الفول والبرسيم بل هو أجل وأحسن . إذن الجراد فى ظاهره نقمة وفى حقيقته نعمة . فالحكومة المصرية التى صرفت مائة ألف جنيه لإحراق الجراد ومطاردته وإتلافه لو أنها عصرته زيتا وجعلت جثمانه علفا لأخذت من ذلك أضعاف ما صرفته .

فأنا أذكر هذا إيقاظا للمسلمين بعدنا أن يفكروا فى هذا ويبحثوا حقيقة ماقرأت أنا فى الجرائد ، هل عصيره زيت للطيارات وهو خير لها من كل زيت ؛ وهل الجثمان الباقى بعد العصر خير علف للبهائم ، فليبحثوا

وليفكروا

وليفكروا وليعملوا هذا فى مثل مصر من كل أمة لم تعتد أكل الجراد ، أما الأمم التى تأكله كبلاد العرب فالأمر فيه ظاهر ، هو نعمة حقا وصدقا ، نعمة ساقها الله لهم وهى ظاهرة واضحة ، فالناس يدفعهم حب حفظ الحياة إلى الاتحاد على المقاومة كما يتحدون على حفظ جسور النيل ، وهذا الاتحاد يقوى عاطفة المودة بين الناس ويلهب الشعور العام بين الناس فى الوطن الواحد وفى الأوطان المتجاورات . هذه هى الآية الأولى من آياته المفصلات وهى الاقتصادية .

(الآية الثانية من آيات الجراد ، وهى آية الأحوال السياسية)

اعلم أن أبناء العرب فى مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والشام والعراق والموصل وهكذا فى الصحراء الكبرى والسودان . كل هؤلاء يبلغون عشرات الملايين . فهذه أمة واحدة أصبحت أمما متفرقة لاراعى لها ولا أمير يجمعها ولا عالم يوقظها بل هم قوم مختلفون وطوائف متشاكسون ، فأنا إلى الله أشكو وإليه أضرع أن يهدى هذه الأمم إلى حال سعادتها ويهديها إلى رشدها . هذه الأمم هى أنفسها التى انتشرت فى مبدأ الإسلام من أرض الحجاز ونجد واليمن : فكانت فى العراق شرقا والموصل وامتدت إلى تخوم الصين والهند وأيضا بلاد الفرس وسمرقند وبخارى .

هذا من جهة ومن جهة أخرى توغلت فى السودان وفى جنوب أوروبا فتوطنت فى الأندلس ثم ذهبت إلى جنوب فرنسا فى وقت ما كانت حكومتها واحدة ثم أخذت تتمزق رويدا رويدا حتى انحلت عصبيتها وتفرقت وجهتها وذلت أعقابها لأنهم جماعات جماعات لا جماعة واحدة وأمة واحدة . علم الله ذلك قبل أن يخلق السموات والأرض وأن هذه الأمة بما فيها من الفضائل النفسية والنخوة العربية والقوة الأدبية وإنكار الذات والحرص على الكرامة والشرف وحسن الذكر والإباء والشمم والكرم وما أشبه ذلك ستنشر فى الأرض الدين ، وبها تموج الأمم ويحصل لعملها آثار تظهر فى جميع العالم قديمه وحديثه ، وأن الأمم ستتجه للتعليم العام فى الصين واليابان وأمريكا واستراليا . كل ذلك بما أحدثت هذه الأمة من الفتوحات فى أول نهضتها وما نشرت من صناعة الورق وبيت الإبرة والبارود كما تقدم قريبا فى كلام الأستاذ (سديو الفرنسى) فأحدثت فى الأرض نهجا جديدا فى العسكرية والآداب والنظم .

أقول : علم الله ذلك كله فأنزل فى القرآن (الم) فى أول سورة آل عمران تذكرة بآية «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب» الخ التى ترجع إلى أن اليهود أيام النبوة قوم اتكلوا على مجد آبائهم وشفاعات آبائهم وناموا فأذلهم الله وجعل ملكهم للعرب كما تقدم وإضحاكناك ؛ وأن (الم) المذكورة فى أول السورة تشير إلى (الم) المذكورة فى أول هذه القصة التى بها يتذكر أبناء العرب خصوصا والمسلمون عموما أن الاتكال على مجد الآباء وشفاعتهم بلا عمل بلاهة وجهالة ، وهذه الجهالة كما أنها انتزعت ملك اليهود منهم هكذا انتزعت ملك العرب منهم فتفرقوا ، ومتى قرءوا علوم الأمم المحيطة بهم وعرفوا بالتاريخ أنهم أمة واحدة بل أنهم هم من خير أمة أخرجت للناس وأنهم لا يليق بكرامتهم ولا بشرف أصلهم ولا بحقائق دينهم ولا بفضائل الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكونوا أجهل الأمم ممتازين بالتفرق والانحلال فلم يساووا أمة ما من أمم الأرض ، فالصين ذات لغة واحدة لها حكومة واحدة ، وهكذا اليابان اتحدت نسبا ولغة فاتحدت سياسة ، ومثلها الانجليز والألمان والفرنسيون والإيطاليون ، فكل هؤلاء لهم لغة واحدة فكانوا أمة واحدة فى السياسة . فالعجب كل العجب أن يكون أبناء العرب مثلا من أقاصى السودان إلى بلاد الموصل ومن جبل طارق إلى حضرموت والعراق لا تكون لهم حكومة واحدة مع اتحادهم دينا ونسبا ولغة واتصالهم فى البلاد . كل هذا تقدم مفصلا فى سورة آل عمران .

أقول : إذا عرفوا ذلك وأدركوه فى الكتب المنتشرة اليوم وفى هذا التفسير فإنهم لاجرم يسمون للاتصال فيكونون أمة واحدة كما فعلت الممالك المتحدة لكل جماعة منهم رئيسهم الذى رضوه إما من سلالة استتب ملكها عندهم وهم بها راضون ، وإما بطريق الانتخاب بهيئة رئيس منتخب وهؤلاء الرؤساء ينتخبون من بينهم رئيسا كما فعلت الممالك المتحدة تماما .

هذا هو الذى تدعو إليه آية (الم) فى أول (سورة آل عمران) خزنها الله فى القرآن لتظهر آثارها فى زماننا عند الحاجة إليها كما خزن الفحم الحجرى فى الأرض وأبرزه الآن لننتفع به . هذا ولم يقتصر وعظ هذه الأمم على الآيات المسموعة القرآنية بل أنزل لهم آيات نظروها بعيونهم وهى آيات هذا الجراد المفصلات ، إن الجراد كما تقدم من الآيات المفصلات ، فهو آية مفصلة فى الاقتصاد كما تقدم وهو آيات مفصلات فى السياسة أرسله الله على هذه الأمم وهو يهاجم مثلا مصر تارة من بلاد السودان وتارة من طريق طورسينا ، ويهاجم العراق والشام وهكذا. فهذه الآية واضحة ظاهرة مبينة، فإن الجراد بهجومه على بلاد العرب من مراكش إلى العراق والموصل يذكر أبناء العرب مثلا ويقول لهم : (أنا الجراد . أمتى أمة واحدة ، فإذا هاجمت بلادكم المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة وأنتم تقتلوننى وتحاربوننى وتطاردوننى وتحرقوننى وتهلكون مئات الملايين وملايين الملايين من جنودى فهل تفرقنا شيئا ؟ وهل اختلت صفوفنا ؟ أفليست الجحافل الجرارة التى هجمت على دياركم سنة ١٩١٥ هى هى مثل الجحافل والجيوش الجرارة التى هجمت على بلادكم فى سنة ١٩٣٠ وهكذا سأرجع لكم الكرة بعد الكرة تذكرة لكم بالاتحاد وستخجلون إذا قرأتم العلوم وتنورتم إذ تقولون ياويلتنا أعجزنا أن نكون مثل هذا الجراد فنتحد مع إخواننا ونكون مملكة واحدة كما اتحدت أمة الجراد كما قال أحد ابنى آدم «ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هـذا الغراب فأوارى سوأة أخى» بل إن سوأة التفرق والتخاذل فى البلاد العربية الإسلامية أعرق فى الفضيحة وأظهر فى الخزى من جسم غراب وقع فوق الأرض فهذه أمم وأمم ربما تبلغ ثمانين مليونا تفرقت شذر مذر ولم تعقل ماعقله الجراد بغريزته إذ اجتمع وكون مملكة واحدة وقد جعله الله آية يقرؤها المسلمون فى أمثال هذا التفسير فيرجعون مجدهم ويكونون مملكة واحدة . وهذا آت بعد نشر العلوم فى هذه الأقطار .

(تذكرة)

آيات الله على (قسمين) آيات مسموعة ، وآيات منظورة ، والآيات المسموعة هى الكتب السماوية . والآيات المنظورة هى هذه العوالم المشاهدة ، وللأول الإشارة بقوله تعالى «إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون» وللثانى الإشارة بقوله تعالى «ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون» وبقوله «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء» الخ وهى الآية التى نحن بصدد الكلام عليها ؟ وبقوله «ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى» وبقوله «ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر» وبقوله «أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز» الخ فهذه كلها آيات مشاهدة والآيات المشاهدة يحاسب عليها الناس إذا قصروا فيها لأنها فى الحقيقة المقاصد الحقيقية للآيات المسموعة . ألم تر أن الله بعث غرابا يبحث فى الأرض ليرى ابن آدم كيف يوارى سوأة أخيه ، فالغراب إذن مبعوث لنا ليرينا ، والجراد مبعوث لنا ليرينا ، وكل هـذه آيات مفصلات لنا . إن جميع الأمم فى الأرض وجميع أنواع الحشرات والطيور والكواكب مبعوثات لنا مسخرات لتكون باعثا لنا على الفكر والبحث والنظر فننتفع بها فى الحياة ونذكر به العقول . وإذا كان الغراب علمنا صناعة دفن أمواتنا أفليس هذا معناه أن كل ماحولنا يعطينا دروسا من دروس الحياة . وهل أنزلها الله فى القرآن

بمجرد التلاوة؟ كلا، ثم كلا . بل إن القرآن كتاب أنزله الله للناس مبارك ليدبروا آياته وليذكر أولو الألباب، إذن هذا القرآن نزل لفتح أبواب العلم على مصراعيه لأولى الألباب . فإذا وجدنا فروض الكفايات قد وجبت بمقتضى آية التوبة « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة » الخ فليزدنا تأكيداً ذلك الوجوب بما نشاهد من آيات الحشرات والحيوانات المنظورة اللاتي تعطينا دروسا ودروسا « والله هو الولى الحميد » وبهذا تم الكلام على الأمر الثانى من آيات الجراد والقملات وهى الأحوال السياسية .

﴿ الأمر الثالث وهو الكلام على الإصلاحات الدينية ﴾

إن أهل هذه الأرض قد أنزل الله لهم ديانات فى أوقات مختلفات : وهذه الديانات متى نزلت عليهم تئول فى آخر أمرها إلى أحوال تلك الأمم وأخلاقهم وعوائدهم وهذين البوذية والبراهمة . هذا الدين حرم أكل الحيوان شفقة ورحمة : وذلك نظر جزئى سطحى، إن أكل الحيوان هو عين الرحمة، إن من قرأ ما تقدم فى سورة (سبأ) من أن الأرضة (تلك الحشرة التى تبنى لها مدنا فوق الأرض وترفعها (٦) أمتار فأكثر وتتسع إلى مدى أميال . وهذه المدن لا يقدر على هدمها الإنسان إلا بالديناميت كما يفعل فى الجبال إذا أراد أن يقطعها بالطرق الحديدية) .

أقول إن هذا الأرضة لها فى كل سنة وقت معلوم تصدر فيه من ذريتها ذات الجناح آلاف الملايين تخرج كلها فى ساعة معينة وتطير فى الجو طلبا للتناسل ورغبة ضوء الشمس ونسيم الهواء بعد الحبس فى تلك المدن المظلمة مع آبائها وأمهاتها العمياء التى تدير مملكة شاسعة لها منافذ، ومنافذ عليها حراس أشداء أقوياء من تلك الجنود العمى ذوات الأسلحة الفتاكة التى لا تدرك إلا بالمناظير المعظمة . وهذه الذرية ذوات الأجنحة المذكورة الطائرات فى الجو الفرحات بأنها ستنعم بالتناسل والزواج وعليها حليها من الأجنحة البهجة الجميلة الحريرية لا تلبث فى الهواء إلا زمنا قليلا ثم تقع على الأرض، وهناك تتلقفها الأفاعى والكلاب والهرر وأنواع أخرى من الحيوان حتى الإنسان فتصطاد وتؤكل ويحمصها الإنسان ويجعلها مع السكر ويأكلها.

فهذه مخلوقات نظمت بحكمة وصدرت فى زمن معلوم لحيوانات تأكلها، وهكذا نرى الأسود والنمور وسائر السباع ذوات الأنياب المحددة والجوارح فى السماء ذوات المناقير للمتوية المحدودبة . كل هؤلاء وهؤلاء قد منعت من أكل النبات وأبيح لها أكل الحيوان. وهذه العصافير تأكل الدود وهى مأكولة لغيرها . وهكذا الحيات والعقارب تأكل الحشرات . وكذلك سمك البحر بعضه آكل وبعضه مأكول . بل الإنسان والحيوان إذا هلكن خلقت أمم الدود فى أجسامها دلالة على أنه لا معطل فى هذا الوجود، هكذا الجراد هنا يخرج من مواطنه فى (جبل علبة) وودبانة ومن غيره ويغزو الأمم كرة بعد كرة فيكون غذاء لها ومتاعا إلى حين فمثله كمثل حشرات الأرضة اللاتى تخرج كل سنة فى وقت معين والحيوانات تنتظرها طعاما شهيا فهكذا هذا الجراد يخرج فى سنين معلومة كما تقدم وآكلوه ينتظرونه فلا معطل فى الوجود . إذن أهل الديانات إذا لم يفطنوا العلوم هذه الكائنات فإنهم يعيشون جاهلين ويموتون غافلين . فليس نظام هذه الدنيا مبنيا على مجرد الحواس بل هو يجرى بقواعد صادقة ثابتة مبنية على العدل والحساب « لا تبديل لكلمات الله » والحمد لله رب العالمين . وبهذا تم الكلام على الحال الثالثة وهى إصلاح الديانات .

﴿ الحال الرابعة: عروج النفس الإنسانية إلى عالم الجمال ﴾

وهذه منتهى ما ترقى إليه النفوس وتعرج إليه الأرواح. فإن نفوسنا إذا فكرت فى أمر الإنسان والحيوان اعتراها الشك والوسواس وقالت [هذه الدنيا بأسرها دار وبال وخسران] فأهل الديانات فى شقاق والأمم فى ضلال والحيوان آكل ومأكول وهذا الجراد يغزونا ونغزوه وما هذه الدنيا إلا الوبال والخبال

هذه آراء جميع العقلاء فى هذا العالم الإنسانى إلا قليلا منهم وهم المفكرون . أما العامة فهم لاحساب لهم لأنهم آمنوا بظواهر الديانات وهؤلاء فى طبقة خاصة يدخلون الجنة . فأما المفكرون فأكثرهم يتخبطون فى دياجى الظلمات شاكون متحيرون وليس يرقى منهم إلا أفراد قلائل . فهؤلاء يدرسون العلوم الرياضية والطبيعية ولهم عقول مفكرة وآراء محمودة وتكون آراؤهم متوجهة إلى الكليات لا إلى الجزئيات . ففى أمثال هذا المقام تكون عقولهم فى جحافل الجراد المنتشرة، الطاغية على بلاد مصر والشام غير مقصورة على آلام الناس من الجراد وعلى أكل الناس له بل يكون النظر متجها إلى القاعدة العامة وهى أن هذه الأرض أشبه بشجرة والحيوانات والنباتات من فوقها أشبه بأوراق على أغصانها ، وتلك الأوراق تذبل وتحل محلها أوراق أخرى والغصن باق إلى أمد معلوم . فهذه هى حال الأرض وأحوال هذا العالم، مادة شكلت بأشكال مختلفة بنظام جميل مدهش؛ فالمادة كالشجرة والأشكال كالأوراق ووراءها قوة مدبرة منظمة حاسبة لكل مخلوق حسابه ونظامه . فهى تزوقه وترقشه وتسوقه إلى حكمة من الحكم الكونية البديعة النظام وهذه الطائفة التى لاأشك أن منها قراء هذا التفسير هى التى تربح بها وتفوز فوزا عظيما بعد الموت وتكون فى أعلى عليين وتفوق العبادة (بتشديد الباء) الذين جعلوا جميع حياتهم فيها وهم خلو من هذه العلوم الجميلة؛ فالعباد هم الصالحون ولهم عند الله أجر عظيم . أما المفكرون بهذا المعنى فهم الصديقون وهؤلاء مقامهم بعد الأنبياء وهم فى الدنيا هداة لأهل الأرض وفى الآخرة يرون ربهم ويفرحون به وهم مستبشرون . كتب يوم الأحد ١ يونيو سنة ١٩٣٠ .

بهجة هذه الآيات

من قوله تعالى «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها» إلى قوله تعالى «كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور»

كيف يخشى الله من عباده العلماء ؟

اللهم إنا خلقنا فى هذه الأرض ولم ندر من أين أقبلنا ، ولانعرف متى نموت وإذا متنا لاندرى إلى أين ننتقل ومع من نعيش ؟ وعلمنا فى هذه الحياة علم ضئيل مع أن الحياة بحر لجى واسع الأكناف عظيم عميق فلا ندرى أوله ولانعرف آخره . وغاية الأمر أننا نسمع فى كتابك الكريم تقول لنا «يحبهم ويحبونه» وتقول «وهو الغفور الودود» وتقول «إن ربكم لرءوف رحيم» .

فأنت تحب وترحم وتغفر وتود . هانحن أولاء نظرنا فى هذه العوالم المحيطة بنا فألفيناها بحسب إحساسنا جوامد وسوائل وغازا كالحجارة والماء والهواء ، ومن هذه تشكلت عوالم وعوالم انتفعنا بها ، ولكننا إذا أقفلنا أعيننا وفكرنا ونحن فى حال الصفاء، فإننا نحس أن هذه العوالم كأنها نور فى خيالنا ونحس بأن وراءها قوة عالية تحمل هذه الأنوار المتلألئة التى نتخيلها أمانات توصلها إلينا وهى الأرزاق والعواطف والعقول ، فأما الأرزاق فما هى إلا نتائج لأحوال خاصة لتلك الأنوار المتخيلة فى عقولنا، وماهى إلا العناصر التى أظهر العلم أنها جميعها أنوار متراكة متحركة أبدا ، فإذا تخيلنا العناصر المادية نورا فى أنفسنا فهى فى حقائقها نور حقا وإن كان نورا متلبدا حتى أصبح مظلما وهذه الأنوار الحاملات لأمانات الأرزاق الواصلة إلينا هى أيضا حاملات لعواطف وأخلاق تؤثر فى حياتنا كلها وهذه العواطف نراها واضحة ظاهرة مجسمة فى رحمة الأم وفى عشق الفتى والفتاة رحمة الأم والعشق والحب الشهوانيين فى الشبان هما أشبه بأنوار البترول الذى

تجعله سببا فى إضاءة منازلنا وأشبه بالشمع الذى نوقده فيها أيضا . فإذا كان الشمع المتخذ من أقراص عسل النحل والبترول المستخرج من الأرض قد أضاءا لنا منازلنا بعد غروب الشمس فهكذا نرى الرحمة والحنان والعطف ثم الحب المتنزلات من العالم القدسى السارى فى الأنوار التى عبرنا عنها بالمادة قد ظهرت فى الأم بهيئة رحمة وفى الذكور والإناث من الإنسان وغير الإنسان بهيئة عشق ، البترول فى الأرض وشمع العسل أضاءا لنا فى منازلنا والشمس أضاءت العوالم كلها . ما أشبه ضوء الشمع ونور البترول ورحمة الأم وتحاب الزوجين الذكر والأنثى . وقد جعلت لنا ضوء الشمس العام وانتشاره كضرب مثل لعموم رحمتك وحبك وودك . إن البترول والشمع من المواد الأرضية والأرض من الشمس . ورحمة الأم وحب الذكور للاناث فى كل حيوان أثر من آثار الرحمة العامة التى وضعها الله فى الأرض نبراسا وهدى لنا بها نهتدى إلى فهم رحمتك وحبك وودك حتى إذا درسنا ذلك عشنا سعداء سعادة لاحد لها وأمنا أمنا لاخوف بعده .

فهاك أيها الذكى شذرة من شذرات رحمته تعالى العامة وموازنتها برحمة الأم ووده وحبه بمودات الناس وحبهم فنقول : أولا ليس الحب من الله والود والرحمة كما نرى فى حبنا نحن ورحمتنا . إن حبنا ورحمتنا حيوانيان وحبه ورحمته هو قدسيان والله مقدس عن المادة . فحبنا ورحمتنا انفعال فى أنفسنا وحبه ورحمته قدسيان لانعرفهما إلا بآثارهما فى الآفاق وفى أنفسنا . ومن آثارهما حنو الأم وحب الذكور للاناث وغرامهم بهن وبالعكس. ولا ريب أن نتائج رحمة الأم بولدها مواصلة الجد والتشمير والسهر على راحة الذرية وجعل جسمها وآرائها ومالها وقفا على تلك الذرية من الشفقة والحنان كما يفعل ذلك نفسه العاشق ولكن على طريق الولوع بالوصال .

ومن عجب أن نتائج رحمة الأمهات وعشق الفتيان للفتيات إن هى إلا حفظ بقاء النوع الإنسانى مثلا . فنتائج رحمة الأم الحرص على بقاء ولدها . ونتائج العشق والغرام من أحد الصنفين للآخر إنما هو إيجاد ذكور وإناث يخلفان هذين المتعاشقين .

الله أكبر : أصبحت نتائج الرحمات ونتائج أنواع الغرام منصبة على بقاء الأشخاص وبقاء الأنواع . فانظر نظرة واعجب من علوم الأشعار التى أذاعها العشاق وأنواع المراثى التى يرثى بها الناس موتاهم وأحزان الأمهات والآباء على أبنائهم فكلها موجهات إلى تمنى بقاء هذا النوع الإنسانى . فماذا يريد العاشق ؟ يريد الوصال . وما نتائج الوصال إلا حصول ذرية ، وعلام تسهر المرأة إذا مرض ولدها ؟ تسهر على صحته مؤملة أن يعيش . إذن الحب والرحمة منصبان وموجهان معا لغاية واحدة هى غاية حياة الأشخاص وحياة الأنواع ، فإذا سمعت جميلا يشبب فى بثينة ويقول :

وأول ما قاد المودة بيننـا	بوادى بغيض يابثين سباب
وقلت لها قولا وقالت بمثـله	لكل كلام يابثين جواب

وسمعته يقول :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى	لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى	وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضى	أواخره لا نلتقى وأوائله *

ثم علمت بعد ذلك أنه كلما كان الحب شريفا طاهرا كان أبعث على الأعمال الشريفة ورفعة الشأن وكبر النفس وارتقائها مراقى عالية فى مدارج الرقى فى الحياة ، وبعكس ذلك إذا تنزل للشهوات الحيوانية فإنه ينطفىء ولا يؤدى مقصوده . وبالجملة حب الذكر والأنثى إما أن ينتج الذرية وهنالك ينقلب رحمة الذرية ، فإن

انتهى بالشهوة نفسها وبمجرد اللذة فإنه يكون حقيرا إذ به تسفل النفس وتذل وعاقبته وخيمة . فأما إذا كان العفاف والشرف فنتائجه تحصل فى نفس العاشق فإن همته تعلو ، فنتائج الغرام إما علو فى نفس العاشق إذا كان عفيفا ، وإما ذرية ينقلب الغرام الذى كان أولا رحمة بها، وإما سقوط مروءة مع الدناءة والخسة إذا انتهى بالشهوة البهيمية وحدها فان الذم والعار فى الدنيا يقترنان بالفاسقين .

أقول : إذا سمعت ذلك فاعلم أن الحب على ثلاثة أقسام : حب أدنى . وحب أوسط . وحب أعلى . وقد علمت مراتب الحب الأدنى وهو الحيوان فان نتائجه الصحيحة اثنتان لاغير ، نتيجة ترفع نفس العاشق إلى العلا . ونتيجة توجه لإحداث الذرية . فأما الحب الأوسط فانه أعلى من الحب الأول وهو حب العلوم . وحب العلوم إما أن يكون موجها للعمل بحيث تكون مباحث العلوم لها نتائج راجعة للمجموع الإنسانى كالعلوم الرياضية والطبيعية وعلوم الصناعات . فهذا كالعشق المؤدى إلى إيجاد الذرية . وإما أن يكون موجها إلى المباحث العامة كالتى فى هذا التفسير بحيث تكون العلوم . كلها موجهات لرفعة نفس النوع الإنسانى من حيث بعث الهمم وارتقاء العزائم وإحداث اليقين فى النفوس وتوجيهها إلى المحبة العامة والأخوة والترغيب فى حوز المعالى . فهذا أشبه بالعشق مع العفة الذى أورث فى النفس انبعاثا إلى المعالى ولكن الفرق بينهما أن ذلك انبعاث شخصى وهذا انبعاث عام لأنك علمت أن حب الذكور للاناث حب أدنى، وغاية الأمر أن النفس الانسانية بما لها من السلطان والقوة حولته إلى منفعة لها فاحدث لها همة وعلو نفس . أما حب العلوم فهو أوسط. فإذا جعل الإنسان حب العلوم وسيلة لجمع المال له خاصة كان حبه أسفل طبقات الحب وكان ذلك أشبه بمن أحب ولاعفة عنده وانتهى حبه بالشهوة البهيمية كما انتهى حب صاحب العلم بالشهوة المالية .

(مثال حب العلم الذى أثبتنا أنه أعلى من سابقه)

ماجاء فى إحدى المجلات المصرية فى شهر مايو سنة ١٩٣٠ من نبأ بعثة علمية دولية تتسلق الجبال من كبار العلماء برآسة الأستاذ (ديرنفورث) إذ أخذت هذه البعثة تتسلق جبال همالايا المسماة (كانش جونجا) وهى الثانية فى الارتفاع بعد (ايفرست) وأهوال هؤلاء المتسلقين أعالى الجبال أشد من أهوال رواد القطب الجنوبى والشمالى لأن الجليد يغطى قمم الجبال بسمك (٨٠٠) قدم . وهؤلاء المرتادون يعيشون فوق الجليد والرياح العاتية تعصف بهم . وسلسلة جبال همالايا ارتفاعها ٢٠٠٠ ألفا ميل ، ومن قممها مايرتفع ٢٤٠٠٠ قدم وتزيد ، وعدد القمم المذكورة (٧٥) قمة ، ولقد حاول العلماء الوصول إلى أعالى تلك القمم فعجزوا ، وقد ذهب العالم (دوجلاس فرشفيلد) سنة ١٨٩٩ وقضى سبعة أسابيع فى دورته حوله ووصف المناظر التى رآها فقال إنه لم ير فى حياته ما هو أجمل ولا أبهى من مناظر ذلك الجبل الذى تكسوه قلنسوة من الجليد الأبيض الناصع الذى يشبه القطن النقى المنفوش ، ولقد ورد موارد الهلاك أثناء ذلك التسلق مرات كثيرة .

ولقد حاولت ثلاث بعثات الوصول إلى تلك القمم فلم تصل ومات أكثرهم بالرياح العاصفة وبالثلوج التى تنقض عليهم فتهلكهم . أما البعثة الرابعة فهى فى طريقها عند كتابة هذه الأسطر فى هذا التفسير فى شهر مايو سنة ١٩٣٠م.

١

هذه هى الطبقة الوسطى فى الحب وهو حب العلوم . ياسبحان الله تسمع مجنون ليلى يقول :

وإنى إذا ماجئت ليلى أزورها	أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ود جليسها	إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

وترى العاشقين فى الدرجة الدنيا يقدمون أنفسهم للهلاك ويقدمون على الموت باطمئنان وراحة بال إذا حرموا من الحظوة بالمحبوب . وفى الدرجة الوسطى وهى درجة العلماء تراهم يقدمون أنفسهم للموت سراعا

من

من أجل قمة جبل أو مناظر قطب . ولكن لما كان حب العلم أعلى كان عاما في الشيوخ والشبان . وأما ماقبله فهو خاص بالشاب أيام حرارة الشهوة فاذا كبر قال :

قضيت سنون بالوصال وبالمنا فكأنها من قصرها أيام
ثم انقضت أيام هجر بعدها فكأنها من طولها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

هذا كلام الإنسان إذا كبرت سنه وتذكر أيام شبابه ، أما حب العلم فهو لايختص بسن معينة بل يزيد بكبر السن ، أما الدرجة الثالثة فهي العليا وهذه خاصة بطبقة تمتاز عن سابقتها . فانظر لأهل الدرجة الدنيا في العشق فإنك ترى عشقها محصورا في محاسن إنسان خاص وهذه لم تجعل إلا توطئة للدرجة الوسطى والوسطى مقدمة للدرجة العليا وهي درجة العلماء الذين يخشون الله ، فإذا خشي العاشق في أدنى الدرجات هجر تلك الفتاة التي افتتن بجمالها ، وإذا خشي علماء البعثة العلمية فتك الثلج بهم في (جبال هملايا) وهم يحبون أن يتسلقوها . فالعلماء المفكرون الدارسون لمثل هذا الكتاب الناظرون لهذا العالم أشد لله خشية من خشية عاشق امرأة أن تهجره ومن خشية متسلق جبل أن يهلكه . إن خشية العاشق مقدرة بمقدار جمال المعشوق وعلو قدره والناظرون للجبال والشجر والدواب والماء والزرع والثمرات وما أشبه ذلك . المفكرون في عجائب هذه الدنيا عشقهم وغرامهم لاحد له وخشيتهم لمبدع هذا الوجود لاحد لها . فهؤلاء ينظرون فيقولون : [إن هذا الجسم الإنساني قد أخذ من الأرض والماء غذاءه وشرابه : ومن الهواء إصلاح نفسه وحروف كلامه ووصول الروائح له ، ومن ضوء الشمس هدايته للسبل وتدفئة جسمه وإصلاح أحواله .. ومن مناظر السماء ودوران الأفلاك عدد أيامه وشهوره وحساب سنيه : وقد وزعت حواسه على هذه العوالم . فللغذاء والشراب حاسة الذوق . وللمواد كلها من حيث الحرارة والبرودة والثقل والخفة وهكذا حاسة اللمس وللروائح حاسة الشم وللأضواء حاسة البصر وللهواء حاسة السمع ، إذن هو لم يذر مخلوقا حوله إلا وجد في نفسه استعدادا لتناوله تناولا ماديا أو تناولا معنويا .

يقول الحكيم في نوع الإنسان العوالم كلها متصلات بي فلا كواكب ولا سحاب ولا هواء ولا رياح ولا شجر ولا حجر ولا نبات ولا حيوان إلا لها اتصال بي . وذلك طبعا يدعوه إلى التفكر فيها ، وهنالك يبحث في الجمال الذي نقش فيها كما نظر جميل جمال بثينة وتوبة جمال ليلى وكثير جمال عزة فهاموا في ذلك الجمال الجزئي من العالم المادي وكما هام العالم (مالرى) والعالم (سومرفيل) والعالم (نورتن) بحب استطلاع جبال هملايا وطلعوا إليها سنة ١٤٢٤ م لما نصبوا خيامهم ومكثوا أسبوعين على جبل جليدي هناك حتى هبت زوبعة اكتسحتهم واكتسحت خيامهم ، ولكن حب الاستطلاع غلب عليهم فقد رجعوا كرة أخرى وصمموا على أن يصلوا إلى مقصودهم أو يموتوا فرجعوا في ٢٠ مايو من تلك السنة وانضم إليهم غيرهم ، ولكن البرد أهلك أربعة منهم فرجع الباقون كرة أخرى وطلع فوق القمة رجلان منهم فالتهمتهما سحابة قضت على حياتهما . كل ذلك نتائج حب العلم ، وحب العلم ضحاياه أكثر عددا من ضحايا حب الذكور للاناث . إن حب الشرف والمجد وهو الحب الأوسط لاتعد ضحايا الغرام المعروف بالنسبة لفرائسه شيئا مذكورا ، وأرقى منه وأشرف وأعلى منزلة حب الجمال العام في هذه الدنيا . ولهذا الحب طائفة أرقى وأعلى من الطائفتين السابقتين ولذتها وسرورها أعلى من سرور الطائفتين قبلهما بما لاحد له ، فلئن أغرم (الدوق ابروزى) عم ملك إيطاليا المعاصر لنا إلى ارتقاء جبال هملايا ، وكذلك العلامة (دوجلاس فرشفيلد) و (الدكتور بوير) وغيرهما وقالوا جميعا «إما هلكنا وإما ملكنا» وكذلك غرام كثير بعزة وتوبة بليلى ليكونن غرام هذه الطائفة غير محصور

في مناظر الثلج في أعالي جبال هملايا ، ولا جمال امرأة خاصة ، بل غرامها بالنجوم والجمال والشجر والدواب والبحار والأنهار . فهم يجدون الجمال في تركيب أجسامهم وتركيب الذرات وخطرات الرياح وهبوب النسمات وتمايل الأشجار ونغمات الحشرات وأصوات الطيور وضوء البرق وبهجة السحاب ورؤية الضباب وسير العلماء وفهم ذرات الكيمياء ونظام الحركات الكوكبية . فالأشجار والأحجار والأنوار والظلمات والنجوم والعلوم وكل دقيق وجليل من هذا الوجود أنواع من الجمال يذكر بمحبوب غائب لم تره عيونهم ولكن أدركته قلوبهم . فهؤلاء إذا سمعوا بالهوى العذري في الأمة العربية الذي ينتهي بموت العاشقين هناك قديما أو الهوى اليابانى الذي بلغنا خبره حديثا . وإن كثيرا من الشبان يرمون أنفسهم من أعلى لحرمانهم من الاتصال بمعشوقاتهم . وإذا سمعوا أيضا أن عشاق العلوم والكشف للقطب الشمالي أو الجنوبي قد رضوا بالموت طوعا لما شغف قلوبهم من الغرام الأوسط وهو الغرام بالاطلاع . فهؤلاء إذن يرون أنفسهم في ساحة من الغرام لاحد لها لما يرون من جمال لانهاية له ، وإذن يهون عليهم الموت في سبيل حبهم لذات لم ترها عيونهم هي مصدر جمال عزة وبثينة وليلى وجمال الثلج في قمم جبال هملايا الذي افتتن العلماء به فهاموا وهلكوا وهم يكشفون عن ذلك المحبوب .

إن هذه الطائفة ترجع كرة أخرى فتنظر في أمر رحمة الأم وحب الشبان فترى نتائجهما بذل كل ماتملك الأم وما يملك العاشق ، ولكن الذي صنع العالم بذل مالاحد له ، فأين المناسبة بين ثياب وطعام وشراب لطفل من أمه وبين هذه العوالم كلها المبذولات للانسان ، وإذا كان ذلك لايعرفه إلا العلماء ولا يعقله إلا هم فان خشية الله عندهم أعلى من خشية العاشق لمعشوقه .

وقصارى القول وحماداه أن في الحيوان لاسيما نوع الإنسان مبدأ ونهاية . أما المبدأ فهو العشق والحب وبهذا تكون الذرية . وأما النهاية فهو أن ينقلب الحب إلى رحمة تلك الذرية وإلى الحب النافع الدائم بينهما إن غرام الذكور بالإناث وحب الإناث للذكور لم يكن إلا لحكمة وهي حصول الولد . وهناك ينقلب غرام كل منهما بالآخر شيئا فشيئا إلى حب ورحمة . أما الحب فإن كلا منهما يحب الآخر للتعاون على أمر الحياة وهو أشرف من الحب الأول وهناك يذبل الجمال إذ لامنزلة له فهو كزهرات الرياض يذبل إذا ظهرت الثمرات ، وأما الرحمة فهي أن كلا منهما يعطف على ولده عطفا كليا ويبذل نفسه وماله في إرضائه وهو فرح به قرير العين وهاتان العاطفتان ترتقيان عند الحكماء ، فالعشق والحب الحيوانى ينقلب عند الحكيم إلى عشق العوالم كلها من حيث إدراك حقائقها . فكما نسمع جميل بن معمر يقول :

وما زلتم يابثن حتى لو انني ... من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا

ونسمع عمر بن أبي ربيعة المتوفى سنة ٩٣ يقول في الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث وكان قد تزوجها رجل اسمه سهيل :

أيها المنكح الثريا سهيلا ... عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلت ... وسهيل إذا استقل يمانى

ونسمع المخزومي يقول في عائشة بنت طلحة لما تزوجها مصعب بن الزبير :

ظعن الأمير بأحسن الخلق ... وغدا بلبك مطلع الشرق

ونسمع مجنون ليلى كما يقال وينسب إليه يقول :

وأخرج من بين البيوت لعلني ... أحدث عنك النفس بالليل خاليا

أقول : كما نسمع هؤلاء يقولون ذلك وأمثالهم كثير نسمع عددا أكثر منهم من الحكماء يؤلفون الكتب

ويولعون

ويولعون بالبحث فى العوالم ويعشقون العلم عشقا مفرطا وكثير منهم مات وهو دائب فى بحثه ، ومنهم من يجد لذة فى مبحثه فيزيد فرحه فيموت من شدة الفرح ، وأكثر الكاشفين للمباحث العلمية لم يكن ذلك الكشف إلا عن غرام وحب كما اتفق لكاشف أمريكا (كرستوف كلومب) فقد خاطر بنفسه ورجاله وحاولوا أن يقذفوه فى البحر ولكن القدر نجاه بظهور أمارات تدل على العمران ، إذن عشق العلم عند الحكماء لم يخرج عن كونه عشق الجمال ، فجمال وجه ليلى وبثينة ولبنى عرفه الشاب بنظرات العين وجمال العوالم المحيطة بنا يعرف بالعين وبالعقل وبالسمع ، وهناك يزداد العشق والغرام بازدياد المعرفة ، إذ لاغرام إلا بمعرفة . فهذا هو المبدأ عند الحكماء المقابل للمبدإ عند الشبان كما قدمنا ، أما النهاية فهى (أمران) حب الله تعالى ورحمة المخلوقات . فكما نرى الزوجين انقلب غرامهما إلى حب أحدهما للآخر ورحمة للولد هكذا هنا ينتج حب العلم (أمرين) حب الله تعالى حب يليق بجماله ، ورحمة النوع الإنسانى إذن قراءة أمثال هذا التفسير تنتج حب العلوم وحب العلوم ينتج (أمرين)حب الله تعالى على مقدار العلم بمصنوعاته ورحمة النوع الإنسانى إذن كلما كثر علم العالم بالعجائب فى هذه العوالم ازداد حبا فى ربه ورحمة لعباده وسعد سعادة لاحد لها لأنه قد وصل إلى اليقين . وهذا كله نتائج هذه الآية « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر » إلى قوله « إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » .

إذا علمت ذلك وفهمته حق معرفته فهمت مايقوله الإمام الغزالى فى الجزء الرابع من كتابه المسمى [إحياء علوم الدين] تحت العنوان الآتى وهذا نصه :

بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم

(وأنه لايتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة)

اعلم أن اللذات تابعة للادراكات والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ولكل قوة وغريزة لذة ولذتها فى نيلها لمقتضى طبعها الذى خلقت له فإن هذه الغرائز ماركبت فى الإنسان عبثا بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر الأمور هو مقتضاها بالطبع فغريزة الغضب خلقت للتشفى والانتقام فلا جرم لذتها فى الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبعها وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام فلا جرم فى نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها وكذلك لذة السمع والبصر والشم فى الإبصار والاستماع والشم فلاتخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها فكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى لقوله تعالى « أفمن شرح صدره للإسلام فهو على نور من ربه » وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الإيمان واليقين ولامعنى للاشتغال بالأسامى فإن الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن أن الاختلاف واقع فى المعانى لأن الضعيف يطلب المعانى من الألفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعانى التى ليست متخيلة ولامحسوسة كإدراكه خلق العالم أو افتقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية ، ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لايفهم من لفظ العقل مايدرك به طرق المجادلة والمناظرة فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية وإلا فالصفة التى فارق الإنسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغى أن تذم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهى لذتها كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها وليس يخفى أن فى العلم والمعرفة لذة حتى إن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو فى شىء خسيس يفرح به والذى ينسب إلى الجهل ولو فى شىء حقير يغتم به ، وحتى إن

الإنسان لايكاد يصبر عن التحدي بالعلم والتمدح به في الأشياء الحقيرة، فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لايطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر مايعلمه وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهي منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع إذا أثني عليه بالذكاء وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم وسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والأرض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم حتى إن الذي يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره في رياسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك فإن الرئيس أطلع على أسرار الوزير وتدبيره وماهو عازم عليه في أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس فإن كان خبيرا بباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولي على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وحبه له أكثر لأن لذته فيه أعظم، فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها وشرفها بحسب شرف المعلوم فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألذ العلوم لامحالة وأشرفها وأطيبها. وليت شعري هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها. وهل يتصور أن يكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لايحيط بمبادئ جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين، فإن كنت لاتشك في ذلك فلاينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها وأجدر مايعظم به الفرح والارتياح والاستبشار، وبهذا تبين أن العلم لذيذ وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وتدبيره في مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين فينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعني لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس فإن اللذات مختلفة بالنوع أولا كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ولذة المعرفة للذة الرياسة وهي مختلفة بالضعف والقوة كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر الشهوة وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى مادونه في الجمال وإنما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل فيعلم به أن لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات، فنعود ونقول اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس وإلى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأنف ولا للأذن ولا اللمس ولا الذوق. والمعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة، فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة وإن كان علي الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة فاختياره الرياسة يدل على أنها ألذ عنده من المطعومات الطيبة، نعم الناقص الذي لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي أو كالذي ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لايبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته. فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى

أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق وغاية العبارة عنه أن يقال « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين » وأنه أعد لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر وهذا الآن لايعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا فإنه لامحالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذين يرأسهم لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته وكونه مشوبا بالكدورات التي لايتصور الخلو عنها وكونه مقطوعا بالموت الذي لابد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله تعالى ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات متسعة للواردين عليها لاتضيق عنهم بكبرها وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولاممنوعة ثم هي أبدية سرمدية لايقطعها الموت إذ الموت لايهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذي هو أمر رباني سماوي وإنما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها عن حبسها فأما أن يعدمها فلا « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم » الآية ولا تظنن أن هذا مخصوص بالمقتول في المعركة فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد ، وفي الخبر « إن الشهيد يتمنى في الآخرة إن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم مايراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتمنون لوكانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء » فإذا جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا إلا أنهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولايدخل في الحصر تفاوت درجاتهم ، فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوي الكمال من لذات الحواس كلها وأن هذه اللذة لاتكون لبهيمة ولا لصبي ولا لمعتوه وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوي الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها ولا يمكن إثبات ذلك عند من لاقلب له لأن القلب معدن هذه القوة كما أنه لايمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين لأنه فقد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين وعند هذا لايبقى إلا أن يقال من ذاق عرف . ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوي حرصهم على طلبها فإنها أيضا معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية . فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح مايكاد يطير به ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا ممالايدرك إلا بالذوق والحكاية فيه قليلة الجدوى فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء وأنه لالذة فوقها ، ولهذا قال أبوسليمان الداراني : إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولارجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له أخبرني ياأبامحفوظ أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق ؟ فسكت وقال ذكر الموت فقال وأي شيء الموت؟ فقال ذكر القبر والبرزخ فقال وأي شيء القبر فقال خوف النار ورجاء

الجنة فقال وأى شيء هذا إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا . وفي أخبار عيسى عليه السلام إذا رأيت الفتى مشغولا بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه . ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال مافعل أبو نصر التمار وعبدالوهاب الوراق؟ فقال تركتهما الساعة بين يدى الله تعالى يأكلان ويشربان . قلت فأنت قال علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه . وعن علي بن الموفق قال رأيت في النوم كأني أدخلت الجنة فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا قال ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف فقلت لرضوان من هذا فقال معروف الكرخي عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى القيامة وذكر أن الآخرين بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل ولذلك قال أبو سليمان من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه وقال الثوري لرابعة ماحقيقة إيمانك قالت ماعبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كأجير السوء بل عبدته حبا له وشوقا إليه وقالت في معنى المحبة نظما :

أحبك حبين حب الهوى   وحبا لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى   فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهل له   فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى   ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة وبحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما ولذة مطالعة جمال الربوبية هى التى عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى « أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر » . وقد تعجل بعض هذه اللذات فى الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ، ولذلك قال بعضهم إنى أقول يارب ياالله فأجد ذلك على قلبى أثقل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادى جليسه؟ وقال إذا بلغ الرجل فى هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة أى يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون مايقوله جنونا أو كفرا فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط فهى قرة العين التى لاتعلم نفس ماأخفى لهم منها وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها فلو ألقى فى النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التى ليس فوقها غاية ، وليت شعرى من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل وأى معنى لوعد الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم بل من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوى تحت هذه اللذة كما قال بعضهم :

كانت لقلبى أهواء مفرقة   فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى

فصار يحسدنى من كنت أحسده   وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى

تركت للناس دنياهم ودينهم   شغلا بذكرك يادينى ودنيائى

ولذلك قال بعضهم :

وهجره أعظم من ناره   ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب فى معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح فإن الجنة معدن

تمتع

عتع الحواس. فأما القلب فلذته فى لقاء الله فقط، ومثال أطوار الخلق فى لذاتهم مانذكره وهو أن الصبى فى أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده ألذ من سائر الأشياء ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ماقبلها فى الوصول إليها ، ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر وهى آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى «اعلموا أنما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر» الآية ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ماقبلها فكل متأخر فهو أقوى وهذا هو الأخير . إذ يظهر حب اللعب فى سن التمييز وحب النساء والزينة فى سن البلوغ وحب الرياسة بعدالعشرين وحب العلوم بقرب الأربعين وهى الغاية العليا، وكما أن الصبى يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء ، وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى والعارفون يقولون « إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون» . هذا ماأردت نقله من كتاب الإحياء ، واعلم أيدك الله أن حب الله وحب العلوم المذكورين فى كلام الغزالى المذكور قد مهدت له الطرق فى زماننا تمهيدا أتم من الأزمان السابقة فإن المسلمين فى العصور المتأخرة كانت معارف جمال العالم محصورة عندهم فى كتب قليلة غير موضحة ولا مفصلة وهى كتب التوحيد وكتب الفلسفة . أما فى زماننا فان الله عز وجل قد أوسع دائرة المعارف وبذلها للناس قاطبة والمسلمون منهم فعليهم اليوم أن يغترفوا منها، ولقد أخذ المؤلفون فى ديار الإسلام يتفننون فى فنون الحكمة ويعبدون طرقها ، وأحمد الله إذ جعل لمن يقرءون أمثال هذا التفسير مراق وسلالم يرتقون بها إلى الأعمال الشريفة فى الدنيا وفى حب الله تعالى، وفرق مابين النابغين فى أمم الإسلام قبل اليوم وبينهم بعد زماننا أن النابغين فى الأمم الاسلامية المتأخرة أكثرهم كان يجعل همه الانقطاع عن الناس كما يفعل البراهمة فى الهند ؛ أما النابغون بعد الآن القارئون لأمثال هذا التفسير ، فهؤلاء يجدون أن الله يوجب عليهم الجد والتشمير فى حوز العلم بجميع أنواعه وسينبغ قوم فى الكيمياء فى معاملها ، وآخرون فى رصد الكواكب وحسابها . وآخرون فى النبات والحيوان والحشرات وهكذا ، وآخرون فى علم طبقات الأرض وتكون العلوم كلهاموجهة (لغرضين اثنين : الغرض الأول) خدمة المجموع بها كما تحنو الأم على ولدها بالعطف والشغف والسهر. (والغرض الثانى) ازدياد الغرام بالعلم ونظام العالم مع حب الله والغرام بلقائه ، ومن يخش يره . والحمد لله رب العالمين . كتب ليلة الأحد (١١) مايو سنة ١٩٣٠ .

﴿بهجة علمية فى الحب والغرام﴾

لطالما خطر لى فى هذه الآونة من المعانى الشائقة فى الحب . أنى رأيت أن الأم المحبة لولدها والعالم المحب لأمته والمحسن المحب لمن أحسن إليهم . كل هؤلاء أكثر حبا للولد وللأمة ولمن أحسنوا إليهم من الآخرين إلى الأولين كما هو مبرهن عليه . فاذا رأينا الله عزوجل إحسانه ورأفته أعم وأعظم . أفلا يكون حبه لمخلوقاته أكمل وأعظم من حبهم له سيما أنه يقول «يحبهم ويحبونه» مع ملاحظة الفرق بين الحبين، إذ حبنا له حب حادث ناقص وحبه منزه مقدس له معان غير مانعرفها وعلى هذا يكون كل ألم وكل مرض وكل سوء وكل فقر لم توجه لنا إلا لاسعادنا وتكميلنا حتى نصلح للقائه ونشاهد ذاته . وأيضا لم نجد أبا ولا أما ولا ملكا ولا أميرا له إحسان يوازى احسان الله لمخلوقاته . وإحسان الله للخالق لم يكن عن كراهة إذن هو عن ذلك الذى أسميناه حبا منزها عن سمة الحوادث .

أقول : فهذه المعانى التى كانت تختلج فى نفسى لم أجد لها تعبيرا يليق بها ولا كسوة جميلة تلبسها حتى ظهرها فى هذا التفسير . أفلا أحمد الله إذ رأت نفسى هذه المعانى بنصها وفصها ظهرت على ألسنة قوم قبلنا

فانظر واعجب أيها الذكي لما جاء في الاحياء في الحب وهذا نصه :

«أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقا إلى وتقطعت أوصالهم من محبتى . ياداود هذه إرادتى فى المدبرين عنى فكيف إرادتى فى المقبلين على ؟ ياداود أحوج ما يكون العبد إلى اذا استغنى عنى ، وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدبر عنى ، وأجل مايكون عندى إذا رجع إلى » .

وقال أبو خالد الصفار : (لقى نبى من الأنبياء عابدا فقال له : إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معاشر الأنبياء نعمل عليه . أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق)

وقال عبد الله بن محمد (سمعت امرأة من المتعبدات تقول وهى باكية والدموع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا إلى الله تعالى وحبا للقائه . قال فقلت لها أفعلى ثقة أنت من عملك ؟ قالت لا ولكن لحبى إياه وحسن ظنى به . أفتراه يعذبنى وأنا أحبه؟) .

ومن خطاب الله لداود عليه السلام : « ذكرى للذاكرين ، وجنتى للمطيعين ، وزيارتى للمشتاقين ، وأناخاصة للمحبين» .

ويقال : الشوق نار أشعلها الله فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها مافى قلوبهم من الخواطر والارادات والعوارض والحاجات انتهى .

﴿ بهجة الجمال فى ليلة ١٤ من شهر ذى الحجة سنة ١٣٤٨ هجرية ﴾

أكتب هذا صباح يوم الأربعاء من نفس هذا الشهر . هل لك أيها الذكى أن أحدثك عن الجمال والبهجة فى المزارع النضرات والنخلات الباسقات فى دجنات الظلمات . هل لك أن أريك كيف يكون العلم أثناء الرياضات وتشتق الحكمة من الحقول العطرات والجمال من جوانب الطرقات .

ذلك أنى كنت يوم الاثنين الماضى وهو آخر أيام التشريق الثلاثة فى مزرعتنا بقرب القاهرة وهى قرية من بلدة المرج أنظر فى أمر الزرع والحصاد والحساب بينى وبين المستأجرين للأرض ، وهكذا كانت هناك هجمات الجراد على البلاد فقابلنى الموكلون بإبادته وهم يجمعون الرجال والأطفال ليهلكوا ذلك الجراد من الأرض ويبيدوا صغاره اللاتى خرجن من البيضات اللواتى دفنها الجراد فى الأرض وقضيت معهم زمنا طويلا حتى إذا أرخى الليل سدوله قفلت راجعا إلى بلدة المرج لأركب القطر وأتوجه للقاهرة ، فما كدت أقرب من بلدة المرج المذكورة حتى شاهدت منظرا بديعا جميلا لم أشعر بنظيره أمد الحياة . وما هو ذلك المنظر ؟ هو نفسه الذى أشاهده منذ عشرين سنة ، نعم هو نفسه ولكن هذا المنظر فى هذه الليلة يمتاز بالظلام الساكن الهادى فوقفت والنخيل حولى من الجهات الأربع فرفعت طرفى إلى السماء إذا أمامى (منظران مدهشان) منظر البدر شرقا ومنظر النجوم غربا . نظرت البدر بوجهه المشرق يطل من بين الجريد والخوص وعراجين النخلات وهو يفيض على الأرض أنهارا من الفضة الذائبة كأنه ملاءة تغطى جذوع النخل وعراجينه وتغشى وجه الحقول بالبهجة اللامعة والأنوار الساطعة والجمال الباهر . وهنالك من جهة الغرب كأن الكواكب قطع من الماس جميلات باهرات تنفذ أشعتها من خلال النخيل . فالبدر شرقا والنجوم غربا . ذهبن بلبى من الجمال والنضرة والرياح عابثات بالغصون والجريد والجذوع والزروع والحشائش ذات النوير والترنح . وهناك سمعت غناء الحشرات فى تلك الأرجاء . فهى إذن حانة جمعت بين رقص الزروع والأشجار وغناء الحشرات وألحان أعواد النخيل وأوراق الزروع والأغصان . وهنالك خيل إلى أن البدر (وقد علا فى الأفق فوق تلك النخلات الباسقات) يخاطبنى قائلا : (لقد أعجبك أيها الجوهرى منظرنا الجميل وآنسك ماترى من نور باهر وجمال ساحر . لقد مر فى هذا المكان قبلك رجال ورجال فى قرون مضت وأمم خلت أيام الفراعنة القدماء ودولتى

اليونان والرومان والأمويين والعباسيين والاخشيديين والطولونيين وهكذا إلى أيامكم هذه وقليل منهم المفكرون ها أنت ذا اليوم حبست فى الأمور الجزئية والأعمال الزراعية والأحوال الاقتصادية والحيرة فى أمر الجراد . لمنظرنا الذى تراه يبشركم بالسعادة والبقاء . ألا ترى أن أعمالكم الجزئية الدنية من زراعية وتجارية وصناعية ليس لها مستقر ولا بقاء وحياتكم ذاهبة وأعمالكم كلها ستصبح فى خبر كان . فالجاهل لا يعقل مافوق ذلك ، أما الحكيم فانه يتذكر بمنظر الكواكب فى سمائكم أنكم مخلوقون للدوام كما دمت أنا ودامت النجوم قرونا وقرونا فرآنا أجدادكم الأولون وهكذا أنتم لنا الليلة تنظرون . وأما أنا أيها الجوهرى وما النجوم إلا ضرب أمثال للدوام الروحى فأرواحكم دائمة كما دامت أنوارى على توالى القرون والسنين وأشرقت فى نفس هذه البقعة ورآها من قبلكم وسيراها من بعدكم . نحن تذكرة لكم بأمرين : جمال الله الدائم الباقى وإن اعترتكم الحوادث المزعجات المهلكات . وبقاء أرواحكم على مدى الزمان .

إن هذه الخواطر كلها قد استغرقت عقلى وأثرت فى نفسى وكأنى غير واع لما حولى . وكنت أخشى أن يمر إنسان فيكون سلامه على قاطعا للفكر فكان ذلك وسلم رجل فرددت سلامه ولكن الفكر لم ينقطع بل ازداد وضوحا وكأنى أقرأ فى وجه البدر الذى فهمت من منظره هذه المعانى آيات أخرى . ذلك أن العباد فى الأمم الإسلامية أشبه بذلك النجم الذى ظهر من خلال النخلات غربا والعالم الحكيم الذى درس العلوم أشبه بنفس هذا البدر والناس بينهما درجات .

ياعجبا : إن ذوى العقول الكبيرة فى الإسلام اذا قصروا أنفسهم على علم الفقه أو العبادة كانوا أشبه بهذا الكوكب يرى صغيرا جدا فاذا درس نظام هذا العالم كان كالبدر ، بل هو كحقيقة النجم لأنه كثيرا مايكون أكبر من الشمس .

إن المسلم إما قادر على العلم وإما قادر على منفعة الناس وإما عاجز . فالأول كالبدر اذا درس العلم والثانى ينفعهم فى دولهم وأمورهم العامة . والثالث لعجزه يقتصر على العبادة وحدها . ومن الجهل والبلادة أن تكون العقول الكبيرة محصورة فى العبادة اللفظية ، بل عليهم التوغل فى العلوم ليكونوا بدور الأمم الإسلام وإلا فليكونوا نافعين بالأعمال . وإلا فليكونوا فى المساجد وهذه آخر المنازل التى تشبه النجم وهو صغير فى نظر الإنسان . هذا آخر مافهمته من مناظر البدر والنجوم والشجر والزرع والحمد لله رب العالمين .

جوهرة فى قوله تعالى «أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير »

(تذكرتى)

ها أنا ذا أيها المسلمون قبل أن أفارق هذا العالم أكتب إليكم تذكرتى ونذرى . أكثر هذا النوع الإنسانى لايعيش فوق الستين ، وقليل منهم من يعيش إلى السبعين ، والنادر من يجاوز ذلك الى المائة . والشاذ جدا يجاوزها .

نظرت فى هذا العمر الإنسانى نظرة غير نظرة الأطباء . الأطباء فى عصرنا يقولون : [إن الإنسان يستحق أن يعيش (٢٠٠) سنة ولكنه بجهله وشرهه وعدم انتظام شهواته قطع حياته فمات قبل ذلك] واستدلوا على ذلك بسكان البادية الذين يعيشون الى (١٥٠) وأكثر وأقل بلا مرض ولا عطب وهم أقوياء الأبدان أهل

صحة وقوة وجمال . ويقولون : [إن الحيوان يعيش ثمانية أمثال مدة نموه والإنسان ينمو إلى (٢٥) سنة وهذه بضربها فى (٨) تساوى (٢٠٠) فاذا حافظ الإنسان على صحته واستغنى عن العقاقير الطبية واكتفى بالمآكل البسيطة وتعرض للشمس وأكثر من الرياضات الجسمية وعاش عيشة خلوية فانه يعيش إلى المائتين كما عاش كل حيوان ضعف مدة نموه ثمان مرات] .

هذا حكم الأطباء وقد ذكرته فى ثنايا هذا التفسير ، وقد أجمعوا على أن ترك الشهوات والتنعم والاكتفاء بأبسط الأطعمة خير ماينفع فى ذلك ، ويستحسنون أكل الفواكه فان أمكن الاقتصار عليها فبها ونعمت وإلا استعان الإنسان بالحبوب والخضر وامتنع عن أكل جميع التوابل ولا يشرب قهوة ولا خمرا ولا شاهيا وهو الشاى المعروف ولا يدخن التبغ . ويستحسنون أن يستغنى بالفواكه عن السكر ويقلل من الملح ويأكل الخبز بلا نخل . اقرأ هذا فى سورة الشعراء عند آية « وإذا مرضت فهو يشفين » وفى طه عند ذكر آدم فى آخر السورة وفى أول سورة الحجر عند قصة آدم وفى سورة الأعراف عند قوله تعالى «ولا تسرفوا» وفى سورة البقرة عند آية «أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير» فستجد فى بعضها ماقرره ابن خلدون فى مقدمته من أن الذين اقتصروا على طعام الذرة والزيت لم يقربهم الطاعون . أما الذين أكلوا أنواع اللحوم والأدهان ونوعوا الألوان فان الطاعون يبيدهم ويفنيهم إلاقليلا ، وقال إن الأولين يتصفون بالصحة والذكاء والجمال والعلم والعبادة وحسن الخلق وصفاء العيش والشجاعة وأن الآخرين يتصفون بالمرض والبلادة وقبح الصورة والجهل وترك العبادة وسوء الخلق وكدر العيش والجبن .

هذا كلام الأطباء فارجع إليه . وإنما ذكرته هنا لأذكرك بعلم الطب ولترجع فتدرس ذلك قياما بحق جسمك ورقيا لأمتك وإسعادا لك فى حياتك إذا كنت مستعدا لها ومع هذا كله لست الآن فى مقام كلام الأطباء ، بل أنا فى مقام آخر وهو أنى أفسر آية «أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر» فأريد أن أبين لك ماخالج قلبى فى هذه الحياة وماأعرفه من نذرها تذكرة لك وتنشيطا للمسلمين وذكرى لقوم يعقلون .

هذه هى تذكرتى فى الحياة . لقد نظرت فى حياة الناس على الأرض فوجدت أكثر الآجال مناسبة لهذا العالم الأرضى . فليقل الأطباء ماشاءوا ، وليقولوا إن الناس قد أساءوا فى صحتهم وأكثروا ألوان الطعام والشراب والتفانى فى المهلكات واللذات اللاتى يمنعن لذة الحياة ويحطن الإنسان بالأسقام والعلل وتنغيص الحياة وقصر العمر فليقولوا ذلك ، ولكن هذا الإنسان على مابه من عوج رأينا يتعلم فى الأمم الراقية وينتهى تعليمه فيما بين العشرين والثلاثين غالبا فنجده حاز درجات التفوق فى العلم والفنون وأخذ بعد ذلك يفيض من علمه على أمته . وبعبارة أخرى رأينا مدة النمو التى ذكروها وهى (٢٥) سنة هى المدة التى ينمو فيها علمه فكأن نمو الجسد ونمو العلم فرسا رهان معا يبتدئان ومعا ينتهيان غالبا ، ثم يعقب تلك المدة أننا نراه يأخذ فى الأعمال ويؤلف الكتب وينشر العلوم بين الناس وليس لنا فى الحياة إلا علم أولا وعمل ثانيا ، فالعلم حصلناه فى سن النمو والعمل متصل به ، إذن هذا العمر مع قصره قد أدى الوظيفتين وظيفة العلم فى سن النمو ووظيفة العمل فى السن التى بعدها ، أما قولهم إنه مستعد أن يعيش فوق ذلك فربما يكون بعض ماقالوه حينما يرتقى الإنسان عن هذه الحال ويعرف حقا أن سعادة الحياة ليست باللذات الحقيرة ، بل بالصحة والعافية والعلم والحكمة والمساعدة العامة ، تلك اللذات التى لايعرفها إلا من نالها ، وهيهات أن يقدر على وصفها لغيره من الناس الذين لم ينالوها .

هذه تذكرتى فى أمر الحياة إجمالا ، أما تذكرتى فيما أنذر به الإنسان فى هذه الحياة فها أنا ذا أحدثك عنه فإنه أهم عاقبة فأقول :

إنى وجدت هذه الحياة ترجع إلى (أربعة أشياء) (١) ألم (٢) وأمل (٣) وعمل (٤) وحب وغرام فالثلاثة الأولى مقدمات والرابعة هى نتيجة الحياة .

﴿ الألم ﴾

أما الألم فهاك وصفه إجمالا فقد ذكرته فى غير ما موضع ولكن ألخصه لك تلخيصا فأقول :

لا ألم فى هذا الوجود إلا لإسعادنا ، الحياة كماء النهر ولا سبيل لحفظ الماء إلا بالجسور هكذا هذه الحياة لادعام لها ولا بقاء إلا بالآلام ، فألم الجوع به طلبنا الطعام فدامت الحياة ، ومثله ألم العطش فنلنا الرى ، وألم الشبق فكانت الذرية وألم الفقر فنلنا المال ، وألم الذلة فنلنا العزة ، وألم الخمول فنلنا الظهور والمجد ، وألم الذم بوصفنا بالبخل فاتصفنا بالكرم ، وألم الذم بالخوف والجبن فكسبنا الشجاعة وألم المرض فتداوينا فرجعت الصحة .

آلامنا كلها خلقت لإسعادنا ولا شقوة فى هذا الوجود إلا لنتيجة نافعة . وإذا رضينا أن نقطع عضوا من أعضائنا خيفة أن يصاب بقية الجسم بما أصابه واستعملنا الحمية فى أمراضنا طلبا للصحة فان النتيجة لذلك كله منافعنا . فاذا كانت هذه أفعالنا مع قصور علمنا فهكذا نتذكر أن كوارث هذه الدنيا على هذا النمط من قحط وزلازل وإهلاك بلاد وإغراق سفن . فهذه كلها أشبه بقطع سلعة من الجسم وإن كنا ندرك حكمة قطعها من جسمنا ولكنا نعجز عن إدراك الحكمة فى قطعها من الجسم العام كله ، بل علماء الاقتصاد أدركوا أن الزلازل بها تظهر تربة جديدة فيها خصب لانظير له فى التربة كما تقدم فى أول (سورة سبأ) فاقرأه هناك عند آية «يعلم مايلج فى الأرض» الخ .

تنظر فى أحوال هذه المخلوقات الحيوانية فنجد أربع لذات وأربعة آلام والآلام سابقات على اللذات :

(١) ترى لذة المآكل والمشارب والملابس والمساكن سبقتها آلام العرى أو توهمه وخوف البرد والحر والفضيحة بين الناس . فآلام هذا النوع من موارد الحياة سبب لطلب الطعام والشراب والملابس والمساكن ، فهنا ألم تبعه أمل ثم يكون الجد والتشمير فى طلب هذه المطالب ثم تكون اللذة بها ، فهاهنا ألم تبعه أمل أوجب العمل لحصول المطالب وقد لازمه الشوق والغرام للمطلوب .

(٢) ثم ترى الناس والحيوان جميعا يسعون لاجتماع الذكر والأنثى ، فهناك ألم يتبعه أمل فى الاجتماع فيكون العمل لطلب الشريك من ذلك النوع من الإنسان أوغيره والحب هنا قوى متين والغرام لازم ، فباجتماع الصنفين الذكر والأنثى تزول آلام الشبق ، وبظهور الجمال والموافقة والأنس تزداد اللذة كما تزداد السعادة فى أنواع الطعام والشراب بجمال المائدة وحسن الطهى وجمال الرونق ويتبع ذلك مايرى فى الزروع والأشجار من الجمال والبهجة والحسن والإشراق . كل ذلك ترغيب فى المحافظة على النبات ليتم نضجه فالجمال صاحب للطاعم فى حقولها وفى إبان تعاطيها وهذا كله يزيد اللذة والانبساط والأنس .

(٣) ثم ترى هنا درجة ثالثة أعلى من السابقتين وهى أن الأبوين اللذين تعاشقا لمنفعتهما الخاصة وفرحا باللذات والجمال فزالت آلام الشبق وحصلا على بهجة وأنس وموافقة لتمتع الأعين بمحاسن المناظر والأسماع بعذب الألفاظ وحاسة الذوق بما يناسبها ، كما متعا الأعين بمناظر الزرع وبهجة الانتظام فى موائدهما وما كلهما ومشاربهما ، ومتعا حاسة الذوق بألوان الطعام .

أقول : إن هذين الأبوين اللذين ظنا فى أول الاقتران أنهما اقترنا لحصول لذتهما الشهوية لاغير وأن مايتعاطيانه من الطعام والشراب واللباس لم يكن إلا لأجل بقائهما وحدهما ، تراهما بعد ذلك قد أخذا يزيان البنات والبنين وأن الجمال منهما قد ذهب وحل محله الضعف والنحول وأخذا يضمحلان وانتقلت القبلات منهما إلى أبنائهما وبناتهما وبعد أن كانا يتهاديا أصبحا معا يقدمان أموالهما ومايملكان إلى الذرية

فيظهر للحكيم من هذا الكتاب المسطر أمام الناس يرونه بأعينهم ولا يفقهونه وهم مسوقون مساكين مسخرون أنه لا فرق بين أهل الشرق والغرب فى ذلك التسخير ولا بين الإنسان والحيوان فكلهم مسخرون ولا يدرون إلى أين يساقون ، يساقون فى الحياة كما يساقون فى الديانات ويساقون فى الحكومات . فأهل هذه الأرض على وتيرة واحدة تقليد أعمى فى الديانات وأحوال الحياة ولا حياة لأجسامهم إلا بسائق الألم وقائد اللذة للذوق والعين ولا بقاء لأنواعهم إلا بسائق الشبق وقائد اللذات . فالعين لمناظر الجمال وشهوة الذوق لما لذة الوصال وإذا ولدوا الذرية ساقتهم آلام الرحمة المسلطات على قلوبهم إلى الإرضاع والتربية وشاقتهم صداقة الأبناء وظهورهم وقيامهم بأمرهم فى الكبر وهنا ظهر عالم جديد عالم أرقى من سابقيه . ترى الحيوان فى الدرجة الوسطى يتنزل ويهوى الجمال ويموت غراما وينشد الأشعار وينصب أشراك الحب لصيد المحبوب وهو فى كل ذلك لا يدرى أن هذا كله وسيلة لا غاية . وما الغاية إلا الدرجة الثالثة التى ظهر فيها رحمة الولد والعطف عليه فاما مقام آلام الشبق هناك فهذا سائق هنا كما ساق الشبق هناك ، وإن انتظار نبوغ الولد وأن يقوم مقام الأبوين بعد موتهما يقوم مقام الجمال للطلوب والأنس المرغوب وهو شائق إذن الفرح بمنافع الولد هنا قائم مقام الجمال المطلوب هناك وكلاهما شائق . وآلام القلب والعطف على الولد السائق هنا كالشبق السائق هناك .

الله أكبر وصلنا إلى المطلوب فى هذه الحياة وهو أن خلقنا يدل على أن سعادتنا العظمى لا تحصل إلا بتوجيه الهمة لإسعاد سوانا .

أنا أكتب هذا القول ولا حجة عندى فيه إلا الطبيعة الشاهدة فأنا أكتبها لأهل الشرق ولأهل الغرب فهذا علم قام بالحجة ولا مناقض له . فليقل أهل الشرق وليقل أهل الغرب ماشاءوا وليفكر الفلاسفة والحكماء فى هذه الدرجات الثلاث . أليسوا يشاهدونها فى نفوسهم ، ومن حق الحكماء بعد ذلك أن يسألوا أنفسهم لم هذه المشاق كلها فى الحياة ؟ ولم نجد النبات لا يتعب فى تحصيل قوته ولا له أعمال كثيرة فى التناسل ، فالزهرات تلقح بواسطة الهواء أو الماء أو الحشرات وهن هادئات . وقوت النبات مما حوله ثم ننظر فنجد أدنى الحيوان لا يكون ذكرا وأنثى . كلا . فقد تقدم فى (سورة مريم) الكلام على المحار وأن المحارة تلد الألوف وهى تقوم مقام الذكر ومقام الأنثى فلا غرام ولا عشق ولا هجران ولا حرمان ، وهناك حيوانات دنيئات متى كبرت تفجرت فتقطع الحيوان الواحد إلى قطع كل منها يصبح حيوانا آخر وهذه الحيوانات تملأ البر والبحر وقد تقدم أن من أدنى الحيوان ما يكون تناسله بالانقسام بحيث يكون (٢) و (٤) و (٨) وهكذا أى أن كل واحد ينقسم إلى اثنين وكل منهما ينقسم إلى اثنين وهكذا إلى ما لا نهاية له وسموا تلك الحيوانات بالخالدة لأن الحيوان الأصلى موجود ، ولما انقسم اثنين وهذان انقسما قلنا إنه حيوان خالد فأين الموت اللهم إلا إذا أحرق أو منع عنه الماء ، كل هذا تقدم فى هذا التفسير . فهنا نقول لم هذه المشاق كلها فى نوع الإنسان ؟ ولم أغرم كثير بعزة وجميل بثينة وتوبة بليلى ولم نسمع الهوى العذرى الذى يستولى على عقل الشباب فيموت فى هوى من أحبها كما نسمع فى هذه الأيام بما يحصل فى اليابان من الهوى العذرى كما كان عند قبيلة بنى عذرة .

الحكيم إذا سمع ذلك يقول : لا معطل فى الوجود ولا بد لهذا النصب من نتيجة فى أخلاق الإنسان . وعسى أن تكون النتيجة فى الرتبة الرابعة وهى مرتبة الحكماء . فى هذه الأرض أناس عقولهم أرقى ونفوسهم أصفى جاءوا إلى هذه الأرض وهم مفكرون فيها . فهؤلاء يقولون : [إن هذه الإنسانية آراؤها كلها محدودة والحيوان عندهم تقف أغراضها عند مقاصد جزئية ، وهم درجات بعضها فوق بعض يكتفى أحدهم بالمال والآخر بالنساء والثالث بالبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ويتعالى قوم

إلى أعلى من ذلك فيكونون محافظين على المجموع كالأمراء والحكام والملوك وهؤلاء يعطفون إذا كانوا صادقين على المجموع عطف الأبوين على الذرية ولهم لذات على مقدار ما يحملون أرقى من لذات الأبوين بالذرية لذات العاشقين بدليل أنا نجد القواد إبان الحرب لا تتوجه هممهم إلا إلى غلبة العدو وأن الملك مقدم عند عقلائهم على معشوقه فاذا توقف حوز الملك على تركها تركها لأن لذة الملك أعلى لأنها عقلية ولذة الاقتران بالأنثى حسية واللذة العقلية أعلى من الحسية . ثم ينظر هؤلاء الحكماء نظرة عامة فى حال الناس فيقولون :

(١) نحن عرفنا أن السوائق والفوائد فى المراتب الثلاث المتقدمة لم نرها إلا فى الحيوانات العليا . أما الدنيئة فلا ، وكلما ارتقى الحيوان وجدنا فيه هذه الأحوال أشد وترى عطفه على الولد أكمل فلنجعل هذه مقدمة نبنى عليها نتائجنا فى مستقبلنا مع الناس ، ولبسنا وشربنا وذقنا الحلو والمر وعاشرنا الأزواج ويقولون أيضا نحن أكلنا وولدنا كما يلدون فوجدنا أن آخر المراتب نتائج المقدمات . وهناك أناس تولوا المحافظة على المجموع ولهم لذة على مقدار تلك المحافظة وهى أعلى كما تقدم .

(٢) فأين مزيتنا إذن إذا وقفنا عند هذا الحد . نحن نحب أن نتجاوز هذه المراتب الثلاث وملحقاتها فلا نكتفى بالذرية ولا بالملك لأن هذه كلها لذات محدودة مشوبة بالكدر والحزن والأسى فى الذرية والعزل وكيد الأعداء فى الملك ولكل من الناس درجة يصل إليها ولا يتعداها . أما نحن فإنا لا نقف عند هذه الدرجات بل لننظر نظرة أعلى فنقول ؛

(٣) إذا ثبت أن هناك عشقا بين الذكر والأنثى وأن هذا العشق أنتج الذرية . فالدرجة الثانية أنتجت الدرجة الثالثة التى هى أعلى منها ، فنحن نعشق عشقا أعلى وهى مباحث هـذا الوجود كله فندرسه ونعقله لأننا أهله وهذا العشق لا نقص فيه ، وحكمة العشق الحيوانى أنه مؤهل للعشق العلمى وهذا العشق لا نهاية لمداه فهو نفسه لذة لا يشوبها كدر ولا يعتريها نقص . وإذا كان العشق الحيوانى فى الشباب فالعشق العلمى يكون فى الشباب ويزيد فى المشيب وهناك تضعف اللذة الحسية وتقوى اللذة العقلية . ثم يقولون إذا رأينا أن الدرجة الثالثة وهى النهاية للحيوان أنه يعطف على الولد ويفرح به . فعطفه عليه بسائق آلام الرأفة والرحمة وفرحه به بسائق اللذة بصحته وعلمه ومناصبه ، ويرمز لهذه الدرجات كلها «لتركبوها وزينة» فالركوب لدفع ألم المشى والزينة بحصولها فى الملك والتباهى بها فهاتان ساريتان فى الدرجات كلها .

فها نحن أولاء نعطف على المجموع الإنسانى كله ونجد فى السعادة بما نملك من قدرة وما نستطيع من علم وما نقدر عليه من صناعة . إذن نحن آباء للناس والناس أبناؤنا . فنحن نعشق الوجود كله والعشق يدعو للوصال والوصال صور الموجودات فى النفس ، فمتى أدركنا جمال العوالم العلوية والسفلية بصورها العلمية الجلية فقد نلنا محبوبنا وحصلناه فى نفوسنا وهذا هو الوصال الحقيقى لأن المحبين لا يطلبان إلا اتحاد النفوس . أما الوصال المشهور الجسمى فهو وصال حسى يعقبه فتور الحب نوعا ما . أما تحصيل صور الموجودات من حيث حقائقها فذلك هو اللذة التى نحس بها والناس حولنا تائهون جاهلون نائمون لا يشعرون بما نحس به من الجمال ومستحيل أن يصل الانسان لذلك إلا بدراسة مقدار كاف من العلوم الرياضية والطبيعية والحكمة .

فنحن بهذا نلنا أعلى اللذات فى مقابلة أخسها التى نلناها ونحن هائمون كبقية الشبان . وإذا رأينا أن نهاية هذا الإنسان إنما هى الذرية والتربية ؛ فها نحن أولاء نسعى لتربية الجميع ، نربى الملوك والسوقة ونعطف على الكبار والصغار والفقراء والأغنياء ونحس فى ذلك بلذة تقطع دونها الأعناق .

ولنا في هذا الوجود نظرة عامة بعد ذلك فنقول : هاهنا إشراق الشمس وضوء الكواكب والقمر ، أرسلت هذه لنا من غير عمل منا ، وهذا الضوء لولاه لم تكن لنا حياة وقد أحسسنا في أنفسنا بأعمالنا القليلة وإحساسنا بسعادة على مقدار مازاولنا من إسعاد أبناء نوعنا. ورأينا أن العلماء والحكماء يحبون عموم الناس نظرا لعموم نفعهم وأن الآباء يحبون الأبناء أكثر من حب الأبناء للآباء لأن الدائن يحب بقاء المدين والعالم يحب المتعلم ، والمحسن يحب من أحسن إليه أكثر من حب الآخرين للأولين . فهذه الأنوار المشرقة وأنواع السعادات في الأرض والهواء والماء والأرض والكواكب . كل هذه ليس لنا فيها عمل . ولقد وجدنا أنفسنا نعيش بينها ونتلقى المنافع من ذات لا نراها . أفلا نقول على سبيل القياس التمثيلي وإن لم يكن يقينيا إن هذا الإحسان لم يكن إلا بناء على حب وأن تلك الذات لما أحبت وجود المخلوقات نوعتها ووضعت كلا في مرتبته وهذه الذات هي التي جعلت بعض الناس فرحين بالبرك والمستنقعات وأفرحت الفيران بالمراحيض كما أفرحت النحل بالبساتين وأفرحت العلماء بإدراك ذلك كله وأن استعداد الحكماء أرقى من استعداد جميع المخلوقات في هذه الأرض بعد الأنبياء ، فلذلك كثر إلهامهم وتعليمهم وآثارهم وإرشادهم لأهل الأرض إخوانهم ، وإن أعظم الحب من تلك الذات قد اختص به أولئك الحكماء بعد الأنبياء بدليل أنهم أدركوا الجمال فطلوا وألهموا رحمة العباد فعطفوا عليهم ، فهم إذن صفوة الله في أرضه بعد الأنبياء بهذا البرهان ولذاتهم الحقيقية أعلى من لذات الناس بعد الأنبياء أيضا . ثم يقولون : وإذا كنا نعلم أن تلك الذات المقدسة المحجوبة عنا تحبنا حبا أكثر من حبنا لها بدليل هذه النعم وأن المحسن أوفر حبا لمن أحسن إليهم منهم له وأن كل جمال وبهاء وحسن وإنعام فإنما هي مظاهر ذاته المقدسة . أفلا يكون ذلك يحفزنا إلى حبه والغرام به والشوق للقائه ثم نجعل كل حياتنا وقفا على رضائه بإسعاد عباده وباقتفاء آثاره فنفكر في سعادة هذا الإنسان المسكين فنجد أنه لا يزال في الجهالة مغمورا . ذلك أنه في الشرق والغرب عاش مقطع الأوصال لا رابطة تربطه ولا جامعة تجمعه إذ جعل اختلاف الأوطان والقبائل والممالك أسبابا للقتال ، كل ذلك منه جهل وغباوة . ذلك أنه لم يدرس جسمه ولو درس جسمه لوجد أن جميع الجسم متصل بالأعصاب ومتى اختل منها عضو أسرع الطبيب بإحضار الدواء وتوارد الحيوانات التي في الدم من الكرات الحمراء والكرات البيضاء فتجتمع على ذلك المرض ويساعدها الدواء من الخارج فيبرأ المريض . فهكذا فليكن هذا النوع الإنساني بعد ما اتصلت الأمم بالمواصلات في زماننا . فاذا حصل لأحدها ضيق أو كرب فلتهم الأمم كلها لها بالمساعدة والاتصال اليوم سهل . فأما إذا كانت تلك الأمة لا تصلح للمساعدة وزاد توحشها ولم تنجع الوسائل في تعليمها وإسعادها فلتقطع من جسم الإنسانية العامة كما يقطع العضو المريض إذا لم يفد فيه الدواء .

هذه هي نهاية آراء الحكماء في مستقبل الزمان ، فهم سيقولون للأمم : لتكن أيتها الأمم مساعدات بعضكن بعضا ، ومن لم يكن عندها استعداد لمساعدة المجموع وغلبت عليها عقائدها الموروثة فلتحتل الأمم كلها في تعليمها . فاذا فشلت جميع الطرق فلتنبذ تلك الأمة ولتتركها جميع الأمم مهملة . وآخر الطب الكى وهناك يسود السلام وتتم سعادة الإنسان .

فهؤلاء الحكماء الذين هذه آراؤهم يفرحون من الآن بالسعادة . وهؤلاء هم الذين يفهمون آية «سلام قولا من رب رحيم» لأن المربي الرحيم الذي عرفوه قد ألهمهم السلام من الآن . ذلك أنهم أيقنوا بأن الأمراض ماهي إلا منذرات تقود للاصلاح والموت خلاص من أسر هذه الطبيعة ورجوع إلى الكمال

المطاق وأى سلام بعد هذا . فهؤلاء « لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون » .

بل هذه البشائر عندهم ، وهم فى هذه الحياة والملائكة المذكورون هم معهم الآن يلهمونهم العلوم والمعارف لعلمهم أنهم يبثونها لأممهم . فالملائكة يدخلون عليهم من كل باب يوم القيامة ويلهمونهم هذه العلوم الموجبات للسلام والأمان فيلقون العلوم للناس وهم بها مطمئنون ولا يبالون بالأعداء ولا بالخصوم والحاسدين ، فهؤلاء لا خوف عليهم فى المستقبل ولا هم يحزنون على ما مضى والملائكة تنزل عليهم وتلهمهم ذلك فى الحياة وإن لم يروهم وبعد الموت وهم إليهم ينظرون .

هذا ما تذكرته عند تفسير هذه الآية وهى قوله تعالى « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير » الله عمرنى فى الأرض سنين ، وسنين وهذه تذكرى لمن بعدى من المسلمين والناس أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

انتهى تفسير (سورة فاطر) يوم الجمعة ٢٣ مايو سنة ١٩٣٠ م و ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٤٨ هجرية .

تفسير سورة يس

هى مكية

(إلا قوله تعالى « وماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » فمدنية)
(آياتها ٨٣ » نزلت بعد الجن)

والكلام على هذه السورة فى (أربع فصول : الفصل الأول) فى تفسير البسملة (الفصل الثانى) فى تفسير الألفاظ (الفصل الثالث) فى ذكر ماكنت فسرتها به منذ سنين لتكون مائلة معانيها أمام القارئ ملخصة مجتمعة (الفصل الرابع) فى العجائب العلمية من سائر العلوم لاسيما علم الكيمياء، وكيف كانت لفظة (يس) التى ابتدأت بها السورة تشير إلى التحليل وقد ظهر ذلك فى قوله تعالى « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً » بحيث يبعث فى الأفئدة شوقاً إلى الحكمة وميلا إلى التعلم وحبا فى الاستطلاع العجائب والحكم الكونية وغرائب العلم.

الفصل الأول فى تفسير البسملة

(مقدمة)

اعلم أن العوالم التى نعيش فيها تجرى على وتيرة واحدة وأسلوب خاص لايتغير، وذلك أنك ترى اليوم يولد بشروق الشمس، ويظهر ضحى، ويشتد وقت الزوال، ويضعف وقت العصر، وينتهى وقت الغروب هكذا السنة فلها ولادة إذا حل فصل الربيع ونزلت الشمس برج الحمل وأخذت الحياة تدب فى الأرض وذاب الثلج، ودبت الحشرات وانبعثت من مراقدها. وقامت الزواحف من نومتها، وسعت الحيات لحياتها، وأورقت الأشجار وأزهرت الأغصان وأثمرت الحدائق وأخذت الأرض زخرفها وازينت. فاذا حلت الشمس برج السرطان هناك يأخذ النهار فى القصر والليل فى الطول وتنضج الثمار وتكون الدنيا أشبه بامرأة كاملة تكلأ أبناءها وتحفظ صغارها وتعطف عليهم وهم مبتهجون، فاذا جاء فصل الخريف وحلت الشمس فى برج الميزان فهناك يعتدل الليل والنهار ثم يأخذ النهار فى القصر والليل فى الطول وتكون الدنيا أشبه بامرأة هرمة ولى شبابها وأدبرت أيامها وساءت حالها، فاذا جاء فصل الشتاء وحلت الشمس برج الجدى هنالك تدخل الحيات فى أوكارها وتتوارى الحشرات فى بيوتهم وتقف الحركات ويخيم السكون على أرجائها وتكون الدنيا أشبه بجثة هامدة لاحراك لها وهكذا تبقى حتى إذا جاء فصل الربيع وحلت الشمس برج الحمل وهكذا دواليك كما قال تعالى « الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق مايشاء ».

فهذا نفسه هو حكم الإنسان، فهو فى أول حياته كاليوم إذا أشرقت الشمس، وهو فى شبابه كالشمس فى ضحاها نهارا. وفى استوائه رجلا كاملا كالشمس إذا توسطت كبد السماء وكان الزوال، فاذا ولت أيامه وأدبر شبابه وأقبل هرمه كان كالشمس إذا آذنت بالمغيب وفارقت أهل الأرض وهم لها وامقون، وهكذا صباه أشبه بفصل الربيع وفتوته واستواؤه رجلا أشبه بوقت الزوال، فاذا ولى زمانه وشابت مفارقه وانحلت مفاصله

واصفر لونه كان أشبه بالسنة إذا حل فصل الخريف وأخذت تنحل عراها وتضعف قواها فاذا ماحل في الرمس وودعوه كالأمس كان كفصل الشتاء وهكذا دواليك . ومثل ذلك كله الأمم :

(١) فلها ولادة كولادة الإنسان تبدأ فيها بقراءة تواريخ الأمم ودراسة الآثار وتضرب الأمثال كالطفل إذا ابتدأ يفتح عينيه فانه إذ ذاك يأخذ يبحث فيما حوله ليتخذ مثالا يقتدى به ومنوالا ينسج عليه وسبيلا يهجه ومهيعا معبدا (بتشديد البا) يسلكه .

(٢) ولها أيام فتوة وقوة وعظمة إذا اشتد كاهلها وعظمت مسرتها وقويت شكيمتها كالإنسان أيام فتوته وتمام رجوليته ، وكالسنة في فصل الصيف .

(٣) ولها أيام انحطاط وضعف كما تنحط الشمس ذاهبة إلى الغروب كل يوم وكالشمس تدخل في برج الميزان ويأخذ النهار في القصر والليل في الزيادة .

(٤) وأيام موت كموت الإنسان وإقبال الليل وحلول فصل الشتاء .

إذا عرفت هذا أيها الذكي فلتعلم أن الأمم الأرضية كانت أيام النبوة قد اعتراها خمول وضعف كخمول السنين وموتها أيام الشتاء ، فلما أن ظهر الإسلام ثارت العزائم وانتشر العمران وهاجت الأرض وماجت وانبعثت المدنية فيها كرة أخرى ، إذ تدهورت المدنيات القديمة في الفرس والرومان وحلت محلها مدنيات حديثة وأخذ العرب الذين كانوا مبعثرين في الصحراء لاجامعة لهم يستخرجون العلوم من مكامنها ويدرسون تواريخ أمم الفرس والروم ويقرءون علوم الأمم شأن الصبي أيام طفوليته والحيوانات في فصل الربيع ، إذ تخرج من أوكارها وتقوم من أجحارها كأنها مبعوثة من أجداثها منتشرة في الأرض تسعى حثيثا للحياة ، فلما أن استقر قرار الأمم الإسلامية في أواخر القرن الثاني وقد استتب لهم الملك وعظم شأنهم أخذوا يستثمرون مازرعوا ويحصدون ما أنبتت لهم مدنيتهم أيام الدولة الأموية ، فوقفوا الفتوحات قرونا وقرونا حتى إذا كانت أيام الشيخوخة وأيام الضعف كالشمس وقت العصر والسنة في فصل الخريف أخذت أمم التتار تكتسح هذه الأمم فرجع المسلمون أشبه بفصل الشتاء في السنة وبالانسان إذا مات وبالنهار إذا أدبر والليل إذا أقبل .

وهاهي ذه الأمم الإسلامية اليوم قد أقبلت أيام شبابها وحلت شمسها في برج الحمل ، وهاهم أولاء يبحثون في كتب الأمم ويقرءون تاريخها شأن الطفل أيام طفوليته إذ يقلد ماحوله والحيوانات المنتشرات في فصل الربيع وشأن المسلمين في القرون الأولى أيام ظهور النبوة ، وهذا التفسير قد ظهر اليوم في إبان صبا الإسلام بعد نوم الأمم الإسلامية في شتاء دهرهم وخمولهم ونومهم العميق . ويريد الله أن يوقظهم من كهفهم ويحيي مجدهم بعد موتهم . فماذا يفعلون ؟ يقرءون أمثال هذه السورة (سورة يس) . فماذا يقابلهم في أولها ؟ فأول مايسمعون منها قسما بالقرآن على صحة الرسالة كالقسم بالنجم إذا هوى على أنه صلى الله عليه وسلم ماضل وماغوى فهذه تقرع أسماع المسلمين اليوم فيقول حكماؤهم : حقا إن النجم هو الذي يهدي الضالين السارين في ظلمات الليالي الحائرين في الصحاري والقفار لايهتدون سبيلا ولا يجدون دليلا وهكذا سفن البحار تضل في أمواجها وتصطدم في شعابها فلا تجد لها واقيا يقيها ولا هاديا يهديها إلا بيت الابرة (البوصلة البحرية) فهي التي تنير لهم السبل وتهديهم إلى سواء الصراط في لجج البحار . فالنجم في الصحراء هداية لمسالك الجبال ، وهو في البحر هدى للربان . وقوام الهداية تلك البوصلة التي تتجه بالمغناطيسية شمالا وجنوبا منحرفة انحرافا قليلا بقوانين لها علوم خاصة تعرف الربان الشرق والغرب والشمال والجنوب . وهنالك يدرس النجوم وأماكنها فيهتدي بها في ظلمات البحر . فهذا هو النجم الذي أقسم الله به حين هوى على أن النبي صلى الله عليه وسلم ماضل وماغوى . ولا ريب أن النجم إذا كان في وسط السماء لا يهدي وإنما هدايته إذ هوى والقرآن الحكيم في (سورة يس) هنا يهدي كما يهدي النجم لذلك أقسم به على أنه من المرسلين على صراط مستقيم لأن هدايته كهداية النجم ، وكما أن للنجم علوما تعرف أماكنه في السماء وبوصلة تهدينا إلى طرقه هكذا هذا القرآن لاتتم الهداية به إلا

بعلوم وعلوم . فهداية النجم تفتقر معها إلى علوم وهكذا هداية القرآن لابد معها من علوم والعلوم التى فى هذه السورة وطرق الهداية فيها إلى الصراط المستقيم لا تعدو سنة مسير الشمس فى اليوم وفى السنة ونظام الدول فى أول ظهورها . ألا ترى رعاك الله أن السورة مبدوءة بضرب المثل بأصحاب القرية التى جاءها المرسلون وكان لهؤلاء المرسلين أنصار وأعداء وانتهى أمرهم بأن غلب الحق الباطل ، فهذا سبيل الأمم فى أول ظهورها تقرأ التاريخ وتعتبر به كالطفل يحبو ويدرس ماحوله والحيوانات خارجات من مخابئها منتشرات فى فصل الربيع وكالأمم العربية إذ بزغت شمسها أيام النبوة . فهاهى ذه أمم الاسلام تعيد سيرتها الأولى إذ أخذت تدرس تواريخ الأمم العربية السابقة أيام النبوة وقبل النبوة ، وتدرس تاريخ الأمم التى حدث بعد ذلك جيلا فجيلا وتستخرج خلاصتها وتقوم من نومتها وتستيقظ من رقدتها وتخرج من كهفها .

لم يقص الله علينا قصص أصحاب القرية لنقتصر عليهم . كلا ، والله . ألم يقل « واضرب لهم مثلا » فهذا مجرد مثل والمثل به تكون الذكرى والذكرى تنفع المؤمنين . لحياة الأمم شباب ثم قوة وتمام ثم انحطاط وضعف ، فهى فى أيام الشباب تقرأ علوم لغاتها وتاريخ أجدادها وتدرس الأمم المحيطة بها فإذا أدركت ذلك كله عرفت أنه لامناص لها من إدارة شئون هذه الأرض ، فهنالك تغرس الأشجار وتحفر الأنهار وتقرأ العلوم وهذا هو قوله تعالى « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا » وهاهنا أخذ يذكر الجنات والزروع والثمار والشمس والقمر والسفن ، فها فى هذه السورة (ثلاث درجات) :

(١) درجة الاستيقاظ لدراسة الآثار البائدة والأمم الخامدة والأيام الخالية كالبحث عن آثارهم فى أحجارهم وكتاباتهم فى قبورهم وأخبارهم فى تواريخهم وهنالك يسمعون « ياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » بعد ماسمعوا أن صيحة واحدة أخذتهم فاذاهم خامدون . فخمود الأمم أعقبها الحسرة عليهم ، فتواريخ الأمم للاعتبار بحوادثها وللاهتداء بعلومها وهنالك يقول الشاعر :

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا بعد عز من مراتبهم ... وأودعوا حفرا يابئسما نزلوا
أين الوجوه التى كانت منعمة ... من دونها تضرب الأستار والكلل
أجاب سائلهم فى القبر قائلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
فطالما أكلوا يوما وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

فهؤلاء أحق بالحسرة وبهم يكون الاعتبار ، فهم مضروبون لنا مثلا . فإذا سمعنا الله يضرب لنا مثلا بأصحاب القرية فلنقل نحن ماأكثر الأمثال الإسلامية التى خلفت تلك الأمم البائدة لما أعرضت وقعت مشمخرة وذهبت كأمس الدابر . فهذه دولة العرب فى الشرق ذهبت ريحها وخر عليها السقف من فوقها إذ أبادها التتار وكذلك لما تخاذلوا فى بلاد الأندلس سطت عليهم الجيوش الجرارة من أمم الفرنجة وهم غافلون فأخرجوهم من أوروبا وهؤلاء أبناؤهم مشتتون فى طول الأرض وعرضها وسيجمع الله شملهم كما جمع شمل آبائهم بظهور الاسلام فى ثوبه القشيب كرة أخرى .

تخاذل المسلمون فى الأندلس وكانت لهم (٢٠) دولة وهم جاهلون بمن حولهم وقد انغمسوا فى النعيم ، وذاقوا سوء المصير . وهاهى ذه قارة استراليا دخلها الفاتحون فانقرض العنصر الأصلى فى البلاد إلا قليلا وهكذا أهل أمريكا الأصليون وهم الحمر المتوحشون . هاهم أولاء أخذوا ينقرضون أمام المحتلين .

هذه نبذة يسيرة ذكرتها هنا اقتداء بالكتاب العزيز إذ ضرب لنا مثلا فأتبعناه بأمثال تبيينا للقرآن وتذكيرا بالفرقان ، لأن الله يقول « لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون » فبمثل هذا يكون التفكر وبمثل هذا يكون التبيان . فهذه هى الدرجة الأولى درجة الاستيقاظ .

(٢) أما الدرجة الثانية فانها آتية بعد عدة سنين فى الأمم الاسلامية وقد ظهرت بوادرها وفيها يكون تمام أمرهم وإليها الاشارة بقوله «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها» الخ . فهذه الدرجة أشبه بالتحلية بعد التخلية . فالأمة تتخلى أولا عن الجهالة وتنبذ الكسل وتعتبر بالأمم الخالية ويعقب هذا الدور دور العمل إذن الأمم الاسلامية اليوم أشبه بآبائنا أيام ظهور النبوة فنحن اليوم كآبائنا أيام الصحابة وأيام النبوة ابتدأنا حياة جديدة نراها آخذة فى النمو والاستيقاظ فى مصر والشام والعراق والفرس والهند وبلاد جاوه والملايو ، وهذه كتلك تماما ، فهاهم أولاء أخذوا يقرءون تاريخ أسلافهم وتاريخ الأمم ولا محيص لهم من تولى زعامة الأمم وقيادتها كما قادها آباؤهم وكانوا نبراسا للأمم كأيام الدولة العباسية .

(٣) أما الدرجة الثالثة فهى أيام الفناء والزوال وهى المذكورة فى هذه السورة من النفخ فى الصور وانقسام الناس فريقين : فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

ومن عجب أن الرحمة المذكورة فى آية البسملة أحاطت بهذه الأقسام الثلاثة فبينا نجد الاعتبار بالأمم فى أول السورة بقوله تعالى «تنزيل العزيز الرحيم» إذا أنت ترى دخول الجنة مشمولا بها إذ يقال لهم «سلام قولا من رب رحيم» فالرحمة فى الاعتبار بالأمم البائدة المضروبة لنا أمثالا كالرحمة فى اقتطاف ثمرات الأعمال فى الجنان وشرب الرحيق المختوم ختامه مسك هناك. فاذا قرأنا تاريخ البائدين فذلك من رحمة الرحمن الرحيم وهى الدرجة الأولى .

وإذا غرسنا الأشجار ونظمنا الحقول وقطفنا الأزهار وجنينا الثمار فذلك من رحماته ، وإذا دخلنا الجنان وشربنا شراب الحب من كأس كان مزاجها زنجبيلا فذلك من الرحمات ، إذن الرحمة فى الاعتبار بالأمم وفى السعادة فى الحياة وفى سعادة الجنات واحدة ، لذلك ابتدأ السورة بقوله «بسم الله الرحمن الرحيم» وبهذا تم الكلام على الفصل الأول فى تفسير البسملة .

الفصل الثانى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ * وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ

إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا
ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون * قالوا ربنا
يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين * قالوا إنا تطيرنا بكم لئن
لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم * قالوا طائركم معكم أئن
ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون * وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا
المرسلين * اتبعوا من لا يسئلكم أجرا وهم مهتدون * وما لى لا أعبد الذى
فطرنى وإليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى
شفاعتهم شيئا ولا ينقذون * إنى إذا لفى ضلال مبين * إنى آمنت بربكم فاسمعون *
قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين *
وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا
صيحة واحدة فإذا هم خامدون * ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا
به يستهزئون * ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون *
وإن كل لما جميع لدينا محضرون * وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا
منها حبا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من
العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون * سبحان الذى خلق
الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون * وآية لهم الليل نسلخ
منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم *
والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر
ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون * وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون *
وخلقنا لهم من مثله ما يركبون * وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون * إلا
رحمة منا ومتاعا إلى حين * وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون *
وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين * وإذا قيل لهم أنفقوا

مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ
أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَيَقُولُونَ مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * مَا يَنْظُرُونَ
إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ
يَرْجِعُونَ * وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا
مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا
تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ
وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ *
سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ * وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى
آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِى هٰذَا صِرَاطٌ
مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ * هٰذِهِ جَهَنَّمُ
الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ
وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى
أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا
اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ * وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ * وَمَا
عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا
وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا
مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ، وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ
أَفَلَا يَشْكُرُونَ * وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ
وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ * فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * أَوَلَمْ
يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ
خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ

بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(يس) قد اطلعت على ما كتبته على الحروف التى فى أوائل السور فى أول (آل عمران) من عددها ومناسبتها للأوضاع الفلكية والفقرات التشريحية الإنسانية والعجائب الطبيعية والاستدلال بها على بقاء اللغة العربية بعد فناء اللغات الأوروبية كما أوضحه علماء الألمان بالاستنتاج الموافق لرمز القرآن . ولعلك أيضا رأيت ماجاء فى (سورة العنكبوت والروم) وما بعدها من إشارة الحروف فى أوائلها وفوق ذلك إلى استكناه العلوم الحكمية ونظام العناصر الأرضية وعجائبها الحكمية والإلماع هناك إلى أن (الم) فى أول سورة البقرة تزيد على ذلك بالاشارة إلى الاستفهام التقريرى فى مسألة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ومسألة إبراهيم والطير والعزير . فهناك قد جاء القول بلفظ (الم) فى أوله . ولكن هذا المقام أبدع بيانا وأعجب نظاما وأعدل ميزانا وأحسن صنعا وأبدع وضعا وذلك من ناحية الآراء الاستنتاجية التى فهمتها والعلوم الحكمية التى منها عرفتها لامن حيث نفس الآيات القرآنية فانها كلها منظمة موزونة هى آيات الكتاب وسترى إيضاح هذا المقام فى الفصل الرابع إن شاء الله تعالى ويسرك منظره من جمال الصنع وبدائع الحكمة ونظام الجمال والجلال (والقرآن الحكيم) أى أقسم بالقرآن ذى الحكمة (إنك لمن المرسلين) الذين هم (على صراط مستقيم) أى على طريقة مستقيمة نزل القرآن (تنزيل العزيز) فى ملكه (الرحيم) بخلقه . أرسلت (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم) أى غير منذر آباؤهم قبلك (فهم غافلون) أى فبقوا غافلين (لقد حق القول) لقد وجب القول بالسخط والعذاب (على أكثرهم فهم لايؤمنون) ذلك لأن الله جعل استعدادهم كذلك فقلوبهم طبع عليها وهذا يفيده قوله (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا) جمع غل (فهى) أى الأغلال واصلة (إلى الأذقان) ملزوقة إليها (فهم مقمحون) مرفوعة رءوسهم . ذلك لأن طوق الغل الذى فى عنق المغلول يكون فى ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود خارجا من الحلقة إلى الذقن فلا يمكنه من أن يطأطىء رأسه فلا يزال مقمحا ، وهذا كله تمثيل أى منعناهم بموانع عن الإيمان تشبه ماذكر (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون) شبههم بمن أحاط بهم سدان فغطيت أبصارهم بحيث لايرون ما أمامهم وماخلفهم فهم محبوسون فى مطمورة الجهالة ممنوعون عن النظر فى الآيات وتكون نتيجة ذلك مابعده وهو (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون) لأن من يرد الله إضلاله لاينفع تخويفه (إنما تنذر من اتبع الذكر) أى لاينفع إنذارك إلا من اتبع القرآن (وخشى الرحمن بالغيب) وهو لا يراه

(فبشره بمغفرة) للذنوب (وأجر كريم . إنا نحن نحيي الموتى) للبعث (ونكتب ما قدموا) من خير وشر (وآثارهم) أى ما سنوا من سنة حسنة أو سيئة (وكل شيء) من أعمالهم وغيرها (أحصيناه فى إمام مبين) كتبناه فى اللوح المحفوظ (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية) أى اجعل لهم صفة أصحاب القرية صفة . ثم أبدل من أصحاب القرية إذ من قوله (إذ جاءها المرسلون) وهم رسل عيسى عليه السلام إلى أهل القرية وهى انطاكية (إذ) بدل من إذ الأولى (أرسلنا إليهم اثنين) أى أرسل عيسى بأمرنا اثنين وهما [يوحنا] و [بولس] فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار فسألهما عن حالهما فقالا نحن رسولا عيسى ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن وشفى ابنه المريض إذ مساه فآمن وفشا الخبر فى المدينة بأن الأبرص والأكمه يشفيان على أيديهما فشكاهما الناس إلى الملك فحبسهما ، ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكرا وعاش مع حاشية الملك وصار من أصحابه واحتال فى ذكر قصة الرسولين أمام الملك وقال له اسمع مايقولانه فدعاهما الملك فحضرا فسألهما شمعون فوصفا الله بالتوحيد والقدرة . ثم أتى بغلام مطموس العينين فدعوا الله له فشق له البصر . فأما الملك فاعترف بأن إلهه لا يسمع ولا يبصر وهكذا حتى بعث ميت مضى له سبعة أيام بدعائهما فآمن قوم وكفر قوم وصاح جبريل بمن لم يؤمن فهلكوا وهذا قوله تعالى (فكذبوهما) أى يوحنا وبولس (فعززنا بثالث) فقويناهما بثالث وهو شمعون (فقالوا إنا إليكم مرسلون ، قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا) أى لا مزية لكم علينا (وما أنزل الرحمن من شيء) وحى (إن أنتم إلا تكذبون) فى دعوى رسالته فاقتضت الحال زيادة التأكيد لزيادة الإنكار (قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) هذا استشهاد بعلم الله وهو يجرى مجرى القسم (وما علينا إلا البلاغ المبين) الظاهر البين بالآيات الشاهدة لصحته (قالوا إنا تطيرنا بكم) تشاءمنا بكم (لئن لم تنتهوا) عن مقالتكم (لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ، قالوا طائركم معكم) أى سبب شؤمكم معكم وهو سوء عقيدتكم وأعمالكم (أئن ذكرتم) أى أتشاءمتم بأن ذكرناكم وخوفناكم بالله (بل أنتم قوم مسرفون) أى فى ضلالكم وشرككم متمادون فى غيكم (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) وهو حبيب النجار (قال ياقوم اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) فأنتم لا تخسرون شيئا من دنياكم وتربحون صحة دينكم فيحصل لكم خير الدنيا والآخرة فقالوا له أتبرأت من ديننا ودخلت فى دين عدونا فقال لهم (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) خلقنى (وإليه ترجعون) بعد الموت (أأتخذ) أأعبد (من دونه) من دون الله بأمركم (آلهة) أصناما (إن يردن الرحمن بضر) إن يصبنى الرحمن بشدة عذاب (لاتغن عنى شفاعتهم شيئا) أى لا تدفع عنى (ولا ينقذون) من المكروه (إنى إذا) إن عبدت من دون الله شيئا (لفى ضلال مبين) خطأ بين (إنى آمنت بربكم فاسمعون) أى فاشهدوا لى بذلك ، فلما قال ذلك وثب القوم عليه وثبة رجل واحد فقتلوه . فلما لقى الله (قيل) له (ادخل الجنة) فلما دخلها ورأى نعيمها (قال ياليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) تمنى أن يعلم قومه أن الله غفر له وأكرمه . وقيل إنهم لما هموا بقتله رفعه الله إلى الجنة على ماقاله الحسن فقال ماتقدم (وما أنزلنا على قومه من بعده) من بعد إهلاكه أو رفعه (من جند من السماء) وهم الملائكة لإهلاكهم (وما كنا منزلين) وما كان يصح فى حكمتنا ، ذلك لأن إهلاكهم أيسر مما يظنون (إن كانت) العقوبة (إلا صيحة واحدة) صاحها جبريل (فإذا هم خامدون) ميتون كما تخمد النار (ياحسرة على العباد) أى تعالى ياحسرة فهذه من أحوالك فحقك أن تحضرى فيها وهى حال استهزائهم بالرسول (ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . ألم يروا) ألم يعلموا وهو معلق عن المفعولين بكم فى قوله (كم أهلكنا قبلهم من القرون) وقوله (أنهم إليهم لا يرجعون) بدل من كم ، والمعنى ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم كونهم غير راجعين إلينا (وإن كل لما جميع لدينا محضرون) أى وما كل إلا مجموعون محضرون

عندنا الحساب وهذا على قراءة « لما » بالتشديد . فأما المخففة فالمعنى أن كلهم محشورون مجموعون الخ (وآية لهم الأرض الميتة) بالتخفيف والتشديد (أحييناها) بالمطر (وأخرجنا منها) من الأرض (حبا) جنس الحب (فمنه) من الحب (يأكلون . وجعلنا فيها) فى الأرض (جنات) بساتين (من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره) أى ثمر ماذكر وهو الجنات (وما عملته أيديهم) أى أن الثمر بخلق الله لابفعلهم (أفلايشكرون) نعمة الله تعالى (سبحان الذى خلق الأزواج) الأصناف والأنواع (كلها مما تنبت الأرض) من النبات والشجر (ومن أنفسهم) الذكر والأنثى (ومما لايعلمون) وأزواجا مما لم يطلعهم الله عليه ولم يجعل لهم طريقا إلى معرفته (وآية لهم) تدلهم على قدرتنا (الليل نسلخ) ننزع ونكشط (منه النهار فاذا هم مظلمون) داخلون فى الظلام (و) آية لهم (الشمس تجرى لمستقر لها) لحد لها مؤقت تنتهى إليه من فلكها وهى نهاية العالم أو نهاية ارتفاعها فى زمن الصيف ونهاية هبوطها فى الشتاء . وهذا لاينافى قراءة ابن مسعود لامستقر لها أى لاقرار لها ولا وقوف فهى جارية أبدا الى يوم القيامة تنتهى كل يوم فى مرأى العيون إلى المغرب وتنتهى مدة السنة وتنتهى مدة ارتفاعها ومدة انحطاطها (ذلك) الجرى المنتظم العجيب (تقدير العزيز العليم) الغالب المحيط علمه بكل معلوم (والقمر قدرناه) أى قدرنا سيره (منازل) أى جعلنا له منازل كما جعلنا للشمس وهى ثمانية وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة فى واحدة منها ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر . فاذا كان فى آخر منازله رق وتقوس وهذا قوله تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) وهو العود الذى عليه الشماريخ إذا أتى عليه الحول فتقوس واصفر ودق. وهذه الصفات الثلاث تكون للقمر عند انتهاء المنازل (لا الشمس ينبغى لها) أى لايصح لها ولا يتسهل (أن تدرك القمر) فى سرعة سيره، أو لا يتسهل لها أن تجتمع معه فى وقت واحد وتداخله فتطمس نوره لأن لكل منهما سلطانا فى وقت خاص فسلطانه بالليل وسلطانها بالنهار (ولا الليل سابق النهار) أى ولا يسبق الليل أى آيته وهو القمر آية النهار فيحل سلطانه محلها . كلا ، لأنهما يجريان بحساب منظم (وكل) من الأرض والشموس والأقمار (فى فلك يسبحون) كما يسبح السمك فى الماء . فالشمس فى مدارها حول كوكب من كواكب الجاثى على ركبتيه ولا يدرى مدة دورتها والأرض تجرى حول الشمس فى سنة وحول نفسها فى يوم وليلة والقمر يجرى حول الأرض كل شهر . ولما كانت مسألة الأرض صعبة الفهم على النوع البشرى قدمها قدمها فى الذكر وفصل بينها وبين الشمس والقمر بجمل حتى لايقال إنها داخلة فى الكتابة فينافى ما عرفه الناس ، إذ ذاك وأتى بلفظ « كل » للدلالة على دخولها ليتفطن لها الناس فى هذه الأعصر وليعلموا أن الله خبأ لهم الحكمة فى القرآن ليستخرجوها مطبقة على الكشف لئلا تقف عقول المسلمين عن السير فى العلوم خيفة أن تنافى كلام ربهم . وليعلم الذكى أن هذه الرموز وضعت فى القرآن لتبشر بها المسلمين أن هذا زمان رقيهم وليسوا كالأمم المسيحية الذين ارتطموا أمدا طويلا فى الجهالة وهم أذلاء جهلاء متوحشون فلم يخرجهم من وحشيتهم وجهالتهم إلا نهضة المسلمين وحروبهم المتوالية معهم فى الشرق بالحروب الصليبية وفى الغرب بالحروب الأندلسية والحروب فى القسطنطينية ، إنه لم يخرجهم من مآزقهم إلا احتكاكهم بأمم الإسلام لأن دينهم ليس فيه ما به يخرجون من الجهالة من الإشارات للعلوم . أما المسلمون أيام تأليف هذا الكتاب فهم على بينة من ربهم فقد ظهر فى هذا التفسير أن القرآن كتاب حكمة وعلم تصريحا وتلويحا ، وإذا جاءت شبهة فى القرآن حلها حتى لا يقف المسلمون زمنا ما عن الرقى مثل ما نحن بصدده ، وأقول : سيقرأ هذا التفسير المسلمون ويصعدون بمدنيتهم إلى العلا فى أقرب زمن . هكذا قضى الله وهكذا سيتم وهو الحكيم العليم . انظر كيف يقول « يسبحون » ومعلوم أن السبح للسمك أليق مع أن الفلك القديم قد جعل الكواكب مركوزة فى الفلك أو فى تدوير الفلك على ما تراه

فى اصطلاحات القدماء فليس للكوكب أن يسبح من تلقاء نفسه ؛ بل لابد له من حامل يحمله وذلك الحامل هو الذى يدور به ؛ فالكوكب مستحيل عليه السباحة ، وكيف يسبح مالا حرية له ولا قدرة له على الاستقلال فى السير ، بل هو محمول هكذا كان فى الفلك القديم ، ولست أطيل لك فيه لأنه معقد ولا يفيدك إنما الذى يهمنا أن جميع الكواكب تسير على الرأى الحديث فى مدارات وتلك المدارات فى عالم الأثير ، فهى إذن كأنها سمك فى بحر .

هذه حقيقة مدارات الكواكب فى العلم الحديث . وهذا هو الذى نطق به القرآن . انظر انظر إلى كلام المفسرين رحمهم الله كيف تراهم يقولون فى « يسبحون » يسيرون ، وذلك لأن الفلك القديم المشهور إذ ذاك لم يكن فيه للكواكب سبح ، فاعجب للقرآن كيف أتى بالكشف الذى يسميه الناس حديثا وقد شرحناه بعض الشرح فى [سورة يونس] وهو مشروح بسيط فى كتابى « جواهر العلوم » وانظر كيف أعقب ذلك بذكر السفن السابحة فى البحار لمناسبة بينهما وأن كلا له طرق لو تركها اختل فى جريه وكل سابح فى مداره ليؤكد للمسلمين بهذا التناسب أن الكشف الحديث يناسب القرآن أشد المناسبة ويشيرلهم من طرف خفى أن يجدوا فى المعقولات والبحث ، فالقرآن أمامكم لاينفر من المعقولات ولا يأنف إلا من الخرافات والجهالات فقال (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم (فى الفلك المشحون) أى الموقرة أوالمجهزة المملوءة التى فرغ من جهازها (وخلقنالهم من مثله) من مثل الفلك (مايركبون من الإبل فإنها سفائن البر ، وقد حمل بعضهم السفينة على سفينة نوح والذرية على الآباء لأنها من الأضداد وما يركبون مثله هى السفن والزوارق . وربما كانت إشارة إلى الطيارات اليوم فهى فى الهواء كالفلك البحر (وإن نشأ نغرقهم) فى البحر (فلا صريخ لهم) فلا مغيث ، أو فلا إغاثة (ولاهم ينقذون) لا ينجون أى لاينقذون إلا لرحمة منا ولتمتيع بالحياة إلى انقضاء الأجل ، فقوله (إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين) منصوبان على المفعول له (وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم) أى ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر مما أنتم تعملون من بعد ، أو من مثل الوقائع التى ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها وما خلفكم من أمر الساعة (لعلكم ترحمون) أى لتكونوا على رجاء رحمة الله وجواب الشرط محذوف أى أعرضوا وإنما جاز حذفه لأن الجملة التى بعده تدل عليه وهى قوله (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) معناه أن دأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة ولا فرق عندهم فى الإعراض بين العقائد وبين الأعمال ولذلك أتبعه بقوله (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله) على الفقراء (قال الذين كفروا) بالصانع وهم المعطلون (للذين آمنوا) تهكما بهم من إقرارهم وتعليقهم الأمور بمشيئته (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) على زعمكم (إن أنتم إلا فى ضلال مبين) فى خطأ بين (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) يعنون وعد البعث (ماينظرون) ما ينتظرون (إلا صيحة واحدة تأخذهم) وهى النفخة الأولى (وهم يخصمون) يتخاصمون فى متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم أمرها وأصلها يختصمون فسكنت التاء وأدغمت ثم كسرت الخاء (فلا يستطيعون توصية) فى شىء من أمورهم (ولا إلى أهلهم يرجعون) فيروا حالهم ؛ بل يموتون حيث تبغتهم الصيحة (ونفخ فى الصور) مرة ثانية (فإذا هم من الأجداث) من القبور جمع جدث (إلى ربهم ينسلون) يسرعون (قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا) أى من أثارنا من مضجعنا ، وقوله (هذا) مبتدأ (ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) خبر أى تقول الملائكة أو بعضهم لبعض أو بعض المؤمنين لبعض هذا الذى وعده الرحمن والذى صدق فيه المرسلون (إن كانت) النفخة الأخيرة (إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) للحساب ، ثم يقال لهم فى ذلك اليوم(فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون . إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل

كضيافة الله والنظر إلى وجهه الكريم حتى ينسوا كل نعيم سواه ، وكزيارة بعضهم بعضا ، وسماع الأوتار وما أشبه ذلك ، وكل منهم يستلذ بما كان أهله فى الدنيا رفعة وضعة ، وقوله (فاكهون) أى متلذذون فى النعمة من الفكاهة (هم وأزواجهم فى ظلال) جمع ظل كشعاب أو ظلة كقباب (على الأرائك) على السرر المزينة (متكئون. لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) ما يدعون به لأنفسهم من الدعاء أو يتمنونه تقول ادع على ماشئت أى تمنه ولهم (سلام) يقوله الله (قولا من رب رحيم) أو يقال لهم قولا كائنا من جهته أى أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيما (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) أى وانفردوا عن المؤمنين وذلك حين يسار بهم إلى الجنة ، ومن جملة مايقال لهم تقريعا (ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) العهد الوصية إذ عهد الله إليهم بما ركز فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل السمع ألا يعبدوا الشيطان بالإصغاء إلى وسوسته وتزيينه كما جاء فى الحديث فى تفسير قوله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » إذ فسر ذلك بأنهم يشرعون لهم الشرائع ويسنون لهم السنن ، فهنا إصغاء للوسوسة وهناك اتباع الشرائع المزيفة (وأن اعبدونى) عطف على « أن لاتعبدوا » (هذا) الذى عهد إليك (صراط مستقيم) بليغ فى استقامته (ولقد أضل منكم جبلا) بضمتين أو كسرتين واللام مشددة فيهما أو كرسل أو قفل لغات ومعناه الخلق فى الجميع (كثيرا أفلم تكونوا تعقلون . هذه جهنم التى كنتم توعدون) فى الدنيا (اصلوها) ادخلوها (اليوم بما كنتم تكفرون) تجحدون بها وبالكتاب وبالرسل (اليوم نختم على أفواههم) نمنعهم من الكلام (وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) . يروى أنهم يجحدون يوم القيامة ويخاصمون فتشهد عليهم جيرانهم وعشائرهم فيحلفون ما كانوا مشركين فحينئذ يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وأرجلهم وفى الحديث « يقول العبد يوم القيامة إنى لا أجيز على إلا شاهدا من نفسى فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل » .

واعلم أن هذا القول هو الذى يطابق العقل وعلم الحقيقة على التحقيق ، ألا ترى رعاك الله أن الإنسان فى الدنيا وهو فى هذه الدار الملوثة أكاذيب وشرورا ونفاقا يخجل فتظهر فى وجهه الحمرة ويوجل فيصفر ويتخذ القضاة من ذلك أدلة على إدانة المتهم ، وترى بعض الناس يقصون أثر الجناة ويتبعونهم فى السهل والجبل حتى يصلوا إليهم فيقدمون للقضاء ، وهكذا أيدى المجرمين يختم بها على الورق فلا تشابه يد يدا ، وإذا كان هذا فى عالمنا الجسمانى فمابالك بالنفوس التى هى من عالم الأرواح فإن لكل ذنب أو عمل حسن أثرا فى النفوس بحيث يتربى فيها الخير والشر ، فإذا انفصلت الأرواح من الأجساد ظهرت بهيئتها التى كانت عليها من شر وخير وهذا قوله تعالى « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » فالنفس إذن هى الكتاب المكنون الذى لاغش فيه ولا كذب ، فإذا صمت اللسان نطقت الجوارح كما نطقت فى الآثار اليوم فى الدنيا ولكن هناك نطقها أفصح وعملها أكمل وعلاماتها أتم . وفى حديث مسلم أنه ﷺ قال: «هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليست فى سحابة؟ قالوا لا يارسول الله . وهكذا قال وقالوا فى القمر ليلة البدر ، قال فوالذى نفسى بيده لاتضارون فى رؤية ربكم إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما» ثم شرح فى الحديث لقاء العبد ربه إذ ذاك إذ يقول له : «ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل» فيقول العبد بلى ويقر بأنه ماكان يظن لقاء الله وهكذا الآخر . ثم يقول آخر: «يارب آمنت بكتابك الخ فيختم على فيه» إلى آخر ماتقدم . انتهى ملخصا .

ثم قال تعالى (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) لمسخنا أعينهم حتى تصير ممسوحة (فاستبقوا الصراط) فاستبقوا إلى الطريق الذى اعتادوا سلوكه وهو منصوب بنزع الخافض (فأنى يبصرون) أى فكيف يبصرون حينئذ

وقد

وقد طمسنا أعينهم (ولو نشاء لمسخناهم) قردة أو خنازير (على مكانتهم) أى فى مكانهم ، وقرئ « مكاناتهم » أى لمسخناهم فى منازلهم حيث يجترحون المآثم والكفر (فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون) فلم يقدروا على ذهاب ولا مجيء أو مضيا أمامهم ولا يرجعون خلفهم (ومن نعمره) نطل عمره (ننكسه فى الخلق) نقلبه فيه فلا يزال يتزايد ضعفه حتى نرده إلى أرذل العمر (أفلا يعقلون) أى من قدر على ذلك تدريجا قدر على الطمس والمسخ فجأة (وما علمناه الشعر) رد لقولهم إن محمدا شاعر فلا لفظه موزون ومقفى كالشعر ولا معناه مما يتخيله الشعراء كما تقدم بيانه فى سورة الفاتحة من الموازنة بينه وبين القرآن (وما ينبغى له) وما يصح له الشعر ولا يتأتى له إن أراد قرضه لأن الشعر سجية فى النفس وصعب على الإنسان مالم يجود ، فليس كل الناس شاعرا ولا كل من أراد الشعر يتيسر له ، كيف لا وما كان ينبغ من العرب فى كل قبيلة إلا شاعر أو شاعران وتصنع له الولائم متى ظهر ، فهو كالجمال لا يخلقه الإنسان فى نفسه فكيف يتأتى لمحمد (إن هو إلا ذكر) عظة وإرشاد (وقرآن مبين) كتاب سماوى يتلى فى المعابد وظاهر أنه ليس من كلام البشر لما فيه من الإعجاز (لينذر) القرآن (من كان حيا) عاقلا فهما (ويحق القول) وتجب كلمة العذاب (على الكافرين) قابلهم بالأحياء إعلانا بأن الجهل والكفر موت كما أن العقل والعلم حياة (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا) مما تولينا إحداثه وحدنا (أنعاما فهم لها مالكون) متملكون متمكنون من ضبطها (وذللناها لهم) صيرناها منقادة لهم (فمنها ركوبهم) مركوبهم أو ركوبتهم فى قراءة أخرى وهى بمعنى المفعول كالحلوب والحلوبة (ومنها يأكلون) أى ما يأكلون لحمه (ولهم فيها منافع) من الصوف والوبر والشعر والجلد (ومشارب) من اللبن جمع مشرب بمعنى المصدر (أفلا يشكرون) نعم الله فى ذلك . فلولا خلقه لها أولا وتذليله لها ثانيا ما أمكن تحصيل هذه المنافع (واتخذوا من دون الله آلهة) أشركوها به فى العبادة بعد علمهم بتلك النعم الظاهرة (لعلهم ينصرون) رجاء أن ينصروهم فيما نابهم من الأمور مع أن الأمر ليس كذلك لأنهم (لا يستطيعون نصرهم وهم لهم) لآلهتهم (جند محضرون) أى الكفار جند الأصنام يغضبون لها ويحضرونها فى الدنيا وهى لا تنصرهم وهم جندها أيضا فى الآخرة ، إذ يؤتى بكل معبود من دون الله ومعه أتباعه الذين عبدوه فى الدنيا كأنهم جند محضرون فى النار . واعلم أن هذا هو مقتضى علم هذه الدنيا فإنك ترى أن الهواء لا يكون موضع الماء والماء لا يكون موضع الهواء والأرض لا تكون موضع واحد منهما وترى الفلينة إذا وضعت قطعا منها فى الماء تتجاذب ويجذب الأكبر الأصغر أكثر مما يجذب الأصغر الأكبر هكذا القلوب تتجاذب وتصير كل طائفة مع بعضها كما ترى الطيور والوحوش فى الفلوات والحشرات فى الحقول والغابات ، وفى الحديث : «أنت مع من أحببت» فالعالم كله سائر بالعشق فى المادة وفى الروح والقلوب شواهد (فلا يحزنك قولهم) فى الله بالإلحاد والشرك (إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) فنجازيهم عليه وكفى ذلك أن تتسلى به (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) أى جدل بالباطل بين الخصومة ، كأنه قيل : العجب من جهل الإنسان كيف يخاصم ربه ولا يتفكر فى بدء خلقه ومهانة أصله وأنه من نطفة قذرة . نزلت فى أبى بن خلف خاصم النبى صلى الله عليه وسلم فى إنكار البعث وأتاه بعظم قد رم وبلى ففتته بيده وقال: أترى يحيى الله هذا بعد مارم فقال صلى الله عليه وسلم نعم ويبعثك ويدخلك النار وهذا قوله تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه) بدء أمره (قال من يحيى العظام وهى رميم) بالية أى وضرب لنا مثلا فى إنكار البعث بالعظم البالى حين فته بيده وتعجب ممن يقول إن الله يحييه ونسى أول خلقه وأنه مخلوق من نطفة (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) أى ابتدأ خلقها (وهو بكل خلق عليم) يعلم تفاصيل المخلوقات وأجزاء الأشخاص المفتتة المتبددة أصولها وفصولها ومواقعها وطريق تمييزها (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا) كالمرخ والعفار فمن أراد النار قطع منهما

غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ على العفار فتخرج منهما النار بإذن الله تعالى ، تقول العرب : في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار أي استكثر منها وذلك أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر نارا (فاذا أنتم منه توقدون) تقدحون فتوقدون النار من ذلك الشجر . ثم ذكر ماهو أعظم من خلق الإنسان فقال (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) أي وهو القادر على ذلك (بلى وهو الخلاق) يخلق خلقا بعد خلق (العليم) بجميع ماخلق (إنما أمره) أي إنما شأنه (إذا أراد شيئا أن يقول له كن) أي تكون (فيكون) أي فهو يكون أي يحدث، وهذا تمثيل لتأثير قدرته في مراده بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة (فسبحان) أي تنزيه مما وصفه به المشركون وتعجب من أن يقولوا فيه ماقالوا (الذي بيده ملكوت) ملك (كل شيء) وزيادة الواو والتاء للمبالغة (وإليه ترجعون) تعادون بعد الموت . انتهى التفسير اللفظي وهو الفصل الثاني من السورة .

الفصل الثالث

(في ذكر ما كنت فسرتها به منذ سنين لتكون ماثلة معانيها أمام القارئ ملخصة مجتمعة)

(مقاصد سورة يس)

(١) ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم حق ماأرسل به وأنه نذير للأميين وغيرهم .

(٢) بيان أن المنذرين صنفان : صنف يئس من صلاحه . وآخر سعى لفلاحه .

(٣) تبيان أن أعمالهم تحصى عليهم ولهم فتكتب آثارهم وتحصى أخبارهم .

(٤) إيضاح للقصدين السابقين بقصص حبيب النجار وقومه بأنطاكية إذ حكم عليهم بالكفر وله بالإيمان فقتل فدخل الجنة بما قدم من الإيمان والإرشاد وهلك قومه .

(٥) الدليل الطبيعي العقلي على البعث بعد التاريخ من العوالم السفلية وجنانها والعوالم العلوية وكواكبها وتبيان لقدرة الله ووحدانيته وعلمه ورحمته الشاملة .

(٦) جزاء الفريقين في الآخرة وهو [فصلان : الأول] بيان كفران الجاحدين هذه الأنعم وسرعة أخذهم أخذ عزيز مقتدر وندمهم عند معاينة العذاب. [الثاني] الجنة ونعيمها وماأعد للمؤمنين فيها

(٧) توبيخ الكافرين على ماارتطموا فيه من الجهل واتباعهم الشياطين .

(٨) ثلاثة فصول لثلاثة أغراض سبق في السورة شرحها بأسلوب آخر وذلك ليستدلوا بما يحلون من أنفسهم أعمالهم الخاصة بهم : [الفصل الأول] قدرته على مسخهم في الدنيا وطمس أعينهم وأبرز لذلك دليلا من الأنفس وهو تنكيس خلق المعمر من الناس ، وهذه تقابل قصص حديث أهل انطاكية فذلك في الآفاق وهذا في النفس . [الفصل الثاني] الانتفاع بالأنعام من مأكل ومشرب وملبس . وهذه نعم راجعة لأنفسهم في مقابلة ماأنعم من نعم عامة من الأرض وجناتها والشمس وأضوائها والكواكب ودورانها والسفن وغيرها من النعم العامة فمن لم يشكر على النعم العامة لما باله لايفقه مايزاوله منها بنفسه [الفصل الثالث] إثبات البعث بما يعانون لخاصة أنفسهم من الزناد إذ يقدحونها فيستخرجون نارها . أفلا يستطيعون السبيل للهداية مما يزاولون لما يعود على أنفسهم بالمنافع إن جهلوا ما كان مشتركا نفعه من الأرض والسموات .

وهذا هنا كما ختم السورة السابقة بجوهرتين زهراوين وياقوتتين حمراوين من إتقانه النظام وإصلاحه

العام ومن تدمير الناس وإفسادهم فى الأرض ، فهو مصلح وهم مفسدون . ولقد كانوا خلفاءه فى الأرض وما أجدرهم أن يتخلقوا بأخلاقه ويسيروا على الصراط المستقيم ، وإيضاح الأولى أنه عز وجل نظم جواهر النجوم الزهرات والكواكب السيارات وربطها بأسباب فدارت وأرسل لها من لدنه رحمة فأمسكتها وعجبة حفظتها فدارت فى مدارانها وجرت فى أماكنها واجتذبها جذبا لطيفا بحواسك من التعاشق يسميها [علماء المحسوسات] جاذبية ، تمسكهم لئلا تزول عن مداراتها وتختل فى نظامها، ولولا ذلك لتفرقت أيدى سبا، وطاحت شذر مذر ، فباد الوجود وهلك الموجود ، وذلك قوله تعالى « إن الله يمسك السموات والأرض » إلى قوله « حليما غفورا » .

وإيضاح الجوهرة الثانية أن الناس أفسدوا وما أصلحوا وعجزوا أن يعقلوا عجائب النظام وبدائع الإتقان فاتخذوا لله أندادا وعبدوا أوثانا فباءوا بالغضب صاغرين ورجعوا بالمقت محرومين، وإذا عاهدوا عهدا نبذوه وإن حلفوا أن يتبعوا رسولا إن جاءهم لم يتبعوه ، وطباعهم الكبرياء وشأنهم الإباء فهلا ساروا فى الأرض فدرسوا أحوال الأمم الظالمة والأجيال البائدة، ألا أن عاقبة البغى لهم ودائرة السوء تدور عليهم ولولا رحمة واسعة أحاطت بهم لأبدنا كل نسمة ولكننا نؤخرهم إلى أجل معدود لأن رحمتنا أوسع وفضلنا أعم فليتمتعوا أياما فى ساحات رحمتنا ولنوردهم موارد الهلاك بعدلنا جريا على ناموسنا العام وعدلا فى النظام ، وذلك قوله تعالى فى (سورة فاطر) «هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره» إلى قوله تعالى «إلا غرورا» وقوله «وأقسموا بالله جهد أيمانهم» إلى آخر السورة وهم كانوا أكثر منهم عددا وأعز نفرا ، طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم بطوله . فتلك بيوتهم خاوية وجماعاتهم فانية للأقدار جاثية .

المقصد الأول

(يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم ، تنزيل العزيز الرحيم)

ابتدأ الله عز وجل السورة بإثبات رسالته صلى الله عليه وسلم وتوثيق عرى نبوته وتأييد دعوته وتبيان أن القرآن أنزل عليه من ذى العزة والقهر والرحمة والفضل توطئة لما ستسمع من قصص الظالمين وتفصيل بدائع الخلقة الشاملة آثارها الفائضة أنوارها .

المقصد الثانى

(« لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون »)

لما أثبت الرسالة والمرسل به شرع يشرح حال المرسل إليهم من أهل الدعوة إذا هم فريقان . فأما أحدهما فأحاطت به خطيئته وأرهقته زلته وفقد إيمانه وأوثقه طغيانه فمثله كمثل من ضم الغل يديه إلى ذقنه فلا يستطيع حراكا أو كمثل الذى سدت عليه المسالك وأحاط به السدان من خلفه وأمامه ثم غشى على عينه فسدت عليه الطرق فى نفسه بالعمى وفى الآفاق بالسدين . ومن التعذيب تهذيب الذيب . وأما الآخرون فهم الذين اتبعوا الذكر وخشوا الرحمن فى خلواتهم فأولئك لهم البشارة والرزق الحسن . ولاجرم أن الفريقين يرتقبان جزاء وفاقا وذلك فى المقصد الثالث .

المقصد الثالث

(« إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم » إلى قوله « إمام مبين »)

ولا جرم أن المقدمات نتائج . وللأسباب مسببات . وللشجرات ثمرات . وللمبادئ نهايات . والقسمان المذكوران تحصى أعمالهما وتسطر أحوالهما ويحييان بعد موتهما وتعرض عليهما ماعملا من خير قدماه ومن شر جنياه . ولما أن سجل ماذكر عليهم أخذ يشرح ذلك بالقصص وهو المقصد الرابع .

المقصد الرابع

(« واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون » إلى قوله « ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لايرجعون . وإن كل لما جميع لدينا محضرون »)

لما تبين أن لكل حظا مما جناه ، وقسطا مما اقترفه ، من خير وشر ، وأن الكتاب أحصى أعمالهم وأظهر أخبارهم ، أخذ يوضح ذلك بالقصص . ويبينه بالتاريخ ، ويثبته بالشواهد ، كشفا للمقام وتثبيتا للبرهان فنصل خبر أصحاب المسيح عليه السلام من الحواريين إذ جاء اثنان منهم إلى أهل انطاكية ودعوهم للإيمان فجلدوهما مائة جلدة وسجنوهما فجاء الثالث [شمعون] واحتال على أرباب الدولة وعظماء الأمة والملك المطاع وأرباب الضياع أن يستنطقوهما ولا يؤذوهما فأخرجوهما منه وظهرت الخوارق على أيديهما من إحياء الميت وإبراء الأكمه ثم نكسوا على رءوسهم وآذوهم فجاء حبيب النجار الذى كان أسلم من قبل لما شفى ابنه بدعائهما فقتلوهم أجمعين ورموهم فى الرس ميتين . فهؤلاء هم أصحاب الرس . فهلك حبيب النجار ودخل الجنة وهلك قومه وأدخلوا النار . فهذا القصص يدعو للاعتبار بالأمم البائدة والأجسام الهامدة ، إذ كفروا فبادوا وكتبت آثارهم ووعيت أحوالهم وحفظت فى كتاب ليوم المآب . فما أجدر العباد بالحسرة . جهلوا الرسل . ومصير الدول . إن كل إلا لدينا محضرون . ولئن لم يؤمنوا بما يسمعون . ولم يعقلوا مايقرءون . فى الكتب السماوية . والأخبار المروية . والكلمات اللفظية . والجمل الحكمية . فهلا درسوا الكلمات العالية والعلوم الشافية مما كتبناه بأيدينا فى طروس السموات وألواح الفلوات وفوق الجبال الراسيات وتحت البحار الجاريات وهو المقصد الخامس ، وهو حكمة الحكماء ودرس الكبراء وأدب العلماء .

المقصد الخامس

(« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها » إلى قوله « وكل فى فلك يسبحون »)

ألم تر إلى الأرض اليابسة أنزل الله عليها الماء فنبت زرعا وشجرا فكان الحب والتمر والجنات والأعناب وتفجرت الأرض عيونا ، وفى الأرض أزواج النبات والحيوان والإنسان فمنها الذكران والإناث ومامن نبات إلا وفيه ذكر وأنثى كما يرى فى الذرة والقمح كما تقدم فى الفاتحة . ومن عجب تفجير العيون من الجبال ، ألم تر كيف برد الماء فى الجبال فصار ثلجا فكبر حجما فضغط الحجارة فانفجر ماء . ذلك أن الجبال مخازن للماء والعين بزبازها وصنبورها والوادى مجراها والأشجار والنبات منتهاها . وانظر الشمس والقمر والليل والنهار

كيف

كيف نظم الميقات وحفظ الحساب . وإذا سلخنا النهار عن الليل بدا عاريا وظهر أسود قاتما . وترى الشمس جارية إلى مدارى السرطان والجدى وهما منتهاها . والقمر يجرى فى ثمان وعشرين منزلة لا يتقدم عن وقته ولا يتأخر عما رسم له ، فهو أبدا مسخر مطيع مجريه السريع ، وكيف غفل الإنسان عن الحساب وسها عن درس الميقات .

حكم نسجت يد حكمت ثم انتسجت بالمنتسج

ما الناس يعيشون ولا ينظرون وإن نظروا لا يدكرون وإن ادكروا لا يدرسون وإن درسوا لا يحسبون وإن حسبوا لا يتغلغلون فى باحات العوالم العلوية والسفلية . الشمس طالعة غاربة . والقمر فى ذهاب وإياب فهلا درسوا علم الفلك وفهموه واطلعوا فى الأرصاد فكشفوه . إذن يعلمون أن الشمس لاتدرك القمر فى دورانه ولا يسبق الليل أوانه . فالليل والنهار يحسبان . والشمس والقمر يسجدان . ألا ترى أن الشمس فى جريها دائبة على قانون لاتتعداه . وسائرة على صراط لاتتخطاه .

انظر وفكر . أنت تعلم أن الفصول أربعة : الخريف والشتاء والربيع والصيف . وأول فصل الخريف فى نصف شهر توت فى برج الميزان ، إذ يستوى الليل والنهار فى المقدار وهناك يزيد الليل أبدا نصف درجة وهو دقيقتان حتى إذا حلت ركائبها بساحة العقرب وزفت بموكبها إلى باحات القوس والأول فى نصف بابه والثانى فى نصف هاتور فهنالك يزيد الليل كل يوم فى الأول ثلث درجة وفى الثانى سدس درجة فتكون الزيادة إذ ذاك ثلاثين درجة وهى ساعتان : ساعة فى الميزان ، وساعة فى العقرب والقوس وتنتهى الشمس إذ ذاك إلى أول فصل الشتاء زمن يكون فيه الليل أربع عشرة ساعة والنهار عشر ساعات . وهناك يبتدئ فصل الشتاء فى منتصف كيهك فيتدرج الليل فى النقص والنهار فى الزيادة ، فسدس درجة كل يوم إلى منتصف طوبه وثلث إلى منتصف أمشير ونصف إلى منتصف برمهات وقد تنقلت فى هذه الأبراج على التوالى وهى الجدى والدلو والحوت ، وهناك يتساوى الليل والنهار وتحل الشمس ساحة برج الحمل وهناك تسمى الشمس الكبيرة . وإذا نزلت البرج قبله وهو الحوت سموها الشمس الصغيرة ، إذ يكون الليل ثلاث عشرة ساعة ، وبحلول الشمس فى الحمل يبتدئ فصل الربيع ويزيد النهار نصفا فثلثا فسدس درجة على التوالى فى البروج الحمل والثور والجوزاء من نصف برمهات إلى نصف برموده إلى نصف بشنس إلى نصف بؤونة ، وهناك تكون الشمس فى مدار السرطان ويبتدئ فصل الصيف ويأخذ النهار فى النقص والليل فى الزيادة بسدس فثلث فنصف درجة من نصف بؤونه إلى نصف أبيب إلى نصف مسرى إلى نصف توت فى الأبراج الآتية وهى : السرطان والأسد والسنبلة «ذلك تقدير العزيز العليم» وهذا الحساب تقريبى فى القطر المصرى .

فالشمس لا تفتأ تسير على هذا النمط لاتتعداه من يوم خلق الله السموات والأرض إلى الأبد وهذا معنى سجودها لله ، فالشمس والقمر يحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، ألا تعجب كيف سارت الشمس على هذا النظام فلا يتغير سيرها ولم تتأخر لحظة ولم تتقدم دقيقة بل جرت جريها المعروف أبدا وأمدا إلى يوم يبعثون أليس الذى حسب نظامها وقدر جريها محيط بأعمال العباد .

وذلك قوله تعالى هنا «وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون» إلى قوله «ومتاعا إلى حين» وإنا لم تفو بصائركم على الاعتبار بكواكب السماء وسياراتها وشموسها وأقمارها ، فها كم دلائل مما تعملون لتكون أقرب لأفهامكم وأسرع لعقولكم ، فانظروا إلى السفن كيف أقدرناكم على صنعها ، وجرت كما يجرى السمك فى البحر ، وعلمناكم كيف وزنتموها بالخيزرانة (الدفة) فقامت مقام ذيل السمكة حتى تسير يمينا وشمالا ، وكيف عرفتم قاعدة (أرشميدس) التى بها تحملون السفينة ما تطيق حتى لا يزيد جرمها وحملها عما أزاحت من الماء

فى جريها ، ولولا ذلك لغرقتم ولكنا نجيناكم فى أسفاركم كما نجينا آباءكم الأولين من الغرق مع الظالمين وهكذا فعلنا معكم فى طياراتكم أفلا تعقلون؟ .

المقصد السادس

(«وإذا قيل لهم اتقوا مابين أيديكم وماخلفكم» إلى قوله «ألم أعهد إليكم يابنى آدم»)

يقول بعد أن عدد النعم التى خلقها ، والحكم التى أودعها ، والعجائب التى أبدعها ، أنهم معرضون لايسمعون الناصحين ، ومهما رغبوا فى الإنفاق على ذوى الإملاق احتجوا بالقضاء ، وقالوا أليس ربكم أقدر على الإطعام وأرحم بالأنام . وجهلوا أن الحياة اختبار والدنيا امتحان وابتلاء فستحضرهم للحساب وتأخذهم بغتة وهم فى شقاق وسباب متخاصمين فتأتيهم الساعة بغتة وتحل بهم الحسرة فلا يودعون حبيبا ولا يوصون بمال ولا يرجعون إلى أهلهم بحال ، ثم يقومون وهم من كل حدب ينسلون وآخرون فى الجنة ناعمون فلهم فيها مايشتهون من الثمرات واللذات وما تسر به أفئدتهم من اللذائذ المعنوية من سلامة وسلام ، وهنا آن توبيخ الكافرين على التقصير وهو :

المقصد السابع

إذ قال «وامتازوا اليوم أيها المجرمون ، ألم أعهد إليكم يابنى آدم» ، فى هذا المقام امتاز المؤمنون من المجرمين وقرع سبحانه الكافر على أن نبذ العهود وكيف أضل الشيطان جبلهم (بتشديد اللام) فهلا عقلوا إضلاله ، هذه جهنم التى أغريتم بتكذيبها ، فاليوم صمت الناطق وهو اللسان ونطق الصامت وهى اليدان والرجلان ، ولما كانت عناية الله بالناس شاملة ، ولطفه بهم أعم ، أخذ يتلطف بهم فى الإفهام ، ليدخل فى قلوبهم الإيمان ، من طرق أقرب ، ومسالك أقصر ، مما يعملون ويشاهدون .

فتعجب كيف قدم فى أوائل السورة قصص أهل انطاكية إذ حاق بهم العذاب فى الدنيا ، ثم أتبعه بتبيان مبين من نظرة فى العوالم العلوية والسفلية ليعلم الإنسان بالعقل بعد ازدجاره وإزعاجه بالعذاب ، فهكذا هاهنا أخذ يعيد الكرة بمنهج أقرب ومعنى أدق . ذلك أنه قابل أول المعنيين بأنه أقدر على طمس الأعين حتى لايبصروا ومسخ الصور فلا يعقلوا «ولو نشاء لطمسنا أعينهم» الخ .

يقول : ليس العذاب قاصرا على إهلاك أمة وإبادة قبيلة . كلا ، بل يتناول تشويه الأعضاء وطمس العيون ومسخ الصور ومحو العقول كما نرى فى الأمم التى عم جهلها فقل خيرها وزاد شرها فإنهم ذوو صور مشوهة الباطن وإن كانت حسنة الظاهر . ولما كان تصور ذلك عسرا على العامة صعبا على الجهلة قربه بعد ذلك بما هو أوضح محجة وأبين حجة فقال «ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون» إنا قادرون أن نمسخ صورهم كما غيرنا صور المعمرين ونمسخ صور العقول فتذل الأمة وتعيش فى خزى فلا تموت فى الدنيا ولا تحيا وهذا هلاك أدنى كالهلاك الأبدى الجسمى فى أهل انطاكية ، ولا جرم أن فى هذا القول تصويرا للمعقول بوصف المحسوس وإيضاحا وإرشادا فلذلك نفى أن يكون القول شعرا والنبى صلى الله عليه وسلم شاعرا ، فالشعر فى الأكثر لم يكن لمثل هذه الأغراض الشريفة «إن هو إلا ذكر وقرآن مبين» يفهمه العاقلون الأحياء ويجهله الغافلون الأموات ، ثم قابل ثانيهما بذكر الأنعام وملكها وصوفها ولبنها وركوبها وتذليلها ، فمن لم يعقل النظام العام من شمس وقمر وأرض ونهر مما لايعقل نظامه العالى إلا الأذكياء . فلينظر فيما يزاوله من دابة

يركبها وبهيمة يحلبها . أفليس ذلك يكفي دليلا على وحدانيته وبرهانا على قدرته ، فأين الأصنام الميتة والأوثان الجامدة ؟ تالله لايستطيعون نصرهم ولا يملكون نفعهم .

ولم يبق إلا أدق الأدلة على المعاد ويوم الجزاء فضرب له مثلين دقيقين مثلا من الأنفس الإنسانية : ومثلا من أعمالها اليومية . فالأول أن التراب صار رجلا والطين صور عقلا . أليس ذلك عجبا ؟ والثاني ترتب عليه فكان نتيجة ذلك أن الأجسام الإنسانية كالأشجار النباتية لها صور ظاهرة وأزرار باطنة . ولكم قد حتم الزندة والزند من الأشجار لاسيما المرخ والعفار ، فأدرتم غصنا من المرخ في نقرة نقرتموها في غصن من العفار حتى أحدثت الحركة حرارة فاتقد شرارة فأنتم منه توقدون . وهل يعسر أن تتصوروا أن في أبنيتكم الجثمانية نفوسا نورية يكون لها شئون وأي شئون كما اتقدت النار من شرر العفار ونفعت أمما وكانت متاعا للمسافرين ونضجا للعجين ، واصطلاء للمشتين ، وتسخينا الماء ، وزجرا القطار والسفن في البحار ؟ وإذا كانت الأشجار كالمرخ والعفار والزناد من الأحجار قد فعلت عظيما وبقيت أجسامها بعد ذلك كثيرا فما بالكم بالإنسان ؟ أفلا ترى أن له نفسا باقية وروحا خالدة ستلقى جزاءها . على أن الذي خلق الأرض والسموات قادر على أن يحيى الأموات فمالكم لاتعقلون ؟ إن كانت القدرة على الإحياء يعوزها كثرة الأعمال وضخامتها فهذه السموات والأرض ، أودقتها فهذه النار في الأشجار أو مزاولتها من قبل ، فهاهي أجسامكم كانت مخلوقة من قبل وهو على إعادتها قادر فلم يبق إلا الإجلال والإعظام والاتصاف بالاعتراف (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون)

(آيات العلوم في هذه السورة ٢٤ آية)

من قوله تعالى «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها » إلى قوله «ومتاعا إلى حين» وقوله «أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما» إلى قوله «وإليه ترجعون » آخر السورة .

هذه الآيات (٢٤) تشير إلى هذه العلوم ؛ (علم الزراعة . النبات . البساتين) وفي قوله «مما لا يعلمون» الحث على البحث في العالم عما لم يعلم من الحيوانات المكروبية والنباتات الخفية ، وهكذا الكرات البيضاء والحمراء في دم الجسم وغير ذلك وعلم النفس وعلم التشريح « ومن أنفسهم » وعلم الهيئة وعلم التقويم وبناء السفن والخطوط البحرية ومعرفة الجهات لسير السفن والنجوم والتيارات البحرية وخطوط البحار وكل آلات السير من الآلات الجارية كالقطرات الجارية بالبخار والكهرباء ، وذلك في قوله « من مثله ما يركبون » وعلم الأنعام وتربيتها .

(آيات الأخلاق)

ليس فيها آيات خاصة بالأخلاق إلا بطريق الإشارة والتلويح .

(آيات الأحكام)

من قوله تعالى «أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين» إلى قوله «وإليه ترجعون»

هذه آيات احتج بها الله تعالى على منكري البعث فدحض دعواهم وأثبت أن من قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر ، وهذا دليل على أن رد الشبهة مشروع فإن القرآن بالحجج كالبحر الزاخر لايذر اعتراضا للملحد ولا نكرانا لجاهل ، بل يصدع بالحجة ويدحض الباطل ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، فلا جرم أن حرب اللسان والقلم أقوى من وخز السنان ، وطعن الصارم ، وفتك المدفع ، وحصد الديناميت يطبع بها العاصي ، ويدنو بها القاصي ، وتخبت لها القلوب ، وتخضع لها النفوس .

فعلى قادة الأمة نشر الفضائل ودحض النقائص وإذاعة أخبار الخير والشرف عن هذه الأمة ودينها وإقامة

الحجج على فضلها ، فعلى كل امرىء أن لايذر فرصة حتى يلهج بمحاسن الدين ويذب عنه فى شرق الكرة الأرضية وغربها ، وليعلم الصغار وهم فى حداثة سنهم كى ينشروه وهم مستبشرون . انتهى الفصل الثالث .

الفصل الرابع

(فى عجائب العلوم التى تشير لها هذه السورة)

معنى (يس)

اعلم أن (يس) حرفان ذهب العلماء فيهما كل مذهب، فقال ابن عباس رضى الله عنهما : (معناه يا إنسان فى لغة طىء) ويقول غيره يامحمد ، وقد علمت فى سورة آل عمران أن هذه الحروف جاءت فى القرآن لتذهب العقول فيها كل مذهب لاتختص بطائفة دون طائفة ، ولقد ذكرت لك آنفا أن هذه الحروف تحليل الكلمات ، وليس فى العالم المشاهد إلا اثنان العناصر والحروف . فالعناصر منها تكون المركبات من حيوان ونبات وشمس وقمر والحروف منها تكون الكلمات والجمل والخطب والنثر والنظم .

هذا ملخص علوم الإنسان على هذه الأرض . فهذه الحروف المذكورة فى أوائل السور تبلغ ١٤ حرفا وهى نصف الحروف الثمانية والعشرين وقد تقدم هناك إيضاح حكمها ، والذى يهم فى هذه السورة بيان أن ذلك إشارة إلى أن الحروف قد حللت إليها الكلمات كما تحلل المركبات إلى عناصر . وكأن الله يقول لنا تأملوا الجمل والآيات أليست من حروف ؟ وهل تعرف الجمل إلا بتحليلها إلى كلمات ؟ وهل تعرف الكلمات صرفا واشتقاقا وكتابة إلا بمعرفة حروفها ؟ .

هذا فى علوم اللغات . أما فى علوم الآفاق المشاهدة فكذلك إذ لايعرف علم إلا بمعرفة حقائقه وإرجاع مركباته إلى أصولها كما ترى فى هذه السورة فإن خروج النار من الشجر الأخضر يرجع إلى علم الكيمياء وهو من العلوم الطبيعية . وتقدير القمر منازل يرجع إلى علم الفلك وهو من العلوم الرياضية . يقول الله لنا لاعلم للناس إلا إذا حللوا المركبات فى كل شىء . فيحللون المسائل الحسابية والهندسية والفلكية وكذلك المركبات الطبيعية .

الكلام على قوله تعالى « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا »

انظر فى هذه الآية وتأمل كيف يقول الله للناس وهم لايزالون فى بداوتهم وأول تطورهم . انظروا واعرفوا ماتزاولونه من أعمالكم .

أيها الناس : تأملوا فى العجائب البارزة أى التى سبقت فى خواصها بحيث تلتفت إليها الأنظار . انظروا شجر المرخ والعفار كيف يكون الغصنان منهما يقطران ماء فإذا حك أحدهما فى نقرة من الآخر اشتعل نارا أليس هذا من العجب أن تروا النار والماء معا . وكيف يجتمع الضدان الماء والنار ، إن هذا الاجتماع يدعو إلى الفكر فإن التعجب أول العلم ومن تعجب من شىء فهو مشتاق إليه ومن اشتاق طلب ، ومن طلب نال ونظير هذا الأحجار فإذا حك حجر على آخر انقدحت منهما نار وظهر شرر . أمر الله الناس بالنظر فى هذا استدلالا على سعة قدرته وحث الناس قبل ذلك على الاعتبار بما ينتفعون به من دواب للركوب وأخرى لمنافع ومشارب، وأمر بالشكر عليها ووبخ من لم يشكر .

كل ذلك والقرآن يقرأ فى بادية العرب عند قوم أميين فى حال البداوة . يأمرهم أن يستخرجوا البراهين من العجائب التى يرونها ويشكروا على كل ماانتفعوا به . هذا هو شأن القرآن . يخاطب الأميين . انظر ماذا حصل بعد ذلك ؟ تطورت الأمة العربية خصوصا والإسلامية عموما . فماذا جرى ؟ انتقلوا من البدو إلى الحضارة

كان الإفتاء أولا من صدور الرجال وفهم القرآن ، كثر الناس ، سكنوا المدن ، نظموا الممالك والبرد والقضاء ، فاضطروا إلى التأليف والتصنيف ودونوا الدواوين واختلفت طرق الاجتهاد فكانت مذاهب متشعبة كأغصان شجرة فيها الورق والزهر . ذلك كله فى علم الفقه المستمد من آيات لاتزيد على مائة وخمسين آية فقد ألف فيه مؤلفات ملأت خزائن وخزائن فى بغداد وقرطبة ومصر وحلب . لماذا ؟ لأن الفقه اضطر له الناس ليحفظ أحوالهم الاجتماعية . فهو فى دين الإسلام كجسم ، والجسم مقدم النظر فيه على النظر فى الروح . وروح بجسم ضعيف وأمة بلا قانون مشتتة . تمادى الناس فى الفقه واختص بالبحث فى العالم وعجائبه أناس ودونوا الكتب ولكنهم لم يكونوا فى الكثرة ولا فى نظر العامة كالفقهاء .

نبغت الأمة الإسلامية فى الفقه تبعا لنمو الحضارة حتى أمكن أن يستنتجوا من آية واحدة وهى قوله تعالى «فاعتبروا يا أولى الأبصار » ربع علم الفقه وهو القياس . جل الله وجل العلم هذا شأن آياتنا فى علم الدين ، وبعبارة أخرى سياج علم الدين وجسمه .

أما روح الدين الإسلامى فهى الأخلاق والعلوم الكونية . والدليل على ذلك أن الأخلاق نحو (٧٥٠) آية وكذلك العلوم بل إن القسمين الأخيرين يشملان أكثر القرآن ، فالقصص كلها أخلاق من حيث نتائجها وعلوم . لم يحث أكثر العلماء فى القرون الأخيرة على علوم الأخلاق ولا علوم الآفاق . عرف آباؤنا الصوف والشعر والوبر والزناد وكلهم الله فقال انظروا تحضر آباؤنا ، نظموا المدن ، فتحوا مصر والشام وشمال بلاد أفريقيا ، ولما فعلوا ذلك كله ملكوا الأندلس ، ملكوا الهند والفرس ، واتسع الفقه باتساع الملك فكان مقتضى القياس أن يتسع علم الكائنات وينتقل من لبن البقر وصوف الغنم ووبر الإبل وزناد المرخ والعفار إلى جميع العلوم الكيمائية والطبيعية ، كما اتسع علم الفقه من القضايا الأولى المذكورة فى القرآن كآية المواريث وآية الدين وآية الوضوء والصلاة والزكاة إلى كتب ضخمة هائلة وعلماء خصوا لذلك كان القياس أن يكون للعلوم الكونية من طبيعة وفلك ورياضة وسياسة رجال أكثر عددا من علماء الفقه ، ذلك لأن هذه العلوم بها يكون الغذاء والدواء والحياة ، فأما علم الفقه فهو ضابط لما هو موجود ، فعلم الفقه لحفظ ما علمك ولكن لاعلمك شيئا إلا بهذه العلوم . ومامثل الأمة التى تدرس الفقه وتنسى العلوم الأخرى إلا كمثل من يتغذى بالدواء إن الدواء ليس غذاء . فذلك يعيش مريضا . لذلك ولغيره اضمحلت الممالك الإسلامية فى أقطار الأرض . ولكن الله عزوجل لم يخلها من علماء قاموا بالأمر لاسيما المسيحيين والفارسيين ، فقد نبغ كثير منهم فى تلك العلوم ، ولما آذنت شمس المسلمين بالغروب انتقل علم آبائنا فى ذلك إلى أوروبا والذى نقله هو الله . نقل البذرة فنمت هناك وأزهرت وأثمرت ، فعل الله ذلك لأنه هو المهيمن على أهل الأرض وكلهم عباده وهو الذى يعلمهم ، فلما انحطت دولنا فى الشرق نقل علمنا إلى الغرب ، فلما تم العلم هناك أخذ الغرب يطغى علينا وحاربنا بثمرات علوم آبائنا والله هو الذى سلطهم علينا رحمة منه بنا لأننا إن كنا أهلا للحياة اشتقنا فقرأنا فبغنا وهو المقصود ، وإن كانت الأمة لم تستعد لذلك فإنها تهلك والعياذ بالله تعالى ، فموت البليد راحة له ولأهل الأرض ، وحياة الذكى نفع له ولأهل الأرض ، فمن هذا ترى أن شكوى الشرق من الغرب خطأ لأن

الله هو الذى سلطهم ، وإنما سلطهم لرحمتنا إما بحياة علية وإما بموت على شهادة ؛ فأما إذا كان غير ذلك فيكون الناس فى الأرض أشبه بمن فى جهنم لايموت فيها ولا يحيا .

﴿ علوم الآفاق فى مستقبل الزمان فى بلاد الإسلام ﴾

علمت أن أهل البادية من آبائنا كفاهم نظرهم العلمى فيما كان بأيديهم من منافع وآمنوا ووحدوا وجاهدوا وملكوا الأقطار . لماذا ؟ لأن الفطرة السليمة فى البادية أقرب الى الكمال لم تدنس تلك الفطر المدنية فلذلك قنعوا بما حولهم من علوم المادة فكان العلم بما حولهم كافيا لإيمانهم كما كانت حاجاتهم المعيشية البسيطة كافية لأغذيتهم الجسمية ، ولاجرم أنه على مقدار انتشار المدنية واتساع المدن يحصل (أمران : الأول) كثرة الحاجات فتنشأ الصناعات الكثيرة والعلوم العظيمة (والثانى) أغشية العقول والشهوات والرذائل وأمراض الأخلاق التى تتكاثر بكثرة المدنية . فهذان أمران متناميان معا : أكثرة الحاجات الجسمية فى المعيشة ، وتطلب العقول لحل المعضلات وإزالة الشكوك التى يولدها الترف والتنعم وانتشار الآراء المضلة التى لايعرفها أهل البداوة . وإذن ترى أهل المدن مضطرين للعلوم الآفاقية لترقية المدنية والحاجة لها ولتنمية العقول وارتقائها . ولما مال الميزان فى الأمم الإسلامية ولم تتزن القوى العقلية والقوى الجسمية فيها انحطت كلها إلا قليلا . فترى المسلم أينما حللت فى الشرق أو الغرب موصوفا بالنظافة لما اشتهر فى علم الفقه من الوضوء والصلاة ولكنه مشتهر بأنه جاهل . ولذلك لما رحل العلم إلى أوروبا رجعت إلينا تعاقبنا على جهلنا ، العقاب من الله . فأوروبا تحاربنا وتحتل بلادنا لمنافعها وهى لاتعلم أن الله أرسلها رحمة منه لنا لنستيقظ لهذا الكتاب الذى نؤمن به ولندرسه حق دراسته . ومن دراسته دراسة هذه السورة وفيها أن النار تتقد من المرخ والعفار ، ومن هذه مع حرفى الياء والسين وأمور أخرى سيرجع للاسلام كرة أخرى مجده وعلومه . وسيكون فى هذه الأمة من يقرءون هذه العلوم على أنها دين بل هى روحه وهى أصل التوحيد .

﴿ محاورات بين المؤلف وبين أحد العلماء ﴾

حضر اليوم وأنا أكتب هذا صديق حميم من أهل العلم . فقال : لقد أطلت فى مسألة الشجر واتقاده نارا وأدخلت كل شىء فى شىء واحد وهذا بعيد المنال ليس مما يعتاد احتماله ولا يقبل أمثاله . قلت : إن اتقاد النار فى الأشجار رطبة أو غير رطبة من الظواهر الكيماوية . فقال مامعنى كيماوية ومامعنى طبيعية ؟ فقلت : إذا تنوعت صفات الأجسام بتأثير مؤثر كالحرارة والكهربائية أو بتأثير بعض الأجسام . فهذا التنوع يسمونه (ظاهرة) فإن غير هذا التنوع طبيعة الجسم وحوله من حال إلى حال سميت الظاهرة كيمائية . وإن لم يغير طبيعته سميت ظاهرة طبيعية .

فإذا أخذت قطعة من السكر ووضعتها فى الماء فانها تذوب فيه وتصير سائلة بعد الصلابة . فاستحالة قطعة السكر من الصلابة إلى السيولة ظاهرة طبيعية لأن طبيعة السكر لم تتغير لأنك إذا وضعت الماء الذى ذابت فيه قطعة السكر على النار رأيت الماء يتصاعد ويبقى السكر كما كان قبل ذوبانه : وإذا وضع السكر على الجمر المتقد مباشرة فإنه يحمر وتشم منه رائحة الخبز المحرق . فهذا التنوع يسمى ظاهرة كيمائية لأنه غير طبيعة السكر ، وإذا حل السكر فى الماء المضاف إليه عصير الليمون وسخن المحلول فانه يصير مادة طعمها حلو سكرى تركيبها يخالف السكر المعتاد وهذه المادة تسمى (جليكوز) وهى تكون فى جميع الثمار السكرية الحمضية . فإذن استحالة السكر المعتاد إلى (جليكوز) بتأثير عصير الليمون يسمى أيضا ظاهرة كيمائية . فمعرفة الظواهر الطبيعية فى علم الطبيعة ومعرفة الظواهر الكيمائية فى علم الكيمياء .

فقال صديق ، فمن أيهما مسألة النار فى الشجر. قلت من الظواهر الكيمائية . قال : إذن نريد أن تستمر

فى شرح الأمور الكيمائية . قلت نعم مايناسب منها المقام . قال : ولكن العلوم أن علم الكيمياء علم غير لذيذ وليس للطالب إلا أن يحفظه عن ظهر قلب ففائدته غير موجودة ونحن الآن فى تفسير القرآن . وإذا كانت المسائل الكيمائية تصعب على طلابها فما بالك بطلاب التفسير . فقلت : اعلم أيدك الله أن الكيمياء وغيرها إذا درست فى التفسير فإنها لاتدرس إلا بطريق مشوق لجمالها محبب للاطلاع عليها . ألا ترى إلى المثل «ليست النائحة كالثكلى» فذكر مسائل من هذا العلم هنا على سبيل عرض مناظر الجمال العلمى والنور الإلهى والحكمة العالية فما أشوق الطالب حين يطلع على ماسأورده الآن من جمال وبهاء ونور وعرفان .

﴿ نظرتى لهذا العالم وأنا طالب بالجامع الأزهر ﴾

إنى أتذكر اليوم ماكان يجيش بخلدى ويهجس فى نفسى إذ كنت طالبا بالجامع الأزهر ، فلقد كنت أقف على شاطئ نهر يسمى (أبا الأخضر) بالشرقية قرب قريتنا وأتأمل الأوراق والنسمات تهب بهن مترنحات ذات اليمين وذات الشمال .

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

فلقد كان يخيل إلى أن فى تلك الأوراق أسرارا ويخيل إلى أنها تكاد تتحلل أمامى وكأنها مملوءة حكمة محجوبة عنى وكان قلبى يتقد نارا من الشوق الى معرفة عجائبها وهو يحس كأنها تتوهج وتضيء وكأنها تنطق بلسان الحال بأنها ذات أسرار لايعرفها إلا العالمون ، كذلك كنت أنظر الى النجم وأقول :

النجم أخبرنا بأن وراءه حكما تجل عن العقول وتعظم

بعد ذلك دخلت مدرسة دار العلوم . فلما اطلعت فيها على أثارة من هذا العلم انشرح صدرى وكأنى أعطيت ملكا وكان ذلك أعظم بهجة لنفسى وسرورا وحبورا .

﴿ إيضاح المقام وتفصيله بالمثال ﴾

فهذه العلوم إن درست مجردة من الحكمة النظامية كانت صعبة المنال وإن درست على أنها جمال وحكمة وبهاء فإن العقل يألفها ويعشقها ويراها سعادته . فلأذكر لك الآن من عجائب الكيمياء مابه تقر عينك ويثلج صدرك فأقول :

لقد قرأت فى السورة أن الله يأمر بالنظر فى الأنعام وأصوافها وألبانها وفى الأشجار ونارها (وبعبارة أخرى) يقول انظروا فى كل ماحولكم فى السماء والأرض . فهل ذكر الله ذلك للاقتصار عليه ؟ كلا . ذكر ماهو موجود عندهم . فلننظر نحن إلى كل مانعلم مما حولنا ، يذكر الله أن الشجر اتقد فصار نارا . وماهى النار؟ إن هى إلا اتحاد عناصر الخشب والفحم وغاز الاستصباح والبترول والزيت وغيرها بالمادة التى فى الهواء المسماة (الاكسوجين) فهذا هو الاحتراق ، فاذا رأيت مصباحا متقدا بالبترول أو بالزيت أو رأيت نارا متقدة فى خشب أو فحم فمعنى ذلك أن أكسوجين الهواء قد اتحد مع تلك المواد فحصل تفاعل وهذا التفاعل أنتج الحرارة والضوء ، فالنار إذن من التفاعل الكيمائى وهى ظاهرة كيمائية ، وما الاكسوجين ؟ إلا أكسوجين غاز عديم اللون والطعم والرائحة يسيل بضغطه ضغطا عظيما وتبريده تبريدا شديدا ، وهو أثقل من الهواء قليل الذوبان فى الماء ، وإذا وضعت قطعة من الخشب متقدا طرفها فى غاز الاكسوجين النقى فانها تلتهب حالا وكذا الفحم فانه يحترق بلمعان شديد ويزول بسرعة ، فهذا الذى رأيته يسمى احتراقا حادا فما ذكره الله فى الآية من الاحتراق الحاد .

﴿ الاحتراق البطىء ﴾

إذا وضعت الحديد فى الهواء الرطب اتحد بالأكسوجين المذكور فاستحال شيئا فشيئا إلى صدإ: أى إلى مركب اكسوجينى للحديد ؟ فإذن الحديد الذى ركبه الصدأ مركب من حديد وأكسوجين ولم تظهر حرارة ولاضوء لأن الحديد بطىء الاحتراق بخلاف الخشب والفحم والزيت ، فرجال الكيمياء يرون أن الخشب الملتهب والحديد الذى ركبه الصدأ كلاهما فى احتراق ؟ أما الأول فهو حار . وأما الثانى فهو بطىء .

﴿ تنفس الحيوان من الاحتراق ﴾

لقد علمت أن الحديد الذى صدئ يحترق واحتراقه بطىء هكذا قل فى نفس الحيوان ، إن الحيوان يأخذ بالشهيق الهواء فيدخل فى الرئتين ويترك هناك الأكسوجين وتأخذه الكرات الدموية وتنقله إلى الأوعية الشعرية ، وهنا الأكسوجين يتحد بالكربون والأيدروجين اللذين فى الأنسجة فيتكون من هذا الاحتراق جسمان لايصلحان للبقاء فى الجسم فينقلهما الدم الوريدى إلى الرئة ويخرجان منها بحركة الزفير فكأن جسم الإنسان أرض سقيت بماء النيل وما بقى من الماء الذى يضر الأرض يصفى من جهة أخرى وهذا هو الذى تم فى الأكسوجين ، يتحد بالمادة الكربونية وبالمادة الإيدروجينية فتكون الحرارة فى الجسم مستديمة بهذا الاتحاد ، ومانشأ من مادة فاسدة يكون أشبه بالفحم بعد احتراق الخشب ، فذلك يلفظه الجسم بواسطة الدم الوريدى ويخرج فى النفس على هيئة مواد تقع على المرآة إذا تنفس فيها الإنسان فيغطيها بطبقة تحجب الناظر عن العيون ، ذلك هو ماتخلف من الاحتراق من المواد الكربونية مع غيرها كما نرى فى أعمالنا اليومية .

فانظر أيها الذكى كيف كان الاكسوجين قوام الاحتراق فى مسألة الشجر والنار . وكيف كان العلم لايفرق بين الشجر المتقد نارا فى الآية والحديد الذى صدئ وجسم الإنسان والحيوان وهو دائما يتنفس . فإذا كان الشجر يتقد نارا فالجسم الإنسانى اليوم يتقد نارا بطيئة والحديد الذى صدئ كذلك وهذا كله لم يعرف إلا بتحليل المادة الى عناصرها وفهمها كما فهمنا اللغة بتحليلها إلى حروفها . كل هذا يؤخذ من هذين الحرفين (ياء وسين) . فذكر هذين الحرفين فى أول هذه السورة يتضمن هذه العلوم . يتضمن أن يدرس المسلمون الكيمياء وجميع العلوم . لا درس لعلم إلا بتحليله كما تراه . فانظر كيف ظهرت الخواص بالتحليل كما عرفت الكلمات بالتهجية .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : إن هذا العلم لذيذ وشهى وإنى سمعتك تقول الآن إنه كان يخيل لك أن أوراق الشجر كانت تكاد تتجلى أمامك وكأن فيها أنوارا . فهل عرفت من هذا شيئا ؟ فإن كان كذلك فأرجو الإسهاب فى هذا المقام . قلت : انظر شعر القطن وحب القمح وحب الشعير وحب الذرة وحب الفول والبطاطس والقصب والبرسيم والصابون اللين وملح البارود والنطرون والزجاج . انظر إلى هذه المواد وهى ثلاثة عشر وتأمل فى عجب من عجائبها . إن البوتاسا تدخل فى القطن (٥ر٥) من المائة وفى حب القمح ٥ر٣١ وفى حب الشعير ٢١ وفى الذرة ٣٧ وفى الفول ٤٢ وفى البطاطس ٦١ وفى القصب ٢١ وفى البرسيم ٣٤ وترى الصودا تدخل فيما تقدم بنسب تختلف عن هذه ، مثلا تدخل فى شعر القطن (٥ر٣) تقريبا وفى حب القمح (٢٦ر٢) فى المائة وفى حب الذرة (٣) وفى حب الفول (٣ر٣) من المائة ، فإذن كل هذه المواد دخل فيها البوتاسا والصودا ، ثم إن الصودا تستعمل فى الصنائع لتحضير الزجاج والصابون وبها تبيض الأقمشة القطنية وتستعمل فى المنازل لغسل الأوانى وتنظيفها .

فقال صاحبى : أنا لاأدرى ماهى الصودا ، هذا كلام معمى علينا فكيف تقوله فى تفسير القرآن والقرآن سهل ومثل هذا صعب لايعرف إلا فى الأجزخانات (الصيدليات) . فقلت له : الصودا هى النطرون وهو يوجد

في بلاد المجر وفي القطر المصري . وترى في بلادنا المصرية بركا يتبلور فيها النطرون في الصيف . وقديما كان يستخرج من النباتات البحرية والآن يحضر من الملح المعتاد الذي يسمى كلورور الصوديوم والصودا المذكورة أو ملح الصودا الذي منه النطرون عبارة عن كربون وأكسوجين وصوديوم أعني أنه من المادة الفحمية والصوديوم والأكسوجين المعروف اتحدت فكونت هذا الملح . قال : وما الصوديوم وما صفاته ؟ قلت الصوديوم فلزلين ذو لمعان فضي يصهر في الهواء من غير أن يلتهب . وإذا ألقي في الماء اصطهر وتحرك بعضه على بعض فوق سطح الماء وهذا التفاعل يحصل نظيره في البوتاسيوم كما سيأتي وهو يكون في الحبوب التي نأكلها المذكورة ودخل في القطن الذي نلبسه . كل ذلك فيه بوتاسيوم وفيه صوديوم . أما الصوديوم فهو من الأجزاء المركبة للصودا المذكورة . وأما البوتاسيوم فهو من الأجزاء التي تركبت منها البوتاسا المذكورة سابقا فإن البوتاسا المذكورة أي الداخلة في الحب والشعر وغيرها عبارة عن بوتاسيوم قد اتحد مع اكسوجين وأيدروجين وتسمى (البوتاسا الكاوية) والبوتاسا جسم كاو شديد إذا لامس الأنسجة أحدث فيها استرخاء وأتلفها . ومن مركبات البوتاسا ملح البارود . إنك مهما قلبت نظرك في المواضع الرطبة والحيطان الرطبة في أراضي القطر المصري والهند والعجم واسبانيا فإنك تجد ملح البارود ظاهرا لاسيما في المحال الخربة فهذا الملح الذي في تلك الأماكن مركب من الأوزوت والاكسوجين والبوتاسيوم المذكور . فهو إذن من مركباته.

فالبوتاسيوم إذن داخل في البارود وفي ملابسنا وفي مآكلنا، وإذا أردت أن تعرف صفاته قلنا إنه جسم من الفلزات لونه أبيض فضي لماع لين كشمع العسل ويصهر على درجة (٦٢٫٥) ويتطاير على درجة دون الاحمرار ولون بخاره أخضر جميل وهو أخف من الماء ويتغير لونه بملابسة الهواء ويحلل الماء على الدرجة المعتادة فيحصل تفاعل بشدة ، فإذا ألقيت قطعة من البوتاسيوم في الماء فإن كرات البوتاسيوم تحمر بسبب شدة ارتفاع الحرارة الناتجة عن التفاعل ويحصل التهاب . وترى بعينك كرات من البوتاسيوم يدور بعضها على بعض سابحة جميعها على سطح الماء . وهذه العملية يحصل بها استحالة البوتاسيوم إلى بوتاسا وحينئذ ينقطع التصاعد فتسقط قطعة البوتاسا على الماء فيظهر بخار فجأة بسبب الحرارة وتحصل فرقعة .

هذه ملخص أوصاف البوتاسيوم . انظر وتعجب ، لقد عرفت البوتاسيوم الذي هو من أجزاء البوتاسا تلك البوتاسا التي تدخل في تركيب الصابون ويدخل البوتاسيوم أيضا في ملح البارود الذي هو مركب من البوتاسيوم ومن الأكسوجين ومن الأوزوت .

انظر إلى الصابون الطري وإلى ملح البارود الذي تراه على الحيطان الرطبة والأماكن الخربة ، وانظر إلى ثوبك الذي تلبسه من القطن وإلى حب القمح وحب الفول والشعير والبرسيم ، انظر هل يدور بخلدك أنها قد دخل فيها عنصر لو وضعناه على الماء اتقد نارا ، هل كان يدور بخلد أحد أننا نلبس ثيابا محتوية على مادتين لو وضعتا على الماء اتقد نارا ؟ الله أكبر . جل العلم وجلت الحكمة . تسمع أن البارود يهلك البلاد والعباد والبارود مركب من ملح البارود الذي فيه البوتاسيوم ومن الكبريت والفحم ، البارود مركب من الفحم الذي نوقده في بيوتنا ومن الكبريت ومن ملح البارود . وقد اختلفت الدول في المقادير كما تقدم ، ففرنسا تدخل من ملح البارود (٧٥) في المائة وألمانيا (٧٤) في المائة وانجلترا (٧٦) في المائة في تركيب البارود . البارود الذي فازت به أوروبا علينا وأتت وحاربتنا به ودخل في تركيبه البوتاسيوم ، ذلك البوتاسيوم الذي إذا ألقي على الماء التهب الماء ، ذلك البوتاسيوم الذي هو من جملة الأجزاء المكونة لملابسنا القطنية والقمح والشعير والفول والبرسيم . جل الله ، ما أجمل العلم ! انظر إلى علم الكيمياء . لا لا . بل انظر إلى سورة يس كيف ظهر من سرها هذا الحال وهو التحليل تحليل الحروف في أولها وتحليل الكيمياء في آخرها .

انظر كيف دخل البوتاسيوم ودخل الصوديوم هذان الجسمان اللذان يلتهبان فى الماء ، يلتهبان أشد من التهاب الشجر الأخضر ، أكثر من التهاب المرخ إذا حك بالعفار ، جل الله وجل العلم . ماأبهج نور العلم وماأجمل الحكمة ، إن العلم ملأ السهل والجبل وعرفه الغربيون أما المسلمون فهم نائمون .

أيها المسلمون : يقول الله سبحانه «الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون» ولعلكم سمعتم أن الله خلق ملكا نصفه ثلج ونصفه نار ، فلا الثلج يطفىء النار ولا النار تذيب الثلج ، ذلك إشارة إلى آثار صنعة للملائكة بأمر الله ،ألم تروا كيف اجتمع فى ملابسنا جسمان ناريان مصحوبان بالماء .

العجب فى هذين الأمرين الأول أن البوتاسيوم والصوديوم يلتهبان فى الماء على الدرجة المعتادة وهذا عجب عجاب ، هذا أعجب من اتقاد النار فى شجر أخضر ، فهذا اتقاد فى ماء واتقاد الماء نار أغرب فاذا ذكر الله سبحانه الشجر والنار المتقدة فيه فههنا اتقاد فى الماء وهو أبدع وأعجب فى الحكمة الإلهية كما قال «ويخلق مالا تعلمون» وكما قال فى هذه السورة «سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون» .

أما الأمر الثانى فهذان الجسمان المحرقان ، نحن الآن نلبسهما ونأكلهما لأنهما دخلا فى تركيب القطن والحب ونحن نغسل ثيابنا بأحدهما لأن البوتاسيوم الذى هو من أجزاء البوتاسا داخل فى الصابون الذى نغسل به أجسامنا وثيابنا وإنما أكلناهما ولبسناهما لأنهما دخلا بمقادير قليلة فى الحب والقطن ، دخلا بحساب بديع ونظام متقن فى أرزاقنا ، أدخلهما الله بحسابه وترك لنا الحرية فى إدخال البوتاسيوم والمركب منه وهو ملح البارود فأدخلته الأمم مع الكبريت والفحم . ولكن إدخال الأمم له ليس كادخال الله له فى النبات . إن الناس أدخلوه بكثرة بحيث صار ثلاثة أرباع البارود . أما الله فانه أدخله بقلة . فاذن البوتاسيوم حياة لنا إذا قل وموت لنا إذا كثر والله جعله لنا حياة والناس تصرفوا فيه فجعلوه آلة للموت . وهذا هو السر فى هذه السورة .

جعل الله الحروف مجزأة فى أولها وفى أول غيرها من السور لتعليمنا علم التحليل ، فلم يبق للمسلمين عذر بعدهذا البيان . استدل الله بالنار فى الشجر على بديع حكمته وإتقان صنعته مشيرا إلى التحليل الكيماوى فى العالم . ثم رأينا للمواد المحرقة من البوتاسيوم ومن الصوديوم منتشرة فى أكثر النبات ورأيناها مستعملة عند الأمم فى البارود . فهى مهلكة تارة ومحيية أخرى ووجدنا هذا كله لايكون إلا بمعرفة العناصر الكيمائية وسرها وهذا هو سر (سورة يس) وقد ورد « قلب القرآن يس » .

لقد ظهر أن فيها قلب العلوم وأسها وهو التحليل بالحروف فى أولها وبالعلوم الطبيعية والرياضية فى وسطها وآخرها . وإياك أن تظن أنها قلب القرآن بسبب هذا وحده بل هذا من جملة علومها فثبت مما تقدم مايأتى :

(١) الصوديوم والبوتاسيوم باتصالهما بالماء تتقد نار كما اتقدت من احتكاك المرخ مع العفار .

(٢) هما عنصران داخلان فى أغذيتنا وملابسنا بمقادير قليلة فكانت من أسباب حياتنا ومنفعتنا

(٣) هما داخلان فى البارود بمقادير كثيرة يستعملان لإزالة الحياة .

(٤) سورة يس أشار الله فيها إلى ذلك التحليل بالحرفين الهجائيين فى أولها وبذكر اتقاد النار فى المرخ والعفار اتقادا كيمائيا فى آخرها أى أن العلوم كلها ترجع إما إلى عناصر إن كانت طبيعية وإما إلى حروف إن كانت لغوية وكلاهما لايعرف إلا بالتحليل واللغة مقدمة وتليها العلوم .

(٥) إذا زادت الكلمة حرفا أو نقصت حرفا تغير المعنى وتغير الأثر فى العقول ، هكذا إذا زاد المركب عنصرا أو ذرة من عنصر أو نقص عنصرا أو ذرة من عنصر تغيرت خواص المركبات ، وهذا مقصود لفظة (يس).

﴿ فائدة ﴾

(١) من مركبات البوتاسيوم السواريخ التى تظهر على هيئة مطر وتسمى سواريخ المطر فهى مكونة من البارود الناعم ومن الفحم الخفيف ومن عنصرين آخرين : وهما الخارصين والأنتيمون .

(٢) ومن مركباته أيضا النيران .

(٣) والنيران الخضراء .

(٤) والنيران البنفسجية .

(٥) والنيران الحمراء .

ومن البوتاسيوم حياتنا بالأغذية . حفظ أجسامنا بالملابس ، وهلاك الأعداء بالمدافع والبارود وانشراح الصدور فى المواسم والأعياد بالألوان المختلفة للأمة . جل الله الذى جعل ذلك كله فى معنى لفظ يس . بهذا يعرف المسلمون بعض سر هذين الحرفين ياء وسين .

﴿ فائدة ثانية : ملح الطعام ﴾

الناس يأكلون ملح الطعام ويعيشون ويموتون وهم لايعلمون من أى شىء ركب . يعيش الإنسان وهو يأكل الملح فى طعامه ولا يدرى أنه يأكل فى الملح جسمين متحدين : أحدهما نارى إذا ألقى فى الماء اضطهر وتحرك بعضه على بعض فوق سطح الماء ، كما يحصل فى البوتاسيوم . وذلك الجسم هو الصوديوم . فالصوديوم يلتهب فى الماء وينتهى بفرقعة .

هذا أحد الجسمين . أما الجسم الآخر فهو الكلور وهو غاز لونه الصفرة مخضر يؤثر بقوة فى أعضاء التنفس فيحدث سعالا وتهيجا فى الأغشية المخاطية ، وإذا استمر تأثيره أحدث ، الموت والكلور يزيل المواد الملونة ويتلف الجراثيم المعدية والروائح العفنة التى تتكون فى التخمر العفن ويستعمل فى تبييض الأنسجة التى من القطن والكتان والتيل لإتلاف المواد الملونة ، ويستعمل فى تبخير السجون والمستشفيات والمحال العفنة لاتلاف الجراثيم فيها والمواد المسببة المعفونة . ولا يستعمل الكلور لتبييض الصوف أو الحرير لأنه يتلفهما وهو يبيض عجينة الورق لأنه يزيل لون الخرق المستعملة فى العجينة ؟ إن الذهب والبلاتين لا تؤثر فيهما الحوامض ولكن يؤثر فيهما الكلور فيتحد معهما ويسميان كلورور الذهب وكلورور البلاتين .

(الماء الملكى)

الكلور يدخل فى التركيب الذى يسمى الماء الملكى، وهو سائل أصفر يذيب البلاتين والذهب فيتكون كلورور البلاتين وكلورور الذهب ، وإنما سمى ماء ملكيا لأنه يذيب الذهب الذى هو ملك المعادن ، جل الله وجلت الحكمة وجل العلم : ملح نأكله فى هذه الحياة ولاندرى أننا نأكل جسمين : أحدهما نارى يتقد نارا مع الماء وهو الصوديوم ، وثانيهما جسم غازى مخضر اللون محدث للسعال يميت يميت الإنسان إذا طال استعماله ويميت الجراثيم حالا ويؤثر فى الذهب ملك المعادن ويضر الصوف وينظف القطن .

إن الملح نافع لنا والجسمان اللذان تركب منهما أحدهما مهلك تارة ونافع أخرى . كل ذلك لايعرف إلا بصناعة التحليل فى علم الكيمياء ، وذلك كله فى معنى (يس) .

ياليت شعرى هل يدرى المسلم وهو يأكل الملح أن هذا الملح سر (سورة يس) وعلومها تحتوى على بسائط ضارة ونافعة وقاتلة . عرفت أوروبا ذلك . عرفت سر التحليل فعلمتنا كيف نزيل العفونات ، وكيف نقتل الجراثيم ، ولم ندر نحن أن القرآن يطالبنا بذلك فى لفظة يس . جاءت أوروبا بالغازات الخانقة والمحدثة للسعال ونحن نتعجب ونقول عجبا عجبا ! ما أعلمهم ونحن فى الوقت نفسه نأكل الملح المحتوى على الكلور والكلور يحدث السعال ويحدث الموت ، ونقرأ يس صباحا ومساء لقضاء الحاجات من رب الكائنات ولا نعلم أن فى لفظة (يس) هذا السر المصون وهو سر التحليل وبه نعرف المواد المهلكة والمواد النافعة وبه نحارب من يحاربنا . لما جهلنا ذلك أرسل الله أوروبا لحاربتنا وغلبتنا فانتبهنا فلذلك ظهر بعض سر (يس) فى هذا التفسير . لولا فضل أوروبا علينا وحربها لنا لم يظهر بعض سر (يس) الذى اطلعت عليه الآن .

نأكل الملح ولاندرى أن أحد جسميه وهو الكلور هو الذى ينظف الخرق المستعملة لعجينة الورق . أنا أكتب الآن على هذا الورق الذى لولا الكلور لم يكن ورقا أى لولا أحد جسمى ملح الطعام لم يكن ورقا . لم يكن ورقا إلابإزالة الكلور الذى هو أصفر اللون مع اخضرار لألوان الخرق . لولاه لم يكن الورق أبيض بل كان كثير الألوان فلا ينفع فيه كتابة . إن ملح الطعام منتشر فى الدنيا فهو فى الجبال وفى أغوار الأرض وفى مياه البحار بنسبة (٣١) جراما فى اللتر فى المحيط الاطلانطيقى والهادى الباسفيكى و١٨ جراما فى البحر الاسود وفى بحر الخزر (٦) جرامات فى اللتر وفى البحر الأبيض (٣١) جراما فى اللتر ويحضر فى ملاحات الاسكندرية ورشيد ودمياط ، وقد تقدم ذلك فى هذا التفسير فى آخر (آل عمران) .

هذا هو الملح الذى نأكله . هذا هو الملح الذى ملأ البحر وهو فى الجبل حلل إلى جسمين نارى وقاتل أوممرض ونافع . وسر (يس) لاستخراج منافعه . فالناس يقرءون (يس) ويتعاطون الملح وهم لايعلمون . ذلك من سر قوله تعالى « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا » وأكثر الشجر فيه الصوديوم والبوتاسيوم والصوديوم فى الملح . فهذا كله من سر سورة (يس) فلأكتف بهذا القدر « والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » . انتهى الكلام على علم الكيمياء .

﴿ الكلام على بعض العلوم ﴾

لقد علمت بعض ما ترمز إليه الحروف التى فى أوائل السور ومنها سورة (يس) . ولعلك تقول : أترى أن ياء وسين تفيد هذه المعانى كلها ؟ أقول نعم إن الله لما أنزل القرآن أراد هذه المعانى التى كتبتها والتى سيقولها من بعدنا . فالعقول الإنسانية اليوم وبعد اليوم مستمدة من الله وهى تفهم من الوحى فهما يؤدى الى الثمرات المطلوبة فى زمانها ، فما كان حقا بقى وما كان باطلا اضمحل . وإذا كان القرآن نفسه محفوظا بالنص فهكذا ما كان حقا من تفسيره أو تأويله أو رمزه .

ولعلك تقول أوضح فأقول : إن الحروف التى فى أوائل السور لم تعرفها العرب . لم تقرأ فى المعلقات التى هى أشرف ماقيل فى زمن الجاهلية ولا فى غير المعلقات أن الشاعر قال طس ولاحم ولاالمر ولاالر ولا الم وإنما ينطق بقوله : قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

أو بقوله : لمية أطلال ببرقة ثهمد

أو بقوله : آذنتنا ببينها أسماء

أو بقوله : ألا هبى بصحنك فاصبحينا

ولم نسمع شاعرا يوما ولاخطيبا يقول : الم قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل الخ وإنما هذه الحروف اختص بها القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم قرأها ولم يفسرها ولو فسرها لوقفت العقول عند تفسيره . فمعنى هذا أنه تعالى يقول

لنا فكروا فى هذا . لم أنزل ولم أختص القرآن به مع أن القرآن ليس مدرسة لتعليم الهجاء وإنما هو ذكر وقرآن مبين فأين الذكر هنا ؟ ولقد فكر من قبلنا كل بحسب ماوصل إليه فهمه وقد تقدم فى أوائل سورة آل عمران . أما نحن فنقول إن هذه أشبه بخزائن علم أبقيت ليتدبر الناس فيها والخزائن لاتبرز إلا عند الاقتضاء ووجدنا المسلمين مقصرين فى جميع العلوم التى فيها التحليل فقلنا إذن الله يريد أن يذكرنا بما نسيناه وهو إرجاع الأمور إلى أصولها ويقول لنا أمرا سهلا (الم . ى س) وهكذا يقول ادرسوا أصول الأشياء فلما سمعناه يقول ذلك فكرنا فوجدنا أن أوروبا نبغت فى علم الكيمياء وغيرها وعرفت العناصر واستخدمتها فى الحرب والتجارة وجميع فروع الحياة فقلنا:أيها المسلمون ادرسوا هذا العلم ، انظروا النبات وحللوه كما حلل الشجر واحترق نارا .

هذا ماقرأته أنت فى القول السابق ونقول الآن إن ذلك سار فى أكثر العلوم ، ألا ترى الى علم الحساب أليس هوراجعا إلى تحليل وتركيب . أليس الجمع والضرب يرجعان الى التركيب والطرح والقسمة يرجعان الى التحليل ، كذلك الهندسة وفروعها ترجع جميع نظرياتها إلى الاصول التى قبلها وكل نظرية ترجع إلى ماقبلها حتى تصل إلى الأوائل العقلية مثل الكل أعظم من الجزء والشيئان المساويان لشىء واحد متساويان ، كذلك علم المنطق ، إن علم المنطق يرجع إلى أربعة أصول وهى التحليل والتقسيم والحد والبرهان ، وأنت ترى أن المنطق اليوم فى بلاد الإسلام قد خلا من التحليل فأصبح علما ناقصا لاينفع ، وكيف ينتفع الناس بعلم ينقصه أهم أصوله ، فالتحليل للأشخاص كقولك هذا الإنسان وهذه الشجرة وهذا البناء وهذه المدينة وهذه الأمة . فكل هذه من حيث إنها أشخاص لاتعرف إلا بالتحليل وعلم الكيمياء المتقدم كله تحليل . فكل مركب فى المنطق لايعرف إلا بمعرفة أجزائه أعنى تحليلها وهذا مفقود فى المنطق اليوم وقد ذكرته فى كتاب الفلسفة الذى ألفته حديثا .

فأما التقسيم فيكون لمعرفة الكليات وتمييز بعضها من بعض . وأما الحدود فللأنواع وأما البراهين فإنها تكون للأجناس . فاذا رأينا المسلمين على هذا النحو من النوم العميق . ورأينا هذه الحروف فانا نقول إن الله أراد إيقاظ الأمة لهذا النوع من العلوم ، وحقا هو أراده حين أنزله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأنا أقول الآن أيها المسلمون جهلتم أهم مافى المنطق وجهلتم علم الكيمياء والله يناديكم أن هلموا وإلا فأنتم هالكون

﴿لطيفة﴾

حضر صديقى العالم واطلع على ماتقدم فقال : إن هذا منك هجوم على القرآن ، كيف تدعى أن هذه المعانى قصدها الله ، وهل أنت اطلعت على علم الله إن هذا غلو فى الدين ؟ فقلت : لقد جاء فى سورة البقرة (الم) للاشارة إلى قوله « ألم تر إلى الذين خرجوا » الخ وفى (آل عمران) لمسألة اليهود الخ وهنا لم تجىء (الم) بل جاء ياء وسين المذكوران فى أهم أدلة السورة من نار الشجر المشير للكيمياء ومن خلق ماهو أكبر من الإنسان ومن خلق ماابتداؤه أولا . فقال : أين ذلك ؟ قلت فى قوله « ونسى » وفى قوله « أوليس » فتأمل إن الله أراده حقا . ألم تر أن علم الكيمياء من الواجبات والفروض الكفائية . قال بلى . قلت : إذن هذا يحرم تركه هكذا التحليل فى المنطق ، أليس جزءا من علم وهو فرض كفاية . قال بلى . قلت إذن هو من الدين ويحرم تركه . قال : ولكن كيف تقول أراده من هذه الحروف . قلت : إذا وجدنا أن هذه الحروف قد انطبقت على مانحن فى حاجة إليه وفهمناها بطريق الرمز . وفوق ذلك جاءت ياء وسين فيما ذكرته لك فنقول إن الله أراد هذا المعنى لأن الله لايستحى من الحق وهذا حق . ولقد قال علماء التفسير إن المعانى الرمزية المقولة النافعة أرادها الله من القرآن مهما كثرت . إن القرآن أنزل لأجلنا . فاذا وقف قوم بسبب فهمهم فهما أدى إلى الانحطاط فليكن اليوم هو الذى نفهم فيه مايؤدى الى السداد والنجاح .

على أنى لا أكتمك أيها الذكى الحديث أن وجدانى يعلى على ذلك وأجده فى النفس بدافع قوى شديد بحيث لاأقدر على مدافعته والله عليم بذات الصدور .

وقد قال علماؤنا رحمهم الله : [إن الخاطر إذا كان موافقا الشرع فهو إما من الله أو من الملك] وأقرب شاهد لذلك أنى منذ ليلتين حين ابتدأت فى تفسير هذه السورة كنت أتعاطى طعام السحور فقام فى نفسى بدافع شديد قوى أن الدورة الغذائية فى الأجسام الإنسانية تدخل فى سر لفظ (يس) فأردت أن أدافع هذا الخاطر فلم أقو على دفعه .

﴿ الدورة الغذائية فى الأجسام الإنسانية والحيوانية ﴾

لما خطر هذا الخاطر وجدت أمرا عجيبا ، وجدت أن الغذاء تقطعه القواطع وتمزقه الأنياب وتطحنه الأضراس . فقلت : ياعجبا . هذا كالتحليل ، هذا خبز وخضر ولحم وفاكهة للانسان وأب وورق ولحم وحب للحيوان تقطع وتمزق وتطحن . إن ذلك تحليل الجسم الى دقائقه ، ثم ينبع (٦) أنهر من تحت اللسان لتعين الآكل على عجن القمة فيمكن بلعها وهذا الريق لتحويل ذلك الطعام حتى ينهضم ويقابله البنكرياس فيزيده هضما ، كل ذلك تحويل الطعام ليصير كقوام اللبن وهو الكيموس ويدخل إلى الأمعاء فيصير كيلوسا ويتجه فى الشرايين فتمتصه ثم يطبخ فيصير دما وهناك تفرز منه المواد اللطيفة فتذهب إلى الصفراء والمواد الغليظة تذهب إلى الطحال والمواد المائية تذهب إلى الكليتين، وتبقى المواد الدموية الخالصة فتذهب الى الشرايين وهذه تمر على سائر الأعضاء البدنية ظاهرها وباطنها فتعطى كلامنها مايناسبه،والصفراء لاتذهب سدى بل هى تنبه الشهوة من جهة ومن جهة أخرى تسهل انزلاق الطعام فى الأمعاء حتى يبرز الى الخارج ، وأما الماء فانه يذهب إلى الحالبين فالمثانة فيكون البول ، وأما الفضلة الغليظة فتذهب فى المستقيم ، وأما السوداء فانها تساعد كما تساعد الصفراء فى أعمال الغذاء ونظامه .

﴿ الدورة التنفسية ﴾

وهكذا الدورة التنفسية ، إن الهواء فى دخوله إلى الرئتين يحلل فيكون الاكسوجين ذاهبامع الدم إلى داخل الجسم ويرجع مابقى من عناصره متحملاالمادة الكربونية الراجعة مع الزفير إلى الهواء الجوى ، هكذا الدائرة العقلية قد قسمت أعمالها على الحواس الخمس الظاهرة فكل حاسة لهاعمل لاتتعداه ، هكذا الحواس الخمس الباطنة مثل الحس المشترك والخيال والقوة المفكرة والحافظة والواهمة فكل واحدة منها لها عمل . إن الله عز وجل يوقظ المسلمين إلى التحليل الذى أغفلوه وأظهره الله فى الحواس وفى أعمال الهضم فى حروف أوائل السور لاسيما (يس) وقوله تعالى « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون » والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

لطائف هذه السورة

(اللطيفة الأولى) فى قوله تعالى « قال ياليت قومى يعلمون » وفى قوله تعالى « ياحسرة على العباد »

(اللطيفة الثانية) فى قوله تعالى « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها » وذلك فى (أمرين . الأول) كم عمر الأرض فى رأى بعض العلماء . (الثانى) فى تقصها المستمر .

(اللطيفة الثالثة) فى قوله تعالى « والشمس تجرى » الخ .

(اللطيفة الرابعة) فى ضوء الشمس وحرارتها .

(اللطيفة الخامسة) فى قوله تعالى « سبحان الذى خلق الأزواج كلها » الخ.
(اللطيفة السادسة) فى قوله تعالى « وتكلمنا أيديهم ».
(اللطيفة السابعة) فى قوله تعالى « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ».
(اللطيفة الثامنة) فى قوله تعالى « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ ».

اللطيفة الأولى فيها فصلان

﴿ الفصل الأول فى قوله تعالى « قال ياليت قومى يعلمون » ﴾

نذكر فى هذا الفصل ماجاء فى كتاب [إخوان الصفاء] تحت العنوان التالى وهذا نصه :

(فصل ينبغى أن نبين كيف يكون تواصل إخوان الصفاء وكيف يكون معاونة بعضهم بعضا فى طلب معيشة الدنيا وماذا كيف يكون حال من سبقته المنية قبل صاحبه وكيف يكون عيش الباقى منهم بعد صاحبه؟)

ذكر أن مدينة كانت على رأس جبل فى جزيرة من جزائر البحر مخصبة كثيرة النعم رخية البال طيبة الهواء عذبة المياه حسنة التربة كثيرة الأشجار لذيذة الثمار كثيرة أجناس الحيوانات على حسب ماتقتضيه تربة تلك الجزيرة وأهويتها ومياهها، وكان أهلها إخوة وبنوعم بعضهم لبعض من نسل رجل واحد، وكان عيشهم أهنى عيش يكون بتودد ماكان بينهم من المحبة والرحمة والشفقة والرفق بلاتنغيص من الحسد والبغى والعداوة وأنواع الشر كما يكون بين أهل المدن الجائرة المتضادة الطباع المتنافرة القوى المتشتتة الآراء القبيحة الأعمال السيئة الأخلاق، ثم إن طائفة من أهل تلك المدينة الفاضلة ركبوا البحر فكسر بهم المركب ورمى بهم الموج الى جزيرة أخرى فيها جبل وعر، فيه أشجار عالية وعليها ثمار قذرة، فيها عيون غائرة ومياهها كدرة وفيها مغارات مظلمة وفيها سباع ضارية وإذا عامة أهل تلك الجزيرة قردة وكان فى بعض جزائر البحر طير عظيم الخلقة شديد القوة قد سلط عليها فى كل يوم وليلة يكر عليهم ويختطف من تلك القردة عدة، ثم إن هؤلاء النفر الذين نجوا من الغرق تفرقوا فى الجزيرة وفى أودية ذلك الجبل يطلبون مايتقوتون من ثمارها لمالحقهم من الجوع ويشربون من تلك العيون ويستترون بأوراق تلك الأشجار ويأوون بالليل إلى تلك المغارات ويتصون بها من الحر والبرد فأنست بهم تلك القرود وأنسوا بها إذ كانت أقرب أجناس السباع شبها لصورة الناس فولعت بهم أناث القردة وولع بها من كان به شبق فحبلت منهم وتوالدت وتناسلوا وكثروا وتمادى بهم الزمان فاستوطنوا تلك الجزيرة واعتصموا بذلك الجبل وألفوا تلك الحال ونسوا بلدهم ونعيمهم وأهاليهم الذين كانوا معهم بديا ثم جعلوا يبنون من حجارة ذلك الجبل بنيانا ويتخذون منها منازل ويحرصون فى جمع تلك الثمار ويدخرونها من كان منهم شرها وصاروا يتنافسون على إناث تلك القرود ويغبطون من كان منهم أكثر حظا من تلك الحالات وتمنوا الخلود هناك وانتشبت بينهم العداوة والبغضاء وتوقدت نيران الحرب، ثم إن رجلا منهم رأى فيما يرى النائم كأنه قد رجع إلى بلده الذى خرج منه وأن أهل تلك المدينة لما سمعوا بمجيئه استبشروا واستقبله خارج تلك المدينة أقرباؤه فرأوه قد غيره السفر والغربة فكرهوا أن يدخل المدينة على تلك الحال وكان على باب المدينة عين من الماء فغسلوه وحلقوا شعره وقصوا أظافيره وألبسوه الجدد وبخروه وزينوه وحملوه على دابة وأدخلوه المدينة فلما رآه أهل تلك المدينة استبشروا به وجعلوا يسألونه عن أصحابه وسفرهم وما فعل الدهر بهم؟ وأجلسوه فى صدر المجلس فى المدينة واجتمعوا حواليه يتعجبون منه ومن رجوعه بعد اليأس منه وهو فرحان بهم وبما نجاه الله عز وجل من تلك الغربة وذلك الغرق ومن صحبة تلك القرود وتلك العيشة النكدة وهو يظن أن ذلك كله

يراه في اليقظة فلما انتبه إذا هو في ذلك المكان بين أولئك القرود فأصبح حزينا منكسر البال زاهدا في ذلك المكان مغتما متفكرا راغبا في الرجوع إلى بلده فقص رؤياه على أخ له فتذكر ذلك الأخ ما أنساه الدهر من حال بلدهما وأقاربهما وأهاليهما والنعيم الذي كانوا فيه فتشاورا فيما بينهما وأجالا الرأي وقالا كيف السبيل إلى الرجوع وكيف النجاة من هنا فوقع في فكرهما وجه الحيلة بأنهما يتعاونان ويجمعان من خشب تلك الجزيرة ويبنيان مركبا في البحر ويرجعان إلى بلدهما فتعاقدا على ذلك بينهما عهدا وميثاقا أن لايتخاذلا ولايتكاسلا بل يجتهدا اجتهاد رجل واحد فيما عزما عليه ثم فكرا أنه لو كان رجل آخر معهما لكان أعون لهما على ذلك وكلما زاد في عددهما يكون أبلغ في الوصول إلى مطلبهم ومقصدهم فجعلوا يذكرون إخوانهم أمر بلادهم ويرغبونهم في الرجوع ويزهدونهم في السكون هناك حتى التأموا جماعة من أولئك القوم على أن يبنوا سفينة ويركبوا فيها ويرجعوا إلى بلادهم فبيناهم في ذلك دائبون في قطع الأشجار ونشر الخشب لبناء تلك السفينة إذجاء ذلك الطير الذي كان يختطف القرود فاختطف منهم رجلا وطار به في الهواء ليأكله فلما أمعن في طيرانه تأمله فاذا هو ليس من القرود التي اعتاد أكلها فرمى به طائرا حتى مر به على رأس مدينته التي خرج منها فألقاه على سطح بيته وخلاه، فلما تأمل ذلك الرجل إذا هو في بلده ومنزله وأهله وأقربائه فجعل يتمنى لو أن ذلك الطير يمر في كل يوم ويختطف منهم واحدا ويلقيه إلى بلده كما فعل به، وأما أولئك القوم بعد ما اختطفه الطير من بينهم فانهم جعلوا يبكون عليه محزونين على فراقه لأنهم لايدرون مافعل به الطير ولو أنهم علموا بحاله وماصار إليه لتمنوا ماتمنى لهم أخوهم فهكذا ينبغي أن يكون اعتقاد إخوان الصفاء فيمن قد سبقته المنية قبل صاحبه لأن الدنيا تشبه تلك الجزيرة وأهلها يشبهون تلك القردة ومثل الموت كمثل ذلك الطير ومثل أولياء الله كمثل القوم الذين كسر بهم المركب ومثل دار الآخرة كمثل تلك المدينة التي خرجوا منها فهذا اعتقاد إخواننا الكرام في معاونتهم في الدنيا وما يعتقدون فيمن سبقته المنية قبل إخوانه. فانتبه أيها الأخ من نوم الغفلة ورقدة الجهالة فان الدنيا دار غرور ومحن لايرغب العاقل الخلود في دار الحزن والبلاء، وفقك الله وإيانا وجميع إخواننا السداد وهداك وإيانا وجميع إخواننا سبيل الرشاد. انتهى الفصل الأول.

﴿ الفصل الثاني من اللطيفة الأولى: في قوله تعالى «ياحسرة على العباد» ﴾

اعلم أن هذه الجملة سجلت على النوع الإنساني التعمق في الجهالة ، وإذا أردت شرح هذا المقام فارجع إليه في (سورة التوبة) فانك تجد هناك كيف كان تقصير المسلمين اليوم في علومهم وأعمالهم منطبقا على الاستهزاء من حيث العمل لا الاعتقاد ، وستطلع هناك على عجائب العلم وأن المسلمين قد أبرز الله لهم ولغيرهم الكواكب والجبال وغيرها فأعرضوا فأبرز لهم أمرا آخر وهي الطيارات القاذفات للمهلكات كأنه يقول لهم : «أنتم أعرضتم عن جمال العوالم . فها أناذا أرسل عليكم شواظا من نار حامية تقذف من المدافع والطيارات» وتجد الموازنة هناك بين استهزاء الأمم المحكومة بجنود الأمم الحاكمة ومقاطعة حكامهم أو الخضوع وبين آيات الله التي قصها للناس ، فلما أعرضوا فعل معهم ما تفعله الأمم القوية مع الضعيفة « ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم» . انتهى الفصل الثاني .

اللطيفة الثانية : فى عمر الأرض ونقصها المستمر

(كم عمر الأرض ؟)

بعد اكتشاف الراديوم أصبح تقدير علماء طبقات الأرض وهو مائتا مليون سنة أول تقدير حديث مع أنه كان يظن أنه مبالغ فيه ، والبحث الآن ليس فى حسم النزاع بين علماء طبقات الأرض والفلك بل بين علماء طبقات الأرض وأنصار نظرية إشعاع الراديوم ، ثم لو حسم هذا النزاع الجديد وقر الرأى على عدد معين من ملايين السنين . فهل يعتبر هذا العدد مبدأ لخلق الأرض أو مبدأ الحياة فيها أى هل للأرض أول ولها آخر ؟

يقول اللورد كلفن : [لايمكن غير ذلك أى لابد أن يكون لأرضنا مبدأ وسوف تكون لها نهاية وأن هناك فكرة أو تدبيرا يعمل فى الكون وهو الخالق الأحد] هذا هو رأى اللورد الطبيعى وهو رأى يتفق وتعاليم الأديان ، وفى النهاية فان أقل تقدير لعمر الأرض الآن هو مائتامليون سنة ، وقد يظهر غدا أنه أكثر من ذلك بكثير ، إذ أن أدنجون يعطى حدا أقصى لعمر الأرض بعشرة آلاف مليون سنة . انتهى من مجلة [كل شئ]

واعلم أن مسألة [حزام الأرض] هى مقتضى قوله تعالى « ننقصها من أطرافها » فقد جاء فى بعض المجلات العلمية تحت العنوان التالى مانصه :

الأرض تشد حزامها

يقرر الدكتور (ميرمان الألمانى) أن طول خط الاستواء قد نقص ميلا عن طوله منذ ١٠٠ سنة نظرا لانكماش الأرض اهـ .

اللطيفة الثالثة : فى قوله تعالى « والشمس تجرى لمستقر لها » الخ

الله قدر سرعة الشمس وكل سرعة فى العالم ، فهو عزيز أى غالب عليم بما يقدره . وهنا فتح لنا باب السرعة فى العالم الذى نعيش فيه . إن أسرع حركة فى عالمنا هذا سرعة الخاطر . إن خواطرنا تنتقل من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب . ومن العرش إلى الفرش فى جزء من آلاف من الثانية . إن الجاهل لايعبأ بهذه السرعة ولابهذا التقلب ويقول هذا وهم ونحن نقول : أليس هذا التقلب أمرا موجودا بدليل أن هذه الحركات فى النفس لها آثار فى شعورنا وكل ماله أثر فهو موجود . فهذه السرعة موجودة وهى أعجب ما فى هذا الوجود ، ويلى هذه السرعة سرعة النور فانه فى الثانية الواحدة يمكنه أن يجرى حول الأرض فوق (٧) مرات ، ومعلوم أن محيط الأرض (٤٠) ألف كيلو والضوء يجرى بسرعة (١٨٦٠٠٠) ميل فى الثانية أو نحو (٣٠٠ر٠٠٠) ثلثمائة ألف كيلو . ثم سرعة القنبلة فى الثانية (٢٠٠٠) ميل . وسرعة الأرض حول الشمس (٦٥ر٥٣٣) ميلا فى الساعة . وسرعة الطيارة الفرنسية (٣٠٢ر٣) ميل فى الساعة ثم الطيارة الأمريكية (٣٠٠) ميل فى الساعة . ثم الطيارة الألمانية (٢٤٥ر٧١) ، ثم الاتومو بيل (١٥٦) ميلا (انظر شكل ٣٥) و (شكل ٣٦) الآتيان قريبا .

وهكذا حتى تصل قوة الإسراع فى الانحطاط إلى سرعة الرجل إذ يسير بسرعة (٩) أميال فى الساعة ، ثم تهبط السرعة شيئا فشيئا حتى تصل إلى سرعة الحلزون إذ يجرى (١٥) من (١٠٫٠٠٠) من الباردة فى الثانية ثم تهبط إلى درجة نحو شجر الغاب إذ يصل إلى (٢٧) جزءا من عشرة آلاف مليون جزء من الباردة فى الثانية الواحدة . فياسبحان الله . يقول الله « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » هذه الحركة الشمسية التى ذكرناها هنا هى الحركة الأرضية ولكنها منسوبة للشمس باعتبار مايظهر للرائى وهناك حركة أخرى للشمس هى ومجموعتها حول كوكب آخر . فالشمس تجرى والأرض تجرى وجرى الأرض حول الشمس بحسب الظاهر لايختلف عن جرى الأرض حول الشمس كما هو مبرهن عليه فى ذكر للموازنة بين الحركات . الله تعالى قدر الحركات كلها ، فقدر حركات الأشجار فى نموها حتى بلغت جزءا ضئيلا جدا من الباردة فى الثانية ومعلوم أن الباردة أقل من المتر قليلا كما قدر حركة النور الذى يجرى حول الأرض قريبا من ثمان مرات فى الثانية وقدر مابينهما من حركات الإنسان وسياراته وسيارات السموات . فالله قدر هذه الحركات وأعطى كل مخلوق مايستحقه ، فلو أعطى الغاب فى نموه حركات النور أولو أعطى النور حركات الغاب فى نمو أشجاره لاختل نظام العوالم ، فاذا جرى جريا ضعيفا كجرى العربات لم يعش حيوان على الأرض ، ولو أسرع نمو الأشجار إسراع الأضواء فى جريانها لم ينتفع الناس بشئ فى الأرض لأن سرعة النمو يتبعها سرعة الذبول فلايكون هناك ثبات لشئ ولابقاء ولاانتفاع . فهذا من معنى قوله «ذلك تقدير العزيز العليم» فهو قدر حركات الأجرام السماوية بمقادير تناسبها . ولم يعط القطارات على الأرض ولا الطيارات سرعة النور ولا الكواكب لأنها إذا أسرعت هذا الإسراع أهلكت من عليها حالا بسرعة حركتها . فمن تأمل هذا التقدير والإبداع أدهشه حسن التقدير ونظم السير « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

ركوب الريح أو الطيران خمسة أميال فى الدقيقة

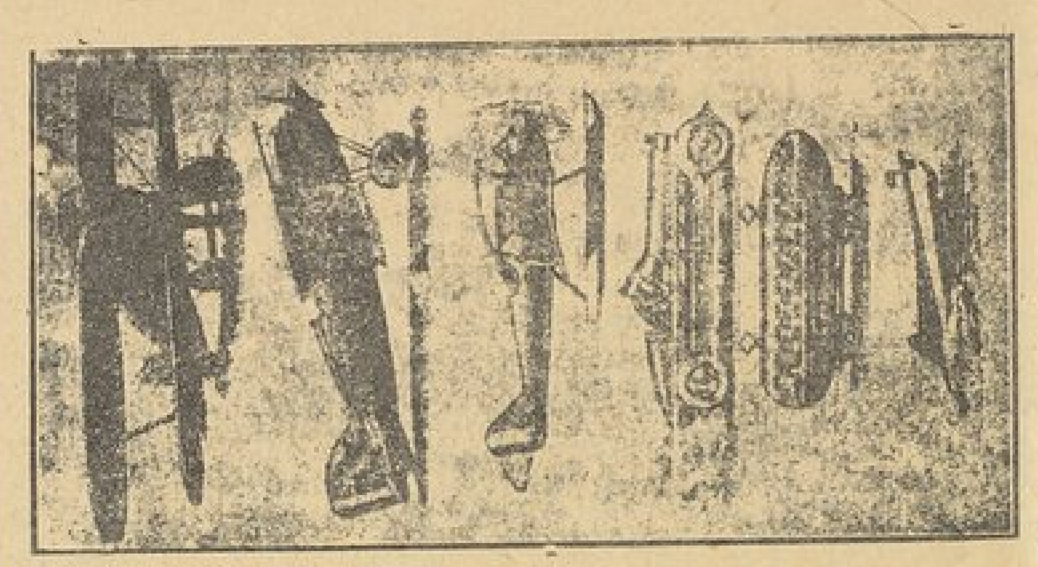
جاء فى مجلة [كل شيء] مانصه :

كان القدماء لايعرفون مركوبا أسرع من الجواد والبخق (وهو الجمل ذو السنامين) وكانوا يقولون فى وصف أحدهما إنه (ينهب الأرض نهبا) ولكننا نحتاج الآن إلى تعابير أقوى من هذه الجملة لكى نصف طيران الطيارات التى تطوى بساط الريح وتشق الفضاء . ومن يقرن الطيارات إلى الخيول كمن يقرن المصباح الكهربائى الحديث إلى مصباح الزيت القديم الذى كان القدماء يضربون المثل بجماله وصفاء زيته . وقد كان الناس قديما يعجبون لقطار الاكسبريس وسرعته التى تبلغ أحيانا ٦٠ ميلا فى الساعة . وكان بعضهم من المتعاقلين يهز رأسه ويقول بضرر هذه السرعة العظيمة على الركاب . ولكن أسرع الاكسبريسات الآن سلحفاة إلى جانب الطيارات فقد ذكرت الصحف من مدة قريبة أن مهندسا فرنسيا استطاع أن يطير ٣٠٢٫٣ من الأميال فى ساعة واحدة وهذا أبعد مدى بلغه طيار للآن ، ولكن الطيارين يؤملون أن يطيروا قريبا نحو ٥٠٠ أو ٦٠٠ ميل فى الساعة بحيث يستطيع الإنسان أن يتغدى فى لندن أو باريس ويتعشى فى القاهرة . وقد كانت هذه الأقوال تعتبر قبل سنوات خيالا سخيفا لايتحقق ولكنها الآن فقدت غرابتها وباتت المسألة محصورة فى تحسين محركات الطيارة من وجوه الإتقان ومتانة المواد . أما الاختراعات الجديدة فليس الطيارون فى حاجة إليها .

وأقرب سرعة بلغها طيار بعد هذا الفرنسى هي سرعة طيار أميركى فى خدمة حكومة الولايات المتحدة . قطع ٣٠٠ ميل فى الساعة ، تلى ذلك سرعة ضابط أميركى بلغت ٢٤٨٫٧١ فى الساعة ثم سرعة طيارة بحرية بلغت ٢٤٥٫٧١ فى الساعة ثم سرعة أتوموبيل بلغت ١٥٦ ميلا فى الساعة ثم القطار الكهربائى وسرعته ١٣٠

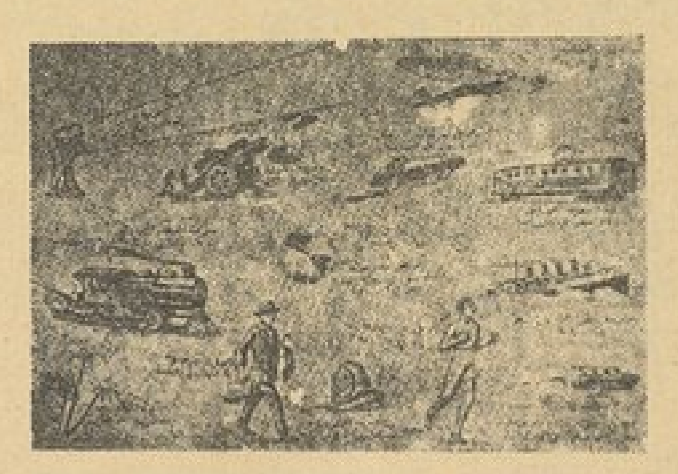
(ميلا

١٣٠ ميلا فى الساعة وأخيرا زورق يدفعه محرك سرعته ٨٠،٥ ميلا فى الساعة (انظر شكل ٣٥ وشكل ٣٦)



(زورق) (قطار كهربائى) (أتوموبيل) (طيارة مائية) (طيارة أميركية) (طيارة فرنسية)
٨٠٫٥ ميلا ١٣٠ ميلا ١٥٦ ميلا ٢٤٥٫٧١ ميلا ٣٠٠ ميل ٣٠٢٫٣ ميل فى الساعة

(شكل ٣٥ أسرع العجلات فى العالم)



(شكل ٣٦ - بيان تصويرى لأسرع الأشياء فى العالم وأبطئها)

هل بلغ الإنسان أقصى سرعته فى البر والبحر والهواء

أسرع قطار فى العالم يجرى بسرعة نحو ٦٨ ميلا فى الساعة . وفى السنة الماضية أجرى السابق جاروود قاربه بسرعة ٩٣ ميلا وساق سيجرايف سيارته بسرعة نحو ٢٣٢ ميلا فى الساعة. وطار أورلبار فى الصيف الماضى بسرعة ٦٩٣ ميلا فى الساعة ، وبلغ متوسط سرعته فى سباق ٣ كيلو مترات ٣٥٨ ميلا . ولا يزال الإنسان يطلب المزيد ، والعلماء مختلفون فمنهم من يقول إن سرعة الإنسان قد تجاوز ٥٠٠ ميل إلى ألف

فى الساعة ومنهم من ينكر ذلك ومسألة السير على مبدأ إطلاق الأسهم النارية تجعل الخبيرين حائرين لا يدرون
أتبلغ هذه السرعة أم لا ؟ والسرعة عند الإنسان لا يريد بها مجرد التظاهر وإنما هى خلة كانت لأسلافه واليوم
تظهر فيه على مبدإ الرجعية ، فعلى سرعة عدو الإنسان الأول توقف فراره من أعدائه ومطارديه ، ولم يكن
على جانب عظيم من سعة الحيلة لينجو منها ، ولا يزال يعمد إلى السرعة حتى الآن فى بعض مواقفه إما دفاعا
عن نفسه وإما مماشاة لسائر الأشياء التى حوله ، وهو يعلم بخبرته أن كثيرا من الوقت الثمين يقتصد بهذه السرعة
ففى أميركا مثلا اقتصد بالطيران ثلاثة أيام فى قطع أميركا من الشرق إلى الغرب أو العكس ؛ اكتشف العلماء
ذبابة اسمها ذبابة الغزال تطير فى مسافات قصيرة بسرعة لا تصدق أى بسرعة ٨١٥ ميلا فى الساعة أو نحو ٣٦٠
مترا فى الثانية ، وسرعة مثل هذه مستحيلة على اليابسة وقد تكون ممكنة على الماء فى طيارة تستخدم الهواء
والماء معا من نوع الهيدروبلاين ولكنها ليست مرجحة ، والصعوبة العظمى فى بلوغ هذه السرعة فسيولوجية
أكثر منها ميكانيكية ، وبعبارة أخرى إذا تمكن الانسان من اختراع سيارة أو طيارة تحتمل هذه السرعة
فهل يحتملها هو ؟ والجواب لا ، ثم لا ، وإذا احتملها فالمرجح أنه لا يستطيع أن يدير مركبة تجرى بهذه
السرعة من غير أن يلقى الحتف الأكيد . وإذا كانت السيارة تسير بسرعة ٢٣٠ ميلا فقط لا ٨١٥ ولا ١٠٠٠
فإنها لا تستطيع أن تسير فى خط دائرى منحرف إلا وتتعرض لآفات وصدمات هائلة ، بل يشك فى هل
يستطيع إنسان أن يقود سيارة تسير بسرعة ٣٠٠ ميل لأن أعصابه لا تحتمل هذه السرعة . فقد قاس همهولتز
الألمانى سرعة انتقال الانفعالات على أعصاب الجسم بين الدماغ والأطراف فوجد أنها ١٠٨ أقدام فى الثانية
وسيجراف سار فى سيارته بسرعة ٢٣٢ ميلا فى الساعة أو ٣٣٩ قدما فى الثانية أى ثلاثة أضعاف سرعة أعصابه
ومعنى هذا أن السيارة ليست فى قياده وأن أقل ميل أو تردد يجر أعظم الأخطار . وأن كل خطر يحسب
حسابه يمر قبل ما يشعر السائق به فضلا عن أن يحول دون وقوعه . وقد وجد الماجور سيجرايف أن مصاعب
إدارة السيارة كانت عظيمة فلذلك استخدم فى إدارتها وسائل مختلفة ، وقد سئل عن شعوره فى أثناء مسيره
هذا فقال : [لا أعلم وليس عندى أقل صورة فى ذهنى لأن كل شىء يتم بسرعة عظيمة لا مجال فيها للشعور
ولا لتقديره وتسجيله] . ولما لم يرض سائلوه بهذا الجواب ألحوا عليه فقال : [إن كل شىء مضى بسرعة حتى
إن شعورى إن كان جميلا فقد كان قصيرا . فعلى جانب رأيت سدا أسود هائلا من الشاهدين وعلى الآخر
الأعلام المنصوبة للسباق متصلة كأنها خط مستقيم مرسوم على ورقة الآلة الكاتبة] . وفى وقت من الأوقات
مرت السيارة فوق شبه قناة احتفرها الله فى الرمل فانكسر شىء فيها . ثم صدمت حفرة ماء كالبركة فظن
أن الدولاب الذى تدار به السيارة اقتلع من يديه . فاختباره يدلنا على أن سرعة السيارة لا يمكن أن تزيد
على هذه السرعة وتكون سرعة نافعة يعمل بها . ومن رأى الخبيرين أن حد احتمال الانسان هو ٤٠٠ ميل
فى الساعة لأنه إذا كانت السرعة ٥٠٠ ميل فما بعد تصبح قوة الدفع عن المركز عظيمة إلى حد أن دورة إلى
هذه الجهة أو حركة إلى فوق أو إلى تحت تفرغ الدم من دماغ الراكب أو تدفعه بقوة إليه ، فإما أن يغمى
عليه أو يقتل فى مكانه ، ويقال إجمالا عن سرعة الطيران إن الانسان قد يبلغ على التدريج سرعة ألف ميل
فى الساعة فيدور حول الأرض فوق خط الاستواء فى يوم كامل . ولما كانت هذه السرعة هى سرعة دوران
الأرض على محورها فإذا خرج طيار بطيارته من القاهرة ظهر يوم ما على نية الدوران حول الأرض فإن
الوقت يبقى عنده الظهر على الدوام حتى يعود إلى القاهرة بعد ٢٤ ساعة أى ظهر اليوم التالى فيها وتبقى
الشمس فوق رأسه لا تشرق عليه ولا تغرب عنه . انتهى من مجلة [كل شىء] .

﴿ علم الفلك ودراسة الكواكب فيما وراء البحار ﴾

(مقدمة)

إن من يدرس هذه الدنيا قديمها وحديثها علويها وسفليها يدهشه نظام محكم وتشابه مبين : نظر العلماء أيامنا هذه فى أصل العالم فوجدوا عناصر الشمس وعناصر الأرض متحدات . فالشمس المشرقة الباهرة الجميلة إذا أرسلت أشعتها فلم تكن هذه الأنوار إلا فيضا من أنوار عناصرها اللواتى تمت عناصر أرضنا إليها بنسب ويربطها بها سبب . فاذا كان عندنا الأكسوجين والأدروجين والنيتروجين (وهو الآزوت) وهكذا غيرهن كالكربون والحديد والنحاس والذهب والرصاص وما أشبهها من العناصر التى تبلغ نحو الثمانين عدا .

أقول : إذا كان ذلك كله فى أرضنا فانهم وجدوه فى شمسنا ، وجدوه بمعونة النور إذ حللوه فظهر لهم الاختلاف بعلامات واضحات فى ثنايا الأشعة النورية وهى خطوط سود تتخلل سبعة الألوان وهذه الأشعة السود المتخللات تختلف أحوالها باختلاف العناصر . فالحديد والنحاس والأكسوجين والفسفور مثلا كلهن إذا ظهرت أنوارهن فى حال خاصة تبينت تلك الخطوط السود فى ثنايا سبعة الألوان بهيئات مختلفات كما اختلفت أجسام الناس لونا وشكلا وكبرا وصغرا . وكما اختلف النبات فى تنوع لون خضرته وبهجة زهرته ورونق ورقه وبديع ثمره كما يذكر فى ثنايا هذا التفسير . وكما رأوا ذلك فى الشمس رأوه فى غيرها من الكواكب بواسطة النور . إذن الحال تجرى على نسق واحد لأن أصل العالم صادق البناء أساسه فهو الواحدة على طريقتها يجرى اقرأ ماتقدم فى (سورة السجدة) عند ذكر الإنسان فى المجلد الخامس عشر . انظر فيه هناك وتأمل تجد نظام الإنسان يحاذى نظام العالم كله ، أظنك الآن تسمع قوله تعالى «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؛ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير» .

إنك أيها الذكى بعد هذا البيان توافقنى على ماقلته لك وهو أن العالم متشابه النظام فترجع إلى (سورة البقرة) فتسمع فيها قوله تعالى «كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها» فاقرأ ذلك الموضوع هناك ثم ارجع هنا واسمع ماأقوله لك ، ألم تقرأ مانقلته عن أكابر العلماء هناك من أن الجنة الحسية لاتكفى الحكماء وإنما نعيمهم وسعادتهم فى جنة المعارف والعلوم . فاذا تشابهت الثمرات المأكولة لأهل الجنة الحسية فما أقرب التشابه والمشاكلة فى الجنة العقلية وهى العلوم والمعارف . فترى دراسة الجسم الإنسانى تمتد بنسب إلى دراسة النظام الشمسى والكوكبى . وكلما درس الإنسان عالما من العوالم ووجد المشابهة واضحة رجع إلى أصلها ومبدئها فوجده واحدا . إذن تشابه العوالم يرجع الفكر إلى منبعها وهو التوحيد . إن الوحدة ظاهرة فى النظام .

إذا عرفت هذه المقدمة فهل لك أن أحدثك فى علوم عوالمنا الأرضية . وهل كان يدور بخلدك قبل ماستسمعه أن علم الفلك أو حساب سير الشمس والقمر والكتابة بالقلم ونظام الأبنية له نظير فى الأمم التى لاصلة بينها وبين أممنا فى آسيا وأفريقيا وأوروبا (وبعبارة أخرى) هل كان يخطر لك أو تحدثك نفسك أن أهل أمريكا الأصليين الذين عرفهم الأسبان منذ (٤٠٠) سنة وكشف بلادهم (كرستون كلومب) كان لهم علم فلك وحساب للسنين والأشهر مثل ماعندنا الآن . أما أنا فأقول :

إن الاطلاع على ذلك والوقوف عليه ودراسته إذا كان له وجود يكون سارا لمبتدئا وشارحا للصدر وموافقا كل الموافقة لما ظهر من تناسب العناصر فى الأرض والشمس واتحادها ذاتا وصفات وذلك يؤيد صدق قاعدة

هذا الوجود وهى المشابهة إذ متى أطلعتك على هذا الآن كما جاء فى الكشف الحديث فى هذه الأيام عند طبع هذه السورة فانك تقول بطريق القياس التخيلى إن هذه الكواكب التى تراها مسكونة كما سكنت أرضنا ، نعم هذا ليس باليقين ولكن ذلك هو ماوصل لنا وعقولنا لاقدرة لها على أكثر من ذلك .

لقد تقدم رسم صورة التقويم فى المكسيك فى آخر (سورة الفرقان) فاسمع إذن ماجاء فى (مجلة المقتطف) فى شهر ديسمبر سنة ١٩٢٩ تحت العنوان الآتى وهذا نصه :

الحضارة القديمة فى العالم الجديد

(مصر) القارة الأميركية

كتابتها . علمها . مبانيها . نقوشها . تاريخها

لقد أطلق الكتاب على بلاد المايا فى غواتيمالا بأمريكا الوسطة وماجاورها من البلدان كيوكاتان وجنوب المكسيك وسلفادور وشمال هندوروس لقب (مصر) القارة الأميركية لما عثر عليه العلماء من وجوه الشبه بين عمارة المايا وكتابتهم وعمارة المصريين وكتابتهم . وازداد هذا اللقب تمكنا وتأيدا لما ثبت للباحثين أن حضارة المايا هى أقدم الحضارات الأميركية الراقية ومصدر الثقافة التى امتدت عناصرها إلى البلدان المجاورة ولأن أنصابها أعلام تقاس بها مراحل الحضارات الأميركية القديمة وتؤرخ كملات المصريين القدماء ومداقتهم .

وإذا نظرنا إلى الأحوال التى نشأت فيها أمة (المايا) وجدنا أن منشئاتها العمرانية تضاهى أرقى المنشئات العمرانية فى أرقى الأمم القديمة . فإقليم البلاد التى نشأت فيها حار يضعف القوى ويخمد النشاط وهو فى الوقت نفسه يؤتى الزرع مما جعل الزراعة هناك نزاعا دائما بين الانسان والطبيعة فى غاباتها وحراجها الغضة التى كانت لخصب الأرض وجودة الإقليم تسطو على المناطق التى يزرعها الانسان وتكسوها . ومع ذلك نشأ فى تلك البلاد وفى ذلك الإقليم حضارة راقية من أرقى الحضارات القديمة مع أنها لم تتصل — على ما نعلم — بالعالم القديم .

وشعب المايا هو الشعب الوحيد الذى استنبط فى أمريكا طريقة الكتابة واستعملها فى تدوين مدوناته وهذه الطريقة الكتابية الهيروغليفية تحسب أعظم ما فى أمريكا العقلية فى العصور الغابرة، أما العلماء فلم يفوزوا حتى الآن بحل كل هذه الرموز الهيروغليفية ولكنهم عثروا فيما حلوه منها على أركان التاريخ (المايا) وأصول تقويمهم وعلومهم الفلكية والرياضية . وقد يكون الباقى منها منطويا على وصف الحوادث العظيمة التى حدثت لهم أما الرموز نفسها فرسوم للأشياء أو للأفكار فيها ظل من الأثر الصوتى ولكن ليس لها أبجدية .

أما تاريخ هذه الكتابة ومنشئها فمتغلغل فى القدم تحيط به سحب الريبة والخرافة . ولم يعثر حتى الآن على أثر يحتوى على اسم المستنبط أو تاريخ الاستنباط أو غير ذلك من دقائق الموضوع . ومع أن أقدم المدونات المؤرخة يرجع تاريخها إلى سنة ٩٦ قبل المسيح نجد فى آثار الاتقان البادية فى الاشارات الهيروغليفية دليلا مقنعا على أنها ليست بنت ساعتها وأن قرونا انقضت عليها قبل ما بلغت هذه الدرجة فى الاتقان . وما فى هذه الاشارات من الخطوط المنحنية يدل على أنها كانت ترسم على سطح مستو أملس قبل استنباط فن النحت فى الحجر الذى مكن أصحابها بعدئذ من نقشها فى الحجر الصلب لحفظها مقاوية لأنياب الدهر ، وعلاوة على هذه الكتابات المنقوشة فى الصخور كان لشعب (المايا) كتب مكتوبة بالطريقة الهيروغليفية . وقد تلف منها معظم الكتب التى كانت تحتوى على كل علوم المايا وحكمتهم أتلفها الأسبان حين افتتحوا البلاد وحكموها . فقد

كتب

كتب مطران لندا يقول : ولقد جمعت أربعة آلاف من هذه الكتب والتصاوير الشريرة وحرقتها كلها فى الميدان العام ببلدة تيكال رغم حزن الوطنيين وبكائهم . على أن الوطنيين فى حزنهم وبكائهم على فقد هذه الكنوز العقلية الثمينة لايبلغون شأو العلماء فى هذا العصر الذى لايرون بين أيديهم إلا ثلاثة من هذه الكتب يحاولون أن يستخرجوا منها أصول حضارة ألمايا ومآثرها والكتب الثلاثة التى لم تعبث بها أيدى الأسبان محفوظة الآن فى خزائن أوروبا وهى فى الغالب تدور على جداول فلكية ورياضية وبعض التهاويل السحرية، والظاهر أن انحصار هذه المعارف فى طبقة كهنة (المايا) كان الباعث على اتلاف الكتب التى دونت فيها لأن الكهنة الأسبان كانوا ينظرون إلى كهنة المايا نظرهم إلى الشياطين فحملوا القواد على الفتك بهم وإتلاف كتبهم (انظر شكل ٣٧) .



(شكل ٣٧ — خريطة البلاد التى نشأت فيها حضارة (المايا) وازدهرت)

﴿ معارفهم الفلكية والرياضية ﴾

وقبل مانلم بتاريخ (المايا) لننظر نظرة عجلى فى معارفهم الفلكية والرياضية لأن الباحثين مجمعون على أن عملهم فى هذه الناحية من نواحى الثقافة لايفوقه عمل أية أمة أخرى فى إقليم كإقليمهم وبيئة كبيئتهم . فهو كاستنباطهم للكتابة الهيروغليفية أعظم المآثر العقلية فى أميركا القديمة .

﴿ التقويم ﴾

كل تقويم يجب أن يبنى على قياس دقيق لطول السنة . وهذا القياس عمل صعب ان لم يكن متعذرا فى أمة لاتملك أدوات فلكية دقيقة . فالسنة على ما نعلم يتعذر تقسيمها إلى عدد كامل من الأيام والشهور لأنها مؤلفة من ٢٤٢٢ر٣٦٥ يوما أو ١٢ شهرا قمريا و ٣٦٫٨ فى المائة من الشهر كل منها مؤلف من ٢٩ يوما و ٥٣ فى المائة من اليوم . وهذه الكسور فى الأيام والشهور كانت ولاتزال العقبة الكأداء فى سبيل واضعى التقاويم على اختلافها . فالسنة حسب التقويم اليوليانى الذى كان مستعملا فى جنوب أوروبا إلى سنة ١٥٣٢ وفى شمال أوروبا إلى سنة ١٧٠٠ وفى روسيا إلى بعيد الحرب كانت أطول من السنة الحقيقية ١٢ دقيقة فكانت النتيجة أنه لما عزمت روسيا أن تجرى على التقويم الجرجورى كان الخطأ فى اليوليانى قد بلغ نحو

أسبوعين . على أن أمة (المايا) تمكنت من غير أدوات الرصد أن تضع تقويما من نحو ألفي سنة لايبلغ الخطأ فيه أكثر من يوم في ٢١٤٨ سنة . أما التقويم الذي نجري عليه اليوم فلا يفوق تقويم المايا كثيرا . فالخطأ فيه يبلغ يوما واحدا في ٣٣٢٣ سنة . كذلك تمكن علماء المايا أن يضعوا تقويما قمريا لايزيد فيه الخطأ عن يوم واحد في ٣٠٠ سنة .

﴿ علم الهيئة ﴾

وعلاوة على ذلك تمكن رصد (المايا) من أن يعرفوا مدى دوران الزهرة والمرجح أنهم قرروا مدى دوران المريخ ، ويحتمل أنهم عرفوا مدى دورة المشتري وزحل وعطارد . وبنوا على دورة الزهرة تقويما كانوا يستعملونه في ضبط التقويم الشمسي والتقويم القمري . فقد كانوا يعرفون مثلا أن ثماني سنوات شمسية تعادل تقريبا خمس سنوات من سني الزهرة وأن ٦٥ سنة من سني الزهرة تعادل مائة سنة وأربع سنوات من سني الشمس . وكانوا يستعملون التقاويم الثلاثة لتقدير أزمنة طويلة ، وقد وجد مايدل على أنهم تنبأوا بحدوث حوادث فلكية تمتد إلى أكثر من ٣٤ ألف سنة . وكانوا يتنبأون بالكسوف .

﴿ الصفر ﴾

أما الجداول الرياضية التي وضعوها فكان يلزم لها قبل وضعها استنباط فكرة (الصفر) وهذا الاستنباط من مفاخر حضارة (المايا) . فالصفر أمر تعودناه في الجداول الحسابية الآن حتى أصبحنا نراه غير ذي خطر فنقول عنه إنه رمز للعدم . ولكن لولا هذا الرمز لتعذر القيام بالعمليات الحسابية قياما سريعا ولما تمهدت الطريقة للحساب العشري ولظلت العلوم الرياضية تجر ذيولها على الأرض . فالصفر هو الذي يمكننا من ترتيب الأرقام حتى يكون لكل رقم منها قيمة خاصة بحسب الرتبة التي يكون فيها . ومع ذلك لم يستنبط الصفر إلا في القرن السادس أو السابع بعد المسيح استنبطه الهنود ونقله العرب إلى أوروبا فانتشر في بلدانها . على أن أمة المايا استنبطته على حدة قبلما استنبط الهنود بألف سنة اه .

هذا ماجاء في (المقتطف) ولم أرد أن أذكر تاريخهم السياسي كما ذكر لأنه لايعنينا وإنما أقول لك إن هذه الأمم التي ارتقى علمها إلى هذه الدرجة قد أصابهم داء التخاذل وفشت المجاعة فيهم وجاء على أثر ذلك خروج الأسبان . هاأنت ذا أيها الذكي رأيت الأمم الأمريكية القديمة وكيف استنبطوا حروفا كما استنبط أسلافنا ودرسوا الفلك كما درسوه وبنوا أبنية شاهقة كما بنوا مع أنه لا صلة بينهم فاعجب لنظام واحد في نصفي الكرة الأرضية كنظام واحد في الشمس وفي الأرض ونظام واحد في المجرات .

إن هذه هي الموسيقى الجميلة . إن الموسيقى والنقش والتصوير وجميع العلوم الجميلة ترجع إلى التناسب ، فكلما كثر التناسب تضاعف الجمال ولا نهاية للجمال وهذه العوالم كلما عثرنا على ازدياد تناسبها وارتباطها ازدادت بهجتنا وفرحنا وإذا رأيت هنا في الأرض مشابهة الحساب السنوي والشمسي والقمري في نصفي الكرة الأرضية فأبهجنا الاتفاق والتناسب وتعجبنا كيف اتفقت العقول المختلفة المتباعدة على وضع واحد ومهيع قليل الاختلاف فكيف يكون فرحنا حينما نخلع هذا الجسم ونسير في المجرات والعوالم وتشابه مدنيات ونظم تربو وتعظم على مدنيات أهل الأرض ونظمها ، أليس ذلك يورثنا سعادة لانهاية لها وغراما لاحد له لبهجة الجمال والحسن والاشراق . انتهى صباح يوم الجمعة (٢٣) مايو سنة ١٩٣٠ .

﴿ تذكرة

﴿ تذكرة الأمم الإسلام ﴾

هذا هو الذى ظهر للناس اليوم من العلوم الفلكية فى القارة الأمريكية ، تلك البلاد التى لم تكشف إلا منذ (٤٠٠) سنة كشفها (كرستون كلومب) بأمر الملك (فرديناند) وزوجته (إزابلا) ذلك الذى أزال ملك الأمم العربية الاسلامية من بلاد الأندلس وشردهم شر مشرد . إذن ظهر بهذا أن الأمم كلها متحدات على النظر فى هذه العوالم العلوية ، ولقد تقدم فى (سورة يونس) نبذة من علم الفلك مصورة بالتصوير الشمسى بهجة المنظر عجيبة . وذلك فى (موضوعين : الأول) عند آية « هو الذى جعل الشمس ضياء » (والثانى) عند آية «فاليوم ننجيك ببدنك» وقد ذكرت هناك أن بين المقامين تناسبا عجيبا فان المقام الأول فيه ذم الغفلة عن هذه الآيات وأن هذه الغفلة تورث نار جهنم ، والمقام الثانى فيه ذم الغفلة أيضا عن آيات الله ؛ فترى الصور الفلكية العلمية واضحة فى المقام الأول هناك بحيث تجد صور كثير من السدم وصورة المجرة وهكذا . وفى المقام الثانى تجد من أعجب ماأنتج العقل الانسانى بمصر من صور البروج الاثنى عشر مرسومة بحسب ماتخيلته الأمم وبقيت أسماؤها إلى الآن وهذا عجب . وهناك ترى عجائب الأهرام ونظام حسابها المبنى على أساس الدائرة السنوية للأرض حول الشمس ، ولارتفاعه نسبة إلى بعد الأرض عن الشمس ، وهذا الهرم هو أس القنطار والرطل والوقية وهكذا من الموازين ، وأس الفدان والقيراط والحبة والدانق والسهم والذراع البلدى والنيلى والمعمارى والهنداسة فى المساحات . وأيضا هو أس الأردب والويبة والكيلة والربع والملوة والقدح ونصف القدح فى المكيلات ، فكل هذه منسوبة للهرم المنسوب لنظام الفلك . كل ذلك تقدم هناك فارجع اليه إن شئت

وإن تعجب فعجب أن ترى صور البروج المرسومة هناك قد استخرجها القوم فى زماننا من صناديق الموتى وصوروها بالتصوير الشمسى فنحن المصريين الآن نعجب أن نرى الأمم الذين كانوا قبل آلاف السنين فى ديارنا يحظى موتاهم فى قبورهم بعلم الفلك مرسوما على الصناديق التى تضم أجسامهم بعد موتهم ونحن الآن وأكثر المسلمين أجهل الأمم بعلم الفلك الذى أقسم الله ببعضه فقال « والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها » وقال « فلا أقسم بمواقع النجوم » وأعظم قدره فقال « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » وأكثر من ذكر الشمس والقمر وأنهما آيتان من آيات الله تعالى وهكذا هنا بذكر الأرض والشمس والقمر والليل والنهار ، إذن المسلمون أقل علما من الأمم الحاضرة كلها ومن قدماء المصريين وقدماء أهل أمريكا الذين انقرضوا إلا قليلا ، فأين الأمم الإسلامية الحقيقية وإذا سمعنا الله يقول « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ثم نظرنا فوجدنا الأمم البائدة تعلم من جمال الله فى كواكبه مالا نعلم ووجدنا الأمم النصرانية كلها عالمة به ونحن عالة عليهم ، فأين نحن من هذه الخيرية التى لاتوجه إلا إلى أمم علمت وارتقت ورقت أهل الأرض كما تم فعلا لأسلافنا ، فهم حقا « خير أمة أخرجت للناس » ولا يلزم من أفضلية الأب ونفعه للناس أفضلية الابن ونفعه لهم ، فتأمل ماجاء فى كتاب الأستاذ سديو الفرنسى فى صحيفة (٢١٢) وما بعدها المطبوعة فى الترجمة العربية إذ يقول ماملخصه : [إن نار الحرب المشتعلة فى القرن الحادى عشر فى الشرق بعد الميلاد] فكان فتح محمود الغزنوى وكانت غارة السلجوقيين وكانت حروب الصليبيين مع المسلمين وإعدام صلاح الدين الخلافة الفاطمية سنة ١١٧١ من مصر وإعدام هولاكو الخلافة العباسية ببغداد سنة (١٢٥٨) قد غيرت معالم السياسة فى آسيا ومع ذلك مازال تقدم العلم كما كان قبلا وظهر هناك علماء مثل البيرونى فى الفلك إذ أحضره محمود الغزنوى سنة ٩٩٧ فى ديوانه ، وأحضر هولاكو خان المغولى إلى ديوانه بعد تغلبه على الملك سنة ١٢٥٩ نصير الدين الطوسى وهكذا نقل جمال الدين الفلكى مع الخان كوبلاى علوم العرب إلى مملكة الصين وهكذا الخ وقد ذكرت هذا مطولا فى مواضع أخرى

من هذا التفسير . إذن هؤلاء هم الذين كانوا « خير أمة أخرجت للناس » بنص الآية لأننا وجدنا الفرنجة شهدوا بأن علمهم فى الفلك الذى نحن بصدد الكلام عليه قد امتد إلى الصين وبقى بعد ذهاب دولهم ونفع الدول التى جاءت بعدهم فى الشرق .

(١) ألم تر إلى مايقوله العلامة الفرنسى المذكور من أن أبا ريحان محمد بن أحمد البيرونى المتقدم ذكره (الذى كسب علومه من المدرسة البغدادية حين أحضره الغزنوى المتقدم ذكره إلى ديوانه) أخذ يستفيد العلوم الفلكية من الروايات الهندية التى عندهم قديمة وحديثة ويفيدهم علوم قومه فى الفلك أيضا ويبثها لهم فى كل جهة مر بها ، وألف ملخصات عربية وهندية ، وكان مشيرا وصديقا للغزنوى المذكور فى ديوانه ، وأصلح الغلطات الباقية فى حساب الروم والسند وماوراء النهر ووضع قانونا جغرافيا كان أساسا لأكثر القسموغرافيات الشرقية ونفذ كلامه فى البلاد الشرقية واعتمد على كلامه سائر الشرقيين فى الفلكيات . ومنه استمد أبو الفداء الجغرافى العروض والأطوال الأرضية وكذا أبو الحسن المراكشى.

(٢) ويقول : « إن الهند لم يكن فيها قبل الاسكندر المقدونى علم الفلك تاما بدليل أن أرسطاطاليس أستاذه لم ينقله عنهم لليونانيين . ولذلك تجد ﴿كتاب السند هند﴾ المترجم فى خلافة المنصور إلى العربية لم تكن فيه إلا مسائل ابتدائية فى علم الفلك :

(٣) ويقول : « إن العرب أتوا فى الفلك بالعجب العجاب وأتقنوا الهندسة والحساب والجبر وعلم الضوء والنظر والميكانيكا وطبقوا الجبر على الهندسة

(٤) ويقول : « ليس للعرب مجرد نقل كتب اليونان فقد اخترع (البتانى) استبدال أوتار الأقواس التى استعملها اليونان فى حساب المثلث بأنصاف الأوتار للأقواس المضاعفة وهى جيوب الأقواس المصورة. قالوا إن بطليموس لم يكن يستعمل الأوتار الكاملة إلا لتسهيل الاثباتات والتوضيحات وأما نحن فقد استصوبنا استعمال أنصاف الأقواس المضاعفة وهكذا».

وقد أطال فى ذلك ولاأريد أن أطيل فيه لئلا يكون الملل ، وإنما أريد الآن إظهار الحقيقة واضحة وهى أننا نحن الآن فى مصر والشام والعراق وبلاد الفرس وجاوه وبلاد الملايو وبلاد شمال أفريقيا قوم جهلاء فى علم الفلك الذى حض القرآن عليه ولم نساو أمة من الأمم . فلا نحن وصلنا لقيمة قدماء المصريين الذين صوروا هذا العلم على صناديق الموتى تبركا به . ولا لقيمة قدماء الأمريكيين قبل فتح بلادهم . ولا لقيمة الهند القديمة . ولا لقيمة آبائنا القدماء فى الإسلام أيام صولتهم وبعد ذهاب دولتهم . ولا لقيمة أمم أوروبا واليابان والصين الآن فنحن اليوم بهذا البرهان أجهل الأمم بالعلوم الرياضية ومنها الفلك . والسبب فى ذلك ما انتاب أمتنا قديما من الاضطهاد والإذلال . فلقد كانت الأمم الإسلامية المتأخرة لاأريد إلا المغول كما فعل الترك إذ هم لما دخلوا مصر أزالوا منها الصناعات بمجرد دخولهم وأخذوا مئات ومئات من رجال الصناعات فسافروا فى البحر ثم أغرقوا ، فأما المدارس المنتشرة فانهم نقصوها تدريجا حتى خلت البلاد من رائحة العلم ولم يبق إلا قشور ضئيلة وإلا مشايخ التصوف الذين كان أكثرهم جهلاء . فلما أن جاءت أيام محمد على باشا حوالى سنة ١٢٢٠ هجرية واستتب له الملك أدخل جميع العلوم فى البلاد ومنها الفلك . ولما دخل الانجليز بلادنا فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى أخذوا يقللون العلوم تدريجا كما فعل الترك . ولما دخلنا نحن (دار العلوم) سنة ١٨٩٠ م أى فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى بعد الحرب العرابية بقليل قرأنا هذا العلم مع الرياضيات إذ كان ذلك بقايا علوم تلك الدولة المصرية التى أسسها المغفور له محمد على باشا . وبعد ذلك بسنين معدودة وجدنا هذا العلم

قد

قد محى من البلاد ومحيت معه علوم المدن والنبات والحيوان والتشريح علما من الفاتحين للبلاد بأن تلك العلوم مرقيات للأمم وهم لا يريدون ذلك . فلما أن أخذت بلادنا استقلالا اسميا سنة ١٩٢٢ ميلادية دخلت بعض تلك العلوم ، وهاهى ذه علوم التاريخ الطبيعى تدرس كالحيوان والنبات الخ ، ولكن إلى الآن لم يدخل علم الفلك مع توفر علم الرياضيات ، وذلك بعد أن أرسلت خطابا لمجلس النواب والوزارة المصرية . تجده مكتوبا فى هذا التفسير فى (سورة يونس) تحت عنوان : [مذكرة لإصلاح التعليم الثانوى بالمملكة المصرية] عند الكلام على آية «هو الذى جعل الشمس ضياء» .

إن الأمم الإسلامية كما منيت بالملوك الظالمين الجاهلين من الأمم الإسلامية وغير الإسلامية فغيروا وجهتها منيت أيضا بكثير من رؤساء الدين الجهلاء الذين يفعلون معهم فعل الملوك الفاتحين فيذمون لهم العلم ويزينون لهم الجهل ، ولقد تقدم هذا فى غير ما موضع من هذا التفسير . وتجد بعضه فى (سورة إبراهيم) فى أواخرها وبعضه فى (سورة الكهف) عند الكلام على آية «وما كنت متخذ المضلين عضدا» وبعضه فى (سورة سبأ) ووالله إنه ليؤلمنى أن يسود الجهل فى بلاد الاسلام ، تلك الأمم التى كان أسلافها «خير أمة أخرجت للناس» فهم هم الذين بعلم الفلك والجغرافيا أيقظوا العمران ، وأناموا الجهل ، ونفعوا عباد الله . ألم تر إلى ماذكره العالم المذكور الفرنسى فى صحيفة (٢٢٧) وما بعدها أنهم أنشأوا أربع طرق عظيمة تجارية توصل من مدينتى قادس وطنجة إلى أقصى آسيا (إحداها) تخترق أسبانيا وأوروبا وبلاد سلاوونة إلى بحر جرجان ومدينة بلخ وبلاد تجزجز (والثانية) تخترق بلاد المغرب ووادى مصر ودمشق والكوفة وبغداد وبصرة والأهواز وكرمان والسند هند (والثالثة والرابعة) تعبران البحر الأبيض المتوسط وتتجه إحداهما من الشام والخليج الفارسى والأخرى من الاسكندرية والبحر الأحمر للتوصل إلى بحر الهند . فكثرت بهذه الطرق السياحات، ونقل السياحون إلى أقصى البلاد ماعند العرب من الأفكار والتمدن واستفاضت الأخبار الجليلة الخ .

هذا ماأردت ذكره الآن ولقد سبق بأوسع من هذا فى غير هذا الموضع ، فهؤلاء هم أسلافنا فى العلوم الفلكية والجغرافية ، فهم كانوا نورا أضاء بلاد الشرق والمغرب بشهادة الأوروبيين الذين نقلوا العلم عنهم كما رأيته . إذن الآيات المذكورات هنا فى الشمس والقمر والأرض والليل والنهار لا يعمل بها المسلمون الآن لاهى ولا غيرها إلا قليلا منهم كأمة الترك الآن .

فاذا ثبت هذا فهل نحن «خير أمة أخرجت للناس» الآن . لا لا . نعم إن انتشار هذا التفسير وأمثاله سيحدث فى أمم الاسلام انقلابا عظيما، وسيكون وطيد البنيان ثابت الأركان لأن المدنية المستقبلة ستبنى على تجارب مما حل بآبائنا المتأخرين ودراسة تاريخهم تجعل أبنائنا يقظين ويكونون «خير أمة أخرجت للناس» لأنهم يرون الضعف الذى حل بآبائهم فيجدون ليقووا أنفسهم ويداووا هذا المرض الذى حل بهذه الأمة . إذن الأمم الاسلامية « خير أمة أخرجت للناس » ولكن أصابها الوهن والضعف والمرض فخفيت خيراتها وبانت عوراتها . ومتى حصل التداوى بنشر أمثال هذا التفسير يصح جسم الأمة وترجع المجد الذاهب والعز الزائل ، ويكون أبناؤنا «خير أمة أخرجت للناس» عملا بالفعل لا بالقوة . ولن يكون ذلك إلا إذا قرءوا جميع علوم الأمم شرقا وغربا وفاقوهم فى ذلك وكانوا لهم نافعين كما كان آباؤهم الأولون، والحمد لله رب العالمين

كتب يوم الاثنين (٢٦) مايو سنة ١٩٣٠ .

اللطيفة الرابعة

(عجائب الكواكب فى الكشف الحديث وبدائع الحرارة والضوء فى قوله تعالى « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » إلى آخر الآيات)

الله يقول إنه سلخ النهار من الليل فأظلم الناس . إن هذا فتح باب التحليل . فهاهنا ضوء وهاهنا ظلمة يقول الله إنه سلخ الأول من الثانى . أما الظلمة فهى عرض قائم بالأثير وكذلك النور الذى هو تموج وهذه الموجات المتتابعات الواقعات فى الأثير إذا كثرت بحيث يكون فى الثانية الواحدة منها مئات آلاف الملايين فإنها تكون حينئذ ضوءا أحمر وأصفر وبرتقاليا وبنفسجيا ، وقد تقدم ذكرها فى غير هذا المكان أعنى أن ضوء الشمس ركب من سبعة ألوان وهذه الألوان تختلف بحسب عدد الموجات فى الثانية الواحدة أى نحو أربعمائة ألف ألف مليون إلى نحو (٧٠٠) ألف ألف مليون ، فهذه الأضواء المرسلة من الشمس باتحادها صار هذا اللون الذى نشاهده على الأرض . فهذا كله يسلخه الله فيبقى الجو مظلما . ولا جرم أن الظلمة عرض والعرض يقوم بجوهر ، إذن هناك جوهر مظلم ألبس نورا فلما خلعنا لباسه أظلم كأصله .

هذا هو الذى عرفه الناس فى الأرض من حال هذه العوالم ظلاما وإضاءة . وهذا السلخ له نظير تقدم فى هذا التفسير فى الهواء وفى الماء ، الماء يسلخ أكسوجينه من أودروجينه . وهذا يسمى فى علم الكيمياء تحليلا فمتى حللناه إليهما صارا جسمين غازيين أى كالهواء . ومعلوم أن الاكسوجين يفيدنا الحياة فى تنفسنا وينقى دم كل حيوان وينفع كل نبات . أما الاودروجين فإننا إذا أحرقناه فى الجو كما تقدم فى (سورة النمل) اتحد حالا بالأكسوجين الذى فى الهواء لأن الهواء ركب منه ومن النيتروجين وحينئذ ينفرد النيتروجين المذكور أى الأوزوت . وهذا الأوزوت يدخل فى النوشادر لأنه يمكن اتحاده بالادروجين أيضا بعمل خاص وهذا النوشادر نافع فى (أمرين) أمر السماد وأمر الآلات المهلكة فى الحرب . إذن التحليل فى الماء والتحليل فى الهواء أعطيانا منافع جمة وأريانا حكما تحيط بنا من كل جانب .

سلخت يا ألله النهار من الليل فأظلمنا وأنت جعلت البخار الطائر فى الجو ماء ، فنحن بالهامك كشفنا جزءا من الهواء فجعلناه سمادا وآلات مهلكات إذ جعلناه كالثلج ، فماؤنا حللناه وهواؤنا حللناه وأنت سلخت ضياء من الظلام .

﴿ فصل : فى الحرارة والنور ﴾

سبحانك اللهم : أنت أنعمت علينا بالعلم ، وكسوتنا حللا من الحكمة ، وأريتنا الجمال والبهاء والحسن والنور والإشراق والبهجة .

سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . إن ماظهر من جمالك قد استغرق أيامنا وملأ قلوبنا بهجة . فكيف بنا إذا اطلعنا على ماهنالك من جمال وبهاء وحسن وإشراق ، إن الإنسان إذا جلس فى حجرته ونظر نور القنديل فيها وجده متحدا بالحرارة . فلا نور فى أرضنا إلا وقد اتحد بالحرارة . نوقد النار فى الفرن فنحس بالحرارة أولا ثم نرى النور آخرا .

إذ الحرارة مقدمة على النور وهما ممتزجان متحدان اتحاد القوة الغضبية فى الانسان بالقوة العقلية .

إن أهل الأرض خلقوا من نور ونار ، من حرارة وضوء ، من شر وخير .

نور الشمس فيه الحرارة وفيه الضوء ، ولما كانت هى الأصل كانت جميع الأنوار منها على هذا النمط .

لما من نور إلا ومعه حرارة ولم نعرف قبل أيامنا هذه النور ينفصل عن الحرارة . لانور بلا حرارة ولكن ظهر في النوع الانساني من الأذكياء من قالوا: (إن الحرارة يمكن فصلها عن النور) وهم الآن يجدون ليجعلوا القوة التي صارت حرارة تنقلب إلى ضوء . فالشمعة التي أبرزت حرارة وضوءا بحسب العادة إذا حولت حرارتها إلى ضوء تضاعف الضوء البارد وزاد نفعه وقلت نفقاته .

هذه هي آراء الناس الآن وهم فيها مجدون . إذن الناس اليوم يريدون أن يصنعوا من الحرارة والضوء ماصنعوه مع أجزاء الهواء وأجزاء الماء أي يحللون الأعراض هنا كما يحللون العناصر هناك . يشير لذلك كله «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار» فذلك كله انسلاخ .

﴿ انسلاخ الحرارة من الضوء كما انسلخ النهار من الليل ﴾

وهل كان يدور بخلدنا (ونحن في هذه الأرض التي اتحدت الحرارة عليها بالضوء . وأخذ العلماء يفصلونهما) أن الله في سمواته قد فصل الحرارة من الضوء فجعل شموسا مضيئة لاحرارة فيها ، أو ليس هذا من الإبداع العجيب أن نجد في السموات تلك العجائب ، عجائب الشموس المضيئة التي لاحرارة فيها .

اللهم إن فعلك عجيب . خلقت نفوسنا وجعلت عقولها مرتبطة بغضبها أي أن أنوار العقول جعلتها في أنفسنا مصاحبة للقوة الغضبية . فلما كان ضوء الشمس مصحوبا بالحرارة كانت أنوار عقولنا مصحوبة بالقوة الغضبية التي هي في الحقيقة قوة ذات حرارة . ففينا قوة ملكية هي قوة العقل مصاحبة لقوة سبعية هي قوة الغضب .

فهل هذه الشمس التي رآها الناس اليوم مضيئة غير حارة قد خلقت يا ألله فيها أناسا مثلنا فيهم عقل ولا غضب لهم . إذن أنت كما جعلت الذكورة والأنوثة ليستا شرطا في إيجاد المواليد كما تقدم في (سورة مريم) لأن بعض الحيوان لا تحتاج الأنثى منه إلى ذكر بل هي تلد ولا ملقح لها . هكذا خلقت شمسا فيها ضوء لاحرارة لها . إذن أنت تخلق إناثا مثلنا ذوي أجسام كالحيوان ولكن لاغضب لهم ويكونون أرقى منا مع أنهم ليسوا ملائكة «إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم» .

الكشف الحديث في الحرارة والضوء

وعظمة الأجرام السماوية

جاء في بعض المجلات العلمية مانصه :

تيليسكوب جديد يرينا ملايين من النجوم

كلما أعجبنا باختراع وحسبناه في منتهى درجات الكمال راح العلماء المفكرون والمخترعون المجددون يزيدون فيه ويحسنون وينتقلون به من حسن إلى أحسن فإذن الاختراع الأول شيء بسيط لو قارناه بالثاني .

حينما نصب التيليسكوب الذي قطر عدسته (١٠٠ إنش) على جبل ولسن بكاليفورنيا، قلنا إن العلم قد انتهى إلى كشف أسرار الكواكب والنجوم وأن المراصد الفلكية وصلت إلى حد الكمال . وكأن العلماء لم يكفهم الحقائق الغريبة التي توصلوا إليها ولم يجدوا في تيليسكوب قطر عدسته (١٠٠ إنش) ما يطفئ شهوتهم للعلم والبحث فاستقر رأيهم على صنع تيليسكوب قطر عدسته (٢٠٠ إنش) . وإذا كانت الآلة الحالية التي في مرصد جبل ولسن قد أبرزت (١٥٠٠) مليون نجم فان العدسة الجديدة التي سيتم صنعها بعد خمس سنوات ستكشف أمام الأنظار مئات الملايين من النجوم والسدم التي لم تر بعد . وستكون العدسة الجديدة

أقوى من الأولى بنحو عشر مرات . ومنذ بدأ مرصد جبل ولسن بحوثه بالتليسكوب البديع أضاف إلى معلوماتنا (على قصر عهدهم) أشياء كثيرة عن السماء ونجومها . ولقد ذكر الدكتور جيانس سكرتير الجمعية الفلكية الملكية وعضو مرصد (مونت ولسن) حقائق غريبة يقف العقل أمامها مدهوشا حائرا.

وقد جاء فى كتيب أصدره أخيرا : أن بعض النجوم بعيدة عنا جدا . ولو علمت أن ضوءها يصلنا بعد (١٤٠) مليون سنة وأن سرعة الضوء (١٨٦٫٠٠٠) ميل فى الثانية الواحدة لاستطعت أن تتصور مبلغ البعد الشاسع الذى بيننا وبينها. ويتكهن الدكتور أنه بمعونة عدسات قوية يستطاع رؤية أضواء غادرت كواكبها منذ (١٠٠٫٠٠٠) مليون سنة . إن شمسنا أكبر من الأرض بمليون مرة وماهى إلا إحدى الشموس العديدة ذوات الأجرام التى هى أكبر من الشمس . وقد تبلغ تلك المجموعة الشمسية آلاف الملايين وهذه المجموعة بدورها إحدى المجاميع الهائلة التى يتكون منها شموس وكواكب .

ويقول الدكتور جيانز : إن هناك شموسا باردة وانا لو اعتمدنا على أشعتها مثلا لجمدت بحارنا على الفور ولتحول جونا إلى هواء سائل ، وأن هناك شموسا يبلغ من شدة حرارتها أنها لو سلطت على الأرض لصيرتها بخارا ، ولو وضعت قطعة فى حجم الحمصة من تلك الشموس الشديدة الحرارة على بعد ألف ميل ووقف تحتها إنسان لشوته وكوته . وبعد فأى غرائب وعجائب سيطلعنا عليها تليسكوب (٢٠٠) إنش ، انتهى ما جاء فى المجلة المذكورة .

هذا هو الكشف الذى عرفه الناس الآن . ثم ماهذه الشمس المحرقة التى تكون نصف الحمصة منها تشوى الانسان وتكويه على بعد ألف ميل ، هل هذه دار من دور جهنم ؟ ومن ذا كان يظن أننا نعرف ونحن فى هذه الأرض أن لله شمسا مضيئة باردة وأن له شمسا أخرى محرقة وصفها كوصف جهنم بل هذا وصف لم يكن ليخطر بالبال معرفته . إذن القرآن أتى لنا بشذرات من العلم وقال لنا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » اللهم إنك أنعمت علينا بقراءة هذا التفسير بنعمة العلم وبنعمة الحكمة، أريتنا العجب العجاب ، اللهم إننا إذا انطلقنا إلى ساحات الجمال وشاهدنا مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر . هنالك نكون فى جنة العرفان والعلم التى هى أقصى مايشرئب إليه المجدون وأعلى مايبغيه المحققون .

وهل من عجب بعد هذا كله إذا سمعنا الله تعالى يقول « ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين» . إن الناس فى الأرض قد مزجت عقولهم بأهوائهم وشهواتهم . وهذا المزج والاتحاد لايساعدهم على دخول الجنة لأنها للجمال المجرد لاحظ للشيطان الشهوانى الغضبى فيها . فاذا رأينا الله قد سلخ الحرارة من الضوء فى بعض الكواكب . ورأيناه علمنا طرقا بها نباعد مابين الاكسوجين فى الماء والادروجين ومابين الاكسوجين والاوزوت فى الهواء . ورأيناه هو سالخ النهار من الليل . فهل من عجب إذا نزع مافى الصدور من الغل كما نزع مافى الضوء من حرارة ؟ «إن ذلك على الله يسير» .

ألا وإن هذه الأبعاد الكوكبية التى ذكرت هنا يقف العقل أمامها حائرا باهتا . فما هذا الكون الواسع؟ ضوء الشمس يصل لنا فى (٨) دقائق و١٨ ثانية مع أن المسافة بيننا وبينها بسير القطار المعتاد نحو (٣٥٠) سنة وبسير قلة المدفع نحو (١٢) سنة . هذا الضوء الذى هذه صفته يسير (١٤٠) مليون سنة حتى يصل لنا من بعض الكواكب البعيدة عنا . ثم إن الدكتور (جيانس) المذكور يقول : (إن الناس سيشاهدون كواكب لايصل ضوؤها إلى الأرض فى أقل من مائة ألف مليون سنة) هذه أحوال تدهش وعجائب يحار العقل فيها . إن هذا العالم عجب والحمد لله رب العالمين .

﴿ بهجة العلم فى المبصرات والمسموعات من حيث الفلك والموسيقى والشعر وغناء الأطيار وسر قوله تعالى «والشمس تجرى» إلى قوله «ذلك تقدير العزيز العليم» ﴾

(عملى فى الحقل وعواطفى فيه)

فى ليلة الثلاثاء (١٠) يونيو سنة ١٩٣٠ بينما أنا جالس بمنزلنا بالقاهرة وكان معى ذلك الصديق العالم ونحن نتجاذب أطراف الحديث من قديم وحديث إذ سمعت نغمة فى الطريق وتوقيعا صادرين من بعض المارين فى الشارع فكان لذلك وقع فى نفسى فصمت قليلا فأدرك صديق مايخالج نفسى . فقال : إن للعواطف لآثارا وإن للآثار لنتائج . أنغمات العامة فى الشارع تبهجك أم توقيع المارة يطربك . وعهدى بك لا ترنو إلا إلى ما كان بالقواعد مرسوما وعلى شرائط العلم موزونا . وهؤلاء لاهم بالموسيقى عارفون ولا بفنون الأنغام عازفون .

على أنى أقول : ولعلك استرسلت مع عواطفك وسرت مع عادات سرائرك . وإذا كنت لسجع الطيور على الغصون ولفور الأعشاب فى الحقول تهتز طربا وتبتهج عجبا فليس بدعا إذن طربك الساعة بتوقيع العامة فى الطرقات ولا بغريب إصغاؤك لهم فى حنادس الظلمات والنجوم مشرقات فى هذه الدجنات . فهل لك أن تفيض القول فى بعض آثار الأنفس الإنسانية وعجائبها الحكمية إذا أبصرت بهجة الجمال أو سمعت بديع النغمات . فقلت : لقد أثرت أيها الصديق فى نفسى ثائرة الذكرى وهجت من فؤادى ما كمن أيام الشباب . فكم كانت الذكرى تعاودنى لأدنى سبب ولواعج الشوق تبعث فى النفس بواعث الطرب . فقال : إن الحديث يحلو لاسيما فى أوقات الخلوات وصفاء الأوقات وقد خشعت الأصوات وسكنت الحركات . فقلت : لأذكر لك حديثين : (الأول) أنى كنت وأنا مجاور بالجامع الأزهر إذا حل فصل الصيف قفلنا راجعين إلى قرانا فكنت أنا أزاول الأعمال الزراعية مع والدى بقريتنا وكنت أحس بنشاط ومسرة لاحد لهما بعد تمام الأعمال فى حقلنا . وكان العمل فيه يكسبنى سبع خصال :

(١) استنشاق الهواء الطلق فى الحقول .
(٢) وملاحظة النبات وأوراقه وأزهاره .
(٣) وقوة العضلات بالعمل .
(٤) ويتبعه نشاط العقل للعلم .
(٥) وتدريب النفس على ملاحظة دقائق الأمور إذ يصطفى الإنسان مازرع فيحفظه ويبيد الحشائش الضارة به .
(٦) وتحسين الخلق لأنه يتبع صحة الجسم والعقل .
(٧) وإنى تعاطيت أفضل أنواع الرياضة لأنها رياضة المشى وآخر الدرجات رياضة التمرينات العضلية فى المدارس (جمناستك) .

فهذه هى الفوائد العوائد على من يتعاطى الأعمال الزراعية من أهل العلم فى هذه الكرة الأرضية وفوق ذلك يشارك أهل بلدته فى عواطفهم فيكون ذلك أحصى للعلم بأحوالهم وذلك يوسع نطاق المعارف العامة الكتاب ، فأما من لم يعرف من العلم إلا ماسطره المؤلفون فذلك فى العلم غير مأمون .

﴿ المسرة فى السموات أعلى من مسرات الأرض ﴾

وبينما أنا فى الحقل أعمل مع والدى إذ أخذ يحدثنى عن أيام أسرتنا الأولى وما كان لهم من مجد باذخ وعز كامل وإنهم كانوا قد نصروا على أعدائهم وإن جدى لأمى مع أسرتنا كلها كانوا يبتهجون بالولائم العظيمة

التي كانوا يصنعونها فرحا بالنصر وابتهاجا بالثروة . وأخذ يصف الطبل وأنواع النغمات التي كانوا بها فرحين فأطربني حديثه ولكني أحسست في نفسي بدافع قوي ووجدان داخلي لم أقدر على مدافعته فقلت ياوالدي هذه النغمات المطربات والطبول وأنواع الآلات التي فرحتم بها أحس في نفسي بأنها قطرة من بحر وقل من كل من طرب العوالم السماوية فوق الكواكب لأني أحس في نفسي بأن تلك العوالم أوفر طربا وأعظم بهجة من كل مايعرفه الآدميون . فرأيته سر بهذا القول وظهر عليه هيئة التعجب من هذه المفاجأة التي لم تكن منتظرة . انتهى الحديث الأول .

(الحديث الثاني)

(غناء المغنيات الفرحات زاد في شوقا للعلم)

إني كنت يوما متوجها إلى الجامع الأزهر (وربما تقدمت الإشارة إلى هذا الحديث في هذا الكتاب) وبينما أنا سائر في الطريق المؤدي إلى (بلدة بوردين) إذ رأيت ركبا سائرين فوق سكة الحديد . وهناك نسوة على الجمال يغنين طربات وأمامهن شبان يسوقون ويقودون الجمال وهم جميعا فرحون وكان ذلك ضحى والجو جميل وهم سائرون إلى زيارة (الشيخ أبي مسلم) على عادة أهل بلادنا . هنالك خيل لي أن أشجار السنط التي كانت تحف بالجسر من الجانبين والحشائش النابتة حولها والنهر الجاري بجانبها وزروع الحقول حولها كأنهن جميعا روائص مغنيات بهجات وخيلت لي هذه الدنيا كلها كأنها حفلة طرب وبهجة أنس ونسيت أن هؤلاء فرحون بزيارة شيخ الفرح وأنهم لايعلمون عني شيئا وصرت أشعر أن هذه الحفلات وأنواع الطرب والمسرات إنما تجلت لي أنا ، أنا ذاهب إلى الجد الباذخ والسعادة العظمى . فسعادتي دائمة وسعادتهم مؤقتة ، ألا ترى أن عادتهم أنهم يرجعون من هذه الزيارة بعد ثلاثة أيام . فهذه حال نفسي في ذلك اليوم ، فانها حولت طرب العامة إلى طربها وأخذت تتجلب جلابيب الأنس والسعادة التي استلبتها مما يحيط بها وتجاهلت أنها لم تكن مرادة بهذه المناظر البهجات ولا النغمات المطربات ولا المظاهر الفرحات كأنها كانت تحس إذ ذاك أن العلم دولة سوف تتبوأ منها مكانا شريفا وأنها لابد واصلة إلى ماأحبت من الحكمة والعرفان .

فهاتان الحادثتان كانتا أيام الدراسة الأزهرية في أيام الشباب .

(صدحت الموسيقى فكانت من أهم المبشرات لي)

وهناك حادثة ثالثة أيام أن شرعت في تدريس العلوم بالمدارس المصرية ، فبينما أنا ليلة جالس ببلدة الجيزة مع المدرسين في ليلة احتفال بزفاف عروس إذ فاجأتنا نغمات الموسيقى فما أن سمعتها حتى أغشي علي وأنا أكتم حالي عمن حولي ، ذلك أني كما تقدم في ثنايا هذا التفسير كنت عاهدت الله أني إذا عرفت أن هذا العالم منظم وأدركت حقائقه بقدر طاقتي البشرية فإني أؤلف كتبا لمن بعدي من المسلمين حتى لايقعوا في حيرة كما وقعت ولا يشكوا في أمر هذا الوجود كما شككت واتفق أني كنت إذ ذاك في أوائل أيام عهدي بالقيام بمهنة التدريس ، وإني فكرت فيما عاهدت الله عليه لأني إذ ذاك أخذت من العلوم بحظ يكفي أن أؤلف للمسلمين وإني لذلك أخذت أراجع الفلسفة القديمة كما أقرأ شذرات من الحديثة مع ضيق الوقت وكثرة أعمال الدراسة فلما سمعت نغمات تلك الموسيقى وهي تصدح تخيل إلى أن هذا الطرب إنما هو لتمام أمري وأني لابد واصل إلى ماطلبت وأن آمالي صادقة وأعمالي تامة . فهذه الخواطر كلها هي التي فهمتها من تلك الموسيقى وإخواني حولي لايشعرون بما يجول بخاطري وأنا أجتهد أن لايبدو على وجهي علامات الآثار النفسية . ثم قلت : فهذه الوقائع الثلاث ضربتها أيها الأخ مثلا لما يتردد في نفسي من العواطف التي لايدلي في تحصيلها ولا قوة لي على دفعها ، فقال صديقي : حدثني ماالذي أثارته في نفسك هذه النغمات التي سمعتها الليلة في الشارع ؟

قلت

فقلت أنا لا أكتمك الحديث، يظهر لى أن هذه العوالم المحيطة بنا موقظات لنفوسنا مشجعات لها على أعمالها، أتدرى ماالذى خيل لى وأنا معك ؟ خيل لى أن هذه السموات كلها حفلات طرب وأن النجوم فى آفاقها راقصات تجلببت بجلابيب الجمال وتسربلت بسرابيل البهاء وأن نغمات الأشجار والزروع والطيور وخرير المياه فى هذه الحفلة الرائعة بعض الموسيقى الصادحة فى هذا العرس العظيم وكأن أسماعنا وأبصارنا هى المرادة من هذا الجمال . نعم نحن لنا حاسة اللمس وإن هى إلا منذرة لنا ومبشرة للاحتراس مما يؤلمنا من نار محرقة مثلا وللاقبال على مايوافقنا من كل مالنا به انتفاع وسرور ، ولنا حاسة الذوق فيها نذر مايضرنا ونصطفى مايوافقنا من المطعوم والمشروب . فهاتان الحاستان خاصتان ببقاء أجسامنا وإيجاد نسلنا بالتقاء الصنفين الذكر والأنثى . فأما حاستا السمع والبصر فلهما شأن أعلى وإن شاركتا تينك الحاستين . ألم تر أن سماع الموسيقى ونظر الوجوه الجميلة يدعوان أكثر نوع الإنسان إلى ماتدعو إليه تانك الحاستان فكأن السمع والبصر كما أنهما متممان لشهوتى البطن والفرج عند الحيوان هكذا هما كذلك عند أكثر نوع الإنسان . وهما وإن كان ذلك دأبهما عند العامة والجهال وبعض صغار العلماء لهما القدح المعلى فى استخراج طائفة من الجمهور الإنسانى وفى بذر بذور السعادة والبهجة العلمية . ألم تر إلى ماتقدم عن طيماوس الحكيم الذى يقول فى محاورته مع سقراط (إن الله خلق لنا البصر لندرك به النجوم وندرسها ، ومن هذا الباب نلج باب الفلسفة) وهكذا تسمع الفلاسفة يقولون : (إن الموسيقى المسموعة باب من أبواب الموسيقى المعقولة التى لا تعرف إلا بإدراك هذا النظام العام) ولا سبيل لذلك السماع العقلى إلا بدراسة سائر العلوم من الرياضيات والطبيعيات وأساسها والنظام العام لهذه الكائنات . هنالك مؤازرة واتحاد فى النتائج بين حاستى السمع والبصر . فالصور الجميلة تذكر بالنغمات والأخيرة تذكر بالأولى . ومن عرف هذا أدرك معنى قوله تعالى فى (سورة الملك) « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون» وأدرك «وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء» الخ ؛ ومعنى قوله تعالى «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » إذن السمع والبصر هما البابان المفتوحان فى الإنسان ليوصلا المعارف والعجائب إلى الأفئدة المستيقظة كما أنهما يوصلان طرق استبقاء الشهوات الحيوانية للنفوس الضعيفة فى هذه الحياة . فقال أريد إيضاحا أتم للالتئام مابين حاستى السمع والبصر يكون أكثر إيضاحا وأتم شرحا . فقلت :

﴿ حزن الباكيات على الميت حولته نفسى فجعلته بكاء على جهلها بعلم النجوم ونظام العالم ﴾

أنا أذكر حادثة رابعة وقعت لى أيضا أيام كنت مجاورا بالجامع الأزهر وربما مر ذكرها فى هذا التفسير، ذلك أنى توجهت إلى بلدنا بالشرقية وقد مات رأس أسرتنا وعظيمها ، وكانت عادات أهل البلاد أن يقيموا مأتم مثله (٤٠) يوما فكنت كل ليلة أنتبذ من القوم مكانا قصيا وأجلس فى ناحية وأنا ناظر إلى النجوم أستمع النغمات المحزنات (اللاتى تتخلل أشجار النخيل المحيطة بالقرية فى ظلمات الليالى الحالكات) من أفواه نساء القرية اللاتى يندبن ذلك العظيم ويرتلن ذلك الندب بهيئة منتظمة موسيقية على مقدار ماتعلمن من أسلافهن بالمحاكاة والممارسة والتدريب فكانت هذه الأصوات أتخيلها كأنها ترتفع فى جو السماء من خلال الأشجار وتسارع إلى النجوم وكأنهن لايندبن عظيم أسرتنا الميت بل هن يندبننى لأنى جاهل بهذه العلوم التى يسارع الصوت فى الصعود إليهن من خلال النخيل ، فهذه كانت حالى فى تلك الليالى ، أسمع غناء النادبات فتصل رنات الحزن إلى قلبى وهن يبكين على الجهل بهذه العوالم .

هذه هى العواطف التى كانت تتسابق إلى قلبى إذ ذاك وهى من أعظم المشوقات إلى تلك العلوم التى لم يكن ليخطر لى أنى أعرف بعد ذلك منها شيئا اللهم إلا الأمانى والآمال والتلهف عليها والحسرة والحزن على

موت النفس بالجهل العظيم ، فها هو ذا الصوت المسموع ذكرى بعلوم النجوم وسيرها أى أن المسموع ذكر بالمنظور . فقال : أريد أن تذكر لى بعض ماتتخيله الآن فى هذه السن لأوازن بالحق مابين خيالك فى الشباب وخيالك فى المشيب . فقلت : لقد قدمت لك فى (سورة فاطر) عند آية «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء» الخ مايكفيك وأزيدك عليه الآن ماتخيلته من مخاطبة القمر المذكورة هناك .

بهجة البدر

(فى الموقف المتقدم ذكره فى (سورة فاطر) عند آية «ألم تر أن الله أنزل» الخ)

كأنه أخذ يقول لى : سيقف موقفك هذا قوم من الأمم الاسلامية وغير الاسلامية ويفكرون فى أنفسهم . وقد أحاطت بهم الأشجار والزروع ، هل يتجاذبون فى خواطرهم الحديث معى ؟ وهل يخيل إليهم أنهم فى بهجة وجمال وينظرون هل أحسوا فى أنفسهم أن الأرض أشرقت بنور ربها وأن هذه الدنيا فيها مبادئ جناتهم ومسرات نعيمهم ، وسيذكر المصطفون منهم أن الأرض التى هم عليها فى مثل هذا الموقف إن هى إلا ذرة من الوجود ، وما الشمس وتوابعها التى لاتزيد فى المجموعات الكوكبية (المجرات والسدم) البالغات (٣٠) ألف مليون إلا كحبة رمل فى فلاة واسعة . وإذا صغر العالم كله على هيئة خاصة بحيث تصبح الأرض فيه جوهرا فردا فان جميع شموسه ومجراته وسدمه تبلغ ألف مليون أرض ، وهنالك تذهلهم عظمة الكون وتدهشهم كما أدهشتك ويرون كما ترى أنت الآن أن علومهم نسبتها إلى حقائق هذا الكون كنسبة ضآلة أجسامهم وحقارة أرضهم إلى سعة هذه العوالم . وإذن يحقرون أكثر مايسمعون من علوم أهل الأرض الجاهلين الذين ورثوا عن آبائهم مخازى من العلم وأضاليل من الجهل وهم يدرسونها ولا يعقلونها وكيف يكون لله ولد وهذا الولد لايولد إلا فى هذه الذرة المنبوذة من الوجود ؟ ومعلوم أن الشمس لاتزيد عن جزء من (٢٥) مليون جزء من كوكب الجوزاء ، وما الجوزاء إلا كوكب واحد من مئات الملايين من مجرة واحدة والمجرة معها مجرات وسدم لاتنقص عن ثلاثين ألف مليون مجرة وسديم وأن هذه العوالم كلها إذا جرى النور حولها لايتم دورته فى أقل من مائة ألف مليون سنة (كما تقدم فى آخر سورة الكهف عند قوله تعالى «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى» الخ فراجعه) هناك تبدل العقول غير العقول ويقولون إذا كان الضوء يسير فى الثانية الواحدة (١٨٦) ألف ميل أو ٣٠٠ ألف كيلو ، وبهذه النسبة يصل نور الشمس إلى الأرض فى (٨) دقائق و (١٨) ثانية مع أن القطر لايصل منها إلى الأرض فرضا إلا فى (٣٥٠) سنة وقلة المدفع لاتصل فى أقل من (١٢) سنة .

فاذا كانت هذه حال الكون فعلوم أهل الأرض أكثرها ضلال وجهالة . فكيف اختصت أرضنا بأن الله له ولد فيها وحدها بل كانت الأولى به نحو الجوزاء . وهذه ترهات سيزيلها العلم من هذه الدنيا . وهؤلاء يرون أن أكثر ماعرفه الناس إنما هو حثالة العلم . وكما أن الذباب والحشرات تعيش على المواد العفنة القذرة إذ لا معطل فى الوجود . هكذا أهل الأرض اليوم تعيش بعض عقولهم على أقاصيص وأكاذيب وخرافات تعافها النفس ولكنها كافية لحياتهم كما تكفى الرمم لأكل الدود والعفونات والرطوبات لحياة الذباب والناموس والله واسع الفضل على الفاضل والمفضول وعلى الناس والذباب وستخلص الأجيال المقبلة من كثير من الأضاليل والأكاذيب ويسعدون بالعلم سعادة لايحس بها أهل الأرض الآن .

هذا ماجال بخاطرى فى ذلك الموقف ، ثم بعد ليال وقفت بعد ذلك المكان قليلا بعد الغروب وقد قفلت راجعا من حقلنا كالمرة الأولى . فهنالك تجلت لى الدنيا بهيئة بهجة جميلة وكأنها ازينت لى وأخذت أشجار

النخيل تترنح على نغمات النسمات وهن يبلغن مئات ومئات مصطفات صفوفا متقاربات بحيث يتصافح الجريد ويلتثم . هنالك وقفت دقائق ودقائق والنخلات راقصات رقصا مفرحا وهن يدرن دورة تامة بسبب اهتياج الريح وهبوب العواصف . فلو رأيت ثم رأيت قصرا مقاما على أعمدة جميلة من جذوع النخل تعلوه قبب متناسقات خضر ناضرات من الجريد والخوص وسقفه وأعمدته تترنح ذات اليمين وذات الشمال وهن شامخات الذرى بهجات المناظر، وتسمع مابين آن وآخر هبات النسمات تجعل هذا القصر كله فى هيئة راقصة على نغمات تأخذ بالألباب ومناظر تزيد الإعجاب .

ولو رأيت أيها الذكى مارأيت أنا من نجوم أخذت تهوى جهة الغرب وقد نظرن لى ولهذه الجوقات الموسيقية وهن باسمات تشير بطرف ساحر خفى وتقول : هيا يا حكماء الأرض . إياكم أن تشغلكم عوالم أرضكم عن جمال العوالم ، ماأشد فرح أحدكم إذا لمح ابتسامة من حبيب جميل أو أمير نبيل أو ملك جليل ، أفليس يطير بتلك الابتسامة فرحا ويهتز لها طربا ! فإذا كان العاشق يفرح لابتسامة المعشوق والسوقة لابتسام الملوك فلكم يطير الحكماء فرحا ويهتزون طربا فى أرضكم إذا أدركوا أن عناية الحكمة العامة الإلهية اختصتهم وحدهم فى هذه الحياة بوجوه باسمات مشرقات لاعدد لهن من كواكب السماء ، فابتسامة واحدة من جميل واحد أو ملك تنسى العاشق والصعلوك أشجانه وبتيه على خلانه فكيف بآلاف البسمات المشرقات كل ليلة من مئات ألوف الملايين فى السماء . إن نسبة سعادة النفوس الناقصة فى أرضكم هذه إلى سعادة النفوس الكاملة كنسبة بهجة انبساط معشوق واحد لعاشقه إلى بهجة ابتسام النجوم السماوية إلى الحكماء المفكرين . إن جمال هذه النجوم مغناطيس بها تجذب النفوس الصغيرة إلى مجاراة العقول الكبيرة فيرتقون إلى أشرف الأعمال وأرفع العلوم ويستعدون لزيارة تلك العوالم «وأن إلى ربك المنتهى» .

ومما لمحته فى نظرات النجوم إذ ذاك خواطر أخرى وذكريات وكأنى أخاطب بها نفسى من تلك الذكرى لبهجة المقام .

وذلك أنى بعد أن قطعت زمان الشباب وحل بساحتى الشيب وأنا أزاول مهنة التعليم فى المدارس وتأليف الكتب وجاوزت الستين رأيت شباب نفسى لطلب العلم وحبه لايزال غضاطرى الإهاب قويا فأخذت أكتب هذا التفسير . فأكببت على العمل نحو سنتين كاملتين أو يزيد . وكنت أكتب فى اليوم نحو ٤٠ أو ٥٠ صفحة ومتى كتبت العدد الذى أقرره فى نفسى أقوم للرياضة فى الحقول حول القاهرة وأمشى نحو (٦) كيلو مترات فلما أتممته أحسست فى نفسى بضعف شديد وإنهاك فى القوى وضعف فى الأعصاب ولكن فرحت فرحا وسررت سرورا كثيرا لأنى اعتقدت أنى أكملت واجبا . والذى سقت الكلام لأجله أنى بعد تمام التفسير كما قدمت أخذتُ أروض نفسى خارج القاهرة فكنت فى بعض الأوقات أجلس عند بلدة المرج وأجلس هناك فى الهواء الطلق وأنا ضعيف فسمعت إذ ذاك الآلة الحاكية المسماة (الفونوغراف) إذ يحكى بالصوت الجميل واللغة العامية مامعناه (يا بابا وأعمل له الواجب ، وأنا أمشى له وأتعاجب، وأغمز بالعين والحاجب) .

هذا ما كنت أميزه من أصوات الفونوغراف المذكور الذى يعبر عن شعور الفتاة البكر وقد حضر خطيبها وهى توصى أباها أن يكرم مثواه فى الضيافة وهى تتولى إظهار المحاسن له وتكون معجبة بجمالها، فالكرامة موزع بينها وبين أبيها فعليه الإكرام اللائق كما يكرم أعز الضيوف وعليها هى إظهار المحاسن لتزيد غرامه بها فتزوجه . هذا ما خطر لى ولكن هذه النفس حولته إلى سعادتها هى كما حولت غناء النساء على الجمال إلى نفسها فى جهة (بردين) بالشرقية وبيانه أنى لما سمعت ذلك الغناء أحسست كأن نفسى فى عالم أجمل من هذا وكأنى لست فى هذه الدنيا ، وكأن هذه الفتاة هى الحكمة ، وكأن الذى تخاطبه هو الله عز وجل ، وكأن

الخاطب لها أنا ، وكأن الحكمة التي أعشقها وأنا أخطبها تخاطب الله عز وجل وتقول له : (يارب أنظر فى أحواله المنزلية ، وأموره المعاشية ، حتى يتفرغ لى وأنا سأتزين له وأظهر له محاسنى فيعشقنى ويحبنى ويكتب ماينفع الناس » .

ولما رجعت إلى المنزل بالقاهرة بقى أثر تلك المعانى أياما وأياما ولكنى كنت أقول : لقد أتممت التفسير فما هى الحكمة إذن التى سيظهر جمالها لى ؟ ولقد ظهر بعد ذلك مالم أكن أحلم به فإن التفسير الذى كتبته لم يكن ليتجاوز نحو (١١) مجلدا فلما كاد عمال المطبعة يشرعون فى طبعه حتى بدرت لى بوادر وسنحت لى سوانح لم تكن لتخطر لى ومنها جميع المسائل العلمية التى ازدانت بالصور الشمسية فتضاعف الكتاب بما أضعه فيه من تلك العجائب الحكمية التى ازدان بها فعرفت إذذاك معنى ما فهمت من صوت الفونوغراف وأن فهمى كان حقا وأن هذه تنبيهات وإشارات تقتبسها النفس من الأحوال المحيطة بها ، إذن نفوسنا مستعدة أن تحول جميع ما حولها إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمفكرين . فإذا نظرت القمر هذه الليالى فى هذا الشهر والنجوم والنخل والزرع وتصورت المعانى المتقدمة فذلك أن نفوسنا لها حال أخرى فوق هذه الحال وهى أن ترى العوالم كلها سعادة لها وحبورا وجنات ونعيما وتحظى بذلك فى الحياة فى ساحات وأوقات . فإذا خلعت هذا العالم لبست أثواب السعادة فى عوالم أخرى . انتهى صباح يوم الاثنين (١٩) من شهر مايو سنة ١٩٣٠ م .

فلما أتممت ذلك . قال ، إن الذى قصصته على الآن إنما هو خيالك الخاص بك . وهل لهذا الخيال رابطة بالحقائق العلمية ؟ وهل المسموع والمبصر من واد واحد فى العلوم الحكمية كما كان فى خيالك الطارىء لك فى أوقات مختلفات . فقلت : إن أمثال هذا المقام يعوزه شرح طويل ولكن لأختصره لك اختصارا فأقول :

(علاقة النظام السياسى بالنجوم والحساب والهندسة والتمرين العضلى والموسيقى)

هاهى ذه أمامى جمهورية أفلاطون التى ألفها لإحداث نظام سياسى ثابت . وقد تعرض فيها لكل فروع الحياة وشرحها شرحا وافيا . والجمهورية مقسمة إلى عشرة كتب والكتاب السابع هاهو ذا بين يدى وهو يبحث فى الرجل الحكيم الذى يقود أمته إلى الصلاح والفلاح فوصفه بأنه هو الذى لا يقف عند الحواس بل يرتقى إلى ماهو اليقين وقال لا سبيل للوصول إلى اليقين إلا باجتذاب العقل من المحسوس إلى المعقول الثابت ومتى وصل العقل إلى اليقين وهو [صورة الخير الجوهرية] أيقن أنه سبب لكل ما هو جميل فى المحسوسات كالأنوار ولكل ماهو باه وكامل فى المعقولات وهو الحق والعقل . وكل من أراد أن يتصرف بحكمة يجب عليه أن يضع صورة الخير الجوهرية بين عينيه . أقول (وبعبارة أخرى) يجب أن يجعل الحكام والحكماء صانع العالم دائما فى قلوبهم .

(العقبتان فى طريق الفيلسوف فى حال تعلمه وفى حال قيامه بواجبه)

ثم أخذ يبين ما يعترى الفيلسوف من المشاق إبان تعلم الفلسفة . ثم ما يعتريه من النصب والتعب بعد كمال نفسه إذ يرى عقله الذى وصل إلى درجة الكمال ومعرفة الجمال ومبدإ النظام وهو الله تعالى قد رجع كرة أخرى يقاسى مشاق السياسة ونظام المدن فيكون إذن أشبه بمن مشى فى النور طويلا ثم فاجأه الظلام ، ثم بعد الممارسة يكون أقوى وأكمل فى نظام المدن من أولئك الجهلاء .

﴿ الرياضة البدنية والموسيقى ﴾

وهاهنا أخذ يبين الدروس التي يتعلمها أولئك الحكام الفلاسفة وقدم لذلك مقدمة فقال : (يجب أن يحكم الدولة الأغنياء الحقيقيون ، أغنياء لا بالذهب ولا بالفضة بل بثروة الإنسان السعيد وهي حياة البر والحكمة فإذا تسلط الفقراء أي المتهافتون على المنافع المادية كانت المدينة في غاية الانحطاط) وهنا أخذ يبحث في العلوم التي تنقل الإنسان من الفاني إلى الباقي وتجعله مقبلا على الخير المحض وهو الله تعالى فقال : (هل تكفي الرياضة البدنية التي تقوى الأبدان وعلاقتها لا تكون إلا بالجسد الفاني . كلا . وهل الموسيقى التي لا عمل لها إلا أن تمرن النفس على نوع من الأوزان والاتساق كافية في ذلك ؟ كلا . فالجمناستك لصحة الأبدان والموسيقى لها نوع من التهذيب في النفس بالاتساق) .

﴿ علم الحساب ﴾

وهنا أخذ يذكر علم الحساب فقال : « إنه هو العلم الذي منه تستمد كل الفنون والعلوم وجودها ، وهو أول ما يجب على المرء حوزه من العلوم ، ولا جرم أن فن الحرب أحدها وهو يكون نافعا للتاجر والضابط الجيش والفيلسوف ، وعلى الجملة أن المتصبين على الحساب سريعو الخواطر أذكياء إلا النادر منهم وهو دواء لبطيء الفهم فوق منافعه الأخرى ، وأعظم فائدة لدرس الحساب أنه يقودنا إلى درس الوحدة والتفكر في الوجود الحقيقي ، إن الواحد في كل موجود له (صفتان) صفة الواحدة من جهة . وصفة الكثرة من جهة أخرى . أقول : أي كبدن الإنسان فهو واحد من وجه كثير من وجه آخر باعتبار أجزائه . وهكذا كل مدينة وقرية وكرة أرضية وأمة وهكذا .

يقول إن البحث في الوحدة يعرفنا الوجود الحقيقي الذي لا كثرة فيه بوجه من الوجوه بل هو واحد من كل وجه ، أما العوالم فوحدتها من جهة واحدة فقط بالملاحظة لا غير .

ولما أتم الكلام على الحساب أخذ يذكر الهندسة السطحية كالمثلث والمربع وكثير الأضلاع وسطح الكرة وما أشبه ذلك . ثم علم الهندسة الفراغية كالكرة والمكعب ونحوها . ثم عطف على هذه الثلاثة علم الفلك وأبان أنه يحمل النفس على النظر إلى الأمور الثابتة وفضح علماء الفلك في زمانه قائلا : (إنهم يزاولونه فينزل بهم إلى أسفل سافلين ، إذ لا فرق بين من نظر إلى جلد منقط منقوش وبين من نظر إلى هذا السقف المرفوع المزين بالنجوم . وأي فرق بين منظر ذلك الجلد وهذا السقف من حيث شكلهما ، فكلاهما من المحسوسات والمحسوسات أخس المخلوقات . إن المثقف في علم الهندسة إذا رأى رسما عرف حالا إتقانه ودرجته في الجمال والكمال فلم يكن له ذلك غرضا مقصودا وإنما هو واسطة لما فيه من المعادلات والمضاعفات والنسب ، أما نفس الرسم فليس مقصودا من حيث ذاته بل الإبداع هو المقصود . هكذا علم الفلك فليكن مقصد الفلكي أن ينظر إلى حركات النجوم بهذا الاعتبار نفسه . إن الحركات تعطينا علمين علم تؤديه لنا العيون . وعلم تؤديه لنا الآذان . فالعلم الذي تؤديه لنا العيون هو علم الفلك . والعلم الذي تؤديه لنا الآذان هو علم الموسيقى فآذاننا لضبط الحركات المتسعة بالموسيقى وعيوننا خلقت لتناول حركات الأجرام الفلكية وهذان يؤلفان علمين شقيقين كما يقوله الفيثاغوريون . وههنا أخذ يشنع على طائفة من علماء الموسيقى وعلماء الفلك إذ يقصرون بحثهم في الموسيقى على أن يتلقفوا الصوت ويتنصتوا ويبحثوا عن الفرق بين هذا الصوت وذاك وأن هذا أخفض وذاك أعلى ، إذن هم يخضعون عقولهم للمحسوسات ، فهم لا يبرعون إلا في شد الأوتار ولفها على الأشظة فهم بذلك يجعلون أنفسهم سخرية لغيرهم .

إن الإنسان لايفك من أغلال هذه الطبيعة التي سخر لها إلا إذا بحث في نظام هذه الأنعام وحسابها ونسبها وأدرك بدائعها الموزونات وزنا حسابيا كما ينظر عجائب الحيوان والنبات وتشريح الإنسان ، ثم ينظر فى الشمس والنجوم وهذه المباحث كلها عقلية لاحسية منطقية لالفظية . قال : ولا يكف حق يدرك الخير والحقيقة ، فحينئذ يبلغ آخر مدى العالم العقلى ، فإذا وقف العقل على كنه هذه الحقائق العقلية وأشرف على معرفة الذات العلية تمتع بالسعادة الخاصة به كما تتمتع الأعضاء الأخرى بالسعادة بما يلائمها ، فهذا هو النشيد وهذه هي النغمات وما هى إلا نغمات عقلية دائمة فى مقابلة النغمات الحسية الفانية .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : يا سبحان الله ، أنا اطلعت على هذه القطعة من كتاب جمهورية أفلاطون وهو الكتاب السابع ولكن لم أفهم منها ما كتبته أنت الآن ، إن المحاورات هناك فيها صعبة بين سقراط وبين غلوكون ولكن يظهر لى أنك لخصت المعانى وأوضحتها بعبارتك أنت وأثبت المفهوم مع المنطوق حتى أسمعتها لى واضحة ظاهرة بينة ، ويظهر لى أن صناعة التدريس فى المدارس النظامية تجعل فى نفس المدرس ملكة بها يوضح كل ما يكتبه ، ألا ترى أنك ذكرت الكرة والمكعبات وما أشبه ذلك وضربت الأمثال فى الهندسة وسقراط لم يوضح ذلك . فقلت : إنى أراعى فيما أكتب أحوال أذكياء القراء فى هذا التفسير ، ولا يتسنى فهم ما أكتبه إلا بهذه الطرق فالإيضاح واجب متى وجدنا إليه سبيلا . فقال : ولكن أريد أن أبحث معك فى مسألة واحدة مما ذكرته . ذلك أنك قلت فى تلخيص كلام سقراط (قولين متناقضين) فتارة تسمعه يقول إن علماء الموسيقى الخاضعين للأصوات الذين يوازنون ما بين النغمات وأن علماء الفلك الذين لاهمة لهم إلا فى صور النجوم والحساب من حيث نتائجه الأرضية ، فهؤلاء وهؤلاء لاحظ لهم من الكمال ، وتارة يقول إن الموسيقى ملطفة للأخلاق مهذبة منعشة وأن التمرين العضلى إذا قوى الأبدان فإن سماع الموسيقى يلطف الوجدان فكأن القول فيه تناقض . فقلت : أنا الآن أبين لك حقيقة ما يقول بحسب ما يذهب إليه ثم آتى لك بما هو الحق فى نفسه . إن هؤلاء القوم ينظرون إلى الفلك وإلى الموسيقى من وجهين مختلفين فالموسيقى تلطف الوجدان وتحسن الأخلاق لأن الاتزان والاتساق يعطيان النفس صفة تشابه ما جاورها فيكون صاحبها موزونا فى معاملاته وهذه النغمات تطرد من نفسه تلك الخشونة التى أودعتها فى النفس التمرينات العضلية وهذه هى الطريقة العملية . أما الطريقة العلمية فهى أن يفكر فى أصل وضع الأنغام ونظام حسابها ونسبها الهندسية ونظام سير النجوم والشمس والقمر ، فهنالك يجد ثباتا ونظاما كاملا ، ولا جرم أن نظام الحساب والهندسة وثباتهما يعرف النفس أن هناك ثباتا فى هذا الوجود بخلاف نفس الكواكب ونفس النغمات فإنها فانيات متجددات ، أما حساب ذلك كله فهو ثابت ، فإذا رأيته يذم الفلكى وعالم الموسيقى فذلك إذا اقتصر كل منهما على ظواهر الكواكب ونتائج حسابها من الشهور والسنين وهو لا يفكر فى ثبات القواعد الحسابية وعلى ظواهر النغمات والتلذذ بها ، إذن ظواهر النغمات إنما تكون منفعتها فى تنظيم النفس لا غير ، فأما إذا عدل بها عن ذلك فإنها تصبح ضارة . ولا فرق عند هؤلاء بين الطعام والشراب وبين النغمات ، فكما أن إكثار ألوان الطعام ضار بالآكلين هكذا التفنن فى الموسيقى ضار بالسامعين لأن هذا التفنن يفتح أبواب الفجور فتحتاج الأمة إلى القضاة وأكثرهم كما يقول شهوانيون وكثرة المآكل فى الأمة والتفنن فيها يدعوان إلى كثرة الأمراض وهذه تدعو إلى الأطباء . وعار على رؤساء الجمهورية أن يدعوا رعاياهم يتفننون فيما يضرهم من المسموعات والمأكولات فيحتاجون إلى القضاة وإلى الأطباء . فلتكن الموسيقى فى حال خاصة ويجب أن تكون بسيطة غير موجبة لإثارة الشهوات بكثرة التفنن فيها، فالسماع والطعام أخوان

والبسائط

والبسائط فهما أهدى سبيلا وأقوم قيلا،وهو يقول فوق ذلك (إن الأطباء يختص عملهم بالأحوال الطارئة والأمور العارضة ، أما إعطاء العقاقير وطول التمريض فذلك يوجبه الشره فى للآكل والشارب ومتى امتنع ذلك خلصت الجمهورية من الأمراض) .

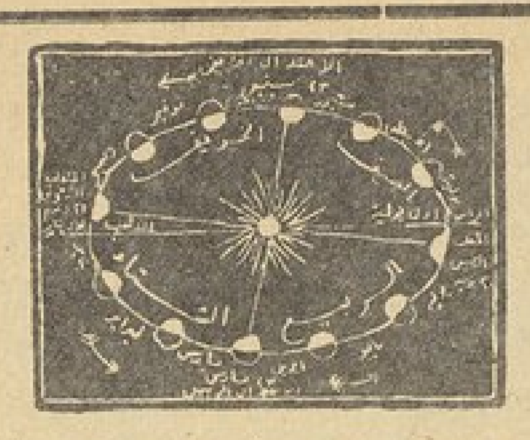
قال : وهل أنت ترى هذا كله ، فقلت : إن بعض هذه الآراء قد عدل فى وقتنا الحاضر ، إن التمارين العضلية والألعاب التى جعلها عمدة فى صحة الأبدان قد أصبحت اليوم فى الدرجة الثالثة ، ذلك أن أرقى الرياضات ماكان من إتعاب البدن فى أعمال الحقول والبساتين ويليه المشى على القدم ، وآخر درجات التمرين الرياضى هو (الجمناستك) أى التمرينات المعروفة ، وقد قال علماء أوروبا وأمريكا بالاختبار إن الذين يكثرون تلك التمرينات هم أقل الناس علما وأضعفهم تفكيرا وأظلمهم بصيرة ، ولست أقول إن التمرينات العسكرية داخلة فى ذلك ، كلا ، بل هى صناعة من الصناعات لابد من الحذق فيها وإتقانها ، وهذه التمرينات أهم ركن فيها وأ كثر كلام الجمهورية فى العسكرية .

والخلاصة أن الإنسان لايكون رجلا كاملا إلا إذا أحب الجمال وحب الجمال يشمل بهجة النجوم والمزارع النضرة وحسن نسق الثياب والنظافة وتنسيق المنازل . وبالجملة كل جمال فى بر أو بحر . ومتى عشق الناس الجمال فتحت بصائرهم للحقائق وحسنت معاشرتهم والرياضة البدنية حافظة للصحة وهى مع حب الجمال صنوان لايفترقان فى سعادة الإنسان .

فقال صاحبى : هل هذا آخر رأى ؟ فقلت . إن هذه عليها نظام المدارس والتعلم فى العالم الإنسانى اليوم ولكن جاء الإسلام فأحدث مدنية وجعل أركانها أركان الإسلام ومنها الصلاة . وهذه الصلاة بنظامها الجميل ونظافتها قد أبدعت أمة واسعة النطاق فى الشرق والغرب ، ولما كسلوا عنها تمزق شملهم وضل سعيهم ومدنية الجمهورية وحدها لم تقم بها أمة من الأمم . أما المدنية التى قامت بإقامة الصلوات فى خمسة أوقات التى هى نوع من النظام يهيج النفس إلى عالم قدسى فقد نجحت أمم وأمم بها . ولما تركها ملوك الإسلام وأمراؤه ذهبت ريحهم وضل سعيهم وتمسكوا بما لديهم من الموسيقى وأ كثروا منها فشربوا الخمر فكانوا من الخاسرين .

فقال صاحبى لقد أطلنا فى هذا المقام وخرجنا عن المطلوب . فقلت كلا . الآية فيها نظام الشمس والقمر وفيها « ذلك تقدير العزيز العليم » وتقدير العزيز العليم كما رأيناه فى سير النجوم رأيناه أيضا فى علم الألحان .

وانتهى الأمر بنا إلى أن ماجمل من النظام محسن لأخلاقنا وماثبت من الحساب ونظام الهندسة يعطينا ثباتا فى عقولنا ودلالة على مبدع العالم ترجع النفس إليه (شكل ٣٨ الآتى فى الصحيفة التالية) .



(شكل ٣٨ ــ شكل تستبين فيه الفصول الأربعة)

فقال أرجو الآن أن تشبع القول فى نظام الحساب فى الفلك والموسيقى وغناء الأطيار كما وعدت وكيف كانت من (واد) واحد . فقلت أولا انظر إلى الفصول الاربعة .

فهذه الدائرة المرسومة أمامك تحاكى الدائرة التى تقطعها الأرض فى حركتها حول الشمس فهو نظام ثابت بحساب لاتغيرله ، وهاهنا يتجلى للعقل الكمال الحقيق وتبهج نفسه بما وراءه من منظم الكون حكيم

(ثانيا) انظر إلى أشكال القمر الآتية قريبا وفيها وجوه القمر وصوره المختلفات فهذه الوجوه القمرية التى تظهر فى القمركل شهر ، فثباتها الظاهرى راجع لحساب كحساب سير الشمس فى الصورة التى قبلها.

(ثالثا) تفكر فى جدول الخسوف والكسوف وهو أنه يكون (٧٠) خسوفا وكسوفا فى مدة (١٨) سنة و (١١) يوما . منها (٢٩) خسوفا و (٤١) كسوفا والخسوف والكسوف فى كل مدة فى نفس المواعيد والساعات والدقائق فى المدة التى قبلها .

(رابعا) الكلام على السنين البسيطة والكبيسة . إن الدورة السنوية القمرية (٢١٠) وهذه دورة كبيرة . والدورات الصغيرة (٧) كل دورة (٣٠) سنة. والسنة القمرية تكون مابين (٣٥٤) يوما و (٣٥٥) يوما فالأولى بسيطة والثانية كبيسة فى الثلاثين الأولى من (٢١٠) من الأعوام الهجرية تكون الكبيسة على حسب الحروف المعجمة فى هذا البيت فالحرف للعجم للكبيسة والمهمل للبسيطة .

٢ ٥ ٧ ١٠ ١٣ ١٥ ١٨ ٢١ ٢٤ ٢٦ ٢٩

إن رمت مجدا فلا ترقد دجا أبدا خوف الفوات لما ترجو من الشرف

انظر الدائرة الأولى

مبدأ السنين الكبيسة

٢٩

٢٦

٢٤

(دائرة السنين الكبيسة)

فالكبيسة فى كل سنة (١١) يوما والبسيطة (١٩) يوما (انظر الدائرة الثانية) .

(دائرة السنين البسيطة)



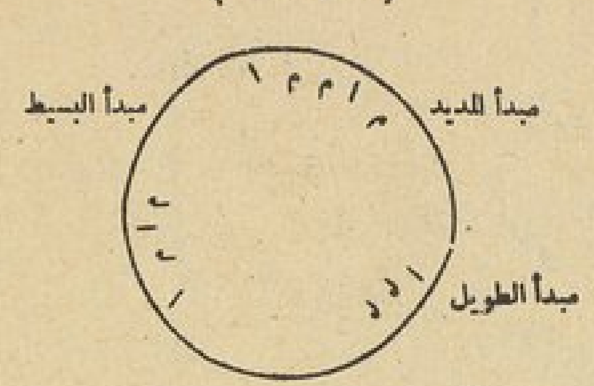
فهذه الدائرة تحتوى على (١٩) عددا لامحيص للسنة من أن تجرى على مقتضاها . فالدور الأول من (٢١٠) من التاريخ الهجرى هذا شأنه والدور الثانى على مقتضاه وهكذا تتم (٧) أدوار وهنا ينتهى الدور الكبير الأول ، وينحو نحوه فى ذلك كله الدور الثانى والثالث والرابع وهكذا بالغا مابلغ ونحن الآن فى سنة ١٣٤٩ هـ . وقد مضى (٦) أدوار لها مدة (١٢٦٠) ومن هذا الدور السابع قد مضى (٨٩) سنة منها دوران صغيران هما (٦٠) ونحن فى الدور الثالث . وهاتان الدائرتان قد تكررتا منذ الهجرة إلى الآن (٩٠) مرة .

أليست هاتان الدائرتان اللتان رأيتهما أمامك أشبه بدوائر للوسيقى والشعر وغناء الطيور . إنها مثلها حذو القذة بالقذة ، فقال كيف يكون ذلك ؟ فقلت : اعلم أن الوسيقى والشعر وغناء الطيور كلها من واد واحد فهى دوائر كدوائر علم الفلك . فقال أوضح فان الأمر عجب ، فقلت : إن أصول الشعر ثلاثة وهى السبب والوتد والفاصلة ، فالسبب مثل هل ومن وعن والوتد مثل نعم وبلى ونحن وأنت ، والفاصلة فهمت وعلمت وغلبت ، وترجع هذه الثلاثة إلى حرف ساكن وحرف متحرك ، وهذه الأصول الثلاثة فى الشعر هى أصول الغناء مثل (تن . تنن . تنتن) فمن هذه الثلاثة تتركب جميع الألحان والنغمات كما أن اللاتى قبلها تتركب منها جميع أنواع الشعر عند العرب وغير العرب وأنواع الغناء عند العرب (ثمانية أنواع) وهى : الثقيل الأول وخفيفه . والثقيل الثانى وخفيفه ، والرمل وخفيفه ، والهزج وخفيفه . وكلها مركبات من هذه الثلاثة كما يتركب أنواع النبات والحيوان من العناصر وكما تتركب أنواع الشعر العربى من الوتد والسبب والفاصلة ، ومقاطع الشعر العربى ثمانية وهى فعولن مفاعيلن متفاعلن مستفعلن فاعلاتن فاعلن مفعولات مفاعلتن . فهذه منها تتركب البحور العربية الشعرية ، ومن الثمانية قبلها تتركب سائر الألحان فى الموسيقى .

فلما سمع ذلك قال : إننا الآن فى تفسير آية الشمس والقمر وتقدير العزيز العليم ، ولا جرم أن هذا دعا إلى علم الفلك وعلم الشعر وعلم الألحان لأن ذلك كله تقدير العزيز العليم ، وسمعنا الفلاسفة يقولون إنها من واد واحد ، فأريد الآن الهجوم على نفس الموضوع خيفة أن يتشعب علينا ما نستوفيه من تلك العلوم فأرجو أن تأتى بمثال واحد به نعرف أن علم الشعر على مثال علم الموسيقى ونغمات الطيور ، فاذا كنا رأينا القمر والشمس وللسنة الكبيسة وللسنة البسيطة دوائر قرأناها فأريد الساعة أن أدرس دوائر تشبهها فى الشعر والموسيقى حتى تستبين الحقيقة . فقلت اعلم أن الخليل بن أحمد لما اطلع على أشعار العرب وجدها ترجع كلها إلى خمس دوائر وهذه الدائرة منها وهى التى تدل على بحر الطويل والمديد والبسيط وسماها المختلفة

(الدائرة الثالثة) .

﴿ الدائرة المختلفة ﴾



فهذه الدائرة فيها سبعة حروف متحركات وخمسة حروف سواكن أى (١٢) حرفا سواكن ومتحركات أخذتنا فى ثلاثة بحور فما عليك إلا أن تكرر هذه الحروف أربع مرات فتبلغ(٤٨) حرفا ، فبحر الطويل إذا ابتدأ من المبدأ الذى أمامك فى الدائرة له يكون فعولن مفاعيلن (٤) مرات وفاعلاتن فاعلن أربع مرات فى المديد ومستفعلن فاعلن (٤) مرات فى البسيط .

فانظر أيها الذكى من الأشعار ماشئت فى الطويل والمديد والبسيط ولكنك لن تخرج عن هذه الأوزان المتقدمة فى الدائرة ولا تخرج عن المتحركات والسواكن بعينها إلا فى أمور عارضة يسمونها الزحافات والعلل لاأحل لذكرها لأنها تخرج بنا عن المقصود كما هو رأيك ورأى أذكياء القراء فى هذا التفسير .

واعلم أن هذه الأوزان هى الأصل ولكن الشعر علم له قواعد تقتفى معرفة علله وزحافاته وما الأبيات إلا كحيوان يصح ويمرض ، فحذف حرف أو تسكينه يعتبر كأنه علة وأغلب الشعر لايخلو من ذلك ، فإذا أتينا بشواهد على هذه البحور فإنهامن هذا القبيل ، فإذا سمعت هذا البيت وهو الشاهد لبحر الطويل وهو :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فاعلم أن ماحذف منه تقتضيه الصناعة لأن آخر صدر البيت بوزن مفاعل وكذلك عجزه وهكذا قل فيما يأتى .

﴿ شاهد المديد ﴾

يالبكر انشروا لى كليبا يا لبكر أين أين الفرار

﴿ شاهد البسيط ﴾

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

وبهذا تم الكلام على الدائرة الأولى .

ومن عجب أن بحر الطويل الذى هو أحد البحور الثلاثة فى الدائرة المختلفة المتقدمة له نظير فى علم الموسيق قال : وماهو ؟ قلت : أذكرك بما تقدم وهو أن ألحان الغناء العربية لها ثمانية قوانين فلنترك الكلام على الثقيل الأول والثقيل الثانى ولنحصره فى الكلام على خفيف الثقيل الأول فنجده على هذا الوزن فعولن مفاعيلن (تنن تن ، تنن تن تن) ويسمون هذا (اللحن الماخورى) وهو يماثل صياح الفاختة (ككوه كوه ككوكوكو)

إذن عندنا هذا الوزن فى الشعر وفى الموسيقى وعند الطير ، فلنرجع إلى الدائرة المختلفة المتقدمة فماذا نجد أن من ينظم بحر الطويل يتم البيت بالسير على هذه الدائرة أربع مرات فعولن مفاعيلن أى أنه يأتى بخمس سواكن وسبع متحركات ويعيدها أربع مرات ، ولا فرق فى ذلك بين المغنى وبين من يقول :

أبا منذر كانت غرورا صحيفتى ولم أعطكم بالطوع مالى ولا عرضى

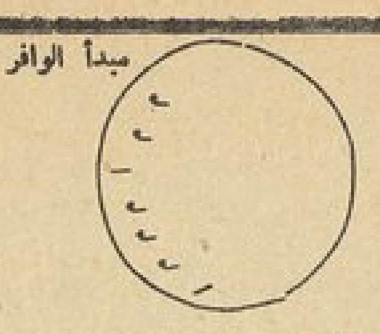
ياسبحان الله : إذن قول الفاختة ككوكو ألخ يجرى على هذه الدائرة ، إذن المغنى والطير والشاعر كلها تجرى على هذه الدائرة فى هذا المقام ، ويا عجبا . أليس هذا بعينه هو ما رأيناه الآن فى سير الشمس والقمر ووجوهه والسنين الكبيسة والبسيطة ، أفليست الدوائر الصغرى التى تبلغ نحو (٩٠) دائرة من أيام الهجرة إلى الآن سارت كلها على نمط واحد ، فأى فرق لعمرك بين دائرة الخليل التى سماها المختلفة وقد جاء فيها بحر الطويل المائل للماخورى فى الشعر ولصياح الفاختة وبين دائرة السنين الكبيسة والبسيطة .

كل هذه أدوار منتظمات . أليس هذا هو الذى كنا نسعى لفهمه ونعرف مايقوله أفلاطون أن علم الألحان هو من قبيل علم الفلك لافرق بينهما ، وإن الإنسان إذا أدرك عجائب الوحدة والحساب أغرم بمبدع الكون وأن أسماعنا مخلوقة لمعرفة نظام النغمات كما أن أبصارنا مستعدة لمعرفة نظام الحركات وبهذا عرفنا أن النغمات وحركات الأفلاك كلها واحدة منظمة .

وبهذا عرفت أيها الذكى ماجال بخاطرى وأنا شاب فى الحكاية السابقة فى أول هذا المقام إذ ذكرنى بحركات الأفلاك نغمات النادبات وفهمت نفسى أن ذلك بكاء على موتها . ههنا الفطرة من غير تعليم انتقلت من حركات النغمات إلى حركات الأفلاك . وهذا الذى حرك وجدانى بطريق الوجدان والغريزة هو الذى أدركه (سقراط) فيما تقدم وهو الذى فصلناه فيما قرأته الآن .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : لقد شرحت صدرى وشرحت الموضوع شرحا وافيا وعرفنا بهذا أن تقدير العزيز العليم كما سرى فى الأفلاك سرى فى نغمات الطيور وأشعار العرب وألحان الغناء . ولكن هل الفطرة الصادقة خاصة بالعرب . قلت : كلا . اعلم أن الأمم كلها حكمها حكم أمة العرب ، وإذا وجدنا الطيور لها موسيقى ونغمات هكذا نوع الإنسان كله له اصطلاحات وأوزان لاتخرج عن الأصول التى بيناها ، وليست بحور الشعر التى عددها (١٦) فى اللغة العربية بشرط فى النظم بل الفطرة الإنسانية فيها من الأوزان مالا حصر له وهكذا المعانى .

فقال هاأنا ذا عرفت الدائرة المختلفة فى علم الشعر فأريد أن أعرف بقية الدوائر ، فقلت له إن هذا يخرج بنا عن المقام ، فقال ولكن أريد الإيجاز . فقلت : الدائرة الثانية تسمى المؤتلفة وفيها الوافر والكامل والبيت يتم فيها بست مرات (انظر الدائرة الآتية) .



فالوافر مفاعلتن ست مرات والكامل متفاعلن ست مرات وهذا واضح .

﴿ شاهد الوافر ﴾

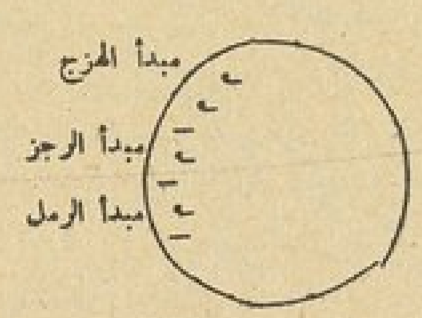
ونشرب إن وردنا الماء صفوا   ويشرب غيرنا كدرا وطينا

﴿ شاهد الكامل ﴾

وإذا صحوت فما أقصر عن ندا   وكما علمت شمائلي وتكرمي

وبهذا تمت الدائرة الثانية وشواهدها

والدائرة الثالثة تسمى المجتلبة والبيت فيها يتم بست مرات وفيها الهزج والرجز والرمل (انظر الدائرة الآتية) .



فهذه الأبحر الثلاثة من واد واحد كالوافر والكامل فى الدائرة الثانية ، فلا فرق بين مفاعيلن ست مرات فى الهزج ولا مستفعلن ست مرات فى الرجز كذلك ولا فاعلاتن ست مرات فى الرمل فكلها كأنها شىء واحد .

﴿ شاهد الهزج وهو مجزو ﴾

وما ظهرى لباغى الضيم بالظهر الذلول

مفاعيلن ثلاث مرات وبعدها فعولن .

﴿ شاهد الرجز ﴾

القلب منها مستريح سالم   والقلب منى جاهد مجهود

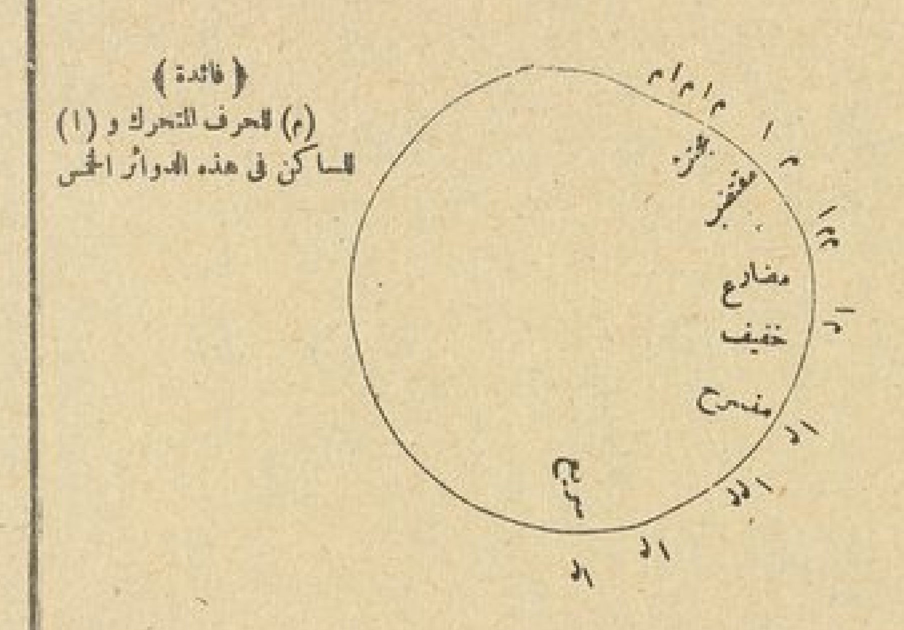
فهذا صارت مستفعلن فى آخره بوزن مفعول .

﴿ الرمل ﴾

قالت الخنساء لما جئتها شاب بعدي رأس هذا واشتهب

هو فاعلاتن فاعلاتن فاعلن مرتين، وبهذا تم الكلام على الدائرة الثالثة وشواهدها

والدائرة الرابعة فيها السريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث . والدائرة الخامسة فيها المتقارب ويتلو ذلك كله بحر الخبب الذي يشبه خبب الخيل (انظر الدائرة الآتية) .



إن السريع بحسب أصله مستفعلن مستفعلن مفعولات ، والمنسرح مستفعلن مفعولات مستفعلن . والخفيف فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ، والمضارع مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن . والمقتضب مفعولات مستفعلن ، والمجتث مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن .

﴿ شاهد السريع ﴾

أزمان سلمى لا يرى مثلها الرا ؤن في شام ولا في عراق

﴿ شاهد المنسرح ﴾

إن ابن زيد لا زال مستعملا للخير يفشي في مصره العرفا

﴿ شاهد الخفيف ﴾

خفف الوطء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد

﴿ شاهد المضارع وهو مجزوء ﴾

دعاني إلى سعاد دواعي هوى سعاد

﴿ شاهد المقتضب وهو مجزو أيضا ﴾

أعرضت فلاح لها عارضان كالبرد

﴿ شاهد المجتث وهو مجزو أيضا ﴾

لم لا يعى ما أقول ذا السيد المأمول

﴿ الكلام على الدائرة السابعة ــ شاهد المتقارب ﴾

فعولن ثمان مرات وأروى من الشعر شعرا عويصا ينسى الرواة الذى قد رووا

هى الشمس مسكنها فى السما فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعودا ولن تستطيع إليك النزولا



وبهذا تم الكلام على بعض الدوائر الفلكية ثم جميع الدوائر الشعرية التى أبدعها الخليل بن أحمد رحمه الله تعالى .

وبهذا ظهر لك أيها الذكى كيف أصبح علم الشعر وعلم الموسيقى وعلم الفلك من واد واحد فهى على مقتضى حساب منظم . ولما كان ظهور هذا التفسير موافقا لظهور كوكب جديد وراء نبتون وجب أن أبينه هنا ثم أتبعه بأشكال القمر وما يتبع ذلك إيفاء لحق المقام فأقول :

(الكوكب السيار الجديد)

جاء فى جريدة (الأهرام) بتاريخ يوم الأحد (٣٠) مارس سنة ١٣٩٠ م مانصه

(بلاغ من مرصد حلوان)

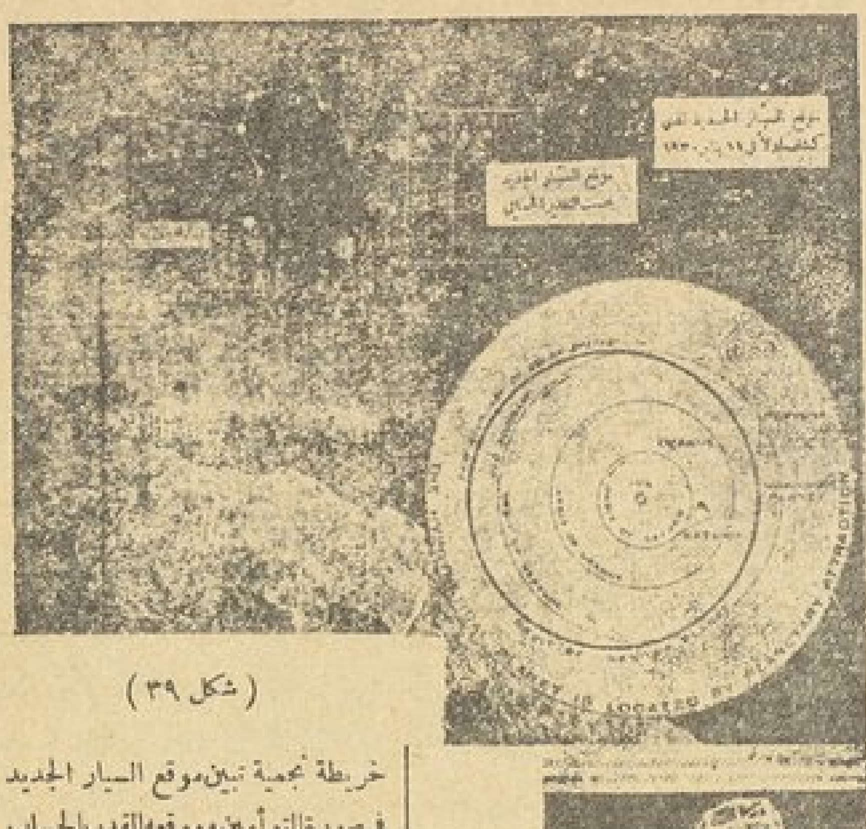
فى ١٢ مارس الحالى اكتشف مرصد لول بمدينة فلاجستاف فى الأرزونا بالولايات المتحدة الأمريكية كوكبا سيارا علويا جديدا وراء نبتون . ولهذا الاكتشاف أهمية عظيمة جدا للعلوم الفلكية ، فقد زاد عدد الكواكب السيارة بما فى ذلك الأرض حيث يبلغ الآن عددها تسعة ، وقد اكتشف الكوكب الثامن نبتون فى سنة ١٨٤٦ والكوكب السابع أورانوس فى سنة ١٧١١ .

وعند وصول هذا النبأ قد أخذ الدكتور محمد رضا مدور الفلكى القيم بمرصد حلوان عدة ألواح

فتوغرافية بواسطة نظارة رينولدز العاكسة البالغ قطرها (٣٠) بوصة وقد ثبت جليا وجود الكوكب الجديد فى الألواح للعرضة لموقع الكوكب مدة ساعة من الزمن فى الليالى الآتية (١٨ و ٢٤ و ٢٧ مارس) .

وهذا الكوكب ضئيل اللمعان حيث يبلغ قدره الفلكى نحو (١٥٫٠) فهو بذلك ألف مرة أقل لمعانا من الكوكب نبتون وهو يقع فى برج التوأمين بالقرب من النجم اللامع ولكنه لايمكن أن يرى بالعين حتى ولو استعمل أكبر منظار ، ولابد أن يمضى بعض الزمن حتى يمكن حساب حجمه وكتلته ولكن المقادير الابتدائية تثبت أنه أكبر من الأرض وأصغر من أورانوس . ويبلغ بعده عن الشمس نحو (٤٥) مرة بعد الشمس عن الأرض . وقد دلت الفروق الصغيرة فى حركات الكوكب أورانوس أنه لابد من وجود كوكب تابع بسبب هذه الاختلافات . وقد عمل الدكتور لول مؤسس المرصد المذكور آنفا حسابا لموقعه فى السماء غير أن هذا الاكتشاف يرجع إلى البحث المنظم بواسطة النظارات الفوتوغرافية منذ (٢٥) سنة تقريبا اه .

وسترى فى الصحيفة الآتية رسم خريطة نجمية تبين موقع السيار الجديد فى صورة التوأمين وموضعه المقدر بالحساب قبل اكتشافه فى برج السرطان وموقع السيار نبتون فى صورة الأسد، وفى الدائرة رسم مصغر النظام الشمسى تظهر فيه الشمس فى المركز إلى آخر ماذكر هناك . وكذلك صورة التلسكوب الكبير الذى اخترع حديثا . وسترى أيضا فى الصفحات الآتية بعد ذلك صور أشكال أوجه القمر المختلفة .



(شكل ٣٩)

خريطة نجمية تبين موقع السيار الجديد في صورة التوأمين وموقعه المقدر بالحساب قبل اكتشافه في برج السرطان وموقع السيار نبتون في صورة الأسد وفي الدائرة رسم مصغر للنظام الشمسي تظهر فيه الشمس في المركز ولا تظهر أفلاك عطارد والزهرة والأرض والمريخ والنجيمات والمشتري لأنها على هذا القياس قريبة جدا من الشمس فيتعذر رسمها هنا ويلي ذلك فلك زحل ثم فلك أورانوس ثم فلك نبتون الذي كان إلى أوائل هذه السنة حد النظام الشمسي المعروف ثم يظهر فلك السيار الجديد بخط ثخين .

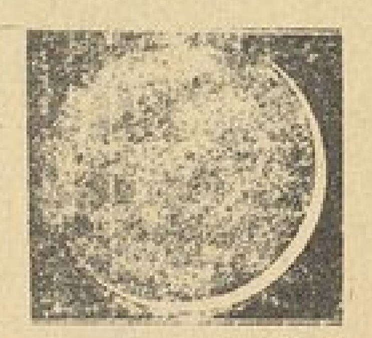
صورة للتلسكوب الكبير الذي أشرنا اليه غير مرة في المقتطف وسيكون له مرآة من الكوارتز المصهور قطرها مائتا بوصة أي ضعف قطر المرآة في أكبر تلسكوب بني حتى الآن . وينتظر أن تبلغ نفقاته ستة ملايين ريال أو مليون جنيه ومائتي ألف جنيه .

في ٢١ يناير سنة ١٩٣٠ كشف المستر كليد تمبو وهو مساعد حديث السن انضم من عهد قريب إلى مرصد لول بأرزونا . في صورة فوتغرافية عن شبح ضئيل لجسم سماوي متحرك . وكان موقعه في صورة التوأمين على

نحو خمس درجات من الموقع الذى عينه الأستاذ رسكال لول بالحساب الرياضى للسيار المجهول خارج فلك نبتون. فاحتفظ علماء مرصد لول بسر هذا الاكتشاف سبعة أسابيع والوا في أثنائها البحث والتحقيق للتثبت من أن هذا السيار يدور حقيقة فى فلك خارج فلك نبتون إذ ليس ما يمنع أن يكون إحدى النجيمات العديدة التى تدور بين المريخ والمشترى ، وأخيرا ثبت لهم أنه سيار جديد وراء نبتون وأن فلكه يتفق تقريبا مع الفلك الذى تنبأ به لول أما بعده عن الشمس فنحو ٤٥ ضعف بعد الأرض عنها أى نحو ٤٢٠٠ مليون ميل . وعلى هذه المسافة لا يصله من نور الشمس وحرارتها إلا جزء من ألفى جزء مما يصلنا منهما انتهى من مقتطف مايو ١٩٣٠ .

أشكال القمر

فى مدة دورة اقترانية يأخذ البعد الزاوى لمركز القمر عن مركز الشمس مقدرا على الطول جميع المقادير من ٠ إلى ٣٦٠° وفى هذه المدة يكون على وجه العموم قرصه المستدير مكونا من جزأين : أحدهما مستنير والآخر مظلم ، وشكل هذين الجزأين ومقدارهما النسبى متغير دائما ومنهما تتكون الظواهر المعروفة باسم أشكال القمر : وبيان ذلك أنه متى لم يكن القمر منظورا لا ليلا ولا نهارا يقال له فى حالة المحاق أو الاقتران أو الاجتماع أو التوليد . وسبب عدم رؤيته أن وضعه مجاور جدا فى الظاهر للمحل الذى تشغله الشمس فى السماء فيوجه نحو الأرض نصف كرته المظلم المحجوب عن الأشعة الشمسية ويمكث خفاء القمر يومين أو ثلاثة أيام ، لكن لحظة الاقتران المضبوطة التى يستدل عليها من السنويات الفلكية تحصل متى كان الشمس والقمر طول واحد ، وفى اليوم الثانى أو الثالث بعد تلك اللحظة [1] يظهر القمر ليلا بعد غروب الشمس بمدة قليلة على شكل هلال رفيع (شكل ٤٠) تحدبه نحو النقطة التى توجد فيها الشمس تحت الأفق وبسبب الحركة اليومية يغرب القمر بعد قليل فى الأفق الغربى . وفى اليوم التالى تحصل الحالة بعينها ، غير أن الجزء المستنير يكون أعظم وحيث أن القمر يكون بعيدا عن الشمس أكثر من بعده عنها فى اليوم السابق يتأخر غروب القمر عن اليوم السابق ، وفى اليوم الرابع (شكل ٤١) بعد الاقتران يغرب بعد الشمس بثلاث ساعات وشكله بعد اليوم الرابع من الاجتماع يسمى التربيع الأول (انظر شكل ٤٠ و ٤١) .



(شكل ٤٠ ـ الوجه الأول للقمر)





(شكل ٤١ ـ اليوم الرابع للقمر)

ثم ينموا الهلال شيئا فشيئا ، وبين اليوم السابع والثامن من لحظة الاجتماع ليظهر لنا القمر على شكل

(١) هيفيليوس يقول إنه لم ير القمر إلا بعد ٤٠ ساعة من الاقتران و ٢٧ ساعة قبله بحيث أن النهاية العظمى لمدة خفائه تكون ٦٧ ساعة وهذه المدة تختلف على حسب الأقاليم وعلى حسب عرض القمر .

نصف دائرة ويرى مدة فى النهار (شكل ٤٢) والحركة اليومية لاتأتى به فى مستوى الزوال إلا بعد مرور الشمس به بست ساعات تقريبا .

وبين التربيع الأول والبدر تمضى سبعة أيام أخرفى غضونها يقرب الجزء المستنير شيئا فشيئا من أن يصير دائرة تامة (انظر شكل ٤٣) ويتأخر شروق وغروب القمر شيئا فشيئا فى مسافة هذه المدة مع كونه موجها



(شكل ٤٢ ـ القمر فى التربيع الأول)



(شكل ٤٣ ـ القمر بين التربيع الأول والبدر)

دائما نحو الغرب الجزء العلوى من قرصه وبعد الاقتران بخمسة عشر يوما تقريبا يظهر لنا قرصه مستنيرا بأكمله (شكل ٤٤) وحينئذ تكون لحظة شروقه هى تقريبا لحظة غروب الشمس التى تشرق عند غروبه ومتى ارتقى القمر إلى أعلى نقطة من سيره أعنى مر بمستوى الزوال يكون نصف الليل ووقتئذ تمر الشمس تحت الأفق بمستوى الزوال الأسفل بحيث يكون القمر مقابلا للشمس بالضبط بالنسبة للأرض .



(شكل ٤٤ ـ البدر)



(شكل ٤٥ ـ القمر بين البدر والتربيع الأخير)

وبعد ذلك يتناقص على التوالى الشكل المستدير للمستنير القرص وينتهى بأن يظهر كما كان فى أول الأمر على شكل هلال رفيع جدا تحدبه جهة الشرق بحيث يكون نصف الدائرة المحدد للجزء المستنير موجها دائما نحو الشمس ، وفى وسط المسافة التى تفصل البدر عن الزمن التالى له يكون القمر شكل كالذى كان له فى التربيع الأول غير أنه موضوع بعكسه ويسمى التربيع الثانى أو الأخير وفى هذا الجزء الثانى من الزمن القمرى يقرب الوضع الظاهرى للقمر فى السماء شيئا فشيئا من موضع الشمس وقريبا من الأيام الأخيرة يسبق شروقها بمدة قليلة جدا حتى يدخل من جديد فى أشعتها ويختفى ليعود قمرا جديدا (انظر شكل ٤٥ و ٤٦ و ٤٧) ،

(شكل



(شكل ٤٦ - التربيع الأخير)



(شكل ٤٧ - القمر بين التربيع الأخير والهلال)

﴿ الضوء الرمادى ﴾

قد قلنا إن الجزء المستضىء من القمر الذى تنيره الشمس مباشرة يتغير شكله فى مدة الدورة الكاملة للقمر من ابتداء الهلال الرفيع المضىء والشكل الأخير لغاية الدائرة الكاملة التى يظهرها الكوكب فى مستويه. وأما الجزء المظلم من هذا القرص فيظهر فى بعض أشكاله ضوء ضعيف جدا يسمى الضوء الرمادى (شكل ٤٠) ويسهل رؤيته بالعين العارية وجميع العالم يمكنهم أن يروه قبل أو بعد المحاق ببعض أيام حيث يكون القمر وقتئذ هلالا وجميع جزء نصف الكرة الموجه نحونا والذى لم يتأثر بالأشعة الشمسية يرى مع ذلك متميزا بحيث يحدد الدائرة الكاملة للقرص ، والضوء الرمادى يرى مادام الهلال ولا يختفى مطلقا قبل التربيع الأول ويرى بعد التربيع الأخير بقليل ولا يختفى إلا باختفاء القمر وشدة الضوء الرمادى ربما تكفى فى تمييز كلف القمر بالعين العارية .

﴿ أسباب الضوء الرمادى ﴾

قد كان الأقدمون من الفلكيين يعتبرون أن هذا الضوء ناتج من نوع تفصفر [1] لسطح مادة القمر لكن ذلك قد بطل اليوم وعلم أن الضوء الرمادى هو ضوء الأرض منعكسا على القمر من الأجزاء المستضيئة منها ، وذلك أن الأرض يجب أن ترى من القمر بالأشكال التى يرى بها القمر من الأرض بالضبط لكن هذه الأشكال تكون بعكس أشكال القمر ، لأن وقت المحاق توجه الأرض جزءها المستنير بأكمله نحو نصف الكرة المظلم من القمر بحيث إن نصف الكرة المذكور يتلقى بواسطة الانعكاس جميع الضوء الذى ترسله الشمس إلى الكرة الأرضية ، وحيث إن السطح الظاهرى للكرة الأرضية منظورا من القمر هو أكبر من قرص القمر بنحو ثلاثة عشر مرة تقريبا فيعلم أن ضوء الأرض يجب أن يعطى لليالى القمر ضوءا أعظم مما يصل إلينا من ضوء القمر وأجزاء نصف كرة الأرض المستنير منظورة من القمر تكون مع ذلك قليلة كلما كان القمر بعيدا عن الوضع الذى يشغله فى وقت الاجتماع ، ومن ذا يعلم سبب عدم ظهور الضوء الرمادى بين التربيع الأول والأخير ، وحينئذ فالضوء الرمادى ليس شيئا آخر سوى انعكاس ضوء الشمس المنبعث مرة أولى من الأرض على القمر ثم مرة ثانية من القمر على الأرض . انتهى ما أردته من كتاب الفلك الحسنى بك .

﴿ المنازل والبروج ﴾

وكيف كان سير الشمس والقمر فيهما بحساب لا خلل فيه على مقتضى الشهور الرومية مثل يناير فبراير وهكذا ، أو الشهور السريانية مثل أيلول تشرين الأول تشرين الثانى وهكذا : والموازنة بينهما وبين الشهور

(١) التفصفر : كناية عن مادة فصفورية فى القمر .

القبطية مثل توت بابه هاتور كيهك طوبة أمشير وهكذا . وبيان أن أسلافنا مندقرون جعلوا بينها جميعا موازنة بحيث إذا عرف الإنسان حساب الشهر القبطى كأهل مصر ، أو الرومى كأهل أوربا أو السريانى كنبرها أمكنه أن يستخرج بكل سهولة نظائرها من الشهور الشمسية. وكذلك القمرية عند العرب واليهود وهكذا يعرف أين تنزل الشمس من منازلها البالغة (٢٨) منزلة وهى الشرطان والبطين والثريا الخ . وأين هى فى بروجها البالغة ١٢ برجا . ثم كيف نظم الناس أعمالهم على مقتضى ذلك النظام كأن يبذروا البرسيم ونحوه فى شهر بابه ويحصدوا الأرز ويجنوا الرمان ويستخرجوا دهن الآس والنيلوفر وهكذا فى شهر توت قبله ويعرفون أن أوله يسمى النيروز وهو رأس السنة القبطية . وفى (٧) منه يلقطون الزيتون . وفى (١٧) منه تفتح أكثر الترع بمصر . وفى (١٨) منه يبتدئ فصل الخريف . وفى (١٩) منه تهيج السوداء فى البدن . وفى (٢١) منه يبتدىء بيض النعام . وفى (٢٨) منه يذهب الحر . وفى (٢٩) منه يكون أول رعى الكراكى . وفى (٣٠) منه يزرع الجلبون . وهكذا بقية الشهور قد وزعت عليها أعمال الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية .

ولما كان هذا المقام لايسع ذلك أرجأته لأكتبه مفصلا موضحا فى (سورة الزمر) فى آية «خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى» الخ مع آية «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ، ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه» الخ وهذا هو السر فى أن آيات الزرع متصلة بآيات سير الشمس والقمر فى كثير من الآيات . ألا ترى إلى قوله هنا فى (يس) «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها» الخ ثم أتبع ذلك بالشمس والقمر والليل والنهار وإلى قوله تعالى فى (سورة ق) «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم» الخ ثم يتبع ذلك بقوله «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى» الخ وهكذا فى (سورة الرحمن) «الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان» والنجم هو ما لاساق له من الزرع والشجر ماله ساق ، فسجود هذين النوعين مبنى على حساب الشمس والقمر قبلهما كزرع البرسيم فى شهر بابه وحصد الأرز وجنى الرمان ولقط الزيتون فى شهر توت قبله وزرع الجلبون فى آخره وهكذا ماتقدم وما سيأتى فى (سورة الزمر) قريبا إن شاء الله تعالى .

الكلام على حساب الشهور القمرية إيفاء لبعض ماتقتضيه هذه الآيات

جاء فى كتاب صبح الأعشى مانصه :

إن أردت أن تعرف أول يوم من شعبان وكان أول المحرم يوم الأحد مثلا فعد من أول المحرم إلى شعبان وتدخل شعبان فى العدد فيكون ثمانية أشهر فتقسمها نصفين يكون نصفها أربعة فتضيف الأربعة إلى الثمانية تكون اثنى عشر ، ثم تبتدئ من يوم الأحد الذى هو أول المحرم فتعد الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت ، ثم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس فيكون انتهاء الاثنى عشر فى يوم الخميس فيكون أول شعبان يوم الخميس. ومثاله فى المكسور النصف إذا أردت أن تعرف أول رمضان أيضا وكان أول المحرم الأحد كما تقدم فتعد مامضى من شهور السنة وتعد منها رمضان يكون تسعة أشهر فتقسمها نصفين يكون نصفها أربعة ونصفا فتكملها بنصف تصير خمسة فتضيفها إلى الأصل المحفوظ وهو تسعة يكون المجموع أربعة عشر ، ثم تبتدئ عدد الأيام من أول المحرم ، وهو الأحد كما تقدم فيكون انتهاء الرابع عشر فى يوم السبت فيكون أول رمضان يوم السبت .

ومن الطرق المعتبرة فى ذلك أن تنظر فى الثالث من أيام النسىء من شهور القبط كم يوما مضى من الشهر العربى فما كان جعلته أصلا لتلك السنة . فإذا أردت أن تعرف أول شهر من الشهور العربية، أو كم مضى من

الشهر الذى أنت فيه . فخذ الأصل المحفوظ معك لتلك السنة ، وانظر كم مضى من السنة القبطية شهرا فخذ لكل شهرين يوما ، فان انكسرت الأشهر وجاءت فردا فاجبرها بيوم زيادة حتى تصير زوجا . وزد على ذلك يومين أصلا أبدا، ثم انظر كم يوما مضى من الشهر القبطى الذى أنت فيه فأضفه على ما اجتمع معك، وأسقط ذلك ثلاثين ثلاثين فما بقى فهو عدد مامضى من الشهر العربى. ومنه يعرف أوله .

ومثال ذلك نظرت فى الثالث من أيام النسىء، فوجدت الماضى من الشهر العربى ثلاثة أيام فكانت أصلا لتلك السنة ثم نظرت فى الشهور القبطية فوجدت الشهر الذى أنت فيه أمشير مثلا فتعد من أول شهور السنة القبطية (وهو توت) إلى أمشير يكون ستة أشهر فتأخذ لكل شهرين يوماتكون ثلاثة أيام فتضيفها على الأصل الذى معك من أيام النسىء وهو ثلاثة تصير ستة فزد عليها اثنين يصير المجموع ثمانية . ثم تنظر فى الشهر القبطى الذى أنت فيه : (وهو أمشير) تجده قد مضى منه يومان فتضيفها على المجموع يكون عشرة وهو الماضى من الشهر العربى الذى أنت فيه ومنه يعرف أوله . اه .

(حساب الشهور القمرية أيضا)

وهذا نصه :

لقد قرأت الجدول الآتى فى كتاب العقد الفريد للملك السعيد وحسبت بمقتضاه أول شهر رمضان المعظم فى السنة الماضية سنة ١٣٤٨ هـ فكان موافقا لما جرى عليه العمل فأردت إثباته هنا :

فإذا أردت العمل به فخذ جميع سنى الهجرة من أولها مع السنة التى تريد معرفة أول شهرها ومواسمها فتسقط ذلك كله مائتين وعشرة مائتين وعشرة إلى أن يبقى أقل من مائتين وعشرة فتنظر فى جدول الأعداد فى بيوت العشرات وفى بيوت الآحاد بجانب الجدول من يمينه طولا فيه العشرات وأعلى الجدول فيه الآحاد ، فالآحاد من الواحد إلى العشرة ، والعشرات إلى المائتين وعشرة فتنظر إلى [illegible]ار الباقى بعد إسقاط عشراته فى العشرات وآحاده فى الآحاد فتوضع أصبع على البيت الذى فيه تلك العشرات وأصبع على البيت الذى فيه ذلك العدد من الآحاد ثم تمر الأصبع فى السطر الذى بإزاء تلك العشرة عرضا وتنزل الأصبع فى السطر الذى تحت ذلك العدد من الآحاد طولا فحيث التقت الأصبعان فى بيت واحد ينظر ما فى ذلك البيت من الأسماء والصفات السلطانية فيحفظ ثم ينظر فى الجدول المعمول للشهور ويعتبر أعلاه فينظر ذلك الإسم والصفة المحفوظة فاذا ظهر فى على الجدول فتوضع الأصبع عليه ثم ينزل فى السطر الذى تحته إلى محاذاة للموسم أو الشهر المطلوب معرفة أوله إن كان شهرا أى يوم هو أوإن كان موسما فما كان فى محاذاته فهو المطلوب واعتبار، ذلك أنه إذا أريد معرفة شعبان من سنة أربع وأربعين وستمائة ومعرفة ليلة نصفه ومعرفة أول شهر رمضان فتسقط سنوات الهجرة مائتين وعشرة مائتين وعشرة فتسقط ستمائة وثلاثون ويبقى أربعة عشر فبقى فى الآحاد أربعة وفى العشرات عشرة واحدة ، فإذا وضعت أصبعا على العشرة الواحدة ثم مررت فى الوسط الموازى لها ووضعت أصبعا على الأربعة ثم نزلت إلى محاذاة العشرة الواحدة التقت الأصبعان فى بيت واحد فيه الإسم الكريم السلطانى نصره الله وهو يوسف فيحفظ لازال فى حفظ الله جل وعلا ثم ينظر جدول الأشهر فيوجد الاسم الكريم المحفوظ فى الطرف الأيسر من السطر الأعلى منه فتوضع الأصبع بازائه وتنزل إلى محاذاة شهر شعبان فيوجد فى محاذاة اسم أوله وهو يوم الأربعاء، ومحاذاة نصفه تحته يوم الأربعاء ومحاذاة أول رمضان تحته يوم الخميس ومحاذاة أول شوال تحته وهو يوم العيد يوم السبت وهكذا طريق العمل به دائما (انظر الجدول المذكور فى الصفحة التالية والتى بعدها).

الأعداد أحاد وعشرات	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
عشرة	خدمة	الناصر	الولي	يوسف	الملك	خدمة	[illegible]	السلطان	يوسف	الناصر
عشرين	الولي	يوسف	الملك	خدمة	[illegible]	السلطان	يوسف	الناصر	الولي	[illegible]
ثلاثين	الملك	خدمة	[illegible]	السلطان	يوسف	الناصر	الولي	[illegible]	الملك	خدمة
أربعين	[illegible]	السلطان	يوسف	الناصر	الولي	[illegible]	السلطان	خدمة	الناصر	السلطان
خمسين	يوسف	الناصر	الولي	[illegible]	الملك	خدمة	الناصر	السلطان	يوسف	الناصر
ستين	الولي	[illegible]	الملك	خدمة	الناصر	السلطان	يوسف	الملك	الولي	[illegible]
سبعين	السلطان	خدمة	الناصر	السلطان	يوسف	الملك	الولي	[illegible]	السلطان	خدمة
ثمانين	الناصر	السلطان	يوسف	الملك	الولي	يوسف	السلطان	خدمة	الناصر	السلطان
تسعين	يوسف	الملك	الولي	[illegible]	السلطان	خدمة	الناصر	الولي	يوسف	الملك
مائة	الولي	[illegible]	السلطان	خدمة	الناصر	الولي	يوسف	الملك	خدمة	[illegible]
مائة وعشرة	السلطان	خدمة	الناصر	الولي	يوسف	الملك	خدمة	[illegible]	الملك	خدمة
مائة وعشرين	الناصر	الولي	يوسف	الناصر	خدمة	[illegible]	السلطان	يوسف	الناصر	الولي
مائة وثلاثين	يوسف	الملك	خدمة	[illegible]	السلطان	يوسف	الناصر	الولي	[illegible]	الملك
مائة وأربعين	خدمة	[illegible]	السلطان	يوسف	الناصر	الولي	[illegible]	الملك	خدمة	[illegible]
مائة وخمسين	السلطان	يوسف	الملك	الولي	[illegible]	الملك	حدمة	[illegible]	السلطان	يوسف
مائة وستين	الناصر	الولي	[illegible]	الملك	خدمة	الناصر	السلطان	يوسف	الملك	الولي
مائة وسبعين	[illegible]	الملك	خدمة	الناصر	السلطان	يوسف	الملك	الولي	[illegible]	الملك
مائة وثمانين	خدمة	الناصر	السلطان	يوسف	الملك	الولي	[illegible]	السلطان	خدمة	الناصر
مائة وتسعين	السلطان	يوسف	الملك	الولي	[illegible]	السلطان	خدمة	الناصر	الولي	يوسف
مائتين	الملك	الولي	يوسف	السلطان	خدمة	الناصر	الولي	يوسف	الملك	الولي
مائتين وعشرة	[illegible]	السلطان	خدمة	النا	الولي	يوسف	الملك	الولي	[illegible]	السلطان

أسماء الشهور	خدمة	المولى	السلطان	الملك	الناصر	صلاح الدين	يوسف
المحرم	الاحد	الاثنين	الثلاثاء	الاربعاء	الخميس	الجمعة	السبت
عاشوراء	الثلاثاء	الاربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الاحد	الاثنين
صفر	الاثنين	الثلاثاء	الاربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الاحد
ربيع أول	الاربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الاحد	الاثنين	الثلاثاء
ربيع آخر	الجمعة	السبت	الاحد	الاثنين	الثلاثاء	الاربعاء	الخميس
جمادى الاولى	السبت	الاحد	الاثنين	الثلاثاء	الاربعاء	الخميس	الجمعة
جمادى الآخرة	الاثنين	الثلاثاء	الاربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الاحد
رجب	الثلاثاء	الاربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الاحد	الاثنين
شعبان	الخميس	الجمعة	السبت	الاحد	الاثنين	الثلاثاء	الاربعاء
النصف	الخميس	الجمعة	السبت	الاحد	الاثنين	الثلاثاء	الاربعاء
رمضان	الجمعة	السبت	الاحد	الاثنين	الثلاثاء	الاربعاء	الخميس
شوال	الاحد	الاثنين	الثلاثاء	الاربعاء	الخميس	الجمعة	السبت
ذو القعدة	الاثنين	الثلاثاء	الاربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الاحد
ذو الحجة	الاربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الاحد	الاثنين	الثلاثاء
الوقفة	الخميس	الجمعة	السبت	الاحد	الاثنين	الثلاثاء	الاربعاء
عيد الاضحى	الجمعة	السبت	الاحد	الاثنين	الثلاثاء	الاربعاء	الخميس

العلم هو أعلى السعادات لنوع الإنسان

هو العلم الذى أرانا أن :

(١) السنين الكبيسة والسنين البسيطة دوائر منتظمات متعاقبات كدوائر الشعر والموسيقى ونغمات الطيور ، وأن نغمات الطيور تسير على دوائر كما تقدم فى الدائرة الأولى من دوائر الخليل .

(٢) التى فيها بحر الطويل المماثل .

(٣) لصياح الفاختة .

(٤) ولنظيره من الذى يسمونه اللاخورى فى علم الموسيقى .

(٥) ومن دوائر الكسوف والخسوف من حيث مواعيد وقوعها كالتى قبلها .

(٦) ويتبع ذلك أن القمر وجوها تتكرر كل شهر فهى إذن أشبه ببحر من الشعر ذى أوزان تتكرر فى كل سنة (٩٦) مرة .

(٧) وهكذا دوائر الكواكب المعروفة ومنها (الكوكب الجديد السيار) فكلها تتم دائرتها ثم تعود كما يفعل الشاعر فى شعره والمغنى فى غنائه . إن الله عز وجل يفعل فى فلك من سير الكوكب وحسابه مايفعله الشاعر والموسيقى ، وفعل الله فى نظام العناصر وفعل الانسان والطير فى نظام الحروف والنتيجة تتبع المقدمات اه .

بهجة العلوم فى هذا المقام

(كتب قبيل الفجر ليلة الخميس ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٠)

اعلم أن النعم فى هذه الحياة الدنيا إما مادية وإما معنوية ، فالمادية كالمآكل والملابس وكل مايملكه الإنسان ، والمعنوية كالعلوم والمعارف ، ومنها علم الفلك وبقية الرياضيات والطبيعيات وهكذا . ولا تخلو حال المنعم عليه من واحدة من ثلاث خصال : إما أن يكون من العامة ، وإما أن يكون من الخاصة ، وإما أن يكون من خاصة الخاصة . فإن كان من العامة فهذا تكون سعادته بالنعمة وقتية وفرحه بها فرح زائل فيكتفى من المآكل بمناظرها والاستلذاذ بطعمها والافتخار بحوز الفاكهة والحلوى ومفاخر الأطعمة وأن يذكر الناس أنه غنى ذو مال كثير وهكذا فى ملابسه وكل مايملكه من عقار ونضار وخيل وأنعام وصيت وذكر ، ودولة وإن كان من الخاصة فهذا لايعنيه من المآكل إلا مابه يصح جسمه ولا من الملابس إلا مايليق له وهكذا فهذا ينظر المنافع فى حد ذاتها ويضرب بظواهر اللذات عرض الحائط وهكذا فى كل مايملك فهو لايبالى إلا بحفظ نفسه وإسعاد أمته والتعاون والتحاب بالهدايا والتحف للأهل والإخوان . ولا يكتفى من علم الفلك بحساب السنين والشهور من حيث ظواهرها كالفريق الأول . ولا فى علم الموسيقى بظواهر النغمات التى يتسلى بها العامة والجهلاء كذلك بل يتعمق فى النظر وينتقل من النغمات المسموعات ومن ظواهر حساب السنين والشهور إلى أسباب ذلك من تلك النسب البديعة وأنواع الحساب الدقيقة ويعجب من دقتها ونظامها ونظام كل حساب فى علم الكيمياء والطبيعة ونظام الأجسام الحيوانية وحسن اتساقها . فهناك يرى نظاما واحدا ثابتا لاخلل فيه فهذه موسيقى علمية يطرب بها طربا لانهاية له ، فإن فكر فى الأفلاك أو فى الأجسام الحيوانية

أو تركيب الهواء والماء، رأى نظاما واحدا يرجع كله إلى النسبة والتناسب ، وهذه النسب كلها متشابهات لافرق فيها بين نغمات الطيور وأشعار الشعراء وسير النجوم وحساب سنيها . ولن يعرف ذلك حق معرفته أحد إلا من درس جميع هذه العلوم بجدّ وشوق أو اطلع على هذا التفسير أو أكثره فهو مشحون بهذه العجائب ؛ مثلا بحر المتقارب فى علم الشعر الذى تقدم وزنه فعول ثمان مرات . ومعنى هذا أنه هكذا : ثلاث متحركات وساكنان ثمان مرات (وبعبارة أخرى) نسبة (٣) إلى (٢) كنسبة (٦) إلى (٤) كنسبة (٩) إلى (٦) كنسبة (١٢) إلى (٨) كنسبة (١٥) إلى (١٠) إلى آخره ، وحاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسطين ، فإذا نسبت ثمن البيت إلى البيت كله كان هكذا : نسبة (٣) إلى (٢) كنسبة (٢٤) إلى (١٦) وضرب (٣) فى (١٦) يساوى (٤٨) وضرب (٢) فى (٢٤) يساوى (٤٨) وضرب (٢) فى (٢٤) يساوى (٤٨) وعلى هذا أبدا فقس . هكذا إذا أتيت ببحر الطويل وهو فى الدائرة الأولى ونسبت ربع البيت إلى البيت كله كان هكذا نسبة (٧) متحركات إلى (٥) سواكن وهى (فعولن مفاعيلن) كنسبة (٢٨) إلى (٢٠) وضرب (٥) فى (٢٨) يساوى ضرب (٧) فى (٢٠) ولاجرم أن نفس هذا البحر كما تقدم هو ضرب من ضروب الموسيقى وهو المسمى الماخورى فالحساب واحد وهو نفسه صوت الفاختة . إذن أصبح الشعر والموسيقى ونغمات الطيور علما واحدا وبضمها إلى علم الفلك تصبح كلها نسبا متحدة وهذا لايصعب عليك بعد ماقدمناه لأنك إذا نسبت السنين الكبيسة إلى السنين البسيطة فى الأدوار الصغيرة المتقدمة ترجع فى نهاياتها إلى مارأيت من الشعر والموسيقى ونغمات الطيور فإنك تقول نسبة (١١) إلى (١٩) كنسبة (٢٢) إلى (٣٨) وهكذا إلى مالانهاية له ، ولا جرم أن حاصل ضرب (١٩) فى (٢٢) يساوى حاصل ضرب (١١) فى (٣٨) وعلى هذا فقس فى جميع العلوم . وإذا نظر الحكيم إلى علوم الطبيعة ولواحقها يجد أمورا عجيبة طبيعية فانه يجد الحديد مثلا والمغنسيوم والجير والكبريت هذه الأربعة كلها لها منافع فى جسم الانسان ، فالحديد يجعل الدم أحمر ويمنع فقر الدم ، والمغنسيوم يقوى العضل ويمنع الفتق ، والجير يغذى العظم ويشفى الجروح ، والكبريت ينظف الدم ويمنع الروماتزم . ثم يجد أن النباتات قد فرّقت هذه العناصر عليها . ويجد أمثال السبانخ والطماطم التى تؤكل غير مطبوخة قد جمعت ذلك كله ففيها جميع هذه العناصر ومنافعها ، وتزيد السبانخ بأن فيها الفسفور الذى يغذى المخ كما يغذيه سمك البحر وفيها الكلورين الذى يعين على الهضم وينظف المعدة كما ينظفها الصابون وذلك بشرط ألا تطبخ أكثر من خمس دقائق كما تراه فى كتاب ويلكوكس الإنجليزى . فكما يرى فى العلوم الرياضية نسبا هندسية يرى نظيرها فى تراكيب الأجسام الطبيعية ويزيد عليها نظام منافعها وعجائب إبداعها فيدهشه الاتقان المحكم ويعجب من حديد ومغنسيوم وجير قد فرقت فى الأرض ووضعت ولها نظام خاص تقدم شرحه فى (سورة العنكبوت) فهناك جدول عجيب لجميع العناصر . ثم يرى أنها لاينتفع بها الإنسان ولا الحيوان إلا بعد أن تمر على النبات فيرى أن النباتات التقطت تلك العناصر فأدخلتها فى جسمها وانتقلت منها إلى مخ الانسان وإلى عظمه وإلى عضلاته ، فهنالك يدخل فى بحر لجى لا ساحل له .

هذه هى آراء الخواص . أما آراء خواص الخواص وهى أعلى طبقات هذا النوع الإنسانى فهؤلاء بعد أن يقاسوا مايقاسون من الشاق فى الحياة والعمل لها ولرق النوع الإنسانى يرجعون إلى أساس تلك القوانين فتلمح نفوسهم أن وراءها حكمة وعلما ورحمة ورأفة وإبداعا وإتقانا وإحسان النقش والتصوير ، وأن هذا الحساب والنقش والتصوير وراءها حاسب مصور متقن وليس ذلك مجرد خواطر كما يخيل لمن يقرأ ما أكتبه الآن . كلا . بل يكون نسبة هذه العلوم إلى ماوراءها كنسبة هدية الملك إلى مجالسته والأنس به لمن أقبل

عليه الملك وجالسه أوفر حظا ممن أهدى إليه الهدايا ولم يره أهلا لمجالسته والأنس به «وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى» هذا إيضاح هذا المقام والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الخامسة

(فى قوله تعالى «سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون»)

وإنما أخرناها إلى هنا وإن ذكرت بين الكلام على الأرض والشمس لأنها نتائج السموات والأرض الله منزه عن المادة بل التحقيق أن لامادة فى هذا الوجود وماهو إلا حركات فى موجود سموه (الأثير) فالله تباعد عن المادة كما يبعد السابح فى البحر . ياعجبا الله منزه عن المادة ومن شأن الجميل ألا يصدر منه إلا ماهو جميل . لذلك لم تكن هناك مادة غليظة . كلا . بل ذلك الأثير . وما هو الأثير ؟ ياليت شعرى : هو أمر يشبه الأمور الروحية فرضه العلماء فى عصرنا أو هو كالذى نحس به فى خيالنا من أمر موجود ألطف من المادة .

العلم الآن وفيما مضى عند القدماء قد نفى المادة بتاتا وقال . (ليست هذه الأرض ولا الماء ولا الهواء ولا النجوم ولا المجموعة الشمسية ولا المجرة ولا المجرات الأخرى ولا السدم التى كشفت حديثا فى عصرنا إلا حركات فى ذلك الأثير . وبعبارة أخرى : إن هناك نقطا ضوئية وتلك النقط الضوئية ناجمة من كهرباء سالبة وأخرى موجبة يدور سالبها حول موجبها فى الثانية الواحدة نحو ستة آلاف مليون مليون مرة فتظهر تلك النقط كأنها شجر وحجر وجبل وجمل وتختلف المظاهر باختلاف عدد الدورات فى الثانية الواحدة . وهذا الموضوع ظاهر ظهورا بينا فى (سورة النور) عند آية (الله نور السموات والأرض» إذ ظهر هناك أن نقطة الماء مركبة من جواهر نحو عدد نجوم السماء المعروفة الآن وكلها مركبات من تلك الأضواء الكهربائية الدائرة حول بعضها .

فالله لما تنزه عن المادة لم يشأ أن يجعل لها حقيقة ما بل جعل لها (طرفين : أحدهما) من جهة الحقيقة الثابتة فلم يكن إلا النور والحركات (وثانيهما) من جهة حواسنا نحن فكانت تلك الأنوار والكهرباء حديدا وأشجارا وجبالا الخ. يقول الله «سبحان الذى خلق الأزواج كلها» وذكر منها نبات الأرض وأنفسنا ومالانعلم إذن هنا ثلاثة مباحث : النبات، ونفس الانسان ، ومالا نعلم. فالذى خلق هذه الأقسام الثلاثة حقيق بالتنزيه والتقديس . وإنما كان خليقا بذلك لأن من ظهرت براعته من الناس فى صنعة ماسواء أكانت يدوية أو عقلية كان حقيقا بالإعظام والإجلال ، والعظيم الجليل ليس مشرعة لكل وارد ولا يرد عليه إلا الواحد بعد الواحد لحكمته وعلمه وبراعته فى الصناعة .

هذا كله فى المخلوق البارع بديع الصنعة . المخلوق الذى ظهرت براعته فى الصناعة من الناس تشتاق إليه النفوس وتحن له القلوب ولكن لاتهجم عليه الجماهير ولايرونه حتى ولو بالمجاهر والمناظير لأنهم لايصلون إليه وإليك حادثة قصها المستر (انسل) الذى كان سكرتيرا للمستر (اديسون) الذى بهر العالم الإنسانى كله بما اخترعه من الفونوغراف وهو (الصدى) أى الذى يسمعنا الصوت الذى مرت عليه السنون وقد ملأ الأصقاع واخترع جهاز الصور المتحركة ، وطريقة لاستخلاص الذهب من الخام بسرعة ، وطريقة لتبديد الثلج المتساقط فى المدن بسرعة ، والمولد الكهربائى الذى يدور باحتراق الفحم والمحرك الكهربائى الذى يدور بالكهرباء

الحرارية المتولدة من تعاقب الحرارة والبرودة ، وجهازا لتقدير مراتب الحديد (خواصه من حيث الجودة) والدليل الكهربائي (جلفانو متر) بلا ملف أو إبرة . وجهازا لقياس درجات الروائح . وإدخال تحسينات كبيرة على مطاحن الأسمنت ، وطرقا فنية لمعالجة خامات الذهب والنيكل والنحاس . وثلاث طرق لإحداث موجات فوق موجات الأشعة فوق البنفسجية . وطرقا كثيرة لتغطية سطح خويطات المصابيح الكهربائية بطبقات من السليكوز أو الكروميوم أو غيرهما وآلة موسيقية تحرك الأوتار الصوتية في حناجر هلهولتز الصناعية . وثلاث نماذج مختلفة من التماثيل الصناعية . ومسبارا كهربائيا لاثبات أعماق المحيطات باستمرار وجهازا لقياس مقدار مقاومة الأنابيب الكلام . وطريقة لإرسال الصوت في اتجاه مستقيم من غير أن ينتشر في الطريق . وطريقة للتبلكس في التلغراف أي إرسال جملة إشارات معا في آن واحد على سلك واحد . والتلغراف الطابع . وجهاز تقوية الصوت في التليفونات . وتوزيع القوة الكهربائية بطريق الثلاثة الأسلاك الأرضية الخ .

وهكذا قد قدم لمكتب التسجيل بأمريكا (١٤٠٠) طلب لاختراع أو تحسين . هذا هو المستر اديسون الذي ذكرنا صناعاته لنبين مقدار إعظام الناس له في قصة (المستر انسل) صاحب سره . وإنما نذكر تلك القصة كما ذكرنا بعض صناعاته لتعرف بعض سر التعبير بالتسبيح في حيز الكلام على النبات وخلق الأنفس الذين سيظهر لك إبداع الله وإتقانه فيهما بما يدهش العقل ويحير اللب . ومن ذلك ينشأ التسبيح والإعظام بالقلب لا بمجرد اللسان فالاقتصار عليه تسبيح الجاهلين ، المستر اديسن رجل صانع ماهر خدم كل أمة وكل فرد والمسلمون وغير المسلمين مدينون له . فهم يعظمونه ويجلونه ولكنهم لم يروه بل الذين حوله في أمريكا لا يستطيعون رؤيته حتى إن (المستر انسل) الذي سقنا هذا الحديث لأجله وقلنا إنه صاحب سره يقول : إن اديسون يتساوى عنده الليل والنهار فهو دائما يعمل وكنت كثيرا ما أذهب إليه في المعمل أو المصنع بالليل حيث كنت أقضي النهار بنيويورك للقيام ببعض الأعمال وقد كان يتصادف أني لا أستطيع مقابلته لفرط انهماكه في العمل إلا عندما يتناول الطعام في منتصف الليل فأنتهز الفرصة وأعرض عليه بعض المسائل وأسئلة البريد فيطلع عليه في دقائق معدودة ثم يشير علي بما أتبعه ويعود هو للعمل .

هذا هو (اديسن) المخترع الشهير لا يقابل الناس لأنه يقوم بشئونهم ويرفع من قدر الانسانية . تباعد عنهم لا عزازهم وإسعادهم والناس أعظموه . هكذا كل صانع وعالم في الأرض يعظم عند الناس بمقدار عمله وحكمته ، عرف الناس مقدار العظمة عند علمائهم وصناعهم وحكمائهم وأنبيائهم فأجلوا قدرهم لأنهم مخلوقون مثلهم وكلما كان عمل الصانع أجدى نفعا وأوسع فضلا كانت النفوس له أشوق وعظمته أبعد مدى والاعظام والحب يتبعان معرفة قدر الصنعة والعلم والابداع والاختراع وهذا في المخلوق . وعلى هذا القياس يكون التعظيم والاجلال لخالق هذا العالم . والحكماء والأنبياء لهم منازل على مقدار معرفة إبداع الله وإتقانه . ولا سبيل لمعرفة ذلك إلا بقراءة جميع العلوم سماوية وأرضية . روحية وجسمية . ولم يذكر في هذه الآية منها إلا خلق النبات وخلق الأنفس وما لا نعلم والذي لا نعلمه يقاس على ما نعلمه . فاذا عرفنا نظام النبات ونظام الأنفس الإنسانية وبدائع التركيب وجمال الصنعة كان تقديسنا وإجلالنا للمبدع الحكيم لا نسبة بينه وبين إجلال الناس لاديسون إلا كنسبة نظام صنعته إلى نظام صنعة هذا المخلوق . ولا ريب أن العقول الكبيرة في العالم هي التي تدرك تلك الحقائق العالية في الإبداع ويكون عشقها وحبها وسعادتها القلبية بمقدار ما أدركت من تلك الحكم العالية . ومعلوم أننا في الدنيا لا ندرك منها إلا النزر اليسير وبهذا النزر اليسير يكون تسبيحنا الحقيق وحبنا الإلهي «وفوق كل ذي علم عليم» .

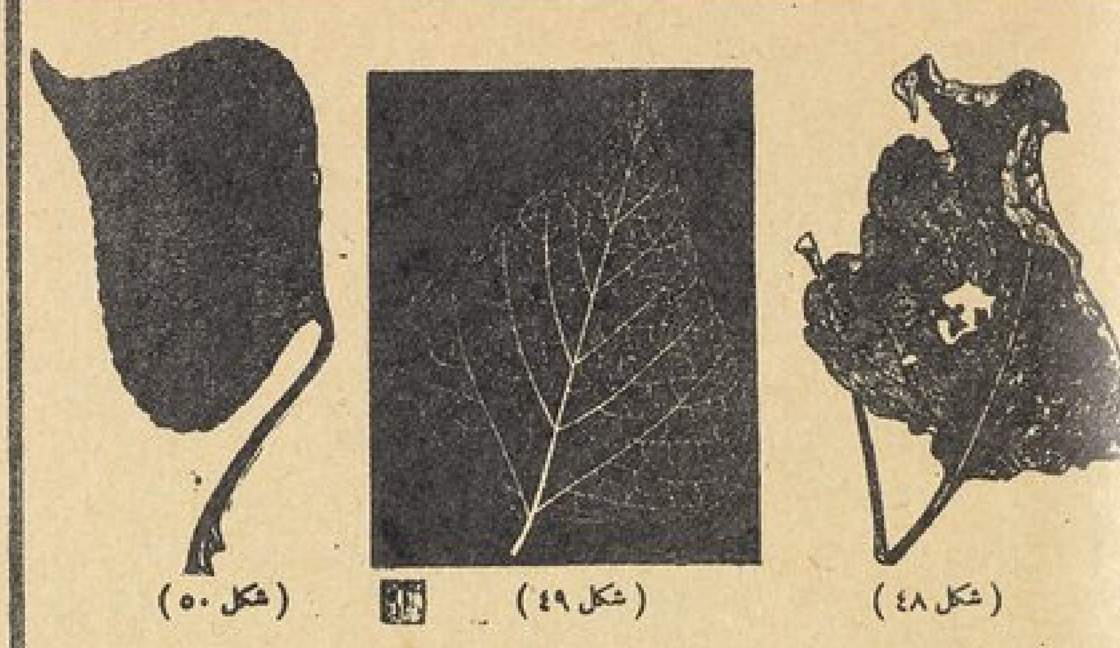
فهل تحب أيها الذكى أن أحدثك فى هـذا المقام (حديثين) حديثا عن خلق النبات . وحديثا عن خلق الإنسان .

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى المسائل الهامة فقرأ هذا وقال هذا حسن وإن كان الإنسان فى بادىء الأمر قبل الفهم يظن أن بعض القول يشبه الخروج عن الموضوع وفى الحقيقة كله فى الموضوع ، اللهم إلا أن أكثر تلك الصناعات المخترعات لايفهمها أكثر القراء لأنها أمور فنية لايدركونها ولكن فى ذكرها تنوير المسلمين فيفكرون فيما ينفعهم عسى أن يفتح الله لهم باب الاختراع وكفى الفهم الاجمالى لتلك الاختراعات. ولكن ماذا تريد من شرح النبات والأنفس الانسانية فى هذا المقام هذا الكتاب تقدم فيه مافيه غنى للمستبصر فى علم النفس وفى علم النبات ، ففى سورة الحجر قد رسمت الأزهار المختلفة وشرحت كيفية إلقاحها وبينت الحساب الرياضى فى أوراقها بجداول ، وفى سورة الشعراء كذلك وفى سورة طه أمور أعجب وفى سورة السجدة وهكذا وفى سورة البقرة والأنعام والرعد وغيرها ، فهل هذا كتاب فى علم النبات ، فأما علم النفس وتشريح الجسم فهو كثير فى الكتاب ، فماذا تريد أن تكتب الآن ؟ فقلت الذى أكتبه الآن شىء لم يتقدم له نظير وهو السحر الحلال والجمال والبهجة والحكمة ، فسأريك الساعة مالم تره لتعلم قوله تعالى « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ثم قلت : أنا لا أريك زهرة ولا شجرة ولا حديقة ولا حقلا ولا ثمرا ، ولكن سأريك أمرا لايؤبه له ، يحقره الجاهل والعالم ولكن بعد درسه الذى تراه يصبح ذلك الحقير فى عظمة الشموس والأقمار والنجوم الثوابت والمجرات العظيمة .

فقال : لقد شاقنى وصفك ، فما هو هذا ؟ قلت : ورقة سقطت من شجرة والناس يزدرونها . فقال : ما السبب فى اختيارك الورقة ؟ قلت : السبب فيه أنى نظرت رسمها فى كتاب (علوم الجميع) باللغة الانجليزية ومقالا شرحها ، وهاك ترجمة ذلك المقال بقلم المستر (روبرت براون) الأستاذ فى علوم النبات الخ تحت عنوان (الورقة الساقطة) قال :

إن الصيف هو الزمان الذى يجنى فيه علماء النبات ثمرات علومهم ، وليس الخريف خاليا من مسراتهم وإسعادهم بالعلم ، إنه هو الفصل الذى فيه تعقد الحبوب وتجنى الثمرات الخ وتنضج الحبوب قبل فصل الشتاء الذى هو فى أقطارنا الشمالية يضعف قوة الحياة ونشاطها إلى نهايتها . وبالجملة إن أشهر الخريف هى التى فيها تسقط الأوراق . إن الغابات ذوات الأشجار العريضة الأوراق المختلفات الأنواع والأجناس فى هذا الفصل تكون أبهج للناظرين وأسحر لعقول المفكرين منها ، فى منتصف فصل الصيف حيث يصنع الناس الدريس ، اعتاد الناس أن يروا فى شهر يونيو ما لاحصر له من المساحات الواسعة الدهامات وهى غضة بهجة تسر الناظرين ، أما فى شهر سبتمبر وأكتوبر فان تلك الغابات تتلون بألوان مختلفات الأصفر والأحمر والأسمر وهكذا مما يشعر بدنو أجل تلك الأوراق وتودعها الحياة . إن الأشجار إذ ذاك تخلع حللها السندسية وجلابيبها البهية . وبعد حين تلبس أخرى مسرة الناظرين . وهاهنا رسم الكاتب ثلاث ورقات (انظر الأشكال الآتية)

(شكل



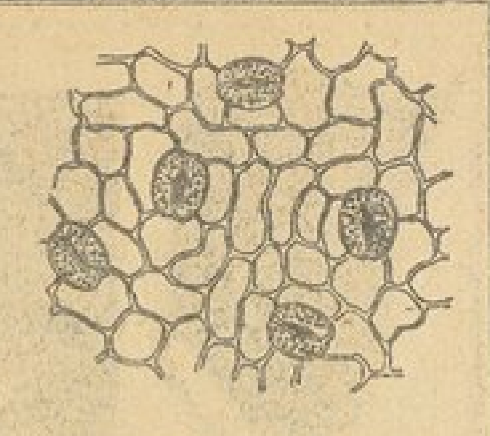
(شكل ٤٨)　　(شكل ٤٩)　　(شكل ٥٠)

(ب) الورقة الذابلة الجافة　　(ج) هيكل الورقة　　(ا) الورقة الخضراء التي لايزال فيها ماء الحياة

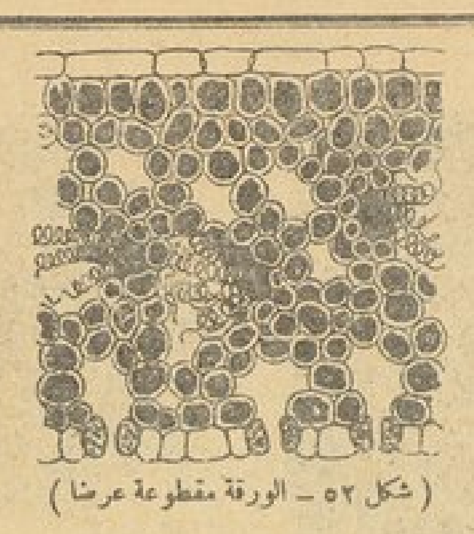
فورقة (ا) خضراء لا تزال تترقرق بماء الحياة، لقد انتزعناها من شجرة الحور . وورقة (ب) قد أصبحت مصفرة ذاوية وقد فارقت الحياة. والورقة (ج) لنفس هذا الشجر ولكن المادة التي تملأ مابين خلل العروق في الورقة قد تعرت عنها وزايلتها ولم يبق إلا الهيكل الذي يقول :

ألا ليت الحياة تعود يوما　　فأخبرها بما فعل الممات

وهنا أخذ يصف الورقة فأبان أن هيكلها حافظ لشكلها الأصلي . ثم قال : (إن هذه الورقة الخضراء مدورة قليلا أو كثيرا في هيئة رسمها شأن جميع الأوراق والطول يزيد كثيرا عن العرض وهي دقيقة الطرف حادته وهذه هي هيئة المثلث الذي لا إتقان فيه وتأملها تجد في وسطها مايشبه العمود الفقري في الحيوان وقد تشعبت منه في الجهتين أضلاع وكل منها ذو فرعات أخرى يتخللها جميعها مادة ناعمة تقوم مقام اللحم في هيكل الحيوان بحيث يظهر كل ذلك بهيئة شبكة منسوجة جزأت الورقة أدق الأجزاء وأصغرها . ولقد غطى كل ذلك بغطاء دقيق إذا عومل بإبرة مع رفق واحتراس إذن ينقسم أقساما في غاية الدقة . وفوق كل ذلك أننا نرى ظهر هذه الورقة (وكل ورقة أخرى من أي نبات كانت) أوضح لونا من وجهها الذي يقابل السماء ونرى أيضا أن الأسفل ليس في النعومة كالأعلى . إن كل ماذكرناه هنا قد عرفناه بمجرد العين ولو لم نستعن فيه بآلة بصرية كما هو ظاهر . ولما كانت آلة الإبصار الصناعية المسماة بالمكرسكوب ممكنة الشراء لجميع الناس تقريبا لرخص ثمنها أمكننا أن نستعين بها في تحقيق امتحاننا في هذا المقام لنزل بالإبرة مع الاحتراس قطعة صغيرة من غطاء أو جلد الوجه الأسفل الورقة ولنضعها بكل احتراس على قطعة من الزجاج تحت المكرسكوب . أتدرى ماذا يحصل بعد ذلك ؟ يكون هذا الشكل الذي تراه أمامك الآن (انظر شكل ٥١) .



(شكل ٥١ ـ قطعة من ظاهر الورقة ترى فتحاتها وهى الأفواه)



(شكل ٥٢ ـ الورقة مقطوعة عرضا)

وليست الفتحات شيئا سوى أفواه جلد الورقة أو منافذها ، وهذه الفتحات عامة فى جميع أجزاء النبات الخضراء المكسوة بهذا الجلد أو بهذا الغطاء وتكون أيضا فى أوراق الأزهار ولكنها أكثر جدا (فى الأوراق لاسيا الوجه الأسفل منها) من أى جزء من ظاهر النبات وتختلف أعدادها قلة وكثرة بحسب اختلاف أنواع النبات ، ثم إن هذه المنافذ أو الأفواه التى رأيتها فى جلد الورقة الآن موصلات إلى حجرات صغيرات مكونات من مادة ناعمة خضراء من الورقة وهن موصلات إلى منافذ الهواء التى تراها الآن فى داخل المادة المرسومة فى هذا الشكل (انظر شكل ٥٢) .

أتدرى ما عدد الأفواه التى ذكرناها فى الورقة ؟ إنها قد تكون فى البوصة الواحدة المربعة عدد (١٢) وقد تكون (٢٤) وتزيد حتى تصل إلى (١٦٠٫٠٠٠) وقد يكون ذلك فى ورق الشجيرات الصغيرات اللاتى تشبه النجم أى ما ليس بشجر بمقدار (٧٠٨٫٧٥٠) فى البوصة المربعة أيضا بينما كان عددها فى ورقة شجر (السكلس) مليونا وثلاثا وخمسين ألفا (١٫٠٥٣٫٠٠٠) .

﴿ وصف المادة التى فى داخل الورقة ﴾

ليس من السهل امتحان المادة التى فى داخل الورقة ولكننا إذا فصلنا قطعة من جرمها اللحمى الذى تخللته تلك الشبكة رأينا تحت المكروسكوب (المنظار المعظم) منظرا كالذى استحضرناه وأريناكه فيما تقدم .

إننا هنا نلاحظ أن بين وجهى الورقة من أعلاها ومن أسفلها مادة خضراء قد جعلت بهيئة مثانة مدورة كما ترى وما هى هذه إذن ، هى المسماة بالخلايا جمع خلية فى اصطلاح علماء النبات وكل خلية من هذه التى أمامك تحتوى على مادة خضراء عائمة فى مادة سائلة وهذه المادة السائلة تسمى (خضرة الورقة) وإذا أردت اسما أطول من هذا قلنا لك (كلوروفيل) كما هو اصطلاح علماء النبات ويحيط بهذه المادة المشرقة حيطان شفافة يعلوها سقف مرفوع ، وما أشبه المادة الخضراء بين السقف والحيطان الأربعة إلا بسراج ذى لون أخضر أضاء على هذا السقف فظهرت الورقة بلون الخضرة البديع إذ الجلد أو الغطاء ليس فيه مادة خضراء وإن كان من نفس مادة الخلية وليس يحوى غير الهواء وهو مركب من ذرات صغيرات شبيهات باللبنات التى تبنى بها الحيطان فى منازلنا وقد وضعت وضعا محكما بهيئة منتظمة كل واحدة بجانب الأخرى لا يتخللها غير الهواء . إن الشبكة المنسوجة من الفروع الدقيقة مما يشبه العمود الفقرى فى الإنسان

فى وسط الورقة تمتد فى وسط الخلايا فتتخلل كل مسافة فارغة فتحشوها وتكون لها كأنها قوالب أو هياكل تحفظها .

إن هذا الامتحان السريع الذى لم نتعمق فيه فيما يشبه العمود الفقرى وفروعه قد يكون كافيا ولكننا نريد أن نزيد عليه ما هو أجمل وأ كمل ، ذلك أن هذه الفروع إن هى إلا حزم من الأنابيب مجتمعات أو أوان وضعت بجانب بعضها وربطت معا ، وهذه الأنابيب وظيفتها أنها تحمل المواد المغذية من الساق إلى الأوراق . أفلا يحق لنا الآن أن نسمى تلك الأنابيب بالعروق لأنها أشبهت فى إيصال التغذية عروق الحيوان .

هانحن أولاء أتينا على عجالة فى تركيب الورقة من علم النبات ، وما هذه العجالة إلا رسالة صغيرة وضعت لإيضاح ما نحن فيه ، وقد اضطررنا أن نعجل فيها لأن ذلك كاف فى مقصودنا . فنحن فى الأسطر القليلة المقبلة نوضح هذه المسألة بتجربة كيمائية يعرف بها الفرق بين الغازين غاز الأكسوجين وغاز الكربونيك أى حامض الكربون فنقول :

لنضع ورقة (الحور) التى قطعناها حديثا فى إناء من الزجاج واسع الفم ثم لنغمرها بالماء ولنعرضها لضوء الشمس الوهاج ، فماذا نجد إذن ، نجد هناك فقاقيع من الماء أخذت تطفو على وجهه . هذا فى النهار . أما فى الليل فانا نجد فقاقيع مثلها كذلك خرجت من ذلك الماء . فهاهنا (أمران) إما أن نكون من علماء الكيمياء فانا نعلم علم اليقين أن الغاز الذى ظهر بالفقاقيع ليلا غير الغاز الذى خرج بالفقاقيع نهارا . فأما إذا لم نكن كذلك فعلينا أن نسأل أهل الذكر بهذا العلم ومن هؤلاء إلا علماء الكيمياء ، فهؤلاء يقولون لنا إن الغاز الأول هو الأكسجين والغاز الثانى هو غاز حمض الكربونيك ، فالأكسوجين به حياة الحيوان وغاز الكربونيك هو الذى يخرج منه بالزفير لأنه يميت له ، والأكسوجين إذا سلطت شرارة نار فى قطعة خشب صغيرة أمدها وقواها فأخذت تسرى فى جرم الخشب فتصيره لهبا ، فهو إذن حياة الحيوان وموقد النار فإذا وضعنا هذه القطعة الخشبية قبل أن يتم إشعالها فى إناء فيه غاز الكربونيك انطفأت النار حالا . إن غاز الكربونيك يخرج من البراكين بمقادير عظيمة ، ومن أجواف الحيوان بواسطة الزفير ، ومن المصانع المعروفة وهو الذى يتبخر فى الجو من النباتات التى أخذت تتحل أجزاؤها وتفسد هياكلها إذا لحقها الردى وحل بها الهلاك ، إن مقادير غاز حامض الكربونيك فى الجو قليلة ولا نسبة بينه وبين الهواء الجوى إلا كنسبة واحد إلى ألف ألف ، وليس فى الجو من الفحم الصافى إلا (١٣٨،٦١٦،٠٧٥،٨٩٢) طنا والطن حوالى (٢٢) قنطارا والقنطار (٣٦) أقة وهذا القدار الطائر فى الهواء هو عينة من صنف فحم الكوك المسمى بالافرنجية (تيرلوك) وهو الفحم الرخيص الذى يجعله الناس فى مواقدهم للتدفئة ونحو ذلك ، فهذا القدار المذكور أحد جزءى ذلك الغاز وهو حامض الكربونيك لأن حامض الكربونيك مركب من جزء من الكربون (الفحم) وجزءين من الأكسوجين ، فالجزء المذكور هو الذى تقدم وزنه ، والاكسوجين يكون فى الهواء مقدار خمسه ، وإذا كان الهواء (على فرض أنه أصبح سائلا بالتبريد) يصير عشرة أمتار على الأرض وهو الآن فى حالة الغازية نحو (٦٠) كيلو مترا يكون حامض الكربونيك المذكور شيئا قليلا جدا لا يؤبه له فى كلتا الحالتين . إن النبات بتعرضه لضوء الشمس يمتص غاز الكربونيك من الجو بمساعدة الأوراق وكل جزء أخضر فى النبات فهنالك يمتصه النبات ويدور فيه دورته ، ولن يكون ذلك إلا بمساعدة ضوء الشمس أولا وتأييد المادة الخضراء فى الورق ثانيا ، وما الورق إذ ذاك إلا معامل صناعية كيمائية يحلل لنا ذلك الغاز فيها فيأخذ جرم النبات الكربون (الفحم) ليتغذى به ويقيم بنية هيكله ويدع الجزءين الآخرين من الأكسوجين

فيخرجان بالزفير كما دخلا بالشهيق . إذن بهذا نفهم أن ما رأيناه خرج بزفير الورق بهيئة فقاقيع فى الماء فى الاختبار المتقدم إنما كان أكسوجينا ، ولو أننا هنا وضعنا على الزجاجة قمعا من الفلين وغطيناها به لرأينا شرارة تتقد فى ذلك الإناء وقد تصير لهبا ، فأما فى الليل فان التجربة هى بعينها تفعل مثل ما تقدم ولكن النتيجة هنا عكس ما تقدم فهاهنا تمتص الورقة الاكسوجين وتدع الغاز يخرج منها بالزفير ولكن كميته قليلة جدا . وهاهنا بحث العلماء فى هذا الغاز من أين أتى ؟ أهو من غش الأكسوجين والكربون اللذين هما فى بنية النبات ، أم هو غاز من الذى امتصه النبات بالنهار ولم يتم امتصاصه فى بنيته ؟ هذان رأيان لم يبت فيهما العلماء .

وهاهنا يسأل سائل فيقول: إذا كان النبات هذا شأنه وأنه بالليل يخرج لنا غاز الكربونيك فإنه لاجرم يفسد الهواء .وأى فرق بينه وبين فحم الكوك (تشرلوك) إذا أوقدناه كلاهما يفسد الهواء . فلو أنا أوجدناه فى غرفة المقابلة أو الجلوس فإنه يضر الأحياء أو يقتلهم .

وهاهنا أجاب الكاتب قائلا : « إن هذا القول صحيح نظريا . فأما عند العمل فلا لأن النبات الذى يكون فى النافذة مهما كثر فإن زفيره بالحامض المذكور قليل جدا . بل إذا نام قارئ هذا الكتاب فى نفس ما زرع فيه النبات وحفظ فيه فلا خوف عليه من الاختناق . وكيف يستضر بهذا الغاز ونحن لا نجد فى ستة آلاف نباته مزروعة فى أوعية قد أحكم الغطاء عليها (١٢) ساعة مالا يزيد عن جزء واحد و ٣٩ فى المائة من (١٠٫٠٠٠) جزء .

قد قلنا فيما مضى إن الشهيق والزفير يكونان بواسطة الأفواه المرسومة فيما تقدم . ومثل ماقلنا فى النبات الشاهد فى الأرض نقول أيضا فى نبات الماء ، ولكن الامتصاص هنا يكون بجلد الورقة لا بالأفواه المتقدمة، ثم إن الاكسوجين الذى يمتصه ذلك النبات يدور فى بنيته ويتمثل فيه فيدخل أولا فى تلك الفتحات ويصل إلى تلك الخلايا ومن هناك يدور فى هيكل النبات كله واصلا إليه بطرق هوائية صغيرة أوقنوات تحت تلك الخلايا .

﴿ النبات زبال الهواء ﴾

ألست ترى أيها القارئ بعد هذا أن النبات زبال الهواء ، وكيف لا وهو الذى يأخذ منه المادة الضارة وهو حامض الكربونيك فيحولها فى داخل معمله إلى كربون صار يبقى فى بنيته لأنه يناسبها وإلى أكسوجين يرجعه ثانيا إلى الهواء فيصبح صالحا لتنفس الحيوان عوضا عن ذلك الغاز المضر به وعلى ذلك نقول إن الورق فى النبات يقوم بوظيفة الرئة فى الحيوانات العليا ، والخلايا التى فى الورق تقوم بوظيفة الخلايا التى فى الرئة ، وإنما ذكرنا الحيوانات العليا هنا فى التنظير لأن الحياة فى أدنى درجاتها يكون العضو فيها قائما بأعمال كثيرة . أما فى مراتب الحيوانات العليا فالأعمال موزعة توزيعا حسنا ، وذلك له نظير فى المدنية . فالأمم الراقية أعمالها موزعة توزيعا حسنا ، أما المنحطة فإن الفرد الواحد يعمل جملة أعمال فهناك يقل الاختصاص ونبوغ الأفراد .

﴿ ندى الأشجار ﴾

وهاهنا أفرد الكاتب فصلا شرح فيه الندى على الأشجار والنبات فأفاد أن الندى لم يكن من الجو وإنما هو عرق من هيكل النبات كعرق الإنسان ولذلك نشم من هذا الندى رائحة النبات الذى ظهر هو عليه كما نشم من عرق الإنسان رائحته هو سواء بسواء ، ومن الشجر ما يقطر ماء على هذا النمط . وقد مر فى بعض هذا التفسير ما هو أوفى من هذا فى الندى .

﴿ الورقة

﴿ الورقة شجرة مصغرة أو هيكل حيوان ﴾

فلنتجاوز ذلك إلى ما ذكره المؤلف بعده بنحو ورقة من الكلام على هيكل الورقة بييان أوضح وأجل قال : « فإذا تصورنا عظام الحيوان وأوعية دمه وتمثلت أمامنا هيكلا له فإننا نجد هذه الصورة مطابقة تمام المطابقة لهيئة الورقة . وهنا عجيبة أخرى ألفت إليها نظرك أيها الذكي ، فانظر واعجب : إننا كثيرا ما نرى نفس هيكل الورقة يشبه جد الشبه هيئة شجرته التي تحمله فصورة الورقة لها نظيران : هيكل الحيوان وهيكل شجرتها. حقا إن الشجرة التي جردت من أوراقها أيام الشتاء مثلا تكون صورة مكبرة الورقة التي سقطت منها . فإذا نظرت هيكل الورقة استبانت لك النسبة بين تشعب فروع هيكلها وبين عروق جسم الحيوان . فانظر إلى الأوراق المتقدمة وتأمل . ألست تجد أن فيها عمودا وسط الورق وهذا العمود خرجت منه أضلاع من جانبيه . فهذه الأضلاع كونت مع ذلك العمود الذي في الوسط زاوية . وهذه الزاوية جينها ترى فيا بين تلك الفروع وبين الأغصان التي تفرعت منها . فهذه الموازنة تراها جلية ظاهرة . ثم إن نفس صورة الورقة مشابهة تمام المشابهة لصورة شجرتها فان الزوايا الحاصلة فيما بين جذع الشجرة وفروعها هي عينها الزوايا الواقعة بين جزء الورقة الممتد فيها وفروعها سواء بسواء . وبهذا تم الكلام في شرح هيكل الورقة وتبيان عجائبها. وملخص ما تقدم في هذا المقام أن الورقة في كل نبات :

(١) خلايا جمع خلية، وهي أشبه بالحجرات .

(٢) وهذه الخلايا مركبات من حيطان شفافة .

(٣) ولكل منها سقف مرفوع عليها يغطيها .

(٤) وهذا السقف مكون من ذرات تشابه اللبنات التي نبني بها منازلنا .

(٥) وفي داخل الحجرات سائل فيه مادة خضراء .

(٦) وهذه المادة الخضراء مضيئة تشع ضوءا على السقف وهو خال من اللون وليس يتخلله سوى الهواء

(٧) وبهذا تظهر الأشجار بأنها خضراء والحقيقة أن الخضرة في تلك الخلايا داخلها ، وما هذه الخضرة إلا انعكاس .

(٨) في كل بوصة مربعة (البوصة تساوي سنتيين اثنين ونصف سنتي والسنتي جزء من مائة من المتر) ما يبلغ (١٢) خلية (٢٤) وهكذا إلى ما يزيد عن ألف ألف حجرة بضع مئات .

(٩) هذه الورقة إذا وضعناها في إناء زجاجي وعرضناها للشمس نظرنا في الماء فقاقيع وهكذا يحصل في الليل فقاقيع النهار أكسوجين وفقاقيع الليل غاز الكربونيك المستخرج من جسم ذلك النبات ليلا أو مما بقي مما امتصه بالنهار .

(١٠) ولو أننا أقفلنا الزجاجة بالفلين لظهر لنا المحبوس من الأكسوجين بالنهار شررا ، وإذا ازداد ذلك صار لهبا .

(١١) إن غاز الكربون الذي في الهواء قليل بالنسبة له بحيث لا يزيد على واحد في ألف ألف جزء منه، والكربون الذي فيه تقدم ذكر عدد طولاناته فلا نعيده .

(١٢) وما النبات بالنسبة للهواء إلا كمثل مزرعة الجبل الأصفر في بلادنا المصرية بالنسبة لمتقذرات القاهرة فان مراحيض القاهرة تسير في أنابيب تحت الأرض وتسير أميالا كثيرة وهناك تمزج بالماء وتسقى بها تلك المزرعة وهناك يبقى بعض السماد ليخصب الأراضي الأخرى وزرعها

عجيب جدا ، فهكذا النبات بالنسبة الهواء فقد أخذ ما يفسده فأصلحه فى جسمه ثم رده صالحا للتنفس وورق النبات يقوم مقام الرئة فى الحيوانات الكبيرة والخلايا فى هذه كالخلايا فى تلك .

(١٣) غاز الكربونيك الذى يخرج من النبات لايضر الناس ولا الحيوان لأنه قليل جدا فإن ستة آلاف نباتة بعد (١٢) ساعة لم يظهر منها (مع أن النبات مغطى) إلا مقدار يسير من ذلك الغاز الضار

(١٤) الشجر وورقه عرق كعرق الإنسان يظهر بهيئة الندى المعلوم ولذلك تراه يحمل رائحة نفس النبات كما أن عرق الإنسان يحمل رائحته .

(١٥) إن فى هيكل الورقة لشبها لهيكل الحيوان ولهيكل نفس الشجرة ، ألم تر إلى الزوايا التى بين جذع الورقة وفروعها الكبرى والزوايا التى بين الفروع الكبرى وأغصانها فهذه متساوية هكذا ترى نفس الشجرة جذعها مع فروعها الكبرى وفروعها الكبرى مع أغصانها كل هذه متساوية الزوايا انتهى ملخص الموضوع .

خطاب الورقة للناس عامة وللمسلمين خاصة

(فى تفسير «سبحان الذى خلق الأزواج كلها»)

تقول : أيها الناس : ها أنا ذا ترونى أسقط من شجرتى فى ظلالها تحت أرجلكم وغاية ما تفعلون أنكم تزيلونى لتنظيف أمكنتكم ولكنكم لاتعلمون أنى نور الله لتدرسونى كما أن الحشرات نوره أنزلت لكم لتدرسوها ما أكثرنا نحن معاشر الورقات فى الأرض ، وما أكثر أنواع الحشرات الطائفات عليكم صباحا ومساء ، أنا فى حقولكم وفى بساتينكم وتحت أرجلكم والحشرات تطوف عليكم فى الهواء ، أما أنا فإنى علم وحكمة مجسمة واضحة أقيم عليكم الحجة لتفهموا قوله تعالى « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون » فأما أنا فإنى مما تنبت الأرض ، قد اخترعنى وابتدعنى منظم هذا العالم وخالقه وقد ملأنى بالحكمة والعلم ، أنتم تعظمون أمثال (اديسون) المخترع الأمريكى وقد ساعدكم فى كشف أسرار الأنوار فى منازلكم ، هو معظم عندكم منزلته سامية ، تحبونه وتهابونه بقلوبكم لأنكم أدركتم آثار صنعته ، وها هو ذا ربى قد جعلنى نموذجا لصنعته ، فماذا صنع ، صنع لى سراجا كما صنع (اديسون) لكم سراجا ولكن سراج ربى هو الشمس ، ومن رحمته وحسن إبداعه أنه جعلها بعيدة عنى بمقدار (٣٥٠) سنة بسير القطار وبمقدار (١٢) سنة بسير قلة المدفع وجعل لنورها سرعة بحيث يصل إلى فى (٨) دقائق و (١٨) ثانية .

هذا هو سراج ربى فهذا النور هو والمادة الخضراء فى داخل حجراتى أيام حياتى بهما أجذب أنا مادة حامض الكربونيك المفسد للهواء وأهضم فى جسمى ذلك الفاسد وأخرج ما يصلح الهواء ، إن الفحم الذى يفسد الهواء هو الذى يدخل فى تركيب كل فاكهة وزهر وورق وشجر ، هذه الحقول وهذه الجنات لاحياة لها إلا بما تستخرج من زبالة الهواء ، فأضواء الشمس وأكسوجين الهواء والكربون المفرق فيه والأشجار وأوراقها وأزهارها وأثمارها والماء والأرض والرياح كلها متعاونات على نتيجة واحدة وهى حياتكم ، فأى نسبة بين سراج أديسون ومعامله وبين سراج الله وهو الشمس وبين معامله فى الأرض ؟ إن معامل أديسون وأمثاله لن تقدر أن تصنع حجرة واحدة من حجراتى بحيث تكون حيطانها شفافة وسقفها يبنى بناء محكما وفيها سائل وفى السائل مادة خضراء تضىء وفى داخلها فروع كثيرات متداخلات فيها تحفظها حفظا تاما كالإطار

الذى يحفظ ما هو داخله ، فالمعامل فى الأرض ليس فى طاقتها أن تصنع خلية واحدة كهذه فضلا عن (١٢) فضلا عن ألف ألف وبضعة آلاف فى بوصة واحدة .

إن صناعات (اديسن) وأمثال اديسن أقرب لعقولكم ، وصنع الله لشدة عظمته يعزب تذكره عنكم فعقولكم أقرب إلى تعظيم صانع فى أرضكم من تعظيم خالق الكون لعظمة صناعته وأنها بعيدة المثال، ولولا رحمة ربى بغفلتكم عن فعله لهامت قلوبكم به هياما ينسيكم أنفسكم ولكنه من فضله أدخل الغفلة عليكم حتى ضعفت بصائركم فعكفتم على أعمالكم الجزئية . ولكن فى الأرض أناس قليلون جدا سمت عقولهم وارتقت أفكارهم . فهؤلاء يهيمون بربهم لما بهرهم من عظمة صنعته . وهم الذين يحبونه حبا جما . فهم فى الأرض يعيشون لايبتغون من الحياة إلا أن يكونوا مسعدين لأنهم مقتدين بما يرون من أعمال ربهم لشدة حبهم إياه .

وهؤلاء هم عماد أهل الأرض وبقية الناس دونهم، وهؤلاء ليس عندهم لذة غير ذلك الحب وكلما غفلوا عنه حزنوا واعتقدوا أنهم قد أذنبوا . فهم إذن يستغفرون . وإذا جاء الموت فرحوا به لأنهم به يرون محبوبهم أولئك هم السعداء المفلحون .

فأما قوله تعالى « ومن أنفسهم » فاقرأه فيما تقدم فى (سورة السجدة) فى تفسير قوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » الخ، وأما قوله « ومما لايعلمون » فذلك تذكير لنا بأن هناك عوالم نظامها متسق على مقتضى هذا النظام .

وهذا ما هو إلا ضرب مثل له . ألا ترى إلى قوله تعالى « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » وإلى قوله « وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » وإلى هنا تم الكلام على أزواج النبات . كتب صباح يوم الأحد أول شهر ديسمبر سنة ١٩٢٩ .

أما أزواج الحيوان فما أكثرها فى هذا التفسير . ولكن لنذكر هنا ما جمل مما عثرنا عليها . فهاك مناظر جميلة لأزواج الحيوان . فنذكر أولا أشكالا غريبة لأربعة منها وذلك من إحدى المجلات العلمية وهى [مجلة الجديد] وثانيا نذكر ذكاء الحيوان وأعماره . وكذلك سمك الفردوس الذى يبنى أعشاشه كالطير ويسبح فوق سطح الماء . وثالثا نذكر رءوسه المختلفة (انظر شكل ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ و ٥٦ فى الصفحة التالية) وسترى أيضا باقى الصور فيما يلى من الصفحات .

أولا — الأشكال الغريبة الأربعة



(شكل ٥٣ ـ الربهيا)
نوع من أسرة النعام وقد ظهر أنها شديدة التقليد للطاووس حين جاورها فى السكن



(شكل ٥٤ ـ لاحاجة للمرآة)
هذه النعامة تستطيع بما وهبها الله من عنق طويل لين أن ترى أى جزء من جسمها فلاتعوزها المرآة وأكثر من هذا أن لها طرقا متعددة فى النظر إلى ماحولها ، وعلى الرغم من كل هذه المميزات فان منظر الحزن والكآبة لايكاد يفارقها



(شكل ٥٥ ـ رسم غوريلا كبيرة يبلغ وزنها ٤٥٠ رطلا وطولها ١٧٠ سم وقد صادها الكولونيل (فن) من الكونغو البلجيكية)



(شكل ٥٦ ـ رسم عجل الكودو وهو الذى صادته بعثة حديقة حيوانات لندن من أواسط أفريقيا ، وفى الصورة أحد الصبيان من الأهالى وهو يرضعه من زجاجة ليأتلف به قبل ترحيله)

(شكل

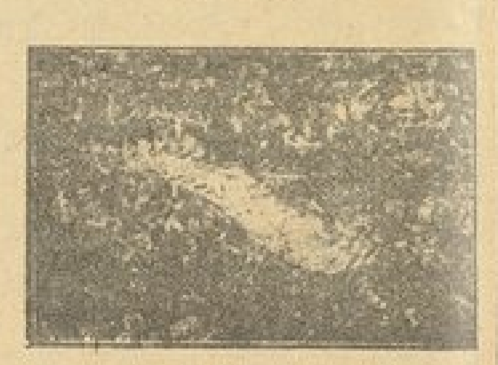


(شكل ٥٧ ـ أحدث طريقة لتحنيط الحيوانات)

أعلن أستاذ علم الحيوان فى جامعة فينا أن خير طريقة لتحنيط الحيوانات والنباتات هى غمسها فى حمام البرافين إذ شاهد أن البرافين يبقيها وهى فى حالاتها الطبيعية كما ترى فى الصور الأربعة وفى حالة النبات يحفظ لون النبات وشكل الزهور الطبيعى وهذا يساعد كثيرا فى دراسة هذه الاحياء



(شكل ٥٨ ـ رسم شامليون عجيب طوله ١٤ بوصة وهو أطول شامليون عرف فى العالم صادته بعثة حديقة حيوانات لندن فى تجوالها الأخير فى أفريقيا)



(شكل ٥٩ ـ آكل النمل)

حيوان من أعجب الحيوانات التى أوفدت حديقة حيوانات لندن بعثة لجمها ويدعى آكل النمل . غير أن هذا النوع لم يطل أمد تناسله بل حل مكان نوع آخر منه



(شكل ٦٠ ـ حية يقتلها النمل)

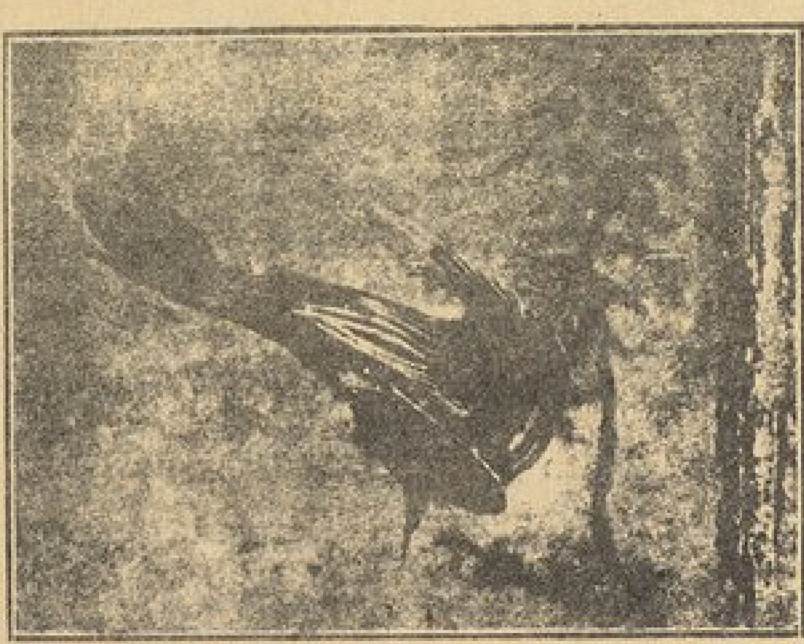
ومن أصناف الأفاعى التى صادتها بعثة حديقة حيوانات لندن هذه الحية التى افترسها النمل الأحمر هى وست مثلها فى ليلة واحدة، وهى من النوع السام والذى تميت لدغته الواحدة

﴿سمك الفردوس يبنى أعشاشه كالطير، ويسبح فوق سطح الماء﴾

تعرف البحار الصينية بأنواع غريبة من الأسماك ، ومن أغربها النوع المعروف بسمك الفردوس وهو يتخذ أعشاشا كالطير، ويصنعها من مادة لزجة ينفخها بفمه فتصير كالفقاقيع وتسبح فوق سطح الماء. وصناعة هذه الأعشاش خاصة بالذكور دون الإناث. فإذا باضت الأنثى أخذ الذكر بيضها بفمه واحدة فواحدة ووضعها فى العش اللزج فتلتصق به . ولما كانت الأنثى فى سمك الفردوس ذات طباع وحشية، وتحب أن تأكل بيضها وما يخرج منه من الأسماك الصغيرة يرغم الأب أو الذكر على هذا البيض حتى يفقس ويحرسه حراسة تامة حتى لا تلتهمه الأنثى (انظر الأشكال الأربعة الآتية)



(شكل ٦١ — سمك الفردوس)



(شكل ٦٢ — الذكر من سمك الفردوس يتفقد بيض الأنثى فى العش)



(شكل ٦٣ - الذكر من سمك الفردوس يرخم على بيض الأنثى فى العش)



(شكل ٦٤ - سمك الفردوس)

ثانيا — (ذكاء الحيوان وأعماره)

وأما أعمار الحيوان وذكاء بعضه ، فهاك ماجاء فى (مجلة الجديد) تحت عنوان : أعمار الحيوان، وها هوذا :

(أعمار الحيوان)

عثر بعض المسافرين الإنجليز عند مرورهم بجزر تونجا فى الأقيانوس على سلحفاة كتب على ظهرها عام ١٨٣٧ وقد كتبها القبطان كوك عند مروره بهذه الجزيرة ، وقد اتضح لهم أن عمرها يبلغ ١٥٠ عاما وفيما يلى بيان بمتوسط أعمار الحيوانات المعروفة :

(التمساح من ٢٠٠ إلى ٢٥٠ عاما ، الفيل من ١٥٠ إلى ٢٠٠ عام . النسر ١٠٠ عام . البجعة ١٠٠ عام ، الغراب ١٠٠ عام ، الكركدن ٦٠ عاما ، الأسد ٦٠ عاما . الببغاء من ٥٠ إلى ٨٠ عاما . الأوز ٥٠ عاماً . الجمل ٥٠ عاما . الصقر ٤٠ عاما . الثور ٣٠ عاما . الوعل ٣٠ عاما . الحمار من ٢٥ إلى ٣٠ عاما . الحصان ٢٥ عاما . العصفور الحسون ٢٥ عاما . الطاووس ٢٥ عاما . البرقش من ٢٠ إلى ٢٥ عاما . الخنزير ٢٠ عاما . الجاموس من ١٨ إلى ٢٠ عاما . القط ١٨ عاما . الكلب من ١٠ إلى ٢٥ عاما . الدب ٢٠ عاما . البقرة ٢٠ عاما . الظبي ٢٠ عاما . السرطان ٢٠ عاما . الذئب ٢٠ عاما . البلبل ١٦عاما القنبرة ١٦ عاما . الثعلب ١٥ عاما . ثعبان السمك ١٥ عاما . الشاة ١٢ عاما . الصرصار ١٠ أعوام . عصفور الكنارى ١٠ أعوام . الماعز ١٠ أعوام . العصفور الدورى ١٠ أعوام . الدجاجة ١٠ أعوام . الأرنب ٨ أعوام . الأرنب البرى ٧ أعوام . السنجاب ٧ أعوام . الفراشة ٧ أعوام . النحلة عام واحد وتوجد فى عين الفراشة (٥٠٠٠) عدسة مختلفة و (٥٠٫٠٠٠) عصب . وإذا وضعت قوقعة إلى جانب أذنك سمعت صوتا كالموج ينشأ من تكبير النطاء الخارجى لصوت ضربات الدورة الدموية الصادرة من أوردة الرأس (انظر شكل ٦٥) .

خريج جامعة كولومبيا



(شكل ٦٥)

جاز هذا الكلب امتحانا عقد له خاصة في جامعة كولومبيا لاختبار ذكائه وعمره ٥ سنوات .



(شكل ٦٦ - رسم طير غريب ، ومن غرابته أن قدميه حمراوا اللون، طول كل قدم (٢٧) سنتيمترا ونصف سنتيمترا ، أما ارتفاعه فهو ٥٥ سنتيمترا فقط)

ثالثاً — رءوس الحيوان المختلفة

أما رءوس الحيوان فاسمع ماجاء فى (مجلة الجديد) تحت العنوان التالى وهذا نصه :

أعجب رءوس الطير



(شكل ٦٧)

رأس البطة المعروفة بذات المشط ، وهى من أندر أنواع البط ، وذلك أن عرفها الشبيه بالمشط يكون فوق رقبتها لا فوق رأسها ، وليس لذلك أى سبب إلا أن تكون مخالفة لسواها فى الشكل.



(شكل ٦٨)

الصقر المتوج ومنقاره الصغير المعقوف يحدث أشد الرعب للطير والحيوانات الصغيرة ، وهو يأكل القردة والفيران والأرانب والطيور والأوز والحملان.



(شكل ٦٩)

رسم التوكان، وطول منقاره كطول جسمه ويقرب منه فى الحجم ، ولولا خفة هذا المنقار لما استطاع حمله



(شكل ٧٠)

رأس الطاووس، وهو على الرغم من جماله ومايبدو عليه من الخجل تفزع منه السحالى والضفادع ،وإن كان الطاووس نفسه يفضل أن يأكل الحبوب والكلأ

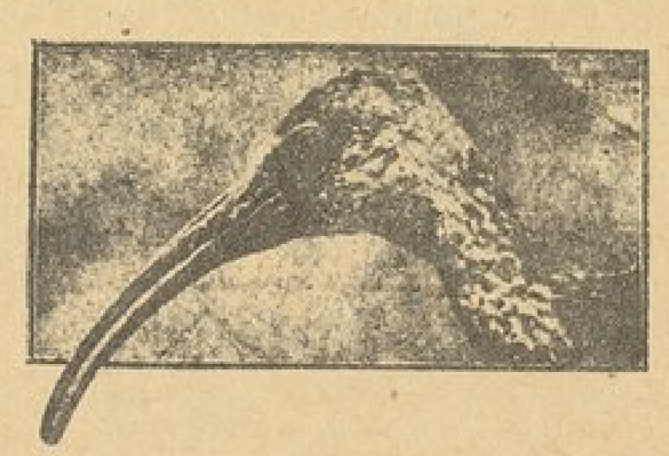
(شكل



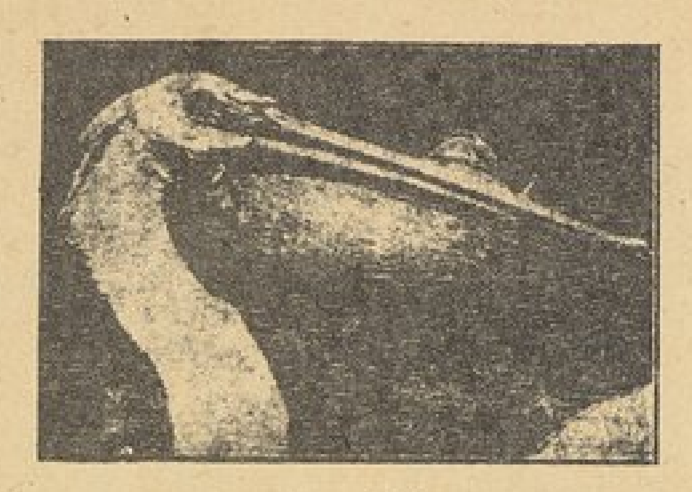
(شكل ٧١)
رسم رأس بشروش ويعرف بطول الرقبة وضخامة للنقار الذى يشبه صندوقا ذا غطاء محدب



(شكل ٧٢)
رسم رأس دجاجة من بلاد غينيا بأفريقيا ولها منقار صلب ، وهى عارية من الريش تتكون من عظام تشبه خوذة الفارس



(شكل ٧٣)
رسم رأس أبيس أو أبى منجل ومنقاره طويل مستدق يدفعه بسهولة فى طبقة من الأرض غير قليلة السمك فيخرج الديدان والحشرات وهو مفيد للزراعة



(شكل ٧٤)

رسم جمل الماء وقد أعده الله بمنقار كالقربة لأنه لايتغذى إلا بالسمك فهو يحمل الأسماك فى جعبة هذا المنقار لأفراخه الصغار

اللطيفة السادسة

(فى قوله تعالى ـ وتكلمنا أيديهم ـ وكيف تكلمت الأيدى فى زماننا)

(الإجرام فى اليابان والطرق الحديثة لمكافحته)

من هراء القول أو تحصيل الحاصل ذكر ما خطته اليابان فى نصف القرن الأخير من التقدم العظيم فى مختلف العلوم والفنون مما أدهش العالم وجعلها محل احترام أرقى الأمم الغربية الحديثة فإن ذلك معلوم مشهور لا يحتاج إلى بيان وتفصيل . وإنما الذى حدانى اليوم أن أكتب بعض الشىء عن ناحية معينة من نهضة اليابان وهى ناحية الأمن والطرق الحديثة المتبعة فى مكافحة الإجرام هو ما تعمل له حكومتنا الآن من تعديل نظم البوليس والأمن العام تعديلا يتمشى مع حالة العصر الذى نعيش فيه ويتكافأ مع النظم المتبعة فى أوروبا وأمريكا حتى لا يكون هناك اعتراض من جهة ما على ما نطلبه من توحيد القضاء ومساواة الجميع من أجانب ووطنيين أمام قانون البلاد . الذى لفتنى إلى دقة نظام البوليس فى اليابان وارتكازه على الطرق العلمية الحديثة هو حادث قتل ارتكب فى ضاحية من ضواحى طوكيو اطلعت عليه أخيرا فى إحدى المجلات الأمريكية . وهو وإن يكن حادثا عاديا فى ذاته يحصل الكثير من أمثاله بل ماهو أشد فظاعة وغموضا منه فى أى بلد من البلاد وقد يصل رجال الأمن فى تلك الجهات إلى معرفة الفاعل بعد تتبع إجراءات كثيرة وبذل مجهود عظيم . إنما محل الإعجاب فى موضوعنا هذا هو حسن قيام البوليس اليابانى بواجبه وتوزيع العمل بين رجاله توزيعا روعى فيه التخصص واتكاله على الرجال الفنيين ذوى الخبرة الواسعة فى كشف الجرائم وتبين أسرارها هو الذى كلل مجهوداتهم بالفوز فى القبض على المجرمين والأشرار فى معظم الحوادث الجنائية مما صان هيبة الحكومة

فى نظر

فى نظر الجميع . وقد أنتج ذلك أثره فى تقليل الجرائم بأنواعها . ولأجل أن يحكم القارئ بنفسه على دقة نظام البوليس فى اليابان وارتكازه على العلم نسرد له باختصار هذا الحادث على سبيل المثال . وقبل ذكر موضوع الجريمة نقول إن بصمات الأصابع كانت العامل الأكبر فى إثبات شخصية المجرم .

(موضوع الجريمة)

تاروكاوايسق شاب يابانى فى العشرين من عمره أحب فتاة من بنات جنسه تدعى تيسوك كوجيكى ، عاملة فى أحد المحال التجارية بطوكيو ولكن هذه لم تبادله حبه لفظاظة أخلاقه وإدمانه الخمر وصارت تباعده كلما حام حولها فأدى سلوكها هذا إلى تحريك كوامن الحقد والبغض فى نفسه الشريرة وصمم على الاقتصاص منها جزاء معاملتها له . ففى ليلة ظلماء فى إحدى حارات ناحية هودوجايا من ضواحى طوكيو وجد نفسه وجها لوجه مع كوجيكى معشوقته فبمجرد رؤيتها تغلبت عليه روح الوحشية والشر وطعنها عدة طعنات قاتلة فى رأسها بخنجر كان قد أعده لهذا الغرض ، وبعد انتهائه من فعلته الشنعاء مسح الخنجر من الدم بواسطة حزمة من الكلأ الأخضر الذى ينمو بطبيعته فى الحقول المجاورة لمكان الحادث . ولكن أثناء تنظيفه الخنجر انطبعت بصمة إبهامه الأيسر على السلاح بدون أن يلاحظ ذلك ، وبمجرد فراغه من عملية التنظيف ألقى بالسلاح على الأرض فى جهة مجاورة لمحل الحادث ولاذ بالفرار تحت جنح الظلام . ولو كان يعلم أن فى إلقائه السلاح منطبعة عليه بصمة إبهامه فيه تسليما لرقبته للجلاد لكان له رأى فى احترام القانون يخالف ما قدمت يداه .

(العثور على الجثة)

لم تمر إلا برهة وجيزة حتى عثرت الشرطة المارة بالجثة ، وفى الحال أبلغت الأمر لبوليس طوكيو .

كان أول من وصل لمحل الجريمة هم رجال تحقيق الشخصية مع الآلات الفوتغرافية والنظارات الميكرسكوبية والمواد الكيماوية والمساحيق والفرش الخاصة بإظهار البصمات الخفية وكذلك الطبيب الشرعى فباشروا عملهم بكل دقة وعناية حتى توصلوا إلى اكتشاف السلاح الذى ارتكبت به جريمة القتل وبحثوه بكل دقة فوجدوا بصمة إبهام منطبعة عليه فأسرعوا بنقلها على ورق الشمع (ورق خاص لهذا الغرض) ووضعوا عليها غطاء من السليلويد لحفظها ، وكذلك رسموا الجثة ومحل الحادث والجهات المجاورة له . وبحثوا عن كل الآثار التى قد تفيد فى كشف سر الجناية . ابتدأ رجال تحقيق الشخصية فى بحث البصمة التى عثروا عليها فكبروها وصاروا يدرسون مئات الخطوط والنقط الدقيقة علهم يجدون لصاحبها سجلا خاصا فى محفوظاتهم وعند فراغهم من تقسيمها التقسيم الفنى حفظوها فى سجل خاص بها لعدم العثور على بصمات لصاحبها محفوظة فى الإدارة .

وانتظروا التحريات التى يقوم بها البوليس السرى (البوليس السرى هناك كما هو الحال فى أوروبا مكون من رجال فنيين فى علم الإجرام درسوا دراسة علمية خاصة فدربوا على القيام بعملهم أحسن تدريب) .

ارتكب تارو جريمته فى مارس وبعد مرور سنة من ارتكابها اعتقد أنه قد عفا النسيان على فعلته الشنعاء فاطمأن باله وذهبت هواجسه واشتغل عاملا فى حانات الخمور والقهاوى متنقلا من إحداها إلى الأخرى .

لم ينِ الكشافون عن مواصلة بحثهم لكشف الستار عن سر هذه الجريمة ، ففى أغسطس الماضى سنة ١٩٣٧ قبضوا عليه فى محل لعب الميسر سيئ السمعة مشهور بأنه مجمع الأشرار وذوى السير المعوجة . لم يفزع تارو من البوليس وسخر من أخذهم لبصمات أصابعه لاعتقاده أنه ليس لبصماته سجل محفوظ من قبل حتى يمكن معرفته وإدانته فى جريمة القتل . أرسلت بصماته لإدارة تحقيق الشخصية فوجدت إبهامه الأيسر مطابقا تماما

للإبهام الذى وجد منطبعا على الخنجر الذى استعمل فى ارتكاب الجريمة . عند ذلك تأكد البوليس أن القاتل قد وقع فى قبضته . أودع تارو السجن وسردت له فيه قصة جريمة القتل التى ارتكبها منذ سبعة عشر شهرا ووضعت أمامه الصورة الفوتغرافية لجثة القتيلة برأسها المهشم والخنجر الذى استعمله فى ارتكاب الجريمة فأخذ الرعب يدب فى قلبه وصار يهذى هذيان المحموم واعترف بما قد أثمت يداه . هذه هى خلاصة الإجراءات التى اتبعت فى هذه الجريمة وهى تدل على إحكام نظام البوليس فى اليابان، وعلى أن رجال الحفظ فى تلك البلاد تربوا تربية فنية خاصة ونظموا عملهم على أحدث القواعد العلمية بل كان لهم فضل كبير فى استنباط طرق علمية لإظهار بصمات الأصابع أخذتها عنهم بلاد عريقة فى المدنية والعلم . إدارة تحقيق الشخصية والمباحث الجنائية فى طوكيو هى أهم إدارات البوليس من حيث إنها عماد البحوث الجنائية ففيها تتركز جميع المعلومات الخاصة بالجرائم فى امبراطورية اليابان وجزيرة فرموزا وكوريا . وتحفظ السجلات الخاصة بالمباحث الجنائية مع حفظ بصمات المجرمين وصورهم الفوتوغرافية . وكذلك آثار الأقدام والبصمات الفردية التى يتركها الجناة فى محال الجرائم . وتسجل بصمات المجرمين وتحفظ على حسب طريقة الإجرام التى يتبعها المجرمون فى ارتكاب جرائمهم . وهذا النظام يفيد كثيرا فى سهولة العثور على المجرم لأن طريقة ارتكاب الجريمة تحصر البحث فى عدد معين من المجرمين اعتادوا تنفيذ جرائمهم بطريقة خاصة ليس من السهل أن يحيدوا غيرها . ويتبع هذه الإدارة رجال البوليس السرى الذين يناط بهم التحرى عن الجرائم وكشف أسرارها . وعلى العموم فجملة النظام المتبع فى هذه الإدارة هو ما يجرى عليه العمل فى اسكتلنديارد فى لندن وإدارة البوليس العامة فى باريس .

﴿ متحف الجريمة ﴾

يوجد بالإدارة متحف هائل تحفظ به جميع الآثار التى يعثر عليها فى محال الجرائم بعد أن تكون قد بحثت بكتر يولوجيا. فيشاهد به مجموعة كبيرة من الأسلحة وللملابس اليابانية والأوروبية على اختلاف أنواعها والأجهزة والآلات التى تستعمل فى كسر الخزائن الحديدية وأوان زجاجية ومعدنية وغير ذلك من الآثار التى كان أو يكون لها شأن فى إثبات الجرائم . ومن ضمن الآثار الهامة المحفوظة فى هذا المتحف هو هذا الخنجر الذى قتل به الرئيس هارا رئيس وزارة اليابان منذ بضع سنوات فى محطة طوكيو .

﴿ الأستاذ يوشيكاوا ﴾

يرأس إدارة تحقيق الشخصية والمباحث الجنائية فى اليابان الأستاذ سومنيشى يوشيكاوا أحد خبراء العالم القلائل فى المسائل المتعلقة بالإجرام والمجرمين وخاصة فى كشف الجرائم الغامضة وهو أستاذ ضليع فى فن بصمات الأصابع والتصوير الشمسى ، وكشاف ماهر للآثار الدقيقة التى يتركها أمهر المجرمين أثناء ارتكاب جرائمهم يستعين بالبحث الكيمائى الكهربائى والميكرسكوبى وجميع الوسائل الأخرى التى تلائم لهذه البحوث إن الأستاذ يوشيكاوا درس الطرق الفنية لبصمات الأصابع الجارى عليها العمل فى اسكتلنديارد فى لندن وفى إدارات البوليس فى نيويورك وباريس وبرلين وهامبرج وفينا . ولم يكتف بذلك بل واصل البحث والدرس حتى جعل لنفسه مكانة علمية لم ينلها إلا القليلون فى العالم . يرجع إليه الفضل فى اكتشاف أنه لو استعملت نترات الفضة فى إظهار بصمات الأصابع ثم عرضت البصمات بعد ذلك للأشعة فوق البنفسجية لوضحت وضوحا تاما . وقبل اكتشافه هذا كان كثير من البصمات يعتبر عديم القيمة لعدم وضوح رموزها وضوحا كافيا، ولهذا كان يفلت كثير من المجرمين من يد العدالة . فتصوركم أدى هذا العالم إلى العدالة والإنسانية من الخدمات ؛ إذ أن

فى الاقتصاص من المجرم حياة للمجموع . هذا هو مجمل نظام القسم الفنى الجنائى للبوليس فى اليابان ذكرناه كمثال للأنظمة الحديثة للبوليس التى أفادت كثيرا فى مكافحة الأجرام وحصر دائرته .

محمد جمال الدين

مساعد مدير تحقيق الشخصية

(مسامرة)

حدثنى أحد نظار المدارس المصرية . قال : أسلم عالم ألمانى فسئل لماذا أسلمت ؟ قال : لأنى قرأت فى القرآن المترجم بالألمانية آية «بلى قادرين على أن نسوى بنانه» وعلم تحقيق الشخصية المبنى على البنان لم يعرف إلا فى زماننا هذا فعرفت أن هذا كلام الله فأسلمت اه .

(النطق بلا لسان)

(حوادث واقعية غريبة)

كان العالم الإنجليزى هكسلى فى مقدمة الذين يجزمون بامكان النطق بلا لسان . وقيل إن الذين يصابون بداء السرطان يفقدون لسانهم فى بعض الأحيان ولكن بعضهم ينطقون ويميزون الطعم بعد فقده ، ومما يروى فى هذا الصدد أن هنرى الظالم قطع ألسنة بعض المبشرين بالإنجيل سنة ٤٨٤ ميلادية . فلما لبث بعضهم زمانا حتى عادوا إلى الوعظ والإرشاد من غير لسان . وأن البابا ليون الثالث فقد لسانه أيضا ولكنه لم يمتنع عن الكلام والذوق ، وفى سنة ١٧٤٢ م فحصت لجنة من الأطباء فى انجلترا فتاة فقدت لسانها ورأت أنها تحسن النطق والكلام مثل غيرها من الناس ، وفى بلاد الإنجليز الآن رجل بلغ السبعين من العمر قطع لسانه من نحو ١٣ سنة وهو يتكلم ويغنى ويذوق بلا عناء . وأما التعبير عن المراد بالحركات والإشارات فمن الأمور السهلة ، ولبعض القبائل فى الحديث إشارات وحركات تزيد على الألفاظ عددا ، وأكثر الأوروبيين استعمالا للاشارات فى الكلام أهل إيطاليا وأقلهم استعمالا لها الإنجليز ، انتهى من (المصور) .

تذكرة

(فى قوله تعالى «ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون»)

وفيها بيان أقوال علماء العصر فى هذين السؤالين : (الأول) متى يعيش الإنسان ١٤٠ سنة . (الثانى) كم يجب أن نعيش لنربى أولادنا لعقلاء المسلمين مع فوائد تليق بالمقام ، فهاك ما جاء فى مجلة كل شىء ، وهذا نصه :

(متى يعيش الإنسان ١٤٠ سنة)

(حديث مع الأستاذ فورونوف)

الأستاذ أو الدكتور فورونوف معروف فى القاهرة مذ كان طبيبا فيها فى أوائل هذا القرن وطبيبا خاصا للسراى الخديوية ، ثم لما انتقل إلى أوروبا واشتغل بتجاربه المشهورة فى إطالة العمر وتجديد قوى الشيوخ بالتلقيح وتجربة ذلك أولا فى القرود وغيرها من الحيوانات طار اسمه فى كل ناحية لا كطبيب بل كمبشر بامكان إطالة الأعمار إلى مافوق المائة وبامكان عود الشباب الذى تقرحت عليه أجفان الشاعر الباكى القائل:

بكيت على الشباب بدمع عينى ... فلم يغن البكاء ولا النحيب

وقد جرى له حديث مع مندوب مجلة إنجليزية فقال : (إن الأم التى تكون أول من يدفع إليها ولدها

لتجربة عملية تجديد الشباب فيه قد تكون مؤسسة نوع إنسانى جديد وقوى ، أعطى أولادا تشتعل فيهم شرارة العبقرية ، وأنا أرى لك نوعا من (السوبرمان) أى الرجال الكاملين يكون عمر الواحد منهم فوق المائة ويكون فى الوقت نفسه قويا ونشيطا وعاملا بدنا وعقلا كالشاب منا ، ومشروعى هذا الذى بدأ بعمليات تجديد القوى فى الأجسام الضعيفة قد يظهر كالهجل فى عيون غير العارفين ولكنى أبنت بعد امتحانات طويلة ودقيقة صحة الدعاوى التى ادعيتها من وقت إلى آخر حتى امتلأ صدرى أملا من جهة المستقبل واعتقدت إمكان إخراج آرائى فى هذا الموضوع من القول إلى الفعل ، بدأت تجاربى بالكباش فنقلت غدة حيوية من كبش حولى إلى كبش مسن فى أواخر عمره فكانت النتيجة على ما يرام حتى أعدت التجارب فى حيوانات أخرى فجاءت أحسن من الأولى ولكن عمل الطبيب يجب أن يكون دقيقا ، فالواجب لذلك أن تعاد التجارب المرة بعد المرة بلا ملل . وبعد ذلك أخذت الغدد التى لقحت بها حيوانا تجددت قواه فحصلت بذلك على برهان محجوج ، ذلك بأن الحيوان الذى استؤصلت منه الغدد عاد فتقهقر إلى ما كان عليه إذ جعل يهزل وفقد شهيته إلى الطعام وسقط شعره أو صوفه حتى بلغ درجة من الانحطاط أحط مما كان عليه قبل عملية التجديد الأولى فقلت فى نفسى إذا نجحت هذه العمليات فى الحيوانات ، فلماذا لا تنجح فى الإنسان ولكن عرضت هنا صعوبة وهى قلة الرجال الأقوياء الذين يقدمون أنفسهم لمساعدة الضعفاء ويضحون بمثل هذه التضحية الغالية مع أن استئصال هذه الغدد من الأقوياء الأصحاء لا تؤثر كثيرا فى أحوالهم الطبيعية ولكن تلقيح الضعفاء بها ينفعهم أيما نفع ، وهنا بدأت تجاربى فى النسانيس ويقول علماء الطب أن الشمبانزى أقرب هذه الأصناف إلى الإنسانية وإذا أخذت قطرة دم من الإنسان ووضعت تحت الميكرسكوب هى وقطرة من دم نسناس لم تمكن معرفة الواحدة من الأخرى ، وقد جاءت تجاربى فى النسانيس ناجحة جدا ، وفى مدة خمسين سنة أو أقل يمكن عمل عمليات مدهشة فى الناس ؛ وليس تجديد قوى الشيوخ بالتلقيح هو غرضى الأعظم بل إن غرضى الأعظم هو تلقيح الذكور الذين سنهم بين الثامنة والعاشرة بالغدد فتكون النتيجة إيجاد نسل من الرجال المتفوقين (سوبرمان) .

أما معظم الصعوبة الآن ، فقلة النسانيس ولكنى وضعت مشروعا للمحافظة على هذه الحيوانات النافعة وأصدرت الحكومة الفرنسية بناء على طلبى أمرا بمنع صيد الشمبانزى فى المستعمرات الفرنسية وبأن لا يصدر منها إلا لغرض طبى ، ثم قصدت إلى (مدريد) وقابلت ملك أسبانيا فأصدر أمرا مثل هذا فيما يخص المستعمرات الأسبانية . وهكذا صنع ملك البلجيك عند مقابلتى إياه فى عاصمته بل أضاف إلى مثل هذا الأمر إصدار تعليمات بأن يجعل جزءا من الكنغو البلجيكية حيث تكثر النسانيس مستودعا لها حتى تتم المعدات التى اتخذتها لإصدارها منه . وآمل أن تساعدنى الحكومة الإنجليزية بمثل هذه الطريقة . وقضيت أشهرا من السنة الماضية أفتش عن مكان بين جنوا ومرسيليا يصلح ليكون مزرعة لهذه الحيوانات حتى وجدته وفيه الآن نحو مائة منها فإذا نجحت وكانت المزرعة ملائمة لصحتها فلم تضعف بتغير الإقليم ففى عزمى إنشاء سلسلة منها من (نابلى) إلى (مرسيليا) بمساعدة الحكومة الفرنسية ، ويجب أن يكون عمر الشمبانزى (٦) سنوات إلى (٨) فيما يصلح لأن تستأصل غدته ويلقح بها الإنسان . ومتى تغلبت على جميع الصعوبات وامتلأت مزارعى حيوانات شديدة شرعت فى تجاربى على قدر كبير . وقد عملت إلى الآن (٦٠٠) عملية ناجحة والعملية بسيطة جدا لا يحتاج فيها إلا إلى تخدير موضعى ولا يبقى صاحبها راقدا أكثر من أسبوع . وأقول الآن عن اقتناع إنه لا ينصرم القرن العشرون حتى يمكن تجديد قوى الشيوخ وإزالة غبار السنين عن وجوههم كثيرة الغضون والأسارير وأجسامهم المحدودبة الهزيلة . ويمكن أيضا تأخير الشيخوخة ومضاعفة العمر

الذى

الذى هو الآن سبعون سنة على الغالب وسيبقى الدماغ والقلب صحيحين إلى الآخر . وقد يمكن تغيير الصفات والشخصيات والعادات بهذه الطريقة فتقل الجرائم وتخلق العبقريات وتفرغ الشخصيات فى قوالب على حسب الطلب . ومهما يكن زمان ذلك بعيدا فمما لاريب فيه أن القرود ستكون أساس أمة قوية عقلا وجسما وعاطفا وقلبا ونموا وذلك كله بواسطة التلقيح بغددها اه .

﴿ كم يجب أن نعيش ؟ وفوائد أخرى ﴾

يقول هوفلند أحد العلماء الذين صرفوا عنايتهم إلى درس الحياة فى كتاب وضعه وجعل عنوانه (فن إطالة العمر) إن المرء يولد مستمدا للحياة قرنين من حيث تركيب بنيته ونظام قواه قياسا على مانراه فى الحيوانات . أليس الإنسان حيوانا مثلها على أن هوفلند لم ينفرد فى هذا الرأى . فكل الذين يدرسون طبائع المخلوقات يرون رأيه ويرون طلائع النور من أبحاثهم بإمكان إطالة العمر فيسعون إلى التجارب والامتحانات المتعددة . ومن الملاحظات الحرية بالنظر ماذكره بعضهم عن النسبة بين عمر البلوغ والعمر التام فقالوا إنها فى الحيوانات على اختلاف أنواعها تكون كنسبة واحد إلى ثمانية أى أن الكلب يبلغ أتم نموه فى سنة ونصف فهو يعيش إذا لم يمرض أو يقتل بحادث ما ١٢ سنة ، والحصان يبلغ أتم نموه فى ثلاث سنوات فهو يعيش فى ١٤ سنة وقس عليهما سائر الحيوانات الدنيا . وإذا اعتبرنا الإنسان من حيث تركيبه البدنى حيوانا وكان نموه لايتم قبل بلوغه الخمسة والعشرين عاما فمن الضرورى أن يعيش مئتى سنة ويدعم هذا الرأى مانراه من حياة بعض الناس الذين عاشوا أعمارا طويلة .

إن هنرى جنكس الإنجليزى الذى ولد فى ولاية يورك بانكلترا عاش ١٦٩ سنة ولما بلغ سن ١١٢ كان يحارب فى معركة فلورفيلد . وجون بافن البولندى عاش ١٧٥ سنة ، ورأى بعينه ثلاثة من أولاده يتجاوزون المئة من أعمارهم . ويوحنا سور تنغتون النروجى الذى توفى سنة ١٧٩٧ عاش ١٦٠ سنة وكان بين أولاده من هو فى المئة والخمس سنوات . وطوز مابار عاش ١٥٢ سنة . وكورتوال ١٤٤ سنة . على أن أكثر من عاش بين البشر حديثا على مايعرف هو زنجى بلغ ٢٠٠ سنة .

والاحصاءات تدل على أن أعمار الناس أطول فى اسوج ونروج وانكلترا منها فى فرنسا وإيطاليا وكل جنوبى أوروبا، كما أن الذين عاشوا هذه الأعمار الطويلة إنما عاشوها ببساطة وكانت حياتهم حياة جد وعمل .

لامشاحة فى أن العمل والعادات والاعتدال من العوامل الرئيسية لإطالة العمر . فالإفراط فى كل أمر مع الانحراف عن النظام الطبيعى إنما هو سبب تقصير أعمارنا . ومن رأى البعض أن العبودية هى السبب الأهم فى تقصير العمر . العبودية للشهوة والتقليد والبطالة والزى . فإذا حاولنا التخلص من عبودية المدنية الحاضرة والانصراف إلى كل ماهو قانونى وبسيط يمكننا مع الاعتدال أن نعيش مئتى عام بشرط آخر هو أن لايكون علينا استحقاقات شهرية ولا مسئولية عقلية تقضى على سلام حياتنا اه .

﴿ رأى نابليون فى الطب ﴾

اشتهر نابليون بونابرت بميله الشديد للمطالعة وإحراز الكتب النفيسة وبتقديره للطب والمهيجين ، وكان ميله للعلوم الطبية قويا إلى حد أنه تعلم علم التشريح وأتقنه إتقانا لكنه لم يستكمل دراسة الطب لاتجاه آخر دفعه إليه القدر . أما ميله للطب والمهيجين فكان بمقدار كرهه للدواء والعقاقير معتمدا كل الاعتماد على (الطبيعة الشافية) ومحبذا طريقة البابليين الذين كانوا يلقون المريض على قارعة الطريق حتى إذا مر به عابر أصيب بمثل ذلك المرض وشفى منه أرشده إلى العلاج الذى كان سبب شفائه . ومن أقواله : إن الأدوية لا تفيد

سوى جماعة الطراز القديم، وكان دواؤه الوحيد الحية والاستحمام بالماء الساخن والماء المالح . وقد قال يوما لأحد الأطباء : (إن الجسم آلة تطلب الحياة، وهو مركب لهذه الغاية فقط . فلندع فيه الحياة تنمو وتحيا كما تشاء ولندعها تدافع عن نفسها بنفسها فإنها تفعل أكثر جدا مما تفعله أدويتكم التي تشل حركتها على الدوام) .

ومن أقواله أيضا : (إن الجسم يشبه ساعة تسير سيرا طبيعيا منتظما مدة من الزمان وليس لساعاتي ما أن يفتحها أو أن يعالج ما اختل في نظامها إلا باحتراس كثير وعناء مصبتان . وإذا وفق ساعاتي واحد بعد عناء عظيم وعذاب طويل إلى أن يصلح شيئا مما أفسده الزمان في ساعة جسمنا فكم وكم من الأغبياء يفسدون هذه الآلة العجيبة التي صنعها الخالق سبحانه وتعالى) اهـ .

(وصايا طفل يخاطب والديه)

(في سنته الأولى) : الأقمطة الشديدة تنهك جسمي النحيف الرخص، فلا تشداني بها وإلا فحل القليل حلا وثاق من تلك الأربطة لأتنفس قليلا ويجرى الدم في عروق .

(في الثانية) : النظافة تنفع جسمي الغض وتقويه فاغسلاني مرة أو مرتين في اليوم كل يوم وإلا فعلى القليل مرة في الأسبوع .

(في الثالثة) : القبلة تنقل إلى جراثيم الأمراض الضارة والأسقام المؤلمة فلا تقبلا ثغرى وخدى وعيني، ولا تسمحا لأحد بتقبيلي وإلا فعلى الأقل قبلا يدى فإنها تكفي .

(في الرابعة) : النزهة خارج المدينة مفيدة لي والهواء النقي ينعشني ويقويني فسيرا بي لأتمتع بمناظر الطبيعة الجميلة القوية وإلا فعلى القليل اصعدا بي إلى السطح .

(في الخامسة) : المعاشرة الرديئة تفسد أخلاقي فلا تتركاني تحت رحمة الخادمة أو بين أولاد الأزقة وإلا فعلى القليل اجتمعا بي وحدثاني ولاطفاني ولو ساعتين في النهار .

(في السادسة) : المدرسة مصدر سعادتي في المستقبل فانتخبا لي مدرسة وطنية جامعة لأرضع فيها لبان العلوم العالية وإلا فعلى القليل العلوم البسيطة اهـ .

(عمر المخلوقات)

جاء في مجلة « كل شيء » ما نصه :

يتقول الناس أن كثيرا من الحيوانات والطيور تعمر أكثر من الإنسان، ولكن ظهر بعد فحص عمومى لمعدل أعمار المخلوقات على أنواعها أربعة فقط منها تعيش أكثر من الإنسان وذلك مع عدم الانتباه للشواذ وهاك بيانها :

(١) السلحفاة ١٥٠ إلى ٢٠٠ عاما.
(٢) نوع من السمك الألماني ١٠٠ إلى ١٥٠
(٣) العقاب ذو الرأس الأبيض ٥٠ إلى ١١٨ عاما
(٤) النسر ٥٠ إلى ١٠٤ عاما

وإليك معدل أعمار بعض المخلوقات . الكلاب ٣٥ ـ الخيل ٤٠ ـ البقر ٢٥ ـ الهر ٤٠ ـ الدجاج ٣٠ ـ البط ٧٥ ـ الأسد والنمر ٢٥ ـ والسلمون (نوع من الأسماك) يعيش عادة مائة عام . والضفدع الأوروبي ٣٦ ويصل عمر التمساح إلى الأربعين ، وأقصر الأعمار توجد بين الحشرات ، فنوع من الخنافس يعيش من ساعة إلى ثلاث ساعات ، والذبابة ٣٤ يوما ، ولكن خنافس الأشجار تعيش أكثر من سائر الحشرات إذ أنها تعمر ٣٧ عاما : انتهى ما أردته من المجلة المذكورة .

لما كان هذا التفسير يراد به ارتقاء العالم الإنسانى ، لاسيما المسلمين انتهزت كل فرصة لإفادة العقلاء بتجارب أمثالهم ليحذوا حذوهم . فهاك ما جاء فى جريدة الأهرام يوم ١٩ مايو سنة ١٩٣٠ م تحت عنوان « كلمة شفيق باشا فى الاحتفال ببلوغه سن السبعين » وهذا نصها :

سيداتى سادتى : قضيت سبعين حجة طويلة مررت فيها بأيام سعيدة وليالى هنيئه ، ولكنى أعد هذا اليوم أسعد أيامى ، فأنا فى جمع من خلاصة أصدقائى وإخوانى . ليس فيهم إلا كل بر وفى يشاطرنى ما أحمل له فى أعماق نفسى من حب ووفاء .

زملائى الأعزاء رجال الرابطة الشرقية : يسرنى أن أتوجه بالشكر إليكم على تذكاركم الذى يزيدنى قوة ونشاطا وسأحفظه بقية حياتى عنوان الثقة الغالية ، كما أشكر حضرات الذين تفضلوا فأطرونى إطراء مبالغا فيه وأشكر جميع الذين شرفونى والذين حالت أعذارهم دون إسعادى بوجودهم فأرسلوا تهانيهم بالبرق وبالبريد .

سيداتى سادتى : سألنى صديق إسماعيل بك شيرين أن أبسط لحضراتكم ما اعتقده سر النشاط والصحة فى هذه السن المتقدمة . وعندى أن ذلك يرجع إلى أسباب اتباعى أوامر الله بابتعادى عن تعاطى المشروبات الروحية . ومما ساعد على ذلك أنه كان لنا جار مدمن لايعود إلى داره إلا وهو نشوان فترجح رأسه بين كتفيه وتسلمها حائط إلى أخرى ولا يكاد يعى ما يقوله . وذات ليلة ممطرة رأيته محمولا إلى الدار يحملون أحدهما من يديه والآخر من رجليه وهو ملطخ بالوحل . انطبعت هذه الصورة البشعة فى ذهنى فزادت نفورى من الخمر وكراهيتى لها . ومنها أنى لم أدخن أبدا ولم أتعاط القهوة عادة إلا قليلا منها ممزوجا باللبن وقد اندهش بعض إخوانى لذلك فهمست فى أذنه عن السبب . واسمحوا لى فلا أفصح عنه لأنه لايقال إلا بين الرجال . ومن ذلك أيضا عدم الإسراف فى ملاذ الحياة ، فلا فى الأكل كنت نهما ، ولا فى غيره كنت مسرفا ، وكانت البساطة وما تزال ملاك حياتى ، فإذا لم أصادف الفراش الناعم والخبز اللين رضيت مغتبطا بالفرش الخشن والكسرة الجافة .

ومنها تعودى الرياضة ، فأنا مولع بالمسير على الأقدام حيث أمشى الساعة والساعتين والثلاث فى اليوم . فإذا عدت إلى مستقرى أكلت بشهية ونمت براحة مبكرا كما أستيقظ مبكرا . ومنها أنى لم أتعود التفريط فى وقتى فكنت منتظما فى ساعات عملى وأوقات راحتى ورياضتى ، ولا أقتل الوقت فى القهاوى والملاهى .

تلكم هى الأسباب الأولى عندى التى أشكر الله عليها وأسأله المزيد حتى أتمكن من أداء ما يثقل كاهلى من دين على للتاريخ ألا وهو نشر مذكراتى فى نصف قرن وبعد ذلك فعلى الدنيا السلام . انتهى كلامه ، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة السادسة والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة السابعة

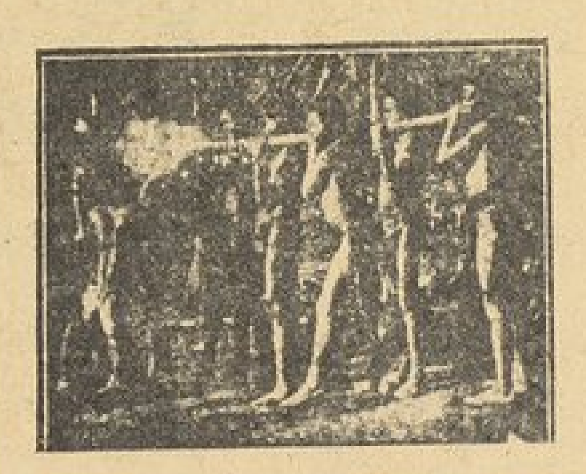
(فى قوله تعالى ـ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ـ الخ)

جمال الله تجلى فى الأنفس وفى الأشجار وفى كل مخلوق ، المادة كما تقدم فى (سورة النور) عند قوله تعالى ـ الله نور السموات والأرض ـ عبارة عن نقط كهربائية يدور سالبها حول موجبها (٦) آلاف مليون مليون مرة فى الثانية فانظره هناك ، فإن الشجر والحجر والأرض والسماء كلها نور تنوعت حركاته فتنوعت

مناظره فقيل هذا حديد وهذا ماء، وماهذا وما ذاك إلا تلك الأنوار الكهربائية الجارية حول بعضها ترسم دوائر كدوائر الكواكب حول الشمس وبينها فرجات ومسافات وهى للسام تعادل المسافات بين الأرض والسيارات وبين الشمس. إذن المادة لم تخرج عن كونها مادة نورية غليظة وغلظها إنما جاء فى نظر أعيننا. هذا هو رأى علماء العصر الحاضر وهذه الحقائق اختفت عن عيوننا، فلما خلقنا الله فى الأرض أحوجنا إلى الغذاء، والغذاء احتاج إلى الحرارة، وهكذا أجسامنا اعتراها البرد فاحتاجت إلى الدفء، لهذا خلق الله النار ولكنها مخبوءة فى الشجر والحجر فألهم الآباء أن يحكوا عودا بعود فظهرت النار ففرحوا بها. الله لا يريد أن يعطينا شيئا إلا إذا اشتقنا إليه ومتى اشتقنا طلبنا ومتى طلبنا نلنا علما منه بأننا لانبالى بما لانطلبه. هذه النار التى أوريناها من الحجر ومن الشجر عالم لطيف يذكرنا بالنور الأصلى وهو النور الذى منه كانت المادة وهو أقرب إلى اللطافة والجمال. ومذكر بنور الكواكب والشمس والقمر. والنار رآها موسى فقال «إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى» وقد قال بعض المفسرين: هاديا يدلنى على الله. ومتى ثبت أن المادة أضواء نورية لم يبق فى الوجود الحق إلا الله. ومن عجب أن هذه الفكرة هى التى يقولها الصوفية وهى التى يقولها سقراط وأفلاطون من علماء اليونان إذ يقولون: «لا معنى للموجود الذى يتغير» والمادة متغيرة فاطلاق اسم الوجود عليها مجاز، ولا يتعلق العلم بها وإنما يتعلق بما هو ثابت. فهاهنا عجيبتان:

(العجيبة الأولى) إيقاد النار فى العصور الأولى التى منحها الله البشر وهذه صورتها (انظر شكل ٧٥).

وهذه المنحة قديمة العهد جدا مجهولة الابتداء ولكنها بقيت عند أقوام إلى الآن فى بعض جزائر المحيط الهادى كما أن لهم عادات مزعجة إذ تفعل الأرملة بعد موت زوجها فى نفسها مايقبح فعله (انظر شكل ٧٦)



(شكل ٧٥ - أول طريقة لاختراع النار وقد توفق إليها الإنسان الفطرى بشدة احتكاك قطعتين من خشب الأشجار ولاتزال مستعملة بين سكان جزائر المحيط الهادى فاعجب لإجهاد ستة من الرجال الأشداء كما احتاجوا إلى ماننتظه نحن فى لحظة واحدة بعود من الثقاب)



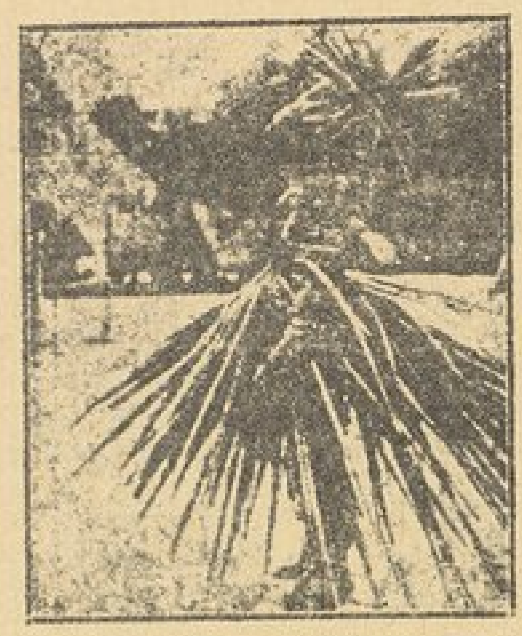
(شكل ٧٦ - أرملة فى بونا جبست شعر رأسها ووجهها بالجير والطين لأن ذلك من شعار الحزن الواجبة على المرأة هنالك عندما تفقد زوجها)

وأيضا

وأيضا لهم أسلحة حجرية إلى الآن يستعملونها (انظر شكل ٧٧) وهكذا يضعون الورق على أجسامهم كما كان يفعل آدم عليه السلام هو وحواء (انظر شكل ٧٨).



(شكل ٧٧ ـ أسلحة حجرية من بلاد بابوان، وقد أصبحت نادرة فى جزائر المحيط الهادى إلا فى هذه الجهة)



(شكل ٧٨ ـ رسم فارس من حاشية أحد الرؤساء فى جزائر المحيط الهادى وهو مكلف بخدمة المآدب وما إليها. ولباسه الرسمى قبعة وبذلة من أوراق شجرة جوز الهند مع دهن وجهه بطلاء أسود وأحمر)

واعلم أن الله أبقى هذه العجائب فى المحيط الهادى إلى الآن ليرينا كيف ارتقى الإنسان فى إيقاد ناره، وفى عاداته وفى أسلحته وفى ملابسه ليعلم المسلمون الآن ومن معهم من الأمم أن فى هذا العالم نعما قد خبئت لهم لاينالونها إلا بالعمل. تمت العجيبة الأولى.

(العجيبة الثانية) لاتؤخذ من الآية بطريق المفهوم ولكنها بطريق الاستنباع. ذلك أن الشجر والحجر إذا كان فيهما نار أفلا يكون فى هذه النفوس الإنسانية سر تكون نسبة النفوس إلى ذلك السر كنسبة الشجر والحجر إلى النار، نعم ذلك هو السر المكنون وهو الذى استخرجه أفلاطون قبل الميلاد بعدة قرون قال ماملخصه:

مثل أفلاطون

يقول أفلاطون إن مثل الناس فى الأرض كمثل قوم عاشوا فى مغارة تحت الأرض وقد وضعوا وضعا بحيث لايلتفتون يمنة ولا يسرة ووجوههم مولية تلقاء آخر المغارة من الجهة المقابلة لبابها، وهناك نار أوقدت وراءهم فى الطريق وبينهم أيضا وبين النار سور والناس يغدون ويروحون خلف هذا السور أى فى الجهة التى فيها النار وهؤلاء الذين يمرون يحملون معهم صور الحيوان والنبات والشجر. فهؤلاء الذين فى المغارة لايرون إلا ضوء النار اللامع فى المغارة أمام أعينهم وهم لايرون النار ولا السور وإنما يرون تلك الصور

مرسومة على حيطان المغارة أى صور الناس والحيوان والنبات . فهؤلاء لايعلمون من الوجود إلا تلك الظلال فيسمون تلك الظلال بأسماء على حسب مايتفق لهم . قال فإذا أتيح لواحد منهم أن يخرج من المغارة إلى خارجها فانه يرى الحقائق خلاف مايرى إخوانه . يرى أن النبات والحيوان والإنسان الحقيق غير الخيالات ويرى تلك الحقائق مجسمة فعلا ماثلة وراء السور أمام النار ، ثم ينظر فيرى أن إخوانه مغرورون إذ يظنون الظلال حقائق ثم ينظر هو فيرى أن الحيوان والنبات والإنسان وما أشبهها ماهى إلا صور صورت فوق الأرض بأسباب سماوية كضوء الشمس والقمر والكواكب بل نفس النار آتية بحسب أصلها من آثار ضوء الشمس فى الأشجار والنبات وهناك يرى أن السبب الحقيق لهذه المخلوقات إنما هى الشمس فيرى الليل والنهار والفصول الأربعة وإذ ذاك يدهش من هذا الجمال والإبداع ويعرف أصل الوجود اه .

فهناك (أمران : الأمر الأول) أهل المغارة يرون خيالات (الأمر الثانى) هذه الأجسام الحقيقية والنار المتقدة أصلهما الشمس . فكما أن الخيالات فى المغارة لاحقيقة لها هكذا النبات والحيوان وسائر الدواب والنيران لاحقيقة لها بالنسبة للشمس . فالشمس هى الأصل والمخلوقات على الأرض تبع لها ، ثم إن أهل المغارة أشبهوا أهل الأرض والصور الخيالية فى ضوء النار بالمغارة تمثيل لكل جماد ونبات وحيوان ومخلوق على الأرض وضوء النار فى المغارة تمثيل لضوء الشمس ، فالشمس وماتفرع عنها من الفصول والدهور وما خلق بسببها من الحيوانات والنباتات خيالات وصور غير ثابتة والوجود الحقيق هو الخير المحض وهو الله تعالى .

فما أهل الأرض إلا عوالم لم يعرفوا الحقائق المخبوءة وراء هذا العالم وهو الخير المحض الذى يدركونه إذا نظروا إلى نفوسهم وهذا الخير المحض هو الله تعالى . فانظر إلى أفلاطون القائل : إن هذا العالم له مثل (جمع مثال) وتلك المثل دائمة وهى عوالم روحانية دائمة وأن هذا العالم فان وأنه يجب علينا أن نطلب ذلك العالم الباقى ونذر هذا الفانى ولا يكون ذلك إلا بالجد والاجتهاد ، فكما أن أصحاب المغارة لايمكنهم أن ينظروا نور القمر ولا نور الشمس إلا تدريجا بمعنى أن الواحد منهم ينظر بعد خروجه أولا إلى صور الأشياء فى الماء ، ثم إلى نجوم الليل فى الماء ، ثم إلى نفس ضوء النجوم ثم إلى ضوء القمر ثم إلى صور الأشياء نهارا فى الماء ثم إلى نفس الأشياء ، وهكذا كل ذلك بالتدرج . هكذا لا يمكن الناس أن يصلوا إلى الحقائق إلا تدريجا بطرق منظمة على طريق الاحتيال . والحياة كلها يجب أن توجه النفس فيها إلى طرق العلم توجها تاما لاهوادة فيه ولا عوج ، وبدون ذلك لايتسنى نيل المرغوب من الوصول لحقائق الأشياء ، ويقول إذا عرف الناس ذلك حقروا هذا العالم الفانى وأحبوا الوجود الحق .

أقول : ولكن ليس هذا بحسب الطريق التى يتبعها جهلة المسلمين النائمين . كلا ، بل هى طريق العلم والعمل والجد المستمر . كل ذلك تشير له آية «الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا» الخ فالله عز وجل ألهم الناس فاستخرجوا النار من الشجر ، ثم ازدادوا علما بالمخترعات فى عصرنا الحاضر ، عصر الراديوم وعصر أعجب الاختراعات وألهم الحكماء من الناس فاستخرجوا من النظر فى نفوسهم معرفة ربهم فعاشوا فى الدنيا مفكرين فى إسعاد أنفسهم وأممهم والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الاثنين ١٨ مارس سنة ١٩٢٩ .

(تذكرة في قوله تعالى «الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون»)

(يوم الأحد ٢ فبراير سنة ١٩٣٠ عند صلاة سنة الصبح، وأنا أردد آية «وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا»)

تباركت يا الله وتعاليت، وأعجبنا كلامك كما أدهشنا صنعك، ذكرت لنا أنك جعلت لنا من الشجر الأخضر نارا وبهذا تذكرنا آية «الله نور السموات والأرض» وأنك سميت سورة باسم النور ولم تسم سورة باسم النار، وأن رحمتك سبقت غضبك، وأن لك شموسا كشفوها حديثا لا حرارة فيها وليس يخرج منها إلا ضوء وأن الناس اليوم يريدون أن يجردوا أضواء المصابيح من الحرارة البالغة ٩٦ في المائة ويحولوها إلى ضوء، وتصبح الحرارة (٤) في المائة والباقي يكون ضوء كشموسك التي جعلتها ضوء لا حرارة فيه وتذكرنا قولك في (سورة الواقعة) «نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين» وهم الذين يكونون في الصحاري القفرة فيقدحون الزندين ويستخرجون النار. وقولك «وقودها الناس والحجارة» وقولك «وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا».

اللهم إن شأن النار في قولك وفي صنعك لعظيم، النار صنعك وأنت جميل فمصنوعك جميل يبهج العقول ويحير الأفكار، جعلت النار تذكرة كما جعلتها متاعا لنا. إذن هي لعقولنا تنور ولأجسامنا تدفئة ولمائنا مخرجة على هيئة بخار من البحار ولهوائنا محركة وهو يحمل سحبنا وهي لنباتنا منمية ولحيواننا منشطة ولعالمنا الأرضي كله نعمة لا عدد لأفرادها ولا حد لأوصافها.

لولا الحرارة ما كان حيوان ولا إنسان. لولاها لم يكن سحاب ولا رياح. النار نعمة من أجل النعم فهي والماء بهما الحياة وبهما الموت: بهما الحياة إذا اعتدلت بالميزان، وبهما الموت إذا لم يكن اعتدال الميزان بيدك.

وزنت عالمنا وجعلت للنار حدا وللماء حدا، وقلت لهما معا: أدخلا أجسام كل حيوان وكل نبات وكونا نعمة لأهل الأرض إذا كان هناك نظام وكونا نقمة إذا لم يكن نظام. إن جسم الإنسان فيه حرارة وفيه رطوبة بقدر معلوم فإن زادت الرطوبة المائية حصل الزكام والسل وجميع الأمراض الباردة، وإذا غلبت الحرارة كانت أنواع من الحمى وما يماثلها، ومتى اشتد أحدهما هلك الحيوان. إذن لابد من الحرارة مصحوبة بالرطوبة في جسم الحيوان وهذا يشير له قولك «ومتاعا للمقوين» وقولك «لعلي آتيكم منها بقبس» وهذه الحرارة الظاهرة الناتجة من الشمس ومن جميع أنواع النيران المتقدة لها آثار في النفوس تشاكلها. وفي الحديث «إن كل أم يتبعها ولدها» فإذا رأينا في الأجسام حرارة هكذا نرى في العقول والنفوس حرارة معنوية ولكن هذه أشد من تلك وأدوم. إذا اشتدت الحرارة على الأجسام أهلكتها ولكن إذا اشتدت آثارها كالحسد والغضب والحقد والغيرة والتعصب والطمع وأنواع العداوات وأنواع المحبة والعشق. فكل هذه إذا غلبت على الروح كانت لها عذابا واصبا. فاذا أهلكت النار الحسية الحي في لحظة فإن النار المعنوية في النفوس تلازمها وتكون لها عذابا واصبا كما نرى ذلك في متعاطي الخمر وأنواع التبغ والحشيش والأفيون فكل هؤلاء أصبحت نفوسهم فيها نيران الشهوات الخاصة قد لازمتها ويشير لذلك «إن عذابها كان غراما».

فهذه اللذات التي لا ترحم في مطالبتها للانسان نيران تطلع على الأفئدة وهي المعبر عنها في القرآن بقوله تعالى «لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون» وبقوله تعالى «ولا تخزنا

يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد» وأوضح هذا كله قوله تعالى «ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته» فإدخال النار الجسمية يتبعه الخزى والخزى هو مثل ماتراه فى الدنيا من أن الإنسان قد يسلب ماله أو ملكه فيخزى لشماتة الأعداء وفرحهم به . وهذا كله عذاب معنوى أشد من الحسى إذ جعله فى الآية أشد من الحسى لأنه سبب الفضيحة والشماتة للمعذب بها . فنحن فى هذه الدنيا بين (نارين) نار ظاهرة وهى إما معتدلة وهى المتقدة فى منازلنا المدبرة لآلاتنا الحارزة لخزنا الطابخة لطعامنا المجرية لسفننا المسيرة لقطرنا ولسياراتنا ولطياراتنا ولعرباتنا . فهذه نعمة علينا فى الأرض والبحر والهواء وفى أجسامنا وأجسام حيواننا . وإما غير معتدلة وهى التى تشب فى مخازننا وفى مدننا فجأة فتهلك الحرث والنسل . ونار باطنة وهى إما معتدلة فيكون منها الحب المورث انتظام الجماعات واستقامة الأمم . والكراهية المعتدلة التى بها يكون تفرق الجماعات على الأرض ليحصل الانتفاع بقطعها المختلفة . ولو أن الله لم يجعل فى القلوب إلا نار المحبة ولم يلطفها بما يضادها وهو الغيرة والحسد والتنافس لاجتمع الناس فى صعيد واحد فى الأرض وهلكوا . ولكن الغيرة والتنافس يورثان التباعد فيكون هناك ازدياد الخيرات والثمرات . فكما كان فى النار الظاهرة نعمة لنمو النبات والحيوان ودوران الآلات هكذا فى النار الباطنة نعمة . فالحب نار نافعة والبغض نار نافعة إذا كان فيهما اعتدال . فاذا لم يعتدلا وازداد الحب حتى أعمى المحب عن المساوى أو ازدادت الغيرة والغبطة والحسد حتى جاوزت المقدار كان هناك الحرب والإيذاء وخراب الديار . فالنار سواء أكانت ظاهرة أم باطنة منفعة لنا . وقد يكون فيها الهلاك .

وهنا سألنى بعض الإخوان قائلا : أريد تلخيص هذا المقام فهو كثير الشعب لاضابط له . فقلت انظر البيان الآتى :

القبس فرعان وهما :

(١) الحرارة .

(٢) الضوء .

(٣) الضوء معنوى يهدى إلى العلوم والمعارف .

(٤) حسى بالحواس الخمس المعروفة .

(٥) أما الحرارة فهى معنوية وحسية .

(٦) فالحرارة الحسية إما أن تعتدل وإما أن لاتعتدل .

(٧) فان اعتدلت فهى المتاع :

(٨) والحرارة التى سميناها متاعا هى إما جامعة وإما منمية وإما مدبرة وإما مثيرة .

(٩) فهى فى نحو الطين والعجين جامعة وفى النبات والحيوان منمية ولآلات الأرض كسكة الحديد ولآلات الماء كالسفن البخارية ولآلات الهواء كالطيارات (مدبرة) .

(١٠) والبخار من البحار والهواء (مثيرة مبشرة) وبهذا تمت أقسام الحرارة المعتدلة التى سميناها متاعا

(١١) أما الحرارة التى لم تعتدل فهى التذكرة وهذه التذكرة تكون طاغية فى الأجسام وفى المدن والحقول .

(١٢) فالطاغية فى الأجسام تحدث أنواع الأمراض كأنواع الحميات .

(١٣) والطاغية فى المدن والحقول تهلك الحرث والنسل . وبهذا تم الكلام على الحرارة الحسية المعتدلة والتى لم تعتدل .

(الحرارة

﴿ الحرارة المعنوية تنقسم كأقسام الحرارة الحسية المتقدمة ﴾

(١٤) أما الحرارة المعنوية فهى معتدلة وغير معتدلة .

(١٥) فان اعتدلت فهى إما مثيرة للعزائم فى الأعمال العظيمة .

(١٦) وإما مدبرة لنظام الفرد والأسرة والمدينة .

(١٧) وإما منمية لتلك النظم .

(١٨) وإما جامعة للناس بأنواع المحبة .

(١٩) والحرارة المعنوية إن لم تعتدل فهى إما محدثة لأنواع الأمراض المختلفات .

(٢٠) وإما موجبة للحرب والقتل بسبب العداوات المفرطة.

ثم قلت : فهذا الجدول المفرع (٣٠) فرعا به تعرف أيها الذكى بعض أسرار قوله تعالى فى هذه السورة «الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون» فإيقاد النار عادة يكون للمتاع وهذا يناسب قوله فى (سورة الواقعة) «ومتاعا للمقوين» وهذه لها تسعة فروع فى هذا الجدول ، وأما التذكرة فى (سورة الواقعة) فلها فرعان وهذه هى النار الحسية وتلحق بها المعنوية بقسميها ولها ستة فروع والهدى المذكور فى (سورة طه) له فرعان . فقط ، إذن التذكرة والهدى والمتاع والقبس هذه الكلمات الأربع المذكورة فى سور مختلفة تفرعت عليها جميع أعمال هذه الحياة ونظمها ، ثم إن الهدى والتذكرة والمتاع آثارها فى النفس باقية فان حرارة شوق النفوس إلى العلوم وتحصيلها على مقتضى تلك الحرارة ومزاولة أنواع الآلات الصناعية فى هذه الحياة تحدث فى النفوس ملكات تختلف باختلاف الأشخاص وهذه الملكات عملية فى فروع المتاع علمية فى فروع الهدى . ولا آخرة ولا جنة ولا لقاء لله فى الآخرة ولا سعادة إلا على مقتضى هذين الأصلين القوى العلمية بالهداية والقوى العملية بمزاولة أعمال متاع هذه الحياة .

اللهم إنى أحمدك على العلم والحكمة وعلى معرفة بعض أسرار التنزيل فى كتابك المقدس . إنك أنت اللهم أنت المنعم وأقول ماقاله بعض الصحابة رضوان الله عليهم .

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

فأنا يالله لولا توفيقك وإلهامك ونصرك لعبد ضعيف مثلى ما كتبت حرفا واحدا وهذا هو قول المسلم فى الرفع والاعتدال فى الصلاة «اللهم لامانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، فلك الحول ولك القوة ولك الملك والملكوت» .

فقال صاحبى هذا حسن جدا واضح جميل ولكن هذا الموضوع كان أليق بسورة طه أو بسورة الواقعة قلت : نعم ولكن لم يفتح الله به إلا فى هذه الأيام فى أوائل شهر رمضان فأثبته فى أقرب سورة إلى الطبع فقال : استوف المقام إذن لأنى أرى أن له بقية ، فقلت : لا أدرى ماذا تريد . فقال : أريد إتمام الكلام على قوله تعالى «وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا» الخ . لم هذا التشويق بجملة «وهل أتاك» الخ وعلى الشمس وحرارتها فإن لها بقية صالحة . فقلت : نعم هنا (فصلان : الفصل الأول) فى التشويق بقوله تعالى «وهل أتاك حديث موسى» الخ (الفصل الثانى) فى إتمام الكلام على حرارة الشمس وضوئها .

الفصل الأول

(فى الكلام على التشويق بقوله تعالى «وهل أتاك حديث موسى »)

اعلم أن القصص فى القرآن أريد به بعث الهمم وشحذ الأذهان . إن هذه الأمم الإسلامية التى نامت فى القرون المتأخرة ستستيقظ من رقدتها بمزاولة القرآن واستكناه معانيه. ومامثل المسلم حين يقرأ علما أو يستفيد حكمة من أى فرع من فروع العلوم العلوية أو السفلية الحسية والعقلية إلا كمثل رجل رأى قافلة مقبلة وأهله فى منزله لاقوت عندهم وقد انتظروا الطعام وأنواع الأمتعة من هذه القافلة . أو رأى سحائب أقبلت وهو فى أشد الجوع والعطش فأقبل إليهم يقول بشراكم هاهى ذه القافلة أقبلت أوهاهى ذه السحائب ستمطركم وهذه عادة كل امرىء مع من يتصل به فهو إذا رأى مغنما قد اقترب وهم فى انتظاره أسرع إليهم وبشرهم . وهل هـذه إلا حال موسى عليه السلام . رأى نارا وهو متعب فى طلب (أمرين) الهداية لله والدفء لأهله التى تضع ولا مغيث لها ولا معين فى صحراء طور سيناء ، فأراه الله النار فى شجرة العليق فبشر أهله بها . وهل هذه القصة جاءت لمجرد حفظها أو فهمها أو معرفة بلاغتها أو مجرد الإيمان بها : كلا . والله فهذه مرتبة العجائز وصغار المتعلمين .

أيها المسلمون : لايغرنكم البلغاء ولا الشعراء ولا صغار العلماء . أو لاتعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن كتب الحكماء ككتاب كليلة ودمنة الذى جاء على ألسنة الحيوانات قد قبلته جميع الأمم وهذه الحوادث التى فيه كحادثة ابن الملك والطائر (فنزه) فان هـذا الطائر كان له فرخ يلعب به ابن الملك فزرق فى حجره فقتله فأقبل الطائر ففقأ عين ابن الملك اقتصاصا لابنه فأراد الملك أن يخدع الطائر ويقول له أقبل ويكون بيننا الصلح فعلم الطائر أنه يريد الغدر به فلم يقبل وكانت نتيجة ذلك هذه الحكمة : (إنه لا أمان لعدو قوى له علينا ثأر وإن أظهر لنا تضرعا وملقا) وكحادثة الجرذ والسنور إذ ضرب مثلا لرجل كثر أعداؤه وأحدقوا به من كل جانب فأشرف معهم على الهلاك فالتمس النجاة والمخرج بموالاة بعض أعدائه ومصالحته فسلم من الخوف وأمن ثم وفى لمن صالحه منهم، ذلك أن الجرذ خرج يوما فرأى السنور وقع فى شبكة الصياد ورأى ابن عرس خلفه يريد أخذه وفى الشجرة بوم يريد اختطافه أيضا فصالح السنور وهو أحد أعدائه لينجو منه ومن الباقى فقطع حباله إلا واحدا حتى لايختاله السنور ، ولما رأى ابن عرس والبوم اقترابه من عدوهما يئسا منه وانصرفا ، فلما أقبل الصياد نحو السنور أقبل الجرذ فقطع الحبل الباقى فنجا السنور بذلك كما نجا الجرذ وانتهى الأمر .

فهاتان الحادثتان يفرح بهما الأطفال والجهال باعتبار ظواهرهما ، أما رجال السياسة ورجال الحكمة وهم سادات الأمم فى الدنيا والدين ، فانهم يقولون إن المقصد أن الأفراد والأمم عليهم أنهم إذا وقعوا فى ورطة وتألبت عليهم الأعداء أن يصالحوا بعضهم مع الاحتراس وبهذه المصالحة ينجون من بقية الأعداء ومن نفس ذلك العدو الذى صالحوه ، وهذا هو الذى فعله الانـكليز إذ صالحوا أمة شرقية هى اليابان إذ حاربت الروسيا التى كانت تناوىء انـكلترا ، وهكذا فليفعل الأفراد مع بعضهم . وهذه الطائفة إذا قرأت «وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا» تفهم فوق مايفهمه الجهلاء . فماذا يقولون ؟ يقولون إن كل عاقل فى الأرض لاسيما المسلمين عليه أن يسعى (لغرضين: الأول) إصلاح حال الأمة من حيث الأمور المادية (الثانى) إصلاحها من حيث الهداية العقلية ، وهذان يجمعان القبس والهداية ، فالأول مادى والثانى عقلى وهذا هو نظام

الأمم جميعها ، فلا نظام لأمة تخرج عن هذين الأصلين . وإذا كنا نجد مصالحة الجرذ السنور ونجاته من ابن عرس والبوم جعلت رمزا لمصالحة بعض الدول المعادية أو الجماعات للنجاة من الجميع وهذا سر كلام فيلسوف مخلوق أفلا يكون كلام الله أولى باستنتاج الحكمة والعلم .

فقال صاحبي : هذا حسن ولكن هذه المعاني مصرح بها في القرآن إذ يقول الله « وخذوا حذركم » ويقول « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » وأمثال ذلك في القرآن كثير فلا نطيل به . فقلت : نعم ولكن الرموز مزية ليست للتصريح . فالرمز آثاره قيمة نافعة عظيمة الأثر . فللناس حكم مسطورة في الكتب ككتاب [الأمثال] الميداني ولهم حكايات مختلفة الأساليب وكلها ترجع لأغراض الحياة . هكذا القرآن فهو كما يقول « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » هو نفسه يذكر عادا وثمودا وأصحاب الرس ويختم أخبارهم بإهلاك الكافرين وهذه طرق مختلفة لابد منها كما اختلف الطعام والشراب والزروع والأدوية . كل ذلك لنظام الحياة على الوجه الأكمل .

(آية « لعلى آتيكم منها بقبس » أيضا وآثارها عند فلاسفة اليونان)

كتاب كليلة ودمنة كتاب هندى ترجم للفارسية وترجمه ابن المقفع للعربية وهاتان الحادثتان ذكرناهما هنا لمجرد التنظير وإن كان بينهما بون بعيد لأن كتاب [كليلة ودمنة] قصد بظواهره الخرافة وببواطنه الحكمة والعلم . أما قصص موسى فظاهره حقيقى لأنه نسب إلى نبى مع أهله وهذا السر وقع بخلاف مسألة السنور والجرذ فهما خرافيان وهنا أمر جدير بالتعجب وهو أن القرآن ذكر النار وقبسها والهدى فى هذه الآية التى ذكرناها هنا لمناسبة آية « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا » الخ .

ذلك أن أفلاطون فى جمهوريته ذكر النار فى هذه المعانى نفسها قبل نزول القرآن بنحو (٨) قرون وهذا هو معنى قوله تعالى « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » فلا زلنا نرى فى القرآن آيات قد تقررت وثبتت فى العلم والحكمة كالذى تقدم فى سورة النور إذ يقول الله تعالى « وينزل من السماء من جبال فيها من برد » الخ مع أنه لا جبال فى السماء ينزل منها برد فظهر بالكشف الحديث أن فى السماء جبالا من ثلج يصنع فيها البرد (انظر صورته المأخوذة ومعها الطيارة التى كان فيها المصور تصويرا شمسيا هناك) فهذه آية استبانت فى العلم الحديث وذكرها القرآن قبل ذلك بنحو (١٣) قرنا وهكذا آية « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا » الخ فهذه لم تظهر إلا حديثا إذ ظهر لأهل العلم أن الأرض والكواكب السيارة مشتقات من الشمس وهكذا سيأتى فى (سورة الحديد) أن الأقباط بمصر قد عثروا حديثا على أن الرهبانية ليست من أصل الدين المسيحى ولكنها ابتدعها رجل مصرى فى القرن الثالث المسيحى خاف من الوثنيين الرومانيين الذين يحكمون البلاد ففر إلى الجبال وتبتل فنحا نحاه ذلك سنة وهذا قوله تعالى « ورهبانية ابتدعوها » وأثبت بعض الأقباط فى كتاب [الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة] ذلك وقالوا لم نكن نعرف هذا إلا فى زماننا ، فهكذا هذه الآية فإن قبس النار والهدى قد جاء فى كتاب (جمهورية أفلاطون) فهى آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من اليونان وجاء بها الوحى . فإذن طابق الوحى الحكمة والفلسفة وأصبحت أقاويل الفلاسفة شروحا لآيات القرآن سواء أكانت قديمة العهد أم حديثة أم مستقبلة . وهاك ملخص المقالة السابعة من جمهوريته ، وقد كتبنا لها ملخصا وجيزا فى (سورة الأنعام) عند آية إبراهيم وأنه رأى كوكبا الخ فلنوسع المقال فيها هنا فنقول :

قال ماملخصه : إذا أردنا أن نعرف حال النفس الإنسانية علما وجهلا فلنتصور مغارة عميقة خلفها نار فيها أناس قد وضعوا فى الأغلال وظهورهم إلى تلك النار ووجوههم موجهة إلى الجهة الأخرى فلم يروا

من الوجود إلا أشعة تلك النار قد أضاءت ما أمامهم من حائط المغارة وهناك أمام النار خلف ظهورهم حائط مرتفع وبين النار والحائط طريق يمر فيه أناس يحملون تماثيل مختلفة من أمتعة وحيوانات ونبات وجمادات ولا ريب أن النار المتقدة تحمل تلك الصور فتلقيها مع الحائط بضوئها فيرونها .

فأصحاب المغارة هم ضرب مثل لنا نحن سكان هذه الأرض ، فهم لايرون إلا الضوء والأشباح المصورة فيه فلا ريب يسمونها بأسماء مختلفة . فإذا نبغ أحدهم وخرج من بينهم فرضا وأراد مقابلة الشمس فربما عمى فلا سبيل له إلا أن يبصر أولا ظلال الأشياء خارج المغارة ثم ظلالها فى الماء ثم نفس الأشياء ثم صور النجوم فى الماء ليلا ثم نفس النجوم فى السماء ثم صورة القمر فى الماء ثم نفس القمر وضوءه ثم يرى صورة الشمس فى الماء ثم نفس الشمس وضوءها ، وهنالك يعلم علما ليس بالظن أن الأشباح التى يراها أصحابه فى المغارة ليست حقائق بل هى خيالات لصور المواليد الثلاثة وغيرها مما على الأرض : وكل ما على الأرض من حيوان ونبات وجماد هى حقائق تلك التماثيل وهذه نتائج للشمس . فهنا أربع مراتب : الظلال ، التماثيل ، نفس الأشياء من نبات وحيوان الخ . الشمس . فالأصل الشمس وغيرها عنها وجد وأقلها مرتبة الظلال فى المغارة إذن فكر فى نفسه وقال إن لى إخوة بالمغارة فلابد من أن أرجع اليهم ، فاذا تصورنا رجوعه إليهم فإنه أولا لايقدر أن يعيش فى الظلام كما كان معهم إلا تدريجا ، فاذا استقر قراره وألقى عصاه واستقر به النوى هنالك يخاطبهم بما يقرب إلى أفهامهم لابنفس الحقائق لئلا يكذبوه ولأنه إذا قال هناك شمس وهناك نجوم وهناك حيوان ونبات هى أصل لهذه التماثيل كذبوه فهو يسلك معهم سبيل الحكمة فلا يزال يعلمهم حتى يعرفوا منه أن لهذه الأشباح أصولا هى التماثيل والتماثيل صور للمواليد الثلاثة ونحوها وكل هذه من الشمس بل نفس النار المتقدة الأصل فيها ضوء الشمس إذ لولاها لم تكن ويفهمهم الفصول الأربعة والسنين وكل شىء وهناك يكون أصل هذه المغارة طوائف ثلاثة : مصدقون ومكذبون وشاكون متحيرون . وهذا كله مثل لحالنا نحن فإن المغارة هى عالمنا المحسوس والنار ضوء الشمس والذى خرج من بين أهل المغارة هى نفس الفيلسوف مثلا إذا عرف الحقائق ورجوعه ثانيا إلى أهل المغارة مثل لإرشاده لأهل بلاده وتعليمهم شفقة عليهم . فالشمس بدل النار عبر بها عن الله وضوءها بدل ضوء النار عبر به عن إفاضة رحماته ونفس المخلوقات حية وغير حية بدل التى سميت (المثل الأفلاطونية) وهى عوالم روحية وهذه المخلوقات صور لها ظاهرة ونحن أهل الأرض مثل لأهل المغارة والأنبياء والحكماء مثل لذلك الذى خرج من بينهم فعرف ورجع ليرشدهم .

(١)	(٢)	(٣)	(٤)	(٥)
(١) الله (٢) الشمس (٣) النار	تدبيره الضوء ضوء النار	المثل الأفلاطونية العالم المحسوس ظلاله فى المغارة .	نحن أهل الأرض سكان المغارة تصورهم لتلك الظلال	(١) ارتقاء نفس الفيلسوف وتعليمه لأمته (٢) خروج أحد سكان المغارة ثم تعليمهم ثانيا (٣) اختلاف أهل المغارة فى قول عالمهم واختلاف الناس فى أقوال فيلسوفهم وكل معلم لهم .

هنالك تدرك النفس حقائق الأشياء وترى أن هذه العوالم آثار العالم المعانى فتتوجه إلى مبدع هذا النظام ثم قال : ولا سبيل لتعلم رؤساء الجمهورية الحقائق إلا بالتعود على الرياضات البدنية والموسيق ولابد من امتحانهم فى المخاطر والصبر عن اللاذ ، وهكذا علوم الحساب والهندسة والهيئة ثم الموسيق لتتعود النفس المراقبة الدائمة ثم يتلو ذلك الأعمال الحربية مدة عامين أو ثلاثة ثم علوم الرياضيات كرة أخرى فاذا بلغ التلميذ (٣٥) سنة فلينتقل إلى علم معرفة الخير المحض والجواهر العقلية وهذا العلم هو الأصل وبقية الموجودات كالخيال بالنسبة له بل هو الحقيقة وكل العلوم ظنون ، وهذا يكون فى خمس سنين ثم يدربون على الأعمال الحربية وغيرها ثم تسلم لهم المدينة فى سن الخمسين اهـ .

هذا ملخص الكتاب السابع من جمهورية أفلاطون ، وهل هذا الفصل كله إلا صدى لصوت موسى « إذ قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » ولست أقول إن أفلاطون قرأ هذه الآية فهذا مستحيل لأنها نزلت بعده بقرون ، ولكنى أقول هذا الله وكلام الله آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، ومن الذين أوتوا العلم أفلاطون وأفلاطون ذكر أن أحد أهل المغارة عرف فرجع وعلم إخوانه وهو نفسه حكاية موسى إذ رأى نارا فرجا أن تكون له مخرجا فى أمر المعاش بالقبس من حيث حرارتها وأمر المعاد بالهدى من حيث ضوءها ، وهذا هو ملخص الكتاب السابع لأفلاطون فهو استنتج من النار على حائط المغارة نتائج أوصلته إلى الشمس ثم إلى الله وهذا هو نفسَ الهدى الذى جاء على لسان موسى إذ قال «أو أجد على النار هدى» فهذا الفيلسوف وجد على النار هدى بالبحث دله على الله والنبى موسى عليه السلام نودى أن بورك من فى النار ومن حولها فجاءه الهدى بطريق الوحى عند النار .

اللهم إنى أحمدك على العلم وأحمدك على التوفيق « اللهم لامانع لما أعطيت ولامعطى لما منعت » اللهم إنك أنت الملهم والمعلم ولو تركتنى وشأنى فى هذا التفسير لم تكن لى قدرة أن أوازن ما بين كلام أفلاطون وهذه الآيات القرآنية ولم يكن لى من العلم مايجمع بين هذه الأمور المتباينة ظاهرا المتشاكلة حقيقة .

أيها المسلمون . كفى نوما . هاهوذا موسى عليه السلام يقول لأهله « إنى آنست نارا » وهاهى ذه الحكمة فى أقطار الأرض يتعلمها الناس وهذه الجمهورية الأفلاطونية تدرس فى سائر أنحاء الغرب والشرق ومقالاتها فى تربية الجند والجيش والتدريب يتردد صداها بين أهل أوروبا الذين تنظرون لهم نظر الإعظام

والإجلال . إذن علوم الحكمة قبس من أنوار القرآن ، إذن لتدرسوا كل حكمة وعلم . ومن قرأ هذا التفسير أو أكثره فإنه لامحالة لايستقر له قرار ولا يكون له اصطبار إلا إذا سعى سعيا حثيثا لرقى الأمم الإسلامية بل جميع الانسانية فى الأرض . فليقل كل قارىء لهذا التفسير أو نحوه لأمته « إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » .

هذا ماخطر لى فى صلاة الصبح فى التاريخ المتقدم إجمالا وكان تفصيله وقت الكتابة . انتهى الكلام على الفصل الأول فى التشويق بقوله تعالى « وهل أتاك حديث موسى » .

الفصل الثانى

(فى إتمام الكلام على حرارة الشمس)

معلوم أن الشمس تشع منها حرارة وضوء والحرارة تثير البخار وتثير الهواء وتثير السحاب . وهذه الإثارات الثلاثة يراد بها تنمية أغذية الحيوان والإنسان وإراحتهما وإسعادهما . فهاهنا ساقت الشمس بأمر الله ماء وهو للعالم الحيوانى . فلم يكن الغذاء ولم يكن الدواء ولا الروائح العطرية ولا لذائذ الذوق واللمس وجمال المبصرات آتيا من الشمس مباشرة بل اتخذ التدبير الإلهى واسطة بين الشمس وبين الحيوان والإنسان ، ولكن الشمس التى هى مصدر هذا كله لاتقف عند هذا الحد ، فهى بحرارتها تحيط بجسم الحيوان كل يوم فتميت الأحياء الذرية وهى (المكروبات) بنفسها لابواسطة وتفعل فى الجو مع المادة الملونة (كلوروفل) العائمة فى وسط السائل الداخل فى فتحات الأوراق اللاتى تعد بمئات وبألوف وبملايين فى الورقة الواحدة . انظره فى قوله تعالى «سبحان الذى خلق الأزواج كلها» الخ الذى تقدم قريبا وبهذا الاتحاد بين ضوء الشمس وبين تلك المادة تجتذب الورقة المادة الكربونية من الهواء وهذه المادة بها حياة الشجر وقيام هيكلها وصلاح حالها وظهور أزهارها وأثمارها وجمالها وحسنها وبهائها . إذن الشمس تميت الأحياء بواسطة الهواء والماء تارة وبنفسها تارة أخرى . انتهت اللطيفة السابعة .

اللطيفة الثامنة

(فى قوله تعالى «فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء»)

وذلك فى بيان شكل الكون وسعته والكشف الحديث لملايين النجوم ، أما شكل الكون إجمالا فهاك ماجاء فى (المقتطف) وهذا نصه :

﴿ شكل الكون وعظمته ﴾

ارتأى الفيلسوف (فيثاغورس) فى القرن الخامس قبل المسيح أن الأرض كرة فوضع أساس علم الكون (كوسمولوجيا) ولكنه وجد من الصعوبة هو وتلاميذه فى إثبات رأيه ماتجده الآن لإثبات مايراه علماء عصرنا فى شكل الكون وعظمته . والرأى المعول عليه الآن أن الكون كرة مجوفة إذا سار النور من الطرف الواحد منها إلى الطرف الآخر مارا بمركزها استغرق سيره مائة مليون سنة مع أنه يقطع فى الثانية من الزمان (١٨٦٠٠٠) ميل والعوالم كلها أى نجوم المجرة التى شمسنا منها والسدام كلها عوالم مثل المجرة وهى سابحة مثلها فى فراغ هذا الكون . ويظهر فى بادىء الرأى أن تصور ذلك ضرب من المحال لكثرة هذه الملايين

ولكن

ولكن مامن أحد يتعذر عليه أن يقابل بين حبة رمل وبين جبل كبير كجبل المقطم فى مصر أو كجبل صنين فى لبنان . فحبة الرمل إذا كان قطرها ربع ملليمتر تسهل رؤيتها ويسهل لمسها وإذا اتصلت بالطعام نشعر بها ونحن نمضغه ونتألم من احتكاكها بأسناننا ومع ذلك فنسبتها إلى جبل مثل جبل صنين من قاعه إلى قمته كنسبة واحد إلى نحو ألف مليون مليون مليون وإلى الأرض كلها كنسبة واحد إلى ستة ملايين مليون مليون مليون مليون مليون مليون . وأما سدمه فهاك ماجاء فى إحدى المجلات وهذا نصه :

قد يفوق السدم بعض عالمنا المجرى [1] فى العظمة والزهاء . وتنبأ (هرشل) بأننا إذا بحثنا فى كنه هذه السدم فإننا سنجد بعضها يختلف اختلافا بينا عن كنه النجوم ، وقد تحققت نبوءة هرشل هذه عام ١٨٦٤ حين حلل وليم هاجنز أطياف السدم فوجدها تختلف اختلافا بينا عن أطياف سائر النجوم ، وتدل دلالة واضحة على أن ثلث عدد السدم على الأقل من مادة غازية متخلخلة ، وقد تقدم البحث فى طبائع السدم تقدما كبيرا عندما بدئ فى استعمال طريقة التصوير الفوتوغرافى فى الأرصاد الفلكية ، ففى عام ١٨٨٠ نجح هنرى دربير فى الحصول على أول صورة فوتوغرافية للسديم الأكبر فى برج الجبار ثم إن كمن وروبرتس حصلا فى عام ١٨٨٨ لأول مرة على صورة ظاهر فيها النظام اللولبى للسديم الأكبر فى برج اندروميدا (انظر شكل ٧٩) بأن عرضا لوحا فوتوغرافيا لمدة ثلاث ساعات أمام منظار عاكس قطره عشرون بوصة . ويبلغ عدد السدم التى يمكن تصويرها بواسطة أحد المنظارات اليوم فى أنحاء السماء نحو المليون ، وتنقسم السدم بوجه عام إلى قسمين . مجرية ولا مجرية وذلك على حسب قربها أو بعدها عن العالم المجرى . والرأى السائد أن السدم اللامجرية تمثل عالمين فى درجات متقاربة من أدوار تطورها . وقد سميت هذه العوالم بالجزر العالمية .

وبناء على هذا الرأى يكون هناك مئات الألوف من هذه الجزر العالمية متباعدة الواحدة عن الأخرى بما يقدر بملايين السنين الضوئية [2] وقد قدر شدتلى قطر السديم الأكبر فى برج اندروميدا بمقدار ٤٥٠٠٠ سنة ضوئية وقدر قطر السديم المرموز له بالرمز (م) بحوالى ١٥٠٠٠ سنة ضوئية . وهذه الأبعاد وإن كانت تقل عن قطر عالمنا المجرى إلا أنها كبيرة كبرا كافيا بحيث تسمح لنا باعتبار هذه السدم عوالم مستقلة
كانت تقل عن قطر عالمنا المجرى إلا أنها كبيرة كبرا كافيا بحيث تسمح لنا باعتبار هذه السدم عوالم مستقلة
(انظر شكل ٨٠) .

على مصطفى مشرفه

---

(١) نسبة إلى نهر المجرة ، واسمه فى العامية (سكة التبان) وهو مجموعة من النجوم المتكاثفة تظهر لنا عرض السماء كنهر مضىء . والعالم المجرى مؤلف من المجموعة الشمسية وسائر نجوم نهر المجرة .

(٢) السنة الضوئية هى مايقطعه الضوء من المسافة فى السنة وتساوى نحو ستة ملايين الملايين من الأميال .



(شكل ٧٩ — السديم الأكبر في برج اندروميدا) صورت يوم ١٨ سبتمبر سنة ١٩٠١ بمرصد يركس)



(شكل ٨٠ — السديم الأكبر في برج الجبار) صورت يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٩٠١ بمرصد يركس

نور العلم فى أواخر هذه السورة

(١) انحصر العلم اليوم فى النور .

(٢) ليس فى الدنيا مادة محققة .

(٣) كل ماتراه أو تسمعه أو تشمه أو تذوقه أو تلمسه إن هو إلا حركات .

(٤) اقرأ هذا المقام فيما تقدم فى (سورة النور) تحت عنوان (قطرة ماء) عند آية « الله نور السموات والأرض » الخ فهناك تجد الذرات المائية ترجع إلى الكهرباء السالبة والكهرباء الموجبة التى يجرى أولها حول ثانيها ستة آلاف مليون مليون فى الثانية الواحدة .

(٥) فإن نقص عدد الحركات كانت للظاهر غير ذلك كان نحس بها نورا وهو ينحصر فى عدد بين (٤٠٠) و ٧٠٠ مليون مليون مرة فى الثانية فأدناها لون الحمرة وأعلاها البنفسجى .

(٦) وإن زادت سرعة الحركات عما تقدم فى الحال الرابعة كان عندنا مانشمه ونذوقه ونلمسه من المواد كالحديد والنحاس وما أشبه ذلك .

(٧) إذن العالم الذى نعيش فيه حركات والحركات بتنوعها صارت كهرباء ونورا وماء وحديدا ورصاصا

(٨) وهذه المظاهر التى أحدثتها الحركة يحفظها نظام بديع جميل يختلف باختلافها .

(٩) خذ لك مثلا عرف علماء القرن التاسع عشر فى النصف الأول منه أن كل عنصر من العناصر الكيمائية لن يدخل فى تركيب مادة إلا بنسبة خاصة لاتتعداها هى ومضاعفاتها ويسمى ذلك عندهم (قانون النسب المضاعفة) وقد تقدم بعضه فى (سورة البقرة) عند آية « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى؟ » فالأكسوجين له رقم (١٦) والكربون رقم (١٢) فلن يدخل الأكسوجين مع الكربون إلا على هذا العدد أو مضاعفاته كما أن الجرثومة الأولى التى يتكون منها الحيوان والنبات تسير على طريقة المضاعفة أيضا (١-٢-٤-٨-١٦ - ٣٢) وهكذا ، اقرأ هذا المقام فى (سورة مريم) إذ ترى هناك أن هذه العوالم كلها عند تركيبها تسير على طريقة المضاعفات فى رقعة الشطرنج . لجسم الإنسان والحيوان والنبات لايتعدى نظرية الفيلسوف (صصه بن داهر) الحكيم الهندى الذى طلب من الملك أن يمنحه حبات بر تكون بحسب المضاعفات المبدوءة بعدد (١ - ٢ - ٤) المنتهية بعدد (٦٤) وقد ظهر هناك أن القمح المزروع فى الأرض كلها سنين وسنين لايبلغ مبلغه . أقول : نظير هذه المسألة التاريخية جميع مركبات الأجسام الحيوانية والنباتية . فالمسألة التى ذكرناها هنا وهى تركيب الأكسوجين مع الكربون على هذا النمط تسير هى وغيرها فيكون التركيب فيهما (٣٢) من الأكسوجين مع (١٢) من الكربون أو (١٦) من الأول مع (٢٤) من الآخر وهكذا ، والذرات التى حسبها أولئك العلماء فى القرن الماضى وبنوا عليها ماتقدم وعلى رأسهم (دلتن) وظنوا أنها لن تتجزأ بعد ذلك أصبحت فى قرننا هذا مجزأة بحيث إن أخف ذرة من تلك الذرات تحلل إلى (١٠٥٠) جزءا يسمونه (الكترون) وهل هذا الالكترون إلا نقطة كهربائية ، إذن الدنيا كلها نقط كهربائية كالذى تقدم فى (قطرة الماء) فى (سورة النور) ومن هذا الباب عرف العلماء اليوم أن العناصر التى كشفوها وهى نحو (٧٠) ليست ثابتة فكل عنصر منها يمكن أن يحول إلى غيره مثل ماوجدوا أن الراديوم استخرج منه عنصر الهليون وعنصر الرصاص المعلوم الذى تصنع منه الأنابيب .

(١٠) الأستاذ (السير ارنست رذرفرد) الأستاذ بجامعة كامبردج حول عنصر الأوزوت وهو (غاز) طبعا يكون ⅘ الهواء الجوى إلى عنصر الأيدروجين الذى هو أحد عنصرى الماء ، وقد حصل على الأيدروجين من العناصر الآتية وهى : (البور ، الفلور ، الصوديوم ، الألومنيوم ، الفسفور) .

(١١) إذن لا حواجز تحجز المواد أن ينقلب بعضها إلى بعض وثبت ثبوتا لاريب فيه لعلماء عصرنا أن العالم كله نقط كهربائية ، إذن نحن اليوم جميعا فى مواد نارية ولكنها ماطفة بهذه المظاهر ولم يعرف الناس ذلك إلا بالتحليل الذى تشير له حروف أوائل السور ومنها الياء والسين ، ومن نتائجهما أن الشجر الأخضر اتقد نارا ، فإذا كان الكون كله نارا والشجر الأخضر المذكور فى الآية ضرب مثل له كله ، فلنعجب إذن من القرآن وعلومه التى تنطبق كل الانطباق على مباحث علماء العصر الحاضر . فعلماء عصرنا يقولون كما سمعته الآن أن الذرات الكهربائية ركبت منها حواسنا هذه المظاهر كلها والقرآن يحلل الحروف فى أوائل السور ويذكر أن الشجر الكثيف الجسم حول إلى نار بالاحتكاك . ثم انتقل إلى المقصود إلى ماهو أدق فقال : «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون» .

إن الإنسان إذا نطق فلامعنى لنطقه إلا حركات فى الهواء إن نقصت عن (٣٢) حركة فى الثانية لم نسمعها وإن زادت عن (٣٢) ألف حركة فى الثانية لم نسمعها كما أن الحركات فى الأثير إن نقصت عن (٤٠٠) مليون مليون لم نرها وإن زادت عن (٧٠٠) مليون مليون لم نرها . إذن لاصوت ولا حرارة إلا بحركات ذات عدد مخصوص فلا فرق إذن بين كلامنا وبين ضوء الكواكب وغيرها فى أنها كلها حركات . فكما أن نطقنا بالكلام توجد به عوالم الكلام هكذا تحريك الله للأثير يصدر عنه الأنوار وجميع المواد . إذن الوجود كله أمر أشبه بالمعنوى تنوعت مظاهره . لذلك ختم السورة بالحقيقة فقال تعالى . «فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء» ذلك لأنها كلها أمور جعلت مظاهر له هو وإلا فهى لاشىء .

ياعجبا : اتفق العلم والقرآن اليوم اتفاقا بديعا ، ومن أعجب العجب أن تكون الآراء العلمية التى تحفظها عقولنا ماهى إلا حركات فكرية . إذن الأجسام كلها حركات نارية والمعانى كلها حركات فكرية قائمات بعقولنا . فكما أن الحركات القائمة بالأثير كونت ماسميناه مادة بحسب الظاهر هكذا الحركات القائمة بعقولنا كونت ما سميناه علما ، ونحن إلى الآن لم نعرف ماهو الأثير الذى جرت فيه هذه الحركات الظاهرية ولا ماهى أرواحنا التى جرت فيها الحركات التى سميناها علوما .

فياليت شعرى هل يعرف الناس بعدنا سر هذه الروح وسر هذا الأثير ولكننا نكتفى الآن بهذه الكلمة «بيده ملكوت كل شىء» ولما كانت النتيجة من هذا الوجود إنما هى الأرواح التى تربى فيه بالعلم والأخلاق ختم السورة بقوله «وإليه ترجعون» وأرواحكم تحمل علما وأخلاقا وعلى مقتضاهما تكون درجاتكم . إذن الحركات التى بها ظهرت المادة نتيجتها الأخيرة الحركات التى سميناها علما وهى التى بها تعلو العوالم الروحية «وإن إلى ربك المنتهى» كتب فى صبيحة يوم الأحد ٢٩ يونيو سنة ١٩٣٠ م .

﴿ تذكرة ﴾

قد كنت كتبت جملة مختصرة من أقوال أفلاطون قريبا وهى من تلخيص العلامة (سنتلانه) التليانى ولما اطلعت عليها كاملة فى نفس الكتاب المنشور حديثا فرحت بنعمة العلم وكتبتها تامة مفصلة والتفصيل يحسن بعد الإجمال والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء السابع عشر من كتاب (الجواهر)
فى تفسير القرآن الكريم
ويليه :
الجزء الثامن عشر وأوله
تفسير سورة الصافات

فهرس

فهرس

الجزء السابع عشر من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

ملح الطعام وأنه مركب من الكلور الذى يحدث السعال ويهيج الأغشية ويميت ، ومن الصوديوم الذى يتقد نارا فى الماء وبضع فوائد له . ويدخل فى الكلور المركب المسمى بالماء الملكى الذى يذيب البلاتين والذهب .

١٦٢ الكلام على بعض العلوم المرموز لها بالياء والسين ، إننا لم نسمع العربى يقول : «بس قفا نبك الخ»

١٦٤ لطائف هذه السورة .

١٦٥ اللطيفة الأولى : فى هذه اللطيفة (فصلان : الفصل الأول) فى قوله تعالى « ياليت قومى يعلمون » وذكر حكاية من كتاب (إخوان الصفاء) إذ ذكروا أن جماعة نزلوا سفينة فكسرت المركب فوصلوا إلى جزيرة فيها قرود فأنسوا بها وتزوج الشبان منهم وولدوا ثم تذكروا بلادهم فصنعوا سفينة وبينما هم كذلك إذ انقض طائر على أحدهم فاختطفه ورده إلى منزله فهم يبكون عليه وهو يقول ياليت قومى الخ .

١٦٦ (الفصل الثانى) فى معنى « ياحسرة على العباد » وإحالة الأذكياء على المذكور فى معنى الاستهزاء فى (سورة التوبة) .

١٦٧ (اللطيفة الثانية) فى عمر الأرض ونقصها المستمر والكلام على الراديوم وعلى مدة عمر الأرض .
(اللطيفة الثالثة) «والشمس تجرى لمستقر لها» والموازنة بين سرعة النور والقنبلة وسرعة الأرض وسرعة الطيارة الفرنسية والأمريكية والمائية والأتوموبيل والرجل فى مشيه والحلزون ونمو الشجرة .

١٦٨ ركوب الريح أو الطيران خمسة أميال فى الدقيقة ، إن الطيارين يؤملون أن يطيروا (٦٠٠) ميل فى الساعة الخ (شكل ٣٥) فيه صور الزورق والقطار الكهربائى وهكذا.

١٦٩ (شكل ٣٦) بيان لأسرع الأشياء ، هل بلغ الإنسان أقصى سرعته فى البر والبحر ؟ أسرع قطار يجرى ٦٨ ميلا فى الساعة ، وأسرع قارب ٩٣ ميلا ، وأسرع سيارة ٢٣٢ ميلا فى الساعة ، وأسرع طيارة ٦٩٣ ميلا فى الساعة ، ويظن أن السرعة ستبلغ ٥٠٠ ميل فى الساعة إلى ألف وهو مبالغة . وقد كشفوا ذبابة سرعتها ٨١٥ ميلا فى الساعة أو ٣٦٠ مترا فى الثانية . والعلم يحكم أن الانسان لا يستطيع أن يقود سيارة تجرى ٣٠٠ ميل فى الساعة لأن سرعة أعصابه فى توصيل الإحساس أقل من ذلك .

١٧١ علم الفلك ودراسة الفلك فيما وراء البحار .

١٧٣ (شكل ٣٧) خريطة البلاد التى نشأت فيها حضارة المايا وازدهرت وقد عرفوا السنة الشمسية والقمرية والشهر القمرى بالدقة والتقويم اليوليانى ليس أفضل من تقويم المايا كثيرا فتقويمهم منذ ألف سنة لايبلغ الخطأ فيه أكثر من يوم فى ٣٣٢٣ سنة والتقويم القمرى لايزيد الخطأ فيه عن يوم واحد فى ٣٠٠ سنة وعرفوا دوران الزهرة والمريخ والمشترى وزحل وعطارد ، وتقويم الزهرة جعلوه ضابطا لتقويم الشمس والقمر وقد استنبطوا الصفر فى الحساب قبل أهل الهند بألف سنة وأهل الهند لم يستنبطوه إلا فى القرن السادس أو السابع بعد الميلاد ، إذن الأمم تتشابه فى الحساب وإن لم تجتمع

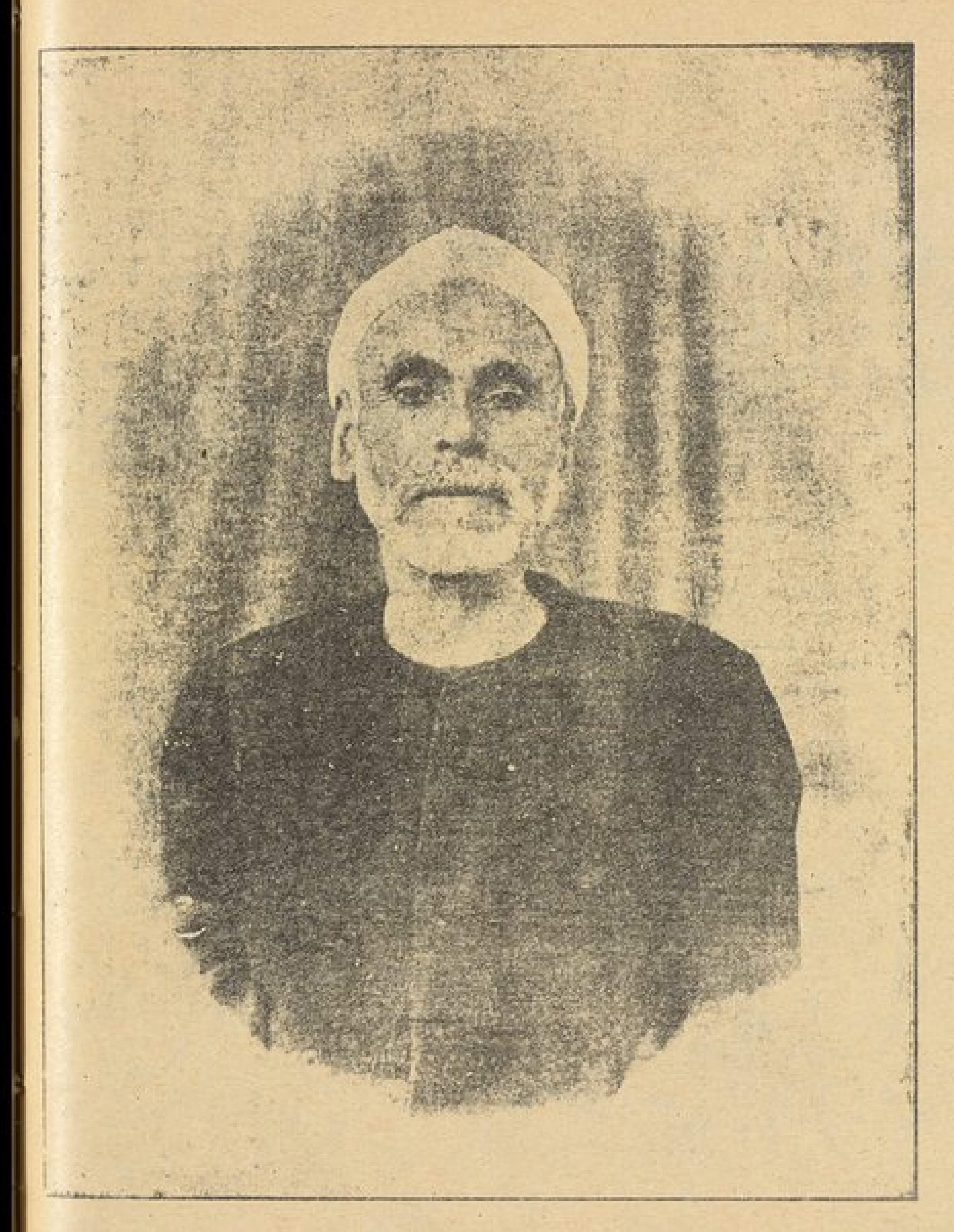
١٧٥ (تذكرة لأمم الاسلام) وهاهنا تذكير بما مر فى سورة يونس فى أولها من صور مرسومة فلكية وبروج وعجائب الأهرام ونسبة ارتفاعه ومحيطه إلى محيط مدار الأرض حول الشمس . وكيف كان

لرغبة الكثيرين من العلماء والأدباء من قراء تفسير الجواهر فى مختلف الممالك الاسلامية واشتياقهم لمشاهدة صورة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الحكيم

(الشيخ طنطاوى جوهرى)

أجبنا ملتمسهم وصدّرنا هذا الجزء بآخر صورة لفضيلته أدامه الله لخدمة العلم وبث المعارف ؟

مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر



(١) الدين والعلم توءمان .

(٢) الدين يدرك بحاسة السمع ، ومشاهد الطبيعة تدرك بحاسة البصر ، والعقل يدبرهما .

(٣) ومن اكتفى بحاسة السمع فهو جهول .

(٤) إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الثامن عشر

الطبعة الثانية
١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

طبع بمطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
عباس ومحمد أمين عمران



تفسير سورة الصافات

(هى مكية)

(آياتها ١٨٢ — نزلت بعد الأنعام)

وفيها « أربعة فصول : الفصل الأول » فى تفسير البسملة « الفصل الثانى » فى التوحيد ووصف ابداع الله فى السموات وخلق الانسان وأن الله خلق ماهو أعظم منه شأنا كما جاء فى آخر ﴿ سورة يس ﴾ من قوله — أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم — فأول هذه مرتبط بآخر تلك ارتباطا وثيقا ، ثم كيف جهل الانسان فأنكر البعث ومايتبع ذلك من محاورة أهل الجنة وهم يطلعون على أهل النار ثم وصف أهل الجنة ونعيمهم الخ « الفصل الثالث » فى قصص نوح وابراهيم واسماعيل واسحق وموسى وهرون والياس وهو الياسين ولوط و يونس « الفصل الرابع » دفع فرية ان الملائكة بنات الله واثبات انهم صافون مسبحون كما جاء فى أول السورة لا انهم بنات الله وفذلكة السورة بمدح المرسلين والسلام عليهم

﴿ الفصل الأول فى تفسير البسملة ﴾

(مذكرة عن فكرتى قبيل فجر يوم الأحد ٢٤ مايو سنة ١٩٣٠)

ذكرت فى أمثال هذا المقام انى أنام فى فصل الربيع ومابعده فوق السقف تحت النجوم إجابة لداعى المحافظة على الصحة وائتناسا بالنجوم واشراقها وأنوار القمر و بهجة السماء . ففى هذا التاريخ استيقظت حوالى الساعة الثانية بعد نصف الليل ، والظلام حالك ، وأنوار النجوم متلألئات ، بهجات مشرقات ، يتخلل نورها تلك الظلمات الحالكات ، والرياح مهتاجة لها دوى وصرير وصفير على الحيطان وفى الشبابيك والأبواب وفى الثقوب اللاتى تلاقيها فى ذلك المكان ، ولقد عجبت لهذه النفس تذكرها النسمات وتهتاجها عواصف الرياح وقواصفها

فكأنما

فكأنما هذه الدنيا قيثارات والرياح نوافخها أوشان ومثالث بفنون الطرب وطرف الألحان وقعتها يد الزمن الغزير المواهب ، الجليل الفوائد ، الباهر الحكم ، هنالك غادر الخيال حاستي السمع والبصر وأخذ يجرى على سفنه فيجوس خلال العوالم ليحظى بفنون الحكم وبدائع العلم فما وعاه من صور جيلة مخزونة يستثيرها وحكم غوال يأنس بها ، فأشرقت النفس بأنواره وازدانت بلؤلئه ولألائه ، وأخذ العقل يجول فى ميدانه وهو يقول « الأنوار أحاطت بالناس من كل جانب النهار والليل مشرقان زاهران ، تغرب الشمس فيظهر القمر والنجوم وما أرضنا إلا ذرة واحدة طائرة فى عوالم لاحد لنهايتها ولا آخر لمداها اللهم إلا ماافترضه المفترضون من كرات المجرات وشموسها وكواكبها إذ يجرى النور حولها فلا يقطعها فى أقل من مائة ألف مليون سنة مع العلم بأنه يقطع فى الثانية الواحدة (١٨٦) ألف ميل أى (٣٠٠) ألف كيلو ولايزيد دوره حول أرضنا عن جزء من سبعة من الثانية الواحدة وما أبعد الفرق بين سبع الثانية وبين مائة ألف مليون سنة ، ثم ان النور يحيط بهذه العوالم كلها بل كلها أنوار بل المادة كلها نور قد تراكم فأظلم ولايذيره فى عقولنا إلا العلم . انظره عند آية ـ الله نور السموات والأرض ـ فى الكلام على « قطرة ماء »

الدنيا عجوز شوهاء عند الجهلاء وهى عروس لبست الحلل وحليت بحلى الماس والياقوت والدرر جيلة هيفاء ، حوراء عند الحكماء فكأنها السور الذى باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، هنالك أخذت أفكر فى الجمال الظاهر فى هذا الوجود ومنظر النجوم وأصوات الرياح تزيدان الذكرى وتلهبان فى القلب نار الشوق والحكمة والعلم

ياسبحان الله : أنحبس فى سجن هذه الأرض فلانعرف ماوراءه ، أنعيش ونموت ونحن جامدون خامدون ، ألمثل هذا خلقنا ؟ نحن نرى الجمال يحيط بنا والرحمات لاتدعنا ، هذه الأنوار الشمسية لوأطفئت لمات أهل الأرض ، النور هو الحياة ، الرحمات لم تذر حشرة ولابهيمة ولاانسانا ، بالرحمة والرأفة والعطف رأينا النملة (٤٠٠) عين (اقرأ رسالة عين النملة فى سورة النمل فى هذا التفسير) و٤٠٠٠ عين للذبابة ولغيرها أعين تعد بعشرات الآلاف كما فى نفس تلك الرسالة ، واذا تعمقنا فى البحار فى الأماكن التى لاتصيبها الأنوار الشمسية وجدنا للسمك أنوارا تشع له من نفسه كما تقدم فى هذا الكتاب ، أينما قلبنا وجوهنا أبصرنا نورا وأينما فكرنا فى العوالم أدركنا رحمة ، ونحن لنا عقول تفهم الرحمة وتنظر النور ، هنالك تجسمت أنواع الرحمات نصب عينى وتلألأت الأنوار فى المخيلة ، إذن هما زينتان : زينة ظاهرة ، وأخرى باطنة ، والزينتان قد تجلتا معا فى « بسم الله الرحمن الرحيم »

هذه البسملة التى يقرؤها الجهلاء والعلماء وتمر على أكثر الناس مرور الرياح فى هذه الليلة والأنوار على الآذان والعيون فلايأبهون لها وهم بها جاهلون ، فمن عجز عن ادراك الجمال فى هذه الأنوار والظلمات والرياح الهابات فما أعجزه أن يدرك الرحمة فى البسملة ، لاندرك معانى هذا القرآن إلا بدراسة هذا الوجود ، ألم تر أن الرحمة التى ذكرت فى البسملة فى أول هذه السورة قد سبقت التذكرة بما فيها من الرحمات والعجائب ، ذكرى يصبو لها قلب الحكيم ، وعلم يهفو له فؤاد الواله المغرم اللبيب

(١) ألم تر كيف أبرزت الزينات الظاهرات فى ذكر السموات والأرض والمشارق والمغارب وزينة السماء الدنيا بالكواكب ، بالعجب أليس ماشاقنى الليلة وألهب فى قلبى نار الشوق للحكمة والبحث هو نفس هذه الزينة ، ذكرت فى هذه السورة ملاءمتها لصفاء النفوس التى تقل فى نوع هذا الانسان الأرضى اذ أكثره محجوب عنه وهو غافل لايستمع منادى الملأ العلى الأعلى لأنه أقرب الى الحيوان مغمور فى الطين والمادة

(٢) وكلما سنحت له سانحة أعرض وتولى وشمخ بأنفه ورجع الى بنى نوعه وأخذ يتبجح بالمجادلات

ويفرح بالغلبة فى مجالس الأقران ، ويسخر من الحكمة والحكماء ، ويعرض عن مناظر الآلاء ، ويهزأ بالمباحث العقلية والآراء الفلسفية

(٣) فهمنا تجلت الرحمات :

(ا) أولا فى ظهور الأنوار كما بيناه وفى عمومها

(ب) ثانيا فى حوار القرناء إذ يلوم كل منهم الآخر بعد فوات الفرصة تقريعا للمقلدين فى هذه الأرض وتذكيرا للمفكرين منهم وتبيانا لنا أن لانعيش محمولين على أجنحة آراء غيرنا ونحن فى ذلك مسخرون ، ففى الأنوار رحمة الحياة الجسمية لكل حى على الأرض . وفى الاعتبار بتساؤل أهل النار إذ أقبل بعضهم على بعض رحمة أخرى فبها تكون الحياة العلمية ، فهنا رحمتان : رحمة جسمية ، ورحمة عقلية موضوعتان فى السورة وضعا منظما مرتبا

(ج) وثالثا تساؤل أهل الجنة إذ قص قائل منهم قصصه مع قرينه وهو فى الدنيا وانه أهمل دلائله الجدلية وآراءه اللاتى كاد يغويه بها فتولى عنها معرضا وسلك سبل السعادات فى الجنات وهذه أشبه بنتائج ماقبلها من الحياة الجسمية ومبادىء الحياة العقلية فان من اعتبر بالمقلدين الضالين يحفزه ذلك أن يكون هو من المفكرين العاقلين ، وهذه هى قصة هذا الانسان تدب فيه الحياة ومن أهم أسبابها الأنوار ، فاذا استوى وقوى أخذ يتفكر فى شؤن هذه الحياة فتعرض له الشبهات ، وهذه هى المرتبة الثانية ، فاذا صد عنها ووصل الى الحقائق فقد كملت حاله فى الدارين . هذه هى قصة هذا الانسان أوله وآخره ، إذن لم يبق إلا تطبيق أحوال الأمم السابقة على هذه المقدمات

(د) فذكر نوحا وانه نجا وفاز هو ومن معه وهلك أعداؤه ، فالفائزون كالقسم الثالث والهالكون كالقسم الثانى فيما تقدم

(ه) ومثل نوح فى ذلك ابراهيم الذى نظر فى النجوم المذكورة فى أول السورة وهى مناط فكر العظماء وأجلهم الأنبياء مع تبيان ما أصابه من الأعداء فنصر عليهم ، وما أصابه من الابتلاء بذبح ولده وكيف رحمه الله تعالى . فهمنا تجلت الرحمتان ، رحمة فى دعوته للناس ، ورحمة فى فداء ولده ، وكل ذلك تذكرة للمسلمين اليوم وانهم ان صبروا نجوا

(و) ومثل ابراهيم ونوح الياس ولوط ويونس . وهنا انتهى التطبيق على المقدمات الثلاث فسير هؤلاء الأنبياء تقص علينا أنباء الرحمات الواردات على الأنبياء واتباعهم بعد ما قص علينا رحمات الأنوار ورحمات النجاة من قرناء السوء ثم الوقوف على الحقائق ثم لخص السورة كلها

لما كانت السورة مبدوءة بالقسم بالملائكة الصافين على أن الله واحد وهم أرواح لها سلطان على عالم المادة وهم باذن ربهم يدبرون الكائنات فتكون الأنوار والظلمات والحياة والأمم وتبع ذلك أن الأنبياء فائزون منصورون وأن أعداءهم هالكون ختمها باعادة الكلام . أولا فى الملائكة فأخذ يفند مايفتريه الكافرون عليهم من انهم بنات الله ونحو ذلك ، فلم يبق إلا ان الملائكة هم الصافون المسبحون ، كل له عمل يخصه لايشاركه فيه سواه . وثانيا ان المرسلين منصورون والجنود الذين معهم غالبون ، ثم لخصها تلخيصا أكثر اجمالا ، فهو منزه عما يصفونه به واذن تكون ملائكته القائمون بأمره على حال غير ماوصفوها والمرسلون كتبت لهم السلامة . فلاجرم أن الهلاك لأضدادهم والحمد لله رب العالمين

ومن عجب أن (سورة يس) لخصت فى آخرها كما لخصت الصافات كما تقدم . هذه هى الرحمات التى تجلت فى هذه السورة تبيانا لآية (بسم الله الرحمن الرحيم) واعلم أن قوله تعالى — وسلام على المرسلين —

بينه وبين قوله تعالى ـ سلام قولا من رب رحيم ـ صلة أن الأمان من المخاوف هو أعظم الرحمات فى الدنيا والآخرة ، فمن كانت الخواطر النفسية ثائرة عليه مضجرة له منهكة لقواه فلاسلام له والمرسلون لم تبق لهم فى أنفسهم خواطر السوء لأنهم مطلعون على الرحمات الواسعات المحيطات بالناس والحيوان ولم يحجبهم عنها ما يحجب أكثر هذا الانسان من جدال وحوار وعداوات وذنوب ومطامع وكبر وعجب وما أشبه ذلك فهذه كلها حجب أسدلت على أكثر عقول هذا النوع الانسانى الذى حكم عليه بالسجن فى هذه الدار المملوءة جهلا وقد صدّه عن جمالها الحروب والكروب وماتقتحم من فواجع القهر وقواطع الأخلاق الشائنة ، فلايفقه أكثر الناس ولايعقل بهجة الأنوار ولاجمال النجوم والشمس والقمر ولاعجائب الرياح وغرائبها وانها تحمل السحب الماطرات فلا يكاد الضوء ينقطع عنا بالسحاب حتى نرى آثاره بالقطرات التى أمطرها علينا فنحيا بها . ومن عجب أن الدارسين لهذه العلوم أكثرهم غافلون كأنهم جاهلون أيضا لأنهم نظروا اليها باعتبار غاياتها ومنافعها المادية ولم ينظروا اليها باعتبار مبادئها من الرحمات العامّة فضلت عقولهم وتاهت فى بيداء المادّة ولم تجتمع تلك العجائب عندهم فى موجود واحد منه كان صدورها حتى تفرح به قلوبهم ويشعروا بحب عظيم بل حبهم مفرّق لا اجتماع له

هذا هو سرّ البسملة فى أوّل السورة . فهذه العوالم إن لم تسكن النفوس العالمة بها لملاحظة الرحمة المتجلية فيها المبسوطة المنشورة فى كل ذرّة وحشرة كما تقدّم فانهم لايشعرون بالرحيم ـ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ـ ومن لم يشعر بأن هذا الوجود انما ظهر برحمة وعلم وأن هذه هى نتائجهما فان حياته كلها ذلة ولاسلام له لأن الأمان لمن يعلم أن روحه فى يد رحيم حكيم ، فأما من يرى أن هذه الدنيا لامدبر لها وانها هكذا تائهة من الأزل الى الأبد فان روحه أبدا معذبة متألمة لايدرى من أين يأتيه البلاء أمن الفقر أم من الذل أم من المرض أم من الموت . أما الآخر فانه يرى نفسه سعيدا لأنه يشعر بذات رحيمة تقوم بأمره ، ومثل هذا ينال الأمان فى هذه الحياة وبعد الممات

هذا معنى « بسم الله الرحمن الرحيم » فى سورة الصافات وبهذا تمّ الكلام على الفصل الأوّل فى تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين

الفصل الثانى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ * إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ * فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ * بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ *

قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ * وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ * إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ * أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ * إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ



﴿ التفسير اللفظى ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(والصافات صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكرا) اقسم الله بالملائكة (١) يصفون صفوفهم فى مقام العبودية فى مراتبهم (٢) ويزجرون الكواكب المسخرات وهنّ جاريات مدبرين شؤون العالم رادعين الناس عن الشرّ بالالهام والشياطين عن الوسوسة لهم (٣) ويتلون آيات الله على الأنبياء والأولياء ، و بالعلماء الذين يحذون حذو الملائكة صفا فى العبادات وزجرا عن الجهالات وتلاوة للآيات ، و بالغزاة الحاذين حذو العلماء صفا فى الجهاد وزجرا للعدوّ وتلاوة للكتاب ، وهذه المعانى كلها تحتملها الآية ، فكل هذه صافات وكلها زاجرات وتاليات والعطف لاختلاف الصفات لا الذوات ، وكل وصف لاحق أرقى من سابقه ، فالصف للعبادة كمال والمنع من الجهالة والمعاصى تكميل بالمنع من الشرّ والتعليم بالكتاب إفاضة للخير وهذا غاية المقاصد السامية من الأرواح العالية ، أقسم الله بالملائكة الذين اتصفوا بالكمال فى النفس وبتكميل الناس ونظام العالم وبالعلماء الذين حذوا حذوهم وبالغزاة التابعين لهم ، ولاجرم أن تناسق الصفوف وانتظام الأحوال دليل على وحدة المبدإ ، ثم أخذ يفيض بذكر صفاته فى جواب القسم فقال (إن إلهكم لواحد * ربّ السموات والأرض وما بينهما وربّ المشارق) أى مطالع الشمس وهى (٣٦٥) مشرقا لكل يوم من أيام السنة الشمسية مشرق ، فأما ربّ المشرقين وربّ المغربين فانما هما الصيف والشتاء . وأما ربّ المشرق والمغرب فهما جهة المشرق وجهة المغرب (إنا زينا السماء الدنيا) القربى منكم تأنيث الأدنى (بزينة الكواكب) بالاضافة وعدمها أى بزينة هى الكواكب من حيث جمالها ولألاؤها وبهجتها وتناسب أشكالها وحسن أوضاعها لاسيما عند الخاصة الدارسين لنظامنا المفكرين فى حسابنا إذ يرون أن السيارات مثلا بينها مسافات متناسبات بحيث يكون كل سيار بعده عن الشمس ضعف بعد الكوكب الذى قبله . ولن يعرف هذا إلا الدارسون المفكرون الناظرون فى ملكوتنا الحاسبون الذين هم يعقلون . فالزينة إذن زينتان : زينة للعامة والجهلاء وهذه تظهر بالعين فى الليلة الليلاء ، وزينة عند الخاصة وهى لاتظهر إلا للعلماء ، ولذلك أردفه بقوله (وحفظا من كل شيطان مارد) خارج عن الطاعة متمرد عات سواء أكان من شياطين الانس أم من شياطين الجنّ ، ثم بين حالهما فقال (لايسمعون الى الملإ الأعلى) الى كلام الملائكة والكتبة (ويقذفون) يرمون (من كل جانب) من جوانب السماء اذا قصدوا صعودها (دحورا) أى مدحورين مطرودين (ولهم عذاب آخر (واصب) دائم شديد وهو عذاب الآخرة . يقول الله لايسمعون الى عالم الملائكة واستثنى من اختلس من كلامهم مسارقة فقال (إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) كوكب يثقب الجوّ بضوئه . يقول الله : « أقسم بهذه العوالم المنظمة المرتبة من ملك وكوكب ونبيّ وعالم ومجاهد بحيث تلاءمت وتضامت واتصلت وكانت متناسقات الوضع منظمات وهى زاجرات كزجر الملك للكوكب والمجاهد للعدوّ والعالم للجاهل . ولاجرم أن الملك والنبى والمصلى والعالم والمجاهد تالون للذكر

هذه العوالم ينسب بعضها الى بعض وهى أسباب ومسببات فكأنها عالم واحد بحيث ترى وحدة منظمة ، للعالم علويه يفيض على سفليه وسفليه قابل من علويه فترى الشمس والقمر والكواكب مفيضات أنوارها على الأرض ولاترى فى خلق الرحمن من تفاوت بل ترى اتحادا وائتلافا نظم وحدتها وجمع مفرقها ، ولاجرم أن ذلك دلالة على وحدة الصانع وذلك برهان ذكره فيلسوف يونانى وهو أفلاطون « ان وحدة العالم دلالة على وحدة الله عزّوجل » ثم أخذ يوضحه فقال : « ربّ السموات والأرض ومابينهما » وأنتم ترونها متصلات منتظمات ،

فالوحدة فيهما ظاهرة والألفة بينهما معروفة مشاهدة »

الدنيا بيت فرشه الأرض وسقفه السماء وسراجه الكواكب فلذلك قال – وربّ المشارق – ألا وان البيوت الرفيعة العماد كالفضاء بالأنوار تزين بالنقوش وبأنواع الجمال والبهجة والصور الجميلة ، ولا يكون البيت مسعدا لأهله سارا لسكانه إلا اذا أشرقت جوانبه وازدانت أركانه بأنواع الجمال والصور الحسان التي تهواها النفوس وترضاها الشرائع ، وأيّ سقف أجلّ من السماء ؟ وأي فرش أبهج من الأرض ؟ وأي سراج أجمل من الشمس وأيّ زينة أبهج من النجوم فلذلك قال – إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب – . لا تكون القصور المشيدة والبيوت الرفيعة حافلة بالسرور مأمونا على جمالها وزخرفها إلا متى حفظت من اللصوص السارقين ومتسوّرى محاريبها فلذلك حفظ الله السماء أن يتطاول لدرك جمالها واتساق صفاتها وبهجة بنائها ومحاسن نظامها إلا الملائكة الصافون والأنبياء والعلماء المخلصون ، فأما الجهال والشياطين فأولئك عن جمالها غافلون وهم عن آياتها معرضون ، فالسماء منهم فى حصن حصين ولقد يعيش المرء ويموت وهو فى غفلة عن درك هذا الجمال لأن السماء حرست منه ، وهل يعرف الفضل إلا ذووه ، فالعيون مفتحة ولكن أين ابصارها وهل ينال العلم إلا عاشقوه أو يبهر الجمال إلا عارفيه . ومن لم يحركه العود وأوتاره والربيع وأزهاره فهو فاسد المزاج يحتاج الى العلاج . ولقد تلوح للمرء لمحة من الجمال وتعنّ له سانحة وتبدو له بارقة من المحاسن فتخطف بصيرته كالشهاب الثاقب فيحن الى مثلها ويصبو الى أختها ويتعلق قلبه بالجمال . ذلك تأويل قوله – إلا من خطف الخطفة – ولكن ظاهر القول كما هو مشهور أن الشياطين يسترقون السمع فيحترقون بالشهب وقد تخطفهم الشهب فيعودون ليسمعوا كالسارقين من نوع الانسان والقاتلين رجاء أن لا يقعوا فى قبضة الحاكمين وهذا المعنى اذا أريد كما هو المشهور فليكن كناية وهى لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز ارادة المعنى الأصلى فلنقل هذا هو المعنى وهو كناية عن المعنى المتقدم فيكون المنع الحسى رمزا للمنع العقلى والكناية من أجل أنواع البلاغة فاصطلح المعنيان وتسابقا فى الميدان وأبقينا الظاهر على ظاهره وتمتع الحكيم والذكى بباطنه . ألا ترى رعاك الله أن كثيرا من الناس حولك محبوسون فى هذه الأرض غائبة أبصارهم لا يسمعون الى الملإ الأعلى ولا يفهمون رموز هذه الدنيا وعجائبها وقد قذفوا من كل جانب مطرودين طردتهم شهواتهم وعداواتهم وكبرياؤهم وحروبهم وطمعهم وشرههم عن تلك المعانى العالية . فهم مغمورون فى حماتهم تائهون فى سكراتهم تخطفتهم من كل جانب الأهواء والشهوات وانغمسوا فيها فلا يخلصون الى ذلك الجمال ولا يفقهون ذلك السقف المنقوش . إن النجوم أشرقت بجمالها للحكماء وبهرت بمناظرها العلماء وزينت السماء للناظرين وهى من جهة أخرى أرسلت الحرارة الى الأرض فأينع الزرع ودرّ الضرع والتفّ الجمع فتلظت الشهوات وكثرت اللذات فأعمت البصائر عن النظر والعقول عن الفكر وأصبح الناس صرعى أوهامهم قتلى أهوائهم مطرودين عن الحكمة ، ثم ان شياطين الجنّ كشياطين الإنس غاية الأمر أن الأولين ليسوا فى الأجسام البشرية وأن الآخرين فيها ولكن البصيرة واحدة ومن كان فى الجسم أعمى فهو اذا جرد منه أعمى فشياطين الانس وشياطين الجنّ كلاهما محرومون من الحكمة العالية ، ألا ترى أن الخواطر الحكمية لا ينالها فى هذه الدنيا إلا أهلها ولكل أناس فى الأجسام البشرية وفى الحال الروحية خواطر خاصة بهم كأنهم صفوف لا يتعدّون مراتبهم فمن خطف الخطفة على أحد حالين إما أن تهديه الى الصراط السوىّ واما أن تقف فى طريقها الشهوات وتجتثها اللذات والأهواء . فعلى المعنى الأول يكون الاستثناء متصلا كما قدمناه . وعلى المعنى الثانى يكون منقطعا على ما هو مشهور وكلا المعنيين حقّ . فكم من الناس جاءتهم بارقة العلم فاستفاقوا بها . وكم أناس سمعوا الذكر فأعرضوا عنه وهم بجهالاتهم مشغولون . ذلك تفسير هذه الآية

فتش الناس حولك . انظر تجد هذه المعانى متجلية – ولكن أكثر الناس لا يعلمون – لقد قلّ الذين

بهرهم الجمال وذاقوا حلاوة الحكمة وأكثر الناس لايعلمون لأنهم عنها مصروفون

﴿ مثال يوضح المقام ﴾

قرأ قارئ — المال والبنون زينة الحياة الدنيا — فالآية معناها معلوم وهو أن زينة الحياة الدنيا لابقاء لها فالباقيات الصالحات خير أى أن يكون سعى الانسان لثواب الآخرة . فهذه الآية يذهب عندها السامعون مذهبين : مذهب لفهم المعنى المقصود والتفكير فيه . والآخر للتحسر على الدنيا ولذاتها ويقول الانسان أين المال . أين الولد . أين زينة الدنيا ؟ يقول ذلك وهو يعلم المعنى المقصود . لماذا ؟ لأن بصيرته لم تستعد للمعنى بل هو مشغول بالعاجلة . فهذان القسمان من الناس أولهما خطف الخطفة فاهتدى . وثانيهما خطفها فتبعته الهواجس فقتلت الفكرة فى مهدها وكأنما ذلك شهاب تارة يهدى بضوئه وتارة يهلك بناره . هدى الأول بضيائه وأهلك الثانى وأمات وجدانه بناره

جل العلم وجلت الحكمة وجل الله الذى جعل هذه المعانى فى تلك المبانى وصرف عقول العارفين عن نقائص المعانى الى النظر الى العالم العلوى والحكمة القدسية

إن خواطر الناس الشريفة كلها خطفات من الملأ الأعلى . إن المعارف والعلوم والمعانى الشريفة تشرق على النفوس لتصلها بعوالم مشرقة فيها هذه المعانى . وما عقولنا إلا كالعين . وماتلك العوالم إلا كالكواكب المضيئة . وما المعرفة إلا انكشاف المعانى بتلك الأنوار الباطنية فنسبة تلك العوالم الى عقولنا كنسبة الشمس الى أبصارنا ونسبة انكشاف المعانى الى بصائرنا كنسبة انكشاف المرئيات الى أبصارنا . فلولا الضياء مارأى الناس الأجسام هكذا عالم الملائكة . ذلك كله تقرير الحكماء السابقين والعلماء المحققين

﴿ لطيفة ﴾

اعلم أن مسألة الشهب كانت عند القدماء من المشكلات الدينية . ألا ترى أن السماء كانت فى رأى قدماء الفلاسفة لاتقبل الخرق ولا الالتئام فكيف تكسر الكواكب ويجزل شهب منها فى الأرض ؟ فكان علماء التفسير رحمهم الله يؤوّلون تارة ويكذبون علوم الفلاسفة أخرى . أما الآن فيا أجل العلم فان العلم الحديث يعتبر الشهب من نفس الكواكب السماوية وهى قطع صغيرة تقدم إيضاحها فى هذا التفسير فى النصف الأول من القرآن فاقرأه فى ﴿ سورة الحجر ﴾ وماقبلها فلا اشكال وذلك معجزة للقرآن ، خالف الفلسفة البائدة ووافق الحاضرة

﴿ أسرار القرآن فى علم الأرواح وعلم التصوّف ﴾

يقرأ القارئ هذه الآيات ولايخطر بباله أن الكشف الحديث أبرزها . لقد سأل علماء النفس فى أوروبا بعض الأرواح عن اتصالهم بالناس وحضورهم اذا طلبوهم فأجابوا قائلين مانصه : « إن الأرواح العالية لاتناجى إلا نفوسا صافية لاتريد إلا الخير للناس مع استعدادها للحكمة ومستحيل أن تناجى من شوه قلوبهم الكبرياء وألهتهم الشهوات . أما الأرواح الناقصة فانها تسر جدا بمحادثة الجهلاء من الناس وتعطيهم أكاذيب وأساطير وتفرح بذلك كما يفرح جهلة المسلمين والمسيحيين بالكذب الذى اعتادوه فى أوّل ابريل . وفوق ذلك قالوا : إن كل ما كان من حديث الأرواح لامور العاجلة فهو من سقط المتاع لاتهواه إلا الأرواح الشريرة وما كان من قبيل العلم والحكمة والمنفعة العامة فهو شغل الأرواح العالية السماوية تلقيه الى من هم مستعدّون » اه

فتبين من ذلك أن الملأ الأعلى من الملائكة والأرواح لايأنسون إلا بما هو نفع عام ويأنفون من الامور الخاصة كالمال والبنين وزينة الحياة الدنيا

﴿ علماء التصوّف ﴾

أما علماء التصوّف فانهم قد يأمرون تلاميذهم بالجوع والسهر وترك الكلام والتعب وما أشبه ذلك مع الذكر وحسن السير . فبعض هؤلاء يكشف لهم وهذا الكشف قد فصلوه تفصيلا فقالوا : « إن كان للامور

العاجلة كموت زيد وحياة عمرو وغناه وفقره فذلك من الكشف الظلمانى . فأما ان كان كشفا للأمور العلمية والحكمة والمعارف فهو كشف نورانى »

أليس ما يقوله الفريقان قديما وحديثا هو عين هذه الآية . أليس هو سرّها ؟ فالصوفى ومحضر الأرواح إن قصدا بالكشف الدنيا والمال والعظمة تركتهم الأرواح العالية وأحاطت بهم الشريرة ويكون العلمان وبالا على من تعلمهما واذن الجهال أفضل وهم ممن قال الله فيهم ــ وأضله الله على علم ــ فهؤلاء كتجار الخمور وباعة الخنازير وشاربى الخمور والحشيش بل هؤلاء أشدّ وهم الذين لايسمعون الى الملأ الأعلى بل الى الملأ الأسفل ويقذفون من كل جانب دحورا لأنهم مطرودون عن التلقى عن الأرواح العالية التى لاتناجى إلا من هم مستحقون . يقول مؤلف الكتاب فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . لقد ظهرت معانى القرآن اليوم أى بعضها وظهر سرّ قوله تعالى ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ــ وسرّ قوله ــ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ــ

ولكم سائلى سائلون عن هؤلاء المتصوّفة الذين ظهروا ببلاد الاسلام كقوم ببلاد مراكش لايصلون ولايصومون وينتسبون لولىّ عظيم واذا جلسوا معا وتواجدوا طار أحدهم الى قبة المكان الذى هم فيه جالسون واذا جىء لهم بشاة أوعنز خرقوا بطنها وشووها وأكلوها . فهذه فتنت كثيرا وظنّ الناس أن هؤلاء عندهم سرّ عظيم وماهى إلاتوجه نفوسهم الى أمور جزئية فنالوها ولكنها أمور منحطة قذرة دنيئة لاترقى النفوس البشرية بل هى أمور ظلمانية . فاذا عجز المصلى والمزكى والعالم المسلم عن هذا فليس معناه ضعف حاله . وأن هؤلاء يعلون عليه بل هم قوم حصرت نفوسهم فى أمر جزئى صغير فلاهم فى العير ولافى النفير بل تعجب بحار بتهم وقتلهم . ان هؤلاء لايسمعون الى الملأ الأعلى . واذا رأيت أمثال هؤلاء يخبرونك بشئ فى نفسك فلاتظنّ الأمر عظيما . فهذا الكشف حقير لأنهم لايسمعون الى الملأ الأعلى لضعف نفوسهم وانما يسمعون الى الملأ الأدنى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب دائم يوم القيامة لأنهم أضاعوا أنفسهم فى أمور جزئية وغفلوا عن هذه الدنيا وجمالها وعلومها ولم تصلح نفوسهم لعالم الملائكة فينشروا العلم والحكمة بين الناس

﴿ ذكر نظير هذا فى المعروف بين الناس ﴾

إن هذه الأحوال هى التى نشاهدها فى العالم الانسانى ، انظر ألست ترى أن أكابر العلماء والحكماء لايستطيعون أن يذكروا شيأ من حكمتهم وفلسفتهم أمام الجهلاء ولوذكروها لم ينلهم منهم إلا السخرية والاستهزاء ، ألست ترى أن العلماء قالوا : « إن الحكماء خلقوا ليعلموا العلماء والوعاظ ليعلموا العامة » فهل يخاطب الحكماء الجهلاء ؟ كلا . ثم كلا . هكذا هذه الآية . يقول الله ــ لايسمعون الى الملأ الأعلى ــ لأن الملأ الأعلى لايخاطبهم لعدم التلاؤم ، فسبحان من أظهر هذه المعانى حتى صارت من المألوفات ، وأشرقت الأرض بنورربها فى سرّ الكتاب ، قال تعالى (فاستفتهم) فاستخبر بنى آدم (أهم أشدّ خلقا أم من خلقنا) من الملائكة والسماء والأرض ومابينهما والكواكب والشهب الثواقب فكيف ينكرون البعث وأين هم بالنسبة لهذه العوالم التى خلقناها (إنا خلقناهم من طين لازب) أى لاصق أولازم فأين هم من كواكب السماء وعالم الملائكة وتلك العوالم النورية المشرقة ، فاذا قدرنا أن نخلق تلك العوالم العظيمة فهل يعجزنا أن نعيد ماهو مخلوق من طين لايصلح للحياة إلا باشراق الأنوار عليه ووصول الآثار اليه من العوالم الأخرى (بل عجبت) يامحمد من تكذيبهم إياك ومن انكارهم البعث وهم (يسخرون) من أمر البعث (واذا ذكروا لايذكرون) ودأبهم أنهم اذا وعظوا بشئ لايتعظون (واذا رأوا آية) معجزة كانشقاق القمر (يستسخرون) يستدعى بعضهم بعضا أن يسخرمنها أو يبالغون فى السخرية ، فهؤلاء كالذى خطف الخطفة فأتبعه شهاب قتله وأمات

فكرنه

فكرته وأضاع رشده وأضل عقله فأمثال هذا أحياء وماهم بأحياء كما قال تعالى ـ أموات غير أحياء ـ
☆ وقال الشاعر

ففز بعلم تعش حيا به أبدا ☆ الناس موتى وأهل العلم أحياء

فهؤلاء يسخرون (وقالوا إن هذا إلا سحر مبين) سحر ظاهر ساحريته (أئذا متنا) استفهام انكارى (وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) أى أنبعث اذا كنا ترابا وعظاما (أو آباؤنا الأولون) أى أيبعث أيضا آباؤنا مستبعدين ذلك زيادة استبعاد لأن آباءهم أقدم منهم فيكون بعثهم أشد غرابة (قل نعم وأنتم داخرون) صاغرون واذا كان كذلك (فإنما هي زجرة واحدة) صيحة واحدة وهى نفخة البعث (فاذا هم ينظرون) أى فاذا هم أحياء بصراء ينظرون الى سوء أعمالهم أو ينتظرون مايحل بهم (وقالوا) اذا قاموا من القبور (ياويلنا هذا يوم الدين) يوم الحساب فتقول الملائكة (هذا يوم الفصل) يوم القضاء بينكم وبين المؤمنين (الذى كنتم به) فى الدنيا (تكذبون) فتقولون انه لا يكون (احشروا الذين ظلموا) أى اجمعوا كل ظالم بشرك أوغيره (وأزواجهم) وأشباههم وأمثالهم بحيث يكونون فى مباءة واحدة كما يرى فى هذا العالم المادى إن المواد الأرضية مجذوبة الى الأرض والهوائية الى الهواء والمائية الى الماء وأصحاب الحرف المتفقة يتفقون ويتفاهمون وأصحاب الأخلاق الوضيعة يتحاورون وذووالنفوس الشريفة يأتلفون ، فهذا العالم المادى والروحى على نسق واحد فما تعارف منها ائتلف وماتنا كر منها اختلف ، فالمحبة فى الدنيا لاتفاق الأشكال وفى الأخرى لاتفاق العلوم والأخلاق ـ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ـ

وهل تألف الغربان إلا سربها ، أوالحمام إلا إلفها ، أوالزنابير إلا أخواتها ، أوالنمل إلا طائفتها . فياعجبا . تشا كلت الدنيا والآخرة وما يذكره القرآن عن الآخرة نشاهده فى الدنيا . فالمسألة فى الدارين باتفاق الصفات واختلافها ، لهذا نزلت الديانات وقرئت العلوم ونظمت الدروس وألفت الكتب وبنيت الكليات وأقيمت الجامعات . كل ذلك لتربية العقول وصقلها بصقال واحد . إن ذلك هو النظام العجيب

يقول الله ـ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ـ (وما كانوا يعبدون من دون الله) من الأصنام زيادة فى تحيرهم (فاهدوهم الى صراط الجحيم) فعرفوهم طريقها ليسلكوها لأنهم على مشرب واحد . وفى الحديث « أنت مع من أحببت » وذلك كله بطريق الجاذبية والاستعداد ـ وماربك بظلام للعبيد ـ (وقفوهم) احبسوهم فى الموقف (إنهم مسؤلون) عن العقائد والأعمال (مالكم لاتناصرون) لاينصر بعضكم بعضا (بل هم اليوم مستسلمون) منقادون لعجزهم (وأقبل بعضهم على بعض) أى الرؤساء والأتباع أوالكفرة والقرناء (يتساءلون) يسأل بعضهم بعضا للتوبيخ أو يتخاصمون (قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) أى من قبل القهر والقوة لأن اليمين موصوفة بالقوة أى انكم تحملوننا على الضلال وتقهروننا عليه ، أومن قبل الدين فتضلوننا وتقولون لنا إن الدين ما تضلوننا به (قالوا) أى الرؤساء للأتباع (بل لم تكونوا مؤمنين) أى بل أبيتم أنتم الايمان وأعرضتم عنه وأنتم مختارون ، وهل لنا سلطان على ضمائركم وهذا قوله (وما كان لنا عليكم من سلطان) تسلط نسلبكم به اختياركم (بل كنتم قوما طاغين) مختارين الطغيان (فحق علينا قول ربنا) فلزمنا جميعا وعيد الله بالسخط والعذاب (إنا لذائقون) العذاب فى النار (فأغويناكم إنا كنا غاوين) أى فدعوناكم الى الغى لتكونوا أمثالنا لأن الطيور على أشكالها تقع والناس مولعون بتكثير سوادهم ومن هم على شاكلتهم ليأنسوا بهم كما تفعل الأمم كلها يعلمون الأمم لغاتهم وعلومهم وتاريخهم ليكونوا على شاكلتهم ويقتفوا بهم (فإنهم) فان الأتباع والمتبوعين (يومئذ فى العذاب مشتركون) كما كانوا مشتركين فى الغواية (إنا كذلك) أى مثل ذلك الفعل (نفعل بالمجرمين) بالمشركين وبين سببه فقال (إنهم كانوا اذا قيل لهم لاإله إلا الله يستكبرون) أى عن كلمة التوحيد وعن الداعين اليها (ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا

لشاعر مجنون) يعنون محمدا ﷺ فرد الله عليهم قائلا : كلا (بل جاء بالحق وصدّق المرسلين) أى ما جاء به قام عليه البرهان وتطابق عليـه المرسلون (إنـكم لذائقوا العذاب الأليم) بالاشراك وتـكذيب الرسول (وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) أى إلا مثل ما عملتم (إلا عباد الله المخلصين) هذا استثناء منقطع

﴿ وصف أهل الجنة ﴾

مآكلهم ، ومجالسهم ، وشرابهم ، ونساؤهم

﴿ مآكلهم ﴾

هى الفواكه للتلذذ مع الاكرام وعدم النصب فى التحصيل وهم فى الحدائق وهوقوله (أولئك لهم رزق معلوم * فواكه وهم مكرمون * فى جنات النعيم)

﴿ مجالسهم ﴾

يجلسون على سرر وهـم متقابلون ، وقد جاء فى آية أخرى ـ ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ اخوانا على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب ـ وذلك قوله تعالى (على سرر متقابلين)

﴿ شرابهم ﴾

يشربون الخر من نهر ظاهر للعيون أوخارج منها وهى بيضاء لذيذة لشاربها ليس فيها غائلة تفسد عقولهم كما فى خمر الدنيا وتصدعهم وتحدث فيهم البول والقىء والعربدة وأمثالها ، يقال غاله اذا أفسده ولا يسكرون منها وهذا قوله (يطاف عليهم بكأس) باناء فيه خمر (من معين) من شراب معين أونهر معين (بيضاء لذة للشاربين) صفتان للـكأس (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) يقال نزف الشارب فهو نزيف ومنزوف

﴿ نساؤهم ﴾

قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ فلا يحببن غـيرهم نجل العيون أى واسعاتهن جمع عيناء يشبهن بيض النعام المصون من الغبار ونحوه فى الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة فانه أحسن ألوان الأبدان وهذا قوله (وعندهم قاصرات الطرف عين * كأنهنّ بيض مكنون)

﴿ وصف حديث أهل الجنة ﴾

بعد أن ذكر الله مآكلهم ومشاربهـم وقلوبهم المؤتلفة ونساءهـم أخذ يذكر أحاديثهم فى شؤن مضت وانقضت فى الدنيا قبل البعث كما قال الشاعر :

وما بقيت من اللذات إلا * محادثة الرجال ذوى العقول

وهذه لذة عقلية أشرف من اللذات الحسية السابقة ، فهؤلاء يطاف عليهم بكأس من معين وهم يتحادثون كما يحصل ذلك بعد الانتصار فى الحروب العظيمة فيقول أحدهم : « ولقد كان لى جليس فى الدنيا يوبخنى على التصديق بالبعث » ويقول : « أنحن مدان (أى مجزى) اذا أصبحنا ترابا وعظاما ؟ كلا . ثم كلا . انظروا ، انظروا أيها الاخوان هاهوذا فلان الذى كان شأنه ذلك » (هل أنتم مطلعون) الى أهل النار لأريكم ذلك القرين (فاطلع) عليهم (فرآه) أى قرينه (فى سواء الجحيم) أى وسطه فلما رآه (قال) له (تالله إن كدت لتردين) لتهلكنى باضلالك (ولولا نعمة ربى) بالهداية والعصمة (لكنت من المحضرين) معك فى جهنم ، ياهذا أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين إلا موتتنا الأولى بخلاف الـكفار فهم يموتون الموتة الأولى مثلنا ثم هم فى جهنم يتمنون الموت كل ساعة . قيل لحكيم : ما شر من الموت ؟ قال الذى يتمنى فيه الموت وهذا القول يقوله المؤمن تحدثا بنعمة الله عليـه بسمع من قرينه ليكون توبيخا له فيزيد تعذيبه ثم قال لقرينه (إنّ هذا) الأمر الذى نحن فيه (لهو الفوز العظيم) قال الله (لمثل هذا فليعمل العاملون)

﴿ وصف جهنم ﴾

قال تعالى (أذلك خير نزلا) تمييز (أم شجرة الزقوم) أى أنعيم الجنة ومافيها خير نزلا أم شجرة الزقوم والنزل مايقام للنازل بالمكان من الرزق والزقوم شجر مر بتهامة (إنا جعلناها فتنة للظالمين) محنة وعذابا فى الآخرة أو ابتلاء فى الدنيا إذ قالوا كيف يكون فى النار شجرة والنار تحرق الشجرة (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم) فنبتها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع الى دركاتها (طلعها كأنه رؤس الشياطين) أى رؤس الحيات القبيحة المنظر التى يسميها العرب شياطين أو نفس الشياطين التى لم يرها الناس ولكن وقع فى وهمهم شناعتها وقبح منظرها كما فى بيت امرىء القيس. ✲ ومسنونة زرق كأنياب أغوال ✲ (فانهم لآكلون منها) من الشجرة أو من طلعها (فمالئون منها البطون) لغلبة الجوع (ثم إن لهم عليها لشوبا) أى لخلطا (من حميم) ماء حار يشوى وجوههم (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) فلخص ذلك أنهم يؤتى بهم من دركات الجحيم الى شجرة الزقوم فيأكلون ثم يسقون ثم يرجع بهم الى محالهم من الجحيم ، ثم بين السبب الذى أوقعهم فى الكفر المسبب لذلك فقال (إنهم ألفوا آباءهم ضالين ✲ فهم على آثارهم يهرعون) الاهراع الاسراع الشديد كأنهم يحثون حثا (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) أى ضل قبل قريش الأمم الخالية بالتقليد وترك النظر (ولقد أرسلنا فيهم منذرين) أنبياء حذروهم العواقب (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) الذين أنذروا وحذروا أنهم هلكوا جميعا (إلا عباد الله المخلصين) الذين أخلصوا دينهم لله فانهم لم يهلكوا . انتهى التفسير اللفظى للفصل الثانى

﴿ لطيفة فى التقليد والنظر ﴾

نبين فى هذا الفصل ماتكون عاقبة التقليد جاء أولا فى قول القائل فى الجنة لقرينه فى النار انه نجا من اغوائه ولو أنه اتبعه لوقع فى الجحيم ، وثانيا فى قوله — إنهم ألفوا آباءهم ضالين ✲ فهم على آثارهم يهرعون — ثم زاد على ذلك أن أكثر الأمم الخالية ماهلكوا إلا بالتقليد ، فظهر من هذا المثال أن التقليد أوله وآخره شؤم على المقلد وعلى من يتبعه ، إن العالم الانسانى لاسعادة له إلا بالنظر والفكر والبحث فى حقائق الأشياء دنيوية وأخروية ، فلينظر العقلاء فى التعاليم الاسلامية الحالية وليفكروا فى نظام الدين الاسلامى وليعلموا أن اتباع الأمم الاسلامية المتأخرة فى تعاليمها قد أضاع الأمم الكثيرة فى الشرق ، فلينظم تعليم الاسلام بجميع العلوم والصناعات باعتبار انها فرض والافليعلموا أنهم لاحقون بالأمم التى أبادها الجهل وأضاعها الجاهلون

﴿ جوهرة فى قوله تعالى — إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب — الخ ﴾

لقد تقدم الكلام على الكواكب والكشف الحديث فيها فى أول سورة البقرة وفى سورة الأنعام وسورة يونس وغيرها ، ولابد هنا من ذكر أبدع ماجاء فى الكشف حديثا لتبتهج أيها الذكى بالعلم والحكمة فهاك ماجاء فى « مجلة السياسة » الأسبوعية وهذا نصه :

﴿ اكتشاف علمى جديد ﴾

(المجرة ومركز الكائنات)

(نظرية الدكتور شابلى فى سعة هذا الكون)

نحن نطاق لفظة الكون على مانشاهده ومالا نشاهده من الأجرام العلوية التى تسبح فى الفضاء ، وقد كانت النظريات العلمية تؤكد حتى الآن أن الكائنات (على سعتها وكثرة أجرامها) محدودة وأن وراءها ظلمات فوق ظلمات وفراغا لا أول له ولا آخر . على أن الدكتور شابلى مدير مرصد جامعة هوفارد الأمريكية ومن أشهر علماء الفلك فى الوقت الحاضر قد جاءنا اليوم بنظرية جديدة وهى أنه ليس فى الكون فراغ بالمعنى

العلمي وأن الأجرام الفلكية تملأ هذا الوجود الى مالانهاية له ، وقد نشرت إحدى المجلات العلمية الأمريكية مقالة في هذا الموضوع رأينا أن نلخصها فيما يلي

« يؤخذ من أحدث المباحث العلمية أن الفراغ الذي تسبح فيه الأفلاك شفاف وانه ليس منه جزء فارغ كما كان يظن حتى عهد قريب بل هو يعج بالأجرام الفلكية في كل ناحية من أنحائه وليس فيه مجرّة واحدة بل عدّة مجرّات وأن بعضها كبيرة جدا حتى ان المسافة بين طرفيها تزيد على ألوف الملايين من السنين النورية ويرجع فضل هذا الاكتشاف الى الدكتور شابلى فقد أثبت بعد البحث العلمي الدقيق هذه الحقيقة العلمية الجديدة وهي أن نظامنا الشمسي ونظام المجرّة هما في الواقع نظام واحد يدور بسرعة مائتي ميل في الثانية أو بسرعة تزيد على ستة آلاف وثلثمائة وسبعة ملايين ومائتي ألف ميل في السنة ، وانه يكمل كل دورة من دورانه في ثلثمائة مليون سنة (وبعبارة أخرى) ان اليوم من أيام هذا النظام يعادل ثلثمائة ألف ألف سنة (لأن اليوم بالاعتبار الفلكي هو دوره الجرم على محوره ودورة النظام الذي نحن بصدده على محوره تستغرق ثلثمائة مليون سنة) وتبلغ المسافة التي يجتازها هذا النظام في كل دورة من دورانه وثمانمائة واثنين وتسعين ألف ومائة وستين ألف ألف ألف ألف ميل . ويعتقد الدكتور شابلى أنه لن ينقضي زمان طويل حتى يتوصل العلماء الى اكتشاف سرّ الحياة في أحد تلك الأجرام فان معظمها قديم جدا ، وليست كرتنا الأرضية بالنسبة اليه سوى طفل حديث الولادة ، وقد كان الأقدمون يعتقدون أن الكرة الأرضية هي مركز جميع الكائنات وأن الشمس وجميع الأفلاك تدور حولها ، ثم تقدّم العلم فثبت أن الأرض لم تكن مركز الكائنات ، وساد الاعتقاد بين جمهور العلماء أن الشمس هي ذلك المركز ، وظلت النظريات تتغير وتنقلب الى أن جاءنا الدكتور شابلى بنظريته الجديدة وهي أن مركز الكائنات هي نقطة اتصال الأبراج المعروفة بالعقرب والحية والرامي وتبعد هذه النقطة عن الكرة الأرضية نحو خمسين ألف سنة نورية أي نحو ثلثمائة ألف ألف ألف مليون ميل فالنور الذي نراه الآن منبعثا من ذلك المركز هو النور الذي انبثق منه منذ أكثر من خمسين ألف سنة أي قبل أن يظهر الانسان على هذه الكرة

ومما يجدر بالذكر أن الاستاذ (ادنجتون) الذي يعتبر أعظم علماء الفلك في الوقت الحاضر (وهو أستاذ الفلك في جامعة كمبردج بانجلترا) أعلن منذ عشر سنوات أن الشمس هي مركز المجرّة وأن طرف المجرّة يبعد عن الكرة الأرضية عشرة آلاف سنة نورية وانه ليس وراء ذلك الطرف سوى فضاء لاحدود له ، أما الآن فقد أثبت (الدكتور شابلى) أن الكائنات أوسع من ذلك بكثير ، اذا نظرت الى السماء في ليلة صافية الأديم أمكنك أن ترى بالعين المجرّدة نحو خمسة آلاف نجم من النجوم المختلفة الأحجام والدرجات وهذه النجوم مبعثرة في قبة الفلك بلانظام ظاهر وبعثرتها في الوسط طريق المجرة الذي هو أشبه بنهر متعوج ، على أن ما نراه بالعين المجرّدة ليس سوى جزء صغير من مجموع النجوم التي يتألف منها عالمنا (أي نظامنا الشمسي والمجرّة معا) فان عدد نجومه يبلغ عشرة آلاف مليون نجم ، وما شمسنا سوى نجم تافه يدور هو والأرض وجميع أجرام النظام الشمسي حول مركز الكائنات الذي سبقت الاشارة اليه

ويقول الدكتور شابلى أيضا : إن حول هذا المركز ٥ ومائة مليون نجم (والنجم هو الشمس بعينه) ومن هذه المجموعة تتألف نواة المجرّة ولكن بقية أجزاء المجرة لاتزال محوطة بحجب الكتمان ، وانما هنالك قرائن تدل على أن ثخانة نظام المجرّة تبلغ نحو خمسة وخمسين ألف سنة نورية وأن قطرها أكثر من ذلك بكثير

﴿ ترى ما الذي وراء مركز الكائنات ؟ ﴾

يعتقد الدكتور (شابلى) أنه لن يمر وقت طويل حتى تتجلى لنا أسرار كثيرة ، أما النظرية القائلة بوجود شمس عظيمة تستمد منها جميع الشموس نورها وهي مركز الكائنات فهي خرافة لاطائل تحتها ، ونظرية

النسبية

النسبية (وهى أحدث النظريات العلمية وأصدقها فى الوقت الحاضر) تؤكد لنا أن لكل جرم حدوداً لايتعداها ، فالنجم المسمى (منكب الجوزاء) هو عبارة عن شمس هائلة يمكن وضع خمسة وعشرين مليون شمس كشمسنا فى بطنها ومع ذلك لايمكن (بحسب مذهب النسبية) تصوّر شمس أكبر من منكب الجوزاء لأن قوة الجاذبية فيها تكون هائلة جداً تصطدم بقوة إشعاعها وتمزّقها شرّ ممزق

فمركز الكائنات يشرف على نظامنا الشمسى ونظام المجرّة معاً ويحفظ التوازن بين جميع أجرام النظام ، وقوّة جاذبيته تفوق قوّة أىّ جرم آخر يفرضه العلم ، وتدل المباحث العلمية الحديثة أيضاً على أن مركز المجرّة محوط بألوف الملايين من النجوم المبعثرة فى الفضاء ، وللدلالة على سعة الفضاء الذى تشغله تلك النجوم نقول : « إن محيطه لايقل عن ثلثمائة ألف سنة نورية وثخانته لاتقل عن مائة وخمسين ألف سنة نورية ، أما نظامنا الشمسى فواقع خارج محيط المجرّة عند أحد طرفيها ، ولايخفى أن جميع أجرام الفلك تدور على محورها بلا انقطاع ، وقد قلنا ان اليوم يتكوّن من دورة الجرم على محوره ، فاليوم باعتبار كرتنا الأرضية يتكوّن من دورة الكرة على محورها وهو بحسابنا أربع وعشرون ساعة ، أما الكائنات التى يتألف منها نظامنا الشمسى ونظام المجرّة معاً فهو يعادل ثلثمائة مليون سنة لأن هذه الكائنات تدور مرة حول محورها كل ثلثمائة مليون سنة ، وعليه فان ستة أيام أو سبعة من نوع الأيام التى نحن بصددها تكفى لنشوء كائنات بأسرها ، أما الذى حمل (الدكتور شابلى) على القول بأن نطاق الأفلاك أوسع كثيراً مما يتوهم العلماء وأن عدد الأجرام التى تتألف منها الكائنات غير محدود فهو النجوم المعروفة بالمتغيرة ، فقد اكتشف منها عدّة آلاف وهو يعتقد أن الكون مملوء بها ، وقد درس حالة هذه النجوم درساً مدققاً فابتكر طريقة علمية لقياس درجة نورها ولمعانها ، والمجال لايتسع لشرح تلك الطريقة وانما نقول إن الدكتور شابلى توصل بواسطتها الى معرفة أبعاد تلك النجوم وقد أثبت أنها تقع خارج الحدود التى كانت مفروضة للكائنات أى فى الفضاء الذى كان يقال حتى عهد قريب انه فراغ ليس فيه شئ من الأجرام الفلكية ، وقد وجد أن قوّة اشعاع بعض تلك النجوم تفوق قوّة اشعاع الشمس أكثر من ثلاثين ألف ضعف فتأمل

و بناء على هذا الاكتشاف أصبحت حدود الكائنات أوسع بكثير مما كان العلماء يتصوّرونها حتى أوائل هذا القرن ، و يظهر الآن أن النجوم المتغيرة توجد بشكل مجموعة مبعثرة حول أطراف المجرة وانها حدود الكائنات التى يتألف منها نظامنا الشمسى ونظام المجرة معاً ، أما حقيقة شكل الكائنات المذكورة فهى انها تشبه قرصاً ثخيناً مستطيلا يتألف من نظامنا الشمسى ومن المجرة ، وليس نظامنا الشمسى مركزاً لتلك الكائنات بل هو يبعد عن ذلك المركز نحو خمسين ألف سنة نورية كما سبق القول فيه

﴿ ووراء هذه الكائنات كلها ؟ ﴾

كان العلماء يزعمون حتى عهد قريب أن وراء الكائنات فراغاً لاحدود له وأن هذا الفراغ يبتدئ بعد المجرة بقليل وليس له آخر إلا ان الدكتور شابلى قد أثبت اليوم أن مجرّتنا ليست هى المجرة الوحيدة بل إن هنالك مجرّات أخرى ومجموعات نظم شمسية لاعداد لها وهى تدور حول نواة مركزية ، وقد أطلق عليها الدكتور شابلى اسم جزائر كونية ويمكننا رؤية عدّة مئات منها بواسطة التلسكوبات الحاضرة ، ومتى أنشئ تلسكوب مرصد (مونت ويلسون الجديد) الذى سيبلغ قدر عدسته مائتى بوصة فالأرجح اننا سنتمكن من مشاهدة ألوف كثيرة من تلك الجزائر ، وتظهر هذه الجزائر لأوّل وهلة بشكل مجموعات مظلمة من النجوم أو السدم المبعثرة فى الفضاء ، ومع ان هذه الجزائر ليست من مكتشفات (الدكتور شابلى) إذ قد كانت معروفة من قبل إلا ان القول بأن كلا منها هى مجرة قائمة بذاتها هو قول جديد ، وقد ثبت الآن أن بعضها يبعد عن نظامنا الشمسى نحو مائة مليون سنة نورية أو أكثر

ومما يدلك على سعة هذا الكون أنه لو أصيبت مجرّتنا (وفيها نحو عشرة آلاف مليون جرم فلكي) بمصيبة محقتها وأزالتها من الوجود فان الذين فى أقرب الجزائر الكونية (اذا صحّ أن فى تلك الجزائر مخلوقات) لايشعرون بتلك المصيبة إلا بعد مئات الالوف من السنين لأن أنوار المجرة تظل سائرة فى الفضاء ولاتصل الى أقرب جزيرة إلا بعد انقضاء مئات الالوف من السنين » انتهى ماجاء فى المجلة المذكورة

هذه هى المقالة التى أحببت أن أثبتها هنا قبولا لنعمة الله علينا بالعلم والحكمة ، فانظر أيها الذكىّ إلى عظمة الله التى لاتتناهى وكواكبه التى لاحدّ لها ، اللهم إن هذه هى السعادة الحقيقية أن تزيد معارفنا بجمالك وبهائك ونرى أنفسنا فى يد رحيم لانهاية لرحمته ، عظيم لانهاية لعظمته ، إن القلب اذا أدرك هذه العظمة وعقل هذه الرحمة يكاد يذوب وجدا على بعده عن مسدى هذه النعم ويتمنى لو يراه ، بل كثير من قرّاء هذا التفسير العاشقين للعلم سيكون حياتهم كلها سعادة بعمل نافع للأمم جمعاء ، ويرون أن الموت نعمة من أجلّ النعم ، بل سعادة لاحدّ لها ، لأنهم يودّون أن يروا مسدى هذه النعم صانع هذه العجائب مبدع هذا الجمال بعد أن يكونوا قد أتموا ما أعدتهم له فى هذه الأرض

ياسبحان الله : كأنى أشاهد كثيرا من قرّاء هذا التفسير قد امتازوا بأنهم فى الدنيا مشرقة أنوارهم العلمية وقد اشتاقوا لمسدى هذه النعم وحققوا معنى الحديث « من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه » ولاسبيل لهذه المحبة بغير دراسة هذه الدنيا ، وأنا أحمدك يا ألله أن جعلت هذا التفسير جامعا لأجل مافى العلوم وزهراتها

إن قرّاء هذا التفسير فضلاءهم اذا سمعوا قوله تعالى ـ وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدّون ـ وسمعوا قوله تعالى ـ تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ـ لاتطيش سهامهم ولايضلّ سعيهم ولايظنون التنافى والتناقض بل هم يعلمون علما ليس بالظنّ أن الله يخاطب الناس كما يخاطب أحدنا طفلا صغيرا بل كما يخاطب الدواب ، إن منزلتنا من الله أبعد من ذلك وانما ضربنا ذلك مثلا إذ ليس المقام مقام تحديد اليوم بألف سنة ولامقام تحديده بخمسين وانما يراد مدة عظيمة عبر عنها بما نعقله ، ولاجرم أن اليوم (٢٤) ساعة وهذا هو المعروف عندنا وهذا مبنى على دوران أرضنا ولكن هناك كواكب أخرى أكبر من أرضنا وهناك مجرات وسدم وهذه مجرّتنا التى فيها شمسنا يومها (٣٠٠) ألف ألف سنة كما رأيت وقد يكون أكثر لمجرّة غيرها ، فاذن ألف سنة ليس قيدا وخمسون ألف سنة كذلك وثلثمائة ألف ألف سنة كذلك ولايعلم أيام جميع الكواكب وجميع المجرات وجميع السدم إلا من لانهاية لعلمه ، إذن هنا فهمنا قول علمائنا رحمهم الله « إن العدد لامفهوم له » قالوا هذا عند الكلام على أن السموات سبع وأن الأرضين سبع ، أفلست ترى أن هذا زمان عجائب القرآن ، يقول : إن يوما عند الله يبلغ ألف سنة ، ثم يقول خمسين ألف سنة ، لماذا ؟ ليفتح للعقول أبواب الفكر فيفكر العاقل ويقرأ العلوم فيعلم أن ذكر العددين يفتح باب الدرس حتى يعرف أنه لاحدّ للسنين ولاوقوف لها عند حدّ والله واسع عليم ـ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب ـ انتهى نصف الساعة الثانية من ليلة الأحد (٥) يناير سنة ١٩٣٠ وبهذا تم الكلام على الفصل الثانى والحمد لله رب العالمين .



الفصل الثالث

فى قصص الأنبياء الذين أجملوا فى قوله تعالى ـ ولقد أرسلنا فيهم منذرين الخ ـ

ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون • ونجيناه وأهله من الكرب العظيم • وجعلنا ذريته هم
الباقين • وتركنا عليه فى الآخرين • سلام على نوح فى العالمين • إنا كذلك نجزى المحسنين •
إنه من عبادنا المؤمنين • ثم أغرقنا الآخرين • وإن من شيعته لإبراهيم • إذ جاء ربه بقلب
سليم • إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون • أئفكا آلهة دون الله تريدون • فما ظنكم برب
العالمين • فنظر نظرة فى النجوم • فقال إنى سقيم • فتولوا عنه مدبرين • فراغ إلى آلهتهم
فقال ألا تأكلون • ما لكم لا تنطقون • فراغ عليهم ضربا باليمين • فأقبلوا إليه يزفون •
قال أتعبدون ما تنحتون • والله خلقكم وما تعملون • قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم •
فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين • وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين • رب هب لى من
الصالحين • فبشرناه بغلام حليم • فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك
فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين • فلما أسلما وتله
للجبين • وناديناه أن يا إبراهيم • قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين • إن هذا لهو
البلاء المبين • وفديناه بذبح عظيم • وتركنا عليه فى الآخرين • سلام على إبراهيم •
كذلك نجزى المحسنين • إنه من عبادنا المؤمنين • وبشرناه بإسحق نبيا من
الصالحين • وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين • ولقد مننا
على موسى وهارون • ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم • ونصرناهم فكانوا هم الغالبين •
وآتيناهما الكتاب المستبين • وهديناهما الصراط المستقيم • وتركنا عليهما فى الآخرين • سلام
على موسى وهرون • إنا كذلك نجزى المحسنين • إنهما من عبادنا المؤمنين • وإن إلياس لمن
المرسلين • إذ قال لقومه ألا تتقون • أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين • الله ربكم ورب
آبائكم الأولين • فكذبوه فإنهم لمحضرون • إلا عباد الله المخلصين • وتركنا عليه فى الآخرين
سلام على إل ياسين • إنا كذلك نجزى المحسنين • إنه من عبادنا المؤمنين • وإن لوطا لمن
المرسلين • إذ نجيناه وأهله أجمعين • إلا عجوزا فى الغابرين • ثم دمرنا الآخرين • وإنكم

لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

﴿ قصة نوح عليه السلام ﴾

قال تعالى (ولقد نادانا نوح) لما أيس من قومه المقلدين لآبائهم فأجبناه (فلنعم المجيبون) أى فوالله لنعم المجيبون نحن (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) من الغرق ومن أذى قومه (وجعلنا ذريته هم الباقين) إذ كان له ثلاثة أولاد سام وهو أبو العرب وفارس والروم ، وحام وهو أبو السودان من المشرق الى المغرب ، ويافث وهو أبو الترك ويأجوج ومأجوج . هذا هو المشهور على ألسنة المؤرخين وليس فى القرآن نص على هؤلاء ولا على غيرهم (وتركنا عليه فى الآخرين) من الأمم ثناء حسنا وذكرا جميلا فيمن بعده من الأنبياء الى يوم القيامة ، ثم قال الله (سلام على نوح فى العالمين) أى سلامة وسعادة منا على نوح من بين العالمين فى زمانه (إنا كذلك) هكذا (نجزى المحسنين) بالقول والفعل بالثناء الحسن والنجاة تبشيرا بالنجاة والذكر الحسن لكل من آمن وعمل صالحا (إنه من عبادنا المؤمنين * ثم أغرقنا الآخرين) وهم كفار قومه

﴿ قصة ابراهيم ﴾

قال تعالى (وإن من شيعته) ممن شايعه فى الايمان وأصول الشريعة (لابراهيم * إذ جاء ربه بقلب سليم) إذ ظرف متعلق بشيعته لما فيها من معنى المشايعة وسلامة قلبه خلوصه من الشرك ومن آفات القلوب وهى المهلكات من الذنوب القلبية كالكبر والحسد (إذ) بدل من إذ الأولى (قال لأبيه) آزر (وقومه) عبدة الأوثان (ماذا تعبدون) من دون الله قالوا نعبد أصناما قال لهم ابراهيم (أئفكا آلهة) أى أتريدون آلهة دون الله لأجل الافك أى الكذب (فما ظنكم برب العالمين) أى فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره وعلمتم انه المنعم على الحقيقة فكان حقيقا بالعبادة (فنظر نظرة فى النجوم) أى نظر فى النجوم راميا ببصره الى السماء ليريهم انه ينظر فيها لاعتقادهم علم النجوم فأوهمهم أنه استدل بأمارة على أنه سقيم (فقال إنى سقيم) أى مشارف للسقم وهو الطاعون وكانوا يخافون العدوى كما هى الحال اليوم فى جميع الأمم فتفرقوا عنه بهذه الحيلة وتركوه فى بيت الأصنام ليس معه أحد ففعل بالأصنام مافعل وهذا من معاريض الكذب لأنهم فهموا انه سقيم الآن وهو يريد سأسقم بل إن كل من كان الموت لاحقه فهو به سقيم أوخص السلامة داء كما فى المثل «كفى بالسلامة داء» أوانى سقيم بكفركم (فتولوا عنه مدبرين) مولين الادبار (فراغ الى آلهتهم) مال اليها (فقال) استهزاء (ألا تأكلون) من الطعام الذى أمامكم فلم يجبن (مالكم لا تنطقون) لا تجيبون (فراغ عليهم) فأقبل عليهم (ضربا باليمين) أى ضاربا بسبب الحلف السابق منه ليبر فى يمينه ، أوضاربا بيمينه للدلالة على القوة ، فرجعوا الى أصنامهم فوجدوها مكسرة (فأقبلوا اليه يزفون) يسرعون فقالوا نعبدها وأنت تكسرها فأجابهم (قال أتعبدون ما تنحتون) بأيديكم (والله خلقكم وماتعملون) وخلق ماتعملونه من الأصنام ، أو وخلق أعمالكم فلم تعبدون غيره ؟ (قالوا ابنوا له لأجله (بنيانا) من الحجر طوله عشرون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا (فألقوه فى الجحيم) فى النار الشديدة

(فلما رادوا)

(فأرادوا به كيدا) بإلقائه فى النار (فجعلناهم الأسفلين) المقهورين عند الالقاء فخرج من النار (وقال إنى ذاهب الى ربى) أى الى موضع أمرنى بالذهاب اليه (سيهدين) سيرشدنى الى مافيه صلاح فى دينى و يعصمنى و يوفقنى (رب هب لى من الصالحين) أى بعض الصالحين أى الولد (فبشرناه بغلام حليم) فالبشارة بثلاث: انه ذكر، وانه يبلغ أوان الحلم، وانه حليم. ومن حلمه انه رضى بالذبح كما سيأتى (فلما بلغ معه السعى) أى بلغ أن يسعى مع أبيه فى أشغاله وحوائجه وكأنه قيل مع من يسعى؟ فقيل مع أبيه، فاذن معه بيان لايتعلق ببلغ ولابالسعى (قال يابنىّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) إذ قيل له فى المنام اذبح ابنك ورؤيا الأنبياء وحى، فلما أصبح روّى فى ذلك من الصباح الى الرواح، أمن الله هـذا الحلم، أم من الشيطان؟ فمن ثمة سمى يوم التروية فرأى مثل ذلك فى الليلة الثانية فعرف انه من الله فسمى يوم عرفة، ثم رأى الليلة الثالثة مثل ذلك فهمّ بنحره فسمى يوم النحر (فانظر ماذا ترى) من الرأى على وجه المشاورة، يريد أن يختبره ليعلم أيجزع أم يصبر (قال ياأبت افعل ما تؤمر) أى ماتؤمر به (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) على الذبح (فلما أسلما) انقادا لأمر الله وخضعا (وتله للجبين) صرعه على جنبه ووضع السكين على حلقه (وناديناه أن ياإبراهيم * قد صدّقت الرؤيا) أى حققت ما أمرناك به فى المنام من تسليم الولد للذبح وجواب لما محذوف أى كان ما كان مما لايحيط به الوصف من استبشارهما وحمدهما الله وشكرهما له على نعمة دفع البلاء (إنا كذلك نجزى المحسنين) أى إنا كما عفونا عن ذبح ولده كذلك نجزى المحسنين فى طاعتنا (إن هذا لهو البلاء المبين) أى الاختبار الظاهر إذ اختبرناه بذبح ولده (وفديناه بذبح عظيم) كبير الجثة سمين، يقال ان جبريل أتى له بكبش أملح أقرن من الجنة، و يقال انه رعى فيها أربعين خريفا، وقيل انه وعل أهبط عليه من ثبير ولما هرب من عند الجمرة رماه بسبع حصيات حتى أخذه فصارت سنة، و يقول الحنفية: «من نذر ذبح ولده لزمه ذبح شاة» (وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على ابراهيم) هو كما سبق (كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين) وقوله (و بشرناه باسحق نبيا من الصالحين) أى بوجود اسحق أى ولما أسلم أمره لله فى ذبح اسماعيل بشره الله باسحق بعد ذلك (وباركنا عليه) أى أفضنا عليه بركات الدين والدنيا (وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن) فى عمله (وظالم لنفسه) بالكفر والمعاصى (مبين) ظاهر ظلمه

﴿ لطيفة ﴾

فى هذه القصة الشجاعة بالفتك بالعادات المزرية بالانسانية والشجاعة فى اقتحام الأهوال وقد تم بمثل ذلك نبينا ﷺ وفيها الصبر والحلم والاناة وأن يستعد الانسان لتسليم نفسه لله كل وقت لايبالى بما يصيبه من فقد أوقتل أونقص، كل ذلك تعليم لنا وتهيئة للمعالى، ولقد سبق فى ﴿ سورة البقرة ﴾ انى ذكرت لك هناك «لغزقابس اليونانى» قبل الميلاد بخمسمائة سنة إذ شرح كل الأحوال الانسانية من علم ومال وولد وملك فلم يجعل للانسانية سعادة إلا بالصبر على مايصيب الانسان، فالصبر أوّل الامور وآخرها، وأخرج من السعادات العلماء والشعراء والأغنياء والملوك وأهل الجمال والوارثين فقد حكم على هؤلاء جميعا بأنهم ليسوا سعداء وجعل كل مايقرؤه الناس فى الكتب من الأخلاق أدبا مزوّرا. فأما الأدب الحقيقى فهو الأخلاق وأهمها الصبر على النوائب وحكم بأن هؤلاء جميعا قبل أن ينالوا بالمصائب ليس أحد منهم سعيدا ولهذا وحده جاءت هذه القصص وكيف رضى ابراهيم بذبح ولده. وكيف رضى اسماعيل بالذبح لذلك وردت هـذه القصص فى القرآن. ومن عجب أن تتحد الفلسفة والدين على أمر واحد أمر الصبر وانه السعادة القصوى. يقول قابس «لأن النفس مادامت تفرح بالنعمة وتؤلمها النقمة فانها رعناء جاهلة طفلة لأن المال والولد كالليل والنهار يطلعان على الفاجر والصالح. والسعادة التى اصطلح عليها الناس لابقاء لها فهى رعناء تفرح بها النفوس الرعناء» فالسعادة إذن أن تكون النفس مطمئنة لكل مايأتى عليها وهذا قوله تعالى ـ لكيلا تأسوا على مافاتكم

ولا تفرحوا بما آتاكم ـ وقوله ـ إن الله لا يحب الفرحين ـ وهذا الخلق يحصل بأحد أمرين : إما بتوالى النوائب على امرئ حتى يصير قادرا على احتمالها . واما أن يدرس هذا العالم درسا مدققا فيدرك إذ ذاك أن العالم نظام واحد له مرب يربيه مطلع على كل جليل وصغير وحينئذ يرى أن الله معه فى السراء والضراء فيرضى وقتا و يغلبه الطبع وقتا ولكنه أقرب الى الرضا من الجهال

﴿ قصة موسى وهرون ﴾

قال تعالى (ولقد مننا على موسى وهرون) أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من النعم الدنيوية (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) من تغلب فرعون ومن الغرق (ونصرناهم) الضمير لهما مع القوم (فكانوا هم الغالبين) على فرعون وقومه (وآتيناهما الكتاب المستبين) البليغ فى بيانه وهو التوراة (وهديناهما الصراط المستقيم) الطريق الموصل الى الحق (وتركنا عليهما فى الآخرين * سلام على موسى وهرون * إنا كذلك نجزى المحسنين * إنهما من عبادنا المؤمنين)

﴿ قصة الياس ﴾

هو الياس بن ياسين من ولد هرون أخى موسى وقيل هو ادريس النبى عليه السلام (وان إلياس لمن المرسلين إذ قال لقومه ألا تتقون) عذاب الله (أتدعون بعلا) أى أتعبدونه وهو اسم صنم كان لأهل بك بالشام وهو البلد الذى يقال له الآن بعلبك و يطلق البعل على الرب بلغة اليمن و يصير المعنى أتدعون بعض البعول (وتذرون أحسن الخالقين) وتتركون عبادته (الله ربكم ورب آبائكم الأولين) بدل من أحسن (فكذبوه فانهم لمحضرون) أى فى العذاب (إلا عباد الله المخلصين) بدل من الواو (وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إلياسين) لغة فى الياس كسينا وسينين (إنا كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين)

﴿ ذكر لوط ﴾

قال تعالى (وإن لوطا لمن المرسلين * إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا فى الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وانكم) يا أهل مكة (لتمرّون عليهم مصبحين) داخلين فى الصباح (وبالليل) أى مساء (أفلا تعقلون) أى أفليس فيكم عقل تعتبرون به

﴿ ذكر يونس ﴾

قال تعالى (وان يونس لمن المرسلين * إذ أبق) هرب (الى الفلك) من قومه بغير اذن ربه (المشحون) المملوء (فساهم) فقارع أهل الفلك (فكان من المدحضين) المغلوبين بالقرعة * روى انه لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى به فركب السفينة فوقفت فقالوا ههنا عبد آبق فاقترعوا فخرجت القرعة عليه فقال أنا الآبق ورمى بنفسه فى الماء (فالتقمه الحوت) فابتلعه وهو من اللقمة (وهو مليم) آت بما يلام عليه (فلولا انه كان من المسبحين) الذاكرين الله كثيرا بالتسبيح مدة عمره أوفى بطن الحوت إذ كان يقول : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » وقيل من المصلين (للبث فى بطنه الى يوم يبعثون) ميتا (فنبذناه) طرحناه (بالعراء) بالأرض الخالية عن الشجر والنبات (وهو سقيم) عليل وكان لبثه فى بطن الحوت ثلاثة أيام (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) هو القرع ، وكل نبت يمتد على وجه الأرض كالقرع يقطين * قيل لرسول الله ﷺ إنك لتحب القرع . قال : أجل هى شجرة أخى يونس (وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون) هم قومه أهل نينوى . واعلم أن كلام المفسرين مضطرب هنا فلنسمعك ملخص كلام التوراة :

« إن الله أرسل « يونان » أى يونس بن امتاى قائلا قم اذهب الى أهل نينوى المدينة العظيمة فهرب يونان من وجه الرب فنزل الى يافا ووجد سفينة ذاهبة الى ترشيش فجاءت ريح شديدة وكان ما كان ع-لهو

معروف من أمر القرعة ، ولما خرجت القرعة بأن يرمى فى البحر خافوا خوفا شديدا ثم طرحوه فسكن البحر ، وأما الرّب فألهم حوتا فابتلعه

﴿ الاصحاح الثانى ﴾

فصلى يونان الى الرّب إلهه من جوف الحوت الى آخر ما هنالك فنبذه الحوت بعد ثلاثة أيام الى البرّ

﴿ وفى الاصحاح الثالث ﴾

إن الله أمر يونس أن يذهب الى أهل نينوى رسولا ثانيا فذهب اليهم وقال بعد أربعين تنقلب نينوى فآمن أهل نينوى وصاموا ولبسوا المسوح جميعهم من الملك الى أدنى رجل فعفا الله عنهم ولم يهلكهم

﴿ وفى الاصحاح الرابع ﴾

ان يونان لما رأى ذلك اغتمّ غما شديدا وقال يارب أنا كنت بادرت الى الهرب لأنى أعلم انك ستفعل ذلك وتعفو عنهم ، ثم جلس شرقى المدينة وجعل لنفسه مظلة ليجلس تحتها فأنبت الله له يقطينة فارتفعت على رأسه ليخلصه من غمه ففرح يونان فرحا عظيما ثم أرسل الله لها دودة وقت الفجر فضربت اليقطينة فيبست وعند طلوع الشمس جاءت ريح شرقية حارّة فضربت رأس يونان فذبل فطلب لنفسه الموت فقال الله ليونان هل اغتظت من الصواب من أجل اليقطينة ؟ أنشفق على يقطينة لم تتعب فيها بنت ليلة نبتت و بنت ليلة هلكت أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة وفيها خلق كثير لايعرفون يمينهم من شمالهم و بهائم كثيرة . انتهى ملخصا من التوراة

ثم قال تعالى (فآمنوا) أى الذين أرسل اليهم يونس (فمتعناهم الى حين) الى انقضاء آجالهم . انتهى التفسير اللفظى للفصل الثالث من السورة

﴿ لطيفة فى قصة يونس وقصة ابراهيم عليهما السلام ﴾

إن يونس تعجل أمر الله فأما ابراهيم واسماعيل الذبيح فانهما صبرا ، إن ابراهيم قانت لله شاكرا لأنعمه صابر ففيه الصبر والشكر ، فأما يونس فانه ذاكر لله ولكنه استعجل ، ولذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ ــ فاصبر لحكم ربك ولاتكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ــ فاذن القصد من هذه السير ترقية المسلمين أى ان الصبر هو عمدة السعادة فى الدنيا ، فابراهيم صابر شاكر ، وأما يونس فانه قد استعجل مع انه يذكر الله ، فذكر الله نفعه ولكن الصبر درع ، ذلك هو المقصود من هذه القصص ، وقد قدمت لك أن الصبر عليه مدار السعادة فى الدنيا لأن الامور ليست تحت تصرّف العباد ، فالناس جميعا معرّضون لما لايرضونه كل آن فان لم يكن صبر فلاسعادة ولا شرف فى الدنيا ولا الآخرة . انتهى الكلام على الفصل الثالث

﴿ الفصل الرابع ﴾

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ • أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ • أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ • وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ • أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ • مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ • أَفَلَا تَذَكَّرُونَ • أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ • فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ • وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ • سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ • إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ • فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ • مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ • إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ

الْجَحِيمِ • وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ • وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ • وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ • وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ • لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ • لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ • فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ • وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ • إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ • وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ • فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ • وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ • أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ • فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ • وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ • وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ • سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ • وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ • وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

﴿ التفسير اللفظى ﴾

هذا الفصل فيه ملخص الفصلين السابقين فان أوّل السورة ذكر الصافات وهم الملائكة وهنا أخذ يستفتى أهل مكة فى تسميتهم بنات الله ثم ذكر انهم هم الصافون المتقدمون فى أوّل السورة ، وفى وسط السورة ذكر المرسلين وهنا ذكر انهم منصورون . فاذن هذا الفصل ملخص الفصلين السابقين وهذا قوله تعالى (فاستفتهم ألربك البنات) الاناث (ولهم البنون) عطف على ماتقدم فى أوّل السورة ـ فاستفتهم أهم أشدّ خلقا أم من خلقنا ـ والكلام هنا فى انهم نسبوا لله الولادة والله منزه عن الملاذّ فكيف يلد ؟ وفى انهم جعلوا الولد أضعف الزوجين الذكر والأنثى وفى أن الملائكة الذين لايوصفون بمايوصف به الحيوان إناث وهذا قوله تعالى (أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون) حاضرون (ألا انهم من إفكهم) كذبهم (ليقولون ولد الله) إذ لادليل عليه (وانهم لكاذبون) فيما يتدينون به (أصطفى البنات على البنين) استفهام انكار واستبعاد (مالكم كيف تحكمون) بئسما تقضون لأنفسكم ترضون لله مالا ترضون لأنفسكم (أفلاتذكرون) انه منزه عن ذلك (أم لكم سلطان مبين) حجة واضحة أوكتاب بين فيه أن الملائكة بنات الله (فأتوا بكتابكم) الذى نزل عليكم (إن كنتم صادقين) فى قولكم (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) أى الملائكة ويسمون جنا لاجتنانهم (ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون) أى ولقد علمت الملائكة أن الذين قالوا هذا القول لمحضرون فى النار (سبحان الله عما يصفون) من الولد والنسب والصاحبة . وقوله (إلا عباد الله المخلصين) استثناء منقطع من المحضرين (فانكم) ياأهل مكة (وما تعبدون) ومعبوديكم (ما أنتم) وهم جميعا (عليه) على الله (بفاتنين) بمضلين (إلا من هو صال الجحيم) أى لستم تضلون أحدا إلا من استعدّوا للفتنة بحسب فطرهم فيكفرون فيصلون جهنم كما هومقدّر أزلا كقوله تعالى ـ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ـ يقال فتن فلان على فلان امرأته أى أفسدها عليه . قال جبريل عليه السلام (ومامنا) أحد (إلا له مقام معلوم) فى المعرفة والعبادة والانتهاء الى أمر الله فى تدبير العالم * وعن ابن عباس « مافى السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلى أويسبح » فهذا وحديث « أطت السماء وحق لها أن تئط »[1] يفيدان كثرة الملائكة (وانا لنحن الصافون) فى أداء الطاعة (وانا لنحن المسبحون) المنزّهون عما لايليق به ويصح أن يكون الكلام فى النبيّ ﷺ والمؤمنين ، فهم صافون فى الصلاة ، ومنزّهون لله عن المحدثات . والكلام هنا كالكلام فى أوّل السورة (وان كانوا) أى كفار مكة قبل مبعث النبي ﷺ ان مخففة من الثقيلة (ليقولون لوأن عندنا ذكرا من الأوّلين) أى كتابا من الكتب التى أنزلت عليهم (لكنا عباد الله المخلصين) لأخلصنا العبادة له

---

(١) الاطيط أصوات الابل

ولم تخالف مثلهم فجاءهم الذكر الذى طلبوه وهو القرآن (فكفروا به فسوف يعلمون) مغبة تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) الكلمة قوله (انهم لهم المنصورون * وان جندنا لهم الغالبون) وسميت كلمة كما قال ابن مالك * وكلمة بها كلام قد يؤم * (فتول عنهم حتى حين) الى مدة يسيرة (وأبصرهم) أى أبصر ماينالهم يومئذ (فسوف يبصرون) ذلك . أو أعلمهم فسوف يعلمون (أفبعذابنا يستعجلون) قبل حينه (فاذا نزل بساحتهم) بفنائهم (فساء صباح المنذرين) صباحهم (وتول عنهم) يامحمد (حتى حين) الى وقت هلاكهم يوم بدر (وأبصر) اعلم (فسوف يبصرون) فسوف يعلمون ماذا يفعل بهم بعد الموت ويوم القيامة (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) عما قاله المشركون مما حكى فى السورة (وسلام على المرسلين) سلم الله على الرسل عموما بعد سلامه فى الفصل الثالث على المذكورين فى السورة (والحمد لله رب العالمين) على هلاك الأعداء ونصر الأنبياء وفيه تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولايغفلوا به * قال على رضى الله عنه : « من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه اذا قام من مجلسه — سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين — »

واعلم أن المؤمن فى كل تشهد يقول : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ولاجرم أن الصالحين يشملون الأنبياء فكأن المؤمن يحيى كل روح شريفة من الأرواح المفارقة للمادة وعند قيام المرء من المجلس يسلم على المرسلين ويحمد الله مربى العالمين وتربية العالمين تشمل الارسال والهداية وتعذيب الكافر والعاصى واثابة الطائع المؤمن . فالمؤمن يحمد الله على تربيته العالمين وماالخير والشر فى التربية إلا أخوان . فالموت والحياة والضر والنفع سواء فى التربية . وفى هذه بشرى لكل مصلح من أتباع الأنبياء فانهم يهنؤن بالسلامة وبالاكرام من الله ويمنحون نعما عظيمة فى الدنيا بالنصر وفى الآخرة بالنظر لوجه الله الكريم والتقرب منه ومشاهدة جماله اهـ

﴿ لطائف هذه السورة ﴾

(١) فى قوله تعالى — إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب —
(٢) فى قوله تعالى أيضا — إنا زينا السماء الدنيا — الخ
(٣) فى قوله تعالى — احشروا الذين ظلموا — الخ
(٤) فى قوله تعالى — إنى كان لى قرين —

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(فى قوله تعالى — إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظا من كل شيطان مارد * لايسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحورا — الى — شهاب ثاقب —)

(خواطر فى يوم الاثنين كتبت ليلة الثلاثاء ٢٨ يناير سنة ١٩٣٠)

معلوم أن الصافات صفا هم الملائكة المذكورون قبل آخر السورة — وانا لنحن الصافون * وانا لنحن المسبحون — فهؤلاء الصافون هم القائمون بنظام العالم وتدبيره بأمر ربهم وهم الملهمون الناس العلم كما ان الشياطين يوسوسون بالشر — فالزاجرات زجرا — اشارة الى الأعمال النظامية — فالتاليات ذكرا — اشارة الى العلوم ولاوظيفة إلا العلم والعمل . وزينة السماء الدنيا بالكواكب مبدأ لعلوم الأمم ولتربية الحكماء والفلاسفة فى الأرض . يخرج الانسان طفلا فراهقا ففتى فينظر فيرى كواكب وشموسا وهو فى هذه على إحدى ﴿ أربع حالات * الحال الأولى ﴾ أن يرى الكواكب ببصره وهو لايشعر بجمال ولايعجب بها إما لقصور فى نظره ولما لاعراض كمرض أوعواطف نامة أوأمور شاغلة جسمية أوعقلية . فهؤلاء كلهم يرون النجوم والشمس والقمر كما يرون المدر والحجر فلاتعجب ولااحساس بالجمال ﴿ الحال الثانية ﴾ أن يحس بالجمال . ولاجرم أن

هذا أرق من سابقه لأن الأول شارك الدواب والنمل والنحل فى انها نظرت الأنوار بل النبات له احساس بالنور إذن لامزية للأول على غيره من الأحياء ولكن الثانى لما رأى أن فيها جمالا تبدّى بلألائها وبهجتها وصار يتأملها المرة بعد المرة عشقا وغراما وابتهاجا بها ، فهذا ارتقى من حال الحيوانية الى مبادى الانسانية ﴿الحال الثالثة﴾ تتوقف على السابقتين إذ يقول فى نفسه هذا جمال وهذه بهجة وهذه العوانس الأوانس والخنس الجوارى الكنس أراها عرائس تزف كل ليلة ولها أنواع من السير والنظام فلأبحث عن كيفية دورانها وسنيها وشهورها وبروجها ومنازلها ونظامها وحينئذ يقول : « إن النظام الذى أدركه عقلى بالحساب والعلوم الرياضية لانسبة بين جماله وشرفه وبين جمال وشرف الألوان الظاهرة . فالثانى لفظ والأول معناه . والثانى عرض والأول جوهر . والثانى مبتدأ والأول خبره . والثانى قشر والأول لبه . والثانى زهر والأول ثمره . هنالك تتجلى تلك المعانى البديعة فى نفوس المطلعين فترى البصيرة من بدائع الحركات وفنون النظم وجمال الابداع وحينئذ يفسون الجمال الظاهرى وتسكر عقولهم بلذة الأفراح العلمية فى باحات الأفلاك السماوية ﴿الحال الرابعة﴾ تتوقف على الثلاثة قبلها فتشاهد عقولهم مالاعين رأت ولاأذن سمعت ويقولون جمال ظاهر ونظام بحساب لاخطأ فيه بين آلاف الآلاف من الكواكب بل المجرات والسدم ولكل كون سيارات وللسيارات أقمار وكلها ذات حركات سريعة لاتصطدم ولاتخطئ . فهنالك تودّ النفس لو يتاح لها مشاهدة المبدع لهذه العجائب وهنالك تكون السعادة التى لاحدّ لها . فمن أدرك ذلك فى الدنيا وشعر بما أكتبه شعورا مبنيا على علم حقيقى فهو من الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون من الآن لأنه أدرك نظاما جميلا أحست به نفسه فسعدت سعادة حقيقية وابتهج بادراك صانعه وأحس بأنه جواد حكيم . وكل ما اعتراه من نصب أوألم يرى أن ذلك الصانع حكيم فى فعله فيسكن قلبه وتطمئن نفسه

فهؤلاء هم خير الذين زينت لهم السماء حقا . فأما الفريق الثانى والثالث فهما أقل من هؤلاء . فأما الأولون فهم همج الهمج . ذلك أن هذا الفريق قد جعل من بين أيديهم سدّ ومن خلفهم سدّ وذلك السد معنوى فلايرون مايراه غيرهم . فلهم أبصار ولكن لايبصرون وأسماع ولكن لايسمعون إما لنقص الفطرة ونقص القريحة أوللشهوات واللذات أوللآلام أوللعداوات وهكذا . فهؤلاء هم الذين قيل فيهم على سبيل الرمز ـ وحفظا من كل شيطان مارد ـ . وكيف يسمعون الى الملأ الأعلى وهم لايفرحون إلا بلذات بطونهم وشهوات فروجهم والاستعزاز بالمال والجاه والتفاخر والكواكب تطوف حولهم والشمس والقمر وأنواع الجمال فهم غارقون فى لهوهم والدنيا حافلة بأنواع الجمال والكمال . ومن هؤلاء فى الدنيا من يسمع حكمة فتبهره فى لحظة فيحس بأمر لم يعهده فى نفسه فتارة يثابر عليه ويستزيد علما وهذا العلم إماأن يكون علما بالجزئيات وإما علما بالكليات . فالعلم بالكليات أمثال ماذكرته فيما تقدم من الابداع فى النظام والحكمة والعلم بالجزئيات مثل أن يفكر فى أهل أوروبا الآن وأهل الشرق وأرباب الديانات فيرى أن بعض المسلمين اليوم قد غلبوا على أمرهم وأن أهل أوروبا هم الغالبون بالسلاح والكراع وأن الفاسق والكافر يسود ويغلب الصالح الناسك وأن كثيرا من الصالحين فقراء وكثيرا من الفاسقين أغنياء . فهنالك يحصل الشك والكفر والضلال فالخطفة على قسمين : خطفة تؤدّى الى الهدى فى النظر الى النظام العام العجيب . وخطفة تؤدّى الى الردى وتوقع الانسان فى هوة الهلاك بالنظرات الجزئية وهذا هو الذى يحصل فى هذه الأرض وهو المرموز له بالخطفة التى يتبعها شهاب ثاقب . فهذا الشهاب الثاقب المذكور هنا والشهاب المبين المذكور فى سورة الحجر إما الهلاك وإما الحكمة والعلم . ومن عجب أن الشهاب يهدى ويهلك كلاهما به الحياة والممات وهكذا النور . ولا أحد ممن تعلموا من جهال نوع الانسان يخلو من إحداهما . فأهل الأرض إما قوم صالحون آمنوا بأنبيائهم بلا بحث ولاتنقيب . فهؤلاء هم الصالحون ولهم مراتب تناسب عقولهم فيعيشون فى الجنة الجسمية ويكونون من

أصحاب اليمين . واما قوم قالوا كلا نحن نريد أن نعرف بعقولنا وهؤلاء قسمان : قسم بحث فلم يصل وكسل ومال الى الترف والنعيم ، وهؤلاء هم الدرجة الوسطى من الباحثين وهم أهل الضلال . وقسم وصل وعرف أمثال مافى هذا التفسير ، فأولئك هم الذين أنعم الله عليهم بالعلم والحكمة وهم الفائزون وهم المقرّبون ومن قبلهم هم أصحاب المشأمة

ملخص ما تقدّم أن الناس جميعهم ﴿ أربع درجات ﴾ ناظرون لايعقلون ، وناظرون يعقلون الأنوار المحسوسات ، وناظرون يدركون سرّ الحركات والنظام ، وناظرون يدركون ما وراء ذلك ، والفريق الأوّل منهم من ينظر نظرة فاما أن يلحق بأحد الأقسام الثلاثة بعده ، واما أن يهلك فيردى ، هذا ملخص ماتقدّم وهو من أسرار هذه الآية

﴿ نظرات الناس فى قراءة القرآن كنظراتهم فى الأفلاك ﴾

وكما أن الناظرين فى الفلك وجماله يكونون أربعة أقسام ، هكذا قرّاء القرآن ، فمنهم من يكتفى بلفظه فيقرأ هذه الآيات ويكتفى بالتلاوة فهذا كالفريق الأوّل ، وقسم يعجب بالبلاغة والاعراب وأنواع المجاز والاستعارات والتقديم والتأخير والذكر والحذف وهكذا من فنون علم المعانى والبيان والبديع . فهذه الطبقة الثانية هى التى تقف عند الفرح بمحاسن الكلام كما وقف أولئك عند محاسن الأنوار من كواكب السماء وجهلوا أسرارها ، وهؤلاء هم أكثر علماء البلاغة والمدرّسون فى المدارس الشرقية والغربية المختصون بفن البلاغة ، وقسم ثالث يقول . كلا . لابد من الدراسة والعلم بهذا الوجود ، وقسم رابع يخطو وراء ذلك خطوات وهذان القسمان يشبهان القسمين الثالث والرابع فيما تقدّم . فههنا اجتمع الفريقان : فريق الناظرين . وفريق السامعين وان كانوا فى مبدأ الأمر مفترقين

﴿ نظرات فلاسفة العالم أربعة ﴾

ألا تعجب معى أيها الذكىّ : انك مهما قلبت طرفك فى آراء علماء اليونان والرومان والعرب والألمان والانجليز والفرنسيين وجميع فلاسفة الشرق والغرب لاترى غير هذه النظرات . سبحانك اللهم وبحمدك . إنك جعلت (طاليس المالطى) ومن بعده من (ديموقراطيس) قد وقفوا على المادّة وقالوا إن الهواء أوالماء أوالنار أوالأرض أوالأجزاء التى لاتتجزأ هى أصل هذا الوجود كله فلاإله ولاملك ولانبىّ ولارسول فالعالم أوّله وآخره لاأصل له إلا ذلك . وهذه الطائفة هنا تشبه الطائفة الأولى من الطوائف الأربعة المتقدّمة بعض الشبه مع اختلافهم فى تعيين المبدأ منها . فهم اتفقوا فى الأصل واختلفوا فى تعيينه . وجاءت طائفة ثانية فقالت : « والله نحن متحيرون ! هذه الأرض لاعلم فيها ولا حقيقة . وكل امرئ له أن ينظر كما يشاء » وهؤلاء هم السوفسطائية . وقسم ثالث نظر فقال . كلا . ههنا فى الطبيعة حساب وههنا هندسة ونظام . إذن الحساب أصل أويقولون هنا محبة ونفور ودفع وجذب . إذن أصل العالم محبة ونفور أوحساب مثل مايقوله فيثاغورس وانبذقليس . وقسم رابع قال : « لاحساب بلا حاسب . ولامحبة ولانفور بدون فاعل لهما » وهؤلاء هم انكساغورس ثم سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس فهؤلاء أقرّوا بالله ولكن الأوّل ظنه لاعمل له إلا فى الكليات والآخرون يقولون بأنه يحيط علما بجميع الجزئيات

فهذه الطوائف الأربع لايخرج عن حصرها أحد فى العالم قديما وحديثا ومستقبلا . فاذا سمعت أن طائفة من المتعلمين بمصر و بلاد الشرق القريب على مذهب بخنر الألمانى المفسر لمذهب (داروين) والدكتور (شبل شميل) المترجم لهذا الكتاب الى اللغة العربية فاعلم أن هؤلاء فى صف القسم الثانى والأوّل فهم إما متحيرون واما واقفون عند المادة . واذا سمعت قوما منهم يقولون : « إن الإله موجود ولكنه ترك المادة حبلها على غاربها » فهؤلاء أشبه بمذهب انكساغورس الذى تقدم وهكذا

واعلم أن هذه درجات نوع الانسان فى كل عصر وجيل لاتخلوالأرض منهم وذلك على مقتضى جبلاتهم ومنتهى ماوصلت اليه عقولهم ، والسبب فى ذلك (أسعدك الله) أن لكل امرئ حدا فى المعرفة كما قيل :

الناس شتى اذا ما أنت ذقتهم * لايستوون كما لايستوى الشجر
هـذا له ثمر حلو مذاقتـه * وذاك ليس له طعم ولا ثمر

﴿ نظرات الخليل عليه السلام ﴾

ومن عجب أن هذه المراتب الأربع هى التى أشارالله لها فى القرآن فى نظرات الخليل ، فان الكواكب والقمر والشمس لم تكفه فى نظراته فتخطاها وقال ـ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ـ الخ وإياك أن تقف عند اللفظ فليس الخليل عليه السلام بالذى يقف عند هذه المناظر . كلا . بل هذا رمز للمعارف والعلوم وانها درجات بعضها فوق بعض حتى تنتهى الى الدرجة الرابعة المتقدمة ، واعلم أيدك الله أن نظرات الخليل ذكرت فى القرآن ليتعلم المسلمون كيف يرتقون فى أسباب العلوم وأن هذا لابدّ منه لمن يريد الوصول لله وليس المعنى أننا نكتفى بهذه الآيات أو بلاغتها أومعناها . كلا . ثم كلا . فالقرآن أنزل ليعلن العروج لله بالحكمة والفهم والتعقل

أفلاترى أن هذا من عرائب القرآن وعجائبه ، ثم ألا تحب أن أريك أمرا عجيبا يناسب ماذكرناه هنا وهوماجاء فى « اخوان الصفاء » الذى ألف منذ نحو ألف سنة وقد يقرؤه بعض أهل العلم ولكن أكثرهم كانوا لايفهمونه ، وكيف يفهمون مالم يدركوه ؟ وكيف يدركه امرؤ لم يدرس علوم الحكمة من الرياضيات والطبيعيات حتى يعرف جمال الله فى تشريح الانسان والحيوان ونظام النبات وكان أكثرهم يظنون أن هذه العلوم تنافى الدين هوقفت العقول وطمست البصائر ، وربما كان بعضهم يرى تأويل آية فى ذلك الكتاب فيعد هذا التأويل كفرا فينفر من الكتاب ، فاذا نقلت لك الآن جملة صالحة منه فانى أقول نحن الآن لسنا مقلدين لأحد ، فنحن نأخذ الحكمة أنى وجدناها ونذرمالادليل عليه . هذا ديدننا فى هذا الكتاب وغيره ولايصنق عن العلم أن يقال : « ان صاحبه قد أخطأ فى بعض المسائل فما فيه الخطأ أنا أجتنبه لانى أترك ألف حكمة لأجل خطأ موهوم أومحقق فى حكمة واحدة . إن هذا جهل وغرور ولوكانت هذه القاعدة صادقة لم يخلق الله العالم . إن الماء وان النار وان الهواء وان الشمس كل من هذه فيها هلاك باغراق ناسك واحراق عجوز واحداث أمراض بالهواء الفاسد وازدياد المرض لمن به حمى واحداث ضربة الشمس . فلوكان الضرر القليل يوجب ترك النفع العظيم لوجب أن يفنى هـذا العالم كله ولكان خلقه عبثا ـ وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين ـ إذن فلأقص عليك ماجاء فى كتاب « اخوان الصفاء » فى الجزء الثالث منه تحت العنوان التالى وهذا نصه :

﴿ فصل فى جزاء المحسنين ﴾

اعلم يأخى أن جزاء المحسنين يتفاضل فى الآخرة بحسب درجاتهم فى المعارف واجتهادهم فى الأعمال الصالحة والناس متفاوتو الدرجات فى أعمالهم كل يعمل على شاكلته وأجود أحوال العامة والجهال كثرة الصوم والصدقة والصلاة والقراءة والتسبيح وماشاكل ذلك من العبادات المفروضة والمسنونة فى الشرائع المشغلة لهم عن فضول و بطالة ومالاينبغى لهم كيلايقعوا فى الآفات وأفضل أعمال الخواص التفكر والاعتبار بتصاريف أمور المحسوسات والمعقولات . و بخاصة مايتعلق بالدين وقدقيل أفضل أعمال الخير خصلة واحدة وهو التفكر قال الله تعالى ـ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا مثنى وفرادى ثم تتفكروا ـ ثم اعلم أن الانسان إذا عقل الأمور المحسوسة وعرفها وتفكر فى الأمور العقلية وبحث عنها وعن عللها استقبلته عند ذلك طريقتان

احداهما

إحداهما ذات اليمين تؤديه الى الهداية والرشاد والأخرى ذات الشمال تؤديه إلى الغى والضلال وذلك ان أمور العالم نوعان كليات وجزئيات لاغير فاذا أخذ الانسان يفكر فى كلياتها ويعتبر أحوالها وتصاريفها ويبحث عن الحكمة فيها بانته وأمكنه أن يعرفها بحقائقها وأرشد اليها فكلما تقدم فيه ازداد هداية ويقينا ونورا واستبصارا وتحققا وازداد من الله قربا وكرامة واذا أخذ يتفكر فى جزئياتها والبحث عنها وعن عللها خفيت وانغلقت مناحيها وكلما ازداد تفكرا ازداد تحيرا وشكوكا ومن الله بعدا وكان قلبه من أجل ذلك فى عذاب أليم . مثال ذلك انه اذا ابتدأ الانسان أولا وتفكر فى نفسه ونظر الى بنية هيكله ونفسه وكيفية تركيب جسده وكيف كان أوّلا فى صلب أبيه ماء مهينا . ثم كيف صار نطفة فى قرار مكين . ثم كيف صار مضغة . ثم كيف كسا العظام لحما . ثم كيف صار جنينا بعد أطوار متعاقبة . ثم كيف قبل جسده نور شعاع فيض روح القدس الالهى . ثم كيف أخرج من الرحم الذى هو عالم كونه إلى الدنيا الذى هو عالم آخرته . ثم كيف صار طفلا حساسا . ثم كيف تربى وهو طفل صبى جاهل . ثم كيف نشأ وصار شابا عالما أوجاهلا . ثم كيف صار رجلا عالما فيلسوفا حكيما مدبرا متملكا على ما ملك . ثم كيف صار زاهدا عابدا . ثم ان طال عمره كيف يرجع كما كان بديا ضعيفا ذاهب القوة . ثم كيف ظهر بعد الشباب والقوّة الضعف والشيبة ـ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوّة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق مايشاء ـ فاذا فكر الانسان فى هذه الحالات التى ينتقل فيها من أدونها الى أتمها ومن أفضلها الى أكملها فيعلم بالضرورة ويشهد له عقله ان له صانعا حكيما هو الذى اخترعه وأنشأه وأعطاه فاذا تحقق عنده ماوصفنا من هذه الحالات جعل نفسه عند ذلك مقياسا على سائر أبناء جنسه فعلم علما يقينا انه قد فعل بهم مثل مافعل به وهكذا سائر الحيوانات وكلما ازداد تفكرا فى هذا الباب ازداد بربه يقينا وبأوصافه معرفة وعلم أن الله تعالى حى عالم قادر عليم حكيم محسن جواد كريم مشفق رحيم ولو نظر فى التشريح أوفى كتاب منافع الأعضاء أوكتاب الحيوان أوكتاب النبات أوكتاب المعادن أو كتاب الآثار العلوية أوكتاب تركيب الافلاك وماشاكلها من الكتب والعلوم والمعارف من وصف مصنوعاته وعجائب مخترعاته فانه كلما ازداد فيها نظرا ازداد بالله علما وبأوصافه اللائقة به معرفة واستبصارا وإليه قربة وإلى لقاء الله اشتياقا فهذا هو الطريق ذات اليمين المؤدى سالكه إلى الله تعالى وإلى نعيم جنانه * وأما الطريق الآخر ذات الشمال المؤدى الى الشكوك والحيرة والضلالة والعمى وهو أن يبتدئ الانسان قبل النظر فى العلوم والآداب والرياضيات وقبل أن يحسن أخلاقه ويهذب نفسه بالكشف عن الأمور الجزئية الخفية المشكلة على الحذاق من العلماء والفلاسفة فضلا عن غيرهم نحو معرفة ألم الأطفال وطلب معرفة مصائب الأخيار والبحث عن الأنباء وتيسير أمور الأشرار ولم زيد الحازم فقير وعمرو العاجز غنى ولم جعفر الغبى أمير وعبدالله الحكيم حقير ولم هذا الرجل ضعيف والآخر قوى صحيح ولم هذه الدودة صغيرة وهذا الجمل كبير ولم الفيل مع كبر جثته له أربع قوائم والبق مع صغر جثته له ستة أرجل وجناحان ولماذا يصلح البق والذباب والقردان والبراغيث وأى فائدة فى خلق الخنازير والوزغ وأى حكمة فى خلق العقارب والحيات وماشاكل ذلك من المسائل التى لايحصى عددها إلا الله ولايعلم سواه عللها فاما الانسان فانه لايعرف الحكمة فى عللها الابعد النظر فى العلوم الالهية وهو لايعرف الابعد النظر والتفكر فى الامور الطبيعية وهو لايعرف الابعد النظر فى الامور المعقولة وهو لايعرف الابعد النظر والتفكر فى الامور المحسوسة فن لم يكن مرتاضا بهذه العلوم والمعارف ولامتأدبا بها ولاصافى النفس ولا صالح الأخلاق فيبتدى أولا بطلب الامور المشكلة التى تقدم ذكرها فلايدركها ولايعقلها فيرجع عند ذلك خاسرا متفكرا متحيرا غافلا بنفسه وسواسا فى قلبه فينظر عند ذلك الى أمر العالم مهملا والكائنات باتفاق لابعناية حكيم ولاصنع صانع عليم أو يظن أن رب العالمين غافل عن أمر عالمه حتى يجرى فيه مالايليق بالحكمة أو يظن أنه لايعلم مايجرى فيه أوانه لايفكر فى هذه الامور الجزئية ولايهمه أو يظن انه قاس قليل الرحمة والنظر

لضعفاء الخلق أوانه جائر فى قضائه وأحكامه متعب لخلقه مفرط فى تقديره غير عدل ولا حكيم فى كثير من أفعاله لا يرحم الضعيف وحاشا كل هذه من الظنون والشكوك والحيرة والضلال الذى قد تاه فى طلب معرفته عقول كثير من العقلاء المتقدمين المرتاضين بالعلوم الحكمية فكيف غيرهم ممن ليست له رياضة ولا معرفة بحقائق أسرار المعروفة وقيل ان حكيم الفرس بزرجمهر لما تفكر فى هذه الامور المشكلة ولم يعرف عللها قال عند ذلك احتجاجا لنفسه إذ قد تبين له بأن الله حكيم عدل فان مصائب العباد اذن لعلل لا يعرفها اقرارا على نفسه بالعجز عن معرفة هذه الامور المشكلة ويقال ان نبيا اجتاز مرة بعين من الماء فى سفح جبل فتوضأ منها ثم ارتقى الى الجبل ليصلى فبينما هو كذلك اذ نظر الى فارس قد أقبل على تلك العين فشرب منها الماء وسقى فرسه ثم ركبه فمضى ونسى عند العين صرة فيها دراهم ثم جاء من بعده راعى الغنم ورأى الكيس فاخذه ومضى ثم جاء بعده شيخ حطاب عليه أثر البؤس والمسكنة على ظهره حزمة من الحطب ثقيلة حملها فحط هناك حزمته واستلقى يستريح مما به من شدة الضعف والتعب والريق والانبهار ففكر النبى وقال فى نفسه لو أن ذلك الكيس مكانه لكان هذا الشيخ الضعيف أولى باخذه من ذلك الرعى الشاب الغنى القوى فما كان الا قليلا حتى أن الفارس قد رجع الى مكانه الذى شرب الماء منه وطلب الكيس فلم يجده فطالب الشيخ فأبى الشيخ وقال ما عندى خبر هذا فضربه وعذبه حتى قتله ومضى الفارس فقال عند ذلك يارب ماوجه الحكمة فى هذه القضية وأين هنا من العدل فأوحى الله تعالى اليه ان أبا الشيخ قتل فى الزمان الماضى أبا الفارس وكان على أبى الفارس دين لابى الرعى بمقدار ما فى الكيس فاخذت القود ورددت الدين وأنا حكيم عادل . ولذلك يحكى أن نبيا من أنبياء الله تعالى اجتاز بنهر فيه صبيان يلعبون وبينهم صبى مكفوف وهم يغوصونه فى الماء ويولعون به وهو يطلبهم ولا يظفر بهم ففكر النبى فى أمره ودعا ربه أن يرد بصره ويساوى بينه وبين الصبيان فلما رد الله بصره فتح عينيه فقرب الى واحد من أولئك الصبيان فتعلق به وغوصه فى الماء ولم يفارقه حتى قتله وطلب آخر كذلك وهرب الباقون فدعا النبى حين ذلك ربه أن يكفيهم شره فاوحى الله تعالى اليه وقال انى قد فعلت ولكن لم ترض بحكمى وتعرضت فى تدبيرى لخلقى فتبين للنبى ان كل ما يجرى فى العالم من أمثال هذه الامور فلله تعالى فيه سر وتدبير وحكمة لا يعلمها الاهو . وقد أخبر الله تعالى فى القرآن من حديث نبيين وماجرى بينهما من الخطاب فى هذا المعنى أحدهما موسى عليه السلام وهو صاحب شريعة وأمر ونهى وحدود ورسوم وأحكام والآخر الخضر عليه السلام وهو صاحب سر وغيب وكتمان وكيف تعرض له موسى عليه السلام فيما يفعله بواجب حكمة وكيف اعتذاره اليه لما لم يستطع معه صبرا وانما ذكرنا هذه الحكايات فى هذا الفصل لان أكثر الآراء والمذاهب تتشعب من هذه الامور المشكلة التى فكر فيها العلماء وطلبوا عللها فلما لم تبلغ أفهامهم كيفية معرفتها تفرقت بهم الآراء والمذاهب عند ذلك الا من عصمه الله وهدى قلبه وعرفه كما قال ـ ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء ـ وقال الملائكة لا علم لنا الا ما علمتنا ـ وقوله ـ ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما ـ اه

هذا ما اخترته من ذلك الكتاب . وهاهوذا أوضح لنا ﴿ ثلاث مسائل ؛ الأولى ﴾ أن النظر فى هذه العوالم يقرّبنا الى الله ويجعلنا مشتاقين الى لقائه . ولن يتم ذلك لأحد من أهل الأرض إلا اذا استوثق من عجائب الطبيعة البهجة البديعة العجيبة . وهذه الخصلة هى نهاية حكمة الحكماء فى الأرض . فاذا اشتقنا الى لقاء الله كان الموت لنا سعادة لا حزنا وألما إذ به نرى ذلك الذى أرانا شموسا جميلة وكواكب وجعل أضواءها سببا فى نظام النبات وتنوّعه بحيث يسدّ الجوع ويكسو الجسم ويبهج النظر ويرقق الهواء ويزيل الداء ويبهج حاسة الشم بالروائح وحاسة اللمس بالملموسات الناعمة . فهذا الصانع الحكيم الذى يبدع هذا الابداع ويجعل شمسه العظيمة موائية فى نتائجها لحواسنا ورغباتنا . اليه يشتاق المفكرون ولكن ليس كل من قرأ هذا المقال وفهمه تحس نفسه بهذا النعيم العلمى . كلا . ثم كلا . فهذا المقال نفسه يقرؤه ألف واحد ولكن

الذى يقدّره حقّ قدره عدد قليل وهم الكاملون فى العلم وغيرهم يسمعون من وراء حجاب لضعف الاستعداد ـ وقليل من عبادى الشكور ـ ﴿المسألة الثانية﴾ إن اشتغال النفس بالامور الجزئية من قوت وحياة وفقر وغنى لاتعطى إلا الشكوك وظنّ السوء ﴿المسألة الثالثة﴾ ان العلماء المفكرين يحصل عندهم يقين بأن الجزئيات لها أسرار تخفى عليهم لأنهم لما نظروا فى الكليات صارعندهم يقين بأن صانع العالم ليس يذر ذرة بلاحساب وهوعدل فى الجزئى كما انه ثبت انه عدل فى الكلى . أما العامّة فلما عجزوا عن البرهان المذكور فهؤلاء يقال لهم أمثال حكاية الفارس المذكورة وحكاية الصبى الأعمى وحكاية الخضر وموسى عليهما السلام انتهت اللطيفة الاولى والحمد لله رب العالمين

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(فى قوله تعالى أيضا ـ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظا من كل شيطان مارد * لايسمعون الى الملأ الأعلى ـ الى قوله ـ شهاب ثاقب ـ)

(كتب فى صباح يوم السبت (٢٩) مارس سنة ١٩٣٠)

قبل أن نخوض فى هذا المبحث العجيب أقدّم مقدّمة فأقول : « لقد تقدّم فى هذا التفسير مارآه سقراط وتلميذه أفلاطون من أن هذه المادّة وماتركب منهالايستحقان ولايصلحان أن يكونا مناط العلوم ولاسميين باسم الموجود . المادّة عندهم لاتصلح موضوع العلم ، العلم ثابت دائم والمادّة متحركة غيرثابتة . هى دائمة التغير والتعثر فى أذيال الكون والفساد فكيف يتكئ عليها العلم ؟ وكيف تكون له مهدا ؟ »

هذه هى النظرية التى نسقها أفلاطون ، وجاء من بعده أرسطاطاليس فأقرّهامن جهة وخالفها من جهة أخرى . فقال : « نعم المادّة لاتصلح مناطا للعلم ، ولكنى لا أوافق أستاذى فى أن العلم مناطه ومتعلقه هو عالم المثال . كلا . إذ لابرهان عليه » ولا أريد أن أطيل فى هذا المقام لأنه معروف فى سابق هذا التفسير وفى لاحقه إن شاء الله فى ﴿سورة القتال﴾ عند آية ـ فاعلم أنه لاإله إلاالله ـ وإنما سقت الكلام فى هذا الموضوع توطئة لتفسير الآية . ذلك أن القوم لما جعلوا المادّة لاتصلح مناطا للعلم بل لاتصلح أن توصف باسم الموجود إذ الوجود لامعنى له إلا اذا كان دائما ، أما الوجود المؤقت فما أقلّ نفعه وما أضلّ سعيه فوجوده عدم وعلمه جهل . هذا ما أردت أن أقدمه لتفسيرالآية وعلى هذا الأساس أقول :

اذا كان العلم لايبنى على مالادوام له وكذلك الوجود فليكن هكذا الفرح ، فاذا فرح الناس بما لابقاء له ففرحهم غرور وسرورهم غمّ ونعيمهم شقاء وغناهم فقر ـ ولقد اعتاد هذا الانسان أن يفرح بالزينة المنصوبة فى الأرض وفى السماء ، والزينة على قسمين : زينة طبيعية ، وزينة صناعية . فالزينة الطبيعية كالأزهار والأشجار والأنهار وجمال الحدائق الغناء وجداول الماء وبهاء الوجوه ومحاسن الوجود وجمال النجوم والشموس والأقمار وبهجة الأحجارالثمينة ، كل ذلك جمال طبيعى لسكان هذه الأرض به يفرحون وبه فى أوقات فراغهم ينشرحون . أما الزينة الصناعية فهى مايصنعه الناس من زينة فى ثيابهم ومنازلهم ومساجدهم ومعابدهم ومايزينون به نساءهم من الدمالج والأقراط والخواتم والحلى والحلل ومايزدان به ملوكهم من التيجان والقصور وما يقيمون من الزينة فى الولائم والمسرات لمولود أوختان أوعقد لزواج أوزفاف أو لنصر على عدوّ أولتتويج ملوكهم وأعيادهم أوحفلات دينية كالأعياد والمواسم التى اعتاد الناس أن يرفعوا فيها الرايات وينصبوا الأعلام ويتحلوا بما يحلو لهم من الملابس ويلبسوا كل ما غلا ثمنه وجل منظره وندر الحصول عليه من الأحجار الكريمة كالزبرجد والياقوت والماس والزمرد وأمثالها

هذه مجامع الزينة التى اعتاد الناس أن يظهروها فى مواسمهم وفى أفراحهم الخاصة وهى تتبع فى نظامها ثروة الذين قاموا باظهارها . فاذا كان القائم بتلك الزينة دولة من دول الأرض وكانت ذات بسطة ونفوذ وغنى

حفت سرادقتها وتلألأت أنوارها وازدهرت أفنان الأشجار ليلا بما يعلق عليها من أفانين الأنوار من أصفر فاقع وأخضر ناضر وأحمر قان وأبيض يقق ، ففى الزينة تبهر العقول تذكرة لحوادث وطنية وأحوال سياسية أو أعياد دينية

هذه مجامع ما يزدان به الناس فى الأرض وبه يهيمون وله يهرعون ويفرحون . هذه كلها زينة الأرض وكلها فانيات . أما زينة السماء فهى تلك النجوم الجميلة التى رصعها الله فى الجو الذى فوقنا ، فهى دائمة باقية فى أفراحنا وأحزاننا وموتنا وحياتنا ، فنحن فى مصر فى هذه الأيام قد كانت لنا أنواع من الزينات فى شهر مارس سنة ١٩٣٠ فنها ماهى لملك البلجيك ، ومنها ماهى لنفس ملك مصر بحيث ازدانت جميع الدواوين بالأنوار المتلألئة وذلك فى يوم أو بعض يوم ، وهكذا تمر الأعياد الدينية تلو الأعياد وينصب الناس الزينة لأجل ولجة العرس أو الختان أو غيرهما ثم تنتهى تلك الزينات ويرجع الناس الى أعمالهم ، ولكن زينة السماء باقية ، زينا منازلنا ومدننا أم لم نزينهما فزينة السماء الدنيا باقية ، فاذا أزيلت الزينة من الأرض فزينة السماء باقية ليلا ونهارا وهى زينة بديعة شمسها الوهاجة تجرى ولا نظير لنورها فى مصابيح زينة الأرض . وكذا القمر والنجوم الثابتة والسيارة . فهذه كلها مضيئة جميلة بهجة سارة للناظرين . زينة العرس تتلوها المآتم وكل زينة نصبناها فى الأرض يعقب الفرح بها رد فعل وهذا قوله تعالى — إن الله لايحب الفرحين —

تأمل أيها الذكى ماتقدم بقسميه وهما زينة لاتدوم وهى الأرضية وزينة دائمة وهى السماوية ، ولاجرم أن لكل زينة رافعا لها ومنظما ، ومنظم الزينة المقيم لها غير المتفرجين عليها الفرحين بها . فههنا ثلاثة : منظم الزينة ، ونفس الزينة ، والناظرون لها . فنظم زينة الولائم فى الأعراس أناس لهم علم باتقانها والمدعوون للفرح قوم آخرون ، فالسماء وكواكبها هى الزينة والملائكة هم المقيمون لها والناس هم الناظرون ، ولكن ليس كل ناظر الزينة ينشرح بها صدره ، فالرجل الذى ساورته الهموم ، وأحاطت به الغموم ، وأرهقته الديون اذا مر باعظم زينة لايحس بها فؤاده ، ولاينشرح بمرآها صدره ، ولايسر بمعهدها قلبه ، بل لامنزلة لها عنده ، هكذا الناظرون الى السماء أكثرهم لايعقلون جمالها إما للجهل أو لانصراف النفس لامور عارضة أو لنقص الفطنة أو الفطرة ، والنفوس الكبيرة تألف الزينة الباقية ، والنفوس الصغيرة تألف الزينة الفانية * قال الشاعر

على قدر أهل العزم تأتى العزائم * وتأتى على قدر الكرام المكارم

ويعظم فى عين الصغير صغيرها * وتصغر فى عين العظيم العظائم

ترى الأطفال والجهال والنساء ومن على شاكلتهم يفرحون بما يرون من زينة الأرض طبيعية أو صناعية وهم للصناعية أميل لأن صانعها من أمثالهم من الناس ، أما الطبيعية فهى فى المرتبة الثانية لأن صانعها ليس من الناس ، أما الزينة السماوية فهم لايفكرون فيها ولاهم منها يتعجبون لأنها من صنع الملائكة المسخرين بأمر الله ، إن للملائكة علما وعملا والعمل أشير له فى الآية بالزاجرات زجرا ، وزجر السحاب مثلا فعل فى المادة وهؤلاء لهم السلطان على المادة فيتصرفون فيها بالكون والفساد والانماء والافناء والتصوير والايجاد ، والعلم والعلم أشير له بالتاليات ذكرا ، أقسم الله بالصافات الزاجرات التاليات وهؤلاء هم الملائكة كما قال تعالى فى آخر السورة فى شأنهم — وما منا إلا له مقام معلوم * وانا لنحن الصافون * وانا لنحن المسبحون —

وأكبر مظاهر لهؤلاء الملائكة تزيين السماء بالكواكب فهذا هو قوله تعالى — والصافات صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكرا — الى قوله — إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب —

عجب وألف عجب من نظم القرآن الحكيم ، يقول الله هنا — إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب — ويتبعه بقوله — وحفظا من كل شيطان مارد * لايسمعون الى الملأ الأعلى — الخ ولكنه لم يقل نظير ذلك فى

قوله

قوله تعالى ـ إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها ـ بل قال ـ لنبلوهم أيهم أحسن عملا * وانا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزا ـ . فزينة السماء حفظها من الشياطين ، وزينة الأرض لم يحفظها منهم بل ابتلى الناس بها وفى الناس شياطين كما فى الجنّ كما قال فى آية أخرى ـ شياطين الانس والجن ـ ولاجرم أن العقول المظلمة من بنى آدم المتجسدين ، ومن الأرواح التى ليست من نوع بنى آدم فى الأرض لاتعقل جمال النجوم والشمس والقمر . كلا . ويناسب هذا قوله تعالى فى سورة أخرى ـ وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ـ فزينة السماء محفوظة ، ونتيجة ذلك ما نشاهده فى بنى آدم ان أكثرهم لايعقلون جمال هذه النجوم ولايشتاقون لفهمها ولايحرصون على اكتناه كنهها ولا يتذكرون بها عظمة مبدعها ، فهذه الزينة فوق متناول عقولهم . أما زينة ملوكهم وأعيادهم وأعراسهم وماأشبه ذلك فهم بها فرحون ، ولها وامقون ، وعليها يحرصون

ومن هذا القبيل قوله تعالى ـ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ـ الخ وقوله ـ حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أونهارا فجعلناها حصيدا ـ الخ وقوله تعالى ـ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ـ وقوله ـ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ـ وقوله ـ ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ـ

فهذه مجمل أنواع الزينات التى لابقاء لها ونهى عنها الخواص وأغرم بها الجهلة والعوام ، وهؤلاء مبعدون عن زينة السموات لالبخل فى العطية ولكن لقصر نظرهم وضعف فطرهم ، فثلهم كمثل الأيتام إذ يمنعون أن يعطوا مالهم حتى يبلغوا الحلم ، أوكمثل السفهاء من نحو النساء والصبيان الذين قال الله فيهم ـ ولاتؤتوا السفهاء أموالكم ـ الخ أوكمثل الغلامين اليتيمين فى المدينة وقد خبئ الكنز لهما فأقام الخضر الحائط عليه ليحفظ حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما

فجالس أيها الذكىّ من تشاء من بنى آدم فانك تستخرج مافى نفسه بالمحادثة ، وسرعان ماتدرك أهو من الشياطين المدحورين ، أم من الملحقين بالملائكة المكرمين ، فان كان نزاعا الى معالى الامور مغرما بالامور العالية كاستكناه عجائب النظام العام والكواكب مغرما مولعا بمبدعه معجبا بتلك الآثار فاعلم ان هذا اذا سار فى سبيله صار أبا من الآباء الذين خلقهم الله فى الناس وفريق منهم كأبنائه فهو ينفعهم ماديا وأدبيا كما أن الملائكة كذلك ولاتحجب عنهم الأسرار الكونية الممكنة لأمثال أهل الأرض ما داموا أحياء

﴿ تبصرة ﴾

إن أنواع الزينة المنصوبة فى الأرض آنا فآنا مذكرات بالزينة السماوية ، فالحكيم يحقر مايفنى ولايغرم إلا بما يبقى ، وماجمال الوجوه فى الناس ولا أنواع الزينات فيها إلا أعراض زائلات مذكرات بالجمال الدائم والحياة الروحية الخالدة التى يذكرنا بها دوام الكواكب وأنوارها والشموس وأقمارها ، فهذه بدوامها الممكن لها تقول لنا بلسان حالها : « كل زينة عندكم كالمعدوم » وهذا يذكرنا بقول أفلاطون المتقدم : « إن الكائن الذى لابقاء له ليس جديرا بأن يكون مناط العلم ، بل ليس جديرا أن يستحق اسم الموجود » فهكذا هذه الطائفة الكبيرة النفوس لاتبالى بالزينة العرضية وتوجه وجهها للزينة الدائمة التى حفظها الله لهم فلايشاركهم فيها الغوغاء . وهذا هوالأمر المدهش . زينة يراها البارّ والفاجر طالعة غاربة ولكنها لايفرح بها إلا الأقلون

هذا مافتح الله به فى تفسير قوله تعالى ـ والصافات صفا * فالزاجرات زجرا ـ الى قوله ـ فأتبعه شهاب ثاقب ـ مساء يوم الثلاثاء أوّل ابريل سنة ١٩٣٠ م

﴿ بهجة العلم ﴾

(فى قوله تعالى ـ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظا من كل شيطان مارد * لا يسمعون الى الملأ الأعلى ـ الآية)

(كتب فى صباح يوم الاثنين ٢١ يوليو سنة ١٩٣٠)

توجهت ليلة السبت ١٩ يوليو سنة ١٩٣٠ الى قرى الريف فى المزرعة التى اعتدت أن أراقب أحوالها وبت مع الفلاحين هناك وأنا أشاهد النجوم فى الجو الرائق البهج اللطيف ، فماذا رأيت ؟ رأيت بهجة الكواكب وجمالها والنسمات تلعب بالأشجار والحشائش والزروع والفلاحون يتحدثون ويديرون السواقى لتسقى الجنات المعروشات من البطيخ والسنطاوى وأشباههما فسألنى سائل : ما الذى نشاهده فى السماء كأنه سحاب وليس بسحاب ؟ فقلت هذه اسمها عندنا المجرة . فقالوا هى عندنا طريق التبانة لأنها أشبه بما فى طرقكم من التبن . فقلت هى عند علماء الدين أبواب السماء وعند الانجليز الطريق اللبنى وأخذت أذكر لهم عدد نجومها ولكنى ألفيت أن القوم لا تتحمل نفوسهم هذه العجائب ، فلما ان انفلق عمود الصباح وقال المؤذن « حى على الفلاح » خيل لى أن يد العناية العظمى القدسية امتدت جهة المشرق صباحا وقد أخذت تسدل على الظلام ستارا ، ومجبى من هذا الستار لم أرله نظيرا فى الأرض ، ستارلا هو من صوف ، ولا من وبر ولا من شعر ، ولا من قطن ، ولا من تيل ، ولا من حرير ، بل هو ستار من نسيج غير النسيج الأرضى مرصع بجواهر جمعت أصناف الألوان من أحمر وبرتقالى وأصفر وأخضر وأزرق ونيلى وبنفسجى ، والمادة المنسوجة لا تراها العيون ، ولا تتخيلها الظنون ، ولا يعرف كنهها المفكرون ، لم ينسج على منوالها الناسجون ، نسيج هذا الانسان فى مادة غليظة من الصوف والقطن الخ ونسيج رب الانسان فى موجود سماه الناس أثيرا ، كيف نسجه وهو لا يرى ؟ نسجه بحركات منتظمات ، حركات سريعات تكاثرت واتحدت فصارت ذات مظاهر ملونة بالألوان السالفة ، فهذه هى ألوان ضوء الشمس فى عالم الأثير ولكل لون عدد خاص من الحركات فى الثانية . فبينما يكون عدد الحركات فيها (٤٠٠) مليون مليون للون الحمرة اذا هذا العدد يزداد فى غيرها بالتدريج حتى يصل الى (٧٠٠) مليون مليون فى الثانية فى البنفسجى

أيها المسلمون : ههنا نسيج كالذى ننسجه على منوال لا تقدر على تقليده . منوال بديع . ما أجهل الانسان والحيوان فى الأرض . سبع نسائج تدخلت وامتزجت وكونت ستارا واحدا ألقى على السماء فأخفى كواكبها وعلى الأرض فأبان مواكبها من جبال وبحار وأنهار وأشجار وزروع جيلات وأشجار باسقات

تبارك الله : ستار واحد يخفى معالم السماء ونجومها ويظهر بهجة الأرض وجمالها . إن الذى وضع هذا الستار بين العالمين العلوى والسفلى لجليل وبديع . يلقى على السماء وعلى الأرض ستارا وليس بستار يخفى النجوم وهو مظهر الجمال . بهذا الستار تجلى معنى القابض الباسط . فها هو ذا قبض أنوار النجوم وظلام الليل فأصبحنا لا نراهما وهكذا بسط الزروع والحقول والأنهار فأصبحنا نراها

تباركت يا ألله . انك أنت الذى علمت أصحاب دور الصور المتحركة (السينما) كيف يقلدون ليلك بالظلام ويقلدون نهارك بالضياء . فاذا أرادوا اظهار صور البلاد النائية والأمم القاصية والديار البعيدة فانهم يقبضون النور ويبسطون الشرائط التى رسمت عليها تلك الأشكال ويعرضونها الى نور ضئيل فأخذت العجائب تبرز للناس فى تلك الدور بهيجة عجيبة وهم فرحون لما رأوا من مناظر لم يروها ومعالم لم يهتدوا اليها كما تراك أنت فعلت مع الناس ليلا إذ تريهم فى دجنات الظلمات كواكب وكواكب وتبهر الحكماء والعلماء بباهر الجمال وبديع الصنع . فاولئك العلماء متى نظروا تلك النجوم هامت نفوسهم فى الحكمة والفلسفة . وهل يكون ذلك إلا فى الظلام

ومناظر

مناظر النجوم . فأما أكثر الناس فانهم يقفلون أعينهم و ينامون نوما عميقا فتظهرلهم صور وأشباح وأحلام .
إذن الظلام يعطى النفوس الانسانية فرصة الحرية التى بها يجولون فى عوالم الكواكب السماوية ويسبحون فى بحارلجية من عوالم الأحلام وفى مواكب مختلفة مذكرات بسوالف الأيام وأعاجيب الزمان ، فاذا قلدصنعك مديرو دورالتمثيل بعض التقليد فى تقليبك الليل والنهار فلكم قلد حيواناتك بنو آدم فى صناعاتهم كما تقدم فى ﴿ سورة طه ﴾ فعاشوا فى الكهوف كما عاش الجرذان تحت الأرض وفى الأدواح كما عاشت فيها الظباء والمها واتخذوا بيوتا كما اتخذ النحل . وصنعوا القناطر والجسورلما رأوا (الكستور) وهو (الجندبادستر) يصنع سدودا لمنع قوّة السيل . واتخذوا السفن فى البحارلما رأوا السنجاب يركب خشبة فى البحر ويجعل ذنبه مواجها للرياح ليكون أشبه بالسكان (الدّفه) التى تضبط سيرالسفينة . وهكذا رأوا الدّب الشمالى يسافر فى البحر على قطعة من الثلج واصطاد لما رأى الثعلبين البرّى والبحرى يعيشان على الصيد الى آخر ماتقدم مما ذكرهناك وهى (٣١) صناعة قلد فيها الانسان الحيوان وأجاد واستفاد وأفاد . أما فى تقليد الليل والنهار فقد أحكمه أيضا إذ أظهروقت الاظلام مناظر الصورالمتحركات كما تتحرك النجوم فى مداراتها فاذا انتهى الصور أبرزوا النور فتوارت تلك الصور كما تتوارى نجوم الليل اذا أشرقت الشمس صباحا وتمحى تلك الأحلام فى دياجى الظلمات والعيون هاجعة والحواس خامدة والناس نيام

وانى لا أزال فى حيرة من أمر هذا الستار الذى يلقى على الأرض فيظهر جمالها واذا رفع عنها أظلمت أرجاؤها وأوحشت ساحاتها

هيا هيا : لقد لمعت لوامع النورمن وراء ستارالظلام الدامس وأخذت أفهم الجواب بعد اللتيا والتى . ذلك أنه كلما كان الصانع ألطف كانت الصنعة التى هى أقرب اليه ألطف . فاذا كان صناع بنى آدم يعملون فى كتان وصوف وحرير والفلاحون فى طين وماء فان الشمس ذات الاشراق صنعت بيد العناية ذلك النسيج الذى تشرق عليه أرواح علوية . وأعلى من ذلك أن الأنبياء ينسجون العقول بالدين والحكماء بالحكمة فالمصنوع الغليظ نتيجة صنع عوالم الحيوان والمصنوع اللطيف كضياء الشمس مناسب لاشراقها لأنها جسم نارى والمصنوع الذى هو ألطف من ذلك هو النسيج العقلى من العلم والحكمة فهوأرقى صناعة وألطف من صنعة الضياء . وليس الناسج له أجساما حيوانية ولاشموسا نارية . ولقد مرّ مايقرب من هذه الخواطر فى أوّل سورة الأنعام عند قوله تعالى — الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور — ولكن لم يخطر لى هذا السؤال هناك فهمنا أجبت . ولكن الناسج لذلك أرواح وهى درجات بعضها فوق بعض — والله من ورائهم محيط — لطفا من الله بالناس جعل ستارهم الضوئى غاية فى اللطف ونهاية فى البهجة والجمال . لم يرهقهم بستائر جسمية . أشرق عليهم بنوره . أضاء لهم تارة وأظلم ليلهم تارة أخرى اظهارا للرحمة والجمال . المنظر باهر وساحر ولكن الناس مسحورون بغيره . هم متوّمون أنامتهم الشهوات وأبعدتهم الحسرات . ولو أن الناس أدركوا جمال هذه الحوادث لانبهروا أشد البهر ولكن الحكمة قضت أن يكونوا فى غمرة ساهين لاهين حتى يعيشوا أمدا ليقضى الله أمرا كان مفعولا

﴿ نظرى فى مزرعة قطن ﴾

لما أشرقت الغزالة وملأت البطاح وتجلت المزارع أخذت أجول فى تلك الأصقاع فصادفت مزرعة قطن ولا جرم أن القطن أخص مزارع بلادنا وعماد ثروتها . ولكنى نظرت اليه نظرة أخرى وكأنى من عالم غيرهذا العالم الأرضى وكأن الدنيا قد لبست ثوبا قشيبا جيلا

الله أكبر : الناس غشت على عقولهم العادات حتى قال الله — اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون — كلما كان الجمال أبهج كان الاعراض عنه أتمّ وأكثر . هذه مزارع القطن التى نمرّ عليها غدوّا وعشيا وفيها

لبلاب جميل وأنواع مزارع أخرى نظرت اليها اذا هي محلاة بالزهر المختلف الألوان . وهناك جوزات القطن ضمت فصوصها ضما لتحفظ فى داخلها شعر القطن وبذره ، وهاهى ذه إحدى الجوزات قد تفتحت بالحاح حرارة الشمس عليها وكأنهن جميعا يخاطبننى قائلات : « انظر الى الزهرات الجميلات ، والى الجوزات الخضراوات ، والى شعر القطن الذى تفتحت عنه الأكمام ، هذه الملابس اليك نهديها من شعرنا لتمنع عنكم الحر والقر ، وهذه الزهرات جمال يسر الناظرين ، وهذه الجوزات اللائى تخفى فى داخلها شعر القطن والبذر ليتم نضجهما ويكمل خلقها ، كل هذه اليك ناظرة لاسيما الزهرات الباهرات الجميلات وزهرات أخرى فى أنواع الشجرات الأخرى وأن الزهر الأحمر والأزرق والبنفسجى ناظرات اليك مسلمات عليك ، وقد حليت كل هذه الأزهار وأوراقها بأقراط من الماس وهبها إياها قطر الندى ، فازينت الأرض بأجمل زينة ، وازدانت بالبهجة والجمال ، وهنالك لم يسعنى إلا أن أصيح قائلا : يا ألله أنت يجب أن نحبك لا أن نخاف منك ، أفمع هذا الجمال كله يكون خوفنا منك ، إن من جهلك أحق بالخوف منك ، ومن أظهرت له جمالك أولى بحبك لأنك قربته ، وانما خوفك يكون خيبته منك أو خوف بعده عنك

فعجبت لنفسى طربت لهذا الجمال مع ان ما ألفته النفس لاجمال له ، كم نظرت هذا فى حقولنا وكنت أنا فى زمن الشباب من زراعه ، فما هذا الذى ألبسه لباس الجمال فى نظرى الآن ؟ العقل الانسانى اذا لم يزحزحه العلم عن مقره فى الصبا ولم يوقظه النظر والفكر بقى أسير العادات قليل النظر قليل الفكر ، فاذا استيقظ أدرك انه يعيش فى بيئة من الجمال والبهجة والحسن والاشراق ، وأين كانت هذه المزرعة ؟ كانت فى المكان الذى فيه تخيلت أن البدر يخاطبنى فى وسط النخيل بالقرب من المرج بالقرب من القاهرة وذلك تقدم فى ﴿ سورة فاطر ﴾ عند آية ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ـ الخ وما أدرى لماذا لم تستيقظ نفسى ليلا سابقا ونهارا لاحقا إلا فى هذا المكان ، ثم لماذا خطرت هذه الخواطر فى هذه الأيام ؟

الله أكبر : لقد تجلت الحقيقة واضحة ، أنا لم أنم ليلة واحدة فى ذلك الحقل ولكنى نمت هذه الليلة ، لماذا هذا ؟ عرفت الجواب أن ذلك لسر ظهر وحكمة بهرت وهى انها جاءت لتفسير قوله تعالى فى هذه السورة التى قد استعدت المطبعة لطبع تفسيرها فى هذا الشهر (أغسطس سنة ١٩٣٠) أليس هذا هو قوله تعالى ـ إنا زينا السماء الدنيا بمصابيح ـ وهذه المصابيح تدعو العقلاء للتفكير فى جمالها وفى حكمها وفى حسابها كما تقدم فى ﴿ سورة يس ﴾ عند قوله تعالى ـ والشمس تجرى لمستقر لها ـ وفى سورة يونس عند قوله تعالى ـ هو الذى جعل الشمس ضياء ـ الخ وفى سورة الأنعام وفى سور أخرى كثيرة ، ويقول فى آية أخرى ـ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ـ الخ ويقول فى ﴿ سورة الحجر ﴾ ـ وزيناها للناظرين ـ . إذن الله لم يزين السماء لمن ليسوا أهلا للنظر ، إذن الحكماء فى هذه الأرض هم الذين زين الله لهم السماء . أما الجهلاء فلم يزين لهم إلا شهواتهم ليعيشوا غالبا كما تعيش الأنعام وهم خامدون . إذن بهذا نفهم قوله تعالى ـ وجعلناها رجوما للشياطين ـ فشياطين الانس وشياطين الجن يعيشون ويموتون ولاهم يعقلون جمال هذه الشمس ولا بهجة هذه النجوم وانما هم محبوسون . إن هذه هى التى أجراها الله على لسان العامة فى بلادنا المصرية إذ هم اذا رأوا سحبا منثورة فى السماء مقطعة غير ملتئمة قالوا إن السماء مزينة وانما زينت لعالم مات . فهم يقولون إن العالم اذا مات تزين له السماء أى تزين لروحه اذا صعدت كما تزين المدن لقدوم الملوك والعظماء ولكن فى الحقيقة هى مزينة له فى هذه الحياة الدنيا وهو هو الذى يفهم جمالها فاذا مات ازداد بصيرة فى ذلك الجمال ففطرة العامة قد ألمت بطرف من معنى الزينة . فالأرض مزينة للحكماء والسماء والنجوم والجبال والشجر والدواب فهم أبدا فى سعادة وحبور . وليكونن قراء هذا التفسير المغرمون بالعلم من أرقى هذه الطبقة فى عالم الانسان . وبهذا انتهى المقال فى تفسير هذه الآيات صباح يوم الاثنين ٢١ يوليو سنة ١٩٣٠ فى نفس اللحظة

التى

التى افترقت بلادنا فرقتين : فرقة أوصدت دار النيابة فى وجوه الأمة . والفرقة الأخرى هى جميع الأمة المصرية فهؤلاء يريدون دخول البرلمان وهؤلاء يمنعونهم وسرّ ذلك كله تدخل الأجانب فى هذه البلاد . وذلك كله منشؤه أن رجال الشرق ينقصهم العلم والتعليم . وهاأناذا قمت بما يجب علىّ وعلى كل امرئ فى بلاد الاسلام أن يقوم من التعليم بما ألهمه الله وأقدره عليه — والى الله ترجع الامور —

﴿ ماحقيقة السموات . وهل للنور وزن ؟ وهل النور خالد ؟

واذا بقى دهرا طويلا أفليست الأرواح أحقّ بذلك ؟ ﴾

فى يوم الثلاثاء ٢٢ يوليو سنة ١٩٣٠ حضر صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فقال حسن ماقلت فى هذا المقام ولكنى أسألك سؤالا فى نفس موضوع الآية . إن ماذكرته هنا انما هو وجدانيات قامت بنفسك فسطرتها والوجدان شئ والعلم شئ آخر ، وانك لم تذكر إلا الصبابة والعشق والغرام وماذلك إلا عواطف كعواطف العشق الانسانية الشائعة بين الناس وما كل امرئ بعاشق لأن العشق استعداد ، فهل أنت على استعداد أن تحدثنى فى حقائق السموات ؟ فقلت حبا وكرامة . فقال حياك الله ، هل السماء مبنية شديدة ؟ فقلت أذكرك أيها الصديق بما مرّ فى أوّل ﴿ سورة البقرة ﴾ عند الكلام على السماء وقد ذكرت هناك أن هذا العالم لافراغ فيه فهو مملوء بموجود سموه الأثير وهو موجود لأنه به يقوم الضوء والكهرباء والجاذبية فهو إذن موجود ، إذن عالم السماء موجود . فقال حسن هذا وأنا أذكره وأذكر انك أثبت هناك عدم الفراغ ببرهانين برهان القدماء القائل : إن هذا الذى سميناه فراغا لايخلو ماتراه فيه من النور والظلمة من أحد أمرين اثنين : إما أن يكونا جوهرين ، واما أن يكونا عرضين أو أحدهما عرض والآخر جوهر فان كانا جوهرين فالسموات إذن موجودة وان كانا عرضين أو أحدهما فالعرض لابد قائم بجوهر إذن ثبت انه لافراغ وأن السموات موجودة فعلا ، هذا ماقلته أنت إذ ذاك عن القدماء ، وأما المحدثون فانك أثبت قولهم بأنهم استدلوا بأن التلغراف السلكى والذى لاسلك له كلاهما محمول وهل الحامل يكون معدوما ؟ إذن هو موجود . إذن القدماء والمحدثون مجمعون على ذلك ، فالسماء المذكورة فى الآية هنا موجودة ، فأنا الآن لا أسألك فى وجود السماء ، وقد عرفته فيما تقدم فى هذا التفسير وانما سؤالى هل هى مبنية وهل هى شديدة ؟ إن البناء لا يكون لما هو كالخيال . وهل خيالنا مبنى ؟ وهل خيالنا متين قوىّ ؟ وهو يفنى حالا . فقلت : هل الأثير خيال ؟ فقال أنت عبرت بهذا القول سابقا فقلت انه كالخيال . فقلت : سأبرهن لك على أن الأثير قوىّ متين وعلى أنه أقوى من أبنيتنا وكل بناء عرفناه . فقال ياليت شعرى كيف يكون ذلك ! فقلت : أيها الصديق . ألست تسلم بأن هناك قوّة جاذبية بها تجذب الشمس ماحولها من السيارات وأرضنا منها . فقال أسلم به لأنها قضية مسلم بها . فقلت : لوانى أنا وأنت وأناس آخرون معنا حاولنا أن نزحزح صخرة من مكانها وربطنا فيها حبلا وأخذنا نجرّ ذلك الحبل ونحن عصبة أولو قوّة وزحزحنا هذه الصخرة وأخذنا ندور بها أدوارا منتظمات حول محور فماذا تقول فى هذا الحبل الذى به جذبنا هذه الصخرة أضعيف هو أم متين ؟ قال بل قوىّ متين . قلت فاذا جذبت الشمس كل سياراتها بقوّة الجاذبية القائمة بالأثير أفلا يكون الأثير قويا متينا بنسبة هذه الأجرام . أفلا يكون نسبة هذا الأثير الى الشمس والأرض كنسبة الحبل الى عصبتنا والصخرة المذكورة قال بلى والله هذا حقّ . قلت إذن ثبت أن عالم الأثير أقوى من البناء وأمتن شئ عرفناه فى الوجود . فاذا سمعنا الله يقول — والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون — وسمعناه يقول فى ﴿ سورة النبأ ﴾ — وبنينا فوقكم سبعا شدادا — فانا نقول هذه الحقيقة يار بنا لم يتجلّ لنا بعض معناها إلا فى هذا الزمان لأن الناس عندهم شكوك وأوهام فى هذا الموضوع . فقال إن هذه المسألة لم أسمع لها جوابا شافيا إلا الآن . فقلت فلنحمد الله على العلم وعلى الحكمة . وهذه تكمل ماقصصنا من العرفى تفسير بسملة (ص) فقال لم أفهم مرادك . فقلت ألم تقل

هناك ان الانسان له قوى علمية وهي الحواس الخمس والعقل وقوى عملية وهي اليدان والرجلان وأن الحواس بها عرف الناس ماحولهم ووصلوا لما قرب من الكواكب وأن المجاهر والمناظر المعظمة التى أسداها العلم لهم زادت علومهم . فقال بلى تقدم ذلك . فقلت والعقل اقتنص الصور بالحواس فكانت العلوم الطبيعية وصور المقادير فكانت العلوم الرياضية وأن الآلات الجاريات على الأرض مساعدات للأرجل وهكذا الطيارات والسفن وهكذا جميع العجلات والآلات المتحركات مساعدات الأيدى فى أعمالها . قال عرفت ذلك . فقلت بقى شئ واحد لم نذكره هناك ولكن هنا محل ظهوره . فقال وماهو ؟ قلت إن اللسان يوصل العلوم كما قلنا هناك . ونقول هنا انه يستخدم الهواء وينوب عنه التلغراف السلكى والذى لاسلك له والتلفون . قال هـذا حق . قلت ولا واسطة لمساعد اللسان المذكور إلا الأثير . قال حقا . إن هذا البرهان وكل ماترتب عليه حسن ، ولكن اذا عضدته ورسخته بكلام علماء الفن يكون أهدى سبيلا وأقوم قيلا وأوضح تأويلا . فقلت انهم يقولون إن كثافة الأثير هى ألف طن للمليمتر الواحد والطن نحو ٢٢ قنطارا ، إذن كثافة المليمتر الواحد من الأثير تعادل نحو ٢٢ ألف قنطار . فقال يا للعجب : هذه كثافة لانظير لها فى كثافة مانعرفه من الحديد والرصاص والحجارة وحقا ان الذى به تجذب الشمس سياراتها يجب أن يكون كذلك ليتحمل ذلك كله ، وانظر ماكتبته بعض المجلات العلمية وهو المقتطف فى شهر ديسمبر سنة ١٩٢٩ تحت العنوان الآتى وهذا نصه :

﴿ تحوّل الآراء فى الأثير ﴾

(من نيوتن الى اينشتين)

مهما يكن تصور نوع الفضاء الذى يحيط بنا صعبا . ومهما تختلف الآراء فى نوعه وحدوده الهندسية ومهما يكن تقصيرنا عن ادراك كنهه وحقيقته . فان له صفات طبيعية خاصة به يمكننا درسها ومعرفة بعض قوانينها . وعليه لايمكننا أن نسميه فضاء فحسب . بل علينا أن نطلق عليه اسما ينم على خواصه الطبيعية أو بعض هذه الخواص . وأول من بحث فى هذا الموضوع بحثا دقيقا وسمى هذا المجهول بالأثير كان الطبيعى الانكليزى العظيم السر اسحق نيوتن . يستحيل علينا أن نصف صفات الاثير الطبيعية بالدقة التامة بالتعابير والمصلحات التى نستعملها لوصف خواص المواد الارضية . لكننا لانستطيع غير هذا السبيل فنضطر الى استعمال هذه المصطلحات لكوننا لانعرف سواها . وفى مثل هـذه الحال يجب علينا أن نبقى متذكرين انها لاتعبر عن الحقيقة بالدقة التامة ولكنها تفعل ذلك لو كان الأثير مادة عادية . نحن نتكلم عن مرونة الأثير وكثافته مثلا . فباى حق نفعل ذلك ؟ ليس الأثير مادة عادية كموادنا لننسب اليه صفاتها . ومع ذلك نقول ان كثافة الأثير هى ألف طن للمتر المكعب . ومرونته تساوى حاصل ضرب كثافته فى مربع سرعة النور . وبهذا نعنى أنه لو تحوّل الاثير مادة لكانت له تلك الكثافة وهذه المرونة . بمثل هذه التحفظات يمكننا أن نستعمل الاصطلاحات العادية لتعداد خاصيات الاثير المعروفة فنقول :

(١) الاثير شفاف
(٢) « عديم الاحتكاك بالمواد
(٣) « عظيم الكثافة
(٤) « تام المرونة
(٥) « عديم الحرارة
(٦) « عديم الصوت
(٧) « موصل حسن للجاذبية والنور والامواج الكهربائية ـ المغنطيسية
(٨) « وسيط لتلاصق دقائق المادة وتماسكها

(٩) الأثيروسيط المجاذبية الكهاوية (أو الالفة الكهاوية)
(١٠) « يملأ كل فراغ من المادة . اه ماجاء فى مجلة المقتطف
لست الساعة بصدد أن أوضح :
(١) نظرية نيوتن الذى اضطرأن يفرض وجود الأثيرحين عرف ناموس الجاذبية العام وقال « لاأتصور أن قوة هائلة عظيمة تنتقل من الشمس الى عوالمها بدون موصل لهذا التأثير » (إذن هوحبل يوصل الجاذبية كما قلنا فى الحبل الذى يجذبت به عصبتنا الصخرة فيما تقدم)
(٢) ولابصدد أن أذكر (هو بجنس) الذى يقول : « إن الأثير مؤلف من ذرات فى غاية الصغر سريعة الحركة ثقيلة الوزن عظيمة الكثافة ، وما النور إلا اموجات فيه لا أنه ذرات كما قال نيوتن »
(٣) ولا أنا فى مقام شرح نظرية (فرنل) الفرنسى الذى جعل الأثير تختلف كثافته باختلاف مواقعه
(٤) ولافى مقام آراء كوتنفى فيه الذى يؤيد وجوده بسبب مأراه من الظاهرات الكهربائية والمغناطيسية فى الأرض
(٥) ولا أنا الآن أود أن أشرح نظرية (جورج توكس) القائل « انه سائل شفاف عديم الاحتكاك بالأرض والسيارات عند حركتها فيه ولكنه صلد قوى متين عند ما تنظراليه من جهة ايصال الجاذبية والنور » وقد أيد هذا الرأى (السرأوليفرلودج) بالتجربة وهكذا
(٦) نظرية (ما كسول) إذ قال بالمرونة والكثافة فيه وأن المرونة تساوى حاصل ضرب الكثافة فى مربع سرعة النور
(٧) وخالف العالم (أماقين) هؤلاء العلماء فى الكثافة وهكذا
(٨) العالم (ماك كولاغ) فانه قال « انه لايقبل الضغط »
(٩) والعالم (اينشتين) يقول : « انه خيال من الفضاء والوقت يصعب على من لم يتعمق فى الرياضيات أن يدرك كنهه »
أقول : أنا لست فى مقام شرح هذه الأقوال وانما المهم الاتفاق على الجدول المتقدم المحترم عند جمهور هؤلاء العلماء وغيرهم . إذن ثبت هنا أن السماء أولا موجودة . ثانيا انها أشد الأبنية وأمتنها وأقواها . ثالثا ظهر بهذا أن اشارات القرآن أصبحت اليوم واضحة جلية فى العلوم الحديثة ، فاذا كانت السموات بناء واذا كانت شديدة فهاهوذا أصبح واضحا جليا . فهل كفاك ماسمعت عن علماء الفن ؟ فقال كفى والحمد لله
أقول : لقد مرت الاشارة الى هذا الموضوع فى غير هذا المكان والايضاح هنا أتم

﴿ هل للنور وزن ؟ ﴾

ثم قال : ولكنى أريد أن أسأل فى النور . لقد سمعتك تذكر أن النور حركات فى الأثير والحركات لا تكون إلا بقوة دافعة والقوة الدافعة تحرك الميزان حتما . إذن النور موزون ، ولكنى ماسمعت أحدا يقول ذلك . فقلت له : انه موزون وله ثقل . فقال : كيف ذلك ؟ فقلت : هاك ما جاء فى بعض المجلات العلمية وهذا نصه :

﴿ أربعة ملايين طونولاتة من أشعة الشمس فى الثانية ﴾

(هل النورله وزن ؟)

يقول العامة «ضربته الشمس» كأن أشعتها تشتمل على مادة تضرب بها الاشياء . وما أقرب هذا التعبير الى ما اكتشفه العلم الحديث فى هذا الشأن فهوفى الواقع حقيقة وليس بالمجاز كما يريد أن يفهمه الناس . ولكن اذا كان الأمر كذلك فلابد أن يكون للأشعة وزن كسائر الأشياء المادية فقد برهن العلم ممتحنا الاكتشاف

ويقرر العلامة السير جيمس جاز أنه يمكن أن يصوب مقدار كبير من الأشعة نحو شخص قوى قائم على قدميه فيطرحه على الأرض بقوة دفع الأشعة . وتدل أدق الأجهزة الضوئية على أن النور والحرارة يمكن وزنهما وأن يكن ثقلهما ضئيلا للغاية . وذلك أنه اذا وزنت الأشعة الكاشفة التى تنبعث من جهاز قوته خمسين حصانا فى مدة مائة سنة مابلغت أكثر من جزء من عشرين من الأوقية . فهل يمكن أن يشعر الانسان بوزن أشعة يبلغ ثقلها فى قرن من الزمن نصف عشر الأوقية . ولكنه يبين على أى حال على أن النور مادة ذات جرم ووزن ولنبحث الآن اذا كان من الممكن أن ندرك فى ضوء هذا الاكتشاف مقدار ماتفقده الشمس من مادتها لاضاءة أرجاء العالم . تبلغ قوة كل بوصة مربعة من قرص الشمس مقدار الضوء الكشاف الذى تقدم ذكره وتبلغ قوة جهازه خمسين حصانا . ويقدر العلماء قوة ضوء الشمس بهذا الرقم وهو ـ ٣٢٣ متبوعا بخمسة وعشرين صفرا أو ٣٢٣٠ سبتليون شمعة . فاذا كان ينبعث من كل بوصة مربعة من سطح الشمس من الأشعة مازنته جزء من عشرين من الأوقية فى كل مائة سنة . فان وزن ماينبعث من سطحها جميعه من الأشعة يبلغ ٤٠٠٠ر٠٠٠ طونولاتة فى الثانية . وهل يمكن أن نتصور مايراد بوزن قدره ٤٠٠٠ر٠٠٠ طونولاتة من المادة . لو فرض أن هذا المقدار من تراب الأرض لأمكن أن يقام به عمودة قاعدته ١٠ ياردات مربعة وارتفاعه ربع ميل واذا كان مايحملها أكبر قطار حديدى لايزيد على ٤٠٠ طونولاتة فانه يلزم لحمل المقدار السابق من الشمس ١٠٠٠٠ر١٠ قطار فى كل ثانية . لنقل ماتحمله الأشعة من المادة . ويبلغ وزن ماتفقده الشمس فى الدقيقة الواحدة ٢٥٠٫٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ طونولاته من الأشعة والحرارة فهى تنقص على الدوام بمقدار كبير للغاية . ويقدر الفلكيون نقصان وزنها هذه اللحظة بنحو ٣٦٠٫٠٠٠ر٠٠٠ مليون طونولاتة عما كانت عليه فى مثل هذه الآونة من اليوم الماضى . ولكن ألا يفهم مما تقدم أن الشمس آخذة فى النقصان باستمرار وأنه قد يأتى وقت يدب اليها الفناء . ومعنى ذلك القضاء على جميع الكائنات الحية فى أرجاء العالم . فكر علماء الفلك وسواهم فى هذه المسألة طويلا ولكل فريق منهم أغرب الاجابات والحلول لما يتهدد العالم من هذا النقصان الدائم وليس من سلوى يتأسى بها معظمهم وتهدئ روعه إلا أن الشمس قد لبثت على هذه الحال أكثر من آلاف ملايين السنين وعلى ذلك ينتظر أن تخلد فى كبد السماء أطول الآجال والدهور وهى تمد العالم بفيض جسمها النارى لتبعث النور والحرارة فى كل مكان وتنفخ الحياة فى جميع الكائنات الحية اهـ

﴿ هل يمكن استنتاج خلود الأرواح من وجود النور ؟ ﴾

فلما سمع صاحبى ذلك قال حسن والله ولكن بقى شئ خطر لى . فقلت وماهو ؟ فقال إن أقصى ماسمعناه فى هذا التفسير عن النور أنه قد جاء الى أهل الأرض من مسافة مائة مليون سنة أو أكثر فكيف لايدلنا النور . وكيف يكون أشبه بالخالد . فقلت نعم هذه مسألة عجيبة جدا . لقد ثبت أن النور الذى يخرج من الشموس البعيدة يصل لنا فى الأرض بعد مرور مئات الملايين من السنين ولايزال الكشف يتوالى بظهور كواكب والضوء متصل ولم نجد دليلا ولاشبه دليل على أن نور كوكب موجود قد وقف فى الطريق بسبب انه فنى . ومعنى هذا أن النور الذى يخرج الآن من شمسنا لايزال يسبح فى الفضاء ولايقف ويمر على قوم آخرين وهناك قوم الآن يصل لهم ضوء شمسنا اليوم فيحسبون فيجدونه قد خرج منها منذ مائة مليون سنة أو مائة ألف مليون سنة كذلك كما نفعل نحن مع الشموس . فاذا كان ذلك حال الضوء وما هو إلا حركات فى الأثير فما بالك بجوهر النفوس انها أولى بالخلود والبقاء . فقال والله انى لم أر انتصارا للعلم كما رأيت اليوم ولاسمعت براهين أقوى وأمتن مما عرفت اليوم . فقلت الحمد لله رب العالمين

﴿ ازدياد بهجة العلم ﴾

(فى قوله تعالى أيضا ـ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ـ)

﴿ وصف الكواكب وبهجتها وأنا فى الحقل ليلا حتى مطلع الفجر ﴾

اللهم إنك أنت الحىّ القيوم ومن حياتك استمدّت العوالم حياتها ، ومن علمك استمدّت علمها ، ومن قدرتك استمدّت قدرها ، ومن جمالك استمدّت جمالها ، أنت الذى نقشت لنا السماء ، ونقشت الأرض ، وزخرفتهما بزخرفك ، وأنرتهما بنورك ، عجبت للنقش والرقش والجندرة والابداع فى تزويق الأرض بنباتها وجبالها ، وفى تزيين السماء بنجومها وشموسها وأقمارها ، لنا عقول ظهر لى أنها كبيرة جدا بدليل أنها مستعدّة لأن تفهم بعض مصنوعاتك

ولطالما كنت مشوقا أن أنام فى العراء ليلا لأشاهد جمال النجوم قبيل الفجر وهى طالعة فوق الحقول والجبال والصحارى والقفار . كنت أودّ ذلك كثيرا ، نعم أنا أشاهدها كل ليلة فوق سقف المنزل ولا حاجز بينى وبين النجوم وجمالها ولكن أين الثريا وأين الثرى وأين منظر النجوم فى القاهرة حيث المنازل والأبخرة المتصاعدة ودخان الآلات البخارية وبين منظرها فى الخلوات ، ولقد هيأ الله لى هذه الفرصة الآن لأصف فى هذا التفسير تلك المناظر الجميلة ايضاحا لقوله تعالى ـ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ـ فتوجهت الى مزرعتنا بجهة المرج وهى الى الجبل الشرقى أقرب وليس وراءها إلا الصحراء والجبل فبت بعض الليالى هناك فى نفس الحقل فى أواخر شهر يوليو سنة ١٩٣٠ واستيقظت قبل الفجر فماذا رأيت ؟ رأيت زينة حقيقية ، ياسبحان الله : نحن نشاهد فيما يقيمه الناس من الزينة فى الولائم العامّة وأفراحهم والموالد التى يحتفلون بها مصابيح يوقدونها فيها ويضعونها صفوفا منتظمات ، واذا هبت الرياح أخذت تلك المصابيح تضطرب اضطرابا يكسبها جمالا على جمال ، فها أناذا فى هذه الليلة اطلعت فنظرت المصابيح السماوية تهتز طربا وقد ظهرت بهيئة لم أعهدها فى المدن ولا فى القرى ، فلكم رأيت النجوم ليلا أيام الشباب وأنا فى قريتنا كفر عوض الله حجازى وهكذا فى القاهرة ، ولكن هنا فى الجبل والصحراء والحقل تبدّت لى راقصة ضاحكة مستبشرة ، ما أبدع هذا المنظر ، إن فرق ما بين الثوابت والسيارات أن الأولى كثيرة الاضطراب أما الثانية فهى لا اضطراب فيها وان كانت أكبر حجما فى نظر العين ، وما أكثر الثوابت وما أقلّ السيارات ، لذلك كان ذلك المنظر أمامى أجمل ما رأته عينى فى الحياة وخيل لى انى فى جنة عرضها السموات والأرض ، مبدعة أيما ابداع ، متقنة أيما اتقان ، قد ازّينت ولكن للناظرين ، وحسنت ولكن للعالِمين (بكسر اللام) وشعرت نفسى كأنها كانت فى هذه الساحات الجميلة وقد أبعدت عنها بسفروانها رجعت الى مستقرّها وفرحت بالرجوع الى وطنها . ومن العجيب أن الزراعين قد يبيتون فى الحقول كما بت ، بل بعضهم نام فى الحقل معى . هذه المناظر أمامهم ومع ذلك لا تحرّك فيهم ساكنا ولا توقظ فيهم ذاسنة فالجمال ظاهر والمحاسن باهرة وأكثر أهل الأرض لا يدرون فبينما أرى الثريا قد أخذت تشرق طالعة اذا الدبران ذو النور الأحمر قد تلاها وقد ساق أمامه نجوما بهيئة شكل مثلث ووراءهنّ الهقعة ثم الهنعة ونجوم الجبار التى يعبر عنها بالجوزاء فأذكرنى ذلك ما جاء فى «صبح الأعشى» من وصف هذه النجوم فأحببت ذكره وهاهو ذا تحت هذا العنوان

﴿ الصنف الثانى : نجوم منازل القمر التى ينتقل فيها القمر من أوّل الشهر الى الثامن والعشرين منه ﴾

ونكتفى من هذا الفصل بما نحن فيه إذ ذكر الشرطين والبطين ثم أتبعهما بذكر الثريا فقال ما نصه :

﴿ الثريا ﴾ ويسمى النجم علما عليها ، وبه فسر قوله تعالى ـ والنجم إذا هوى ـ وهى ستة أنجم صغار يظنها بعض الناظرين سبعة أنجم ، وهى فى شكل مثلث متساوى الساقين ، وبين نجومها نجوم صغار جدّا

كالرشاش ، ومطلعها الى الشمال عن مطلع الشرطين والبطين ، وأوّل مايطلع منها ويغيب هو الجانب العريض دون الأفخاذ منها ، وهي عند أصحاب الصور بالقرب من محل ذنب الثور المقطوع . قال ابن يونس : وليست من صورة الثور ، وبعضهم يسميها ألية الحمل لقربها منه

﴿ الدبران ﴾ ويسمى تالى النجم لكونه يطلع تلو الثريا ، وربما سمي حادى النجم لذلك ، ويسمى أيضا المجدح وعين الثور ، وهذه المنزلة سبعة أنجم تشبه شكل الدال ، واحد منها مضيء أحمر عظيم النور ، واسم الدبران واقع عليه في الأصل ثم غلب عليه وعلى باقى المنزلة . وهذه الكواكب السبعة عند أصحاب الصور هي رأس الثور ، وأوّل مايطلع منه طرف الدال ، ويكون رميها إلى الجنوب وفتحها إلى الشمال ، والكوكب الأحمر المضيء هو آخر مايطلع منها ، والعرب تقول للكوكبين القريبين منه : كلباه ، والباقى غنمه وربما قالوا . قلاصه ، ويقولون في خرافاتهم . إنّ الدبران خطب الثريا الى القمر فقالت . ما أصنع بسبروت ؟ فساق اليها الكواكب المسميات بالقلاص مهرا ، فهربت منه فهو يطلبها أبدا ، ولايزال تابعا لها ، ومن ثم قالوا فى أمثالهم : أوفى من الحادى وأغدر من الثريا .

﴿ الهقعة ﴾ سميت بذلك تشبيها بدائرة تكون فى عنق الفرس ، وقد مر القول عليها فى الكلام على أوصاف الخيل ، وهى ثلاثة كواكب محاية صغار تسمى الأثافى ، وهى على أعلى القدم اليسرى من التوءم المعبر عنه بالجوزاء . اهـ

أقول : ومن أجمل المناظر ماسماه الهقعة وما عبر عنه بالجوزاء . نظرت فرأيت هذه النجمات تليها نجوم دقيقة ممتدة فى نظر العين قد صنعت قوسا بديعا جميلا واسعا بهيجا كأنه عقد من الماس رصعت به السماء فأبهج وزاد جمالها . ثم نظرت وراءها اذا أنا بنجوم الجوزاء التى يسمونها الجبار وهى أضوأ النجوم فى نظر العين فهناك ثلاث نجوم من القدر الأول وأمامها نجوم أخرى تصنع معها مايشبه زاوية حادة ويسميها العامة الميزان تشبيها بميزان الباعة فى بلادنا . ولقد وصفت نفس هذا المنظر فى السنة الفائتة فى نفس هذا التفسير فى تفسير البسملة فى بعض السور التى تتلو سورة العنكبوت ولكن وصفها فى هذه المرة جاء فى الحقل لافى المنزل وتلا ذلك مانقلته من كتاب « صبح الأعشى »

إن فى الحقل لمسرحا للخيال . تبدو المناظر للعين وتسمع الأذن طنين الحشرات فكأنها حفلة جمعت مايسر العين ويبهج الأذن . انها جنة عجلت للمفكرين الذين يعقلون قوله تعالى ــ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ــ ألافليفطن لذلك المدرسون ولتكن للمسلمين مدارس فى الحقول ليدرسوا الحقول والحدائق والأنعام والبهائم والأنهار والجبال نهارا ويدرسوا النجوم ليلا والافليعلموا انهم عن ربهم معرضون وعن الرقى فى الدنيا والآخرة مبعدون . ولن يذهب ما كتبته عن هذه المناظر سدى سيشهد ماشهدته التلاميذ والمدرسون ــ تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ــ ولكن يتنافس فى ذلك المتنافسون ــ

وهل هذه المناظر يقف جمالها عند ماذكرناه ؟ كلا . أوليست الجوزاء هى التى كشف العلماء اليوم كما تقدّم فى هذه السورة آنفا أن بعض نجومها أكبر من الشمس (٢٥) ألف ألف مرّة ، ومعلوم أن شمسنا أكبر من أرضنا ألف ألف مرة وثلثمائة ألف مرة ، ويقولون إن ضوء الشمس بالنسبة لضوء ذلك الكوكب من الجوزاء المذكورة أشبه بنور الحباحب بالنسبة لضوء الشمس ، إذن الجمال الظاهرى الذى تمتعت به هذه الليلة ليس شيأ مذكورا بالنسبة للعلوم المدّخرة فى هذه المناظر . إذن الدنيا فيها مفاتيح الجنة ، فأوّل مفاتيحها جمال الظواهر ويليها العلوم التى عرفها نوع الانسان وراء هذه الظواهر والعلوم هى السعادة بل هى مفتاح الجنة ، ومن لم يشعر بالسعادة العلمية فى هذه الحياة فكيف يسعد بالنظر الى مبدع هذا الجمال اهـ

﴿ امتحان عقول الناظرين من الأمم ﴾

انظر الى البدوى فى العراء المذكور فى «صبح الأعشى» كيف وقف أمام الدبران والثريا والقمر وصور فى نفسه أن القمر خاطب والثريا مخطوبة والدبران هو الذى ساق بأمر القمر النجوم السبعة لتكون مهرا ، فهذا تصور لطيف انتزعه الرجل من أحوال الانسان واخترع للسماء نظاما كنظام أهل الأرض فيه الأحوال الاجتماعية ، وتارة يقول قائلهم :

أليس الليل يجمعني وسلمى ❊ وإيانا وإياها تدانى

فهنا تخيل الليل خيمة قد جمعته مع سلمى وان تناءت الديار ، وتارة نسمع قائلا يقول من المتأخرين من الأمم الاسلامية العربية :

يا ليل طل ياشوق دم ❊ إنى على الحالين صابر
لى فيك أجر مجاهد ❊ إن صح أن الليل كافر
يهنيك بدرك حاضر ❊ ياليت بدرى كان حاضر
حتى يبين لناظرى ❊ من منهما زاه وزاهر
بدرى أرق محاسنا ❊ والفرق مثل الصبح ظاهر

وآونة نسمع آخر يقول :

سل يا أخا البدر نجم الليل عن سهرى ❊ تدرى النجوم ولا تدرى الورى خبرى

ونسمع آخر يقول فى ممدوحه وذلك فى حسن التعليل فى علم البديع :

لولم تكن نية الجوزاء خدمته ❊ لما رأيت عليها عقد منتطق

فالبدوى فى البادية كان خياله أقرب الى الفطرة ، أما المتأخرون فن خيالهم نزل بالمناظر السماوية الى اللذات التى ملكت على تلك الأجيال مشاعرهم إذ ملكوا زمام الأمم وأغنتهم الغنائم باتساع الملك وكثرت لديهم الجوارى الحسان من الأمم فأخذوا يتغزلون وجاراهم فى ذلك علماء اللغة وكلما زادوا ابداعا قيدوه فجعلوه من العلم ، ولم يكفهم ذلك حتى تخيلوا تلك النجوم قد تنزلت فصارت من خدام ملوكهم الذين يمدحونهم ، ولماذا هذا المدح ؟ ذلك لأجل الجوائز التى يأخذونها من مال الدولة بلا مقابل إلا ذلك المدح ولكن الله كأنه يقول : إنا زينا السماء للناظرين المفكرين فأما أن تكون النجوم لأجل الغزل أو لأجل التزلف للملوك فذلك كله خيال الشعراء — والشعراء يتبعهم الغاوون —

إن شعر الأمة وخيالها يدلان على درجتها ، وهذه الأمم العربية المتأخرة نسيت أصل الفضائل وأفرطت فى اللذات فرجعت الى باديتها حتى تستقيم أجيالها كرة أخرى ثم يأتى لها من يوقظها كرة أخرى ، وهذا المقام أوضحته فى ﴿سورة الشعراء﴾ عند تفسير هذه الآية وذكرت هناك ما قاله سديو الفرنسى أن مجموع الشعراء عند الأمم العربية الاسلامية أكثر من مجموع الشعراء فى الأمم كلها ، ولكن الافراط فى الشعر عند المسلمين فى الأندلس والتفكر والتعقل عند الاسبانيين جعل الآخرين يغلبون الأولين ولله فى خلقه شؤن

وقد ذكرت هناك أن ذلك من معجزات القرآن فى آية الشعراء ، والله زين السماء للناظرين وقال : — إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا — ولقد ابتلى الله آباءنا العرب لما عظم ملكهم واستولوا على فارس والروم فانصرف متأخروهم عن بهجة علوم الكائنات الى بهجة الغلمان والفتيات وابتدأ ذلك فى عصر بنى أمية وعظم فى عصر بنى العباس ، وانظر ماجاء فى الجزء الأول من كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» وهذا نصه :

كان الشاعر الجاهلى يقول الابيات تغزلا فى حبيبته يعبر بذلك عن حبه أو ماتكنه جوارحه من الغرام

أو الشوق ولا يشبب في غير حبيبته أو خطيبته وقد يسميها بغير اسمها . والغالب أن يكنى عنها باحدى عرائس الشعر لئلا يعلم أهلها بتشبيبه فيمنعوه من التزوج بها . لانهم كانوا شديدي الغيرة على النساء حتى ان أحدهم اذا سطا عليه عدو وخاف على حياته منه عمد الى امرأته أو حبيبته فيقتلها غيرة عليها من أن يمسها سواه بعد موته [١] ويندر في الجاهلين أن يشبب شاعرهم بغير حبيبته . واذا فعل فلداع فوق العادة كما فعل دريد بن الصمة اذ رثى أخاه بقصيدة صدرها بأبيات غزلية [٢] وقد رأيت الشعراء العشاق في الجاهلية يعدون على الأصابع فأصبحوا في العصر الاموي أضعاف ذلك وأكثروا من وصف الحب وأعراضه وأحواله

وذلك طبيعي في الأمة بانتقالها من البداوة الى الحضارة وخصوصا اذا كان ذلك على أثر الفتوح وفيها الغنائم من السبايا فيصيب الرجل منهم جارية أو بضع جوار في كل معركة ملكا حلالا له . وكانت السبايا في صدر الاسلام كثيرات وأكثرهن من الروم والفرس . والفاتحون يبيعونهن أو يستخدمونهن في حاجات المنزل ويستبقون الجيلات منهن للتسرى فتحركت القلوب وتنبهت القرائح للمواضيع الغزلية وصار الشعراء يشببون بالنساء الجيلات . وكان الخلفاء الراشدون يعدون ذلك خروجا عن حرمة الادب جعلوا التشبيب ذنبا يستوجب القصاص . وكان عمر بن الخطاب لايسمع بشاعر يشبب بامرأة الا جلده [٣] فلما أفضت الدولة الى بني أمية وقد انتقلت عاصمتها من المدينة الى دمشق وكثر الاختلاط بالأعاجم وأخذ العرب بأسباب الحضارة وذهبت هيبة العفة من نفوسهم وانقضت شدة الراشدين في المحافظة عليها هان عليهم التشبيب فاكثروا منه ولاسيما في المدينة لأن أهلها من أسبق المسلمين الى القصف واللهو لقيام بعض أبناء الصحابة بين اظهرهم وقد أغرقهم معاوية بالعطايا والرواتب ليشغلهم باللهو عن طلب الملك فكانوا ينفقون الاموال على المغنين ونحوهم فكثر اللهو في المدينة وسبقت سائر المدائن الاسلامية الى الغناء وشاع القصف بين أهلها وتجرأ الشعراء على التشبيب بغير أحبائهم

وجاء في هذا الكتاب أيضا في موضع آخر مانصه :

كان في المدينة على عهد معاوية طائفة من أبناء الصحابة يخشى قيامهم لمطالبة بالخلافة كما فعل أحدهم عبد الله بن الزبير فاصطناعهم معاوية بالعطايا وقيدهم بالاحسان ووسعهم بالحلم فركنوا الى التمتع بالدنيا من طعام وشراب وسماع . ينفقون في ذلك الاموال وهي تتدفق عليهم من خزائن الشام . فلما تولى عبدالملك بن مروان (سنة ٦٥ هـ) كانت المدينة قد أصبحت مرسحا للهو والغناء ونبغ فيها طائفة من المغنين وتكاثر فيها المخنثون وأهل القصف الا من كان فيها من الحفاظ والقراء اهـ المقصود منه

أفلا ترى أيها الذكي أن فساد الأمم العربية في القرون المتأخرة انما حصل بكثرة الافراط في اللذات والانخراط في سلك الترف والنعم الذي هو آفة العمران ، فالخلفاء الراشدون كما رأيت منعوا التشبيب وبنو أمية أباحوه والعباسيون أعظموا أمره ، ألاترى معي أن الاسراف في ذلك ناجم من الاسراف في مال الدولة وفي الانغماس في اللذات وهذا وذاك أبعد المسلمين عن معرفة جمال هذه الدنيا لأننا بين جمالين : جمال يقصرنا على الشهوة الحيوانية وهو مارأيت ، وجمال يفرحنا ويشرح صدورنا بجمال العلوم ومعرفتها والعروج الى الله بمعرفتها ، فان غلب الأول انحطت الأمة ، واذا غلب الثاني ارتقت ، وهذا معنى ـ لنبلوهم أيهم أحسن عملا ـ فالأرض مزدانة بالجمال وكل يصيب منه ما استعد له . وكتاب الأغاني الذي انتشر في الخافقين من أسباب كثرة الفجور وسقوط الأمة الأندلسية لأن أبناء الأشراف هناك كانوا يقرؤن المحاضرات المخترعة عن ملوك العباسيين وعشقهم للجواري ومعاقرة بنت الحان فظنوا ذلك حقا فاعتنقوا تلك المذاهب فهلكوا . كل ذلك داخل في معنى ـ إنا زينا السماء الدنيا ـ الخ ومعنى ـ إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ـ

يا أمة الاسلام : هذبوا الأدب العربي . لاتلقوا بالكتب الموروثة بين أيدي شبابكم . عشقوهم من إبان

(١) الاغاني ١٤٥ ج ١٢ (٢) العمدة ١٢٢ ج ٢ (٣) الاغاني ٩٨ ج ٤

صغرهم

صغرهم فى جمال السماء وجمال الأرض لافى الغزل والتشبيب . احذروا هذا الأدب فانه أدب ضال . فليرووا الأشعار الفاضلة لا الغزلية كأبيات عمرو ابن كلثوم فى الفخر فى معلقته إذ يقول :

اذا ما الملك سام الناس خسفا ※ أبينا أن نقرّ الذل فينا

وكأبيات زهير بن أبى سلمى إذ يقول :

ومن يك ذافضل فيبخل بفضله ※ على قومه يستغن عنه ويذمم

وكقول طرفة بن العبد فى معلقته :

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى ※ لَكَالطِّوَلِ الْمُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ

مَتَى مَا يَشَأْ يَوْماً يَقُدْهُ لِحَتْفِهِ ※ وَمَنْ يَكُ فِي أَسْرِ الْمَنِيَّةِ يَنْقَدِ

إن ما يسمعه الفتى أيام حداثته عالق لاشكّ بفؤاده ملازم له بقية حياته ، وترى الفرنجة فى تعليمهم للأحداث يدرسون لهم فى المدارس كتبا فيها صور جميلة نباتية وحيوانية وسماوية فيعشقون العلم والبحث والنظر فى هذه العوالم . وهذا هو المنطبق بعض الانطباق على هذه الآية ــ إنا زينا السماء الدنيا ــ الخ وآية ــ إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها ــ الخ

أفليس المسلمون أولى باقتفاء آثار القرآن . هاأناذا حذرتكم أيها المسلمون . فأما أدب الأغانى والكتب الأخرى التى تماثله فليس يجوز أن تكون عامة بل تخصص لها طائفة لحفظ المأثور . أما التعليم العام فيجب حذف التشبيب منه بتاتا واستبداله بعجائب الدنيا الجميلة والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين

﴿ اعتراض على المؤلف وجوابه ﴾

هنا سألنى أحد الفضلاء فقال : وهل فى شرعة التأليف أن تذكر أشعار الغزل وذمها وأشعار الفضائل ومدحها ومغانى المدينة وفسوق الأندلسيين وذهاب دولتهم وهكذا ؟ هل الآية تحتمل هذا كله ؟ فقلت وأكثر منه . إن الزينة السماوية والزينة الأرضية قد جمعتا جميع العلوم . فاذا صرف الانسان عقله للزينة العامة فى العوالم كان حكيما . واذا حصر عقله فى الجزئيات فان كانت مؤلمة أورثته الشك كما تقدم عن اخوان الصفاء وان كانت سارّة كما فى محاسن النساء وسائر الشهوات أورثته العصيان . فالزينة إذن تشمل العالم كلها وتشمل ماعصر النفس فى الشهوات التى تخفض النفس وتمنعها من الرفعة فى الدنيا والآخرة . أليس القرآن يفسر بعضه بعضا . ألم يقل الله فى سورة الكهف (بعد أن ذكر فى أولها أن ماعلى الأرض زينة لها) ــ واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك لامبدّل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا ※ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ــ

إذن هذه الآية تكملة للآيتين فى الصافات وفى الكهف . فهو يقول إن الزينة زينتان : زينة الحياة الدنيا وهى مذمومة . وماهى زينة الحياة الدنيا ؟ قد فسرها بقوله ــ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ــ وكل ما ألهانا عن العلم فهو زينة الحياة الدنيا وهى مذمومة . وكل ما ذكرته لك داخل فى هذا . إذن هذا كله تفسير للآية . إذن الآيات مرتبات هكذا

(١) ــ إنا زينا السماء الدنيا ــ الآية

(٢) ــ إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها ــ

(٣) ــ ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ــ

(٤) ــ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ــ

(٥) ــ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل

المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ـ

(٦) ـ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ـ

فالأولى والثانية للزينة العامة . والثالثة أخرجت الزينة المهيجة للشهوات . والرابعة مفصلة بعض التفصيل للثالثة . والخامسة مفصلة للرابعة . والسادسة لبيان أن الزينة قد تعدت ذلك الى سوء أعمال الناس التي رأوها حسنة في بادئ الرأي . إذن كل ما ذكرناه هنا لابد منه حتى نعرف لماذا زين الله لنا السماء وما الزينة المذمومة ؟ وما الزينة الممدوحة ؟ وهل الغزل إلا مايرجع الى النساء المذكورات في هذه الآيات ؟ وهل يفيد أمثال ما كتبناه يكمل انتفاع المسلمين بمجمل آيات القرآن . فقال : ﴿ إن من البيان لسحرا ﴾

فقلت : اللهم إني أحمدك على البيان والتبيين وانشراح الصدور واظهار الحقائق لأمم الاسلام . انتهى صباح يوم الأربعاء (١٣) أغسطس سنة ١٩٣٠ م

﴿ نور على نور ﴾

أذكرك بما تقدم في أول ﴿ سورة البقرة ﴾ عند آية الجنة وانني نقلت لك هناك عن الامام الغزالي في الاحياء أن العلم جنة العارفين وأن الجنة الحسية للجاهلين فارجع اليه هناك فأي علم هذا الذي اذا أدركناه يكون جنة ياليت شعري : أعلوم اللغات من الصرف والنحو والبلاغة التي فتن بالوقوف عندحدها المخدوعون من الأجيال الفائتة الاسلامية بعد العصور الثلاثة الأولى الذين لم يجدوا لهم منقذين من الجهل ، وكلما نبغ نابغ لينقذهم كفروه جهالة وذلة ، أم علم الفقه وأصوله مع الوقوف عليهما . كلا . بل هي العلوم التي بها نعرف نظام هذا العالم ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ هي العلوم التي قد جمع زهراتها هذا التفسير

الله أكبر : أليس في تقديم الكلام على تلك العلوم في هذه السورة شاهد على ذلك . ألم يقدم الله هنا ذكر جمال العوالم وزينة السماء على ذكر قاصرات الطرف الحور العين اللاتي كأنهن البيض المكنون وعلى ذكر كأس المعين البيضاء التي تلذ الشاربين ولا تضر عقولهم ولاتسكرهم بل قدم الله آية جمال العوالم وزينة السماء على ذكر لذات الجنة وحورها وخمرتها فقال ـ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ـ ولاجرم أن هذه لذة العقول ولذات الجنات الظاهرة حسية ولذات العقول أقوى من لذات الأجسام ولذلك كانت لذة الملوك والقواد أشد من لذات العمال والصناع ، وفوق هؤلاء وهؤلاء لذات العلماء ، واللذة بالمعرفة لاحد لها ، والله يوم القيامة يجعل الناس في منازلهم بحيث لايتخطونها فمن لم يعرف من اللذات إلا النساء والشرب والأكل أدخله الجنة الحسية ، ومن ارتقى فوق هذه الطبقة فعرف الله أعطاه فوق ذلك النظر الى وجهه على مقدار علمه في الدنيا فيزيد هناك انكشافا

﴿ سوانح وخواطر في هذا المقام ﴾

يظهر لي أن صفتي الشجاعة والحب هما الصفتان اللتان بهما سعادة الحياة والممات ، وأن الجبن والبغض بهما شقاء الحياة والممات ، وللحب مفتاح وهذا المفتاح والحمد لله قد أصبح في أيدي الأذكياء قارئي هذا التفسير وهو النظر في جمال هذه العوالم . فكلما زدنا علما زدنا حبا لصانع العالم . وهذا الحب يجعل حياتنا كلها نشاطا في أعمالنا ونحس فيها بشعور المحبة الانسانية العامة والخاصة . فترى الذين وصلوا الى هذه الدرجة مغرمين باسعاد الأمم لأن العالم في نظرهم أصبح واحدا ويقدمون اسعاد أمم الاسلام الذين هم أقرب اليهم ولايتلكؤن في اسعاد الأمم الأخرى . فياليت شعري كيف يرى الانسان ذلك الجمال العام الذي ضربت لك مثله بما شاهدته في الحقل هذه السنة في آخر شهر يوليو سنة ١٩٣٠ ليلا قبيل الفجر أول هذا المقال من بدائع الجمال والنور المشرق في سائر الأرجاء . وذلك الجمال وذلك النور وراءهما ماهو أجل وأبهى وأبهر وهي

نفس الحقائق العلمية . أقول كيف يرى الانسان ذلك وانه لاحد له فى البهجة والكمال والاستعداد ولاتكون
حياته كلها علما وجمالا واسعادا للناس قاطبة . ثم كيف يرى ذلك ثم يخاف من الموت وقد علم علما ليس
بالظن أن روحه فى يد مبدع هذا الجمال لاسيما انه أحبه وبمقدار المحبة تكون لذة النظر للمحبوب . وهذه
الأجسام مانعة منه . فاذن تكون هذه الحياة عائقة عن النظر . إذن هذا الحب تصحبه الشجاعة فاذا لم يخف
من الموت فمم يخاف إذن فلامصيبة فى هذه الأرض أقوى عندالانسان من الموت فاذا لم يكن مصيبة أصبحت
جميع أحوال الحياة سهلة وضعفت آثار ما نسميه مصائب فيها . فهنا أصطحبت الشجاعة مع الحب وبضدها
تتميز الأشياء . فاذا عاش الانسان جاهلا فلم يعرف هذه العجائب لم يدخل الحب قلبه . واذا عمل عملا صالحا لم
يكن له باعث عليه إلا أحد أمرين : إما أن ينتظر المكافأة عليه فى الدنيا على أيدى الملوك والأمراء والعامة
واما أن ينتظرها فى الآخرة بالحور الحسان وكأس المعين والحلى والحلل . وهذا وماقبله آثارهما أضعف من آثار
المحبين لربهم أولئك الذين يعملون فى الدنيا ويرون انهم سعداء بنفس أعمالهم ويرون اطلاع محبوبهم على
أعمالهم خيرمشجع لهم وهؤلاء سعادتهم فى الآخرة تكون على هذا المنوال فهم أبدا فى ازدياد العلم ونفس
العلم لهم سعادة حقيقية ولوانهم منعوا ذلك النعيم ووقفوا عند حدالمطاعم والمشارب والحور لرأوا أنهم معذبون
عذابا لايطاق . وفى هذا العالم اليوم من اذا قال له الملك أنا أعطيك أجل جارية عندى تحظى بها ومن المال
ماتشتهى ولكن لاتحضر مجلسى لأنك لاتصلح للوزارة ولا للمشاورة ولا للمنادمة لكان ذلك عليه أشد من
الموت لأنه إذ ذاك سقطت كرامته فى نفسه وأصبح ذليلا مهينا . فاذا كان هذا فى الطبقة الوسطى وهم الملوك
والأمراء ومن على شاكلتهم وهم أرباب اللذة الوسطى فمابالك بمن فوقهم من أرباب اللذة العليا العقلية وهم
الحكماء . ولقد قدمنا كثيرا فى هذا التفسير أن لذة المحسوسات أدنى ولذة الحكم والغلبة أرقى كلذة الأسد
بنسبة لذة العنز والغزال . فأما لذة العلم والحكمة فهى أحق من جميع اللذات . ولن يصدق هذا القول إلا
من عرف هذه الأقسام الثلاثة وجربها بنفسه فان من لم يجرب ولم يذق فستحيل عليه أن يصدق ذلك أو
يتصوره ولله الخلق والأمر وهو رب العالمين

ثم إن هؤلاء المحبين لربهم بسبب هذه العلوم يرون أن كل من أحب غيره فان ذلك المحبوب يشعر بحب
من أحبه وهذه تعطيهم تشجيعا إذ يرون أن الله يحبهم حبا يليق بجلاله لا كحب المخلوق لاسيما اذا قرؤا قوله
تعالى ـ يحبهم ويحبونه ـ وقوله ـ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفرلكم ذنوبكم ـ

واعلم أن الأذكياء من قراء هذا التفسير سيكون حبهم لله مفرطا . ذلك أن الانسان كلما ازداد علما
ازداد حبا . وهذا العلم الموجب للحب انما هو علم العجائب والعجائب فى كتب الحيوان والنبات والمعادن
وعلم طبقات الأرض والفلك وغيرها مشتتة فى الكتب بل صعبة الفهم فلذلك لاتجد البارعين فى تلك العلوم
عندهم هذه المحبة بل ربما أنكروا الالوهية أوصدقوا بها ولكنهم غافلون لأن علومهم أخذوها منفصلة غير
متصلة ولاموصلة لمبدعها . أما فى هذا التفسير فانها متصلة مفصلة . إذن هى موصلة لذلك الحب ولم تكن هذه
العجائب فى القرون الأولى واضحة لعموم الناس كما اتضحت فى هذا الزمان لاسيما بالصور الفوتوغرافية . وسيزيد
نفسك عما كتبته الآن ما أنقله لك عن الامام الغزالى فى الاحياء تحت العنوان الآتى وهذا نصه :

﴿ بيان السبب فى تفاوت الناس فى الحب ﴾

اعلم ان المؤمنين مشتركون فى أصل الحب لاشتراكهم فى أصل المحبة ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم فى المعرفة
وفى حب الدنيا إذالأشياء انماتتفاوت بتفاوت أسبابها وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء
التى قرعت سمعهم فتلقفوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معانى يتعالى عنها رب الأرباب وربما لم يطلعوا على

حقيقتها ولاتخيلوا لها معنى فاسدابل آمنوا بها ايمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين والمتخيلون هم الضالون والعارفون بالحقائق هم المقربون وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة فى قوله تعالى ـ فأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ـ الآية فان كنت لاتفهم الأمور الابالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول أصحاب الشافعى مثلا يشتركون فى حب الشافعى رحمه الله الفقهاء منهم والعوام لانهم مشتركون فى معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ولكن العامى يعرف علمه مجملا والفقيه يعرفه مفصلا فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجابه به وحبه له أشد فان من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لامحالة ومال اليه قلبه فان رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لامحالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه وكذلك يعتقد الرجل فى الشاعر انه حسن الشعر فيحبه فاذا سمع من غرائب شعره ماعظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حبا وكذا سائر الصناعات والفضائل والعامى قد يسمع أن فلانا مصنف وانه حسن التصنيف ولكن لايدرى مافى التصنيف فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل والبصير اذافتش عن التصانيف واطلع على مافيها من العجائب تضاعف حبه لامحالة لان عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه والعامى يعلم ذلك و يعتقده وأما البصير فانه يطالع تصنيف صنع الله تعالى فيه حتى يرى فى البعوض مثلا من عجائب صنعه ماينبهر به عقله و يتحير فيه لبه و يزداد بسببه لامحالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته فى قلبه فيزداد له حبا وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله وازداد به معرفة وله حبا و بحر هذه المعرفة أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى بحر لاساحل له فلاجرم تفاوت أهل المعرفة فى الحب لاحصر له ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التى ذكرناها للحب فان من يحب الله مثلا لكونه محسنا اليه منعما عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته إذ تتغير بتغير الاحسان فلايكون حبه فى حالة البلاء كحبه فى حالة الرضا والنعماء وأما من يحبه لذاته فلانه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فانه لايتفاوت حبه بتفاوت الاحسان اليه فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس فى المحبة والتفاوت فى المحبة هو السبب للتفاوت فى سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى ولَلآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا

(بيان السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه وتعالى)

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها الى الافهام وأسهلها على العقول وترى الأمر بالضد من ذلك فلا بد من بيان السبب فيه وانما قلنا انه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لاتفهمه الابمثال وهو انا اذارأينا انسانا يكتب أو يخيط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات فحياته وعلمه وقدرته وارادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة اذصفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لانعرفه وصفاته الظاهرة لانعرف بعضها وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أما حياته وقدرته وارادته وعلمه وكونه حيوانا فانه جلىّ عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وارادته فان هذه الصفات لاتحس بشئ من الحواس الخمس ثم لايمكن أن تعرف حياته وقدرته وارادته الابخياطته وحركته فلونظرنا الى كل مافى العالم سواه لم تعرف بصفته فماعليه الادليل واحد وهو مع ذلك جلى واضح ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل مانشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبرّ وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض بل أوّل شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا وأظهر الأشياء فى علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا

بالحواس

بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والموجودات المدركة لا حصر لها فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها الا شاهد واحد وهو ما أحسسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها الا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله اذ كل ذرة فانها تنادي بلسان حالها انه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وانها تحتاج الى موجد ومحرك لها . يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة . فانا نعلم انها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب الا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن ادراكه فان ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان ✲ أحدهما خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله ✲ والآخر ما يتناهى وضوحه وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لا لخفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس اذا أشرقت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره فلا يرى شيأ إلا اذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الالهية في نهاية الاشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره سبب خفائه فسبحان من احتجب باشراق نوره واختفى عن البصائر والابصار بظهوره ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فان الأشياء تستبان بأضدادها وما عم وجوده حتى انه لا ضد له عسر ادراكه فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ومثاله نور الشمس المشرق على الارض فانا نعلم انه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويزول عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غروب لها لكنا نظن أنه لا هيئة للإجسام الا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما فانا لا نشاهد في الاسود الا السواد وفي الأبيض الا البياض فأما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين فعلمنا أن الاجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه الا بعسر شديد وذلك لمشاهدتنا الاجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور . مع أن النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره انظر كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده فالله تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الاشياء كلها ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض وبطل الملك والملكوت ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لادركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة ولكن دلالته عامة في الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم الاحوال يستحيل خلافه فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب في قصور الافهام وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فانه في حال اعتدال أمره لا يرى الا الله تعالى ولا يعرف غيره يعلم أنه ليس في الوجود الا الله وأفعاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه وانما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الافعال كلها ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال الا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث انه سماء وأرض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث انه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له الى غيره كمن نظر في شعر انسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيه الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث انه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض فلا يكون قد نظر الى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر اليه من حيث انه فعل الله وعرفه من حيث انه فعل الله وأحبه من حيث انه فعل الله لم يكن ناظرا الا في الله ولا عارفا الا بالله

ولاشبحا الا لله وكان هو الموحد الحق الذى لايرى الا الله بل لاينظر الى نفسه من حيث نفسه بل من حيث انه عبد الله فهذا يقال فيه انه فنى فى التوحيد وأنه فنى عن نفسه واليه الاشارة بقول من قال كنا بنا ففنينا عنا فبقينا بلا نحن فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر أشكلت لضعف الافهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها و بيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض الى الافهام و باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لايعنيهم فهذا هو السبب فى قصور الافهام عن معرفة الله تعالى وانضم اليه أن المدركات كلها التى هى شاهدة على الله انما يدركها الانسان فى الصبا عند فقد العقل ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الانس ولذلك اذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أونباتا غريبا أوفعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعا وأعضاؤه فقال سبحان الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة لايحس بشهادتها لطول الانس بها ولو فرض أكمه بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينه فامتد بصره الى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة تخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك فى الشهوات هو الذى سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة فى بحارها الواسعة فالناس فى طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذى يضرب به المثل اذا كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره والجليات اذا صارت مطلوبة صارت معتاصة فهذا سر هذا الأمر فليحقق ولذلك قيل

لقد ظهرت فما تخفى على أحد ☆ الا على أكمه لايعرف القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا ☆ فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

﴿ زبرجدة ﴾

(فى قوله تعالى ــ فأتبعه شهاب ثاقب ــ وظهور أسرار القرآن فى عصرنا الحاضر)

اعلم أيها الذكى أن كثيرا من العقلاء وأهل العلم والفلسفة اذا سمعوا هذه الآية توهموا وظنوا أن هذه لاتخلو من أحد أمرين : إما أن تكون أمرا خياليا وضع للوعظ والتعليم ، واما انه مجاز ، فاما أن يكون هناك شياطين يرتقون الى السماء ومتى وصلوا اليها سمعوا الملائكة وأن شهبا تقابلهم فى طريقهم فتمنعهم ، فهذا مما لاسبيل اليه بحسب ماانتشر من العلوم

هذا هو الذى يظنه أكثر أهل العلم فى زماننا وفى كل زمان . واعلم أن العلم الناقص هذا شأنه فيحكم بما علم على مالم يعلم ، وهاأناذا باسط لك أيها الذكى آراء المتقدمين وعلماء العصر الحاضر فى هذه المسألة لتقف أولا على حقيقة الشهب بحسب العلوم المدونة فى زماننا ثم أحدثك بعدها عما فتح الله به من أسرار هذه الآية ليزول الحرج من صدرك ولتعلم من العلم مالم ينله كثير من الفضلاء وليثلج صدرك ولتكون من الموقنين الفرحين بالعلم الذى هو جنة معجلة للعارفين فى هذه الحياة الدنيا فأقول ولله الفضل والمنة وهو رب العالمين

قد تقدم بعض هذا المقام فى سورة الحجر ولكن هنا لابد من استيفائه فأقول ناقلا عن كتابى « بهجة العلوم فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية » وهذا نصه :

﴿ حوادث كرة الاثير من الشهب الساقطة وانقضاض الكواكب ذوات الأذناب ﴾

أما الأقدمون فيقولون اننا نرى فى السماء صورة أعمدة مخروطة قائمة قاعدتها مما يلى كرة النار ومخروطها مما يلى وجه الارض وما هى الادخان يابس لطيف صعد من الأرض كما قدمناه والجبال والبرارى فاذا بلغت الأبخرة الكرة الزمهريرية تلاقى فى أعلاها بكرة الأثير وهى الكرة النارية التى حدثت فوق كرة الزمهرير بسبب سرعة الحركات الفلكية التى ولدت الحرارة فأنشأت هذه الكرة وتقل حرارتها كلما اقتربت من كرة

الزمهرير

الزمهرير الفاصلة بينها و بين كرة النسيم فاذا بلغ الدخان كرة الأثير المذكورة اشتعل نارا كما ترى الدخان الطائر من السراج المنطفى يشتعل بملاقاته لسراج متقد وكآثار اها تشتعل فى النفط الابيض ثم تفنيه بسرعة فينطفى وانما اعتبروها دخانا محترقا لانهم يقولون انها تظهر فى أيام الجدب أكثر والجدب يقل معه المياه فى الارض فيقل البخار ويكثر الدخان و يستدلون على انه دخان أيضا بأن النار عند اشتعالها فيه ترى عظيمة فلاتزال تقل حتى تختفى فيخيل للناظرين انها نار نازلة من السماء . وتارة ترى كأنها كرة صغيرة متدحرجة على سطح كرة كبيرة فهى تبتدئ فى حركتها من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق ومن الجنوب الى الشمال وبالعكس وتارة تتكسب فكأنها فى نظر العين كرة من قطن اشتعلت فيها النار ثم رميت فى الهواء وكلما احترقت بالنار تناثر شررها وصغرت حتى تفنى . ومثالها الكرة التى يلعب بها أصحاب الخيالات يعجنونها من سندروس وأجزاء عقاقير و يشعلون فيها النار و يأخذونها فى أفواههم فاذا رقصوا أوتنفسوا رأيت النار تخرج من أفواههم ومناخرهم وهكذا حتى تفنى . و يقولون فى ذوات الاذناب انها تظهر قبل طلوع الشمس أو بعد غروبها ولاتحدث إلا فى كرة الأثير وهى تدور مع فلك القمر على توالى البروج كسير الكواكب السيارة وتارة تتأخر راجعة ومادتها هى المادة المتقدمة البخارية ولكن هذه ألطف فتنعقد وتكون شفافة كالبلور واذا أشرقت عليها الشمس شفت من الجانب الآخر فلايزال المذنب يشرق و يغرب حتى يمحى من الوجود . وملخص كلام القدماء أن الدخان اعتلى فى الجو واشتعلت فيه النار ككرة القطن أو كالنفط المشتعل أو كالسندروس المعجون مع غيره . وأن نجمة الذنب أشف مادة وأبقى مدة وأطول أجلا ثم تضمحل . سبب هذا الرأى . أنهم كانوا يرون تبعا للقدماء ان الكواكب لاتتناثر ولاتتكسر ولايكون فيها شظايا لأنها باقية الى الأبد وقد علمت بطلانه

﴿ أراء علماء العصر الحاضر فى المذنبات والشهب والنيازك ﴾

المذنب نجم ذو ذنب فله رأس وله ذنب وهوأنواع منه مالاذنب له وهى كثيرة التقلب وقد تكون رءوس المذنبات أجساما مستقلة . وأما الأذناب فهى أجسام كبيرة لطيفة المادة دقيقتها ولطافة الاذناب مستنتجة من خفتها ولقد نعلم أن السيارات تسير فى مدار واحد لجهة واحدة . أما المذنبات فلانظام لها فى سيرها وأما كثرتها فهى كسمك البحر عدا . وذنبها يكون أكثر ظهورا كلما اقتربت الرأس من الشمس والرأس تنجذب نحو الشمس متى اقترب المذنب منها . فأما الذنب فانما يكون اندفاعه الى الجهة الاخرى ومذنب (دوناتى) أول ماظهر فى شهر يونيو سنة ١٨٥٨ واختفى عن الأعين بعد قليل ونور المذنب ليس مستعارا كنور القمر وكرة هذه النجمة يسمى نواة أو لبا ورؤية ذوات الذنب لاتمكن الا فى جزء من مدارها أى حين قربها من الشمس وذوات الذنب متفاوتة فى المقدار والضوء فنها ماتتعسر رؤيته ولو بآلة . ومنها مايشغل بسبب عظم ذنبه ثلث السماء أو نصفها بحيث يكون أعظم من ٦٠ درجة الى ٩٠ فالنجمة التى ظهرت سنة ١٨١١ افرنكية كانت لاتكاد ترى فكلما قربت من الشمس صارت بخارا وأضحى جرمها شفافا وهى لاترجع الابعد ٣٠ قرنا ولم يتحقق العلماء من رجوع نجوم ذات ذنب مما رصدوها الا اثنتين وهما

(١) نجمة هليه التى تقطع فلكها فى ٧٥ سنة ونصف وقد ظهرت سنة ١٩١٠

(٢) النجمة القصيرة الدور وهى تقطع فلكها فى ثلاث سنين ونصف وقد ظهرت سنة ١٨٢٩ وفيما بعدها ومن النجوم ذوات الذنب مالا تقطع فلكها الا فى عدة قرون . ومنها مايذهب جهة النجوم الثوابت فيختفى عنا ولايرجع أبدا

اذا رؤيت ذوات الذنب لايحكم عليها بأنها دورية أو غير دورية وكيف يعلم ذلك وقد علم أن مدد دورة بعضها يعد بالالوف أو بمئات الالوف من السنين حتى ترجع ومن ذا يضمن رجوعها

الشهب والنيازك . الكرات النارية . الحجارة الجوية

الشهب جمع شهاب وهو مايرى كأنه كوكب انقض والنيازك جمع نيزك وهو معرب (نيزه) بالفارسية

ومعناه الرمح القصير ويطلق على الشهاب تشبيها ويقال شهاب ثاقب ونجم ثاقب لانه يثقب الظلام بضوئه :

﴿ الشهب ﴾

الشهاب ماترى فى الليالى قد انقض من السماء وليس كوكبا وانما هى أجسام صغيرة وربما لاتزيد الواحدة عن حجم البلاطة وهذه الأجسام كثيرة جدا ومنها مجموعة تسمى الاسديات وهى تتم دورتها حول الشمس فى شكل اهليلجى فى ٣٣ سنة ولا يحصى عدد هذه الشهب وقطرها ١٠٠٠٠٠ ميل أو أكثر . والأرض لاتخترق فى سيرها هذه الاسديات الا ثلاث مرات كل مائة عام وآخر مرة كانت سنة ١٨٦٦ وفى كل مرة تضيف آلاف الآلاف من هذه الشهب أوالنيازك مما ينزل على سطحها . وأما النور الذى يظهر من تلك الشهب فانما يكون من سرعتها واحتكاكها بمادة الجو كما يقدح الزناد وهى أكثر سقوطا فى ليال معلومة فهى تزيد فى ١٠ اغسطس و١٣ نوفبر وتقل فى ٢٠ ابريل و ٢٧ نوفبر و ١٨ و ٢٠ اكتوبر و ٦ و ٩ و ١٣ ديسمبر ويقال ان عدد الشهب التى نراها بالعين المجردة والمقارب المتوسطة مما يخترق جونا كل عام يبلغ نحو ١٥٠٠٠٠٠٠ وآلاف آلاف منها تصيب أرضنا وتبق عليها

(الكرات النارية)

هى أيضا أجسام مضيئة تظهر وتختفى بسرعة كالشهب ولكنها أبطأ منها وتمزق غالبا بالقرب من الأرض فتحدث فرقعة وقد يكون منها اهتزازات وما يقع منها على الأرض يسمى الحجارة الجوية ويدخل فى تركيبها الحديد والسليس والمنيزيا والنيكل وغيره وارتفاع الشهب من ٨ كيلومترا الى ٦٠ و ١٠٠ و ٢٠٠ كيلو مترا وسرعتها متغيرة كارتفاعها وقد تساوى سرعة الأرض بل تزيد عنها ويقولون ان هذه الكرات عبارة عن مادة قطعها صغيرة الجرم دائرة حول الشمس ومتى قربت الارض منها جذبت اليها بعض تلك القطع فتسقط نحو الارض وتشتعل فى الجو على هيئة شهب أو تسقط الى الأرض على هيئة حجارة جوية اهـ . فتأمل تجد الفرق بين القدماء والمحدثين ان الاولين يزعمون أن تلك المذنبات والشهب والنيازك والكرات عبارة عن بخار أرضى قابل النار فاحترق . وعلماء العصر الحاضر يقولون سلمنا بالاحتراق من الاحتكاك لامن كرة الأثير فنحن لانقربها ولكن لانسلم ان المحترق هو البخار كلا وانما المحترق اجسام وقطع صغيرة دائرة حول الشمس كما يدور سرب الحمام والقطا فى الجو فتى مرت الأرض به فى أيام معلومة اختطفت منها آلافا مؤلفة فطبختها بالحرارة فى جوها من الاحتكاك بها كاحتكاك الزناد ثم التهمتها فأكلتها وكأن هذه الاسديات المذكورة وأمثالها قطعان من البقر والغزلان تأكل منها الأرض اذا مرت بها وقد جاعت وقد تأكل فى أوقات معلومات فان للأرض كل ثلاث وثلاثين سنة مدة يقال لها الفرق بين السنين القمرية والسنين الشمسية ويكون الفرق بينهما سنة فى تلك المدة وتلك المدة بنفسها هى التى تمر فيها فى الأسديات فاذا كان مائة سنة يكون الفرق بين السنين الشمسية والقمرية ثلاث سنين فهكذا ستمر فى تلك الاسديات لتأخذ زادها للسفر ثلاث مرات فكم فى الكون من عجب وقبل ماتبلعه تصلحه بالنار فى جوها كما نفعل نحن فى طعامنا وأقول لقد اطلعت على بعض تلك الأحجار التى حفظت فى المتاحف المصرية والله أعلم

(توضيح الفرق بين المحدثين والقدماء فوق ماتقدم)

فانظر أيها العاقل للعقول الانسانية قديما وحديثا فالقدماء لما اعتبروا الارض مركز العالم والسماء لا كسر فيها جعلوا ذوات الذنب والسهام والكرات النارية من الأرض . والمتأخرون قالوا كلا انما هى أجرام دائرات حول الشمس تنزل اليها وترى فوق سطحها والجميع عرفوا أنها تارة تكون سهاما وتارة تكون كرات وان نورها فى الجو وحرارتها بالحركة والسرعة عند المتأخرين وان النار أحرقت الدخان عند المتقدمين وكل من الأولين والآخرين يسمون حكماء لانهم عرفوا الحقائق على مقدار الطاقة البشرية انتهى علم الآثار العلوية . انتهى ما أردته من كتابى بهجة العلوم

هاهى ذه أيها الذكى آراء القدماء وآراء المحدثين فى الشهب والنيازك التى ذكرنا معها المذنبات تتميا للبحث العلمى ، وقد علمت أن الشهب تبلغ نحو (١٥٠) مليونا فى السنة حول أرضنا كما ان المذنبات تبلغ عدد سمك البحر ، فينتج من هذا كله أن جو الأرض مملوء من تلك الشهب ومن ذوات الأذناب ونحن لانرى منها إلا القليل ، فهل هذه الشهب التى تخترق أرضنا وهى تجرى حولها ليلا ونهارا هى التى تحرق الشياطين وتمنعها من صعود السماء

أقول : اعلم أن الشياطين ﴿ نوعان ﴾ شياطين الانس وشياطين الجنّ ، أما شياطين الانس فهم النفوس المحجوبة التى تعيش فى أبدانها فى هذه الأرض من بنى آدم فهؤلاء الآن شياطين بالقوّة فاذا ماتوا صاروا كهيئة الشياطين بالفعل ، ألم تر الى قوله تعالى ـ فكبكبوا فيها هم والغاوون * وجنود ابليس أجمعون ـ إذن هم أصحاب واخوان وأصدقاء وكل ما أوتوا من زينة الحياة الدنيا من مال وولد ونعمة إن هى إلا عذاب لهم كما قال تعالى ـ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ـ

والانسان لايستطيع الحياة إلا مع من هم على شاكلته فالعالم لايعيش عيشا يناسبه إلا فى هيئة علمية واللص يفرح باللصوص وهؤلاء لايعيشون فى جوّ مكهرب بالعلم والمطر ينزل من السحاب ويجرى فى الأنهار ولكنه سرعان ما يكر راجعا الى موطنه الأصلى وهو البحر الذى استخرجه ضوء الشمس منه فارتفع فصار سحابا هكذا المفكرون فى العجائب فى هذه الدار المحبون للحكمة يرجعون الى مقرّهم عند ربهم لأنهم دائما يحنون الى ذلك المقام . وشياطين الانس الذين يعيشون فى الأرض الآن لم يحجبهم عن الحقائق العلمية إلا أدران الذنوب والشهوات كما أن الأنبياء صفت نفوسهم فاطلعوا والحكماء فكروا فعرفوا معرفة أقلّ فصاروا خلفاءهم . وللنفوس المحجوبة الشيطانية الاشارة بقوله تعالى ـ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم انهم لصالوا الجحيم * ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون ـ وللنفوس الفاضلة الاشارة بالآية بعدها ـ كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين وما أدراك ما عليون ـ إذن النفوس الشيطانية من بنى آدم لها شهوات وأهواء ومعاص ونزوات منعتها من الاطلاع على الحقائق . ومن ذلك أسرافها فى المآكل والمشارب وتفننها فى طهى الطعام الذى يلذ طعمه ويقلّ خيره وهل خيره إلا مادّة الحياة المسماة بالفيتامين المتقدم كثيرا فى هذا التفسير والذى سيأتى الكلام عليه فى ﴿ سورة ص ﴾ عند آية ـ فبعزّتك لأغوينهم أجمعين ـ فالتفانى فى التوابل وفى الطبخ بالنار التى هى القاتلة لمادّة الحياة فى الطعام كما أظهره الكشف حديثا والتباعد عن الفطرة من تعاطى الطعام وهو غير مطبوخ من كل ما يمكن أكله بلا طبخ فأصبح ذلك طبيعة للناس عالقة بهم لايجدون عنها محيصا كما لايجد السكير محيصا عن السكر وهو يعلم انه نار تلظى عليه . كل ذلك مورث للأمراض وضعف الصحة ومانع عن فهم الحقائق

فلننظر إذن الى بيت القصيد وهى النفوس الشيطانية التى فارقت الأجساد من بنى آدم وقلنا انهم هم اخوان الشياطين لأن القبيلين من واد واحد ، ولأذكرك أيها الذكى بما تقدم فى سور كثيرة مما نقلته عن علماء الأرواح أوّلا وعن الشيخ الدباغ والخوّاص وأمثالهما سابقا ، وتجد بعضه فى ﴿ سورة التوبة ﴾ فانك تجد هناك أن الأرواح فى البرزخ قبل يوم القيامة لاتكون فى الجنة الحقيقية ولا فى النار الحقيقية ، فالجنة والنار الحقيقيتان تكونان يوم القيامة ، ألم تر أن الله يقول ـ النار يعرضون عليها غدوّا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب ـ الخ فهؤلاء هم واخوانهم الشياطين يكونون فى الجوّ لايرتقون الى الملأ الأعلى ، وهذا الجوّ مملوء بهذه الشهب وهذه الشهب كثيرة الحركات فيه وكثرة الحركات فيه تجعله ميدانا لانشغال النفوس واضطراب الأفئدة ، إذن كما اننا نعيش فى أرض قد ملئت بالحرب والحرارة والبرودة والأمراض

وهكذا وذلك كله يشغل الأذهان عن الوصول للحقائق إلا قليلا من الأكابر هكذا الشياطين واخوانهم من أرواح بنى آدم الشريرة يعيشون فى جو مملوء من الاضطراب والزلزلة المانعين من صفاء الأذهان الموصل للاطلاع على الحقائق ، إذن فى الجو أوصاب واضطراب يمنع سكانه من معرفة الحقائق كما فى الأرض ، وعلى هذا يكون قوله تعالى - ويقذفون من كل جانب * دحورا ولهم عذاب واصب - جاء على حقيقته ، فكما أن المجرمين من بنى آدم الساكنين معنا فى الأرض قد أضاعوا حياتهم فى الشهوات واللذات والحروب والضرب والقتال وهم عن معرفة الحقائق بهذه الأعمال محجوبون هكذا المجرمون من الأرواح الانسانية واخوانهم شياطين الجن الذين ضعفت نفوسهم فلم يجاوزوا جو أرضنا - لهم عذاب واصب - بغموم نحن نجهلها وهموم ومنها أخلاقهم التى اكتسبها بعضهم فى الأرض ولم يظهر لنا من ذلك العذاب إلا تلك الحجارة النارية التى تجعل جوهم خاليا من الصفاء كما نرى الناس يقتتلون فى الميادين ونفوسهم مشغولة بالمدافع والنيران التى تقذف منها على المتحاربين ، وكما أن المدافع والغازات الخانقة والمعمية تنزل على المتحاربين بأيدى غيرهم هكذا هذه الشهب تسقط فى الأجواء بأيدى الملائكة المذكورين قبل ذلك الموصوفين بالزاجرات زجرا ، فهم كما يزجرون السحاب و يزجرون العالم العلوى والسفلى ليكون خاضعا لأمر الله وحكمه . هكذا يزجرون بتلك الشهب تلك الأرواح عذابا لها لتحجبها عن الاطلاع على الحقائق كما حجبت نفوس كثير من أهل الأرض عنها لأنها ليست أهلا لذلك والله يقول - ورحمتى وسعت كل شئ - وهذه الأرواح المحجوبة منعت معرفة الحقائق رحمة من الله بها لأنها لم تستعد لها ولو عرفت لهلكت ، فالمنع الذى هو عذاب لهم قد صاحبته رحمة حقيقية لأن العالم كله خلقه وهو أرحم الراحمين والحمد لله رب العالمين والى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية فى قوله تعالى - إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب - الى قوله - شهاب ثاقب - انتهى صباح يوم الخميس (١٤) أغسطس سنة ١٩٣٠

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(فى قوله تعالى - احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم * وقفوهم انهم مسؤلون -)

أيها المسلمون : ظهر الحق واستبان السبيل . الناس طائفتان : طائفة جاهلة وأخرى عالمة . فالجاهلة تعيش وتموت كما يعيش و يموت الدود ولو كانت من قارئى الديانات والعلوم وهم فى غفلة معرضون . أما الطائفة العالمة فهى التى أدركت اليوم قبل يوم القيامة ادراكا يقينيا أن هذه العوالم كلها تجرى على نظام ثابت من حيث المناسبات فكما اننا نرى الطيور فى الجو والأنعام على الأرض والسمك فى البحر بحيث لا يقدر أحدها أن يعيش فى غير مكانه المعدّ له . وأيضا كل طائفة من الانسان والأنعام والطير لا يحب أحدها أن تعيش إلا مع أمثاله وهو غريب بعيد عن غير نوعه . هذا أمر واضح . فهكذا سنكون بعد الموت فأصحاب الجحيم هم هنا الآن مجتمعون معا كما سيجتمعون معا هناك . وسترى الحكام الظالمين لا يحبون إلا أمثالهم واللصوص وأرباب الكبائر جميعا يألف بعضهم بعضا فالدنيا والآخرة على وتيرة واحدة

أيها المسلمون : العالم مقبل على أيام انقلاب عظيم وسوف يختلطون بالأمم عاجلا أو آجلا . والأمم المعاصرة لنا كلهم أوجلهم اخوان أوأصحاب المسيح الدجال لأن المسيح على قسمين : مسيح صادق وهو المسيح ابن مريم وأتباعه القدماء الصالحون . ومسيح دجال كاذب يظهر الصلاح وليس بصالح وهذا هو المسيح الدجال الوارد فى الشريعة وقد ظهر أعوانه فى الأمم المعاصرة لنا . إن المسيح الدجال الذى ورد فى الحديث يظهر أنه يسعدنا بما يشبه الجنة ويهددنا بما يظهر لنا انه جهنم . فاذا دخلنا ناره أصبحنا فى نعيم و بالعكس اذا دخلنا

جنته

جنته . الله أكبر : أليس هذا حاصلا فعلا حقا وصدقا . ألم تدخل أوروبا بلاد الشرق لارتقائنا ثم هي تملأ بلادنا بالخمر وأنواع المخترات . فوا أسفاه على بلادى المصرية . واحسرتاه على عقول ونفوس ذلت وهلكت

تقدم فى هـذا التفسير أنى نقلت عن (هنرى الفرنسى) انه قال : « إن الخرائى يستعملها المستعمرون فى إهلاك الشعوب لم تؤثر فى بلاد الجزائر » ولكن أنا أقول متحسرا متأسفا : « لقد نال المستعمرون ما أرادوا ودخل مسيحيوهم الدجالون بلادنا وتحكموا على العقول وملؤا البلاد بالمخدرات والمسكرات والسموم المهلكات فانظر ماجاء فى مجلة « الدنيا المصورة » تحت العنوان الآتى وهذا نصه » :

﴿ عيد السموم البيضاء ﴾

﴿ أولئك الذين اشتروا الموت بالشرف والكرامة ﴾

﴿ حركة جديدة مباركة لمحاربة هذه السموم من مكتب مكافحة المخدرات بحكمدارية القاهرة ﴾

اذادهم البلاد عدو غادر ينهب الأرواح و يدمر الأملاك و يعيث فى الأرض فسادا فان الواجب يقضى على جميع أبناء البلد الواحد بأن يتآزروا و يتضامنوا لدفع أذى هذا العدو السفاح وصون البلد من شره وويله . وقد ينكب العالم بالحروب . وبالمجاعات . وبالاوبئة . ولكنه لم ينكب من قبل بمثل نكبة المخدرات التى تفترس الأرواح قبل الأجسام وتقضى على الاخلاق والعزائم وتجعل من بنى الانسان الذين خلقوا للعمل والجهاد جثثا بالية وحطاما فانيا . وقد نكبت مصر كما نكبت البلدان الأخرى بهذا الداء الو بيـل الذى نفث سمومه بين طبقات فيها العمال وفتك فتكا ذريعا وكان من حسن حظ مصر أن آلى حضرة صاحب السعادة حكمدار بوليس القاهرة أن يحارب هذا الداء الفتاك محاربة قاسية لاتعرف الشفقة والرحمة . وقد ظهرت نتيجة هذه الجهود وأثمرت ثمرا حسنا و بعد أن كانت الوسيلة التى اتبعتها الحكمدارية هى وسيلة القمع والتهديد . والحكم بالسجن الطويل والغرامات الفادحة على تجار هـذه السموم ومدمنيها عمـدت الى وسائل الوعظ والارشاد والترغيب وكثيرا ما أفلحت الوعود حيث لايفلح الوعيد . ولهذه المخدرات أحياء خاصة تنتشر فيها كما ينتشر اللهب فى الهشيم اليابس . ومن هذه الاحياء المنكوبة حى الترعة البولاقية . طوفة واحدة فى ذلك الحى تبين لك أهوال هذه السموم وفتكها الذريع بالنفوس . فاذا جلت بين الدور الحقيرة والازقة والحارات خيل اليك أنك تجول فى مقبرة لفظت أمواتها فخرجوا أشباحا مجردين من اللحم والدم يهيمون فى الطرقات وهم عظام نخرة تكسوها طبقة من الجلد الداكن الذى فقد رونق الحياة ونضرة الصحة . يفيض هذا الحى بأولئك العمال البائسين وأكثرهم من الصعايدة ، ومن الطبقة السفلى الذين أدمنوا تعاطى هذه المخدرات فأصبحوا لايعيشون الا لأجلها فلا يهمهم أن يأكلوا أو يشربوا أو يلبسوا . وانما كل همهم أن يحصلوا على مايشبع فيهم تلك الشهوة المفترسة . شهوة شم السموم وحقنها . ولم تكن الحكمدارية تجهل مصائب هذا الحى . بل كانت تطارد كل حين متجرا على تجاره تقودهم الى أعماق السجون و بحث دقيق بين ساكنيه يؤدى بمن يضبط معه شئ من هذه السموم الى الحبس . ولكن ماحيلة البوليس فى شخص تراه مهلهل الثياب زائغ البصر محطم الأعصاب مطروحا على الارض لايقوى على الحراك وان قوى فانما يسعى للحصول على دراهم قليلة يشترى بها شيئا من الكوكايين أو الهروين يسمم به جسده البالى . ماحيلة البوليس فيه وهو لايحمل معه من المخدرات مايجعله طريدة السجن ؟ لذلك قامت قوة من رجال البوليس فى الصباح المبكر من يوم الاربعاء الماضى وطافت فى ذلك الحى المنكوب . وراح أفرادها يتصيدون تلك الجثث المتحركة من الأزقة والشوارع والحوانيت . ولم يكن البوليس فى حاجة الى من يرشده الى مدمنى تلك السموم فان لهم طابعا خاصا . طابع البؤس والجوع والقذارة والجنون ! . ولم تمض ساعات قليلة حتى جمع البوليس حول ٢٥٠ شخصا من المدمنين الذين

ثم مظاهرهم عليهم ثم حملهم فى السيارات الكبيرة الى دار المحافظة وجلس ذلك الجيش الجرار فى فناء المحافظة وهم لا يكادون يفقهون ماحولهم. وكان مشهدا مفزعا هو عبرة المعتبرين. وهو الدرس البليغ لمن تحدثه نفسه بأن يقضى على نفسه وعلى روحه وعلى كرامته هذا القضاء الشنيع. وراح رجال البوليس يحققون أمرهم. واتضح أن الكثيرين منهم سجنوا مرارا لاحرازهم المخدرات ثم أفرج عنهم بعد أن انتهت مدة سجنهم فلم يروعهم السجن بل عادوا الى شر ما كانوا عليه. وبينهم شبان فى مقتبل الحياة وقد اضمحلت قواهم العقلية وظهرت عليهم دلائل البله والجنون وخارت قواهم الجسمانية فكأنهم فى دور الاحتضار. واشتد بهم البؤس حتى لم يجدوا مايسترون به أجسادهم الناحلة الا خرقا بالية واسمالا مهلهلة. وطاف بهم سعادة الحكمدار وضباط الحكمدارية وسار بينهم جناب الميرالاى بيكر بك يسوق اليهم النصح ويذكرهم بأولادهم الجائعين وعائلاتهم المنكوبة وكرامتهم الضائعة وهم جمود ذاهلون. ولاشك فى أن أولئك المنكوبين مجموعة آلام وأحزان وشقاء فان لكل منهم قصة كاملة ملؤها الفواجع والنكبات. ويكفى أن نروى هنا قصص بعضهم حتى يدرك القارئ مقدار ما تصنع تلك المخدرات بضحاياها. فهذا عامل كان يشتغل نجارا وله زوجة وابنتان. ابتلى بداء المخدرات فما لبث أن طرد من عمله. ولم يجد وسيلة للحصول على ثمن السم الا بيبع أثاث منزله. وحاولت زوجته أن تردعه فلم يرتدع ولم يعد لديه مايصلح للبيع فراح يأمر زوجته بأن تشتغل حتى تأتيه بالمال الذى لم يعد فى وسعه الحصول عليه بعد أن خدت قواه. ولكن الزوجة كانت عاجزة عن العمل. وأرهقها الزوج التعس بطلب المال وبلغت به الخسة أن عرض عليها أن تتاجر بعرضها الذى هو عرضه. فذهبت غاضبة الى منزل أحد جيرانها حيث لم يكن لها أهل فى القاهرة. وأما البنتان فقد سعى الأب حتى استطاع أن يرسل كلا منهما خادمة فى منزل ويحصل لنفسه على أجرة خدمتهما. وبعد شهور قليلة فرت احدى البنتين واختفت آثارها. ولو كان فى الأب بقية من قوة تساعده على البحث لعثر عليها فى دور الفجور. وغيره شيخ كبير لم يجد وسيلة للحصول على المال ليسمم جسده الا بالسرقة فسرق وسجن. وخرج من السجن فلم يجد أثرا لابنته التى كانت تعوله وقد جرفتها الأقدار القاسية فى سبيلها. وهذا كان «افنديا». وكان موظفا. ثم ابتلى بهذا الداء وكان يحسبه فى أول الأمر لهوا بسيطا. ومالبث ذلك اللهو أن أصبح شغلا شاغلا. وطرد من وظيفته بعد أن انقطع عن أداء عمله وطلقت منه زوجته ورحلت الى أهلها. وانتقل من الشقة التى كان يسكنها إلى مندرة حقيرة فى حى بولاق. وعاش عالة على تجار المخدرات يوزع لهم بضائعهم المسمومة مقابل أن يمنحوه شيئا يشبع به شهوة شمه وباع ثيابه وسار فى الطرقات عارى الرأس حافى القدمين. ثم ضبطه البوليس فسجن. وقضى فى السجن شهورا وخرج منه وليس فى العالم بأسره من يهتم بأمره. فكان يرقد ليلة تحت الجدران فى الازقة المظلمة ويسعى نهاره للحصول على قروش معدودة بأية وسيلة. فكانت الوسيلة التى هداه اليها البحث أن يرشد طلاب اللهو الى منازل الدعارة السرية؟ أولئك هم عبيد السموم البيضاء الذين اشتروا الموت بالشرف والكرامة. وسترى فى الرسم الآتى فى الصفحة التالية (شكل ١) صورة طائفة كبيرة من المصريين المدمنين على تعاطى الكوكايين



(شكل ١) - أخذت هذه الصورة للمدمنين على الكوكايين - وكان عددهم ٢٥٠ نفسا - فى حوش المحافظة ويرى بجوارهم العساكر

وجاء فى جريدة الأهرام فى يوم الثلاثاء الموافق ٢٨ يناير سنة ١٩٣٠ مانصه

« بيان رسل باشا فى لجنة الافيون »

(صراحة رسل باشا ووقع بيانه)

جنيف فى ٢٧ يناير - افتتح اللواء رسل باشا فى لجنة الافيون المناقشة فى منع الاتجار بالمخدرات فبسط الحالة فى مصر بسطا مقرونا بالصراحة والشجاعة ، وكان لكلامه عن انشاء هذه الآفة وعن العمل السيء الذى يقوم به أصحاب مصانع المخدرات الاوربية رقع عظيم فى النفوس . وقد قال ان هذه التجارة كانت قبل الحرب الكبرى مقتصرة على الحشيش السورى والافيون السودانى وكانت اضرارهما محصورة فى دائرة ضيقة فبعد الحرب قامت تجارة الكوكايين وتلتها تجارة الهروين وجنى المهربون منهما أرباحا طائلة . وقد انتشر استعمال هذه المخدرات فتناولها جميع الطبقات حتى الفلاحين وانتشرت بين الشبان على الخصوص وأصبح الادمان على هذه السموم يشمل أكثر من نصف مليون نفس من مجموع السكان الذى يبلغ أربعة عشر مليونا . ووصف رسل باشا بعبارات مؤثرة فعل هذه الآفة وانتشار عدواها بين سكان هم من أصح الناس بنية وأعظمهم نشاطا وقال هل من العدل أن تصب اوربا اطنانا من السموم على مصر وناشد جميع البلدان التى تصنع المخدرات أن تعاون فى منع هذه الآفة التى تعمل لجنة عصبة الأمم بعزم صادق فى سبيل القضاء عليها وتكلم بعبارة بليغة عن وجود التضامن الدولى فى هذا الكفاح وعن ان عمل اوروبا يجب أن يكون مقرونا بشعورها بالتبعة والمسئولية . ثم كشف بصراحة وشجاعة النقاب الذى يلقيه بعض ضروب الاعمال البرلمانية والادارية على أعمال القائمين بهذه التجارة فى كثير من الاحيان وهكذا قدم رسل باشا للجنة الافيون مثلا حسنا فى استقلال الرأى والحزم والصراحة وذكر الأعمال السيئة التى قامت بها عصابات مركزها فى سويسرا وعمل بعض المصانع الألمانية والفرنسية . واستشهد بقضية مولر فى بال وهى لاتزال لدى القضاء وأشار الى الفروع المنتشرة فى ايطاليا وفرنسا وألمانيا واليونان وتركيا وقال ان أساليب أصحاب هذه الصناعة ومصدرى موادها قد اكتشفت فى أكثر الأحيان بفضل يقظة رجال السلطة فى مصر . وأثنى على ماأبداه رجال السلطة الفرنسية . والسلطة السويسرية من المعاونة فرد عليه المسيو بورجو مندوب فرنسا قائلا ان الحكومة الفرنسية مصممة على متابعة

هذه المعاونة لمنع هذه الآفة وأكد المسيو كاربير مندوب سويسرا معاونة الحكومة السويسرية وأشار الى تلافى النقص الذى كان فى التشريع السويسرى ووقع بسببه ماأشار اليه رسل باشا فى بيانه وهنأ رسل باشا عما أبداه من النشاط والخدم . وقد أشار رسل باشا الى التحقيقات القضائية الجارية وستعود اللجنة الى المناقشة فى جلسة خاصة و بفضل ماأبداه رسل باشا من الحزم سيفضى الأمر باللجنة الى طلب ايضاحات من بعض الحكومات عن عمل بعض المعامل الكبيرة التى تصنع العقاقير وهكذا عادت الى بساط البحث مسألة تحديد صنع المخدرات التى كانت اللجنة تتجنب البحث فيها من قبل

﴿ الافشاءات الخطيرة فى تقرير رسل باشا ﴾

﴿ أقوال جريدة منشستر جارديان ﴾

لندن فى ٢٧ يناير — نشرت جريدة منشستر جارديان اليوم رسالة لمكاتبها من جنيف ضمنها نتيجة مقابلته اللواء رسل باشا وقد قال عنه أنه صرح له بحقيقة راهنة وهى أن الافشاآت التى بدت فى تقريره تتفرع منها حقيقتان هما بمثابة تحد للبلدين المختصين وتستفزان رفع الدعوى وقد قال رسل باشا بنفسه انه قد يكون فى السجن يوم الاثنين عند مايمثل امام اللجنة ويقدم ادعاءين كل منهما بمثابة تحد فيما يتعلق بشؤون معمل موطماوس وكيماوى بزوريخ . اذ يتبين من تقرير رسل باشا أن معمل موطماوس استحضر وصدر الى الخارج سنة ١٩٢٨ من الهروين ٤٣٤٩ كيلو جراما وهذا يساوى أكثر من ضعفى مايلزم للعالم كله من هذه المادة للمقتضيات الطبية والعلمية ويربى على مجموع ماأصدرته فرنسا من هذا الصنف كما ورد فى التقرير الفرنسوى عن سنة ١٩٢٨

اما فيما يتعلق بكيماوى زوريخ فقد علم رسل باشا من المسيو كاربير أن القانون السويسرى سيعدل بهذا الشأن ويبقى علينا أن نرى ماذا يقول مندوب فرنسا المسيو بورجوا عن معمل موطماوس . فالمسيو روزيت رئيس مكتب المواد المخدرة الذى انشئ حديثا فى فرنسا وصل أخيرا الى جنيف لمساعدة المسيو بورجوا . ويقول رسل باشا أن أرقامه مأخوذة من دفاتر معامل موطماوس بمعرفة أحد رجال البوليس المصرى الذى كان يعمل بمعاونة أرباب السلطة فى موطماوس

لندن فى ٢٧ يناير — أنشأت جريدة منشستر جارديان اليوم مقالا افتتاحيا قالت فيه : نعم ان مطالعة تقرير رسل باشا تحزن ولكنها تثير العواطف وتستدعى الاهتمام . فقد استطاع رسل باشا وزملاؤه أن يكشفوا عن خطوط مواصلات خفية تربط بين كبار تجار المواد المخدرة فى الاسكندرية ولندن ومصانع هذه المواد فى اوربا الوسطى . وقد وجهت الآن العناية الى محاربة المصانع الكيمائية التى تنتج من هذه المواد أكثر مما يجب اذ لافائدة من الاقتصار على مقاومة الموزعين والتجار وترك المصانع وشأنها مادام مصنع واحد فى الالزاس يمكنه أن يستحضر من الهروين فى كل عام أكثر من ضعفى مايلزم العالم منه للاغراض المشروعة فقد يتسنى لتجار المخدرات أرباب الأموال الطائلة أن يشتروا كل ماينتجه ذلك المصنع وفى تقرير رسل باشا معلومات مختصرة وافية للجنة عصبة الأمم للنظر فى خطط فعالة لتحديد منتجات المعامل من هذه المواد طبقا للمقتضيات الطبية ولكن مادام العالم يزيد من زرع القنب وشجر الكوكا أكثر مما تطلبه الحاجات الطبية لابد أن يستمر صنع المواد المخدرة وتجارتها المحرمة . ثم أن تدخين الأفيون واكله فى الشرق الأقصى يجعل الآن تحديد محصوله تحديدا دقيقا غير ممكن عمليا ولكن ربما تسنى ذلك فى المستقبل اه

« تذكرة »

(فى صباح يوم الخميس ١٧ يوليو سنة ١٩٣٠)

تأمل أيها الذكى هذه الصورة واعجب لآيتنا التى نحن بصددها ـ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ـ الخ واذكر قوله تعالى ـ فكبكبوا فيها هم والغاوون * وجنود ابليس أجمعون ـ وقوله تعالى ـ لأملأنّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ـ

أتدرى ما سبب هذا كله ؟ سببه الجهل ، لولا الجهل ما تعاطى هؤلاء المخدّرات القاتلات ، وما هؤلاء المرسومون المساكين الذين أغراهم زبانية جهنم من الاوروبيين الذين يسعون لاهلاك الشرقيين احتقارا لعقولهم واستصغارا لشأنهم وقياما بحق الاهلاك الذى سنته شرائعهم التى اتفقوا فيما بينهم عليها منذ أيام الحروب الصليبية ومن قبل ذلك فى الحروب الأندلسية ، ذلك أنهم رأوا فى أمة العرب قوّة شكيمة فهرعوا الى الخديعة والغدر وأجمعوا أمرهم بينهم أن لايحاربوهم إلا بالعادات وادخال الغفلات عليهم ، وعاهدوهم على أن يكون التعليم حرا والتجارة كذلك ، هنالك قام رجل يقال له (ابن مصعب) فنادى فى قومه قائلا : « أيها القوم : سيأتى يوم ينسى أبناء العرب مجد آبائهم بما يقرؤن فى كتب الاوروبيين ويتنعمون وينغمسون فى الشهوات ويسرفون فى المآكل والمشارب ويحقرون دينهم ثم يتفرّقون شيعا ويذوق بعضهم بأس بعض . فقالوا : أنت رجل قصير النظر لاتعرف فى السياسة شيأ »

هنالك أقاموا الأفراح شهرين بعد هذه المعاهدة ورئيس الأمراء يومئذ (ابن عباد) ولبعض الملوك الاسلاميين جيوش نعال خيلهم من ذهب ، ولقد صدقت فراسة (ابن مصعب) وحقّ القول على المسلمين فى الجزيرة (اقرأ هذا الموضوع فى غادة الأندلس) وصار الشاب يلبس الحرير ويتختم بالذهب واستدانوا من الفرنجة بالربا وشربوا الخمرنهارا جهارا وذموا العرب وأخلاق العرب وتاريخ العرب وعكفوا على الشعر وتركوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلقوا غيا

هنالك ذهبت الحمية وافترقوا شيعا وذاق بعضهم بأس بعض وتفرّقوا عشرين دولة وهم صاغرون ، ثم هلكوا ومن بقى منهم تنصر ومنهم من غرق ومنهم من طرد الى فرنسا ومنهم من سار الى بلاد مراكش وما والاها ولله الأمر من قبل ومن بعد

وهذه النظرية التى فعلوها فى الأندلس هاهم أولاء يفعلونها فى بلاد الاسلام الآن ، فانظر كيف ضحكوا على أذقاننا وأدخلوا السم بلادنا جريا على أخلاق المسيح الدجال . دخلوا متظاهرين باسم رقينا واسعادنا ودسوا السم فى الدسم . فأما المتعلمون منا فعلومهم قشور وفضلات ، والدليل على ذلك انهم لايعرفون من علومهم إلا أن ينطقوا بالفرنسية مثلا أو الانجليزية . ويظنّ أكثرهم أنهم بسبب هاتين اللغتين أو بعض العلوم الأدبية قد ألموا بعلوم الغربيين وجهلوا انهم أصبحوا مغمورين فى مخازى سفهائهم وشرور جهالهم واندمجوا فى همجاتهم فطاحت القومية وضاعت لتفرّق الأهواء وتخاذل سفهاء الرؤساء سعيا وراء الشهوات التى اتبعوها باغراء القوم وازدراء للاوطان والأديان الشرقية تقليدا لأولئك الاوروبيين فهم لايلبسون إلا من مصانعهم ولايغازلون إلا نساءهم ولاينامون إلا فى فنادقهم ولايتعاطون مشروبا ولا مأكولا إلا من أيدى خادمى فنادقهم والمنازل المعدّة للشراب والطعام . فما أشبه الليلة بالبارحة

لقد ذكرت فى الأجزاء السابقة قصة ذلك الراهب الاسبانى فى قرطبة الذى اشترى عنب قرطبة كلها وعصره وقال أنا لا أعطيه إلا لأبنائى وأحبائى تلاميذ المدارس المسلمين وهذه أربعمائة سنة والغفلة مستحكمة ولم يظهر فى أمم الاسلام عقول راجحة تفهم العامة ماحاق بهم من الذل والهوان والجهالة وانى لم أجد رجلا فى

الشرق استيقظ لذلك إلا نابغة الهند وهو غاندى فانه حرم الملابس الفرنجية والخمر وكان الأجدر بهذا أمم الاسلام
إذن ليس هؤلاء المرسومون فى الصورة المتقدمة المخدّرين وحدهم . كلا . فأمم الاسلام اليوم فى بلادنا مخدّرة لأن التخدير على قسمين : تخدير ظاهر وهو ما رأيت ، وتخدير باطن وهو تخدير المتعلمين والأغنياء وأرباب الجاه ، أولئك الذين يعيشون ويموتون ولاهم يذكرون فلا يعقلون ما يراد بهم ، إن جميع أنواع التجارة الاوروبية من باب التخدير ، يجب أن يجدّ أهل الشرق فى المصانع والمعامل والمناسج والمزارع والتجارة حتى يصارعوا أهل الغرب فى كل فرع من فروع الحياة والا فهم مخدّرون وصدق فيهم قوله تعالى ـ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ـ وحشرهم فى الآخرة قد ظهرت بوادره فى الدنيا بأمثال هذه الصورة وباشتراك سكان شمال افريقيا من مصر الى مراكش وسكان بعض الشرق الأدنى من أهل الشام والعراق والموصل فى الاستعباد للأمم الاوروبية لغفلة العلماء والأمراء السابقين بسبب استحكام الجهالة ، فلئن رأينا المرسومين فى هذه الصورة السابقة مسوقين الى المحاكمة عند الحكومة المصرية ليزجوهم فى السجون لترين هذه الأمم العربية فى شمال افريقيا وغرب آسيا مسوقين لسجن الاحتلال والاستعباد واذلال أهل أوروبا يرسفون فى القيود وهم لا يعلمون

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ✲ ونام عنها تولى رعيها الأسد

اللهم إن هذه هى نفسها صفة المسيح الدجال ، إذن المسيح الدجال المذكور فى الأحاديث الآتى فى آخر الزمان له أمثال وأشباه وهؤلاء المسيحيون الدجالون يطلق عليهم المسيح الدجال من باب الكناية لأن الكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه فليس المسيح الدجال الذى فى الأحاديث على معناه الظاهرى ولكن المقصود هنا فى زماننا هو المعنى الكنائى كما ذكره الامام الغزالى فى حديث «إن الملائكة لاتدخل بيتا فيه كلب ولا صورة» فقال هذا الحديث باق على معناه وهذا لايمنع من المعنى الكنائى وهو ان الذين امتلأت قلوبهم بالشهوات المرموز لها بالصورة أو بالقوة الغضبية المرموز لها بالكلب لاتتصل الملائكة بقلوبهم فهم أبعد الناس عن العلم فهكذا هنا فليبق الدجال على معناه الظاهرى ولكنه يرمز الى مانحن فيه الآن ، إن المسلمين اليوم دخل عليهم هؤلاء المسيحيون الدجالون فأعموهم عن الحقائق وصاروا جهالا فغمسوهم فى الشهوات واللذات والجهالات فماتت النفوس ، بل أكثر هذا النوع الانسانى اليوم مخدّر مخمور كهؤلاء الذين فى هذه الصورة فهم يأكلون ولا يعقلون كيف يأكلون ، انظر الى ماتقدم فى سورة طه وسورة الشعراء وأول سورة الحجر وفى سورة البقرة عند آية ـ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ـ ففى تلك المواضع وضح مايقوله الأطباء فى زماننا فى الذى يجب أن نأكله وفى أنواع المداواة ، ثم انظر الى ما يأتى فى ﴿سورة ص﴾ عند آية ـ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ـ وكيف تسمع أفلاطون حاكيا عن سقراط فى الجمهورية وهو يخاطب غلوكون إذ يذم أبناء الجمهورية الذين يعيشون عيشة الترف وأن ذلك مضعف للأجسام مضيع للعقول ، وكيف تدهش حين تسمع منه هذا الأمر العجيب الغريب وهو أن هناك علاقة تامة وصلة ثابتة بين القضاة والأطباء وبين المآكل والمغانى ، وأن الناس كلما أكثروا من ألوان الطعام ولم يكتفوا بالبسائط من الأطعمة كثرت عندهم الأمراض فاحتاجوا الى الأطباء ، وأن المغانى وان كانت ملطفات لأمزجة الجيوش الذين يزاولون الأعمال الرياضية (بالجناستك) لايجوز التفنن فيها لأن ذلك يورث الفسوق والعصيان وذلك من موجبات الوقوف أمام القضاة فوجب أن تكون المغانى بسيطة وكذلك آلات الطرب وكذلك المآكل ، وعار على أبناء الجمهورية أن يحتاجوا الى الأطباء إلا نادرا ولا الى القضاء إلا فى أمور خاصة ، وأخذ يحقر من يفتخر بأنه قد غلب خصومه بالحجة أمام القضاة قائلا : «إن الحياة السهلة التى خلت من القضايا ومن المشاغبات هى الحياة التى تليق بالانسان»

إذن المخدّرون المرسومون فى الصورة لهم اخوان كثيرون لم يرسموا وهم أكثر المتعلمين نصف تعليم من الذين درسوا فى المدارس النظامية ومن الأغنياء فى ديار الاسلام ومن رجال السياسة ، فهم قد زجوا فى نارين : نار تقليد الفرنجة وشراء بضائعهم ونار الجهل فى المآكل التى توقع كثيرا منهم فى المرض مع الشهوات الأخرى كالطمع والحرص والحسد الموقعات فى المشاحنات واقامة القضايا أمام القضاة ، فلئن حشر هؤلاء المخدرون فى السجون المصرية كما سيحشرون يوم القيامة معا هكذا حشر أولئك المتعلمون والأغنياء من أبناء العرب ونحوهم فى شمال افريقيا والشرق الأدنى فى حظيرة الاستعباد كما سيحشرون يوم القيامة فى الدرجة التى كانوا عليها فى الدنيا معا

هنالك سألنى صاحبى قائلا : علام هذه الضجة كلها ، ألسنا الآن فى تفسير القرآن ؟ قلت بلى . قال : وهل هذا كله ينطبق على — احشروا الذين ظلموا وأزواجهم — الخ مع انها لم ترد إلا فى الكفار يوم القيامة وأنت صببت كلامك كله على المسلمين فى الحياة الدنيا . فأين الآية وأين ما ذكرته أنت . إن من يقرأ هذا يقول إنك أنت لك قصد تقوله فأتيت به تبع الآية والا فالآية بريئة منه . فقلت له : هو تفسير للآية حقا وصدقا ومامثلى فى هذا إلا كمثل عمر رضى الله عنه فى قصة الربيع بن زياد المذكورة فى ثنايا هذا التفسير إذ كان أميرا من أمراء البحرين تحت رئاسة أبى موسى الأشعرى إذ كتب له عمر احضر أنت ومن معك فحضروا جميعا ووكلوا بدلهم من يقوم بالحكم مدة غيابهم ، واحتال الربيع الذى هو أحد الأمراء أن يفعل مايرضى أمير المؤمنين باشارة غلام عمر المسمى (يرفأ) بأن اتخذ نعالا مطارقة أى ذات رقاع من جلد غير منتظمة ولبس أهداما بالية وأجاع بطنه يومين كاملين حتى يقدر أن يأكل طعام أمير المؤمنين الخشن وهذا الأمير ومن معه ماتعوّدوا الطعام الخشن ، فلما أن مدّت المائدة لم يكن فى الأمراء من كان أسرع اليها من الربيع لشدّة جوعه فأعجب به عمر رضى الله تعالى عنه فأخذ يحادثه دون رفاقه فسأله الربيع ياأمير المؤمنين هل لك أن تتخذ طعاما ألين من هذا فزجره عمر وقال ماذا تقول ؟ فقال لو انك أمرت أن يكون خبزك فى يوم الأكل لكان أسهل لك فقال له أعلى هذا غرت (بضم أوّله وسكون ثانيه وفتح ثالثه) أى أأنت تريد هذا ، ثم استرسل معه فقال : ياربيع لوشئت لملأت هذه الرحاب صلائق وسبائك وصنابا ولكنى سمعت الله يعير قوما إذ يقول — أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون — والمراد بالصناب كالزبيب المصنوع مع الخردل ليقوّى شهوة الطعام التى ذمّها أطباء العصر الحاضر ، والمراد بالصلائق أنواع اللحوم والسبائك ما يصنع من الدقيق الناعم الأبيض الذى استنكره أطباء زماننا ، إن هذه الآية وردت فى الكفار ولكن عقول الصحابة وآراؤهم لم تكن كعقولنا وآرائنا فهو أدرك المقصود من الآية وهو أن الذين ينهمكون فى الشهوات يعاقبون لأن الانهماك نفسه سبب للنتيجة لافرق بين مسلم وكافر فلذلك قرأ الآية ولم ينكر عليه أحد والعلماء المتأخرون يقولون فى مثل هذا انه اعتبار بما فى الآية فأنا أقول : الذين ظلموا وأشباههم يحشرون فى جهنم . فأنا إما أن أفهم كفهم عمر رضى الله عنه ويكون كل هذا داخلا فى معنى الآية وان وردت فى الكفار ، واما أن يكون ذلك أمرا راجعا للاعتبار بالآية كما يقوله علماء الاصول وكلامنا هنا كلام على تاريخى لامناقض ينقضه . نعم الجهل هو الذى ينقضه والجهل شؤم كله . فأنا إذن فسرت الآية إما تفسيرا أصليا على طريقة عمر أو تفسيرا بالاعتبار على طريق المتأخرين والحمد لله رب العالمين

***

واعلم انه لولا ضيق المقام هنا لذكرت لك أيها الذكى هنا قولا جامعا فى حبس الناس فى عاداتهم وأخلاقهم وأحوالهم لمناسبة صور أولئك المدمنين على المخدرات ولكن اقرأه فى ﴿ سورة ق ﴾ عند آية — يوم نقول

لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ـ فهناك ستسمع حديث السكير الذي ملكت الخمر فؤاده فلم يقدر على التخلص منها والحديث المبكي المذكور في الجرائد المصرية وبين الحديثين أربعون سنة والحديث الثاني حديث من وقع في المخترات المذكورة هنا وكان تلميذا في الابتدائي . فهناك وصف محزن لهذه الطائفة التي ابتليت بشم الكوكايين الذي جلبته أوروبا لنا لاهلاكنا . وهناك تبيان واسع لبيان أن هذه أمثال ساقها الله لنا واضحة تدل على ماعند هذا الانسان من العادات الموروثة والشهوات التي حصرت في أحوال خاصة منعته من الخروج منها مما يدل على أن حياتنا الدنيا في صورتها أشبه بصغرجهنم فالناس يريدون أن يخرجوا من شهواتهم ومن عاداتهم ولكنهم لايقدرون كما هي الحال في أهل جهنم والحمدلله على ماعلم وله الشكر على ما ألهم

﴿ جوهرة في قوله تعالى ـ وقفوهم انهم مسؤلون * مالكم لاتناصرون * بل هم اليوم مستسلمون ـ ﴾

جاء في الحديث أن ابن آدم لا تزول قدماه من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن شبابه فيم أبلاه ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم

اعلمي أيتها الأمم الاسلامية أن سؤال الآخرة ووقوفنا بين يدي الله تعالى له مقدمات ظاهرات في الدنيا خافيات ، فنحن في تعاطي الطعام مسؤلون وان كنا به جاهلين كما أنا مسؤلون في نظام مدنتنا وفي افاضة الخير على غيرنا وان كنا غافلين ، لاعذر للجاهلين في الدنيا ، ولوكان الجهل عذرا لم تر الذين يسرفون في طعامهم وشرابهم تنتابهم الأمراض ولاأولئك المسرفون في أموالهم ترهقهم الديون ولا الكسالى والمترفون يغشاهم الفقر ولاالذين يتعاطون المخترات في بؤس وعذاب مهين في هذه الحياة وعذابهم لزام كأنهم يشربون شرب الهيم ، ولا الأمم الشرقية التي غفلت عن العلوم والصناعات قد ملك زمامها الاوروبيون ـ وقفوهم انهم مسؤلون * مالكم لاتناصرون * بل هم اليوم مستسلمون ـ

أنتم مسؤلون عن صغيرات الامور وكبيراتها في الآخرة كما أنكم مسؤلون في الدنيا . هاأناذا في مصر بلادي أرى جهالة شائعة وأعمالا فاسدة وتقاليد ظالمة والناس بها مفتونون ، اهدموا التقاليد وأزيلوا الحجب وأميطوا الأذى من طرق الاصلاح ، أمر في شوارع القاهرة فأرى شباننا وزهرات الجيل الحاضر محشورين زمرا زمرا في مشارب القهوة يتعاطون أنواع المشروبات وهم يقرؤن علم الطب في الكتب ونظام السياسة في الجرائد ولكن أكثرهم لايعلمون

التجارة في يد الأجنبي وهو الذي يدير تلك المحال ويستنزف الثروة ويضيع شباب شباننا ويفتح لهم باب الشهوات فتقل الأمانات ولهم امتيازات وتفضل على الوطني نالوه قديما ونحن نائمون

منذ نحو (٧٠٠) سنة اجتمع أساطين الأمم المسيحية مع البابا وبارونات أوروبا ودوق فينيزيا وقالوا « لاطاقة لنا اليوم بحرب هؤلاء العرب بالأندلس فلنعاهدهم على حرية التجارة والدين والتعليم ، وهؤلاء سليموالقلوب فلندخل عليهم مانشاء من التعاليم » فاجتمعوا وعاهدوا ملوك الأندلس تحت رئاسة ابن عباد وتم ذلك والقوم كانوا عن الحقائق معرضين فأيقظهم رجل منهم يسمى ابن مصعب فقتلوا عنه مدبرين ، شربت الخمور في الأندلس ، زال البأس والشهامة والنخوة ، تباهى الشبان والشابات بالفسوق وعدوا ذلك مدنية حديثة ، عصرراهب اسباني عنب قرطبة كله خمرا حبا في أحبابه وهم تلاميذ المسلمين ، تتهقرت الأخلاق ، طاحت الأنساب ، ذلت الأعقاب ، زلت الأقدام . هلكت الجيوش ، زالت العروش ، طردوا من بقي من البلاد وهم محقورون مرذولون منبوذون ـ وقفوهم انهم مسؤلون * مالكم لاتناصرون * بل هم اليوم مستسلمون ـ

زالت الأندلس ولم يبق منها إلا الذكرى ، إن الذكرى تنفع المؤمنين وقفوهم انهم مسؤلون ، لم يعتبر

أبناء العرب بما حلّ باخوانهم ، جهلوا أصلهم ، حقت عليهم كلمة ربهم ، ساء مصيرهم . وقفوهم انهم مسؤلون
نبغت أمم ودول فى أوروبا ساروا سيراسبانيا ، دخلوا شمال افريقيا من تونس والجزائر ومراكش ومصر
والعراق والشام ، بماذا دخلوا ؟ بنفس الدرس والاسلوب الذى أسسه البابا وبارونات أوروبا ودوق فينيزيا
فتحوا لهم أبواب الشهوات ، زجوهم فى محال القهوات . استهووهم بالعادات الحسان . شغلوهم بالعادات
بغضوهم فى العبادات وفى كل ما هو شرقى . سقوهم خمرهم . وأجلسوهم فى أماكنهم . أخذوا نقودهم .
حقروا لهم دينهم وأصلهم ومآكلهم وملابسهم ومشاربهم وسير آبائهم . مقتوهم . كرهوهم — وقفوهم انهم
مسؤلون — وهم يتبرّؤن منهم ويقولون — وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين —
ذلّ المصرى والمراكشى والجزائرى والتونسى وأقفلت الطليان زوايا السنوسيين فى طرابلس وتمزّقت
وحدة السورى لأن هذه الأمم متفرّقون وأمراؤهم السابقون وعلماؤهم وصلحاؤهم لم يكونوا يتواصلون
وكل حزب بما لديهم فرحون . فذلت الأعقاب وأهينت الأنساب وحلّ البطش وتفرّق الجمع — وقفوهم انهم
مسؤلون ✲ مالكم لاتناصرون ✲ بل هم اليوم مستسلمون —
ذلّ الجمع . واتسع الصدع . وفتق الرتق . وقلّ الجند . وذهب المجد وزال الجد[1] وقل الجدّ [2] والمسلمون نائمون
— وقفوهم انهم مسؤلون —
بقيت امتيازات الأجانب فى البلاد لجهالتهم لأن تجارتهم رابحة وأعمالهم رائجة . ربطت العادات على
قلوب الشبان فهم فى تلك الأماكن يكرعون . ومن مآكلهم يتغذون . فتوطدت الامتيازات وبقى الذل
— وقفوهم انهم مسؤلون —
استيقظ بعض الأمم الشرقية كأهل الهند فنعوا الملابس الأجنبية وحاربوا الخمر لأن الأمرين بابان للفقر
وخراب الأسرة وضياع المال وبقاء الاستعمار ولكن فى بلادنا وأمثالها لاسميع ولا مجيب — وقفوهم
انهم مسؤلون —

ويَنشأ ناشئ الشبان منا ✲ على ما كان عوّده أبوه

اعتاد الناس تعاطى الدخان وتغالوا فى شرب الخمر وأتبع ذلك الشاى وغيره ومخدّرات وسموم والناس
ساهون لاهون والفرنجة هم المضلون والمسلمون مهملون — وقفوهم انهم مسؤلون —
ليحرّم علماء الاسلام أن تغشى تلك الأماكن أماكن الفرنجة التى تخالف الصحة فى هوائها الفاسد بكثرة
الأنفاس وأنواع الشراب وهكذا يتناوب الكوب الواحد فى اليوم عشرات الشاربين . ويتعاطون الدخان
والقهوة والخمر . ولقد أصدر الأطباء حكمهم على هذه لاسيما أطباء أمريكا وتقدّم نقل ذلك فى سورة البقرة
عند آية الخمر ولكن أكثر المسلمين جاهلون — وقفوهم انهم مسؤلون —
تفرّقت القلوب شيعا فى بلادنا وذاق بعضهم بأس بعض — وبأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى —
حرصا على المال وغراما بالشهوات فلك الأجنبى وذل الوطنى وعسى أن يزول ذلك قريبا — وقفوهم انهم مسؤلون —
بعض الصوفية يسيطرون على العقول وهم أنفسهم جاهلون فلا الرياضيات درسوا ولا الطبيعيات تعلموا
ولا الإلهيات فهموا — وقفوهم انهم مسؤلون —
قلت الصناعات وطاحت التجارات فى البلاد وخلت الديار وضاق الخناق وتفرّقت الأهواء وكثر
المراء وظهر الجدل واضمحل العلم والدين ولامغيث ولامعين — وقفوهم انهم مسؤلون —
ما ملك الفرنجة ولا أبقاهم فى بلادنا إلا طموح الأفراد للشهوات السافلة فى محالهم وافتتانهم بصناعاتهم
ولوأن الشعب عرف الحقيقة وتخلى عنهم لخرجوا من البلاد وهم مسرعون ولكن المسلمين ساهون لاهون

(١) بالكسر (٢) بالفتح

ـ وقفوهم انهم مسؤلون ـ

أجسام الشرقيين قوية ، وعقولهم صحيحة ، وأنسابهم رفيعة ، الدين من بلادهم ظهر ، وكل نبيّ فهو من الشرق باصطفاء الله ثابت ، عرفت أوروبا قدر الشرقيين نخافوا بأسهم ، حذروا أن يقرؤا علومهم ويعرفوا صناعاتهم فيردّوا كيدهم فى نحرهم فشغلوهم بالشهوات ، وأفشوا بينهم العداوات ، إنهم باتباعهم فرحون ، وعن تعليمهم قاصرون ، واقتصر علماء الدين نحو ألف سنة على فروع الفقه ونسوا أكثر ماذكروا به فى القرآن ونسوا آيات الله فى الأكوان فى الأرض والسموات فأقفلوا باب علوم القرآن ـ وقفوهم انهم مسؤلون ـ

اتحد الأطباء فى اليابان وأمريكا وأوروبا على تحليل الأطعمة . أيها أصلح لنوع الانسان وأيها أضرّ ؟ فأجمعوا فى هذه الأيام على أن ما أنضجته النار قليل النفع ومايتعاطى بلاطبخ ينفع الأجسام ويمنع الأمراض ويحفظ العقول ورجعوا بالناس الى آدم وحوّاء قبل الأكل من الشجرة ، ولكن المسلمين قلّ فيهم الأطباء فلم يدلوا دلوهم فى الدلاء لأن المسلمين لايعلمون ـ وقفوهم انهم مسؤلون ـ

درس الأطباء فى العالم أيضا نظام الملابس والهواء والماء والضياء فأجمعوا أن تعريض الأجسام للشمس نهارا كما يعرضها الحاج فى عرفة والحياة الخلوية فى الهواء الطلق منعشة للأبدان مقوّية للعقول قاتلة لكل مرض ولكل (مكروب) حيوان ذرّى ولكن هؤلاء الأطباء فى المسلمين يقلون لأن أكثر المسلمين لايعلمون ـ وقفوهم انهم مسؤلون ـ

درسوا أيضا فوائد الرياضات البدنية وتقوية الأعضاء بالأعمال الزراعية والمشى فى الخلاء ودوام الحركة وحققوا أوقات النوم واليقظة كما فعل ذلك كله من قبل علماء الطب كابن سينا فى كتاب القانون إذ رأيته ذكر جميع أنواع التمرينات بأوسع مما ذكره الفرنجة ، ولكن المسلمين المتأخرين هم النائمون وان قرأ بعضهم الطب وملحقاته فانما هم للفرنجة مقلدون ـ وقفوهم انهم مسؤلون ـ

رأوا فى جزيرة العرب أمراء وملوكا يحكمون أمما لاتزال على فطرتها وعقولا قوية ونفوسا شريفة تستعدّ لأرفع المدنيات ، وتصلح لأقوم سبل الخبرات . فهاهم الآن يريدون أن يجعلوا بأسهم بينهم شديدا ليصرفوهم عن العلم الى الحرب . فالدرس الذى تعلموه من قدماء الاسبانيين لايزالون له حافظين ولكن المسلمين عن ذلك ذاهلون ـ وقفوهم انهم مسؤلون ـ

اللهم إنى أكتب هذا وأنا أعلم انك سائلى عن كل ماعلمته من النقص فى أمم الاسلام ولقد سهلت لى سبيل العلم والنشر فأنا مسؤل وكل تقصير يقع منى فى تلك السبيل أعتقد انى عنه مسؤل والجزاء عليه فى الدنيا بالحرمان وفى الآخرة بالعذاب يوم أقف بين يديك ويقف المسلمون والخلائق أجمعون ـ وقفوهم انهم مسؤلون ـ

المسيح مسيحان : مسيح صادق . ومسيح كاذب . فالمسيح الصادق هو ابن مريم ويشاكله فى الصدق أناس وأمم فى أزمان مضت فى دهر الدهارير . وأما المسيح الكاذب وهو الدجال فله أمثال وأشكال وجيوش مستعدة فى جميع الأمم شرقا وغربا وهم الكذابون الخائنون من أهل السياسة وغيرهم وعلى قدر غفلة المسلمين بالجهل سلط الله هؤلاء عليهم وهم أصحاب السيف والنار والمدافع والغازات هكذا هم أصحاب الوظائف وتولية الأمر والوزراء واباحة الشهوات واكثارها فى البلاد سرا فتكون الشهوات مقصودة مرغوبة فنارهم من اصطلاها نال جنة الاستقلال وجنتهم الشهوية من المطاعم والملابس والاغترار بالوظائف والامارة من دخلها لم يفلت منها وتنقلب عليهم نارا حامية فكأنها شراب الخمر والمخترات يذل شاربه وهو لايقدر على الفرار منه وهذه الطوائف فى نارهم يحترقون ـ وقفوهم انهم مسؤلون ـ

أيها المتعلمون : أيها الأمراء . أيها الملوك فى الاسلام : افشوا الصناعات والعلوم وعمموا تعليمها وزنوا العقول بالقسطاس المستقيم امتحانا فى المدارس وضعوا كل امرىء فيما دلّ عليه استعداده من زراعة فى الحقول أوصناعة فى المدن أوسياسة أوعلم ، فلكل امرىء شأن واستعداد يخصه والمسلمون لذلك تاركون — وقفوهم انهم مسؤلون —

استخرجوا كل قوة من قوى أفراد الشعب ، لاتضيعوا استعداد النفوس التى خلقها الله لكم ولاتذروا حقلا ولاسهلا ولاجبلا ولانهرا إلابحثتموه وعرفتم طرق الانتفاع به ، ولايغنى لكم ذلك إلا بتعليم طائفة من الشبان الأذكياء العلوم المختلفة لاظهار منافع ماتملكون وتذكروا — وقفوهم انهم مسؤلون —

اللهم إنى نصحت وبذلت طاقتى فى إيقاظ هذه الأمة وهذا جوابى يوم أسمع النداء — وقفوهم انهم مسؤلون * ما لكم لاتناصرون * بل هم اليوم مستسلمون — وبهذا تمّ الكلام على اللطيفة الثالثة . كتب فى مدينة حلوان يوم الجمعة بعد العصر ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٠ والحمد لله رب العالمين

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾

(فى قوله تعالى — إنى كان لى قرين —)

لقد تقدّم فى ﴿ سورة سبأ ﴾ عند قوله تعالى — ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم — الخ كيف كان الاتباع والتقليد الأعمى فى الامور الاعتقادية وسيرالناس وراء القادة والرؤساء بلاعقل ولاهدى ولاكتاب منير أوقع الأمم الاسلامية فى الجهل قرونا وقرونا وأفضت هناك فى الكلام على محمدبن تومرت وملخص تاريخه وانه أسس دولة واستقل بها إزالة للظلم واقامة للعدل ولكن جعل نفسه معصوما الى آخر ماتقدّم هناك ، وقد أبنت أن مثل هذا لايدوم نفعه وانما دوام النفع بتعميم التعليم للذكور والاناث ، فأما هنا فان القرين لم يتبع قرينه بل فكر واستبصر وعرف سبيل الهدى ولم يكن إمعة كالدابة تسير وراء قائدها فلذلك أخذ يقول : — إنى كان لى قرين * يقول أئنك لمن المصدّقين — الخ

ومن عجب أمرالقرآن جاء فى ﴿سورة سبأ﴾ بالمحاورة بين الرؤساء والمرؤسين وكل يوقع اللوم على الآخر بعد وقوع العذاب فأما هنا فكأنه يشير الى أن الناس قد احترسوا مما وقع فيه المقلدون بلاعقل فلذلك ترى القرين لايتبع إلاالحق ولايتبع قرينه فلذلك يقول الله هنا — تالله ان كدت لتردين * ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين — بدل أن يقول هناك — لولا أنتم لكنا مؤمنين — الخ فهذه المحاورة لعاقل أراد صاحبه اضلاله فلم يعبأ به واتبع عقله وهذه خصلة أمم الاسلام فى مستقبل الزمان يتعلمون ولايتفرّقون تابعين فى ذلك أهواء الرؤساء المضلين والشيوخ الجاهلين بل هم أنفسهم متى تعلموا أدركوا أن أمم الاسلام لاتعيش بالافتراق الذى جناه عليهم الرؤساء وانما تعيش بالوئام والمحبة العامة وقطع دابر التخاذل والتنابذ والخصام واذن يقول المسلم لمن كاد يضله — تالله إن كدت لتردين — . أكتب هذا على انه تنظير لا انه نفس معنى الآية بل هو أهم مقصود القرآن

هذا وليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن الآراء التى يتلقاها الناس كابرا عن كابر قد تكون مدخولة مدلة وان كان الناس لايعلمون :

(١) مثال ذلك مسألة النيازك وهى الصخور المعدنية (وأكثرها حديد ونيكل) التى تسقط على الارض من السماء آتية من اجرام سماوية أخرى . ففى أواخر القرن الثامن عشر أظهر بعض العلماء بناء على مشاهدات حقة أن هناك كتلا معدنية صخرية مختلفة فى الحجم وفى الثقل تسقط على الارض من بعض الكواكب فقابل

أغلب العلماء هذا الاكتشاف بالعداء والسخرية وانفرد من بين هؤلاء العلامة الاشهر لافوازييه (واضع أصول الكيمياء الحديثة) فطعن أشد الطعن على هذا الاكتشاف الجديد مستندا على قانون الجاذبية العام قائلا بأن كل جرم سماوى يجذب أجزاءه اليه وأنه من المستحيل أن تسقط صخور من السماء على الارض وقدم تقريرا جازما الى مجمع العلوم بباريس ساخرا فيه من هؤلاء العلماء الذين ساقهم عقلهم الى الشك فى قانون الجاذبية هذا الشك الفاضح . ثم مرت الاعوام وظهر من تكرار المشاهدات أن لافوازييه كان خاطئا وأن النيازك حقيقة لاشك فيها وأنها تسقط من الكواكب على الارض رغما عن سيطرة الجاذبية

(٢) وهناك مسألة أخرى خاصة بالكائنات البحرية وتتلخص فى أنه كان من البديهى عند العلماء فى النصف الأول من القرن التاسع عشر أنه لايوجد أثر للكائنات تحت عمق ار بعمائة متر فى البحر الملح وذلك لان الضوء لايصل الى هذا العمق وأن الضغط على جسمها يبلغ عند هذا العمق عشرات أضعاف الضغط الجوى وأنها لايمكنها أن تعيش مطلقا تحت هذا الضغط . فمن البديهى اذن أن لايوجد كائنات حية تحت هذا العمق . ولايخفى أن هذه البرهنة واضحة بسيطة متماسكة منطقيا فكان من المعقول أن يكتفى بها العلماء وأن يطمئنوا الى حقيقتها ولكن أظهرت الابحاث التالية فى صيد الحيوانات البحرية على أعماق مختلفة وذلك بآلات صيد خاصة تدل بالضبط على العمق الذى أخذت فيه هذه الحيوانات من أن هناك كائنات حية متعددة ومتنوعة من أسماك وقشريات ونجميات على أعماق بعيدة يصل بعضها الى سبعة آلاف متر أو أكثر . وأن هذه الكائنات تتحمل ضغطا يقدر بسبعمائة ضغط جوى وانها رغما عما كان ينتظر منطقيا منها محمية بدروع صلبة تجعل أعضاءها الداخلية فى مأمن من العطب بل ان أغلب هذه الحيوانات هى على الضد من ذلك طرية الملمس والجدار كبعض مثيلاتها فى المياه السطحية والعقل يحار أمام السر الذى تخفيه هذه الحيوانات فى تحمل هذا الضغط العظيم . ولما تكرر صيد الاعماق البحرية ثبتت هذه الحقيقة شيئا فشيئا حتى أصبحت لاشك فيها الآن ودخلت فى مجال العلم رغما عن مخالفتها للمنطق الذى استندت عليه الآراء القديمة

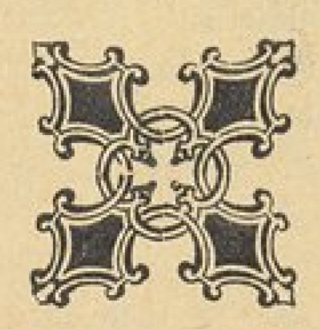
(٣) ولما ظهر دارون بكتابه «أصل الأنواع» قامت القيامة فى وجهه وانتقده العلماء وسخروا به لأن آراءه الجديدة كانت مخالفة لما تعودوه من التفكير ولكن لم يلبث أن خضع له الكثيرون ممن كانوا لايؤمنون به . وان كانت آراء دارون الاصلية قد نسفت كثير منها فى مهب الريح الا أن اثرها فى تطور الابحاث العلمية لاشك فيه ومركزها فى تاريخ العلم مركز عتيد

(٤) وكذلك لما قام العلامة باستور بابحاثه المعروفة فى المكروبات وأظهر لعالم الطب الدهش أن كثيرا من الامراض سببها تكاثر ميكروبات خاصة فى عضو من أعضاء الانسان أو الحيوان وأنه من الممكن زرع هذا الميكروب فى سوائل خاصة واحداث المرض نفسه فى حيوان سليم . لما فعل باستور ذلك قامت قيامة علماء الطب عليه وصاروا يطعنون أشد الطعن فى هذه الآراء الجديدة ولكن كل هذا العداء من جانب علماء ذاك العصر لم يمنع نظرية الامراض الميكروبية من التقدم والتحسن حتى أصبحت الأصل للجراحة والطب الحديثين

(٥) ولما أظهر باستور بواسطة التجارب المتقنة المحكمة أن الكائن الحى لايتكوّن الا من كائن حى سابق وأنه من المستحيل أن تتكوّن الحياة فى سائل عضوى معقم تعقيما كافيا أى ان نظرية التولد الذاتى مستحيلة التحقق وكانت هذه النظرية شائعة كل الشيوع بين علماء ذاك الوقت . لما اثبت باستور ذلك احتج عليه العلماء من كل صوب مخطئين كل التجارب مستندين الى ماتعودوا رؤيته وكل هذه الضجة الهائلة لم تمنع آراء باستور من الانتصار

(٦) ولقد شاعت نظرية دوران الشمس حول الأرض ، لكن لما ظهر الحق على أيدى علماء الاسلام أوّلا كما تقدّم ايضاحه فى أوّل ﴿ سورة يونس ﴾ وأن الأرض هى التى تسير حول الشمس وعرفها علماء أوروبا فلما ظهرت على أيدى بعضهم صودر وحبس وحكموا عليه بالكفر ولكن ظهر رأيه وانتشر فى الأرض

فهذه ست مسائل عما فاز باظهاره العلم بعد أن كان الجهل به حقيقة لايشك فيها ، أليس معنى هذا أن المسلمين فى المستقبل غير المسلمين الحاليين النائمين الذين يعيشون بفكر غيرهم وكثير منهم أشبه بالحشرات اللاتى تمتص دم الانسان وهى ضعيفة — إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم — ولقد قلت مرارا فى هذا التفسير أن أمم الاسلام فى المستقبل غيرها فى الماضى والله هو الهادى الى سواء السبيل . انتهت اللطيفة الرابعة وبها تم الكلام على سورة الصافات والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة ص

ويقال لها سورة داود عليه السلام

(وهي مكية)

(آياتها ٨٨ — نزلت بعد القمر)

والكلام عليها في « ثلاث فصول » الفصل الأول » في تفسير البسملة « الفصل الثاني » في تفسير الألفاظ « الفصل الثالث » في مقصود السورة

﴿ الفصل الأول في تفسير البسملة ﴾

لما قدمت هذه السورة الى الطبع حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير فقال : لقد فسرت البسملة في السور السابقة بطرق شتى بحيث لايسبق الى الذهن تكرار في التفسير ، فهل تريد أن تكتب شيأ في تفسير البسملة هنا . فقلت نعم . فقال : وهو يغاير ماتقدم ؟ فقلت نعم . فقال : من أي وجهة ؟ فقلت من وجهة الوحدة والكثرة ، فالوحدة في لفظ الجلالة لأن هذا الاسم لايلحظ فيه إلا الذات وأما الرحمن الرحيم ، فهنا للرحمة آثار لانهاية لعدها ، إذن هنا وحدة وكثرة ، فالوحدة للذات الإلهية والكثرة في آثار الأسماء الدالة على الصفات وأسماء الله جميعها تدل على الصفات . فقال : هذا كلام اجمالي والوحدة والكثرة ذكرها الصوفية ولكن كلامهم مجمل ، ويذكرها الحكماء في علم ما وراء الطبيعة ويقولون : « إن العالم ذو وحدة تقسم الى جوهر وعرض وكل منهما يقسم أقساما ، وهذه الأقسام هي المقولات العشرة المشهورة وهناك تقاسيم أخرى لاحاجة الى الافاضة فيها وكلها ترجع الى تقسيم وحدة العالم الى كثرة حتى ان تقسيم العلوم الرياضية والطبيعية يرجع الى هذه الكثرة المخبوءة في وحدة العالم . فقلت هذا حق ولكن الوحدة والكثرة التي سأذكرها هنا تؤخذ من المشاهدات الطبيعية مثلي في ذلك مثل علماء الهندسة إذ يعرضون على الطالب أمورا معلومة للجاهل والعالم ويستنتجون علوما لايعرفها إلا الخاصة فهم يقولون الكل أكبر من الجزء والنقيضان لايجتمعان واذا أضيف شيآن متساويان الى شيئين متساويين يكون الجميع متساويا واذا حذف شيآن متساويان من شيئين متساويين فالباقي متساو وهكذا ويستنتجون من هذه نظريات وراء نظريات حتى يصلوا بعد (٣٢) نظرية الى أن زوايا المثلث الثلاث تساوي قائمتين وبعد نيف وأربعين قضية يقولون إن مربع وتر الزاوية القائمة يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين وهذا الشكل يسمونه شكل العروس ، فهذه مسائل دقيقة استنتجوها من أمور أولية بديهية ، فهكذا هنا أنا أبحث في الوحدة والكثرة في الامور المشاهدة أولا وأرقى على ذلك بما هو أعلى وأغلى . فقال : لقد شاقني وصفك فكيف يكون ذلك ؟ فقلت : مامن امرئ إلا وهو يعتقد انه واحد وهذه الوحدة مشتملة على كثرة ، فلكل انسان أعضاء للاحساس وهي خمس وأعضاء للعمل وهي خمس أيضا ، اليدان والرجلان واللسان ، فاليدان لجميع الصناعات على الأرض والرجلان لانتقال الأجسام واللسان لنقل المعلومات في الهواء ومن صناعات اليدين الخط وهو مساعد اللسان في نقل علم الأولين الى الآخرين وعلم الحاضرين للغائبين ، إذن الرجلان واللسان وبعض أعمال اليدين لنقل الأجسام ونقل العلوم . ثم ان العين من أعضاء الحس واليد من أعضاء الحركة كل منهما مركبة من أجزاء مختلفة كالشبكية والبلورية في العين وكالجلد والعرق والعضل في اليد ونحو الجلد والشبكية والبلورية كل من هذه يسمى جزؤه باسم كله . فقطعة من الجلد وقطعة من الشبكية وقطعة من العضلات وقطعة من العروق كل هذه يكون شأنها شأن ماقطعت منه في التسمية . فقطعة من العظم وأخرى من اللحم لاتتغير اسمها عما

قطعت

قطعت منه بخلاف الجلد اذا كشطناه عن اللحم فكل منهما يحمل اسما يغاير الآخر . وهذه الأجزاء التي نسمي جزؤها باسم كلها مركبات من عناصر دخلت فيها وتنتهي هذه الأجزاء الى الالكترونات وهي النقط الضوئية الصغيرة جدا ، فبهذا عرفنا وحدة الانسان في قوله انا وكثرته بهذه الأجزاء التي لايعرف مدى قسمتها وتحليلها ، ولاجرم أن الوحدة هي التي جمعت هذه الكثرة وحفظتها ولذلك اذا خرجت الروح من الجسم وهي الجامعة لمتفرّقاته في الحياة رأينا هذه الوحدة قد تفرّقت شذر مذر في الأرض والماء والهواء إذن الوحدة لها السلطة والغلبة على الكثرة وكثرة بلا وحدة ضائعة متفرّقة ، وحدة الأسرة والمدينة والأمّة والانسانية جمعاء والحيوانية وهكذا الى أن نقول وحدة الكرة الأرضية ، ومثل ماقلنا في وحدة الجسم وكثرته نقول في وحدة الأسرة المركبة من أفراد لها رئيس جامع لها وكثرتها وهكذا القرية والأمّة الواحدة والأمم الشرقية والغربية ثم الانسانية جمعاء فكل هذه لها كثرة ووحدة بوجهين مختلفين ، واذا علونا الى ماهو أوسع من الانسانية اعتبرنا الحيوانية فالعوالم النباتية فالعالم الأرضي كله فالكرة الأرضية جميعها فلها وحدة ولها كثرة كجسم الانسان وبالوحدة البقاء وبالتفريق الهلاك فلابد من وحدة تضبط الكرة ، واذا علونا فوق ذلك رأينا السيارات مع الشمس لها وحدة نسميها المجموعة الشمسية التي نرى لها تسع سيارات باعتبار الكوكب الذي وراء نبتون الذي كشف في هذه السنة ، وهناك ذوات الأذناب والنيازك والشهب الجاريات حول الشمس التي يقال ان عددها كعدد سمك البحار فهذه كلها مع الشمس معتبرة وحدة . ألاترى الى مايسمونه الجاذبية ، تلك الحال التي تضم الأرض والكواكب السيارة وأقمارها فتجعلها لاتحيد عن أماكنها كما لاتترك اليد ولا الرجل جسم الانسان وغيره

تباركت يا ألله : لنا أجسام ذات وحدة جمعت كثرتها فاذا فارقتها الوحدة بخروج الروح تفرّقت أجزاؤها وللمجموعة الشمسية وحدة كوحدة الروح مع الجسم بحيث نرى الكواكب في أماكنها ولولا الجاذبية لتفرّقت وطاحت ، إذن هنا أمر عام في المجموعة الشمسية حكمه حكم الروح في جسمي اذا خرج منها تفرّقت تلك الأجزاء وتناثرت وتباعدت وطاشت في أقطار الخلاء البعيد المدى وفي المجرّة الواحدة مئات الملايين من تلك المجموعات الشمسية التي نشاهدها في الليل بهيئة نجوم صغيرة جدا في رأى العين ، وحكم المجرّة الواحدة مع كواكبها الثابتة التي هي في الحقيقة مجموعات شمسية لها حكم ماذكرنا أولا من الجسم ومابعده (انظر بعض هذا في أوّل سورة سبأ) وليس في السماء مجرّة واحدة بل هناك مجرّات وسدم (جمع سديم) تعدّ بمئات الملايين وقد فعل بها مافعل بماقبلها بحيث أصبح العلماء اليوم يقولون : « إن العالم كله كرة واحدة يسير النور حولها مائة ألف مليون سنة . ومعلوم أن النور يسير في الثانية الواحدة (١٨٦) ألف ميل (٣٠٠) ألف كيلو . إذن هذه العوالم جميعها جعلت كرة واحدة كما جعل الانسان الواحد جسما منظما له روح تجمع وتضم وتحفظ أجزاء جسمه كما ان في العالم معنى يحفظه وقوّة تضمه يسمونها الجاذبية وهي عين الوحدة

﴿ نظام الجسم الانساني مع هذه العوالم ﴾

قلنا إن الجسم الانساني له حواس للعلم وله أعضاء للعمل . فأما الحواس الخمس فأوّلها حاسة اللمس التي تعم كل حيوان حتى الدودة بل هي سارية في النبات أيضا وهذه قسطها من العوالم حولنا ماقرب منا بالاحساس بالبرودة والحرارة واليبوسة والرطوبة وهكذا ويليها حاسة الذوق بالحلاوة والملوحة والمرارة والحرافة والعذوبة وهكذا ثم الشم للروائح التي يحملها الهواء ثم السمع للأصوات من سائر الجهات ثم البصر لما هو أبعد حتى أقصى النجوم من القدر السادس . ثم بعد ذلك يستعين الانسان بالعلم فيصل الى معرفة أقدار النجوم وأبعادها ويعرف بالمجهر الى القدر العشرين . إذن الحواس الخمس عرفت مبدأ العلوم والعلم أغاث الانسان فرفعه فوق مارفعته هذه الحواس . إذن الجسم الانساني من حيث العلم قد شهد العوالم بحواسه ثم بعقله وبهذا انتهى الكلام

على القسم العلمى من الجسم الانسانى

أما القسم العملى فهو أعضاء العمل وهى قسمان : قسم للانتقال ، وقسم للأعمال . أما قسم الانتقال فهما الرجلان اللتان نسير بهما على الأرض وقد ساعدهما سفن البحار وقطار البخار فى الأرض والآلات الجاريات كالعربات وما يسمونها السيارات (الاتوموبيلات) وهكذا كل مايجرى على الأرض بجر الحيوان أو بدفع البخار أو بمادة البنزين المستخرجة من الفحم أو بالكهرباء ، كل ذلك على الأرض ، ويلى ذلك الطيارات التى تطير فى الجو وتحمل الناس والأثقال ، فهذه كلها قائمات مقام سعى الرجلين وبهذا تم الكلام على العضوين اللذين أعدا لنقلنا وسيرنا على الأرض

أما العضوان اللذان أعدا للأعمال فهما اليدان اللتان بهما نصنع ماتحتاجه للطعم والملبس والمسكن وما تفرع منهما واستعنا على ذلك بآلات قامت مقام عمل اليدين كما قامت المجاهر مقام العينين فى بحث الكواكب البعيدة وقامت الطيارات فى الهواء والسيارات على الأرض والسفن فى البحار مقام الرجلين ، وهذه الآلات التى قامت مقام اليدين أوساعدتهما إما أن تديرها اليدان أو الحيوان ، والفحم أو الكهرباء ، كل ذلك لاتمام عمل اليدين وحفظ حياتنا على هذه الأرض ، وبالجملة هذه العوالم مزرعة الانسان من وجهين : وجه العلم ، ووجه العمل وجسمنا خلق على استعداد لهما ، أما اللسان فهو رسول بين الأفراد يوصل العلم من واحد الى الآخر ويعين على الأعمال العامة فهو بحركته عامل وعمله ينتج العلم . هذه هى حال الانسان بالنسبة للعوالم المحيطة به وأكثر ما ذكرناه هو علوم طبيعية لصور خارجية فى العوالم الأرضية والسماوية

﴿ الصور الخارجية والصور الذهنية والعلوم الرياضية ﴾

قلنا إن أكثر ماذكرناه علوم طبيعية إذ هى ترجع الى المادة المحسوسة المشاهدة ولكن هذه العوالم المشاهدة كما قررنا لها وحدة ولها كثرة من وجهين والكثرة لاحد لها ، فاذا لم ترجع الى الوحدة فى أذهاننا كما أنها واحدة فى الخارج كان جهلنا بها عظيما لأن العلم لايثبت إلا لما هو ثابت ولاثبات إلا بقوانين ، أما الكثرة التى لاقانون لها ولاضابط فهى خارجة عن الحصر وماخرج عن الحصر لايعلم ، هنالك احتاج الانسان الى علم العدد والحساب ، ولاجرم انه كما قلنا واحد فى نفسه لأن له روحا جمعت أجزاء هذا البدن واذا خرجت هذه الروح من الجسد تمزقت تلك الأعضاء وطاحت تلك الحواس وتناثرت تلك الأجزاء وضاعت فى كل فج عميق

ألم يشاهد الناس أن الميت هذه حاله لاضابط لأجزاء جسمه الممزقة ولاحافظ لأعضائه المختلفة ، فالذى جمع ذلك كله وحدة هى الروح ؛ فليس فى الأرض امرؤ يقول فى نفسه انه اثنان بل يقول أنا ، ففيه معنى الوحدة بداهة ثم ينظر فى أعضائه فيجد فيها الرأس وهو واحد والعينين والأذنين والثديين والسبيلين وهكذا فهما اثنان ، ويرى فى كل أصبع ثلاث مفاصل ويرى أعضاء البطش أربعة وهى اليدان والرجلان وأعضاء الحواس خمسة وأصابع اليد الواحدة خمسا وبتضعيفها تكون العشرة ثم العشرين بضم أصابع الرجلين وهكذا يضاعف العدد الى المائة والألف والآلاف والملايين ومافوق ذلك وينتهى ذلك كله بأن نقول علم العدد . إذن الانسان عمل فى صوره الذهنية ماعمله بالصور الخارجية . إن الانسان كما انتقل من جسمه الى العوالم فأرجعها كلها الى كرة واحدة فعل بعلم العدد هذا العمل نفسه . فالعشرة عنده وحدة والمائة وحدة والألف وحدة والمليون وحدة وهكذا وينتهى الأمر بعد آلاف آلاف الملايين أن يقول هو العدد أو الحساب كما قال فى العالم المحسوس هو الكرة التى يسير الضوء حولها كذا وكذا فيما تقدم . إذن الانسان اخترع لنفسه صورا ذهنية هى الأعداد وهذه الأعداد لاوجود لها فى الخارج وهل فى الخارج إلا المعدود . والسماء والأرض والبحر والجبل ليست أعدادا كلا . بل هى معدودات . وما الأعداد إلا صور ذهنية اخترعها العقل الانسانى ليكبح بها جماح الصور الخارجية التى تريد أن تفلت من يده فضمها وجمعها فقرت فى يديه وحضرت لديه فعرفها فكان بذلك قرير العين

ويلى الحساب علم الهندسة . وماعلم الهندسة إلا نظام للمقادير المتصلة من الخطوط والسطوح والأجسام كالخط المستقيم والمنحنى والمنكسر وكالزاوية والمثلث والمربع وكالكرة والمكعب وما أشبه ذلك ، فالقوانين الهندسية التى سبق كثير منها فى ﴿ سورة الروم ﴾ عند آية ـ فطرة الله التى فطر الناس عليها ـ بها ضبطنا كثيرا من هذه الأجسام فبقيت فى عقولنا وحفظت فى أذهاننا فارجع اليها فانك تجد هناك نسبا وصلة ورحما بين أنواع الأشكال فى مساحتها كالنسب والصلة بين ذوى الرحم من نوع الانسان . إذن الهندسة متممة للحساب فى ضبط المادّة كى يعلمها الانسان و يساعد ذلك كله علم الجبر وعلم الفلك وعلوم أخرى مفرّعة على ذلك . وماذلك كله إلا صور ذهنية اخترعتها العقول الانسانية بحكمة دبرت وآيات أبدعت فى خلق الروح المودعة فى هذه الأجسام . إذن الانسان قدر أن يصنع فى نفسه نوعين من الصور : نوع له وجود فى الخارج وهى موادّ العلوم الطبيعية . ونوع لاوجود له فى الخارج وهى الأعداد وعلوم الهندسة والأعداد مقادير منفصلة والهندسة مقادير متصلة إذ ترى المثلث مثلا اتصلت أضلاعه وزواياه بخلاف واحد اثنين فهما منفصلان لامتصلان وهنا يقولون إن الوجود له ﴿ أربع مواطن ﴾ وجود فى الأذهان كهذه الأعداد ونظريات الهندسة . ووجود فى الأعيان وهى المعدودات والأشكال الهندسية الملموسة . ووجود فى اللسان وهى الكلمات الدالات على مافى الأذهان . ووجود فى البنان وهى الكتابة الدالة على مانطق به اللسان . إذن الموجود اصالة هو الخارجى وهو المعدود مثلا و يعبر عنه العدد الذهنى و يعبر عنه اللسان وينوب عنه القلم . فأوّلا مرتبة الخارج يتبعها الذهن يليه اللسان فالبنان . ولكن الذى فى الخارج هو المعدود والذى فى الذهن هو العدد فهما متغايران من هذه الجهة

﴿ البحث فيما وراء المادة ﴾

(ومعرفة الله تعالى ونظام السياسة فى الأمم)

نظر الانسان بعد ذلك فقال : هذه علوم طبيعية وهذه علوم رياضية والآخرة حفظت الأولى ولكن ما الحافظ لهؤلاء جميعا والذى حمله على ذلك غريزته وفطرته كما ان نفس الغريزة هى التى اخترعت علم العدد . فهنالك قال الانسان : « إن للعالم صانعا ولكن كيف أتصوره ؟ المادّة مشاهدة . والأعداد ونحوها متخيلة مستنتجة من المشاهدات المحسوسات » هنالك أخذت المخيلة تختلق له صورا وأشكالا . و بيانه أن الانسان يتصوّر السماء والأرض ومابينهما فى مخيلته اذا كان بصيرا كما شاهدهما و يتصوّر المسموع بصورما يراه و يشاهده بعينه لأن المبصرات أغلب عند المبصرين وهكذا يتصوّر الأعداد بصورما يشاهده بعينه . أنا منذ الصغر حفظت القرآن عن ظهر قلب بلا عقل فأنا ألاحظ الآن أن سور القرآن سورة سورة مرسومة فى ذهنى منفصلة بهيئة صور لها ألوان مما أشاهده فى العالم وهذا من المسموعات ولكن هذه الصور المخترعة فى مخيلتى للمسموع من القرآن ليست فى الوضوح كصور السماء والأرض ثم أرى صورا أخرى فى خيالى للأعداد من الواحد والعشرة والمائة وما بينها فهى مرتبة منظمة بحسب مايشاهده بصرى . وليس من المعقول أن الأعمى يتصوّر هذه الصور كما يتصوّرها البصراء . إذن الانسان فى صور المحسوسات والصور المخترعة للعدّ يتخيلها بحسب ماغلب عليه . إذن الانسان فى تصوّره لم يلتزم طريقة بعينها فهو حرّ يتصوّر بحسب ماغلب عليه . فاذا كانت هذه حاله فيما له صورة فى الخارج ونحوه فهو فيما ليس له صورة فى الخارج أغور فى الحرية وأعرق وأبعد مدى فى التصوير . ألاترى الى مايقوله الحكماء : « ان الطبيعيات هى مايحتاج فى ادراكها الى المادة فى الذهن وفى الخارج والعلوم الرياضية مايحتاج فى ادراكها الى المادة فى الخارج لافى الذهن والعلوم الإلهية مالايحتاج فى ادراكها الى المادة لافى الذهن ولافى الخارج وذلك كالنخلة فى الأوّل والمائة فى الثانى والله فى الثالث

هنا أخذت عقول الناس تجول فيما حولها . فأخذ كل يصف الله فى خياله بما غلب عليه مما هو عظيم

فى نظره من بقرة يحرث الأرض عليها وفيل هائل المنظر وحية عظيمة وقرد وشمس وقمر وكوكب فالخيال هنا كان أوسع حرية بخلافه فى المحسوسات فان صورها ظاهرة فلاداعى لسعة الاختلاف فى تصورها ، ولذلك رأينا أهل هذه الأرض ملؤها بالأصنام اللاتى تصوّر لكل أمة ماغلب على طباع أهلها ، وتارة يتخيلون صانع العالم رجلا عظيما كما تخيلوه كوكبا منيرا ، بل منهم من تخيله شريرا كثير الشرّ لما غلب على الطبع من أن الشرير يخاف كأمثال قوم يسمون اليزيدية يعبدون ابليس ويقولون إن الله رحيم فلاحاجة الى عبادته ولكنا نعبد ابليس لأنه شرير وهكذا من الصور التى لاحدّ لها ، ولكن الانسان ذلك المخلوق الذى أدرك فى نفسه وحدة وكثرة ووحدته حفظت كثرته رجع فقال . كلا . الوحدة فى جسمى وفى العوالم والوحدة فى الأعداد كما تقدم ، فالإله ليس متعددا بل هو واحد وماهذه إلا مظاهره كما إن روحى واحدة والأعضاء مظاهرها لاغير ، لذلك تسمع علماء الهند يقولون : « إن الآلهة الثلاثة التى يعتقدونها ماهى إلاصفات للجوهر الحقيق وهم براهما وسيفا وفشنو ، فهم اذا ملؤا بلاد الهند بالأصنام فكلها آلهة ثانوية ترجع الى الثلاث والثلاثة انما هى صفات والله واحد » وهكذا تسمع المسيحيين يقولون قولا أخفى من هذا فيقولون : « الثلاثة واحد » ولكنهم لايفصحون كما يفصح أهل الهند لأن هؤلاء مقلدون لهم والمقلد لايعقل مايعقله من علمه

فلما جاء الاسلام أعلن الحقيقة مرة واحدة فكسر الأصنام ومنع تعدّد الآلهة وأنكر الابوّة والبنوّة وقال الله واحد ، فقوله تعالى حكاية عن الكفار فى هذه السورة ـ أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشئ عجاب * وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشئ يراد * ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ـ منشؤه نظرهم الى الكثرة والكثرة بلاوحدة ضائعة

﴿ سياسة الأمم تتبع عقائدها ﴾

إن الأمم لاثبات لها ولادوام إلا بوحدتها ، ولاوحدة لها إلا بعلم يحفظها كما حفظت الصور المحسوسات فى نفوسنا وعلمت بضوابط حسابية ، فكما أن العلوم الرياضية رباط العلوم الطبيعية وحفاظ لها هكذا العقائد الثابتة فى الأمم رباط الجماعة الانسانية تحفظها من الهلاك والتشقق ، ولذلك نجد دين الاسلام شرع الأمرين معا : وحدة الخالق ، وتبعها وحدة الأمة : العرب فى البادية كانوا أشتاتا كل يفخر بأمته وأسرته وعشيرته اغراقا فى البداوة كما يفخر بصنمه الذى يعبده ويحقر صنم سواه ، فهو بعشيرته وبصنمه مفتون ، هنالك تفرّقوا سياسة كما تفرّقوا عقيدة ، فقال الاسلام لهم : « أيها الناس : لافضل لعربى على عجمى إلابالتقوى ، ما هذا التفرّق ، ما هذا الخذلان ، ما هذا التباعد ، هذه وحدات ضيقات ضائعات متفرّقات متباعدات ، اجمعوا هذه الوحدات كلها فى وحدة تجمعكم ، قم يابلال أذن فى الكعبة وأنتم أيها العرب اسمعوا أذانه ، وان زعمتم أنكم أولى بالكعبة من كل الأمم ، أنتم بنوآدم لابنو عدنان وقحطان فقط ، فكونوا أيها الناس أمة واحدة ، ألم نكسر أصنامكم المفرّقة لكم ، ألم نقل لكم إن إلهكم واحد ربّ السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ، إذن الوحدة عامة فى الكون فمن أين أتيتم بالتعدّد ؟ وهذه الوحدة يجب عليكم أن تغذوها بالصلوات الخمس صحة لأبدانكم وقوة لايمانكم وجامعة لمدنيتكم ومحافظة لدولتكم والزكاة من أعظم الروابط بينكم واشتراككم فى صيام رمضان يقوّى إيمانكم ودولتكم والحج يجمعكم »

هذه هى أركان الاسلام التى تجمع المسلمين على عقيدة واحدة وعمل واحد وهذا العمل يقوّى العقيدة ويحفظ الوحدة ، ولما ترك المسلمون الصلوات ومابعدها وتهاونوا فيها حاق بهم الذّل لأن العقيدة لم تجدمايغذيها ويقويها ويحفظها فتفرّقت الوجهة وساء المصير

فقال صاحبى بعد أن سمع هذا . الله أكبر : إن هذا خير بيان فى هذا المقام ولكن يتوجه اليك سؤالان

فأرجو أن تأذن لبق ذكرهما . فقلت : إليك ذلك . فقال : ﴿أولا﴾ ان اليابان عابدة الأصنام والفرنجة الذين يؤمنون بثلاثة آلهة قد اتحدوا ولاتوحيد عندهم والمسلمون الموحدون لارابطة لهم . إذن لاعلاقة بين العقائد ونظام السياسة ﴿ثانيا﴾ أننا الآن فى تفسير البسملة فى أول ﴿سورة ص﴾ والى الآن لم تبين مافى هذه السورة من الوحدة والكثرة وماتقدم كله إن هو إلا أشبه بالمقدمات . فقلت : أما كون الأمم التى لاتوحيد فى عقائدها قد نجحت فى سياستها والأمم التى وحدت فى عقائدها قد اضطربت سياستها كالأمم الاسلامية ، فهذا يحتاج الى البيان . توحيد العقائد والاشراك فيها أمر يرجع الى العلم والجهل . فهو إذن راجع لجهل الروح وعلمها . واعتقاد التوحيد قد يجرّ الى اتحاد السياسة ونظام المجموع . وقد يقف عند الايمان المجرّد فاذا غذى ذلك الايمان بما يزيده يوما فيوما من الاجتماعات العامة فى الصلوات كالعصور الأولى ، وبما يؤدّى الناس من الزكاة للضعفاء والمرضى ، وبما يحجون ويصومون ويتصدّقون

فهذه كلها مغذيات منميات لتلك الوحدة وينقل التوحيد من العلم الى العمل ويصبح الناس اخوانا . واذا دهمهم عدوّ تألبوا عليه وازدياد الحوادث تزيدهم اتحادا . فأما اذا بقى التوحيد أمرا قلبيا إيمانيا أو يقينيا بالعلم ولم تسع الأمة الى ايجاد روابط عملية بالصلوات والاجتماعات العامة فى خطب الجمعات والأعياد فمن أين يتعدّى التوحيد المعقول ويسرى الى الأجسام ويوحدها . فليس كل من وحد استوفى شرائط التوحيد ولا كل آمن بالله جديرا بنصره ـ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ـ ولاجرم أن أركان الاسلام الخمس هى النواة والحجر الاساسى لبنيان الأمة وسلامتها وحفظ كيانها . هذا هو السبب فى تخاذل المسلمين وعدم اتحادهم فى القرون المتأخرة

إن اتحاد الأمم فى السياسة له طرق شتى ونواح مختلفة وترجع كلها الى توحيد وجهة الأمة وذلك كما يحصل بالدين يقوم بالعصبية والوطنية والاتحاد فى اللغة وفى النسب وفى الاتباع لملك جامع لهم وفى المعاهدة وفى مصاهرة الملوك وفى الاستعباد بأن تقع الأمة من استعبدوها وهكذا مما ذكره العلامة الفارابى فى كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة »

كل هذه جعلها النوع الانسانى طرقا ومسالك للاتحاد وهى درجات بعضها فوق بعض فان قاموا بشرائطها جمعتهم وان لم يقوموا بها تفرّقوا شذر مذر ، وبهذا تفهم كيف اجتمعت اليابان فقد جمعتها الحاجة الى الدفاع عن وطنهم واتحادهم فى النسب واللغة والوطن وقد قاموا بما يجب لهذا كله والله يقول ـ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ـ فهم لما أصلحوا أحوالهم النظامية لم يكن ظلمهم بالكفر سببا لاهلاكهم كما أن الحيوانات التى فى الغابات لا حصر لها تعيش فى أمن وسلامة فليس الانسان أدنى منزلة منها لأن الله رحمن رحيم يسع فى ملكه كل من أصلحوا معيشتهم فى الحياة الدنيا وان كفروا بآخر الأديان إما لأنه لم يبلغهم على وجهه كما هو المعروف الآن واما للتكبر والأنانية والعظمة وهذا قليل

فقال صاحبى : لقد اجتمع أهل مصر وتونس وطرابلس والجزائر ومراكش وسوريا والعراق والموصل فى اللغة والدين وتجاور الأوطان وفى النسب فلماذا لم يتحدوا ؟ فقلت له : الجواب على ذلك ظاهر مما تقدّم . فكما عجزوا عن تغذية العقيدة الدينية بالظواهر المغذية لها التى توجب اتحادهم فى السياسة الدنيوية فضلا عن محبة الله والسعادة الأخروية هكذا عجزوا عن القيام بحق اللغة وآدابها ونشرها وعن قراءة علم تاريخ أسلافهم وتواصل المودّات بينهم والتعارف فالعجز عن مغذيات الدين بأعماله الظاهرة نظيره العجز عن مغذيات اللغة والنسب وقرب الجوار فى الوطن . كل ذلك متروك كما ترك غيره . فأما الأمم الأخرى فان لهم روابط كثيرة بل ان أوروبا المسيحية تجتمع ضد الشرق وتحاربه مرارا ويكون الدين من أهمّ روابطها لأن للمدار على الاعتقاد والاعتقاد له جميعات تحافظ عليه فاستبان بهذا وظهر ظهورا لامرية فيه فى هذا الموضوع وعرفت أيها

الذكى أسباب اتحاد أمم وعلوها وضعف أمم وسقوطها . ولا يظنن ظان أن اتحاد التلاميذ فى ملابسهم ونظامهم فى الأعمال والتمرين الرياضى والدروس وهكذا قراءتهم فى المدارس الثانوية علوما رياضية وطبيعية وتاريخية وفلكية لم يقصد به تلك الوجهة العامة . إن اتحاد العقول فى علوم عامة واتحاد الأجسام فى مظاهر ملابسها وزونقها كل ذلك ذرائع لاتحاد الأمة حتى ان الأمة الواحدة قد تتسع لأديان كثيرة ولكن كثرة المقومات للوحدة تمنع تفريق المجموع ولو بحسب الظاهر والقانون . ولاريب أن أقوم مقومات اتحاد الأمم هو الدين اذا قام الناس بحقه . فخير ما أنزل الله للناس هو هذا الدين الذى جمع الناس عقلا وعقيدة ودنيا وآخرة . ولما أهمله حاملوه أصبحوا فى مؤخر الأمم . واعلم أن الانسانية لن تسعد ولن تستريح راحة تامة إلا بوحدة شاملة . كذب هذا الانسان . كذبت المدنية الحاضرة

صبحي : نسمع أن الأمة التركية قد تركت دين الاسلام أى ان الحكومة أعلنت ذلك ولكن قرأت فى مجلة « السياسة الأسبوعية » فى شهر يونيو سنة ١٩٣٠ ما ملخصه أن جماعات أتت الى بلاد الترك من أمريكا وهم من السود المتزجين بأهل البلاد الأصليين وهؤلاء يبلغون نحو مائة أو يزيدون على ما أذكر وانهم عرفوا الاسلام هناك من جمعية الرفق بالأيتام وانهم يقولون : « نحن آمنا بالدين المسيحى الذى أتانا به الجنس الأبيض (وهم الاوروبيون) ومع ذلك لايزالون يكرهوننا ومتى رأوا من أحدنا ذنبا حقيرا مزقوه شر ممزق واخوانهم بهذا فرحون : ونحن لما سمعنا بالاسلام وسهولته فهمناه حق فهمه ولم نفهم الدين المسيحى . وها نحن هاجرنا من أمريكا الى هذه البلاد لنعيش مع اخواننا الترك المسلمين » أقول وقد قابلت أحدهم بعد ذلك بمصر وهو عالم عظيم

ولاجرم أن هذا القول ينطبق على السود الذين هم فى الولايات المتحدة فهم هناك يمزقونهم كل ممزق على مرأى ومسمع من الشرطة فى تلك البلاد . إذن الانسانية اليوم لاتزال طفلة . فالتعصب يكون للدين كما يكون للون والوطن فالناس لايزالون فى أحضان الجهالة يتربون . عجب وألف عجب لدين الاسلام الذى لايفرق بين أمة وأمة ولا وطن ووطن ولا لغة ولغة ولا لون ولون وأذان بلال بالكعبة شاهد صدق على ما نقول أمام العرب المتعصبين لوطنهم ونسبهم . إذن فلتخجل الانسانية الحالية فان مدنيتها مدنية جاهلة سواء أكانت بالوطن أم باللغة أم بغيرها . وخير المدنيات أن يكون جميع الناس متعاونين

إن الأمم التى عندها اجتماع ما بلغة أو بدين أو وطن كأهل أوروبا وأمريكا فهى أمة عوراء وهذا العور أفضل ألف مرة من العمى لأن أمم العرب المتجاورة لم تعن به بل بقيت منعزلة كأنها لم تسمع بالاسلام أو لم تسمع باللغة أو بالوطن أو غيرهما . إذن الأمم عمياء اذا لم يكن لها اجتماع بواحدة مما تقدم . عوراء اذا اجتمعت بلغة أو بدين أو وطن وهكذا . بصيرة اذا اجتمع الانسان كله اجتماعا صادقا مع العدل وحفظ العقول والعلوم واستخراج قوى النفوس وقوى الطبيعة

فيا أيها المسلمون : نحن أمة أكثرنا لم يصل الى درجة العور فنحن فى أخريات الدرجات فارتقوا درجة واتحدوا كالأمم حولكم ثم بعد ذلك ارتقوا بالانسانية الى الدرجات العالية وهى أن يكون النوع الانسانى كله على بصيرة . لذلك نفهم معنى كونه ﷺ رحمة للعالمين . وهل يكون رحمة العالمين تعصب أمريكا على السود والحمر أو تعصب أوروبا على سوريا وتمزيقها الى دول صغيرة وتشتيت شمل المسلمين فى بلاد الجزائر ومراكش واذلالهم فى عقر دارهم . كلا . فهذه ليست رحمة

الأمم الحاضرة لاتصلح لرقى نوع الانسان . واعلموا أيها المسلمون أن هذا الكتاب ستعقبه نهضة فى الشرق يتلوها رحمة فى الغرب يعقبها سعادة الانسان ــ ولتعلمن نبأه بعد حين ــ وبهذا تم الكلام على سؤالك الأول

﴿ الجواب عن السؤال الثانى ﴾ وهو قولك اننا الآن فى تفسير البسملة فى أول ﴿ سورة ص ﴾ وانى لم أبين مافى هذه السورة من الوحدة والكثرة فأقول :

اعلم

اعلم أن أسماء الله الحسنى دالة على صفاته وصفة الرحمة مصاحبة للعلم والارادة والقدرة لأن رحمة الله لم نعرفها إلا بالآثار ولا آثار إلا حيث كانت قدرة أظهرتها والقدرة تتبع الارادة ولا ارادة إلا حيث يكون العلم ، فالرحيم الذى لاعلم عنده كالأم تكون رحمتها مضرة ، والرحيم الذى لاقدرة له عاجز عن ايجاد ماقصده من الخير فالرحيم العالم المريد القادر هو الذى يستعان به ، ولذلك تجد للرحمة سورة بتمامها كما أشرنا اليه سابقا فى سورة أخرى إذ جعلت ﴿ سورة الرحمن ﴾ كلها كالتفصيل لآثار الرحمة ، بل جميع مافى هذه الدنيا والآخرة آثار الرحمة وحديث : « ان لله مائة رحمة وإن رحمة واحدة منها جعلت فى الأرض بها ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه وأن هذه الرحمة تنضم الى ٩٩ رحمة الأخرى تكون لأهل الجنة » يوضح هذا المقام ، فعالم الدنيا والآخرة آثار الرحمة ، فاذا لم تكن هذه العوالم لم نعرف الرحمة . إذن الوجود آثار من الرحمة والعدم آثار الغضب ولاجرم أن القرآن من الرحمة ولذلك يقول الله ــ الرحمن * علم القرآن ــ فالقرآن من الرحمة ومافى هذه السورة طبعا من الرحمة ، ومافى الدنيا والآخرة من الرحمة وهذا هو الباب الذى دخل منه سيدنا علىّ كرم الله وجهه إذ نقل عنه انه لوشاء لكتب وقرسبعين بعيرا فى تفسير البسملة وهذا حقّ لأن الرحمة شملت العالم العلوى والسفلى والآخرة والدنيا وهذا هو السرّ فى الابتداء بها فى أوّل كل سورة ، ومعانى القرآن كلها داخلة تحت أسماء الله الحسنى الدالة على صفاته ، إذن الأمر ظاهر ولكن ليس معنى هذا أن يكون تفسير القرآن كل شئ بل القرآن يفسر بالطرق التى يراها المفسر أقرب لعقول أهل زمانه ويكتب مايفهمونه هذا هو المقصود من التفسير لأنه يكتب كل شئ بل يكتب بحسب مايناسب زمانه لاغير فاذا حاد عن ذلك لم يكن مفسرا بل هو ناقل وكل بعير فهو ناقل

فاذا سمعت ما يأتى فى هذه السورة من قصص سليمان وداود اللذين أغدقت عليهما النعم وسمعت قصة أيوب الذى ابتلى بالنقم فاعلم أن النعمة والنقمة يرجعان لأمر واحد وهو الصبر بل الصبر على النعمة أشدّ على النفس من الصبر على النقمة كما ذكرناه سابقا نقلا عما نسب الى (أرسطاطاليس) إذ أرسل الى الاسكندر يهنئه بالنصر فى فارس ويذكره بأن النعم تنتقل من دولة الى دولة اذا ترك الناس فى حال أمنهم فبطروا العيش وسئموا الرخاء وأن الناس فى حال الخوف والحرب أنشط وأسرع عملا وفى حال الأمن هم يكسلون و يبطرون ويذهب ملكهم . فهم يحتملون أيام المخافة ولا يكادون يصبرون على النعم لأنها تنيمهم وتقتلهم بالبطنة وساءت مصيرا

ومن هذا الباب ماجاء على لسان سليمان فى ﴿ سورة النمل ﴾ ــ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ــ إذن سليمان عليه السلام المذكور فى هذه السورة ابتلى بالنعمة بل ابتلاؤه أشدّ من ابتلاء أيوب على هذا القياس . فههنا أمران : رحمة بالابتلاء بين الخير والشرّ ووحدة فان الخير والشرّ وان كانا متغايرين جمعهما الابتلاء . فههنا وحدة وههنا كثرة والوحدة بهاجمعت الكثرة كما ان تعجب الكفار بقولهم ــ أجعل الآلهة إلها واحدا ــ الذى أملاه عليهم الجهل يدحضه الوحى والعقل ويرجعان الى التوحيد . إذن الوحدة فى الالوهية يوجبها الوحى والعقل والتفريق يوجبه الجهل . والوحدة فى نظام الأمم يوجبه الوحى والعقل والتفريق يوجبه الجهل . والنظام فى الأمم إما لا أساس له كالأمم الوحشية واما متوسط الأساس وهو نظام الأمم الحالية واما ثابت الأساس وهو اتحاد الأمم جميعا والله يهدى من يشاء الى سواء الصراط . انتهى الكلام على الفصل الأوّل فى تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين

﴿الفصل الثانى﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ
مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ
كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى
آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أَأُنْزِلَ
عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ
رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ
جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ *
وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ * إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ *
وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ * وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ *
اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ
بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ
الْخِطَابِ * وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ
خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا
أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ
بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا
لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ
الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ *
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ *
أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كِتَابٌ
أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ * وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ

إِنَّهُ أَوَّابٌ • إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ • فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ
رَبِّى حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ • رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ • وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا
عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ • قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى إِنَّكَ
أَنْتَ الْوَهَّابُ • فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ • وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ
وَغَوَّاصٍ • وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ • هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ • وَإِنَّ لَهُ
عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ • وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ •
ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ • وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى
لِأُولِى الْأَلْبَابِ • وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ •
وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ • إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى
الدَّارِ • وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ • وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ
الْأَخْيَارِ • هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ • جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ • مُتَّكِئِينَ
فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ • وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ • هَذَا مَا تُوعَدُونَ
لِيَوْمِ الْحِسَابِ • إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ • هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ • جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا
فَبِئْسَ الْمِهَادُ • هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ • وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ • هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ
مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ • قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ
الْقَرَارُ • قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى النَّارِ • وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا
نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ • أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ • إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ
النَّارِ • قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ • رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ • قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ • أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ • مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ
يَخْتَصِمُونَ • إِنْ يُوحَى إِلَىَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ • إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ
طِينٍ • فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ • فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ •
إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ • قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ
أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ • قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ • قَالَ
فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ • وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ • قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ •
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ • إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ • قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ • إِلَّا عِبَادَكَ

مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ • قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ • لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ • قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ • إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ • وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ •

﴿ التفسير اللفظى ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(ص) تقدّم فى سورة آل عمران والعنكبوت والروم ويس بعض أسرار الحروف وسنخصصها بالكلام فى الفصل الثالث لتعرف أنها مغزى السورة كلها والمقصود المهمّ منها (والقرآن ذى الذكر) أى أقسم بالقرآن ذى الشرف والبيان انه لمعجز وان محمدا لصادق (بل الذين كفروا فى عزّة وشقاق) أى ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه ، وانما ذلك الكفر لعزّة أى استكبار عن الحق وشقاق أى خلاف لله ولرسوله ، واذا ثبت أن القرآن معجز وأن هؤلاء معاندون لم يبق إلا انذارهم ولذلك قال (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) من أمّة (فنادوا) فدعوا واستغاثوا حين رأوا العذاب فأجابتهم الملائكة قائلين (ولات حين مناص) أى ليس الحين حين مناص أى نجاة لأن وقته فات (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) أى بشر مثلهم (وقال الكافرون) فيه وضع الظاهر موضع المضمر للتشنيع عليهم بالكفر (هذا ساحر) فيما يظهره معجزة (كذّاب) فيما يقوله على الله (أجعل الآلهة إلها واحدا) بأن جعل الالوهية منحصرة فى واحد (إنّ هذا لشئ عجاب) بليغ فى العجب فانه خلاف ما أطبق عليه آباؤنا (وانطلق الملأ منهم) أى انطلق أشراف قريش من مجلس أبى طالب بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ قائلين بعضهم لبعض امشوا واثبتوا على عبادة آلهتكم فلا تنفعكم مكالمته وهذا قوله (أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشئ يراد) أى إن هذا لشئ من ريب الزمان يراد بنا فلا مردّ له (ماسمعنا بهذا) أى بالذى يقوله (فى الملة الآخرة) فى الملة التى أدركنا عليها آباءنا (إن هذا إلا اختلاق) كذب ثم أخذوا ينكرون اختصاصه بالوحى وهو مثلهم أو أدون منهم فى الشرف والرياسة فقالوا (أأنزل عليه الذكر من بيننا) ثم أضرب عن انكار ذلك الى ذكر سبب انكارهم وهو الشك لميلهم الى التقليد ثم أضرب عنه أيضا الى أنهم الى الآن لم يذوقوا العذاب ومتى ذاقوه فانهم يلجؤن الى التصديق وهذا قوله تعالى (بل هم فى شكّ من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب) ثم أخذ يتهكم بهم قائلا (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) أى بل أعندهم خزائن رحمته وفى تصرّفهم حتى يصيبوا بها من شاؤا ويصرفوها عمن شاؤا فيتخيروا للنبوّة بعض صناديدهم (أم لهم ملك السموات والأرض ومابينهما) أى بل ألهم ملكهما أى ليس لهم مدخل فى أمر هذا العالم الجسمانى الذى هو جزء من خزائنه تعالى وان كان لهم ذلك فليصعدوا فى المعارج التى يتوصل بها الى عرش هذا الملك حتى يستووا عليه ويدبروا أمر هذا العالم فينزلوا الوحى الى من يستصوبون وهذا قوله تعالى (فليرتقوا فى الأسباب) الارتقاء الصعود ، والأسباب المعارج والطرق التى يتوصل بها الى الاستيلاء على العرش ، ثم وعد بنصر نبيه ﷺ فقال : هؤلاء الذين يقولون هذا القول (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) الكفار المتحزبين على المؤمنين مغلوبون فى الوقائع هنالك فى مصارع بدر وغيرها فأنى لهم تدبير الامور الإلهية والتصرّف فى الخزائن الربانية وما فى - جند ما - مزيدة للتقليل ، أخبر الله نبيه ﷺ وهو بمكة انه سيهزم جند المشركين وهذا عجيب لأنه وهو بمكة لاجند له فجاء تأويلها يوم بدر ونحوها وهذه من أعظم المعجزات ثم عزّى الله نبيه ﷺ فقال (كذّبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد) أى ذو الملك

الثابت الأوتاد * قال الشاعر

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة * فى ظل ملك ثابت الأوتاد

(وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة) وأصحاب الغيضة وهم قوم شعيب (أولئك الأحزاب) يعنى المتحزّبين على الرّسل الذين جعل الجند المهزوم منهم كالأحزاب الذين تحزّبوا عليك ، ثم بين سبب انهزامهم وتقلبهم فقال (إن كل إلا كذّب الرّسل فحق عقاب) يعنى ان أولئك الطوائف والأمم الخالية لما كذبوا أنبياءهم وجب عليهم العذاب فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين اذا نزل بهم العذاب (وماينظر هؤلاء) أى وماينتظر كفارمكة (إلا صيحة واحدة) وهى النفخة الأولى (مالها من فواق) أى من توقف مقدار فواق وهو مابين الحلبتين ، أومالها من رجوع ، من افاق المريض اذا رجع الى الصحة ، ويقال فواق الناقة أيضا ساعة يرجع الدر الى ضرعها وهو بالضم والفتح (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا) قسطنا من العذاب الذى توعدنا به وهو من قطه اذا قطعه ، ويقال لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس أى عجل لنا صحيفة أعمالنا تنظر فيها (قبل يوم الحساب) وهذا الاستعجال على الوجهين منهم استهزاء (اصبر على مايقولون) فيك واحذر أن تهن فى مصابرتهم وتحمل أذاهم (واذكر عبدنا داود) أى قصته ليعلموا انه مع عظم شأنه وبخه الملائكة بالتمثيل والتعريض حتى تفطن ، فلتحذر أنت حتى تصون نفسك أن تزل وقوله (ذا الأيد) أى ذا القوّة فى الدين (إنه أوّاب) رجاع الى مرضاة الله * روى انه كان يصوم يوما ويفطر يوما ويقوم نصف الليل (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن) أى مسبحات بتسبيحه اذا سبح والمضارع اختير للتجدّد (بالعشىّ والاشراق) العشىّ وقت العصر الى الليل والاشراق هو حين تشرق الشمس أى تضىء وهو وقت صلاة الضحى كما فسره ابن عباس ، وأما الشروق فهو الطلوع تقول شرقت الشمس ولما تشرق بضم التاء (والطير محشورة) أى أى وسخرنا الطير مجموعة من كل ناحية (كل له أوّاب) أى كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجاع الى التسبيح مع المداومة على ذلك (وشددنا ملكه) وقوّيناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود * روى أن رجلا ادّعى بقرة على آخر وعجز عن البينة فأوحى اليه أن اقتل المدّعى عليه فأعلمه فقال صدقت انى قتلت أباه غيلة وأخذت البقرة فعظمت هيبته بذلك (وآتيناه الحكمة) النبوّة وكمال العلم واتقان العمل والاصابة فى الامور (وفصل الخطاب) علم القضاء وقطع الخصام والفصل بين الحق والباطل ، ثم ابتدأ سبحانه نبأ عجيبا من أنبائه وشوّق الى استماعه بالتعجيب منه فقال (وهل أتاك نبأ الخصم) أى خبر الخصم وهو يطلق على الواحد والجمع (إذ تسوّروا المحراب) أى صعدوا وعلوا سور الغرفة التى كان يشتغل فيها داود بالطاعة (إذ دخلوا على داود) متعلق بتسوّروا (ففزع منهم) ذلك أن ملكين بعثهما الله اليه فى صورة انسانين طلبا أن يدخلا عليه فوجداه فى يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسوّرا عليه المحراب فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان ففزع من ذلك لدخولهما فى وقت الاحتجاب لأنه كان يجزئ زمانه يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للوعظ ويوما للاشتغال بخاصته (قالوا لاتخف) نحن (خصمان) متخاصمان (بغى بعضنا على بعض) وهذا من باب الفرض (فاحكم بيننا بالحق ولاتشطط) ولاتجر فى الحكومة (واهدنا الى سواء الصراط) أى وسطه وهو العدل (إن هذا أخى) بالدين والنصيحة (له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة) هى الأنثى من الضأن (فقال أكفلنيها) ملكنيها (وعزّنى فى الخطاب) وغلبنى فى مخاطبته إياى (قال) داود قبل أن يسمع كلام المدّعى عليه للمدّعى (لقد ظلمك) المدّعى عليه (بسؤال نعجتك الى نعاجه) أى والله لقد ظلمك بذلك ، ثم استطرد فقال (وانّ كثيرا من الخلطاء) الشركاء (ليبغى) ليتعدّى (بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم) أى وهم قليل وما مزيدة للابهام والتعجيب من قلتهم ، فلما قضى داود بينهما نظر أحدهما الى صاحبه وضحك وصعدا الى السماء فعلم داود أن الله ابتلاه إذ قال له الخصمان ـ احكم بيننا بالحقّ ولاتشطط

واهدنا الى سواء الصراط ـ فحكم للمدعى بدون أن يسمع كلام خصمه (وظنّ داود) أى أيقن (أنما فتناه) ابتليناه وامتحناه لحكمه للمدعى قبل أن يسأل المدعى عليه (فاستغفر ربه) لذنبه (وخرّ راكعا) ساجدا مصليا كأنه أحرم بركعتى الاستغفار (وأناب) ورجع الى الله بالتوبة (فغفرنا له ذلك) أى ما استغفر عنه (وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب) أى لقربة بعد المغفرة وحسن مرجع فى الجنة ، وأما ماروى أن بصره وقع على امرأة فعشقها فأوحى الى رئيس الجيش أن يقرّب زوجها أوريا بين يدى العدوّ فيقتل وانه تزوّجها بعد ذلك فان ذلك من كلام القصاصين . ولقد روى عن علىّ رضى الله عنه انه قال : « من حدّثكم بحديث داود على مايرويه القصاص جلدته مائة وستين » وكيف يليق ذلك بمن يخاطبه الله قائلا (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) أى استخلفناك على الملك فيها (فاحكم بين الناس بالحق) بحكم الحق (ولا تتبع الهوى) ماتهوى النفس من المبادرة الى تصديق المدعى قبل سؤال المدعى عليه (فيضلك عن سبيل الله) دلائله التى نصبها للحق (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) أى بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل فان تذكره يقتضى ملازمة الحق ومخالفة الهوى ومن الهوى الاسراع الى تصديق أحد الخصمين لجودة إلقائه وحسن بيانه وما أشبه ذلك من استئجار المحامين الذين هم أقدر على البيان فى هذا الزمان ، فالقاضى بسبب ذلك معرّض للزلل كل حين . ولما كان آدم وبنوه خلفاء الله فى الأرض يقومون بالعدل والنظام على مقدار طاقتهم وقيامهم بالعدل تابع للنظام العام كما قال تعالى ـ ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ـ ناسب أن يذكر عدله وحكمته فى السموات والأرض فقال (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) مبطلين عابثين أو للباطل الذى هو متابعة الهوى بل للحق الذى هو مقتضى العدل (ذلك ظنّ الذين كفروا) أى خلقهما باطلا ظنهم (فويل للذين كفروا من النار) بسبب هذا الظنّ وذلك لأنه حكم بلادليل كما يحكم القاضى لأحد الخصمين قبل سماع الآخر كما تقدم . واذا كنا فتنا داود فى القضاء وعلم انه قد فتن بسبب اصغائه لأحد الخصمين دون الآخر فنحن فتنا هذا الانسان على وجه الأرض وامتحناه فى نظامنا فنهم من يرى أن إماتتنا واحياءنا واحداث الأمراض والأرزاء فى الأرض والوباء والحروب والأكاذيب والأراجيف والفتن كل ذلك باطل لامعنى له فيعيش الانسان ويموت وهو يقول : لِمَ هذا كله ؟ وهلا خلق الله الناس فى راحة وطمأنينة وسعادة لايمرضون ولايشقون ولايحاربون ولايتخاصمون ولم أمر الآساد أن تأكل الظباء والأرانب وحدد أنياب الآكلات ومنع المأكولات السلاح والمقاومة . والناظرون فى هذا على قسمين قسم ينكر ذلك انكارا قلبيا فنهم من يظهره كبعض الذين تعلموا فى العصر الحاضر تعلما سطحيا . ومنهم من يخفيه وهم كثير من المتدينين بأى دين . وقسم يقرأ علوم الحكمة ويستوعبها وهذا يشعر أن هذا النظام جميل وأن كل ذلك فيه مقدمة لحال أعلى من هذه وقد أوضحناه فى هذا التفسير ايضاحا كثيرا . إن من يحكم أن نظام هذا العالم باطل أشبه بمن يحكم لأحد الخصمين . فاذا أراد أن يحكم بالحق فليقرأ علوم الحكمة التى تبحث فى نظام هذا الوجود وهذا هو الذى يبين قضية الخلق وكيف خلقه الله ؟ فكأن الانسان اذا نظر فيها قد أصغى أيضا الى المدعى عليه وفهم حجته وحجته هو هذا النظام البديع ومتى أدركه الناس بطلت الفكرة الأولى وهى ان هذه الدنيا مبعثرة غير منظمة الى آخر ماتقدم . ومما يثير الشكوك فى نظام هذا العالم أن الظلم فيه مجسم ولاسيما فى هذا الانسان ، كيف لا ونحن نرى أن المصلحين والصالحين فى الأرض مغبونون لاينالون جزاء أعمالهم فى الدنيا ، ونرى كثيرا من المفسدين متمتعين بالنعمة والعافية ، فأىّ عدل وأى نظام هذا ؛ ولكن اذا أدرك الناس أن هذه الحياة ستعقبها حياة أخرى ترجع فيها الامور الى حقائقها كما دلّ عليه علم الأرواح المنتشر حديثا فى أوروبا وأجمعت عليه الديانات . فانهم يعرفون أن النظام عدل لذلك أعقبه بقوله (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) هذا انكار للتسوية

بين

بين المؤمنين والكافرين ، ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم فان من يسوّى بين هؤلاء يكون سفيها هذا (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدّبروا آياته) أى ليتدبروا ويتفكروا فيها (وليتذكر أولوا الألباب) أى وليتعظ بالقرآن أولوا العقول السليمة ويستحضروا ماهو مركوز فى عقولهم من تمكنهم من المعرفة بالدلائل الكونية والعجائب الخلقية . روى عن الحسن انه قال : « قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لاعلم لهم بتأويله حفظوا حروفه وضيعوا حدوده » اهـ

وهذا القول منطبق على أكثر المسلمين فى هذا الزمان ، إن الأمة اليوم لاتقرأ القرآن غالبا إلا للتعبد وأما التفكر فلا وهذا هو السبب فى ضياع ملك الاسلام وعظمته ووقوعه نهبا مقسما بين دول أوروبا ولكن هذا هو الزمان الذى أذن الله فيه اذنا حقا ببعث هذه الأمة من مرقدها وتقوم بواجبها كما قال تعالى ـ ليظهره على الدين كله ـ وهذا هو الزمن الذى سيظهر فيه وهذا أمر حتم سيكون قريبا

﴿ قصة سليمان عليه السلام ﴾

قال تعالى (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد) سليمان (إنه أوّاب) رجاع الى الله بالتوبة (إذ) ظرف لأوّاب (عرض عليه بالعشىّ) بعد الظهر (الصافنات) الخيول القائمة على ثلاث قوائم وقد أقامت الأخرى على طرف حافر ولا يكاد يكون ذلك إلا فى العراب الخلص (الجياد) جمع جواد وهو الذى يسرع فى جريه (فقال) لما عرضت عليه فأجروها أمامه وذلك لاستعدادها للغزو (إنى أحببت حب الخير) آثرت حب المال ومنه الخيل المعروضة (عن ذكر ربى) أى انى لاأحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس وانما أحبها لأمر الله تعالى وتقوية دينه ثم أمر باجرائها واعدائها حتى توارت تلك الخيل بالحجاب أى غابت عن بصره ثم أمر بردّ الخيل اليه وهذا قوله تعالى (حتى توارت بالحجاب) ثم قال (ردّوها علىّ فطفق) يمسح (مسحا بالسوق والأعناق) أى يمسح سوقها وأعناقها تشريفا لها لكونها للجهاد والجهاد من أعظم الامور وليباشر الامور بنفسه ليقتدى به الوزراء ورجال الدولة كما كان يفعل صلاح الدين الأيوبى إذ كان ينقل الأحجار بنفسه فى بناء الأسوار أيام الحروب الصليبية وليكشف عن أمراض الخيل وعللها حتى يعلم هل فيها مايدل على المرض

﴿ فتنة سليمان عليه السلام ﴾

روى مرفوعا أن سليمان عليه السلام قال : « لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهنّ فلم يحمل إلا امرأة جاءت بشق رجل ، فوالذى نفس محمد بيده لوقال إن شاء الله لجاهدوا فرسانا » فهذا قوله تعالى (ولقد فتنا سليمان) ابتليناه (وألقينا على كرسيه جسدا) وهو شق الطفل المذكور جىء به على كرسيه فوضع فى حجره (ثم أناب) رجع الى الله مما فعل وهو أنه لم يقل ان شاء الله والأنبياء يحاسبون على مالايحاسب عليه سواهم لشدّة قربهم من ربهم ، وأما حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن فى بيت سليمان عليه السلام فمن أباطيل اليهود وذلك أنهم قالوا ان زوجته كانت تسجد لصورة أبيها ودام ذلك أربعين يوما وهو عليه السلام لايعلم فلما علم كسر الصنم وعاقب المرأة ، ثم إن الله عاقبه بأن سلط شيطانا يسمى صخرا فأخذ خاتم الملك فصار الشيطان فى صورته عليه السلام أما هو فأصبح منكرا لايعرفه أحد فتكفف أربعين يوما ثم طار الشيطان ووقع الخاتم فى البحر فالتقطته سمكة واصطادها صياد فوقعت فى يد سليمان فخرّ ساجدا لله . هذه هى الأباطيل اليهودية ويكون صخر هو الجسد الذى ألقى على كرسيه (قال ربّ اغفر لى) ذنبى (وهب لى ملكا لاينبغى) لايصلح (لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب) تهب الملك والنبوّة لمن تشاء وذلك لأنه أحبّ أن يخص بخاصية كما خصّ داود بالانة الحديد وعيسى باحياء الموتى ، ولذلك روى انه عليه الصلاة والسلام كما فى الصحيحين قال ان عفريتا من الجن تفلت علىّ البارحة

ليقطع صلاتى فأمكننى الله منه فأخـذته فأردت أن أربطه الى سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا اليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان ـ رب اغفر لى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى ـ فرددته خاسئا ثم قال تعالى (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء) لينة ليست بعاصفة (حيث أصاب) حيث أراد (و) سخرنا له (الشياطين كل بناء) يبنون له (وغوّاص * وآخرين مقرّنين فى الأصفاد) فاذن الشياطين منهم بناؤن ومنهم غوّاصون يستخرجون اللؤلؤ من البحر . ومنهم مردة الشياطين يقرن بعضهم مع بعض فى القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد ، والصفد القيد ، وربما كانت الأصفاد تمثيلا لكف شرهم وحبسهم حبسا يناسب أجسامهم النارية (هذا) الذى أعطيناك من الملك والمال والبسطة (عطاؤنا فامنن) فأعط منه ماشئت من المنة وهى العطاء (أوأمسك) عن العطاء ، وقوله (بغير حساب) حال من عطاؤنا أى جما كثيرا لا يكاد يقدر على حصره (وان له عندنا لزلفى) فى الآخرة مع هـذا الملك العظيم فى الدنيا (وحسن مآب) وهو الجنة

﴿ قصة أيوب عليه السلام ﴾

قال تعالى (واذكر عبـدنا أيوب) وهو ابن عيص بن اسحق (إذ نادى ربه) بدل من عبدنا (أنى مسنى الشيطان) أى بأنى (بنصب) تعب (وعذاب) ألم ومرض وبلاء وانما نسب المس الى الشيطان لأنه بسبب وسوسته أعجب بكثرة ماله فمسه الله بالمرض لأجل ذلك فأرسل الله له جبريل فقال له (اركض برجلك) الأرض فضرب فنبعت عين فقيل هذا مغتسل أى ماء يغتسل به ويشرب منه فيبرأ ظاهرك وباطنك وهذا قوله تعالى (هذا مغتسل بارد وشراب) ثم قال تعالى (ووهبنا له أهله) بأن جمعناهم عليه بعد تفرّقهم (ومثلهم معهم) حتى كان له ضعف ما كان (رحمة منا) أى لرحمتنا عليه (وذكرى لأولى الألباب) تذكيرا لهم ليتنظروا الفرج بالصبر أوّلا والالتجاء الى الله ثانيا فيما يحيق بهم ، وعطف على ـ اركض ـ قوله (وخذ بيدك ضغثا) حزمة صغيرة من الحشيش ونحوه (فاضرب به ولاتحنث) . ذلك أن زوجته رحمة بنت افرائيم بن يوسف ذهبت لحاجة فأبطأت فحلف ان برئ ضربها مائة ضربة فحلل الله يمينه بذلك ويجب أن يصيب المضروب كل واحدة من المائة وهذه الرخصة باقية على شرط اصابة المائة للمضروب كما عرفت (إنا وجدناه صابرا) على ماأصابه فى نفسه وأهله وماله وليس شكواه الى الله من الشيطان جزعا (نعم العبد) أيوب (إنه أوّاب) مقبل على الله (واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار) أولى القوّة فى الطاعة والبصيرة فى الدين (إنا أخلصناهم بخالصة) جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة لاشوب فيها هى (ذكرى الدار) ذكرى الدار الآخرة دائما فانا نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكراها وأخلصناهم بحب الآخرة وذكراها (وانهم عندنا لمن المصطفين) المختارين من بين أبناء جنسهم (الأخيار) جمع خير وخير بالتشديد والتخفيف (واذكر اسماعيل واليسع) لام التعريف دخلت على يسع (وذا الكفل وكلّ) أى وكلهم (من الأخيار) يقال ان ذا الكفل هو ابن عم يسع أو هو ابن أيوب ويقال انه فرّ اليه مائة نبيّ من بنى اسرائيل من القتل فآواهم وكفلهم . ثم ان أوّل السورة ـ ص * والقرآن ذى الذكر ـ وقد ذكر قصص الأنبياء وصبرهم وأعمالهم الشريفة . ولما أتمّ الكلام عليهم قال (هذا ذكر) كأنه يقول هذا ذكر مما اشتمل عليه القرآن المذكور فى أوّل السورة أى الذى يتلى عليكم شرف وجيل تذكرون به

﴿ وصف الجنة ﴾

قال تعالى (وانّ للمتقين لحسن مآب) مرجع ثم عطف على حسن مآب عطف بيان فقال (جنات عدن) حال كونها (مفتحة لهم الأبواب * متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب * وعندهم قاصرات الطرف أتراب) مستويات الأسنان والشباب والحسن بنات ثلاث وثلاثين سنة ومتآخيات لايتباغضن

ولا

ولايتحاسدن ، ومعنى قاصرات الطرف أى قصرن أطرافهن على أزواجهن (هـذا ماتوعدون ليوم الحساب) أى لأجله فان الحساب علة الوصول الى الجزاء أى قيل للمؤمنين ـ هذا ماتوعدون ـ الخ ويقول أهل الجنة (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) انقطاع بل هو دائم كما قال تعالى فى سورة أخرى ـ أكلها دائم ـ (هذا) أى هذا الأمر كما ذكر

﴿ وصف جهنم ﴾

قال تعالى (وان للطاغين لشرّ مآب * جهنم يصلونها فبئس المهاد) المهد والفرش مستعار من فراش النائم والمخصوص بالذم تقديره جهنم (هذا) مبتدأ وقوله (حميم وغساق) خبر وجملة ـ فليذوقوه ـ اعتراض والغساق هومايغسق أى يسيل من صديد أهل النار والحميم الماء الحار . وقال ابن عباس : الغساق هوالزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرّها ، وعذاب (آخر من شكله) من مثل العذاب المذكور فى الشدّة والفظاعة (أزواج) صفة لآخر أى أجناس وأصناف ، ثم يقول الخزنة للقادة اذا دخلوا النار ودخل بعدهم أتباعهم (هـذا فوج) جمع كثيف (مقتحم معكم) أى دخل النار فى صحبتكم ، والاقتحام الدخول فى الشئ بشدّة والقحمة الشدّة (لامرحبا بهم) أى الأتباع تقول لمن تدعوله مرحبا أى أتيت رحبا من المكان لاضيقا وتدخل عليه لا فى دعاء السوء ، وهذه الجملة من كلام الرؤساء (إنهم صالوا النار) أى داخلوها (قالوا) أى الأتباع (بل أنتم لامرحبا بكم) مخاطبين رؤساءهم الذين دعوا عليهم (أنتم قدّمتموه لنا) أى قدّمتم العذاب لنا أى دعوتمونا الى الكفر فكفرنا باتباعكم (فبئس القرار) النار (قالوا) أى الأتباع أيضا (ربنا من قدّم لنا هذا فزده عذابا ضعفا) مضاعفا (فى النار * وقالوا) أى رؤساء الكفرة (مالنا لانرى رجالا) هم فقراء المسلمين (كنا نعدّهم) فى الدنيا (من الأشرار) من الأراذل الذين لاخير فيهم ولاجدوى (أتخذناهم سخريا) ينكرون على أنفسهم ويؤنبونها على استسخارهم منهم فى الدنيا (أم زاغت عنهم الأبصار) أى مالت فلانراهم ، ومعنى ذلك أن الكفار اذا دخلوا النار نظروا فلم يروا فيها الذين كانوا يسخرون منهم فقالوا مالنا لانرى هؤلاء الذين اتخذناهم سخريا لم يدخلوا معنا النار أم دخلوها فزاغت عنهم أبصارنا فلم نرهم حين دخلوها (إن ذلك) الذى حكينا عنهم (لحق) لابد أن يتكلموا به هو (تخاصم أهل النار) فى النار وذلك لأن قول القادة للأتباع والأتباع للقادة لامرحبا بكم من باب الخصومة (قل) يامحمد للمشركين (إنما أنا منذر) أنذركم عـذاب الله (ومامن إله إلا الله الواحد) الذى لاشريك له (القهار) الغالب وفى ذلك رهبة لهم ثم أعقبه بما يدل على الرجاء فقال (ربّ السموات والأرض ومابينهما العزيز الغفار) فهو صب والتربية احسان وكرم وجود وهوغفور للذنوب وان عظمت وكل هذا دال على الرجاء (قل هو) أى القرآن (نبؤ عظيم * أنتم عنه معرضون) لاتتفكرون فيه فتعلمون صدقى فى نبوّتى

﴿ قصة آدم عليه السلام ﴾

قال تعالى (ما كان لى من علم بالملأ الأعلى) يعنى الملائكة (إذ يختصمون) فى شأن آدم فهذه فى صورة المخاصمة والمناظرة والا فالله لايخاصم يعنى انما علمت هذه المخاصمة بوحى من الله تعالى (ان يوحى الىّ إلا أنما أنا نذير مبين) أنذركم وأبين لكم ماتأتونه وتجتنبونه بلغة تعلمونها ، ثم بين الخصومة فقال (إذ) بدل من ـ إذ يختصمون ـ (قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين) يعنى آدم (فاذا سوّيته) أتممت خلقه (ونفخت فيه من روحى) أضاف الروح الى نفسه للتشريف والاضافة للملك كما تقول بيت الله ، وأيضا الروح جوهر شريف قدسىّ (فقعوا له ساجدين) وقد تقدّم هذا الموضوع فى البقرة (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا ابليس استكبر) تعظم (وكان) وصار (من الكافرين) بسبب استكباره واستنكافه عن المطاوعة (قال يا ابليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدىّ) أى خلقته بنفسى من غير توسط كأب وأمّ ، وفى تثنية

اليد اشعار بما فى خلقه من مزيد القدرة واختلاف الفعل (أستكبرت أم كنت من العالين) أى أتعظمت بنفسك عن السجود أم كنت ممن علا واستحق التفوق ، فأجاب ابليس (قال أنا خير منه) يعنى لوكنت مساويا له فى الشرف لقبح السجود له فكيف يكون الحال اذا كنت خيرا منه ؟ ثم بين ذلك فقال (خلقتنى من نار وخلقته من طين) والنار أشرف من الطين وأفضل منه ، ففضلى بشرف عنصرى الذى خلقت منه ألاترى أن النار تغلب الطين وتحرقه (قال فاخرج منها) من الجنة أومن السموات (فانك رجيم) مطرود من الرحمة (وإن عليك لعنتى) عذابى وسخطى (الى يوم الدين) يوم الحساب (قال) ابليس (رب فأنظرنى) فأجلنى (الى يوم يبعثون) من القبور (قال) الله (فانك من المنظرين) المؤجلين (الى يوم الوقت المعلوم) الى النفخة الأولى (قال فبعزتك) فبسلطتك وقهرك (لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين) الذين أخلصهم الله لطاعته وعصمهم من الضلالة (قال) الله (فالحق) يمينى أوقسمى ، وقوله (والحق أقول) جملة اعتراضية وجواب القسم قوله (لأملأنّ جهنم منك) من جنسك وهم الشياطين (وممن تبعك منهم) من ذرية آدم (أجمعين) أى لأملأنّ جهنم من المتبوعين والتابعين لاأترك منهم أحدا (قل ماأسألكم عليه من أجر) أى على القرآن أوعلى تبليغ الوحى (وما أنا من المتكلفين) المتصنعين بما ليسوا من أهله على ماعرفتم من حالى فأنتحل النبوة وأتقول القرآن (إن هو إلا ذكر) عظة (للعالمين) للثقلين (ولتعلمنّ نبأه) وهو مافيه من الوعد والوعيد وصدقه (بعد حين) عند ظهور الاسلام أوظهور العلوم التى تضمنها ولم تكن معروفة من قبل . انتهى التفسير اللفظى

﴿ الفصل الثالث فى مقصود السورة ﴾

أى فى معنى ـ ص ـ وفى قوله تعالى ـ واصبروا على آلهتكم ـ وقوله ـ اصبر على مايقولون ـ وقوله ـ وهل أتاك نبؤا الخصم ـ وقوله ـ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلا ـ وقوله ـ وألقينا على كرسيه جسدا ـ وقوله ـ إنا وجدناه صابرانعم العبد ـ الخ وقوله ـ هذا ذكر ـ وقوله ـ فسجد الملائكة كلهم ـ الخ وقوله ـ قل ما أسألكم عليه من أجر ـ وقوله ـ إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمنّ نبأه بعد حين ـ

لقد عرفت ما الحروف التى فى أوائل السور من المعانى الشريفة فى سور كثيرة ولكن لها خواص فى كل سورة بحسبها فتأمل فى لفظ ـ ص ـ فانها فضلا عن صفتها العامة لها مقاصد سامية فى هذه السورة ، إن فى السورة تحليلا لشمائل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليقتدى بها ، ولقد جاءت الصاد فى لفظ ـ اصبر على مايقولون ـ وفى لفظ ـ واصبروا على آلهتكم ـ وفى ـ إنا وجدناه صابرا ـ وهكذا تجد معنى الصبر واضحا فى مسألة الخصمين إذ دخلوا على داود فانه لم يصبر حتى يسمع كلام الخصم فحكم وفى قصة سليمان إذ عزم أن يدخل على سبعين امرأة كل واحدة منهنّ تأتى بولد ذكر يجاهد فى سبيل الله ولم يقل ان شاء الله ، ولقد عوقب على هذا ، فكأنه عليه السلام لما لم يكل الأمر لله بذكر المشيئة عد كأنه غير صابر ، هكذا كل كافر يظنّ أن السموات والأرض خلقتا باطلا بلانظام فانهذا الزعم منه ناشئ من تسرّعه وعدم صبره على المشقات فى سبيل البحث فى الحكمة حتى يعرف كيف كان العالم منظما وهكذا ابليس تكبر واعتزّ بأصله ولم يسجدْ لآدم وهذا لأنه لم يصبر على تحمل مكارم الأخلاق . صبر أهل مكة على آلهتهم وتواصوا بالصبر على ذلك وتحمل كل مضض فى سبيل ابقاء العقيدة الموروثة عن الآباء ونبذ كل برهان معقول ومغالبة الأدلة المحسوسة . كل ذلك لحفظ العقائد الموروثة فأمر الله رسوله أن يقابل صبر هؤلاء المبطلين بصبر الصادقين فقال : ـ اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود ـ وقص قصص الخصمين وذكر انه قد لامه الله على تسرعه بالحكم لأحدهما

قبل

قبل سماع الآخر هكذا أنت يامحمد قد قومك قومك وصبروا على مقاومتك فاياك أن تمل ولتصبر ولاتستعجل واعلم انك منصور ولقد امتحناك بهم كما امتحنا داود بالخصمين فاصبر على الامتحان فبه يكرم المرء أو يهان إنا امتحنا داود فى الحكم بين الخصمين فأسرع ولماه فرجع الى ربه فنحن بذكر قصصه نحذرك ونحذر كل مؤمن أن يحكم قبل التحقيق واليائسون من نصر الله عند الصدمات والشدائد لاينالون المعالى لأنهم ليسوا صابرين . واذا صبر المبطلون فما أحرى الصادقين أن يصبروا لأن الصادقين منصورون ، هما صابران أحدهما مغلوب والثانى غالب ، واذا كان المغلوبون فى العاقبة يصبرون فأجدر بالذين لهم العقبى أن يكونوا أدوم صبرا وأقدر على المقاومة ، فليثابر كل مؤمن على الأعمال الصالحة فانه منصور وليقرأ ـ أن امشوا واصبروا على آلهتكم ـ ويقرأ معها ـ واصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود ـ وليعجب كيف كان آخر الصبرين أنجاهما وأنفعهما وأدومهما ، ثم لينظر كيف كان لفظ ـ ص ـ فى أول السورة يتضمن هذه المعانى الجليلة ، ولما كان الصبر أهم الامور فى الحياة الدنيا والمداومة على الأعمال والثقة بالله تعالى فى انجازها أهم الامور كلها إذ لاعمل فى الدنيا ولا الآخرة إلا بالصبر ، ابتدأ السورة بقوله ـ والقرآن ذى الذكر ـ وختمها بأنه ذكر للعالمين ، وقال بعد قصص الأنبياء فى وسط السورة ـ هذا ذكر ـ وقال أيضا ـ كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ـ فهذه كلها تشير الى أن السورة مسوقة للصبر على المشاق والأعمال وأن المدار على العمل لاعلى ألفاظ القرآن بل الأمر كله فى الصبر ومقاومة الصعاب

حتم الله الصبر على من أصابته البأساء ومن منح النعماء فأيوب صبر على بلائه وسليمان وداود قد عوقبا على عدم الصبر فى بعض عملهما . يقول الله انى ممتحن جميع عبادى لافرق بين الملوك وغيرهم ، لم أخل سليمان فى ملكه ولاداود فى قضائه ودولته من الامتحان فى الصبر وهكذا أيوب المبتلى . كل من هؤلاء وهؤلاء مبتلون ، ابتلى الله من هم فى بحبوحة النعيم والملك العظيم ومن هم فى البلاء والبؤس بألوان ، وهذا معنى قوله تعالى ـ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ـ ولذلك قال الله على لسان سليمان عليه السلام ـ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ـ كما تقدم ، ومعلوم أن الشكر ملازم للصبر فمن عمل برا فقد صبر عن الشر الذى هو قادر عليه فى مقابلته ، فمن نظر فى المصحف فهو فى الوقت نفسه قد صبر على غض طرفه عن النظر للمحرمات عليه ، ومن تلا القرآن والعلم فهو فى الوقت نفسه صابر عن توجيه همته من هجر القول والقسم والضحك وما أشبهها الى القول النافع المفيد . ألا تعجب كيف كان لفظ ـ ص ـ رمزا الى مقصود السورة وكيف جمع صبر المبطلين من الكفار وصبر نبينا ﷺ وصبر أيوب وأن هؤلاء الأنبياء مثنى عليهم وغالبون فائزون ، وكيف كان ذلك أيضا رمزا الى اللوم على من لم يصبر ولم يتم عمله فكأنه قيل : فكروا فى الصبر واحترسوا من الاسراع ، وكيف كان من لم يفكر فى نظام هذه الدنيا حتى يقف على الحقائق وأسرع بالحكم على نظام هذا العالم وانه باطل أشبه بمن أسرع فى الحكم لأحد الخصمين قبل سماع الآخر ، وكيف كان ذلك رمزا الى أن المقصود من الحياة انما هو الحكمة والعلم ، فأما القضاء ونحوه فانما هو لنظام نوع الانسان فى الحياة الدنيا ، ولعمرى ما أبعد الفرق بين المقامين مقام القضاء بين العباد ومقام معرفة الحقائق والوقوف على الدقائق فى نظام السموات والأرض . ان أولهما مقدمة وثانيهما نتيجة ، لذلك تجد قضاء داود تبعه ذم الذين يظنون أن السموات والأرض خلقتا باطلا . إن فى هذه السورة حثا على حسن القضاء بين العباد لحفظ الدولة ونظام الأمة وبهذا النظام وقيامه يقدر الناس أن يفكروا ويفقهوا فأما اذا لم يكن قضاء ولا نظام فلا مفكرين ولا حكماء لأنهم لايجدون أمنا فى البلاد فلايقدرون على التفكير ولا العلم

يقول الله فى آخر السورة ـ ولتعلمن نبأه بعد حين ـ وهذه الآية شرحها طويل ، فمن نبأ القرآن هذه الأمة الاسلامية المترامية الأكناف التى تبلغ الآن نحو (٣٥٠) مليونا من المسلمين ، أفليس هذا من أعظم

أنبائها ، ومن نبأ القرآن العلوم التى كشفها الناس حديثا ، وكيف جاء علم الأرواح الحديث مطابقا لهذا القرآن وأن الأرواح بعد الموت أحياء وأن من الأرواح من هم مغرمون بالمادّة وللمال والحياة والصيت والذكر فى هذه الدنيا وهؤلاء يكونون بعد الموت يحنو ين الى المادّة معذّبين بذلك ومنهم من يكونون أرقى علما وحكمة وأخلاقا ، وهؤلاء يتباعدون عن المادة و يقتربون من ربهم وأن أعلى الأرواح وألطفهم وأعلمهم وأرقاهم من يتخلص من المادة و يقرب من الله و يراه وان من الأرواح من هم فى غاية الصفاء واللطف ومنهم من هم فى ظلمة وكثافة فلا تقدر الأرواح العالية أن تلهمهم ، وان من الناس فى هذه الأرض من لطفت نفوسهم فلا تقدر الشياطين على الوسوسة اليهم كما لايقدر الصعاليك على مقابلة الملوك كما قال تعالى ــ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ــ أفلاترى أن هذا معجزة للقرآن ، أفلا ترى أن هذه الامور المذكورة فى هذه السورة قد أصبحت تقال فى المجامع النفسية علنا وهذا هو نفس القرآن ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ هو مافى هذه السورة ، من ذا كان يظنّ أن نبأ بقاء الأرواح بعد الموت وحسابها يظهر فى الدنيا قبل يوم القيامة

﴿ حكاية عجيبة ﴾

هل لك أيها الذكىّ أن تسمع ما أرويه لك عن حال نفسى : كنت أيام مجاورتى بالجامع الأزهر نائما به إذ رأيت كأنى فى قريتنا (كفرعوض الله حجازى) وكأن قائلا يقول لى : انظر انظر ! فنظرت فرأيت كرة بيضاء تميل الى الحمرة وسط زرقة الجوّ تعلو عن المقابر قليلا مقدار خمسة أمتار فقال هذه هى الروح ، وكان ذلك ليلة الخميس فاستيقظت وقت مع اخوانى المجاورين لنتوجه الى قصر النيل وما جاوره للرياضة فوجدت عند أحدهم كتاب ابن مسكويه فى علم الأخلاق ولاعلم لى بهذا الكتاب ولابهذه العلوم فمددت يدى الى الكتاب فقرأت فى أوله مسألة الروح والاستدلال على وجودها فعجبت كل العجب وصرت مغرما به و بغيره ، ثم تمادى الزمان حتى هذه الأيام الأخيرة أى بعد هذه الحادثة بأربعين سنة فاطلعت على علم الأرواح فوجدت انهم لما سألوهم فى المجامع النفسية أى لما أحضروا بعضها قالت : « إن الأرواح بعدالموت ترتفع فى الجوّ على مقدار خلاصها من المادّة وكلما كانت أجل أخلاقا وأغزر علما كانت أبعد عن الأرض » فعجبت كل العجب من موافقة تلك الرؤيا لأقوال الأرواح التى خاطبوها وأنا الآن لست أقول ان هذا تحقيق المقام بل أقول ان الموافقة هى العجب العجاب ، وأعجب من هذا انها توافق آراء ابن سينا والفلاسفة القائلين هذا القول وأن الانسان على قدر انجذابه الى المادة يبعد عن الله و بقدر بعده عن الله يقرب من المادّة ولعلّ مرتبة الروح فى القلة عند صعودها دالة على مرتبتها فى جهنم . أليس هذا قوله تعالى ــ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم انهم لصالوا الجحيم * ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون ــ

يقول علماء الأرواح : « إن النفس بعد الموت اذا كانت مترديه رداء الذنوب جللها وزملها وحجبتها عن الأرواح العالية حتى لاتقدر على تعليمها » ويقولون أيضا : « انه كلما كان الإنسان أشدّ انكارا للبعث كانت روحه عند الموت أشدّ عذابا لأنه يتنازعها عاملان : عامل الانجذاب الى المادة والياس من حياة أخرى وعامل خروج الروح الذى قضت به النواميس الإلهية فى الأرض ، وكلما كان الانسان أكثر صلاحا كان أكثر سهولة فى انفصال روحه من جسمه . قالوا : وأرواح الأشرار بعد الموت الظاهر تبقى متصلة بجسمه مدة حتى يحس المتضررون برعى الدود فى أجسامهم ويحكم عليهم بعد الموت بامور فظيعة لأنهم لم يصبروا على ما أصابهم فيضطرون لعذاب عظيم لايطاق هناك »

وقالوا : « إن النفس متى خرجت من الجسد اطلعت على جميع أعمالها مسطرة فى جسمها كأنها تشاهدها لاتحتاج فى التعريف الى شئ آخر ، وهناك تعرف مقدار ما عملت وتعرف الثواب وتعرف مقدار

العقوبات التي سنذكرها ، وكل نقص في النفس يتبعه ألم هناك ، وهناك يكون العذاب والنعيم الذي أصاب النفس مقيما حول الروح فهو هناك كالهواء هنا ، فهم إما في إطار من شقاء أومن نعيم »

ياعجبا كل العجب ، جاء في الحديث : « القبر إما روضة من رياض الجنة أوحفرة من حفر النار » وهذا هو الذي جاء في العلم الحديث اليوم ، ويقول الله ـ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ـ وهو عين ماتقدم

انظر كيف يقولون أيضا : « إن عواطف المحبة والبغضاء والحسد والغيرة والندامة والاشفاق وما أشبه ذلك تكون لها سوائل روحانية محيطة بالنفس فهي كروائح الزروع المختلفة في جسم الانسان . إن علم النبات يفهمنا ذلك ففيه الروائح العطرية المختلفة وفيه الروائح الكريهة الكثيرة والانسان يميزها بشمه ، فاذا متنا ميزنا سوائل الفضائل المختلفات كما نميز روائح النباتات المتميزات واذن يظهر للمرء قوله تعالى ـ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ـ فيعرف الانسان كل شئ بنفسه كما يميز في بعض الأوقات حبيبه من عدوّه مما يشعر به في نفسه من الميل ومن النفور »

ويقولون أيضا : « إن كل خلق ذميم تتأذى به هناك له عقاب ، وكل مايصيبنا من آلام الدنيا ومصائبها يزيل عنا بعض هذه العيوب ويبقى منها مايلازمنا بعد الموت ، والروح في حال البرزخ يعذب عذابا ماديا أو معنويا على مقتضى ذنوبها حتى ان المتكبر يقاسي آلاما لاتطاق في حال البرزخ »

وقالوا : « إن المغرم بالمال والحشم والخدم والشهوات يصاب بألم نفسي لأنه يطلع فيرى الناس اقتسموا ماله وأخذوا ثروته وهو يراهم ولايقدر على منعهم وهذا عذاب لايطاق »

ويقولون : « إن القتلى والسفاكين تطاردهم أشباح من أماتوهم فلايهدءون ولايقدرون على الاحتجاب من هذا العذاب ، وهؤلاء وأمثالهم لايطلعون على بعض أحوال مستقبلهم للظلمات المتراكمة عليهم »

ويقولون : « إن الأرواح العالية ترى مالاعين رأت بعد الموت وتطير الى العلا جماعات جماعات ويبتهجون بالجمال الإلهي واحكام الصنعة البديعة في السموات ويبقون سكرى آمادا وآمادا وهم يسيرون زمرا متصابين كل جماعة في درجتهم الخاصة التي ماتوا عليها وهم متحابون متجاذبون كتجاذب المواد الأرضية وتظهر على أيديهم العجائب في عالم الأثير البهيج البديع ، والذي يجمعهم انما هو انخلاعهم من الكبرياء واتحادهم في الفضائل وتكون أجسامهم خفيفة لطيفة غلبت روحانيتها »

ويقولون : « انهم يوقعون في طبقات الأثير ألحانا بديعة وقد يجتمعون حول روح أعظم منهم فيعطيهم تعاليم ترقيهم ، ثم إن أجسامهم لاتمرض كأجسامنا للطافتها وخفتها »

ويقولون : « انهم يقيمون أفراحا وأعيادا باجتماع الأرواح العلوية من أقطار الكون كله وكل منها يتلألأ بسناه اللطيف الدال على صفاته ودرجاته في الرقيّ »

هذا هو الذي أحببت أن أنقله لك الآن من كتب الأرواح المسطورة أمامي ، إياك أن تظن أني أجعل هذا القول المنقول عن المجامع النفسية قولا لايحتاج الى دليل انما المقام مقام تفسير قوله تعالى ـ ولتعلمنّ نبأه بعد حين ـ فنقول نعم يا ربنا عرف عبادك بعض ماجاء في كتابك فهاهم أولاء عرفوا أن الأرواح لها نغمات وموسيقى في اجتماعها وهذا هو الذي قاله بعض المفسرين في قوله تعالى ـ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ـ فعدّوا من ذلك النغمات الموسيقية وعرفوا انهم نزع مافي صدورهم من غلّ اخوانا على سرر متقابلين وهذا لايكون إلا للأرواح الخالصة من شوائب الحسد والغلّ الخ وعرفوا أن الروح تقرأ أعمالها في شكل جسمها الروحي وغير ذلك مما أوضحته في هذا المقال ، فليس المقام مقام تحقيق صدق هؤلاء وكذبهم بل المقام في أنه طابق مافي القرآن ، ولست أيها الذكي ملزما أن تبحث عن كون قولهم حقا أو باطلا

فأمامك القرآن نص عليه فان أردت البحث فاقرأ طرق تحضير الأرواح من كتابي المسمى « الأرواح » واستحضرها بالطرق الواضحة هناك وكن مخلصا فى البحث لأجل العلم والمعرفة لا لأجل الدنيا فستعرف الحقائق بنفسك لا بأهل أوروبا الذين أخبرونا أن أرواح القدماء الصالحين هذا شأنهم وهكذا الطالحون والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين . انتهى الفصل الثالث فى مقصود السورة

﴿ لطائف هذه السورة ﴾

(١) فى بعض أسرار — ص — وسورتها
(٢) فى قوله تعالى — ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض —
(٣) فى قوله تعالى — رب اغفرلى وهب لى ملكا — الخ
(٤) فى قوله تعالى — قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين —

﴿ اللطيفة الأولى فى بعض أسرار — ص — وسورتها ﴾

(كتب صباح يوم الجمعة ٢٤ ينايرسنة ١٩٣٠)

استيقظت الليلة بعد نصف الليل وكنت نمت قبل أن أصلى العشاء فصليتها وفى ركعات الوتر قرأت آيات من ﴿ سورة ص ﴾ وفيها — ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض — الخ فخر بفكرى بعض عجائب هذه السورة وبعض عجائب الأرض والسماء وذلك أن (ص) كما قدمنا جاءت فى أول حروف الصبر وأول كلمة فى السورة جاءت الصاد فى أولها — واصبروا — والهمزة فيها للوصل ، ثم أمر ﷺ أن يصبر فى آية — اصبر على ما يقولون — فى مقابلة قولهم — امشوا واصبروا على آلهتكم — إذن الكفر عند أهله لايتم إلا بالصبر والنبوة عند أهلها لاتتم إلا بالصبر ولكن يابعد مابين الصبرين ، وهنا أعقبه بقوله — واذكر عبدنا داود — الخ فماذا ترى ؟ ترى انه ذكر داود وسليمان وأيوب ثم ابراهيم واسحق الخ ، فهمنا رأينا داود وسليمان ملكين وأيوب ابتلى بنقم الدنيا مرضا وفقرا ولكن هذان النبيان مع هذا الملك قد ابتليا بما يشبه المعصية وهذا يحزنهما كما حزن موسى بقتله القبطى . إذن الألم عند الأنبياء ﴿ نوعان ﴾ نوع يرجع الى الألم الروحى الدينى الذى يورث الندم ، ونوع يرجع الى الألم الجسمى والمالى ونحوهما ، فالنوع الأول ظاهر فى أمر موسى وداود وسليمان ، والثانى ظاهر فى أمر أيوب وابراهيم واسحق واسماعيل ، فالأول بيدنه وماله وأهله والثانى بالنار و بذبح ولده والثالث والرابع بذبحه هو فصبر الجميع ففازوا ونجوا . إذن فى الملك امتحان وفى الجسم امتحان وفى الفقر امتحان وهذا كله لم يقصد منه فى القرآن أن يعز الله الأنبياء كلا والله بل قصد منه تعليمنا نحن ، ومعنى هذا انى أحد فى نفسى خزيا وحزنا من أمور سبقت اذا تذكرتها دلت على انى كنت غير كامل الخلق ولا ممتازا بالصبر كأن أنطق بقول لاقيمة له أو أفعل فعلا غير جيد فيقول الله لى إن موسى لم يمنعه قتل القبطى الذى أورثه الندم أن يكون نبيا ورسولا وأن داود وسليمان اللذين ابتليا بما ظاهره انه ذنب فندما ولكن هذا الندم ليس معناه انهما أذلا نفسيهما طول الحياة وقعدا عن الأعمال . كلا . بل ان الندم مظهر يدل على أن النفس به ترق وربما تكون بعد الذنب خيرا منها قبله فان معصية توجب ذلا وانكسارا خير من طاعة توجب عزا واستكبارا ، وهكذا قد يعترى أحدنا نقص فى الأموال والأنفس والثمرات فيقول الله له إياك أن تقنط فكما صبر أيوب على النقص فى ذلك وصبر ابراهيم واسحق و يعقوب على ما ابتلوا به ففازوا جميعا هكذا أنت اصبر تنل ، إذن يكون هذا تطبيقا على آية البقرة — و بشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون — فذكر البشارة

والصلوات

والصلوات والرحمة والهداية لهم هو الذى ظهر مثاله هنا بفوز داود وسليمان وأيوب وأمثالهم بعد اصابتهم جميعا بمصائب روحية دينية أومصائب جسمية ومالية إذ يقول الله يامحمد اذكر عبدنا داود الخ فهؤلاء جميعا ابتلوا بانواع من البلاء فى أنفسهم وأهلهم وأنت ابتليت بأهل مكة إذ كذبوك وقد صبروا على كفرهم فاصبر على إيمانك وصابرهم وستفوز كما فاز من قصصتهم عليك من الأنبياء ، فهكذا أنا وقراء هذا التفسير يقول الله لنا كل مايصيبكم لايخرج عما ذكر فهو إما مصائب من أذى الناس واما من ذنوب تقدمت واما من نقص الأنفس والأموال والثمرات وقد صبر نبينا ﷺ على الأول و بعض الأنبياء على الثانى و بعضهم على الثالث ففازوا جميعا وأنت تفوز كما فازوا اذا تعلمت الصبر وهذا هو بعض سر (ص) فى أول السورة إذ ظهر أن المدار جميعه فى هذه السورة على شئ واحد وهو الصبر

أقول : ثم بعد أن خطر لى هذا الخاطر تذكرت أمرا عجيبا وهو قوله تعالى ـ كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ـ فقلت فما الذى يتذكره أولوا الألباب يا ترى فى هذه الآيات ؟ هنالك وجدت رابطة وثيقة بين الصبر المتقدم بجميع فروعه و بين صبر القضاة على القضاء بالحق لأنهم معرضون لسخط الناس وسخط الملوك الذين ولوهم ، والله يقول هنا ـ فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى ـ وهذا لا يكون إلا بالصبر . فهذا أيضا من سر (ص) فهاك ما جاء فى كتاب «العقد الفريد ، للملك السعيد» من صبر القضاة على العدل وقول الحق ثم فوزهم ، وفى هذا المقام عشر قضايا وهذا نصها :

﴿ خاتمة لهذا الركن ﴾

من عادة من له خاطر وقاد وفكر نقاد وقلب الى ادراك الفضائل منقاد أنه اذا وقف على القواعد الكلية فى المقاعد العلية والمقاصد المرعية لاسيما فى المراصد الشرعية أن يتطلع الى الوقوف على شئ من جزئياتها ويتوقع معرفة شئ من أحوال سالكى طرقاتها ليكون على بصيرة من التفاوت بين الجامعين أصناف صفاتها القارعين وصيد صفاتها و بين القانعين منها بمجرد أسماء شبهاتها التابعين أهواء نفوسهم الأمارة فى ملاذها وشهواتها وهذه وقائع وقضايا صدرت من جماعة من القضاة المتقدمين القائمين بأحكام المسلمين فيها اعتبار جامع للمتوسمين وادكار نافع والذكرى تنفع المؤمنين تصدع بأن قضاة الشريعة هذا وضعها وولاة أحكام المسلمين هذا صنعها والوقائع الصادرة عنهم كثيرة يبعد جمعها وفى ذكر بعضها تبصرة يعم نفعها و يعظم وقعها وقد وقع الاقتصار من أحكامها على ذكر عشرة لاحاجة معها الى زيادة تذكره

﴿ القضية الاولى عن عدل محمد بن عمران الطلحى ﴾

قال نمير المدنى قدم علينا أمير المؤمنين المنصور المدينة ومحمد بن عمران الطلحى متولى القضاء بها وأنا كاتبه فحضر جماعة من الجمالين واستعدوه على أمير المؤمنين المنصور فى شئ ذكروه فأمرنى أن أكتب الى المنصور بالحضور معهم أو انصافهم فقلت له تعفينى من ذلك فانه يعرف خطى فقال اكتب فكتبت وختمت فقال والله مايمضى به غيرك فمضيت به الى الربيع حاجبه وجعلت أعتذر اليه فقال لابأس عليك ودخل بالكتاب على المنصور ثم خرج الربيع فقال للناس وقد حضر وجوه أهل المدينة والأشراف وغيرهم ان أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام و يقول لكم انى دعيت الى مجلس الحكم فلا أحد منكم يقوم اذا خرجت ولايبدأنى بالسلام ثم خرج و بين يديه المسيب والربيع وأنا خلفه وهو فى ازار ورداء فسلم على الناس فما قام اليه أحد ثم مضى حتى بدأ بقبر النبى ﷺ فسلم عليه ثم التفت فلما رآه ابن عمران القاضى أطلق رداءه عن عاتقه ثم احتبى به ودعا بالخصوم الجمالين ثم دعا بالمنصور فادعى عليه القوم وقضى لهم عليه ثم انصرف فلما دخل المنصور الدار قال للربيع اذهب فاذا قام القاضى من مجلسه فادعه فلما دعاه ودخل على المنصور سلم عليه فرد عليه السلام وقال

له جزاك الله عن دينك وعن نبيك وعن حسبك وعن خليفتك أحسن الجزاء قد أمرت لك بعشرة آلاف صلة لك فاقبضها فكانت عامة أموال محمد بن عمران من تلك الصلة فما أبرك سلوك السنن القويم واتباع الصراط المستقيم

﴿ القضية الثانية عدل عافية بن يزيد القاضي ﴾

نقل أن عافية بن يزيد القاضي كان يلي القضاء ببغداد للمهدي فجاء في بعض الايام وقت الظهر للمهدي وهو خال فاستأذن عليه فلما دخل عليه استأذنه في من يسلم اليه القمطر الذي فيه قضايا مجلس الحكم واستعفاه من القضاء وطلب منه أن يقيله من ولايته فظنّ المهدي أن بعض الاولياء قد عارضه في حكمه فقال له في ذلك وانه ان عارضك أحد لننكر عليه فقال القاضي لم يكن شئ من ذلك قال فما سبب استعفائك من القضاء قال يا أمير المؤمنين كان تقدّم الىّ خصمان منذ شهر في قضية مشكلة وكل يدعى بينة وشهودا ويدلي بحجج تحتاج الى تأمل وتلبث فرددت الخصوم رجاء أن يصطلحوا وأن يظهر الفصل بينهما فسمع أحدهما أني أحب الرطب فعمد في وقتنا هذا وهو أول أوقات الرطب فجمع رطبا لايتهيأ في وقتنا جمع مثله لأمير المؤمنين ومارأيت أحسن منه ورشا بوّابي بدراهم على أن يدخل الطبق علىّ ولايبالي أن يردّ عليه فلما أدخله علىّ أنكرت ذلك وطردت بوّابي وأمرت بردّ الطبق فردّ عليه فلما كان اليوم تقدّم الخصمان الىّ فما تساويا في عيني ولا قلبي فهذا ياأمير المؤمنين ولم أقبل فكيف يكون حالي لوقبلت ولا آمن أن تقع علىّ حيلة في ديني وقد فسد الناس فأقلني يا أمير المؤمنين أقالك الله واعفني عفا الله عنك

﴿ القضية الثالثة عدل شريك بن عبد الله قاضي الكوفة ﴾

روى عمر بن هياج بن سعد قال أتت امرأة يوما شريك بن عبدالله قاضي الكوفة وهو في مجلس الحكم فقالت أنا بالله ثم بالقاضي قال من ظلمك قالت الامير موسى بن عيسى ابن عم أمير المؤمنين كان لي بستان على شاطئ الفرات فيه نخل ورثته عن أبي وقاسمت اخوتي وبنيت بيني وبينهم حائطا وجعلت فيه رجلا فارسيا يحفظ النخل و يقوم به فاشترى الامير موسى بن عيسى من جميع اخوتي وساومني ورغبني فلم أبعه فلما كان هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام وفاعل فاقتلعوا الحائط فأصبحت لا أعرف من نخلي شيأ واختلط بنخل اخوتي فقال ياغلام أحضر طينة فأحضر فختمها وقال امض الى بابه حتى يحضر معك فجاءت المرأة بالطينة المختومة فأخذها الحاجب ودخل على موسى فقال قد أعدى القاضي عليك وهذا ختمه فقال ادع لي صاحب الشرطة فدعابه فقال امض الى شريك وقل ياسبحان الله مارأيت أعجب من أمرك امرأة ادّعت دعوى لم تصح أعديتها علىّ قال صاحب الشرطة ان رأى الامير أن يعفيني من ذلك فقال امض ويلك فخرج وقال لغلمانه اذهبوا واحملوا لي الى حبس القاضي بساطا وفراشا ومأتدعو الحاجة اليه ثم مضى الى شريك فلما وقف بين يديه أدّى الرسالة فقال لغلام المجلس خذ بيده فضعه في الحبس فقال صاحب الشرطة والله قدعلمت انك تحبسني فقدمت ما أحتاج اليه الى الحبس وبلغ موسى بن عيسى الخبر فوجه الحاجب اليه وقال له رسول أدّى رسالة أي شئ عليه فقال شريك اذهبوا به الى رفيقه الى الحبس فحبس فلما صلى الامير موسى العصر بعث الى اسحق ابن الصباح الاشعثي والى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضي شريك وقال لهم أبلغوه السلام وأعلموه أنه استخف بي واني لست كالعامة فمضوا اليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر فأبلغوه الرسالة فلما انقضى كلامهم قال لهم مالي أراكم جئتموني في غبرة من الناس فكلمتموني من ههنا من فتيان الحيّ فأجابه جماعة من الفتيان فقال ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به الى الحبس ما أنتم الا فتنة وجزاؤكم الحبس قالوا له أجادّ أنت قال حقا حتى لاتعودوا لرسالة ظالم فحبسهم فركب موسى بن عيسى في الليلة الى باب السجن

وفتح

وفتح الباب وأخرجهم كلهم فلما كان من الغد وجلس شريك للقضاء جاءه السجان فأخبره فدعا بالقمطر نختمه ووجه به الى منزله وقال لغلامه الحق بثقلى الى بغداد والله ماطلبنا هذا الامر منهم ولكن أكرهونا عليه ولقد ضمنوا لنا فيه الاعزاز اذ تقلدناه لهم ومضى نحو قنطرة الكوفة الى بغداد و بلغ الخبر الى موسى ابن عيسى فركب فى موكبه فلحقه وجعل يناشده الله و يقول يا أبا عبدالله تثبت انظر اخوانك تحبسهم دع أعوانى قال نعم لأنهم مشوا لك فى أمر لم يجز لهم المشى فيه ولست ببارح أو يردوا جميعا والا مضيت الى أمير المؤمنين المهدى فاستعفيته مما قلدنى فأمر موسى بردهم جميعا الى الحبس وهو واقف والله مكانه حتى جاء السجان فقال قد رجعوا جميعا الى الحبس فقال لأعوانه خذوا بلجام دابته بين يدى الى مجلس الحكم فمروا به بين يديه حتى أدخل المسجد وجلس فى مجلس القضاء فجاءت المرأة المتظلمة فقال هذا خصمك قد حضر فقال موسى وهو مع المرأة بين يديه قبل كل أمر أنا قد حضرت أولئك يخرجون من الحبس فقال شريك أما الآن فنعم أخرجوهم من الحبس فقال ماتقول فيما تدعيه هذه المرأة قال صدقت قال ترد ما أخذت منها وتبنى حائطها سريعا كما كان قال أفعل ذلك قال لها أبقى لك عليه دعوى قالت بيت الرجل الفارسى ومتاعه قال موسى بن عيسى ويرد ذلك كله بقى لك عليه دعوى قالت لا و بارك الله عليك وجزاك خيرا قال قومى فقامت من مجلسه فلما فرغ أخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه فى مجلسه وقال السلام عليك أيها الامير أتأمر بشئ فقال أى شئ آمر وضحك فقال له شريك أيها الامير ذاك الفعل حق الشرع وهذا القول الآن حق الادب فقام الامير وانصرف الى مجلسه وهو يقول من عظم أمر الله أذل الله عظماء خلقه

« القضية الرابعة عدل القاضى شريك أيضا »

قال عمر ابن أخى خالد بن سعيد كنت من أصحاب القاضى شريك فأتيته يوما فى منزله باكرا فخرج الى فى رداء ولبس تحته قميص وعليه كساء فقلت له قد أصبحت عن مجلس الحكم فقال غسلت ثيابى أمس فلم تجف اجلس فجلست فجعلنا نتذاكر باب العبد يتزوج بغير اذن مواليه قال ماعندك فيه وماتقول فيه وكانت الخيزران قد وجهت رجلا نصرانيا على الطراز بالكوفة وكتبت الى موسى بن عيسى أن لا يعصى له أمرا بالكوفة وكان مطاعا بالكوفة فخرج علينا ذلك اليوم من زقاق ومعه جماعة من أصحابه وعليه جبة خزوطيلسان وتحته برذون فاره واذا بين يديه رجل مكتوف وهو يصيح واغوثاه أنا بالله ثم بالقاضى واذا فى ظهره آثار السياط فسلم على شريك وجلس الى جانبه فقال الرجل انا بالله ثم بك أصلحك الله أنا رجل أعمل هذا الوشى أجرتى كل شهر مائة أخذنى هذا منذ أربعة أشهر واحتبسنى فى طراز يجرى على القوت ولى عيال قد ضاعوا وهلكوا وأفلت اليوم نحوهم لأراهم فلحقنى ففعل بظهرى ماترى فقال القاضى قم فاجلس مع خصمك يانصرانى فقال أصلحك الله يا أبا عبدالله هذا من خدم السيدة مره الى الحبس قال قم ويلك واجلس معه كما يقال لك فجلس معه فقال ماهذه الآثار التى بظهر هذا الرجل من أثرها فقال أصلح الله القاضى انما ضربته أسواطا بيدى وهو يستحق أكثر من ذلك مربه الى الحبس فألقى شريك كساءه ودخل داره وأخرج سوطا ثم ضرب بيده الى مجامع ثوب النصرانى وهو يقول لاتضرب والله بعدها المسلمين فهم أعوانه أن يخلصوه فقال شريك لفتيان الحى خذوا هؤلاء الى الحبس فهرب الاعوان و بقى النصرانى فضربه أسواطا فجعل يبكى وهو يقول ستعلم فلما فرغ من ضربه ألقى السوط فى الدهليز وقال لى يا أبا حفص ماتقول فى العبد يتزوج بغير اذن مواليه فأخذنا فيما كنا فيه كأنه لم يصنع شيئا وقام النصرانى الى البرذون ولم يكن له من يمسكه فجعل النصرانى يضرب البرذون فقال له شريك أرفق به ويلك فانه أطوع لله منك ثم قال خذ فيما كنا فيه قال عمر فقلت له مالنا ولهذا لقد فعلت اليوم فعلة ستكون لها عاقبة مكروهة فقال لى أعز أمر الله يعزك الله خذ فيما كنا فيه فذهب النصرانى الى

موسى بن عيسى فقال شريك فعل بى كيت وكيت فقال له والله ما أعرض لشريك فمضى النصرانى الى بغداد ولم يعد بعدها الى الكوفة

﴿ القضية الخامسة عدل عبيد بن ظبيان قاضى الرشيد بالرقة ﴾

قال الزبير بن بكار حدثنى عمى مصعب قال كان عبيد بن ظبيان قاضى الرشيد بالرقة وكان الرشيد اذ ذاك بها فجاء رجل الى القاضى فاستعدى اليه على عيسى بن جعفر فكتب اليه القاضى ابن ظبيان أما بعد أبقى الله الامير وحفظه وأتم نعمته أتانى رجل فذكر أنه فلان بن فلان وأن له على الامير أبقاه الله تعالى خمسمائة ألف درهم فان رأى الامير يحضر مجلس الحكم أو يوكل وكيلا يناظر خصمه أو يرضيه فعل ودفع الكتاب الى رجل فأتى باب ابن جعفر فدفع الكتاب الى خادمه فأوصله اليه فقال له قل له كل هذا الكتاب فرجع الرجل الى القاضى فأخبره فكتب اليه أبقاك الله وأمتع بك حضر رجل يقال له فلان بن فلان وذكر أن له عليك حقا فسر معه الى مجلس الحكم أو وكيلك ان شاء الله تعالى ووجه الكتاب مع عونين من أعوانه فحضرا باب عيسى بن جعفر ودفعا الكتاب اليه فغضب ورمى به فانطلقا فأخبراه فكتب اليه حفظك الله وأمتع بك لا بدّ أن تصير أنت أو وكيلك الى مجلس الحكم فان أبيت أنهيت أمرك الى أمير المؤمنين ان شاء الله ثم وجه الكتاب مع رجلين من أصحابه فقعدا على باب عيسى بن جعفر حتى طلع فقاما اليه ودفعا اليه كتاب القاضى فلم يقرأه ورمى به فعادا فأبلغاه ذلك فختم قمطره وأغلق بابه وقعد فى بيته فبلغ الخبر الى الرشيد فدعاه وسأله عن أمره فأخبره الخبر وقال يا أمير المؤمنين اعفنى من هذه الولاية فوالله لا أفلح قاض لا يقيم الحق على القوى والضعيف فقال له الرشيد من يمنعك من اقامة الحق فقال هذا عيسى بن جعفر فقال الرشيد لابراهيم بن عثمان سر الى دار عيسى بن جعفر واختم أبوابه كلها ولا يخرج منها أحد ولا يدخل اليها أحد حتى يخرج الى الرجل من حقه أو يسير معه الى مجلس الحكم فأحاط ابراهيم بداره خمسمائة فارس وأغلق الابواب كلها فتوهم عيسى بن جعفر أن الرشيد قد حدث عنده رأى فى قتله ولم يعرف الخبر فجعل يكلم الاعوان من خلف الباب وارتفع الصراخ فى منزله وضج النساء فسكتهن ثم قال لبعض الاعوان من غلمان ابراهيم ادع لى أبا اسحاق لأكلمه فأعلموه فجاء حتى وقف على الباب فقال له عيسى ويحك ما حالنا فأخبره بخبر القاضى ابن ظبيان فأمر باحضار خمسمائة ألف درهم من ساعته فاحضرت وأمر أن تدفع الى الرجل فجاء ابراهيم الى الرشيد فأخبره فقال اذا قبض الرجل ماله فافتح أبوابه وعرّفه أنّ القاضى من عمل حكمه فيك ما رأيت فاياك ومعارضته

﴿ القضية السادسة جراءة عمر بن حبيب القاضى ﴾

قال عمر بن حبيب القاضى حضرت مجلس الرشيد يوما فجرت مسئلة فتنازعها الخصوم وعلت الاصوات فيها فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن النبىّ ﷺ فدفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم أبو هريرة متهم فيما يرويه وصرّحوا بتكذيبه ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم فقلت أنا الحديث صحيح عن رسول الله ﷺ وأبو هريرة صحيح النقل صدوق القول فيما يرويه عن رسول الله ﷺ فنظر الىّ الرشيد نظر مغضب وانصرفت الى منزلى فلم ألبث أن جاءنى غلام فقال أجب أمير المؤمنين اجابة مقتول وتحنط وتكفن فقلت اللهم انك تعلم أنى دفعت عن صاحب نبيك أن يطعن على أصحابه فسلمنى منه فادخلت على الرشيد وهو جالس على كرسى حاسر عن ذراعيه بيده السيف وبين يديه النطع فلما بصر بى قال يا عمر بن حبيب ما تلقانى أحد من الدفع والردّ لقولى بمثل ما تلقيتنى به وتجرأت علىّ فقال يا أمير المؤمنين انّ الذى قلته وافقت عليه وجادلت عنه ازراء على رسول الله ﷺ وعلى ما جاء به فانه اذا كان أصحابه ورواة حديثه كذابين فالشريعة باطلة والفرائض فى الأحكام فى الصلاة والصيام والنكاح والطلاق والحدود

مردودة غير مقبولة فالله الله يا أمير المؤمنين أن تظن ذلك أو تصغى اليه وأنت أولى أن تغار لرسول الله ﷺ قال أحيتني ياعمر بن حبيب أحياك الله أحيتني أحياك الله أحيتني أحياك الله وأمر له بعشرة آلاف درهم

﴿ القضية السابعة عدل حفص القاضي ﴾

قال يحيى بن الليث باع رجل من أهل خراسان جمالا على مرزبان المجوسي وكيل أم جعفر بثلاثين ألف درهم فمطله بثمنها وعوّقه عن سفره فطال ذلك على الرجل فأتى الى بعض أصحابه وشاوره كيف يعمل فقال اذهب الى مرزبان وقل له أعطني ألف درهم وأحل عليك بالمال الباقي وسافر الى خراسان فاذا فعل فعرفني حتى أشير عليك ففعل الرجل وأتى الى مرزبان فأعطاه ألف درهم فرجع الى الرجل فأخبره فقال له عد اليه وقل له اذا ركبت غدا فاجعل طريقك على القاضي حتى أوكل رجلا يقبض المال منك فى دفعات وأروح أنا الى خراسان فاذا جاء وجلس الى القاضي فادّع عما لك كله فاذا أقر حبسه القاضي وأخذت مالك منه فرجع الخراسانى الى مرزبان وسأله ذلك فأجابه وقال غدا انتظرنى بباب القاضي فلما ركب من الغد قام اليه الرجل وقال ان رأيت أن تنزل الى القاضي حتى أوكل بقبض المال وأروح فنزل مرزبان فتقدما الى القاضي وكان حفص بن غياث فقال الرجل أصلح الله القاضي لى على هذا تسعة وعشرون ألف درهم وادّعى عليه فقال له حفص ماتقول يامجوسي قال صدق أصلح الله القاضي قال قد أقرّ لك قال يعطينى مالى والا الحبس فقال لمرزبان يامجوسي ماتقول قال هذا المال على السيدة أم جعفر قال له حفص يا أحمق تقرّ ثم تقول هذا على السيدة ماتقول يارجل قال ان أعطانى مالى والا حبسته فقال حفص يامجوسي ماتقول قال المال على السيدة قال حفص خذوا بيده الى الحبس فلما حبس بلغ الخبر الى أم جعفر فغضبت و بعثت الى السندى وقالت وجه بمرزبان الىّ وعجل فأسرع السندى فأخرجه من الحبس و بلغ الخبر الى حفص أن مرزبان قد أخرج فقال أحبس أنا ويخرج السندى والله لاجلست للقضاء أو يرد مرزبان الى الحبس وغلق باب بيته فسمع السندى ذلك فجاء الى السيدة أم جعفر فقال الله الله فىّ فان حفصا من لا تأخذه فى الله لومة لائم وأخاف من أمير المؤمنين الرشيد يقول لى بأمر من أخرجته رده الى الحبس وأنا أكلم حفصا فيه فأجابته ورده الى الحبس وقالت أم جعفر الرشيد قاضيك هذا أحمق حبس وكيلى واستخف به اكتب اليه ومره لاينظر فى الحكم فأمر لها بالكتاب و بلغ حفصا ذلك فقال للرجل أحضر لى شهودا لاسجل لك على المجوسي بالمال وجلس حفص وسجل على المجوسي فجاء خادم السيدة ومعه كتاب الرشيد فقال هذا كتاب أمير المؤمنين فقال له حفص مكانك نحن فى حكم شرعى حتى نفرغ منه فقال كتاب أمير المؤمنين فقال اسمع مايقال لك فلما فرغ حفص من السجل أخذ الكتاب من الخادم وقرأه وقال اقرأ على أمير المؤمنين السلام وأخبره أن كتابه ورد وقرأته وقد أنفذت الحكم عليه فقال الخادم قد عرفت والله ماصنعت أبيت أن تأخذ كتاب أمير المؤمنين حتى تفرغ مما تريد والله لأخبرن أمير المؤمنين بما فعلت قال له حفص قل له ما أحببت فجاء الخادم وأخبر هارون الرشيد بذلك فضحك وقال الحاجب مر لحفص ابن غياث بثلاثين ألف درهم فركب يحيى بن خالد فاستقبل حفصا منصرفا عن مجلس الحكم فقال أيها القاضي قد سررت أمير المؤمنين اليوم وقد أمر لك بثلاثين ألف درهم فما كان السبب فى هذا فقال حفص تمم الله سرور أمير المؤمنين وأحسن حفظه وكلاءته مازدت على ما أفعل كل يوم قال ومع ذاك قال لا أعلم الا أنني سجلت على مرزبان المجوسي بمال وجب عليه فقال يحيى فمن هذا سر أمير المؤمنين قال حفص الحمد لله كثيرا من قام بحقوق الشريعة ألبسه الله رداء المهابة

﴿ القضية الثامنة عدل القاضي أبي حازم ﴾

قال أبو الحسن عبدالواحد المصيبي حضرت القاضي أباحازم وقد جاءه طريف المخلدي من أمير المؤمنين المعتضد بالله وقال يقول لك أمير المؤمنين لنا على فلان مال وقد بلغنا أن غرماءه أثبتوا عندك افلاسه وقسطت لهم ماله فاجعلنا كأحدهم وقسط لنا فقال أبو حازم قل له أطال الله بقاءه أذاكر لما قال لي وقت أن قلدني القضاء قد أخرجت الأمر من عنق وجعلته في عنقك ولا يجوز أن أحكم في مال رجل لمدع الا ببينة فرجع طريف وأخبره فقال له قل له فلان وفلان يشهدان يعني رجلين جليلين من أعيان الدولة كانا في ذلك الوقت فقال يشهدان عندي وأسأل عنهما فان زكيا قبلت شهادتهما والا أمضيت ماثبت عندي فامتنع أولئك من الشهادة فزعا أن لا يقبل قولهما ولم يدفع للمعتضد شيأ فهكذا يكون القضاء السديد

﴿ القضية التاسعة نادرة في عدل أبي حازم عبدالحميد القاضي ﴾

ذكر وكيع القاضي قال كنت أتقلد لأبي حازم عبد الحميد القاضي وقوفا في أيام المعتضد بالله منها وقف الحسن بن سهل فلما استكثر المعتضد من عمارة القصر المعروف بالخلافة أدخل فيه بعض وقف الحسن بن سهل الذي تحت يدي ونظري وهو مجاور القصر وبلغت السنة آخرها وقد جبيت مال الوقف الا ما أخذه المعتضد جئت الى القاضي أبي حازم فعرفته اجتماع مال السنة واستأذنت في قسمته في سبيله على أهل الوقف قال هل جبيت ما على أمير المؤمنين فقلت ومن يجسر يطالب الخليفة فقال والله لاقسمت الارتفاع أو تأخذ ما عليه والله لئن لم تؤد اليه لاوليته عملا ثم قال امض اليه الساعة وطالبه فقلت ومن يوصلني فقال امض الى صافي الحرمي وقل له انك رسول أنفذت في مهم ليستأذن لك فاذا وصلت اليه فعرفه ماقلت لك جئت فقلت لصافي ذلك فاستأذن لي وأدخلني وكان آخر النهار فلما صرت بين يدي الخليفة ظن أن أمرا عظيما قد حدث فقال هيه فقلت اني أتولى لعبد الحميد قاضي أمير المؤمنين وقوف الحسن بن سهل وفيها ما أدخله أمير المؤمنين الى قصره ولما جبيت مال هذه السنة امتنع من تفرقته الى أن أجبي ما على أمير المؤمنين وأنفذني الساعة قاصدا بهذا السبب وأمرني أن أقول اني حضرت في مهم لاصل اليك قال فسكت المعتضد ساعة متفكرا ثم قال أصاب عبدالحميد ياصافي أحضر الصندوق فلما أحضره قال كم يجب لك قال قلت أربعمائة دينار قال أفتعرف النقد والوزن قلت نعم قال هاتوا ميزانا ثم قال أتزن أربعمائة دينار فقبضتها وانصرفت الى أبي حازم فعرفته ذلك فقال أضفها الى ماعندك من الوقوف وفرقه غدا في سبيله ولا تؤخر ذلك فمن حكم بالحق نفذ حكمه وأطيع أمره وأرضى ربه وأبرأ ذمته

﴿ القضية العاشرة عدل اسماعيل القاضي ﴾

قال الدار قطني سمعت عبدالرحيم ابن القاضي اسمعيل بن اسحاق يقول كان في حجر أبي يتيم فبلغ وله أم وأختها في دار الخليفة المعتضد بالله فقالت أم اليتيم لأختها كلمي أمير المؤمنين حتى يرفع اسمعيل القاضي الحجر عن ولدي فكلمته فدعا المعتضد عبيدالله بن سليمان بن وهب وزيره وقال له قل لاسمعيل القاضي يفك الحجر عن فلان فقال له الوزير أن أمير المؤمنين يأمرك أن ترفع الحجر عن فلان فقال القاضي حتى أسأل عنه وقام فسأل عنه فلم يخبر عنه برشد فتركه ومضت على ذلك أيام فرجعت والدة الصبي الى أختها وسألتها أن تعاود أمير المؤمنين وكان المعتضد لايعاود لخشونته فعاودته فقال أليس قد أمرت فقالت لم يرفع عنه بعد فدعا وزيره عبيدالله ثانيا وقال أمرتك أن تأمر اسماعيل القاضي بأن يرفع الحجر عن فلان فقال قد كنت قلته عن ذلك فقال حتى أسأل عنه فقال قل له يرفع الحجر عنه فدعاه الوزير ثانيا وقال له وأمير المؤمنين يأمرك أن ترفع الحجر عن فلان فأطرق القاضي

ساعة ثم استدعى دواة وورقة وكتب شيئا وختمه فاستعظم الوزير أن يختم عنه كتابا ولم يقل لشيئا لمحل اسمعيل من الورع والعلم ثم دفع ذلك للوزير وقال له توصل هـذا الى أمير المؤمنين فانه جوابه فأخـذه الوزير ودخل على المعتضد وقال زعم أن هـذا جواب أمير المؤمنين ففتح المعتضد الكتاب وقرأه وألقاه وقال لاتعاوده فى هذا فأخذ عبيد الله الوزير الكتاب واذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله

فهذه سيرة القضاة المتصفين بما سبق من الاوصاف المقتفين فى أعمالهم طريقة العدل والانصاف فلاجرم استقرت أحكامهم وجرت أقلامهم وشكرت أيامهم ولم تعثر بهم آثامهم اه

هنالك أخذت أفكر فى قوله تعالى - وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار - الخ فهنا يتذكر أولوا الألباب المناسبة بين خلق السموات والأرض وبين العدل فى القضاء وليس من الميسور أن يعرف الناس تلك المناسبة بقراءة علوم السموات والأرض وهنا يكون العجب من الأمم الاسلاميـة المتأخرة ، حرمت علوم السموات والأرض تخرّ عليهم السقف من فوقهم ولكن الأمم الاسلامية فى العصور الأولى كانوا يفهمون هذه الامور بعقولهم وهكذا الأمم الذين بعضهم فى زماننا وبعضهم بعد مفارقتنا هذه الدار سيفهمون هذا حق الفهم ويقولون إن الله يقول لداود - فاحكم بين الناس بالحق - ثم أعقبه بأن السموات والأرض لم يخلقا باطلا وفى آية أخرى قال - وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين ماخلقناهما إلا بالحق - ثم يقولون فلننظر عسى أن نجد فى علم النبات هدى فيجدون أن العناصر التى تدخل فى تركيب النبات بتحليله تحليلا كيمائيا هى :

الكربون . الاوكسيجين . الايدروجين . الاوزوت . الكبريت . الفوسفور . البوتاسيوم . الكلسيوم الحديد . المغنسيوم

ويحصل النبات على الكربون من الهواء وعلى معظم الاكسوجين والايدروجين من الماء ، أما بقية العناصر فيحصل عليها من الأملاح الذائبة فى التربة

﴿ اثبات ضرورة العناصر السابقة للنبات ﴾

اذا عمل محلول من ماء أذيبت فيه أملاح تشتمل على العناصر الآتفة الذكر فان النبات ينمو فيـه بحالة طبيعية (شكل ٢ — ١) واذ أنقص من المحلول أحد هذه العناصر فقد ينمو النبات الى حدّ ما (شكل ٢) ولكنه يضـعف ويموت بعـد ذلك ، وقد يحتوى النبات النامى فى التربة عدا ما تقدم على عناصر السليس والصوديوم والكلور إلا ان هـذه العناصر ليست ضرورية جدا ويمكن للنبات أن ينمو بدونها بحالة طبيعية . والنبات لايمتص المواد الضرورية له بنسبة واحدة فهو يحتاج مثلا الى مقدار قليل جدا من الحديد فى حين أنه يحتاج لكميات أكبر من الاوزوت كما أن نسبة كل من العناصر الموجودة فى النباتات تختلف باختلاف النباتات نفسها (انظر شكل ٢ فى الصفحة التالية)



(شكل ٢)

(١) نبات نام فى محلول يحتوى على جميع العناصر الضرورية
(٢) نبات نام فى محلول يحتوى على جميع العناصر ماعدا البوتاسيوم
(٣) نبات نام فى محلول يحتوى على جميع العناصر ماعدا البوتاسيوم الذى استبدل بها الصوديوم
(٤) نبات نام فى محلول يحتوى على جميع العناصر ماعدا الكالسيوم
(٥) نبات نام فى محلول يحتوى على جميع العناصر ماعدا الاوزوت

فاذا رأوا ذلك قالوا هذا مثل من أمثلة السموات والأرض وانهما لم يخلقا عبثا ولا لعبا بل خلقا بالحق كما قال تعالى - ماخلقناهما إلا بالحق - وذلك الحق كالحق المذكور فى آية داود - فاحكم بين الناس بالحق - الله حق وفعله فى تغذية النبات حق بحيث اذا نقص النبات فى (شكل ٢) السابق البوتاسيوم فقط كان صغيرا جدا واذا نقص الاوزوت كان أكبر وهكذا ، أما اذا كان تام التغذية فانه يتم كماله . هذا هو الحق فى نظام النبات وهو فعل الله ، وليس هناك اختلاف فى هذا القانون ، فلم يسمع الناس أن نباتا نقص أحد هذه العناصر ثم كان تاما فى شكله غير منقوص . وهذا هو نفس الحق الذى تقدم فى القضايا العشر التى نقلتها لك عن القدماء ، وأى فرق بين عدل محمد بن عمران الطلحى إذ يكتب الى المنصور فيحضر فيحكم عليه وبين نقص النبات أمامنا اذا نقص عنصرا من عناصر التغذية ، واذا كنا نحن خلفاء الله فى الأرض على رعايانا من الأعضاء والحواس والأسرات والممالك فوجب أن نتبع من استخلفنا ونزن الامور على مقتضى وزنه لتصح لنا الخلافة فى الأرض وبهذا نستحق أن نكون - فى مقعد صدق عند مليك مقتدر - فهذه العندية تقتضى ذلك الحق فيعدل محمد بن عمران ويحكم على الخليفة ويعدل شريك ويحكم على الأمير موسى بن عيسى وهكذا فهذا الفعل مناسب تمام المناسبة لما رأينا من العدل فى أمر تغذية النبات كمالا ونقصا ، فمن وفى من الزراع

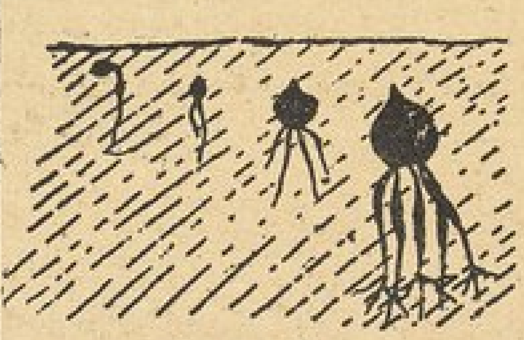
بالعناصر وفيت له ومن نقص نقصت له بقدر لا زيادة ولا نقص وهذا عين قوله تعالى ـ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ـ الخ أى كما لم نجعل ناقص التغذية من النبات الذى خلقناه بالحق ليس ككامل التغذية ، فالناقص كالمفسدين فى الأرض والكامل كالمتقين

فاذا عرف هذا أهل العلم من المسلمين فى زماننا والذين بعدنا يزدادون علما بالله عزّ وجل وعلما بمصنوعاته وحكمته وتكون لهم سعادتان : سعادة روحية ، وسعادة جسمية ، أما السعادة الروحية فهو الحب الحقيق لصانع العالم ، واذا كان الانسان يهيم شوقا ويعجب أيما اعجاب بشريك القاضى ومن معه لاحقاقهم الحق فى القضايا فما بالك بمن قضاياه لانهاية لعددها وكلها حق وأصبح الناس يشاهدونها بعقولهم ، وأما السعادة الجسمية فهى ازدياد ثروة الأمم الاسلامية بازدياد العلم والحكمة ومعرفة حقائق الأشياء ، إن الأمم التى يكثر فيها المحبون للعلوم على هذا النمط الذى فى هذا التفسير وهم طبعا يحبون الله تعالى ويحبون عباده بالاجتهاد فى ترقيتهم ترق سريعا وخواصها المذكورة أوصافهم يكونون فى سعادة وازدياد علم لايعرفه سواهم لأن حبّ العلم وحب الله وحب رقىّ الناس متى اجتمعت فى امرئ ترادفت عليه أنواع السعادات العلية وانشراح الصدر وكان الله فى عونه ـ والله يحب المحسنين ـ

فهؤلاء الذين يزدادون علما بعدنا لايقفون عند حدّ فيه فيرون أن جذور الأنواع المختلفة لايتزاحم بعضها مع بعض فى مستو واحد من التربة بل تمتدّ الى أعماق مختلفة (شكل ٣) بخلاف جذور النباتات الحولية إذ تمتدّ وتتفرّع فى العادة بالقرب من سطح الأرض ، أما جذور النباتات المعمرة فانها تمتدّ الى أعماق أبعد ولكل منها عمق خاص تنمو جذوره فيه فاذا اقتلعت إحدى الأبصال وزرعت فى مستو أعلى من مستواها الطبيعى تتكوّن عليها جذور خاصة تعرف بالجذور الشاذة تلتوى كالبريمة فتجذب البصلة الى أسفل حتى تصل بها الى المستوى المناسب (انظر شكل ٤)

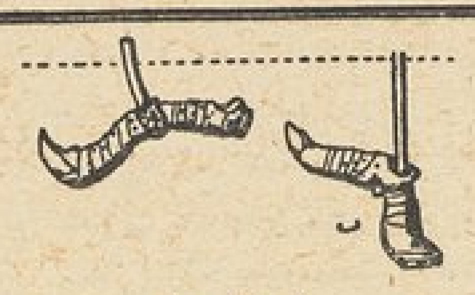


(شكل ٣ ـ نموّ جذور النباتات الصحراوية فى مستويات مختلفة)



(شكل ـ ٤)
المستويات التى توجد عليها البصلة الواحدة فى سنوات متتالية بعد انبات البذرة لاحظ الجذور الشاذة التى تجذبها الى أسفل

وكذلك اذا زرع أحد النباتات ذات الريزومات الأرضية فى مستو غير مستواه الطبيعى فان الريزوم يتجه الى أسفل أو أعلى حسب الظروف حتى يصل الى العمق الخاص المناسب لنموّه و بعد ذلك يسير موازيا لسطح الأرض (انظر شكل ٥ ا ، ب فى الصحيفة التالية)



(شكل ٥)

(ا) ريزوم زرع فى مستوى أعلى من مستواه الطبيعى فاتجه الى أسفل

(ب) ريزوم زرع رأسيا فى مستوى أعمق من مستواه الطبيعى فاتجه الى أعلى متخذا وضعا أفقيا

وفى السنوات التى يقل فيها سقوط الأمطار عن المعتاد يشاهد أن الشعير المزروع فى هذه الأراضى يقف نموه تدريجيا ثم يجف فى حين أن النباتات البرية لا تتأثر كثيرا ، وذلك لأن جذور الشعير توجد كلها فى مستو واحد وتتزاحم بعضها مع بعض فلا تجد المقدار الكافى من الماء ، أما النباتات البرية فان ترتيب جذورها على درجات مختلفة المستوى يمنع تزاحمها فيتمكن كل منها من الحصول على الماء اللازم له . ومما يلاحظ أن الأمطار تسقط بكثرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط ويقل سقوطها شيأ فشيأ كلما بعدت عن الشاطئ فيقل عدد النباتات النامية وتتحول الأراضى الى صحار قاحلة بالتدريج . انتهى ما أردته من كتاب علم النبات

إذن يرقى المسلمون الذين يزدادون علما فى زماننا والذى بعده فيدرسون و يقولون هذا الشعير اذا جف الماء ضعف كله وهكذا القمح وجميع النباتات التى نزرعها لأنها جذورها فى منطقة واحدة من مناطق التربة الأرضية ، أما النباتات الصحراوية فان جذورها تمتد فى مناطق مختلفات وكل منطقة فيها تربة خاصة يتغذى بها نبات خاص ، ذلك لأن الزارع لها هو الله وهو عدل ومن عدله أن أعطى كل نبات منطقة خاصة يعيش بغذائها ولكن لو كانت كلها فى منطقة واحدة لأهلك أقواها أضعفها ، فأما أمثال الشعير والقمح فان الله جعل الانسان قائما عليها ليسقيها واذا نبت معها نبات يشاركها فى منطقتها الطينية فان الانسان نفسه هو الذى يحافظ على زرعه كما ان حيوان البرية لا أمراض تلحقه والحيوانات التى مع الناس تلحقها الأمراض والناس يداوونها

(تذكرة)

أفلا ترى أيها الذكى أن المسلمين الذين يقرؤن هذه العلوم هم الذين تكون لهم سعادة فى الحياة الدنيا والآخرة ، ألا ترى كيف اجتمع هنا علم النبات وعلم القضاء وأخبار القضاة العادلين الجلة ، ألست ترى أن عدل الله فى النبات قد طلب من الانسان أن يسير على منواله ، أليس هذا هو نص قول المسلم ــ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم ــ والصراط المستقيم هو صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض فهذا هو صراط الله ، أولست ترى أن الانسان كلما أوغل فى هذه العلوم حصلت له ملكة بها يكون رجلا نافعا وها هم أهل أوروبا قد سبقونا فى هذه العلوم ولهم دول عظيمة وأهل أمريكا واليابان والصين ففاقونا بهذه العلوم إذ أكسبتهم ملكة التفكير والاختراع ونحن من ذلك محرومون . أليس هذا بعينه هو قول الله تعالى ــ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ــ

(عبرة فى التاريخ)

لقد ذكرت فى سورة يونس انى أرسلت خطابا (وهناك نصه) الى المجلس النيابى المصرى فى أول حياته

والى

والى رئيس الوزراء والى وزير المعارف وقلت فيه « إن الأمة المصرية كانت عندها العلوم قبل الاحتلال فى المدارس الثانوية . وفى زمن الاحتلال أصبح التلميذ يجهل تشريح جسمه ومعرفة دابته التى يركبها والسماء التى فوقه وطبقات الأرض تحته فسيصبح القاضى والوزير والمهندس كل هؤلاء جاهلين بهذا الوجود ، فأنا أقترح أن يجعل التعليم الثانوى خمس سنين كما كان ويرجع علم المواليد الثلاثة وعلم الفلك وطبقات الأرض كما كان قديما »

هذا هو الذى كتبته منذ بضع سنين ، وبعد ذلك قرّروا خمس سنين ، وقرّروا علوم النبات والحيوان ، أفلا أحمد الله إذ يكون ما نقلته اليوم من الكتب التى ألفها الشبان فى أيامنا هذه فى المدارس المصرية . إذن رقى الأمم الاسلامية سيكون سريعا كما ذكرناه من قبل وبرهانه ما أقوله الآن ، والذى يهمنا فى هذا المقام أن نقول : « ومن الدليل على أن ترك هذه العلوم مضعف للأمم أن المحتلين لبلادنا منعوه أيام سلطتهم وهاهى ذه رجعت لنا بعد سلطتهم ، وانما كتبت الخطاب المذكور لمجلس النوّاب وللحكومة لأنى أعلم أنهم تعلموا فى زمن الاحتلال وأكثرهم لم يعرفوا هذه العلوم إلا قليلا ، كما انى كنت فى أيام التدريس بالمدارس أؤلف كتبا للمسلمين وأقول فى نفسى اذا كان المحتلون منعوا هذه العلوم من البلاد فها أنا ذا أكتب مجملها فى كتبى لتكون تذكرة للمسلمين جميعا »

أما الآن فانى أحمد الله إذ رجعت العلوم لبلادنا مع الاستقلال النوعى الذى ينتظر أن يتم فى المستقبل . وأقول إن هذا التفسير كتاب دينى والذى سيقرؤه إن شاء الله المسلمون ويجدون فيه هذه العلوم مبسوطة مشروحة ، فهم إذن لايقف فى طريقهم عائق يصدّهم عن قراءة هذه العلوم لأن الذى يمنع العلوم الكونية من أرضية وسماوية عن المسلمين شيطانان : شيطان داخلى ، وشيطان خارجى . أما الشيطان الداخلى فهو مايدّعيه الجهلاء فى الدين أن هذه العلوم تنافى الدين ، والشيطان الخارجى هم المحتلون لأى بلد من بلاد الاسلام فانهم قد يمنعون العلم عنهم كما حصل فى بلادنا قبل تأليف هذا التفسير ، فهؤلاء حين يرون أمثال ما أكتبه الآن لايرجعون عن هذه العلوم مهما كلفهم ذلك ، وعليه أقول : إن أمم الاسلام بعد هذه النهضة الحالية سيكونون خير أمة أخرجت للناس

﴿ وصية المؤلف ﴾

وانى أوصى كل من يقرؤن هذا التفسير أن يذيعوا بين الناس كل مايعرفونه لأن اذاعة العلم بين الناس ونشره يرجع فى نفس الحياة الدنيا على الناشر بازدياد العلم لأن دورة العلم تمرّ بالناس ثم ترجع اليه وفيها ازدياد فيزداد هو علما كما اتفق لى فان تقرير هذه العلوم فى البلاد المصرية كان سببا فى أن الحكومة أمرت بعض الشبان فبحثوا فى النباتات المصرية كلها ونشروها فى الكتب ومنها بعض ما كتبناه فى هذا المقام ، فلولا أن هؤلاء الشبان قرؤا هذا وبحثوه ورسموه مانشرت شيأ منه ولاعرفته ، ألاترى أنى كنت أنقل لك ما كتبه الانجليز ورسموه فى كتبهم ، ولما قرأت كتب أهل بلادى فى الحركة الحديثة كتبت ماتقدّم من كتبهم ، فلتكن كل أمة دارسة نبات بلادها وحيوانه وكل شئ فيها والا كانت فى الأذلين . انتهت اللطيفة الأولى

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(فى قوله تعالى — ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب —)

﴿ كيف تربى قضاة الأمم الاسلامية وحكامها وخلفاؤها ﴾

أحمدك اللهم على نعمك ، وأشكرك على ما ألهمت من العلم وحبوت من الحكمة ، نزل القرآن ومضت

أجيال وأجيال والأمم الاسلامية ساكنة نائمة بعد الصدر الأول و بقى القرآن مهجورا والعلم محبوسا حتى انبجس فى أمم أخرى بعيدة عن الاسلام . إن كتابك آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم . إنك لم تنزله الناس لتحبس عقولهم وتكبل أفهامهم كما يظن الجاهلون . كلا . بل أنزلته هـدى وتبصرة وذكرى وقلت فيه ـ لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة ـ وقلت ـ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ـ وقلت ـ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ـ وقلت ـ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ـ . ألم يأن للمسلمين اليوم أن يسمعوا ويعقلوا ؟ ثم آن ذلك فأقول :

تربية الأمة وقضاتها وحكامها

لقد قرأت فى « جمهورية أفلاطون » عجبا فى ذلك فلأذكره أولا ثم أقفى على آثاره بما يناسبه من الكتاب والسنة : « ليعلم المسلمون أن القرآن لايزال بكرا وانه يستحيل علينا أن نعقل مافيه ونعرفه حق معرفته إلا بمقدار مانعرف من علوم الأمم . إن القرآن بلاعقول مفكرة تعقله ولاغوص قيمة تفهمه لكتاب مهجور متروك ، الحفظ وحده وفهم المعانى اللفظية لايغنيان فتيلا ، أليس من العجب أن نسمع أفلاطون وأستاذه سقراط قبل نزول القرآن بنحو عشرة قرون يقول : « إن من العار علينا أن يكثر فى بلادنا صنفان من الناس وهم القضاة والأطباء ، فكثرة القضاة فى البلاد دليل على سوء التربية وقلة الأدب والجهالة . ويقول : ثم نحن أبحنا بعض الموسيقى البسيطة ولكننا لانبيح الايغال فيها والتفنن ، إن التفنن فى الموسيقى يجر إلى الفضول والفضول والفسوق يجران الى المشاحنات الموجبات للتقاضى عند القضاة »

وهكذا أخذ يذم كثرة ألوان الطعام والتغالى فيه فذلك موجب للأمراض المختلفات وهذا يسبب طلب الأطباء . إذن الأمة يكون فيها جيشان وهما عالة على الأمة ، وهذان الجيشان أكبر دليل على نقص الأمة وقلة تربيتها ، وعليه يجب أن تربى الأمة كلها على القناعة لحفظ الصحة وعلى التهذيب الأخلاق الذى يبعد النفس عن الخلاعة فيقل القضاة والأطباء

ولما قرأت هذا القول دهشت أشد الدهش من أمة الاسلام ، تلك الأمة التى يتهافت مجموعها على المحاكم وعلى الأطباء لاسيما فى زماننا بمصر فان المحاماة صناعة رائجة فى بلادنا ، وعندنا ثلاثة جيوش جرارة : قضاة ومحامون وأطباء ، وهؤلاء أكبر دليل على نقص فى الأخلاق وفى الصحة وأن المال كل غير منتظمة والأحوال غير حسنة وحسبنا الله ونعم الوكيل

وما أشبه الليلة بالبارحة ، لقد نقلت عن الامام الغزالى سابقا أن علماء الاسلام أكبوا على علم الفقه لأنه يوصلهم الى كراسى القضاء وأخذ يذمهم و يقول : « ياقوم هـذه فتنة . ما الفقه إلا علم واحد والمسلمون يحتاجون الى علوم كثيرة » وقد تكرر هـذا فى التفسير . إذن علماء الاسلام السابقون كانت حياتهم وشرفهم وعظمتهم تتوقف على أمر واحد وهو جهل الأمة وقلة تربيتها . ومتى شاع الأدب فى البلاد قلت القضايا فقل القضاة وهكذا متى صحت الأبدان قل الأطباء

لما كتبت هذا المطلع عليه صاحبي فقال : أحب أن أسمع بعض أقوال (أفلاطون) فى هذا . فقلت هذا نصه فى المحاورة بينه و بين غلاوكون :

(س) وهل تنكر على الاثينين تأنقهم فى صنوف الحلوى

(غ) بشدة أنكره

(س) فليس من الخطأ موازنة نظام المعيشة بنظام الموسيقى والغناء المستعمل فى مختلف الأوزان

(غ) لاشك فى انها موازنة صحيحة

(س) أوليس صحيحا أيضا انه كما يولد التنوع الموسيقى فجورا فى النفس تولد الأطعمة عللا فى الجسد. أما البساطة فى الألعاب الرياضية فانها تولد الصحة كما انها فى الموسيقى تولد العفاف

(غ) بلاشك

(س) واذا انتشرت فى المدينة الأمراض وصور الفجور أفلا نضطر لانشاء المستشفيات والمحاكم ؟ أولا يغنيه الطب والحقوق عجبا متى وقف كثيرون من الشرفاء حياتهم على هذه المهن بوافر الرغبة

(غ) وماذا عسانا أن نتوقع غير ذلك ؟

(س) فأية حجة على سوء تهذيب المدينة وانحطاط سكانها أقطع من افتقار أهليها الى نطس الأطباء وأساطين القضاة ؟ ليس فقط بين طبقات العمال الدنيا بل أيضا بين من يدعون شرف النبعة، أولا تراه انحطاطا أدبيا ودليل نقص وتهذيب اضطرارنا الى شريعة يسنها الأجانب كسادة وقضاة لنا بسبب فقر الوطن ؟

(غ) لا اهانة أعظم من ذلك

(س) أوتظن انها إهانة أخف على الانسان أن يقضى الجانب الأكبر من حياته فى المحاكم بين مدع ومدعى عليه، بل انه زاد على ذلك انه جهلا منه يفتخر بأنه حريف فى ارتكاب الكبائر وأستاذ فى الحيل والمواربة والدهاء والمكر يخلصه من قبضة العدالة والنجاة من براثن العقاب، وكل ذلك لقاء أشياء طفيفة تافهة جاهلا أفضلية الحياة المنظمة المستقيمة وجاهلا على مثوله أمام قاض خامل

(غ) تلك إهانة أعظم مما سبق ذكرها

(س) أولا تحسب الاحتياج الى المعالجة الطبية عيبا، اللهم إلا ما كان لجرح أو لمرض موسمى وافد ؟ أعنى به احتياجنا الى المعالجة بسبب كسلنا ونوع معيشتنا فنملأ ثم الرياح والأخلاط كما تملأ المياه القذرة الحمأة فيلزم أبناء اسكولابيوس أن يستنبطوا أسماء جديدة للأمراض كتطبل البطن والزكام

(غ) حقا إن هذه أسماء جديدة غاية فى الغرابة

(س) اذا مرض النجار مثلا تناول من طبيبه علاجا لافراز مرضه بالقىء أو بالاسهال أو بالكى أو بعملية جراحية. أما اذا أشار عليه طبيب بالمعالجة الدائمة كالامساك عن الطعام والأربطة على الرأس ونحو ذلك من أساليب العلاج نفر حالا وأجاب مشيره الطبي أن لا وقت عنده لملازمة الفراش وأن الحياة على هذا النظام لا تستأهل عناء الآلام الدائمة والمخاوف الشديدة مهتما بمرضه مهملا عمله فيودع طبيبه ويعود الى حياته العادية فاما أن يستعيد صحته ويستمر فى عمله أو اذا لم تحتمل بنيته ذلك أراحه الموت الزؤام من شقائه

(غ) نعم ذلك مايظن انه نفع المعالجة الطبية لرجل فى مثل هذه الحال

(س) صحيح أن الأطباء يحرزون مهارة عظيمة اذا قرنوا منذ الحداثة درس الطب بمعالجة عدد وافر من شر الحوادث المرضية واختبروا فى أشخاصهم كل أنواع المرض ولذلك لا تكون لهم صحة جيدة لأنى لا أظن أن جسد الطبيب هو الذى يشفى أجساد الآخرين والا لما جاز له أن يكون ذا علة أو أن يمرض ولكن عقله هو الذى يشفى. فاذا أصيب فى عقله تعذر عليه أن يكون طبيبا ماهرا

(غ) انك مصيب

(س) ولكن القاضى ياصديقى يحكم العقل [1] بالعقل فلا يجوز أن ينشأ عقله منذ نعومة أظفاره فى بيئة فاسدة العقول ويألف معشرها ويقترف كل أنواع الشرور اقتداء بها لكى يختبر فى نفسه ماهية

---

(١) وردت فى بعض الترجمات (النفس) بدل العقل فلاينس القارىء ذلك

الأجرام فيتمكن بهذا الاختبار من زلات الآخرين بقياسهم على نفسه على نحو تصرّف الطبيب في الأمراض الجسدية بل بالعكس يجب أن يكون الحاكم منذ الحداثة حرا من هذا الاختبار وبمعزل عن عوامل الشرّ والفساد اذا أريد أن يتصف بالكمال الفائق ويحسن رعاية العدالة وهذا هو السبب في سهولة انخداع الصالحين في شبيبتهم إذ ليس في نفوسهم مثل يقيسون شرور الاردياء به

(غ) نعم وهم معرّضون كثيرا لهذا الانخداع

(س) ولذا لا يكون أفضل القضاة شابا بل شيخا عرك الدهر وخبر البطل لا كشيء استقرّ في نفسه بل كأمر خارجي أدركه ودرسه درسا طويلا مدققا في حياة الآخرين (وبعبارة أخرى) انه يقاد بالمعرفة لا بالاختبار الشخصي

(غ) حقا إن ذلك أشرف نوع في الحكام

(س) وهو صالح أيضا ، هذه هي نقطة البحث لأن ذا النفس النقية صالح ، أما القاضي المريب الذي اقترف كثيرا من موبقات الآثام وهو يزعم أنه بارع لكونه عاشر أمثاله من الشبان فيبدي شديد الحذر قياسا على ما في داخله من نماذج الشرّ وهي نصب عينيه كل يوم . على أنه متى اجتمع بالشيوخ والأبرار ظهر بإزائهم غرا أحمق بريبته الشاذة وجهله السجية الكاملة لفقدانه مثلا لها في نفسه وانما لأن علاقاته بالأشرار أكثر منها بالأبرار لاح له ولأمثاله انه حاذق لا أحمق

(غ) غاية في الصواب

(س) فلا ننشدنّ حاكما الصالح في هذا الصف بل في سابقه لأن الرذيلة لا يمكنها أن تعرف نفسها والفضيلة معا . أما الفضيلة في الكامل التهذيب فانها بمرور الزمن تتمكن من معرفة الأمرين : نفسها والرذيلة . فالقاضي الحكيم في منحى هو هذا الفاضل لا ذاك الرذيل

(غ) أوافقك في ذلك

(س) أفلا تنشئ في مدينتك ادارتين : طبية وقضائية . تتصف كل منهما بما ذكرناه من الأوصاف ؟ فتسبغان بركات خدمتهما على أصحاء الأبدان والعقول مع اهمال سقماء الأبدان فيموتون واعدام الأشرار الفاسدين غير القابلين اصلاحا

(غ) نعم وقد تبرهن أن ذلك خير للدولة ولأولئك السقماء

(س) وواضح أن الشبان يحترسون من افتقارهم الى هذه الشريعة ماداموا يمارسون الموسيقى البسيطة التي قلنا أنها تنشئ رزانة النفس

(غ) دون شك . انتهى ترجمة الاستاذ حنا خباز

فقال صاحبي عندئذ : عجبا ! هانحن أولاء في هذا القول رأينا (عجبين : العجب الأوّل) في سورة يس إذ تقدّم هناك أن علم الموسيقى والشعر وعلم الفلك كلها من واد واحد واتضح لنا هناك إذ ظهر أن حساب الفلك يرجع الى دوائر منتظمات مكررات كما في السنين الكبيسة والبسيطة ومثلها في ذلك نظم الشعر ونغمات الموسيقى والطير (العجب الثاني) هنا فقد أصبح الطب والقضاء توأمين في أن كثرة كل منهما دليل على سقوط أخلاق الأمة وآدابها . ولقد اضطرت حكومتنا المصرية في هذه السنة أن توسع مستشفى القصر العيني وهي تبني بناء عظيما يسع (٤٨٠٠) سرير للمرضى . إذن هذا دليل على الجهل المطبق في هذه الأمة وهكذا كثرة القضاة والمحامين شرعيين وأهليين . كل ذلك دليل على سوء تربية الأمة وعلى سوء ملكة أهلها . فقلت نعم حقّ ماتقول وذلك السوء ليس من طبيعة بلادنا بل ذلك أمر يتبع احتلال الأجنبي لبلادنا . ومن أقبح

ما

ما اطلعت عليه بنفسى انى منذ أربع سنين قبل كتابة هذا الموضوع دعيت الى وليمة وقد كانت بلادنا أخذت استقلالا جزئيا فسمعت الموسيقى تصدح فى تلك الوليمة اذا هى موسيقى الحكومة المصرية فكان دهشى عظيما إذ سمعت كل الأشعار من أقاويل الجهال والسخفاء وأحقر الطبقات وكلها تنطق بالفسوق والجهالة والعمى فسألت الرئيس فبكى بكاء مرًّا وقال إن السلطة للرئيس الأجنبى ولما عارضنا فى ذلك عاقبونا فأرغمنا أن نغنى هذا الغناء الحقير . فعلمت بهذا و بغيره أن الأمم التى تتدهور أخلاقها كما حصل لأمتنا انما يكون ذلك أكثره من الأجانب المحتلين للبلاد

فقال صاحبى : عرفنا تربية الأمة على سبيل الاجمال فنريد أن نعرف تربية الأمراء والقضاة ونحوهم . فقلت : لقد تقدّم فى ﴿سورة يس﴾ عند الكلام على الموازنة بين الموسيقى والفلك أن أفلاطون يحتم أن يقرؤا الرياضيات من الحساب والهندسة والجبر والفلك وأن يمارسوا الفضائل وتكون دراستهم لتلك العلوم موجهة فى ظواهرها الى منفعة العموم العملية وفى باطنها الى أن تلمس الروح من الحساب البديع المنظم مبدع العالم فتعرف من استقرار الحساب وجريه على وتيرة واحدة فى الأحوال الفلكية وغيرها أن وراءها قوّة ثابتة وعلما وحكمة ورحمة وهناك تتصل نفوس الأمراء والقضاة والملوك بتلك الذات القدسية فيحس هؤلاء بأنهم خلفاؤه فى الأرض وانهم هم آباء الناس والناس أبناؤهم . وكما رآه أوجب الرياضة البدنية والعفة على العامّة أوجبها على الجيوش وعلى الأمراء . إذن القاضى والأمير والملك يجب أن يكون أكلهم وشربهم بسيطين وأن يكثروا التمرين الجسدى والعقلى بالعلوم الرياضية . وأن يفكروا فى منظم الكون بحيث يقتربون منه بعقولهم حتى يحسوا بأنهم خلقوا أشبه بخلقة الذهب فى المعادن . فاذا استحق الذهب أن يكون حاكما فى معاملات الناس وله السيادة على المعادن فهكذا يجب أن يعلم القضاة الحقيقيون أنهم خلقوا لذلك

فقال : أنا الآن فهمت فحوى كلام أفلاطون الناقل عن سقراط فأين هذا القول فى القرآن وفى الحديث كما وعدت أنت ؟ فقلت : يقول الله تعالى فى ﴿سورة البقرة﴾ يصف الملك ــ إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ــ

فقال : هذا كلام اجمالى فأين التفصيل كما فصل سقراط . فقلت : اقرأ القرآن . ألم تر أن هذا الملك نفسه هو الذى أمر قومه أن لا يشربوا من النهر وأن من شرب منهم لم يقدر على المقاتلة ومن لم يشرب أو شرب قليلا حارب والذين لم يشربوا كانوا قليلا والذين شربوا كانوا كثيرا ولم يحارب إلا أولئك الأقلون فانتصروا . وهل هذه القصة موجهة لأحد إلا الينا معاشر المسلمين الآن وذلك أن نعلم الشعب الاسلامى العفة لتتم الصحة والعافية والشجاعة و يقل الاحتياج للأطباء : أفليس هذا يكون سببا فى قوّة البدن المذكور فى الآية وهو قوله ــ وزاده بسطة فى العلم والجسم ــ . فقال : زدنى من هذا . فقلت : يقول الله تعالى ــ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون ــ ويقول ــ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ــ ويقول ــ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ــ

أفلا يكفيك هذا فى أن ما قاله أفلاطون وسقراط قد وضح فى القرآن . فقال : هذا فى علم الحقوق فماذا فى الطب . فقلت : يقول الله سبحانه ــ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ــ ويقول ــ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ــ فاقرأ معنى هاتين الآيتين : الأولى فى سورة الأعراف والثانية فى سورة البقرة . فقال : أين التمرينات العضلية التى ذكرها أفلاطون . فقلت : انها فى « السبق والرمى » الآتى الكلام عليهما قريبا هنا فقال : أين مقابل الموسيقى . فقلت : هى الصلاة فالصلاة التى جاءت بالوحى هى التى تحفظ كيان الأمة وتهذب أخلاقها . والبرهان على ذلك أن الصلاة عاشت بها أمم وأمم وفتحوا بلادا وبلادا وعمروا أرض الله . أما

تعاليم أفلاطون فلم نجد لها أثرا دامت عشرات السنين . فقال : حسن هـذا كله . فأريد الآن أن تفيض القول فيما جاء فى السنة (١) من حيث بساطة الطعام والشراب (٢) ومن حيث التمرينات العضلية . فقلت : جاء فى كتاب ﴿ رياض الصالحين ﴾ تحت عنوان « باب فضل الجوع » ما نصه :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ماشبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض » متفق عليه (١) . وفى رواية « ماشبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعا حتى قبض » وعن عروة عن عائشة رضى الله عنها انها كانت تقول « والله يا ابن أختى ان كنا لننظر الى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقد فى أبيات رسول الله ﷺ نار . قلت : ياخالة فما كان يعيشكم ؟ قالت الاسودان التمر والماء إلا انه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح وكانوا يرسلون الى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا » متفق عليه . وعن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه انه مرّ بقوم بين أيديهم شاة مصلية فدعوه فأبى أن يأكل وقال خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير . رواه البخارى . مصلية بفتح الميم أى مشوية * وعن أنس رضى الله عنه قال : « لم يأكل النبىّ ﷺ على خوان حتى مات وما أكل خبزا مرققا حتى مات » رواه البخارى . وفى رواية له « ولا رأى شاة سميطا بعينه قط » * وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : « لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدقل مايملأ به بطنه » رواه مسلم . الدقل تمر ردىء * وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : « ما رأى رسول الله ﷺ النقى من حين ابتعثه الله تعالى حتى قبضه الله تعالى فقيل : له هل كان لكم فى عهد رسول الله ﷺ مناخل ؟ قال ما رأى رسول الله ﷺ منخلا من حين ابتعثه الله تعالى حتى قبضه الله تعالى فقيل له كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول ؟ قال كنا نطحنه وننفخه فيطير ما طار وما بقى ثريناه » رواه البخارى . وقوله النقى بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء وهو الخبز الحوارى وهو الدرمك وقوله ثريناه هو بثاء مثلثة ثم راء مشددة ثم ياء مثناة من تحت ثم نون أى بللناه وعجناه * وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فاذا هو بأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فقال ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالا الجوع يارسول الله قال وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما قوما فقاما معه فأتى رجلا من الأنصار فاذا هو ليس فى بيته فلما رأته المرأة قالت مرحبا وأهلا فقال لها رسول الله ﷺ أين فلان قالت ذهب يستعذب لنا الماء إذ جاء الأنصارى فنظر الى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا منى فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال كلوا وأخذ المدية فقال له رسول الله ﷺ إياك والحلوب فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما والذى نفسى بيده لتسألنّ عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم . رواه مسلم . (قولها) يستعذب أى يطلب الماء العذب وهو الطيب ، والعذق بكسر العين واسكان الذال المعجمة وهو الكباسة وهى الغصن والمدية بضم الميم وكسرها هى السكين والحلوب ذات اللبن والسؤال عن هذا النعيم سؤال تعديد النعم لاسؤال توبيخ وتعذيب والله أعلم ، هذا الأنصارى الذى أتوه هو أبوالهيثم بن التيهان كذا جاء مبينا فى رواية الترمذى وغيره * وعن خالد بن عمر العدوى قال خطبنا عتبة بن غزوان وكان أميرا على البصرة فحمدالله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فان الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الاناء يتصابها صاحبها وانكم منتقلون منها الى دار لازوال لها فانتقلوا بخير مابحضرتكم فانه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوى فيها سبعين عاما لايدرك لها قعرا والله لتملأن أفتعجبتم ولقد ذكر لنا

(١) معنى هذه أن البخارى ومسلم اتفقا عليه

أن

أن مابين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاما وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرا على مصر من الأمصار وانى أعوذ بالله أن أكون فى نفسى عظيما وعند الله صغيرا . رواه مسلم . قوله آذنت هو بمد الألف أى أعلمت وقوله بصرم هو بضم الصاد أى بانقطاعها وفنائها وقوله وولت حذاء هو بحاء مهملة مفتوحة ثم ذال معجمة مشددة ثم ألف ممدودة أى سريعة والصبابة بضم الصاد المهملة وهو البقية اليسيرة وقوله يتصابها هو بتشديد الباء قبل الهاء أى يجمعها والكظيظ الكثير الممتلئ ، وقوله قرحت هو بفتح القاف وكسر الراء أى صارت فيها قروح * وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال أخرجت لنا عائشة رضى الله عنها كساء وازارا غليظا قالت قبض رسول الله ﷺ فى هذين (متفق عليه) * وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : « إنى لأول العرب رمى بسهم فى سبيل الله ، ولقد كنا نغزو مع رسول الله ﷺ مالنا طعام إلا ورق الحبلة وهذا السمر حتى ان كان أحدنا ليضع كما تضع الشاة ماله خلط » متفق عليه . الحبلة بضم الحاء المهملة واسكان الباء الموحدة وهى والسمر نوعان معروفان من شجر البادية * وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » متفق عليه ، قال أهل اللغة والغريب معنى قوتا أى مايسد الرمق * وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال والله الذى لا إله إلا هو ان كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع وان كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه فمر بى النبى ﷺ فتبسم حين رآنى وعرف مافى وجهى ومافى نفسى ثم قال أباهر قلت لبيك يارسول الله قال الحق ومضى فأتبعته فدخل فاستأذن فأذن لى فدخلت فوجد لبنا فى قدح فقال من أين هذا اللبن قالوا أهداه لك فلان أوفلانة قال أباهر قلت لبيك يارسول الله قال الحق الى أهل الصفة فادعهم لى قال وأهل الصفة أضياف الاسلام لايأوون على أهل ولامال ولاعلى أحد ، وكان اذا أتته صدقة بعث بها اليهم ولم يتناول منها شيأ ، واذا أتته هدية أرسل اليهم وأصاب منها وأشركهم فيها فساءنى ذلك فقلت وماهذا اللبن فى أهل الصفة كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها فاذا جاءوا أمرنى فكنت أنا أعطيهم فقلت وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بد فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا واستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت قال أباهر قلت لبيك يارسول الله قال خذ فاعطهم قال فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح فأعطيه الآخر فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح حتى انتهيت الى النبى ﷺ وقد روى القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر الى فتبسم فقال أباهر قلت لبيك يارسول الله قال بقيت أنا وأنت قلت صدقت يارسول الله قال اقعد فاشرب فقعدت فشربت فقال اشرب فشربت فما زال يقول اشرب حتى قلت لا والذى بعثك بالحق لا أجد له مسلكا قال فأرنى فأعطيته القدح فحمد الله تعالى وسمى وشرب الفضلة . رواه البخارى * وعن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال لقد رأيتنى وانى لأخر فيما بين منبر رسول الله ﷺ الى حجرة عائشة رضى الله عنها مغشيا على فيجئ الجائى فيضع رجله على عنقى ويرى أنى مجنون ومابى من جنون مابى إلا الجوع . رواه البخارى * وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « توفى رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعا من شعير » متفق عليه * وعن أنس رضى الله عنه قال « رهن النبى ﷺ درعه بشعير ومشيت الى النبى ﷺ بخبز شعير واهالة سنخة ، ولقد سمعته يقول ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى وانهم لتسعة أبيات » رواه البخارى . الاهالة بكسر الهمزة الشحم الذائب والسنخة بالنون والخاء المعجمة وهى المتغيرة * وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة مامنهم رجل عليه رداء إما

أزار وإما كساء قد ربطوا فى أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته . رواه البخارى * وعن عائشة رضى الله عنها قالت : «كان فراش رسول الله ﷺ من أدم حشوه ليف» رواه البخارى * وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنا جلوسا مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من الأنصار فسلم عليه ثم أدبر الأنصارى فقال رسول الله ﷺ يا أخا الأنصار كيف أخى سعد بن عبادة (١) فقال صالح فقال رسول الله ﷺ من يعوده منكم فقام وقمنا معه ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص نمشى فى تلك السباخ حتى جئناه فاستأخر قومه من حوله حتى دنا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين معه . رواه مسلم * وعن عمران بن حصين رضى الله عنهما عن النبى ﷺ انه قال «خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، قال عمران فما أدرى قال النبى ﷺ مرتين أو ثلاثا ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن» متفق عليه * وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ يا ابن آدم انك ان تبذل الفضل خير لك وان تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح * وعن عبيد الله بن محصن الأنصارى الخطمى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «من أصبح منكم آمنا فى سربه ، معافى فى جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» رواه الترمذى وقال حديث حسن . سربه بكسر السين المهملة أى نفسه وقيل قومه * وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافا وقنعه الله بما آتاه» رواه مسلم * وعن أبى محمد فضالة بن عبيد الأنصارى رضى الله عنه انه سمع رسول الله ﷺ يقول طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح * وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان رسول الله ﷺ يبيت الليالى المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح * وعن فضالة بن عبيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان اذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم فى الصلاة من الخصاصة وهم أصحاب الصفة حتى يقول الأعراب هؤلاء مجانين فاذا صلى رسول الله ﷺ انصرف اليهم فقال : لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة . رواه الترمذى وقال حديث صحيح . الخصاصة الفاقة والجوع الشديد * وعن أبى كريمة المقداد بن معديكرب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطن بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فان كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه . رواه الترمذى وقال حديث حسن . وقوله أكلات أى لقم * وعن أبى أمامة إياس بن ثعلبة الأنصارى الحارثى رضى الله عنه قال : «ذكر أصحاب رسول الله ﷺ يوما عنده الدنيا فقال رسول الله ﷺ ألا تسمعون ألا تسمعون ان البذاذة من الايمان ان البذاذة من الايمان يعنى التقحل . رواه أبو داود . البذاذة بالباء الموحدة والذال المعجمتين وهى رثاثة الهيئة وترك فاخر اللباس ، وأما التقحل فبالقاف والحاء قال أهل اللغة المتقحل هو الرجل اليابس الجلد من خشونة العيش وترك الترفه * وعن أبى عبد الله جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال بعثنا رسول الله ﷺ وأمر علينا أبا عبيدة رضى الله عنه نتلقى عيرا لقريش وزودنا جرابا من تمر لم يجد لنا غيره فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة فقيل كيف كنتم تصنعون بها قال نمصها كما يمص

(١) «فائدة» سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه هو سيد الأوس كنيته أبو عمرو وهو الذى ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال فيه «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» وفيه أنشدوا :

وما اهتز عرش الله من موت هالك * سمعنا به إلا لسعد أبى عمرو

انتهى من هامش بعض النسخ منقولا من خط المصنف رحمه الله تعالى اهـ

الصبي ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا الى الليل وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله قال وانطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم فأتيناه فاذا هي دابة تدعى العنبر فقال أبوعبيدة ميتة ثم قال لا بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفى سبيل الله وقد اضطررتم فكلوا فأقمنا عليه شهرا ونحن ثلثمائة حتى سمنا ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن ونقطع منه الفدر كالثور أوكقدر الثور ، ولقد أخذ منا أبوعبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم فى وقب عينه وأخذ ضلعا من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا فمرّ من تحتها وتزوّدنا من لحمه وشائق فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم من لحمه شئ فتطعمونا فأرسلنا الى رسول الله ﷺ منه فأكله . رواه مسلم . وقوله الجراب وعاء من جلد معروف وهو بكسر الجيم وفتحها والكسر أفصح ، وقوله نمصها بفتح الميم ، والخبط ورق شجر معروف تأكله الابل ، والكثيب التل من الرمل ، والوقب بفتح الواو واسكان القاف و بعدها باء موحدة وهو نقرة العين ،، والقلال الجرار ، والفدر بكسر الفاء وفتح الدال القطع ، وقوله رحل البعير بتخفيف الحاء أى جعل عليه الرحل ، الوشائق بالشين المعجمة والقاف اللحم الذى اقتطع ليقدد منه والله أعلم * وعن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها قالت كان كم قميص رسول الله ﷺ الى الرصغ . رواه أبوداود والترمذى وقال حديث حسن . الرصغ بالصاد والرسغ بالسين أيضا هو المفصل بين الكف والساعد * وعن جابر رضى الله عنه قال : « إنا كنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاؤا الى النبي ﷺ فقالوا هذه كدية عرضت فى الخندق فقال أنا نازل ثم قام و بطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لانذوق ذواقا فأخذ النبيّ ﷺ المعول فضرب فعاد كثيبا أهيل أوأهيم فقلت يارسول الله ائذن لى الى البيت فقلت لامرأتى رأيت بالنبيّ ﷺ شيأ مافى ذلك صبر أفعندك شئ فقالت عندى شعير وعناق فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة ، ثم جئت النبيّ ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافى قد كادت تنضج فقلت طعيم (كذا) لى فقم أنت يارسول الله ورجل أورجلان قال كم هو فذكرته فقال كثير طيب قل لها لاتنزع البرمة ولاالخبز من التنور حتى آتى فقال قوموا فقام المهاجرون والأنصار فدخلت عليها فقلت ويحك قدجاء النبيّ ﷺ والمهاجرون والأنصار ومن معهم قالت هل سألك قلت نعم قال ادخلوا ولاتضاغطوا فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور اذا أخذ منه ويقرب الى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر ويغرف حتى شبعوا و بقى منه فقال كلى هذا وأهدى فان الناس أصابتهم مجاعة » متفق عليه وفى رواية قال جابر « لما حفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خمصا فانكفأت الى امرأتى فقلت هل عندك شئ فانى رأيت برسول الله ﷺ خمصا شديدا فأخرجت الىّ جرابا فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن فذبحتها وطحنت ففرغت الى فراغى (كذا) وقطعتها فى برمتها ثم وليت الى رسول الله ﷺ فقالت لاتفضحنى برسول الله ﷺ ومن معه فجئت فساررته فقلت يارسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنت صاعا من شعير فتعال أنت ونفر معك فصاح رسول الله ﷺ فقال ياأهل الخندق إن جابرا قد صنع سؤرا فحيهلا بكم فقال النبيّ ﷺ لاتنزلنّ برمتكما ولاتخبزن عجينكم حتى أجئ . فجئت وجاء النبيّ ﷺ يقدم الناس حتى جئت امرأتى فقالت بك و بك فقلت قد فعلت الذى قلت فأخرجت عجينا فبصق فيه و بارك ثم عمد الى برمتنا فبصق و بارك ثم قال ادع خابزة فلتخبز معك واقدحى من برمتكم ولاتنزلوها وهم ألف فأقسم بالله لا كلوا حتى تركوه وانحرفوا وان برمتنا لتغط كما هى وان عجيننا ليخبز كما هو » وقوله عرضت كدية بضم الكاف واسكان الدال و بالياء المثناة تحت وهى قطعة غليظة صلبة من الأرض لايعمل فيها الفأس ، والكثيب أصله تل الرمل والمراد هنا صارت ترابا ناعما وهو معنى أهيل ، والأثافى الأحجار التى يكون عليها القدر وتضاغطوا تزاحموا والمجاعة الجوع وهى بفتح الميم والخمص بفتح الخاء المعجمة والميم الجوع ، وانكفأت انقلبت ورجعت ، والبهيمة بضم الباء تصغير بهمة

وهي العناق بفتح العين ، والداجن هي التى ألفت البيت ، والسؤر الطعام الذى يدعى الناس اليه وهو بالفارسية وحيهلا أى تعالوا وقولها بك وبك أى خاصمته وسبته لأنها اعتقدت أن الذى عندها لا يكفيهم فاستحيت وخفى عليها ما أكرم الله سبحانه وتعالى به نبيه ﷺ من هذه المعجزة الظاهرة والآية الباهرة ، بسق أى بصق ويقال أيضا بزق ثلاث لغات وعمد بفتح الميم أى قصد . واقدحى أى اغرفى ، والمقدحة المغرفة وتغط أى لغليانها صوت والله أعلم * وعن أنس رضى الله عنه قال قال أبوطلحة لأم سليم قد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفا أعرف فيه الجوع فهل عندك من شئ ؟ فقالت نعم فأخرجت أقراصا من شعير ثم أخذت خمارا لها فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت ثوبى وردتنى ببعضه ثم أرسلتنى الى رسول الله ﷺ فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ جالسا فى المسجد ومعه الناس فقمت عليهم فقال رسول الله ﷺ أرسلك أبوطلحة فقلت نعم . فقال ألطعام ؟ فقلت نعم . فقال رسول الله ﷺ قوموا فانطلقوا وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته فقال أبوطلحة يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم فقالت الله ورسوله أعلم فانطلق أبوطلحة حتى لقى رسول الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ معه حتى دخلا فقال رسول الله ﷺ هلمى ما عندك يا أم سليم فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ ففت وعصرت عليه أم سليم عكة فآدمته ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول ثم قال ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا ثم خرجوا ثم قال ائذن لعشرة حتى أكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون رجلا أو ثمانون متفق عليه . وفى رواية « فما زال يدخل عشرة ويخرج عشرة حتى لم يبق منهم أحد إلا دخل فأكل حتى شبع ثم هيأها فاذا هى مثلها حين أكلوا منها » وفى رواية « فأكلوا عشرة عشرة حتى فعل ذلك بثمانين رجلا ثم أكل النبى ﷺ بعد ذلك وأهل البيت وتركوا سؤرا » وفى رواية « ثم أفضلوا ما بلغوا جيرانهم » وفى رواية عن أنس قال جئت رسول الله ﷺ يوما فوجدته مع أصحابه وقد عصب بطنه بعصابة فقلت لبعض أصحابه لم عصب رسول الله ﷺ بطنه ؟ فقالوا من الجوع فذهبت الى أبى طلحة وهو زوج أم سليم بنت ملحان فقلت يا أبتاه قد رأيت رسول الله ﷺ عصب بطنه بعصابة فسألت بعض أصحابه فقالوا من الجوع فدخل أبوطلحة على أمى فقال هل من شئ فقالت نعم عندى كسر من خبز وتمرات فان جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه وان جاء آخر معه قل عنهم وذكر تمام الحديث . انتهى ما أردته من كتاب « رياض الصالحين » والحمد لله رب العالمين

فلما سمع ذلك صاحبى قال : لقد أصبحت موقنا أن دين الاسلام فى المستقبل سيفهم فهما غيره بالأمس فقد ثبت فى الصحيح أنه ﷺ كان يجوع هو وأصحابه ، وأن خبزه لا ينخل ، وأن أهل بيته يمر عليهم الهلال والهلال والهلال فلا يوقدون نارا ، ومعنى هذا انهم عاشوا عيشة الصحة فان العلم اليوم أثبت أن الخبز بدون النخالة والسن كله ضرر كما تقدم فى هذا التفسير ، فترك النخالة والسن اليوم جهالة تورث الأمراض والشقاء والذل وأثبت أيضا أن القوة لا تكون إلا فيما لم يطبخ ، أما الطعام المطبوخ فان قوته قد ذهب أكثرها . إذن عدم طبخ الطعام أيضا صحة جيدة أثبته الطب الحديث . إذن النبوة المحمدية فى واد والمسلمون فى واد ، فالمسلمون ينخلون الدقيق ويكثرون الطبخ ويتفانى علماؤهم وصلحاؤهم وملوكهم فى ألوان الطعام جهلا منهم فلاهم أطاعوا النبى ﷺ ولاهم قرؤا العلوم الطبية الحديثة المشروح مقصودها فى هذا التفسير فيما تقدم ولقد نجد السيدة فاطمة رضى الله عنها كما فى حديث البخارى تطلب منه ﷺ أن يعطيها جارية من السبى تساعدها فى طحن الدقيق بالرحى فأبى وأمرها بالعبادة علما منه أن الطحن يعطى الجسم قوة فقد جمعت إذن بين العفة وتمرين العضلات فازدادت قوتها واذ ظهرت هذه الحقيقة ووضحت فأرجو أن تذكر ما وعدت به من « السبق والرمى » فقلت جاء فى كتاب « تيسير الوصول . لجامع الاصول » تحت العنوان الآتى ما نصه

(كتاب

﴿ كتاب السبق والرمى ﴾

(وفيه فصلان)

﴿ الفصل الأول فى أحكامهما ﴾

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « لاسبق إلا فى خف أو حافر أو نصل » أخرجه أصحاب السنن . والمراد بالخف الابل وبالحافر الخيل وبالنصل السهم . والسبق بفتح الباء الجعل وباسكانها مصدر سبقت أسبق سبقا . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله ﷺ يضمر الخيل يسابق بها » أخرجه أبوداود . وعنه رضى الله عنه قال : سابق رسول الله ﷺ بين الخيل وفضل القرح فى الغاية » أخرجه أبوداود . وعنه رضى الله عنه قال : « أجرى رسول الله ﷺ ما ضمر من الخيل من الحفياء الى ثنية الوداع ومالم يضمر (بتشديد الميم) من الثنية الى مسجد بنى زريق » أخرجه الستة

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « من أدخل فرسا بين فرسين وهولا يأمن أن يسبق فليس بقمار ، ومن أدخل فرسا بين فرسين وقد أمن أن يسبق فهو قمار » أخرجه أبوداود

وعن أنس رضى الله عنه قال كان للنبى ﷺ ناقة تسمى العضباء لاتسبق فجاء اعرابى على قعود فسبقها فشق ذلك على المسلمين فقال ﷺ حق على الله أن لا يرتفع شئ من الدنيا إلا وضعه » أخرجه البخارى وأبوداود والنسائى

وعن فقيم اللخمى قال : قلت لعقبة بن عامر رضى الله عنهما تختلف بين هذين الغرضين وأنت شيخ كبير ويشق عليك فقال لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ لم أعانه سمعته يقول : « من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا ، أوقد عصى » أخرجه مسلم ومعاناة الشئ مقاساته وملابسته

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه المحتسب فى عمله الخير ، والرامى به ، والممد به » وفى رواية « ومنبله فارموا واركبوا وأحب الى أن ترموا من أن تركبوا ، كل لهو باطل ، ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، فانهن من الحق ، ومن ترك الرمى بعد ماعلمه فانها نعمة تركها أوقال كفرها » أخرجه أصحاب السنن ، وهذا لفظ أبى داود ، والمنبل الذى يناول الرامى النبل ليرمى به وهو الممد به وقوله كفرها أى جحدها

وعن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون بالسوق فقال ارموا بنى اسماعيل فان أباكم كان راميا . ارموا وأنا مع بنى فلان فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال مالكم لاترمون ؟ فقالوا كيف نرمى وأنت معهم ؟ فقال ارموا وأنا معكم كلكم . أخرجه البخارى اهـ

فلما أتممت ذلك قال صاحبى الآن حصحص الحق . لقد استبان الآن أن كثيرا من علوم الأمم مفصلات ومبينات ومشيرات لمعانى القرآن والافكتاب السبق والرمى يقرؤه المسلمون فى جميع أقطار الاسلام ولايعمل كثير منهم به فوجب على طلاب العلم جميعا وأكثر العامة أن يكون لهم ساعة فى كل أسبوع ليتقنوا هذا الفن لأنه يعطى قوة بدنية وصناعة حربية وشجاعة . والمحافظة على الصلاة تؤلف بين القلوب لاسيما اذا كانت فى جماعة وهذا قوله ﷺ « الصلاة وماملكت أيمانكم » للاشارة الى أن للصلاة أثرا فعالا فى المعاشرة وهذا سر قوله تعالى – إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر –

إن سقراط يقول « الموسيقى تهذب الخلق ولكن لها شروط فاذا فقدت فسدت الأخلاق واحتاج الناس الى القضاء » فأما الصلاة فانها اذا زادها الانسان فانه يقرب من ربه وقد دلت التجربة على أنها تنهى عن الفحشاء

والمنكر كنص الآية . وقد تقدم قول بنتام أن النظافة تحسن الأخلاق ولم يذكر الصلاة وعدّ هذه النظافة من محاسن الدين الاسلامى ونسى هو أن يذكر الصلاة لأنها ليست من دينه فهو يجهلها . وعليه يجب على الأمم الاسلامية

(١) أن تذيع الصنائع اليدوية بين المتعلمين لأنها تقوى البدن والعقل

(٢) وأن تذيع السبق والرمى

(٣) وأن تعمم تعليم الجندية بقدر الامكان

(٤) وأن يكون القضاة من أفضل هؤلاء وأعلمهم

(٥) وأن يكون الأمراء والملوك أعلى من الجميع أخلاقا وعلما وصحة واستقامة فيكون علمهم أكمل وأجسامهم أصح وآراؤهم أعلى ، فأما الاتكال على نسبتهم لآبائهم وحدها فانه ضرر ومخالف للدين الاسلامى ، فليكن للملوك والقضاة أصح أجساما وأرق عقولا وعلوما من جميع الأمم المحكومة بهم

ولذا وجدنا أن النحل تربى خدرمها أى الملكة التى تحكمها وهكذا الأرضة فلماذا لا تربى الملوك والقضاة تربية خاصة كما فعلت هذه الطوائف من الحشرات . ألم تر أن النحل تجعل عسلا أبيض خاصا بالملكة التى تربيها فيكون جسمها أكمل وتمييزها أتم ، وهكذا نجد ملكة الأرض أكبر حجما وأقوى تمييزا من جميع عمالكها كما تراها مرسومة فيما تقدم فى ﴿ سورة سبأ ﴾

فالله الذى ألهم بعض الحشرات أن تربى رؤساءها تربية خاصة هو نفسه الذى يقول فى القرآن ـ وزاده بسطة فى العلم والجسم ـ والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم ـ

فليعلم المسلمون ذلك وليعملوا به والله هو الولى الحميد . كتب ليلة الأربعاء بعد نصف الليل ٢٥ يونيو سنة ١٩٣٠ بشارع زين العابدين بقسم السيدة زينب بمصر المحروسة . تمت اللطيفة الثانية

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(فى قوله تعالى ـ رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب * فسخرنا له الريح ـ الخ)

اعلم أن الناس بالنسبة للنعم على ثلاثة أقسام : عامة ، وخاصة ، وخاصة الخاصة . فأما العامة فانهم يفرحون بظواهر النعم مثل روائحها العطرية ولذاتها المختلفات وبهجة زينتها والافتخار بكثرتها وازدحام مخازنهم بها وتحدث الناس بغناهم واعظامهم فى المجالس لكثرة أموالهم . وأما الخاصة فانهم لا يقفون من النعم عند ظواهرها وانما يغنيهم من الأغذية مايفيدهم الصحة ويعطيهم العافية ويزدرون ماوراء ذلك من اللذات التى يفرح بها العامة ، ولا يقفون فى الموسيقى عند ظواهر نغماتها ، ولا فى الفلك عند ظواهر حساب الشهور والسنين الذى ينفعهم فى نظام الحياة بل يرتقون الى مافوق ذلك من التعجب من القوانين البديعة المحكمة التى تظهر فى الأشعار والموسيقى ونغمات الطيور وعلم الفلك وحساب الأوزان فى علم الكيمياء مثل مافى تركيب الماء من الاكسوجين والايدروجين . فهذه كلها نسبها منظمة موسيقية لأن نسبها كلها هندسية على وتيرة واحدة فهنالك تصبح العلوم كلها عندهم علما واحدا ونظاما واحدا ويحسون فى نفوسهم بسعادة علمية . وأما خاصة الخاصة فهم يرتقون فوق هؤلاء درجة ولا يكتفون بهدايا الملك ونعمه واحسانه والنظر فى ملكه وسياسة دولته بل يشعرون بقربهم منه ولطفه وعطفه عليهم ومؤانسته لهم . وهنالك يجدون لذة فوق الطائفتين السابقتين (انظر هذا المقام مشروحا فى ﴿ سورة يس ﴾ عند آية ـ والشمس تجرى لمستقر لها ـ الخ) فههنا نقول اذا كان سليمان عليه السلام طلب أن يعطيه الله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فلن يكون إلا من الطبقة الثالثة

بل هو فى أعلى طبقات هـذه الدرجة وليس يريده لمجرد ظواهر الطيارة الطائرة فى الريح على سبيل المعجزة ولا لمجرد عظمة الملك وسطوته ولا لمجرد حفظ مملكة بنى اسرائيـل وأمنها بل هو يريد ماهو أعلى من ذلك وهو أن يفرح بالمنعم من حيث هومنعم لا بالنعمة فالنعـمة وسيلة لا غاية . فاذا فرح العامة بالنعمة لأجل لقائهم هم وحمدوا ربهم على ذلك . واذا فرح الخاصة بالنعم من حيث انها صادرة من الله تعالى وانهم أهـل لرعايته واختصاصه فخاصة الخاصة انما يفرحون بالمنعم نفسه من حيث هومنعم . فالملك الذى طلبه سليمان عليه السلام الذى لا ينبغى لأحد من بعده هو المذكور فى الآية وهى تسخير الريح ومابعده وهذا الملك لم يشاركه فيه أحد ألاترى أن الريح لم تسخر لموسى ولا لعيسى ولا لنبينا ﷺ واذا ظهرت الطيارات فى الجوّ اليوم فلم تكن إلا بالصناعات العلمية والحذق والدربة والمران فى تلك الصناعات ولم تسخر الرياح لأحد منا وانما التسخير هناك بلاصنعة صانع ولا حكمة حكيم فهى هناك معجزة وهنا صناعة كما ان الجهال قد يعرفون بعض المستقبل بطريق الرؤيا ولـكن الأنبياء يعرفون بعض المستقبل بالوحى فهما وان كانا من عالم واحد قد اختلفا وأحدهما أقلّ من الآخر (٤٥) مرة وليس يطلب سليمان الملك من حيث هوملك كالعامة بل طلبه من حيث انه وسيلة للانتقال من النعمة الى المنعم وهنالك يصل الى الغاية المطلوبة والنعمة المحبوبة ويرتقى من الأدنى الى الأعلى فى لمح البصر أوهوأقرب ويكون ظواهر الملك هنا أشبه بالنغمات اللواتى ترجع بالنفس الى عالم الجمال والكمال وبظواهر الجمال المذكرات بالمبدع الحكيم

أما نبينا ﷺ فانه أعطى الكوثر وهى النعم الـكثيرة وأعطى المقام المحمود الذى يحمده فيه الأوّلون والآخرون فالجهتان منفكتان ، فسليمان طلب نعـمة الملك الدنيوى ليكون القرب من هذه الناحية ، فأما موسى فبالـكلام ، وأما عيسى فبالروحانيـة العامّة ، وأما محمد ﷺ فبامور كثيرة من مقام الحمد والـكوثر وهكذا . انتهت اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾

(فى قوله تعالى ـ قال فبعزّتك لأغوينهم أجمعين ـ)

عزّ الله وتعالى وتنزّه أن يطلع على جماله وبهاء كماله وحسن اتقانه وعجيب نظامه إلا أولوا الألباب ، لما أكثر الناس فان لهم فى بدوهم وحضرهم ومدنهم وقراهم وجهلهم وشهواتهم فى مآكلهم وملبسهم وافتخارهم بجاههم ومالهم وأحسابهم وأنسابهم ، وفى أضغانهم وأحقادهم على أعدائهم وتنافسهم وتـكاثرهم لشغلا شاغلا وغمرات هم فيها ساهون

قديما غوى ابليس آدم ، وحديثا غوى ذرّيته ، والتاريخان متطابقان ، ألاترى رعاك الله أن بنى آدم فوق الأرض قد مثلوا نفس القصص الذى ذكره الله فى آدم ، آدم أغواه ابليس فأكل من الشجرة فبدت له هو وزوجته سوآتهما فواريا عوراتهما بورق الشجر وأخرجا من الجنة وأصبح الأبناء أعداء وأخـذوا يسعون للرزق ليلا ونهارا

هذه قصة آدم فانظر فى قصة بنيه ولا ينبئك عنها إلا الجغرافية الأرضية عند تفصيلها ، فهناك قوم فى خط الاستواء عثر عليهم الـسائحون قريبا لا يجعلون بينهم و بين ضوء الشمس سترا ، فهم يعيشون عراة و يموتون عراة كما أثبته الرحالة (ستانلى) وتمرّ على القوم عشرات السنين فلا يسمع الناس عنهم بفاحشة ولا خنا ولا زنا وهم من هذه المفاسد آمنون . ثم انظر بعد ذلك الى ماتقدّم فى آخر ﴿ سورة يس ﴾ فى آية ـ الذى جعل لـكم من الشجر الأخضر نارا ـ وكيف رأيت ذلك الشكل المرسوم فيه صورة الرجل الذى تحلى بملابس فى بعض جزائر المحيط وكلها من ورق الموز . أليس أولئك العراة يقابلون آدم قبـل الأكل من الشجرة وذلك

الرجل الذى لبس ورق الشجر الذى رأيته يغطى زوجته بعد أن ارتكبا الخطيئة . وسوس الشيطان لحواء وهى ساعدته على اغواء آدم فنبذا عيش البساطة والسهولة وأخذا يتفننان فى طرق الحياة ويزاولان حياة جديدة ما كان أغناهما عنها لولا القدر المقدور . ونفس الشيطان وسوس لأبناء آدم كذلك فأخذ يدخل بين رجال القبائل ونسائهم ويصطاد العقول فى أقاصى السودان وجزائر المحيط ويقول لأولئك العراة الذين يجهلون الخنا والزنا ويعيشون فى بحبوحة الهناء والرخاء يقتاتون من الفاكهة ويشربون من سلسبيل العيون ولا يصيبهم فى حياتهم نصب ولا يحل بساحتهم طبيب ولا جراح أريب إذ لا مرض يزورهم ولا بؤس يصيبهم وهم فى جنة الأرض التى هم بها آمنون . فلا تزال الوساوس تتغلغل فى قلوبهم والهواجس تتابع فى أفئدتهم حتى يستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير . وهل الأدنى إلا التباعد عن الحياة الطبيعية رويدا رويدا والتهافت على ماتنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها وقطنها وتيلها وحرير دودها من كل مالا ينبت إلا بشق الأنفس ولا يحصل إلا بكد الرجل وجد المرأة ومزاولة الطبخ والحرث والسق والحصد والخزن ومقاومة الأعداء ودفع ضرائب الحكومات والغزل والنسيج والخياطة والغسل والتنظيف واظهار الزينة والتغالى فى إبداء المحاسن والتبجح بأنواع الصبغ والتلوين والتطريز وما أشبه ذلك من كل ما استغنى عنه الفريق الأول الذين هم فى جنات الحياة يسعدون ، إذن تاريخ الانسان الحاضر فى كرتنا الأرضية اليوم أعاد لنا تاريخ آدم المذكور فى القرآن ، يا سبحان الله ، لماذا يكرر الله لنا قصة آدم فى بضع مواضع فى القرآن ؟ ولماذا يعيدها تكرارا مع قصة ابليس ؟ أما الجهلاء وصغار العلماء فى كرتنا الأرضية فهؤلاء يقرؤن ولاهم يذكرون ، فأما الحكماء وأما أولوا الألباب فهم الذين يذكرون ويقولون : « لقد تكررت قصة آدم واغواء ابليس له تذكيرا لنا نحن فلم يكن الله بالقرآن ليعلم آدم ولا بنيه ولا حواء زوجه وانما يريد أن يعطينا النموذج الذى ظهر لنا بأسلوب العلوم فى زماننا ، فآدم لم نره ولكننا رأينا آثار القصة فينا ، ففينا العراة الأطهار كآدم فى أول أمره وفينا الذين خصفوا ورق الشجر على أجسامهم ، وفينا فئة ثالثة نسيت فواكه الجنة الأرضية مأكلا وأوراقها ملبسا وأخذت تجد فى استنبات الأرض لتسد الحاجة فى مطعمها وملبسها ، فنظر الله للناس نظر الأب الشفيق لطفله الصغير — ولله المثل الأعلى — إذ يلح فى الطلب فيجاب لما طلب فأكثر لهم المآكل والملابس وعلى مقدار تفننهم أعطاهم ماسألوا وذلك رحمة منه لأنه يعطى بقدر ويمنع بقدر وهؤلاء هذه مرتبتهم من الوجود وهذا استعدادهم فى الحياة

هذه هى قصة الانسان الموافقة لقصة آدم . فهذه قصة جغرافية وافقت القصة التاريخية الأثرية . والعلم إن لم يثمر العمل ضائع . والكلام اذا لم يفد سامعه فوائد فلماذا يقوله . ومن أجل مقاصد هذا التاريخ الذى استوى فيه آدم وبنوه أن نفكر نحن معاشر المسلمين فى زماننا ونقول : « التاريخ للعبرة أما مجرد القراءة أو التعبد فانهما مبدآن لانهايتان وهذا التاريخ يعلمنا أن هذا الانسان كله استعبدته الشهوات وأفسدته السيئات وأخذ فى طعامه وشرابه ولباسه يخبط خبط عشواء ويمشى على غير الصراط السوى حتى أصبحت أنواع المخترات وأصناف الملابس الصناعية يستعملها المستعمرون شبكة يصطادون بها الضعفاء من الأمم ويسترقون الغافلين . إذن هذه الشهوات الطارئة اتخذها الانسان وسائل لاذلال أخيه بالتجارة كما اتخذها الشيطان قديما وسيلة لاستدراجه فأخرجه من الجنان . إذن لا ثقة بما عليه حال هذا الانسان الآن فى جميع ضروب الحياة . وليس اسباغ النعم وتراكم الخيرات واللذات بدليل على أن هذه سعادات للانسان . فاذا حرمنا من نعمة الحياة الأولى التى خلت من ذل الكد والكدح ومن ذل الفواحش التى فيها عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولا سبيل للرجوع اليها فعلينا أن نبحث ضروب هذه الحياة من جديد . ولكن ليس معنى ذلك اننا نترك الأمم حولنا وشأنها . كلا . بل علينا أن ننظر ماذا قال العلماء فى عصرنا فى هذا الموضوع ولأى حد

وصلوا

وصلوا . فاذا عرفنا آراءهم وجب علينا أن ندقق فى أبحاثهم وننظر فى آرائهم ونمتحنها ونساعد فى رقى نوع الانسان لأن الناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

والذى وصل الينا الآن من آراء الأمم فى هذا الموضوع أى موضوع المآكل والملابس شذرات تصلح للبحث فيها والنظر والتأمل وتلك الشذرات ترجع الى مسألة (الفيتامين) أى مادة الحياة التى لم يعرفها الناس إلا فى قرننا هذا وهو القرن العشرون . يقولون إن ضوء الشمس هو القوة التى نستمد منها الحياة . فالحب والفاكهة تعطينا قوة وهى التى اكتسبتها من نور الشمس والطعام المطبوخ والمحفوظ فى العلب والمغلى وما أشبه ذلك كله قد ماتت منه تلك القوة فليس مفيدا لنا . ونظرية النوع الانسانى فى حرارة النار التى يخبز بها الخبز ويطبخ بها الطعام نظرية خاطئة كاذبة . ولامعنى لطبخ الطعام بالنار إلا إماتة الحياة منه . ولامعنى لجعله فى العلب أمدا طويلا إلا أنه يفقد خواصه وتزهق منه روح الحياة ، وهذه الملابس الحريرية والقطنية والكتانية ماهى إلا موانع من سعادة الحياة وسد حصين وسور يفصل مابين أجسامنا وحرارة الشمس التى بها الحياة ، واذا كنا نحتال على الحياة بتعاطى الحبوب والفواكه التى خزنت فيها أضواء الشمس فندخلها فى أجسامنا لتعطينا قوة الحياة الشمسية المخزونة فيها فأولى ثم أولى أن نلاقيها بأجسامنا مباشرة فنلامسها كما تلامس كل نبات وكل حيوان فتدخل فى منافذه وتتصل بعروقه وتساعد دورته الدموية فتعطيه النشاط

﴿ اعتراض على المؤلف وجوابه ﴾

بينما أنا أكتب هذا إذ حضر صديق العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير فقال : ماأجمل قولك وما أبينه وما أحسن هذا الاستنتاج ولكن هناك أمر جدير بالذكر وهوانك بهذا خالفت أصول الدين ونبذت سلوك سبيل المؤمنين ، أتريد أن الناس يصلون وهم عراة ؟ أم تريد أن يتجرد الرجال والنساء من الملابس ومن حلل هذا فقد كفر والعياذ بالله تعالى ، أنت لست كسقراط إذ يحدث تلاميذه ولادين له . كلا . إنك الآن فى تفسير القرآن فلتكن المباحث غير خارجة عن الشرائع الاسلامية . فقلت : أيها الأخ : هل رأيتنى لوحت أوصرحت بما تقول ؟ فقال : كلا . ولكنك عممت القول وهذا ربما يأخذه جاهل أوحاسد فيؤوله الى ماذكره . فقلت : أذكرك بأنى قلت فى أول هذا المقال اننا نريد أن نقرأ مباحث الأمم ثم نبحث فيها لا انى أتممت البحث وهل الانسان يستغرق فى الطعام طول نهاره ؟ قال : كلا . بل يكون وقتا دون وقت . قلت فليكن هكذا استضاءة أكثر الجسم بضوء الشمس وقتا دون وقت مع مراعاة الشرع ، أنا أذكرك بقصة آدم فى ﴿ سورة الأعراف ﴾ ألم تر أن فيها خصف الورق على جسمه وجسم زوجه ليواريا سوآتهما قال بلى . قلت : ألم أقل لك ان الحال الأولى لاسبيل للرجوع اليها . قال بلى . قلت : أنت ذكرت ذلك فى أول هذا المقال تريد بذلك أن هنا أحوالا جديدة يجب البحث فيها . قلت : ألم يقل الله فى هذه الحال الجديدة ـ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين ـ فأباح لنا كل ما أعطانا ولكنه أعلنا بأنه لايحب المسرفين منا ، وقال ـ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ـ فجعل المدار على التقوى ورفعة النفس ، فأما اللباس الظاهرى فالشرع يراعى فيه الأحوال الطارئة على الانسانية إذ ـ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ـ وليس فى سعة الناس التخلى عن عاداتهم فى الملابس ، فالأنبياء لا يكلفون الناس مالايطيقون فيقولون كونوا عراة كأبيكم آدم بل ينظمون بأمر الله أحوالهم التى هم عليها ، والنظام هو الاعتدال وعدم الاسراف ولكنه ذكرنا فقال : الستر الظاهرى ليس أجل مقصود بل المقصود الأهم لباس التقوى فأحسنوا الظواهر فعسى أن تصلح البواطن . إذن هو أباح لنا كل طعام ولباس على شرط عدم الاسراف . فقال : وهل للاسراف من قواعد ؟ فقلت قدقدمت بعض تلك القواعد فى ﴿ سورة الأعراف ﴾ فقال انك لم تذكر هناك مسألة (الفيتامين) بل انك لم تكن تعلم

عنها شيأ فالمقام يحتاج الى ايضاح . فقلت اقرأ ماتقدم فى سيرة النبى ﷺ وكيف كان آل محمد ﷺ لايوقد فى بيتهم نار الهلال والهلال والهلال ، وكيف كانوا لاينخلون الدقيق . أليس هـذا يكفيك فتعرف أن النبوّة قد أوضحت ماأجمله القرآن من نبذ الاسراف . فقال ولكن اذا ظهرأن آثار النبوّة المحمدية قدظهرت فى زماننا وأن الأطباء أخذوا يرجعون النوع الانسانى عن عاداته الرديئة ويقرّبونهم من الأخلاق النبوية فجدير بك أن تسمعنى مقالا فى الاصلاح الحديث وان لم يكن تاما حتى اذا وافق الأخلاق النبوية والسيرة المحمدية ورأينا أن النبى ﷺ قد وافقه العلم الحديث فى الطعام فهنالك يكون أمر عظيم ﴿أوّلا﴾ انه معجزة جديدة لم تظهر إلا فى قرننا هذا ﴿ثانيا﴾ ان المسلمين يرجعون للسيرة النبوية و يعرفون ماصحّ ومالم يصحّ فى طعامه وشرابه ثم يدرسون العلوم الحديثة فى الطعام ثم هم أنفسهم بلامرية سيغيرون طرق مآ كلهم متى عرفوا الحقيقة . فقلت لقد قدّمت فى هذا المقام كلاما فى ﴿ سورة البقرة ﴾ عنـد آية ـ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ـ وفى ﴿ سورة الأعراف ﴾ عند آية الاسراف ، وفى ﴿ سورة الحجر ﴾ فى النصف الأوّل منها عند الاشارة الى قصة آدم ، وفى ﴿ سورة طه ﴾ عند قصة آدم فى آخرها ، وفى ﴿ سورة الشعراء ﴾ عند قوله تعالى ـ واذا مرضت فهو يشفين ـ وهناك مواضع أخر . فقال ولكن لا أزال أقول ان العلم فى زماننا سريع الترقى فاذ كر لى آخر ماوقفت عليه فى أمر الطعام . فقلت : سأسمعك « مقالين » الأوّل « هو ماجاء فى كتاب « دستور التغذية » لصديقنا الاستاذ محمد فريد وجدى » فسأذكرهنا لباب ماترجم من آراء الدكاترة الأربعة وهم : هيج الانجليزى ، وكتنانى التليانى ، وسو برسكى الفرنسى ، وكوهن الألمانى . هؤلاء وغيرهم الذين يريدون من الانسان الرجوع الى حال الفطرة فى الطعام كآدم قبل الأكل من الشجرة وهذا من أسرار القرآن التى لم تظهر إلا فى هذا الزمان ، ثم أثنى على آثار ذلك بضرب مثل لآراء هؤلاء العلماء بنهر النيل والمزارع المصرية مع الجسد ومافيـه من الدم الخ فيكون ذلك « فصلين » وأتبعهما بفصـل ثالث فى ست فوائد طبية عن علماء عصرنا

﴿ الفصل الأول فيما ترجمه المؤلف من آراء أولئك الدكاترة ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين ، ﴿أما بعد﴾ فان الانسان بتطوّراته المتوالية فى المدنية ، وذهابه فى الابداع الصناعى كل مذهب ، و بما استتبع ذلك من اخلاده الى معيشة الترف ، واغراقه فى تطلب الملاذ البدنية ، قد أخرج مسألة التغـذى عن حقيقتها فبعد أن كان يأكل طلبا لاقامة حياته وحماية جثمانه من العطب أصبح يفعله طلبا للذة المعجلة حتى دفعته هذه العاطفة الى تناول الأغذية الضارّة المبيدة لجثمانه وهو يعلم ذلك و يشعر به ، إلا أنه قد شعر بأن خروجه هذا على القوانين الطبيعية كان له أسوأ تأثير على جسده وعقله معا ، وأن هذا المتاع الحيوانى سريع الزوال ثم يعقبه دور من الآلام والأعراض يطول أمده عليـه ولايزال به حتى يصرعه على أبشع الأحوال بعد أن يحرمه من جميع الطيبات الجسدية والعقلية

عنى العلم منذ عهده الأوّل بسنّ سنن مقرّرة للتغذى ، ومازال العلماء والفلاسفة يجعلون هـذا الموضوع من أهم مباحثهم حتى يومنا هذا بل استحال أمره فى العهـد الأخير الى اعتباره أولى بالعناية من الوجهـة الصحية والعلاجية من كل المسائل التى لها علاقة بالحياة الجسدية لما ثبت أن الغـذاء هو العامل الأكبر فى الصحة والمرض ، وفى طول الحياة وقصرها حتى قال العلامة البكتر يولوجى (متشنيكوف) مدير معهد باستور بباريس « ان الانسان خلق ليعيش ثلاثمائة سـنة [1] وانما هو يقتل نفسه بسوء سيرته فى تغذّيه » وأقرّ

(١) الذى يقوله الجمهور غير هذا وهو أن الانسان يعيش مائتى سنة بناء على أن مدة نموّه (٢٥) سنة

بهذه

بهذه الحقيقة جمهور الباحثين والمنقبين ، وجاءت العلوم الكيماوية فأيدت أقوالهم بالتحليلات إذ بينت ما يحتويه كل نوع من أنواع الأغذية من المواد المختلفة وما يحتاج اليه الجسد كل يوم من كل منها ، وحدثت بجانب هذه الفتوحات الكيماوية فتوحات أخرى طبية أثبتت بالتحليل أن أدواء القلب والسرطان والروماتيزم والبول السكري والزلالي وتصلب الشرايين والشلل والامساك المستعصي الى ما اليها مما يطول عده كلها متولدة من سوء التغذي وعدم تخير صنوف الطعام فأصبحت هذه المسألة والحالة هذه في عداد المسائل المحسوسة الممكن تجربتها تحليلا وتركيبا ، فهب الغيورون على الانسان في أوروبا الى وضع المؤلفات في هذا الصدد حتى صار لا يمكن إحصاء ما صدر منها في هذه الخمسين السنة الأخيرة

﴿ مذهبا الطب ﴾

للطب اليوم مذهبان أحدهما يرى أن الجسم يحتاج أحيانا الى العلاج بالمواد المختلفة مع استخدام التدابير الصحية ويرى الآخر أن العلاج قد يفيد العضو المريض فيحوله من حال الى حال ولكنه في الوقت ذاته يوجب مرضا على عضو آخر قد يكون فيه هلاك الشخص . فالطب في نظر هؤلاء يجب أن يقتصر على استخدام قوى الطبيعة من هواء طلق وغذاء جيد صحي خال من اللحم والمهيجات وعمل جسدي معتدل واستحمام بالماء الفاتر أو البارد وغير ذلك من التدابير التي تعين الاعضاء المريضة على مكافحة المرض الذي حل بها . ان هؤلاء يقولون ان العلاج لا يشفي المصاب ولكن الذي يشفيه هي القوة الحيوية في جسمه ، تلك القوة تظهر للحس بعملها على الجراح . ألم تر أنه لو أصابك جرح أخذ بعد حين في الاندمال من نفسه فلا يزال سائرا في طريقه حتى يصح العضو المجروح و يصير كأن ليس به شئ وتعود اليه جميع وظائفه ولم يبق للجرح عين ولا أثر . هذا الأثر المحسوس للاندمال والشفاء التدريجي هو أثر القوة الحيوية التي خلقها الله لتحفظ لنا وجودنا الى حين . فاذا أصاب أحد الاعضاء مرض لاهمالنا لقانون الصحة تولته القوة الحيوية بالعناية والعلاج كما تولت الجرح فلا يجوز أن يكون لنا إذ ذاك من عمل الا مساعدة عمل القوة الحيوية باتباع قوانين الصحة ومراعاة الحمية والعناية باستنشاق الهواء النقي وغير ذلك فتعمل القوة الحيوية عملها في ذلك العضو ولا يمر غير قليل حتى يشفى المريض . أما لو أعطى علاجا وهو في تلك الحالة ازدادت حالته سوأ وتفاقم مرضه فان نجاحه فلا يكون ذلك الا ببذل مجهود كبير من قواه الحيوية تهيئه لمرض مزمن . قالوا وقد جاءت شهادات كبار الأطباء في ضرر العلاجات تؤيد ذلك

قال الدكتور (غرانيشتاتن) وهو من أقطاب الطب بألمانيا وقد نقله عنه الدكتور بلز في كتابه الطب الطبيعي : « الضعف في درجاته وأشكاله التي لا تحصى ليس هو على وجه علم الانتيجة العلاج بالعقاقير سواء أكانت جيدة أم رديئة . العلاجات ان استعملت كما ينبغي تغلبت على المرض الاصلي ولكنها تترك داخل أعماق الجسم بقايا تظهر آجلا أو عاجلا وتكون نتائجها غير قابلة للشفاء . وعليه فلنا الحق في تسمية هذا النوع من الضعف بالضعف العلاجي . ثم قال : ومن عهد ما جادت علينا الكيمياء بالمركبات المختلفة للزئبق والانتمون وقشر الكنكينا (كذا) وحمض البروسيك والرصاص والزرنيخ والكبريت الخ ومن عهد السماح بتعاطيها بنوع من الجرأة المتناهية باعتبارها علاجات قوية التأثير ضد الآلام التي كانت مجهولة في العصور السابقة ، من ذلك العهد انتشر الضعف بحالة يؤسف لها وانتقل من الآباء الى الابناء . فالذي يلقى به القدر مرة واحدة تحت كلاكل هذا المرض يكون قد وقف حياته على التردد على الصيدلات

وقال الدكتور (كيسر) كما نقله عنه الاستاذ بلز في كتابه المتقدم ذكره « ان الحكمة القديمة القائلة بأن الدواء قد يكون شرا من الداء ، والطبيب شرا من المرض ، هي صحيحة في كثير من الاحوال . ان عددا

كثيرا من الأمراض تشفى بقوى الطبيعة وحدها وأماتى الأمراض كافة فالشيء الوحيد الذى يجب على الطبيب عمله ويستطيعه هو حصر وابعاد المؤثرات القائمة عن المريض ، وأبطال الحركة غير الطبيعية لبعض أجهزته وأعضائه . فان فعل أكثر من هذا ليرضى المريض المحب للدواء ويحقق نظريته الوسواسية وشهوته النفسية فقد أضره كل الضرر . على هذه الطريقة كثيرا ما يولد الاطباء الامراض الصناعية ويمكن القول بأنه فى كثير من الامراض التى يعالجها الاطباء عدد كبير من الامراض المزمنة منها ما قد سببه الأطباء أنفسهم . وفى الحالة الحاضرة للطب العملى يجب أن يجعل المريض بمعزل عن كل طبيب كما يعزل عن كل سم قتال . هذا ما يشهد به تاريخ الطب ، فان كل نظرية طبية خاصة استدعت عددا من الضحايا البشرية لم يتوصل الى الفتك بمثلها أشكأ الاوبئة ولا أطول الحروب »

وقال الاستاذ (ستيفنس) أستاذ الكلية الطبية بنيويورك كما نقله عنه الاستاذ بلز . « كلما تقدم سن الاطباء قل اعتقادهم فى تأثير الادوية وزادت ثقتهم فى قوى الطبيعة . ثم قال : رغما عن كل المخترعات الحديثة التى أحيطت بالتهليل فان المرضى لا يزالون يشكون الامراض كما كانت حالتهم قبل أربعين عاما . ثم قال : ان سبب بطء تقدم الطب ناتج من ان الاطباء بدلا من أن يدرسوا الطبيعة درسوا كتابات من تقدمهم »

وقال الاستاذ الدكتور (سميث) كما نقله عنه الاستاذ بلز : « كل العلاجات التى تدخل فى الدورة الدموية تسمم الدم بعين الطريقة التى تسممه بها السموم الجالبة للأمراض . الادوية لا تشفى أى مرض كان بل الذى يشفيها هو الخاصة الطبيعية ليس الا ثم قال . ان الديجيتال قد قتل ألوفا من الناس وحمض البروسيك كان يستعمل بكثرة فى أوربا وأمريكا ضد السل الرئوى وقد عالجوا به ألوفا من المرضى فلم يشف منهم واحدا بل انه قتل مئات منهم انتهى وقد نقل الاستاذ بلز عن أكثر من ثمانين عالما من علماء الطب الرسميين مثل هذه الاقوال التى تؤيدها المشاهدة فثبت من ذلك كله ان أثر العقاقير فى شفاء الامراض أثر مهلك وجدير بالانسان اذا أصابه مرض ان يحتمى عن الاكل وان يعنى بأمر الصحة مستخدما الوسائل التى ذكرها الاطباء الطبيعيون من الاستشفاء بالماء والهواء ذلك خير من التعرض لاخطار العلاجات المختلفة : لم يجن العالم الى اليوم من الطب من فائدة غير تخفيف الآلام بالمسكنات وكلها سام قتال ولقد كثرت الاطبات والصيدلات ولا تزال الامراض والمرضى آخذين فى الازدياد وقد طرأت أمراض ما كان يعرفها آباؤنا ولا تعرفها للآن الأمم الخلوية التى لا تعرف طبا ولا علاجا فما أثر الطب بعد ذلك ؟ يظهر لنا ان علم الطب سيضمحل ويحل محله علم قانون الصحة وسيزول كل ما يعزى العلاجات من التأثيرات والخواص لظهور آثار الغلو فيها ولن يبقى الاعلم الجراحة فهو العلم النافع الذى لا شك فى نفعه . هذا ما يقوله أنصار الطب الطبيعى

﴿ أساليب العلماء فى معالجة الأمراض ﴾

ويقولون أعجز الاطباء معالجة أقل الامراض خطورة فلم يتوصل طبيب الى ازالة فقر الدم وضعف الاعصاب وغيرهما مما يعترى الناس من جراء أعمالهم بمحض خواص العقاقير فأكثر الناس يشكون الضعف وفقر الدم وقد صرفوا السنين فى تعاطى العلاجات المقوية بدون فائدة . هذا بالنسبة للضعف وفقر الدم أما بالنسبة لغيرهما من أمراض القلب والرئتين والكبد والمعدة والمخ فحدث ولا حرج وان قلت ان واحدا ممن يصاب بهذه الامراض لم ينل خيرا من العلاجات الطبية وانتهى أمره الى اليأس لما كنت بعيدا عن الواقع . هذا العقم الظاهر من العلاجات دفع كثيرا من فضلاء الاطباء الى تلمس وسائل جديدة لشفاء الأمراض فأطالوا البحث وصرفوا العمر فى التجارب فاهتدوا لنتائج ان لم تكن هى الواقع بعينه فقد أدت خدما جليلة . نذكر من هؤلاء العلماء الاطباء هيج الانجليزى وكنتانى الايطالى وسوبرويسكى الفرنسى . وقد أحدث كل من هؤلاء

حوادث

حوادث من الشفاء عزت على الطب والاطباء وطارت شهرتها الى أقاصى المعمور

﴿ أسلوب الدكتور هيج فى علاج الامراض ﴾

يقول الدكتور هيج ان أسباب الأمراض هى الحوامض السامة التى تنضاف الى الدم من سوء التغذية أكبرها خطرا حمض البوليك (اسيدأوريك) وحمض الاوكساليك والنطرون وصرح بأن لاسبب للنوراستانيا وهو مرض ضعف الاعصاب الذى ينتشر اليوم انتشارا مريعا بين جميع الطبقات الاحمض البوليك ، وكذلك هومن الاسباب للاصابة بالنقطة والروماتيزم وألم الرأس والصداع والصرع والجنون وضعف القلب ووقوفه وال ربو والتهاب الشعب وسوء الهضم والبول السكرى وأمراض القلب . ليس هيج أول من عرف ضرر حمض البوليك ولكنه أول من حد دائرة نفوذه الضار من الوجهة المرضية . قال هيج ، وهذا القول أساس مذهبه ، ان السميات التى تتخلف من المواد الغذائية تثبت فى تفرعات الاوعية الدموية وتسد الاوعية الشعرية فتقل قوة سريان الدم ويشتد ضغطه على القلب ويكون سببا لضعف عام البنية ولاختلال جميع الأعضاء فاذا أبطأت الدورة قلت تغذية الاعضاء ومتى اشتد الضغط على القلب يحدث له مرض ثم تنتشر سموم الاغذية بتوالى تواردها فى سائر الاعضاء فتمرضها أيضا . فيشكو صاحبها العوارض المختلفة ويعرض نفسه على الاطباء فيشخصه كل منهم على ماتسمح له به نظرياته فتارة ينصحونه بتعاطى المقويات وأخرى بأخذ المنومات ومرة يأمرونه بالسياحة وأخرى بالراحة وحينا يمزقون جلده بابر الحقن وهم فى ذلك كله بعيدون عن حقيقة الداء فلو علموا انه ناشئ عن سموم الاغذية وعنوا بمعرفة مقادير السموم منها وأشاروا بحمية صحيحة لشفى المصاب ولكنهم يعتمدون على العقاقير الطبية فتنضم الى كمية السموم وتزيد فعلها . يقول هيج ان تراكم حمض البوليك فى أوعية الدم يسبب انحرافا فى العقل واضطرابا فى الحياة وهى أخص أعراض النوراستانيا فاذا سهل خروج حمض البوليك تغيرت حالة العقل حالا كأنها حادثة سحرية وتنقلب الحياة فى نظر صاحبها سارة حتى ان الانسان ليحدث نفسه باتيان الاعمال المستحيلة . وقال هيج ان جميع الامراض تزول بازالة حمض البوليك فاحذفوا هذا الحمض تعيشوا مائة سنة ولايوجد هذا الحمض غير الغذاء . بالتحليل وجد أن هذا الحمض يوجد فى اللحم والفول والعدس والبازلة والفاصوليا واللوبياء الجافة والشاى والقهوة والكاكاو . ثم قال وعليه فيجب الاكتفاء بأكل النباتات . وخصوصا الاسفاناخ والخبازى والكرنب والقنبيط والفواكه واللبن والجبن والامتناع عن اللحم والفول والعدس والبازلة والفاصولياء واللوبياء الجافة . اذا سار المصاب بأى مرض على هذه الحمية مدة تحللت السموم وتسربت من الكليتين والجلد وغيرها وطهر الجسم منها وزايلته جميع الامراض المرضية

﴿ أسلوب الدكتور كاتانى ﴾

قاعدة الدكتور كاتانى غير قاعدة هيج وان كانت النتيجة واحدة فانه قال بأن حمض البوليك هو سبب كل مرض فى جسم الانسان ولكنه ليس هو العلة بل العلة قلة الاوكسيجين فى الجسم لتحويله الى بول ونزوله مع الفضلات . قال والذى يوجب نقص مقدار الاوكسيجين فى جسمنا انه يستهلك باكثارنا من تناول الاغذية الايدراتية الكربونية (كالسكر والنشا) والدهنية . فان لم يتناول الانسان هذه الاغذية بقى الاوكسيجين فى دمه فحول حمض البوليك الى بول فأتى الجسم شريكا تكون . وعلى ذلك فالدواء الوحيد لجميع الأمراض عند الدكتور كاتانى هو اتباع حمية فلايأكل الانسان فيها الدهنيات ولا السكر والنشا ويمتنع عن الخل والمخللات واللبن والجبن والامراق والعجينات والرز والبطاطس والحلاوى والتوابل ويكتفى بالبيض والنباتات الخضراء والفواكه مع الحركة فى الهواء الطلق .

﴿ أسلوب الدكتور سو برويسكى ﴾

يقول هذا الدكتور ان سبب جميع الامراض فساد تركيب الدم وما فساده الا كونه حامضا غير محتو على قلويات فصلاحيته أن يكون قلويا حلوا ، وعدم صلاحيته أن يكون حامضا . والدليل على أن سبب الامراض هو خلو الدم من القلويات انك لاتجد فى الدم ولا فى البول املاحا قلوية فى جميع الامراض الحية وهذا برهان على أن هذه الأملاح حرب لتلك الأمراض فقد ثبت أنها تقتل الميكروبات البدنية وتلاشى سمومها كما يقتلها السليمانى فالافضل للمرضى أن يعطوا أغذية كثيرة القلويات فان المرض يزول مهما كان نوعه حتى تصلح الدم بالقلويات فالفواكه والليمونادة تشفى أكثر مما تشفيه الخمور غالية الثمن ولايسقط مريض بضعف القلب اذا أعطى قلويات كافية فاذا تكون سم فى الدم افرز حالا بفعل تلك القلويات . ولما كانت الوظائف الحيوية تسرع الحميات فتستهلك القلويات فيجب إعطاء المريض أغذية قلوية . أما المرق فلاحتوائه على البوتاس يضعف القلب والفواكه أولى منه بالعناية . الامراض المزمنة تشفى باعطاء الدم قلويات ويذوب الرمل الصفراوى تحت تأثيره و يشفى البول السكرى والنقطة . وعدم وجود القلويات فى الدم يوجد الهرم الباكر

وقال الدكتور سو برويسكى . كل تاكسد يبطىء التغذية والتصريف فلا يصل للاعصاب غذاء كاف فيبطل نشاطها فيعترى الانسان مالا يحتسب من أمراضها وكل الذين عاشوا كثيرا كانوا قنوعين جدا . فبالافراط فى الاكل تبقى فضلات كثيرة وعلى قدرها يستهلك الجسم القلويات من الدم . لايوجد للدم نقاءه وزيادة قلوياته الا النباتات من الفواكه والاعشاب وأفضلها ما كانت قلوياته أكثر . الامراض كثيرة وسببها واحد وهو اختلال أعضاء التصريف فتى لم تختل فلامرض وتلك الاعضاء المصرفة هى الرئتان والكليتان والجلد والامعاء فان مرضت احداها وقع الجسم فى المرض لامحالة . ان مرضت الرئتان يبقى فى الدم كثير من حمض الكربون وهو سم ، وان تعبت الكليتان بقيت البولينا (الاورية) وحمض البوليك فى الدم وناهيك بهما من غولين للصحة ، وان انسدت مسام الجلد تبقى فى الجلد السموم التى يجب أن تتصاعد منه بالتبخر الجلدى ، وان تعبت الامعاء بقيت الفضلات فى البدن . فالذين يدعون مرضى كانوا مرضى من قبل بأحد هذه الأعضاء فأهملوها

ثم أخذ الدكتور سو برويسكى يفصل فى قيمة الأغذية من الوجهة القلوية فقال النباتات التى تحتوى على القلويات الشكوريا والراوند والاسفاناخ والكمثرى والحماض والهندبا والخس والكرفس والجرجير والفجل

أما النباتات التى لها خاصية طرد حمض البوليك فهى الاسفاناخ والكرنب والقنبيط وكرنب بروكسل والبازلة الخضراء لان بها حوامض تعيق افراز حمض البوليك (الاوريك) . هذه أساليب الدكاترة الثلاثة فكلها ترمى الى غرض واحد وهو العناية بأمر الغذاء وعدم ادخال شئ الى المعدة بغير حساب . فالطب كل الطب أن يعتدل الانسان فى غذائه وأن يكون نباتيا معتمدا فى تقويم جسمه على النباتات والفواكه الناضجة فان أصابه مرض فعليه أن يعمد الى الطرق الطبيعية من استنشاق الهواء النقى وتعهد الجلد بالنظافة والحية التامة والله الشافى . هذا رأى رجال من أقطاب الطب العصرى وهو رأينا أيضا ولكل انسان بصيرة يتحرى بها الصواب والله يهدينا الى سواء الصراط . ولابأس من تعزيز هذا البحث بايراد رأى عالم ألمانى كبير فى أسباب الامراض فاليك :

﴿ العلامة (كوهن) الالمانى يرى أن لجميع الامراض سببا ﴾
(واحدا وعلاجا واحدا)

تنقل مذهب العلامة (كوهن) الالمانى المشهور عن الاستاذ بلز فقد نشره فى المجلد الاول من كتابه الطب الطبيعى صحيفة (٩٣٣) فتقول : يرى كوهن أن الأمراض كلها لها سبب واحد وعلاج واحد كذلك

فهو

فهو يقول انه لايوجد الا مرض واحد يظهر بمظاهر مختلفة . والعلة الحقيقية لهذا المرض هي اجتماع أجسام غريبة في جسم الانسان ليس لها دخل في تركيبه وحفظه ، فهي أجسام غريبة وان شئت فقل جراثيم مرضية لم تستطع الأعضاء المفرزة وهي الامعاء والكليتان والجلد والرئتان افرازها . هذه الاجسام الغريبة يرى (كوهن) أنها تتسرب الى أبداننا من تعاطينا اكثر مما نحتاج اليه من الأغذية ، ومن تناولنا أغذية ضارة ومضادة للشروط الفزيولوجية للحياة الانسانية كاللحوم والتوابل والاشربة الكحولية المخدرة من النبيذ والبيرة والعرق والقهوة والشاي الى غير ذلك فهي من جهة ليس فيها قيمة غذائية ومن جهة أخرى تحدث تهييجا للجسم يعقبه الضعف لامحالة . ومن الاجسام الغريبة التي تسبب لنا الامراض في رأي (كوهن) السموم الصيدلية التي تتناول باسم علاجات والتبغ والسعوط (النشوق) وسم تلقيح الجدري الذي اذا دخل الجسد قل أن يخرج منه ويكون مصدر جراثيم مرضية له : ومما يوجد الاجسام الغريبة في البدن مايحمله معه الهواء الفاسد والابخرة المتصاعدة من الاصطبلات والغازات التي تستعمل للتطهير في البيوت ، ومايتصاعد من عرق الغير والغبار الثائر في الطرق الخ كل هذه تتسرب الى أبداننا وتمكث فيها فتسبب لنا الامراض المختلفة . ثم ان مما يحدث المواد المرضية التعب فانه يهلك عددا عظيما من خلايانا فتمكث في ابداننا بسوء نوع معيشتنا بدل أن تنصرف فيهم ومنه تخرج الى الجو بواسطة الاعضاء المفرزة للسموم . هذه المواد الغريبة المرضية المختلفة من الاغذية يحاول الجسم بخضوعه للقانون الطبيعي الذي يدبر كل حياة ان يبعده عنه باعتبار أنه غير نافع له أوضار به . ولكن أعضاءنا المفرزة لاتستطيع نظرا لكثرة المواد ان تفرزها كلها في آن واحد فيترا كم مايبقى منها في الجهة السفلى من البطن . ومن هنالك تتجه رويدا رويدا الى الأطراف وتلبث هناك تبعا لناموس الثقل وتبعا للوضع العام للجسم إما ذات اليمين أو ذات الشمال أو أمام أو خلف . فتبقى هذه المواد غير محسوس بها أو تصيب صاحبها قشعريرات واضطرابات لايمكن التعبير عنها وقلق عام . وبالجملة تصيبه جميع الاعراض التي تسبق الأمراض الحادة أو الحية . تلك المواد التي تتخلف في الجسم هي مواد عفنة أومتخمرة . والتخمر نوع من التعفن سببه التحلل الواقع في بعض المواد العضوية فاذا حدث سبب داخلي أو خارجي أو برودة أو حرارة أو انفعال تحيا هذه المواد المرضية وتتخمر ثم تبحث لها عن مخرج فتتحرك على موجب مواضعها والمراكز الليمفاوية للجسم متجهة الى أعلى الجسم والى الجلد أولا . فاذا وجدت مانعا يحول بينها وبين الخروج تحدث تمددا في الجهة التي تحل فيها فتولد ورما ظاهرا أو باطنا : وقد يحدث ان هذه المواد المرضية تسقط الى الاطراف السفلى فتمكث في الساقين والقدمين . هذه المواد تندفع على الدوام للبعد عن مستودعاتها على قدر الامكان والتسرب الى الاعضاء البعيدة عنها كالرأس والعنق والايدي والارجل والاصابع وابهام القدم . وهنالك تقف لأنها لاتستطيع ان تخرج من مسام الجسم لعدم العناية بصحة الجلد ولأن المعيشة ضد الطبيعة جعلت المسام الجسدية كأنها لم توجد أو قليلة الفائدة . وقد يكون الجلد على مايرام من تأدية وظيفته ولكن تدفق تلك المواد عليه فجأة لايمكنه من تصريفها بمسامه دفعة واحدة . فاذا كان نشاط الجلد ضعيفا أو معدوما . والامعاء والكليتان والرئتان لاتؤدي وظائفها على ماينبغي كما هي الحالة العامة الآن تسبب عن تلك المواد الغريبة في الانسجة الجسمية تغيرات مرضية تفسد الشكل الطبيعي للجسم رويدا رويدا فتجمد الانسجة وتتوتر العضلات بعد أن كانت لينة في اللمس ويكون توترها ظاهرا محسوسا في أثناء تحركها . وفي أحوال أخرى يسبب وجود المواد الغريبة في الجسم تمددا فيه . ويمكن التحقق من صحة هذه الاحوال . ويكفي أن نلاحظ أصحاب الاجساد السمينة الذين تمددت أبدانهم بتراكم المواد السمية الغريبة فيها أو ان نتأمل في الاشخاص النحفاء الذين نجد أنسجتهم متوترة على درجات مختلفة . قلنا ان المواد الغريبة تميل على الدوام أن تتجه الى الاطراف . والرقبة تكون كمضيق بين الجذع والرأس فتظهر تلك المواد الغريبة فيها متراكمة على الخصوص

هذا سبب الامراض فما هو الدواء ؟ قال (كوهن) لما كان سبب جميع الامراض واحدا كما رأيت وهو تراكم المواد الغريبة فى أجسادنا من جراء تعاطينا أغذية لاتوافق تركيبنا وتعرضنا لتعب المفرط واستنشاق الغازات الضارة . فليس لها الا دواء واحد وهو ينحصر فى الامرين الآتيين اللذين نتيجتهما قطع الامداد عن تلك المواد السمية وتسهيل خروجها .

(أولا) الاقتصار فى الغذاء على النباتات

(ثانيا) استعمال الحمامات الجذعية والحمامات الجلوسية مع دلك الجسم بفوطة خشنة مبتلة والحمامات البخارية .

الحمامات الجذعية هى أحواض يغمر الانسان فيها جذع جسمه فقط أى من عنقه الى فخذيه . والحمامات الجلوسية هى أحواض تغمر فيها المقعدة مع جزء من الظهر والبطن . والحمامات البخارية هى احاطة الجسم بالابخرة . جميع هذه الحمامات تباع فى محل التجارة انتهى أقول

《 ملخص هذا المقام 》

هذه هى الأساليب الثلاثة لهؤلاء الأطباء الثلاثة الاول ، فالسبب عند (هيج الانجليزى) هو أن يكون البول حمضيا بمواد لاتلائم الجسم ، وهذه المواد تقف فى فروع العروق فتسدها فيحصل الضغط على القلب وتكون أمراض مختلفة يعطى لها الأطباء أدوية مختلفة قتالة والدواء عندهم (الاكتفاء بالنباتات والفواكه) وترك اللحم وبعض الحبوب المذكورة كالفول الخ والشاى وماعطف عليه . والدكتور كاتانى كلامه مثل كلام هيج ولكنه أشبه بمن يقول : «يجب أن يكون فى شوارع القاهرة زبالون لحمل الكناسات من البيوت» والدكتور هيج أشبه بمن يقول : «قذارة البيوت سببها بقاء الكناسة فيها» والدكتور كاتانى يقول : «نعم قولك صحيح ولكنى أقول : إن عدم الزبالين هو السبب فلو وجد الزبال لرفع الكناسات من المنازل والذى يكون سببا فى ايجاد هذا الزبال لازالة القمامات من المنازل (هو النباتات الخضراء والفواكه والبيض مع ترك الخل والمخللات والجبن والمرق والعجينات والأرز والبطاطس والحلوى والتوابل)

والدكتور (سوبر و يسكى) يقول : «إن هذه الزبالة تخللت رائحتها جميع طبقات المنزل . وذلك أن المادة الضارة اذا كانت فى الماء فهى فى الدم والعلاج هو أكل النباتات»

إذن أكل النبات متفق عليه للشفاء من جميع الأمراض عند الثلاثة الاول وقد اختلفوا فى اللبن وما تفرع منه وكذا البيض ونبذوا مايتعاطاه الناس من التبغ ونحوه . وكوهن الألمانى جعل السبب أعم وهى أجسام غريبة تتخلل البنية والمعنى واحد . فهو متحد مع من قبله اجمالا والدواء واحد وهو الأغذية النباتية

أيها الذكى : خذ النتيجة التى ساقها الله لنا . كل النبات والفواكه ودع اللحم والقهوة والشاى والخمر والتبغ والسكر وما اشتق منه من الحلويات

هذا ملخص ما تقدم . أما اللبن ففيه خلاف سببه أن البهيمة ربما كانت مريضة فينتقل المرض الينا من لبنها . هذا ملخص هذا المقام . انتهى الفصل الأول

《 الفصل الثانى 》

(فى ضرب مثل لأجسامنا ودمها وغذائها وأمراضها بالأرض المصرية ونيلها (والغرين) وهى للمواد التى تجعل لونه قريبا من الحمرة وهى أهم أغذية النبات والسدود التى تمنع الماء أن يصل الى بعض الأرض)

اعلم أن كثيرا من الناس يقرؤن كلام الأطباء فيتحيرون ويصعب عليهم الفهم . فاعلم رعاك الله أن أجسامنا كالأرض ودماءنا كماء النيل (والغرين) الذى فيه وهو المسمى بالطمى فى بلادنا أشبه بالمواد الغذائية

التى تجرى مع الدم ليوصلها للأعضاء الباطنة والظاهرة . النيل وفروعه كالعروق الصغيرة والكبيرة والتمثيل صحيح وأعضاؤنا كالزروع والأشجار التى يسقيها ماء النيل . فلو اننا سددنا ماء النيل من أى مكان بسدّ أو سددنا أى فرع من فروع النيل فان الماء يرجع الى الوراء وهناك يحصل ضرران كبيران وهما سوء ما بعد هذا السد من السقى فيحصل تلف فى الزرع من جهة قلة الماء . وهلاك الزرع الذى قبل ذلك السدّ بطغيان الماء عليه هكذا فى الجسم اذا سدّ عرق كبير أو صغير بموادّ لا توافق الصحة حصل افراط فيما قبل هذا السدّ وتفريط فيما بعده فتحصل أمراض مختلفات فى الجسم على حسب استعداده . وكما أننا اذا أردنا تلافى اهلاك زرعنا فى حقولنا فتحنا تلك السدود سدّا سدّا . هكذا اذا أردنا الصحة أزلنا الحواجز التى فى تلك العروق وفروعها . وما تلك الحواجز إلا الموادّ الغريبة

هذا ملخص كلام هؤلاء الأطباء الأربعة . فاذا سمعت قول هيج الطبيب الانجليزى أن حمض البوليك وحمض الاوكساليك والنطرون وغيرها هى أسباب (النورستانيا) والنقطة والروماتيزم وألم الرأس الخ فما خرج عن انه نظير قولنا ان ماء النيل اذا سدّ فى أى بقعة اختلّ نظام النبات فهلك أكثره إما بقلة الماء واما بكثرته والنبات مختلف وألمنا عليه يكون على مقدار نفعه هكذا هنا فانها تحصل أمراض مختلفات يعبر عنها بعبارات مختلفات كما يقال فى النبات قد هلك القمح والبرسيم والبطيخ وهكذا ولكل واحد من هذه النباتات منزلة عندنا نتألم لفقده بسببها ، واذا سمعت قوله أيضا : «إن تراكم حمض البوليك فى أوعية الدم يسبب انحرافا فى العقل واضطرابا فى الحياة» أو قوله : «إن السميات التى تتخلف من الموادّ المغذية تثبت فى تفرّعات الأوعية الدموية وتسدّ الأوعية الشعرية فتقلّ قوّة سريان الدم» فانه كقولنا «إن وقوع الحجارة والطين فى مساق النيل يمنع الماء عما خلفها ويضرّ بكثرة الماء ما أمامها من الزروع»

واذا سمعت هيج يقول : «أزيلوا حمض البوليك تعيشوا مائة سنة» فهو كقولنا «أزيلوا السدود من المساق يشرب زرعكم ويدرّ ضرعكم وتعيشوا الى حين»

واذا سمعت هيج أيضا يقول : «دع الفول والعدس والبازلة والفاصوليا واللوبيا الجافة والشاى والقهوة والكاكاو» فهو أيضا كقولنا : «امنعوا الحشائش من مجرى الماء لتسقى الزرع فى الأرض»

واذا سمعت أن البلاد المصرية من قبل حكم المغفور له (محمد على باشا) لم يكن بها مهندسون فكان الماء يجرى بلا قانون فكثر الجفاف فى وقت وكثر الماء فى وقت آخر فاضمحلت مصر لقلة زرعها ، هكذا نقول فى مزرعتنا ومساقيها وهى أجسامنا ، فنحن اذا أكلنا السكر والنشا والدهنيات والخل والمخللات ولبن البهائم المجهولة صحتها وجبنها والمرق والعجينيات والارز والبطاطس والحلوى والتوابل من كل ما ذكره (كاتانى) الايطالى أو أفرطنا فى الأكل كما قال الدكتور (سوبر وبسكى) الفرنسى ، أو تعاطينا اللحوم والتوابل والأشربة الكحولية المخدّرة من النبيذ والبيرة والعرق والقهوة والشاى ، أو تداوينا بالسموم الصيدلية ، أو استعملنا السعوط (النشوق) أو أكثرنا الوقوف فى الأماكن التى فسد هواؤها وتصاعدت أبخرتها مثل الاصطبلات أو كان فيها غازات للتطهير فى البيوت ، أو جلسنا مع القوم الذين عرقهم له رائحة ، أو سرنا فى الطريق ذات الغبار ، فهذه كلها تدخل أجسامنا وتضعفها كما قاله كوهن الألمانى

أقول : اذا فعلنا ذلك كله أو بعضه كما قاله هؤلاء الأطباء فان أجسامنا تكون سعادتها وصحتها على حسب المصادفة كهيئة الأمة المصرية قبل أيام (محمد على باشا) فقد كان سكانها نحو مليونين فقط لأنهم كانوا يعيشون بالمصادفات . فأما اذا أكلنا النباتات الخضراء والفواكه مع الحركة فى الهواء الطلق كما قاله كاتانى المذكور وفصله الدكتور (سوبر ويسكى) الفرنسى وقد ذكر بعضها وهى المحتوية على القلويات مثل الشكوريا والراوند والاسفاناخ والكمثرى والحماض والهندبا والخس والكرفس والجرجير والفجل

فهذه وأمثالها هى القلويات وهناك نباتات أخرى تضارعها فى فائدتها ولكن من طريق طرد مايضر الجسم مثل حمض البوليك كالاسفاناج أيضا والكرنب والقنبيط وكرنب بروكسل والبازلة الخضراء التى بها حوامض تعيق افراز حمض البوليك

أقول : اذا سرنا على هذه الطريقة وأضفنا اليها مايقوله الدكتور كوهن الألمانى وقفينا ببعض تجاربه كالحمامات الجذعية والحمامات الجلوسية مع دلك الجسم بفوطة خشنة مبتلة والحمامات البخارية

أقول : اذا اتبعنا هذا الصراط فى حياتنا (لاسيما اذا قرأت أيها الذكى تمام الكلام على تلك الحمامات ونحوها وفوائد أخرى فى ﴿ سورة الشعراء ﴾ عند آية ــ واذا مرضت فهو يشفين ــ وآخر ﴿ سورة طه ﴾ عند قصة آدم فانك تجد هناك تفصيلا وشرحا كافيا لتلك الحمامات وغيرها ، وهكذا نظائر أخرى فى ﴿ سورة الحجر ﴾ عند الاشارة لقصة آدم فى أولها وهكذا فى ﴿ سورة الأعراف ﴾ عند آية ــ ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين ــ وهكذا عند آية ــ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ــ ففى هذه المواضع كلها ملخص علم الصحة وشذرات جيلة فى علم الطب) فاننا نكون فى صحتنا أشبه بالمصريين من حيث نمو السكان فى هذا القرن إذ صلحت الترع والمجارى بعناية المهندسين وصار السكان (١٤) مليونا بعد مليونين قديما

﴿ تذكرة ﴾

أيها الذكى : ها أناذا مثلت لك أجسامنا بالأراضى المصرية والنيل كالدم والسودفيه كالأحماض الضارة والأجسام الغريبة فيه ، فأنت بين « أمرين اثنين لاثالث لهما » إما انك تعيش كما يعيش أغلب نوع الانسان الذين أشبهوا آدم حين أكل من الشجرة ولم يتعظوا بقصته ولم يعلموا مقاصد الكتب السماوية من انزال هذه القصة وأمثالها وتكرارها فى القرآن ، فاذن كل كما يأكل الناس مقلدا لهم ، واما انك تنظر فى هذه الحياة وتسلك سبيلا آخر بحسب الطب الحديث على مقدار طاقتك ، فهنالك ترجع لحال آدم قبل الأكل من الشجرة . ويظهر لى أن النوع الانسانى مقبل على زمان أجل وأبهج ، فاذا سلكت هذه السبيل الحديثة فاعلم انها هى التى تؤخذ من قصة آدم . فالناس جميعا آكلون مايشتهون من هذه العوالم الأرضية وهم غافلون عما يضر وينفع . وهاهو ذا زمان ظهور عجائب القرآن . فأنت اذا أكلت النباتات والفواكه وهكذا فان هذه النباتات نفسها تفتح سدود جسمك ولاتحتاج الى مايحتاج اليه النيل من المهندسين . واذا أكلت الأطعمة الأخرى كاللحم أوالخلل أوالسكر وكل ما اشتق منه فانك تحتاج الى مهندس يفتح سدودك وهذا المهندس هو الطبيب يعطيك مركبات سمية وينزل عليك بالابر فيملأ جسمك سما زعافا مع تقطيع الجلد ودخول الحقن السامة . الله هدانا النجدين فلنتبع أسهل النجدين . وبهذا تم الكلام على الفصل الثانى وهو ضرب مثل بالنيل وفروعه للجسم ودمه الخ

﴿ الفصل الثالث ﴾

(فى نصائح عامة من كبار الأطباء وهى ست نصائح منقولة من ذلك الكتاب)

﴿ النصيحة الأولى ﴾

(رأى الاستاذ هندهيد فيما يأكله الانسان فى اليوم)

أهم مايجب أن يدقق فيه من يريد لنفسه دوام الصحة هو مسألة التغذى فان عليها مدار الحياة والخطأ فى وجوهها الطبيعية يؤدى الانسان الى أشنع الأمراض المسببة لأشد الآلام . لذلك عنينا فى هذا الكتاب بالافاضة فى هذا البحث وسنفيض فيه ماوجدنا للافاضة موضعا . وقد اطلعنا على بحث جليل لأحد أطباء الانجليز نشرته إحدى الجرائد نقلها عنها المقطم فرأينا أن ننقله لقراء كتابنا هذا فان فيه فوائد جليلة وقواعد قيمة

قال

قال «المقطم» فى عدد ٨٣٨٩ الصادر فى ١٩ اكتوبر سنة ١٩١٦ مايأتى :

« وقد طالعنا مقالة لأحد أطباء أوروبا يتبين منها أن الذين اعتادوا أكل اللحم والبيض وما يدخل فى حكمهما من الأطعمة يفرطون فى الاكثار منها فيؤذون أنفسهم أذى كبيرا من حيث لايدرون . وهذه المقالة مفعمة بالفوائد فآثرنا اقتطاف أهم ماورد فيها ونشره عملا بما جرينا عليه من نشر المقالات المفيدة فى حفظ الصحة . استهل الطبيب الكاتب مقالته بهذا السؤال وهو : كم يحتاج الجسم البشرى من البروتيين (الالبومن) لكى يؤدى وظائفه حق الأداء ؟ والبروتيين اسم جنس للأطعمة النتروجينية أو الالبومنية وهو العنصر الجوهرى فى اللحم الهبر والبيض واللبن والأجزاء الالبومنية فى بعض البقول . والموضوع من أهم مواضيع حفظ الصحة فان الأمراض الناشئة عن الافراط فى أكل البروتيين كثيرة والوفيات بها تزيد على الوفيات بسواها فان أمراض القلب والكليتين والكبد ناشئة عن سوء تمثيل البروتيين . فمعرفة مايجب أكله من اللحم والبيض واللبن ونحوها من الامور التى تعد أساسا لحفظ الصحة وإطالة العمر . ثم إن أعظم الأطباء مجمعون على أن بعض الأمراض الأخرى العضالة كالسرطان ناشئة عن الخطأ فى تعيين مقدار (البروتيين) فى الطعام وحسبنا هذا وذاك دليلا على وجوب افراغ العناية فى هذا البحث . وأول من بحث فى هذا الموضوع الدكتور (هندهيد) الدنمركى فظهر له من أبحاثه أن (٢٥) غراما من البروتيين فى اليوم تكفى الشخص العادى وتحفظ صحته . وكان المظنون قبلا أن المقدار اللازم يبلغ أربعة أضعاف هذا القدر . وقد قال هذا الطبيب : « إن زيادة هذا المقدار فى الطعام مضر بالجسم »

ولايخفى أن أطعمة البروتيين كاللحم والبيض هى أغلى الأطعمة وأن الفقراء والمتوسطين يتعبون كثيرا فى تدبير أثمانها ولكن متى ثبت لنا أن الناس يدفعون الأثمان الغالية لشراء الضرر والأذى وقصر العمر غلب علينا الضحك لولا أن المسألة من المبكيات . وقد دقق الدكتور هندهيد فى تجاربه توصلا الى النتيجة التى استنتجها فكان يختار رجالا من الذين يعملون الأعمال اليدوية العنيفة ويكيل لهم الأطعمة ويزنها ويدقق فى وزن مفرزات أجسامهم ويفحص قوتهم وأعضاءهم . وبين التجارب التى جربها انه جاء برجلين اقتصر فى اطعامهما اطعاما كاملا على البطاطس والمرجرين (الزبدة النباتية) وكان يجنس الطعام يوميا بحيث يكون أقل مايصيب الواحد منهما كل يوم مالايقل عن (٢٠) غراما الى (٢٥) غراما من الالبومن بدلا من (٨١) غراما وهو المقدار الذى عين من قبل بالتجارب العلمية . والمعلوم أن البروتيين قليل جدا فى البطاطس . فاستخلاص المقدار المطلوب من الالبومن فى البطاطس يقتضى ثلاثة أرطال منه فكان الطبيب الدنمركى يطعم كلا من هذين الرجلين هذا المقدار من البطاطس كل يوم مع ست أوراق (٥٤) درهما من المرجرين ويمنعهما من أكل اللحم والبيض واللبن فكانت صحتهما فى آخر العام من أجود ما يكون وحاضر أحدهما مع العدائين فقطع (٢٦٤) ميلا فى (٩٩) ساعة أى فى أقل من الوقت المفروض . وهذا بعض ما استنتجه الدكتور هندهيد من أبحاثه وتجاربه :

(١) إن الالبومن الموجود فى الأطعمة النباتية يغنى فى الجسم عن الالبومن الموجود فى الأطعمة الحيوانية كاللحم والبيض واللبن وأن مقدار الالبومن الذى يحتاج الجسم اليه أقل من المقدار الذى كان يظن لازما له

(٢) إن الأطعمة التى يقل الالبومن فيها تزيد قوة الجسم على احتمال المشقة والتعب فقد قال الطبيب المذكور : « لا أعرف واحدا من الذين يكثرون من أكل اللحم أحرز قصب السبق فى محاضرة طويلة

(٣) إن عدد الوفيات بأمراض الكبد والكليتين والامعاء يبلغ بين سكان المدن المترفين نحو أربعة

أضعاف مايلفه بين الفلاحين الذين معظم طعامهم من الخبز والبطاطس والأدهان (الزبوت)

وقال « إن العرب الذين يأكلون الخبز والتمر فيهم من صلابة العود وشدّة الصبر على التعب مايدهش الاوروبيين وأن جراية جنود السيخ الهنود وهم من أشدّ جنود الدنيا عبارة عن كأسين من اللبن و٢٥ أوقية من الخبز وأوقيتين من الزبد وأربع أواق من الفاصوليا وخمس أواق ونصف أوقيـة من البطاطس وهـم لايأكلون اللحم إلامرتين أوثلاثة فى الشهر ونعم مايفعلون »

ويلخص استنتاج الدكتورهندهيد بقولنا أن قيمة الالبومن النباتى أفضل من قيمة الالبومن الحيوانى ولكن يجب الاعتـدال جدا فى استعماله وبكميات معينة وانه يجدر بالناس أن يقلوا من أكل اللحم وأن لا يكون أكله مع القلة مستمرا بل أن يؤكل فى فترات متباعدة

قال الطبيب الدكتور : « ولوكانت تجارب الدكتورهندهيد فريدة فى بابها لما أعرناها هذا الاهتمام فقد اتفق غيرمرة للعلماء أن أخطؤا فى البحث مدفوعين بعامل الحماسة الى استنتاج مايتوقون الى تأييده . وأعظم التجارب تدقيقا قد لايخلو من الخطأ فيؤدّى الى نتائج مغلوطة . ولكن التجارب المذكورة تطابق ماتوصل اليه باحثون آخرون . فمن ذلك أن الاستاذ تشتندن تعمق فى مثل هذا البحث فاقتنع هو وأنصاره بأن تنقيص البروتيين فى الطعام هوسبيل الصحة وأن السواد الأعظم من الناس ينكب عن هذا السبيل عمدا

وقد جرّب الاستاذ تشتندن هذه التجارب بنفسه وبجماعة من زملائه وتلاميذه وبينهم نفر من لاعبى الألعاب الرياضية فألفى أن صحته تحسنت وقوته زادت بانقاص مايأكل ولاسيما من أطعمة البروتيين ووافقه على ذلك آخرون فكانوا يقوون وتجود صحتهم اذا نقصوا مقدار الطعام الذى يأكلونه

ومما يبعث على الاستغراب فى هذه التجارب أن نتائجها كانت متماثلة فى لاعبى الألعاب الرياضية وفى الذين يعيشون عيشة ساكنة هادئة فان قوتهـم ازدادت بانقاص مايأكلون من اللحم والبيض عما ألفوه قياسا على ماتطلبه قابليتهم . وقد تبين للأستاذ تشتندن أن هذه القابلية التى نحسبها طبيعية ونعتمد عليها فى الدلالة على مقدار مايجب أن نأكله ليست دليـلا مأمونا بل هى نتيجة عادات سيئة فى الأكل حادث بالانسان عن جادّة الصواب فان القابلية اذا كانت طبيعية لاتسمح للمرء أن يأكل من الطعام إلانصف القدرالذى يأكله الناس عادة أوثلثه »

الى أن قال : « ولكن الأمر المهم فى مسألة الطعام هى عدم الافراط فى شئ منه ولكن الخطركل الخطر ناشئ عن الافراط فى أطعمة البروتيين أى اللحم والبيض واللبن . ويجب ملاحظة الفرق بين الآكلين فالذى يعمل أعمالا بدنية عنيفة يجب أن يعطى من الطعام أكثر مما يطعم من كان قليل الحركة أوكان شغله من الأشغال العقلية . وختم الطبيب مقالته ببعض الوصايا العامة التى يجدر بالمرء مراعاتها فى طعامه وهى :

(١) الاعتدال فى الأكل من جميع أنواع الطعام التى تقدم على المائدة ولاتأكل من طعام واحد مرتين

(٢) اترك المائدة وأنت شاعر بأنك تستطيع أن تأكل زيادة عما أكلت

(٣) زن جسمك مرة بعد مرة وقابل بين أوزانه وعدّل طعامك بحسب ماترى من نقص الوزن أوزيادته فان لم تهتم هذا الاهتمام القليل وتعن هـذه العناية اليسيرة بجسمك فلايحق لك أن تشكو اذا اعتلت صحتك ولاينتظر أن تكون من طويلى العمر » انتهت النصيحة الأولى

النصيحة الثانية

(ضرر الافراط فى الأكل)

(مترجمة من كتاب « صناعة إطالة الحياة » للعلامة الدكتور جاستون دورفيل)

قال الدكتور دورفيل : « الافراط فى الأكل جرح دام فى جسم الانسانية . وانى لأستطيع أن أؤكد

بانه

بأنه يقتل يوميا أكثر مما يقتله السل والسرطان مجتمعين وانه غالبا سبب هذين الداءين . وقد قال المفكر الكبير تولوستوى وأصاب : اننا لنأكل ثلاثة أضعاف ماتتطلبه أجسامنا فنصاب بأمراض لاعدد لها تقطع الحياة قبل بلوغها أقصى حدها »

وقال الفيلسوف سنيك : « الحياة ليست بقصيرة ولكننا نقصرها بأيدينا » وقد كان الدكتور المشهور (هيكيه) يمزح قائلا لطهاة مرضاه الأغنياء : « أنا مدين لكم بالشكر أيها الأحباب على ماتؤدونه من الخدم الينا معاشر الأطباء » وكان الفيلسوف سنيك المتقدم ذكره يقول : « إنكم تشتكون من كثرة الأمراض فاطردوا طهاتكم » وقد ذكر الدكتور كارتون فى كتابه « الثلاثة الأغذية المميتة » المصارعين الذين تراهم ممتلئين عضلا ودما من كثرة مايعنون بالأكل . ثم قال : إن دولة قوة هؤلاء الأقوياء قصيرة الأمد وأن قوتهم المفرطة هذه ليست إلا كنار القش لأنهم كالفلتات الطبيعية أوالنباتات المدفوعة للافراط فى النمو المعرضة لان تحترق فى يوم من الأيام بحرارة السماد الشديدة الذى هو سبب نموها غير الطبيعى »

قال الدكتور جاستون دورفيل بعد ايراد هذه الآراء : « بعض المفرطين فى الأكل ليسوا ممتلئين شحما فنهم من يكونون على العكس نحاف الأجسام ، ويستوى النحيف والسمين فى الهلاك بسرعة وان جهل كل منهما ما يؤديه اليه سم الأغذية من سوء المصير ، فترى الناس يحسدون الأولين (السمان) ويرحمون الأخيرين (النحاف) فيظنون أن بهم ضعفا أوفقرا دمويا ويزيد الأطباء حالتهم سوأ باعطائهم المنبهات والمقويات ، فياحسرة على هؤلاء الضعاف الذين يصف لهم الأطباء اللحوم النيئة المهلكة وزيت كبد الحوت الذى لاتستطيع أن تهضمه أشد الامعاء ، فكم من الزمن يجب علينا أن نقضيه فى الصياح ليعلم الناس أن الرجل الضعيف لايفقد دمه كرّاته الحمراء إلا لأن سم الأغذية يبيدها ويستعبدها ، فاعطاؤه اللحم يزيد فى تسممه الذى هو سبب هلاكه ويقربه من حفرة القبر ، من الناس من يفرط فى الأكل ولايصيبه أذى بل تظهر عليه علامات الصحة الكاملة ، فترى وجهه موردا ومحياه متلألئا فيعيش السنين الطوال لايشتكى بأقل وجع ثم لاتلبث أن تسمع بأنه قدمات وهو فى عنفوان القوة فتدهش لذلك ولاموجب للدهش فان هذا الأكول لم يكن له فى جسده مراقب عتيد يعاقبه على كل إفراط وتفريط فتمادى فى شأنه فتراكمت عليه السموم فقتلته ولا كرامة ، ولكن من المفرطين فى الأكل من لاتزايلهم الأعراض المرضية فمن زكام الى دمل الى نزيف الى مرض جلدى ، وماهذا كله إلا أدلة على أن جسمه يقاوم السموم فيصرفها كلما تراكمت فيه بهذه الأعراض المتوالية وهو عندى أفضل من الأول الذى يعيش صحيحا محمودا سنين معدودة ثم يصعق فجأة ، وترى الأطباء يرون الضعيف المفرط فى الأكل مصابا بدمل أو بمرض جلدى أو بنزيف أو بغير ذلك فلا يسألونه عن كيفية معيشته ولامقدار أكله ولا أنواع غذائه بل يسعون فى مكافحة الأعراض المرضية فتزداد حالته سوأ وربما هلك بين أيديهم » انتهت النصيحة الثانية

النصيحة الثالثة

(ضرر الأغذية المركزة)

يقول الدكتور جاستون دورفيل : « اذا كان الافراط فى الأكل من الأخطار الكبيرة فان تناول الأغذية المركزة كالسكر واللحم بقصد التقوى أوتحسين التغذى أشد خطرا على الصحة ، نعم إن تلك الأغذية التى نعتبرها مقوية توجد لنا قوة فنحس بسعادة جسمية ولكنها سعادة مؤقتة إذ تنقلب الى ضعف وانحطاط ، فهذه الأغذية التى يخيل للناس أنها مقوية هى كضربة سوط تنزل على الحصان المعى فتجعله يجرى قليلا ثم ينحط انحطاطا لاقيام له منه . فمن من الناس نحا ياهذا القرن الذى يقال انه قرن النور ؟ لم يتناول الأغذية المركزة من خلاصات اللحم ومستخرجات اللحم والبيتون والأنبذة والفوسفاتات والدقيق المشحون بالازوتات والبرشامات الملونة

بالمهيجات والسكريات والشكولاتات الخ مما لا يمكن استيعابه ؟ قليل من علم الفسيولوجيا يفهمك نتيجة فعل الأغذية المركزة على خلايا أجسامنا . ذلك ان الأغذية التى نتعاطاها قسمان : قسم يعوض أنسجة أجسادنا وهى المواد الزلالية . وقسم أعدّ للاحتراق فباحتراقها بفعل الاوكسوجين الذى فى الدم تعطينا قوة تسرى فى عضلاتنا وأعصابنا وتحفظ حرارتنا

« للأغذية وظيفة ثالثة وهى تهييج خلايانا الجسمية . من هذا التهييج ينتج التبادل الذى يميز حياتنا . فاذا كان الغذاء الذى نتعاطاه ذاتيا كان تهييجه لطيفا بطيئا مترقيا ولكن اذا كان الغذاء مركزا كان تهييجه قويا جافيا . فلنفرض أن غذاءنا مكون من الخبز والبطاطس بمقادير مناسبة ومن النباتات الخضراء والفواكه فان خلايانا بعد انهضام هذه الأغذية تأخذ منها الزلال بمقادير صغيرة ضرورية لتعويض مادتها الحيوية المستهلكة . وأما المواد الاحتراقية فتأتى بكمية مناسبة أيضا وذائبة من البطاطس والخبز والفواكه فتتأثر خلايانا بتهييج لطيف أى فسيولوجى . ولكن اذا كان الغذاء مؤلفا كما هى عادة معاصرينا من اللحوم والحلاوات المشبعة بالسكر والشكولاتا والكحول مهما كان مقداره صغيرا اتجهت هذه المواد الى خلايانا مجتمعة فأحدثت فيها اضطرابا غير فسيولوجى يتوهم انه قوة بدنية ولكنه فى الحقيقة ليس إلا خطوة نحو الصحة النهائية »

قال الدكتور (اسكوت) فى كتابه (التهاب المفاصل والافراط فى التغذى) ماياتى : « التهيج اللطيف للخلايا يحفظ الحياة بتسهيله تمثيل الاصول المغذية ، والتهيج القوى يختصر الحياة بحملها على الاسراع فى عملها بحيث يعتريها التعب والانحلال قبل موعده الطبيعى »

وقال الدكتور (بول كارتون) فى كتابه « الثلاثة الأغذية المميتة » مانصه : « حين تصل الى خلايا الجسم أغذية شديدة التركز تتكبد تلك الخلايا هجوما عنيفا مميتا مضادا لحياتها الطبيعية وهذا التهيج المضاد للفزيولوجيا يقتضى ردّ فعل جافيا شديدا من الخلايا الجسمية يفرح به صاحبه فى حينه ولكنه مع الادمان ينقلب مضعفا هادما مولدا للمرض ، هذه المجهودات المفرطة التى يجب أن تعملها خلايانا لتتساوى مع شدة التهيج الغذائى تخيلها دائما مظهرا كاملا من مظاهر الحياة والصحة ، فكلما لفظت الآلة وارتعدت تحت تأثير الحرارة المفرطة افتخر صاحبها وارتاح ، وكلما صار الأولاد أكثر توردا وسمنا تحت تأثير اللحم والسكر ازداد أهلوهم سرورا بهم ومع ذلك فلاشئ أكثر خدعا من هذه الظواهر الغشاشة ولاشئ أكثر خطرا من هذه النتائج الجميلة التى يتحمسون لرؤيتهما غاية التحمس لأن عقباها التى لامناص منها الانحطاط والفساد والمرض والموت الباكر لجسم استنفدت جميع ذخائره الحيوية » انتهت النصيحة الثالثة

(النصيحة الرابعة)

(ضرر السكر الصناعى وفوائد الطبيعى)

يقول الدكتور جاستون دورفيل : « السكر أحد الأغذية المهلكة لأجسادنا فالتناول منه كعادة معاصرينا من أربعة الى ست قطع فوق الغذاء المفرط يكون بمثابة الحكم على الجسم بزيادة الحركة زيادة مرضية مميتة ، لقد كان آباؤنا منذ ثلاثة أجيال يجهلون السكر الصناعى وكانوا أبطأ منا انحطاطا فى قواهم ، تقدم الينا الآن الأغذية السكرية فنتناول منها بافراط ونعطى منها لأولادنا ، وقد شوهد أن كثيرا من أحوال الأرق لاسبب لها غير الافراط فى تعاطى السكر ، وذلك سهل التفسير فان السكر أقوى الأغذية الاحتراقية يعطينا ميلا شديدا للعمل فكيف يمكن النوم مع هذا الميل ، ولقد عالجت حالات أرق مستعص بمنع المصابين من تناول السكر مساء ، هل معنى هذا الامتناع عدم تعاطى السكر بتاتا ؟ لا ولكن الواجب معرفته أن السكر الصناعى علاج كالعلاجات يضرّ وينفع ، فهو نافع لأهل الأعمال الجسدية كالزراع والصناع ، وضار لذوى الحياة الجلوسية

كالمؤلفين والسياسيين فلا يجوز لهم أن يتناولوا منه أكثر من قطعتين في اليوم ، ويجب عليهم الامتناع عنه وعن كل الأغذية الاحتراقية مساء كالنشا والعجينيات أيضا ، ثم إن من الاضرار بالأطفال إعطاءهم السكريات فان السكر الطبيعي يكفي لجميع حاجاتنا وهو موجود في الفواكه حيا وعلى حالة ذوبان ، ولكن السكر الصناعي محروم من الحياة أي من قواه المغناطيسية فهو غذاء ميت . إنا لنعلم الفائدة العظيمة لأجسامنا من تناول الأغذية المتمتعة بحركتها الحيوية ، وقد كان الناس يضحكون من أهل القرون الوسطى الذين كانوا يعتقدون في القوة الحيوية ولكنهم اضطروا اليوم لأن يرجعوا عن غيهم ، فقد دلتنا الفزيولوجيا التجريبية على أنه من العبث إعطاء الضعفاء الحديد لتقويتهم لأن الحديد اذا لم يعط حياة لا يتمثله الجسم بخلاف الحديد الحي المشمول في النباتات فانه مقو عظيم للكرات الحمراء للدم

وماقلته عن السكر أقوله عن الكحول فان المشروبات الروحية خطرة جدا ، يقول لنا الدكتور كارتون في كتابه « الثلاثة الأغذية المميتة : « إن المقادير التي تستهلك من اللحم قد بلغت ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل ثلاثين سنة فلا ننس انه بجانب هذه الزيادة المضافة الى زيادة مقادير الكحول والسكر نشاهد أن السل الرئوي يجتاح سنويا أكثر من ١٠٠,٠٠٠ والسرطان أكثر من ٣٠,٠٠٠ نسمة

الضرر لم يقف عند هذا الحد المادي بل تناول العقول أيضا ، وحسبي أن أقول بأن عدد المجانين كان سنة ١٨٦٥ نحو ١٤٠٠٠ فبلغ ٧١٥٤٦ في سنة ١٩١٠ وزاد كذلك عدد المنتحرين حتى بلغوا أكثر من ثمانية أضعاف ما كانوا عليه منذ بضع سنين » انتهت النصيحة الرابعة

(النصيحة الخامسة)

(متى وكيف وماذا يأكل الانسان ويشرب)

(مترجمة من كتاب « الطب الطبيعي » للأستاذ باز)

قال الاستاذ (باز) مامعناه تحت عنوان « متى وكيف وماذا نأكل ونشرب ؟ » في كتابه « الطب الطبيعي » ما يأتي :

« أريد أن أعطي نصائح فيما يمس هذه المسائل وهي : متى وكيف وماذا يأكل الانسان ؟

(١) — (متى نأكل)

العادة أن الناس يأكلون ثلاث مرات في اليوم حتى تستطيع المعدة أن تستريح في خلالها ، ولكن مما يجب ملاحظته هنا أن العشاء لا يجوز أن يكون كثيرا ولا متأخرا لأن الأعصاب المعدية والمخية تزيد عمل المخ فينتج منها نوم غير هادئ ، ومثل هذا النوم لا يكفي في تعويض مافقده الانسان . وتنتج عن هذه النتيجة أيضا ان دخلت السرير عقب اتعابك المخ بشئ من الاشتغالات العقلية كالمطالعة والتفكر والمجادلة والبحث في السياسة لأنك بذلك تكون وجهت التيار الدموي نحو المخ ويكون النوم أقل تقوية للجسم لما يتخلله من الأحلام الكثيرة

(٢) — (كيف يجب أن يأكل الانسان ؟)

الشرط الأولى في ذلك أن تمضغ اللقمة جيدا وفي مدة أطول ما تستطيع وذلك بالنسبة لجميع الأغذية على السواء ، وهذا لسببين : أولهما لأن إجادة المضغ والاطالة أمده هما العاملان الوحيدان في خلط اللعاب بالمواد الغذائية واللعاب ضروري للهضم بل هو العامل الأول فيه ، وثانيهما لأن عمل الأسنان يهيئ عمل المعدة و بغير ذلك لا تستطيع المعدة أن تستخرج من الأغذية كيموسا كافيا ولكن لأجل أن يؤدي الانسان هذا الواجب لجسمه يجب أن يكون لديه أسنان كفء للمضغ وهو الأمر النادر في جيلنا الحاضر ، فاذا أردت أن تحفظ أسنانك صحيحة فحافظ على تنظيفها وابتعد عن الأشربة وعن الأغذية الساخنة فان في ذلك ضررا عظيما على الأسنان

وعلى الحلق وعلى المعدة أيضا ، ثم يجب على الانسان أن لايداول فى الأكل أوالشرب بين ساخن وبارد لأن ذلك يضر بالطلاء البراق الموجود على الأسنان فيتلفه ويكون من وراء تلفه تأكل الأسنان وسقوطها . ولايجوز الاكثارمن الشربة أوالمرق . وينبغى أن يكون الخبز جافا رغير مغموس فى الماء فقد خلقت الأسنان للمضغ فيجب عليك أن تعملها فيما خلقت لأجله فقد ثبت أن الأسنان التى لاتؤدى وظيفتها كما يجب تقع فى المرض والانحلال . ويمكننى هنا أن أقول بأن الانسان فى ظروف مساعدة يمكنه أن يحفظ أسنانه سليمة حتى يموت . ثم ان الذى له أسنان ضعيفة بالوراثة لايستطيع تقويتها وارجاعها سليمة ولايتم ذلك فى نسله إلا بعد أجيال ولكن من المؤكد أن الناس لونجحوا فى تحسين حالة أسنانهم أتى عليهم وقت بطلت فيه شكواهم من مرض الأسنان . ألاترى أننا قل أن نصادف فى عالم الحيوانات أفرادا منها لها أسنان مريضة

يوجد مثل قديم يقول : « كل على قدرمانشتهى » هذا المثل صحيح ويستحق الاعتبار نظرا للأحوال الحاضرة المضادة للطبيعة التى يعيش فيها الناس . فهو صحيح من الوجهة الطبيعية لأنى لاأتصور أن الطبيعة تعطى للانسان شهية فى الوقت الذى فيه معدته لاتستطيع القيام بوظيفتها ، ولكن مما يوجب الأسف أن صاحب الشهية اليوم يتناول من الأشربة والأغذية أكثر مما يلزم لجسمه ولايتفق مع صحته فيضر نفسه ضررا بليغا فيجب أن ينظر الى هذا باعتباره حالة من الأحوال المضادة للطبيعة لاالموافقة لها ، ألاتنظر للطيور والحيوانات الأخرى فهل رأيت فيها مايتبرم عقب الأكل من الافراط فيه

رغما عما يقوله الناس اليوم من أنه لاينبغى لمن أكل وملأ معدته أن يضطجع ، أنصح بالاضطجاع عقب الأكل مدة من (٣٠) الى (٤٥) دقيقة فان الأعضاء الأخرى متى ارتاحت انصرفت دورة الدم كلها الى المعدة فتم هضمه على مايرام ، ومما يجب العناية به أن يتنفس الانسان تنفسا طويلا جملة مرات عقب كل أكل فى الهواء الطلق ليخلط المقدار الكافى من أوكسوجين الهواء بالدم ليتم الهضم على أحسن حال

(٣) — ﴿ ماذا ينبغى للانسان أن يشرب ويأكل ؟ ﴾

يجب على الانسان أن لايتناول إلا الأغذية السهلة الانهضام الخالية من الاصول الضارة ، وهذه الأوصاف تنطبق على جميع الفواكه والحبوب وخصوصا القمح ، فهو فضلا عن وفرة أصوله المغذية يحتوى على جزء عظيم من الفوسفور وهو العنصر الضرورى لحفظ سلامة المخ ، فقد قال موليخوت : « اذا لم يكن فوسفور فلا فكر » ويجب أكل النباتات الخضراء والفواكه ، واذا كان الانسان اليوم لايكتفى بها وحدها فقد كانت فى الأزمان السالفة هى الغذاء الوحيد لكثير من الناس . ولقد كثر اليوم مبدأ الافراط فى العمل وهو أمر مضاد للطبيعة . وانا لنرى أن هذا الافراط ليس ضروريا بل هوناشئ من سوء النظام . وفى نظرنا أن نصف هذا العمل يكفى لاقامة أمر الحياة كما يجب واذ ذاك لايحتاج الانسان أن يتناول الأغذية الثقيلة الدسمة كما هو حاله اليوم

فلقد أثبت لنا الدكتور (ناثار) و (سوكى) بصيامهما ورياضتهما أن الانسان يكفيه قليل من الغذاء والذى نراه انه لايجوز أن تخلو المائدة من الفواكه يوما واحدا لأنها مرطبة ولها دخل عظيم فى حفظ الصحة . أما اللحم فيجب أن يعتبر فى الأطعمة من توابلها لاغذاء قائما بنفسه فان له تأثيرا مهيجا ضارا بالبدن وليأخذ الانسان دليلا على ضرره وتهييجه من اجماع الأطباء على تحريم تعاطيه للمصاب بالحمى . والأغذية التى تضر المرضى تضر الأصحاء لامحالة وان يكن الأصحاء لايحسون بضررها بسرعة على . أن القيمة الغذائية للحم ليست بالقدر الذى يظنه الناس عادة فان الرطل من الحنطة أو من الحبوب الأخرى أو من النباتات الخضراء الخ يزيد فى القيمة الغذائية عن رطل من لحم البقر الجيد . وهنا ننبه على أن أكثر الناس يخطئون خطأ عظيما فى اعتقادهم أن اللحم يزيد أجسادهم قوة ويملؤهم حياة وفتوة . بل الأمر بالعكس فان الاكثار من أكل

اللحم

اللحم ضارٌّ للدرجة القصوى . وأما النباتات فهى الغذاء الجيد الصالح لحفظ قوة الانسان الجسدية والعقلية وتوفير سعادته البدنية ، فكما أن الطبيعة تعيد فى كل فصل شبابها وتستدعى بذلك اعجابنا ، كذلك تفعل النباتات فى أجسادنا فانها تعيد اليها قوتها وتملؤها حياة ونشاطا بخلاف سواها من الأشربة والأطعمة كالقهوة والشاى والبيرة واللحم والتبغ . أما التوابل فانها تهيج المعدة وتنشطها حتى قد تبلغ بها ضعفى قوتها ولكنها تنتهى باضعافها فلايعود الانسان قادرا على الهضم ، وكلما أنس الانسان بالأشياء المضادة للطبيعة بعد عن الموافقة لها ولايستردّ سيرته المعقولة فى موافقة الطبيعة إلا بالتعوّد ، قد يتبرّم الانسان من اخلاف عاداته حينا من الزمان ولكن متى زال أثر العادة السيئة حلّ محلها أثر العادة الطيبة بما يستتبعه من راحة وصحة وهناء

وعليه فانى أنصح بعدم أكل التوابل والاكتفاء بتعاطى الأشياء مجرّدة فان كل صنف تابلٌ فيه . أما مايشرب به الانسان فلاينتظر من مثلى أن ينصح بتعاطى الأشياء الضارّة ولوكان فى الناس من يعزّ عليه أن يقلع عن عاداته فليصر عليها حتى الممات ولكنى أخاطب أولاده وأحاول أن أقنعهم بما يجب عليهم أن يبتعدوا عنه . أنا لا أستطيع أن آذن لأحد بتعاطى البيرة ولاالعرق ولاالنبيذ ولاالقهوة ولاالشاى . فاذا لم تكن تستطيع أن تقلع عنها بتاتا فقلل منها ما استطعت . أما المشروب الوحيد النافع للانسان الملائم لصحته فهو الماء الصافى العذب فاشرب منه ماشئت . والذين لايستطيعون إساغة الماء القراح فهم مرضى ولايزالون مرضى حتى يستطيعوا إساغته دون سواه

أنا لاأريد أن أرجع بالانسان الى دور الوحشية الأولى ولكنى أريد أن يستفيد الناس من مزايا الاخشيشاب فى الأكل وهى المزايا التى يتمتع بها دوننا المتوحشون . ولاأريد كذلك أن أتخذ من حال الهنود المتبربرين مثالا نحتذيه فى حياتنا فانهم أيضا قد أصابتهم عدوى مدنيتنا فأصبحوا عن الصراط ناكبين

يظهر من حال طبيعتنا اننا لم نخلق إلا لأكل النباتات دون سواها . فاذا تأملنا فى تركيب أجسادنا رأينا أنه ليس فينا ما لأكلة اللحوم من الحيوانات من القابلية لتعاطى اللحم فليس لنا أنياب الوحوش ولامناسر الكواسر الخ وقد أحكم الله كل ماوضع فلايصح أن نفرض انه غلط أوحاد عن جادّة الابداع

وعليه فلا أدل للانسان فى أمور عيشه وسعادته من القانون الطبيعى فهو لايهدينا إلا لما فيه المصلحة ولايزعنا إلا عما فى تعاطيه المضرّة . فاذا خرج الانسان عليه ولم يخضع لارشاداته عاد أمره عليه بالوبال . وذاق من جراء عصيانه أسوأ الأحوال

فاذا كان الله جلّ شأنه خلق لكل كائن استعدادا خاصا لأنواع الغذاء لايجوز له أن يتعدّاه ساغ لنا أن نجزم هنا بأنه تعالى خلق الانسان نباتيا صرفا . واذا كان الأمر كذلك فلايعقل أن انسانا يستعيد صحته وينال سعادته إلا اذا عاد للأغذية النباتية وترك ماسواها سواء أكان ذلك طفرة أم تدريجا ، ولاعجب اذا كان الانسان وهو أكرم المخلوقات وأشرفها يقتصر من غذائه على أكرم الأطعمة وأطهرها وهى الفواكه الناضجة اليانعة ، وقد دلتنا الطبيعة أيضا أن الانسان اذا اقتصر من الأغذية على مايناسب استعداده وهو الأطعمة النباتية دون سواها عاش عمرا طويلا مهنأ فى نفسه معافى فى بدنه بخلاف ما لوتعاطى مايخالف استعداده كالعرق والبيرة والقهوة والتبغ الخ

ومما يؤسف له أن نحوا من (٩٠) فى المئة من الناس يعيشون فى شروط معيشية تناقض الطبيعة ، وليس بعد ماقدّمناه حجة فى أن هؤلاء متعرّضون بهذا السلوك السيئ لأفدح المصائب وأكبر الآلام

الانسان يعيش اليوم مقودا لتقليد الجمهور محتملا فى هذا السبيل الآلام المختلفة وصنوف الضعف والذبول فما أجدره بقراءة المؤلفات الموضوعة فى الطب الطبيعى لينتشل نفسه من وهدة هذا السقوط . ثم ان من يريد أن يتبع نصائحى يجب أن تكون له ارادة من حديد . ومما آسف له أن هذه الارادة صارت اليوم أعزّ من

أثمن أنواع الجواهر

إن الطبيعة لترينا ، وحال آدم فى الجنة شاهد علينا ، بأن ليس الحيوان وحده هو الذى خص بوجدان غذائه حاضرا أينما سار ، بل أنعم الله على الانسان أيضا بهذه المزية وكفاه مؤنة هذه المشاق التى يحملها نفسه فى تحضير الغذاء ، وفضلا عن أن الانسان قضى على نفسه بنفسه أن يكون غذاؤه بعيد المنال كثير التكاليف أوجب على جسده أيضا حاجات مصطنعة وهمية تمد جيش آلامه وتزيد فى ويلاته على غير جدوى . انتهت النصيحة الخامسة

(النصيحة السادسة)

(إراحة المعدة واعطاؤها زمنا كافيا للهضم)

(مترجم عن كتاب سر الصحة تأليف الاستاذ دو فورست)

« أولا » يجب اعطاء المعدة زمنا قليلا ترتاح فيه بين ساعات عملها فان مضى خمس أوست ساعات من بعد انتهاء الأكلة الى ابتداء مايليها فليس بالوقت الطويل فان الهضم المعدى يتطلب من (٤) الى (٥) ساعات فى أغلب الأحوال

« ثانيا » كل الأغذية يجب أن تكون خارج المعدة قبل ساعة النوم لأن النوم يضر الهضم ضررا بليغا

« ثالثا » اذا كانت الأكلات مستوفاة وتوطيت فى الأوقات التى تكون قوى الجسم فيها على أتم ما يكون (أى فى الساعة ٨ صباحا و ٢ ونصف بعد الظهر مثلا) فان أكلتين فى اليوم تكفيان أكثر الناس وخصوصا من كانت حياتهم جلوسية فاذا كانت الساعات التى عيناها لاتوافقهم فالأولى أخذ ثلاث أكلات فى اليوم بشرط أن تكون الأخيرة خفيفة وتؤخذ بين الساعة (٦) و (٧) المصابين بالحمى أو بأمراض أخرى ممن يخضعون لنظام الأغذية السائلة وكذلك الأفراد الطاعنون فى السن والضعاف والأطفال ممن دون السنة يستثنون من هذه القاعدة

(الضلالات الغذائية)

(عن الاستاذ دو فورست أيضا)

« أولا » الأكل بين الأكلات : اذا استمل الانسان لهذه العادة أفسد عليه نظام معدته فان الجهاز الهضمى معد للعمل بطريقة منتظمة ولايستطيع أن يعمل فى كل وقت ، مثله فى ذلك كمثل كل عضلة من العضلات الجسدية فيجب أن لايدخل شئ الى الفم بين أكلة وأكلة ولوكان تفاحة

« ثانيا » الأكل بسرعة : اجتنب هذه الضلالة بأخذ الأغذية الجامدة فان حفظ الحياة لا يكون بقدر الأغذية المزدردة بل بقدر الأغذية التى يمثلها الجسم ، ولأجل الحصول على تمثيل تام يجب أن تكون الأغذية التى تؤخذ جافة تستحيل الى عجينة بواسطة الأسنان واللعاب

« ثالثا » الأغذية الحارة جدا تضعف المعدة وكذلك السوائل الحارة جدا

«رابعا» الأغذية التى تدخل المعدة باردة تقتضى من جهة الجسم صرف قوة حيوية لايصالها الى درجة الحرارة الجسمية قبل أن يبتدئ هضمها

«خامسا» الأغذية الدسمة (المقلوة على الخصوص) المركبة تهيج الشهوة ولكنها صعبة الانهضام جدا ولاتعطى دما جيدا

«سادسا» الفلفل والخردل والقرنفل والقرفة وجميع التوابل ليست من الأغذية لأنها تهيج المعدة والمجموع العصبى وتحدث نزلات وأمراضا عصبية تمعدية (بكسر العين) وعللا أخرى وتفسد الشهوة بتمويه الطعم الطبيعى للاغذية

(سابعا)

وسابعا، الجبن والمحفوظات فى الخل من الأغذية أى المخلات واللحم ومايستعمل قلا من الأجسام الدسمة المركبة وخصوصا اذا أدخل اليه من بيكربونات الصودا وقشدة الناوتر (وهى تتخذ مما يرسب فى براميل النبيذ الخ) لايجوز بأى وجه من الوجوه أن تدخل الى المعدة الانسانية ولايجوز أن تكون جزءا من غذاء انسان يريد أن يستعيد صحته أو يحفظها فى حالة جيدة ، والمنبهات من السوائل والمشهيات والخمر والشاى والقهوة والشكولاتا هى أكثر ضررا أيضا ، أما التبغ فلايجوز أن يدنس جسم الانسان الذى يحب حياته وصحته . انتهى الكلام على النصائح الست والحمد لله رب العالمين

﴿ المقام الثانى ﴾

فيما ذكره أحد الأطباء فى بعض المجلات العلمية تحت العنوان الآتى وهذا نصه :

﴿ الفيتامينات ﴾

(موارد الحياة)

تعددت أبحاث العلماء فى الفيتامينات وأنواعها فنشرت الصحف والمجلات فى أوروبا عنها صفحات عدة فآثرت تلخيص أهم ماعرف عنها لقراء « مجلة النهضة » الغراء وفى نشرها فائدة لاتخفى على حضراتهم إذ طبقوا هذه المعلومات على غذائهم

إن العلماء عرفوا الفيتامين كما يستدل من اسمها بمورد الحياة وقسموها لأقسام : (ا) و (ب) و (ج) و (د) وقد كشفوها فى موادّ الغذاء الطازج النيء وهو على حالته الطبيعية ، ومصدر الفيتامين فى هذه الأطعمة هى أشعة الشمس التى لاحياة ولاغذاء بدونها وهذه الفيتامينات تفقد وتزول فى الغذاء متى قدم بتأثير النار والتعفن الخ

إن هذا الاكتشاف يدلنا على منافع الغذاء الطبيعى بدون تحضير كالخضر النيئة والفواكه الطازجة التى لاتدخل النار واليك البيان : إن أنواع الفيتامينات لاتوجد فى صنف واحد من الغذاء بل هى فى أنواع عديدة من المآكل فيجب على الانسان أن يعدد أصناف مآكله حتى يستفيد من موارد الحياة هذه لأنها ضرورية ولايستغنى عنها ونقصانها من الجسم أوفقدانها منه تسبب أمراضا عديدة خطرة على الحياة كما ثبت ذلك من التجارب الآتية

حبس بعض العلماء بعضا من الحيوانات فى مكان مظلم ومنعوا عنها الغذاء الطازج المحتوى على الفيتامين وهى بعيدة عن نور الشمس فأصيبت هذه الحيوانات بالكساح كما أن صغارها أصيبت بوقوف النمو تماما وضعفت قوة بصرها وهزلت وهذا تماما مايحصل للانسان ويعرف بداء (أفيتمينوس)

ولما أعادوا هذه الحيوانات الى نور الشمس وأطعموها غذاء طازجا يحتوى على الفيتامين خلاف الغذاء الأول الذى أعطى لها مدة وجودها بالظلمة استعادت قوتها وشفى صغارها من الكساح ، ثم عاد العلماء الى التجربة فى الانسان فعمدوا الى ركاب البحار الذين يأكلون الأطعمة المحفوظة فى العلب والتى فقدت الفيتامين فوجدوا أن هؤلاء جميعا معرضين لمرض الاسقربوط ولفساد الدم ولين العظام عند الاحداث فعالجوهم جميعا باعادة الأغذية المشبعة بالفيتامين و بأشعة الشمس الطبيعية اذا وجدت أو الصناعية (فوق البنفسجية) فشفوا تماما فى مدة وجيزة ، وقد كانوا قبلا يعالجون السنين الطوال دون أقل أمل فى الشفاء ، مثال ذلك الاسقربوط الذى يشفى بعصير الليمون المالح والبرتقال والخضر النيئة ولا يشفى بملح الليمون أوشربات البرتقال أوالخضار المغلى على النار ، فثبت علميا أن فى المأكولات الطازجة النيئة فيتامين أوموارد حيوية لاغنى للانسان عنها فى غذائه كما ثبت أن لبعض الزيوت النيئة فائدة كبيرة فى شفاء الكساح ولين العظام عند

الأطفال جرّبوا استعمال هذه الزيوت نفسها بعد غليها على النار أو وهى قديمة فلم تأت بفائدة مطلقا فثبت لديهم أن فيها موادّ حيوية وهى الفيتامين ، ووجدوا أن الحبوب كالقمح والفول والذرة اذا استعملت نيئة وطازجة (كالفريك) تعطى قوّة عضلية عظيمة كما هى الحال فى آكليها من الحيوانات كقوّة الثور على جرّ الأثقال الخ ومتى طبخت أوخبزت تفقد قوّتها الحيوية بنسبة اتلاف النار للفيتامين فيها ، ولقد دلت التجارب فى الانسان والحيوان معا حتى استعملوا أعضاء الحيوانات السليمة لشفاء الأمراض التى تصيب مثل هذه الأعضاء فى الانسان فاستعملوها نيئة وأتت بفوائد جة ، منها استعمال خلاصة المبايض والغدد الكلوية والدرقية والخصيتين والثديين الخ

وأخيرا ظهر دليل قاطع حديث وهو : عالجوا فقر الدم الشديد الذى يصيب الاحداث من الناس عند بلوغهم وعلى الأخص البنات بجميع أنواع العقاقير والعلاجات فلم يجد نفعا حتى وفق العلم الحديث الى اكتشاف خطير وبسيط جدا ، فقد عالجوا هذا الداء المسمى الكلوروزا وفقر الدم الشديد بالكبد النيء الطازج المأخوذ من حيوان سليم وعلى الأخص كبد العجل يأتى بفائدة مدهشة عدّوها فى العلم معجزة ، ولكن اذا عولج الكبد بالنار فلا فائدة فيه لأن النار تفقد الفيتامين

وبعد كل هذه التجارب أذاع العلماء قرارهم هذا النهائى القاضى بتعديل طرق الغذاء علميا انتهى من مجلة « النهضة النسائية » ؟

ولقد جاء تلغراف فى الصحف أن حكيما روسيا قضى (٢٠) سنة فى التجارب أثبتت له أن الانسان يمكنه أن يعيش (١٦٠) سنة اذا اقتصر على أكل النبات الذى لم يطبخ

فلما سمع صاحبى ذلك قال : إنك أثناء إلقائك هذا الموضوع بينت لى فى وجهك آثار آراء تختلج فى قلبك ؟ فقلت نعم. فقال فماذا رأيت فى هذا ؟ فقلت : الفيتامين فى العلم والدين كالفيتامين فى الغذاء ، إن الذى جاش بخاطرى فى أثناء إلقاء هذا المقال هو أن الأمم الاسلامية التى ظهرت بعد القرون الثلاثة الأولى . فعلت فى الدين ما فعله الناس فى الطعام من التجافى عن الحقائق والتباعد عن الاصول والاستغراق فى مباحث القشور وظواهر الامور

اللهم إنك أنت العليم بما جناه الناس على أنفسهم فى طعامهم إذ أماتوا موادّ الحياة بطبخه ونبذ قشوره وما يسمونه السنّ فى القمح ، وما يسمونه النخالة ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان ما يستلذه الناس من مآكلهم التى اصطلحوا عليها هو المفسدة العظمى لصحتهم ، هكذا فعلوا فى الدين ، ذلك انهم لما تبوّؤا العلم والايمان أخذوا يفعلون فى الدين ما فعلوه فى الطعام واللباس ، فكما أن حجب الجسم عن ضوء الشمس ولفه لفا وثيقا يحجب عنه الهواء والشمس وهكذا زجّ الطعام فى النار كل ذلك مضعف لصحته هكذا تهافت الناس على كتب المتأخرين وتركهم نفس كتاب الله تعالى وابعادهم عقولهم عن المباحث الشريفة أضعف أممهم وأنزلهم فى الحضيض ، وما الاتكال على الكتب الموروثة التى كانت نتائج انصهار العقول الكبيرة فى الأمم الاسلامية الغابرة وعدم تعرّض عقولنا نحن الى نفس كتاب الله تعالى وكتاب رسوله ﷺ ومناظر المشاهد الطبيعية إلا كالاتكال على ما أوقدنا عليه النار وطبخناه من الطعام (كالعلوم المطبوخة بنار العقول الكبيرة الاسلامية بعد القرون الأولى) وكالاكتفاء بالملابس التى حجبت أجسامنا عن نور الشمس وهى لاتغنى عنه فتيلا ، فليكن عمدة المسلمين من بعد الآن كتاب الله تعالى وكتاب الطبيعة ودراسة علوم الآفاق والأنفس وهذه الطائفة هى التى تتولى قيادة الأمم الاسلامية بعدنا وهم هم الذين يفهمون كلام الله ، وكيف يفهم كلام الله إلا بدراسة فعله . القرآن كلام الله والعالم فعله فلندرسه دراسة تامة وبها نفهم كلامه وغير هذا لايفيد

فقال : لقد نطقت بحكمة وأفدت بعلم ولكن لازلت أحبّ أن تفيض فى هذا الموضوع بعض الافاضة لتبيان للموازنة ما بين آراء المذاهب والفرق المتشاكسة وما بين الطعام المطبوخ . فقلت : لاجرم أن النار التى بها نطبخ طعامنا ما هى الا أثر من آثار الشمس . ألا ترى رعاك الله أن الفحم الحجرى المذكور المشروح فى أول ﴿سورة

سبأ

سبأ ﴾ وهكذا الخشب وغيره كلها قد خزن فيها ضوء الشمس تصلح لاتقاد النار فيه . والشمس هى المنضجة للحبوب والفواكه . فلما رأى الناس ذلك قديما ظنوا أن النار فى الطعام آثارا كآثار الشمس من حيث الاصلاح فأوقدوا النار على طعامهم والنار ماهى إلا ابنة الشمس والفرع ينوب عن الأصل كما عبدوا الأصنام النائبة عندهم عن الكواكب كما هو موضح فى أول ﴿ سورة البقرة ﴾ عند آية ـ ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم ـ الخ هكذا فعلوا فى الديانات ، فى كل أمة متدينة علماء لهم مذاهب مختلفة صهرتها عقولهم وأوقدوا عليها نيران ذكائهم كما أوقد الناس النار على طعامهم ، وهؤلاء العلماء انما استمدوا آراءهم من دينهم مع اضافة تفكرهم بعقولهم كما ان الخشب والفحم استمدا الحرارة من الشمس وقد دخلت صناعة الناس فيهما وأوقدوهما نارا بطبخ طعامهم ، وهل تريد لهذا بيانا أكثر مما فى كتاب « الفرق بين الفرق » وكيف ظهر أن هناك نحو (٧٣) فرقة كل فرقة ترى الحق معها وتدعى جهل جميع المسلمين ، أولا ترى مذاهب الباطنية المرمحة فى ﴿ سورة الكهف ﴾ عند آية ـ وما كنت متخذ المضلين عضدا ـ وهكذا مذهب البهائية فى الفرس والأحمدية فى الهند وغيرهم ، فهؤلاء جميعا أشبه بمن يأكلون الطعام الذى أذهبت النار قوته الحيوية إذن فليرجع الناس الى كتاب ربهم والى فعله فى العوالم ، وهذا هو الأمر الواجب اليوم على المسلمين جميعا فى أقطار الأرض

أيها المسلمون : لاحياة لكم بعد الآن إلا بأن يكون القائمون بأمركم من علماء وحكماء وأمراء وملوك أحرص الناس على العلوم الرياضية والطبيعية والتمكن منها ومن دراسة القرآن وأصح الأحاديث مع المحافظة على أركان الاسلام المعروفة ، فهنالك حقا تتجلى لهم هذه المذاهب الاسلامية فى الفروع وفى الاصول وهنالك يظهر للإسلام رونق فوق مانحن عليه الآن

وكما أن مادة الحياة ضعيفة فى المطبوخ من الطعام كما قدمنا بسبب إيقاد النار عليه وان كانت النار ربيبة الشمس وابنتها ، هكذا الحياة العلمية والدينية فى بلاد الاسلام تبقى خامدة جامدة مادامت قاصرة على دراسة الآراء المستنبطة فى المذاهب المختلفة والفرق المتشاكسة والاقتصار على ذلك ، بل هذه المذاهب كلها يجب أن يضم اليها دراسة نفس القرآن وماصح من الحديث وجميع العلوم الطبيعية

إن المسموع اذا خلا من المنظور كان قاصرا على التقليد المحض وهو أنقص المعلومات ، هذا ولتعجب أيها الذكى من أن هذا المقال كله يدخل فى فحوى قوله تعالى ـ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ ـ الآية وقال ـ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا ـ فانظر الى الترتيب على وتيرة واحدة فى الآيتين . فالمسلم يسمع القرآن والتاريخ المنتشرين الأمم والعلوم الكثيرة . فاذا سمعها ووقف عند سماعها فهو غبى فلذلك أعقبه بذكر البصر الذى يشاهد به العلوم الطبيعية وهى تجره الى العلوم الرياضية ليعرف نظام الفلك وغيره . ولن يتم ذلك كله إلا بالعقل فلذلك أعقبه بذكر الأفئدة . فانظر الترتيب محكم فى الآيتين . ثم انظر لأمة الاسلام الحالية والسابقة كيف ناموا على ماسمعوا واتكلوا على الشيوخ السابقين وعلمهم مسموع من المسموعات فالقرآن مسموع وكلام العلماء مسموع فلماذا لايفكر المسلم فى المحسوسات التى حوله لتوضيح ماسمعه ؟ ويجمع هذا كله من وجه آخر ﴿ آيتان : الأولى ﴾ ـ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ـ ومثلها آية ـ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ـ ﴿ الآية الثانية ﴾ ـ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ـ . فالأولى لتدبر المسموع والثانية لتدبر المنظور والتدبر لا يكون إلا بالعقل

إذن المسلمون بعدنا سيتجلى الله عليهم بقراءة علوم السمع وعلوم البصر وعلوم العقل وهذه تجمع القسمين وهم هم الذين يعقلون كلام الله تعالى ويفهمونه أكثر من الأمم السابقة بعد الصدر الأول ـ ولله

عاقبة الأمور .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : لقد شفيت صدرى وشرحته بهذا البيان . فقلت الحمد لله رب العالمين

﴿ بهجة العلم والحكمة ﴾

(فى قوله تعالى أيضا – قال فبعزّتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال فالحق والحق أقول لأملأنّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين * قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين – الى آخر الآيات وتمام السورة)

هذه القصة الآدمية الإبليسية جاء فى أولها كبر إبليس وعظمته وتكبره على السجود لآدم وامتناعه عن التواضع كما امتنعت الآساد والنمور والسباع عن الخضوع للانسان وتناسلت فى البرارى والقفار والأودية وتعالى بما أحسّ فى نفسه من القوّة النارية التى خلق منها ، فاستوجب اللعنة وأخذ يغوى كثيرا من بنى آدم ليطيعوه فى أخلاقه فيتكبرون ويفعلون المعاصى كالقتل والحرب والحسد والعداوات ، فكل هذه من آثار النيران المتأججة فى القلوب التى تمت بصلة الى طبائع الشيطان ، ثم إن بنى آدم زادوا معاصى أخرى على إبليس وهى المعاصى التى جاءت لهم من جبلتهم وظهرت على أيديهم بسبب أصل خلقتهم وهى الحرص والبخل والشح والطمع والاسراف فى المآكل والمشارب وما أشبه ذلك ، فهذا النوع من المعاصى سببه ناجم من أصل خلقته وهى المادّة الطينية ، إذن المعاصى كلها «قسمان» قسم جاء من طريق الغواية وهى آثار القوى الغضبية مشاكلة لأخلاق الشياطين ، وقسم يرجع منشؤه الى جبلة الانسان وهى القوى الشهوية ، وهاتان القوّتان مركوزتان فى أنواع الحيوان ، فما كان منه من أنواع البهائم مثلا وبعض الطيور اللاتى لاتأكل اللحوم وانما تغتذى بالثمار والحشائش وما أشبهها ، فهذه تغلب فيها القوّة الشهوية ، وما كان منه من أنواع السباع والنسور وكل حيوان كاسر فقد غلبت عليها القوة الغضبية ، والانسان جمع القوّتين وزاد عليهما قوّة الحكمة والعلم والعقل وكان فيه الحكماء والعلماء ، والانسان الأوّل سارع الفطرة قبل أن تفسد غريزته وتتحكم بطنته وتذله شهوته وتستهويه هاويته ويذوق العذاب الأليم ، وقصة آدم كررت فى القرآن لتذكيرنا بما كان عليه أسلافنا القدماء من الهناء وراحة البال والسعادة الدنيوية قبل أن تنزل بنا الرزايا والبلايا والمصائب وحلول الداء وذهاب الهناء ومن سار فى كرتنا الأرضية يجد لهذه القصة الآدمية بعض الآثار من بعض الوجوه ، ألم تر الى أن بعض العوائد التى لاتزال عند بعض أهل السودان ، فقد جاء فى بعض المجلات التى تصدر فى دار الهلال بمصر فى زماننا مانصه :

﴿ ماذا فى السودان من غرائب العادات ؟ ﴾

للسودانيين الأصليين عادات غريبة ولاسيما القاطنين منهم فى أعالى النيل وماجاور خط الاستواء فانهم أقرب الى زنوج أفريقية منهم الى أهالى الخرطوم والساكنين فى شمالها الذين يشبهون فى كثير من عاداتهم وأخلاقهم أبناء الوجه القبلى من المصريين ويحبون أن ينتسبوا اليهم ويكرمون النازلين منهم فى ديارهم . ولكن مما يمتاز به السودانيون القاطنون فى الجنوب عن اخوانهم أهل الشمال الجرأة والشجاعة الكبيرة التى يكافحون بها الطبيعة والوحوش الكاسرة القاطنة فى بلادهم كالاسود والفهود والقردة الوحشية والنمور العادية والثعابين القاتلة ذات الحجم الهائل والشكل المخيف وهذه الشجاعة تكاد تكون هى السلاح الوحيد الذى يستطيعون به مغالبة هذه الحيوانات الشديدة البأس حتى ينتصروا عليها ويدفعوا شرّها عنهم وعن أطفالهم

حتى أن كثيرا منهم يخرج للصيد فى الصحراء فاذا مالاقى فيلا أوثعبانا عظيما أخذ يطارده حتى يتغلب عليه

و يصطاده

و يصطاده ثم يقوده الى داره ليكون طعاما له ولمن عنده من زوجته وأولاده . وقد أخبرنى أحد الضباط أنه كان سائرا ذات مرة مع ضابط من السودانيين الأصليين وكان الليل قد نشر أجنحته والظلام مخيما على الطريق وهما فى وسط غابة مزدحمة بالأشجار والادغال ، و بينما هما كذلك اذا بهما يحسان تحت أقدامهما بلحم طرى فالتفت الضابط المصرى الى زميله السودانى وسأله : ماهذا يافلان ؟ فنظر الضابط السودانى الى الأرض و بعد أن تحقق منه قال له : هذا ديب ، والسودانيون يسمون الحية عندهم ديبا ثم أمره بالابتعاد وسل سيفه وضرب الحية ضربة قوية جعلتها تفز من مكانها فوا فاتحة فمها تريد قتله والقضاء عليه ولكنه أسرع فضربها ثانية وثالثة وهوثابت فى مكانه لايتزحزح حتى قضى عليها وصارت جثة هامدة . و بعد أن تحقق من موتها قطع رأسها ثم حملها معه . ولما وصل خيمته قطعها قطعا وشواها كلها وأخذ يلتهمها التهاما

ومن عادة السودانيين أن يأكلوا الفيل أيضا فيصطادونه و يجعلونه طعاما لذيذا لهم . وليس ذلك لقلة ماعندهم من الحيوانات المستأنسة كالخراف والبقر والجاموس والابل بل إن عندهم من هذه الأنواع كثيرا ولاسيما أن هناك قبائل ليس لهم من عمل غير رعاية الإبل والبقر وتربية الخراف . وقد سمعنا من بعض الذين زاروا تلك القبائل أن الخروف الواحد يمكن شراؤه هناك بتسعة قروش أوعشرة . ولبعضهم طريقة خاصة فى شئ الخروف أوغيره من الحيوان فانهم بعد أن يقطعوه قطعا يدهنون تلك القطع قبل دخولها النار بالفلفل . و بعد تمام شيها يأخذون فى أكلها حارة و يضيفون فوقها أثناء الطعام بعض التوابل مما يزيد فى حرارتها وحرافتها . ولا تطيب لهم لذة الطعام إلا اذا كان مضافا اليه جانب من الفلفل والتوابل و يعتقدون أن فى ذلك صحة وعافية وقوة

واذا تزوج شخص عملت له عملية « البخور » وهذه العملية خاصة بضعيف البنية . ولكن بعض الأقوياء يعملونها عند ابتداء زواجهم بل و بعده . وطريقتها أن ينام الرجل على سرير من ليف مصنوع على هيئة شبكة وهوعارى الجسم تماما ثم يوقد تحت السرير موقد تضع فيه المرأة بخورا خاصا يتصاعد دخانه حتى يشمل جسم الرجل مدة من الزمن ثم يقوم فيلبس ثيابه و يتناول بعض الأطعمة المغذية كالفراخ أواللحم و يمكث على ذلك بضعة أيام يكتسب بعدها قوة ونشاطا

و بمناسبة الزواج نقول إن بعض القبائل يجرون الزواج عند شيخ القبيلة و يسمونه فى عرفهم (سلطان القبيلة) وتجرى صيغة العقد بين الزوج ووالد الزوجة بواسطة سؤال السلطان عن رغبة كل منهما فى المصاهرة ثم يدفع الزوج قدرا من المال الى والد الزوجة فيأخذه و يشترى به حديدا يحفظه عنده حتى اذا حصل بين الزوج والزوجة مايوجب الانفصال دفع والد الزوجة هذا الحديد الى الزوج وأخذ ابنته

وتعدد الزوجات منتشر فى قبائل السودان . ولكن لايجد الرجل فى ذلك ماينغص عيشه بكثرة منازعات الزوجات فانهن كثيرا مايكن على وفاق ووئام . والرجل السودانى يحب أهل زوجته حبا يقرب من العبادة ولعل هذا فى الأكثر هو السبب الذى ينتظم به شأنه وتزداد راحته خصوصا ان من طبائع السودانيين التعاون فى الشدائد والقناعة التى تجعلهم يرضون بالكسرة اذا رأوا أن فى غيرها مايوجب النزاع . ومعظم أكلهم الذرة العويجة أوالدخن يصنعون منه (المريسة) وهى طعام محبوب عندهم . وهناك يتعففون عن سرقة بعضهم بعضا وقليلا ماتقع حوادث سرقة كبيرة بل إن الرجل منهم قد يترك متاعه فى الطريق و يذهب لقضاء حاجته من مكان بعيد ثم يعود فيجد حاجته كما هى لم ينقص منها شئ . وفى المواسم الشهيرة كعاشوراء ونصف شعبان يمدون طعامهم أمام منازلهم و يسمونه عشاء الميتين والغرض منه اطعام الفقراء وغيرهم بمناسبة هذه المواسم رجاء الرحمة من الله على موتاهم السابقين . انتهى ماجاء فى المجلة المذكورة والحمد لله رب العالمين

اذا عرفت هذه القصة عجبت كيف كانت هناك القناعة والأخلاق الفاضلة المفقود أكثرها فى الأمصار

العصرية والمدن العظيمة فى بعض بلاد الاسلام ومنها بعض بلادنا المصرية وهناك تفهم ماسنقسمه من « اخوان الصفاء » فى المحاورات بين الانسان وأنواع الحيوان و به تفهم أن علماء الاسلام منذ ألف سنة كانوا قد بلغوا شأوا عظيما فى العلم والحكمة وأدركوا بعض أسرار هذه القصة وأخذوا يذكرون النوع الانسانى بما وقع فيه من الانهماك فى الشهوات الذى كان هو السبب فى ذلهم ذلا لايختص بالحياة الأخرى فى جهنم بل إن العذاب أخذ يحيط بالناس فى هذه الحياة الدنيا وان كان أكثرهم لايفهمون اليوم انهم قد عجل لهم العذاب الآن ، إذن هنا ذنوب لحقها العذاب فى نفس هذه الحياة الدنيا وسيستمر الى آماد وآماد بعد الموت وهذا نصه :

« قال الملك : يامعشر الانس قد علمتم وسمعتم ماقال وفهمتم ما أجاب ، فهل عندكم شئ آخر ؟ فقام انسى آخر أعرابى وقال نعم أيها الملك لنا خصال ومناقب تدل على اننا أرباب وهم عبيد لنا . قال الملك هات واذكر منها شيأ . قال نعم . قال وما هى ؟ قال طيب حياتنا ولذيذ عيشنا وطيبات مأكولاتنا من ألوان الطعام والشراب والملاذ مما لايحصى عددها إلا الله تعالى وما لهؤلاء معنا شركة فيها بل هم بمعزل عنها وذلك ان طعامنا لب الثمار ولها قشورها ونواها وحطبها ، ولنا لباب الحبوب ولها تبنها وورقها ولنا شيرجها ودبسها ولها كسبها وخشبها ولنا بعد ذلك ألوان الخبز والرغفان والأقراص والجرادق من السميد والملون والكعك وغيرها ولنا ألوان الطبيخ من السكباج والاسفيداج والمضائر والهرائس والجواذيب وألوان الكواميخ وغيرها من الرواصين وألوان الأشربة وألوان الشوى والحلاوى والخبيص والقطائف واللوزينج ، ولنا ألوان الأشربة من الخمر والنبيذ الخالص الجيد والقارص والسكنجبين والجلاب والفقاع ، وألوان الألبان من الحليب والرائب والملست والدوغ والسمن والزبد والجبن والكشك والمصل ومايعمل منها من ألوان الطبيخ والملاذ والطيبات والمشتهيات ولايحصى كثرة ذلك إلا الله تعالى وكل ذلك هم بمعزل عنه وخشونة طعامهم وغلظها وجفافها وقلة الرائحة الطيبة منها وقلة دسومتها وحلاوتها دليل على قلة تنعمهم منها وهذه الخصال للعبيد وتلك حال أرباب النعم الأحرار الكرام ، وكل هذا دليل على أننا أرباب لهم وهم عبيد وخول لنا أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم

فنطق عند ذلك زعيم الطيور وهو الهزارداستان وكان قاعدا على غصن شجرة يترنم فقام وقال الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، القديم الأبد ، الدائم السرمد بلاشريك ولاولد ، بل هو مبدع المبدعات وخالق المخلوقات وعلة الموجودات ومسبب الكائنات من الجمادات والنباتات وبارئ المبرآت مركب السموات ومولد المولدات كيف شاء وأراد

واعلم أيها الملك الكريم أن هذا الانسى افتخر بطيب مأكولاتهم ولذيذ مشروباتهم ولايدرى أن ذلك كله عقوبات لهم وأسباب الشقاوة وعذاب أليم إذ فى حرامها عذاب وفى حلالها حساب وهم فيما بينهما من الخوف والرجاء . قال الملك وكيف ذلك ؟ بين لنا ؟ قال نعم وذلك انهم يجمعون ذلك ويحصلونه بكد أبدانهم وتعب نفوسهم وجهد أرواحهم وعرق جبينهم ومايلقون فى ذلك من الشقاوة والهوان مما لايعد ولايحصى من كد الحرث والزرع واثارة الأرض وحفر الأنهار وسد الشق وعمل البريدات ونصب الدواليب وجذب الغروب والسقى والحفظ والنظافة والحصاد والحل والجمع والدياس والتذرية والكيل والقسمة والوزن والطحن والعجن والخبز وبناء التنور ونصب القدور وجمع الحطب والشوك والسرقين ووقود النيران ومقاساة الدخان وبناء الديكدان ومماكسة القصاب ومحاسبة البقال والجهد والعناء فى اكتساب الأموال والدراهم وتعلم الصنائع والمكاسب المتعبة للأبدان والأعمال الشاقة على النفوس والمحاسبات والتجارات والذهاب والمجئ فى الأسفار البعيدة فى طلب الأمتعة والحوائج والجمع والادخار والاحتكار والانفاق بالتقدير مع مقاساة البخل والشح فان كان جمعها من حلال وأنفقها فى وجه الله فلابد من الحساب وان كان من غير حل وانفاقه فى غير وجه

الله

الله فالويل والحساب والعذاب اذلابد من القوت والثياب مثـل مالابد من الموت والحساب ونحن بمعزل من هـذه كلها وذلك ان طعامنا وغذاءنا هو مما يخرج لنا من الارض من أمطار سمائها من ألوان البقول الرطبة والخضرة النضرة اللينة والحشائش والعشب ومثل ألوان الحبوب اللطيفة المكنونة فى غلفها وسنبلها وقشرها ومن ألوان الثمار المختلفة الاشكال وأنواع الطعوم والروائح الذكية والاوراق الخضرة النضرة والأزهار والرياحين فى الرياض تخرجها لنا الارض حالا بعد حال وسنة بعد سنة بلا كدّ ولاتعب من أبداننا ولاعناء من نفوسنا ولانصب من أرواحنا ولانحتاج الى كدحرات ولاعناء ولاسق متعب لأرواحنا ولانحتاج الى بذر ولاحصاد ولادياس ولاطحن ولاخبز ولاطبخ ولاشواء وهذه كلها علامات الكرام الأحرار وأيضا اذا أكلنا قوتنا يوما بيوم تركنا مايفضل عنا مكانها لانحتاج الى حفظه ولانحتاج الى خازن ولاناطور ولاحارس ولااحتكار الى وقت آخر بلا خوف لص ولاقاطع طريق تنام فى أماكننا وأوطاننا وأوكارنا بلا باب ولاغلق ولاحصن آمنين مطمئنين مودعين مستريحين وهـذه علامات الأحرار وأنتم عنها بمعزل وأيضا فان لكم بكل لذة ذكرتم من فنون مأكولاتكم وألوان مشروباتكم فنونا من العقوبات وألوانا من العذاب مما نحن بمعزل عنها من الأمراض المختلفة والاعلال المزمنة والاسقام المهلكة والحميات المحرقة من الغب والربع والثانية والثالثة والرابعة والتخم والجشأ الحامض والهيضة والقولنج والنقرس والبرسام والسرسام والطاعون والبرقان والديلان والسل والجذام وذات الجنب والبرص والسكتة والصداع والسكرة والرمل وعسر البول والجرب والجدرى والثآليل والدماميل والخنازير والحصبة والخراجات وأصناف الاورام مما تحتاجون فيها الى أنواع عـذاب المعالجات من الكى والبط والحقنة والسعوطات والحجامة والفصد وشرب الأدوية المسهلة الكريهة الرائحة ومقاساة الحمية وترك الشهوات المركوزة فى الجبلة وماشا كل هذه من ألوان العذاب والعقوبات المؤلمات للانفس والأرواح والاجساد كل ذلك أصابكم لما عصيتم ربكم وتركتم طاعته ونسيتم وصيته فان أول الناس أول ناس ـ وعصى آدم ربه فغوى ـ ان الانسان كان ظلوما جهولا ـ ونحن بمعزل عن هذه كلها فمن أين زعمتم أنكم أرباب ونحن عبيد لولا الوقاحة والمكابرة وقلة الحياء وأنتم مادمتم فى الحياة صحيحى البدن ففى تعب وكدّ لتحصيل الانعامات والشهيات وما دمتم مرضى ففى عقوبة وحسرة وبعد الموت فى العقاب والعذاب والخطاب ووقوف الحساب ونحن فارغون من هذه الجملة فمن الموالى ومن العبيد منا ومنكم قال الانسى قديصيبكم يامعشر الحيوان من الامراض مثل مايصيبنا ليس هو شئ يخصنا دونكم . قال زعيم الطيور انما يصيب ذلك من يخالطكم منا من الحمام والديك والدجاج والبهائم والأنعام أو من هو أسير فى أيديكم ممنوع عن التصرف برأيه فى أمر مصالحه فأمامن كان منا مخلى برأيه وتدبيره لمصالحه وسياسته ورياضته لنفسه فقلّ ماتعرض له الامراض والاوجاع وذلك انها لاتأكل ولاتشرب الاوقت الحاجة بقدر ماينبغى من أجل ماينبغى من لون واحد قدر مايسكن ألم الجوع ثم تستريح وتنام وتروض وتمتنع من الافراط فى الحركة والسكون فى الشمس الحارة أوفى الظلال الباردة أو الكون فى البلدان الغير الموافقة لطباعها أو أكل المأكولات غير الملائمة لمزاجها فأما الذى يخالطكم من الكلاب والسنانير ومن هو أسير فى أيديكم من البهائم والانعام فهى ممنوعة من التصرف برأيها فى مصالحها فى أوقات ماتدعوها طباعها المركوزة فى جبلتها وتطعم وتسقى فى غير وقته أوغير ماتشتهى أو من شدة الجوع والعطش تأكل أكثر من مقدار الحاجة ولاتترك أن تروض نفسها كما يجب بل تستخدم وتتعب أبدانها فتعرض لها بعض الامراض من نحو مايعرض لكم وهكذا حكم أمراض أطفالكم وأوجاعهم وذلك ان الحوامل من نسائكم وجواريكم المرضعات يأكلن ويشربن بشرههن وحرصهن أكثر ماينبغى من ألوان الطعام والشراب التى ذكرت وافتخرت بها فتتولد فى أبدانهن من ذلك اخلاط غليظة متضادة الطباع فيؤثر ذلك فى أبدان الاجنة التى فى بطونهن وفى أبدان أطفالهن من ذلك اللبن الردىء و يصير سببا للامراض والاعلال والاوجاع من الفالج واللقوة والزمانة واضطراب

البنية وتشويه الخلق وسماجة الصورة وماذكرت من اختلاف الاوجاع والامراض مما أنتم ممتهنون بها معرضون لها ومايعقبها من موت الفجأة وشدة النزع ومايعرض لكم من ذلك من الغم والحزن والنوح والبكاء والصراخ والمصائب وكل ذلك عقوبة لكم وعذاب لأنفسكم من سوء أعمالكم ورداءة اختياراتكم ونحن بمعزل من هذه كلها وشيء آخر ذهب عليكم أيها الانسي تأمله وانظر فيه قال ماهو قال ان أطيب ماتأكلون وألذ ماتشربون وأنفع ماتتداوون به هو العسل وهو لعاب النحل وليس منكم بل من الحشرات فباى شيء تفتخرون علينا وأما الملبوسات الجيدة التى لكم أيضا فهى من لعاب أضعف حيوان وأما أكل لب الثمار ولب الحبوب فنحن مشاركون لكم فيها عندادراكها رطبة ويابسة فبأى شيء تفتخرون به علينا وقد كان آباؤنا مشاركين فيها لآبائكم بالسوية أيضا أيام كانوا فى ذلك البستان الذى بالمشرق على رأس ذلك الجبل كانا يأكلان من تلك الثمار والحب بلا كد ولاتعب ولاعناء ولاعداوة بينهم ولاحسد ولااستتار ولاجنى ولاادخار ولاحرص ولابخل ولاخوف ولاهم ولاغم ولاحزن حتى تركا وصية ربهما واغترا بقول عدوهما وعصيا ربهما واخرجا من هنالك عريانين مطرودين ورميا من رأس ذلك الجبل الى أسفله فوقعا فى برية قفر لاماء فيها ولاشجر ولا كن فبقيا فيها باكيين عريانين يبكيان على مافاتهما من النعم التى كانا فيها هناك ثم ان رحمة الله تداركتهما فتاب عليهما وأرسل اليهما من هناك ملكا يعلمهما الحرث والزرع والحصاد والدياس والطحن والخبز واتخاذ اللباس من حشيش الارض والقطن والكتان والقصب بعناء وتعب وجهد وشقاء لايحصى عددها الا الله مما قد ذكرنا طرفا منها قبل فلما توالدت وكثرت أولادهما وانتشروا فى الارض برا وبحرا وسهلا وجبلا وضيقوا على سكان الارض من أصناف هذه الحيوانات أماكنها وغلبوها على أوطانها وأخذوا منها ما أخذوا وأسروا منها ما أسروا وهرب منها ماهرب وطلبوها أشد الطلب وبغيتم وطغيتم عليها حتى بلغ الأمر الى هذه الغاية التى أنتم عليها الآن من الافتخار والمناظرة والمنازعة والمخاصمة وأما الذى ذكرت بأن لكم مجالس اللهو واللعب والفرح والسرور وماليس لنا من الأعراس والولائم والرقص والحكايات والمضحكات والتحيات والتهنئات والمدح والثناء والحلى والتيجان والاسورة والخلاخل وماشاكلها مما نحن بمعزل عنها فان لكم أيضا بكل خصلة منها ضروبا من العقوبات وفنونا من المصائب وعذابا أليما مما نحن بمعزل عنها فمن ذلك ان لكم بازاء الاعراس المآتم وبدل التهنئة التعزية وبدل الالحان والغناء النوح والصراخ وبدل الضحك البكاء وبدل الفرح والسرور الغم والحزن وبدل المجالس والايوانات العالية القبور المظلمة والتوابيت الضيقة المظلمة وبدل الحصون الواسعة الحبوس والمطامير الضيقة المظلمة وبدل الرقص السندان والسياط والعذاب والضرب والعقاب وبدل الحلى والتيجان والخلاخيل والاسورة القيود والاغلال والسوامير والمقاطير والنكال وماشاكل ذلك وبدل المدح والثناء الهجو والشتم وسوء الثناء وبدل كل حسنة سيئة وبدل كل لذة ألم وبدل كل نعمة بؤس وبدل كل فرح غم وهم وحزن ومصيبة مما نحن بمعزل عنه وهذه كلها من علامات الاشقيا وان لنا بدلا من مجالسكم وحصونكم وايواناتكم ومنادمتكم هذا الفضاء الفسيح وهذا الجو الواسع والرياض الخضرة على شطوط الانهار وسواحل البحار والطيران على رؤس البساتين والاشجار والتحلق على رؤس الجبال نسرح ونروح حيث نشأ من بلاد الله الواسعة ونأكل من رزق الله الحلال من غير تعب وكد وألوان الحبوب والثمار نجدها من غير أذية أحد ونشرب من مياه الغدران والانهار بلا مانع ولادافع ولانحتاج الى حبل ولا الى دلو ولاالى كوز ولاقربة مما أنتم مبتلون بها من حملها واصلاحها وبيعها وشرائها وجمع أثمانها بكد ونصب وتعب ومشقة من الابدان وعناء النفوس وغموم القلوب وهموم الأرواح وكل ذلك من علامات العبيد الاشقياء فمن أين ثبت لكم انكم أرباب ونحن عبيد لكم

انتهى من اخوان الصفا

(تذكرة)

﴿ تذكرة ﴾

مما يناسب هذا المقام أن أذكر ما اتفق لى فى أوّل شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ م عند طبع هذه السورة ذلك أنى أصابنى زكام وامساك وسعال فى آن واحد ، وقد قرأت فى الكتب الطبية القديمة أن الزكام ينفعه أن يترك الانسان الطعام والشراب يوما وليلة ويصبّ الماء الحارّ الذى يطيقه على رأسه ويسرع بلفها فى كساء حالا ، فتركت الطعام والشراب يوما وليلة ولكنى سمعت قبيل القيام من النوم قائلا يقول : « ليكن ذلك ٣١ ساعة » فأخرت الطعام والشراب كما سمعت ، ثم شربت ماء دافئا مع عصير الليمون ، ثم تعاطيت الطعام وأخذت أستحم بالماء المسخن كل يوم ثم أتبعه بالماء البارد فذهبت الأمراض الثلاثة متتابعة ولم يظهر لها أثر ولا أعراض ، وقد كنت لأجل السعال أشرب كل يوم فنجالا واحدا مملوأ بالزيت الحار النقىّ صباحا قبل الأكل ، فلأحمد الله على صحة هذه التجربة ، وهأنا ذا أعيش على الخضر والفاكهة مدة سنتين قد أحسست فيهما بصحة جيدة والحمد لله رب العالمين ؟

﴿ حكاية عصرية تناسب هذا المقام ﴾

جاء فى مجلة « الدنيا المصورة » مانصه

﴿ رجل وامرأة فى جزيرة مقفرة ﴾

من أنباء برلين ان الدكتور بول ريتر كان يمنى نفسه مثل الكثيرين من أرباب الخيال الواسع بأن يطرح مظاهر المدنية ويتجرد من أسبابها و يعيش عيشة الفطرة الاولى فى مكان قفر لم تطأه أقدام بنى الانسان . ولكن مالبث أن حقق هذه الأمنية وراح يعيش فى جزيرة مقفرة وهى جزيرة شارلز داروين احدى جزر ارخبيل جالاباجوس على بعد سبعمائة كيلو متر من سواحل اكوادور فى أمريكا الجنوبية ولم يصطحب معه فى منفاه الاختيارى الا امرأة واحدة من صديقاته . ومرت الأيام بآدم وحواء الجديدين وهما بعيدان عن العالم لايعرفان عنه شيئا ولايعرف العالم عنهما خبرا حتى « اكتشفهما » المستر اوجين ماكدونالد رئيس احدى البعثات الاميركية فى جزائر المحيط الباسفيكى . وكان الدكتور ريتر ورفيقته الفراو هلدا كروين قد غادرا هامبورج فى شهر يونيو الماضى ووصلا الى ميناء جواياكيل فى جمهورية اكوادور فى اكتوبر الماضى ومن هناك اشتريا زورقا شراعيا وأقلعا فيه الى تلك الجزيرة النائية حتى وصلاها فعاشا فيها كما كان يعيش آدم وحواء فى جنة الفردوس . وقد نفذا مشروعهما بدقة . وكان الدكتور ريتر قد عوّد نفسه على الحياة البسيطة من قبل . فكان فى أيامه السابقة عند اقامته فى برلين يعيش فى منزله عاريا مجردا من ثيابه واذا خرج من منزله خرج فى ثوب خشن مكون من قطع من القماش أوصلها بنفسه فى بعضها البعض . وراض نفسه على أن يعيش على الفاكهة وغلال القمح والخضروات . وكانت زوجته لاتستطيب هذه الحياة فلم يستطع أن يقنعها بأن تترك نعيم المدنية وأطايبها بل هجرته وراحت تعيش فى فيلا منعزلة فى بادن حيث أقامت مع أهل زوجها . و إذذاك اتصل الدكتور ريتر بامرأة أخرى وهى الفراو هلدا كروين وكانت تشكو من اضطرابات عصبية وقعت الى الدكتور ليعالجها فتعارف بها وشفاها من مرضها بأن جعلها تعيش عيشة الطبيعة والفطرة الاولى . وكانت هذه السيدة متزوجة وسعيدة فى زواجها . ولكن الدكتور مالبث أن فتنها بآرائه ومذهبه واستولى على لبها بحديثه الخلاب وأغراها على أن تطالع كتب نيتشه الفيلسوف الالمانى ولقنها تعليمات البوذية ومالبثت أن أصبحت مريدته مشتعلة بمحبته تطيعه طاعة عمياء . ولما أخبر زوجته بأنه راحل عن أوربا وعن العالم المتمدن فى صحبة

امرأة أخرى لم تعارضه فى ذلك بل طلبت له التوفيق فى رحلته . وكان قد قرأ فى بعض قصص الاسفار شيئا عن جزيرة شارلز داروين فقرر أن يعيش فيها وقضى بضعة أسابيع فيها يجمع الجهازات والادوات العلمية التى تلزمه فى رحلته حتى صرف كل ما يمكنه فى شراء هذه الاشياء واقترض مبلغا من المال على حساب الميراث الذى يناله بعد وفاة أبيه . ولم يكن يخشى الا شيئا واحدا وهو مرض الاسنان ولذلك اقتلع كل أسنانه ووضع بدلها طقما صناعيا . وسافر الاثنان بعد أن أخبرا أصدقاءهما أنهما سيعيشان عرايا مثل آدم وحواء فى هذه الجزيرة التى ستصبح لهما جنة عدن . ثم اختفت أخبارهما الى أن اكتشفهما أخيرا رئيس البعثة الاميركية عائشين فى سعادة وغبطة وهناء . انتهى ما جاء فى المجلة المذكورة

اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا على نعمة العلم والحكمة ، وعلى انك علمتنا مالم نكن نعلم وشرحت صدورنا الى تطبيق آى القرآن على الحوادث الانسانية والحيوانية ، وكررت قصة آدم وابليس فى سور كثيرة لتذكرنا بما انتاب هذا الانسان من الضعف والوهن والأمراض بسبب مجاوزته لفطرته التى فطرته أنت عليها

فياعجبا : كيف نرى هـذا الانسان يفرح ويفتخر بما هو مهلك له ، وكيف أصبحت لذته منوطة بذلته . اللهم إن هذه الحال لها بعض الشبه بحال المسيح الدجال الذى من دخل جنته فهو فى النار ومن دخل ناره فهو فى الجنة ، الناس جميعا مغرمون بكل ما لذ وطاب ، وهم جميعهم إلا قليلا منهم يرون ذلك هو عين السعادة مع انهم يرون بأعينهم العقاب العاجل لكل بطنة ولكل شهوة . اللهم إن هذه الحياة كلها على سنن واحد لا اختلال فيه . الناس جميعا مستلذون بما العذاب نتيجته ، فاذا استلذ الشرهون بكثرة المآكل فالعذاب واقع ماله من دافع فى هذه الحياة ، واذا كثر الاسراف فى الملابس وحفلات الزواج أعقبه الخراب العاجل أو الآجل ، واذا جاءت الأمم المستعمرة وقالت للناس : « ها نحن أولاء جئنا لترقيكم ونسعدكم » كانت نتيجة ذلك إكثار الجهل واذاعة الفسوق والعصيان وشرب الخمر ، لافرق فى ذلك بين أهل الهند ومصر وغيرهما من البلدان . ألم تر الى ماحدث فى زماننا أيام كتابة هذا الموضوع من أن المتطوعين المتبعين لغندى زعيمهم يقفون على أبواب الحانات ومعهم زوجة ذلك الزعيم لمنع الشاربين من الشرب وعلى أبواب حوانيت البزازين ليمنعوا الناس من شراء الملابس الأجنبية ، فيرى هؤلاء المتطوعون الجند أمامهم شاكى السلاح ليمنعوهم ويأخذوهم الى السجون . إذن المستعمرون يظهرون لهم انهم نافعون لهم ولكنهم يريدون لهم الشر والعذاب

فما دخل المستعمر قرية إلا عمها سائر المعاصى والمعاصى محبوبة للنفس ، إذن هى فى ظاهرها جنة وفى باطنها نار ، فالمسيح الدجال وان لم يظهر لنا بهيئته فقد ظهرت لنا آثاره بل آثاره ملازمات لهذا الانسان ، فالانغماس فى اللذات سواء أكانت مآكل أو مشارب أو ملابس أو وعودا براقة بالرقى من الأمم المستعمرة ، كل ذلك نتيجته الهلاك والدمار والعذاب

اللهم أنت حبستنا فى هذه الأرض لنقص نفوسنا ، وأنزلت فى القرآن قصة آدم وابليس لتذكرنا بفطرتنا وها نحن أولاء نظن أنفسنا انا أرقى من المتوحشين فى نظرنا مع انهم هم على الفطرة ونحن عاصون بعوائدنا وشهواتنا وجهلنا . اللهم ألهم المسلمين أن يفكروا فى نظام أرقى من هـذا النظام الحالى فيكون الناس أمة واحدة نظيفة من الغش والخداع والبطنة والسرقة وما أشبه ذلك فتحسن العقول والمدنيات ويقل المرض والطب والقضايا والقضاة — إنك سميع عليم — انتهى صباح يوم الأحد ٢٢ يونيو سنة ١٩٣٠

﴿ نور النبوة فى هذا الزمان ﴾

(فى الفيتامين والطيارات)

وفى قوله تعالى أيضا ـ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ـ

جاء فى الحديث الشريف : « مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » أخرجه الشيخان . وقال ﷺ « والذى نفسى بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولاتؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شئ اذا فعلتموه تحاببتم ، افشوا السلام بينكم » أخرجه مسلم وأبوداود والترمذى ، وهذا الحديث والذى قبله من كتاب « تيسير الوصول » المتقدم ذكره

وجاء فى الجزء الثالث من ذلك الكتاب مانصه : « أمتى مثل المطر لايدرى آخره خير أم أوّله » أخرجه الترمذى وصححه . وانما ذكرت هذه الأحاديث فى هذا المقام ليتفكر فيها المسلم

أيها المسلمون : إن انتشار الطيارات فى الأمم يوجب على المسلمين تعلمها والارتقاء فيها حتى ينتظم البريد الجوّى بين مسلمى مصر و بلاد شمال افريقيا ومسلمى الهند والصين والعرب وهذا آت قريبا ، ومتى تواصلوا ظهرت عجائب النبوّة . ألاترى أنهم فى الأزمان المتأخرة لم يكن هناك ذلك التوادّ بينهم ولاذلك التألم . ألم تر أن المسيحيين لما هجموا على بلاد الاسلام أيام الحروب الصليبية كانوا متحدين ، أما المسلمون فان الذين جاهدوا وصبروا هم أهل الشام ومصر ومن حولهم من بلادالاسلام ، أما المسلمون فى شمال افريقيا فانهم أبوا أن يعينوا اخوانهم ، ألم تر أن المسيحيين فى اسبانيا اجتاحوا بلاد الأندلس ولم يحرّك المسلمون الآخرون ساكنا ! أين الاسلام إذ ذاك ؟ أفلست ترى أن هذا الزمان أى زمان الطيارات التى ستعم بلاد الاسلام هو المراد بالحديث الشريف وأن المراد بالمؤمنين هم الكاملون ، أما المؤمنون الذين ليس عندهم هذا الشعور فهم ناقصون . ولاجرم أن المسلمين فى المستقبل أولئك الذين يعرف بعضهم أخبار بعض و يعينهم على ذلك الطيارات بالرحلات والجولات فى الأقطار وأنواع البرق والتلغراف ذى السلك والذى لاسلك له ، فهؤلاء هم المرادون بهذا الحديث إذ يتأثر المسلم فى الصين بما يصيب أخاه فى السودان عند سماع أخباره ، وهذه الطيارات كما تكون هى وغيرها سبب معرفة الأخبار الاسلامية فى الأقطار النائية تكون أيضا سببا لتبادل المنافع بين الأمم الاسلامية خاصة والأمم كلها عامّة و يصبح أهل الأرض كلهم كأنهم أمّة واحدة و يعمرون الأرض و يستخرجون كنوزها ويكون الناس إذن أشبه بالطير من وجوه ﴿ أوّلا ﴾ أن كل طير يأخذ رزقه الخاص به مما نتج من الأرض بغير طبخ ولا خبز لا كما يفعل الانسان ﴿ ثانيا ﴾ ان الانسان صار يطير كما يطير الطير ﴿ ثالثا ﴾ اذا استخرجت منافع الأرض سهل على كل امرئ أن يأخذ منها رزقه فهوليس فى حاجة الى مدّ يده لغيره ، فكثرة المعاونة جعلت الرزق موفرا للجميع ، أوليس هذا هو معنى قوله ﷺ « لوتوكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا »

ولاجرم أن هذا هوالذى يظهر من أسرار الفيتامين ، فالطيور تقتات بالحب الذى لاضررفيه والانسان بكثرة الصناعة فيه قتل مادّة الحياة فابتلى بالأمراض فاحتاج زيد الى عمرو فشرعت الصدقات ، فأما هذه الحال العالية للأمم الاسلامية فهى التى أشارلها حديث الصدقة إذ قال ﷺ كما فى الجزء الثانى من كتاب « تيسير الوصول ، لجامع الاصول » فى الفصل الثانى فى الحثّ على الصدقة إذ قال ﷺ « تصدّقوا فيوشك الرجل أن يمشى بصدقة فيقول الذى يعطاها لوجئتنا بها بالأمس قبلتها أما الآن فلاحاجة لى فيها فلايجد من يقبلها منه » أخرجه الشيخان والنسائى

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « ليأتينّ على الناس زمان يطوف الرجل فيه

بالصدقة من الذهب فلا يجد أحداً يأخذها منه » أخرجه الشيخان

فياليت شعري . أيتها الأمم الاسلامية : لم نزلت هذه الأحاديث ؟ انها نزلت لتثير فى المسلمين الحمية حمية الاسلام فتجعل هذه الحوادث نصب أعيننا ونسعى ونجدّ لبلوغ هذه المنزلة الرفيعة . نحن المسلمين قد تفرّقنا فى بقاع الأرض ، فنحن فى كل قطر من أقطارها . فنحن فى أمريكا وآسيا وافريقيا وأوروبا واستراليا . فلتعمم الطيارات بيننا مصداقاً لحديث التوادّ والتراحم . ولنعمر أرض الله مع الأمم حتى تعم البركات والسلام ومتى عمّ ذلك لم يكن للصدقة معنى وهنالك يظهر سرّ التوكل وتصح الأجسام بالمحافظة على الفيتامين . و بالجملة فلتعلم أمم الاسلام ماياتى :

(١) تعميم الطيران كالطير والبرق اسلكى والذى لاسلك له

(٢) وهذا يترتب عليه أن يكونوا كأعضاء الجسد الواحد من حيث سرعة وصول الأخبار فى الجسد بالأعصاب وفى الأمم الاسلامية بطرق المواصلات

(٣) فاذا عمروا أرض الله مع الأمم بذلك السبب كثر الرزق فأخذ كل امرئ قوته من غير ادّخار كالطير

(٤) هنالك تردّ الصدقة ولا تقبل

(٥) ولما كان الطير لايمس الطعام بنار كان الفيتامين فيه موفراً فهكذا ستكون الأمم المستقبلة . أيتها الأمم الاسلامية : هذا هو الذى فهمته فى حديث التوكل ومن حديث الصدقة

(٦) اذا فهمنا هذا عرفنا سرّ حديث الترمذى المتقدّم الذى شبهت الأمة فيه بالمطر لايدرى آخره خير أم أوّله ، فهنالك نفهم سرّ هذا الحديث لأن الأمم الاسلامية التى ستظهر بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله ستعرف نعم الله وتفهم هذه الدنيا ، ومتى اتصفوا بالصفات الخمس المتقدّمة كانوا خير أمة أخرجت للناس . فهم يكونون كالصدر الأوّل من الصحابة والتابعين الذين ملؤا الأرض نوراً وعلماً وهؤلاء سيكونون رسل السلام بين الأمم . فههنا ست معجزات نبوية أقبلت عليها الأمم الاسلامية وهذا التفسير جعل مقدمة لهذه الحال الشريفة

(٧) وهناك معجزة سابعة وهى ان المسلمين متى شاركوا الأمم فى بحث الفيتامين وصاروا موقنين بسبب البحث العلمى أن المآكل التى تؤكل على فطرتها كما يأكلها الطير أصح من التى دخلتها الصنعة وأكثر تقوية لأجسامهم واطالة لأعمارهم فانهم حينئذ تحصل عندهم القناعة فلايحتاجون الى التغالى فى طهى الطعام الموجب الادّخار . واذن يتركون أخذ الصدقة لاسيما اذا صارت الكرة الأرضية كلها على وتيرة واحدة فى استخراج الخيرات وكان لكل امرئ عمله الخاص به كالطير

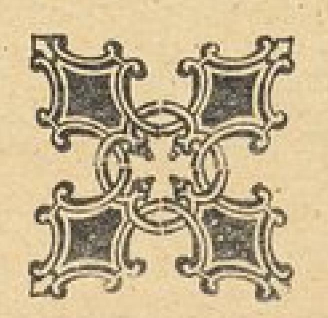
(٨) ولست فى حاجة أن أذكرك أيها الذكىّ بما تقدّم كثيراً فى هذا التفسير من أن هذه الحال هى التى ستأتى فى قوله تعالى — حتى تضع الحرب أوزارها — وهى الحال العيسوية التى فيها تكون الأمم كلها فى حال سلام كما قاله المفسرون

(٩) فهذا هو التوكل الذى أشارت له النبوّة . وهذه هى الانسانية الصادقة فى هذه الأرض . ولما كان الصحابة رضى الله عنهم قد أمروا أن ينشروا الدين وكانت الأمم الأرضية إذ ذاك غير صالحة للسلام العام أنزل الله آيات الجهاد وأباح الغنائم للمجاهدين . ولاجرم أن الغنائم قد أعانتهم على اصلاح الأمم على مقدار الطاقة فى زمانهم ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وجعلوا تلك الغنائم موقوفة على الشهوات فانحلت تلك الأمم وظهر سرّ حديث « إن أخوف ما أخاف عليكم مايفتح عليكم من زينة الدنيا الخ » وتراه فى تفسير ﴿ سورة الأنفال ﴾ وغيرها . إذن الأمم الاسلامية التى جعلت الغنائم مقصدها والشهوات رائدها وأخذوا يتقاتلون

بالسيوف

بالسيوف بعد العصور الثلاثة الأولى على الامارة والملك ليسوا متوكلين على الله حق توكله وستكون الأمم التى تفهم ما ذكرنا هنا من بعدنا خيرا منهم وأحسن أملا وأشرف مقاما وأعلى كعبا فى الاسلام ومن يعش يره

(١٠) إن الأمم التى ستتصف بهذه الأوصاف التسعة تكون سببا فيما يشبه حنث إبليس فى حلفه فى هذه الآية إذ يقول — قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين — إذ يكثر فيها عدد المستثنى ويقل عدد المستثنى منه . إن الجهالة المحيطة بكرتنا الأرضية كلها (ا) يعبر عنها باغواء إبليس — الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء — وعدته الناس بالفقر تحملهم على الحرص والطمع والجمع والادخار والحسد وهذا يفتح باب العداوات والشرور والحروب (ب) ويعبر عنها بتزيين الشيطان — وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل — (ج) وبالازلال — فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه — وههنا خرج الناس فى مطاعمهم ومشاربهم وملابسهم عن السنن الطبيعى فانتابهم الأمراض والفقر والحيوانات قد برئت من هذه الأوصاف . أما هؤلاء فانهم أرغموا أن يعيشوا عيشة كلها ضنك وضيق بسبب العادات الموروثة فى طعامهم الذى يتأنقون فيه ومساكنهم وملابسهم وعاداتهم وهم جميعا يريدون أن يخرجوا من نار هذه الأحوال وماهم بخارجين منها ولهم عذاب الذل المقيم بها فى الحياة وبنتائجها بعد الموت ولكنهم سيخرجون فرحين بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . انتهى تفسير سورة ص والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة الزمر

(هي مكية)

(إلا قوله تعالى – قل ياعبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم – الى قوله تعالى – من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون – فمدنية)

(آياتها ٧٥ – نزلت بعد سبأ)

(هذه السورة ثلاثة أقسام)

« القسم الأول » فى تفسير البسملة

« القسم الثانى » من أول السورة الى قوله – لقوم يؤمنون – وفيه التوحيد والاستدلال بعجائب السموات وخلق الأنعام والانسان والنبات والينابيع الأرضية ونزول المطر واختلاف الزروع وعجائبها وهكذا

« القسم الثالث » من قوله تعالى – قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم – الى آخر السورة . فيه هيئة النفخ والحساب ووصف الفريقين : أهل الجنة . وأهل النار وما أشبه ذلك

﴿ القسم الأول فى تفسير البسملة ﴾

بالرحمة قامت السموات والأرض وانتظم العالم وبهر الوجود ، فهى كضوء الشمس ، وكما أن ضوء الشمس يأخذ منه كل حيوان ونبات مايليق له ويوافق طبعه ويوافق هيكله وهومن الرحمة العامة أيضا ، هكذا جميع الرحمات تنال المخلوقات منها على حسب استعدادها . وكما أن علماء الطب فى زماننا كما تقدم مرارا فى هذا التفسير ، يقولون انهم قدّموا للفيران طعام الارز وأبقوها فى الظلمات أياما فضعفت أجسامها وأخذت تقترب من الموت سراعا ، ولما قدّموا لنفس الفيران البرتقال فأكلته وهى فى الظلام لاتقابل ضوء الشمس قويت وانتعشت وصارت ترتع وتلعب . فاستنتجوا من ذلك أن الأرز لم يأخذ من ضوء الشمس إلا قليلا . فأما البرتقال فانه أخذمنها كثيرا واستخرجوا هذه القاعدة الغذائية فقالوا : « إن الارز أكله غيرصحى . أما أكل البرتقال فهو مقوّ جدا » والأوّل لم يستفد من ضوء الشمس إلا قليلا والثانى استفاد كثيرا . ففيه خزن الله قوّة حيوية عظيمة منه تنتقل الى الانسان . وقد قالوا إن ذلك فى الارز المقشور . أما الذى بقشره الملاصق للحبّ فهو مفيد كما يفيد القمح اذا لم ينخل وأكل بحاله . وعلى هذه القاعدة كانت جميع قشور الفواكه التى يمكن أكلها مع الفاكهة نافعة صحية للانسان

كل ذلك لاستفادتها من ضوء الشمس . إذن مادّة الحياة جعلها الله فى ضوء الشمس وضوء الشمس يخزن فى الأغذية وعلى قدر ماخزن فيه من ضوئها تكون نتائجه فى حياتنا ولذلك يقولون : « إن الأجسام المكشوفة للشمس المعرّضة لضوئها أصحّ وأقوى من المغطاة المحجوبة عن الشمس لأن سرّ الحياة يمتصه الجسم من ذلك الضوء . ولاريب أن استمداد القوّة من نفس الضوء مباشرة بمسام الجلد أبلغ قوّة وأنفذ وأتمّ من أخذها من الطعام

أقول : كما ان علماء الطب قالوا ذلك ووضح فى غير هذا المكان وهذا فى رحمة خاصة . فهكذا نقول فى الرحمة العامّة فهى تتفاوت مقاديرها بتفاوت القوابل لها من المخلوقات

فاعجب (ألهمك الله الرشد وأنعم عليك بنعمة العلم وهداك الصراط المستقيم) من طفل لايشعر إلا بما حواه جلده من عواطف ومطالب ويرى أن جميع من حوله له مسخرون . فلايرى فى أمه إلا أن ترضعه

ولاقى أبيه إلا أن يداعبه ويلاعبه ولاقى اخوته وأخواته إلا أن يضاحكوه . فهو لايهتم بغير شؤون نفسه . فاذا ترعرع وكبر وصارت له زوجة وولد اتسعت رحمانه ، فبعد أن كانت لاتتعدى محيط دائرة جسمه أخذت تسع أسرته و بنيه ، وقد يسبغ النعمة على الأهل والجيران بل البلدة بل الأمة ان كان ملكا بل الأمم كلها إن كان عالما عام النفع . إذن كما اننا رأينا البرتقال امتص من الشمس (الفيتامين) قوة الحياة أكثر من حب الأرز وكانت نتائجهما على مقدارما استفدنا منهما ، هكذا استمدت نفس الصبي واستمدت نفس الرجل من الرحمة العامة (التى أحاطت بظواهر العوالم و بواطنها كما أحاط النور بظواهرها) رحمة خاصة فكانت عند الصبي لاتعدو دائرة جسمه وعندالرجل أعظم فتتسع الدائرة شيأفشيأ حتى ربما بلغت المشرقين وماهى إلا استمداد من تلك الرحمة العامة كاستمداد الغذاء مادة الحياة سواء بسواء

وكما ان من الناس من يعيشون و يموتون ولايعقلون من الحياة إلا مايعقله الصبي فى مثالنا ولايهتمون إلا بدائرة أجسامهم ، فحكوماتهم وعمالكهم وتعليمهم . كل ذلك يدور على محور واحد وهو المنفعة الخاصة ولا يبالون بالمنفعة العامة وانما تأتى عفوا من حيث لايقصدون ، هكذا فى نوع الانسان قوم آخرون هم فى الذروة العليا ، علموا من العلم ماحرك هممهم الى المنافع العامة ، فنفوسهم أشبه بالشموس وعلومهم وأعمالهم أشبه بأضوائها ونتائجهم أشبه بنتائج ضوء الشمس ، وهؤلاء هم عماد أهل هذه الأرض ، انظر فى الشرق والغرب لاتجد إلا هذه القاعدة ، نعم إن الأمم اليوم أقرب الى المادة ولكن لم يرفع رأس الانسانية إلا أناس وجدوا فى أنفسهم ميلا الى العلم والكشف فهاموا به هياما وانقطعوا له انقطاعا وحبسوا نفوسهم وصبروا على البلواء إيقانا بما هم قائمون به ، ومنهم من قتل ، ومنهم من سجن . ذلك كله فى العصور المتأخرة وذلك فى الامور الجزئية من كشف أمر طبيعى أوكيماوى أوفلكى . وفوق هؤلاء وهؤلاء الحكماء المحققون . وفوقهم جميعا الأنبياء والمرسلون

فالرحمة عندهم بلغت منتهاها وانتهت الى الذروة فصاروا هم الشموس المشرقة على الناس أجمعين . لايريدون بالتعليم والتبليغ جزاء من القوم الذين أرسلوا اليهم ولاشكورا . كلا . ولقد ضرب الله لهم مثلا فيما نشاهده فى منازلنا . فانا نرى الأم ترضع ولدها واذا سئلت عن ذلك قالت لا أريد إلا حياته ولامطلب لى وراء ذلك فهذا منها إخلاص وهذا الاخلاص جعل فيها غريزة لاتقدر على دفعها . هكذا الأنبياء و يليهم المصلحون من المؤمنين . ففتش فى نفسك أيها الذكى فان رأيت نفسك فيها هذا المعنى فاعلم انها قد اقتبست هذه الرحمة من الرحمة العامة واعلم انك نافذ الكلمة وان رأيت نقصانا فسيكون نفعك وآثارك على مقدار ماوصلت اليه من الاخلاص

اذا فهمت هذا فافهم بعض سر البسملة فى أول سورة الزمر . انها مسبوقة بذكر الاخلاص وما أشبهه مرتين فى ﴿ سورة ص ﴾

(١) ـ إناأخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ⁕ وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ـ

(٢) ـ إلا عبادك منهم المخلصين ـ

(٣) وقد ذكر بعدها فى سورة الزمر ـ فاعبد الله مخلصا له الدين ـ

(٤) ـ ألا لله الدين الخالص ـ

(٥) ـ قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ـ

(٦) ـ قل الله أعبد مخلصا له دينى ـ

ومن هذه الست انه أمر أن يعبد مخلصا الدين لله . وأن يعلن انه أمر بذلك وأن يعلن نفس هذه العبادة مع الاخلاص . فهذه الثلاثة من الست المتقدمة

اذا علمت هذا فما أسهل أن تفهم الآية المذكورة قبيل هذه البسملة فى آخر (سورة ص) - قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين - واذا كنا نرى المرأة لاتتكلف فى ارضاع طفلها ونعرف الفرق بين إخلاصها فى ارضاعه و بين تكلفها فى إرضاء زوجها الذى تكرهه مثلا ، فهكذا نحن نعرف الفرق بين الأنبياء فى إخلاصهم فى تعليمهم الأمم و بين أولئك الذين يعيشون فى جلودهم و يجعلون الناس كأنهم خلقوا لفائدتهم. المخلصون لايبتغون أجرا على عملهم . فنفس العمل مسرتهم ولذتهم وسعادتهم وان كانوا فى السجون أوفى النفى كما ترضى المرأة بالسجن والنفى ولاترضى بالامتناع عن ارضاع ولدها ، فهذا مثل تقريبى لآية - قل ماأسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين -

هذه الآية نزلت لنعتبر نحن بها ، فليداوم المرء على الطاعة والبحث والجدّ فى العلم حتى يحسّ فى نفسه بهذه العاطفة والحب العام ، ولن يكون فى القلب الحبّ العام إلا بمعاودة النظر فى هذه العوالم كرة بعد أخرى فهنالك تترقى عاطفة الحب ، فالحب لا يكون إلا بعد العلم ولا اخلاص إلا مع الحب ، فليكن تعليم المسلمين هكذا

(١) إعداد العقل للفكر

(٢) واعداد العواطف للحب

(٣) واعداد اليدين للعمل

اذا علمت ذلك فانظر فى آيات هذه السورة تجدها قد أحاطت بما يعمله المخلصون من المسلمين (أولا) لهم لوحان يقرؤنهما وهما لوح السموات ولوح الأرضين وتكوير ليلهما ونهارهما وهذا فى آية - خلق السموات والأرض بالحق - الى - ألا هو العزيز الغفار -

فماذا يقرؤن فيهما ؟ يجدون فى هذين اللوحين محوا واثباتا ، ضوء يمحو الظلام ثم ظلام يعقب الضوء إذن هنا لوحان فيهما محو واثبات كألواح الصبيان فى المكاتب و يرون فوق الأرض هذا العمل نفسه فيحب الانسان مالا وولدا وفتاة جميلة فيجد المال فنى والذرّية يعتريها المرض أوالموت والمعشوقة نحل جسمها أوساء سلوكها أوكبرت سنها و يبس جلدها ، أو يجد نفسه أصيب بأمراض منعته هذه اللذات كلها مع وجودها إذن لافرق بين الظلمات والأنوار و بين الصور المتتاليات فيما نحبه على الأرض ، فلاجميل إلاقبح ولاشابّ إلا كبر ولاصحيح إلامرض ولاغنىّ إلاافتقر ولاحىّ إلامات ولاحبيب إلاأعرض ، وكم غدرالأحباب وأساء الأبناء وأدبرالمقبلون وآذى المحسنون

هنالك يقولون : إن هذه الألواح قد استفادت هذه الصورالجميلة من عوالم وراءها كما استمدّ البرتقال قوّة الحياة الأرضية من ضوء الشمس فيما تقدم وكما استمدّت نفوسنا رحمتها من رحمة عامّة . فلننظر إذن ولنقس مالم نعلم بماعلم . نحن علمنا أن ضوء الشمس فيه قوّة الحياة وعلى مقدار إمداده للغذاء تكون قوّتنا إذن الغذاء لم تكن فيه هذه القوّة من نفسه بل من ضوء الشمس . إذن هذه القوّة لم تكن كامنة فيه بل هى اكتسبته من الشمس . إذن فلتكن هكذا نفسى . فاذا كانت طبيعة الأرض عجزت عن أن تعطى البرتقال مثلا و بقية الثمار الفيتامين واحتاجت تلك الثمار الى عالم فوق أرضنا وهى الشمس فاستمدّت منها قوّتها هكذا نفوسنا المخلوقات فى أجسامنا لم تكن فيها الرحمة من نفس المادّة الأرضية هذه التى عجزت أن تمدّ الفاكهة بالفيتامين بل رحمتها استمدّت من رحمة تعم ظواهر المادة و بواطنها ونسبتها الى نفوسنا كنسبة ضوء الشمس الى أغذيتنا وفواكهنا . فاذا احتاجت مادّة الأرض الى ضياء الشمس لتمدّ البرتقال بمادّة الحياة فلتكونن رحمة الأم لولدها مستمدّة من رحمة عامّة عجزت عنها المادّة الأرضية وذلك من باب أولى لأن عواطف الأرواح أرقى وأعزّ من قوى الأغذية

واذا صح هذا القياس وان كان اقناعيا فليصحّ القياس الآتى وهو أن هذين اللوحين الأرضى والسماوى

وما

وما صور بينهما من مخلوقات ترى لهن جمالا بديعا فى الأنوار وفى الصور الجميلة والوجوه الحسنة والأزهار والزروع فنفرح ببعضها ونعشقها ونهيم بها غراما ، ثم نرى ذلك كله أصبح كأمس الدابر فيقولون إذن لا لا إن هذه العوالم وراءها من يرسمها و ينقشها و يرقشها و يجندرها و يحسن صورها و يملؤها بالروعة والجمال ليعطينا دروس الجمال و يلهمنا العواطف و يعلمنا الحب ، ثم لا يبقى جيلا أمامنا بل هو يهدم الأرض والسموات ومافيهما .

إذن لماذا هذا ؟ ليقول لنا : « أنتم عرفتم أن مادة الفيتامين فى الغذاء لم تكن من المادة بل من ضوء الشمس وعرفتم أن الرحمة فيكم لم تكن من عندكم بالبرهان فما أسهل أن تعلموا أن المادة لم ترسم هذه الرسوم والأشكال ولم تبدع هذا الجمال ، إذن الجمال عندى أنا فليكن حبكم لى حبا راجعا الى جمال فوق ما رأيتم ، لقد رأيتم آثار الرحمة وأغرمتم بآثار الجمال والنقوش والعلوم والأزهار والصور الحسان . هذه كلها آثار الجمال لا نفس الجمال ، فارتقوا فى الأسباب وافرحوا بما سترون من جمالى ، هنالك ترون جمالا لاحد له وتحبون حبا لانهاية له « و ربّ الدار أحبّ الى الزائر من نفس الدار » وهذه العوالم المنقوشة المرصوفة المجندرة المزوقة المرقشة البهجة المحكمة الصنع رسل أرسلت اليكم لتغريكم بأن تروا من نقشها وصوّرها فأحسن صورها ، فاذا سمعتم قولى ــ الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون ــ فاعلموا أنى أنا الذى أصبتكم بهذه المصائب لأنى أربأ بكم أن تعيشوا فى هذه العوالم التى ليس لها عندى منزلة أكثر من منزلة الألواح للصبيان فأنا أرسلتكم الى الأرض لتدرسوها وأرسلت عليكم النكبات لتتركوها ، و بعد أن أريتكم الجمال حرمتكم منه وحرمتكم من كل ما تحبون لأن وظيفة المادة تعليمكم ولابد من نقلكم الى عالم آخر يكون أجدر بنفوسكم وأحقّ بها وفوق كل جيل أجل منه ــ وفوق كل ذى علم عليم ــ

ليس على الأرض محبوب إلا لخصلة من خصال خمس : أن يكون جميلا أو عليما أو شجاعا أو محسنا أو بينه وبين المحبّ له سرّ مجهول غير ظاهر ، ولاجرم أن الجمال والعلم والشجاعة الخ لابقاء لها فى الأرض فمن أين أقبلت والى أين ذهبت ؟ ان كل هذه إلا آثار أنا خالقها والىّ ترجع . فكل الجمال والعلم والقدرة والحكمة منى ظهرت والىّ ترجع لتوجهوا حبكم الى منبع الجمال والعلم والحكمة والقوّة ــ وان الى ربك المنتهى ــ

« من ذا الذى يرى عنايتنا التامة بالحشرات فأعطينا النملة (٤٠٠) عين كل واحدة مستقلة عن أختها وهكذا الذبابة أربعة آلاف عين وألهمناهن كل مايحتجن اليه فى الحياة ؛ من ذا الذى يرى هذا ولايزداد لنا حبا و بقدرتنا وعلمنا إعجابا ويتمنى لقاءنا » والى هنا تمّ الكلام على اللوحين : لوح الأرض ، ولوح السماء فى آية خلق السموات والأرض ﴿ ثانيا ﴾ لهذه الطائفة درسان : درس خلق الحيوان والانسان . ودرس خلق النبات وانزال الماء فى قوله تعالى ــ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ــ وههنا ذكر الأنعام وعجائب الخلق والاحكام . الرحمة الخ وفى قوله ــ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ــ الى قوله ــ إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ــ ففهنا أظهر المحاسن الباطنة والأنوار الروحانية فى ابداع الخلق الذى لايعرف إلا بالعلم والحكمة وماتقدم أكثره فى الجمال الظاهر ﴿ ثالثا ﴾ هذه الطائفة ليلها قيام وصلاة وفكر وعلم حبا لله وشوقا اليه ــ أمّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما ــ الخ ﴿ رابعا ﴾ هم صابرون ولهم مسرات فى الدنيا كما لهم فى الآخرة ــ قل ياعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا ــ الخ ﴿ خامسا ﴾ من أخلاقهم التعقل والحكمة فلايقبلون قولا إلا بعد نقده واستخلاص الحقيقة منه ــ الذين يستمعون القول ــ الآية ﴿ سادسا ﴾ هم خلفاء الله قوّامون على عباده يبشرونهم بالرحمة ويخوّفونهم النقمة ــ قل ياعبادىَ الذين أسرفوا ــ الى قوله ــ ثم لاتنصرون ــ ﴿ سابعا ﴾ هذه الطائفة تنال الرضا والعلم وانشراح الصدر والهدى وأن الله يكفيهم وذلك فى آية ــ قل هل يستوى الذين يعلمون ــ الخ وآية ــ وان تشكروا يرضه لكم ــ وآية ــ أفمن شرح الله صدره للاسلام ــ الخ وآية ــ الله نزّل أحسن الحديث ــ الى قوله ــ ذلك

هدى الله يهدى به من يشاء - وآية - أليس الله بكاف عبده - الخ (ثامنا) يكون جزاؤهم أن يكونوا فى غرف من فوقها غرف مبنية الخ وأن تشرق لهم الأرض بنور ربهم ، وأن تسلم عليهم الملائكة وتحييهم وهنالك يرون ماهو أعلى وأجل وهو نهاية النهايات إذ يرون الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم فتكون لذتهم أعلى اللذات ويقولون الحمد لله رب العالمين ، وهذه اللذة العقلية تقدمتها اللذة الحسية فى الغرف التى فوقها غرف مبنية ، وهل هذه اللذة إلا بالعلوم والمعارف ، وهل التسبيح والتحميد اللفظيان إلا مقدمتان للتسبيح والتحميد العقليين ، وما ذلك إلا ادراك نظام هذه العوالم ، ولن تكون هذه اللذة فى الآخرة إلا بمقدمات فى الدنيا بل من لم يدرك بعضها فى الحياة فكيف يستكملها بعد الموت . إن الذكر اللفظى يراد به أن يكون وسيلة للتعقل . ألم تر كيف يقول الله تعالى - الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض - الخ فالذكر اللفظى مقدمة للتفكر والتفكر هو المقصود ومقصوده هو جمال النظام العام ، والعامة يكتفون بالحمد والتسبيح اللفظيين وينتظرون الثواب فى الآخرة بالجنة ، وهذه المرتبة هى التى يدخل فيها أكثر الناس فتكون العبادة لها مقابل وهو ثواب الآخرة وهؤلاء يقل حظهم العقلى ، أما أولئك المفكرون العارفون الواقفون على الحقائق فينالون فوق الجنة الحسية سعادة اللقاء والنظر لوجه ربهم ومقدمات هذا دراسة هذه الدنيا ، واعلم أن ما فى هذا التفسير أو أكثره من العجائب كاف لايجاد هذه الطبقة الشريفة ، فهم هم الذين يسعدون فى نفس هذه الحياة بجمال العلم ويكون مبدأ الجزاء حاصلا فى الدنيا وهو الابتهاج بنفس هذه الحقائق ويكونون نورا للأمم وهم خلفاء الله فى أرضه عليهم يعول الناس فى دنياهم وفى طريق آخرتهم والانسانية المستقبلة مدارها على أمثال هذه الطائفة

وإذا شئت زيادة البيان فاقرأ ماتقدم عن « اخوان الصفاء » فى جزاء المحسنين إذ جعل ثواب المحسنين فى هذه الحياة الدنيا انهم يفرحون بالوقوف على الحقائق فى عجائب المعادن والنبات والحيوان والسماء والأرض وهكذا نقلت جملة عن الامام الغزالى هناك فى نحو هذا وهكذا تنظر ماجاء فى ﴿ سورة السجدة ﴾ من الكلام على جسم الانسان وموازنته بالعوالم وماجاء فى ﴿ سورة فاطر ﴾ عند آية - ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء - من أن معرفة العجائب هى نهاية اللذات لهذا النوع الانسانى ، وما هذه العجائب إلا آثار الرحمة المذكورة فى البسملة فى أول السورة ، وتلك الآثار بمعرفتها يكون الحب والحمد المذكور فى آخرها . فالرحمة أولا والعلم والحب والحمد آخرا وهذا من عجائب القرآن

ألست بهذا أيها الذكى تفهم سر النبوة إذ روى الترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لقيت ليلة أسرى بى ابراهيم عليه السلام فقال لى : يامحمد أقرئ أمتك منى السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء ، وانها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر »

ولاجرم أن العلوم والمعارف المنطوية فى التسبيح والتحميد هى أعلى الجنة وهذا من عجائب النبوة .
اذا عرفت هذا فاسمع ماجاء فى كتاب « تيسير الوصول لجامع الاصول » تحت العنوان الآتى مانصه :

﴿ فصل فى الاستغفار والتسبيح والتهليل والتكبير والتحميد والحوقلة ﴾

عن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « خصلتان أو خلتان لايحصيهما رجل إلا دخل الجنة وهما يسير ومن يعمل بهما قليل : يسبح الله دبر كل صلاة عشرا ، ويحمده عشرا ، ويكبره عشرا فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده . قال : فتلك خمسون ومائة باللسان وألف وخمسمائة فى الميزان واذا أخذت مضجعك تسبحه وتكبره وتحمده مائة مرة فتلك مائة باللسان وألف فى الميزان فأيكم يعمل فى اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيئة قالوا كيف لانحصيهما يارسول الله ؟ قال يأتى أحدكم الشيطان وهو فى صلاته فيقول : اذكر كذا وكذا حتى ينفتل فلعله أن لايفعل ويأتيه فى مضجعه فلايزال ينومه حتى ينام »

أخرجه

أخرجه أصحاب السنن

وعن ابن أبي أوفى رضى الله عنهما قال : « جاء رجل فقال يارسول الله لاأستطيع أن آخذ من القرآن شيأ فعلمني مايجزيني ؟ قال : قل سبحان الله والحمد لله ولاإله إلاالله والله أكبر ولاحول ولاقوة إلا بالله . قال يارسول الله هذا لله فماذا لى ؟ قال : قل اللهم ارحمنى وعافنى واهدنى وارزقنى . فقال : هكذا بيديه فقبضهما فقال ﷺ أما هذا فقد ملأ يديه من الخير » أخرجه أبوداود بتمامه والنسائى الى قوله « ولاقوة إلا بالله »

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل موته سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب اليه . فقلت له فى ذلك ؟ فقال أخبرنى ربى انى سأرى علامة فى أمتى فاذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب اليه فقد رأيتها ـ اذا جاء نصر الله والفتح ـ السورة » أخرجه الشيخان

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب الى مما طلعت عليه الشمس » أخرجه مسلم والترمذى

وعن يسيرة مولاة لأبى بكر الصديق رضى الله عنهما وكانت من المهاجرات الاول . قالت : قال لنا رسول الله ﷺ عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس والتكبير واعقدن بالأنامل فانهن مسؤلات مستنطقات ولا تغفلن فتنسين الرحمة » أخرجه أبوداود والترمذى واللفظ له

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « ما أصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة » أخرجه أبوداود والترمذى

وعن أغر مزينة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم مائة مرة » أخرجه مسلم وأبوداود ، وفى رواية لمسلم « توبوا الى ربكم فوالله إنى لأتوب الى ربى تبارك وتعالى فى اليوم مائة مرة » وللبخارى والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والله انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم سبعين مرة » قوله (ليغان) أى يغطى ويغشى والمراد به السهو

وعن أسماء بن الحكم الفزارى قال سمعت عليا رضى الله عنه يقول : « كنت اذا سمعت حديثا من رسول الله ﷺ نفعنى الله تعالى بما شاء أن ينفعنى منه ، واذا حدثنى رجل عنه استحلفته فاذا حلف لى صدقته ، وانه حدثنى أبوبكر الصديق رضى الله عنه وصدق أبوبكر . قال سمعت رسول الله ﷺ يقول مامن رجل يذنب ذنبا ثم يقوم فيتطهر ويصلى ركعتين ثم يستغفر الله تعالى إلا غفر له ثم قرأ ـ والذين اذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ الآية » أخرجه أبوداود والترمذى

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من قال لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه ، ومن قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر » أخرجه الثلاثة والترمذى

وعن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من دخل السوق فقال لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة » وفى رواية عوض الثالثة « وبنى له بيتا فى الجنة » أخرجه الترمذى

وعن جويرية زوج النبي ﷺ رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال : مازلت على الحال التي فارقتك عليها قالت نعم ، قال : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته ، أخرجه الجماعة إلا البخاري ، وقوله زنة عرشه أي بوزن عرشه في عظم قدره ، ومداد كلماته أي مثلها وعددها ، وقيل المداد مصدر كالمد

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده . سبحان الله العظيم » أخرجه الشيخان والترمذي

وعنه أيضا رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أكثروا من قول لاحول ولاقوة إلا بالله فانها كنز من كنوز الجنة » قال مكحول : فمن قالها ثم قال « لامنجي من الله إلا اليه » كشف الله عنه سبعين بابا من الضر أدناها الفقر . أخرجه الترمذي . وبهذا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين ؟

﴿ القسم الثاني ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ * لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ * إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ * أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ • قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ • قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ
اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ • وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ • قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ • قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي • فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ • لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ
تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ • وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا
وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ • الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ
هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ • أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ •
لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ
لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ • أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ
زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ •
أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ
فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ • اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ • أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ
تَكْسِبُونَ • كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ • فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ • وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ
كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ • قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ • ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ • وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ • إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ • ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ • فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ • وَالَّذِي جَاءَ
بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ • لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ •
لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ • أَلَيْسَ اللَّهُ
بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ • وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ • وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ

أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون * قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون * من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم * إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل * الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون * قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون * وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون * قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون * ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون * وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون * قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين * أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون *

« التفسير اللفظي »

بسم الله الرحمن الرحيم

(تنزيل الكتاب) وهو القرآن كائن (من الله العزيز الحكيم) أي لا من غيره (إنا أنزلنا إليك الكتاب) ملتبسا (بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين) من الشرك والرياء (ألا لله الدين الخالص) أي هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلص له الطاعة من كل شائبة (والذين اتخذوا من دونه) أي من دون الله (أولياء) أي الأصنام قالوا (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) أي قربة فإنهم كانوا اذا قيل لهم من خلقكم وخلق السموات والأرض فيقولون الله فيقال لهم فما معنى عبادتكم الأوثان فكانوا يجيبون بما تقدم (إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) من أمر الدين (إن الله لا يهدي) أي يرشد لدينه (من هو كاذب) فيقول ان الأصنام تشفع (كفار) باتخاذه الآلهة (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى) اختار (مما يخلق ما يشاء) يعني الملائكة ثم نزه نفسه فقال (سبحانه هو الله الواحد القهار) في ملكه الذي لا شريك له فيه ، فقهره مطلق

فى المخلوقات فكيف يجوز عليه أن يقهره غيره فيموت فيحتاج الى الولد . كلا . فقهره عام فى العالم العلوى والسفلى ، أما فى العالم العلوى فهو قوله (خلق السموات والأرض بالحق يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل) والتكوير اللف والليّ يقال كار العمامة على رأسه وكوّرها ، ولا جرم أن كل واحد من الليل والنهار فى تتابعهما أشبه بتتابع أكوار العمامة بعضها على بعض . ألا ترى الى الأرض وقد دارت حول نفسها وهى مكورة فأخذ النهار الناشئ من مقابلتها للشمس يسير من الشرق الى الغرب يلف حولها طاويا الليل ، والليل من الجهة الأخرى يلتفّ حولها طاويا النهار ، فالأرض كالرأس والظلام والضياء يتتابعان تتابع أكوار العمامة ويلتفان متتابعين حولها ، وهذا التعبير من أعجب مايعلم به أن القرآن يرشدنا الى كروية الأرض أوّلا ويرمز الى دورانها حول نفسها ثانيا ، ذلك لأن الليل والنهار ليسا من خواص الشمس فلا ليل ولا نهار هناك وانما هما فى الأرض فتكوير الأرض ظاهر الآية ودورانها أتى تابعا بالرمز والاشارة وقوله (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) أى الى منتهى دوره أو منقطع حركته (ألا هو العزيز) الغالب على كل شئ ومنه الشمس والقمر (الغفار) حيث لم يعاجل بالعقوبة . وأما العالم السفلى فقوله تعالى (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) أى خلق الله نفس آدم وجعل منها حوّاء وجعل منهما سائر الناس ولم يخلقهم بلا عناية بل أنزل الماء من السماء وأنبت الزرع والشجر وخلق الابل والبقر والغنم والمعز من كل نوع منها زوجين اثنين ذكرا وأنثى فتكون كلها ثمانية أزواج وتلك الأزواج الثمانية تتغذى بالنبات والشجر النابتة بالماء النازل من السماء فكأنها كلها نزلت من السماء . وقيل ان هذه الأزواج الثمانية نزلت من السماء وهذا يوافق قول بعض علماء العصر الحاضر على سبيل الحدس والتخمين أن أصول المخلوقات نزلت من عالم آخر غير الأرضى والأمر فى هذا غير معلوم فنكله الى الله تعالى . فالعقول البشرية لا تطيق هذه الحقائق العالية وهذا قوله تعالى (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) ثم أخذ يصف عجائب خلق الانسان والأنعام فى الأرحام ويظهر العجائب فى ابداعهما فقال (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق) نطفة ثم علقة ثم مضغة وهكذا الى تمام الخلق (فى ظلمات ثلاث) ظلمة البطن والرحم والمشيمة (ذلكم) الذى هذه أعماله (الله ربكم) هو المستحق لعبادتكم (فأنى تصرفون) فكيف يعدل بكم عن عبادته الى عبادة غيره على أن الله لم يكلف الناس بالعبادة إلا لرقىّ نفوسهم فأما هو فغنىّ عن عبادتهم وهذا قوله (إن تكفروا فان الله غنىّ عنكم ولا يرضى لعباده الكفر) لأنه خلق النفوس الانسانية والعالم كله لارتقائه ونشوئه فلذلك قال ـ ولا يرضى لعباده الكفر ـ الذى هو مانع من ارتقاء النفوس وان كان بارادته لمانع قام بنفس حقائق تلك النفوس تعلقت الارادة به على ماهو عليه (وان تشكروا يرضه لكم) لأنه على مقتضى سننه القويم العادل وصراطه المستقيم (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى لا يؤخذ أحد بذنب الآخر (ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون) بالمحاسبة والمجازاة (إنه عليم بذات الصدور) فلا يخفى عليه خافية من أعمالكم (واذا مسّ الانسان ضرّ دعا ربه منيبا اليه) راجعا اليه بالدعاء لا يدعو غيره (ثم اذا خوّله) أى أعطاه (نعمة منه) من الله (نسى ما كان يدعو اليه) أى نسى الضرّ الذى كان يدعو الله الى كشفه (من قبل وجعل لله أندادا) وهى الأصنام (ليضل عن سبيله) أى ليردّ عن دين الله تعالى (قل) لهذا الكافر (تمتع بكفرك قليلا) فى الدنيا الى انقضاء أجلك (انك من أصحاب النار) وهى عامة فى الكفار (أمّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما) أى بل أمّن هو مطيع كمن هو عاص ، وقوله ـ آناء ـ أى ساعاته ، وقوله ـ ساجدا وقائما ـ حالان من ضمير قانتا ، وقوله (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) حالان أيضا ، والقنوت القيام على الطاعة كقراءة القرآن وطول القيام ، وبالجملة كل من قام بعمل يثاب عليه (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) بعد أن ذكر الله تفضيل المطيع على العاصى وذلك فى القوة العملية أخذ يوازن بينهما من حيث القوة العلمية ففى المساواة بين العالم وغير العالم ولم يبين نوع

العلم اشارة الى أن وجه الموازنة بين الناس ليس مختصا بعلم واحد بل جميع العلوم ، ولاجرم أن العلوم ثلاثة أقسام علوم لاتتوقف على عمل كالعلم بالله وملائكته الخ وكالعلوم الحكمية وعلوم يستتبعها عمل كعلم الفقه وعلم قوامه العمل كجميع الصناعات ، وهذه الأقسام الثلاثة كلها فيها علم وقل . فالنجار والخائط والناسج كل هؤلاء صناع والعمل فى صناعتهم أكثر من العلم بل لانسبة بين علومهم وأعمالهم والمهندس وعالم الفلك علمهم أغلب من أعمالهم . فكل طائفة من هؤلاء أفضل من الجاهل من حيث ماعرف . وعليه تكون الأمم العالمة بهذه العلوم أفضل من الجاهلة بها . فالفضل تابع للعلم . وعلى مقدار معارف الانسان يكون فضله . ولاجرم أن المسلمين اليوم اكتفوا بلفظة تداولت على ألسنتهم وهى انهم مؤمنون . ومتى قال الانسان آمنت وأسلمت فانه اذا ترك نفسه مهملا عاطلا حق له النفل وهذا خطأ فاضح فان الله فاضل بين النفوس بالعلوم . فالنفس العالمة بما هو من طباعها وماتقدر عليه بحسب استعدادها أفضل من النفس الأخرى التى قدرت على علم وتركته جهالة بقدرها واتكالا على صفة الايمان . فمن كان أهلا لعلم الهندسة أوالفقه وتركه نذالة وجهالة وكسلا وكان هناك آخر مستعد بطبعه وبحاله المنزلية الى حرفة الحدادة أوالبرادة فقام الثانى وأتقن حرفته وقام بها خير قيام فان هذا الثانى أفضل من الأول لأنه قام بما يقدر عليه ولوكان أقل فضلا مما يقدر عليه الآخر الذى لم يقم بما هو فى امكانه تحصيله كما ان الانسان اذا ترك التعقل والتفكر ودخل فى عدد العجماوات بذلك الاهمال صار ادنى منها منزلة لأنها قامت بما فى طاقتها وهو قصر ولذلك قال تعالى ــ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ــ أى عما أودع فيهم . وعلى هذا التفسير يكون المسلمون اليوم قد تركوا مواهبهم وعطلوها وأناموها وهذا نزول من المقصرين منهم عن بعض خصائص الانسانية لأن الحيوان لاقدرة له على الصناعات ولا العلوم وقد سهل الله له الرزق ولم يجشمه المشاق فوق طاقته . أما الانسان فانه جعل رزقه غير ميسور كرزق الحيوان وبسط له المواهب ليستعملها فاذا قصر فيها فقد تنزل الى الحيوانية . وقد اعتاد المسلم أن يقصر ذلك على الايمان وحده ولكن هذه الآية تعمم وتدعو الى درس سائر العلوم والصناعات بحيث يخصص كل فيما خلق له ــ لايكلف الله نفسا إلاوسعها ــ فليقم كل فرد من الأمة بما يوافق طبعه . فحرام على رجال الحل والعقد فى مصر والشام وجزيرة العرب وبلاد الترك والروس والفرس وبلاد المغرب أن يبقوا مكتوفى الأيدى بل عليهم أن يعمموا التعليم ثم ليختاروا على حسب درجات الامتحان لكل علم ولكل حرفة من هم أهل لها ويراعى فى ذلك القوة البدنية والاستعداد والأحوال العارضة . وحينئذ يتخرج فى كل قطر من أقطار الاسلام طوائف العلوم والصناعات جميعها ويتم النظام كما تم النظام فى تزاوج الذكور والاناث إذ جاء العدد متساويا فى الزوجين تقريبا فى كل زمان ومكان . هكذا خلقت الغرائز ــ ولكن أكثر الناس لايعلمون ــ . إن الغرائز خلقت فى الناس على قدر الحاجة فقل الأذكياء للحكمة مثلا وكثر أصحاب الأعمال الجسمية ليتم نظام المدن (إنما يتذكر أولوا الألباب) فيقومون بأمر العلم ويرقون نفوسهم ونفوس غيرهم وسيأتى فى اللطائف مزيد لهذا (قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم) بلزوم طاعته (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) أى للذين أحسنوا حسنة فى الدنيا كالصحة والعافية ، فجعل الله الحسنة فى مقابلة الاحسان ، فاذا سار على طريق علم الصحة فذلك احسان ، واذا استقام وترك الذنوب واذا فعل البر والمعروف واذا قام بالطاعات ، كل ذلك إحسان ، ونتيجة هذا الاحسان من الانسان الحسنات فى الدنيا من العافية والصحة وحب الناس وفى الآخرة الجنة (وأرض الله واسعة) فمن تعسر عليه الاستقامة فى بلد فليرحل الى غيرها ، فليهاجر الانسان من البلد التى فيها معصية الى بلد لامعصية فيها (إنما يوفى الصابرون) على مشاق الطاعات واحتمال البلاء ومهاجرة الأوطان (أجرهم بغير حساب) أجرا لايهتدى اليه حساب الحاسب . وعن على رضى الله عنه : «كل مطيع يكال له كيلا ويوزن له وزنا إلا الصابرون فانه يحثى لهم حثيا» ، ويروى «ان أهل العافية فى الدنيا يتمنون لوأن أجسادهم تقرض بالمقاريض لما يذهب

به أهل البلاء من الفضل » وقوله (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين) أى أمرت باخلاص الدين (وأمرت لأن أكون أوّل المسلمين) أى وأمرت بذلك لأجل أن أكون أوّل المسلمين أى مقدمهم وسابقهم فى الدنيا والآخرة . فقد أمر أوّلا بالاخلاص فى الدين وثانيا بأن يكون سابقا ليقتدى به غيره (قل انى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) لما دعاه قومه الى اتباع ملة آبائه وأجداده أمر أن يقول ذلك وليكون ذلك إخافة لأمّته اذا حادوا عن الصراط لأى داع (قل الله أعبد مخلصا له دينى) أى لا أعبد سواه وهذا الحصر لايستفاد من قوله ـ قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ـ وأيضا ذكر هذا ليرتب عليه قوله (فاعبدوا ماشئتم من دونه) وهذا تهديد وخذلان لهم (قل إن الخاسرين) الكاملين فى الخسران (الذين خسروا أنفسهم) بالضلال (وأهليهم) بالاضلال (يوم القيامة) حين يدخلون النار (ألاذلك هو الخسران المبين) مبالغة فى خسرانهم (لهم من فوقهم ظلل من النار) شرح لخسرانهم (ومن تحتهم ظلل) أى لهم أطباق وسرادقات من فوقهم وفراش ومهاد من تحتهم وهى من جهة أخرى ظلل لمن هم تحتهم فى النار فهى ظلل بالنسبة لمن تحتهم فراش ومهاد بالنسبة لهم (ذلك) العذاب (يخوّف الله به عباده) ليجتنبوا مايوقعهم فيه (ياعباد فاتقون) ولاتتعرّضوا لما يوجب سخطى (والذين اجتنبوا الطاغوت) الأوثان (أن يعبدوها) بدل اشتمال (وأنابوا الى الله) ورجعوا الى عبادته بالكلية وتركوا ماسواه (لهم البشرى) فى الدنيا بالثناء عليهم بصالح الأعمال . وعند نزول القبر . وعند الخروج من القبر . وعند الوقوف للحساب . وعند جواز الصراط . وعند دخول الجنة . وفى الجنة . ففى هذه المواطن السبعة يبشرون بالسعادة والرضوان و يسعدون سعادة بالروح والريحان (فبشرعباد) وهم الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا يريد أن يكونوا مع الاجتناب والانابة على هذه الصفة وهى انهم (يستمعون القول) فى الدين وغيره (فيتبعون أحسنه) بحيث يكونون نقادين فيميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل فيقدّمون الواجب على المندوب فى الدين والمندوب على المباح . واذا جنى عليهم وقدروا على العفو قدّموه على القصاص . واذا رأوا طريقين فى أمور الحياة قدّموا ماهوأنفع للأمّة كاستعمال الآلات الحديثة فى الزراعة والصناعة كاستعمال الطيارات فى النقل فى الحرب والغوّاصات البحرية وكاختراق باطن الأرض لاستخراج المعادن وهكذا من كل مابه يرتقى نوع الانسان . فهؤلاء يبشرهم النبىّ ﷺ بأمر ربه أن يسودوا فى الدنيا وتثنى عليهم الأمم والأجيال المقبلة . واذا ماتوا بشرتهم الملائكة فى المواقف كلها فتتصل البشارة لهم فى سائر المواطن (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) أى المنتفعون بعقولهم ، فانظر فى هذا التعبير وكيف يقول إن الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه هم الذين هداهم الله وهم أولوا الألباب . مدحهم بالهداية و بالعقول الكاملة . لماذا ؟ لأنهم يختارون خيرالأمرين فى دينهم ودنياهم . أقول : ولولم يكن فى القرآن إلا هذه الآية لكفت فى ارتقاء المسلمين فى هذه الحياة الدنيا . ألاليت شعرى كيف نام الناس وتركوا عقولهم كأنها لم تخلق فيهم . يرى المسلمون الأمم قد ارتقت صناعاتها وتجاراتها وأعمالها وعلومها وهم نائمون . أليس هذا كلام الله ! وسيقوم قريبا فى هذا العصر من يرقون هذه الأمّة من أبنائها ـ ولتعلمنّ نبأه بعد حين ـ . ولما كان الاستعداد الانسانى هوالذى اليه المرجع فى رقىّ الانسان وانحطاطه وهوتابع للقضاء والقدر ، فاذا سبق بعذاب على امرئ لم يكن للهداة قدرة على اصلاحه أعقبه بقوله (أفمن حقّ عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار) أى أأنت مالك أمرهم فمن حقّ عليه كلمة العذاب لعدم أهليته للكمال فأنت تنقذه . كلا . فليس لك أمرهم . فدكررت الهمزة فى الجزاء لتأكيد الانكار ووضع ـ من فى النار ـ موضع الضمير إيماء الى أن دعاءهم الى الايمان سعى فى انقاذهم من النار المحققة (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية) يقول الله : للكفارظلل من النار وللمتقين علالى بعضها فوق بعض (تجرى من تحتها الأنهار) من تحت تلك الغرف وعدهم الله ذلك (وعد

الله لا يخلف الله الميعاد)

﴿ الكلام على أعظم أسباب دخول الجنات ﴾

(والارتقاء الى أعلى الدرجات)

اعلم أن الله تعالى لما ذكر الجنة وغرفها وأنهارها وأن وعده فيها لاشك فيه أردفه بذكر انزال الماء من السماء وادخاله ينابيع فى الأرض وسقى الزرع به ، ثم أعقبه بالكلام على شرح الله لصدر المؤمن للاسلام وذم الذين قست قلوبهم ، ومدح القرآن وانه أحسن الحديث يشبه بعضه بعضا فى الحسن ولاتمل تلاوته ، تضطرب منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله بالرحمة وعموم المغفرة . ذكر أنهار الجنة وغرفها فناسب أن يذكر نعم الأرض ، كأن الله يقول لنا : « هل شاقكم نعيم الجنان ، هل أحببتم الغرف التى فوقها غرف مبنية ، هل تفرحون بأنهار الجنة وأشجارها ؟ اذا كان كذلك وهوحقا مافطرتم عليه فانظروا أنهارى فى أرضكم وتعجبوا من المطر النازل من السماء والمسالك والمجارى والعروق التى تخللت أرضكم وقد تنوّعت تلك الينابيع وتنوّعت خواصها وأنبتت الزرع والكلأ والخصب ونفعت نفعا كثيرا ، اذا فكرتم فى ذلك فان قلوبكم تنشرح للحكمة والعلم وتستنير بصائركم بالأنوار الربانية ، فاقرؤا القرآن فهو أحسن الحديث لفظا ومعنى ، ذلك هو السبيل المستقيم لدخول الجنة والتمتع بغرفها وأنهارها وأشجارها ، فالأنهار والزروع كما تبق بها الأجسام ترق بها العقول ، فالعقل بالتفكر والجسم بالغذاء والدواء » فانظر كيف جعل الله جنات الدنيا وحدائقها أسبابا لجنات الآخرة وغرفها . أنظر كيف كان التفكر فى جنات الأرض سعادة نفسية كما أن الانتفاع بها سعادة جسمية ونتيجة ذلك دخول الجنة . فياليت شعرى كيف أعرض المسلمون وغفلوا . جنات فى الدنيا أمروا بالتفكر فيها ولاتفكر فيها إلا بوجودها . اللهم أزل الجهالة من بلاد الاسلام وأذقهم نعمك كما ذاقوا مرارة النقمة والاذلال ـ إنك أنت السميع العليم ـ

ذلك قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) أى المطر (فسلكه) فأدخله (ينابيع فى الأرض) عيونا ومسالك ومجارى كما يرى للانسان عروق ومسالك فى جسده أى حال كونه ينابيع (ثم يخرج به) بالماء (زرعا مختلفا ألوانه) هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة و بياض وكونه برا وشعيرا وسمسما ودواء وغذاء الى ما لاحصر له (ثم يهيج) يجف (فتراه مصفرا) بعد نضارته وحسنه (ثم يجعله حطاما) فتاتا متكسرا فالحطام كل ماتفتت من نبت وغيره (إن فى ذلك لذكرى) لتذكيرا بحكمة الصانع (لأولى الألباب) الذين تقدم القول فيهم انهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأن الله هداهم ومن هدايته لهم انهم يتفكرون فى هذه العجائب

﴿ لطيفة فى المياه والينابيع ﴾

(الماء الصالح للشرب)

اعلم أن الله عزّ وجل جعل الماء الصالح للشرب محتويا على ماينفع الجسم من الموادّ الغريبة عنه مثال ذلك :

(١) أملاح قليلة مركبة من الكربون والكالسيوم
(٢) وأخرى مركبة من الكربون أيضا والمغنسيوم
(٣) وقليل من الفلور
(٤) والكلور كل منهما مركب مع مادّة أخرى
(٥) والسليس

ومما يلزم فى الماء الصالح للشرب :

(١) أن يكون باردا
(٢) وطعمه خفيف
(٣) ومذيب لمقدار من الهواء
(٤) ومذيب للصابون
(٥) ومنضج للبقول

ويجب أن لاتزيد الأملاح فى الماء عن (٥٠) سنتى جراما فى اللتر الواحد . وهذه المواد الداخلة فى الماء قد جعلها الله فيه لأن البنية تحتاج اليها والأغذية لاتحتوى على مقدار كاف منها . فانظر كيف جعل الله الكالسيوم المركب مع الكربون والمغنسيوم المركب أيضا ومركبات من الكلور ومن الفلور ومن السليس

انظر كيف جعلها فى الماء الذى نشربه ونحن لاعلم لنا بها . وجعل احتواء الماء على هذه شرطا لانتفاعنا بالماء . فاذا نقصت هذه المواد قل انتفاعنا بالماء . واذا زادت كانت المياه ضارة بنا ولم تصلح لشربنا

﴿ المياه المعدنية ﴾

انظر الى الينابيع فى الأرض كيف جعلها الله لتنويع المياه . فبينما الماء ينزل من السماء مطرا اذا هو فى الأنهر جاريا ساقيا للزرع اذا هو فى مجار تحت الأرض يجرى والناس من فوقها لايعلمون وانما يحفرون الآبار فتخرج مياه من تلك المجارى فيجدونها مختلفة الصفات وبها يتداوون ومنها يشربون . وكثيرا مايستخرجون من تلك المياه أملاحا نافعة فى الصنائع

(١) — ﴿ المياه الحارة : مثل ماء فيشى ﴾

ومن المياه ماتكون حرارتها مرتفعة عن درجة الحرارة الاعتيادية لكونها آتية من أغوار الأرض أو لكونها بالقرب من البراكين . فهذه المياه تسمى بالمياه المعدنية الحارة وذلك كمياه فيشى التى درجة حرارتها (٤٥) واعلم أن الأسماء المعدنية تختلف تسميتها بحسب المعادن التى فيها

(٢) — ﴿ المياه الغازية والمياه الحمضية التى تفور بتعرضها للهواء ﴾

تلك مياه فيها حمض الكربونيك ذائبا ومركبات كربونية قلوية أيضا وملح الطعام والحديد المركب مع الكربون ومثل هذه تفور متى تعرضت للهواء . وذلك مثل ماء سلس

(٣) — ﴿ المياه القلويه : ماء فيشى ﴾

يكون فيها مركبات الصوديوم و بعض مركبات الكربون

(٤) — ﴿ المياه الكلوريه ﴾

يكون فيها ملح الطعام ومركب الكلور مع البوتاسيوم والكالسيوم والمغنسيوم وهكذا

(٥) — ﴿ المياه الكبريتية ﴾

مثل مياه مدينة حلوان . ففيها مركبات الكبريت المختلفة

(٦) — ﴿ المياه الحديدية ﴾

كمياه (أورتزا) فيها حديد متحد بالكربون

فتعجب من هذه المياه المختلفة الآتية من الينابيع وانظر قوله تعالى ـ فسلكه ينابيع فى الأرض ـ وتعجب كيف كان فى تلك الينابيع حديد أوكبريت أوكلور والكلور قد علمت فيما مضى انه أحد العنصرين المركب منهما ملح الطعام . أوكربون وهو المادة الفحمية أوغيرهما من المعادن

انظر كيف تسمع الناس فى مصر وغير مصر يقولون : تعال لنستشفى بماء فيشى أو بماء حلوان أو بالمياه الكلوريه وهم غافلون . لقد صرف الله الماء للناس ليتذكروا . انظر كيف نوع الماء لنستشفى به ! ينظر

الانسان فيرى الماء قد تغلغل بباطن الأرض وجرى فى عروقها ومجاريها ومرّ على مركبات حديدية وكبريتية وأخرى مغنيسية وأخرى كلورية . فيظن لأوّل وهلة أن ذلك رمية من غير رام حتى اذا نظر نتائجها من أنواع الأدوية عرف أن ذلك كان لحكمة مقصودة . هذا معنى قوله تعالى ـ فسلكه ينابيع فى الأرض ـ أى ان تلك المنافع التى ترونها فى ماء حلوان وفى ماء فيشى وفى ماء كرلسباد المحتوى على مركب من الكبريت والصوديوم وأمثالها لم تكن مصادفة بل أنا الذى أدخلتها فى الأرض وأمررتها على تلك العناصر وجعلت ذلك للمداواة من الأمراض المختلفة . وانما فعلت ذلك لتتفكروا لتتأهلوا لعالم أرقى من عالمكم الأرضى

فهذا هو معنى قوله تعالى ـ إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ـ فأولوا الألباب هم الذين يعقلون ذلك من وجهين : من وجه المنفعة المادّية . ومن وجه المنفعة العقلية . فالمسلمون اليوم عالة على أوروبا فى هذه المياه وغيرها . فلاهم درسوها وعقلوها . ولاهم استخرجوها وانتفعوا بها . والأمران متلازمان وانما يقلدون الفرنجة فيها وهم غافلون وحسبنا الله ونعم الوكيل

لقد غفل أكثر العلماء فنسج المسلمون على منوالهم وناموا . فليبين قارئ هذا التفسير للناس عجائب الدنيا حتى يدرسوها وينتفعوا بها ويرتقوا الى الله بالتأمل فى محاسنها . أما الاتكال على الفرنجة فانه عار وأى عار . فأين أولوا الألباب إذن فى الاسلام وأين تذكرهم ؟

لابد انك أيها الذكىّ انشرح صدرك لما رأيت فى الماء من العجائب ولما أدركت من الحكم العجيبة ، لذلك أردفه سبحانه وتعالى بقوله (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) أى بيان وبصيرة أى أفمن دخل النور قلبه فانشرح وانفسح للاسلام لما يرى من تلك البدائع والعجائب المهيئة للحكمة فاهتدى بها كمن طبع على قلبه لغفلته وجهالته * وورد أن علامة ذلك الانشراح الانابة الى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت ، وقوله (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) دليل على المحذوف الذى قدرته فى الجملة السابقة . وقوله ـ من ذكر الله ـ أى من ترك ذكر الله (أولئك فى ضلال مبين) غواية ظاهرة (الله نزّل أحسن الحديث) حال كونه (كتابا متشابها) يشبه بعضه بعضا فى الصدق والبيان والوعظ والحكمة والاعجاز وما أشبه ذلك كما تتشابه أجزاء الماء والهواء وأجزاء النبات والزهر وأبنية الحيوان (مثانى) تثنى وتردّد قصصه وأنباؤه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه وهذا ايضاح لكونه متشابها ، فكما انك تجد فى جميع أجزاء الهواء والماء والنبات والحيوان للموادّ التى تركب منها بلاخطأ ولاخلل فلاهواء ولاماء ولانبات إلا وأنت واجد فى كل جزء منه الأجزاء التى تركب منها وذلك دليل على الاتقان وعدم الخلل والخطأ ، هكذا الكلام الصادق المسوق لغرض واحد تراه أينما حللته يرجع الى الامور التى اذا ركبت وأدرجت فيه تنتج الغرض الذى سيق له الكلام

﴿ حكمة ألمانية ﴾

قال لى أحد الأصدقاء يوما وقد كان فى بلاد ألمانيا : أنا قرأت حكمة باللغة الألمانية وهى : « يجب على المؤلف أن يظهر فى كتابه كما ظهر الله فى مصنوعاته » فما معنى هذا ؟ قلت معناه أن يكون المؤلف له غرض يرمى اليه وقد مزج الفكرة بنفسه بحيث يتصرّف فى القول والمعنى تصرّف الله فى المادة حتى انك لترى مقتسماتها ترمى لغايات معلومة ، هكذا الكتاب يجب أن يكون مؤلفه أشبه بناسج الثوب ينسج على منواله وأن يفعل فيه فعل الجسم الانسانى فى التصرّف فى الطعام وفعل النحلة حوّلت رحيق الأزهار الى عسل بهيئة منظمة بحيث يحوّل مايقرؤه ويفكر فيه الى صورة ترسمها نفسه كما يحوّل النبات صور العناصر الأرضية الى الهيئة النباتية فتضيع سائر صفات العناصر وتحدث صفات جديدة . فهذا معنى التشابه المذكور فى الآية ولذلك قال

تعالى

تعالى – ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا – وقد عرفت الاختلاف فانك اذا ألفت كتابا ووضعت فيه أنواعا من السير والأحكام ولكنك لم تصقل ذلك بصقالك أنت كانت تلك القصص والأحكام غير متسقة ولامنظمة ونفرت منها النفوس، ولم تؤد الى الغرض المطلوب كما اذا بقيت المواد الأرضية والهوائية مفرقة غير متحدة فى الصورة النباتية فانها لاتؤدى المقصود من النبات بل هى تراب وطين مثلا تستعمل لما له التراب والطين، وقوله (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) أى تضطرب وتشمئز وتأخذهم قشعريرة وهى تغير يحدث فى جلد الانسان عند ذكر الوعيد والوجل والخوف وكذلك القلوب، وقوله (ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) أى بالرحمة وعموم المغفرة، فاذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت الجلود ووجلت القلوب، واذا ذكرت آيات الرحمة والوعد لانت الجلود وسكنت القلوب، ومن أين يكون هذا لولم يكن القرآن متشابها بالمعنى الذى عرفته ولولم يكن متشابها مثانى على وتيرة واحدة لم يحدث ملك الآثار فى القلوب كما لايحدث النبات آثاره المغذية مثلا إلا بذلك التشابه، وعلى المؤلفين فى أمة الاسلام أن ينحوا نحو القرآن بحيث تكون نفوسهم متأثرة بما يكتبون عاقلة له فانها لامحالة تحدث أثرا فى نفس السامعين وهذا هو قوله تعالى – وما أنا من المتكلفين – فان المتكلف فى القول لايؤثر فى سامعه ولايحدث فى النفوس خوفا ولارجاء لأن القول مصحوب بآثار نفس القائل، وليس معنى هذا أن تكون بليغا كالقرآن بل أن تتخلق بأخلاق الله ورسوله ويكون تأليفك بناء على شوق ووجدان فى نفسك والا فلا يفيد (ذلك) الكتاب أو الكائن من الخشية والرجاء (هدى الله يهدى به من يشاء) هدايته (ومن يضلل الله) ومن يخذله (فما له من هاد) يخرجه من الضلالة الى الحق

﴿ ذكر عذاب الظالمين فى الدنيا والآخرة ﴾

قال تعالى (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) كمن هو آمن أى ان الانسان يتقى المخاوف بيديه صيانة لوجهه، فاذا كان هؤلاء الظالمون فى النار وغلت أيديهم الى أعناقهم فانهم لايتقون النار إلا بوجوههم (وقيل للظالمين) أى قيل لهم فوضع الظاهر موضع المضمر (ذوقوا ما كنتم تكسبون) أى وباله (كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لايشعرون) أى من الجهة التى لايخطر ببالهم أن الشر يأتى من جهتها (فأذاقهم الله الخزى) الذل والصغار كالمسخ والخسف والقتل فى الحياة الدنيا (ولعذاب الآخرة أكبر) من عذاب الدنيا (لو كانوا يعلمون) لآمنوا، أو لو كانوا من أهل العلم والنظر لعلموا ذلك واعتبروا (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) يبنا للناس فيه من كل وجه (لعلهم يتذكرون) أى لكى يتعظوا (قرآنا عربيا) منصوب على المدح مستقيما (غير ذى عوج) بريئا من التناقض (لعلهم يتقون) الكفر والمعاصى

﴿ ضرب مثل لحال المشركين والمؤمنين ﴾

قال تعالى (ضرب الله مثلا رجلا) بدل و (فيه شركاء متشاكسون) متنازعون مختلفون (ورجلا سلما لرجل) أى ذا خلوص له من الشركة سالما (هل يستويان مثلا) أى صفة أى هل تستوى صفتاهما وحالاهما (الحمد لله) الذى لا إله إلا هو (بل أكثرهم لايعلمون) فيشركون به غيره، هذا مثل ضربه الله للعابد والمعبودين له بعبد اشترك فيه شركاء فتنازعوه واختلفوا وكل واحد يدعى انه عبده ويستخدمونه فى مهن شتى وهو متحير لايدرى أيهم يرضى بخدمته، وعلى أيهم يعتمد فى حاجاته، ومن منهم يرزقه، ومن منهم يداويه، فهو أبدا فى حيرة، وشبه المؤمن بعبد له سيد واحد فهمه واحد وقلبه مجتمع لامفرق

﴿ لطيفة ﴾

اعلم أن هذا المثل وان ورد فى الكفر والايمان يعلمنا كيف يكون الانسان سعيدا فى الدنيا، وذلك انه

لاسعادة إلا بجمع الهمّ على أمر واحد ، ذلك ان حاجات الانسان لاتكاد تحصر وخطيئاته وسيئاته ومايعتوره من مصائب الدهر كل صباح وكل مساء ، فاذا تفرّق همه على تلك الوجوه كلها تقطع وعاش فى غاية الشقاء وانما يسعد الانسان اذا عمل كل مافى طاقته ثم هو يكل نتائج الأعمال الى الله وما نابه من مصيبة يحتملها ويصبر عليها ويجزم بأنها أجنحة يطير بها الى العلا ، وما نال من نعمة يحمد الله عليها ويتخذها ذريعة لارتقاء نفسه بالعمل الصالح فيكون شكره على النعمة وصبره على النقمة موجهين لغرض واحد ، فتى نال الانسان هذه المرتبة أصبح سعيدا ، بل متى أدرك أن هذه الدنيا والآخرة وهذه العوالم كلها كأنها جسم واحد بنظام واحد وهو واثق أن ذلك النظام فى غاية الكمال وأن كل دابة أوانسان اذا لم يكن على ماهو عليه كان النظام خطأ ، فاذا أيقن الانسان بذلك لكثرة الدراسة العلمية والتفكر أصبح لايحزن على فائت ولاينتظر غائبا ولا يبالى بمستقبل ولاماض ويصبح وهو راض بكل مايكون سعيد بهذا الرضا ، واعلم أن هذه المرتبة قلما ينالها الانسان فى هذه الحياة ، بل تمرّ غالبا كبرق خاطف أوكفواق ناقة أوجلسة خطيب ، ثم يغلب الطبع على الانسان فيحزن ويفرح ويألم ويرجو ويخاف كسائر الناس ، ويندر من تصير هذه له ملكة راسخة ، ويقلّ من تلازمه فى أغلب الأوقات ، ثم قال تعالى (إنك ميت وانهم ميتون) أى بصدد الموت أوفى عداد الموتى (ثم إنكم) أى إنك واياهم (يوم القيامة عند ربكم تختصمون) فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذّبوا ويعتذرون هم بما لاطائل تحته ، ويقول التابعون للرؤساء أطعناكم فأضللتمونا ، وتقول السادة أغوانا الشياطين وآباؤنا الأوّلون ، ويحتج بعض الأصحاب بأنهم مع ابن عم رسول الله ﷺ وقتلوا أعداءهم على هذا التأويل ، ويحتج أصحاب معاوية بانهم يأخذون بدم عثمان ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يرون أن هذه الآية نزلت فى المسلمين وأهل الكتاب فلما كان يوم صفين ويوم عثمان عرفوا انها فى المسلمين أيضا . وفى حديث البخارى أن النبى ﷺ قال : «من كان عنده مظلمة لأخيه من عرض أومال فليتحلله اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولادرهم ان كان له عمل صالح أخذ منه بقدرمظلمته وان لم يكن له حسنات أخذ من سيآت صاحبه فحملت عليه» وفى مسلم انه ﷺ قال : «أتدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لادرهم له ولامتاع . قال إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار»

﴿ ذكر الصادقين والكاذبين ﴾

قال تعالى (فمن أظلم ممن كذب على الله) باضافة الولد والشريك اليه (وكذّب بالصدق) وهوماجاء به محمد ﷺ (إذ جاءه) من غير توقف وتفكر فى أمره (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) المثوى المنزلة والمقام أى يكفيهم ذلك مجازاة لأعمالهم (والذى جاء بالصدق وصدّق به) الذى جاء بالصدق الأنبياء والذى صدّق به المؤمنون وكذلك ملائكة الوحى والأنبياء (أولئك هم المتقون) الذين اتقوا الشرك (لهم مايشاؤن عند ربهم) من الجزاء والكرامة (ذلك جزاء المحسنين) فى أقوالهم وأفعالهم (ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا) أى يستره عليهم بالمغفرة (ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) أى يجزيهم بمحاسن أعمالهم ولايجزيهم بمساويها ، أو يجعل لهم بمحاسن أعمالهم مثل أحسنها فى زيادة الأجر وعظمه لفرط اخلاصهم فيها (أليس الله بكاف عبده) استفهام انكارى للتقرير أى جنس العبد فيشمله ﷺ والأنبياء والمؤمنين وهذا كقوله تعالى ـ إنا كفيناك المستهزئين ـ وقوله (ويخوّفونك بالذين من دونه) يعنى قريشا فانهم قالوا له إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا بعيبك إياها . وأيضا بعث ﷺ خالدا ليكسر العزّى فقال له سادنها أحذركها

إن لها شدة فعمد اليها خالد فهشم أنفها . فكأنهم لما خوفوا خالدا خوفوا من أرسله وهوالنبى ﷺ (ومن يضلل الله) حتى غفل عن كفاية الله له وخوفه بما لاينفع ولا يضر (فماله من هاد) يهديه الى الرشاد (ومن يهد الله فماله من مضل) إذ لاراد لفعله كما قال تعالى (أليس الله بعزيز) غالب منيع (ذى انتقام) ينتقم من أعدائه

﴿ تقرير الآية السابقة باللاحقة ﴾

وهى قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) لوضوح ذلك بالبرهان (قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره) أى أرأيتم بعد ماتبين لكم أن الله هوخالق العوالم كلها . ان آلهتكم إن أراد الله أن يصيبنى بضر هل هن يكشفنه (أو أرادنى برحمة) بعافية (هل هن ممسكات رحمته) مانعاتها عنى حتى تأمرونى بعبادتها (قل) يامحمد (حسبى الله) أى هو ثقتى وعليه اعتمادى (عليه يتوكل المتوكلون) لعلمهم بأن الكل منه تعالى (قل ياقوم اعملوا على مكانتكم) حالكم أى اجتهدوا فى أنواع مكركم وكيدكم وهذا تهديدلهم (إنى عامل) فيما أمرت به من إقامة الدين (فسوف تعلمون * من يأتيه عذاب يخزيه) أنا أم أنتم (ويحل عليه عذاب مقيم) دائم وهذا تهديد وتخويف (إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس) لأجلهم ملتبسا (بالحق فمن اهتدى فلنفسه) إذ نفع به نفسه (ومن ضل فانما يضل عليها) أى فان وباله لايتخطاها (وما أنت عليهم بوكيل) أى وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى وانما أمرت بالبلاغ وقد بلغت

﴿ ذكر النوم والموت ﴾

قال تعالى (الله يتوفى الأنفس) الأرواح (حين موتها) أى يقبضها عند انقضاء أجلها وهوموت الأجساد (والتى لم تمت فى منامها) ومعنى ذلك انه يقبضها عن الأبدان ويقطع صلتها بها ظاهرا وباطنا عند الموت ، وظاهرا فقط عند النوم (فيمسك التى قضى عليها الموت) فلايردها الى البدن (ويرسل الأخرى) وهى النائمة الى البدن عند اليقظة (الى أجل مسمى) هو وقت الموت * روى عن ابن عباس انه قال : « إن فى ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التى بها العقل والتمييز والروح التى بها النفس والحياة فتتوفيان عند الموت وتوفى النفس وحدها عند النوم (إن فى ذلك) التوفى والامساك والارسال (لآيات) على كمال الحكمة والاتقان وشمول الرحمة وعمومها (لقوم يتفكرون) فى كيفية تعلقها بالأبدان وتوفيها عنها بالكلية حين الموت وامساكها باقية لاتفنى بفناء الأجساد وما يعتريها من السعادة والشقاوة ، وكيف تتوفى ظاهرا حينا بعد حين الى انقضاء الآجال * وعن على كرم الله وجهه قال : « تخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعها فى الجسد فبذلك يرى الرؤيا فاذا انتبه من النوم عاد الروح الى جسده بأسرع من لحظة » * وعن سعيد بن جبير : « ان أرواح الأحياء وأرواح الأموات تلتقى فى المنام فيتعارف منها ماشاء الله أن يتعارف فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجسادها الى انقضاء مدة حياتها »

﴿ لطيفة فى معجزات القرآن فى هذا الزمان بمناسبة هذه الآية ﴾

أذكر لك بمناسبة هذه الأحاديث والآية ماقيل عن الأرواح فى هذا الزمان لتعجب كل العجب من قول سعيد بن جبير : « ان أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى حال النوم » ومن موافقته للعلم الحديث ، فهاك مقالة لروح مستحضرة فى المجامع النفسية . قالت ماملخصه : « اذا نام الانسان انطلقت روحه من البدن وازدادت قواها عما فى اليقظة فتتذكر شيأ من ماضيها وتكشف بعض المستقبل وتناجى الأرواح الأخرى فى هذا العالم وفى سواه ، ألاترى الى الأحلام البعيدة التصديق انها ذكرى أماكن وأشياء كان رآها الانسان

أوسوف يراها فى عالم البرزخ بعد هذه الأرض ، والروح غالبا وقت النوم يبحث عن ماضيه ومستقبله . ثم قال : ما أشد جهلكم يابنى آدم ، تجهلون أسهل الامور ، يسألكم بنوكم : ماذا نستفيد من النوم ؟ وماهى أحلامنا ؟ فترتبكون مع انكم تدعون انكم تعرفون كل شئ ، إن النوم يحل النفس قليلا من البدن فيكون الانسان وقت النوم أشبه به بعد الموت من بعض الوجوه وكل من كان أكثر استحضارا واستذكارا لما رأى فى المنام يكون أسهل انحلالا عند الموت والعكس ، فأمثال هؤلاء ينضمون وقت النوم الى جماعة الأرواح العلوية وينتفعون بأحاديثهم وتعاليمهم ، وهذا ينزع عنكم خوف الموت لأنكم تموتون كل ليلة على حسب قول أحد الأبرار (يريد سيدنا محمدا ﷺ فى القرآن) . قال : وكلامى هذا عن الأرواح العلوية ، وأما عامة الناس الذين تبقى أرواحهم بعد الموت ساعات وأياما على حالة الاضطراب المعلومة لكم فى الاستحضار للميتين حديثا فهؤلاء قلما ينتبهون لما يعملون وقت الرقاد . وكم من امرئ يقابل امرأ فى النهار فيرى فى قلبه انقباضا . لماذا ؟ لأنه قد يكون اطلع على أحاديثه وقت النوم فوجده يبغضه . ويرى آخر فيقابله بلهف وشوق نهارا . لماذا ؟ لأنه قضى معه وقت الرقاد ساعات فى صفاء وسرور . ثم قال : وبالاختصار إن للنوم أثرا فى حياتكم اليومية وأنتم لاتشعرون . ثم قال : فالنوم للأرواح العلوية التى فى الأجساد باب للناموس والمنهاج المؤدى الى السماء حتى يوافيها الأجل وتعود الى مقرها السعيد . ثم قال الروح : والحلم تذكر الانسان مارآه وقت الرقاد . فلستم تحلمون دائما لأنكم لاتتذكرون دائما مارأيتموه وانما تذكرون مايعرض لكم فى حال الاضطراب الملازمة لمبارحة الروح وعودتها الى الجسد . ويضاف الى ذلك أمور أخرى مما تصنعونه وقت اليقظة ومشاغل الأفكار وذلك هو الباعث لتلك الأحلام التى يراها الجاهل والعالم على حد سواء بلا فائدة . وربما كانت تلك الأحلام كرواية حذف منها جمل متعددة فما بقى منه أصبح لاسياق له . وتستخدم الأرواح الشريرة أحيانا الأحلام لتنكيد الأنفس الضعيفة » انتهى ملخصا

فعلى هذا تكون الأحلام إما أفكارا أومشاغل ازدحمت واما مسائل منتظمة ولكن حذف منها كثير فصارت لامعنى لها واما مغامز شيطانية لإخافة النفوس الضعيفة . فأما الأرواح الشريفة فانها تنتفع وان لم تعلم شيأ عن ذلك بالنهار . إن رواية سعيد بن جبير من مقابلة أرواح الأحياء للأموات هى عينها ماقرأته عن نفس الأرواح . أليس هذا من العجب . أليس ظهور هذا منسوبا للأرواح معجزة للنبى ﷺ . إن عقولنا لا يمكنها أن تفهم أن أرواحنا تحادث أرواح الأموات . عقولنا لادليل عندها على ذلك وقرأنا الأحاديث فوجدناها تقول ذلك . وهانحن أولاء نرى مطابقة العلم الحديث ومحادثة الأرواح لهذا المنقول . إن هذا هو المعجزة وهذا معنى قوله تعالى ـ ولتعلمن نبأه بعد حين ـ

ثم قال تعالى (أم اتخذوا من دون الله شفعاء) هى الأصنام (قل) يامحمد لهم أتتخذونهم شفعاء (أولو كانوا) أى الآلهة (لايملكون شيأ) من الشفاعة (ولايعقلون) انكم تعبدونهم (قل لله الشفاعة جميعا) أى لايشفع أحد إلا باذنه فلتكن العبادة له لأنه هو الشفيع فى الحقيقة لأنه هو الآذن فى الشفاعة لمن يشاء من عباده (له ملك السموات والأرض) لاملك لسواه (ثم اليه ترجعون) فى الآخرة (واذا ذكر الله وحده اشمأزت) نفرت وانقبضت عن التوحيد أواستكبرت (قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه) يعنى الأصنام (اذاهم يستبشرون) يفرحون والاستبشار أن يمتلئ القلب سرورا حتى يظهر على الوجه فيتهلل (قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة) فهو موصوف بكمال العلم والقدرة (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين . عن ابن المسيب : « لا أعرف آية قرئت فدعى عندها إلا أجيب سواها » وعن الربيع بن خيثم وكان قليل الكلام انه أخبر بقتل الحسين رضى الله عنه وقالوا الآن يتكلم فما زاد أن قال : آه أوقد فعلوا وقرأ هذه الآية . وفى حديث مسلم انه ﷺ يفتتح صلاته

اذا

اذا قام من الليل فيقول : اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك إنك تهدى من تشاء الى صراط مستقيم اه

ثم قال تعالى (ولوأنّ للذين ظلموا مافي الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة) هذا إقناط لهم من الخلاص (وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون) وهذا فى مقابلة - فلاتعلم نفس ماأخفى لهم من قرّة أعين - (وبدا لهم سيآت ما كسبوا) أى سيآت أعمالهم (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) أى وأحاط بهم جزاؤه ، ثم اعلم أنّ قوله تعالى - واذا ذكر الله وحده اشمأزّت - الخ جاءت الآيات بعدها اعتراضية وعطف عليها بالفاء قوله (فاذا مسّ الانسان ضرّ دعانا ثم اذا خوّلناه نعمة منا) أى أعطيناه إياها تفضلا فان التخويل مختص به (قال انما أوتيته على علم) أى على علم منى بوجوه كسبه أولأنى أستحقه ، فمثل هؤلاء القوم اذا ذكر الله وحده اشمأزوا واذا ذكر سواه استبشروا مع انهم اذا مسهم الضرّ ذكروا من اشمأزّوا من ذكره ، واذا آتاهم نعمة ادّعوا انها باستحقاقهم ومن كسبهم (بل هى فتنة) أى امتحان له أيشكرأم يكفر فكيف يدّعى انه أوتيها على علم (ولكنّ أكثرهم لايعلمون) ذلك (قد قالها الذين من قبلهم) أى قال انما أوتيته على علم كقارون ومن معه فانه قالها ورضى بقوله من حوله فكأنهم قالوه وهكذا يدور هذا المعنى فى ذهن كل متكبر جبار من الماضين (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) من متاع الدنيا ومايجمعون منها (فأصابهم سيآت ما كسبوا) أى جزاء سيآت كسبهم (والذين ظلموا) كفروا (من هؤلاء سيصيبهم سيآت ما كسبوا) أى سيصيبهم مثل ما أصاب أولئك فقتل صناديدهم ببدر وحبس عنهم الرزق فقحطوا سبع سنين (وماهم بمعجزين) بفائتين من عذاب الله ، ثم بسط لهم الرزق سبعا فقيل لهم (أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) حيث حبس عنهم الرزق سبعا ثم بسط لهم سبعا (إنّ فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) بأن الحوادث كلها من الله وانه القابض الباسط . انتهى التفسير اللفظى

﴿ لطائف القسم الثانى من السورة ﴾

(١) فى قوله تعالى - يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل - الخ

(٢) وفى قوله - خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها - الى قوله - فى ظلمات ثلاث -

(٣) وفى قوله - قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الالباب - مع قوله - فبشر عبادِ * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه - ومع قوله - للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب -

(٤) وفى قوله - ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع - الخ

(٥) وفى قوله تعالى - ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون -

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(فى قوله تعالى - يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل -)

إن هذا المقام قد سبق شرحه فى هذا التفسير فى ﴿ سورة البقرة ﴾ وفى سور كثيرة بعدها فارجع اليه تره سهلا مبسوطا على قدر مايحتمله هذا الكتاب

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(فى قوله تعالى — خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها —)

هذا المقام مشروح مبسوط فى أول ﴿ سورة النساء ﴾ فارجع اليه وفى سور بعد ذلك ، ولكن لابد من ذكر مايناسب المقام فى مسألة خلق الجنين فى بطن أمه الذى هو فى ظلمات ثلاث فأقول : لأذكر لك فى خلق الانسان خمسين حكمة :

(١) جعل أعضاءه قطعا لاقطعة واحدة ليسهل له الاعمال بها فجعلها على مقدار الحاجة من قصير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق

(٢) جعل بينها مفاصل فقدر شكل كل واحد منها على قدر وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتاد أنبتها بأحد طرفى العظم وألصق الطرف الآخر بها كالرباط

(٣) ثم خلق فى أحد طرفى العظم زوائد خارجة منها ومن الآخر نقرا غائصة فيها أشكال الزوائد لتدخل فيها وتنطبق

(٤) فبهذا صار الانسان يقدر على تحريك شئ من جسده دون غيره فلولا حكمة تلك المفاصل لتعذر عليه ذلك

(٥) الرأس مركب من عظام مختلفة الأشكال والصور وقد ألف بعضها الى بعض بحيث استوت كرة الرأس فمنها ستة تختص بالقحف والباقى فى الأسنان وهى ٣٢ وفى اللحى الأسفل والأعلى

(٦) وجعل الرقبة مركبة من سبع خرزات مجوفات مستديرات منطبقات على بعضها متصلة بالظهر وعظم العجز والعصعص ، ووصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف واليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، هذه كلها اتصلت ببعضها وهى ٢٤٨ عظما سوى العظام الصغيرة التى جعلت ليحشى بها خلل المفاصل

(٧) وخلق العين لها أشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويغلق فى غير وقتها

(٨) الأشفار جمال للعين

(٩) شعرها لايزيد ولاينقص ، فلو زاد لأضر بالعين وكذلك لونقص

(١٠) فى مائها ملوحة لتقطيع مايقع فيها

(١١) الحاجبان جمال للوجه أيضا

(١٢) وستر للعين

(١٣) شعرهما كشعر الأهداب لايزيد لئلا يكون تشويها وان نقص ذهب الجمال وقلت الفائدة للعين لأنه يحجب الضوء ويقلله

(١٤) ولما كانت اللحية وشعر الرأس زيادتهما ونقصهما موكلان للانسان حتى اذا كان الجمال فى طولها أوفى قصرهما فعل الانسان مايراه مناسبا للوسط الذى عاش فيه . لما كان كذلك جعلا قابلين للزيادة وللنقص . فاذن جمال الأهداب والحواجب ثابت عند جميع نوع الانسان . وجمال الرأس واللحية موكل للانسان أمره فيتركه ليطول أو يقصره

(١٥) الشفتان ستر للفم وهما كباب يغلق وقت ارتفاع الحاجة الى فتحه

(١٦) وهذا الباب ستر على اللثة والأسنان

(١٧) هما تفيدان الجمال ولولا ذلك لتشوه الخلق

(١٨) هما تعينان على الكلام
(١٩) اللسان للنطق والتعبير عما فى الضمير
(٢٠) ولتقليب الطعام ولالقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه ويسهل ابتلاعه
(٢١) الأسنان مفرّقة وليست عظما واحدا فان تلف بعضها صلح الباقى
(٢٢) جمع فيها بين النفع والجمال
(٢٣) جعلت صلبة
(٢٤) جعل فى الأضراس كبر وفيها مايشبه الزوائد لأجل درس الغذاء فان المضغ هو الهضم الأوّل
(٢٥) الثنايا والأنياب لتقطيع الطعام مع الجمال
(٢٦) بيض لونها مع حمرة ماحولها
(٢٧) تساوت رءوسها كأنها الدّر المنظوم
(٢٨) فى الفم نداوة محسوسة لاتظهر إلا فى وقت الحاجة فلوانها ظهرت وسالت لكان تشويها للانسان فجعلت ليبلّ بها الطعام حتى يسهل تسويغه من غير عنت ولاألم
(٢٩) فاذا لم يكن أكل ذهب من الريق ماكان زائدا وبقى ماهو للترطيب
(٣٠) الذى بقى للترطيب يبل اللهوات والحلق لأجل الكلام ولئلا يجف ولوجفّ لهلك الانسان
(٣١) الذوق جعل فى اللسان ليعرف مايوافقه ويلائمه فما وافقه قبله واجتنب مالايوافق ، ولولا ذلك لم يفرق الانسان بين الملائم وغير الملائم فيموت ، فالذوق كخفير النحل الذى يجعل عند باب الخلية ليمنع الأجنبى عن الدخول
(٣٢) يعرف مقدار الحرارة والبرودة
(٣٣) شقّ السمع وجعل فيه رطوبة مرّة لتحفظه من الدود ، ويقتل أكثر الهوام التى تريد أن تلج الى السمع
(٣٤) حفظ الأذن بصدفة تجمع الصوت فتردّه الى صماخيها
(٣٥) وفيه زيادة حسّ لتحسّ بما يصل اليها مما يؤذيها من هوام وغيرها
(٣٦) وجعل فيها تعاريج لترديد الصوت ولتكثر حركة مايدب فيها ويطول طريقه فيتنبه صاحبها من النوم . وهناك معان عجيبة فى الأذن تقرؤها فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ فارجع اليها تجد هناك شرح العين وشرح الأذن شرحا وافيا . أما هنا فانما هى ظواهر
(٣٧) جعل الحنجرة مهيأة لخروج الأصوات ودوّر اللسان فى الحركات والتقطيعات فيقطع الصوت فى مجار مختلفة تختلف بها الحروف لتسع طرق النطق
(٣٨) جعل الحنجرة مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسبب ذلك الأصوات فلم يتشابه صوتان
(٣٩) هكذا خلق بين كل صورتين اختلاف فلم تشتبه صورتان بل يظهر بين كل صورتين فرقان : فبالأوّل يميز السامع بين كل صوتين . وبالثانى يميز بين كل صورتين
(٤٠) خلق اليدين لأمرين : جلب المقاصد . ودفع المضارّ . وجعل الكف عريضا . وقسم الأصابع الخمس . وقسم الأصابع بأنامل . وجعل الأربعة فى جانب والابهام فى جانب فيدور الابهام على الجميع . فالابهام يدور على الأربعة والأربعة مختلفات طولا وقصرا فصلحت للقبض والاعطاء
(٤١) إن بسطها كانت طبقا يضع فيه مايريد

(٤٢) إن جمعها كانت آلة يضرب بها
(٤٣) إن ضمها ضما غير تام كانت مغرفة له
(٤٤) وان بسطها وضمّ أصابعه كانت مجرفة
(٤٥) خلق الأظفار على رؤسها زينة للأنامل وعمادا لها من ورائها حتى لاتضعف
(٤٦) يلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لاتتناولها الأنامل لولاها
(٤٧) يحكّ بها جسمه عند الحاجة الى ذلك فلوعدمها وظهرت به حكة لعجز عن دفع مايؤلمه ولايقوم غير الظفرمقامه فى حك جسده ، إنه لاصلب كصلابة العظام ، ولارخو كرخاوة الجلد ، فلذلك صلح للحك
(٤٨) والانسان يهتدى بظفره الى موضع الحاجة فى الحك ، أما غيره فلايهتدى لذلك إلابشق الأنفس
(٤٩) يطول الظفر ويقصر كما تقدم فى شعرالرأس واللحية ليبقى منه مايحتاج اليه لحاجته ويقص الباقى وهذه يقدرها الانسان باختياره وهوالذى يراعى الحاجة فى ذلك
(٥٠) كل ذلك قدّره الله للانسان وابتدأ خلقه فى بطن أمه ويولد فاقد التمييز ولو ولد عاقلا فهما لحار من هذا الوجود الذى لم يعرفه ولم يعهد مثله وهو مع ذلك يجد غضاضة أن يرى نفسه محمولا وموضوعا معصبا بالخرق ومسجى فى المهد وهو فى أشدّ الحاجة الى ذلك لضعفه فلاتهنأ له حياة ولاتحسن تربيته ، فلما خلق غير مميز سهل الأمر وأعطى التمييز شيأ فشيأ حتى يكون رجلا كبيرا

فهذه نبذة من آلاف من الحكم التى أودعها الله فى خلق الانسان ذكرناها لتكون تذكرة لك فى هذا المقام ولينشرح صدرك بالعلم وليعطيك صورة من الملاحظات الدقيقة ولترى اننا مغمورون فى حكم وعلوم وعجائب وطول الأنس بها واعطاؤها لنا دفعة واحدة هو الذى أذهلنا عن تعقلها ، فما أجمل العلم وما أبهج الحكمة ـ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ومايذكر إلا أولوا الألباب ـ

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(فى قوله تعالى ـ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ـ الخ وقوله ـ فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ـ وقوله ـ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ـ)

تبين من هذه الآيات أن العالم أفضل من غيرالعالم ولم يخص العلم بل ذكره مجردا من المفعول وجعل البشرى للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وجعل للمحسنين حسنة فى هذه الدنيا والمحسنون هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه

تبين من هذه الآيات أن العلم بجميع العلوم والصناعات مطلوب وأن المتصفين بذلك أفضل من غيرهم والعلم لا يكون مفيدا إلا اذا تولاه النقاد وبحثوا فيه ، والا فكيف يتبعون أحسنه أى كيف يتبعون أحسن القول الذى سمعوه إلا ببصيرة نقادة . اذا تمّ ذلك فان هؤلاء محسنون أحسنوا الاختيار . والمحسنون لهم فى هذه الدنيا حسنة

يا أمّة الاسلام : هذا كلام الله وهوالذى أنزله على نبيه ﷺ :

(١) فعلى المسلمين أن يكون لهم لجان تبحث فى الفنون والعلوم والصناعات بحيث يكون هؤلاء أخصائيين فى العلوم المختلفة
(٢) وهذه اللجان تستعرض جميع العلوم والفنون والصناعات التى عرفتها الأمم وجميع ما يكشفه المسلمون فى المستقبل ثم يميزون بعقولهم النيرة و بصائرهم النقادة ماهو أكثر نفعا للأمة فيأمرون باتقانه

واستعماله

واستعماله وماليس كذلك فيتركونه

(٣) يعرض على هذه اللجان علوم مافوق هذه الغبراء وماتحت الثرى من علوم الطبقات الأرضية وما فوق السموات العلى من أوضاع فلكية وكواكب درّية ومابين ذلك مما كان ومما يكون

(٤) متى حصل ذلك كان للمسلمين فى هذه الدنيا حسنة وهذه الحسنة ليست عند المسلمين الآن ولكنهم فى زمن قريب سيكون عندهم ذلك المجد الباذخ إذ ينظرون ويقرؤن ، ونعمة ربهم يتقبلون فيشكرون ، انظر تفسير قوله تعالى ـ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ـ فى سورة البقرة ، فهناك بسط المقام أوفى ، ولأكتف بهذه الجوهرة :

﴿ جوهرة فى قوله تعالى ـ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ـ ﴾

إن هذه الآية تفتح باب الموازنات بين الأمم ، فالأمة التى ارتقت بالعلم والحكمة والصناعات أقوى من الأمة الكثيرة العدد القليلة العلم والصناعة ، خذلذلك مثلا : هذه دولة اليابان منذسنين غلبت الروسيا وكانت الأولى لاتبلغ فى العدد مقدارثلث الثانية ، وهذه الأمم الأسيوية التى تعدّ بمئات الملايين أقل علما وصناعة من أوروبا والكثرة العددية لاتغنى عنها شيأ ، هذه بلاد جاوه وسومطره وماحولها من جزائر الهند الشرقية قد احتلتها هولنده التى تعدّ على أصابع اليدين أعداد الملايين وتلك الأمم تعدّ بعشرات الملايين ولكن القليل غلب الكثير وهذا مصداق الآية هنا ومصداق قوله تعالى ـ قل لايستوى الخبيث والطيب ولوأعجبك كثرة الخبيث ـ وليس معنى هذا أن هؤلاء خبثاء وهؤلاء صالحون وانما ضربنا الآية هنا مثلا لانما فهنا الاختلاف بالقوّة والضعف وهما ناشآن من العلم والجهل وهذا قوله تعالى ـ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ـ . إذن ليست الكثرة بمغنية فتيلا أمام العلم ، فهاهوذا الانسان قليل العدد أخضع الحيوان مع كثرته ، ومن عجب أن نسل الحيوانات المفترسة قليل والحيوانات التى خلقت لغذائها كثيرة الذرّية . فإذن قول الشاعر :

ولست بالأكثر منهم حصى * إنما العزّة للكاثر

لايصح إلا اذا اتفق الخصمان سلاحا وعلما ، أما اذا فاق أحدهما فى علمه وصناعته فهنالك يختل الميزان ويصدق عليهما قول الله تعالى هنا ـ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ـ

اللهم أنت العلم ولوأردت تعليم المسلمين لقيضت لهم عقولا فاهمة تقول لهم إن الفعل هنا لم يذكر معموله فأشعر بالعموم ، ونحن المسلمين أقرب الى أهل أوروبا (الذين أرسلهم الله لايقاظنا بالحرب والاحتلال) من أمة اليابان الذين قلدوهم وارتقوا مثلهم ، فهلا كان فينا رجل رشيد يعلمنا أن نعمل بهذه الآية ؟ أفليس من المخجل المعيب أن الجهل اليوم لاينطبق إلا على أمة أنزل الله فى كتابها هذه الآية ، يسمعونها وكأنهم لايسمعون ، و يقرؤنها وكأنهم لايقرؤن ، هذه الآية تُليت علينا فى كتابنا المقدّس فلم نعمل بها ولكن اليابان استخرجت معناها من عقول علمائها وعملت به فارتقت ، أما المسلمون فهم الذين ضرب المثل بجهلهم بين الأمم وقد آن أوان مجدهم ورقيهم والحمد لله رب العالمين

ثم اعلم أبدك الله أن الأمم الاسلامية أمرها عجب ، قد نامت نوما عميقا ، فان لم يقم كاتب بنصحهم لم يجاروا الأمم فى رقيها . أولايعلم المسلمون أن أمة اليابان استيقظت فى عشرات السنين ولحقت بأوروبا وكانت نهضتها مصاحبة لنهضة مصر فقد دخلت العلل فى تعاليمها فوقفت أمدا وهاهى ذه تريد ارجاع سنة الرقىّ كرة أخرى . وقد جاء فى جريدة الاهرام هذه السنة مانصه :

﴿ المحصول الأدبى فى ألمانيا ﴾

دلّ الاحصاء فى ألمانيا على أنه يوجد فى كل ٢٥٠٠ نفس شخص يستطيع أن يؤلف كتابا . وقدكان

عدد الكتب الجديدة فى ألمانيا (٢٤٨٦٠) كتابا فى سنة ١٩٢٧ فنزل هذا المقدار فى سنة ١٩٢٨ الى (٢٢٩٥١) كتابا ومع ذلك فان ألمانيا لاتزال أكثر الأمم انتاجا للكتب . ويوجد من ذلك (٤٥٠٠) مؤلف جديد فى الأدب و٢٣٠٠ فى الفنون و٢١٠٠ فى الدين و٢١٠٠ فى كل من السياسة والعلوم والاقتصاد الخ اه

واذا أردت أن أكتب فى معنى هذه الآية وجب أن استحضر كل ماتقدم فى التفسير . إذن كل ماتقدم وماسيأتى تفسير لها ، فقضية العلم والجهل قضية الحياة والموت بعينها ولكن لابد من ذكر نبذة فى الطب ، وأخرى فى الاقتصاد ، وأخرى فى التعليم العام إيفاء لبعض الحقوق التى تقتضيها الآية ، فههنا ثلاثة فصول :

﴿ الفصل الأول فى نبذة فى الطب ﴾

جاء فى جريدة الاهرام فى يوم (٩) ابريل سنة ١٩٢٩ تحت العنوان التالى مانصه :

﴿ خطر يهدد الصحة ﴾

(٣٩ مصابا من طعام واحد)

كثيرا مانقرأ فى الكتب والصحف ونسمع من أفواه رجال الصحة وغيرهم أن الوقاية خير من العلاج ! إذن كيف تكون الوقاية فى موضوعنا هذا والفقراء عديدون والجهلاء أكثر ؟ مساكين الناس وخصوصا الفقراء منهم ولاسيما الجهلاء والأطفال الذين يضطرهم الجوع والحالة الى تناول المأكولات المعروضة للبيع فى الطرقات والحوانيت المعرّضة للأتربة والميكروبات وهى التى جهزت وطهيت وعرضت للبيع بدون مراعاة للنظافة فتكون غالبا سما زعافا يودى بحياة الكثير أحيانا أوعلى الأقل يجعلهم تحت العلاج أياما

نعم مساكين هؤلاء الناس فانهم يكونون ضحية هذا الاهمال ، نعم مساكين هؤلاء الباعة أيضا لأنهم لم يعرفوا للنظافة معنى ولم يقدروا لإهمالهم نتيجة لجهلهم وغباوتهم وخصوصا اذا تركوا وشأنهم فهم أحرار فيما يعملون كأن أرواح الناس وسلامتهم ليست بشئ فى نظرهم ماداموا يربحون حتى ولوكانوا يعرفون الحقيقة فاذا طفت فى شوارع المدينة ومنها الشوارع الهامة العظيمة أوسرت فى حاراتها فانك لاتعدم رؤية هذا يبيع البقلاوة أوالبسبوسة قد سترها الذباب ، وذلك يعرض الكسكسى أوالكشرى قد غطى بطبقة من الأتربة والأوساخ . ولست فى حاجة الى التعرّض لنظافة هذا البائع الشخصية وكذا الأدوات التى يستعملها وكيف جهزت وحفظت هذه المأكولات . وحسبى فى ذلك أن يستعيد القارئ صورة من هذه الصور التى يراها أحيانا ولاسيما فى الأحياء الوطنية الفقيرة

بجوارنا رجل يبيع مثل هذه المأكولات وغيره كثير ، ولولا شدة حرصنا على سلامة التلاميذ والمحافظة على صحتهم ومنعهم ابتياع وتناول تلك المأكولات المضرّة لراحوا ضحية هذه السموم إذ أن معظم التلاميذ يخرجون من منازلهم فى الصباح ويتناولون طعام الافطار فى الخارج ، ولكن هذا البائع لم يعدم أناسا كثيرين يعرض لهم مأكولاته . وكان يوم أمس يوما تجلت فيه صورة صحيحة من هذا الضرر الذى يهدد صحة الناس ويجعلها فى خطر إذ كان يبيع كشريا كما هى عادته فلم يلبث من تناول قليلا من الطعام حتى ظهرت عليه أعراض التسمم فكنت ترى هذا يقع مغشيا عليه وآخر لايملك نفسه من القئ وثالثا يتلوى من المغص وهكذا فدعوت رجال الاسعاف الذين كانوا يعثرون على المصابين فى مختلف الشوارع المجاورة فحملوا بعضهم الى الجمعية والآخر الى مستشفى قصر العينى . ولقد كانت عربات اليد تستعمل فى نقل المصابين الى الجمعية بواسطة الأهالى وبعضهم استدعى الطبيب الى منزله . وقد بلغ عددهم جميعا تسعة وثلاثين رجلا وأطفالا وأكثرهم تحت العلاج الآن فى مستشفى قصر العينى وجمعية الاسعاف

ومن

ومن الغريب أن الناس لما حضروا الى هذا البائع ليسألوه عن معروضاته عقب الحادث قال لهم : إن حاجتى نظيفة وهاهو انظروا الىّ وأنا آكل منها ، وهنا تناول هـذا البائع من طهيه فلم يكد يستقرّ فى جوفه حتى ظهرت عليه أعراض التسمم ولحق باخوانه ، والبوليس ينتظر شفاءه لاتمام التحقيق معه ، ولعله لوسئل بعد ذلك لقرّر أن حاجته نظيفة جدا

ولقد ذكرنى هذا الحادث بحادث يضارعه فى الاسكندرية إلا ان البائع كان مفربيا اختفى قبل القبض عليه ولم يظهر له أثر ، فهل هناك علاج لهذه الحالة ؟ وهل لحضرات أصحاب الصحف الذين كرسوا حياتهم لخدمة الأمة أن يعالجوا هذا الموضوع شأنهم فى كل موضوع هام إذ الصحة أغلى شئ فى الحياة اهـ

فياليت شعرى : أليس الأمر راجعا للعلم ، فالعلم بالضارّ يمنع من تناوله . ثم انظر ماجاء أيضا فى « مجلة طبيب العائلة » تحت العنوان التالى مانصه :

﴿ مضارّ الحلوى على الأطفال ﴾

من الأسف أن أحدنا اذا مرّ بمدرسة فى الصباح قبل موعد الدخول أوعصرا عند انصراف التلاميذ الصغار بصر بهم مجتمعين حول بائع الحلوى يتنافسون فى الشراء منه غافلين عن ملايين الميكروبات التى تحط مع الذباب على الحلوى المعرّضة الغبار ولما هو أشدّ فتكا من الغبار . وليس الأمر قاصرا على هذه الجراثيم وحدها وانما هذه الحلوى فى ذاتها تضرّ بالأطفال أبلغ الضرر ولوكانت من أجود الأصناف ومن أكبرالمحال ويرجع ذلك الى أن المادّة السكرية المصنوعة منها الحلوى تهدم صحة الطفل وتسىء الى نموّه الطبيعى وتفسد عمـل الأجهزة التكوينية (وبعبارة أخرى) انه يجب أن نمنع السكر بأنواعه عن الأطفال . وعلينا أن نحثهم على تناول الفواكه فهى تحتوى المادّة السكرية الصحية فضـلا عما فيها من عناصر مفيدة للجسم كالفيتامين والحديد الخ وكذلك لا بأس من تناول العسل بنوعيه الأبيض والأسود بين فترة وأخرى دون الاكثار منهما

ومن الملاحظ أن الأطفال يحبون الفاكهة بغرائزهـم ويفضلونها على الحلوى عادة فحرىّ بنا أن نشجع فيهم هذا الميل لمنفعته الصحية فضلا عن ملاءمته لأمزجتهم

وهناك اعتقاد سائد بين الناس يقول إن الشاى يضرّ بالأطفال وهذا صحيح من جهة واحدة وذلك اذا كان الشاى من صنف ردىء لأنه يحتوى فى هذه الحالة على حامض التنيك الذى يفسد الأنسجة . أما اذا كان الشاى جيد النوع فلا بأس من شرب الأطفال منه مع مراعاة عدم الاسراف فيه يقول المؤلف . كلا . بل الأصح تركه كله

(قائمة الأكل فى المستقبل)

يعرف الناس ماتشتمل عليه قائمة الأكل التى تقدّم فى الفنادق . ويقول العلماء : « إن رجل المستقبل سيرى قائمة أخرى تختلف عن هذه كل الاختلاف فى ألوان الطعام . وقدذهب الدكتور برنار الكيماوى الانكليزى الشهير الى أن فطوره سيكون شعاع الشمس وغداءه كية من الهواء وعشاءه قدحا من ماء البحر . وعلى ذلك لن يخشى أهل المستقبل أن يعوزهم مافى الأرض من غذاء مهما كثر عددهم بل سيصبحون فى غير حاجة اليه . وسينسون مذاق الخبز واللحم . وسيكون للانسان ثلاث معدات لهضم الغذاء الذى تقدّم ذكره وان يكن يرى لأوّل وهلة أنه بسيط وليس يحتوى على مادّة جافة أوصلبة ولكن الانسان لن يلجأ الى التغذية بالتحليل الكيماوى إلا بعد عهد مديد فان البرازيل وحدها إذا أصلحت أراضيها الزراعية أمكن أن تكفى حاصلاتها ثلثى سكان الكرة الأرضية . ويوجد فى أفريقيا من الأراضى ما يكفى لأكثر من سكان الأرض الحاليين بعدّة ملايين . فاذا ازداد السكان فى الكرة الأرضية بحيث لم تف بحاجياتهم الحاصلات الزراعية أمكن الاتجاه الى التغذية الكيماوية . ويوجـد فى الأرض المواد التى تصلح للتغذية بهذه الطريقـة . انتهى ماجاء فى المجلة المذكورة والحمد لله رب العالمين . تم الفصل الأوّل

ومن أراد قراءة الطب لحفظ صحته فليرجع الى ماتقدم فى (سورة البقرة) عند آية ـ أتستبدلون الذى هو أدنى ـ الخ وآية (الأعراف) ـ وكلوا واشربوا ـ الخ وفى (سورة الحجر) عند التلميح بقصة آدم وفى (سورة طه) عند قصة آدم أيضا وفى (سورة الشعراء) عند آية ـ واذا مرضت فهو يشفين ـ ولم أذكر هذه النبذة الصغيرة إلا لأذكرك بما يكفيك فى تلك المواضع فارجع اليها إن شئت

﴿ الفصل الثانى فى الاقتصاد وفى جمع الثروة ﴾

ولاسبيل لذلك إلا بالعلم ، ولقد مضى فى هذا التفسير كثير من هذا الموضوع فاقرأه فى (سورة ابراهيم) فانك تجد تقصير المسلمين فى أرضهم وجبالهم وأنهارهم للجهل ، وتجد هناك مسألة البحر الميت الذى فيه ثروة تزيد على ماعند المسلمين فى الكرة الأرضية ، والجاهل ينظر اليه نظره الى بركة ماء منتنة حقيرة ولكن العلم هو الذى أفهمنا ذلك ، فالعالم يرى البحر الميت سعادة والجاهل لايعقل ذلك . إذن لايستوى الرجلان والمسلمون اليوم هم الأمة التى بقيت وحدها فى الجهل ولكنها اليوم استيقظت فلابد من تعميم التعليم وذلك هو الفصل الثالث الآتى قريبا

فلأذكر لك أولا التعليم فى جامعات أوروبا حتى نعرف كيف نرقى المعاهد الدينية فتشمل العلوم كلها ، ثم أتبعه بما كتبه الكتاب فى فوائد التعليم الاجبارى ، ثم ما كتبوه فى توزيع العلوم على أفراد المتعلمين :

﴿ الفصل الثالث فى التعليم ﴾

﴿ فى الجامعات الأوروبية ﴾

(حديث مع مدير جامعة لوزان)

جاء فى جريدة الاهرام فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢٩ ـ ٩ رجب سنة ١٣٤٨ مانصه

«رأيت أثناء رحلتى الصيفية أن أعرف شيئا عن أحوال الطلبة المصريين فى أوروبا فلقد زاد عددهم ، وهو ماض فى الزيادة عاما بعد عام ، بما ترسله الحكومة من البعثات العلمية سنويا وأحيانا شهريا من خريجى المدارس العليا والخصوصية ومن موظفيها وعمال ورشها ، وبالرغبة المتزايدة التى بدت من الطلبة ومن ولاة أمورهم لاشباع استعدادهم من علوم أوروبا وآدابها ولغاتها ومنتدياتها ، ومن الاتصال برجالها والوقوف على عاداتها ونظامها . وقد زرت فيما زرت جامعة لوزان والسربون وكلية الحقوق بباريس وقابلت بعض الطلبة وبعض المشرفين على أحوالهم فى أوروبا من تعليم ومسكن ومعيشة وأخلاق وارسال التقارير لوزارة المعارف أو لولاة أمورهم . يزيد عدد الطلبة المصريين فى أوروبا الآن عن الالف طالب . وأكثرهم يتعلمون الطب والصيدلة ، ويتلوهم من يتعلمون القانون ، ثم يجىء بعدهم من يتعلمون الهندسة والعلوم الطبيعية والآداب والكيمياء . ويلاحظ ان عددا قليلا من الطلبة يذهبون الى أوروبا أو يطردهم أولياء أمورهم من مصر اليها لاللعلم ، ولكن لامضاء الوقت فى اللهو والتنقل . ويهمل هؤلاء النفر اهمالا يبلغ من بعضهم انه يعيش فى باريس سنوات دون أن يحسن النطق والتخاطب والتفاهم باللغة الفرنسية . ولايعرف الا بعض ألفاظ يتعلمها أى شخص فى شهر أو شهرين ! ومن الأسف ان هذا النفر القليل ، على قلته . يضر سمعة مصر . لأنه النفر الذى يغشى الأندية والمجتمعات والملاهى . أما الأكثرية المكبة على التعليم فهى لاتختلط عادة بغير كتبها ومحاضرات أساتذتها . فلايعرف الجمهور الاوروبى الناضج منهم شيئا . ولذلك لاتستفيد مصر من اجتهاد هؤلاء من حيث تشريف سمعة مصر واكبار نبوغ أبنائها . ويلاحظ ان بعض الطلبة ، مع شديد رغبتهم فى التعليم لايكون معهم المال الكافى للدخول فى الجامعات والاستمرار . أولايكون معهم التحصيل العلمى اللازم

للدخول فى الجامعات . فيضطر هؤلاء وأولئك الى البقاء مدة بغير استفادة ؛ مع اتعاب ادارات البعثات المصرية والمفوضيات والقنصليات فى اعاتهم ونصيحتهم وكتابة الخطابات عنهم الى وزارة المعارف للتصرف فى شأنهم . كما أن الطلبة الفقراء يشغلون أنفسهم بارسال خطابات للامراء ووزارة الاوقاف وكبار الاغنياء يستجدون معونتهم ونادر جدا جدا أن يجاب ملتمسهم . ويلاحظ أيضا ان طلبة مرضى بعلل باطنية أو وقتية يأتون الى أوروبا فيزدادون ضعفا و بعضهم يموت أو يعود ضعيفا هزيلا . لهذا الفت نظر الطلبة وأولياء أمورهم الى عدم الذهاب الى الخارج من غير مال كاف وصحة وافية والا كان الذهاب مضيعا لاخلاقهم ومستقبلهم . لأنه ليس للاجنبى فى أوروبا كرامة أو فائدة الا اذا كان معه المال وليس الحال هناك كالحالة فى مصر اذ يستطيع الأجنبى المعدم أن يشتغل و يعيش بسهولة لا يجدها المصرى نفسه . وذلك لأسباب معروفة ليس هنا المحل لبيانها

زرت جامعة لوزان وهى فى قلب مدينة لوزان نفسها بسويسرة . وقد فتحت هذه الجامعة سنة ١٥٣٧ وكانت تدرس علم اللاهوت فقط . ويلاحظ ان جامعات أوروبا قديمة فى انشائها وانها كانت معاهد دينية ثم تطورت الى أن صارت جامعات مدنية . ولو أن الازهر دارج النهضة الفكرية فى مصر لكان هو اليوم الجامعة المصرية نفسها ولما احتجنا الآن لانشاء جامعة للعلوم المدنية ولما احتجنا لمشروعات اصلاحية للازهر تارة تعتبر متطرفة وطورا تعتبر مجحفة بالدين . حتى صار الازهر فى حالة تذبذب فلا يعرف أهو صاعد أم هابط بينما كل شئ يتطور الى الخير أو الى الشر . فى سنة ١٥٤٩ عرفت جامعة لوزان باسم «الاكاديمية» الى سنة ١٥٨٧ وكانت فى البناء المخصص الآن لكليتى الآداب والحقوق . واستمرت الأكاديمية الى عام ١٧٣٨ وفى المدة التى سبقت ذلك جرت تعديلات كبيرة فى نظامها ليس المقام متسعا لبيانه . بعد ذلك قسمت الاكاديمية الى ثلاث كليات : كلية للاهوت . وثانية للحقوق . وثالثة للآداب والعلوم . ووسعت دراسة التاريخ وأضيف أساتذة جدد لتعليم الجغرافيا والآداب الالمانية والنبات والفسيولوجيا والهندسة الوصفية . وفتحت فصول حرة للخارجين

أما جامعة لوزان كما هى اليوم فقد أنشئت بأمر عال فى ١٠ مايو سنة ١٨٩٠ عدل بقانون فى ١٥ مايو سنة ١٩١٦ . وقد ترك هذا القانون للجامعة تحديد عدد كراسى الأساتذة وأنواع الدراسات . على أن الجامعة تشمل ١ - كلية اللاهوت البروستانتى ٢ - كلية الحقوق ٣ - كلية الطب ٤ كلية الآداب ٥ - كلية العلوم . وقد أضيف الى كلية الحقوق مدرسة العلوم الاجتماعية والسياسية . ومدرسة الدراسات التجارية العليا . ومعهد البوليس العلمى .

وتنقسم كلية العلوم الى قسم العلوم الحسابية والطبيعية ومدرسة الصيدلة ومدرسة المهندسين و يبلغ عدد أساتذة الجامعة الآن ١٢٩

وقد أنشئت كلية الآداب فى سنة ١٨٩٥ وقد جعل بها فصول صيفية للطلبة الأجانب وهى على الأخص لاتقان اللغـة الفرنسية وتستمر الفصول ستة أسابيع فى يوليو وأغسطس . وتعطى شهادة للطلبة المستمعين المواظبين

وللجامعة جمعية عمومية من جميع الأساتذة . وهى تعين رئيسها الذى يكون مديرا للجامعة مدة سنتين و يختار عادة المدير بالدور بين عميدى الكليات . ولكل كلية مجلس مؤلف من الأساتذة الذين يختارون العميد لمدة سنتين . وللمدارس الملحقة بالكليات رئيس يسمى مدير كمدير مدرسة الهندسة ومدرسة العلوم السياسية والجامعة شخص معنوى ومديرها يمثلها أمام جميع الهيئات والمحاكم

زرت مدير جامعة لوزان مسيو موريس باشو . وهو عالم رياضى كبير متواضع فى مستهل العقد الخامس من حياته قابلنى فى الجامعة خصيصا مع أنه كان فى أجازة . وسألته أسئلة كثيرة . منها سؤال عن شروط دخول الطلبة الأجانب

فأجاب : أن شروط الدخول فى جامعة لوزان بالنسبة للطلبة الأجانب هى نفس الشروط اللازم توفرها فى الطلبة السويسريين . اما الطلبة الاجانب الذين لم يتلقوا تعليما جامعيا منظما مثل تعليم جامعتنا يجب أن يمضوا امتحان دخول خاص

س : كيف يختار المدرسون لمنصب الاستاذية ؟

ج : اذا خلا كرسى استاذ بالجامعة فان مجلس الدولة (هنا مجلس المقاطعة) يختار أستاذا خلفا له من الاشخاص المعروفين بمؤلفات ممتازة . أو تلقوا تعليما فائقا فى المادة التى كان يدرسها الاستاذ السابق

س : من الذى يتولى الانفاق على الجامعة ؟

ج : تقوم الحكومة بالانفاق على الجامعة . على أن للجامعة ايرادها الذى يبلغ حوالى مائة ألف فرنك فى السنه

س : مادرجة اقبال المصريين على جامعتكم وماهى المواد التى يفضلونها وما أحوالهم ؟

ج : منذسنين مضت والطلبة المصريون يدخلون جامعتنا . وهم على الخصوص يدرسون الطب والقانون أويدخلون مدرسة الهندسة . وقد كونوا من بينهم جمعية منهم . وهم على العموم من خيار الطلبة . ويميل عددهم الى الازدياد عاما بعد عام . و يبلغون الآن نحو الثلاثين طالبا انتهى

***

﴿ فوائد التعليم الاجبارى ﴾

جاء بجريدة الاهرام فى يوم الأحد ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٩ مانصه

(١) كان توماس جفرسون ، من أشهر رؤساء جمهورية ولايات أميركا المتحدة السابقين ولعا بالتعليم العالى حتى انه كتب على قبره بعد وفاته انه أبو جامعة فرجينيا . وقد أراد أن يتحداه يوما كبار رجال التعليم فسألوه عن التعليم الأولى ، فأجاب :

لوجبرنا على أن نختار أهون الشرين ، الغاء التعليم الاولى . أوابطال التعليم العالى فى الكليات والجامعات لتخيرنا الثانى بغيرتردد . فخير لنا أن يكون مجموع افراد الامة . رجالها ونساؤها ملمين بالقراءة والكتابة . مستنيرين قليلا . من أن نحصر العلوم العالية فى فئة قليلة . ونخلق من خريجى الجامعات أقلية من افراد أرستقراطيين . ومن أشد الأحوال خطورة أن نترك سواد الأمة جاهلا كالدواب ونثقف طبقة غنية تثقيفا عاليا ، كما هى الحال فى بعض بلدان أوروبا (فى ذلك الحين) ان كل أمة تنشد الديموقراطية والنجاح قبل الغاء الامية . تعرض ذاتها لملمات عظيمة وتجعل بلادها مهزلة بين الدول

(٢) ولما وضع التعليم الاولى على بساط البحث والمناقشة . فى مؤتمر التعليم الدولى الذى عقد فى فندق كارلتون بارك فى جنيف هذا العام (عقب مغادرة جلالة الملك فؤاد للفندق ببضعة أيام) ، نهض رئيس المؤتمر دكتور منرو . من فطاحل رجال التعليم . ومنظم مدارس الصين واليابان وجزائر الفلبين . وقال ان بلدان الشرق جميعها أشد اهتماما بالتعليمين الثانوى والعالى منها بالاولى . وقد أدى هذا الخطأ البين الى نشوء طبقة من المتعلمين الذين تولوا الزعامة فى تلك البلاد . بين شعب أغلبيته الساحقة تمرغ فى حمأة الجهالة وأكثريته تقتله الامية . ولايشك أحد فى أن استغلال هذه الفئة الصغيرة للأكثرية . واتخاذها اياها طعمة له . من أكبر الاسباب فى تأخر الشرق وانحطاطه . والآن لنسمع الانسة النابغة كلة قالتها آنسة فاضلة . ولعل أقوال النساء أشد وقعا فى نفسها من أقوال الرجال . فى مؤتمر الاتحاد العالمى للتربية الذى عقد أيضا فى جنيف عقب المؤتمر . سابق الذكر . ألقت الدكتورة مرغريتا كامبس الاسبانيولية . خطابا ضافيا عن الامية والمحافظة على القوانين ادلت فيه بارقام ناطقة عن البلدان التى يزداد فيها ارتكاب الجرائم بنسبة الامية . وأشارت الى هولندا

والدانيمرك

والدانيمرك والسويد والنرويج التي انعدمت فيها الامية منذ عهد بعيد . وما تبع ذلك من القضاء على الجرائم المرجحة أن في كثير من ولاياتها لم تنعقد محاكم الجنايات فيها منذ خمس وعشرين سنة فضلا عن استتباب السلام والهدوء والسكينة . مما يحدو بالزائر أن يعتقد أن سكان تلك الممالك أقرب الى الملائكة منهم الى بنى الانسان

(٣) وخطب فى الاجتماع عينه دكتور هرمن ليو المندوب الصينى عن الامية والتفاهم بين الأمم . وتلاه دكتور ريان الاميركى فبحث فى موضوع الامية وتأثيرها فى الكساد الاقتصادى وابن أن تعليم الجمهور القراءة والكتابة أنجع الوسائل لتحسين الحالة الاقتصادية . وبرهن على أن كثرة الاميين فى الامة تؤثر فى المتعلمين من افرادها . لأن وجود طائفة صغيرة من أهل الثقافة بين طغمة من الجهال يحط من قيمتهم و يقتل معلوماتهم ولايقوى فيهم الدفاع للنشاط والعمل

(٤) وقال خطيب آخر ان المدرسة القروية ينبغى أن تكون مركز الحياة الاجتماعية والادبية فى القرية . كما ينبغى أن يكون معلموها زعماء القرية يرشدون الاهالى الى تحسين معيشتهم من جميع الوجوه . كرفع مستوى الصحة والاخلاق . والزراعة والصناعة . وجعل المدرسة فى غير أوقات الدراسة قاعة كبيرة لاجتماع أهالى القرية للبحث فى شؤنهم الاجتماعية والصحية وسماع النصائح والارشادات . والمحاضرات أحيانا

(٥) وقد شاهدت بين مندوبى المؤتمر الذى ألقيت فيه هذه الكلمات دكتور منصور فهمى . وكان بين الحضور أيضا الآنسة سنيه عزمى ناظرة مدرسة المعلمات الراقية ببولاق . والاستاذ مرسى قنديل ناظر مدرسة سوهاج الثانوية . مندوبين عن مصر . وياحبذا لو ذكروا للقراء شيئا مما فاتنى تدوينه من هذه الاقوال وقد فاتنى أن أذكر أن مندوبا هنديا أراد أن يدافع عن بنى جنسه الذين تغلب فيهم الامية . فأغرق فى الدفاع واسترسل فيه الى حد أنه خيل الى الاذهان انه يحبذ الامية ولا يرحب بالتعليم الاجبارى فاحتد عليه الرئيس وحنق السامعون . وقد مثل الدور عينه فى مؤتمر ثالث واسع النطاق لم يكن لى حظ حضوره فى الدانيمارك . كما علمت من أحد الاساتذة المندوبين عن وزارة المعارف بمصر . تقول الآنسة منى انى أريد نشر التعليم بلاقيد ولاشرط (تقصد التعليم الاجبارى طبعا) فذكرنى قولها بكلام وزير معارف روسيا الذى أصدر سنة ١٨٢٤ منشورا يقول فيه . والعلم نافع فقط اذا كان كملح الطعام . يؤخذ منه كميات قليلة جدا . فاذا زاد التعليم وكثر التنور انقلب الى ضده . لأن تعليم القراءة والكتابة للجميع خطر على الدولة

(٦) وقد قال الوزير المحترم أن الاستعارة تعوزها الدقة والضبط . لأن الملح فى الطعام ينبغى أن يؤخذ حقيقة بمقادير صغيرة . ولكن هذا لايفهم منه أن عشرة فى المائة من الناس يستعملون الملح وتسعين فى المائة لايتذوقونه أبدا . فيفسد طعامهم . ولكن المرحوم الوزير كان يعيش فى أوائل القرن التاسع عشر فهو معذور . اما نحن فقد أوشكنا أن نبدأ الثلث الثانى من القرن العشرين . فما عذرنا ؟ (اقرأ التعليم فى روسيا قديما لمؤلفه دار لنجتون)

(٧) كان غليوم الثانى امبراطور المانيا السابق يكره التعليم الاولى رغم انتشاره فى بلاده . وكان من أقواله المأثورة «ان الديموقراطية فى التعليم مخالفة لأوامر الله ومناقضة لمبادئ الدين والمسيحية» واليوم أصبحت ألمانيا بعده ديموقراطية فى السياسة والاجتماع . فى التعليم والعمل والحياة بجميع مناحيها انتهى

وهنا لابد من إتمام هذا المقام ببيان أن كل امرئ يوضع فيما استعد له فأقول : « لاريب أن الله عز وجل ماخلق أمة إلا ولها نظام خاص سواء أجهلوه أم علموه وهذا النظام لاأشك انه يكفل سعادتهم فى الدارين ، ألاترى أن عدد النساء والرجال يكاد يكون متساويا فقس عليه جميع مايحتاجه الناس فى حكمتهم وصناعاتهم فلن بحثوا وجدوا فى ذريتهم كل ماينفعهم كما وجد كل رجل امرأة . وقد سهل الله الذكورة والانوثة

فعرفها الناس ولكنه ستر الغرائز والأخلاق الكامنة لنبحث عنها بأنفسنا . وليعلم الناس قاطبة مسلمين وغير مسلمين ان نظام أهل الأرض الآن ناقص نقصا فاحشا فان جميع الأمم لم تستكمل استخراج المواهب العقلية ولا المنافع المادّية فيجب البحث فى استعداد التلاميذ مع تعميم التعليم وليمتحن كل تلميذ امتحانا خاصا وليوضع فيما خلق له حتى ينفع أمته . ويجب أن لا يراعى إلا الاستعداد فابن النجار والحجار ربما صلح لادارة الجموع أو للفلسفة أو للطب . وابن الغنى والأمير ربما لا يصلح إلا للامور الصناعية . فليوضع كل فى مركزه ثم لتخصص كل أمة فيما استعدّت له . وهذا المقام قد استوفاه كتابى ﴿ أين الانسان ﴾ الذى ألفته ونشرته منذ عشرين سنة . انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾

(فى قوله تعالى ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ـ)

قد تقدّم فى التفسير اللفظى بعض عجائب الينابيع :

(١) اعلم أن فى جوف الأرض مياها دلت عليها الينابيع العذبة التى تخرج من قرار البحر فى كثير من محال مشهورة بذلك

(٢) وأيضا تتقذف مياه من جبال النيران عند ثورانها

(٣) كذلك الحفر المعدنية تفيض المياه من داخلها

(٤) إن بعض الأنهار تفيض ولا ترجع بعد ذلك أصلا فأين ذهب ماؤها ؟ لاشك أنه حبس فى باطن الأرض

(٥) الأرض قد تبتلع جبلا وتظهر بحيرة عظيمة فى محل ذلك الجبل فأين كان الماء إذن ؟ إنه كان فى باطن الأرض

(٦) الآبار الارتوازية التى حول (مود ينه) وغيرها من البلاد

﴿ الماء معلق فوق رءوسنا أيضا ﴾

فنه السحب والضباب ويكون ثلجا لا يتحرّك فيتوّج رءوس الجبال الشامخة ويغشى جوانبها وأكنافها المتحدرة ويشكلها بأشكال لازوردية شفافة . هذه جعلت مخازن لا تنفد فتكون دائما مددا للينابيع والعيون والنهيرات والأنهار

﴿ أسباب الينابيع ﴾

(١) الآثار الجوّية المائية

(٢) ذوبان الجليد والثلج

(٣) رشح المياه

(٤) فعل القنوات الشعرية الأرضية

(٥) جرى المياه جهة الأجزاء المنخفضة من الأرض

ويوجد فى معظم المحال أحواض صغيرة متفرّقة منعزلة عن بعضها تأتى اليها من جوانبها مياه الأراضى القريبة لها فى قنوات صغيرة تحت الأرض . فاذا فاضت عليها تلك المياه أرسلتها فى قناة واحدة متصلة بحافة من حوافيها تذهب بها الى ماشاء الله . وربما لا يكون هناك حوض وانما يخرج من الصخرة تيار يختلف حجمه بدون أن يعرف أصله . وهذان التياران يسميان بالينابيع والعيون . وهذه الينابيع اختلافها عظيم

جدا ولذلك تسمى بحسب مايحدث فيها فيقال ينابيع حارّة أو باردة وطبيعية ومعدنية ومحلة وماصة ومحجرة ومقطعة ودورية ومخطة وقابضة وغير ذلك . وقد اشتغل الكيماويون والطبيعيون والأطباء بدراستها ومشاهدتها وتحليلها واستنبطوا منها وسائط نفيسة لشفاء الأمراض المختلفة والمسلمون نائمون . انتهت اللطيفة الرابعة

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾

(فى قوله تعالى ـ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ـ)

قال ابن عمر رضى الله عنهما عشنا برهة من الدهر وكنا نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفى أهل الكتابين ـ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ـ قلنا كيف نختصم وديننا واحد وكتابنا واحد حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت بأنها فينا نزلت . وروى مثله عن أبى سعيد الخدرى ولكنه ذكر يوم حنين . وقال ابراهيم مثل ذلك فى مقتل عثمان

هذا ماورد عن الصحابة . ومعنى هذا أن الصحابة رضوان الله عليهم ما كانوا يظنون أن المسلمين تنطبق عليهم هذه الخصومة فلما رأوا مانزل بهم عرفوا أنهم يختصمون أى كما يختصم أهل الديانات المختلفة . فكما يختصم المسلمون وأهل الكتاب يختصم الحزبان المتشاجران من المسلمين . هذا هو الذى قالوه . وانظر كيف حالنا اليوم

حكم الصحابة الذين هم أعلم بكتاب الله منا بأن المسلمين يختصمون عند ربهم يوم القيامة . لماذا يختصمون ؟ لأنهم اقتتلوا . ولعمرى إن هذا شئ يسير بالنسبة لما وقعنا فيه . اقتتل المسلمون ومات بعضهم وتولى الحكم بنو أمية فماذا حصل ؟ ارتقى الاسلام ولم يسلط على المسلمين غيرهم وملكوا الأمم شرقا وغربا وانما هو نزاع قام باجتهاد فيما بينهم وكل له حجة والله هو الذى يفصل بينهم . أما نحن فواحسرتاه غلبنا الفرنجة فياليت الأمر كان قاصرا على عداوة بعضنا لبعض بل الأمر أعظم من ذلك جدا . اننا اقتتلنا حتى خضعنا جميعا لغيرنا ، فاذا اختصم الصدر الأول عند الله فكيف تكون حالنا نحن والفرنجة يجوسون خلالنا ويمنعون العلم عنا ويعيثون فى بلادنا الفساد والضلال والخلاعة والفسوق ويهلكون الحرث والنسل ، أتدرى لم ذلك ؟ ومن المسؤل ؟ المسؤل هم العلماء والملوك والأذكياء ، سيقف العلماء بين يدى الجبار والعامة والملوك وسائر الرؤساء فيقول لهم : « أعطيتكم أرض مصر واليمن والشام وبلاد الأناضول وبعض بلاد الهند والصين وبعض الجزائر وبعض أفريقية وقلت لكم إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون . أيها المسلمون : فماذا صنعتم ؟ تركتم جبالى فلم تدرسوا مافيها ، وبحارى فلم تعرفوا عجائبها ، وأرضى فلم تستوعبوا منافعها . فيقول العامة : يارب ان علماءنا قالوا لنا هذه علوم الدنيا لاعلوم الدين وقالوا لنا كفاكم أن تعرفوا مابنى عليه الاسلام واكتفوا بعلم الفقه ، فيسأل العلماء فيقولون هكذا قال من قبلنا ، ويسأل الملوك فيقولون هكذا علمنا العلماء فيقول الله لهم : لقد أهنتكم فى الدنيا بدخول الأجانب فى بلادكم وسأعاقبكم على تفريطكم . أتحتجون بعلم الفقه وقد نص فقهاؤكم أن العلوم كلها فروض كفايات والعقاب على تركها شامل للأفراد والجماعات . ألم يكن لكم عقول تفقهون بها ؟ ألم يكن لكم أعين وأسماع وأبصار ؟ أظننتم انى أقول ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ـ لاكتفى منكم فى ذلك برؤية النظر . واذا كان النظر البصرى كافيا فأى فرق بين الانسان والحيوان وبين العالم والجاهل . إذن يكون نظر الخليل فى ملكوت السموات والأرض كنظر العامة وهذا غير معقول »

« أيها المسلمون : أعطيتكم أرضى وأنرت لكم سمائى فلم تنظروا ولم تفكروا وقلتم بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا . ألم أقل ـ إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم

من د نه من وال ـ »

هذا ما يقال لمن مضى من بعض الملوك والعلماء . فأما فى المستقبل القريب فللإسلام شأن غريب وأمر عجيب وسعادة بأىّ سعادة ـ ولتعلمنّ نبأه بعد حين ـ وبهذا تمّ الكلام على القسم الثانى من السورة

***

﴿ تذكرة ﴾

اعلم أن هذه اللطائف الخمس كنت كتبتها أيام الكتابة العامة لهذا التفسير . ولكن أثناء طبع هذه السورة قد فتح الله عزّ وجلّ بعجائب وبدائع وحكم جميلة فى هذه الآيات ومابعدها . ولما كنت معتادا أن أكتب مايستجدّ من الفتح رأيت أن أكتب لطائف أخرى أجمل وأبدع لهذه الآيات السابقة ومابعدها بعد تمام تفسير السورة قريبا فتدبره اه

﴿ القسم الثالث ﴾

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ • وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ • وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ • أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ • أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ • أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ • بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ • وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ • وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ • اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ • لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ • قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ • وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ • بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ • وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ • وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ • وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ • وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ • وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ

أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ◦ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ◦ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ◦ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ◦ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ◦

﴿ التفسير اللفظى ﴾

دعا رسول الله ﷺ الناس الى دين الاسلام فقال بعض المشركين قد زنينا وقتلنا وانتهكنا الحرمات فاذا أسلمنا فكيف يغفر الله لنا ومن هؤلاء وحشى فانه قال إن من قتل أوزنى أوأشرك يلق أثاما يضاعف له العذاب وأنا قد فعلت ذلك كله . وأيضا عياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المشركين أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا . وأيضا قال ابن عمر كنا نقول: « ليس شئ من حسناتنا إلا وهى مقبولة » فلما نزل ولاتبطلوا أعمالكم وقد فسرت المبطل بالكبائر والفواحش فمن أصاب شيأ من ذلك كنا نقول هلك فلما نزلت هذه الآية استبشر بها الجميع فأسلم وحشى وعياش بن أبى ربيعة ومن معه وكف الصحابة رضى الله عنهم عن اليأس من صاحب الكبيرة بل استبدلوا اليأس بالخوف عليه . والآية هى (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم) أى تجاوزوا الحد بارتكاب الكبائر (لاتقنطوا من رحمة الله) لاتيأسوا من مغفرته أولا وتفضله ثانيا (إن الله يغفر الذنوب جميعا) بالتوبة فان لم تكن فبالتعذيب فى الآخرة وذلك لمسلم ويغفرها بمجرد الاسلام لمن أسلم من الكفار (إنه هو الغفور الرحيم) ولما كان خير الأمرين : وهما التوبة والتعذيب فى الآخرة : أولهما أردفه بقوله (وأنيبوا الى ربكم) أى توبوا اليه (وأسلموا له) أخلصوا له العمل (من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون) إن لم تتوبوا ، ولما كان ظاهر الآية المتقدم ربما يجعل بعض النفوس تغتر بظاهرها أردفه بما يوجب الاحتراس فى مثل هذا المقام وعدم الاتكال ، فالدين وان كان واسعا قد حدد الله فيه لكل امرئ درجة ، فاذا أباح لنا أن نأكل مانشتهى من أنواع اللذات فليس معنى هذا أن يتساوى المنغمس فى الحلال المرتطم فى لذاته المباحة ومن هو منفق للمال متصدق به خادم للجميع بل الأول أشبه بالحيوان وأقرب للأنعام وكونه مسلما لايمنع من نقص درجته ، ان الأول لايذكر بجانب الثانى ومع ذلك فهو فى رحمة الله الذى وسع فى ملكه الكلب والخنزير والنمل والنحل وما أشبهها مع الانسان فى الأرض بل ذلك يعد كمالا فى ملكه لأن الملك الذى خلا من الناقص ناقص ، فما مثل المسلمين يوم القيامة إلا كمثل تلاميذ المدرسة فيهم السابق واللاحق والضعيف . وليس انتساب الضعيف البليد الى المدرسة بمانع من رسوبه فى الامتحان واعتباره متأخرا . كلا . بل قال الله تعالى ـ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ـ فأى نسبة بين درجات التلاميذ بالمدرسة ودرجات المؤمنين يوم القيامة . وكفاك هذا المثال إيضاحا لحال الرجل المقصر فى المسلمين ولذلك حض الله على الأخذ بالأحسن فقال : لاتتكلوا على المغفرة وتقعدوا كاسلين بل اجتهدوا

وسابقوا الى الخيرات (واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم) فاذا سمعتم المغفرة فلا يحملنكم ذلك على الاتكال لأن هذا يقعد بهممكم وينزلكم أسفل الدرجات وغيركم يطير الى المعالى . فقد يكون المسلم فى أسفل الجنة وبعض عبيده أوخدمه أوالمساكين من قريته قد طاروا الى العلالى أونظروا وجه ربهم . فلا تتهاونوا فى عمل الصالحات فضلا عن التوبة والاخلاص (من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون) بمجيئه فتداركون بادروا الى العمل واحذروا (أن تقول نفس) أى بعض الأنفس وهى نفس الكافر (ياحسرتى على مافرطت فى جنب الله) أى قصرت فى جانبه أى فى حقه وطاعته فالجانب كناية فيه مبالغة * قال الشاعر

أما تتقين الله فى جنب وامق * له كبد حرّى عليك تقطع

(وان كنت لمن الساخرين) المستهزئين بدين الله وبكتابه وبرسوله وبالمؤمنين فلم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر بأهلها (أوتقول لوأن الله هدانى) أرشدنى الى دينه وطاعته (لكنت من المتقين) الشرك والمعاصى (أوتقول حين ترى العذاب لوأن لى كرة فأكون من المحسنين) فى العقيدة والعمل فرد الله عليه قائلا (بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) أى قلت ليست من الله وتكبرت عن الايمان بها الخ (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله) زعموا أن له ولدا أوشريكا أوقالوا الأشياء الينا إن شئنا فعلنا وان شئنا لم نفعل (وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى) منزل (للمتكبرين * وينجى الله الذين اتقوا) الشرك والمعاصى (بمفازتهم) بفلاحهم وبالطرق التى تؤديهم الى الفوز والنجاة . ثم بين المفازة فقال (لايمسهم السوء ولاهم يحزنون * الله خالق كل شئ) من خير وشرّ وايمان وكفر (وهو على كل شئ وكيل) يتولى التصرف فيه (له مقاليد السموات والأرض) أى مفاتيح خزائنهما واحدها مقلاد أومقليد ومن ملك مقاليد الخزائن تصرف فيها كما يشاء فهوكناية (والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) مقابل قوله ــ وينجى الله الذين اتقوا ــ (قل) لمن دعاك الى دين آبائك (أفغير الله تأمرونى أعبد) أى أجهلت فغير الله أعبد بأمركم بعد هذا البيان . فتأمرونى جملة اعتراضية (أيها الجاهلون) بالتوحيد ثم هدد الله المشركين موجها الخطاب لرسوله ﷺ فقال (ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك) الذى عملته قبل الشرك أى أوحينا اليك لئن أشركت ليحبطن عملك والى الذين من قبلك لئن أشركوا ليحبطن عملهم . وقوله (ولتكونن من الخاسرين) معطوف على جواب القسم الساد مسد جواب الشرط (بل الله فاعبد) رد لما أمروه به (وكن من الشاكرين) إنعامه عليك (وماقدروا الله حق قدره) وقرئ بالتشديد أى ماقدروا عظمته فى أنفسهم حق تعظيمه حيث جعلوا له شريكا ووصفوه بما لايليق به (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) أى والأرضون حال كونهن مجتمعات مع عظمتهن لايبلغن إلاقبضة واحدة من قبضاته يوم القيامة كأنها يقبضها قبضة بكف واحد والسموات مطويات بقدرته ، والقصد التنبيه على عظمته وكمال قدرته وحقارة كل فعل عظيم بالنسبة الى قدرته والدلالة على أن تخريب العالم أهون شئ عليه (سبحانه وتعالى عما يشركون) ما أبعد وما أعلى من هذه قدرته وعظمته عن اشراكهم (ونفخ فى الصور) المرة الأولى (فصعق من فى السموات ومن فى الأرض) خروا مغشيا عليهم (إلا من شاء الله) كجبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وملك الموت ، وحملة العرش أونحوهم (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام) قائمون من قبورهم (ينظرون) يقلبون أبصارهم كالمبهوتين (وأشرقت الأرض بنور ربها) بما أقام فيها من العدل وذلك حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين خلقه فما يضارون فى نوره كما لايضارون فى الشمس فى اليوم الصحو (ووضع الكتاب) أى كتاب الأعمال أواللوح المحفوظ الذى فيه جميع أعمال الخلق (وجىء بالنبيين والشهداء) الذين يشهدون للأمم وعليهم من الملائكة والمؤمنين (وقضى بينهم) بين العباد (بالحق وهم لايظلمون) بنقص ثواب أوزيادة عقاب على ماوعدوا به (ووفيت كل نفس

ماعملت)

ماعملت) جزاءه (وهو أعلم بما يفعلون) فلايفوته شئ من أفعالهم . ثم أخذ يفصل ذلك فقال (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا) أفواجا متفرّقة بعضها فى أثر بعض (حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها) ليدخلوها (وقال لهم خزنتها) توبيخا (ألم يأتكم رسل منكم) من نوعكم (يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أى وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار (قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) أى كلمة الله بالعذاب علينا وهى الحكم عليهم بالشقاوة (قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) والمخصوص بالذم جهنم (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا) أى سيقت مراكبهم كالوفود الى الملوك (حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم) فزتم ونجوتم وطهرتم وصلحتم (فادخلوها خالدين) وجواب اذا تقديره دخلوها (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده) بالبعث والثواب (وأورثنا الأرض) مكننا مما استقررنا عليه تتصرّف فيه تصرّف الوارثين فيما ورثوه (نتبوّأ من الجنة حيث نشاء) أى ينزل كل منا فى أى مقام أراده من جنته الواسعة (فنعم أجر العاملين) الجنة (وترى الملائكة حافين) محدقين (من حول العرش) أى حوله (يسبحون) حال من الضمير فى حافين (بحمد ربهم) ملتبسين بحمده أى ذاكرين له بوصفى الجلال والاكرام تلذذا به ، ذلك للدلالة على أن أقصى درجات السعادات الاستغراق فى صفات الحق (وقضى بينهم بالحق) أى بين الخلق فبعضهم يدخل النار وبعضهم الجنة وبين الملائكة باقامتهم فى منازلهم (وقيل الحمد لله رب العالمين) على ماقضى بيننا بالحق والقائلون هم المؤمنون والملائكة . انتهى التفسير اللفظى

﴿ لطائف القسم الثالث من السورة ﴾

(١) فى قوله تعالى ـ إن الله يغفر الذنوب جميعا ـ الخ

(٢) فى قوله تعالى ـ وماقدروا الله حق قدره ـ الخ

(٣) فى قوله تعالى ـ وأشرقت الأرض بنور ربها ـ الخ

(٤) فى قوله تعالى ـ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق ـ

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(فى قوله تعالى ـ إن الله يغفر الذنوب جميعا ـ)

هذه الآية للتنبيه على أنه لايجوز للعاصى أن يظنّ أنه لامخلص له من العذاب فان ذلك قنوط من رحمة الله وهو من الكبائر ، وكذلك من أمن مكر الله ، فكل من تاب غفر الله له ومن لم يتب فأمره لله إن شاء عفا عنه وان شاء عاقبه

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(فى قوله تعالى ـ وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ..)

فى حديث رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال : جاء جبريل الى رسول الله ﷺ فقال يامحمد إن الله يضع السماء على أصبع والأرض على أصبع والجبال على أصبع والشجر والأنهار على أصبع وسائر الخلق على أصبع ثم يقول أنا الملك فضحك وقال ـ وماقدروا الله حق قدره ـ الآية . انتهت اللطيفة الثانية

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(فى قوله تعالى ـ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون ـ)

فيه ذكر النور والكتاب والقضاء بالقسط والشهداء ، وجاء فى الحديث أنه يتجلى الرب على خلقه فما يضارون فى نوره كما لايضارون فى الشمس فى اليوم الصحو

كل ذلك راجع الى ظهور الحقائق وتبيان كل شئ والعدل التام بالميزان العدل ، ولعمرى إن ماذكر من ذلك فى عالم الآخرة هوالذى يشاهده العقلاء والحكماء فى الدنيا ، وهل هناك فرق بين عالم وعالم أو بين الدنيا والآخرة من حيث النظام والاشراق ، الأرض تشرق بنور ربها يوم القيامة وأرضنا اليوم وسمواتنا مشرقة بنور الرب ولكن ذلك النور وذلك العدل اليوم محجوب بحجاب غليظ عن أعين أكثر الناس ، إن أكثر الناس اليوم ممنوعون عن الوقوف على الحقائق لأن هذا هو نظام هذه الدنيا ونظامها أن من فيها يكونون ضعاف البصائر فاذا تجلى الله لهم فى عالم بعد هذا أدركوا أن كل أعماله موزونة ، وهل لك أيها الذكى أن أذكر لك قلا من كل من ذلك الاشراق الذى تجلى به الله فى هذه الدنيا على المفكرين وحجبه عن أكثر الغافلين لما يرون من موت وحياة ، ومرض وصحة ، وغنى وفقر وظلم وعدل ، وتفاوت فى الأرزاق والأعمال والآجال والأخلاق والأجسام ، والرفعة والضعة ، والعز والذل ، وما أشبه ذلك ، فاذا أشرقت البصائر أدركت الحقائق فظهرت للمبصرين ، وفى هذا المقام جواهر :

(١) ـ ﴿ الجوهرة الأولى : عدل الله فى عالم النبات والحيوان من حيث التغذية ﴾

انظر الى عالم الحيوان والنبات ، قد تقدم أن النبات يحتاج الى مقدار كبير من الكربون لغذائه وتقوية أعضائه فلذلك يأخذ من الهواء حامض الكربونيك وهو مركب من الكربون والاكسوجين فيحلله فى بنيته تحليلا تاما ويأخذ الكربون أى المادة الفحمية لنفسه ويخرج الاكسوجين الى الهواء ، ثم ان الهواء يأخذ ذلك الاكسوجين فيوصله الى الحيوان فيستنشقه ويدور فى الدورة الدموية فيصلحها ويخرج الحامض الكربونيك الى الهواء ، فالحيوان يركب فى جسمه الحامض الكربونيك ويدفعه الى الهواء والنبات يتقبله فيحلله ويرجع الى الهواء الاكسوجين ، ويظن العالم (بروفيار) أن مقدار مايخرجه النبات من الاكسوجين يسد مايحتاج اليه الحيوان تماما ، فانظر للعدل ، وانظر للنظام ، ألاترى أن نظام النبات والحيوان قدقام بالعدل أوليس هذا هو نور الله المشرق ؟ يراه المفكرون ويحجب عنه الغافلون

يقرأ الناس ـ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ـ واذا امتحنوا طالبا أعطوه مسائل من العلوم فمتى أجاب فيها عرفوا انه عالم بتلك العلوم ، ويجالس الرجل عالما فيعرف من حديثه مقدار علمه ونحن وان كنا لم نطلع من العلوم إلا على مقدار صغير عما تحتمله عقولنا فى الأرض ندرك من هذا المثال ومن أمثاله مقدار العدل والنظام التام الذى نعيش فيه ، نعيش فى الدنيا فنرى اننا لانحيا إلامع النبات والحيوان وننظر فنجد اننا لوكنا نحن والحيوان فى الأرض وليس معنا نبات وكان لنا رزق آخر غير النبات لم يستقم العيش على الأرض ، لماذا ؟ لأنه لانبات يحلل الكربون الذى يخرج من تنفسنا ويترا كم جيلا بعد جيل فيفسد الهواء ويموت الأحياء ، فبالعدل والنظام وجود النبات وتحليله لذلك الكربون وارساله ما كان مركبا معه من الاكسوجين الى الهواء أمكن أن نعيش فوق الأرض

أيها الذكى : كم من متعلم علم الطبيعة وهو يمر على هذا مر النسيم على الحصباء أوالصرصر على الفضاء . يقرأ كثير من الناس العلوم ولاينظرون نظرة عامة . فالعلوم فى عقولهم أشبه بالأدوات المستحضرة لبناء البيت

من

من لبن وطين وخشب وحجر ثم لايجمع بينها ولايرى لها صورة جميلة فى نفسه منقوشة على صفحات قلبه يزدان بها فؤاده . ذلك مثل أكثر المتعلمين

(٢) — ﴿ الجوهرة الثانية : العدل بين البرّ والبحر فى النبات والحيوان ﴾

يرى الناس فوق الأرض حدائق وأعنابا وبساتين وأعشابا وجنات ألفافا وزهرا باهرا وجمالا ظاهرا وعجبا عجابا . ينظرون البحر فلايرون إلا ماء أجاجا وأمواجا ثقالا لانبات فيه ولاشجر ولاحدائق ذات ثمر . لكن بعد التأمل والبحث يرى فى البحر كما فى البرّ حقول ومزارع نضرات وأشجار باسقات عجيبات . ولأذكر لك منها الجزائر المرجانية لترى العدل قائما بين الماء والتراب والبحر والبرّ

لوانك ذهبت الى المحيط الهندى والى المحيط الهادى (الباسفيكى) لرأيت هناك شجيرات المرجان الجميلة ذات الأغصان والفروع مغبرة أومصفرة تسرّ الناظرين أوحمراء كالقرنفل أوزرقاء كالزمرد تتلاعب بهاالأمواج وهى لطيفة المزاج لدنة الأعطاف ثم لاتلبث بعد حين أن تبرز من اجتماعها جزائر مستديرة الشكل كأنها شكل الخاتم أوشكل الحلقة وهى مكوّنة من تلك الأشجار اللينة الأعطاف التى تراكمت وصلبت وصارت صخورا مرجانية يبلغ محيطها فراسخ كثيرة . وترى ماء المحيط ينكسر على جوانبها البيضاء البهجة المناظر السارّة للناظرين . منظرها عجيب وأمرها غريب تجذب قلوب الشعراء وتجلب لبّ الحكماء . وترى هناك أمرين بديعين : أمر ماء البحر المتلاطم الأمواج المتكسر على شواطئ جزيرة المرجان وهى زرقاء سوداء لفرط عمقها وأمر الحوض الذى هو وسط الجزيرة الذى يضرب ماؤه الصافى الى الصفرة والخضرة معا . ماء المحيط متقلب يرتفع وينخفض . وماء تلك الجزيرة راكد فى وسطها ساكن . وهذه الجزر يقل ارتفاعها عن الماء وسواحلها مكسوّة بنخيل الكوكو (الشكولاته) والمرجان الذى تبنى منه الشطوط المرجانية لايعيش على أعمق من (٢٥) قامه . وما أكثر هذه الجزائر . فمنها مجموع جزائر تبلغ (١٠٠,٠٠٠) مائة ألف جزيرة مرجانية ومنها مجموعة تبلغ (١٠٠٠) ألف جزيرة . وهى جزائر متناسبة الارتفاع . فالأولى هى المسماة (بلكاديف) والثانية هى المسماة (ملاديف)

فانظر كيف اعتدل الأمر بين البرّ والبحر فكان نبات فى البرّ ونبات فى البحر ولكن لاتفهمن من قولنا نبات اننا نقول ان المرجان نبات . كلا . انه حيوانات كثيرة صغيرة منتظمة فى حال واحدة معا تكون على هيئة الأغصان والأوراق والأزهار وهى حيوانات باجتماعها أشبهت هيئة النبات

(٣) — ﴿ الجوهرة الثالثة : العدل فى خلقة العيون وعدمها وهومن نوراللّه فى أرضنا ﴾

معلوم أن العين خلقت لمنفعة الحيوان ، ولاحيوان إلا وهومحتاج الى العيون ، ولكن ظهر أن من الحيوان ماتكون العين بالنسبة له حملا ثقيلا ولاثمرة لها عنده ، ذلك أنواع من السمك تعيش على عمق (٢٧٥٠) قامة والقامة مقياس مقداره ستة أقدام . وتسمى هذه بالحيوانات القرارية . فضوء الشمس معدوم عندها لأنه لايصل إلا الى عمق (٢٠٠) مائتى قامة وماتحت ذلك فهوظلام حالك . ولذلك لايرى أثرالعيون فى كثير من فصائلها . ومن السرطان نوع يكون له عيون وهوعائش قرب سطح الماء . فاذا عمق مسكنه وصار مابين (١٠٠) قامة و(٤٠٠) قامة من السطح فقد عينيه وقد يبقى له منهما موضع الأثر . ومايعيش منه على بعد (٥٠٠) قامة الى سبعمائة قامة يعدم الآلة البصرية

فانظر الى العيون كيف عدمت عند عدم الحاجة اليها إذ لاضوء تبصر به وكيف ظهرت فى الحيوان عند اقترابه من ضوء الشمس وعدمت عند عدم الضوء — إن ربك حكيم عليم —

(٤) — ﴿ الجوهرة الرابعة : السمك ذوالمصباح ﴾

وهل أتاك أيها الذكىّ نبأ السمك الذى يعيش فى قرار البحار فى الظلام الحالك الذى لاتصله الشمس

وهو مع ذلك ذو عينين كاملتين محجبتين نامتين . فانظر كيف يبصر بهما ولاضوء هناك . وقد قلنا إن الضوء لايعدو مائتى قامة فكيف وهو فى أبعد الأغوار ولاضياء هناك . فانظر كيف أبدع الله لذلك الحيوان ماأبدعه لنا على هذه الأرض . ألم تر أننا فى ظلمة الليل نوقد المصابيح الكهربائية والزيتية والشمعية وما أشبه ذلك أعطانا الله ذلك لنستضىء اذا احتجنا الى الضياء ونكف عن الاستضاءة اذا أردنا النوم والسكون فيكون الضوء تحت ارادتنا بأفعالنا . أما فى النهار فالضوء عام بغير ارادتنا . فانظر ماذا فعل الله مع ذلك الحيوان ؛ أعطاه عضوا يشع سراجا وهاجا بحيث يكون أمام عينيه ليكشف به الفريسة . ويظهر ذلك النور أمام عدوه المفاجئ له ليبهره بالنور ثم يطفئه أسرع من البرق . فهذا السمك يستعمل النور بحكمة يكشف به الفريسة ويطفئه اذا هاجمه العدو وقد جعل له أمام عينيه مايعكس الضوء بمقياس خاص . فانظر كيف أعطى الله السمك المقتنص العيون والضوء الذى تحت ارادته ليكشف القنيصة ولولا ذلك لم يقدر أن يعيش إذ حياته بالصيد ولاصيد مع العمى والظلام . وكيف منع العيون عن غير هذا النوع لأنه ليس فى حاجة لذلك لأن رزقه متوافر لديه حاضر عنده والا لأعطى العيون والضياء . والضوء هناك والعيون يشبهان بما أعطى السبع من البراثن والأنياب المحددة والقوة العظيمة حتى يقدر على الصيد . وقد علمت فى هذا التفسير أن الحيوانات المفترسة فى البر والبحر رحمة لحفظ البر والبحر من التعفن بالرم فيكون الوباء العام كما أوضحناه مرارا فى هذا التفسير

بهذا فلنفهم قوله تعالى ـ وأشرقت الأرض بنور ربها ـ فهذا نوع من اشراق الأرض بنور الله ولايدرك هذا النور وهو العدل والنظام فى هذه الدنيا إلا قليل وأكثر الناس عن هذا الجمال معرضون

فياليت شعرى كيف يكون كتابنا هذا مقتضاه ونرى المسلم لايقرأ علم التوحيد إلا على نظامهم غامض . ألاترى كيف يجعل بحثه قاصرا على نحو « ان العالم حادث وكل حادث لابد له من محدث » وهكذا وهو مغمض العين عن هذا الجمال بعيد عن هذا المنال . يقول الله ـ وأشرقت الأرض بنور ربها ـ ويقول ـ إنا زينا السماء الدنيا بمصابيح ـ والمسلمون وحدهم أكثرهم يغمضون العيون عن هذا المنظر الجميل البهيج

فهذا هو الاشراق النورى فى الأرض وهو نظير الاشراق يوم القيامة فى عالم الأرواح . واذا أشرقت الدنيا على هذا النمط وقد أدرك هذا الاشراق حكماء الانسان . ومعلوم أن عالم الأرواح أصفى وأبهج وأعدل فهناك فليكن العدل والعلم . وكلما كانت الأرواح أصفى وأنقى بالعلم والتهذيب والأخلاق كانت الى الوقوف على الحقائق أقرب و بالعلم تعرج الى العلالى والمعارج . ولامعنى للعروج إلا زيادة انكشاف الحقائق . وكل من كان فى الدنيا أكثر علما وشوقا له كان فى الآخرة أسرع وصولا وتحقيقا وعروجا . وهذا هو :

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾

(فى قوله تعالى ـ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ـ)

فى هذه الآية ذكر الملائكة وانهم حافون حول العرش وانهم يسبحون وأن التسبيح ملتبس بحمد الله وانهم فى مراتبهم التى يستحقونها هم والمؤمنون وغيرهم ، وأن المؤمنين والملائكة يقولون الحمد لله رب العالمين وسيأتى فى سورة حم المؤمن وهى ﴿ سورة غافر ﴾ أى فى أولها أن الذين يحملون العرش والحافين حوله وهم الكروبيون يسبحون مع حمد ربهم وأن أرجلهم فى الأرض السفلى ورءوسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لايرفعون طرفهم وجميع الملائكة يغدون ويروحون بالسلام عليهم الى آخر ماسيأتى ، فذكر فى هذا المقام هؤلاء الذين هم سادات الملائكة وهم المدبرون لهذا العالم من عرشه لفرشه ، ذلك لأن معنى اختراقهم

العرش

العرش ووصول أرجلهم للفرش الاحاطة بالعوالم كلها علما وتدبيرا بأمر ربهم ، ومعنى كون الملائكة تسلم عليهم انهم يتلقون الأوامر عنهم فرجع الأمر كله الى العلم والعمل . وهذا هو الذى أوجب ذكرهم هنا للمناسبة ، ألا ترى أن ماقبلها فيه أن الأرض أشرقت بنور ربها وأن القضاء عدل وأن أهل الجنة سيقوا اليها وفتحت أبوابها لهم وسلم الملائكة عليهم وحمدوا الله إذ أورثهم أرض الجنة ، فههنا حمدان : حمد المؤمنين لما دخلوا الجنة فقالوا - الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض - الخ فهذا حمد على شيئين : صدق الوعد . وميراث أرض الجنة . وحمد الملائكة يحمدون الله حمدا ليس خاصا بأمر يرجع الى أنفسهم أوصدق الوعد معهم . كلا . بل هو حمد على تربية العالم كله علويه وسفليه . وهذا الحمد أعلى . ولذلك ترى أهل الجنة الذين حمدهم مقيد ينظرون الى الملائكة الحافين حول العرش وقد أنزلوا مراتبهم وحمدوا محامد عالية شريفة

يجلس أهل الجنة فى الجنة ويرون الملائكة حافين من حول العرش الخ . حال الملائكة أرقى من حال أهل الجنة لأنهم مدبرون للعالم وأهل الجنة فى ركن منه وهى الجنة ، والعالم الروحى أرقى من العالم الجثمانى وأجل فلذلك عبر بالنظر ترى إشارة الى رفعة شأنهم وكأن الناس ينظرون اليهم نظر الاحترام

إن درجة الملائكة قبل درجة أولى العلم فى قوله تعالى - شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط - . فأهل الجنة من العامة والعلماء بعد الملائكة فلذلك كان حمدهم راجعا للنظام العام . وكلما كان الانسان فى الدنيا أغزر علما بجمال هذا العالم كان أسرع رقيا فى درجات الآخرة وأقرب الى الملائكة . فلاقرب لله إلا من حيث ازدياد العلم والانكشاف والحمد لله رب العالمين . انتهت اللطيفة الرابعة

﴿ انكشاف الحقائق من أسرار القرآن ﴾

(فى آخر سورة ص وأوّل سورة الزمر)

من قوله تعالى - ما كان لى من علم بالملأ الأعلى - الى قوله - فأنى تصرفون -

سبحانك اللهم وبحمدك . تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك . أنت الذى أنعمت بنعمة العلم والعرفان وشرحت صدورنا وبشرت لنا ظهور بعض الحقائق العلمية التى أغفلت عنها أمم وأمم

تبين لى أن أمم الاسلام المستقبلة قد أذن لها أن تعرف من العلم مالا يعرفه كثير ممن سبقها بعد العصور الثلاثة الأولى . إن حقائق العوالم والأسرار الكامنة فى القرآن كانت تكشف لأفراد فيكتمونها وجوبا ويموتون واذا كتبوا عنها فان ذلك كان تحت ستار . أما اليوم فانى أرى أن الحقائق ستنجلى للأمم المستقبلة الاسلامية الذين سيكونون خير أمة أخرجت للناس كما كان الصحابة والتابعون وتابعوهم - خير أمة أخرجت للناس - ونظرة فى المحاورة الآتية تبين مغزى ما قلته الآن

فى يوم السبت (٦) أغسطس سنة ١٩٣٠ حضر لدى صديقى الذى يباحثنى فى هذا التفسير فقال : إن آخر سورة ص وأوّل سورة الزمر فيهما مشكلات حيرت عقلى وأدهشت لبى ! إن هذا التفسير قد تجلت فيه حقائق كثيرة ولكن أكثر الحيرة والشك ترجع الى ما يأتى :

(١) الله عظم الانسان إذ أمر الملائكة الأرضية بالسجود له - فقعوا له ساجدين -
(٢) وإذ خلق السموات والأرض ، وكوّر الليل والنهار ، وسخر الشمس والقمر
(٣) أنزل له من الأنعام ثمانية أزواج الخ

ولكنه أذله بما يأتى :

(١) أباح لإبليس أن يغوى أكثر ذرّيته
(٢) وحكم على ذرّية آدم أن يكونوا مع إبليس وذرّيته فى جهنم ويملؤها من الفريقين

(٣) ثم إنه فى الرحم يكون فى ظلمات ثلاث

فهو فى الرحم فى ظلمات ، واذا خرج الى الأرض يكون تحت سلطة الشياطين ، واذا مات دخل أكثر بنى آدم جهنم . إذن هذه ظلمات متواليات : فى الرحم ، وفى الحياة ، و بعد الموت . فالظلمات متتابعات على هذا الانسان . ظلمات جسمية فى الرحم ، وظلمات عقلية بالوسوسة فوق الأرض ، وظلمات جهنمية بعد الموت فهذه أمور مشكلات واذا قرأنا ماتخلل هذه الظلمات وجدنا رحمة واسعة إذ جاء فيما بين السورتين « بسم الله الرحمن الرحيم » وهى آية من السورة ، فذكر الرحمة هنا مشكلة . وكيف تذكر الرحمة هنا والمقام فيه الرحمة والغضب فهل تسليط إبليس على ذرية آدم وادخالهم جهنم يناسب الرحمة المذكورة فى أول السورة ؟ هذه مشاكل علمية لم تحلها العقول قديما إلا رمزا وما السبيل لحلها ؟ فقلت الحمد لله . إن بيانك الذى أردت به إيضاح الاشكال أدانى حقيقة الجواب . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت لأوضح لك المقام إيضاحا تاما . أنت ذكرت أن هذه الآيات فيها أن بنى آدم فى ظلمات الرحم . وانهم تحت سلطان الشياطين فى الدنيا وهم معهم فى جهنم وأن هذا كله ينافى الرحمة . هذا ملخص إشكالك . فقال نعم . فقلت : وماذا تقول اذا علمت أن الله لولم يفعل ذلك لم يكن رحيما بنا وأن تسليط إبليس وظلمات الرحم الثلاث كلها نعمة لا نقمة وما نظنه فى بادئ الرأى نقمة هو فى حقيقته نعمة لكن بعد الدرس والعلم والله جل أن يعطى النعمة لمن لا يستحقها وهل يستحق إدراك الحقائق إلا الدارسون . أنا سأسمعك الحقيقة اليوم ناصعة واضحة وهل يفهمها إلا العارفون أو يدركها إلا المفكرون الذين درسوا من كل فن طرفا . فقال : لقد شوقتنى الى الجواب وادراك حقيقة هذه الأسرار . فقلت : انظر رعاك الله الى الطفل فى بطن أمه كما ذكرته أنت . انه وضع فى الحجب الثلاث : فى الرحم محافظة عليه كما هو معلوم الناس قاطبة فلوانه تعرض للشمس لم يعش بل لوظهر للهواء مجردا من ضوئها لم يعش . فالله عز وجل لم يمنعه من نعيم الهواء وضوء الشمس ضنا بالنعمة واذلالا وانما منعه ذلك رحمة ورأفة وتحننا فلاحد لهذه الرحمة ولولا هذا لم يترب فى بطن أمه . وأنا موقن انك ماذكرت هذا فى الاعتراض إلا لأنك جعلته ضرب مثل للظلمات العقلية التى سببها إغواء الشياطين للانسان والا فأنت تعلم وجميع العقلاء يعلمون أن هذه الظلمات فى الرحم نعمة . فالذى دعاك لذكرها انما هو التنبيه على أن هذه الحجب تذكرنا بالحجب العقلية التى تعتريه بعد خروجه الى الأرض وهو يعيش مع الناس . قال حقا هو كذلك . فقلت : وماذا تقول اذا قلت لك ان ما جعلته أنت ضرب مثل للاذلال رأيته أنا ضرب مثل للأنعام . فقال : أنا لم أفهم ماتقصد فأرجو إيضاحه . فقلت : إن الله حجب الجنين فى الرحم فى ظلمات ثلاث وقد اتفق العقلاء أن هذا رحمة لا نقمة ، ذلك لأن الجنين لا يقدر أن يقابل ضوء الشمس ولا الهواء طبعا لضعفه فأنت انتهزت هذه الفرصة وجعلتها أشبه بضرب مثل لما سيلحقه من الظلمات ، وأنا أوضح لك الآن أن هذه ضرب مثل لما سيلحقه من النعم . إن هذا الجنين المحجوب بالظلمات الثلاث رحمة به اذا خرج الى الأرض حجب بنحو (١٦) ظلمة جسمية محافظة على حياته ورحمة به ، وما يقرب من مائة ظلمة عقلية محافظة على عقله والا لاختل نظام تفكيره ، فاذا رأينا الجنين حفظ بهذه الظلمات الثلاث فى الرحم فالرجل يحفظ من الهلاك الجسمى بظلمات تبلغ (١٦) ومن الهلاك العقلى بظلمات تبلغ نحو المائة ، وكما أن الجنين لو تعرض للجو لمات ، هكذا الطفل والمراهق والبالغ والشيخ إن كان جو الأرض ليس فيه طبقات من الغبار والذرات التى تحجب ضوء الشمس وتلطفه وتخففه ثم تكون سببا انتشاره لكانت الحياة لا تطاق ، فأنواع الغبار والدخان الخارجات من الأرض المعتمات لهذا الجو ماهى إلا حجب لأبصارنا وهذه الحجب لولاها لم تطق الحياة على الأرض ولم ينتظم ضوء الشمس حين وقوعه على الأرض ولم يكن عندنا فجر ولا صبح ولا وقت فيه شفق بل تطلع الشمس وتغرب فجأة ويكون ضوءها شديدا دائما فلا تطيق العيون رؤية قرص الشمس صباحا ولا مساء ويكون الضوء فجائيا

والظلام

والظلام بخاليا . فهذه الحجب والظلمات فى الجو نسبتها الى حياتنا على الأرض كنسبة الظلمات الثلاث للجنين ومثل ما قلنا فى ظلمات الجوّ النافعات فى انتشار الضوء الموزّعات له على الكرة الأرضية المصلحات لحال أهل الأرض نقول فى وساوس الشيطان . وما وساوس الشيطان إلا أمثال ما نراه من تهافت الذباب على طعامنا وشرابنا مع اننا نأكل العسل الذى نشأ من خلايا النحل . فنسبة وسوسة الشياطين الى عقولنا من حيث انها تصدّنا عن الاطلاع على الحقائق بخأة ونحن لانطيقها كنسبة ظلمات الجوّ البالغة (١٦) ظلمة من حيث انها تخفف ضوء الشمس الواصل الى عيوننا بحيث يقلّ فى أكثر النهار عما يمكن أن يصل الينا فوق ألف مرّة . إذن ضوء الشمس لابد أن يخفّ بحجب حين يصل لنا والعلوم والمعارف التى يتجلى الله بها على عقولنا اذا لم تحجبها الوساوس الشيطانية التى استعدّت لها نفوسنا بشهواتنا وأخلاقنا الأرضية فانها تكون سببا فى إهلاك أرواحنا لأنها لاتقدر أن تتحمل جميع الحقائق دفعة واحدة كما لاتحتمل عيوننا ضوء الشمس من غير أن يلطف بظلمات الجوّ وكما لايتحمل الجنين أن يعيش إلا فى ظلمات تقيه

أنا أقول هذا وأنا أصبحت موقنا به إيقانا تاما . وهـذا هواليقين الذى أعلنه لأهل الأرض قاطبة ولك أنت أوّلا . فقل لهم جميعا إن الله أذن باظهار الحقائق

إن مافى الأرض من الأخلاق الفاسدة واغواء الشياطين الأرضية . كل ذلك رحمة لأنه لولاه لم تتحمل العقول شموس المعارف العلمية التى تستعدّ لها النفوس الأرضية بفطرتها . وكما أن الطعام الذى كثرت مادّة الغذاء فيه كاللبن واللحم والبيض اذا داوم امرؤ عليه فان عاقبته تكون هلاكا له غالبا لأن هـذه المواد الممتلئة أغذية اذا وردت على الجسم أخذت تهجم على الحويصلات هجوما شديدا فتظهر القوّة وحسن الشكل وحمرة الخدّ ورونق الجسم ثم لايلبث الجسم أن يصل لاحدى نتيجتين : إما أن يكون قويا فتخرج له بثور وتظهر أمراض بها تخرج تلك العلل . واما أن يكون ضعيفا فلايقدر على ذلك التصريف بالأمراض فيفاجئه الموت بكرة أوعشيا

هذا ماتقدّم فى هـذا التفسير مرارا وتكرارا عن علماء الطب فى العصر الحاضر . أقول : كما ان الطعام هذا شأنه هكذا العلوم والمعارف فهى أغذية للروح وللروح استعداد خاص كما للجسم . فكما أن الأغذية اللبنية واللحمية والبيضية قد يكون فيها خطر على الأجسام كما تقدّم هكذا العلوم التى تصل للعقل بخأة تهلك الروح . وكما أن الأغذية النباتية ونحوها (وفيها أغـذية غيرمركزة بل هى داخلة فى ضمن موادّ أخرى) تدخل على الحويصلات الجسمية بلطف فلاتزعجها هكذا المعارف والعلوم اذا وصلت الى الأرواح والعقول شيأ فشيأ تدريجا تكون مقبولة ولاخطر فيها ، وكما أن الشمس يظهر نورها على جميع الأرض وقدخففت بالغبار فى الجوّ هكذا الأنوار الإلهية التى يرسلها الى عقولنا لابد من تخفيفها حتى تتحملها عقولنا ، وأوّل حجبنا أجسامنا فهى ظلمانيـة ثم شهواتنا وأنواع شرورنا التى تحيط بنا احاطة الغبار والدخان فى جوّنا بعيوننا ، وكما أن الغبار والدخان ظاهرهما عذاب وباطنهما رحمة ، هكذا وسوسة الشياطين التى لاتكون إلا تبعا لشهواتنا هى نعمة باطنا نقمة ظاهرا ، وأضرب لك مثلا : لقد ظهر فى أمريكا غلام منذ نحو (٢٠) سنة فأكثر دخل المدرسة وأخذ يتعلم الحساب فما مضت نصف سنة وهولم يبلغ سبع سنين حتى فاق أباه فى العلوم الرياضية كلها وأتى بحساب يجهلونه فانهم كلما قالوا له : الجمع الطرح الضرب القسمة اللوغارتم المعادلات الجبرية يقول لهم أنا أعرفه وكان أبوه رئيس الكلية فطلبوا علماء الطب من أقطار الأرض فبحثوه وقالوا جميعا إن هذا الغلام قصير الأجل لأن عقله أكبر من جسمه وهذا الجسم لايتحمل هـذا العقل وقد مات وسنه (١٣) سنة ، وقد ظهر كثير أمثاله على هذا النمط ، فهؤلاء جاؤا الى الأرض ليوقظونا الى أمثال هذه الحكم ولنعرف أن حياتنا كما أن فيها ذبابا وحيات وعقارب لايذائنا فيها نحل ودود قز وأنعام لاسعادنا ، وأن النقيضين لابد منهما ، وأن النعم التى

لانهم مفها مجهولة مكفور بها والضد يكون سببا فى ظهورضده . وأنا أيها الصديق أرى انى قد استوفيت هذا المقام وأنا أحمد الله حمدا كثيرا ولعلك قد اكتفيت بما سمعت . فقال : أما هـذا البيان فلم أسمعه فى حياتى منك ولامن سواك ولكنى لا أترك القول يمرّ بلافهـم ببعض ماتقدم . ماهى الظلمات التى فى جوّنا ؟ وكيف تقول إن الغبار والدخان تصنعان حجبا فى الجوّتبلغ (١٦) حجابا ؟ وكيف تقول إن ضوء الشمس يكون أقلّ فوق ألف مرّة ، كل هذه ألغاز لاتحلّ إلا بالايضاح . فقلت ياصاح وهل يوضح هذا إلا العلوم . فقال أى علوم ؟ فقلت علوم الطبيعة والفلك . فقال أحب أن تشرح المقام شرحا وافيا لنفرح بالعلم ونسعد بالحكمة فقلت : اعلم أن الجاهل يعيش ويموت ولاحظ له من هذا الوجود ، أما الحكيم وأما العالم فانه هو يرى أن هذه الدار أشبه بالقصور المسحورة فان مشاهده أشدّ غرابة من مشاهد دور الصور المتحركة التى تمثل فيها الوقائع الحربية والطبيعية وغيرهما فمشاهد الدنيا مملوءة بالأحوال الغريبة

(١) فانظر الى الكواكب ليلا والشمس فى وسط السماء فانك تراها قريبة منا ، ثم انظر الى الشمس عند الشروق وعند الغروب فانك تجدها بعيدة عنا وهذا عجب كيف تبعد الشمس فى الشروق والغروب وتقرب وقت الزوال ؟ أليست الأرض تدور حول الشمس فى دائرة منتظمة و بعدها من جميع الجهات متحد فى اليوم الواحد فهل تبعد عند الصباح وتقرب وقت الظهر ؟ إذن ليست تجرى فى دائرة بل فى خطوط منكسرة ولاقائل به

(٢) ثم انظر الى الشمس صباحا فانا نقدر أن ننظرها بأبصارنا مع بعدها ، وانظر اليها وقت الظهر فانا لانستطيع النظر اليها مع قربها منا فى رأى العين وكثرة الضوء

(٣) ثم إن النجوم الثوابت نراها قريبة منا والشمس نراها بعيدة صباحا ومساء كما تقدم مع ان الشمس بيننا و بينها بسير النور (٨) دقائق و (١٨) ثانية ، و بيننا و بين الكواكب آلاف وملايين السنين بسير الضوء ، فكيف كانت هذه المشاهد ساحرة لعقولنا غريبة الأطوار عجيبة الأحوال

هذه هي الغرائب الساحرة المحيطة بنا وهـذا لايفهم إلا بالنظر فى علم انكسار الضوء من علم الطبيعة أولا و بالنظر فى علم الفلك من حيث ضوء الشمس وانتشاره على الأرض ثانيا ، وقبل ذلك نشرح علم الهواء . إذن هنا « ثلاثة فصول : الفصل الأوّل » فى شرح الهواء « الفصل الثانى » فى انكسار الضوء فى علم الطبيعة « والفصل الثالث » فى آثار ذلك الانكسار فى علم الفلك . فقد جاء فى كتاب الاصول الوافية فى علم القسموغرافيا لأستاذنا المرحوم حسنى بك

﴿ الفصل الأول فى علم الهواء ﴾

تحاط الأرض من جميع الجهات بغاز ضرورى لوجودنا وعلى أى ارتفاع يرتقى اليـه يوجد الهواء دائما لكن من المحقق أن هذا الهواء لايمتد الى غير نهاية فى الفراغ بل يكون حولنا طبقة تسمى جوّا . و يتكوّن من الجوّ والكرة الأرضية جسم واحد لأنها تجذبه اليها و يشترك معها فى جميع حركاتها

و يظهر ان تركيب الجوّ ثابت فى جميع الأقطار وفى جميع الارتفاعات وهو مخلوط من الاكسيجين والازوت بنسبة ٨٠ و ٢٠ حجم من الاكسيجين الى ٣٠ و ٧٩ من الازوت و بنسبة ثقل قدره ٢٣ جزأ من الاكسيجين الى ٧٧ من الازوت . ويحتوى خلاف ذلك على بخار الماء وأثر من حمض الكربونيك

وللجوّ جميع خواص الغازات . ومرونته وكثافته يتناقصان كلما ارتفع الانسان وذلك لأن الهواء جسم ثقيل كباقى الغازات وعليه يجب أن تكون الطبقات السفلى أكثف وأكثر انضغاطا من الطبقات العليا التى تحمل ثقلها و بالاقتراب من نهاية الجوّ يجب مقابلة طبقات خفيفة للغاية وقليلة المرونة جدا

وحرارة الطبقات الجوية تنقص بقدر ١° فى كل ١٥٠ مترا أو ٢٠٠ مترا من الارتفاع لغاية ٧٠٠٠ مترا

تقريبا

تقريبا ويظن أن التناقص بعد هذا الارتفاع أقل من ذلك وأن الطبقات الأخيرة ذات حرارة لاتنخفض عن - ٦٠°

وأما ثقل الجوّ فيمكن تعيينه على وجه التقريب بالاعتبارات الآتية وهي أن الضغط الجوى يتزن بعمود من الزئبق ارتفاعه ٧٦ سنتيمترا أو بعمود من الماء ارتفاعه ٣٣٤ ر١٠ مترا وبناء عليه فالضغط الكلى على سطح الأرض أعنى ثقل الجو يعادل ثقل عمود من الماء قاعدته سطح الارض وارتفاعه ٣٣٤ و ١٠ مترا وبفرض أن نصف قطر الارض المساوى ٦٣٦٦١٩٨ مترا رمزه نق فثقل الجو مقدرا بالطونولاته يكون

٤ ط نق ٢ × ٣٣٤ و١٠ = ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٥٢٦٣ تقريبا

وهو يعادل ثقل ٥٨٥٠٠٠ مكعب من النحاس كل مكعب ضلعه كيلو متر واحد

﴿ الضوء المنتشر ﴾

وللهواء الجوى مزية أخرى مهمة للغاية هى أنه الواسطة فى نور النهار قبل أن ترسل لنا الشمس أشعتها وذلك لأن أجزاءه تعكس الأشعة الضوئية التى تسقط على سطحها فى جميع الجهات سواء أتاها هذا الضوء من الشمس مباشرة أو من انعكاسات سابقة وهذا مايسمى بالضوء المنتشر أو المتفرق

فاذا لم يكن جوفان جميع النقط الأرضية التى لاتكون مستضيئة بالشمس مباشرة والتى لاتتلق الأشعة التى تعكسها المادّة الأرضية تصير مغمورة فى ظلمة تامة ولون السماء الازرق الذى هو لون الهواء منظورا من سمك عظيم لايرى وتصير السماء حالكة السواد ويمكن وقتئذ رؤية النجوم والسيارات وقت الظهر والانتقال من النهار الى الليل يحصل دفعة واحدة بمجرد غروب الشمس لاتدريجيا كما هو الحاصل كما أن النهار يمحو ظلمات الليل بمجرد ظهور الشمس ثانيا فى الأفق

﴿ ارتفاع الجوّ ﴾

اذا كان الجوّ متجانسا سهل حساب ارتفاعه وذلك انه لما كان أخف من الزئبق بقدر ١٠٤٦٠ مرة فان سمك طبقة الهواء التى تتزن بعمود من الزئبق ارتفاعه ٧٦ سنتيمترا تصير بداهة ١٠٤٦٠ × ٧٦ و ٠ أو ٧٠٥٠ مترا تقريبا ولكن ذلك انما هو نهاية صغرى لان كثافة الهواء تأخذ فى النقص كلما ابتعد عن سطح الارض والحسابات التى أجراها المعلم (بيوت) المؤسسة على ارصاد غيلوساك وغيره تعين للجو سمكا قدره ٤٨٠٠٠ مترا وهو تقريبا $\frac{1}{132}$ من نصف قطر الارض

﴿ تعتم الضوء بالجوّ ﴾

شكل القبة السماوية المنحط - اذا كان الجوّ شفافا للغاية فان الاشعة الضوئية التى تمرّ منه لايعتريها أدنى عتمة مهما كان اتجاهها لكن ليس الامر كذلك . فان الهواء يعتم الأشعة التى تمر منه شيأ فشيأ وتأخذ هذه العتمة فى الازدياد بالطبع بازدياد كثافة طبقة الهواء . فالشعاع الذى يأتى من الأفق يمر من طبقة من الهواء أكثف من التى يمر منها الشعاع الذى يأتى من السمت بقدر ست عشرة مرة ولهذا السبب يمكننا أن ننظر الى الشمس فى الافق وتتحمل ضوءها بدون أن يحصل خطر لابصارنا والابخرة الكثيفة الموجودة دائما فى الاجزاء السفلى من الجوّ تضعف الضوء أيضا وعلى رأى (بوجيه) ضوء الشمس فى الافق أقل منه فى السمت بقدر ١٣٥٠ مرة

والضوء الذى يأتينا من الاشياء الارضية الموضوعة فى الافق أو من الكواكب فى لحظة شروقها ضعيف جدا بالنسبة للضوء الذى تبعثه لنا الكواكب الكائنة بجوار السمت ولذلك نرى هذه الكواكب أقرب الينا من تلك . ولهذا يظهر شكل القبة السماوية منحطا انتهى ما أردته من ذلك الكتاب

وأقول بهذا عرفنا تركيب الهواء وارتفاعه وكثافته وغيرها :

(١) فالارتفاع يقرب من (٤٨) كيلومترا
(٢) والتركيب من الاوزوت والاكسوجين : الأول (٧٧) جزأ والثانى (٢٣) وثقله (٥٨٥) ألف مكعب من النحاس كل مكعب ضلعه كيلومتر
(٣) وحرارته تنقص درجة فى كل (١٥٠) مترا أو (٢٠٠) وهذا يستمر الى (٧٠٠٠) مترا و بعدها تصير الحرارة (٦٠) درجة
(٤) وطبقة الهواء فوق الأرض أكثف من الطبقة البعيدة عنها (١٦) مرة
(٥) وضوء الشمس فى الأفق أقلّ منه فى السمت (١٣٥) مرة
(٦) والضوء الآتى من الكواكب القريبة من الأفق أضعف جدا من الضوء الآتى من الكواكب التى تقرب من سمت الرأس فتكون الأولى أبعد عنا من الثانية
(٧) وعليه تظهر قبة السماء منحطة
(٨) والهواء الجوّى هو السبب فى انتشار الأضواء صباحا ومساء
(٩) ولولا الهواء لم تكن السماء إلا سوداء نهارا وترى النجوم ظهرا
(١٠) ولولاه لانتقل الناس فجأة من الظلام الى النور وبالعكس

فلخص هذا الفصل عشر مسائل ، ولكن الكلام على انتشار الضوء هو الذى تحتاج الى الكلام عليه فى الفصل الثانى

الفصل الثانى فى الكلام على انتشار الضوء من علم الطبيعة

هنا قال صاحبى أريد شرح انكسار الضوء شرحا سهلا بسيطا يفهمه الجاهل والعالم . فقلت : اعلم أن الامور البسيطة هى أصول الامور العظيمة ، ضع عصا فى إناء فيه ماء وانظر ألست تراه أشبه بالمنكسر . فقال أى ور بى . فقلت : هذا هو الانكسار ، فهذه المسألة البسيطة هى أصل الانكسار المذكور فى علم الفلك وأصل الصباح والمساء وانتشار النور على الأرض . فقال هذه أمور لاتزال تحتاج الى البيان . فقلت : إذن أريك ذلك عملا فأسمعك ما جاء فى كتاب « العلوم الطبيعية » للعلامة (بول برت) الاستاذ فى السربون ووزير المعارف العامة بفرنسا الذى ترجمته الى الانجليزية زوجته ، وقد ترجمت هذا الفصل من ذلك الكتاب فقد جاء تحت هذا العنوان « انتشار الضوء » ما يأتى :

« انظر . أنا الآن معى زجاجة مملوءة ماء وقد وضعت فى الماء عودا من القش (انظر شكل ٦)





(شكل ٦)

تجربة (ب)	تجربة (ا)
(إن الشعاع الضوئى فى الماء انكسر وصار سببا فى أن قطعة النقد أخذت تظهر عند النقطة (ا)	(عود صغير من القش يظهر للعين انه مكسور فى الماء وهذا هو انكسار الضوء)

إن العود يظهر فى تجربة (ا) كأنه مكسور وهو يقرب فى نظر العين من الأفق عند دخوله فى الماء . ولا جرم انك عالم علما

ليس بالظن أن العود لم ينكسر ولكنك قلما تقدر أن تحافظ على إحساسك من انخداعه بهذا الانكسار وهذه هي التجربة الأولى «التجربة الثانية» (ب) وهو صندوق من القصدير وقد وضعت في أسفله قطعة من النقود وهي (الجن) . تعال ياجيمس وقف حتى تنظر أبعد طرف من قطعة من النقود أمامك . وها أنا ذا الآن أخذت في صب الماء في الصندوق قليلا قليلا بلطف خيفة أن تنتقل قطعة النقد من مكانها . أخبرني ما الذي شاهدته ؟ فأجاب أنا أشاهد قطعة النقد بحسب الظاهر ترتفع وتتحرك الى جهة (ا) وانما حصل ذلك لأن أشعة الضوء من قطعة النقد تنعطف وتنثني كما انثنت وانعطفت قطعة العود من القش قليلا فيما سبق

هذا معنى انكسار الضوء . وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني الذي أتيت به من علم الطبيعة مع إيضاحه والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثالث في آثار ذلك الانكسار في علم الفلك ﴾

أنت أيها الذكي لاحظت العود وهو في الماء وشاهدت انه في رأي العين قد انكسر والحقيقة أن الانكسار انما هو في الضوء لأنه متى دخل من جسم ألطف الى جسم أكثف حصل له هذا الانكسار وهذه الظاهرة أصبحت مفهومة ، ولكن هل يدور بخلد الأطفال إذ يضعون الأعواد في الماء ويرونها قد انكسرت ويضحكون من ذلك ويعجبون ، إن هذه المسألة هي أعظم رحمة أنزلها الله الى الأرض كما سأوضحه لك وماهذا العود في الماء المتقدم وانكسار الضوء فيه بالنسبة لانكسار ضوء الشمس في الجو عند ملاقاته الطبقات المعتمة إلا كنسبة الهواء المنطلق في المنزل بهيئة رياح عند إيقاد النار فيه فيرتفع الهواء فيحل محله هواء آخر من خارج الباب ، فهذه الظاهرة الصغيرة الهوائية في المنزل هي بعينها التي تحصل في خط الاستواء، وغاية الأمر أن الشمس تستبدل بالنار هنا ، فالشمس تلح بحرارتها على الهواء فيخف فيرتفع فتأتي الرياح من الشمال والجنوب فتحل محل الهواء الذي ارتفع فهكذا نقول هنا ، فاذا رأينا العود لما وضعناه في الماء انعكس في الاناء وظهر لنا أنه مكسور فهذا عينه هو المسمى انكسار الضوء

فاذا رأيت الأرض قد زانها ضوء الصباح قبل طلوع الشمس وزانها الضوء بعد غروب الشمس . واذا رأيت البلاد الشمالية بعد درجة (٦٦) حين يكون الليل أسبوعا أوشهرا أوشهرين فانك ترى البلاد هناك مستضيئة ضوءا بديعا جميلا يفوق في سناه كل جمال وهذا الضوء يبقى بعض أيام أو أسابيع لأن الشمس اذا غربت هناك فانها لاتزال تحت الأفق قريبا من سطح الأرض وهي تدور دورة رحوية . فسعاد هؤلاء بذلك الضوء الجميل الذي يريهم الطرق الثلجية الجميلة وتكون إذ ذاك حركة البيع والشراء متسعة وتكون بحارهم جامدة يمرون على مائها بأنفسهم ودوابهم

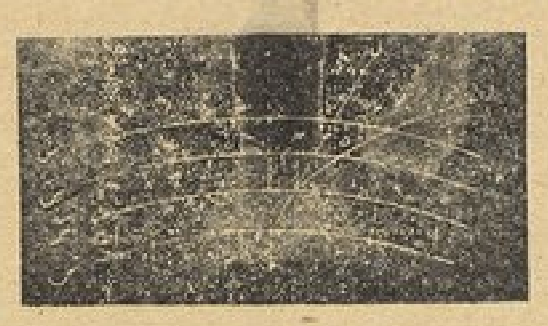
فياليت شعري من أين جاءت لهم هذه النعم كلها ؟ جاءت بسبب انكسار الضوء اذا جاء من الجو اللطيف الى الجو الكثيف على وجه الأرض . فالكثافة في الجو كانت أعظم نعمة على الانسان والحيوان وبسببها كان انكسار الضوء فانتشر في الآفاق ، وهاك إيضاح هذا المقام مما جاء في كتاب « الاصول الوافية . في علم القسموغرافيا المتقدم » تحت العنوان الآتي وهذا نصه :

﴿ انكسار الضوء ﴾

يمتد الضوء على خط مستقيم في وسط متجانس لكن عند ما يقابل شعاع ضوئي السطح الفاصل بين وسطين في اتجاه مائل فانه يزوغ ويسمى هذا الزوغان انكسارا ، واذا مد عمود على السطح الفاصل بين وسطين من النقطة التي ينكسر فيها الشعاع الساقط فان هذا العمود والشعاع يعينان مستويا يسمى مستوى السقوط ، وعوضا عن أن يستمر الضوء في طريقه على خط مستقيم يزوغ ويقرب الشعاع الضوئي المنكسر أو يبعد عن العمود بدون أن يخرج عن مستوى السقوط فيقرب من العمود اذا حصل المرور من طبقة هوائية الى أخرى

أكثف منها ويبعد فى الحالة العكسية

اذا تقرر هذا يمكن قبول أن الجو مركب من طبقات متحدة المركز كثافتها تأخذ فى النقص كلما بعدت عن سطح الأرض ولتكن (س وسَ وسً) السطوح الفاصلة بين هذه الطبقات المختلفة (انظر شكل ٧)



(شكل ٧)

فالشعاع الضوئى الآتى فى الاتجاه (ل م) يقرب من العمود بدخوله فى الطبقة (سً سً) ويتبع الاتجاه من مثلا وف (ن) يعتريه زوغان جديد ويتبع الاتجاه (ن ق) فى الطبقة (سَ سَ) وأخيرا يزوغ فى (ق) ويتبع الاتجاه (ق و) داخل الطبقة (س س) بحيث إن الراصد الموجود فى (و) يرى الشئ فى الاتجاه (ولَ) وفى الحقيقة لايتبع الضوء خطا منكسرا بل خطا منحنيا لأن كثافة طبقات الهواء تأخذ فى الازدياد بدرجة غير محسوسة ، والراصد يرى الشئ المضىء (ل) فى اتجاه المماس فى (و) لخط السير المنحنى وصورة الكوكب أو وضعه الظاهرى لايدل حينئذ على وضعه الحقيقى وبالنسبة للراصد يكون الارتفاع الظاهرى للكوكب فوق الأفق أكبر من الارتفاع الحقيقى وتلك هى الظاهرة المسماة بانكسار الضوء وجميع الكواكب توجد بهذه المثابة فى غير مواضعها . وحيث أن الخطأ يكون أعظم كلما كانت الطبقات المقطوعة أكثر كثافة وأكثر ميلا بالنسبة للأشعة الضوئية فلا يكون الانكسار واحدا للارتفاعات المختلفة . انتهى الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين

﴿ نتيجة هذه الفصول الثلاثة ﴾

إن الانسان فى الظلمات الثلاث وهو جنين : فى بطن الأم وفى الرحم وفى المشيمة قد جعلت هذه رحمة وصيانة له كما أنعم عليه وصين بما ملىء به جونا من الغبار والدخان اللذين كانا سببا فى انكسار الضوء فأمكننا أن ننظر نور الشمس وقرصها بأعيننا صباحا ومساء وانتشر نور الصباح والمساء وأشرق الضوء نهارا على أقطار المسكونة . كل ذلك بسبب ذلك الغبار المتخلل طبقات الهواء التى أصبحت أشبه بزجاجة نضعها على أعيننا فنتحمل رؤية الضوء وبها نرى الشمس وقت الصبح أكبر منها وقت الظهر لأن الغبار فوق سطح الأرض أكثف منه فى أعلى الجو ، وكل ذلك بسبب انكسار الضوء ، وماهذا الانكسار الضوئى إلا نتيجة الطبقات المعتمة التى ظاهرها انها نقمة وباطنها نعمة إذ بدون ذلك لاتهنأ لنا الحياة إذ لا انتشار للضوء فلا منفعة فى الحياة ومثل هذا يقال فى وساوس الشيطان التى لاتكون إلا فى قلوب أشربت حب الشهوات وأنواع الشرور فتكون مأوى للنفوس الشريرة التى فارقت الدنيا أوالتى من الجن ، فهذه الوساوس انما تجول فى قلوب استعدت لها كما استعدت عين الأرمد القذر لولوج الذباب بها سواء بسواء

فاذا ساعدت الملائكة الانسان بانماء الزرع وحفظ العوالم ، فهذا من نتائج سجودها لآدم المذكور فى آخر ﴿ سورة ص ﴾ كما نرى دود القز والنحل والخيل والبغال والحمير والطيور آلات الجنود كلها مساعدات

لنا على هـذه الحياة ، واذا رأينا الشياطين يوسوسون للناس فانهم لم يفعلوا شيأ أكثر مما فعلت فينا الاسود والنمور والحيوانات الذرية المحدثات للطواعين فى الأرض . فكما تحارب حيوانات الطاعون بعلومنا وأعمالنا هكذا نحارب وساوس الشيطان بما عرفنا من العلوم و بالجد

إن حياتنا على الأرض نفسها نعمة كبرى لولاها لم نعقل هذه العوالم المحيطة بنا ولقد عرفناها بحواسنا الخمس التى اقتسمت المعارف المحسوسة قسمة عادلة كما فى فن المقولات المشروح فى هذا التفسير مرارا وآثار هذه المعارف تنبعث الى النفس فتكون صورها علوما ولن يكون ذلك إلا بهذه الصور الانسانية المحبوسة فى ظلمات ثلاث فى الجنين وفى (١٦) ظلمة فى الجو اذا صار رجلا وظلمات كثيرة فى النفس من حيث الأخلاق بهذه الظلمات طبقات يترشح منها ويتخللها بعض المعلومات فترفع النفس شيأ فشيأ فى أثناء الحياة حتى اذا مات الانسان وجد انه أصبح أرقى مما كان عليه فى الحياة وهذا هو الذى غاب عن ملائكة الأرض إذ قالوا ـ أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ـ قال لهم إنى أعلم ذلك ولكنى ربيتهم فى تلك الشرور وأعطيتهم تجارب وعلوما فى أثناء ذلك فأنا أعلم مالاتعلمون . ألاترون انهم يعرفون أسماء الأشياء الجزئية فى الأرض وأنتم لاتعلمونها . إذن هذا العمل لحكمة عظيمة . فأنا وان حبستهم وجعلتهم فى الظلمات لم أفعل ذلك احتقارا لشأنهم بل جعلته أشبه بالمنظار يوضع على العين لأنهم لايطيقون جميع العلوم مرة واحدة . فأنا ماخلقت هـذا باطلا . وهذا قوله تعالى ـ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون ـ

اللهم إنى أحمدك قد كشفت لنا حجاب هذه المسائل العويصة وسهلت السبل بطبعها ونشرها . وهذا آخر القول فى هذا المقام والحمد لله رب العالمين . كتب فى نصف ليلة الاثنين (٨) من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠

***

وههنا سألنى ذلك العالم صديقى قائلا : أنا الى الآن لم أفهم الحجب الستة عشر ولا الحجب التى تبلغ نحو مائة وانما فهمتها فهما إجماليا . نعم عرفت الظلمات الثلاث وهى البطن والرحم والمشيمة ، ولكن تلك الست عشرة ظلمة وما بعدها لم تتضح لى . فقلت : إن ماتقدم واضح ولكنك أنت تريد ماهو أوضح . فقال : هو ذاك . فقلت : ألم أذكر لك فيما تقدم هنا عن علماء الفلك أن الجو الذى هو أقرب إلى الأرض تكون كثافة عبارة أكثر من كثافة ماهو أعلى (١٦) مرة قال بلى . قلت : فهذه هى (١٦) حجابا أو ظلمة وأزيد عليه فأقول اقرأ ماتقدم فى ﴿سورة فاطر﴾ ألم تر إلى (شكل ١٦) من الأشكال التى رسمت هناك لإيضاح آية ـ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ـ الخ وكيف ترى فيه النسيج الهدبى المبطن للقصبة الهوائية قد جعل أشبه بالكناسين والزبالين لأن تلك الأهداب تتحرك ليلا ونهارا من الداخل الى الخارج لتخرج الغبار الداخل مع النفس لئلا تفسد المملكة الرئوية الخادمة للمملكة الدموية . قال نعم أتذكر ذلك وقرأته وماذا يفيدنا ؟ قلت : ثم انظر الى ﴿سورة ص﴾ وقد جاء فى آخرها ـ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ـ وتأمل ما كتبته هناك عن (هيج) الانجليزى و (كاتانى الثليانى) و (كوهن الألمانى) وطبيب نطاسى فرنسى . ألم أذكر لك فى الكلام المنقول عن أحد هؤلاء أن الغبار والدخان الداخلين فى الرئة يكونان سببا فى فساد صحة البدن وبذلك تحدث الأمراض ، وهذا الغبار والدخان الداخلان فى الرئة يفعلان ما تفعله جميع المآكل القوية التغذية كاللحم والبيض وتفعلان فعل المواد الأخرى المركبة من أنواع الحلوى والتوابل ، فهذه كلها هى التى تجعل فى العروق سدودا وحواجز وتلك السدود والحواجز تفعل فى الجسم ماتفعله السدود فى المساق فيحصل الهلاك للزرع تارة بالغرق وتارة بقلة الماء وتكون هناك الأمراض المختلفة المضنية من الدماميل والقروح والسرطان والجذام والبرص والصداع وما أشبهها مما لاحصر له . فقال نعم تقدم هذا . قلت : فحينئذ غبار الجو ودخانه ضاران بنا

ولأجل هذا الضرر جعل الله فى باطن القصبة الهوائية أهدابا لتطرد ذلك الضار وخلق أطباء يوقظوننا لأجل هذه المهلكات ويقولون : « تباعدوا عن غبار الطرقات وعن الدخان وعن كل مافيه روائح ضارّة » . قال نم . فقلت : إذن هــذه المواد الغريبة فى الهواء ضارّة . إذن هى حجب بيننا و بين الصحة و بيننا و بين السعادة وظلمات تغشى على ضوء الشمس فيكون ضوءها صباحا أقلّ منه وقت الظهيرة لأن الغبار والدخان وأمثالهما يكونان أقرب الى وجه الأرض و يفصلان بين عيوننا و بين الشمس فتحمل عيوننا الضوء و يحصل هنا منافع لاحدّ لها . فهنا ضرر محقق ومنافع محققة . فالمنافع هى أن الشمس يظهر نورها رويدا بالتدريج كما تقدّم ويكون صبح وشفق الى آخر ماتقدّم ، ولولا هذا الضار وهى الحجب لم تهنأ لنا الحياة على الأرض لأن الضوء لاينتظم توزيعه على الأرض . فأرواحنا فى أجسامنا لاتقدر على مواجهة ضوء الشمس بدون تدريج وهذا وضح وضوحا تاما كما تقدّم ، إذن لافرق بين الظلمات الثلاث للجنين و بين الظلمات الست عشرة للرجال والنساء ، فهذه وتلك جيء بها لأن المصلحة قضت بذلك

بقيت مسألة الظلمات والحجب الآتية من الوسوسة الشيطانية وهى كالمتقدّمة سواء بسواء . إن الانسان مخلوق غريب جدا فهو من جهة ملك ومن جهة بهيمة ومن جهة شيطان . وهذه الاصول الثلاثة تفرّعت عنها أخلاق فاضلة وأخرى ناقصة قد تقدّم أكثرها فى ﴿ سورة البقرة ﴾ عند قصة آدم فارجع اليها هناك وهذه مشروحة فى الربع الثالث والرابع من الاحياء فالثالث للاخلاق الناقصة والشرور والرابع للأخلاق الفاضلة . والأخلاق الفاضلة تكون لغلبة القوّة الملكية على القوّتين الأخريين والانسان من حيث انه ملكى إلهى يكون حكيما ذكيا جيل الخلق . ومن حيث انه بهيم يكون بخيلا طماعا جاعا جبانا خائنا كاذبا . ومن حيث انه شيطان يكون معاندا حقودا حسودا ظلوما متهوّرا . فهــذه أخلاق الشياطين . وماقبلها أخلاق البهائم . والأولى أخلاق الملائكة . وقد تصل الأخلاق الشريرة فى العــدّ الى نحو المائة واليها الاشارة فى بعض الآثار الى التنين الذى له (٩٩) رأسا بها ينهش ابن آدم . فهذا التنين الآن موجود ويبتدىء نهشه للانسان فى هــذه الحياة من حقد ودغل وطمع وغشّ وكذب وزور وبهتان وغيبة ونميمة ، فهــذه كلها طباع شريرة تؤذى صاحبها فى الحياة وتظهر نتائجها بعد الموت ، فهذه كلها حجب تحجب الانسان عن معرفة الحقائق ، ولولا هذه الموانع لاطلعت أرواحنا الملكية العالية فى أصلها على المعارف مرة واحــدة فهلكت كما يموت من اطلع على كنز مرة واحدة وكان ضعيف النفس وهكذا ، فهذه حجب خلقت فينا لمصلحتنا فالله كما خلق الظلمات فى الرحم لمنافع الجنين وخلق الغبار والدخان فى الجوّ القريب من الأرض وهوضارّ بنا ليحول بين أعيننا و بين الشمس لئلا تستضر بها ولمنافع أخرى تقدّمت ، هكذا نراه خلق فينا شهوات البهائم ورذائل الشياطين لتكون بمثابة مانع وحاجب يحجب عنا الحقائق حتى لانهلك

فلما سمع صاحبى ذلك قال : اللهم إنى أحمدك حمدا يوافى نعمك وضرب كفا على كفّ وقال والله لقد انحلت بهذا مشكلات الدين والدنيا ، أكثر الناس يعيشون و يموتون وهم جاهلون ، و يظهر ان هذا التفسير قد فتح ما كان مقفلا على أكثر الناس ، ههنا عرفنا الدين والدنيا وعرفنا الحقائق و بامتزاج العلوم الطبيعية بالعلوم الدينيــة أدركنا حقائق جهلتها أمم وأمم ، إذن أصبحت الوسوسة والذنوب كلها لحكمة ، واذا قيست بالظلمات الثلاث فى الرحم والظلمات الست عشرة فى الجوّ فقد انحلت المشكلة ، إذن الناس يوم القيامة وفى البرزخ يوضعون فى أماكن استحقوها بحسب استعدادهم ، وماجهنم إذن إلا مكان تعيش فيه نفوس ناقصة لاتقدر أن تعيش فى غيرها كما يعيش السمك فى البحر . وهذا سرّ عظيم لم يتضح إلا فى هذا التفسير بل هذا الذى به نفهم « بسم الله الرحمن الرحيم » ونفهم — ورحمتى وسعت كل شئ — ومن عجب أن الظلمات الثلاث بضربها فى (٥) تصير (١٥) وهى تقرب من (١٦) و (١٦) بضربها فى (٥) تصير (٨٠)

و

و (٨٠) تعرب من الأخلاق الرديئة التي قلتم انها تقرب من مائة وبهذا تجلت الحقائق . فقلت : الحمد لله رب العالمين . انتهت اللطائف التي جعل كل طائفة منها خاصا بقسم من أقسام السورة

﴿ اللطائف العامة لأقسام السورة كلها ﴾

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(في قوله تعالى ـ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ـ الخ مع قوله ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع ـ والكلام على السنة الشمسية والبروج والمنازل وسير القمر)

جاء في كتاب « صبح الأعشى » مانصه :

اعلم أن للشمس حركتين : سريعة وبطيئة . أما السريعة فحركة فلك الكل بها في اليوم والليلة من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق ، وتسمى الحركة اليومية . وأما الحركة البطيئة فقطعها فلك البروج في سنة شمسية من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب . ولتعلم أن جهة المشرق وجهة المغرب لاتتغيران في أنفسهما بل جهة المشرق واحدة وكذلك جهة المغرب . وان اختلفت مطالعهما . قال تعالى ـ رب المشرق والمغرب ـ أي جهة الشروق وجهة الغروب في الجملة . الا أن الشمس لها غاية ترتفع إليها في الشمال ولتلك الغاية مشرق ومغرب وهو مشرق الصيف ومغربه . ومطلعها حينئذ بالقرب من مطلع السماك الرامح . ولها غاية تنحط إليها في الجنوب . ولتلك الغاية أيضا مشرق ومغرب . وهو مشرق الشتاء ومغربه . ومطلعها حينئذ بالقرب من مطلع بطن العقرب . وهذان المشرقان والمغربان هما المراد بقوله تعالى ـ رب المشرقين ورب المغربين ـ وبين هاتين الغايتين مائة وثمانون مشرقا ويقابلها مائة وثمانون مغربا . ففي كل يوم تطلع في مطلع من المشرق غير الذي تطلع فيه بالأمس . وتغرب في مغرب غير الذي تغرب فيه بالأمس . وذلك قوله تعالى ـ رب المشارق والمغارب ـ ونقطة الوسط بين هاتين الغايتين . وهي التي يعتدل فيها الليل والنهار يسمى مطلع الشمس فيها مشرق الاستواء . ومغرب الاستواء . ومطلعها حينئذ بالقرب من مطلع السماك الأعزل . وقد قسم علماء الهيئة مابين غاية الارتفاع وغاية الهبوط اثني عشر قسما . قالوا والمعنى في ذلك أن الشمس في المبدإ الأول لما سارت مسيرها الذي جعله الله خاصا بها قطعت دور الفلك التاسع في ثلثمائة وستين يوما . وسميت جملة هذه الأيام سنة شمسية ورسمت بحركتها هذه في هذا الفلك دائرة عظمى على ماتوهمه أصحاب الهيئة . وقسمت هذه الدائرة الى ثلثمائة وستين جزءا وسموا كل جزء درجة . ثم قسمت هذه الدرج الى اثني عشر قسما على عدد شهور السنة . وسموا كل قسم منها برجا . وجعلوا ابتداء الأقسام من نقطة الاعتدال الربيعي . لاعتدال الليل والنهار عند مرور الشمس بهذه النقطة . ووجدوا في كل قسم من هذه الأقسام نجوما تتشكل منها صورة من الصور فسموا كل قسم باسم الصورة التي وجدوها عليه . وكان القسم الأول الذي ابتدؤا به نجوما إذا جمع متفرقها تشكلت صورة حمل . فسموها بالحمل وكذلك البواقي . قال صاحب مناهج الفكر : وذلك في أول مارصدوا . وقد انتقلت الصور عن أمكنتها على مازعموا فصار مكان الحمل الثور . وهي تنتقل على رأى بطليموس في ثلاثة آلاف سنة وعلى رأى المتأخرين في ألفي سنة . إذا علمت ذلك فاعلم أن الدورة الفلكية في العروض الشمالية تنقسم إلى ثلثمائة وستين درجة . كما تقدمت الاشارة إليه . والسنة ثلثمائة وستون يوما منقسمة على الاثنى عشر برجا المتقدم ذكرها . لكل برج منها ثلاثون يوما . وتوزع عليها الخمسة أيام والربع يوم . والليل والنهار يتعاقبان بالزيادة والنقصان بحسب سير الشمس في تلك البروج فما نقص من أحدهما زيد في الآخر . وذلك أنها اذا حلت في رأس الحمل وهي آخذة في الارتفاع الى جهة الشمال . وذلك في السابع عشر من

برمهات من شهور القبط . ويوافقه الحادى والعشرون من آذار من شهور السريان . وهو مارس من شهور الروم . والرابع والعشرون من حردادماه من شهور الفرس . اعتدل الليل والنهار . فكان كل واحد منهما مائة وثمانين درجة . وهو أحد الاعتدالين في السنة . ويسمى الاعتدال الربيعى . لوقوعه أول زمن الربيع فيزيد النهار فيه فى كل يوم نصف درجة . وينقص الليل كذلك . فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس عشرة درجة . ونقص الليل كذلك . ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وتسعين درجة . والليل على مائة وخمس وستين درجة . ثم تنقل إلى الثور فيزيد النهار فيه كل يوم ثلث درجة وينقص الليل كذلك فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوما عشر درجات ونقص الليل كذلك . ويصير النهار بآخره على مائتين وخمس درجات . والليل على مائة وخمس وخمسين درجة . ثم تنقل إلى الجوزاء فيزيد النهار فيها كل يوم سدس درجة وينقص الليل كذلك . فتكون زيادة النهار فيها لمدة ثلاثين يوما خمس درجات . ونقص الليل كذلك . ويصير النهار آخرها على مائتين وعشر درجات والليل على مائة وخمسين درجة . وذلك غاية ارتفاعها فى جهة الشمال . وهذا أطول يوم فى السنة وأقصر ليلة فى السنة . ويسمى سير الشمس فى هذه البروج الثلاثة شماليا صاعدا : لصعودها فى جهة الشمال ثم تنقل الشمس إلى السرطان وتكر راجعة إلى جهة الجنوب . ويسمى ذلك المنقلب الصيفى . وذلك فى العشرين من بؤنة من شهور القبط . ويبقى من حزيران من شهور السريان . ويونيه من شهور الروم خمسة أيام . وحينئذ يأخذ الليل فى الزيادة والنهار فى النقصان . فينقص النهار فيه كل يوم سدس درجة . ويزيد الليل كذلك . فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس درجات ، وزيادة الليل كذلك . ويصير النهار بآخره على مائتين وخمس درجات . والليل على مائة وخمس وخمسين درجة . ثم تنقل إلى الأسد فينقص النهار فيه كل يوم ثلث درجة . فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما عشر درجات . وزيادة الليل كذلك . ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وتسعين درجة . والليل على مائة وخمس وستين درجة . ثم تنقل إلى السنبلة فينقص النهار فيها كل يوم نصف درجة . ويزيد الليل كذلك فيكون نقص النهار فيها لمدة ثلاثين يوما خمس عشرة درجة ، وزيادة الليل كذلك . ويصير النهار بآخرها على مائة وثمانين درجة والليل كذلك . فيستوى الليل والنهار . ويسمى الاعتدال الخريفى : لوقوعه فى أول الخريف . ويسمى سير الشمس فى هذه البروج الثلاثة شماليا هابطا . لهبوطها فى الجهة الشمالية . ثم تنقل إلى الميزان فى الثامن عشر من توت من شهور القبط . وهى آخذة فى الهبوط والنهار فى النقص والليل فى الزيادة فينقص النهار فيه كل يوم نصف درجة . ويزيد الليل كذلك . فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس عشرة درجة . وزيادة الليل كذلك . ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وستين درجة والليل على مائة وخمس وتسعين درجة ، ثم تنقل إلى العقرب . فينقص النهار فى كل يوم ثلث درجة . ويزيد الليل كذلك فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما عشر درجات . وزيادة الليل كذلك . ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة ، والليل على مائتين وخمس درجات . ثم تنقل إلى القوس . فينقص النهار فيه كل يوم سدس درجة . ويزيد الليل كذلك . فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس درجات ؛ وزيادة الليل كذلك . ويصير النهار بآخره على مائة وخمسين درجة . والليل على مائتين وعشر درجات . وهو أقصر يوم فى السنة وأطول ليلة فى السنة . وذلك غاية هبوطها فى الجهة الجنوبية . ويسمى سير الشمس فى هذه البروج جنوبيا هابطا . لهبوطها فى الجهة الجنوبية . ثم تنقل الى الجدى فى السابع عشر من كيهك وتكر راجعة فتأخذ فى الارتفاع ويأخذ النهار فى الزيادة والليل فى النقصان . فيزيد النهار فيه كل يوم سدس درجة . وينقص الليل كذلك فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس درجات ونقص الليل كذلك . ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة . والليل على مائتين وخمس درجات . ثم تنقل إلى الدلو . فيزيد

النهار

النهار فيه كل يوم ثلث درجة . وينقص الليل كذلك . فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوما عشر درجات ونقص الليل كذلك . ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وستين درجة والليل على مائة وخمس وتسعين درجة . ثم تنقل إلى الحوت فيزيد النهار فيه كل يوم نصف درجة وينقص الليل كذلك . فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس عشرة درجة ونقص الليل كذلك . ويصير النهار بآخره على مائة وثمانين درجة والليل كذلك . فيستوى الليل والنهار وهو رأس الحمل وقد تقدم . ويسمى سير الشمس فى هذه البروج الثلاثة جنوبيا صاعدا : لصعودها فى الجهة الجنوبية . وهذا شأنها الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . وهذا العمل إنما هو فى مصر وأعمالها . فاذا اختلفت العروض كان الأمر فى الزيادة والنقصان بخلاف ذلك والله أعلم

وقد تقدم بعض هذا ولكن ماذكرناه هنا أضبط وأوضح وهو من صبح الأعشى . ما أعجب هذا النظام والاتقان . فانظر كيف انتظم الحساب لانتظام السير وعلى مقتضاه رتب الناس شهورهم . فالقبط شهورهم والسريان شهورتخالفهم وهكذا الروم وهاك بيانها (انظر هذا الجدول)

شهور القبط منسوبة لدقلطيانوس الملك	شهور السريان منسوبة للاسكندر	شهور الروم منسوبة لأغطس ملك الروم
توت	يوافق أوله ٢٠ آب الموافق لشهر	أغسطس
بابه	« « ٢٧ ايلول « «	سبتمبر
هاتور	« «٢٧ تشرين الأول « «	اكتوبر
كيهك	« «٢٦ تشرين الثانى « «	نوفمبر
طوبه	« « ٢٦ كانون الأول « «	ديسمبر
أمشير	« « ٢٥ كانون الثانى « «	يناير
برمهات	« « ٢٤ شباط « «	فبراير
برموده	« « ٢٦ آذار « «	مارس
بشنس	« « ٢٥ نيسان « «	ابريل
بؤنه	« « ٢٥ أيار « «	مايو
أبيب	« « ٢٤ حزيران « «	يونيو
مسرى	« « ٢٤ تموز « «	يوليو

وقد نظم الشيخ ابراهيم الدهشورى شهور السريان فقال :

وابدأ بأيلولٍ منَ السّريانى * تَشرينُ الأوّلُ يتبعنه الثانى

كانُونُ كانُونُ شَباطُ يطلَعُ * آذارُ نَيسانُ أيارُ يَتبَعُ

ثم حزيرانُ وَتموزُ وآبْ * تبارك الرحمنُ يَهدِى من احبْ

وقد نظم أيضاً الشيخ المذكور شهور الروم فقال :

يَنـيرُ فبريرُ مارسُ الروم * إبريلُ مايُهْ خلس للعلوم

يُونْيَه وَيُلْيه ثمَّ أغشت شتمبر ، أكتوبر نوفبر دجنبر

وقد نظم الشيخ أبو عبد الله الكيزانى أبياتاً ذكر فيها الأشهر التى تكون ثلاثين يوماً والناقصة عنها ولم يتعرض للزائدة عنها فقال :

شهور الروم ألوان ، زيادات ونقصانُ
فتشرينهم الثانى ، وأيلول وَنَيْسَانُ
ثلاثُونَ ثلاثُونَ ، سَوَاء وَحَزِيرَانُ
شباطٌ خُصَّ بالنقص ، وقدر النقص يومانِ

قد سماها شهور الروم لموافقتها لها والا فهى للسريان اه

﴿ الكلام على المنازل ﴾

جاء فى كتاب صبح الأعشى مانصه

ان النهار الطبيعى أوّله طلوع الشمس وآخره غروبها . والنهار الشرعى أوّله طلوع الفجر الثانى وآخره غروب الشمس . فيخالفه فى الابتداء ويوافقه فى الانتهاء . وطلوع الشمس وغروبها ظاهر يعرفه الخاص والعام ، أما الفجر فان أمره خفىّ لا يعرفه كل أحد . وقد تقدم انقسامه الى كاذب . وهو الأوّل ، وصادق . وهو الثانى . وعليه التعويل فى الشرعيات . فيحتاج الى موضح يوضحه ويظهره للعيان وقد جعل المنجمون وعلماء الميقات له نجوما تدل عليه بالطلوع والغروب والتوسط . وهى منازل القمر ، وعدتها ثمان وعشرون منزلة . وهى الشرطان(١) والبطين(٢) والثريا ، والدبران(٣) والهقعة(٤) والهنعة(٥) والذراع ، والنثرة(٦) والطرف . والجبهة والخرتان(٧) والصرفة(٨) والعواء(٩) والسماك(١٠) والغفر(١١) والزبانان(١٢) والاكليل . والقلب . والشولة(١٣) والنعائم . والبلدة(١٤) وسعد الذابح . وسعد بلع(١٥) وسعد السعود . وسعد الاخبية . والفرغ المقدم . والفرغ المؤخر . وبطن الحوت . والمعنى فى ذلك أن الشمس إذا قربت من كوكب من الكواكب الثابتة أو المتحركة سترته وأخفته عن العيون . فصار يظهر(١٦) نهارا ويختفى ليلا ويكون خفاؤه غيبته . ولايزال كذلك خافيا إلى أن تبعد عنه الشمس بعدا يمكن أن يظهر معه للأبصار وهو عند أوّل طلوع الفجر فان ضوء الشمس يكون ضعيفا حينئذ فلايغلب نور الكوكب فيرى الكوكب فى الأفق الشرقى ظاهرا . وحصة كل منزلة من هذه المنازل من السنة ثلاثة عشر يوما وربع سبع يوم ونصف ثمن سبع يوم على التقريب كما سيأتى(١٧) على المنازل الثمانية والعشرين خص كل منزلة ماذكر من العدد والكسور ولما كان الأمر كذلك جعل لكل منزلة ثلاثة عشر يوما : وهى ثلاث عشرة درجة من درج الفلك وجمع مافضل من الكسور على كل ثلاثة عشر يوما بعد انقضاء أيام المنازل الثمانية والعشرين فكان يوما وربعا فجعل يوما فى المنزلة التى توافق آخر السنة وهى الجبهة فكان حصتها أربعة عشر يوما . وبقى ربع يوم ونسىء أربع سنين حتى صار يوما فزيد على الجبهة أيضا . فكانت كواكب المنازل(١٨) المذكورة تطلع مع الفجر منها أربعة عشر يوما ثلاث سنين وفى السنة الرابعة تطلع بالفجر خمسة عشر يوما وهاك ملخص ماذكره فى حسابها

(١ و٣ و٧) بفتحتين (٢) مصغر (٤ و٥ و٦ و٨ و١١ و١٣ و١٤) بفتح فسكون (١٢) بضم أوله (١٥) بضم ففتح (٩) بفتح فشدّه (١٠) مثل كتاب

(١٦) لعله يختفى نهارا ويظهر ليلا . ومع ذلك بقية العبارة غير واضحة .

(١٧) كذا فى الأصل ولعله فان أيام السنة اذا قسمت على الخ .

(١٨) كذا فى الاصل ولعله (المنزلة) انتهى مؤلفه

المنازل	شهور القبط	شهور السريان	شهور الروم
الشرطان أوّل طلوعها بالفجر	٢٣ برموده	١٨ نيسان	ابريل
البطين أوّل طلوعها بالفجر	٦ بشنس	أوّل ايار	مايه
الثريا أوّل طلوعها بالفجر	١٩ بشنس	١٤ ايار	»
الدبران أوّل طلوعها بالفجر	٢ بؤنه	٢٦ ايار	»
الهقعه أوّل طلوعها بالفجر	١٥ بؤنه	٩ حزيران	يونيه
الهنعه أوّل طلوعها بالفجر	٢٨ بؤنه	٢٢ »	»
الذراع أوّل طلوعها بالفجر	١١ أبيب	٥ تموز	يوليه
النثرة أوّل طلوعها بالفجر	٢٤ أبيب	١٨ »	»
الطرف أوّل طلوعها بالفجر	٧ مسرى	آخر تموز	»
الجبهة أوّل طلوعها بالفجر	٢٠ مسرى	١٣ آب	أغسطس
الخرتان أوّل طلوعها بالفجر	٤ من أيام النسىء وفى السنة الكبيسة فى ٥ منه	٢٧ آب	»
الصرفه أوّل طلوعها بالفجر	١٢ توت	٩ ايلول	سبتمبر
العوّاء أوّل طلوعها بالفجر	٢٥ توت	٢٢ ايلول	»
السماك أوّل طلوعها بالفجر	٨ بابه	٥ تشرين الأوّل	اكتوبر
الغفر أوّل طلوعها بالفجر	٢١ بابه	١٨ تشرين الأوّل	»
الزُبانان أوّل طلوعها بالفجر	٤ هاتور	آخر يوم من تشرين الأوّل	»
الاكليل أوّل طلوعها بالفجر	١٧ هاتور	١٣ من تشرين الثانى	نوفمبر
القلب أوّل طلوعها بالفجر	آخر يوم من هاتور	٢٦ تشرين الثانى	»
الشوله أوّل طلوعها بالفجر	١٣ كيهك	٩ كانون الأوّل	ديسمبر
النعائم أوّل طلوعها بالفجر	٢٦ كيهك	٢٢ كانون الأوّل	»
البلده أوّل طلوعها بالفجر	٩ طوبه	٤ كانون الثانى	يناير
سعد الذابح أوّل طلوعها بالفجر	٢٢ طوبه	١٧ كانون الثانى	»
سعد بلع أوّل طلوعها بالفجر	٥ أمشير	٣٠ كانون الثانى	»
سعد السعود أوّل طلوعها بالفجر	١٨ أمشير	١٢ شباط	فبراير
سعد الأخبيه أوّل طلوعها بالفجر	أوّل برمهات	٢٥ شباط	»
الفرغ المقدّم أوّل طلوعها بالفجر	١٤ برمهات	٧ آذار	مارس
الفرغ المؤخر أوّل طلوعها بالفجر	٢٧ برمهات	٢٢ آذار	»
بطن الحوت أوّل طلوعها بالفجر	١٠ برموده	٥ نيسان	ابريل

هذه هي المنازل من حيث نزول الشمس فيها . فما أجل حسابها السهل ونظامها العجيب . فإذا أردنا أن نعرف أين تكون الشمس في أي منزلة فالأمر ظاهر واضح فلنعرف الشهر واليوم يحصل المطلوب

﴿ الكلام على القمر والمنازل بالنسبة له ﴾

جاء في كتاب صبح الأعشى مانصه

وأما حركته البطيئة . فحركته من جهة الشمال إلى جهة الجنوب ، ومن جهة الجنوب إلى جهة الشمال وتنقله في المنازل الثمانية وعشرين في ثمانية وعشرين يوما بلياليها كالشمس في البروج قال تعالى — والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم — فما تقطعه الشمس من الشمال إلى الجنوب وبالعكس في جميع السنة يقطعه القمر في ثمانية وعشرين يوما . والمنازل للقمر كالبروج للشمس . وذلك أنه لما اتصل إلى العرب ماحققه القدماء برصدهم من الكواكب الثابتة . وكان لاغنى لهم عن معرفة كواكب ترشدهم إلى العلم بفصول السنة وأزمنتها رصدوا كواكب وامتحنوها . ولم يستعملوا صور البروج على حقيقتها : لأنهم قسموا فلك الكواكب على مقدار الأيام التى يقطعه القمر فيها ، وهي ثمانية وعشرون يوما ، وطلبوا في كل قسم منها علامة تكون أبعاد مابينها و بين العلامة الأخرى مقدار مسير القمر في يوم وليلة . وسموها منزلة إلى أن تحقق لهم ثمانية وعشرون على ماتقدم ذكره في الكلام على طلوعها بالفجر : لأن القمر إذا سار سيره الوسط انتهى في اليوم التاسع والعشرين إلى المحاق الذى بدأ منه . فحذفت المتكرر . فبقي ثمانية وعشرين ويزاد بالشرطين : لأن كواكبه من جملة كواكب الحمل : الذى هو أول البروج . ثم هذه المنازل على قسمين . شمالي وجنوبي كما في البروج ، وكل قسم منها أربع عشرة منزلة . فالشمالي منها ماكان طلوعه من ناحية الشام . وتسمى الشامية ؛ وهو ماكان منها من نقطة الاعتدال . التي هي رأس الحمل والميزان صاعدا الى جهة الشمال ، وهي الشرطان ، والبطين والثريا . والدبران . والهقعة . والهنعة . والذراع . والنثرة . والطرف . والجبهة . والخرتان . والصرفة . والعواء . والسماك . و بطلوعها يطول الليل ويقصر النهار . والجنوبي منها ماكان طلوعه من ناحية اليمن وتسمى اليمانية . وهو ماكان منها من نقطة الاعتدال المذكور هابطا الى جهة الجنوب . وهي الغفر . والزبانان . والاكليل . والقلب . والشولة . والنعائم . والبلدة . وسعد الذابح . وسعد بلع . وسعد السعود . وسعد الاخبية . والفرغ المقدم . والفرغ المؤخر . وبطن الحوت . و بطلوعها يقصر الليل و يطول النهار .

ثم المنزلة عند المحققين قطعة من الفلك مقدارها ربع سبع الدور . وهو جزء من ثمانية وعشرين جزءا من الفلك عبارة عن [1] لاعن الكواكب . وإنما الكواكب حدود تفرق بين كل منزلة وأخرى . فعدل بالتسمية إليها وغلبت عليها .

ونزول القمر في هذه المنازل على ثلاثة أحوال إما في المنزلة نفسها وإما فيما بينها و بين التي تليها وإما محاذيا لها خارجا عن السمت شمالا أو جنوبا . وقد تقدم الكلام على عدول القمر عن بعض المنازل ونزوله في غيرها .

ولتعلم أن المنازل مقسومة على البروج الاثني عشر موزعة عليها : فالشرطان والبطين وثلث الثريا للحمل . وثلثا الثريا والدبران وثلثا الهقعة للثور وثلث الهقعة والهنعة والذراع للجوزاء . والنثرة والطرف وثلث الجبهة للسرطان . وثلثا الجبهة والخرتان وثلثا الصرفة للأسد . وثلث الصرفة والعواء والسماك للسنبلة . والغفر والزبانان وثلث الاكليل للميزان وثلثا الاكليل والقلب وثلثا الشولة للعقرب . وثلث الشولة والنعائم والبلدة للقوس . وسعد الذابح وسعد بلع وثلث سعد السعود للجدى [2] وثلث الفرغ المقدم والفرغ المؤخر وبطن الحوت للحوت.

إذا علمت ذلك فاذا أردت أن تعرف القمر في أي منزلة هو أو كم مضى له فيها من الأيام . فخذ ما مضى من سنة

(١) بياض بالأصل .

(٢) يظهر أن فيه سقطا هو . وثلثا سعد السعود وسعد الأخبية وثلثا الفرغ المقدم للدلو .

القبط شهورا كانت أو أياما أو شهورا وأياما وأبسطها أياما . وأضف الى ماحصل من ذلك يومين . ثم اطرح المجموع ثلاثة عشر ثلاثة عشر . وهو عدد لبث القمر فى كل منزلة من الأيام . واجعل أوّل كل منزلة من العدد الخرتان . فما بقى من الأيام دون الثلاثة عشر فهو عدد مامضى من المنزلة التى انتهى العدد إليها .

مثال ذلك أن يمضى من سنة القبط شهر توت وأربعة أيام من بابه فتبسطها أياما تكون أربعة وثلاثين يوما فتضيف اليها يومين تصير ستة وثلاثين يوما فاطرح منها ثلاثة عشر مرتين بستة وعشرين للخرتان منها ثلاثة عشر وللصرفة ثلاثة عشر تبقى عشرة . وهى مامضى من المنزلة الثالثة وهى العوّاء .

وإن أردت أن تعرف فى أىّ برج هو فاحسب كم مضى من الشهر العربىّ يوما وزد عليه مثله ثم زد على الجلة خمسة وأعط لكل برج خمسة وابدأ من البرج الذى فيه الشمس فأعط لكل برج خمسة فأينما انقد حسابك فالقمر فى ذلك البرج . والاعتماد فى ذلك على كم مضى من الشهر العربىّ بالحساب دون الرؤية والله أعلم

﴿ الكلام على أحوال الأهلة التى عليها مدار الشهور فى ابتدائها وانتهائها ﴾

واعلم أن مسير القمر مقدّر بمعرفة الشهور والسنين قال تعالى ـ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ـ والشمس تعطيه فى كل ليلة مايستضىء به نصف سبع قرصه حتى يكمل ثم تسلبه من الليلة الخامسة عشرة كل ليلة نصف سبع قرصه حتى لايبقى فيه نور فيستتر . ويروى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه سئل عن القمر فقال : يمحق كل ليلة ويولد جديدا ، ويبعد مثل هذا عن جعفر الصادق . إذا علمت ذلك فالقمر حركتان : سريعة وبطيئة كما تقدم فى الشمس . أما الحركة السريعة لحركة فلك الكل به من المشرق الى المغرب . ومن المغرب الى المشرق فى اليوم والليلة . واعلم أن الهلال إذا طلع مع غروب الشمس كان مغيبه على مضىّ ستة أسباع ساعة من الليل . ولايزال مغيبه يتأخر عن مغيبه فى كل ليلة ماضية هذا المقدار حتى يكون مغيبه فى الليلة السابعة نصف الليل . وفى الليلة الرابعة عشرة طلوع الشمس ثم يكون طلوعه فى الليلة الخامسة عشرة على مضى ستة أسباع ساعة منها . ولايزال طلوعه يتأخر عن طلوعه فى كل ليلة ماضية بعد الابدار هذا المقدار حتى يكون طلوعه ليلة إحدى وعشرين نصف الليل . وطلوعه ليلة ثمان وعشرين مع الغداة . واذا أردت أن تعلم على مضى كم من الساعات يغيب أو يطلع من الليل . فان أردت المغيب وكان قد مضى من الشهر خمس ليال تقديرا فاضربها فى ستة تكون ثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقى اثنان فيكون مغيبه على مضىّ أربع ساعات (١) أسباع ساعة وكذلك العمل فى أى ليلة شئت . وان أردت الطلوع وكان قد مضى من الابدار ست ليال مثلا فاضرب ستة فى ستة يكون ستة وثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقى واحد . فيكون طلوعه على خمس ساعات وسبع . وكذلك العمل فى أىّ ليلة شئت

ثم قال « للناس فى إخراج أوّل الشهر العربىّ طرق أسهلها أن تعرف أوّل يوم من المحرّم ثم تعد كم مضى من السنة من الشهور بالشهر الذى تريد أن تعرف أوّله وتقسمها نصفين . فان كان النصف صحيحا أضفت على الجلة مثل نصفه . وان كان مكسورا كملته وأضفته على الجلة . ثم تبتدىء من أوّل يوم من السنة وتعدّ منه أياما على توالى أسماء الأيام بعدد ماحصل معك من الأصل والمضاف فحيث انتهى عددك فذلك اليوم هو أوّل الشهر مثال ذلك فى الصحيح النصف . إن أردت أن تعرف أوّل يوم من شعبان وكان أوّل المحرّم يوم الأحد مثلا فتعدّ من أوّل المحرم الى شعبان وتدخل شعبان فى العدد فيكون ثمانية أشهر فتقسمها نصفين يكون نصفها أربعة فتضيف الأربعة إلى الثمانية تكون اثنى عشر . ثم تبتدىء من يوم الأحد الذى هو أوّل المحرّم فتعدّ الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت . ثم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس فيكون انتهاء الاثنى عشر فى يوم الخميس فيكون أوّل شعبان يوم الخميس . ومثاله فى المكسور النصف إذا أردت

(١) لعل الصواب وسبعان كما هو واضح

أن تعرف أوّل رمضان أيضا وكان أوّل المحرم الأحد كما تقدّم فتعدّ ما مضى من شهور السنة وتعدّ منها رمضان يكون تسعة أشهر فتقسمها نصفين يكون نصفها أربعة ونصفا فتكملها بنصف تصير خمسة فتضيفها الى الأصل المحفوظ وهو تسعة يكون المجموع أربعة عشر . ثم تبتدئ عدد الأيام من أوّل المحرّم . وهو الأحد كما تقدّم فيكون انتهاء الرابع عشر في يوم السبت فيكون أوّل رمضان يوم السبت

ومن الطرق المعتبرة في ذلك أن تنظر في الثالث من أيام النسيء من شهور القبط كم يوما مضى من الشهر العربي فما كان جعلته أصلا لتلك السنة . فاذا أردت أن تعرف أوّل شهر من الشهور العربية أو كم مضى من الشهر الذي أنت فيه . تأخذ الأصل المحفوظ معك لتلك السنة . وانظر كم مضى من السنة القبطية شهرا تأخذ لكل شهرين يوما . فان انكسرت الأشهر وجاءت فردا فاجبرها بيوم زيادة حتى تصير زوجا . وزد على ذلك يومين أصلا أبدا . ثم انظر كم يوما من الشهر القبطي الذي أنت فيه فأضفه على ما اجتمع معك . وأسقط ذلك ثلاثين ثلاثين فما بقي فهو عدد ما مضى من الشهر العربي . ومنه يعرف أوّله

ومثال ذلك نظرت في الثالث من أيام النسيء فوجدت الماضي من الشهر العربي ثلاثة أيام فكانت أصلا لتلك السنة ثم نظرت في الشهور القبطية فوجدت الشهر الذي أنت فيه أمشير مثلا فتعدّ من أوّل شهور السنة القبطية (وهو توت) إلى أمشير يكون ستة أشهر فتأخذ لكل شهرين يوما تكون ثلاثة أيام فتضيفها على الأصل الذي معك من أيام النسيء . وهو ثلاثة تصير ستة فزد عليها اثنين يصير المجموع ثمانية . ثم تنظر في الشهر القبطي الذي أنت فيه (وهو أمشير) تجده قد مضى منه يومان فتضيفهما على المجموع يكون عشرة . وهو الماضي من الشهر العربي الذي أنت فيه ومنه يعرف أوّله » انتهى من كتاب صبح الأعشى

هذا هو نهاية الكلام على المنازل والبروج وسير القمر والشمس فيهما وعلى الشهور القمرية والشمسية كل ذلك تفسير للآية التي نحن بصدد الكلام عليها ـ يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ـ انتهى

أيها الذكيّ هاهي ذه الدنيا أمامك ظاهرة واضحة فمتى عرفت يومك في شهرك استخرجت منه منزلة الشمس وبرجها وسير القمر فيهما ، والسنة التالية تتبع السابقة ، فالنظام تام والحساب بديع ، أفلا تعجب لهذا الحساب الذي لاخلل فيه وعلى مقتضاه كانت أحوالنا المعاشية

ياسبحان الله : شمس وقمر منظم سيرهما ومنازل وبروج منظمات وعلى مقتضاهما كانت حياة الانسان والحيوان ، فلولا النظام هناك لاختلّ النظام هنا ، فهاهوذا شهر توت أوّل يوم منه يسمى النيروز وهو رأس سنة القبط ، وفي (٧) منه يبتدئ لقط الزيتون ، وفي (١٧) منه تفتح أكثر الترع بمصر ، وفي ١٨ منه أوّل فصل الخريف ، وفي ١٩ منه يهيج السوداء في البدن ، وفي ٢١ منه يبتدئ بيض النعام ، وفي ٢٨ منه يذهب الحر ، وفي ٢٩ منه أوّل رعي الكراكي ، وفي ٣٠ منه يزرع الهليون

﴿ شهر بابه ﴾ فيه يبذر كل مالا تشقّ له الأرض كالبرسيم ونحوه وفي آخره تشق الأرض بالصعيد ويحصد الارز ويطيب الرمان وتضع الضأن والمعز والبقر الخيسية ويستخرج دهن الآس والنيلوفر ويدرك التمر والزبيب وبعض الحمضات ، وفي ثالثه رأس سنة السريان ، وفي رابعه أوّل تشرين الأوّل من شهورهم ، وفي خامسه عرس النيل ، وفي سادسه يطيب شرب الدواء ، وفي سابعه نهاية زيادة النيل ، وفي ثامنه يكره خروج الدم ، وفي حادي عشره يبتدئ النيل في النقص . وفي ثالث عشره بداية الوخم ، وفي رابع عشره يكثر الناموس وفي خامس عشره يبتدئ زرع القرط . وفي سادس عشره تبتدئ كثرة السعال . وفي تاسع عشره يبتدئ زرع السلجم . وفي الثاني والعشرين منه يبتدئ صلاح المواشي . وفي الثالث والعشرين منه تبتدئ كثرة الغيوم . وفي الرابع والعشرين منه تبتدئ أهل مصر الزرع . وفي السابع والعشرين منه يبتدئ سمن الحيتان

وفي

وفى الثامن والعشرين منه أوّل المدّ . وفى التاسع والعشرين منه أوّل الليالى البلق

(شهر هاتور) فيـه يزرع القمح و يطلع البنفسج [١] والمنثور . وأ كثر البقول . ويجمع مابقى من الباذنجان ومايجرى مجراه . ويحمل العنب من قوص . وفى ثانيه يبتدئ حصاد الأرز . وفى خامسه أوّل تشرين الثانى من شهور السريان وفيه يبتدئ برد المياه . وفى سادسه أوّل المطر الوسمى ، وفى سابعه يبتدئ أهل الشام الزرع . وفى ثامنه يبتدئ هبوب الرياح الجنوبية . وفى تاسعه يبتدئ زرع الخشخاش [٢] وفى حادى عشره يبتدئ اختفاء الهوامّ وفى ثالث عشره يبتدئ غليان البحر ، وفى رابع عشره تعمى الحيات . وفى سادس عشره يجمع الزعفران ، وفى ثامن عشره تكثر الوحوش . وفى الثامن والعشرين منه يغلق البحر الملح وتمتنع السفن من السفر فيه لشدّة الرياح . وفى الثالث والعشرين منه تبتدئ سخونة بطن الأرض . وفى الرابع والعشرين منه أوّل اسفيدار ماه من شهور الفرس

(شهر كيهك) فيه تدرك الباقلاء وتزرع الحلبة وأ كثر الحبوب . ويدرك النرجس والبنفسج . وتتلاحق المحمضات . وفى أوّله ابتداء أربعينيات مصر . وفى ثالثه يبتدئ موت الذباب . وفى خامسه أوّل كانون الأوّل من شهور السريان . وفى سابعه آخر الليالى البلق وأوّل الليالى السود . وفى حادى عشره يبتدئ الشجر فى رمى أوراقه . وفى ثانى عشره تظهر البراغيث . وفى سابع عشره أوّل فصل الشتاء ، وهو أوّل أربعينيات الشام . وفى ثامن عشره يتنفس النهار . وفى الحادى والعشرين منه يكثر الطير الغريب بمصر . وفى الثالث والعشرين منه أوّل مردوماه [٣] من شهور الفرس . وهو نوروزهم وأوّل سنتهم . وفى الخامس والعشرين منه يهيج البلغم . وفى السادس والعشرين منه تلقح الابل . وفى السابع والعشرين منـه يكثر شرب الماء فى الليل . وفى الثلاثين منه يبتدئ تقليم الكروم

(شهر طوبه) فى زرع القمح فيه تغرير . وفيه تشق الأرض للقصب والقلقاس . ويتكامل النرجس وفى أوّله تبيت الرياح الشديدة . وفى ثانيه يدرك القرط . وفى سادسه أوّل كانون الثانى من شهور السريان . وفى عاشره آخر أربعينيات مصر . وفى حادى عشره أوّل نصب الكروم . وفى ثانى عشره يشتدّ البرد . وفى ثالث عشره يبتدئ زرع المقات . وفى سابع عشره يبتدئ غرس الأشجار . وفى ثامن عشره تبتدئ كثرة الندى . وهو آخر الليالى السود . وفى تاسع عشره يبتدئ وقوع الثلج بالشام وغيره . وفى الرابع والعشرين منه يبتدئ صفو ماء النيل . وفى التاسع والعشرين منه يبتدئ اختلاف الرياح

(شهر أمشير) فيه تغرس الأشجار . وتقلم الكروم . و يدرك النبق واللوز الأخضر . ويكثر البنفسج والمنثور . وفى رابعه يبتدئ إفراخ النخل وفى سادسه أوّل شباط من شهور السريان . وفى حادى عشره يبتدئ إنتاج الطيور وزرع بقول الصيف . وفى ثانى عشره يبتدئ تحرّك دواب البحر . وفى الثانى والعشرين منه ثانى جرة فاترة . و يبتدئ مرض الأطفال . و يبتدئ خروج ورق الشجر . وفى الثالث والعشرين منه يبتدئ خروج الدواب للرعى . وفى الرابع والعشرين منه أوّل خردادماه من شهور الفرس . وفى الخامس والعشرين منه يبتدئ هيجان الرياح . وفى السابع والعشرين منه تبتدئ ثالث جرة حامية . وفى الثامن والعشرين منه أوّل المفرطات . وفى التاسع والعشرين منه آخر نهى ابقراط

(شهر برمهات) فيه تزهر الأشجار ويعقد أ كثر الثمار . ويزرع أوائل السمسم . ويقلع الكتان . ويدرك الفول والعدس . وفى ثانيه يحمد خروج الدم . وهو أوّل الأعجاز . وفى ثالث عشره تفتح الحيات أعينها . وفى خامس عشره تطيب الألبان . وفى سادس عشره يبتدئ خروج دود القز . وفى ثامن عشره يهيج الدم .

---

(١) بسكون الفاء وفتح بقية الحروف (٢) بفتح أوله

(٣) سيأتى قريبا أن نيروز الفرس وأوّل سنتهم أفرودين ماه ونظنـه الصواب لأنه الذى ورد فى مروج الذهب وغيره ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر فى أسماء الشهور الآتية

وفى تاسع عشره ظهور الهوامّ . وفى العشرين منه يزرع السمسم . وفى الرابع والعشرين منه أوّل تيرماه من شهور الفرس . وفى السادس والعشرين منه يبتدئ شرب المسهل . وفى السابع والعشرين منه خروج الذباب الأزرق

﴿ شهر برموده ﴾ فيه تقطف أوائل عسل النحل . وفيه تكثر الباقلاء . وينفض جوز الكتان ، ويكثر الورد الأحمر ، والبطن الأوّل من الجيز ، ويقلع بعض الشعير ، ويدرك الخيار شنبر . وفى أوّله يؤكل الفريك . وفى رابعه يعصر دهن البلسان . وفى خامسه تبتدئ كثرة الزهور . وفى سادسه أوّل نيسان من شهور السريان . وفى ثانى عشره يخاف على بعض الزرع . وفى ثامن عشره آخر قلع الكتان . وفى العشرين منه ينهى عن أكل البقول . وفى الثانى والعشرين منه ظهور الكمأة ، وفى الثالث والعشرين منه الختام الكبير للزرع . وفى الرابع والعشرين منه أوّل ترداماه من شهور الفرس . وفى الخامس والعشرين منه نهاية مدّ الفرات . وفى الثامن والعشرين منه يبيض النعام

﴿ شهر بشنس ﴾ فيه يكثر التفاح القاسمى . ويبتدئ التفاح المسكى . والبطيخ العبدلى والخوفى ، والمشمش والخوخ الزهرى . والورد الأبيض . وفى نصفه يبذر الأرز . ويحصد[1] القمح . وفى سادسه أوّل ايار من شهور السريان . وفى رابع عشره يجمع الخشخاش . وفى ثامن عشره يجمع العصفر . وفى الحادى والعشرين منه تبتدئ برودة الأرض . وفى الرابع والعشرين منه أوّل شهر برماده من شهور الفرس

﴿ شهر بؤنه ﴾ فيه يكثر الحصرم ويطيب بعض العنب والتين البونى وهو الديفور . والخوخ الزهرى والمشعر . والكمثرى البوهى . والقراصيا . والتوت . ويطلع البلح . ويقطف جمهور العسل . وفى ثالثه يبتدئ توحم النيل . وفى سادسه يكمل الدرياق . وفى سابعه أوّل حزيران من شهور السريان . وفى تاسعه يبتدئ مهب الريح الشمالية . وفى عاشره يبتدئ تنفس النيل . وفى خامس عشره تتحرك شهوة الجماع . وفى ثانى عشره عيد ميكائيل . فى ليلته يوزن من الطين زنة ستة عشر درهما عند غروب الشمس ويرفع فى مكان ويوزن عند طلوع الشمس فما زاد كان بكل خروبة زادت على الستة عشر ذراع . وفى ثالث عشره يبتدئ نقص الفرات . وفى رابع عشره تهب الرياح السمائم . وفى تاسع عشره تذهب البراغيث . وفى العشرين منه تهيج الصفراء . وفى الثانى والعشرين منه يعقد الجوز . ويقوى اندفاع النيل وفى الرابع والعشرين منه يثور وجع العين وهو أوّل مهرماه من شهور الفرس . وفى السابع والعشرين منه يؤخذ قاع النيل . وفى الثامن والعشرين منه ينادى عليه . وفى التاسع والعشرين منه يدرك البطيخ

﴿ شهر أبيب ﴾ فيه يكثر العنب والتين ويقل البطيخ العبدلى ويطيب البلح وتقطف بقايا العسل وتقوى زيادة النيل . وفى رابعه أوّل نهى أبقراط وفيه يموت الجراد . وفى سابعه أوّل تموز من شهور السريان . وفى عاشره يبتدئ وقع الطاعون . وفى ثانى عاشره تبتدئ قوّة السمائم . وفى ثالث عشره تدرك الفاكهة . وفى سابع عشره تغور العيون . وفى ثامن عشره يجمع السماق[2] وفى الثانى والعشرين منه يدرك الفستق[3] وفى الرابع والعشرين منه أوّل أبانماه من شهور الفرس . وفى السادس والعشرين منه طلوع الشعرى اليمانية . وفى التاسع والعشرين منه يدرك نخل الحجاز

﴿ شهر مسرى ﴾ فيه يعمل الخل ويدرك البسر[4] والموز وتتغير طعوم الفاكهة لغلبة الماء على الأرض . ويدرك الليمون التفاحى . ويبتدئ إدراك الرمان . وفى رابعه نقصان الدجلة . وفى خامسه أوّل العصير . وفى ثامنه أوّل آب من شهور السريان . وفى ثانى عشره فصال المواشى . وفى رابع عشره تقل الألبان . وفى خامس عشره تسخن المياه . وفى سابع عشره تختلف الرياح . وفى ثامن عشره يحذر لسع الهوام وفى الثامن والعشرين منه آخر العصير . وفى الرابع والعشرين منه يهيج النعام . وفى الخامس والعشرين منه تكثر الغيوم . وفى الثامن

---

(١) بسكون الميم (٢) بضم السين وفتح الميم المشددتين (٣) بسكون السين وضم بقية الحروف (٤) بضم أوله وسكون ثانيه

والعشرين منه آخر السهام . وفى التاسع والعشرين منه أوّل آذرماه من شهور الفرس .

﴿ أيلم النسىء ﴾ ودخولها فى الثامن والعشرين من آب من شهور السريان ويختلف آخرها باختلاف السنة الكبيسة وغيرها . انتهى الكلام على المنازل والبروج وسير القمر والشمس فيهما وعلى الشهور القمرية والشمسية وذلك من كتاب ﴿ صبح الأعشى ﴾ والحمد لله رب العالمين

هذا ما أردت نقله هنا من كتاب « صبح الأعشى » لتفهم أيها الذكىّ لماذا ذكر الله الأرض مع الشمس والقمر إذ ذكر أنه أحياها وأخرج منها حبا وجعل فيها جنات وعيونا وثمارا تأكلها . ثم أعقب هذا بالشمس والقمر فبدأ بالمسبب ثم أتبعه بسببه . فالمسبب هى هذه الزروع والحبوب والفواكه التى تضمنها ذكر الأرض اجمالا وقد فصلت بعد آيات . وأسبابها الأضواء السماوية فلما انتظم حساب الأسباب وأوقاتها انتظمت أوقات المسببات وحسابها

فيا أيها المسلمون على هذا النمط فلتكن علوم الاسلام ودين الاسلام . فاما أن المسلمين يعرفون هذه العلوم والافهم مقصرون فى معرفة كتاب الله والله هو الولىّ الحميد والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . انتهيت من كتابة هذا المقام الساعة الثانية بعد نصف ليلة الجمعة ٢٧ يونيو سنة ١٩٣٠ وبهذا تمت اللطيفة الأولى

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(فى قوله تعالى ـ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ـ)

إن العلم من خواص القرآن . فكم حضّ على العلم وأمر بالتعقل والتفكر والتدبر . إن أوّل سورة نزلت بنيت على العلم ـ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم ـ

فاذا كانت أوّل سورة نزلت قد أسست على هذا الاسلوب فهذا الدين سيظهر له أثره التام فى أمم عرفت قيمة العلم واذا لم يجعل الله نسبة بين الذين يعلمون والذين لايعلمون فقد فصل بينهما فصلا تاما وجعل الجهال كأنهم من طينة غير طينة أهل العلم مبالغة فى التفرقة وتفاوت المنازل . واذا كان العلم هذه صفته فمن حقنا أن نسهب فى شرحه على مايقتضيه المقام . فلنجعل الكلام عليه فى مقامين : المقام الأوّل فى شرف العلم وطرق التعليم وجدّ الأمم فى تحصيله . المقام الثانى فى شذرات من العلوم العامة تذكرة للأمم الاسلامية

﴿ المقام الأوّل فى شرف العلم وطرق التعليم وجدّ الأمم فى تحصيله . وفى هذا المقام ثلاثة فصول « الفصل الأوّل » فى تمثيل العلم بمعدن الراديوم « الفصل الثانى » فيما قاله الفيلسوف كنت الألمانى فى كتاب التربية « الفصل الثالث » فيمن ترك الملك من الملوك والوزراء حبا فى علم الحكمة وفيمن خلع لباس الحكمة واشتغل بالملك ﴾

﴿ الفصل الأوّل فى المقام الأول فى تمثيل العلم بمعدن الراديوم ﴾

يقول ﷺ « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام » إن المعادن جاءت فى الوجود مرتبة على مقتضى الحاجة . فكلما كان المعدن كثير التناول وكانت الحاجة الى عمومه داعية كثر وجوده كالقصدير والنحاس والحديد . وكلما كان الاحتياج اليه أقل كأن كانت له مزية بها يحكم الناس فى مبايعاتهم كالذهب والفضة كان وجوده أقلّ على مقتضى الحاجة فلو كثرا لذهبت تلك المزية لأن كثرتهما يتلوها رخصهما ورخصهما يستدعى نصب الناس وتعبهم فى حمل الكثير منهما لأجل البيع والشراء إذن الحكمة تامة فى وضع هذا الوجود . عمّ الهواء ويليه الماء ثم الأقوات للحيوان والانسان لأن الحاجة تدعو لذلك ولكن الهواء أقلّ لأن الحاجة اليه فى وقت دون وقت . وكما أن الحكام والملوك أفراد فى النوع

الانسانى هكذا الذهب والفضة أشبه بأولئك الأفراد فى المعادن . وههنا ظهرمعدن آخر أندرمن الذهب والفضة بل أندرجدا وهوالراديوم ذلك المعدن الذى خلق ليكون له السلطان الأعظم فى عوالمنا الأرضية . ذلك المعدن الذى يهلك من اقتربوا منه من غير احتراس ويشع فى الظلام . ذلك المعدن الضارّ النافع فهوشديد الضرر كثير النفع ولاسبيل لاستعماله إلا مع العلم ومعرفة خواصه . لذلك حبسه الله ولم يظهره للناس إلا عند ماصارت عندهم بعض المعرفة بخواص المادّة لينتفعوا به ويحترسوا من ضرره ، فهذا المعدن العجيب أشبه بالحكماء فى الأرض فكما أن هذا المعدن قلّ وجوده وكثر نفعه هكذا أولوا الألباب الذين خلقوا لرقىّ النوع الانسانى العاشقون المغرمون بمنافعه يقلون ويندرون كندرة ذلك المعدن وآثارهم تتناول أمما كثيرة كما أن الراديوم يتناول أعمالا كثيرة مع قلته فى المعادن ، ولعلّ هذا الوصف شاقك أيها الذكىّ أن تعرف خواص الراديوم الذى ضربه الله مثلا لحكماء الأمم الذين يخلقون فى الأرض لينفعوا الأمم مع قلة عددهم فيها ، فهاك ماجاء فى « البلاغ الأسبوعى » يوم الأربعاء ٢٠ يونيه سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

(الراديوم وخواصه العجيبة)

الراديوم مسحوق أبيض يشبه فى شكله ملح الطعام والرطل منه يساوى فى ثمنه ألف رطل من الذهب وذلك لندرته واذا تيسر لشخص أن يحوز القليل منه فقل انه قد حازمالا وفيرا وثروات طائلة ومع ذلك هو شديد الخطورة على الانسان فلو وضعنا رطلا أورطلين فى مكان معين واقترب منه أى عدد من الاشخاص لماتوا كلهم ولما بقى منهم أحد ، والغريب أن الانسان يمكنه أن يضع فى يده القليل من مسحوقه بدون أن يشعر بألم ما ولكنه يراها تتقشر وتتفتت طبقات بعد مضى أسبوع ولربما عمى من أمسك بذلك المسحوق وانتابه الموت السريع بعد ذلك ، والقليل من الراديوم الذى يملكه العالم اليوم طالما أودى بحياة من أرادوا إجراء التجارب عليه . ولقد حدث أن عالما أراد أن يلقى محاضرة علمية على الراديوم فأخذ القليل منه ووضعه فى أنبوبة أحكم غطاءها ثم وضع تلك الأنبوبة فى جيب صديريه ولكنه لشدّ ماكانت دهشة الجميع عند ما رأوا أن الجلد الواقع تحت جيب الصديرى محمرا وأخذ يتساقط وسرعان ماتكون خرّج مؤلم بشع المنظر لم يندمل إلا بعد أسابيع طويلة . والراديوم يلمع فى الظلام كوهج النيران تماما . والعجيب فى أمره انه يشع باستمرار ضوأ وحرارة ومع ذلك لايفقد شيأ من وزنه وهكذا فهوكشعلة من الفحم تتقد على ممرّ الأيام ولاتفنى ولاتزول ويمكننا اذا حصلنا على رطل من الراديوم أن نذيب بواسطته فى كل ساعة رطلا من الثلج بدون توقف أبدا وهو بذلك القوة المستمرّة التى كدّ علماء الماضى فى البحث عنها . واذا وضعنا كمية كافيــة من الراديوم فى فرن قاطرة أمكننا أن نسير القاطرة بلاتوقف وبدون بذل أى مجهود فى تنظيف القاطرة أواعطائها كميــة أخرى من الوقود . وقد حدث أن عالما وضع كمية من الراديوم فى صندوق من الورق القوى لمدّة من الزمن وعند ما انكسر الصندوق ونزع منه أنابيب الراديوم ورمى الصندوق فى ناحية من نواحى منزله شاهد أن ضوأ ينبعث من الصندوق بعد إطفاء أنوار المنزل وذلك لأن الصندوق قد امتصّ بعضا من شعاع الراديوم وبالفعل كل مادّة تلاصق الراديوم لابد أن تتأثر بالراديوم وتأخذ منه بعض خواصه وأهمها الاشعاع . وهنالك نوع من أصباغ الراديوم تدهن به مفاتيح الخطوط الكهربائية وذلك لأن المفتاح يولد كهربائية لابأس بها كما أدرناه كذلك تستعمل تلك الصبغة المنيرة فى تغطية مينات الساعات أو بندول الساعات الكبيرة أوتوضع فوق أوراق تلصق بزجاجات السم تنبيها للمقترب حتى يبتعد عن الخطر

لاشك انك تعجب كيف ان الراديوم ذلك المعدن النفيس يوضع فوق ميناء ساعة رخيصة الثمن لاتساوى فى قيمتها أكثر من خمسين قرشا . والحقيقة أن ميناء الساعات تغطى بطبقة من سلفات الزنك مضافا اليها

قليل

قليل جدا من الراديوم . إنّ قطعة بسيطة من الراديوم لاتزيد فى حجمها عن رأس الدبوس . اذا خلطت بكمية كبيرة من سلفات الزنك تكفى لتغطية أوجه مئات الآلاف من الساعات . واذا فحص الانسان ميناء الساعة من خلال مجهر وجد جلة فرقعات صغيرة تحدث بالاستمرار بين الذرات وهذه الفرقعات تحدث بسرعة (٢٠٠,٠٠٠) مرة فى الثانية . فوظيفة الراديوم هى توليد حركة فرقعات متوالية تشعل الزنك وتجعله ينير ويبقى الراديوم الذى فى وجه الساعة باقيا بينما الزنك يبلى بعد سنوات ، وللراديوم منافع جليلة لبنى البشر . ففيه الشفاء من أمراض شتى كالسرطان وكذلك يشفى الأورام والخراجات ، وفى كل بلد كبير من بلدان العالم مستشفى به القليل جدا من (الراديوم) ، وربما لايستعمل الطبيب فى عمله قطعة تزيد فى حجمها عن رأس الدبوس ومع ذلك ثمنها مئات من الجنيهات

أما تاريخ اكتشاف الراديوم فكله سلسلة طريفة من القصص المتتالية : ففى سنة ١٨٩٦ م بينما كان العالم الفرنسى باكوريل يجرى بعض تجاربه فى بعض المعادن التى تضىء دون ارتفاع درجات حرارتها عرض لضوء الشمس معدنا يقال له بتشبلند وهو أحد أكاسيد الاورنيام غير النقية حتى اشتعلت من تلقاء نفسها وبعد ذلك درس أثر ذلك المعدن فى الألواح الفوتوغرافية ، ولما كان اليوم الذى يجرى فيه تجاربه مطيرا لذلك وضع اللوح الفوتوغرافى وراءه الورق الحساس وعليه المعدن فى مكان خفى حتى تصحو الشمس ولكنه دهش عند مارفع اللوح وشاهد تكوّن صورة أحسن من صورة الشمس وهكذا تمكن من اكتشاف مادة لها خواص الراديوم وبينما كان الاستاذ كورى وزوجته يجريان التجارب العلمية شاهدا أن معدن البتشبلند الذى كانا يستعملانه أقوى فى تأثيره من الاورنيام ، وعند ذلك أيضا شاهدا هناك مادة أقوى أخرى غير الاورنيام هى التى يجريان عليها تجاربهما ، وعندئذ أخذت مدام كورى تجدّ حتى تمكنت من فصل المادة الأخرى الغريبة التى يجريان عليها تجاربهما ، وذلك انهما كانا يشتريان فضلات مناجم الاورنيام ويغليانها حتى رأيا المعدن الجديد الذى سمته كورى بالبولنيوم نسبة الى بولندا بلادها وموطنها

وبعد إجراء عمليات أخرى أخذت تزيد فى غلى الفضلات حتى تمكنت من استخلاص معدن الراديوم ، ولاستخلاص الراديوم لابد لنا من الحصول على معدن البتشبلند القليل الوجود وهو لايوجد إلا فى النرويج ومصر وكارولينا الشمالية وكلورادو ومنطقة يوتا ، ويمكن استخلاصه من عروق الذهب ، واذا أردنا الحصول على رطلين من الراديوم فلابد لنا من تكرير خمسة آلاف طن من البتشبلند ، واذا أردنا الحصول على قليل من الراديوم يعادل ملء قمع من أقماع الخياطة (كستبان) فلابد لنا من تكرير ما يعادل حمل قاطرة من البتشبلند وأن نعمل خمسة آلاف عملية مختلفة تستغرق ستة أشهر . ولقد عرّض العلماء أنواعا من الحيوانات لشعاع الراديوم فنفضت شعرها وبصرها ثم ماتت بعد ذلك . واذا زاد العلماء جزءاً من الراديوم على ثروة العلم الحاضرة فهم يزيدون بذلك ثروة جديدة على ثروات العالم لأن الراديوم يستمرّ فى إشعاع حرارته وضوئه مدة ستمائة سنة ثم تصبح قوّته نصف ما كانت وبعد ستمائة سنة أخرى تصبح الحرارة والنور ربع ما كانت وهكذا حتى بعد مضى عشرين ألف سنة يتحوّل كله الى رصاص

وبالراديوم يمكننا تحويل بعض المعادن الى الأخرى كما يؤمل بعض العلماء ذلك وكما يرجونه فى القريب العاجل . ولو أمكنهم الحصول على كل القوّة الكامنة فى الذرّات لأمكنهم تحويل مايريدون ولانقلب العلم رأسا على عقب

وقد أدّى اكتشاف الراديوم ودراسته الى نظرية غريبة هى أن كل الذرّات الموجودة الآن كانت أجراما صغيرة جدا تسبح فى المجموعة الشمسية حول القطب ولن يمكن فناؤها وفقط تتغير من حالة لأخرى وبخاصية التغير هذه من حالة لأخرى يوالى العلماء أعمالهم حتى يغيروا ما بالأرض ويكشفوا أسرار الكون . انتهى

ماجاء فى مجلة « البلاغ الاسبوعى » والحمد لله رب العالمين

هاهوذا الراديوم وهذه خواصه وعجائبه . ياسبحان الله و ياسعداته . أليس من العجب أن أرواحنا جاءت الى هذه الأرض وهى أشبه بالغريبة عنها . أرواح أرسلت الى الأرض وهى لاتزال تتخبط مدى الدهور والأعوام فيها لاتهتدى فيها سبيلا ولاتجد لها طريقا إلا بما أعطيت من موهبة العقل . جاءت أرواحنا الى الأرض ولبست هذه الأجسام ، نظرت فرأت فى الأرض نباتا وحيوانا ونظاما جيلا ، ورأت أن للحيوان غرائز قد كفته السعى فهو يعيش بقوانين لاعوج فيها ولاخلل بل هو يسير منتظما محفوظا سعيدا موفر الرزق ، أما نحن معاشر بنى آدم فاننا أخذنا نتخبط فى هذه الدنيا وطفقنا نشعر بالحاجة الى التعلم والاهتداء بنور بصائرنا فرجعنا الى الكتاب الذى أمامنا فرأيناه كتابا جيلا مكتوبا بخط مجسم واضح فأخذنا نقرؤه ، وماهذا الكتاب إلا هذا الوجود ، فقرأنا سطورا وسطورا تعلمنا منها إيقاد النار والغزل والنسج والسفر فى البحار فى السفن وهكذا من كل ما تقدم يعدّ بالعشرات فى ﴿ سورة طه ﴾ عند آية ــ قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ــ فهناك تجد أن علوم بنى آدم أوّلا أخذوها عن الحيوانات ولكن نحن أشرف منها وأعظم والاهتداء بالحيوان وحده نقص لنا

هنالك قيض الله من الناس قوما منزلتهم فيهم منزلة الماس والياقوت والاسرب من المعادن . فهذه المعادن الثلاثة مسلطة على المعادن بل هذه الثلاثة بعضها مسلط على بعض فان الأسرب الحقير هوذو السلطان على أخويه المسلطين على البقية . أفلاترى إذن أن أقص عليك ديانات الانسان لتعلم منزلة دين الاسلام من ديانات الأمم . انظر ترأن دين البوذية الذى له السلطان على نحو ثلث أهل الأرض اليوم المنتشر فى الهند الذى هو أقدم الديانات لم ينتشر إلا فى البقعة التى جاء فيها وليس له سلطان على أفريقيا ولاعلى أوروبا ولاعلى غربى آسيا . وتجد دين كونفسيوس الذى انتشر فى الصين قبل المسيح بمئات السنين لم يتعدّ دائرة الصين واليابان وهو بمعزل عن الأقطار الأخرى . وتجد دين اليهودية قد حصره اليهود بين ظهرانيهم

أفلاترى أن هذه الديانات كلها أشبه بالمعادن المذكورة المسلطة على بقية المعادن بالقطع . فياسبحان الله وياسعداته . انظر الى دين الاسلام الذى نزل فى جزيرة العرب التى اختارها الله لنزوله لأنه يعلم أن أمم العرب أقرب للاخلاص لله . فهم مخلصون صادقون متى عرفوا الحقائق واقتنعوا بها . فهم لما نزل دين الاسلام وعلموا انه رحمة العالمين كلها طاروا فى الأرض شرقا وغربا فدخل هذا الدين على البوذية فى ديارهم وعلى أتباع كونفسيوس فى عقردارهم وعلى أمة اليهود فأسلم بعضهم وعلى أمم النصارى أولئك الذين اتبعوا المسيح عليه السلام وسارعوا الى دين بوذا والى دين خرشنا قبله فى الهند فألصقوه بهذا الدين وجاؤا بالأب وبالابن وبالروح القدس وجعلوا التثليث المنقول عن دين الهنود قيمة دينية وجعلوا لهم مبشرين متبعين البوذية التى ظهرت قبل المسيح بنحو خمسمائة سنة ودين خرشنا المنتشر قبل المسيح بما يقرب من خمسة آلاف سنة . انظر هذا المقام فى آخر ﴿ سورة المائدة ﴾ فانك ترى مافى الأناجيل منقولا عن دين بوذا وعن الدين الذى قبله بالحرف بلاتصرّف ولاتعقل

انتشر الاسلام فى الأقطار ولايزال ينتشر الى الآن كما تقدّم فى ﴿ سورة العنكبوت ﴾ منقولا عن علماء أوروبا وهناك للمسلمين ملوك عند خط الاستواء ولهم سياسات ونظم وجيوش وحفاظ للقرآن وعلماء وقضاة . لم يفعل فعل العرب أحد من الأمم فى الأرض لذلك اختارهم لنشر العلم فى الأرض . هؤلاء نظروا . فماذا يجدون ؟ يجدون الأمم ساكنة خاملة . بحثوا عن العلم لأنهم وجدوا الله يقول لنبيه ﷺ آمرا له ــ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ــ ثم أكد ذلك بقوله ــ إنما يتذكر أولوا الألباب ــ هنالك هبوا لبحث عن العلم أما الدين فقد نشرناه ولم يبق إلا العلوم والمعارف . والعلوم والمعارف انما تكون

بالعقول

بالعقول والعقول كلها متضامنة . واذا كنا نجد الله يقول لنا إن الغراب جاء معلما لأبناء آدم كيف يوارون الأموات فى قبورهم وسمعناه يقول ـ فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين ـ

سمعنا الله يقول : إن ابن آدم نادى بالويل والثبور على نفسه لأنه لم يتفطن لعلم عرفه هذا الغراب . هذا الغراب الذى هو أقل منه درجات ، هذا الغراب الذى هو حيوان خلق مقدّمة وذخيرة لهذا الانسان ، فكيف يعرف المفضول ويجهل الفاضل ؟ هذا عار ، لذلك فعل ابن آدم فعل الغراب وورارى سوأة أخيه ، عرف ذلك كله آباؤنا العرب منذ ١٣ قرنا فقالوا : لنبحث علوم الاول وأى أمة أقرب لنا من اليونان ، هذه الأمّة التى حفظت علومها فى خزائن ملوك النصرانية وحرموا قراءتها ، فلنبعث تلك العلوم من خزائنها ، هنالك أرسل أبوجعفر المنصور لملك الروم فأرسل له بعض الكتب الرياضية وغيرها ، وهنالك أرسل المأمون لملك الروم أن يبعث له الكتب فأبى فحاربه وبهذا انتشرت العلوم فى الاسلام

ثم ذهبت دولة العرب وحلت محلها أمم وأمم وتغيرت الأحوال وجاء قوم جهلاء فماذا صنعوا ؟ حاربوا العلوم وقالوا كفانا الوضوء والصلاة والاجارة والسلم والبيع وعقود الأنكحة والقضايا والدعاوى والطلاق وهكذا مما دوّنه الفقهاء فى كتب الفقه وناموا نوما عميقا ، فماذا تمّ بعد ذلك ؟ أذن الله للعلم الذى نشره أولئك العرب أن ينتقل بحذافيره من بلاد الاسلام الى أوروبا على أيدى تلاميذ ابن رشد فى الأندلس وقال الله : أيها العرب الأندلسيون . آباؤكم كانوا صالحين لحمل أمانتى ، أما أنتم فانكم شعراء غزليون شهوانيون فهاأناذا أخرجكم من الأندلس بعد أن أديتم وظيفتكم وهى نشر العلوم فى أوروبا لأن النبىّ العربىّ رحمة للعالمين ، فرحمتى لكم بمحمد انكم مؤمنون به ورحمتى لأوروبا أن العلم الذى تسلمه آباؤكم من اليونان ينتشر على أيديكم فى أوروبا وكفى فاخرجوا من أوروبا فقد انتهى عملكم . كل ذلك تمّ فى القرن السادس الهجرى و بعد ذلك الانتقال تمزّقت وحدة المسلمين فى الأندلس وصاروا عشرين دولة فالتهمتهم الأمم المسيحية ورجعوا بخفى حنين ومات كثيرمنهم ورجع الى بلاد الغرب منهم ألوف وألوف . هذا هو تاريخ العلم والدين

انتشر العلم فى ربوع أوروبا وقد قلنا ان الذى أوصله لهم آباؤنا أولئك الذين صاروا فى آخر أمرهم شعراء بدل أن يكونوا علماء وكأن الله قال لهم :

أيتها الأمم العربية : أنا أرسلت لكم رسولا منكم لم يكن شاعرا بل كان نبيا وأنزلت عليه ـ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ـ وأنتم تركتم العلم واكتفيتم بالشعر ونبذتم الحكمة التى رقاها أسلافكم فانهم هذّبوا علم اليونان ونشروه ، فهاأناذا سأرفع هذا العلم منكم وأعطيه لقوم آخرين ، فأما أنتم فان ضياع أوقاتكم فى مدح الملوك والغزل والمناظرة بين الورد والمطر وما أشبه ذلك من كل ماهو خيالى فليس بعلم بل هو شعر ـ والشعراء يتبعهم الغاوون ✿ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ✿ وأنهم يقولون مالايفعلون ـ وأنا أرسلت النبىّ العربىّ للعلم لا للشعر ، ولم أسوّ بين العالم والجاهل ، هذا هو تاريخ أسلافنا وتاريخ ديانات الأمم اجمالا مع العلوم

يقول مؤلف هذا التفسير : فهاأناذا أحد أبناء حملة هذا الدين وهم العرب وقد جئت فى زمن بين زمانين زمن الخمول وزمن النهوض ، هاهى ذه روحى قد جاءت فى هذه الأرض غريبة عنها كبقية الأرواح الأرضية وانما قلت غريبة لأنى أرى لها مطامع عالية وأرى هذه المطامع كلها يدل عليها العلم و يؤيدها الدين لأنى أراها لاتقف عند حدّ فهى روح أرق من أرواح هذه الحيوانات ولكنى أراها روحا مسكينة تتلمس العلم والمعرفة هنا وهناك وقد جاءت بين زمانين كما قلنا زمان النهوض وزمان الخمول . لقد نظرت فرأت علوما تنتشر وعلماء فى مصر وفى الشرق وفى الغرب . هنالك أخذت تقرأ تاريخ الأسلاف وتاريخ الاسلام ونظرت فهداها الله الى

هذا التفسير ، فعلىّ إذن أن أنظر فى علوم الأمم التى جاءت بعد ذهاب مجد آبائنا العرب . هل زادوا فى العلم شيأ بعد ماتسلموه من آبائنا ؟ فاذا رأيتهم زادوا شيأ وجب علىّ أن أقول لقومى من العرب وغير العرب لأن النسب ليس له دخل فى الاسلام بل الاسلام دين عام . فإذن أنا أخاطب كل عاقل لأن دينى هكذا شأنه فليس كدين اليهود الذى جعلوه خاصابهم ولا كالديانات الأخرى بل هو دين عام لجميع الأمم ، وعلى ذلك أخاطب كل الأمم فأقول :

هاهوذا العلم وقف حيث تسلمه الاوروبيون من تلاميذ ابن رشد ونام المسلمون نحو (٧) قرون فهل زاد شيأ ؟ نظرنا فرأيناه زاد كثيرا ، فوجب علىّ إذن أن أدل الأمم الاسلامية على هذه الزيادة وأقول لهم : أيها المسلمون : — هذه بضاعتنا ردّت الينا — بل إن الذين تسلموها من آبائنا قد زادوها والله يقول — قل هل يستوى الذين يعلمون — الخ فهاهوذا سبحانه عبر بالفعل المضارع والفعل المضارع يقتضى التجدّد بالقرائن كقوله تعالى — يحيى ويميت — فالاحياء والاماتة تتجدّد كل وقت هكذا العلم يتجدد كتجدّد طلوع الشمس وغروبها فى كل يوم ، إذن علينا أن نجدّ فى العلوم دائما لاأن نقف عند حدّ إطاعة لاشارة القرآن والله الذى له الملك وله السموات والأرض لما نقل العلم عن آبائنا الى أوروبا سخرهم له فزادوا فيه وجدّدوا إذن فلنقرأ علومهم والا كان غيرنا أحسن منا فى تلك العلوم لأنهم علماء ونحن جهلاء بها وهذه العلوم يأمر بها ديننا ويذم من يجهلها ، وفى هذا التفسير زهرات وثمرات من بساتين العلوم وحض على استكمالها

أوليس من العجب العجاب أن نرى القوم داوموا البحث فى الراديوم حتى استخلصوه من البتشبلند وأن مقدار ملء قمع من أقماع الخياطة (كستبان) يحتاج فى تخليصه الى قاطرة من البتشبلند والى خمسة آلاف عملية ، فانظر الى هذا الاجتهاد من أهل الغرب الذين أخذوا العلم عن آبائنا وزادوه وتعاونوا جميعا على النهوض والارتقاء . وههنا أقول : أليس من العجب أن المقدار من الراديوم الذى لايزيد عن مقدار مايغطى رأس الدبوس يخلط بمقدار من سلفات الزنك فيغطى أوجه مئات آلاف من الساعات ، ونرى فى أوجه هذه الساعات فرقعات صغيرات بين الذرات مسرعات فى جريها (٢٠٠,٠٠٠) مرة فى الثانية فتجعل الزنك كأنه ينير ، إذن هذا الراديوم أشبه بدين الاسلام لأنه جاء فملأ الكرة الأرضية ، فاذا كانت الديانات الأخرى قد دخلها التحريف من جهة ومن جهة أخرى أكثرها محصورة فى أماكن خاصة ، فههنا هذا الدين انتشر فى الكرة الأرضية وأصبح كالراديوم ينير الأمم أينما حلّ ويحمل معه العلم فالاسلام دين العلم وان كان الحاملون له الآن أكثرهم جهلاء ، الاسلام كالراديوم مجهول نوره وسيستخرج العلوم التى أمر بها أناس من قرّاء هذا التفسير وأمثاله كما استخرج (ماكوريل) خواص الراديوم ، واذا كان دين الاسلام كالراديوم من حيث انه انتشر فى القارّات كلها وليس دينا منقولا عن غيره ومن أكبر خواصه نشر العلم . والديانات الأخرى القديمة المبدّلة منزلتها كمنزلة المعادن الأخرى التى صار الراديوم أرقى منها وله السلطان الأعظم عليها وعلى غيرها ، فهكذا منزلة علماء الأمم فى سائر العلوم كمنزلة المعادن ومنزلة العلماء الذين لهم السلطان على العلوم كلها بحيث يفكرون فى النظام العام ويقرؤن العلوم الرياضية والطبيعية والإلهية وينظرون فى هذا الوجود نظرة عامّة منزلتهم من علماء العلوم الخاصة منزلة الراديوم من المعادن كلها ، إذن العلماء الناظرون فى هذا الوجود كله نظرا تفصيليا هم القوامون على الشعوب فى الأرض وهم الذين يجدّدون البحث والتنقيب فى هذه الأرض والله يقول — قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون — بالفعل المقتضى للتجدّد وقتا بعد وقت كما يقوله علماء علم المعانى

ثبت إذن أن العلماء الباحثين فى هذا الوجود قليل ونادر ، واذا حكم الله عزّ وجل بأن لانبىّ بعد خاتم النبيين ، فهاهوذا سبحانه يأمرنا بالبحث وأشرف الباحثين هم الناظرون فى هذا الوجود كله نظرة عامّة ، فهأنا ذا الآن أيها المسلمون فى الفصل الثانى الآتى بعد هذا سأنقل ماذكره أكبر عالم فى ألمانيا وهو (كنت) فى علم التربية قياما بحق أمانة العلم التى سلمها الله لآبائنا بالوحى أوّلا وبالنقل عن العلماء ثانيا . فاذا نقلنا علم الأمم

الاوروبية

الاوروبية ثانيا الى لغتنا العربية فمعنى هذا اننا أخذنا نتسلم العلم من القوم كما تسلموه من آبائنا

هاأناذا أيها المسلمون نظرت بعد مئات من السنين فى العلوم التى نقلها الفرنجة عن آبائنا وهاأناذا نقلت وأنقل بعضها وهاهوذا القرآن يحضكم على العلم والتعليم ، فهاأناذا أقول لكم انكم ستقرؤن علوم القوم ولابد من أن تستوعبوها نقلا وفهما . ثم لتقوموا برقىّ الأمم كرة أخرى . أنتم يا أمة الاسلام عليكم النهضة الحديثة التى ستكون بعد مغادرتنا هذه الدار ستكونون أنتم ـ خير أمّة أخرجت للناس ـ . ذلك أنكم بعد أن تستوعبوا علوم أمم أوروبا وأمريكا ستقولون إن القوم لم يفعلوا شيأ ، نعم حصل بعض الارتقاء المادّى الضعيف ولكننا لانزال نرى الانسانية فى حال طفوليتها ، فواسوأتاه : نبينا رحمة للعالمين ، فلنكن نحن رحمة للعالمين والا فكيف نكون أتباعه ، نحن رأينا الأمم اليوم أشبه بالنساء النادبات ، يموت الميت فيشققن الجيوب ويلطمن الخدود ، هكذا هذه الانسانية الجاهلة لم نجد لها رقيا ، وهل هذه العلوم هى الرقىّ ؟ كلا . هانحن أولاء نرى الحشرات تفتك بالزرع فيقل المحصول ويهلك من الأمّة المصرية وحدها فى السنة نحو (٧) مليون جنيه بسبب الحشرات فمابالنا بالأمم الأخرى ! وهكذا نرى الغابات فى خط الاستواء لو استولى عليها النوع الانسانى وأخضعها له لأصبح الانسان غير الانسان اليوم والأرض لاتزال مستعصية على الناس فترك الناس هذا كله ورجعوا يتحاربون ويتقاتلون جهالة ونذالة وخسة ، فهم لايبعدون فى التشبيه عن النساء النادبات فمن الناس أشبه بجسم واحد تضرب الانسانية بعضها ببعضها ، ولوكان فيهم حكماء وعلماء أحسن من هؤلاء لعلموهم أن الانسانية كلها اذا ولت وجهها وجهة الطبيعة لحازت قصب السبق فى السعادة ولكان الانسان أرقى من الحيوان الذى جعل مقدّمة له وخادما ، فهو الآن لم يرتق عن النمل الذى يحارب بعضه بعضا لقلة علومه ومعارفه

ثم يقول المسلمون بعدنا : نحن أتباع نبينا ﷺ وهو رحمة للعالمين ، فلنقرأ علوم أوروبا وأمريكا ثم يأتى جيل آخر ويكون قد قرأ أمثال هذا التفسير فيقولون : أيتها الانسانية تعالى انظرى معنا ـ تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ـ لننظر فى الطبيعة ، أليست مشتركة بين الأمم ، قوموا فلنحاربها معا ولنخضعها . وهناك تكون لنا سعادة لم يحلم بها آباؤنا ، هنالك يأتى اليوم الذى أخبر به القرآن وهو اليوم الذى تعم به العلوم والمعارف سائر الأمم ويذهب الحرب ويحصل السلم ويذهب من الأرض ذلك الوصف القبيح وهو الدّجل وادّعاء المسيحية وليس فى الأرض الآن مسيحية لأن المسيحية الحقة هى التى تمنع الحرب والذين قالوا إنا نصارى اليوم يحاربون ، إذن هم ليسوا أتباع المسيح . إذن هؤلاء الذين وردوا فى الحديث انهم أتباع المسيح الدجال الكاذب . والاسلام فى المستقبل هو الذى يعلم الأمم هيئة السلام العام بالعلم والحكمة وانتشار الفضيلة . فالمسيحية الآن دجل وكذب لأنها مصحوبة بالحرب ولاحرب فى المسيحية فأين هى اليوم إذن ؟ والاسلام سيعلن الحقيقة ويقول : أيها المسيحيون . ارموا السلاح واقرؤا العلم معنا فلتخضع الطبيعة لنا لأن الله جعل لنا السلطان عليها فمدّوا أيديكم للتعاون على السلام العام وستتحد الأمم بعدنا على ذلك

وليس يعمم ذلك إلا رجال مصلحون هم خيرة الأمم ونسبتهم الى العلماء بالعلوم الخاصة كنسبة الراديوم الى بقية المعادن

اذا عرفت ذلك أيها الذكىّ فلأسمعك ماوعدت بنشره من آراء (كانت) الألمانى فأقول :

﴿ الفصل الثانى من المقام الأوّل ﴾

(فيما قاله الفيلسوف «كانت» الألمانى فى كتاب التربية)

اعلم أن هذا الكتاب المسمى «كانت فى التعليم» قد ترجم من الألمانية الى الانجليزية بواسطة (انيت تشرتون) وقد وضعت له المقدّمة السيدة (رايز دافيدس) والكتاب مشتمل على مقدّمة وخمسة فصول المقدّمة فى النظام العام فى التعليم وموازنة تعليم الانسان بتعليم الحيوان وكيف كان للحيوان غريزة تستغنى

بها عن التعليم والانسان محتاج اليه وكيف يربى الأطفال والتلاميذ وهكذا «الفصل الأول» فى التعليم الجسمى الطبيعى ونظام الاطفال فى الرضاعة والنظافة والملابس وما أشبه ذلك «الفصل الثانى» فى تعليم العلوم «الفصل الثالث» فى اخصاب هذه العقول الانسانية بالعلوم وتحليتها بالبحث والتنقيب واعطاء الشبان حرية البحث واستخراج المجهولات بما عرفوه فى الفصل الأول بالتلقين «الفصل الرابع» فى الاخلاق العامة لنوع الانسان والتهذيب «الفصل الخامس» فى مزاولة الانسان أعماله ومعاملته للناس فى الحياة وذلك يشمل رحمته للانسانية العامة وأعماله الخاصة فى نفسه واستنتاجه هو نفسه ببصيرته ، و بالجملة كل مايدخل فى دائرة أخلاقه فى نفسه ومع غيره ، فلنقتصر فى هذا المقام على ترجمة المقدمة لأنها جامعة لمقاصد المؤلف إيفاء لبعض معنى قوله تعالى ـ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ـ ولقوله تعالى ـ اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم ـ . ابتدأ المؤلف مقدمته قائلا :

(١) الانسان هو الذى يحتاج للتربية دون غيره ، إن التربية تشمل :

(ا) تربية الأطفال فى المهود بالعناية الخاصة والتغذية

(ب) والتهذيب بمنع الطفل مما يضره

(ج) وتلقيه العلوم

فهو طفلا يحتاج الى الحضانة ، وغلاما يحتاج الى مراقبة أخلاقه وتهذيبه ، وتلميذا يحتاج الى التعليم

(٢) إن الحيوان قد أعطى غريزة أغنته عن التعليم فقد سنت سنن لاعوج فيها . أفليس من العجب العجاب مثلا أن أفراخ الخطاطيف عند خروجها من البيضة وهى لاتزال مغمضة الأعين لم تر النور تراهن يحترسن غاية الاحتراس من أن يدنسن أعشاشهن . إذن الحيوان ليس فى حاجة الى حضانة تقوم بأمره وغاية الأمر أنه يعطى الغذاء والدفء و بعض العناية بالمحافظة عليه . إن أكثر الحيوان فى حاجة الى الغذاء أما الحضانة فلا . إن الحضانة تشمل شدة العناية بلطف والحيطة الشديدة التى يقوم بها الوالدان محافظة على الأبناء كأن يحمياهم من مزاولة أعمال تضربهم فهذا كله لاحاجة لصغار الحيوان به . ألاترى أن صغار الحيوانات المولودة حديثا لو أنها رفعت أصواتها بالبكاء كما يفعل صغار الانسان لسارعت اليها الحيوانات المفترسة المحيطة بها وافترستها ساعة ولادتها

(٣ و ٤ و ٥) إن التهذيب يقلب مافينا من أخلاق حيوانية الى أخلاق انسانية . والحيوان بما منح من الغرائز لايعوزه التمييز والاختيار . فهناك قوة أخرى دبرت له مايحتاجه . أما الانسان فهو الذى لاتقوم له قائمة إلا بتدبيره هو وعنايته . ولما كانت العناية لم تمنحه غريزة وجب عليه أن يجد فى كل ما يزاوله ويفكر فيه بعقله . ولما كان الانسان فى أول نشأته لاعلم له بما يحتاج اليه هناك قيض له أمثاله من الناس فعلموه مايحتاجه . وليست خصائص الانسان تأتى له بغتة بلاترتيب ولاتعقيب بل نظهر فيه تدريجا شيأ فشيأ ولكن ذلك أولا بادراك بصيرته وثانيا بجده واجتهاده هو لا بالغرائز كالحيوان . و بعد التهذيب وتحسين الخلق يكون تعليم العلم . ولو أننا عكسنا القضية فبادرنا بالتعليم ثم أخرنا التهذيب لرجع الانسان فى آخر أمره الى الحال الوحشية التى منها نفر كل حين . إلا ان التهذيب هو الذى يمنع المرء من رجوعه من حالة الانسانية التى هى نهايته الى الأخلاق البهيمية التى فر منها . بالتهذيب يحفظ المرء من الاندفاع فى سبل الشر ومواقف الخطر والوحشة والتهذيب أمر سلبى لا إيجابى لأنه يهدى الانسان الى أن تكون أعماله نظامية قانونية فأما القسم الإيجابى فى التربية فهو تلقين العلوم ودرسها وفهمها . إذن التهذيب مع فهو سلبى

والتعليم

والتعليم تلقين فهو إيجابي لا سلبي . أوّلهما نهي وثانيهما أمر . وأوّلهما تخلية وثانيهما تحلية . بالتهذيب يكون ضبط العواطف وسموّ الأخلاق . وذلك يجب أن يكون من مبدأ الحياة . يرسل الصبي للمدرسة فليكن أوّل ما يفاجأ به من الأعمال تنظيم جلوسه ومشيه . يؤمر فيأتمر لا غير ولا تبين له الأسباب لأنه لا يفهمها بل يكون ذلك أمرا عمليا . ههنا قيدنا حريته وأحطناه بقوانين فاذا لم نفعل معه ذلك وشبّ وشاب وهو لم يعتد تقييد تلك الحرّية بقوانين فانه بعد فوات زمن الصبا لا يعدل بها شيأ ولا يمتثل لما ينصح به وترسخ فى النفس عوائدها فلا تهذيب ولا تأديب ، وهل يهذّب الذيب ؟ لذلك تجب المسارعة الى التهذيب من أوّل الحياة حتى لا يستعصى أمرها اذا كبر الانسان ، فلتصقل تلك الخشونة التى فى الطباع بصقال التهذيب والتأديب ، الأطفال يعوزهم حالان : حال التربية الجسمية ، وحال التربية العقلية . فحال التربية الجسمية بالحضانة فى حال الطفولة ، وحال التربية العقلية بسبيلين اثنين : تهذيب النفوس وهذا سلبي ، واصلاح العقول وتكميلها بالعلوم والمعارف وهذا ايجابي

(٦) إن صغار الحيوان لا تتعلم شيأ كما يتعلم صغار الانسان ، اللهم إلا ان الطيور تعلم صغارها كيف تقلد أمّهاتها فى أصواتها الخاصة بها إذ تقف الصغار حول أمهنّ مصطفات اصطفاف التلاميذ فى المدرسة وتسمعهنّ نغماتها الخاصة بأبناء نوعها وهنّ يقلدنها بحناجرهنّ الصغيرة حذو القذة بالقذة فالتعليم لم يكن عند حيوان غير الانسان إلا الطيور فانها هى التى تعلم صغارها أصواتها بل لو أننا رفعنا نصف بيض عصفور الكنارى المعروف ووضعنا بدل مارفعناه منه بيضا لعصفور دورى ثم فقس البيض كله وأخذ الكنارى يغنى بصوته الخاص فاننا نسمع مما خرج من بيض العصفور الدورى صوت الكنارى المغنى لا صوت العصفور الدورى فدلّ ذلك على أن الطيور تتلقى الصوت بالتعليم فهى كالانسان يكمله التعليم ، ومن المعروف أن الانسان إنما يعلمه انسان مثله والذى يعلمه قد استكمل التعليم من قبل فلذلك استحقّ أن يعلمه ، وكم من المعلمين من هم فى حاجة الى تهذيب نفوسهم واكمال تعليمهم حتى يصلحوا أن يعلموا تلاميذهم ، لو أن عالما آخر أعلى من هذا الانسان علمه لعرفنا اليوم من هذا الانسان ، نحن الآن لا يسعنا تقدير هذه الانسانية ولا معرفة قواها ، وكيف يتسنى لنا معرفة ذلك ونحن لا نزال نرى صفات كانت بارزة فيه واضحة أزالها التهذيب وصفات أخرى مختفية أبرزتها التربية والتعليم

(٧) لو أن ذوى المنازل الرفيعة من الأمراء والملوك ومن نحا نحوهم تعاونوا مع ذوى المواهب العالية من الشعوب وأخذوا فى ترقية الانسانية معا لأمكننا بهذه الطريقة القويمة أن نخبر عن مواهب هذا الانسان والى أىّ حدّ يصل فى ارتقاء مواهبه ، ولكن مما لا يسع العاقل العادى أن يجهله ويجدر بالحكيم المغرم برقّ الانسانية أن يعرفه أن أقول : إن ذوى المقامات الرفيعة من الملوك والأمراء لا يهتمون بأمر الشعوب ولا الانسانية العامّة إلا بمقدار ما يسمو به سلطانهم وترتفع به فى الناس أقدارهم ، فأما سعيهم لارتقاء الانسانية درجة أو درجات لتقرب من الكمال فذلك ليس يعنيهم ولا يهتمون به

(٨) ليس من الناس أحد بلغ درجة التعقل والتبصر والتمييز بعد أن أهمل ذووه تعليمه فى الصغر إلا وأخذ يسأل نفسه قائلا : « أهذا الخلل جاء من نقص التهذيب أم من نقص التعليم ؟ » (وهذان تشملهما التربية العامّة) . إن الرجل الذى لم يعلم لم يعدّ رجلا غير ناضج فهو نيء وغير متقن ، وأما الرجل الذى لا تهذيب عنده فهو رجل غير منظم الحياة ولا موزون

(٩) إن النقص الحاصل من إهمال التهذيب أشد وطأة وأضر بالانسان من نقص التعليم فان العلم يمكن تداركه فى الكبر . أما التهذيب وتحسين الخلق فهيهات هيهات أن يصلح شأنه بعد فوات فرصته فى الصغر . إن الخطأ فى تهذيب الطفل لن يصلح أمد الحياة

(١٠) وعلى كل جيل أن يخطو فى التهذيب والتعليم خطوة الى الأمام ويسلمها للجيل الذى بعده وهنالك ترتقى الانسانية شيأ فشيأ جيلا فجيلا وتقترب من كمالها خطوة خطوة إذ لاسبيل لبلوغ الانسانية غايتها إلا بوسائل التربية والتعليم ، ولاجرم أن هنا أمرا جديرا بالذكر وهو هذا السؤال : ماالذى تستفيده الانسانية من دوام التعليم وارتقاء الانسانية فيه جيلا فجيلا ؟ وجوابه بين واضح وهو أن ارتقاء التعليم يوجب ظهور المواهب الكامنة فى الانسان واستكمالها وهذا يجعل الانسان أسعد حالا وأنعم بالا مما هو الآن ، إن ماننتظره من رقى القوى الانسانيـة بكمال التعليم أمر جليل القدر عظيم المنزلة

(١١) لنجعل نصب أعيننا هذه الفكرة ونقترف أنفسنا أن الانسانية لابد من ارتقائها ، فاذا فعلنا ذلك أمكننا السير فى هـذه السبيل ، أما اذا يئسنا من هـذه الفكرة مدعين اننا لن ننالها لأننا لم نزاولها فذلك يبعدنا عنها مراحل ، كما اذا فكرنا فى أمر الحكومة وبحثنا عن هيئة الحكومة العادلة التى لاخطأ فى أحكامها فقلنا لاسبيل اليها لأننا لم نزاولها

(١٢) فلنجعل نصب أعيننا فكرة رقى الانسانية وتحققها فى أنفسنا ضاربين صفحا عما أمامنا من العقبات الصادة عن إتمام غاياتنا فى ذلك ، واذن يكون تحقيقها ممكنا ولاتحقيق لعمل إلابعد انضاج الفكرة فيه والاقتناع بها

إن التعليم فى أيامنا الحاضرة لايؤدى الى رقى الانسانيـة ، وكيف يؤدى اليها والأمم مختلفون فى الطرق التى يسلكونها . فما الذى يجمعهم إذن ؟ فليكن اتحاد عام للتعليم . فهذا الاتحاد هو الذى يحدث فى الانسانية طبيعة جديدة فلنعمل لتحقيق تلك الفكرة بالتعليم ويسلمها الجيل المتعلم الى الجيل الذى بعده ليقترب كل جيل من الغاية العالية شيأ فشيأ حتى تتحقق الآمال بالتدريج وهناك تكون سعادة الانسانية . ولأضرب لك مثلا نباتا يسمى (اريكيولا) اذا نبت بطريق بذره وحرثه وسقيه خرجت أزهاره ذات ألوان بديعات جيلات فأما اذا بقيت جذوره للعام المقبل ونبتت شجيرات عليه فان أزهارها لاتكون إلا ذات لون واحد وتذهب منها تلك المحاسن والبهجة والزخرف والنضارة والرقش والتزويق التى كانت فى زهرات العام الماضى . لماذا هذا ؟ لأن النضارة والبهجة الكامنتين فى النبات خبئت فى البذرة فبرزت . أما الجذور الباقية فيما بعد فقد خلت من أكثر المحاسن . هكذا الانسان فان لم يكن التعليم مستمر الرقى والابتداع فيه فان ثمراته تكون ضئيلة ضعيفة لاتشفى من علة ولاتروى من غلة ولاتدفع عارا ولاتطفىء نارا

كم فى الانسان من مزايا مخبوءة فى جبلته لم تبرز للوجود . فعلينا نحن أن نجعل هذه الاصول الصالحة تظهر وتنمو حتى تصل بالانسان الى غايته المنتظرة . أما الحيوان فقد وصل الى غايته واستكمل قوته التى لاقوة وراءها بلاروية ولافكر . والانسان عليه أن يجد ليصل لغايته ولن يصل الى ذلك اذا لم يضع الفكرة نصب عينيه لأن أول الفكر آخر العمل . وبدون الجهاد الفردى لن تتم للانسان غايته . فلنتصور والدين كملت أخلاقهما واستكملا مواهبهما وجعلا أنفسهما مثلا لأبنائهما . فاتبع الأبناء الوالدين اتباعا تقليديا بلاروية ولا تعقل ولابصيرة فان هـذه الذرية تظهر بعض مواهبها لاجيعها وذلك بمجرد التقليد . إن الناس فى الأزمنة الخالية والقرون الماضية لم تكن لهم فكرة ثاقبة لترقية الانسانية العامة . بل حتى الآن فى أيامنا هذه لانجد رأيا ثابتا لهـذا الغرض العام . إن الحق الصراح يقضى أن الجهاد الفردى لبلوغ الغاية الانسانيـة هو السبيل

الموصل لها وبدون الجهاد الفردى لانجاح فى الوصول اليها بل لاتكفى أفراد قليلة . فليعمل كل فرد فى الناس لهذه الغاية . إن الانسانية العامّة لاسعادة لها إلا بسعى جمع أفرادها فى استكمال مواهبها

هذه هى الحقيقة التى لامراء فيها . إن التعليم صناعة ولايتم كمالها إلا بجهاد أمم كثيرة فيها . وكل جيل يهب تجاربه ومعارفه للجيل الذى بعده ليقترب من الكمال واستنبات بذوره الكامنة حتى يقترب من الغاية المنشودة . بهذه الوسيلة يتقدم النوع الانسانى نحو نصيبه من الكمال

إن العناية المدبرة للانسان قد أرادت منه أن يستخرج بنفسه من نفسه المزايا الشريفة التى كمنت فى جبلته وخاطبته تلك العناية قائلة له : « أيها الانسان : انت على نفسك بصيرة ولو ألقيت الينا معاذيرك ، نحن منحناك كل موهبة وأعطيناك أصول الرقىّ الموصلة الى غاية السعادة ، فأما استكمال تلك المواهب واستخراج تلك الفضائل واستنبات تلك البذور فذلك عليك أنت ، هكذا عليك قضينا أن سعادتك وشقاءك متوقفان عليك أنت وحدك »

إن العناية بذلت للانسان بذور السعادة لانفس السعادة وعلى الانسان أن ينمى تلك البذور الكامنة فيه فهى لم تضع فيه نفس السعادة بل مقدماتها ولم تحطها بغريزة تستكمل نموّها بخواص الغريزة ، فالواجب على الانسان أن ينمى تلك البذور وينمى صفاته العقلية ، واذا أحسّ بالضلال فى سيره فليهتد الى طريق الصواب بقوانين الآداب العامّة ، وههنا تثور مشكلة يصعب حلها ويشكل فهمها ، ذلك أننا قلنا ان الانسان لايصل الى الكمال إلا بالتعليم ولكن التعليم انما يكون بالفطنة والبصيرة . والفطنة والبصيرة يتوقفان على التعليم . إذن صارت المسألة فيها الدور والدور محال فالتعليم متوقف على البصيرة والبصيرة متوقفة على التعليم . فالشئ متوقف على نفسه وهو محال . ولكن هذا الاشكال يزول متى عرفنا أن كل جيل من الأجيال يحمل علم الجيل الذى قبله ويزيده شيأ يسيرا من جهاده الخاص ويوصله للجيل الذى بعده وبهذا زال الاشكال لأن ارتقاء الدرجات ارتقاء بطىء تدريجى لافجائى حتى يرد هذا الاشكال . فكل جيل يزيد على ماورثه عما قبله قليلا قبل أن يسلمه لمن بعده . فلعمرى ما أوسع التعليم وما أكثر التجارب التى تضمنتها هذه السبيل التى شرحناها والطريق التى أبناها . وهل هى شئ غير تبيان الا مكان فقط أما الوصول اليها وتحقيقها فانا لم نصل اليه بعد

وههنا تثار مشكلة أخرى فيسأل هذا السؤال : هل نحن فى جهادنا الفردى نسلك السبيل التى سيسلكها النوع الانسانى جميعه فى أجياله المتتابعة ولاجواب على هذا الاشكال إلا بالحيرة بأن نقول نعم هنا مشكلتان كل منهما أصعب من الأخرى حلا وهما : صناعة الحكومة . وصناعة التعليم . والناس متنازعون فى تحقيق معناهما . ولكن المدنية الحالية التى وصل اليها الانسان هى التى تمكنه من أن يتصوّر امكان الوصول الى الغاية المنشودة التى نحثّ عليها وليس فى الامكان أن تخطر هذه الفكرة العالية فى عقول الأمم أثناء وحشيتها

وعلى ذلك يعسر علينا أن نفهم كيف كان الانسان الأوّل . إن السجلات القديمة والكتب الموروثة تدلنا على أن أرقى الأمم المتمدينة الآن كان آباؤهم ذوى صفات وحشية بربرية . فكم من أنواع الجهاد ابتدعوا . وكم من سبل سنوها حتى وصلوا بجدهم الى مجرّد القراءة . فهكذا نقول مع هذه الأمم الراقية بالنسبة للكمال المنشود الذى كلامنا فيه

إن الانسان حينما ابتدع صناعة الكتابة قديما استحق أن يقال له انه « ابتدأ يعيش فى الدنيا » إن الانسان وهو يجاهد لاستخراج مواهبه المخبوءة فيه بالعناية المطلوبة وجدّه واجتهاده بنفسه يكون التعليم صناعة فاذا استكمل الانسان مواهبه فى المستقبل فان التعليم يكون أشبه بطبيعة ثانية لاصناعة والعناية القدسية لم تضع فيه غريزة لهذا الغرض المطلوب

ليس يمكن الانسان أن ينال غاية ما ... ربه واستكمال قواه بالتعليم التقليدى بلابصيرة ولافكرة ولاتعقل

وتمييز . فبذور الكمال المخبوءة فى الانسان ومحاولة استخراجها بصناعة التعليم يكونان إذن أمرين متشابهين متحدين فى أنهما لابصيرة فيهما ولا كتاب منير . إن كل تعليم تقليدى بلابصيرة ولافكرة تستقر فى ثناياه أنواع من الخطأ لأنها تعاليم لاأساس لها ولاقانون تسير على مقتضاه . فلارقى لنوع الانسان إلا بالتعليم المبنى على البصيرة والتعقل لاأن يكون الاستاذ كالآلة المتحركة على مثال غيره . بهذا وحده يمكن ارتقاء نوع الانسان واستخراج جميع مواهبه ، تعليم الآباء للأبناء يكون بالقدوة والتقليد فيما يفعلون ، فاذا نجح الأطفال فى تقليد الآباء فانه لابد من الدراسة والتعليم ليميزوا الخبيث من الطيب بالتعقل والبصيرة . والذى يتعلم بلابصيرة تعلما آليا ليس يفعل شيأ إلا انه يعطى الخطأ الذى استحوذ عليه وأنواع الغلط لتلاميذه ويكررها لهم كما وعاها

إن الاصول التى يجب أن يكون عليها التعليم فى المستقبل هى أن يضع المعلمون أمام أعينهم هذه الغاية وهى ان التعليم لايقصد منه الوقت الحاضر فقط بل يقصد منه أيضا ارتقاء الانسانية العامة فى المستقبل واستخراج قوى كل فرد . تلك هى الطريقة التى تتخذ فى فكرة الانسانية العامة ووصولها الى نهاية مستواها الرفيع وهذه القاعدة تستحق العناية والاهتمام . إن الآباء يحتذون فى تعليم أبنائهم المثال الذى يختطونه هم لانفسهم ولايبالون بالخير فى المستقبل للعالم أيكون صالحا أم يكون فاسدا ولكنهم أجدر أن يذكروا الأبناء بالخير العام لنوع الانسان فى المستقبل ولكن ههنا تقابل مسألتين عويصتين : الآباء يربون الأبناء على مايريدان من الحياة المعتادة . والأمراء والملوك يربونهم لأجل ممالكهم وبقاء سلطانهم . فههنا عاملان يتعاونان على حصر عقول الأبناء فى خطة محدودة . أما الرقى الانسانى فلانظر فيه لا للآباء ولاللأمراء . فالآباء غاياتهم منازلهم والملوك غاياتهم ممالكهم . فلاهؤلاء ولاهؤلاء موجهو هممهم الى غاية الانسانية العامة النافعة ولاالى استكمال قوى الفرد الكامنة فيه التى يسعى اليها ويستعد لها بفطرته . فليكن التعليم مؤسسا على فكرة استكمال قوى الانسان . وهنا يرد سؤال فيقال : إن التعليم بقصد ارتقاء الانسانية ضار بالأفراد لأن العناية بالعموم تلهى عن العناية بأمر الانسان ومنزله وهذا القول مردود على صاحبه فانه (وان ظهر فى بادىء الرأى أن قصد الفرد المنفعة العامة ضار بمصالحه الخاصة فهو يضحى بعضها لأجل المصلحة العامة بسبب هذه الفكرة) فان الرقى النفسى إذ ذاك حسن فى ذاته ونافع أيضا فى أعماله الحالية الفردية فضلا عن العامة . وكم من الفوائد العوائد على المرء بهذه السبيل . إنه بالتعليم العام تظهر المواهب الفاضلة الكامنة فى الانسان . وبذور الرقى يعوزها أن تظهر شيأ فشيأ لأن الشرور وأخلاق السوء لم تخلق فى طبيعة الانسان ، وهل الشر إلانتيجة إهمال الطبائع الانسانية وعدم قيادتها وحكمها حكما لاهوادة فيه . ليس فى الانسان إلا قوى الخير . من هوالذى يعلم نوع الانسان أحسن سبل هذه الحياة لاتمام سعادته . أهم الملوك أم هم الشعوب ؟ إن الذى يعلمه هم نفس الشعوب . هم الذين يتقدمون الى الكمال عن رغبة منهم واجتهاد فيصلون الى نصف طريق الكمال والملوك يبنون بعد ذلك تعليمهم على ذلك ويثبتونه ويوطدونه . أما الأمراء فليس يحسن الاعتماد عليهم فى تعليم الأمم . ذلك لأنهم يعوزهم التثقيف والتهذيب فى تعليمهم الأول . فكم يقاسون من مصاعب ومشاق فى أعمالهم وذلك نتيجة ماكان من خطأ فى إبان تعليمهم إذ هم لايجدون فى صباهم من ينهاهم عن شر أو يبعدهم عن ذنب فكبروا وهم مغرورون فلذلك يقاسون شدائد ومحنا لايستطيعون الصبر عليها فكيف يوكل لهم أمر تعليم الأمم . إن الشجرة التى تكون فى حقل منفردة تنمو وهى معوجة ناشرة أغصانها باتساع ذات اليمين وذات الشمال بينما الشجرة التى فى وسط أشجار أخرى فى غابة تنمو بضغط ماحولها عليها طولا لاعرضا مستقيمة لامعوجة تبحث عن الهواء وضوء الشمس من أعلى . هكذا تكون حال هؤلاء الأمراء . وعلى كل حال يجدر بهؤلاء أن يتعلموا مع أبناء شعوبهم فذلك خيرلهم من أن يتعلموا وحدهم ذلك ليبلوا حلو العيش ومره . ثم نحن ننتظر الخير فى التعليم العام من هؤلاء الأمراء فقط اذا كان تعليمهم أعلى من تعليم شعوبهم . إذن التعليم

العام سياجه نفس الشعوب فى جهادهم الخاص . فلا يصلح الأمراء أن يتكل الناس على مساعدتهم كثيرا كما يزعمه (باسيدو) وآخرون غيره لأننا وجدنا بالتجربة أن هؤلاء لا ينظرون للاصلاح العام فى التعليم كما ينظرون الى اصلاح ممالكهم وهم لا يريدون إلا الغاية التى يقصدونها فى تلك الممالك . نعم هؤلاء ينفقون اذا كانت غاية انفاقهم جر المنفعة الى خزائن حكوماتهم بل المجامع العلمية العالية (رجال الأكاديمى) لا يعيرون خير الانسانية العام إلتفاتة وربما يفعلون ذلك فى المستقبل ، أما الآن فانه قليل

إن إدارة المدارس يجب أن يكون اعتمادها إذن على حكم ذوى الاختبار البارعين الماهرين من الحكماء إذ يقولون : « التعليم يجب أن يقوم بالجهاد الفردى أوّلا وكامل التعليم يفيض على غيره بالتدريج »

و بعبارة أصرح : « ليقم التعليم على جهاد أبطال العالم فى العلم الذين لهم نظر ثاقب واسع ويجدون لذة فى التثقيف العام للأمم وهم متصفون بمسرة ولذة لاحد لها بالرأى المؤدى الى أحسن الامور فى المستقبل وهو أن النجاح المستمر للطبيعة الانسانية نحو غرضها السامى أمر ممكن حصوله »

فهل بعد هذا نعتمد على الأمراء الذين ينظرون الى رجال أممهم كأنهم قطعان من الأنعام فى ضمن ممالكهم . وبل قصدهم اذا فعلوا خيرا علما أن يعلنوا الدعاية لأنفسهم انهم يريدون خير الانسانية وهم اذا أرادوا تثقيف شعوبهم فلن يكون ذلك إلا لحاجة فى نفس يعقوب قضاها ، فهم لا يعلمون الشعوب إلا على نموذج مايقصدونه هم أنفسهم لغاية يريدونها . إذن فليكن التعليم أوّلا بجهاد أفراد الأمم أنفسهم وليجدّوا فيه على مقدار استعدادهم هم لا إرادات ملوكهم ، ولكن عليهم مع هذا أن يجعلوا نصب أعينهم الخير العام وارتقاء الأمم فلا تجتزئ بأن تجعل الأمم ذات نشاط فى أعمالها بل يجب أن تحمل الناس على الكمال الأدبى وليجدّوا حتى يكون النسل المقبل خيرا من الجيل الحاضر فى علومه ومعارفه وآدبه . وهنا أخذ يبين فى الفصل الثامن عشر ملخص ماتقدم . أوّلا ان التربية تشمل :

(١) تهذيب النفوس بمنعها من الشرور

(٢) وتثقيف العقول بالمعارف

(٣) وازدياد البصيرة والتعقل بما اكتسبه الناس من العلوم ومعاملة كل امرئ بما يناسب عوائده

(٤) واعمال البصيرة فى الغاية المطلوبة لكل امرئ بحسبه

وأخذ فى الفصل التاسع عشر يبين أن القسم الرابع وهو التعليم الأدبى العام متروك لاينظر اليه الناس كثيرا ، فعلى الأساتذة أن يبينوا للأطفال فى إبان صباهم أن الرذيلة فى نفسها ممقوتة مكروهة منبوذة ولا يكتفون بقولهم ان الله حرمها ؛ كلا . بل هى فى نفسها ممقوتة لذلك حرّمها الله

وأخذ فى الفصل العشرين يبين أن التمرين العملى فى المدارس لابد منه لأن ذلك مقدمة للتمرين فى أمور الحياة العامة فى المنزل وفى السياسة

وأخذ فى الفصل الحادى والعشرين يبين أن التربية تشتمل كما تقدم على عناية الوالدين أوّلا وعناية المدرسين ثانيا وعلى الهداية فى أعمال الحياة ثالثا فى تهذيب الناس ونظام الأسرة ونظام السياسة العامة

وفى الفصل الثانى والعشرين يقول : « إن التعليم إما عام واما خاص » وأطال فى ذلك

وفى الفصل الثالث والعشرين يقول : « إن التعليم العام مكمل للتعليم الخاص فى المنازل »

وفى الفصل الرابع والعشرين أبان صعوبة التعليم المنزلى ، ثم حكم أن التعليم يستمرّ الى السنة السادسة عشرة من الحياة و بعد ذلك يعلم كيف يتعقل هو بنفسه ، وعلى المدرّس أن يهذبه السبيل فى تعلمه حتى يكمل بنفسه تحت ارشاده ، وأبان انه فى أوّل أمره يكون تأديبه عمليا ، فاذا عقل وكبر أعطى الحرّية فى الاختيار بنفسه مع تعليمه احترام غيره بحيث لا تضر حرّيته حرّية غيره ، ويعلم كيف يضبط عواطفه بنفسه لا بالخوف

حتى يكون ذلك نبراسا له فى مستقبل حياته

ثم أبان أن التربية من نتائجها ما يأتى : تهذيب النفس وصلاحيتها لرعاية المنزل وتدبير الأمة وموافقة الحياة العامة والنظر لخير الانسان العام ، فالأول شخصى والثانى منزلى ومدنى والثالث للانسانية العامة اهـ

هذا ما أردت نقله من الكتاب المسمى «كنت فى التعليم» إذ ترجمت أكثر المقدمة وعسى أن أترجم بقية الكتاب فى مقام آخر

هذه أيها المسلمون آراء الاستاذ (كنت الألمانى) الذى تحترمه الأمم حولنا . ولم أنقل هذا إلا لأريكم أيها المسلمون الآراء الشائعة فى أوروبا الآن . وأفضل ماذكرت الآن فيه النفع العام فهو يحرص على أن يكون الانسان الواحد مريدا الخير للأمم الانسانية جميعا وهذا عجب جدا وكيف يقول (كنت) «إن الانسانية كانت وحشية ولما تعلموا الكتابة ابتدأت حياتهم الدنيوية . وهاهى ذه المدنية ارتقت ولم تبلغ النهاية . فاذا كان أولئك المتوحشون قد حاولوا الكتابة حتى نالوها أفلا نحاول نحن الرقى حتى يستخرج الانسان كل قواه الكامنة بجدّه كما استخرجت قوى الحيوان بغريزته وهناك يصل الانسان الى مقام عال وسعادة شريفة

فياعجبا : أليس هذا تفصيلا لقوله تعالى ـ وقل ربّ زدنى علما ـ . ألم ينزل فى أول ﴿سورة العلق﴾ ـ اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم ـ فذكر أولا القلم وثانيا تعليم الانسان مالم يعلم . وهل هاتان الجملتان إلا ملخص ماذكره (كنت) . أليس القرآن ـ آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ـ . إذن كل ماوجدناه قولا حقا فى صدور العلماء فهو تفسير للقرآن . وهاهى ذه آية ـ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ـ قد فصل بعض معناها فى كتاب العلامة (كنت) فهذه الآية لانهاية لمعانيها وهذه بعضها . هاهو ذا كنت الألمانى يقول هنا ما كتبته فى سور كثيرة : ان المسلمين يجب عليهم أن يرتقوا أوّلا ثم هم الذين يقومون بالخير العام للأمم لأننا جعلنا ـ خير أمة أخرجت للناس ـ (انظر فى سورة ابراهيم فى آية ـ وذكرهم بأيام الله ـ وفى آية ـ وقل ربّ زدنى علما ـ فى ﴿سورة طه﴾ فهناك تجد تفصيلا لهذا المقام) وليعلم المسلمون أن (كنت) وأمثال (كنت) يكتبون ذلك بعقولهم وفطرهم الانسانية ونحن نكتب بعقولنا وفطرنا مع ديننا . فاذا كان هؤلاء بعقولهم أدركوا أن الانسانية كلها اخوان وانهم يجب عليهم أن يرقوها فكيف بنا نحن ؟ فلنا عقول كما لهم . ولكننا نزيد بأن ديننا يأمر بجدّ الانسانية جمعاء . فهذه ميزتنا وهذه هى التى ستحمل قرّاء هذا التفسير وغيره أن يكونوا ـ خير أمة أخرجت للناس ـ لأن المدنية الاوروبية ناقصة فليكن الكمال فى مدنيتنا المستقبلة . أليس مايقوله العلامة (كنت) بعض تفسير قوله تعالى ـ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ـ . ألم يؤذن بلال الحبشى فى الكعبة بمحضر من أهل مكة الذين لايرون فى الأرض من يساويهم . إن الاسلام سوّى بين الأمم ونحن أتباعه فلنكن نحن حراسا على كل أمة متى ارتقينا ونحن الآن فى مبدأ الحياة

ههنا اطلع صديق العالم الذى اعتاد أن يحدّثنى فى هذا التفسير فقال لى : حسن ما كتبت عن الاستاذ (كنت) الألمانى وجدير بك أن تذكره هنا لأن مشربه مشرب الاسلام . الاسلام جاء لرقّ الانسانية كلها والتعارف مع الأمم كلها والمسلمون كانوا ـ خير أمة أخرجت للناس ـ كما قدّمت ذلك . فقلت نعم فقال ولكنى رأيت فى كلامه مايدل على الطعن فى الأمراء فما الداعى لذلك ؟ وهل أمراء المسلمين على هذا النمط الذى ذكره . انا اذا لم نطبق العلم على أحوالنا فلافائدة منه ومتى عرفنا ذلك فهمنا أيكون العلم تابعا لأمرائنا أم ندرس نحن فلانتكل عليهم كما يقول هو . وقصدى من هذا السؤال أن يكون عندنا ذكر من التاريخ حتى نستنير به . فقلت : ليكن الكلام فى ﴿زبرجدتين : الزبرجدة الأولى﴾ فى ملخص أمراء ألمانيا الذين ذكرهم (كنت) ﴿الزبرجدة الثانية﴾ فى إجمال أحوال أمم العرب قديما وحديثا وكيف سطا الترك

عليهم وسلبوهم ملكهم وكيف كان الحكم فى مصرهم وكيف ترقت البلاد المصرية فى أيام المغفورله (محمد على باشا) وكيف كان رقيها تبعا للحكومة وكيف دخل الانجليز بلادنا وكيف كان ذلك تابعا لنقص التعليم وكيف تعلم المصريون بعد الاحتلال تعليما شعبيا لاتعليما حكوميا وكيف ظهرت ثمرة هـذا ولم تظهر ثمرة التعليم الأوّل وكيف كان ذلك كله موافقا لـكلام (الاستاذ كانت) الألمانى . ثم كيف كان القرآن والحديث ينصان على هذه الطريقة وهى ان التعليم لابد أن يكون عاما والشعب هو الذى يقوم به وبيان ماجاء فى الأحاديث من الحث على العلم وفضله ثم أتبع ذلك كله بما جاء فى الفصـل الثالث من المقام الأوّل وهو أن بعض الملوك أحبوا العلم وتركوا زينة الحياة الدنيا والذى علمهم علماء تعلموا بطريق الشعب لا بطريق الحكومات لأن تعليمها ناقص فلأبدأ بالـكلام على الزبرجدة الأولى فأقول :

﴿ الزبرجدة الأولى فى فذلكة . الـكلام على أمراء ألمانيا بمناسبة كلام «كنت» عنهم ﴾

إن أهل ألمانيا فرع من العائلة (الآريه) وكانوا قديما ليس لهم منازل بل يسكنون قرى كلها أخصاص (جمع خص) وهذه الأمة لم تتوطن أوروبا إلا عند سقوط المملـكة الرومانية ولم تـكن هذه البلاد الألمانية إذ ذاك إلا مواطن للحيوانات المفترسة ولاتصلح إلا للصيد والقنص ومناخها رطب كثير الضباب وأرضها كثيرة السباخ ولـكن هم أصلحوها فيما بعد ، وهؤلاء القوم كانوا قبائل لم تجتمع إلا فى الزمن الذى ذكرناه فهنالك اتحدوا وكان لـكل قبيلة ملك يعتقدون فيه انه من نسل الإله (اودين) ماعدا السكسونيين ، وكان جلّ اعتمادهم على الصيد والحرب ، ثم أخذت ترتقى رويدا رويدا الى أن حصل لها الذل من فرنسا نحو سنة ١٨١٠ فظهر الحماس فى البلاد وارتقى التعليم ثم انتصرت وفازت ، والفضـل فى رقيها إذ ذاك انما هو لمملـكة بروسيا فان القوم أدركوا أن (بونابارتو) وضع الأمة الألمانية فى أدنى الدرجات وأذلها ذلا شديدا فبمساعدة الوزير (سطين) للملك إذ ذاك حصل إصلاح عظيم ، فالرق أبطل والحقوق الوطنية أعطيت للجميع فانتعش الشعب انتعاشا لم يعهده من قبل . ولما شاع ذلك أدرك نابوليون بونابارتو أن ذلك الاصلاح موجه للاستعداد لمحاربة فرنسا فضغط على الملك (فريدريك) فعزل وزيره الأعظم المذكور وهو (سطين) لأنه عدوّ لفرنسا فنجا بنفسه الى روسيا ومع ذلك لم يقف الاصلاح بعد ذلك وصار للتعليم قواعد وقوانين لم تـكن من قبل وحصل هناك اتحاد يسمى « اتحاد الحقيقة » ودخـل فيه ألوف وألوف وأخصهم المدرّسون والطلبة وكلها موجهة لتحرير الوطن من نابليون وفرنسا التى حدّدت الجيش بما مقداره (٤٢) ألفا . فسارت بروسيا على هـذا التحديد ولـكنها كانت تعلم قوما وتأتى بآخرين بدلهـم حتى عمّ التعليم الحربى روسيا وانتصرت وفازت ألمانيا . وهى وان انتصرت كان التحاسـد لايزال كثيرا بين الأمراء والولاة إذ هى (٣٩) ايالة وأمراء الايالات كانوا ظلمة وقد وعدوا رعاياهـم بأنهم اذا قهروا نابليون أعطوهم الحرّية والاستقلال . فلما قهروه وانكسر الفرنسيون وحبس نابليون فى جزيرة القدسية (هيلانه) نسى أمراء ألمانيا عهودهـم ووعودهم واستمروا فى الاستبداد والظلم ولـكن الأمير الذى مال لتحرير رعيتـه من الظلم وحـده موفيا بعهده هو (فودريك غليوم) صاحب بروسيا التى هى أكبر ايالة فى ألمانيا ولـكنه لم يفعل شيأ إلا انه اكتفى بترتيب المجالس فى كل مديرية

هنالك قامت قيامة الأساتذة فى المدارس والطلبة ونادوا بطلب الحرّية وقاموا على الحـكومة فنكلت بهم الحـكومات ومنعوهم من الخطب والـكلام فزاد الطين بلة وقاموا يهدمون صروح أمرائهم حتى ان أمير ايالة (برونسويك) وهو الموق المغضوب عليه من الشعب فرّ هاربا لينجو بنفسه وهكذا فى سنة ١٨٤٨ انفجرت الثورة الفرنسية الثالثة فى باريس وانتشرت بسرعة فى داخـل ألمانيا فطلب الناس تشكيل حكومات حرّة وأن يتم الاتحاد الجرمانى وقام أهل برلين بثورة بالسلاح . وفى ١٣ مارس سنة ١٨٤٨ وقعت حرب بين الأهالى

والعسكر في برلين فتردد الملك في أمره طويلا . وفي ١٧ منه وعد بالحكومة المنظمة فطلب الأهالي اخراج العساكر من برلين . وفي ١٨ منه ازدحم الناس أمام السراي فما أطلقت رصاصتان من جهة مجهولة حتى قامت الحرب على ساق وقدم بين الجنود والأمة واستمرت أكثر مدة الليل فهلك فيها كثير من الأنفس . هنالك في اليوم الثاني سلم الملك بمطالب الأمة وأخرجت الجنود من برلين . فسلم الملك الأمر لأمته وبعد أخذ ورد التأم مجلس عام من ٥٠٠ جرماني في مدينة فرنكفوت في ٢١ مارس من تلك السنة بصفة برلمان وقتي وهكذا استمرت ترتقي الى الآن

هذا أيها الذكي القول المجمل في أمراء ألمانيا ذكرته لتعلم لماذا ترى (كنت الألماني) يظهر نقص الأمراء في تعليمهم شعوبهم وعدم اخلاصهم وانهم قوم مراؤن ، وأنا موقن أن هذه النظرة السطحية في أمراء الألمان تعرفنا ﴿ أمرين : الأول ﴾ لماذا تحامل عليهم العلامة (كنت) ﴿ الثاني ﴾ أن سيرتهم تعرفنا لماذا تأخر المسلمون وكيف كان تقصير أمرائهم في تعليمهم هو أصل العيب والنقص في تعليمنا وتأخرنا وذلك هو الذي أذكره في الزبرجدة الثانية

﴿ الزبرجدة الثانية في أحوال أمم العرب قديما وحديثا الى آخر ما تقدم ﴾

إعلم أيدك الله أن الأمم الاسلامية جعلها الله في الأرض لتكون نبراسا للأمم وقد تم ذلك في العصور الأولى و بلغوا المشرقين والمغربين ، ولكنهم لما جهلوا مركزهم في الأمم وانهم لم يجعلوا كذلك لأجل قضاء شهواتهم بل هم نافعون للأمم وجعلوا الأموال لمجرد الزينة والتفاخر وظلموا عباد الله غار الله عز وجل على عباده وطرد أبناء الفاتحين من بلادهم وسلط الترك على أكثر بلاد العرب التي هي منبع العلم في العالم قديما فكسروا شوكة العراق والشام ومصر وشمال افريقيا وهكذا توغل الترك في ظلم الأمم العربية وحكموهم باسم الدين جزاء وفاقا لما فعل أسلاف آبائنا العرب المتأخرين بعد القرون الثلاثة الأولى (كما تراه موضحا في آية - إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة - الخ في ﴿ سورة النمل ﴾ إذ ترى هناك انهم ظلموا الأمم بعد القرون الثلاثة الأولى فأزال الله ملكهم لأنه رحيم وعدل وحكيم ، فهؤلاء الترك لما سلطهم الله على بلادنا نحو ثلاثة قرون حكمها بعد ذلك المغفور له (محمد علي باشا) وأخذ يرقيها هو ونسله نحو (٥٠) سنة ، ففتح المدارس وقاد الجيوش وفتح الممالك ، ولكن ماذا حصل بعد ذلك ؟ ظهر فيهم كلام العلامة (كنت) المتقدم فالتلميذ يتعلم لمقصد الحاكم لا لمقصد العلم نفسه ولا لترقية نفس الشعب بل الشعب كان يتعلم باسم الأمير ولغايات مقاصده ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ تعليم خال من الحرية والتعليم اذا خلا من الحرية كان ضئيلا ولذلك لم يكن في البلاد مدارس حرة مطلقا . فلما كانت سنة ١٨٨١ قام رجل جندي وهو (أحمد عرابي باشا . وهل تعلم هذا في المدارس ؟ كلا . بل هو جندي فلاح تعلم قليلا من الدين وارتقى بنشاطه وخضع له الضباط المتعلمون في المدارس الحربية في مصر وألمانيا وفرنسا والأمة مقهورة والمتعلمون فيها أذلاء لا حرية لهم . فلو كان لهم حرية لقام بالثورة الضباط المتعلمون في المدارس الحربية ولكن الثائر جندي فلاح رأى الظلم فقام لحربه . قام يطالب بحرية أمته ولكن أمته لا تزال جاهلة والجاهل جبان ذليل ، فماذا حصل ؟ قام أكثر المتعلمين واتبعوا الخديوي الذي اتحد مع الانجليز ، وهناك انقسمت الأمة وحصلت الخيانة ودخل الانجليز ، فماذا يصنعون ضيقوا دائرة العلم ، فماذا تفعل الأمة ؟ هنا انفتحت بصائرها فأخذت تعلم أولادها لأنه أيقظها ﴿ أمران ﴾ التعليم الحكومي السابق . والثورة العرابية فأخذت ترسل أبناءها للخارج وفتحت المدارس الأهلية وانتشرت الجرائد فيها فاستيقظت في (٤٠) سنة فقامت بثورة ضد الانجليز فأعطوها الاستقلال الداخلي . فهذا انما جاء بسبب تعليم الشعب نفسه بنفسه والمتعلمون أنفسهم هم الذين قاموا بالثورة . فأما تعليم الحكومة الذي سبق الاحتلال فإن الثائر جندي لم يدرس في المدارس فما صدق على الأمة الألمانية

صدق

صدق على الأمة المصرية من حيث أن تعليم الحكومة تبع أهواء الملوك والأمراء لا يكفى لرقىّ الأمم . إذن يجب أن الشعب هو نفسه الذى يضطلع بأمر التعليم وهذا هو الدين الاسلامى

أيها المسلمون : هاهى ذه ألمانيا منذ قرن كانت مهضومة الحقوق أذلها ملوكها ومنعوها الحرّية فجاهدوا وارتقوا . والذى أسرع فى رقيهم إذلال فرنسا لهم فكان ذلك من أسباب تحريرهم والأمم الاسلامية لم تكن العقبة فى سبيل حريتهم واحدة بل ثلاث عقبات : عقبة الملوك ، وعقبة أكثر شيوخ الطرق وقد أوضحت هذا المقام فى ﴿سورة الكهف﴾ عند آية ـ وما كنت متخذ المضلين عضدا ـ وفى ﴿سورة سبأ﴾ عند آية ـ ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ـ الخ وفى ﴿سورة الشعراء﴾ عند الكلام على السحر . وعقبة الدول المستعمرة ، هاهم أولاء الباطنية الذين علمهم (حسن بن الصباح) فى أواخر القرن الخامس الهجرى كانوا يحرّمون على أتباعهم النظر فى العلم وعدّوه ذنبا ، وهاهم أولاء شيوخ الصوفية فى كل زمان ومكان يحضون على ترك العلم ولايرون طريقا للناس إلا نصائحهم وهذه أكبر العقبات فى نهوض المسلمين ، وهاهم أولاء ملوك بنى عثمان كانوا هم أهمّ السبب فى نقص التعليم فى ديار الاسلام ، وهاهى ذه أمم أوروبا مادخلت بلادا إلا جعلت أهلها جهلاء خيفة أن يطالبوا بحقوقهم

اللهم إن هذه العقبات الثلاث هى المانعات من رقىّ المسلمين ، وأنا أقول بانتشار مثل هذه الآراء فى هذا التفسير وغيره فى بلاد الاسلام تزول هذه العقبات ، وسيكون استعمار الاوروبيين من أهم أسباب ظهور الحماسة فى قلوب الشعوب الاسلامية

وهاأناذا أوضحت الأمر للأمم الاسلامية ، وأنا موقن أن هذا سيتم فيها ، وهذا هو الذى حث عليه الأحاديث النبوية الشريفة والحمد لله رب العالمين

﴿ نغمات الحكمة ﴾

لما ترجت هذا الموضوع وكتبته هو ومابعده انشرح صدرى انشراحا تاما وأحسست بمسرّة عظيمة ، وبينما أنا سائر بعد ذلك فى شارع السيدة زينب الذى أمام الباب الغربى للمسجد الزينبى بمصر فى يوم من أيام شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ أثناء طبع هذه السورة وكان ذلك ضحى إذ سمعت نغمات موسيقى تصدح فى دكان لجلب المشترين فخيل لى فى أقلّ من لمح البصر أن هذه حفلة أنس فى أمم اسلامية بعد عشرات السنين قد انتظم التعليم عندهم وقرؤا أمثال هذا التفسير وأصبحوا أرقى من الأمم الاسلامية الحالية فهم لذلك مبتهجون بنعمة العلم والحرّية لا انهم مستعبدون للفرنجة مثل كثير من المسلمين الحاليين لجهلهم ، وهذا الخيال المفاجىء لى أوقفنى ثوانى وأنا بهج طرب فرح واغرورقت عيناى بالدموع ، ومن عادتى أن لا أظهر مايجيش بخاطرى مثل هذا لأن هذه خواطر لاتتعدّى صاحبها ، ولما أفقت من غشيتى السارّة أتممت المسير

هذا ومن عجب أن الأمم الاسلامية الحاضرين لوعلموا أن هولندا والدانمارك والسويد والنرويج قد قطعوا أشواطا بعيدة فى التعليم وعمموه لأفراد الشعب وبعض ولاياتهم قد أقفلت محاكم جناياتها كامرّ قريبا فهم إذن أرقى من المسلمين الحاليين أخلاقا وآدابا ، أقول لوعلموا ذلك لدهشوا أشدّ الدهش وقالوا كيف يكون ديننا أوّل منادى بالتعليم العام وأجابت دعوته أمم أخرى والمسلمون نيام ، اللهم إنى أبرأ اليك من الكتمان وأسألك أن توقظ المسلمين للتعليم العام اه

﴿ زبرجدة فيما جاء من الحثّ على العلم فى الأحاديث الشريفة ﴾

نذكر هذا الفصل حتى يعلم المسلمون أن مايسمعونه من الأحاديث فى الحضّ على العلم الموجه للناس عامة

(لا انهم يتكلون على ملوكهم) هوآخر ماوصل اليه نوع الانسان الآن بعد حروب دامت سنين وسنين وأن ألمانيا التي يضرب بها المثل في العلم لم تهتد الى النتائج التي جاءت بها الآيات وهذه الأحاديث التي سأذكرها إلا بعد قرون وحروب طاحنة سالت فيها الدماء ، وهذه الأحاديث بين أيدي المسلمين ولكنهم يقرءونها لمجرّد التبرك ومجرّد العلم ، أما العمل فلا ،خفيّ على المسلمين قول أبي الدرداء لزياد بن لبيد الأنصاري فما سيأتي لما سأل الثاني الأوّل قائلا : كيف يختلس العلم منا وقدقرأنا القرآن فوالله لنقرأنه ولنقرئنه أولادنا ونساءنا . فقال ثكلتك أمك يازياد ان كنت لأعدك من فقهاء المدينة . هذه التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى فما تغني عنهم الخ فهاك الأحاديث التي وعدتك بها من كتاب « تيسير الوصول لجامع الاصول » تحت العنوان التالي وهذا نصه :

﴿ كتاب العلم وفيه سبعة فصول ﴾

﴿ الفصل الأوّل في فضل العلماء ﴾

عن أبي أمامة رضي الله عنه . قال : ذكر لرسول الله ﷺ رجلان عابد وعالم . فقال : فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم . أخرجه الترمذي وصححه * وفي رواية له ثم قال : ان الله تعالى وملائكته عليهم السلام وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة في جحرها والحيتان في البحر يصلون على معلم الناس الخير

وعن ابن عباس رضي الله عنهما . قال قال رسول الله ﷺ : فقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد . أخرجه الترمذي

وعن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : سئل النبي ﷺ أيّ الناس أكرم عند الله تعالى ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا ليس عن هذا نسألك ، قال فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله . قالوا ليس عن هذا نسألك ، قال : فعن معادن العرب تسألوني قالوا نعم . قال فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا . أخرجه الشيخان

وعن علي رضي الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : نعم الرجل الفقيه في الدين ان احتيج اليه نفع وان استغنى عنه أغنى نفسه . أخرجه رزين

وعنه رضي الله عنه ، قال قال رسول الله ﷺ من أحيا سنة من سنتي أميتت بعدي فقد أحبني ! ومن أحبني كان معي ، أخرجه رزين

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه . قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سلك طريقا يطلب به علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة . وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع وان العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء . وان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وان العلماء ورثة الأنبياء وان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكن ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر . أخرجه أبوداود وهذا لفظه والترمذي

﴿ الفصل الثاني في الحث عليه ﴾

عن حميد . قال سمعت معاوية رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين . أخرجه الشيخان وأخرجه الترمذي عن ابن عباس

وعن أنس رضي الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع . أخرجه الترمذي * وفي أخرى له عن سخبرة مرفوعا . من طلب العلم كان كفارة لما مضى

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : تعلموا قبل الظانين يعني قبل الذين

يتكلمون بالظن ، أخرجه رزين وعلقه البخارى

وعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ تعلموا الفرائض والقرآن وعلموا الناس فانى مقبوض ، أخرجه الترمذى وعن ابن مسعود بمعناه . وزادرزين . وان مثل العالم الذى لايعلم الفرائض كمثل البرنس الذى لارأس له

وعن أبى سعيد رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ لن يشبع مؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة . أخرجه الترمذى

وعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها . أخرجه الترمذى

وعن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما . قال قال رسول الله ﷺ العلم ثلاثة وماسوى ذلك فهو فضل آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة . أخرجه أبوداود « الآية المحكمة » هى التى لا اشتباه فيها ولا اختلاف وماليس بمنسوخ « والسنة القائمة » هى الدائمة المستمرة التى العمل بها متصل لايترك « والفريضة العادلة » هى التى لاجور فيها ولاحيف فى قضائها

وعن أبى واقد الليثى . قال بينا رسول الله ﷺ جالس فى المسجد اذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان الى رسول الله ﷺ فوقفا على رسول الله ﷺ فرأى أحدهما فرجة فى الحلقة فجلس وجلس الآخر خلفهم وأما الثالث فذهب مدبرا فلما فرغ رسول الله ﷺ قال ألا أخبركم عن النفر الثلاثة . أما أحدهم فآوى الى الله فآواه الله . وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله تعالى منه . وأما الآخر فأعرض فأعرض الله تعالى عنه . أخرجه الثلاثة والترمذى

﴿ الفصل الثالث فى آداب العلم ﴾

عن أبى هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار . أخرجه أبوداود والترمذى وهذا لفظه ، والمراد بذلك العلم الذى يلزم تعليمه ويتعين فرضه ككافر يسأل عن الاسلام والدين وكحديث عهد بالاسلام يسأل عن الصلاة وكمن جاء مستفتيا فى حلال وحرام فيلزمه تعليمه وجوابه ومن منعه استحق الوعيد وليس الأمر كذلك فى نوافل العلم التى لايلزم تعليمها

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ والله لأن يهدى بهداك رجل واحد خير لك من حمر النعم . أخرجه أبو داود

وعن أبى هرون العبدى . قال . كنا نأتى أباسعيد الخدرى رضى الله عنه فيقول مرحبا بوصية رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لنا ان الناس لكم تبع وان رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين . فاذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا . أخرجه الترمذى وضعفه

وعن يزيد بن سلمة . قال قلت يارسول الله انى سمعت منك حديثا كثيرا أخاف أن ينسينى أوله آخره فحدثنى بكلمة تكون جامعا . فقال اتق الله فيما تعلم . أخرجه الترمذى . وزادرزين واعمل به ويقال كلم جامع» اذا جمعت كلمات

وعن عمر رضى الله عنه . قال لاينبغى لمن عنده شئ من العلم أن يضيع نفسه . أخرجه البخارى تعليقا

﴿ الفصل الرابع فى آداب العلم والتعلم ﴾

عن عكرمة . ان ابن عباس رضى الله عنهما . قال حدث الناس مرة فى الجمعة فان أبيت فمرتين وان كثرت فثلاثا . ولاتمل الناس هذا القرآن . ولا ألفينك تأتى القوم وهم فى الحديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم ، ولكن أنصت فاذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه . وانظر السجع من الدعاء

فاجتنبه فانى عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون ذلك . أخرجه البخارى

وعن على رضى الله عنه . قال حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله . أخرجه البخارى . وعن ابن مسعود رضى الله عنه . قال ماأنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم الا كان لبعضهم فتنة . أخرجه مسلم

﴿ الفصل الخامس فى رواية الحديث ونقله ﴾

عن ابن مسعود رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ نضر الله امرءا سمع مناشيئافبلغه كما سمعه . فرب مبلغ أوعى من سامع . أخرجه الترمذى وصححه « نضر الله امرءا » بتخفيف الضاد وتشديدها معناه حسنه وجمله

وعن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما . قال قال رسول الله ﷺ بلغوا عنى ولو آية . وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج . ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار . أخرجه البخارى والترمذى قوله «حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج» ليس فيه اباحة الكذب فى الاخبار عنهم ورفع الاثم عمن نقل عنهم كذبا ولكن معناه الرخصة فى الحديث عنهم على معنى البلاغ وان لم يتحقق ذلك بنقل الاسناد لأنه أمر تعذر لبعد المسافة وطول المدة

وعن محمود بن الربيع رضى الله عنه . قال عقلت من رسول الله ﷺ مجة مجها فى وجهى من دلو من بئر كانت فى دارنا وأنا ابن خمس سنين . أخرجه الشيخان . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين . فاما أحدهما فبثثته فيكم وأما الآخر فلو حدثتكم به لقطعتم هذا البلعوم . أخرجه البخارى وقال « البلعوم » مجرى الطعام

وعن أبى ذر رضى الله عنه . انه قال لو وضعتم الصمصامة على هذه وأشار الى قفاه ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها من رسول الله ﷺ قبل أن تجيزوا على لأنفذتها . أخرجه البخارى تعليقا « الصمصامة » والصمصام السيف

﴿ الفصل السادس فى كتابة الحديث ﴾

عن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما . قال : كنت اكتب كل شئ سمعته من رسول الله ﷺ فنهتنى قريش . وقالوا : تكتب كل شئ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم فى الرضا والغضب . فأمسكت عن الكتابة حتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ . فأومأ باصبعه الى فيه وقال اكتب : فوالذى نفسى بيده مايخرج منه الاحق . أخرجه أبو داود

وعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال : شكا رجل من الأنصار الى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله انى لأسمع منك الحديث فيعجبنى ولا أحفظه . فقال رسول الله ﷺ استعن بيمينك وأومأ بيده الى الخط . أخرجه الترمذى . وعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال خطب رسول الله ﷺ فذكر قصة فى الحديث فقال أبو شاة . أكتبوا لى يارسول الله ؟ فقال : اكتبوا لأبى شاة . أخرجه الترمذى وصححه

وعنه رضى الله عنه . قال ما كان فى أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثا منى الاما كان من ابن عمرو فانه كان يكتب ولا أكتب . أخرجه البخارى والترمذى . وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه . قال أمرنى رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب يهود بالسريانية . وقال انى والله ما آمن يهود على كتابى قال فوالله مامر بى نصف شهر حتى تعلمته وجدت فيه فكنت أكتب له اليهم وأقرأ له كتبهم اليه . أخرجه البخارى وأبو داود والترمذى

وعن المطلب بن عبدالله بن حنطب رضى الله عنه . قال دخل زيد بن ثابت الى معاوية رضى الله عنهما .

فسأله معاوية عن حديث فاخبره به فأمر معاوية إنسانا يكتبه . فقال زيد . أمرنا رسول الله ﷺ أن لانكتب شيئا من حديثه فمحاه . أخرجه أبوداود . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ لاتكتبوا عني شيئا غير القرآن . ومن كتب شيئا غير القرآن فليمحه ، أخرجه مسلم والاذن في الكتابة ناسخ للمنع منه باجماع الأمة على جوازه ولايجتمعون الاعلى أمر صحيح وقد قيل انما نهى أن يكتب الحديث مع القرآن في صفحة واحدة فيختلط به فيشتبه

﴿ الفصل السابع في رفع العلم ﴾

عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما . قال قال رسول الله ﷺ ان الله لايقبض العلم انتزاعا فينتزعه من الناس . ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذالم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا . أخرجه الشيخان والترمذي

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره الى السماء ، ثم قال هذا أو ان يختلس العلم من الناس حتى لايقدروا منه على شئ . فقال زياد بن لبيد الانصاري : كيف يختلس العلم منا وقد قرأنا القرآن . فوالله لنقرأنه ولنقرئنه أولادنا ونساءنا . فقال ثكلتك أمك يازياد ان كنت لاعدك من فقهاء المدينة . هذه التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم . قال جبير فلقيت عبادة بن الصامت رضي الله عنه فقلت : ألاتسمع مايقول أخوك أبوالدرداء رضي الله عنه . فأخبرته الذي قال : فقال صدق فان شئت أخبرتك ماأول علم يرفع . أول علم يرفع من الناس الخشوع يوشك أن تدخل المسجد الجامع فلاترى فيه رجلاخاشعا أخرجه الترمذي « شخص ببصره » اذا نظر الى شئ دائما فلم يرد عنه نظره كنظر المبهوت والمغمى عليه « والاختلاس » الاستلاب وأخذ الشئ بسرعة « والثكل » فقد الأم ولدها

وعن عمر بن عبد العزيز . انه كتب الى أبي بكر بن حزم : انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، ولاتقبل الاحديث رسول الله ﷺ وليفشوا العلم وليجلسوا له حتى يعلم من لايعلم فان العلم لايهلك حتى يكون سرا . أخرجه البخاري ترجمة « يفشوا » يظهروا . انتهى من كتاب تيسير الوصول لجامع الأصول وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني من المقام الأول والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثالث من المقام الأوّل ﴾

(في الكلام على الملك والوزير اللذين أحبا العلم والحكمة وزهدا في الملك)

جاء في كتاب اخوان الصفاء مانصه :

حكي ان ملكا من ملوك الفرس كانت له نعمة ظاهرة وهيبة قاهرة وسلطان عظيم وملك كبير وكان له وزير له رأي وعزيمة قد رأى السعادة في تدبيره والكفاية في توزيره قد كفاه أمر التدبير مما يحتاج اليه فهو مشغول بلذته وتناول نهمته في لذة من عيشه وأمان من مصائب الزمان وحوادث الأيام والوزير يورد ويصدر بحميد رأيه وجميل نيته وحسن طويته فاقام الملك على ذلك مدة من دهره و برهة من عمره فلما كان في بعض الأوقات عرض للملك علة كدرت عليه عيشه ونغصت حياته فتغير لونه وهزل جسمه وضعفت قوته واشتغل من تلك العلة واستدعى وزيره وقال له قد ترى مانزل بي من هذه العلة التي قد حالت بيني و بين اللذات حتى قد تمنيت الموت ومللت الحياة فرق له الوزير و بكى عليه ثم خرج بجمع الاطباء والتمس الدواء ولم يدع مستطبا ولامعزما ولاصاحب نجامة وكهانة الاأحضره واعلمهم علة الملك ومايجده من الألم والوجع وانه يشكو ضربان جسده والتهاب حرارة في قلبه وكبده فتكلم كل قال وما أصاب وعمل وما أفلح وعالج فما أنجح واشتدت تلك العلة بالملك واشتغل الوزير بذلك عن تدبير المملكة وسياسة الخاصة والعامة من خدم المملكة ورعيتها واضطربت الأعمال وعصت العمال وكثرت الخوارج في اطراف المملكة وأقاصي الدولة فعظم ذلك على الوزير وتحير وخاف على الملك الهلاك

فعاود الى جمع الحكماء واحضار العلماء ومن قدر عليهم من الشيوخ القدماء وأعاد عليهم القول واستدعى منهم الجواب وكان فيهم شيخ كبير قد عرف وجرب فقال أيها الوزير ان العلة التى بالملك معروفة بظاهرها خفية بباطنها ومثل هذه العلة لا تكون الاعن حالين احداهما فى النفس والأخرى فى الجسد فالذى فى النفس ينقسم قسمين فاحدهما يختص بالنفس الناطقة والقوة العاقلة والآخر يختص بالنفس الحيوانية والقوة الشهوانية والذى يختص بالجسم أيضا ينقسم قسمين بالحر واليبس والآخر بضده وهو البرد والرطوبة . وأما مايختص بالنفس الناطقة فهو الفكر فى المبدع جل جلاله وما أبدع والحيرة فيما خلق وبرأ وانشأ وإعمال الروية واجالة الفكر فى كيفية الابتداء والانتهاء وماشا كل ذلك من الأمور الالهية فان النفس اذا غرقت فى هذا الأمر وانغلقت عليها أبوابه وتعذرت أسبابه ضاقت وحرجت فأحرقت طبيعة الجسد فضعفت القوى الطبيعية عن تناول الغذاء وحدث بالجسم ماترى من الضعف والتغير والهزال والضنى ولايزال ذلك كذلك يتزايد مادامت تلك العلة مستدامة والخاطر مشغولا بها والأبواب عليه منغلقة والأسباب متعذرة ولايجد من يفتح عليه ما انغلق من أبوابه ويسهل ماصعب من أسبابه وأما القسم المختص بالنفس الحيوانية والقوة الشهوانية فكالعشق للصورة البهيمية من النساء والصبيان والاحداث والمرد ان مثل مايعرض للعاشق اذا غاب عنه معشوقه وحيل بينه وبين محبوبه فيظهر به من الضعف والتغير مايكون به تلف الجسد وانحراف المزاج وفساد البنية وربما دخل عليه زيادة أدته الى الماليخوليا واحترق ووصل المرض الى شغاف قلبه فهلك وبادواماما يكون فى الجسد من العلل العارضة من جهة الطبائع الأربع فان لكل علة تحدث من فساد المزاج وغلبة الطبائع بعضها على بعض فله علامات يستدل بها على تلك العلة ومواضع يقصد بالأدوية اليها ولايجب للطبيب الحاذق أن يبدأ بدواء العليل الا بعد السؤال له عن السبب فى تلك العلة ماهو وكيف كان ومما كان وما أصله أمن شئ من المأكولات أسرف فى أكله أم مشروب اترف فى شربه أوغم عرض له أوهم دخل عليه أوحال اشتغل به قلبه وفكره أوصورة حسنة رآها فوقعت فى قلبه ثم حيل بينه وبينها ومنع من تناول لذاته منها وأى موضع يجد الوجع من جسمه وبماذا يختص من أعضائه وأي شئ يشتهيه وأى حديث يلهيه ويرضيه وأى سماع يطربه فاذا أخبر العليل طبيبه بشئ مما ذكرناه اذا سأله . وكان العليل صحيح العقل ازداد الطبيب الماهر علما به واستشهد على ماأخبره لفظا بمايدل من البرهان عليه بالحس ومايتبين له من صحة النبض بما يستدل به على صحة ما أورده المريض ويسترشد الطبيب على قول المريض وشهادة النبض بشاهد آخر وهو الماء فاذا اتفق النبض والماء مع شكوى المريض فقد عرف حينئذ الطبيب العلة وبمايختص بها من الأعضاء فان يغلبه إحدى الطبائع وضعفت الأخرى أرسل الى ذلك العضو مايوافق طبيعته ويلائم قوته لينقمع به ضده الذى يضايقه فى مكانه بالملاطفة والتدريج ولايحمل عليه بالدواء الحاد فى أول دفعة فانه ربما أحدث له ذلك فسادا لايرجى صلاحه والمثال فى ذلك النار المشتعلة فى الحطب أول ماوصلت اليه فانها اذا قويت وألقى عليها الماء ازدادت حرارتها وقويت بخاراتها فاتلفت ماوصلت اليه واحتوت عليه فاسئل أيها الوزير عن بدء هذه العلة كيف كانت وما السبب فيها والحال الموجب لها فلعلنا اذا عرفنا ذلك تداركه بالملاطفة وحسن التدبير ان شاء الله . قال الوزير أيها الحكيم ان فى أدب وزراء الملوك ومن الواجب على من صحب الملوك أن لايبدؤهم بالسؤال لهم عما لايجب له السؤال عنه ولايهجم عليهم بذلك الا أن يبدؤه به ولايطلب الدليل على مايقولونه بل يستمع ويصدق ويسلم اليهم فى جميع أمورهم ولايعترض عليهم فى أفعالهم وأعمالهم وأنا أهاب الملك وأخاف منه أن أسأله عن شئ لم يبده وحال يخفيها ولم يطلعنى عليها لاسيما فى أمر نفسه وجسمه . قال الحكيم أيها الوزير انه لاسبيل الى شفائه ومعرفة دوائه الابعد الابانة عما ذكرته لك وأنا أرى ان سؤالك له عن أمره وما أخفاه من سره يكون سببا لحياته ونجاته ان شاء الله فاذا أعلمك ذلك فاعلمنى به واحفظه عنه لئلا تنسى مما يحكيه شيئا ثم انصرف ذلك الشيخ ومن حضر المجلس من الأطباء ونهض

الوزير

الوزير فدخل على الملك فلما رآه انس به وأدناه بقربه وسأله هل وجد له دواء واتجه له عنده شفاء فأكثر الوزير من الدعاء له ثم أقبل عليه فسأله عن بدء العلة كيف كان وما الذى كان السبب فى حدوثها به فلما سمع الملك من وزيره هـذه المسئلة التى لم يكن سأله عنها قبل ذلك أمر من كان بين يديه من خدمه أن يقعدوه ويسندوه ففعلوا ذلك ثم أمرهم بالبعد عنه فلما رأى الوزير ذلك خاف على نفسه وفزع واستوى الملك جالسا على فراشه وقال له ادن منى وأعد هذه المسئلة علىّ واصدقنى فانى أرجو الشفاء بصدقك إياى وانك قدرت على الدواء فى إزالة الداء ان شاء الله فانى لم أسمع منك هـذا السؤال قبل هذا والواجب على الملوك فى أدب المملكة أن لا يبدوا من يلم بهم من عبيدهم وخواصهم بكشف أسرارهم وبما يحدث منهم فى خلواتهم وما يجيلونه فى أفكارهم لاسيما اذا لم يجدوا له أهلا يكشفونه لهم ويودعونه عندهم ويرجون بهم فتح ما انغلق عليهم بابه وتعذرت أسبابه وقد كنت فى طول هذه المدة التى حدثت بى فيها هذه العلة أريد من يسألنى عن ذلك فأبديه له فلم أجد سائلا يسألنى عن ذلك وكلما عدمت من أبث اليه الشكوى وأخرج اليـه بما أجد من البلوى صعبت العلة علىّ وترايدت المحنة لدىّ فلما سمع الوزير ذلك من الملك تحقق قول الشيخ الحكيم المجرب وعلم انه صدق وأصاب قال له الوزير أرجو أن أكون موضعا لهذا الأمر وكشف هذا السر فقال الملك ان شاء الله ثم ابتدأ الملك فقال انى كنت فى بعض الأيام قد أظهرت نعمة الله تعالى علىّ وأحضرت أجلها لدىّ وأمرت باخراج ما فى خزائنى من الجواهر النفيسة والآلات الثمينة مما جمعته أنا فى أيامى وما ورثته عن آبائى فاحضر بين يدىّ فى خلوة من حشمى وعبيدى وخزانى الذين كانوا تقاوله الى بين يدىّ فرأيت منظرا أطربنى غاية الطرب وفرحت بها وطربت لها وأخذت منها بالنصيب الأوفر والحظ الأجزل من الغبطة والسرور والجذل والحبور فكبرت نفسى وعظم قدرى وظننت أنى قد وصلت الى ما لم يصل اليـه أحد غيرى وانى من أسعد السعداء ثم انى نمت فرأيت فى منامى كأنى فى تلك الحال على أحسن ما يكون وأتمه وأكمله وكان رجال دولتى وعبيد مملكتى كلهم قيام بين يدىّ خاضعون لى ساجدون سامعون لقولى مطيعون لأمرى وأنا على سرير مملكتى فى محل كرامتى فبينما أنا كذلك اذ رأيت رجلا شابا مليح الصورة حسن الأثواب لم أره قبل ذلك الوقت ولا اعرفه وكأنه بالقرب منى ينظر الىّ نظر المستهزئ غير هائب لى ولا خاضع بين يدىّ ولا مسلم علىّ مستقل بجميع ما أنا فيه وكأنه يملك ما لا أملكه ويقدر على ما لا أقدر عليه ويصل الى ما لا أصل اليه فغاظنى ذلك منه وكأنى قد هممت بالايقاع به وأمرت به من كان بين يدى من خدمى وأصحابى من جميع أهل مملكتى ورجال دولتى أن يقعوا به وهو قائم فى مكانه يضحك بى وكأنهم لم يصلوا اليه ولا قدروا عليه وكأنه قد زاد استهزاؤه بى واستزراؤه ولم يهله شئ مما رآه فلما رأيت منه هالنى ذلك وأفزعنى فقمت من مكانى وتنحيت عن سريرى ودنوت منه وقلت له من أنت ومن أين أنت وكيف وصلت الىّ ومن أين دخلت علىّ فقال لى يا مسكين يا مغرور بسلطان الأرض والملك الجزئى أى ملك أنت انما أنت مملوك ولست بمالك فلم تدعى المحال وترضى لنفسك بالكذب وجميع ما أنت فيه زائل مضمحل فان وعما قليل يفارقك وتفارقه وانما الملك الملك السماوى والسلطان الالهى فان بادرت وعملت ما يقرب الى ربك وصلت اليـه وكنت ملكا بالحقيقة ونلت ملكا لا يبلى ولذة لا تفنى فتكون ملكا بالحقيقة تفعل نفسك اذا زكت وروحك اذ صفت ما أنا فاعل وتصل الى مثل ما أنا اليه واصل ثم انه ارتفع من الأرض وأقبل يمشى فى الهواء ويجول فى الفضاء الى أن رأيته وصل الى السماء وغاب عنى فلم يرو سمعت هاتفا يقول لمثل هذا فليعمل العاملون فلما رأيت ذلك منه أيقنت أنى لست بمالك وأنى مملوك كما قال وانى لست بعالم وانى جاهل وانى لست بانسان وانى حيوان ثم انتبهت وأجلت الفكر وأعملت الروية وكثر تخيلى لذلك الشخص وما قال لى ورأيت من مملكته وسعة قدرته والمكان الذى رقى اليه واشتهيت المعرفة بالعمل الذى هو وصلة اليه فاشتغلت بهذا الشأن عن جميع ما كنت بسبيله عن تلك اللذات وانقطعت عن جميع الشهوات وزهدت فى المأكول والمشروب وأقبلت أجيل فكرى وأقلب نظرى

فى أهل المملكة ورجال الدولة فلم أرفيهم من يصلح أن أكشف له هذا السر ورأيتهم كلهم مشاغيل بالحال التى
أزرى بها على ذلك الشخص وانى واياهم مماليك وأن الأسماء التى استعرناها لاتصلح لنا ولاتليق بنا وانها ذاهبة
زائلة عنا وخشيت أن أبدى أمرى الى من ليس هو من أهله فأنسب الى الجنون وقلة العقل فصمت عن الكلام
وزادنى الفكر والغم والهم والأسف فحدث بى من ذلك ماترى من التحول والتغير فى الصفات فهذا هو سبب
وجعى ومبدأ علتى وأظن انى خارج من هذه الدنيا بهذه الحسرة ان لم أصل الى العمل الذى يوصلنى الى ماوصل اليه
ذلك الشخص الذى رأيته وقد خرجت اليك بأمرى وكشفت لك ما أخفيت من سرى فان كان لى عندك فرج
ففرّج به علىّ وان عدمت ذلك فاكتم سرى ولاتخرج الى أحد بشئ منه كما خرجت به اليك من أمرى لئلا أنسب
الى الجنون وزوال العقل فيذهب الملك منى ومنك و يطمع فينا الأعداء لأن علة زوال العقل أصعب العلل متعذر
دواؤها معدوم شفاؤها ولكن قد طمعت أن لى عندك فرجا لما رأيتك قد سألتنى عن هذا السؤال ولم يكن هذا من
عادتك معى ولمعرفتى أن فيك من الأدب الذى يصلح للملوك ما لايحملك على مثل ما أقدمت به علىّ من ابتدائك لى
بالسؤال عن سرى الذى لم أبده فاصدقنى كما صدقتك . قال الوزير فأعدت عليه ما كان وماجرى من الشيخ الذى
أشار علىّ بذلك وأمرنى به فقال علىّ بالشيخ فقد وضع يده على الداء وأرجو أن يكون عنده الدواء فخرجت من عنده
وأحضرت ذلك الشيخ وقصصت عليه الحال من أولها الى آخرها فبكى وقال قد انكشفت العلة وعرفنا دواءها
وقدرنا على شفائها ان شاء الله ثم نهض معى حتى دخلنا على الملك فلما رأى الشيخ فرح به ورفعه وأقبل عليه وأنس
به وأقبل يعيد الحديث عليه من أوله الى آخره فأقبل الشيخ على الملك وقال له ان العمل الذى يوصل الى مثل
ما رأيت لايكون الا بعد العلم بتوحيد الخالق جل جلاله ومعرفته حق معرفته فاذا صح لك ذلك وعلمته ابتدأت
تشرع فى تعليم العلم المؤدى بك الى عبادته الموصلة لك الى جنته ودار كرامته فاذا أحكمت العمل بتلك العبادة
وصلت الى مرادك ونلت غرضك ولا يكون ذلك الا بعد ترك جميع ماملكته وقدرت عليه من أمور الدنيا . قال
الملك قد رضيت بذلك وطابت نفسى به وقد تعجلت بترك جميع ما كنت فيه وتمنيت الموت والراحة من هذا
العالم فقال الشيخ ان هذا العلم غير موجود عند أحد فى بلدنا هذا وانما هو موجود بحقيقته عند رجل من
الحكماء مقامه فى اقليم الهند بجبال سرنديب تحت خط الاستواء فان عنده مفاتيح ما انغلق من هذا الأمر
وصعب من هذا السر . قال الملك فأنى لى بالوصول اليه والقدوم عليه وانا على ماترى من نحول الجسم وضعف
القوة وكثرة الاعداء وماتراه من اضطراب الحال وفساد الأعمال والعمال وكثرة الخوارج علينا والاعداء لنا
وتمنيهم الوصول بالأذية الىّ وانتزاع ما فى يدى من هذه المملكة الفانية والقنية المضمحلة وان كنت غير متأسف
على فقدها ولاحزين على زوالها بعد ما سمعت ورأيت وانما أخشى ان أدرك اذا خرجت منها و بعدت عنها
فأقتل وأموت فى الطريق ولا أصل الى ما يكون به السعادة بعد الموت وأكون قد تعجلت الذل والهوان فى الدنيا
وسرعة القدوم عليه فى الآخرة . قال الشيخ صدق الملك فيما ذكر ولنا فى ذلك تدبير آخر قال ما هو قال أنا أكتب
الى الحكيم أعلمه بالحال وننتظر ما يكون من جوابه فنعمل به ان شاء الله . قال الملك افعل ذلك وخف على الملك
ما كان يجده وسكنت نفسه الى قول الشيخ . وقال للوزير اعلم انى قد وجدت العافية وقد سكنت تلك الحركة
الفكرية وبردت الحرارة التى كنت أجدها فى قلبى واستدعى من الطعام والشراب ما أمسك به القوة ودعت
اليه الحاجة وفشا فى أهل المملكة من أعمال الدولة أن الملك قد أفاق من علته وزال عنه ما كان يجده ففرح
الناس بذلك وسكنت الفتنة فتسارعت الخوارج الى الطاعة وعمت البركة وشملت النعمة وعاد الأمر الى أحسن
ما كان فى مدة يسيرة وقويت نفس الملك ووثق بما وعده الشيخ الموفق الرشيد فكتب الشيخ الى رب بيت
الحكمة فى ذلك الزمان يعلمه بما جرى و يسأله أن ينفذ اليه من يراه ليفتح عليه من العلم ما يصلح له و يعلمه
ما ينبغى له فى جسده فلما وصل الكتاب الى الحكيم ووقف عليه استدعى تلامذته وكان له اثنا عشر تلميذا

حاضرين

حاضرين معه فاعلمهم بما وصل اليه وقرأ عليهم الكتاب فقالوا مرنا بما تريد لنمتثله ونأتى فيه ماتؤمله فافرد رجلين منهم وقال لهما اذهبا الى الملك فاذا دخلتما عليه فليبدأ به أحدكما فيلازمه حتى يبلغ فى العلم الرياضى الى حد يحب له اذا وصل اليه ووقف عليه الارتقاء الى العلم الالهى ثم ينفصل عنه ويلزمه الآخر حتى يوقفه منه عند الحد الذى ينبغى له فاذا رأيتماه قد حسنت أفعاله وزكت أعماله فانصرفا عنه ولا تطلبا عليه جزاء ولا شكورا . ثم ابتدأ بوصيتهما وبتحذيرهما من الوقوع فى حبائل الدنيا وشبكة ابليس وقال لهما انكما فى مكان بعيد عن محاسن الدنيا وزخارفها ونضارتها وبهجتها وما يجده أهلها من فتنتها وستردان على الملك وعلى مملكة واسعة ونعمة ظاهرة ولذات متواترة وإياكما الميل الى الشئ منها والمحبة لها فانكما ان فعلتما ذلك وملتما الى الشئ منها ترباً انفسدتما وأفسدتما وخرجتما من الصورة الانسانية الى الصورة الحيوانية والرتبة الشيطانية بالفعل وخرجتما من فسحة الجنان وروضة الروح والريحان وجاورتما الشيطان فى دار الهوان وخرجتما من سعة الكل الى سجن الجزء قالا سمعنا وأطعنا وتوجها من حيث هما الى أقليم الملك وكتب الحكيم الى الشيخ يعلمه بذلك وجعله عينا عليهما ينقل اليه أخبارهما وما يعملانه ويعاملان به الملك ثم قدما على الشيخ بالذى هما عليه من الشعث وقلة الجمال وما يليق بالنساك من الفقر وسوء الحال فأخبر الملك بقدوم الرجلين من عند الحكيم ففرح بهما الملك واستبشر ثم أمر بايصالهما اليه فدخلا عليه فقام لهما قائما على قدميه وأمرهما بالجلوس فجلسا مجالس العلماء المفيدين وجلس الملك والوزير مجالس المتعلمين المستفيدين ثم تقدم المبتدى بالعلم الرياضى فعلم الملك والوزير حتى أحكماه وتعلماه الملك ووزيره وقاما بموجباته وأحكامه ثم انفصل الأول وتقدم الثانى فتلا عليهما الحكمة الالهية الى أن بلغا من ذلك غاية ما كان عنده واستفادا ما كان فى وسعه فلما فرغا ما أمرا به وأرادا الانصراف أقبل الملك عليهما وقال انى لا أجد لكما مكافأة على مافعلتماه بى وتوليتماه من أمرى الا أن أسلم اليكما ملكى فتدبرانه وتحكمان فيه بما أردتما وقد أحتكما جميه وهو عندى قليل لكما فلما سمعا ذلك منه ردا عليه ردا جميلا وانصرفا الى مكان كان الملك قد أعده لهما فتشاورا فيما عرضه الملك عليهما وأهداه اليهما من ملكه وقد مالت أنفسهما الى ما رأياه من حسن الدنيا وبهجتها وما عايناه من حسن قنيتها وطيب لذتها فقالا لا بأس أن يجتمع لنا المنزلتان وننال السعادتين الملك فى الدنيا والآخرة وعزما على قبول ما أهدى الملك اليهما من ملكه والجلوس فيه والقيام به ثم خلا الملك بوزيره فقال له اعلم يا أخى أن هذه الدنيا فانية ولسنا فيها مخلدين وقد نلنا من لذاتها ونعيمها ما قد نلناه ووصلنا منها الى ما وصلنا اليه وقدرنا عليه فهلم بنا نتخلى عنها ونلازم مداومة النظر فى هذا العلم الشريف والعمل اللطيف الذى نصل به الى الفوز والنجاة من بعد الموت فانا لا نشك فى وصول الموت الينا ونزوله علينا فلعلى وإياك نجتمع فى الملك السماوى كاجتماعى وإياك فى الملك الأرضى فقال افعل وقويت نيتهما وطابت أنفسهما بذلك فلما دخل الرجلان فى وقت دخولهما على الملك أعاد القول عليهما وما يريده من تسليم الملك اليهما ورجا بذلك سعادة المملكة وأهلها بتدبيرهما وحكمتهما ورجا لأهل بلده ومن يكرم عليه من أهله ان يصلوا الى مثل ما وصل اليه من ملك العلم والعمل فتتم البركة وتشمل النعمة وتكمل السعادة فقبلا ما أهداه اليهما وتقلداما اعتمد فيه عليهما وجعل أحدهما وهو المعلم له العلم الالهى فى مقام المملكة وصاحبه فى مقام الوزارة واشتغل هو ووزيره فى مداومة النظر فى العلم والقيام بالعمل والاجتهاد فى العبادة والزهادة فى الدنيا والتهاون بها واطراح شهواتها وترك لذاتها فكتب الشيخ الى الحكيم بذلك فأيس من عودتهما اليه وعلم انهما قد افتتنا بما رأياه ومالت أنفسهما اليه وتمنيا الخلود فيه وأقاما على ذلك فى تدبير الملك وسياسة المملكة الى أن مات الملك ولحق به وزيره بعد مدة يسيرة وصارا الى رحمة الله سبحانه ودار كراماته ونالا الملك السماوى ووصلا اليه وافتتن الرجلان بالدنيا وتخليا عن العلم والعمل وانهمكا فى اللذات الدنياوية واسترجع الحكيم ما كان أودعهما إياه من حكمته فنسيا ما كانا له ذاكرين وغاب عنهما ما كانا له حاضرين وفارقا ملك السماء وأخلدا الى ملك الأرض فاهبطا من الجنة وبعدا

من الرحمة وانقلبا على عقبيهما خاسرين فاعلا واماراً من حضرهما بما فعلا وافتتن الناس بهما وتعلموا منهما مايضرهم ولاينفعهم و بدت سوءاتهما وقالوا هذان العالمان اللذان كانا يأمران بترك الدنيا والزهد فيها قدعادا الى ما كانا ينهيان عنه ويحذران منه ولولم يعلما ان العاجلة هي النعمة الحاصلة لما اختاراها ولارجعا اليها بعد ماعلما وزاد بهما جوح الطغيان واستحوذ عليهما الشيطان فأنساهما ذكر الرحمن فصارا أعداء الحكماء واضدادا للعلماء وكتب الحكيم الى الشيخ يأمره بالتنحى عنهما والبعد منهما خوفا عليه من شرهما ففعل ذلك واقبلا على تناول أمور الدنيا وشهواتها وفارقا السحر الحلال الذى أنزل عليهما وأمرا بفعله وعمله وكان به نجاة من نجا ورجعا الى السحر الحرام فضلا وأضلا . وهذا حديث يدل على حالة الملكين هاروت وماروت وما كان من أمرهما وهبوطهما من السماء الى الأرض ومفارقتهما جوار ربهما والملائكة الذين كانوا معهما كمفارقة ابليس للملائكة باستكباره وعصيانه ومفارقة آدم للجنة التى كان فيها بما كان من خطئه ونسيانه فهذا بيان معرفة ماهية السحر والسحرة والعمل به وكمية أقسامه وما الحق منه وما الباطل بحسب ما احتمله البيان واتسع له الامكان انتهى ما أردنه من اخوان الصفاء . وبهذا تم الكلام على المقام الأول وفصوله الثلاثة والحمد لله رب العالمين

﴿ المقام الثانى فى شذرات ﴾

(فى هذا المقام خمس شذرات)

(١) فى إصلاح التعليم
(٢) وفى العجائب السماوية وما يوصل اليها
(٣) وفى غرائز الحيوان
(٤) وفى الفوائد الطبية
(٥) وفى الفوائد الأدبية العلمية

﴿ الشذرة الأولى فى اصلاح التعليم ﴾

اعلم أيها الذكى أن الأمم الاسلامية الآن أشبه باليتيم الذى ترك وشأنه فلا مربى له وانما هو متروك للمصادفات ولما كانت الأمم الاسلامية قد سارت فى طريقة عتيقة مثل أن تحفظ المتون بلا عقل وتحفظ القرآن بلا فكر وجب أن أبين هنا ماساقه الله الينا من نعمة العلم والحكمة إذ حضر أثناء طبع هذا الكتاب عالم سويسرى ليبحث فى نظام التعليم عندنا بمصر فأظهر انه ناقص نقصا محزنا . ولما كان تقريره مطوّلا جدّا بل هو كتاب كبير . وقد وجدت ملخص هذا الكتاب منشورا فى جريدة الاهرام يوم ٨ نوفبر سنة ١٩٢٩ رأيت أن أثبت هذا الملخص هنا ليطلع المسلمون على نظام التعليم فى الأمم الراقية الذى بينه و بين عصر الصحابة شبه من جهة الحرّية الفكرية وعدم الوقوف عند الحفظ والتمتع بالخلوات ونقاوة الهواء والاجتهاد الفردى وما أشبه ذلك فهاك ماجاء فى الجريدة المذكورة تحت العنوان التالى وهذا نصه :

﴿ مشكلة التعليم ﴾

نواجه اليوم مشكلة لاتقل خطورة عن مشكلتنا السياسية . هى مشكلة التعليم التى لابد أن تتضافر الجهود على ايجاد حل لها حرصا على مستقبل الشباب أو بالحرى البلاد . ضيحات الشكوى التى تملأ أعمدة الجرائد وشعور الخوف والحيرة الذى يتملك الالوف من الطلبة والوالدين ماهو فى الواقع الا خوف مصر على مستقبلها ممثلا فى شعور أبنائها . ولهذا أرى لزاما على كل متخصص وخبير بشئون التعليم أن يدلى برأيه

مبينا خبير مايراه كفيلا بحل مشكلة التعليم كما يتحتم على كل وطنى يغار على مصلحة بلاده أن يعاون على تنفيذ مايقترحه الخبيرون بعد الدرس والتمحيص . فالمسألة أهم من أن تهمل . وأعتقد من أن تحل بزيادة الفصول وإيجاد أماكن لطالبي الالتحاق وأعظم من أن تقوم بعبئها الحكومة وحدها

ثلاثة أمور لامندوحة عنها لحل مشكلة التعليم وإزالة أسباب الشكوى فهى

(أولا) ـ تتطلب تغييرا فى جوّ المدارس وأساليب التدريس يتمشى مع روح العصر وتقدم علوم التربية الحديثة

(ثانيا) ـ تستلزم تعديلا فى مناهج التعليم يتفق مع حاجات البلاد وتنوعا يلائم الاستعدادات المختلفة

(ثالثا) ـ اهتماما من الأهالى وتعاونا على رفع مستوى المدارس الاهلية وزيادة عددها لتساعد على حل الازمة ونشر الثقافة فى البلاد . فما الأمر الأول فقد كفانا مؤونة البحث فيه التقرير الوافى الذى رفعه لوزارة المعارف الاستاذ الفاضل اد . كلا بارية الخبير المنتدب فقد استوفى فيه الموضوع بحثا من جهة الأساليب وجو المدارس وأظهر مواطن الضعف فى نظامها ثم أشار بما رآه علاجا لتلك العلل ويتلخص ذلك فى عشرين اقتراحا وأذكرها ليطلع عليها من القراء من لم يقرأ التقرير ويستفيد منها أصحاب المدارس الأهليـة فالداء يكاد يكون عاما شاملا وليس قاصرا على مدارس الوزارة أما الاقتراحات فهى :

(١) انقاص عدد التلاميذ فى الفرق التى يتجاوز عددهم فيها الحد المناسب

(٢) الزيادة فى تجنيس الفرق من حيث سن التلاميذ ومستواهم العقلى

(٣) اختبار كل طفل على حدته اختبارا فرديا

(٤) تعيين معلمى فرق بالمدارس الأولية والابتدائية والفرق الأخيرة من المدارس الثانوية وجعل تعليم صغار الأطفال الى سن التاسعة على أيدى معلمات فرق ان أمكن

(٥) تضييق نطاق المناهج

(٦) تعديل نظام الامتحانات الحالى تعديلا شاملا لأنه السبب فى اعتياد التلاميذ على الاستظهار لاعلى التفكير والتروى

(٧) زيادة ماللامتحان من قيمة وأثر فى اختبار التلاميـذ . ولا ينبغى أن تكون الحافظة فى الأطفال الذين يمتحنون الفرض الذى يقرطس الامتحان بل القـدرة على أداء عمل شخصى مبنى على التفكر والتأمل

(٨) حذف دروس الاملاء والاستظهار ومنع استظهار المتون ومنع التلاميذ من نسخ مالا يفهمونه من النصوص واستظهارها

(٩) توسيع نطاق العمل الفردى وانشاء مكتبة فى كل مدرسة وقاعات يمارس التلاميذ فيها الأعمال بمفردهم

(١٠) الاستفادة بالالعاب التى تعزز التربية فى جميع درجات التعليم وتأليف جماعات من التلاميذ للعمل معا فى أشغال معينة استفزازا لغيرتهم وتنمية لروح التعاون والتضامن فى نفوسهم

(١١) جعل التعليم أكثر مطابقة على العمل ولاسيما فى المدارس الابتدائية والأوّلية والاستفادة بالأعمال اليدوية فى أغراض التعليم ومراميه

(١٢) الترخيص للمعلمين بالقاء دروسهم على الفرق فى الهواء الطلق وبالتنزّه والتريض مع التلاميذ

(١٣) إنشاء عدد أكثر من المدارس الابتدائية والثانوية للبنات

(١٤) الاتئاد فيما يتعلق بنشر التعليم (مشروع التعليم الالزامى) فى إنشاء المدارس ريثما يتخرّج المعلمون

القادرون على القيام بأعباء هذا التعليم

(١٥) إنشاء فرق متنقلة أوجوالة لنشر الثقافة العقلية فى الأرياف وانشاء مكاتب فى القرى واقامة سينما للتربية والتعليم

(١٦) تعديل أساليب اعداد المعلمين تعديلا شاملا

(١٧) اقامة محاضرات أسبوعية بيداجوجيه ودروس اتقان وتجويد للمعلمين

(١٨) تعيين مفتشين بسيكولوجيين لمواصلة البحث والتحقيق فى المدارس ولارشاد المعلمين بنصائحهم وبخاصة منهم معلمى الأرياف على أن يكون تفقدهم إياهم فى مواعيد دورية منظمة

(١٩) تضييق دائرة التركيز المدرسى وارخاء العنان لحرية المعلمين ونظار المدارس والإلانة من شدة البرامج وصرامتها وتقديم الجانب التثقيفى من العمل المدرسى على الجانب الادارى

(٢٠) الاستمرار فى البحوث والتحقيقات البسكولوجية والبيداجوجية التى بدئ بها فى سنة ١٩٢٨ — ١٩٢٩ م أه

أما الأمر الثانى أى تعديل المناهج فلم يتناولها التقرير بأكثر من اقتراحه تضييق نطاقها وتحسين نوعها واليك مقاله :

« اتضح لنا أن المناهج فى جميع المدارس على اختلاف درجاتها غاصة بمواد التدريس فمن الواجب المبادرة بالاستعاضة عن وفرة الكمية بجودة الصنف ، وعن التوسع بالتعمق ، وعن الحافظة بالتفكير » ثم قال : « وليس فى طاقتنا أن نشرح بالتفصيل ماينبغى ادخاله على المناهج من التعديلات والتحويرات فان هذا الشرح يتطلب بحثا لم تتهيأ لنا الفرصة للقيام به ، كما ينبغى أن يبنى هذا البحث على محادثة التلاميذ وفحص مفكراتهم ومطالعة منشآتهم فى الامتحان الخ لتعرف الأجزاء التى يفهمها الأطفال وتمثلها أذهانهم من منهج كل فرع والأجزاء التى تستظهرها الحافظة دون أن يدركها العقل »

وظاهر من هذا القول أن الاستاذ كلابارد نظر لتعديل المناهج من جهة الأساليب وملاءمتها لقوى الطالب ، أما من الجهة الاجتماعية العامة وماتتطلبه حاجة البلاد من التعديل فلم يعالجها وعذره كما قال ان هذا الشرح يتطلب بحثا لم تتهيأ له الفرصة للقيام به ، أضف الى ذلك انه غريب عن البلاد لايعرف كل ماتحتاجه وتشكومنه ، لهذا قلت يجب على كل وطنى خبير بشؤن التعليم أن يدلى برأيه ، ولهذا رأيت أن أعالج الموضوع بقدر امكانى فان أصبت فقد تمت بواجب على لبلادى وان أخطأت شفع لى إخلاصى وسرنى معرفة خطئى واصلاحه من رد ناقد خبير . انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة

انما نقلت هذا المقال برمته لأنه استوفى التقرير الذى كنت أود تلخيصه وقد كتبه العالم السويسرى المتقدم ذكره ، فهو الآن أشبه بتطبيق على أحوال المسلمين العملية بعد الشرح العلمى ، فههنا أشبه بالعمل وفيما تقدم أشبه بالعلم ، وهذا هو التوفيق أن يجتمع كلام ألمانى وسويسرى ويوجهان لرقى المسلمين ، وأنا الآن أريد أن أبين للأمم الاسلامية فوائد التعليم الثانوى مما اطلعت عليه وقرأته فى كتب مختلفة وفى كلام الكاتب المتقدم أيضا

اعلم أيها الذكى كما تقدم فيما نقلته عن (كنت) الألمانى أن الانسان هو المخلوق الوحيد الذى يعوزه التعليم والتربية ، واذا نحن نظرنا الى الأمة كلها وجدناها كالفرد الواحد والانسان الواحد ، نجد له مطالب كثيرة :

(١) من طعام وشراب وهكذا نجد له أعضاء كثيرة لتناول هذه المطالب

(٢) وهذه الأعضاء تختلف باختلاف تلك المطالب

(٣) وهذا الاختلاف يشتد تباينه كلما اشتد تباين المطالب ، فالاختلاف بين حاسة الذوق والشم أقل

من الاختلاف بين حاسة الذوق والبصر لأن الأوّلين خصا بما هو قريب للامس والآخر لاملامسة له

ففي المدارس الثانوية :

(١) أولا تمى القوى فى التلاميذ بحيث تصلح للسير فى المجتمع أولا وتستفيد من الأحوال الطارئة فى الحياة فلاتقف على حال واحدة بحال جود

(٢) ثم يجب أن يفرق بين المواهب المختلفة فتوزّع على مطالب الحياة كما وزعت الأعضاء والحواس على مطالب الانسان

(٣) وكما اننا نجد حاسة اللمس تبتعد عن حاسة البصر من حيث متعلقها وتقترب من حاسة الذوق إذ هاتان متعلقتان بما هو ملاصق ، وحاسة البصر لاتقدر على مشاهدة الملاصق هكذا أفراد الأمة فانها كلما ارتقت اشتدّ تباين الأفراد فيكون أحدهم كالعين والآخر كاللمس أو كالذوق ولكن لابد من نظرة هنا ، ذلك ان الأعضاء المتنافرة فى بدن واحد لاتجتمع بل تتفرّق ، ألاترى أن الحيوان اذا مات تفرّقت أجزاؤه ، إن الذى جمعها الحال العامّة فى الجسم من التغذية والشراب والأعصاب والعروق والدم والشحم واللحم وما أشبه ذلك ، فهذه الأعضاء وان اشتدّ الخلاف بينها ففيها اتفاق واتحاد ، وعلى مقدار التباين بينها اشتدّ اتحادها ، فبواعث الاتحاد كثرت على مقدار بواعث الاختلاف هكذا فى الأمة ، فاذا رأينا الأمة ارتقت وظهرت فيها أفراد نابغون كل وصل الى منتهى الكمال بحسب زمانه بحيث صار القاضى والمهندس وعالم الزراعة كل واحد من هؤلاء قد برع فى فنه ، فهذه البراعة تقطعه عن أمته و يصبح كأنه ليس منها لأنه لاصلة بينه و بين المتعلمين إلا صلة ضعيفة فهنالك يجدر أن يكون التعليم الثانوى كثير المواد غزيرها حتى يجعل بين النابغين اتحادا أتمّ على مقدار الاختلاف الشديد فى المهن المختلفة

(٤) ومن جملة المطالب التى تقتضيها المدارس الثانوية الاستعداد للمدارس العالية والخاصة ، وقد كان هذا هو المطلب الذى لايطلب سواه قديما بالمدارس الثانوية ، أما الآن فان الأمر أعظم كما قرّرناه بل لها وظائف أخرى تقدمت و يأتى باقيها

(٥) الانتخاب المدرسى ، ومعنى هذا أن فى الناس من ليس لهم استعداد ولاميل للتعليم العالى فهؤلاء يجب أن يتعلموا مايليق لهم ، ومن لايستعدّ للتعليم الثانوى يجب أن يتعلم صناعة تليق له

(٦) وكما أن كل ما احتاج اليه الفرد فى حياته من مطعم ومشرب وملبس موجود فى هذه الأرض يراه ويحس به فيطلبه . هكذا يجب أن يجعل للمتعلمين فى المدارس نماذج لكل مايحتاج اليه الأمة فتكون فى المدارس أنواع الصناعات وأنواع الفنون ليتخذ كل مايليق له . وكما أن الانسان لولم ير التمر أو الموز أو التفاح فانه لايطلبه هكذا لاينبغى لامرئ أن يطلب علم الجبر أو صناعة الحدادة أو صناعة الكهرباء إلا بالاطلاع عليها ومعرفة شئ يختص بها

﴿ فائدة ﴾

قد كان قدماء اليونان يضعون فى عيا كلهم صورا مختلفة للصناعات المختلفة و يمرّ عليها الصبيان فاذا رآها الصبى وأحبّ إحداها عرفوا أن هذا هو استعداده ، وهذا المقام قد بينته فى كتابى « أين الانسان » تبينا أتمّ وكشفا أظهر فاقرأه إن شئت

وهنا يجدر أن أثبت هنا مقالا كتب فى جريدة الاهرام فى يوم الخميس ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٢٩ فى الرد على من ذم التعليم الاجبارى العام وهذا نصه :

(معنى التعليم الاجبارى)

(حول مقال كاتبة)

حملت الكاتبة النابغة الآنسة فى عدد الاهرام الصادر فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٩ حملة شعواء على التعليم الاجبارى بحجة انه مؤدّ للبطالة واقفار الريف وازدحام المدن وغيرها ، وبحجة أن كل أمى فى مصر يشتغل وأما طائفة العاطلين فهى من المتعلمين . وبحجة انه لوكانت الغاية من التعليم جعل كل متعلم أفنديا معسكره العام فى القهاوى والبارات فى انتظار وظيفة تهبط عليه من السماء على أجنحة ملائكة الرحمن . إذن لكان الجهل خيرا . وبحجة انه لوكانت الغاية من التعليم قذف المتعلمين الى العواصم ... لكان الجهل خيرا وبحجة أنه لوكانت الغاية ايجاد الشبان ذوى المناديل المشرئبة من الجيوب وذوى ربطة الرقبة المرصعة بالدبوس إذن فالجهل خير من العلم

ثم ختمت الآنسة مقالها بقولها انها واثقة من أن الشبان المصريين لايحنقون عند قراءة ماتكتب الخ كلا . ثم كلا (على رأى زكى باشا) لقد أخطأت الكاتبة النابغة فى الخاتمة كما أخطأت فى المقدمة . كما أخطأت فى جوهر موضوعها . والويل ثم الويل لمن يخطئ ثلاثا

إن الشبان المصريين يحنقون ثم يحنقون لمناصرتها الأمية . اللهم إلا اذا كانت تعنى بالشبان الشيوخ المتصبين أو الشبان المتكهلين من أنصار القديم

بيد انى أجلّ الكاتبة عن هذا الخطأ المثلث وألتمس لها العذر ثلاثا لأنى لا أخالها إلا جاهلة معنى التعليم الاجبارى فظنته تعليما راقيا يخرج شبانا مثقفين وفتيات مثقفات ملمين وملمات باللغات الحديثة وآدابها ومبادئ العلوم السياسية والاقتصادية والمواد الطبيعية والاجتماعية والرياضية

هذا مافهمته الكاتبة النابغة بنتيجة التعليم الاجبارى . فاذا كان هذا ما تريد وتعنى فانى أوافقها وأشدّ ازرها فيما زعمت لأن انتشار الثقافة فى طول البلاد وعرضها فوق الحاجة مما يدعو الى كثرة الياقات البيضاء كما يعبر عن ذلك علماء التربية اليوم . ومعنى الياقات البيضاء هو عين ما قصدت السيدة بالمناديل المشرئبة من الجيوب الخ فان الأمم المتمدينة جميعها خصوصا التى يكثر بينها العاطلون كانجلترا وألمانيا على الأخص قد فطنت الى ازدياد عدد الشبان المتأنقين ذوى الياقات البيضاء والأردية الثمينة الذين لاينزلون الى حلبة الأعمال اليدوية فى المصانع والمناجم مهما ارتفعت أجورها بل يفضلون الانتظار شهورا بلا عمل ريثما يجدون لهم عملا كتابيا فى مكتب أو مصرف أو مصلحة حفظا على مايزعمونه فى تلك الوظائف من الكرامة والمعزّة وحبا فى جعل أقمصتهم وياقاتهم ناصعة البياض

وهذه الحال بعكس ماهى عليه فى ولايات أمريكا المتحدة تماما فهناك يباهون بالأعمال اليدوية فينزلون الى ميادينها بثغور باسمة مهما بلغوا من الثقافة لأن مدارسهم على اختلاف درجاتها تعوّدهم احترام العمل لأن الحصص الدراسية هناك تتخللها الصناعات والأعمال اليدوية ، ولايجد الشاب من خريجى الكليات عارا فى غسل الأطباق وحمل الأثقال والعمل فى المناجم لأن الأقذار التى تعلق بالشاب من جراء هذه الأعمال يطلق عليها اسم الأقذار الشريفة أو النظيفة كذلك الفتاة المثقفة وان كان والدها من أصحاب الملايين قد تجدها عاملة فى مطعم أو متجر أو منزل حبا بعظمة العمل وشغفا بما تسميه الفتاة الأميركية الاستقلال الاقتصادى

وليسمح لى القارئ أن أضرب مثلين واقعيين حدثا معى فعلا ، كنت يوما أتناول العشاء مع فريق من الطلبة فى دار أحد أساتذتنا فى ضاحية من ضواحى نيويورك وفى نهاية العشاء أخذنا نطل من الشرفة الكبيرة على حديقة المنزل ، فلاحظ أحدنا أن سيارة فخمة مقفلة أوقفت أمام المنزل وخرجت فتاة أنيقة من باب المنزل

ودخلت

ودخلت السيارة وغابت عن الأنظار ، فسأل أحدنا الاستاذ ، أليست هذه الفتاة التي كانت تخدمنا على المائدة أجاب نعم هي بعينها وهذه سيارتها كما رأيتم فخمة ، وهذه سيارتي في الحديقة من طراز فورد المتواضع ، ثم أردف ذلك بقوله : انها من طالبات الكلية وتقوم بخدمتنا فقط عند الحاجة القصوى بأجرة ريال عن كل ساعة . وأذكر مرة انني دخلت مطعما ذات ليلة في منعطفات نيو يورك وما كدت أجلس الى مائدة من الموائد حتى أقبل على أحد طلبة الجامعة التي كنت بها وكان من طلبة الدكتوراه يقدم الى قائمة الطعام ، وقد تأثرت كثيرا من هذا المنظر وزاد تأثرى أن شاهدت زوجه تقوم بالخدمة معه في ذات المطعم في أوقات فراغهما ، وقد قام رجال التعليم في انجلترا والنمسا وروسيا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا وخصوصا في الأخيرة بحملات شعواء ضد التعليم الثانوى الذى يكثر من العاطلين ذوى الياقات البيضاء ويقلل من الأيدى العاملة وكانت النتيجة أن التعليم الثانوى هناك قد انقلبت نظمه رأسا على عقب وأدخل فيه التعليم العملى الذى يتفق مع حاجة البلاد وتقضى على البطالة والتنزة عن الأعمال اليدوية ويقلل من الثقافة الأدبية التي لاتوافق روح العصر الحديث ، روح العلم والعمل . وقد احتككت برجال التعليم في ألمانيا صيف هذا العام في مؤتمر التعليم في جنيف وقد شاقني مارأيت فيهم من التغيير وماسمعت من خطبهم من الانقلاب وقد زادني دهشة زيارتي لألمانيا وماشاهدته في حياتها الاجتماعية والاقتصادية من التغيير وقد كنت زرتها قبل هذا العام منذ أربع سنوات فقط ولايسع الزائر إلا الاعتراف بأن ألمانيا اليوم تقتفى أثر أمريكا أوّلا في نظم التعليم وثانيا في الديموقراطية واحترام الأعمال اليدوية

يفهم مما سبق أن الأخطار الاجتماعية والقلاقل الاقتصادية تنجم عن تعميم الثقافة الأدبية والاكثار من المواد العلمية البحتة . لذلك أشترك مع النابغة الآنسة مى في الاقتراح على وزارة المعارف أن تقلب نظام التعليم الثانوى في بلادنا لأنه من النوعين المشار اليهما والبلاد في حاجة الى قليل من هذين النوعين من الثقافة (الأدبية والعلمية البحتة) وكثير جدا من التعليم العلمى العملى من صناعى وزراعى وتجارى

بقى على الآن أن أقول للآنسة الكاتبة ان معنى التعليم الاجبارى بسيط جدا وهوانه يرمى الى تعليم الأمة بأسرها ، بنيها وبناتها ، معرفة المبادىء الأولية من قراءة وكتابة وحساب أوكما كانوا يسمونه في أمريكا وأوروبا ، أومايسميه العامة في بلادنا « فك الخط »

فهل تخشين أيتها النابغة عاقبة هذا النوع من التعليم الساذج البسيط ؟ إذن فكيف يستطيع أبناء الأمة في الأرياف والمدن أيضا أن يقرؤا منشورات مصلحة الصحة عن الأمراض المعدية والحميات وعزل المريض والتدرن والبلهارسيا والانكلستوما والمياه الراكدة وماء القنوات والمجارى

وكيف يتفهمون منشورات وزارة الداخلية عن الأمن العام ومطاردة الجراد واستئصال دودة القطن وعدم قتل الطيور النافعة ؟ هل تريدين العمدة أن يبعث برجاله ينادون في الشوارع كما يفعلون الآن وكما كانوا يفعلون منذ القرون الخالية ؟

وكيف يقرؤن التعليمات المكتوبة على محطات السكك الحديدية بخصوص مواعيد القطارات وصرف التذاكر ، وعلى لوحات الاعلانات في المحاكم ونقط ومراكز البوليس ، وعلى واجهات دور الحكومة ودور الحوانيت التجارية والمدارس وأماكن العبادة والمستشفيات والمصانع والملاهى الخ

وكيف تريدينهم يحترسون من النشالين اذا كانوا لايستطيعون قراءة اللفظة البسيطة المكتوب عليها « احترس من النشالين » في الأماكن المزدحمة من أسواق ومحاكم والعتبة الخضراء والموسكي وشارع فؤاد الأوّل وعماد الدين وتياترات وأماكن عبادة ؟

وكيف تريدينهم يمتنعون عن مخاطبة السوّاق في عربات الترام وعدم البصق في الأماكن العمومية الخ

اذا كانوا لا يستطيعون قراءة الاعلانات الدالة على ذلك ؟

وكيف يستطيع العامل البسيط أن يدوّن فى مذكرة جيبه ماله وماعليه ، وكيف يكتب خطاباته الخصوصية لزوجه وأولاده ولم تريدينه أن ينشر أسراره على الملأ ويلجأ لكتاب (بتشديد التاء) العرائض فيسلبون ماله ويفشون أسراره ؟

لم تريدينه أن يحرم من هذه النعمة الأوّلية البسيطة ، نعمة القراءة والكتابة ؟ لم تريدينه أن يبقى كل حياته بهيما وأن يظلّ حيوانا أعجم ؟

كان معلم الانشاء فى السنوات القليلة الماضية يعلم تلاميذه هـذه الجملة المحبوبة التى اذا أغفلها تلميذ كان جزاؤه صفرا ، وهذه الجملة هى « خلق الله الانسان وميزه عن سائر الحيوان بالنطق والعقل والبيان » وترجمة هذه الجملة بلغة القرن العشرين : « ...... الحيوان بالنطق والعقل والبيان والقراءة والكتابة على الأقل »

إن التعليم الاجبارى إذن ليس من الكماليات بل من الضروريات لأن القراءة والكتابة كالكلام واسطة التعارف . وقد كان الانسان فى عصور الفطرة يكتفى بالكلام ولا يحتاج للقراءة والكتابة حاجتنا اليها اليوم لأسباب لاتخفى . أما اليوم وقد سهلت المواصلات وكثرت حاجات الانسان وتعقدت وسائل الحياة ومرافقها فقد أصبحت القراءة والكتابة لازمة لبنى الانسان لزوم النطق والكلام

واسمحى لى أيتها الآنسة النابغة أن أذكر أن التعليم الاجبارى المقصود فى بلادنا هو هذا التعليم البسيط الذى لايتجاوز علاوة على القراءة والكتابة ومبادئ الحساب شيأ من علم تخطيط البلدان والقوانين الصحية وهذه لاتدفع صاحبها الى ارتداء الملابس الأنيقة أو الهروع الى المدن . واذا فرض أن تناول التعليمين الابتدائى والثانوى كما يحدث فى معظم ولايات أمريكا اليوم فانه لايأتى بقلاقل اجتماعية ولا يكثر من الياقات البيضاء اذا كان المنهاج منوّعا شاملا للأعمال والصناعات اليدوية كما هى عليه مدارس أمريكا وألمانيا والنمسا وروسيا اليوم

واسمحى لى أن أقول أيضا : إن التعليم الاجبارى علاوة على ما ذكرت لازم لكل أمّة لأنه يظهر الذكاء الكامن فى عقول صبيانها وبناتها . ومتى استكشف هذا الذكاء فى فرد من أبناء الأمة أشار القائمون بتربيته على الحكومة حتى تساعده على مواصلة الدرس على نفقتها لأن النبوغ والعبقرية جديران بالاهتمام والعناية . ومن المتفق عليه الآن أن الحكومة مسؤلة عن تعليم أبناء الأمة ليس حبا فى سواد عيونهم بل تخليدا لكيان الأمة ومحافظة على حياتها . كما ان الحكومة مكلفة بالبحث عن النبوغ والعبقرية والانتفاع بهما . والعقول الراجحة الذكية كالدرر واللآلئ لايظهر لمعانها وقيمتها حتى تعمل فيها يد الصانع الماهر الذى يخرجها من أصدافها ويصقلها بعد تنظيفها من الأقذار اللاصقة بها

وأخبرا المطمئنك أيتها الآنسة النابغة أن مشروع التعليم الاجبارى يتطلب عشرات السنوات قبل اكتماله لأنه يحتاج الى المال والمعلمين والأماكن والوسائل لتنفيذه . والبلاد التى عمّ فيها التعليم الاجبارى منذ مئة عام لم تصل فيه الى درجة الكمال لأنه ليس من السهل القبض على جميع من يمنعون عن إرسال بنيهم وبناتهم الى المدارس ومحاكمتهم ، وليس من السهل عدّ الأسابيع التى يمكثها التلميذ سنويا فى المدرسة وتحديد نهاية صغرى لهذه الأسابيع بشرط أن يزجّ فى أعماق السجون والدو التلاميذ الذين لايمكث أولادهم فى المدارس هذه النهاية الصغرى على الأقل ، وستخبط البلاد المصرية خبط عشواء فى خلال ثلث قرن على أقل تقدير حتى يتاح لها تنفيذ هذا المشروع الخطير على الوجه الذى يوجب الارتياح

ولتتأكد الآنسة أن تحرير المرأة لن تقوم له فى مصر قائمة مالم يعمم التعليم الاجبارى ، وسيكون شأن المرأة منه أكبر مما للرجل لأن الأمية بين النساء أكثر انتشارا بكثير منها بين الرجال ، ولعلّ هذه العبارة الأخيرة (إن لم يكن غيرها) تحمل الآنسة على تغيير رأيها اهـ أمير بقطر

وبهذا تمّ الكلام على الشذرة الأولى فى اصلاح التعليم العام والحمد لله رب العالمين

﴿ الشذرة الثانية ﴾

(فى العجائب السماوية ومايوصل اليها)

جاء فى جريدة الاهرام تحت العنوان التالى مانصه :

(عجائب فلكية)

يقال إن أقرب نجم من الأرض هو (الالفا) من نجوم برج العيوق ويبعد عنا نحو (٤٠) ترليون كيلومترا ويقضى نوره أربع سنين وسبعة أشهر وستة أيام حتى يصل الينا ، وهناك نجم معروف باسم (غمامة مجلان الصغيرة) وهى بعيدة عنا بعدا شاسعا حتى ان نورها لايصـل لنا فى مدة أقل من ألف قرن ، فنحن نبصر نجم (الالفا) كما كان عليه منذ أربع سنين و٧ أشهر و٦ أيام وغمامة مجلان الصغيرة فى المكان الذى كانت فيه منذ ألف قرن ، واذا فرضنا انها انطفأت منذ ٩٩٩ قرنا فان النور الذى صـدر منها فى ذلك العهد يظل على سيره الينا فى الفضاء ويبقى منظورا فى أثناء مائة سنة أخرى اهـ

***

ومما يلحق بالعجائب السماوية مايوصل اليها من الصناعات ، فانظر ماجاء فى جريدة الاهرام أيضا فى يوم ٥ اكتوبر سنة ١٩٢٩ تحت العنوان التالى وهذا نصه :

﴿ رصد الجوّ بالسهام النارية ﴾

منذ أكثر من اثنى عشر عاما أخذ الاستاذ جودارو العالم الأمريكى يهتم بأمر استعمال المواد المنفجرة لارسال سهام نارية (صواريخ) الى طبقات الجو العليا وهو الذى خطرله أن يصنع صاروخا كبيرا جدا ليطلقه من أرضنا الى القمر على أن هـذه الفكرة أخذت تتطور فى أثناء التجارب الكثيرة التى قام بها من اطلاق سهام صغيرة على سبيل الاختبار وقد توصل أخيرا الى فكرة استطلاع طبقات الجوّ العليا بهذه السهام فصنع « صاروخا » كبيرا كلفه نحو ١٢٠٠٠ ريال وحشاه بمادة قوية الانفجار من ابتكاره وأطلقه من فوق برج مرتفع من الحديد فى مدينة ورستر وقد دهش أهل المدينة اذ رأوا ذلك السهم النارى العظيم يشق عنان الجوّ فى ليلة ظلماء وخيل اليهم انه نيزك هائل مرّبجوّ مدينتهم وزعم البعض بأنه طيارة ملتهبة انفجر حوض وقودها

و يعتقد الاستاذ جودارو أنه يستطيع بهـذه المادة المنفجرة الجديدة أن يرسل مثل هذه المقذوفات الى ارتفاع عظيم فى الجوّ وأنه اذا تمكن من توصيلها الى علو مئتى ميل تسنى له الحصول على معلومات عن أحوال الجوّ فى ذلك العلو تكون ذات أهمية كبيرة لدى أهل العلم . وسيجهز الاستاذ هذه المقذوفات بعدة أجهزة لتسجيل الارصاد الجوّية متى بلغت آخر حد وعنـد ماتنقلب هابطة الى الأرض تنفتح فيها المظلة المعروفة « بالبراشوت » فتصل الى الأرض سالمة بما فيها من المعلومات وقد كانت التجربة الأخيرة باعثا على التشجيع فان الاسطوانة الفولاذية التى أطلقها فى الجوّ بعـد ما فرغت منها المادة المنفجرة هبطت بالمظلة هبوطا طبيعيا ووصلت الى الأرض سالمة من العطب

أما الصاروخ التالى الذى سيكون أكبر من هذا كثيرا فستوضع فيه أربعة أجهزة أحدها للحصول على نموذج من الهواء لتحليله كيمائيا وآلة تصوير شمسى لاختبار أشعة الشمس فى ذلك العلو اذ يظن أن الاشعة فوق البنفسجية قوية جدا وجهاز لقياس الحرارة وتسجيلها وجهاز لقياس الضغط الجوّى . انتهت الشذرة الثانية

﴿ الشذرة الثالثة فى غرائز الحيوان ﴾

جاء فى مجلة « السياسة الأسبوعية » ما يأتى :

﴿ غريزة النظام عند الحيوان ﴾

قد نتصور أن الحيوانات المتوحشة التى لا تدخل فى دائرة الارادة البشرية فوضوية أى لا قانون لها ولكن جميع المخلوقات الحية ليست إلا نتيجة قوانين كيمائية وأخرى طبيعية . فالمواد الكيمائية التى تتكون فيها خاضعة لقوانين ونظريات الكيمياء وليست نتيجة فعل إجبارى للانسان بل هى عمليات فسيولوجية محضة مما يجعلنا نجزم بأن أفعال وطباع الكائنات الحية مقيدة بقوانين ثابتة لا يمكن الاستغناء عنها ، ولا شك أن عالما بدون قوانين لهو عالم « فوضى » يقطنه مجانين

إن حجرا تقذف به من أعلى فى الهواء يسقط دائما تجاه الأرض ودائما يسقط بحالة منتظمة ثابتة . واذا أكل الانسان شيأ كثير العصارة فان هناك غددا تفرز مادة بالفم تعرف باللعاب . وهذه المادة دائما تفرزتبعا لقوانين فسيولوجيـة وكيميائية ولها دائما تركيب مخصوص حيث تفرز من خلايا معينة وبنسب ثابتـة تحت شروط معينة ولا يمكن ذلك إلا اذا كان هناك قانون تخضع له كل هذه الأشياء . فمثلا الانسان لديه قوة يعبر عنها بالتفكير والارادة ، وأما الحيوان فلديه قوة يعبر عنها بالغريزة ، والاميبا والبكتريا التى هى حيوانات طفيلية يجئ نموها وحياتها تبعا لقانون ، وليست حركاتها تأتى جزافا أوهى متغيرة الأطوار وانما هى على الدوام تأتى بنتائج مؤدية على الأقل لما فيه راحتها ، ومن ذلك نعرف أن الحيوان مهما صغر فانه خاضع لقوانين لا يمكن له البقاء بدونها ، ولنأخـذ الآن مثلا العنكبوت فانه ينسج بيته بغاية الدقة المقرونة بكل صبر حيث يعمل عقده وحشيه من الخيوط ويكون بعمله هذا كأعظم مهندس فنى يعمل تبعا لنظريات وقوانين هندسية محضة ، فيبتدئ بوضع خيوط دائرية ثم يحدد بها المساحـة التى يريد النسج عليها ثم يصنع خيوطا مسطرية تتقاطع فى الوسط وتعمل خيوطا حلزونية أخرى هى عماد ما ينسجه

ولننتقل الى شمع العسل الذى يصنع بواسطة النحل العادى نجد انه لا يصنع جزافا بل تبعا لقانون إذ أن كل نحلة تعمل ما يخصها من العمل القليل ليس إلا ، وكل هذه النحيلات تعمل وتتبع قوانين الهندسة بعملها خلايا سداسية هى غاية فى الدقة والجمال بل وتعمل قاع الخلية من ثلاث مستويات تتقابل فى زاوية أثبت الرياضيون انها زاوية اقتصادية أى غاية ما يمكن عمله لتوفير المادة والوقت

زد على ذلك أن العمل يوزع بينها توزيعا منتظما ينفذ بكل دقة كأنه صادر بمنشور ، فبينما يوجد عدد كبير يقوم بملاحظة النحل الصغير نجد عددا نيط به تغيير أهوية الخلايا وتبخير الماء من العسل بمروحة الأجنحة وعددا آخر عملـه معمارى محض يقتصر على عمل قرص العسل ، كما أنه يوجـد رعاة بينها لاحضار الحبوب والملح والماء ، هذا خلاف عدد كبير عمله كيميائى يتلخص فى تجهيز حامض الفورميك ، هذا ولم يفت النحل أمر حراسة الخلية حيث يوكل أمر الحراسة الى فريق آخر يحافظ عليها من أى خطر عدائى كأن هناك المملكة التى تلد ، فاذا نظرنا الى ما يحدث بين طائفة النحل نجد انه لا يمكن حدوث ذلك إلا بقانون ينفذ بكل دقة دون أى خلل كعمل الساعة حتى ولو كان فى ذلك ضرر بالأفراد

هذا ويوجد خلايا رئيسية هى بمثابة الادارة الحكومية حيث يستمد منها الأوامر ، وهذه بعيدة عن مقر المملكة ، ولقد تتكون الخلية من عشرة آلاف غرفة صغيرة لوضع البيض

والآن اذا نظرنا الى الطيور نجد انها تهاجر من مكان الى آخر تبعا لقانون فى أوقات وفصول معينة الى جهات مقصودة ، فأبو جدج يطير من ألمانيا الى جنوب افريقيا ويقطع آلاف الأميال ولا يمكن ذلك إلا اذا

كانت هجرته هذه طبقا لقانون . والحيوانات التي تعيش قطعانا نجد أن لها قانونا وقواعد تعيش بواسطتها ، فالصغار تحت محافظة الأمهات ولا حرب بين أعضاء القطيع الواحد إلا في أوقات الجدل كاجتياز رياسة أوقيادة (انتخاب)

هذا وحركات هذه القطعان دائما متمشية مع قوانين غير مكتوبة يعاقب كل مخالف لها . مما تقدم نعرف أن القانون في عالم الحيوان أساسه ليس العقل وانما أساسه الغريزة وكلها تسعى من أجل الصحة والدوام والمحافظة على الأفراد والطاعة هذه القوانين حياتها ومخالفتها دمارها

هذا ما يختص بالحيوان ، ولنلق نظرة الى الانسان الذى كان فى عصره الأول خاضعا لقوانين الحيوان أى القوانين الغريزية كميله الى الغذاء والانتقام من العدو والقنص والصيد . ثم وجد نفسه بمضى الزمن محتاجا الى التعديل والتبديل فأدخل ما ارتآه يناسب حالته وعصره فوضع قوانين مدنية وأصبحت هى القوانين الخاضع لها مزيجا من الغريزية والوضعية التى استمدها من الكتب السماوية ومن أفكاره مما جعله حاملا القيادة الفكرية لجميع الحيوانات . انتهى ما أردته من مجلة « السياسة الأسبوعية » والحمد لله رب العالمين

***

﴿ نظرات فى بلدة المرج ﴾

منذ ليال فى هذا الشهر وهو اكتوبر سنة ١٩٣٠ كررت راجعا من حقلنا وكان ذلك بعد غروب الشمس فى نفس المكان التى كنت أراقب فيه القمر وكتبت تلك المراقبة فى ﴿ سورة فاطر ﴾ عند آية – ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء – وفيه أيضا نظرت مزرعة القطن وأزهارها وحللها وكتبت ذلك فى أول ﴿ سورة الصافات ﴾

أقول : فى نفس هذا المكان نظرت أمرا عجبا ! نظرت مئات من الغربان أتت أفواجا متلاحقة لتبيت فى شجر النخل وقد قدرتها فوق الألف لأن النخل هناك كثير جدا ، فلم أكد أراها حتى أخذت النفس تفكر فى هذا الانسان ، هذا الانسان ذو العقل وذو العلم وذو الأنبياء كيف عاش أجيالا ولم يرتق عن الغربان : غربان قرية من القرى لا تعيش مع غربان قرية أخرى إذ لا سبيل للاتصال والغريزة لم تعطها ذلك ، ولكن الانسان له عقل ، فاذا ضل بعقله ? عقله المخبوء ، عقله الجوهر المكنون . الانسان لا يكون انسانا حتى تكون أممه كلها متحدة . فهذه الغربان التى أشاهدها الآن راجعة الى هذا النخل لتبيت فيه . والانسانية بدون هذا غبية جاهلة . ولما استتمت فكرتى انطلقت راجعا الى القاهرة وعرفت انى أتممت درس الموضوع بقدر الامكان . انتهى الكلام على الشذرة الثالثة

﴿ الشذرة الرابعة فى الفوائد الطبية ﴾

(الكلاب وأخطارها)

قليل من الناس عدد الذين يعرفون الأخطار التى تتعرض لها حياة الانسان من مساكنة الحيوانات الأليفة التى اعتادت عليه فأمن لها واستأنسته . والواقع الذى لا شك فيه هو أن ثلاثة أرباع الأمراض الخبيثة التى يصاب بها الانسان تنشأ فى جسمه من المكروبات القتالة التى تنفس فيه من كلب أوحصان أو غيرهما من الحيوانات التى يقترب منها وتقترب منه

وقد أدركت الحكومات الراقية أخطار هذه الحيوانات فحذرت الانسان منها وعلمته كيف يتقى أخطارها بقدر الامكان ان لم يستطع الاستغناء عنها تماما . ورأينا مرات كثيرة على جدران الدوائر العمومية فى أوروبا وأميركا صور الحيوانات الأليفة وقد كتبت فوقها بخط عريض عبارات التحذير منها والابتعاد عنها ووصفها

بكونها ألد أعداء الانسان

وبلغ جهل أخطار هذه الحيوانات فى الناس أنهم يسمحون لها (لاسيما للكلاب والقطط) بالنوم فى أسرتهم وبجانب أولادهم جاهلين انهم بهذا العمل يضعون الموت بجانب أولادهم بما تنفثه هذه الحيوانات فى وجوههم من المكروبات القتالة وبما يسرى الى جسوم الاولاد من جسوم الحيوانات من الأوبئة الجلدية كالجرب وغيره بواسطة الاحتكاك وانتقال جراثيم الأمراض السريعة العدوى . وأشد الحيوانات الأليفة خطرا على الانسان هى الكلاب والقطط . وبحثنا اليوم بنوع خاص فى الكلاب وأخطارها . وقد أخذنا هذه المعلومات الصحية عن اختبارات كبار رجال علم الطب فى العالم الراقى الاميركى . واذا استصحب الانسان الحياة بدون كلب فى بيته مثلا فليعلم أن حياته أثمن وأنفع له ولغيره من حياة كلب . ومن الجهل الفاضح أن يعرض الانسان حياته وحياة عائلته لخطر الموت من أجل سلواه بمعاشرة كلب أو أى حيوان آخر . ومثل الكلب خطرا الطيور البيتية التى يدخلها الانسان الى بيته كالحمام والببغوات والنموس والعصافير وغيرها . لكن أشد الحيوانات خطرا آكلات الأوساخ والهوام والديدان التى تحمل جراثيم أوبئة خبيثة

للكلاب مرض خاص خبيث اسمه مرض الدود فان الدود الصغير سريع النمو وكثير العدد فى الكلاب . وينشأ فيها من أكل الهوام والحشرات كالبراغيث والعث والعناكب والذباب . وهذه الهوام كلها سموم وجراثيم أو بئة خبيثة محمولة من الأقذار والجيف المنتنة التى تتغذى بها أحيانا كثيرة وبرغوث واحد يأكله كلب كاف لاملاء جسمه كله بمكروبات هذا المرض الخبيث وبجعل أمعائه وكل أعضائه الداخلية تعج بالدود الصغير الذى قلما يزول الا بموت الكلب ودفنه فى مكان لاتصل اليه بقية الحيوانات . والكلب المصاب بمرض الجراثيم الدودية يعدى سواه حتى بأنفاسه والناس عادة يقبلون الكلب فى وجهه وفمه ويسمحون له بتقبيلهم ولحس وجوههم ووجوه صغارهم ومنهم من يطعمه بيده ويدخل اصابعه الى فمه ويسمح له بالنوم فى فراشه غير عالم بأنه يعرض نفسه للموت السريع بهذا العمل الفظيع والقذر

ولو أن الحكومات تأمر الناس بالابتعاد عن الكلاب وتمنع تربيتها وتقتلها كما تفعل فى أحيان اشتباهها بمرض الكلب (بفتح اللام) فيها لأحسنت صنعا وتوفر عليها وعلى شعبها أهم أسباب الموت الذى يجهل الناس أسبابه وزادت فى رفاهيته وسعادته لأن السعادة تنتج أو ينتج أهم أسبابها من حسن الصحة العمومية وبعد الناس عن الأمراض (١)

﴿ أعراض المرض فى الكلاب ﴾

ان للأمراض الخبيثة فى الكلاب اعراضا لاتخفى على الناظر ولكن من الأمراض الخبيثة مالا أعراض لها فى بدايتها ولا يشتبه بها أحد فتعدى أسيادها بدون أن يشعروا وقبل ظهور الاعراض عليها ، ولهذا سواء ظهرت اعراض المرض فى الكلب أولم تظهر فخيرلنا إبعاده عنا إذلا فائدة لنا منه والرجل الذى لايستطيع أن يحرس مواشيه أو بيته بنفسه فماذا تفيده الكلاب . والصيادون يغنى عنها أيضا واذا استغنى الانسان عن الكلب يتحول قسم كبير من عناية الكلب واتباهه اليه بدلا من أن يتكل فى كل شأن وعمل على كلبه . واعراض المرض فى الكلب انه يصاب باسهال دائم وضعف عزيمة وخوار وفقد شهية الأكل وسوء هضم وفقد النعومة فى الشعر ، وأجرية الكلاب التى تصاب بهذه الأمراض تصاب باضطرابات وضيق نفس وحك جلدها وتركض من مكان الى آخر باضطراب وتصرخ بدون داع من الألم

---

(١) يقول المؤلف : وهذه معجزة اسلامية فقد ورد « لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها » وورد وجوب غسل الاناء الذى ولغ فيه الكلب سبعا إحداهن بالتراب

وأهم أسباب نقل هذه الأمراض الى الانسان أكل اللحوم غير الناضجة على النار لاسيما لحوم الخنازير التى تعيش على الأقذار والأوساخ والحشرات . وجراثيم الدود تنتقل من الكلب الى الخنزير والانسان بسهولة وسرعة غريبتين وتدخل الى الانسان من فمه ومن عينيه بواسطة انفاس الكلب ومتى تكاثرت تتجمع فى الامعاء . وقد صورت هذه الجراثيم فى إمعاء كلب فوجدوها تبيض بيوضا صغيرة لاتكاد ترى بالعين المجردة ويبلغ مجموعها أكثر من ٤٠ مليون بيضة كلها تنفقس وتتوالد وتكبر وتنمو حتى تقتل الجسم كله

وللكلاب أيضا مرض اسمه مرض الجرب وهو مشهور ينتج عن وفرة الأقذار والمكروبات على جسمه وتغلغل البراغيث والبق الجربى فيه . وهذا مانشاهد كثيرا فى الكلاب . فاذا أصيب الكلب بمرض الجرب فقتله يقى العائلة كلها من عدوى هذا المرض وجراثيمه المنقولة عنه بواسطة البراغيث والبق والبرغش والقمل . والجرب جراثيم تتولد على سطح الجسم فتأكله وتسقط عنه الشعر وتفسده وتدخل الى داخله فتقتله

أما الأدوية المستعملة لشفاء الكلاب من أمراض الدود فكثيرة منها المسهلات القاتلة لجراثيم الدود . وعندنا أن أفضل دواء لشفاء الكلب من أمراضه ومنع سريان المرض الى سائر أفراد العائلة هو قتله أو إبعاده عن البيت الى حيث يموت وحده وتموت معه كل جراثيم مرضه . واننا ندهش من الانسان الذى يعرف شدة أخطار الكلاب والقطط والخنازير وسائر المواشى عليه وعلى عائلته كيف يسمح لها أو لنفسه بعد أن يعرف ذلك أن تقترب منه أو يقترب منها وهو المعروف بأنه الحيوان الراقى الذى يمتاز عن أخيه الحيوان المنحط بسعة العقل والادراك والانتباه والحذر وان لم يكن كذلك يفقد كل حق يدعيه للتفوق على الحيوان الذى يدب على أربع . انتهى من مجلة الشمس

***

« فائدة طبية فى الخرشوف »

جاء فى جريدة الاهرام مانصه

« فائدة الخرشوف الطبية »

نبحث فى هذه العجالة عن الخرشوف من جهة فائدته فى مداواة أمراض الكبد . وقد كان الأقدمون يعرفون هذا الامر ولكن أهمل استعماله حينا من الزمان والآن عادوا اليه فى معالجة اليرقان وحصاة الكبد وغير ذلك من الأمراض التى تصاب بها الكبد وطريقة ذلك أن يغلى ورق الخرشوف ويحلى بالسكر ويشرب وقد لاحظوا أن منفعته لاتلبث أن تظهر

وفى الخرشوف مادة تقوى الكبد على التخلص من السموم المتسربة اليها وتساعد خلاياها على القيام بمهمتها وهذا الأمر تهم معرفته الكثيرين لأن المصابين بأمراض الكبد كثير عددهم والناس يعودون شيئا فشيئا الى التداوى بالعقاقير الطبية التى كان الأقدمون يعولون عليها فى معالجة المرضى وكان الاطباء قد انصرفوا عنها وآثروا عليها الأدوية الكيماوية

ومن النظريات الأولية أن الطبيعة أوجدت الدواء بازاء الداء فهى « صيدلية واسعة » ولكن يجب البحث فيها وتعرف ماتحتوى عليه لوجود أدوية فيها تفضل كثيرا الأدوية التى يلقونها فى دور التحليل والصيدليات وتكون معقدة التركيب وقد فهم الناس من عهد بعيد أن الطبيعة بنجوة من التعقيد ولذلك رأوا أن التداوى بالأدوية البسيطة أفضل من التداوى بالأدوية المركبة المعقدة

وفى لبنان أسرتان فيهما أطباء لايزالون يعالجون مرضاهم بعقاقير يجمعونها بأنفسهم من البرية ولهم منزلة عند أبناء وطنهم ولهؤلاء ثقة عظيمة بهم . انتهت الشذرة الرابعة

﴿ الشذرة الخامسة فى فوائد أدبية ﴾

(مقالات فى كلمات)

جاء فى مجلة «كل شئ» ما نصه :

(١) — «المواهب المعتدلة تكسب صاحبها المجد وكثيرا مايفوق شهرته شهرة صاحب الذكاء العالى»

(٢) — «اذا كنا أصحاب كفاية احترمنا الرجال الحقيقيون . واذا كنا أصحاب سعد وبخت احترمنا جمهور الشعب»

(٣) — «إن حلاوة اللقاء هى ثمن مرارة الفراق . والا ما احتمل هذه المرارة انسان»

(٤) — «الفراق يطفئ الشهوات الصغرى ويزيد العظمى كالريح تطفئ الشمعة وتزيد النار التهابا»

(٥) — «كثيرا ما تصادفنا فى هذه الحياة مفاجآت لاتزول إلا باستعمال شئ من الحق»

(٦) — «ليس بين المصائب مصيبة لايستطيع اللبيب أن يجنى منها فائدة له ولا الغبى أن يجنى منها شرا عليه»

(٧) — «اذا كان المرء لايصطنع لنفسه أصدقاء جددا كل يوم الى نهاية عمره فسيجد نفسه وحيدا . فالواجب عليه أن يرم صداقته على الدوام»

﴿ الماء والصحة ﴾

الماء أهم مواد الطعام طرا والرجل البالغ الصحيح الجسم يحتاج كل يوم الى (٧٠) أوقية ماء حتى (١٠٠) أوقية . وثلث هذا القدر من الماء فى الطعام الذى تأكله فان الأثمار والبقول تحتوى على مقدار عال من الماء بالنسبة الى قيمتها الغذائية . أما الثلثان الباقيان فنشربهما ماء أوسوائل أخرى ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان جسم الصحيح البالغ يحتاج الى نحو ستة أرطال ماء يوميا

ووظيفة الماء بناء أنسجة الجسم وتحليل الطعام و بذلك يساعد على حمله الى الدم وتنظيف الامعاء ومنع تجمع الفضول فيها مما يفضى تجمعه الى تسمم الجسم كذلك ينبه غدد اللعاب فى الفم على الافراز واللعاب يساعد على هضم المواد النشوية فى الطعام ويحل المواد الملحية والسكرية . انتهى من مجلة «كل شئ»

﴿ لطيفة ﴾

(فى قوله تعالى ـ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب ـ)

هذه الآية أصل عظيم فى الاسلام توجب أن تنقب الأمم الاسلامية عن العلوم والصناعات والاختراعات وتصطفى أحسن ماأنتجته عقول الأمم وأبدع ماأبرزته مباحث العلماء وخير ماأظهره الجد وأبرزه الاجتهاد وأدى اليه القياس وأوضحه الدليل واضرب لهذا مثلا واحدا من آلاف . ذلك اختزال الكتابة فاسمع ماجاء فى جريدة الاهرام يوم الجمعة ٤ يوليه سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

﴿ طريقة الاختزال فى الكتابة ﴾

(اختراع شرقى لاغربى)

حضرة صاحب العزة المفضل رئيس تحرير الاهرام الغراء . يظن الناس أن طريقة الاختزال فى الكتابة هى حديثة العهد وان الذين اخترعوها هم الغربيون أسوة بغيرها من المخترعات التى اخترعوها

ولكن

ولكن الحقيقة ان هذه الطريقة هي قديمة المهد جدا والذين اخترعوها هم الصينيون منذ نيف وألف سنة .
والدليل على ذلك ماجاء بكتاب الفهرست لابن النديم المتوفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى صفحة ٢٤ و٢٥ طبع مصر قال : وللصين كتابة يقال لها كتابة المجموع وهو ان لكل كلمة تكتب بثلاثة أحرف وأكثر صورة واحدة ولكل كلام يطول شكل من الحروف يأتى على المعانى الكثيرة فاذا أرادوا أن يكتبوا مايكتب فى مائة ورقة كتبوه فى صفح واحد بهذا القلم . قال محمد بن زكريا الرازى قصدنى رجل من الصين فقام بحضرتى نحو سنة تعلم فيها العربية كلاما وخطا فى مدة خمسة أشهر حتى صار فصيحا حاذقا سريع اليد فلما أراد الانصراف الى بلده قال لى قبل ذلك بشهر انى عزمت على الخروج فأحب أن تملى علىّ كتب جالينوس الستة عشر لأكتبها فقلت لقد ضاق عليك الوقت ولا يفى زمان مقامك لنسخ قليل منها فقال الفتى أسألك أن تهب لى نفسك مدة مقامى وتملى على بأسرع مايمكنك فانى أسبقك بالكتابة فتقدمت الى بعض تلاميذى بالاجتماع معا على ذلك فكنا نملى عليه بأسرع مايمكننا فكان يسبقنا فلم نصدقه الا فى وقت المعارضة فانه عارض بجميع ماكتبه وسألته عن ذلك فقال ان لنا كتابة تعرف بالمجموع وهو الذى رأيتم اذا أردنا أن نكتب الشئ الكثير فى المدة اليسيرة كتبناه بهذا الخط ثم ان شئنا نقلناه الى القلم المتعارف والمبسوط . انتهى

واذا كان هذا الكتاب قد طبع لأوّل مرّة فى أوروبا سنة ١٨٧٢ ميلادية فلا يبعد أن يكون الغربيون لما اطلعوا على هذه الطريقة أخذوا فى الاسباب التى توصلهم اليها كما توصلوا الى غيرها من المخترعات الأخرى وفق الله الشرقيين الى اقتفاء أثر الغربيين الى مافيه نفع المجتمع الانسانى

وبهذا تم الكلام على سورة الزمر والحمد لله رب العالمين

(تمّ بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثامن عشر من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم
ويليه الجزء التاسع عشر وأوّله سورة غافر)

فهرست

(الجزء الثامن عشر)

من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

صحيفة

جاء السوفسطائية (٢) فتحيروا (٣) ثم جاء فيثاغورس وأنبذقلس . فقال الأول : « أصل العالم الحساب » وقال الثانى : « أصل العالم المحبة والنفور » (٤) وجاء آخرون وهم أنكساغورس وسقراط وأفلاطون فقالوا : « للحساب حاسب ، فالعالم له إله أبدعه » وهذه الدرجات الأربع لايشذ عنها عالم فى عصرنا الحاضر . فكل المتعلمين فى المدارس المتحيرين هم من الفريق الثانى ، وكل من يقولون « إن الإله موجود ولكنه ترك العالم » فهذا مثل أنكساغورس لأنه أثبت الإله ولكنه يقول إنه ترك المادة أما سقراط ومن بعده فانهم يقولون : « إن الله يعلم كل جزئى وكلى »

٢٨ وهذه النظرات الأربع لها نظائر فى نظرات الخليل الأربع : الكوكب والقمر والشمس ثم وجه وجهه لله . فهذه أربع كمراتب ماقبلها . وههنا بيان أن هذه النظرات الأربع عند كل الأمم نتائجها أن تكون جزاء للمحسنين ، وهل جزاء المحسنين إلا الفرح بمعرفة الحقائق الكلية وعجائب المصنوعات تفصيلا ! فلا يقف الانسان عند الاجمال ، ولايجعل عقله موقوفا على الامور الجزئية فهى باب الضلال والحيرة كأن يرى الذكى فقيرا والغبى غنيا وهكذا ، وكأن يدهش إذ يرى الفيل وهو كبير له أربع قوائم ، والبق وهو صغير له ستة أرجل وجناحان فتكون هناك الحيرة ، فهذه الامور من لم يكن مرتاضا بالعلوم حيرته فأضلته ، ولكن السعيد من يزداد بصيرة بمعرفة العجائب تفصيلا

٣٠ وهنا حكايات تقص للعامة فتقنعهم إذ عجزوا عن ادراك الحقائق الحكمية ، فيذكر لهم قصة ذلك الفارس الذى شرب من ماء العين ونسى صرة فيها دراهم وجاء بعده راعى غنم فأخذ الصرة وجاء بعده رجل حطاب مقوس الظهر يحمل حزمة حطب فحطها واستلق فجاء الفارس فسأله عن الكيس وهو لاعلم له به فقال لا أعلمه فقتله ، ثم ظهر بعد ذلك أن أبا الشيخ الحطاب قتل أبا الفارس وكان على أبى الفارس دين لأبى الراعى بمقدار مافى الكيس ، وهكذا حكاية النبى الذى رأى غلاما مكفوفا والصبيان يغوصونه فى الماء فدعا الله فرد بصره فلما أبصر أغرق حالا أحد الصبيان وطلب غيره فهرب الباقون فعرف الحكمة وطلب من الله أن يرجعه كما كان ، ومن ذلك حديث الخضر وموسى فى القرآن وبالاختصار :

(١) إن النظر فى العوالم يقربنا من الله

(٢) وأن النظر فى الامور الجزئية يجعلنا فى شكوك

(٣) وأن العلماء المفكرين يحصل لهم يقين وهو نفس السعادة أما العامة فكفاهم حكايات كما تقدم

٣١ ﴿ اللطيفة الثانية ﴾ فى آية — إنا زينا السماء الدنيا — الخ . اذا كنا نسمع سقراط وأفلاطون ومن نحا نحوهما يقولون : « إن المادة لاتصلح مناطا للعلم لسرعة تغيرها ولايصح أن تسمى موجودة إذ لامعنى لما هو متغير » وترى أرسطاطاليس يقول لهما : « نعم المادة لاتصلح مناطا للعلم » ولكن المثل الأفلاطونية التى جعلها أفلاطون مناط العلم لاتصلح لذلك لأنها لادليل على وجودها ، فهكذا هنا نحن نقول : إن ماهو متغير لايصلح مناطا للسرور والفرح ، وجميع الزينة على الأرض قسمان : طبيعية كالأزهار والأشجار ، وصناعية كالزينات المنصوبات فى الولائم وما أشبهها ، والعامة أكثر فرحا بالصناعية منهم بالطبيعية لأن الصناعية فعل مخلوق مثلهم والطبيعية فعل الله ، أما زينة السماء فأكثر الناس عنها غافلون

٣٣ ذلك لأن أكثر الناس مغمورون فى الشهوات من النساء والبنين الخ فليس عندهم وقت للتفكر فى مثل هذه العوالم العجيبة ، وأما زينة بعض الملوك والأمراء ونحوهم فهى على قدر عقولهم فتبهرهم . فهؤلاء كالشياطين الذين جاء فيهم — وحفظناها من كل شيطان رجيم — الخ وانما حرموا لضعف بصائرهم . فالجهال كالسفهاء فى آية — ولاتؤتوا السفهاء أموالكم —

صحيفة

٣٤ بهجة العلم فى آية ـ إنا زينا السماء الدنيا ـ الخ . فى ليلة ١٩ يوليو سنة ١٩٣٠ بت مع الفلاحين فى القرية وقد شاهدت المجرّة . ولما طلع الفجر خيل لى أن هنا ستارا أسدل على النجوم وعلى الزرقة السماوية . وهذا الستار لاهومن قطن ولاصوف الخ بل هونسيج أدمجت فيه الصفرة والخضرة والحمرة الى آخر الألوان السبعة . وما هـذا النسيج فى مادّة بل هو حركات فى الأثير . فهذه الحركات بانتظامها صارت ستارا مكوّنا من سبعة ألوان فصار أبيض وحجب تلك العجائب الليلية . وههنا فصول متعاقبة من الليل والنهار تشابه الفصول المتعاقبة فى النفوس الانسانية التى تنام فترى صورا فى الأحلام عجيبة . فاذا أغمض الانسان عينيه رأى صورا عجيبة فى الأحلام هكذا اذا جنّ الظلام رأى فى السماء صورا عجيبة . واذا استيقظ ذهبت تلك الصور الحلمية . هكذا اذا طلع الفجر غابت تلك الصور السماوية . ولقد قلد الناس فى دور التمثيل صنع ربهم . فهم اذا أرادوا اظهار صور عجيبة تسرّ الناس أطفؤا المصابيح وأظهروا تلك الصور التمثيلية . فاذا أتموا عملهم أضاؤا المصابيح فرأى الناس بعضهم بعضا كما يحصل نظيره اذا طلع النهار . هـذا تقليد الناس لفعل ربهم فى صنعه الليل والنهار . ولقد قلدوا حيوانات كثيرة . قلدوا الجرذان فى الحياة تحت الأرض والظباء فى الحياة فى الأدواح واتخذوا بيوتا كما اتخذت النمل وهكذا . ولقد كان نسيج الصباح جيلا مصنوعا من الحركات البديعة لأنه نسيج اللطيف الخبير الذى جعل نسيجه فيما هولطيف . فأما الانسان فنسيجه فى المادّة وهى غليظة

٣٦ نظر المؤلف فى المزرعة إذ تبدّت الزهرات المختلفات وهنّ ذوات ألوان بهجات وقال كأنهنّ ينظرن الىّ كما كنت أتخيل النجوم تفعل ذلك ليلا وآنست القطن قد بدا من أكمامه وخيلت لى الدنيا كأنها عروس بهجة جيلة قد ازّينت للناظرين والزهرات ومامعها يسلمن علىّ وهنّ باسمات محليات بأقراط من الماس من الندى فلم أتمالك نفسى أن قلت : « يا ألله . أفمع هذا الجمال كله يكون خوفنا منك ؟ فمن جهل هذا فهو أحقّ بالخوف منك . أما الحكيم فمن حقه أن يفرح بك » الجاهل زين الله له شهواته والحكيم زين له السماء والطبيعة . إحساس المؤلف بأن قرّاء هذا التفسير لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة بالمسرات بجمال هذه الدنيا وأكثر الناس يموتون ولايفهمون هذا الجمال . إذن الدنيا ازّينت لهذه الطبقة وأمثالها وسواهم همج الهمج

٣٧ ماحقيقة السموات ؟ وهل للنور وزن ؟ واذا كان النور يبقى طويلا ؟ أفليست الأرواح أولى بذلك الدوام . أدلة القدماء والمحدثين على أن للسماء وجودا . فالأوّلون استدلوا بالنور والظلمة فهما عرضان قاما بجوهر أوجوهران . إذن هما موجودان . والمحدثون قالوا انها موجودة لأن الأثير الذى تخيلناه يحمل أثقال هذه الكواكب التى لاحدّ لها بل ان كثافة الملليمتر الواحد من هذا الأثير الذى تخيلناه لاتنقص عن (٢٢) ألف قنطار وهـذه لانظير لثقلها فى المادة . إذن ظهر سرّ آية ـ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ـ وههنا بيان الأوصاف التسعة للأثير من كونه شفافا كثيفا مرنا لاحرارة له ولاصوت وفيه الجاذبية بقسميها وههنا ذكر آراء (نيوتن) فيه انه أشبه بالجبل وهو يحسن القائل انه ذرات الخ وفرنل الفرنسى وكوتشى وجورج توكس وماكسول وامافين وانيشتين . وبيان أن النور الخارج من الشمس فى الثانية ٤ ملايين طونولاته . ذلك انهم وجدوا أن الأشعة الكاشفة المنبعثة من جهاز قوته (٥٠) حصانا فى مدة (١٠٠) سنة لاتبلغ أكثر من جزء من عشرين من الأوقية . ولوكان هـذا المقدار من تراب الأرض لأقيم به عمود قاعدته (١٠) يردات مربعة وارتفاعه ربع ميل . وهذا المقدار أيضا يحتاج فى حمله الى ١٠٫٠٠٠ قطار فى كل ثانية وكل واحد منها يحمل (٤٠٠) طونولاته . هذا ولاجرم أن الضوء نراه بعد مئات

صحيفة

الملايين من ابتداء خروجه من كوكبه . فاذا كانت هذه حال الضوء فالأرواح بقاؤها من باب أولى فهو دليل على الحياة الأخرى بطريق قياس التمثيل

٤١ وذكر أن المؤلف نام ليلا فى الحقل فى أواخر يوليو سنة ١٩٣٠ واستيقظ قبل الفجر ورأى الكواكب بهيئة لم يعهدها فى المدن ولا فى القرية التى ولد فيها لأن هيئة النجوم فى جهات الجبال والصحارى غيرها فى المدن وبلاد الريف وهبت النسمات واضطربت بحسب منظر العين تلك المصابيح وهن راقصات مستبشرات ، ورأى الدبران والثريا والهقعة والهنعة ونجوم الجبار

٤٣ امتحان عقول الناظرين من الأمم فى الأرض :

(١) فالبدوى تخيل القمر رجلا والثريا امرأة وقد طلبها للزواج فأبت فأرسل اليها الدبران ليقدم لها مهرا وهو الكواكب السبعة اللاتى تشبه شكل الدال فهو أبدا يسوق الغنم لها وهى أبدا لاتقف ولاترضى

(٢) والعاشق العربى تخيل الليل خيمة جمعته ومعشوقته سلمى

(٣) والعاشق الاسلامى يخاطب الليل متخيلا انه كافر وانه هو يجاهد ذلك الكافر ويوازن بين محبوبته وبين البدر ويفضل محبوبته على البدر

(٤) والشاعر الذى وقف بباب الأمير يستجديه لتأخر الأمم الاسلامية فى القرون المتأخرة يتخيل الجوزاء المتقدمة واقفة أمام الملك أو الأمير وهى ذات نطاق ، وبيان ما قاله (سديو الفرنسى) من أن شعراء الاسلام يساوون فى العدد شعراء الأمم والأندلسيون لما أغرموا بالشعر نسوا عقولهم ودينهم ووطنهم فطردوا من البلاد وهذا قوله تعالى ــ والشعراء يتبعهم الغاوون ــ الخ

وبيان أن الشاعر العربى كان يتغزل فى محبوبته فلا يذكر اسمها غالبا وشعراء الجاهلية يعدون على الأصابع وفى العصر الأموى كانوا أضعافهم ، وهناك كثر الغزل والتشبيب لاسيما فى المدينة التى غمر معاوية أبناء الصحابة القاطنين بها بالمال فكثر القصف والغناء لوفرة المال وكثرة السبايا والحظيات من الجوارى المسبيات فى الحروب فهؤلاء أصبحوا مغرمين بزينة الشهوات لا بزينة السماء المذكورة فى هذه الآيات فقد زينها الله للناظرين وأكثر هؤلاء ينظرون الشهوات ، وقد منع الخلفاء الراشدون التشبيب وانغمس المسلمون بعدهم فى الشهوات ، وكتاب الأغانى أكبر مفسدة اسلامية

٤٥ نداء المؤلف لأمم الاسلام يذكرهم بأن أبناءهم أمانة فى أيديهم فليرفعوا عنهم الشعر المهيج للشهوات فى شبابهم وليقتصروا على شعر الحماسة والأدب والنخوة والشرف كقول عمرو بن كلثوم :

اذا ما الملك سام الناس خسفا * أبينا أن نقر الذل فينا

وليعرفوهم الزينة السماوية والأرضية وهما يشملان جميع العلوم فان الله ابتلى أهل الأرض بالزينة . فالغافلون من المسلمين وغيرهم زينت لهم الشهوات كالبهائم والشعراء ونحوهم والخواص زينت لهم الطبيعة من سموات وأرضين والفرنجة عرفوا قيمة هذه الزينة فأذلوا المسلمين لأنهم لم يفهموا فى هذه القرون ــ وزيناها للناظرين ــ

٤٦ بيان أن العلم جنة العارفين وأن الاقتصار على الجنة الحسية انما يكون عند الجاهلين . ولاجرم أن لذات العقول أرق من لذات الأجسام . وبيان مراتب الناس فى اللذات . وبيان أن الشجاعة والحب صفتان بهما سعادة الانسان فى هذه الحياة ومن لم يعرف العجائب لايدخل الحب قلبه . ولذة معرفة العجائب فوق اللذة الغضبية والشهوية بما لاحد له وكلما ازداد العارف علما ازداد لذة . وذكر كلام الامام الغزالى

صحيفة

في سبب تفاوت الناس في الحب . وبيان أن الجمال في هذه العجائب السماوية والأرضية لاحدّ له والانسان يدركه وهو صغير فيعتاده فلايفهم له معنى وهكذا يدوم على ذلك حتى يموت وهو لايعقله ، فأما المفكر فانه يقول في نفسه : « إن أعضاء جسمي مدهشة بديعة التركيب وهكذا روحي وكل موجود في الأرض وفي السماء ولكن هذه الدلائل لاحدّ لها فصارت كالشمس والشمس تبهر العيون فهكذا هذه العجائب بهرت بصيرتي فعجزت عن الادراك ولولا أن النور يختفي بمغيب الشمس ما أدركنا أن ههنا نورا ولكن السرّ الإلهي لم يغب عن الوجود لحظة . فالنور عرف بضده وهذه الشواهد لم نفقدها لحظة فكيف نعرفها كما عرفنا النور بالظلام أي بضده

٥٠ ﴿ زبرجدة ﴾ في قوله تعالى ـ فأتبعه شهاب ثاقب ـ والكلام على حوادث كرة الأثير من الشهب الساقطة وانقضاض الكواكب وذوات الأذناب . وبيان آراء القدماء الذين وصفوا هذه الشهب بأنها أعمدة مخروطة قاعدتها تلي كرة النار (التي كانوا يعتقدونها تابعين علماء اليونان) ومخروطها يلي وجه الأرض وهي في زعمهم دخان يابس خارج من الأرض اشتعل هناك ثم انطفأ كالسراج المشتعل بالنفط مستدلين على انه دخان بأنه يظهر أيام الجدب أكثر ومثلوا لها بالكرة التي يلعب بها أصحاب الخيالات المعجونة من سندروس وعقاقير أخرى ويضعونها في أفواههم ويرقصون بها . ويقول علماء العصر الحاضر . كلا . ثم كلا . انما الشهب أجسام صغيرة لاتزيد الواحدة منها عن حجم البلاطة وهي تدور مع كثرتها حول الشمس في كل (٣٣) سنة مرة واحدة ولاحصر لعددها وقطر المسميات منها بالأسديات (١٠٠،٠٠٠) ميل أو أكثر والذي يخترق جوّنا ونعرفه منها في كل سنة (١٥٠) مليونا وآلاف آلاف منها تصيب أرضنا وتبقى فيها . هذه هي الشهب . أما الكرات النارية فهي تظهر وتختفي بسرعة ولكنها أبطأ من الشهب وهي تمزّق بالقرب من الأرض وفي تركيبها الحديد والسليس والمنيزيا والنيكل وغيرها وأعلى ارتفاعها (٢٠٠) كيلو وهي قطع صغيرة اذا قربت من الأرض جذبتها وهي المسماة بالحجارة الجوّية . وههنا أوضح المؤلف الفرق بين مازعمه القدماء وبين ماحققه المحدثون . هذا ماجاء من جهة العلم . أما من جهة الدين فان الأرواح الشيطانية تعيش في هذا الجوّ ونحوه وهذه الكرات والنيازك تنغص عليها حياتها فلاتفكر في الحقائق والمعارف وتصرف عنها وتحفظ السماء منها كما تصرف العلوم عن النفوس الانسانية المجسمة الشيطانية سواء بسواء وهذا بعض عذاب البرزخ وناره

٥٤ ﴿ اللطيفة الثانية ﴾ في قوله تعالى ـ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ـ وبيان أن الناس قسمان : عالم وجاهل . فالجهال كالدود والحكماء على نقيضهم . وكل فريق لايعيش إلا مع مثله . والمسيح مسيحان مسيح صادق وهومعروف . ومسيح كاذب . ويرمز بهذا لكل الأمم والأفراد المضلين الذين يظهرون الصلاح ويضمرون الغش كما تعمل دولة أوروبية ببلاد المغرب وكما قاله هنري الفرنسي . إن الخمر جلبتها أوروبا للجزائر لتهلك المسلمين بها فنعهم الدين . فأمثال هذه الأمم المقصودون على طريق الرمز بالمسيح الدجال وهم الذين سهلوا دخول المخدرات بلادنا . والذي كشف هذا رجل انجليزي وهو الحكمدار بمصر فكشف أن الكوكايين والهروين يسممان الأجسام . وقد جمع الشرطة (٢٥٠) رجلا من هؤلاء المدمنين . وههنا قصص النجار الذي ابتلى بهذه المخدرات وطلب من امرأته أن تبيع عرضها وأجرابنته في المنازل للخدمة

٥٧ صور هؤلاء المدمنين (شكل ١) وههنا أظهر الحكمدار (رسل باشا) أن هذا الداء انتشر بين الفلاحين وعاب أوروبا على انها أهلكت مصر بهذا ومن تلك الدول المهلكة لمصر سويسرا وألمانيا وفرنسا

وايطاليا واليونان ونحوها . هذا كله من تفسير قوله تعالى — احشروا الذين ظلموا وأزواجهم — فهؤلاء حشروا معا فى السجون وصوّروا بالتصوير الشمسى ، فكل طائفة لاتحشر أفرادها إلا مع أمثالهم والذى حشرهم هم الدجالون الاوروبيون المستعمرون أوّلا والصانعون لهذه المخترات

٥٩ بيان السبب فى انتشار المخترات بمصر وهو الجهل الذى فشا بين أهل الأندلس المسلمين قديما فشتت شملهم حين اتفق الصليبيون على محاربة العرب بالخمر واحتقار الدين و بث حب الشهوات والاستدانة بالربا وفرح الملوك بها وخالفهم رجل منهم فلم يعبؤا به ، فانتشرت الموبقات وطرد المسلمون من هناك ، وهاهم أولاء يطاردون المسلمين فى الشرق ، فهم أتباع المسيح الدجال فعلا ، ألم يقم راهب اسبانى فيسقى أبناء المسلمين تلاميذه الخمر بعد أن عصر عنب قرطبة كلها فجعله خمرا

٦١ ذكر اعتراض على المؤلف بأن هذا خارج عن الآية لأنها فى الآخرة وجوابه بأن الآية تشمل هذا كما كان يفهم الصحابة ، ألم يستشهد عمر للربيع بن زياد لما قال له : أريد لك طعاما ألين من هذا بآية — أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها — فلم يقصرها على الكفار وان كانت واردة فيهم

٦٢ الكلام على آية — وقفوهم انهم مسؤلون — الخ وخطاب من المؤلف للأمم الاسلامية ومنها بلاده المصرية يقول لهم : «كفوا عن الجلوس فى محال الفرنجة المعدّات للشراب حتى القهوة ورقوا تجارة الأوطان واستغنوا بها عن تجارة الأجانب» ثم ذكرهم بمناصلة البابا برومه و بارونات أوروبا من إشاعة الفسوق واذاعة الخمور فى المسلمين ليذلوهم وانهم بغير هذا لايذلون ، فلما أخضعوا الأندلس أخذوا يخضعون شمال افريقيا كمصر وتونس والجزائر ومراكش ، و بيان أن أجسام الشرقيين قوية وهكذا عقولهم ولكنها متروكة ، الأطباء فى أوروبا درسوا الماء والهواء والنبات وكل شئ ولا أطباء فى الاسلام إلا قليلا . سوّاس أوروبا أخذوا يفرّقون بين أمراء الجزيرة ، فهؤلاء أتباع المسيح الدجال لأنهم يظهرون الخير و يبطنون الغدر ، يطلب المؤلف استخراج كل قوّة من قوى الشعب وكل قوّة من قوى المادة فى بلاد الاسلام

٦٥ ﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ فى قوله تعالى — إنى كان لى قرين — وذكر مسألة من المسائل التى جمدت عليها العقول ثم ظهر خطؤها بالخروج عن التقاليد ، فهذه الصخور المعدنية لما قال بعض العلماء انها أجرام سماوية ردّ عليه كثير منهم (لافوازيه) المشهور مدعيا أن هذا ينافى الجاذبية ولكن كرور الأعوام كذبته هكذا كتاب أصل الأنواع لداروين قاومه العلماء ثم خدت عزائمهم ، و باستور كاشف المكروبات لما طعن عليه العلماء أوّلا ثم خضعوا له آخرا . ونظرية دوران الأرض حول الشمس أزالت النظرية العكسية التى شاعت قبلها

٦٨ ﴿ تفسير سورة ص ﴾ وهى ﴿ ثلاثة فصول * الفصل الأوّل ﴾ فى تفسير البسملة والكلام على أن لفظ الجلالة تلحظ فيه الذات الواجب الوجود . فأما الرحمن والرحيم فالملحوظ فيهما الكثرة فى المخلوقات ونحن نرى الوحدة فى جسم الانسان وروحه . والكثرة قد تجلت فى الأعضاء والحواس . فالأعضاء منها ماهو للبطش وماهو للحس . وماللحس قد قسمت العوالم عليه من الملموسات والمشمومات والمذوقات والألوان والأصوات والذى للحركة مقسم على الأعمال لأنها إما أعمال انتقالية واما أعمال صناعية فالرجلان للانتقال واليدان للصناعات . ثم ان الحواس ابتدعت لاجتلاب صور الموجودات التى فى الخارج الى الذهن فلايزال يستحضرها وقتا بعد وقت حتى يعرف العوالم اجمالا و يصل فى العلم الى أقصاه ثم يستعين بالمناظير المعظمة والمقرّبة لتريه بقية العلم وهكذا يستعمل البراهين العقلية . إذن العقل استخدم الحواس واستخدم الآلات لأجل المعرفة والعلم . وكما استخدم الآلات البصرية لمساعدة البصر وعلم المنطق لمساعدة البصيرة

صحيفة

استخدم القطرات والسفن البرّية والبحرية لمساعدة الرجلين فى الانتقال من مكان الى مكان واستخدم أيضا الآلات المختلفة فى الصناعات لمساعدة اليدين ، ثم انه رأى له رأسا وعينين وثلاث مفاصل فى اليد الواحدة وأربعة أعضاء باطشة وخمس حواس ، وأصابع اليدين خمس أيضا ، فهنالك استعمل الأعداد لضبط العلوم لأن المادة لا يضبطها إلا العد والعد قد استنتجه من أعضاء جسمه ، فاليدان لها عشرة أصابع واستمرّ فى الزيادة (٢٠) و (٣٠) الى الآلاف وآلاف الآلاف ، ذلك كله لكبح جماح المادة

٧٠ وما الهندسة إلا نظام للمقادير المتصلة كما ان الحساب نظام المقادير المنفصلة . الانسان ابتدع نوعين من الصور نوع له صور فى الخارج وهى العلوم الطبيعية . ونوع لا وجود له فى الخارج وهى العلوم الرياضية . الانسان عالم بديع . فهو باليدين والرجلين تنقل فى الأرض وصوّرفيها صورا مادية وأثرفيها بأنواع الحرف وبالحواس أصدرصورا معنوية للمادّة . فآلات البطش خدمت الجسم بصور المادّة نفسها وآلات الحسّ خدمت العقل بصور مخترعة على مثال صور المادّة المجسمة وهو من جهة واحد ومن جهة كثير . هنالك بحث فيما وراء المادّة هذا الانسان الذى تصرّف فى المادّة بالصناعة العملية وتصرّف فيها بعد ذلك بالعدد والهندسة فضبطها بصور ذهنية قال أنا واحد وقد حكمت على المادة ظاهرها و باطنها وروحى هى التى حافظت على كثرتى فجعلت لها وحدة ، إذن هذا العالم كثرة لابد لها من وحدة تجمعها فحكم الأكبر كحكم الأصغر على قياس التمثيل ولكنه لم يقل ذلك إلا بعد أن تصوّر للاله صورا شتى اخترعها بلا قانون يضبط تصوّره من فيل وحية وبقرة وهكذا والعوام يصدّقون والخواص يرمزون

٧٢ سياسة الأمم تتبع عقائدها ، فكما ضبط الانسان المادة بالعلوم الرياضية فحفظت كثرتها هكذا يضبط كثرة أمته بوحدة العقيدة كما حصل أيام النبوّة إذ جمعت العقيدة أشتات العرب المفرّقين عقيدة وليست وحدة الدين بمجدية اذا بقيت فى القلب ولم تكن لها آثار فى الخارج باجتماع الصلوات والأعياد وعيادة المرضى والاتحاد فى الصيام والحج واغاثة الفقراء بالزكاة . فالعرب اجتمعوا بالدين لما فعلوا ذلك وتفرّقوا لما أصبحت العقيدة خالية من العمل . واجتماع الأمة يتوقف على هذه الأحوال وجامعة العصبية النسبية والوطنية واللغة والملك الجامع والاستعباد والمعاهدة كلها تؤدّى المقصود اذا قويت بالأعمال فاذا أهملت الأعمال تفرّقت الأمم . واليابان عابدة الأصنام اجتمعت باللغة والوطن وهكذا . والعرب فى مصر والعراق والحجاز وشمال افريقيا لم يفذوا الدين بالاجتماعات ولا اللغة ولا النسب ولا المجاورة فهم متفرّقون حتى يفعلوا ذلك . الأمم عمياء اذا لم تجتمع لا بدين ولا بنسب الخ . عوراء اذا اجتمعت بواحدة من هذه الخصال وكرهت بقية الأمم . مبصرة اذا اجتمع الناس كلهم . فأمم الأرض أكثرهم عور وكثير من أمم الشرق عمى لأنهم لم يصلوا للعور

٧٥ سورة ص فيها وحدة باعتبار أن أمثال مصائب أيوب ونعم داود وسليمان ترجع كلها الى الابتلاء فالناس يبتلون بالنعم والنقم فههنا وحدة فى نفس السورة

٧٦ ﴿ سورة ص ﴾ مكتوبة مشكلة كلها

٧٨ تفسيرها اللفظى

٨١ تفسير قصة سليمان . فتنة سليمان عليه السلام

٨٢ تفسير قصة أيوب . وصف الجنة

٨٣ تفسير وصف جهنم وقصة آدم عليه السلام

٨٤ ﴿ الفصل الثالث ﴾ فى مقصود السورة . السورة مبدوءة بحرف ص وملخص مافيها يرجع للبصر الذى

صحيفة

أول حروفه ص :

(١) صبر الكفار على آلهتهم

(٢) فليصبر النبي ﷺ على مايصيبه ـ واصبر على مايقولون ـ

(٣) ـ إنا وجدناه صابرا ـ

(٤) لم يصبر داود في مسألة الخصم حتى يسمع كلام الخصم الآخر

(٥) وهكذا سليمان تعجل ولم يقل إن شاء الله

(٦) يظن الكافر أن السموات والأرض خلقت باطلا وذلك لعدم صبره على البحث في هذا الوجود

(٧) والصبر حتم على من منح النعماء كما انه حتم على من أصابه البلاء كسليمان وأيوب

٨٦ ـ ولتعلمن نبأه بعد حين ـ . من أنباء القرآن اليوم أن أتباعه (٣٥٠) مليون ، ومنها أن العلوم الحديثة طابقته مثل كون الأرواح أحياء بعد الموت ، فمن كانت أرضية الأخلاق كانت أقرب الى الأرض ، ومن كانت أغزر علما وأصفى أخلاقا كانت في عوالم أعلى ، ومن عجب أن المؤلف رأى رؤيا كانت هي سبب قراءته علوم الفلسفة ، ذلك انه رأى وهو في شبابه في المنام أن قائلا يقول له وهو في مقبرة قريته في الفلاحين : « انظر هذه هي الروح ، فرآها أشبه بكرة بيضاء قليلا قليلا ، ولما أصبح وقع في يده كتاب ابن مسكويه فرأى أول عبارة فيه الاستدلال على بقاء النفس » ثم وجد أن آراء الفلاسفة كلها على نمط ما رآه ، فالنفس التي تميل للذات تنجذب للأرض وضدها تميل للعالم الأعلى ، عواطف المحبة والبغضاء لها سوائل روحانية تميزها الأرواح ، الأخلاق الذميمة تتأذى بها الروح عقابا لها ، المغرمون بالمال يألمون لفراقه ، السفاكون والقتلى تطاردهم أشباح من قتلوهم في البرزخ ، هناك للأرواح ألحان وأناشيد ، فهذه كلها أشبه بتفصيل لرؤيا المؤلف وموافقة للقرآن لأن القبر إما روضة أو حفرة الخ

٨٨ لاعمل يتم خيرا أو شرا إلا بالصبر ، فالكفار صبروا على الكفر والمؤمنون صبروا على الايمان ، الألم روحي وجسمي فالأول لموسى وداود وسليمان والثاني لابراهيم واسحق أو اسماعيل ، الندم مظهر من مظاهر ارتقاء النفس

٨٩ تطبيق ذلك على نبينا ﷺ . معنى ـ وليتذكر أولوا الألباب ـ وأن هناك رابطة وثيقة بين أنواع الصبر المتقدمة و بين صبر القضاة العشرة الآتي ذكرهم ، ألاترى الى محمد بن عمران كيف صبر على أن يستعدى على أمير المؤمنين المنصور ويقضي عليه للجمالين ، وهكذا عاقبة بن يزيد القاضي الذي قدم استقالته للمهدي قائلا : « إن أحد الخصمين أحضر لي رطبا فلم أقبله فمال قلبي له وقت الحكم فعلمت أني لا أصلح للقضاء » وشريك بن عبد الله قاضي الكوفة إذ ظلم الأمير موسى ابن عيسى ابن عم أمير المؤمنين المهدي امرأة إذ خلط نخل بستانها بنخل بستانه فاستغاثت بالقاضي فأمر باحضاره فأبى وأرسل العظماء للقاضي واحدا بعد الآخر يفهمه أن حضوره لايليق فحبسهم واحدا بعد الآخر ، وأخيرا خضع الأمير وأطلقهم من السجن فهم شريك أن يرحل الى بغداد و يقابل المهدي فخضع الأمير موسى وسلم للمرأة ماطلبت وانتهى الأمر

٩١ ولقد أرسلت الخيزران نصرانيا من أتباعها الى الكوفة فأخذ رجلا وكتفه وأهانه فاستغاث بالقاضي فاقتص شريك من النصراني ولم يبال بأن الخيزران هي التي أرسلته

٩٢ وعبيد بن ظبيان قاضي الرشيد بالرقة جاءه رجل فاستعدى على الأمير عيسى بن جعفر وكان له عليه (٥٠٠) ألف درهم فأرسل اليه ثلاث مرات فلم يحضر فأبلغ القاضي الخبر الى أمير المؤمنين هرون الرشيد

فأرسل

صحيفة

فأرسل الجند وحاصروا دار ابن عمه فسلم الأمر للقاضي وأعطى الرجل حقه . وعمر بن حبيب القاضي إذ حضر فى مجلس الرشيد ومال الخليفة الى أن أبا هريرة متهم فى الحديث فردّ عليه القاضي ، فلما انصرف القوم بعث فى طلبه مأمورا أن يحضر الكفن معه لأنه لامحالة ميت ، فلما أبان للخليفة أن اتهام أبى هريرة يجرّ الى ضياع الشريعة أنعم عليه . وحفص القاضي الذى حضر لديه رجل من أهل خراسان قد كان باع جمالا لمرزبان وكيل أم جعفر بثلاثين ألف درهم فحضر عند حفص وأقرّ بالمبلغ فقال الرجل يعطيني مالى والا الحبس فقال الرجل الدين على السيدة أم جعفر فقال له القاضي يامجوسى تقرّ ثم تدعى انه لأم جعفر فحبسه فبعثت أم جعفر فأطلقته فتوجه المجوسى الى أم جعفر ورجاها أن ترجعه الى السجن وتكلم الخليفة الرشيد ففعلت فأرسل الرشيد خطابا فلم يقرأه حتى أنفذ الحكم فعلم الرشيد فأعطاه (٣٠) ألف درهم

٩٤ القاضي أبو حازم أرسل له المعتضد يطلب منه أن يعطيه نصيبا من مال رجل أفلس فطلب منه البينة فذكر رجالا فقال ابحث عنهم فخاف الشهود أن يردّ شهادتهم . أبو حازم عبد الحميد القاضي كان متوليا وقف الحسن بن سهل وقد كان المعتضد أخذ من هذا الوقف شيأ أدخله فى قصره ، فلما أراد قسمته على مستحقيه قال له القاضي خذ مالك أمير المؤمنين وأرسله اليه ليأخذ المال منه ففكر ساعة ثم أعطاه ومدحه . واسماعيل القاضي أرسل المعتضد له أن يرفع الحجر عن يتيم وهذا اليتيم امه كانت فى دار الخليفة ، فلما سأل عنه وجده لايصلح للتصرّف فأرسل الى الأمير كتابا فيه مانصه : « ـ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ـ »

٩٥ فهؤلاء عشرة قضاة وهذه أوصافهم فأخذت أفكر فى مناسبة آية ـ وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلا ـ لآية ـ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ـ فرأيت مما فى الأرض عالم النبات ويدخل فى أغذيته هذه الثمانية الكبريت والحديد وهكذا ، واذا نقص البوتاسيوم من غذاء النبات كان قصيرا جدا كالذى فى (شكل ٢) وهكذا كل عنصر نقص من غذاء النبات نجد النبات نقص نموه بمقداره بحيث لانجد هناك اختلالا ، إذن أبوحازم واسماعيل وعبيد بن ظبيان وشريك ونحوهم لم يفعلوا إلا تقليد ما فعله الله فى النبات من العدل إذ ينقص نموّ النبات على مقدار مانقص من الغذاء بالعدل . هذا هوسرّ ذكر آيات خلق السموات والأرض بعد ذكر خلافة داود وأمره أن يحكم بين الناس بالحق

٩٧ ومن هذا القبيل مانراه فى (شكل ٣ و ٤) من جذور النباتات المختلفة فى البقعة الواحدة فانها تمتدّ الى الطبقات التى تناسبها لأجل أن لاتزاحم غيرها ، فهذا عدل فى داخل الأرض إذ قسمت المناطق الأرضية على الجذور المختلفة ، وهكذا أعطيت الجذور التى وجدت فى غير طبقتها بصلات تجذبها الى أسفل والى أعلى . أليس هذا هوقوله تعالى ـ اهدنا الصراط المستقيم ـ أليس هذا هوصراط الله ـ

٩٨ (تذكرة) ازدياد هذه العلوم يعطى ملكة التفكير وبها حصلت للأمم العظيمة ملكات التفكير ، وذكرما كتبه المؤلف لوزارة المعارف يبين لها أن التعليم فى زمن الاحتلال ضعيف لم يدخل فيه الفلك ولا العلوم الطبيعية وهو خائف أن يكون الوزير والمهندس غافلا فى المستقبل ، وقد دخلت تلك العلوم وحصل التأليف وبعض التآليف أثمرت ، وبيان أن المسلمين لهم عدوّان : عدوّ خارجى هم المستعمرون وعدوّ داخلى هم الكذابون من شيوخ الصوفية وجهلة رجال الدين ، والمؤلف يوصى أذكياء القرّاء أن يذيعوا هذه الآراء فى الأمم الاسلامية

صحيفة

٩٩ ﴿ اللطيفة الثانية ﴾ كيف تربى قضاة الأمم الاسلامية وحكامها وخلفاءها

١٠٠ أذكر هنا ما جاء في « جمهورية أفلاطون » ثم أقفى على آثاره بما جاء في الكتاب والسنة . لقد ذمّ أفلاطون الأمة التي يكثر فيها القضاة والأطباء . انما يقضى القضاة بين الأشرار من الناس الذين كثر بينهم الخلاعة والفسوق ، ومن أسباب ذلك شيوع التفنن في الموسيقى ، أما الموسيقى المعتدلة فانها تهذب الأخلاق ، والطبيب لايداوى إلا أولئك الذين يكثرون أنواع الطعام ، فعلى الأمم أن يكون طعامها بسيطا وموسيقاها كذلك والا كانت جاهلة . ومن عجب أن الامام الغزالى كان يعيب على أمم الاسلام كثرة فقهائها الذين يتولون القضاء إذ جعلهم جيشا عاطلا والأمة أحوج الى نظام كامل بكل علم وصناعة لابالقضاء وحده ، ولما نظرت أمتنا بمصر الآن وجدت ﴿ ثلاثة جيوش ﴾ : أطباء وقضاة ومحامين ، وذمّ القاضى الذى ألف الرذيلة فى صباه مدعيا انه بهذا قد أحرز قصب السبق فى الدهاء فيعرف أسرار القضايا مع انه هو قد أصبح هزؤا وسخرية لافضيلة له فى نفسه . ومدح الطبيب الذى جرّب الأمراض وأدويتها فى نفسه لأن القاضى يقضى بعقله وعقله قدناله ماأضلّ بفضائله بخلاف القاضى فطبه بعقله لا بجسمه وليس يمنعه مرض الجسم . ثم ذكر أن مصر اليوم ترقت فى القضاء وفى الطب واتسع نطاقهما وذكر ماتقدم فى ﴿ سورة يس ﴾ من أن الرياضة البدنية والعفة فى المأكل والمشرب والتضلع فى العلوم الرياضية وفى منظم الكون من الواجبات فى تعليم الملوك والأمراء ورجال الجيش والقرآن فعل ذلك قال تعالى — إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم — وذكر مسألة النهر وأن الذين لم يشربوا منه قليل وهم الذين غلبوا . أما الشاربون كثيرا فانهم لم يحاربوا وهذه هى العفة بعينها . وأمر الله بعدم الاسراف فى المآكل والمشارب . وجاء السبق والرمى فى الاسلام لتقوية العضلات . وجاءت الصلاة بدل الموسيقى ونتائجها عظيمة بل كثرة الصلاة لاتؤدّى الى رذيلة . أما كثرة الموسيقى فانها تؤدّى الى الضلال ولذلك كانت نتائج مدنية الاسلام أعلى من مدنية هؤلاء الفلاسفة بل نحن لم نر لهم دولة اللهم إلا فى الخيال

١٠٤ ومن قرأ الأحاديث الشريفة وجد تقليل الطعام فى حديث عائشة أن آل محمد ﷺ ما أكلوا من خبز شعير يومين ولامن البرّ ثلاث ليال وتمضى ثلاثة أهلة فلا يوقدون نارا ويأكلون التمر ويشربون الماء لاغير . ولم يأكل النبى ﷺ على خوان ولامرققا ولارأى شاة سميطا بعينه ولم يملأ بطنه من ردىء التمر ولارأى منخلا وكانوا يأكلون الشعير بلانخل ولم يأكل النقىّ ولما أكلوا من شاة عند الأنصارى قال لصاحبيه لتسألنّ عن هذا النعيم

١٠٥ وفى خطبة عتبة بن غزوان انه كان سابع سبعة أكلوا الورق . وكان لرسول الله ﷺ إزار غليظ وكساء وكانوا يأكلون ورق السمر وكان أبوهريرة يعتمد على الأرض من الجوع . وهنا قصة قدح اللبن الذى شرب منه القوم وآخرهم أبوهريرة . وقد يضع الرجل قدمه على عنق أبى هريرة ظانا انه مجنون وماهوكذلك ولكنه به جوع . وفراشه ﷺ من ادم حشوه ليف

١٠٦ ﴿ نصائح عامة ﴾ مثل أن نبذل الفضل من المال ونمسك الفضل من القول . ومثل أن المدار على أن يصبح الانسان آمنا فى نفسه عنده قوت يومه . فهذه تكفى . وهنا مدح لمن آمن وعنده كفاف . وهنا مدح للصبر على الفاقة ومدح للاقتصار فى الأكل على ثلث البطن وللبذاذة وقصة أبى عبيدة إذ أخذ معه جرابا من تمر وكان يعطى الرجل تمرة فيمصها بالماء ثم يأكلون ورق الشجر

١٠٧ وهم كانوا ثلثمائة فرأوا دابة العنبر فأكلوا منها وحملوا معهم الى رسول الله ﷺ وهى كبيرة وعينها

كانت

صحيفة

كانت تسع (١٣) رجلا منهم والبعير برحله يمرّ من تحت ضلع من أضلاعها . وهنا قصة يوم الخندق إذ جاء جابر الى امرأته فذبحت عناقا وعندها صاع شعير فأكل منهما ألف وهذا من باب المعجزات ، وهكذا أبوطلحة وعند امرأته أقراص من شعير فأكل منها سبعون أوثمانون و بقى منه سؤر . هذا هوخلاصة الأحاديث . ومقتضى هذا انهم كانوا لايشبعون ولاينخلون الخ وهذا كله صحة للبدن وهذا موافق لما كشفه الأطباء حديثا ، فهم أمروا بقلة الطعام و بعدم نخل الدقيق كما سيأتى ، و بقى الكلام على السبق والرمى

١٠٩ فى الحديث أن السبق يكون بالإبل والخيل والسهم ، وفى حديث « من تعلم الرمى فتركه فليس منا » وحضّ النبيّ ﷺ الرماة على الرمى

١١٠ يجب على الأمم الاسلامية أن تذيع الصنائع اليدوية والسبق والرمى وتعليم الجندية ، وأن يكون القضاة والأمراء أعلمهم

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى ـ قال رب اغفرلى وهب لى ملكا ـ الخ وأن الملك هنا لايقصد به نفس المملكة السليمانية من حيث ظواهرها كالعظمة على الناس ولامن حيث انها منفعة للناس فحسب كلا . بل من حيث انها صادرة من الله تعالى فالملحوظ هنا مصدرالنعمة لانفس النعمة ، أمانبينا ﷺ فقد أعطى الكوثر وهى النعم الكثيرة والمقام المحمود وهكذا

١١١ ﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ فى قوله تعالى ـ قال فبعزّتك لأغوينهم أجمعين ـ و بيان أن بنى آدم مثلوا قصة أبيهم ، فهاهم أولاء الذين يكسون ورق الموز فى بلاد السودان فى الرسم المتقدم فى آخر ﴿ سورة يس ﴾ وأولئك العراة هناك ، و يشابه الأوّلون آدم بعد الأكل من الشجرة والآخرون يشبهونه قبل الأكل منها ، وهاهم أولاء أهل المدنية الحاضرة كلهم يشابهونه لما طرد من الجنة ، وسرّ تكرار هذه القصة فى القرآن أن نحترس مما دفعنا اليه جهلنا بفوائد الخبز الذى لم ينخل دقيقه والخضر التى لم تطبخ و بفوائد ضوء الشمس و بضرر الاكثار من الطعام والتوابل وهكذا ، و بيان أن الطب الحديث وكشف الفيتامين قد أضافا الى معجزات الاسلام معجزات جديدة ، فهاهو ذا الخبز الذى لاينخل دقيقه وعدم طبخ الطعام هذان وردا فى الأحاديث السابقة ، والعلم الحديث يقول : « إن الفيتامين أى قوّة الحياة فى النخالة وفى الطعام الذى لم يطبخ » إذن دين الاسلام ابتدأت تظهر أسراره الآن ، واذا كان الأمر كذلك فلنذكر ماجاء فى كتاب « دستورالتغذية » المترجم عن علماء أوروبا وكيف يقولون « إن الانسان يمكنه أن يعيش مائتى سنة بحسب ظنهم ، وأن التداوى بالعقاقير مهلك . وخيرالتداوى ما كان بالشمس . والحمية وتدبير الأغذية والمركبات الطبية مهلكة للناس . والطبيب قد يكون شرّا من المرض ! »

١١٢ وهاك أساليب الدكتور هيج وكاتانى وسوبر وسكى وكوهن إذ يقول الأوّل « حمض البوليك هو أصل الشقاء . وهذا الحمض سببه ما يتخلف من الأغذية فهو يسدّ المسام . وأمر باقلال اللحم والفول والعدس والبازلة والفاصوليا واللوبيا الجافة والكرنب والقنبيط والشاى والقهوة والكاكاو . ومتى ترك الانسان هذه الأشياء وأكل الخبازى والاسفاناخ والكرنب والفواكه واللبن والجبن والقنبيط صحّ جسمه » وكاتانى يمنع الدهنيات والسكر والنشا والخل والمخللات واللبن والجبن مخالف هيج فى هذين والأمراق والعجينات والارز والبطاطس والحلاوى والتوابل ويكتفى بالبيض والنباتات الخضراء والفواكه مع الحركة فى الهواء الطلق.

صحيفة

١١٨ وسوبر ويسكى أمر بالفواكه أيضا والليمون والنباتات كالشكوريا والكمثرى والحماض والهندبا والخس والكرفس والجرجير والفجل

١١٩ ومثل هؤلاء كوهن فانه يمنع التوابل واللحم والأشربة المخدرة كالنبيذ والعرق والقهوة والشاى والنشوق والتبغ وهكذا الأبخرة الصاعدة من أماكنها والغبار ، وهو يقول باستعمال الحمامات الحلوسية مع ذلك الجسم بفوطة خشنة مبتلة والحمامات البخارية ، ثم ذكر ملخص لذلك

﴿ الفصل الثانى ﴾ فى ضرب مثل لأجسامنا ودمها وغذائها وأمراضها بالأرض المصرية ونيلها والغرين الذى فيها . فالجسم كالأرض والدم كالماء . والغرين فى الماء كالمواد الغذائية فى الدم . والسدود فى النيل كسدود العروق وازالتها بالحمامات أو بالبقول والفواكه الخ كازالة السدود من النيل وكثرة الأورام والأمراض بسبب انسداد العروق كهلاك الزرع بقلة الماء أوكثرته فى البلاد المصرية . والانسان بعد حفظ صحته أشبه بالأمة المصرية التى بلغت الآن (١٤) مليونا والانسان اذا لم يحافظ على صحته يكون أشبه بالأمة المصرية قبل أيام (محمد على باشا) إذ لم يكن للنيل قناطر تحفظ الماء فكان السكان نحو مليونين أوثلاثة . فأنت أيها الذكى إما أن تكون كآدم قبل الأكل من الشجرة فتتبع نصائح الأطباء واما أن تكون كآدم بعد الأكل من الشجرة فتتبع العادة ، إن سر هذه القصة ظهر الآن

١٢٢ ﴿ نصائح عامة ﴾ نصيحة الاستاذ (هندهيد) انه قال : « إن الناس يدفعون الأثمان غالية ولايشترون إلا الموت باللحم والبيض . وقال : يكفى من المادة المغذية من (٢٠) الى (٣٢) غراما بدل (٨١) فى الرأى القديم وهذه تحصل من ثلاثة أرطال من البطاطس وقد أعطى هذا المقدار لرجلين مع أشياء أخرى فغلبا فى الجرى من أكلوا اللحم ، إن الوفيات فى المدن أربعة أضعافها فى القرى لكثرة اللحوم فى المدن ، والخبز والتمر يجعلان فى البدو صلابة وقوة تدهش الاوروبيين »

﴿ نصيحة دورفيل ﴾ يقول : « إن دولة قوة المصارعين الذين يأكلون اللحم قصيرة الأمد ، والذين يمتلئون شحما بالأغذية الغنية إما أن يمرضوا بالبثور ونحوها ، واما انهم تظهر عليهم علامات الصحة والجمال . فالمريض هو القوى لأن جسمه صرف مافيه من الفضلات والذى لايمرض هو الضعيف لأن جسمه عجز عن استخراج الفضلات وهذا يموت فجأة فى عشية أوضحاها »

١٢٥ ﴿ ضرر الأغذية المركزة ﴾ لدورفيل أيضا . يقول : « إن مستخرجات اللحم والأنبذة والبرشامات وما أشبه ذلك أشبه بضربة سوط للحصان يجرى ثم يقع »

١٣٦ ﴿ ضرر السكر الصناعى وفوائد الطبيعى ﴾ السكر المعلوم مهلك فيجب الاقلال منه . نعم الصغار تظهر عليهم ملامح الصحة ولكن ذلك لايدوم فيجب أن يستغنى الناس بالفواكه عن السكر ولافرق فى الضرر بين السكر والخمر واللحم وهذه هى الأغذية الثلاث المميتة

١٣٧ نصائح الاستاذ بلز : متى تأكل وكيف تأكل ؟ يجب إطالة المضغ ونظافة الأسنان وعدم شرب ماهو حار . والأحسن أن يضطجع بعد الأكل من نصف ساعة الى ثلاثة أرباع ساعة . الفواكه والحبوب هى أجود الأغذية وأفضل الحبوب القمح ومثل الحبوب النباتات

١٤٠ نصائح دوفورست :

(١) لاتأكل بين أكلتين ولوتفاحة

(٢) لاتأكل بسرعة بل امضغ جيدا كل الطعام وأجد المضغ

(٣و٤) لاتأكل غذاء حارا ولاباردا بردا مفرطا

صحيفة

(٥) الأغذية الدسمة المقلوة مضرة

(٦) احذر الفلفل والخردل والقرفه والقرنفل وجميع التوابل لأنها تحدث النزلات والأمراض

(٧) الجبن وكل مخلل واللحم ومايستعمل نقلا من الأجسام الدسمة المركبة ، كل هذا يجب منعه

١٣١ الكلام على الفيتامين أى سر الحياة ، الفيتامين هو (ا . ب . ج . د) وهذه قد كشفوها فى الغذاء الطازج النىء على حاله الطبيعية ، وقد حبسوا بعض الحيوانات فى مكان مظلم وأعطوها أغذية مطبوخة فصارت ضعيفة جدا ، فلما رأت نور الشمس وأكلت المآكل النيئة صحت أجسامها ، ووجدوا ركاب البحار الذين يأكلون طعاما محفوظا فى العلب مرضى لأن الطعام لاحياة فيه فأطعموهم أغذية نيئة وعرضوهم للشمس فشفوا ، ووجدوا أن مرض الأسقر بوط شفى بالليمون المالح والبرتقال والخضر النيئة ولم يشف بشربات البرتقال ولابالخضر المغلى على النار ، وثبت ثبوتا لاشك فيه أن الأغذية النيئة هى المشبعة بالحياة والزيوت النيئة كذلك ، أما التى مر عليها زمن أوالتى غليت بالنارفانها لم تفد

١٣٣ الحبوب كالقمح والفول والذرة اذا استعملت نيئة كما تأكل الحيوانات أعطت قوة جيدة جدا . طبيب روسى جرب فى مكتبه (٣٠) سنة تجارب فأعلن أن الانسان يعيش (١٦٠) سنة اذا أكل النبات الذى لم يطبخ ، وههنا ذكرأن العلوم التى نقلها الناس عمن قبلهم وقلدوهم فيها أشبه بالمطبوخ من الطعام أوالمحفوظ فى العلب فان هذا فقد قوته ، فلابد من التفكر فى تلك العلوم ليستجد البحث وكما أن نارالفحم من آثار حرارة الشمس ولكنها لاتقوم مقامها فى إعطاء الطعام قوة الحياة ، هكذا آراء كبار العلماء فى الاجتهاد لاتقوم مقام الرجوع للعقل والسبر بلاتفكرعليه يؤخر الأمم فليرجع الناس للكتاب والسنة حتى يفهموا كيف استنبط الأوائل علومهم . المسموع اذا خلا من المنظور كان قاصرا على التقليد

١٣٤ بهجة العلم فى قوله تعالى ـ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ـ أيضا مع قوله ـ فالحق والحق أقول ـ الانسان له شهوات آكلات النبات وله غضب آكلات اللحوم وقصة ابليس وآدم جمعتهما ، فاذا سمعنا أن ابليس تكبر وأغوى الانسان فان ذلك ظاهر فى كبرياء الناس وحسدهم وحقدهم وهكذا فهم كالسباع والآساد ، واذاسمعنا أن آدم أكل من الشجرة فهذا هوالذى نشاهده فى الشره والطمع والبخل والحرص والادخار ، ومن هذا القبيل العادات الفطرية التى نسمعها عن أهل السودان فكلها تدلنا على حياة الناس قديما مشبهين بعض الشبه آدم وحواء فى الزمان الأول حين خرجا من الجنة ، يكرمون الضيف ولهم شجاعة عظيمة بها يقاتلون النمور والاسود و يأكلون الحيات العظيمة والفيلة ولهم فى الزواج عادات خاصة وبخورمعروف ، و يعددون الزوجات ولكن لاغيرة هناك ولاحسد وهم لايسرق بعضهم بعضا . ولاجرم أن هذه الأخلاق أكثرها شريفة قدحرمها المتعلمون فى الأمم المتحضرة وهذا المعنى فهمه المتقدمون قبل ألف سنة . فقد جاء فى كتاب «اخوان الصفاء» فى المفاخرة بين الحيوان والانسان أن زعيم الطيور سخر من الانسان وحقر شأنه من جمعه وكنزه وادخاره وجمعه الحطب وإيقاد النار وأن الطيور والحيوانات البرية تأكل من نعم الله بلاطبخ ولاعجن ولاتعب ولكن الانسان مسكين متعب شقى يجاهد هلاكه فهو فى هم بالليل والنهار فى جلب قوته ولانتيجة له إلا التخمة والجشاء وعسر البول والجرب والجدرى الخ . فالانسان فى الصحراء يقل مرضه لقلة إفراطه فى اللذات وهكذا حيوانات البر والطيور وكل حيوان عاش مع الناس حرموه غريزته فأكل وشرب بلانظام فمرض كما يمرض هذا الانسان الجاهل . يقول المؤلف : و بالجملة هذه الحكايه بها عرفنا أن

صحيفة

القدماء أدركوا سر الطعام والشراب والكشف الحديث أيد ذلك . وجميع هذا وذاك تشير له قصة آدم إذن الانسان فى المستقبل سيقتصر على النبات الذى لايطبخ ويكون أسعد صحة وأخلاقا وجمالا وعلما وتهذيبا و يقل طمعه . ومن عجب أن الانسان له بدل الفرح البكاء وبدل الأعراس المآتم وبدل الاسورة والخلاخل الأغلال والقيود والطيور وغيرها سعيدات بالرياض والأنهار والأشجار والأزهار والحرية والصحة والسعادة

١٣٩ اعترت المؤلف ثلاثة أمراض مرة واحدة فى شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ عند طبع هذه السورة فلم يستعمل دواء كما فى الطب بهذا التفسير واكتفى بالجوع وشرب الماء الدافئ مع الليمون والاستحمام بالماء الحار ثم البارد عقبه مع مقابلة الهواء والشمس فى الخلاء ، فهذه المداواة الطبيعية قتلت الأمراض الثلاثة حالا بل لم يحصل لها أثر ما . ومصداق قصة آدم أن طبيبا صحب امرأة وعاش اليوم معها فى جزيرة (شارلز دارون) بالقرب من أمريكا الجنوبية وقد تجرد من الملابس كآدم ولايتعاطى إلا الأطعمة النيئة على مقتضى الفطرة الأولى . وهنا تعجب المؤلف من هذا الانسان الذى أصبحت جميع حياته خاطئة كاذبة ، والأمم المستعمرة اليوم أشبه بوصف المسيح الدجال يظهرون الغيرة على الأمم وهم يعلمونهم البطنة والاسراف وكل شهواتنا وملاذنا تقطعنا عن السعادة فهى أشبه بالمسيح الدجال أيضا تفرحنا ظاهرا وتقتلنا باطنا ، اللهم إن الانسانية اليوم جاهلة خاطئة فى كل شئ ولايصلحها إلا حكماء تخلقهم أنت من مواطن الأنبياء بالشرق فيصلحون الشرق مع الغرب

١٤١ ﴿ نور النبوّة فى هذا الزمان ﴾ ورد فى الحديث أن المؤمنين كالجسد الواحد ، وورد اننا لن ندخل الجنة حتى نتحاب . إن انتشار الطيارات سيجعل بين المسلمين مودة و بغير المواصلات لا يمكن التفاهم بل هناك انقطاع وهذا الحديث ستظهر ثمرته التامة فى المسلمين فى مستقبل الزمان إذ تصل الطيارات بين بلادهم و يعرف بعضهم بعضا . وسيكون الناس أشبه بالطيور الواردة فى حديث « لوتوكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما رزق الطير » من حيث أكل الطعام بلاطبخ ومن حيث الطيران فى الجو ومن حيث أن كل امرئ له عمل كالطائر فأينما حل وجد رزقه ميسورا سهلا وهذا سر الفيتامين وسر إيقاف الحرب فى المستقبل الوارد فى آية - حتى تضع الحرب أوزارها - وسر أن الناس سيأتى عليهم يوم لايأخذون المال ممن يعطيهم إياه وهذا يوجب على المسلمين أولا :

١٤٢ (١) تعميم الطيران

(٢) وأن يكونوا كأعضاء الجسد الواحد

(٣) وأن يعمروا أرض الله

هذا سر حديث التوكل المتقدم . ومتى ارتقى الناس بهذه الأعمال قل إغواء إبليس فيحنث فى يمينه - فبعزتك لأغوينهم - الخ

١٤٤ تفسير سورة الزمر . هى ثلاثة أقسام : القسم الأول فى تفسير البسملة . بالرحمة قامت السموات والأرض اذا ثبت ثبوتا طبيا أن الارزليس كالبرتقال من حيث أن الأول يقل فيه القوة المحبوبة التى استمدها من الشمس والثانى تكثر فيه تلك القوة التى استمدها منها . إذن معنى هذا أن المواد على الأرض ونفس الأرض قد عجزا عن استكمال قوة الحياة من طبيعتهما . إذن الأرض وماعليها لاحياة فيهما إلا بما يستفيدن من ضوء الشمس . فاذا ثبت هذا فى الامور المادية فبالأحرى تكون الرحمات التى اتصف بها الطير وسائر الحيوان والانسان ليست من المادة لأنها عجزت عما هو أسفل وهى قوة الحياة

فاستمدتها

صحيفة

فاستمدتها من الشمس . إذن الرحمة المخبوءة فى الرجال والنساء وغيرهما من عالم أعلى كله رحمة ونعبر عنه بعالم الملائكة أوالأرواح ، فلننظر فى الطفل : إن رحمته خاصة بجسمه هو ، فكل ما حوله يعتبره

١٤٥ مسخرا له ، وكلما كبر ازداد رحمة حتى يصير أبا وزوجا وأما وملكا وحكيما ، ونعم إذ ذاك رأفته ، فمن أين أتت ؟ من عالم غير هذه الأرض ، فكل ذى رحمة اقتبس رحمته من الرحمة العامة كما اقتبس الارز والبرتقال قوتهما الحيوية من ضوء الشمس وهذا برهان قاطع . وخير الرحمات وأعلاها ما كان أشبه برحمة الأم ترضع ولدها بلا طلب جزاء فى الآخرة ولا فى الدنيا . ومتى ظهر فى الأمم أفراد على هذا المنوال فبشرها بالسيادة وهذا يؤخذ من قوله تعالى ـ إنا أخلصناهم ـ الخ وآية ـ إلا عبادك منهم المخلصين ـ فاعبد الله مخلصا ـ الخ ـ ألا لله الدين الخالص ـ قل الله أعبد مخلصا له دينى ـ وأخيرا قوله تعالى ـ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ـ . فزن نفسك أيها الذكى بهذا القانون تعرف مقدارك فى الحياة ؛ فليكن تعليم المسلمين لهذه الأحوال : إعداد العقل للفكر . والعواطف للحب . واليدين للعمل :

(١) عندكم أيها الخواص من المسلمين لوحان : السماء والأرض فيهما محو وإثبات . إذن هما

١٤٧ كألواح الصبيان . إن كل محبوب على الأرض لم يكن إلا لواحد من خمسة أسباب : الجمال العلم . الشجاعة . الاحسان . المناسبة المجهولة . ولاجرم أن هذه كلها مستمدة من عالم أعلى كما انه ثبت أن مادة الحياة من ضوء الشمس لامن نفس المادة الأرضية . إذن فليكن الحب لمسدى هذه النعم لأنه أكمل فى هذه الأوصاف

(٢) لكم درسان : خلق الحيوان وخلق الانسان

(٣) ليكن ليلكم قياما وصلاة وعلما مع حب الله ـ أمّن هو قانت ـ الخ

(٤) لتكونوا صابرين وستكون لكم حسنات ـ قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم ـ الخ

(٥) ليكن من أوصافكم التعقل والحكمة ـ الذين يستمعون القول ـ الخ

(٦) لتكونوا خلفاء الله تبشرون عباده ـ قل ياعبادى الذين أسرفوا ـ الخ

(٧) ستنالون العلم ـ قل هل يستوى الذين يعلمون ـ الخ

(٨) ستكونون فى غرف وتشرق لكم الأرض بنور ربكم وتسلم عليكم الملائكة وترون ربكم والملائكة حافين من حول العرش

١٤٨ الكلام على الاستغفار والتسبيح والتهليل والتكبير والتحميد والحوقلة ، جاء فى الحديث « التسبيح والتحميد والتكبير عند النوم مجموعها مائة مرة ثوابها عظيم والشيطان قد يلهى عنها ، وكان ﷺ يكثر من التسبيح والتحميد والاستغفار قبل موته لقوله تعالى ـ إذا جاء نصر الله والفتح ـ الخ » التسبيح وأخواه خير مما طلعت عليه الشمس

١٥٠ (القسم الثانى) السورة مكتوبة بالخط المشكل من أولها إلى قوله ـ لقوم يؤمنون ـ

١٥٢ التفسير اللفظى لهذا القسم

١٥٦ الكلام على أعظم أسباب دخول الجنات ؛ ذلك هو النظر فى نبات الأرض ومائها وحدائقها ، ذلك لأنه ذكر بعد ذكر الجنات . الكلام على المواد الغريبة التى لابد منها لصلاحية الماء للشرب وهى خمسة ويجب أن تكون له خمس صفات كالبرودة وأن يكون خفيفا الخ

١٥٨ الكلام على المياه المعدنية والمياه الحارة مثل ماء فيشى والمياه الغازية والمياه الحمضية التى تفور بتعرضها

صحيفة

للشمس والمياه الحديدية وهكذا

١٥٩ حكمة ألمانيا جاء فيها أن المؤلف يجب أن يصنع فى تأليفه ماصنعه الله فى خلقه ، ومعنى هذا أن يكون كل مافى كتابه هوالذى صنعه وتصرّف فيه . ذكر عذاب الظالمين فى الدنيا والآخرة ضرب مثل لحال المشركين

١٦٠ ذكر الصادقين والكاذبين

١٦١ ذكر النوم والموت . لطيفة فى معجزات القرآن فى هذا الزمان بمناسبة هذه الآية

١٦٣ ههنا خمس لطائف : اللطيفة الأولى فى قوله تعالى ـ يكوّر الليل على النهار ـ الخ

١٦٤ ﴿ اللطيفة الثانية ﴾ فى قوله تعالى ـ خلقكم من نفس واحدة ـ الخ وههنا (٥٠) حكمة فى جسم الانسان مثل ان أعضاءه قطع يسهل العمل بها ، ومثل المفاصل ، ومثل ان الرأس مركب من عظام ستة فى القحف وهناك (٣٢) سنا ، ومثل الأشفار والشفتين اللتين هما كالباب يغلق ويفتح حسب الأحوال وهما ستر للثة يفيد الجمال وهكذا وآخرها ان هذا الانسان لوكمل عقله عند الولادة لهلك حزنا لأنه يرى نفسه محمولا قذرا الخ

١٦٦ ﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى ـ قل هل يستوى الذين يعلمون ـ الخ وقد طلب المؤلف من المسلمين تكوين لجان للعلوم والفنون الخ وذكر عدد المؤلفين فى ألمانيا وأن هناك فى كل (٢٥٠٠) نفسا رجلا واحدا مؤلفا ، أما المسلمون فانهم نائمون

١٦٨ ﴿ نبذة فى الطب ﴾ وذكر ٣٩ مصابا بأكل الكسكسى وعليه التراب والأوساخ وهكذا البسبوسه

١٦٩ ومن الجهل الفاضح فى البلاد الذى تذمه الآية أيضا الحلوى التى تضرّ الأطفال فكلها مضرّة للصحة فلا يجوز إعطاؤها للأطفال فضلا عن غيرهم

١٦٩ ﴿ قائمة الأكل فى المستقبل ﴾ يقول الدكتور برنار الانكليزى : « سيكون الفطور محضرا من شعاع الشمس ، والغداء من الهواء ، والعشاء من ماء البحر ، وهذا كله بصنع الكيمياء ، ولكن هذا بعد أجيال كثيرة لأن افريقيا فيها أراض تكفى لملايين كثيرة غير سكان الأرض »

١٧٠ الاقتصاد وجمع الثروة وذكر مسألة البحر الميت وأن الجاهل يحقره والعالم يراه ذهبا كما تقدم فى التفسير ﴿ الفصل الثالث ﴾ فى الجامعات الاوروبية ، وبيان أن أكثر طلبة مصر مجدّون وقليل يلعبون بل يفسقون لاهمالهم . والمهم انا نعرف أن جامعات سويسرا كانت جامعات دينية فانقلبت علمية مع المحافظة على الدين . فهذه جامعة لوزان فى مدينة لوزان بسويسرا نشأت سنة ١٥٣٧ م وفيها علوم الحساب والطبيعة والصيدلة ومدرسة المهندسين والأساتذة فيها (١٢٩) وذكرت هذا للسير فى هذا الطريق لأن الدين الاسلامى أولى بهذا من دين المسيح

١٧٢ ﴿ فوائد التعليم الاجبارى ﴾ يفضل توماس جفرسون رئيس جمهورية الممالك المتحدة بقاء التعليم الأولى وتعميمه على بقاء التعليم العالى لوخير بينهما . إن وجود طبقة متعلمة وبقية الأمة جاهلة معناه أن هؤلاء يستعبدون البقية . ومن جهة أخرى العالم وسط الجهال لاقيمة له . إن هولندا والدانمارك والسويد والنرويج لما عدمت الأمّية منهم أصبحت بعض الولايات لاجنابات فيها فأولى بهذا المسلمون

١٧٣ المدرسة القروية هى محل استشارة القرية كلها

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ فى آية ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ـ والكلام على جوف الأرض وجبال البراكين والجبال التى تبتلعها الأرض والآبار الارتوازية . الماء معلق فوق رؤسنا . الآثار الجوّية المائية

صحيفة

ذوبان الجليد . رشح المياه . فعل القنوات الشعرية الأرضية . جرى المياه الى الجهة المنحطة

١٧٥ ﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ فى قوله تعالى ـ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ـ وأن الآية ليست قاصرة على اختصام الكفار والمسلمين بل تشمل المتحاربين بعد زمن النبوّة

١٧٦ ﴿ القسم الثالث ﴾ كتب مشكلا من آية ـ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ـ الى آخر السورة

١٧٧ التفسير اللفظى لهذا القسم

١٧٩ هذا القسم أربع لطائف الثالثة منها ـ وأشرقت الأرض بنور ربها ـ وذلك فى الآخرة . والحكماء يشاهدون مبادئه فى الدنيا . ألاترى كيف رأينا العدل فى عالم النبات والحيوان من حيث التغذية ورأيناه فى البرّ والبحر . فى كليهما حدائق مثل مافى المحيط الهادى من شجر المرجان وهناك جزائر مرجانية ينبت فيها الشكولاته . وهناك ١٠٠,٠٠٠ جزيرة وألف جزيرة مرجانية . ومن ذلك عدل الله فى خلق العيون وعدمها . فالسمك الذى يعيش على بعد (٢٧٥٠) قامة لاعيون له لأنه لاضوء للشمس هناك . وهناك سمك له مصباح يضىء فى قرار البحار

١٨٢ ﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ ـ وترى الملائكة حافين من حول العرش ـ وقد ذكر العرش فى السورة بعدها الخ

١٨٣ انكشاف الحقائق من أسرار القرآن فى آخر سورة ص وأوّل سورة الزمر من قوله تعالى ـ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى ـ الى قوله ـ فأنى تصرفون ـ . وههنا ورد سؤال على المؤلف وهو أن الله عظم الانسان إذ أسجد له الملائكة الأرضيين وخلق له السموات والأرض وأنزل له الأنعام ولكنه أذله أيضا بتسليط إبليس عليه وعلى ذرّيته وجعلهم فى ظلمات ثلاث . فأجاب المؤلف بأن الاجابة على هذا السؤال لاتتمّ إلا بعلم الهواء والضوء وانكساره وانتشاره ولايتم ذلك إلا بعلم الطبيعة والفلك . إن الهواء مركب من الاكسوجين والاوزوت وتنقص حرارته كلما ارتفع فاذا زاد عن (٧٠٠٠) متر صارت الحرارة (٩٠) لاتنقص وهذا علوّ الهواء وله ثقل يعادل (٥٨٥) مكعبا من النحاس وكل مكعب ضلعه كيلومتر وارتفاعه (٤٨) كيلومترا أى جزء من جهة من نصف قطر الأرض وهذا الهواء أمره عجب ! يرينا الشمس صباحا بضوء أقلّ من الضوء وقت الظهيرة بمقدار (١٣٥٠) مرة . وسبب هذا النقص أمر وهو أن الغبار الذى يتخلل جوّنا فوق رؤسنا أقلّ من الغبار الذى يتخلل الجوّ بالقرب من الأرض (١٦) مرة . فهذه (١٦) طبقة من الغبار تحجب عنا كثرة ضوء الشمس صباحا فترجعها الى واحد من (١٣٥٠) وبهذا الحجاب يسهل لنا أن ننظر شعاع الشمس . أما فى وقت الظهر فلا . وبهذه يأتى ضوء الشمس للأرض بالتدريج . وهذا الغبار يظهر لنا أن الشمس صباحا أبعد منها ظهرا والكواكب القريبة من الأفق أبعد فى الظاهر من الكواكب التى فى وسط السماء وتظهر قبة السماء كأنها منحطة . فقرب الشمس وقت السمت وقرب الكواكب هناك وقرب القبة السماوية لسبب واحد وهو قلة الحجب الغبارية فى الهواء وبعد الكواكب الأفقية للحجب الستة عشر

١٨٧ لولا الهواء لم يضئ نور الشمس إلا ما قابله وتكون الدنيا كلها ظلاما ماعدا المقابل للشمس ويكون الجوّ حالك السواد وتظهر النجوم نهارا وقت الظهر ولا يكون هناك ضوء صبح ولاضوء بعد الغروب لأن ذلك لم يحصل إلا بانتشار النور بواسطة الهواء وبانكساره والانكسار يتضح لمن يضع عودا فى الماء فانه يرى كالمكسور وماهو بمكسور وانما ضوءه انكسر . وهذا ظاهر فى (شكل ٦) فى صحيفة ١٨٨ والبيان فى حرف (ا) وحرف (ب) وهذه التجربة السهلة من علم الطبيعة هى الواضحة فى علم الفلك (شكل ٧)

صحيفة

١٨٩ إن الضوء بانتقاله من الجوّ الخالى من الهواء الى الجوّ الذى فيه الهواء ينكسر بهيئة خاصة لأنه انتقل من لطيف الى كثيف ، وهـذا الانكسار يوجب الانتشار ، ومن هذا الانتشار يكون الفجر والصبح والشفق ، ولولا ذلك لطلعت الشمس بغتـة فأهلكت كثيرا . إذن هنا غبار فى الهواء لطف الضوء . إذن هذا نظير الظلمات الثلاث المحيطات بالجنين . فاذا كان الجنين لايحتمل انكشاف جسمه للشمس مع انها نعـمة هكذا الانسان والحيوان جعـل الغبار الضارّ بأجسامهم نعمة عليهم لأنه يلطف الضوء ويجعل سيرالنور ووصوله لهم تدريجيا . فتقليل الغبار الجوّى والحجب نعمة لانقمة كما ان ظلمات الجنين نعمة عليه . وهكذا إغواء الشياطين لبنى آدم لامعنى لها إلاتأخير رقيهم . ذلك لأنهم لوأعطوا العلم دفعة واحدة لهلكت أرواحهم . فلابدّ من معوّقات جسمية بالأمراض والحروب ومعوّقات روحية تحجبهم عن العلم فيتقبلونه بالتـدريج والشوق كما يتقبلون ضوء الشمس بالتـدريج . والفضـل فى الثانى للغبار الذى هومكروه ضارّ والفضل فى الأوّل لاغواء الشياطين . هذا هوالجواب على هذه الأسئلة

١٩٣ اللطائف العامّة لأقسام السورة كلها : اللطيفة الأولى فى قوله تعالى ـ خلق السموات والأرض بالحق يكوّرالليل على النهار ويكوّرالنهارعلى الليـل ـ مع آية ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ـ وهمنا ذكر حركتى الشمس السريعة والبطيئة والدرجات (٣٦٠) والبروج (١٢) وكيف اخترعها العقل الانسانى قديمـا . ذلك انه رأى نجوما تخيلوا انها كالحمل فسميت (حملا) وهكذا البقية . ولـكل برج (٣٠) درجة وبضربها فى (١٢) يكون ذلك (٣٦٠) ولـكل برج (٣٠) يوما . وهناك (٥) أيام وربع يوم توزّع عليها . وبيان أوّل فصل الربيع اذا حلت فى رأس الحمل وقد أخذت فى الارتفاع الى الشمال فى يوم ١٧ من برمهات . فاذا قطعت الشمس الحمل والثور والجوزاء وحلت بالسرطان فى أوّل الصيف كرّت راجعة الى جهة الجنوب ويأخذ النهارفى النقص والليـل فى الزيادة . وهذا على عكس حالها حين تصـل الى آخر القوس فى الجنوب . إذن يكون ذلك أقصر يوم وأطول ليـلة فى السنة . وهناك تنتقل الى الجدى فى ١٧ من كيهك وتـكرّ راجعة فتأخذ فى الارتفاع فهذان هما الانقلابان الانقلاب الصيفى والانقلاب الشتوى . وهذان غير الاعتدالين إذ فيهما يكون النهار والليل متساويين أما فى الانقلابين فالنهار يكون أطوله ١٤ ساعة ويكون الليـل ١٠ ساعات . واذا بلغ الليـل ١٤ ساعة كان النهار ١٠ ساعات وذلك فى مصر وما ماثلها وبقية الأقطار الأخرى منتظمة بحساب غيرهذا أقلّ أوأكثر

١٩٥ بيان شهور القبط وموازنتها بشهورالسريان وشهورالروم وهذان الأخيران متوافقان . وبيان الأشهر التى هى (٣٠) يوما وهى (٤) وواحد ينقص يومين والباقى (٣١) وذكر نظم القـدماء شهور السريان وشهور الروم

١٩٦ الـكلام على المنازل وانها (٢٨) منزلة أوّلها الشرطان وآخرها بطن الحوت وأن لـكل منزلة (١٣) يوما ويبقى يوم وربع فيضاف ذلك لمنزلة الجبهة آخر السنة . وفى كل (٤) سنين يكون للجبهة (١٥) يوما

١٩٧ وهمنا بيان طلوع المنازل وقت الفجر مثل ان الشرطين فى ٢٣ برموده وفى ١٨ نيسان الذى هو شهرابريل وهكذا فتعرف المنزلة بمعرفة الشهر القبطى أوالسريانى أو الرومى

١٩٨ الـكلام على القمر والمنازل بالنسبة له وانها قسمان : جنوبية وشمالية . والمنزلة مقدار ربع سبع الدور . وما كواكب المنزلة إلا حدود فوارق بينهنّ . وهمنا تبيق لمعرفة القمر فى أى منزلة

١٩٩ الـكلام على أحوال الأهلة التى عليها مدار الشهور . ذلك ان القمر يتأخر كل ليـلة ستة أسباع ساعة

صحيفة

ولايزال يتأخر حتى يكون فى الليلة السابعة مغيبه نصف الليل وفى الرابعة عشرة طلوع الشمس وطلوعه ليلة ٢١ نصف الليل وليلة ٢٨ مع الغداة . وههنا طرق حسابية لاستخراج أول الشهر العربى

٢٠٠ ههنا آن أن نذكر نتائج انتظام الأجرام السماوية فى الأعمال الزراعية فى الأرض . فكما انتظم سير الكواكب انتظم الزرع فى الأرض . فالمزارع ونحوها مقسمات على الشهور. مثال ذلك : «شهر توت» فيه النيروز ويلقط الزيتون وتفتح أكثر الترع «بابه» فيه يطيب الرمان الخ «هاتور» فيه يزرع القمح وأكثر البقول الخ «كيهك» فيه تزرع الحلبة الخ «طوبه» فيه يكمل النرجس والقرط الخ «أمشير» فيه تغرس الأشجار الخ «برمهات» فيه تزهر الأشجار الخ «برموده» فيه تقطف أوائل عسل النحل الخ «بشنس» فيه يكثر التفاح الخ «بؤنه» فيه يكثر المشمش الخ «أبيب» فيه يكثر العنب الخ «مسرى» فيه يصنع الخل

٢٠٢ ﴿اللطيفة الثالثة﴾ فى قوله تعالى ــ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ــ وبيان أن العلم أشرف شئ والعلماء قليل فهو كالراديوم

٢٠٤ ﴿الراديوم وخواصه﴾ هو دائما يلمع كوهج النار يتقد ولا ينطفئ الخ . هذا المعدن له نظير فى الناس وهم الحكماء الذين يؤثرون فى عقول الأمم . لما ظهر الاسلام استخرج أهله الحكمة من بلاد اليونان أيام العباسيين ثم ذهبت تلك الدول وانتقل العلم الى بلاد الأندلس ثم الى أوروبا لأن أبناء العرب اكتفوا بالشعر

٢٠٨ إن قول الله سبحانه وتعالى ــ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ــ جاء العلم فيه بالفعل المضارع إشارة للتجدد وقتا بعد وقت الخ

٢٠٩ يخاطب المؤلف المسلمين قائلا لهم : «أنتم خير أمة أخرجت للناس قديما فكيف لا تستوعبون علوم الأمم لتكونوا خير أمة أخرجت للناس فى المستقبل»

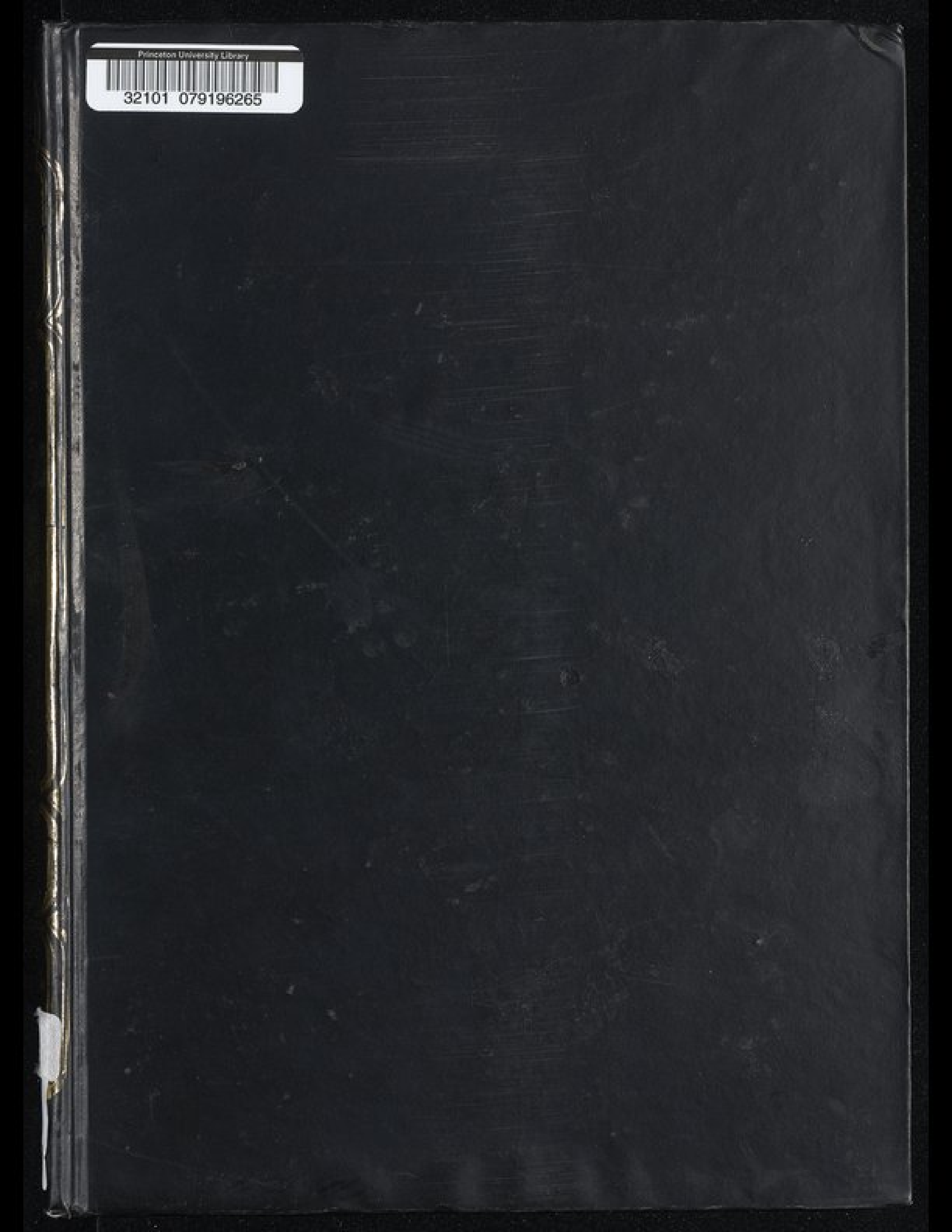
٢١٠ ﴿الفصل الثانى﴾ فيما قاله الفيلسوف «كنت» الألمانى فى كتاب التربية . الكتاب مقدمة وأربعة فصول ، وفى المقدمة اختصاص الانسان بالتربية ، ثم تربية الطفل فى المهد ، ثم تهذيبه بطريق سلبى . ثم تلقينه العلوم الخ والتهذيب يمنع عنا الأخلاق الحيوانية إذ لم نمنح غريزة لذلك . وتجب المبادرة له فى الصغر والا تعسر فى الكبر . ومن فاته التهذيب صغيرا تعسر عليه كبيرا بخلاف العلم فهو لا يفوت بالكبر

٢١١ إن صغار الحيوان لا تحتاج الى تعليم الا الطيور فهى تعلم صغارها هيئة أصواتها . والعجب أن كل طائر فى الأرض شرقا وغربا له صوت واحد يحافظ عليه (هذه العبارة فى الأصل الانجليزى وسقطت من الترجمة سهوا) . لو تعاون الأمراء مع ذوى المواهب على تعليم الانسان أو علم الانسان عالم أعلى منه لأصبح الناس اليوم فى حال أشرف من هذه . ومتى بلغ الانسان درجة التبصر وأحس بالخلل أخذ يفكر : أهذا من نقص التهذيب أم التعليم ؟

٢١٢ ضرر نقص التهذيب أشد من ضرر نقص التعليم . على كل جيل أن يخطو خطوة الى الأمام . نهاية ذلك السعادة الانسانية . ليكن لنا يقين بذلك . التعليم التقليدى ينتهى بالنقص الانسانى كالنبات الذى نبت من الجذر فى العام الثانى فزهره يكون أقل بهجة

٢١٣ الكمال مخبوء فى الانسان . التعليم اليوم صناعة فاذا ارتقى الانسان صار أشبه بالغريزة . ليس فى الأرض حكومة صالحة ولا تعليم حقيق . لابد من تضافر الأفراد على النفع العام وذلك لا يضر بمصلحة الفرد لأن المواهب تظهر بذلك القصد . الشر يأتى من اهمال الطبائع

(تمت)


Princeton University Library
32101 079196265